مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَّابِعُ والثَّلاثون

سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّد السَّابِعُ والثَّلاثون

سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 2-79-732-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 2-79-732-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّامِنَ عَشَرَ

سُورَةُ النُّورِ

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ [النّور: 39]

الأخسرون أعمالًا الذين سعيهم في الحياة الدُّنيا وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صُنعًا

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة أعمالَ المؤمنين في الدُّنيا مِنَ الذِّكْر والتّسبيح والانشغال باللّه ربِّ العالَمين؛ فلا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْر اللّه تعالى، وبيّنتِ الجزاءَ المُعَدّ لهم بأنّه أحسنُ الجزاءِ؛ جاءت هذه الآيةُ ببيان أعمالِ الكافرين التي يحسبونها قرباتٍ عند اللّه تعالى، وما هي بمُغنيةٍ عنهم شيئًا؛ لأنّها كالسّراب إذا ذهبتَ إليه لا تجدُه شيئًا، وفي ذلك الخُسرانُ المُبين.

ومنها: لَمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى فيما تقدَّم حالةَ المؤمنين، وتنويرَه قلوبَهم بنوره وهدايته في الدُّنيا، وفي الآخرة يجزيهم أحسنَ ما عملوا ويزيدُهم من فضله؛ أتبعَ ذلك ذِكْرَ المَحرومين من هذا الفضل، وبيّن أنَّ الكافر يكون في الآخرة في أشدِّ الخُسران، وفي الدُّنيا في أعظم الظُّلمات، وضَرَبَ ﷻ لِكُلِّ واحدٍ منهما مثلًا فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَسَرَابِۭ﴾: (سرب): أَصلٌ مُطَّرِدٌ، وهو يَدُلُّ على الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأَرضِ[2]، ومنه السَّرابُ الَّذي يَجْري على وجهِ الأَرض، كأَنَّه الماءُ، وهو نصفُ النَّهارِ[3]؛ وسُمّيَ السَّرابُ سَرابًا؛ لأَنَّه يَسْرُبُ

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 187، والثَّعالبي، الجواهر الحسان: 4/ 191، والفرماويّ، السَّهل المُفيد في تفسير القرآن المجيد، ص: 443.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرب).

سُروبًا؛ أيْ: يَجْري جَرْيًا، يُقالُ: سَرَبَ الماءُ يَسْرُبُ سُروبًا[1]، قال الرّاغب: "السَّرابُ: هو اللّامع في المفازة كالماء؛ وذلك لانسرابه في مرأى العين"[2]، وقد يُخَصُّ ما بَيْنَ أوَّل النَّهارِ إلى الضُّحَى باسم الآلِ ثُمَّ السَّراب، وعلى هذا قولُ أكثرِ أهلِ اللُّغةِ[3]، والعربُ يتسامحون في إطلاقِ أحدِ اللَّفظيْنِ مكانَ الآخَرِ[4]؛ وعليه فالسَّرابُ في الآية هو: الشُّعاع الَّذي يتراءى للنّاظر من بعيدٍ كأنَّه ماءٌ[5].

2) ﴿بِقِيعَةٍ﴾: (قوع): أَصلٌ يدُلُّ على تَبَسُّطٍ في مكانٍ[6]، مِنْ ذلكَ القاع: ما انبسط مِنَ الأَرْض، وفيه يكون السَّراب نصفَ النَّهار[7]، قالَ أَبو الهَيْثَم: القاعُ هو الأرضُ الحُرَّةُ الطّينِ الَّتي لا يُخالِطُها رَملٌ فيَشْرَبُ ماءَها، وهي مُستَويةٌ ليسَ فيها تَطامُنٌ ولا ارتفاعٌ، وإذا خالطَها الرَّملُ لم تَكُنْ قاعًا؛ لأَنَّها تَشْرَبُ الماءَ فلا تُمسكُه[8]، والألِفُ في الأَصلِ واوٌ[9]، والمقصود بالقيعَةِ في الآية: الأرضُ المُنبَسِطةُ، ليسَ فيها رُبًى، وهوَ وصْفٌ للسَّراب كاشِفٌ؛ لأَنَّ السَّرابَ لا يتكوَّنُ إلّا في قيعَةٍ[10].

3) ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾: (ظما): أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على ذُبولٍ وقِلَّةِ ماءٍ، مِنْ ذَلِكَ: الظَّما، غيرُ مهموزٍ: قِلَّةُ دَمِ اللّثَةِ[11]، أو ذُبولُ الشَّفَةِ مِنَ العَطَشِ، وكلُّ ذابلٍ مِنَ الحَرِّ ظَمٍ وأَظْمَى[12]، ومِنَ المهموزِ: الظَّمأُ، وهو العَطَشُ، يُقال: ظَمِئَ يَظْمَأُ فهو ظَمآنُ[13]، وقومٌ ظِماءٌ؛ أيْ: عِطاشٌ، والأنثى: ظَمأى، وظَمِئْتُ إلى لقائك؛ أيْ: اشتقت، والظِّمْءُ: ما بينَ الوِرْدَيْن، وهو حبس الإبل عنِ الماء إلى غاية الوِرْدِ[14]، والمُراد بـ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ في الآية: العطشان.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سرب).
(2) الرّاغب، المُفردات: (سرب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (سرب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 252.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 132.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوع).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوع).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قوع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوع).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 252.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظمأ).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (ظمأ).
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات: (ظمأ).
(14) الجوهريّ، الصّحاح: (ظمأ).

4) ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾: أَصْلُ (وفى): كلِمَةٌ تَدُلُّ على إكمالٍ وإتْمام، ومنه الوفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكمالُ الشَّرْطِ، ووَفَى: أَوْفَى، فهو وفيٌّ، ويقولون: أَوْفَيْتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضيتَهُ إيّاهُ وافيًا، وتوَفَّيتُ الشَّيءَ واسْتَوفَيْتُه؛ إذا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَتْرُكْ منه شيئًا، ومنه يُقالُ للمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّه[1]، وحقيقةُ التَّوْفيَةِ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ وافيًا؛ أيْ: غيرَ مَنْقوصٍ، ومعنى قوله: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾: أعطاهُ جزاءَ كُفْرِهِ وافيًا[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المَحرومون من نورِ اللهِ

في هذه الآيةِ يضرِبُ اللّه تعالى مَثَلًا لأعمالِ الكفّارِ، فيقولُ سبحانه: والذين كفَروا بربِّهم وكذَّبوا رسُلَه، أعمالُهم التي عَمِلوها ظنًّا منهم أنَّها تنفعُهم يومَ القيامةِ لا ثوابَ لها، وسيجدونها مثلَ السَّرابِ في أرضٍ مُنبَسِطةٍ خاليةٍ مِنَ البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ، يظُنُّ العَطشانُ ذلك السَّرابَ ماءً حتّى إذا جاء إلى موضِعه يلتَمِسُ الماءَ، لم يجِدِ السَّرابَ شَيئًا ممّا كان يظُنُّه؛ فيَهلِكُ، وكذلك الكافِرونَ يظُنّونَ اعتقاداتِهم وأعمالَهم تنفعُهم، فإذا جاؤوا يومَ القيامةِ وجَدوها غيرَ مَقبولةٍ عندَ اللّهِ؛ فلا ينتَفِعونَ بها، ووجدَ رَبَّه عندَه بالمِرصادِ، فوفّاه حِسابَ عَمَلِه كاملًا، واللّهُ سريعُ المحاسَبةِ لعِبادِه، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، ولا يَشغَلُه حِسابٌ عن حِسابٍ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في صدرِ الآيةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

إردافُ البِشارةِ بالنِّذارةِ على عادةِ القرآنِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ عطفَت حالَ أعمالِ الكافرين على أحوال المؤمنين، فهو عطفُ القِصّة على القِصّة ممّا ينساق إليه ما قبلَه؛ كأنَّه قيل: الذين

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 253.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 326، 327، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 282، 283، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 569.

آمنوا أعمالهم حالًا ومآلًا كما وُصِف، والذين كفروا أَعْمالُهُم التي يحسبونها تنفعهم وتأخذ بيدهم منَ العذاب، كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً[1]؛ فلمّا جرى ذِكْر أعمالِ المُتَّقين منَ المؤمنين وجزائهم؛ أعقب ذلك بضدِّه من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قُرُباتٍ عند اللّه تعالى، وما هي بمُغنيَةٍ عنهم شيئًا على عادة القرآن في إردافِ البِشارةِ بالنِّذارة[2].

بلاغةُ المقابلةِ بين المؤمنين وأعمالِهم والكافرين وأعمالِهم:

ليكونَ المؤمنُ بين ترغيبٍ وترهيبٍ، وخوفٍ ورجاءٍ

في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ تنديدٌ بالكفّار وأعمالِهم مُقابلَ التّنويهِ بالمؤمنين وأعمالهم في الآيات السّابقة جريًا على الأسلوب القرآنيّ في المُناسبات المُماثلة، وهذا من لطف اللّه وكرمه وحِكمته ورحمته؛ حيثُ جرت سُنَّتُه في كتابه ألّا يَذكرَ التّكذيبَ منَ الكافرين والمنافقين، إلّا ويَذكر التّصديقَ منَ المؤمنين، ولا يذكر الإيمانَ إلّا ويَذكر الكفرَ، ولا يَذكر الجنّةَ إلّا ويذكر النّارَ، ولا يذكر الرّحمةَ إلّا ويَذكر الغضبَ والسّخطَ؛ ليكونَ المؤمنُ راغبًا راهبًا، خائفًا راجيًا؛ فالآيةُ معطوفة على ما قبلَها عَطْفَ تعقيبٍ وتَمثيلٍ ومُقابلة[3].

سِرُّ تقديم ما يتعلّق بأحوال الآخرة مع الكافرين:

تبكيتُ الكُفّار وإبرازُ حسرتهم على أعمالهم التي قدّموها

النّاظِر في هذه الآياتِ القرآنيّةِ التي تتحدّثُ عن أحوالِ الكافرين في الآخرةِ، بَدءًا من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، يجد أنّها ضربتْ مَثَلَين للكافرين وأعمالهم؛ **أحدهما**: يتعلّق بالآخرة الوارد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ الآية، **والثّاني:** يتعلّق بأحوالهم في الدُّنيا وما هم فيه منَ الحَيْرَة والضَّلال؛ وهو

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 392.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 250، 251.
(3) دَرْوَزَة، التَّفسير الحديث: 8/ 428، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 398.

المذكور في قوله: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾ الآية؛ فقدّمت الآياتُ القرآنيّة ما يتعلّق بأحوال الكفرة في الآخرة؛ لتبكيتِهم وإبرازِ حسرتهم على أعمالهم التي قَدّموها وكانوا يحسبون أنّهم يُحسنون صنعًا، وفي ذلك من صدمة قلوبهم وعقولهم ما لا يمكن وصْفُه؛ لأنهم كانوا يرجون ثوابَها؛ فلمّا طلبوها وجدوها سرابًا؛ لأنّها لم تُبْنَ على الإيمان الصّحيح، أمّا في جانب أهل الإيمان؛ فقُدِّم ما يتعلّق بأحوالهم في الدُّنيا مِنَ أعمالِ الخيرِ، من ذِكْرٍ وتسبيحٍ وصلاةٍ، ثمّ ذُكِر بعدَ ذلك الجزاءُ في الآخرةِ على ترتيبِ الوقوعِ، فالأعمالُ أوّلًا، والجزاءُ ثانيًا.

نُكْتَةُ عَدَمِ جَعْلِ المُسْنَد إليه أعمال الكافرين:

الكُفرُ يُبطلُ كلّ الأعـمـال، ولـو كـان في ظاهرها الصّلاحُ

جَعَلَ النَّظمُ الكريمُ المُسنَدَ إليه ما يدلُّ على ذواتِ الكافرين، ثُمَّ بنى عليه مُسنَدًا إليه آخَر وهو ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، ولم يجعلِ المُسنَد إليه أعمالَ الذين كفروا من أوَّلِ وهلةٍ لما في الافتتاحِ بذِكْر ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من التَّشويق إلى معرفة ما سيُذْكَر من شؤونهم؛ ليَتَقرَّر في النَّفسِ كمالَ التَّقرُّر، وليَظْهَر أنَّ للذين كفروا حظًّا في التَّمثيل بحيث لا يكون المُشَبَّه أعمالَهم خاصَّة[1]، فكان نظمُ الكلام يقتضي أن يُقال: (وَأَعْمالُ الَّذينَ كَفَروا كَسَراب بِقيعَةٍ)، ولو قيل ذلك لكان بليغًا، لما فيه منَ الإيجاز، ولكن تعبير القرآنِ أبلغُ؛ لأنَّ الحُكم على هذه الأعمال بأنَّها باطلةٌ فاسدةٌ ليس لكونها كذلك في ذاتها؛ ولكن لكونها أعمالَ أولئك الذين كفروا، فلا شيءَ يُبطلُ العملَ ويجعلُه فاسدًا عديمَ النَّفع مثلُ الكفر، ولا شيءَ يُبقي عليه، ويجعلُه مُثمِرًا نافعًا مثلُ الإيمان، وهذا المعنى ظاهرٌ في كثيرٍ مِنَ الآيات القرآنيّة.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 180، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 250، 251.

إيثارُ التَّعبيرِ بالكُفر دونَ الظُّلم أو الفِسْقِ:

دلالةُ لفظِ الكُفْرِ على سَتْرِ النّورِ الإلَهي

آثَرَ النَّظْمُ الكريمُ وصفَ هذا الفريق بالكُفر دون الفِسْقِ أو الظُّلم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾؛ لما سبق من ذِكْر النّور الدّالّ على هُدى اللّه في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النور: 35]، ثُمَّ ذَكَرَ مَنِ اهتدى بهذا النّور من عباد اللّه الصّالحين؛ فناسبَ في مُقابل ذلك ذِكْرُ الكفر الدّالّ على مَن سَتروا ما انتشر من نور اللّه بما لزموه منَ الضَّلال[1].

غَرَضُ التّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

الإشارةُ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ

في الإتيانِ بالموصولِ وصلتِه في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إشارةٌ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ، وهو أنَّه من جزاءِ كُفرهم باللّه، على أنَّه قد يكون عنوانُ الذين كفروا قد غلبَ على المشركين من أهلِ مَكَّة؛ فيكون افتتاحُ الكلامِ بهذا الوصفِ إشارةً إلى أنَّه إبطالٌ لِشيءٍ اعتقدَه الذين كفروا[2]، وهو أنّهم يفعلون أعمالَ خيرٍ؛ من سُقيا الحجيج، وإطعام المساكين، ونحو ذلك منَ الأعمال التي يظنّونها من أعمالِ الخيرِ؛ فجاءَ التّعبيرُ باسم الموصول وصلته لإبطال هذا الاعتقاد.

بلاغة التّشبيه التّمثيليّ في الآية:

بُطلانُ توهُّمِ الكافرين نَفْعَ أعمالِهم، مع شِدَّة الحاجةِ إليها

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ حيثُ شَبَّهَ تعالى أعمالَهم في اضمحلالها وفقدانِ ثمرتِها حينما يكونون في أشدّ الحاجةِ إلى ذلك النّفعِ، بحالةِ ظمآنٍ يَرى السَّرابَ في مكانٍ منخفضٍ فظنَّهُ ماءً، فقصدَه وأتعبَ نفسَه في الوصول إليه، حتّى إذا جاء موضِعَه الذي تخيّلَه فيه لم يجده شيئًا؛ أيْ: فقدَه؛ لأنّه مَعَ الدُّنوّ لا يرى شيئًا، فتتضاعَفُ لذلك حَسْرَتُه، ويَشتد يَأسُه وقنوطُه، وتغلي مراجلُ غيظِه وظَمَئِه،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 283.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 250، 251.

وليس هذا وحسب؛ بل إنّه يجدُ نفسَه فجأةً أمامَ هولٍ رهيبٍ يُمسِكُ بتلابيبه، ويقوده إلى المحاسبةِ على ما سلفَ من أعمالِه السَّيِّئة، ووجهُ الشّبهِ بينهما؛ اجتماعُهما في بُطلان المُتوَهّم من نفعهم منَ الأعمال التي قدّموها في الدّنيا؛ لأنّ الكافر الجاهل الذي لا يَدري الأمورَ، يظنُّ أنّ أعمالَه نافعةٌ فتَغَرّهُ صورتُها، مع أنّه مُحتاجٌ إليها كاحتياجِ الظّمآنِ للماءِ، حتّى إذ قَدِمَ على أعمالِه يومَ الجزاءِ، وجدَها ضائعةً ولم يجدها شيئًا، فلا يجد لها أثرًا من ثوابٍ أو تخفيفِ عذابٍ، والحالُ أنّه لم يذهب لا لَهُ ولا عليه؛ بل وجَدَ اَللّه عِنْدَهُ فوَفّاهُ حِسابَهُ.

غرض التّشبيه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾:

إخراجٌ لما لا تقعُ عليه الحاسَّةُ إلى ما تقع عليه

لهذا التّشبيهِ القرآنيِّ الواردِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ غرضٌ بليغٌ مَفادُه تقريرُ حالةِ المُشَبّه به في ذِهْن السّامع، وهو إخراجٌ لما لا تقع عليه الحاسَّةُ إلى ما تقع عليه، وهو من تشبيه المعنى بالصّورة، وهو مِن أبلغ صور التّشبيه لتمثيله المعاني الموهومة بالصّور المُشاهَدة[1]، ويوضِّح هذا المعنى ابنُ عاشور بقوله: "والحالةُ المُشبَّهةُ مُركَّبةٌ مِن مَحسوسٍ ومَعقولٍ، والحالةُ المُشبَّهُ بها حالةٌ مَحسوسةٌ؛ أيْ: داخلةٌ تحتَ إدراكِ الحواسِّ"[2]، وبيانُ ذلك: أنّه أخرج ما لا تقع عليه الحاسّةُ إلى ما تقع عليه، كما سبق ذكره في إجراء التّشبيه التّمثيليّ.

وجهُ تشبيهِ أعمال الكفّار بالسَّرابِ دونَ غيرِه:

الكافرُ يتعلّق بالظُّنون والأوهام إلى أن يُدركَه الخُسران

شُبِّهت أعمالُ الكفّار بالسّراب دونَ غيره في قوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ لوجهيْن؛ **أحدهما**: أنَّهم قد عملوا في الظّاهر أعمالًا طمعوا أن يصلوا إليها في الآخرة، وينتفعوا بها من نحو الصَّدقات

(1) ابن الأثير، المَثَل السّائر: 2/ 130.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 180، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 250، 251.

والنَّفقات وصِلَة الأرحام، ونحو ذلك ممّا هي في الظّاهر أعمالُ خيرٍ، فإذا هم قد حُرموا أجرَها ولم يجدوا شيئًا كالذي يرى السَّراب من بعيدٍ يحسبه ماءً فيسير إليه، فإذا هو لا شيء؛ فعلى ذلك عمل الكفّارُ تلك الأعمال على طمعٍ منهم أنَّهم ينتفعون بها؛ لكنّهم كالظّمآن الذي يرى السَّرابَ فيحسبه ماء، فإذا هو سرابٌ(1)، **والثّاني:** لمّا عبدوا الأصنام والأوثان رجاءَ أن ينتفعوا بشفاعتهم في الآخرة؛ كقولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3]، وقولِهم: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18]، وكانت عبادتهم لما ذكروا من شفاعتِهم عند اللّه ثمّ لم ينتفعوا، فصاروا كالعطشان الذي يرى السَّرابَ يحسب أنَّه ماء؛ فإذا جاءه وجده سرابًا؛ ولم يجده ماءً كما حسبه، إلى تمام المَثَل(2)، وفي هذا دليلٌ على خيبة أملهم في الآخرة وضياعِ ما كانوا يرجون منه المنفعةَ في وقت الشِّدَّة التي يبحثون فيها عنِ النّجاة.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿كَسَرَابِۭ﴾:

الإشارةُ إلى كونِ السَّرابِ ضئيلًا تافهًا، ومع ذلك تتعلّقُ به نفسُ الظّمآنِ بالأملِ

مجيءُ لفظ ﴿كَسَرَابِۭ﴾ بالتَّنكير يُنبئَ عن سرابٍ ضئيلٍ تافهٍ بخلاف ما لو جيء به مُعرَّفًا، ووراءَ ذلك ما وراءه من تَعَلُّق نفسِ الظَّمآن بالأمل، ولو كان ضعيفًا تافهًا، ويدلُّ أيضًا على شِدّة خيبة الكافرين؛ لشِدّة لهفتِهم على تمسُّكهم بهذا السّرابِ كطَوْق نجاةٍ.

نُكْتَةُ تنكير ﴿بِقِيعَةٖ﴾:

لتعدُّد السَّرابِ وتنقُّلِه بينَ بقاعٍ شتَّى

نُكِّر لفظ ﴿بِقِيعَةٖ﴾ لكون السَّراب مُنتقلًا مُتعددًا، فليس سَرابًا واحدًا في بقعة معيَّنة؛ بل هو منتقل في بقاع شتَّى(3)؛ لأنّ القاع ما انبسط منَ الأرض؛ فهي أرضٌ سهلةٌ مستويةٌ، لا ارتفاعَ فيها ولا انهباط، وكلُّ موضعٍ فيها يجوز أن يُطْلَق عليه قاعٌ.

(1) السَّمعانيّ، تفسير السَّمعانيّ: 3/ 98.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 575.
(3) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 3/ 575.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِقِيعَةٍ﴾:

لمّا كان السَّراب هو ما تَرَقرَق منَ الهواء في الهجير في فيافي الأرض المُنبسطة؛ وكأنَّه ملتصقٌ بها؛ جيءَ بالباء الدّالّة على الإلصاق في قوله تعالى: ﴿بِقِيعَةٍ﴾؛ للتَّعبير عن هذا المعنى، ولو قيل: (كسرابٍ في قيعةٍ) لدَلَّ ذلك على أنَّ القيعة كالظَّرف للسَّراب، وأنَّ السَّراب داخلُ القيعةِ وهو ليس كذلك؛ لأنّ (في) الظّرفيّة تُفيد معنى الحفظِ للمظروف، وهذا غيرُ مُرادٍ، ولهذا اشتُرِطَ في السَّراب أن يكون مُلتصقًا بالأرض[1].

للدّلالة على معنى الإلصاق

سِرُّ وصفِ السّرابِ بأنّه ﴿بِقِيعَةٍ﴾:

القيعةُ جمع (قاع)؛ وهو أرضٌ سهلةٌ مُطمئنَّة ملساءُ مستويةٌ يخْفق فيها السّراب[2]، وقال الأزهريُّ: "والقاع ما انبسط منَ الأرض واتَّسع، وفيه يكون السَّراب"[3]، والجارُّ والمجرور ﴿بِقِيعَةٍ﴾ وصفٌ كاشفٌ لـ (سراب)؛ لأنّ السَّراب لا يتكوّن إلّا في قيعة، وهذا كقولهم في المثل للذَّليل: "هو فقْعٌ في قَرقَر"، فإنَّ الفَقْعَ لا ينبت إلّا في قُرقُر[4].

بيانُ الوصفِ الكاشفِ لموضعِ السَّرابِ الذي لا يكون إلّا فيه

وفي وصف أعمالهم بالسّراب إشارةٌ إلى ذَمّ أعمال الكافرين مهما كان ظاهرها الخير؛ لأنّ القاع يُطلَق على المكان المنخفض في الأرض، وفي هذا إشارةٌ إلى خفض أعمالهم، وأنّها لا ترتفع إلى درجة أعمال المؤمنين؛ لأنّها كالسّراب في الأرض المنخفضة، فلا وزنَ لها.

سِرُّ اصطفاءِ لفظِ الحِسْبان والتَّعبير بفعله مُضارعًا:

اصطفى القرآن الكريم التَّعبير بالحِسْبان في قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ دون الفعل (يظن)؛ لوجود فرق بينهما؛

لهفة الظّمآن وحرارة شوقه إلى الماء المتجدّدة والمستمرة تُغطّي على عقله

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 254، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 326.
(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (عقي)، والزّبيديّ، تاج العروس: (قوع).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوع).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 252.

فالحِسْبانُ هو أن يحكم الحاسِبُ لأحد النَّقيضيْن من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسِبه ويعقد عليه الأصبع، ويكون بعَرَض أن يعتريه فيه شك، أمّا الظنُّ فهو أن يخطر النَّقيضان ببال الظّانِّ، فيُغلِّب أحدهما على الآخر تغليبًا لا يصل إلى اليقين؛ ولذلك كان التَّعبير بالحِسْبان هو المناسب لهذا السّياق؛ لأنَّ الظَّمآن عندما رأى السَّراب حَسِبَه ماءً، ولم يخطر بباله أبدًا أنَّه نقيض الماء، فعقد عليه العزم، وراح يلهث وراءه(1).

وفي التّعبير به إشارةٌ إلى خداع النَّفس بعد خداعِ البصر بهذا السَّراب؛ فإنَّ لهفة الظَّمآن، وحرارة شوقه إلى الماء تغطي على عقله، فيحسب السَّراب ماء، مثله في ذلك مثل الخائف المذعور في سواد اللَّيل ووحشته، يُمثِّل له الوهم أشباحًا تطلع عليه من كلِّ أفقٍ، تُريد الانقضاض عليه والفتك به، ولهذا اختار سُبحانه للتَّعبير عن هذا المعنى ﴿يَحۡسَبُهُ﴾ دون (يظنُّه)، وجيء به على صيغة المضارع؛ ليُفيد معنى التَّجدُّد والاستمرار.

تخصيص الحِسْبان بالظَّمآن:

الظَّمآن أشدُّ حِرْصًا على طلب الماء

جاء التّعبير القرآنيُّ بتخصيص الحِسْبان بالظّمآن في قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ دون الرّائي؛ لأنّ الظّمآن وصفٌ لشَّديد العطش(2) هو أكثر إلحاحًا على طلب الماء؛ لذلك كان تخصيص الحِسْبان بالظّمآن مع شموله لكلِّ مَن يراه كائنًا مَنْ كان من العطشان والرَّيان؛ لتكميل التَّشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشَّبه الذي هو المطلع المطمع، والمقطع الموئِس(3)، ولو قيل يحسبه الرّائي ماء ثُمَّ يظهر أنّه على خلاف ما قَدَّر لكان بليغًا، وأبلغ

(1) ابن سيدَه، المُخصَّص: 4/ 174، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 400، والجمل، حاشية الجمل على الجلالَيْن: 5/ 301.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 284.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 109، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 181.

منه لفظ القرآن؛ لأنَّ الظمآن أشدُّ حِرْصًا على الماء من الرّائي، وقلبُه أكثرُ تعلُّقًا به منه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المُبالغةِ في ﴿ٱلظَّمۡـَٔانُ﴾ دون الظّامِئ:

الـدّلالـةُ على اللهفةِ والتَّحرُّقِ وشِدَّةِ الحاجةِ

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿ٱلظَّمۡـَٔانُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ دون الظّامئ؛ لما ينطوي عليه هذا اللّفظ من معنى المُبالغة، ولأنّه يوحي بمعنى اللهفة والتّحرُّق وشِدَّة الحاجة، ثُمَّ شِدَّة الإعياء والخيبة، وهذه الصّيغة تُكْسِبُ الصّورةَ ثراءً وخصوبةً، ويُعطيها بُعْدًا وعُمقًا، يجعلها أقدرَ في التَّعبير والإيحاء على الحالة العجيبة الحاصلة لَمَن هذا حالُه[2]؛ بِخِلاف صيغة اسم الفاعل (الظّامِئ).

بلاغةُ الاستعارة:

تـشبـيـهُ خيبةِ الـكـافـرِ عند الـحـسـابِ، بخيبةِ الظّمآن عـنـد مجيئِه السَّرابَ

تظهر بلاغةُ الاستعارةِ في تشبيه تعلُّق الظّامِئ بالسَّراب، وظَنَّه أنّه طوقُ نجاةٍ؛ لأنّ الماء سبيلُ الحياة منَ الموت، وهذا ما يُفيده قوله: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾؛ فهو أحدُ أركان التَّمثيل، وهو مُشابهُ الكافرِ صاحبِ العملِ؛ وقد ضُرِب ذلك مثلًا لقُرب زمنِ إفضاءِ الكافر إلى عمله وقتَ موتِه حين يرى مقعدَه، أو في وقت الحشر، وقولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ من تمام التّمثيل؛ أيْ: لم يجد الماءَ، ووجدَ في مَظِنّة الماء الذي يَنتفع به مَن إنْ أَخَذَ بناصيته لم يُفلِتْهُ[3]، فأعمالُ الكافرين شبيهةٌ بالسَّراب في أنّ لها صورةَ الماءِ وليست بماء، والكافر يُشبِهُ الظّمآن في الاحتياج إلى الانتفاع بعمله، ففي قوله: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ، وخيبةُ الكافرِ عند الحساب تُشْبِهُ خيبةَ الظّمآن عند مجيئِه السّراب؛ ففيه استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ[4].

(1) الرُّمّانيّ، النُّكت في إعجاز القرآن، ص: 82.
(2) عتيق، علم البديع، ص: 93.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 253.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 254.

بلاغةُ الحذفِ في التَّمثيلِ:

الإيجازُ ومُراعاةُ المقامِ

في الجملةِ الكريمةِ: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ مُقَدَّرٌ محذوفٌ مفهومٌ مِنَ السّياق، تقديرُه: فيقصِدُه ليُزيلَ ظمأَه، ولا يزالُ سائرًا حتَّى إذا جاءَه لم يجده شيئًا(1)، وهذا إيجازٌ واقتضابٌ لوضوح المعنى المُراد به، ولأنَّ مقامَ التَّمثيل يحتاج إلى الاختصار في العبارة.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وأثرُه في المَثَل:

الدّلالةُ على الغايةِ المُشيرة إلى أوّلِ موضعٍ لتخيُّلِ الماءِ

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ على أنّ الظّمآنَ قطعَ مسافاتٍ طويلةً باحثًا عنِ الماء، وفي هذا تصويرٌ للعناءِ الذي يُلاقيه في بحثِه عنِ الماء؛ فكلّما اقترب منَ الموضع الذي تخيَّل أنَّه إن وصل إليه يجد ماءً ويحسبه قريبًا لِما في استواء الأرض من خِداع قُربِ المسافة، وكلّما ظَنّ الاقترابَ وجدَ السّرابَ لا يزال يلوحُ له على بُعْدٍ كُلَّما تقدَّم السّائرُ في سيره، فالغايةُ مشيرةٌ إلى أوّل موضعِ التَّخيُّل؛ لأنّ المَثَل مضروبٌ لقُرب زمنِ إفضاءِ الكافر إلى عمله وقتَ موتِه حين يرى مقعدَه، أو في وقت الحشر(2)، من عدم وجدان عملِه عينًا ولا أثرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: 23].

سِرُّ التّعبيرِ بالماءِ ودلالةُ التّنكيرِ فيه:

تعلّقُ أملِ الظّمآن بالماء في الصّحراء للنّجاة منَ الهلاك، وإن كان ذلك الأملُ قليلًا

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالماءِ في قولِه تعالى: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾؛ لأنّ الماءَ سينُجيه منَ الموتِ؛ حيثُ إنّه يمشي في صحراءَ لا زرع فيها ولا ماء، فيخشى الهلاك؛ فيتعلّق أملُه بالماء، وإن كان ذلك الأملُ قليلًا؛ دلَّ على ذلك تنكير لفظ الماء، ومع ذلك الأملِ القليل يسيرُ الظّامئُ ويسير؛ أملًا في الوصول إلى الماء.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 285، والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 674.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 253.

سِرّ التّعبيرِ بالمَجيء دونَ الإتيان:

لـلـدّلالـةِ على الـصّـعـوبـةِ والمخاطِرِ التي تـعـترضُـهُ في رحلتِهِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالمَجيءِ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ دونَ الإتيان؛ لما يحمله المَجيءُ من صعوبةٍ تُميِّزُه عنِ الإتيان، وهذا ما يتناسب مع هذا السّياق؛ حيثُ إنّه يصوّر رحلةَ الظّامِئ في سفره بحثًا عنِ الماء، وما يحمله هذا السّفر من خطورةٍ ومهالك قد تُؤدّي به إلى الموت الذي يخشاه.

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾:

محاولةُ تكرارِ الظّمآنِ البحثَ عنِ الماء مَرّةً بعد مَرّةٍ دونَ وصولِهِ إلى بارقةِ أملٍ

دلّ التّعبير بالمضارع المَنفيّ في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾ على محاولة تكرار الظّمآنِ البحثَ عنِ الماء مَرّةً بعد مَرّةٍ، دونَ وصولِه إلى بارقةِ أملٍ، وفي هذا تصويرٌ لعدم استكانته؛ بل بَذْلِ كلِّ جَهْده للوصول إلى الماء، ولكنّ خيبة الأملِ سارعت في وجهه؛ لترسمَ له النّهاية المُؤلمة؛ بأنّه لن يجد ما يرويه، وممّا يُؤكّد ذلك أنّ النّفي جاء بـ ﴿لَمۡ﴾ التي تحوّل المضارع إلى ماضي، وفي هذا دليلٌ على عدم وجود الماء أصلًا حتّى يبحث عنه؛ بخلاف التّعبير بحرف آخر من حروف النّفي، فقد يُفْهَم منه أنّه كان موجودًا ثمّ ذهب، وهذا غيرُ مُراد.

دلالة ذِكْر الهاءِ في قولِهِ: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾:

نـــــصٌّ عـلى الأمـلِ المنشودِ المعدومِ، وتهيئةُ الكلامِ لما بعدَه

جيءَ بالهاء في قوله: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾، وكان يمكن أن يُقال: (لم يجد شيئًا)؛ ولكنَّ ذِكْرَ الهاءِ نصٌّ على الأمل المنشود وصَيّرِه عدمًا، وفي ذلك إبرازٌ للمَغْزى وخيبةِ الأمل، وشيءٌ آخر في ذِكْر هذه الهاء، وهو تهيئة الكلام لما بعدَه؛ لأنَّه لو قيل: (حتَّى إذا جاءه لم يجد شيئًا)؛ لكان ذلك مُتناقضًا مع قوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾.

دلالةُ النَّفيِ بعد الإثباتِ في ضَرْبِ المَثَل:

كـونُ الـسَّـرابِ شيئًا يُـرى مِن بـعـيـدٍ وإنْ لم يكنْ له جِرْمٌ في الواقعِ

النّاظرُ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ يجدُ إثباتًا في قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ فهو يدُلُّ على كونِه شيئًا، ونفيًا في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾، وظاهرُ ذلك قد يُفهَمُ منه التَّعارضُ؟

والجواب على ذلك مِن وجوهٍ ثلاثةٍ؛ **الأوّل**: أنَّ المُراد معناه: أنَّه لم يَجِدْه شيئًا نافعًا، كما يُقالُ: (فلانٌ ما عمِل شيئًا)، وإن كان قد اجتَهد، **الثّاني**: أنَّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾؛ أيْ: جاء موضعَ السَّرابِ، لم يَجِدِ السَّرابَ شيئًا؛ فاكتفَى بذِكْرِ السَّرابِ عن ذِكْرِ موضعِه، **الثّالث**: الكنايةُ للسَّرابِ؛ لأنَّ السَّرابَ يُرى مِن بعيدٍ بسببِ الكثافةِ كأنَّه ضبابٌ وهباءٌ، وإذا قرُب منه رَقَّ وانتثر، وصار كالهواءِ؛ فالمُراد: جاء الشَّيءَ الذي تخيَّلَ أنَّه ماءٌ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ عنِ الماءِ بالشَّيءِ:

بيانُ كونِه عدمًا مَحضًا

كان يمكنُ أن يُقال: (لم يجده ماء)؛ ولكنّه تعالى قال: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾، فلفظُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ جعلَه عدَمًا محضًا؛ أيْ: ما كان يُخيّل إلى عينه أنَّه ماءٌ لم يجده شيئًا، والشَّيء: هو الموجود وجودًا معلومًا للنّاس[2].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

إفادةُ التَّعميمِ والشُّمولِ لمُطلق الماءِ قليله وكثيرِه، مع إفادةِ التَّهويلِ لجزائِهِ

قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾؛ أيْ: منَ الأشياء، فلم يُفِدْهُ قَصْدُه غيرَ زيادةِ العطش بزيادةِ التَّعبِ، وبُعدِه عن مواطنِ الرَّجاءِ، فيَشتدّ بأسُه، وتنقطع حيلُه فيهلِكُ[3]، فقد كان يَظُنُّه ماءً فُراتًا يَرويه إذا شَربه[4]، فوجَدَ المُفاجأةَ المُذهلةَ التي لم تخطرْ له ببالٍ، المُرعبةَ التي تقطعُ الأوصالَ وتورثُ الخَبالَ[5]؛ حيثُ لم يجد قليلَ الماءِ ولا كثيرَه؛ بل لم يجد شيئًا ممّا يروي ظمأه، ولو كان من قطرات النّدى التي توجَد على أوراق الشّجر.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 327، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 399، والشّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب، ص: 169.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 253.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 284.
(4) عبد الكريم مدرس، مواهب الرَّحمن، ص: 63.
(5) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 18/ 3624.

فائدة الشَّرطِ وجوابِه في الجملةِ الشَّرطيَّةِ، وموقعهما منَ التَّمثيلِ السّابقِ:

بيانُ الخُسران المُبين في ربطِ العدمِ المَحضِ بالسّعي الدّؤوبِ

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ يعني: حتَّى إذا جاء الظّمآنُ ما حَسِبَه ماءً - وهو السَّراب - وعلَّق به رجاءَه؛ لم يجده شيئًا أصلًا، لا مُحقَّقًا ولا مُتوهَّمًا كما كان يراه قبلَ المَجيء، وهي جملةٌ شرطيَّةٌ مُؤلَّفة من عبارتَيْن؛ الأولى شرطيَّةٌ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾، والثّانية جوابيَّة: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾، أمّا العبارة الشَّرطيَّة فقد أشارت بدخول ﴿حَتَّىٰٓ﴾ على ﴿إِذَا﴾ إلى نهاية رحلةٍ شاقَّةٍ ومُعاناةٍ طويلةٍ أجهدَه فيها الظَّمأُ، وحَفَّزه إليها الأملُ، وأفادت باستعمال ﴿إِذَا﴾ أنَّ الشَّرط قد تحقَّق في نهاية هذه الرِّحلة[1]، وأمّا العبارةُ الجوابيَّةُ فقد جيء بها بلفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مفعولاً به ثانيًا لقوله: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾؛ ليُفيد معنى العدم، فرُبطَ هذا العَدَمُ المَحضُ بذلك السَّعي الدّؤوب في هذه الجُملة الشَّرطيَّة؛ بيانًا وتوضيحًا لذلك الخُسران المُبين الذي لا ربحَ بعدَه، وصدق اللّه سبحانه إذ يقول: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 103 - 104].

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾:

دخولُ الجملةِ في التَّشبيهِ السّابقِ المَذكورِ تكملةً له

الواو في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ عطفتْ هذه الجملة على قوله: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾، فهي داخلة في التَّشبيه؛ لأنَّه من تَتِمَّة أحوالِ المُشَبَّه به، وهو أبلغ؛ لأنَّ خيبة الكافر أدخل وأعرق؛ أيْ: ووجدَ اللّه تعالى مُحاسبًا إيّاه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة ﴿عِندَهُۥ﴾:

زيادةُ التَّهويلِ للجزاء، وتقريرُ حُكمه

قوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ﴾؛ أيْ: عند هذا السَّراب؛ لأنَّه وصل إلى الموت فوَجَدَ اللّه له بِالمِرْصادِ؛ فقَدِمَ على اللّه بحضور أجله، هذا المُراد

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 372.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 372، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 394.

بالعنديَّة، وليس أنَّ الله تعالى في نفس المكان؛ فالمعنى: أنَّه حضر أجلُه فوفّاه حسابَه، والعنديَّة بمعنى الحِساب؛ لذِكْر التَّوفيَةِ بعدُ بقوله سبحانه: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾، وفي التَّعبير بذلك زيادةُ تهويلٍ[1].

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾:

التَّعقيبُ بالتَّوفيةِ في سُرعةٍ عاجلةٍ تتناسبُ مع البَغْتة والمُفاجأة

ذُكِرت تَوفيَةُ الحسابِ بالفاء المُفيدةِ لكونه عقيبَ المَجيء المَذكور[2]، فهو بعد أن تَعِبَ في العمل لم يجد له جزاءً إلّا العذاب بمنزلة مَن ورد الماءَ للسّقي فوجد مَن له عنده تِرَةٌ فأخذه[3]، فتكون التَّوفيَةُ هكذا في سُرعة عاجلةٍ تتناسق مع البَغْتَة والمُفاجأة[4].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تكملةُ الجزاء لهم دفعًا لتوهُّم أنَّ قُصارى أمرِهم هو الخيبةُ والقُنوطُ فحسب

قوله تعالى: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾؛ أيْ: أعطاه جزاءَ كُفرِه وافيًا؛ فدلَّ الفعل ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ على أنَّه لا تخفيفَ فيه[5]، كما أنّ في ذِكْر التَّوفيَةِ بيانًا لبقيَّةِ أحوالِهم العارضةِ لهم بعدَ ذلك بطريقِ التَّكملة؛ لئَلّا يُتوهَّمَ أنَّ قُصارى أمرِهم هو الخَيبةُ والقُنوطُ فحسب، كما هو شأْنُ الظَّمآنِ[6]، وفيه إشارةٌ إلى دفعِ تَوَهّمِ وجودِ النّقصِ في المحاسبة مع سُرعة الحساب؛ يُؤكّد ذلك التّضعيفُ المَذْكورُ في قوله: ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ الّذي يدلُّ على كمال التّوفيَة.

دلالةُ إفرادِ الضَّمائرِ في الجُملة الكريمة:

إرادة الجنسِ مع الحَملِ على كلِّ واحدٍ منهم

إفرادُ الضَّميريْن ﴿وَوَجَدَ﴾، ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ الرّاجعَيْن إلى الَّذين كَفروا؛ إمّا لإرادةِ الجنْسِ؛ كالضَّمانِ الواقعِ في التَّمثيلِ؛ وإمّا للحَملِ على كلِّ واحدٍ منهم، وكذا إفرادُ ما يَرجِعُ إلى أعمالِهم[7].

---

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 6/ 52، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 372، وابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 275.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 397.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 253.

(4) شحاته، تفسير القرآن الكريم: 18/ 3624.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 253.

(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 181.

(7) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 52، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 181.

بلاغةُ التّعبير بقوله: ﴿حِسَابَهُۥ﴾:

كمالُ عدلِ اللهِ في معاملة خَلْقه

يُبْرِز هذا التّعبير ﴿حِسَابَهُۥ﴾ دونَ (عقابَه) أو (عذابَه) كمالَ الإنصاف؛ فلم يُعَذِّبه إلّا بعد المحاسبة، وهذا دليلٌ على عدالته سبحانَه في معاملة خَلْقه؛ بخلاف التّعبير بالعذاب أو العقاب؛ فقد يُفْهَم منه أنّه تَمّ بغير محاسبة، وهذا غيرُ مُرادٍ؛ لأنّ اللّه مِن صفاته أنّه العَدْل.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ (الله):

التَّعظيمُ وتربيةُ المهابةِ

ذُكِرَ الاسمُ الجليل في مقام الوعيد في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ لما فيه من التَّعظيم وتربيةِ المَهابة ومن تهويلٍ لحالِ الحسابِ لهؤلاءِ الكفّارِ عند اللّهِ وما ظَنُّكَ بمَن عاداهُ اللّه!

سِرُّ التّعبير بـ (السُّرعة)، ودلالةُ تقديم ذِكْرِها:

الإشـــارةُ إلى السُّرعة الزَّمنيَّة والعـمـليَّـة في المُجازاة

وصفَ اللّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسَه بأنّه ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾، فلا يَشْغَلُهُ حسابٌ عن حساب يُتِمُّه في أسرع ما يكون منَ الزَّمان، فيوفّي الجزاءَ بحسبه، والمُراد بالسُّرعة بالآية: هو قُرب وقتِ المُجازاة، فتكون السُّرعةُ زمنيَّةً، ويُحتمَل أن يكون المُرادُ بالسُّرعة - أيضًا - إنجازَ الحسابِ، فتكونَ السُّرعةُ عمليَّةً؛ والمعنى: أنَّه تعالى في مُحاسبته لهم سريعٌ، فحِسابُه للعِباد قريبٌ حتَّى وإن طالت الدُّنيا بالإنسان كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النّساء: 77]، وكذلك عندما يُحاسِبُ اللّهُ الخلائقَ يومَ القيامة فإنَّه يُحاسبُهم قَدرَ نصفِ نهارٍ من أيام الدُّنيا(1)؛ وهو سريع الحساب؛ لأنّه لا يحتاج إلى زمنٍ، ولأنَّه لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ(2)؛ لأنّ تطويل الحساب يكون

(1) ففي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يومَ يقومُ النّاس لرَبّ العالَمين مقدارُ نِصفِ يوم من خمسين ألفَ سَنَةٍ، فيهونَ ذلك على المؤمن كتدلّي الشّمس للغروب إلى أن تغرب»، أخرجه أبو يعلى في مُسنده، برقم: (6025)، وابن حبّان في صحيحه برقم: (7333)، وصحّح إسنادَه المنذريّ في التّرغيب والتّرهيب: 2/ 295.

(2) حقّي، روح البيان: 6/ 162، وابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 276.

عادةً من عدم عِلْم المُحاسِب؛ فيُبْطِئُ ليَعرفَ ملابساتِ الحساب الزّمانيّةَ والمكانيّةَ، أمّا إذا كان المُحاسِبُ العليمَ الحكيمَ الذي لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السّماء؛ كان حسابُه سريعًا، وفي هذا التّعبير دلالةٌ على طَلاقة القُدرة والعدالةِ النّاجزة؛ للتّفريق بين عدالة الأرض وعدالة السّماء.

دلالةُ التّذييل في الآية الكريمة:

بيان عِلَّة الحُكم المَذْكور المُفاد مِنَ التَّوفيةِ السّابقةِ

جُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تذييلٌ لما سَبَقَ، فالمُراد: أنَّه تعالى لا يُماطِلُ الحِسابَ ولا يُؤَخِّرُه عندَ حُلولِ مُقْتَضيه[1]؛ فالجملةُ تذييليَّةٌ تكميليَّةٌ، مسوقةٌ لتعليل ما قبلَها، جاءت لبيان عِلَّةِ الحُكم المَذْكور المُفادِ بقولِه: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾؛ لأنَّ سُرعة الحساب تستدعي سرعةَ الجَزاء[2].

المُتشابهُ اللّفظيُّ بين سورتَيْ إبراهيم والنّور:

تشابَهَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ الآية، مع قولِه في سورة إبراهيم: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ [إبراهيم: 18].

وهذا التّشابه ظاهرٌ في ضرب المَثل لأعمال الكافرين بالسَّراب في سورة النّور، وبالرَّماد في سورة إبراهيم؛ لأنّ صورة السَّراب تهتمُّ بتصوير اللهفة والرَّغبة الماسَّة للوصول إلى المطلوب، وصورةَ الرَّماد تهتمُّ بتصوير ذهابِه واحتراقه.

كما أنّ صورة السَّراب الذي يحسبه الظمآن ماءً، وإن كانت تشترك في الموضع مع صورة الرَّماد الذي تعصف به الرّيحُ في المَثل السّابق، إلّا أنَّها تختلف عنها اختلافًا دقيقًا ومُهمًّا؛ وذلك في المغزى ولُبِّ الغرض، وبيان ذلك: أنَّ صورة السَّراب تهتمُّ بتصوير اللهفة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 254.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن: 19/ 358.

والحاجةِ الماسَّةِ إلى الوصول إلى المطلوب والانتفاع بهذه الأعمال، ثُمَّ الخيبة والمُفاجأة بخديعة الأمل، وأنَّه ما كان إلّا وهْمًا؛ ولهذا كانت عناصرها: الظَّمآنَ، والسَّرابَ، وهذان اللَّفظان لهما دلالةٌ قويَّة على هذا المَغْزى؛ بل إنَّ لفظ السَّراب يكاد يكون رمزًا حيّا في هذا الباب.

أمّا صورةُ الرَّماد فإنَّها تهتمّ ببيان ذهاب الأعمال وعدم الانتفاع بها، وأنّها تصير بَدَدًا، من غير أن تُرَكّز الآيةُ على معنى اللهفة والتَّعلُّق الذي ركَّزت عليه صورةُ السَّراب؛ ولهذا كانت عناصرها: الرَّمادَ، والرّيحَ، واليومَ العاصف، وكلّها تُؤكِّد معنى الضّياع الذي يَعْقبُه الهلاكُ، إضافةً إلى ما ينطوي عليه لفظُ الرَّماد من معنى الاحتراق والخِفَّة وقِلَّة الشَّأن(1).

وممّا يُذْكَر في تشابه الآيتَيْن أنّه قال في سورة إبراهيم: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [إبراهيم: 18]، ولم يَقُلْ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ كما في سورة النّور؛ لأنّ المَثل مُستعملٌ للصّفة التي فيها غرابة، وهذه الغرابةُ ظاهرةٌ مِن كثرة النّعم التي أنعم اللّهُ بها، ومع ذلك قوبِلت هذه النِّعَمُ بالكُفر على غير منطق العقل، فضلًا عن منطق الشّرع، وممّا يُؤكّد ذلك أنّه ورد في سورة إبراهيم: ﴿بِرَبِّهِمۡۖ﴾ [إبراهيم: 18]، ولم يُذْكَر في سورة النّور؛ لأنّ سياق سورة إبراهيم يناسبُه التّعبير بالرّبوبيّة، ويُؤكِّد ذلك خطابُ اللّهِ لموسى عليه السلام بقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 5] إلى قوله: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7] الآية، وكان المناسبُ لذلك شُكرَ النّعم، لكنّ الكافرين أعرضوا عنها، وصار ذلك مثلًا يُضرب لهم؛ بخلاف موضع سورةِ النّور، فلم يَرِد فيها مثلُ ذلك الحديث؛ لأنّ الآية التي كانت قبلَها تتحدّثُ عنِ الجزاء لأهل الإيمان، قال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ الآية، ثمّ عطف عليها أحوالَ الكافرين دونَ أن يجعلَهم مثلًا كما في سورة إبراهيم.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الحِسْبان والظَّنّ:

الحِسْبان أن يُحكم لأحد النَّقيضيْن من غير أن يخطر الآخر بباله، فيَحْسِبه ويعقد

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 245، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9804.

عليه الإصبع، ويكون بغرض أن يعتريَه فيه شَكٌّ، ويُقارب ذلك الظّنَّ، لكنّ الظّنَّ أن يُخطر النَّقيضيْن بباله، فيُغلِّب أحدَهما على الآخر[1].

الحِسْبان حُكْمٌ لأحد النَّقيضيْن دون خطورِ الآخر بالذِّهنِ، والظَّنُّ خُطورهُما جميعًا

الظّمأ والعطش:

أصلُ الظَّمأ يَدُلُّ على ذُبولٍ وقِلَّةِ ماءٍ؛ وهو العَطَشُ وذهابُ الرُّطوبة والنَّدى من باطن الشَّيءِ واضْطِمامه على هذا الجفاف[2]، يُقال: ظَمِئَ ظَمَأً: إذا اشتدّ عطشُه[3]، والعَطَشُ: حالةُ شوقٍ إلى شُرْبِ الماء، فالظَّمآنُ كعطشان صفة مُشبَّهةٌ، وهو الذي يكون متَّصِفًا بحالة حرارة داخليّة، توجِبُ العطشَ وطَلَبَ الماءِ[4].

الظَّمأ شِدَّةُ العطش وظهورُ أثرِه على البدنِ بالجفافِ وذهابِ الرُّطوبةِ

(1) الرّاغب، المُفردات: (حسب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظما)، وجبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظمأ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظمأ).
(4) المُصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 7/ 179.

﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾

[النّور: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ضربُ مَثَلٍ آخَر للكُفّارِ يُجلّي حالَهم، ويُبرزُ الباعثَ على مصيرِهم إلى تلك الحالِ

لمّا مَثَّلَتِ الآيةُ السّابقة أعمالَ الكفّارِ التي كانوا يعتمدون عليها ويفتخرون بها في كلّ وادٍ ونادٍ لحُسن ظاهرها وخيريّتها - بسرابٍ يحسبه الظّمآن ماءً، فلم يُغْنِ عنهم شيئًا منَ الحسابِ والعقاب؛ جاءت هذه الآيةُ لتمثيلِ أعمالِهم القبيحةِ - التي ليس فيها شائبةُ خيريّة - بالظُّلمات المُتراكم بعضُها فوقَ بعض، كما قال تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾ الآية.

ومنها: لَمّا بيَّن اللّهُ تعالى بالمثالِ السّابقِ أنَّ الكافرينَ لم يَصِلوا إلى شيءٍ غيرِ التَّعَبِ المُثمِرِ للعَطَبِ، وكان هذا لا يفعلُه بنَفْسِه عاقِلٌ؛ ضرَب مثالًا آخَرَ بيَّن الحامِلَ لهم على الوقوعِ في ذلك، وهو السَّيرُ بغيرِ دليلٍ، الموقِعُ في خَبطِ العَشواءِ كالماشي في الظَّلامِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَظُلُمَٰتٖ﴾: (ظلم) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الضّياءِ والنّورِ، ومنه: الظُّلْمَةُ، والجمعُ ظُلُماتٌ[2]، والظَّلامُ اسْمٌ لذَلك، ولا يُجمع، يَجْري مَجرى المصدر، كَما لا تُجْمَع نظائرُه، نحو السَّواد والبَياض، ويُعبَّر بالظُّلمات عنِ الجهل والشِّرك والفِسق، كما يُعبّر بالنّور عن أضدادها، قال اللّه تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 285، 286.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).

[البقرة: 257][1]، وظُلُماتُ البَحْرِ: شدائِدُه[2]، ولَيْلَةٌ ظَلماءُ، ويَوْمٌ مُظْلِمٌ: شديدُ الشَّرِّ[3]، والمُرادُ بالظُّلُماتِ في الآية: الظُّلْمَةُ الشَّديدَةُ، والجَمعُ مُستعملٌ في لازِمِ الكَثْرَةِ وهو الشِّدَّةُ[4].

2) ﴿لُّجِّيٍّ﴾: (لجّ) أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَردُّدِ الشَّيءِ بعضِه على بعضٍ، وترديدُ الشَّيءِ، من ذلكَ اللَّجاجُ، يُقالُ: لَجَّ يَلِجُّ ويَلَجُّ، وقد لَجِجْتُ على فعلْتُ، لَجَجًا ولَجاجًا، ومنَ البابِ: لُجُّ البحرِ؛ وهو قاموسُهُ، وكذلك لُجّتُه؛ لأَنَّهُ يتردَّدُ بعضُهُ على بعضٍ[5]، واللُّجَّةُ: الجماعةُ الكثيرةُ، كلُجَّةِ البحرِ، وهي اللُّجُّ، ولُجُّ الوادي: جانِبُهُ، ولُجُّ البحرِ: عُرْضُهُ، ولُجُّ البَحْرِ أيضًا: الماءُ الكثيرُ الَّذي لا يُرَى طرفاهُ، ولُجَّةُ اللّيل: تَرَدُّد ظلامه[6]، والتَجَّ الأَمرُ: إِذا عَظُمَ واخْتَلَطَ[7]، وعلى ما سبق فالمُراد باللُّجّيّ في الآية: البحرُ العميقُ الكثيرُ الماءِ[8].

3) ﴿يَغۡشَىٰهُ﴾: (غشى) أَصلٌ يَدُلُّ على تَغْطِيَةِ شَيءٍ بِشَيءٍ، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيءَ أُغَشّيه[9]، والغِشاءُ: الغِطاءُ، وغَشَّيْت الشَّيءَ تَغْشِيَةً، إذا غَطَّيْتَه[10]، وتَغَشَّى ثيابَه واستغشاها: تَغَطَّى بها كي لا يَرى ولا يَسْمع: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: 7][11]، والغِشْيانُ - بالكَسْرِ - الإِتيانُ، يُقالُ: غَشيَهُ إذا أَتاهُ[12]، والغَشْيُ والغَشَيانُ: الإحاطَةُ مِنْ كُلِّ جانبٍ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان: 32][13]، والمُرادُ بـ﴿يَغۡشَىٰهُ﴾: يُغطّيه ويَسْتُرُه ويَعْلوه موجٌ عظيمٌ[14].

4) ﴿مَوۡجٞ﴾: (موج) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اضطرابٍ في الشَّيءِ، وماجَ النّاسُ يموجونَ،

(1) الرّاغب، المُفردات: (ظلم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 255.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لج).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لجج).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لجج).
(8) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 402، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 134.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غشو، غشا).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غشو).
(12) المُطرّزيّ، المُغرب: (غشي).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 64.
(14) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 134.

إذا اضطَرَبوا، وماجَ أمرُهم ومَرِجَ: اضطربَ[1]، والمَوْجُ في البَحر: ما يعلو من غوارب الماء[2]، وتَموَّج: اضطرَبَت أمواجُه، وكلُّ شيءٍ اضطربَ فقد ماج[3]؛ وعليه فالمَوجُ في الآية: ما يَرتَفِعُ منَ الماءِ على سطحهِ عندَ اضطرابه[4].

5) ﴿سَحَابٌ﴾: (سحب) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على جَرِّ شَيْءٍ مَبْسوطٍ ومَدِّهِ، تَقولُ: سَحَبْتُ ذَيْلي بِالأَرْضِ سَحْبًا، وسُمّي السَّحابُ سَحابًا تَشْبيهًا لَهُ بِذلِكَ، كَأَنَّهُ يَنْسَحِبُ في الهواءِ انسحابًا[5]، وهو اسمُ جَمعٍ لسحابةٍ؛ فلذلك جاز إجراؤُهُ على اعتبارِ التَّذكيرِ؛ نَظرًا لتَجرُّدِ لفظِهِ عن علامةِ التَّأنيثِ، وجازَ اعتبارُ التَّأنيثِ فيهِ؛ نظرًا لكونه في معنى الجَمعِ[6]، والسَّحابُ: الغيمُ سواءٌ كان فيه ماءٌ أو لم يكن، ولذلك قيل: سحابٌ جَهامٌ، والجَهام: السّحابُ الذي فرَغ ماؤُه[7]، وقد يُذْكَر ويُرادُ به الظِّلُ والظُّلْمَة على طريق التَّشبيه، وهذا هو المُراد بالآية[8].

6) ﴿لَمۡ يَكَدۡ﴾: (كيد) أصلٌ يَدُلُّ على مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، قالَ أهلُ اللُّغَةِ: الكَيْدُ: المُعالَجَةُ، وقالوا: وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ فأَنْتَ تكيدُهُ[9]، هذا هو الأَصْلُ في الباب، ثُمَّ يُسَمّونَ المَكْرَ كَيْدًا، قال اللّٰه تعالَى: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ [الطّور: 42][10]، ومن العرب مَن يُدْخِلُ (كادَ) و(يَكادُ) في اليَقين، وهوَ بِمَنْزِلَة الظّنِّ، أَصْلُهُ: الشَّكُّ ثمَّ يُجْعَلُ يَقينًا[11]، قالَ الأخفَشُ في قَوْله: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ [النّور: 40] حُمِلَ على المَعْنى، وذلِكَ أَنَّهُ لا يَراها، وذلِكَ أنّكَ إذا قُلتَ: كاد يَفعلُ إنَّما تَعْني: قاربَ الفعلَ ولم يفعلْ[12]، وعليه؛ فالمُراد بالكيد في الآية: فِعلٌ يدُلُّ على قُرْبِ حدوثِ الخبرِ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موج).

(2) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات: (موج).

(3) ابن دُريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (موج).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 74.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحب).

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 182.

(7) ابن الأثير، النّهاية: (جهم).

(8) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (سحب).

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).

(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).

(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).

(12) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كيد).

7) ﴿نُورٍ﴾: (نور) أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إضاءةٍ واضطرابٍ وقِلَّةِ ثباتٍ، ومِنْهُ النّورُ والنّارُ؛ سُمّيا بذلكَ مِنْ طريقةِ الإضاءةِ، ولأَنَّ ذلكَ يكونُ مُضطربًا سريعَ الحَرَكةِ[1]، والنّورُ: الشُّعاعُ، وهو أَعَمُّ مِنَ الضّياءِ، يَصْدُقُ على الشُّعاعِ الضَّعيفِ والشُّعاعِ القويِّ، فضياءُ الشَّمسِ نورٌ، ونورُ القَمَرِ ليس بضياءٍ، هذا هو الأَصلُ في إطلاقِ هذه الأسماءِ، ولكنْ يَكْثُرُ في كلامِ العَرَبِ إطلاقُ بعضِ هذهِ الكلماتِ في موضعِ بعضٍ آخَرَ بحيثُ يَعْسُرُ انضباطُه[2]، وذلك ضربان: دنيويٌّ، وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ ضربان؛ الأوّل: معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر مِنَ الأمورِ الإلَهيَّة، كنورِ العَقل ونور القرآن، والآخَر: محسوسٌ بعينِ البَصر، وهو ما انتشر مِنَ الأجسامِ النَّيِّرة؛ كالقَمَريْن والنُّجوم والنَّيِّرات[3]، والنّورُ في الآية استعارةٌ للوضوحِ والحَقِّ، فإِنَّ الحَقَّ يُشَبَّهُ بالنّورِ، كما يُشَبَّهُ الباطِلُ بالظُّلْمَةِ[4].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مَن لم يَهْدِهِ اللّهُ فلا هاديَ له

يذكرُ اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ المَثَلَ الثّاني للكافرين وما هم فيه مِن ضَلالٍ وجَهلٍ فيقولُ سبحانه: أو مَثَلُ أعمالِ الكافرينَ في ضَلالِهم وجَهلِهم الذي لا يتبيَّنونَ فيه الهُدى والحَقَّ، كمِثلِ ظُلُماتٍ في بَحْرٍ عَميقٍ، يَعلوه موجٌ، مِن فوقِ ذلك الموجِ مَوجٌ آخَرُ مِن فوقِه سَحابٌ، ظُلُماتٌ مُتراكِمٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ إذا أَخرجَ مَن كانَ في هذه الظُّلُماتِ يَدَه ليَنظُرَ إليها لم يقارِبْ رُؤيتَها من شِدَّةِ الظَّلامِ، فلا يراها مُطلقًا، ومَن لم يَهْدِه اللّهُ للإيمانِ ويَنَوِّرْ قَلبَه بنورِ الإسلامِ، فلا هِدايةَ له مِن أيِّ أحَدٍ كائنًا مَن كان[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 94.
(3) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (نور).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 363.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 329، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 71، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 182.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطف بـ ﴿أَوۡ﴾، وإيثارُها على غيرها من حروف العطف:

تَـنـوّعُ أحــوالِ أعمالِ الكافرين الـدّاعـيَـة إلى تشبيهها مَـرَّةً بالسَّراب، ومَرَّةً بـالـظُّـلـمـاتِ الكثيفةِ

جاء العطف بـ ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ دون غيرها؛ لأنّه قُصِد منه التَّنويع، ويُفهم منَ السّياق في المَثَلَين أنَّ التَّنويع ليس لتَنوّع الأعمال؛ وإنَّما هو لتَنَوّع الأحوال الدّاعيَة إلى تشبيهها مَرَّةً بالسَّرابِ الكاذبِ، ومَرَّةً أُخرى بالظُّلمات الكثيفة، حيثُ أَعلَمَ اللّٰهُ سبحانه أنَّ أعمال الكفّار إن مُثِّلَتْ بما يوجَد، فمَثَلُها كمَثَل السَّراب، وإن مُثِّلَتْ بما يُرَى؛ فهي كهذه الظُّلمات التي وصَف[1]، فالكُفّار باعتبار أعمالِهم ينقسمون إلى قسميْن؛ قسمٌ ضُرِبَ لهم المَثَلُ بالسَّراب، وقسم ضُرِبَ لهم المَثَل بالظُّلمات، وتقدير الكلام: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ ... أو هي ﴿كَظُلُمَٰتٖ﴾، ويُستفادُ من هذا في بيان المُمَثّل له: أنَّ المُمَثَّل له في الأصل هو أعمالُ الكفّار، مع شموله لبيان حالِ عُمَّالِها، وأثرِها عليهم.

وقد أوثِرَ التّعبيرُ بحرف ﴿أَوۡ﴾ دونَ غيرها من حروف العطف؛ لأنّها تَرِد في اللّغة لعِدَّة معانٍ؛ من أهمها: التَّخييرُ، والإباحَة، والشَّك، والإبهام، والتّقسيم ... وغيرها من المعاني[2]، وهو ما حمل المُفسِّرين على الاختلاف في بيان المُراد بـ ﴿أَوۡ﴾ في الآية بين الإباحة[3] والتّنويع[4] والتّقسيم[5]، أو تجويزِ تفسيرِها بجميع مَعانيها على توجيهٍ لكُلٍّ منها[6]، وما ذكروه من دلالتها على الإباحة أو التَّخيير أو التَّنويع أو التَّقسيم فإنَّ ذلك يُستفاد منَ السّياق لا من ﴿أَوۡ﴾ نفسِها.

---

(1) الرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 5/ 264، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 46.
(2) ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك: 3/ 232.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 329، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 283، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 38.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 181، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 398.
(5) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 109، والمَظهريّ، التَّفسير المَظهري: 6/ 543.
(6) الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 1/ 235، 3/ 604.

أَثَرُ معنى ﴿أَوۡ﴾ على التّشبيه:

معنى التّنويع

يظهر أثرُ التّنويعِ لـ﴿أَوۡ﴾ في تمثيل أعمال الكفّار؛ باعتبار ما مُثِّلَتْ به أعمالُهم التي كانوا يرجون الخيرَ منها لو استقامت قلوبُهم وحَسُنَت نيّاتُهم بما ذُكِرَ أوّلًا من تمثيل أعمالهم بالسَّرابِ مع زيادة حساب وعقاب، ثمّ من تمثيل أعمالِهم القبيحةِ التي لا خير فيها - لا في ذاتها ولا في نيّاتها - بِالظُّلمات المُتراكمةِ بعضِها فوقَ بعض[1]، وهذا من باب التّنويع.

معنى التّخيير

من المعاني التي تَرِد لها ﴿أَوۡ﴾ في هذا التّشبيه: التَّخيير، ويكون المعنى: تمثيلُ حالِ الذين كفروا في أعمالهم التي يعملونها وهم غير مؤمنين بحالِ مَن ركِبَ البحرَ يَرجو بلوغَ الغاية فإذا هو في ظُلماتٍ لا يهتدي معها طريقًا؛ وعلى هذا يكون وجه الشَّبه هو ما حَفَّ بهم دون حصول مبتغاهم، فإنَّ أعمالَهم لكونها لاغيةً لا منفعةَ لها كالسَّراب، ولكونها خاليةً عن نور الحَقّ فهي كالظُّلمات المُتراكمةِ من لجِّ البحر والأمواج والسَّحاب[2]، ومن هنا يظهر سِرّ اختيار ﴿أَوۡ﴾ في عطف التَّشبيهات؛ لتدُلَّ على تخيير السّامع أن يُشَبِّهَ بما قبلَها أو بما بعدَها[3].

معنى التّقسيم

وأمّا معنى التَّقسيم في ﴿أَوۡ﴾ فباعتبار وقتَيْن؛ فإنّها كالظُّلمات في الدُّنيا وكالسَّراب في الآخرة[4]، وعند أهل التَّحقيق من علماء اللُّغة أنّها موضوعةٌ لأحد الشَّيئَيْن المَذكورَيْن معها، فدَلَّ وجودُها عاطفةً بينَ التَّمثيلَيْن على أنَّ أعمالَ الذين كفروا كسرابٍ، أو كظلماتٍ، فإنَّها لا تخلو من أحد المَثَلَيْن.

بلاغةُ التّشبيهِ التّمثيليّ في الآيةِ بحسبِ دلالاتِ عطفِ الآيةِ:

الكفّارُ يتقلّبون في الظّلماتِ الحالكةِ لا يَنفكّون منها

قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ هذا هو التَّشبيهُ الثّاني على أنّ ﴿أَوۡ﴾

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 181.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 109، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 53.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 18/ 254، 255.

(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 53.

لتنويع أعمالِهم؛ فالتّشبيهُ تمثيلٌ لأعمال الذين كفروا التي كانوا يظنّون أنَّهم يتقرَّبون بها إلى اللّه بحال ظُلُماتِ ليلٍ غشيَتْ ماخِرًا في بحر شديدِ الموج قدِ اقتحم ذلك البحر ليصلَ إلى غاية مطلوبه، فحالُهم في أعمالِهم تُشبِهُ حالَ سابحٍ في ظُلماتِ ليلٍ في بحر عميق يغشاه موجٌ يركبُ بعضُه بعضًا؛ لشِدّة تعاقُبِه، وإنّما يكون ذلك عند اشتداد الرّياح، حتّى لا يكاد يرى يدَه التي هي أقربُ شيءٍ إليه وأوضحُه في رؤيته، فكيف يرجو النّجاة؟

وإن كان الكلامُ جاريًا على التَّخيير في التَّشبيه مع اختلاف وجه الشَّبه كان المعنى: تمثيلُ حالِ الذين كفروا في أعمالهم التي يعملونها وهم غير مؤمنين بحالِ مَن ركب البحر يرجو بلوغ غايةٍ، فإذا هو في ظُلماتٍ لا يهتدي معها طريقًا؛ فوجهُ الشَّبَه هو ما حَفَّ بأعمالهم من ضلال الكُفْرِ الحائل دونَ حصولِ مُبتغاهم[1].

الغرضُ مِنَ التّشبيهِ ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٍ﴾:

تقريرٌ لحال المُشَبّه في ذِهْن السّامع مع تقبيحه

يظهر الغرضُ من هذا التَّشبيه التّمثيليّ الذي جُعِلَت فيه الصّورةُ المُنتزعةُ من حال الكائنِ في ظُلمات بَحْرٍ لُجّيٍّ، حُجِبَ عنه النّورُ بأكثرَ من حِجاب مع ما يُحيطُ به من أحوال البحر المُضطرب الكثير المخاوف، وجُعِلَ مثالًا تُقاسُ به أعمالُ فريقٍ منَ الكفّار، ويُعطَوْن حُكْمَه، ويُعْتَبر به في معرفة حقيقةِ حالهم، وفي هذا تقريرٌ لحال المُشَبّه في ذِهْن السّامع مع تقبيحه، وذلك ببيانُ حال المُشَبّه به (أعمال الكافرين في الدّنيا).

دلالةُ التّشبيهِ المُركّبِ:

تشبيهُ حالةٍ معقولةٍ بحالةٍ محسوسةٍ

النّاظر في هذا التّشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ الآية يجد أنّه تشبيهٌ مُرَكَّبٌ؛ وذلك أنَّ كُلًّا من المُمَثَّل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 255.

به والمُمَثَّل له عبارةٌ عن صورةٍ مُرَكَّبةٍ من جُملة أفرادٍ تُعطي في مجموعها الوصفَ المُعتَبرَ والحُكمَ المُشترك بينَ المُشَبَّه والمُشَبَّه به، حيثُ شَبّهت أعمالَ صنفٍ منَ الكفّار في ظُلمتها وظُلمة قلوبِ عُمّالها وحَيْرتهم، وما ينتابهم مِن اضطرابٍ وخوفٍ بالظُّلمة الحاصلة حولَ شخصٍ كائنٍ في قاع بحارٍ عميقةٍ تضطرب حولَه الأمواجُ، وتنتابه المخاوفُ بسبب استحكام الظُّلمة من حوله في ذلك المكان المُفزِع، حتَّى إنَّه إذا أخرج يده لم يُقارِب رؤيتَها، حيثُ حُجِبَ عنه الضَّوءُ بحُجُبٍ ثلاثة[1]، وهذا التَّمثيل من قبيل تشبيه حالةٍ معقولةٍ بحالةٍ محسوسةٍ، كما يُقالُ: شاهدتُ سوادَ الكُفرِ في وجهِ فلانٍ[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالكافِ، وأثرها في التّشبيهِ:

استقلالُ هذا التّشبيهِ عن سابقِهِ

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالكافِ في قوله: ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾؛ لأنّها أداة تشبيه، ومحلُها في الإعراب: الرَّفعُ؛ لكونها معطوفةً على الكاف في ﴿كَسَرَابِۭ﴾، وهذه الأخيرة خبر المُبتدأ الذي هو ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾[3]، وتقدير الكلام: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ ... أو هي ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾[4]، فيكون مجموع الكاف ومدخولِها معطوفًا على مجموعِ ﴿كَسَرَابِۭ﴾، وإنَّما اختير هكذا ولم يجئ (أو ظلمات) عطفًا على (سراب)؛ للتّنبيه على استقلال كُلٍّ منَ التَّشبيهَيْن[5].

موقعُ كُلٍّ منَ التَّمثيلَيْن منَ الآخر:

التّشبيهُ الأوّلُ لما يوجَدُ، والثّاني لما يُرَى

قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحۡرٍ لُّجِّيٍّ﴾ يُصوّر هذا التَّمثيلُ أعمالَ الذين كفروا في الدُّنيا من حيثُ خُلوّها عن نور الحَقّ، وبعدُها عنِ الصّراطِ المستقيم بصورةٍ ظُلماتٍ متراكبةٍ من لُجَج البحر والأمواجِ

(1) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة المضروبة للإيمان بالله: 2/ 572.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 254، 255.
(3) الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/ 604.
(4) مكّيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5123.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 398.

والسَّحاب بعد أن صوِّرت في التَّمثيل الأوَّل بصورة السَّراب الخادع - وذلك يكون في الآخرة - ملاءمةً لسياق الآية.

دلالةُ تعدّدِ ضربِ المَثل للكافرين وأعمالِهم:

كلُّ مَثلٍ منَ المَثلين يُضيف معاني لا توجد في الآخر

النّاظر في الآيتيْن الكريمتيْن بَدءًا من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ الآية؛ يجد تعدُّدَ ضربِ المَثل؛ وذلك لما يُضيفه كلُّ مثلٍ منهما من معانٍ لا توجد في الآخر، ويظهر ذلك من خلال ذِكْر الفَرْق بَيْنَ التَّمثيلَيْن، وذلك من وجوه؛ **الأوّل**: أنَّ المُراد منَ المَثلَين مختلفٌ؛ ذلك أنَّك إنْ شبَّهتَ أعمالَهم لما يوجد، فهو كالسَّراب بالقيعة، وإن شبَّهتَ أعمالَهم لما يُرى، فهو كالظّلمات في البحر اللُّجيِّ[1]، **الثّاني:** أنّ المَثل الأوَّل لِما تؤول إليه أعمالُهم في الآخرة، والثّاني فيما هم عليه في حال الدُّنيا، وهذا المعنى ظاهرٌ في تشبيه النَّظم الكريم لأعمالِهم أوَّلًا في فواتِ نفْعِها وحُضورِ ضرَرِها بسَرابٍ لم يجِدْه مَن خَدَعَه مِن بعيدٍ شيئًا، ولم يَكْفِه خَيبةً وكَمَدًا أنْ لم يجِدْ شيئًا كغيره مِنَ السَّرابِ حتَّى وجَدَ اللّٰه له بالمِرصاد، فجازاه بالعذاب الأليم؛ وشبَّهها ثانيًا في ظُلْمتِها وسَوادِها لكونِها باطلةً، وفي خُلوِّها عن نورِ الحقِّ بظُلُماتٍ مُتراكمةٍ مِن لُجِّ البحرِ والأمواجِ والسَّحابِ[2]، وعلى هذا يكون التَّمثيل الأوَّل: لأعمالهم الحسنة التي يظنّون نفعَها، والثّاني: لأعمالهم القبيحة، **والوجه الثّالث**: أنّ المَثَل الأوّل راجعٌ إلى الفئة الكافرة التي اعتقدت أحقيَّة ما هم عليه من أعمال الخير في نجاتهم، والمَثل الثّاني راجعٌ إلى أولئك الكفرة الحيارى الذين ضلّوا سواءَ السّبيل، ولم يَهتدوا إلى نور اللّٰه[3].

(1) السَّمعانيّ، تفسير السَّمعانيّ: 3/ 100.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 244، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 54.
(3) الجباليّ، شفاء الصّدور بتفسير سورة النّور، ص: 240.

بلاغةُ حذفِ المُضافِ:

دلالةُ المحذوفِ على العملِ وصاحبه

حُذِف المضافُ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ﴾، وتقدير الكلام: أو كذي ظلماتٍ، ودلَّ على هذا المضاف قولُه تعالى: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾، فالكناية تعودُ إلى المضاف المحذوف، وقيل: على حذف مُضافيْن، تقديره: (أو كأعمال ذي ظلمات) فقدّر (ذي) ليصِحَّ عودُ الضَّمير إليه في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾، وقَدّر (أعمال) ليَصِحّ تشبيهُ أعمالِ الكفّار بأعمال صاحب الظُّلمة، إذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظُّلمة[1]؛ وجمهورُ المُفسِّرين على أنَّ الآيةَ السّابقة في ذِكْرِ أعمالِ الكفّار، والثّانية في ذِكْرِ كُفْرِهم، ونسَقَ الكُفرَ على أعمالِهم؛ لأنَّ الكُفرَ أيضًا مِن أعمالِهم، وقد قال تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257]؛ أي: مِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ، فيكونُ التَّمثيلُ قد وقَعَ لأعمالِهم بكُفرِ الكافرِ، وأعمالُهم منها كُفْرُهم؛ فيكونُ قد شبَّهَ أعمالَهم بالظُّلماتِ[2].

نُكْتَةُ جمعِ لفظ ﴿كَظُلُمَٰتٖ﴾ في الموضعيْن:

الدّلالة على شِدَّة الظُّلمةِ وتعدُّدِ أنواعها

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بجمع ﴿كَظُلُمَٰتٖ﴾ دون إفرادها (ظلمة)، في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ ... ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾، مع أنّ المُراد بالظُّلمة في الآية الكريمة الظُّلمةُ الحِسّيَّةُ الكائنةُ في هذا المكان الموصوف، والظُّلمات: هي أساس التَّمثيل، وهي جمع ظُلْمَة؛ لأنّ المُراد بها ظُلمةُ الجهل، وظُلمةُ الكُفر، وظُلمة الظُّلم واتّباع الهوى، وظُلمة الشَّكِّ والرَّيب، وظُلمةُ الإعراض عنِ الحقِّ الذي بعثَ اللّهُ تعالى به رُسُلَهُ صلواتُ اللّه وسلامُه عليهم، والنّورِ الذي أنزلَه معهم ليُخرجوا به النّاسَ منَ الظُّلمات إلى النّور؛ فإنَّ المُعرِضَ عمّا بعثَ اللّهُ تعالى به محمَّدًا ﷺ منَ الهدى ودينِ الحَقِّ يتقلَّب في خمس

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 695.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 283، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 53.

ظُلُماتٍ؛ فقولُه ظُلمةٌ، وعملُه ظُلمةٌ، ومَدْخلُه ظُلمةٌ، ومَخْرجُه ظُلمةٌ، ومصيرُه إلى الظُّلمة، وقلبُه مُظْلِمٌ، ووجهُهُ مُظْلِمٌ، وكلامُه مُظْلِمٌ، وحالُهُ مُظْلِمٌ[1]، وممّا يُؤكّد ذلك أنّ الجَمع في قوله: ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾ مُستعمَلٌ في لازم الكثرة، والشِّدَّةُ؛ وهو كِنايةٌ؛ لأنَّ شِدَّةَ الظُّلمةِ يحصُلُ من تظاهُرِ عِدَّةِ ظُلماتٍ تراكم بعضها فوق بعضٍ[2].

دلالةُ تنكير لفظ ﴿ظُلُمَٰتُۢ﴾:

تهويلُ شأنِ الظُّلماتِ، وتَعظيمُ خَطَرِها

لَمّا كان الأمرُ مَهولًا؛ أشار القرآن الكريم إلى هوله وتصويره بتنكير لفظ ﴿ظُلُمَٰتُۢ﴾؛ أيْ: منَ البحر والمَوجَيْن والسَّحاب[3]، وهذه الكلمةُ مُجملةٌ، وأُتبِعَت بتفصيلها إلى ثلاث ظُلماتٍ وهي الواردة في قوله سبحانه: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾، وقد تحصَّل من كلام المُفسِّرين الإشارةُ إلى ثلاث ظلماتٍ، هي أصول كُلِّ الظُّلمات؛ الأولى: ظُلْمَةُ الجهل، الثّانية: ظُلمةُ الكُفرِ والضَّلال، الثّالثة: ظُلمةُ الختم على قلبه وسمعِه وبَصرِه[4].

دلالةُ التّعبير بالظّرفيّة في قوله: ﴿فِي بَحۡرٖ﴾:

الظُّلماتُ كائنةٌ في مكانٍ ما منَ البحر اللُّجيِّ

﴿فِي﴾ من قوله تعالى: ﴿فِي بَحۡرٖ﴾ حرفُ جَرٍّ، وهي هُنا للظَّرفيَّة المكانيَّة، وهي مُتعلِّقة بالظُّلمات؛ إذْ تدلُّ على أنَّ الظُّلماتِ كائنةٌ في مكانٍ ما منَ البحر اللُّجّيِّ[5]، وفي التّعبير بالظّرفيّة إشارةٌ إلى أنّ الظُّلماتِ مظروفةٌ في البحر اللّجيِّ، ففي كلِّ جوانبه ظلامٌ، وهذا ما أثبتَهُ العِلْمُ الحديثُ منَ الظّلام الدّامس في عُمق البحر، لذلك كان التّعبير بـ ﴿فِي﴾ دونَ غيرِها من حروف الجَرّ، وأيضًا لإخراج سطحِ البحر؛ فليس محلًّا لهذه الظُّلْمَة.

(1) ابن القيّم، اجتماع الجيوش الإسلاميَّة: 2/ 57، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 395.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 255.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 287.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 329، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 65، والجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 3/ 575.
(5) الجربوع، الأمثال القرآنيَّة القياسيَّة: 2/ 579.

سِرُّ التّعبيرِ بالبحرِ دونَ النّهرِ، ودلالةُ تنكيرِه:

تقويةُ العمومِ في السَّعةِ والوصفِ المأخوذِ من دلالةِ اللَّفظِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ ﴿بَحۡرٖ﴾ مُنكَّرًا دونَ لفظِ النّهر؛ لأنّ البحر يُطلَق على كُلّ مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماءِ الكثيرِ[1]، ويُطلَق على البحر الصَّغير والكبير، كما دلَّ عليه قولُه سبحانه: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164]، ومعلوم أنَّ الفُلك تجري في البحار الصَّغيرة وفي المُحيطات الكبيرة، وقولُه تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [الأعراف: 138]، ومعلوم أنَّ البحر الذي فرقَهُ اللهُ لبني إسرائيل من البحار الصَّغيرة، ويُطلق البحرُ أيضًا على الماء المالح والعذب؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾ [فاطر: 12] ونحوِها، وعلى هذا فلفظُ (البحر) عامٌّ، يُطلَق على المحيطات العظيمة، والبحارِ المالحة منها والعَذْبةِ؛ بخِلافِ لفظِ النَّهرِ، وأمّا التّنكيرُ في لفظِ ﴿بَحۡرٖ﴾ فيدلُّ على الشُّمولِ وعلى تقويةِ العموم في السَّعةِ.

دلالةُ وصفِ البحرِ باللُّجّيّ:

التّناسبُ بينَ الصّفةِ والموصوفِ

دلّ وصفُ البحرِ باللُّجّيّ على التّناسب بينَ الصّفة والموصوف؛ فلِعُموم سعَة دلالةِ لفظ البحر ناسبَ وصفُه بأنّه لُجّيّ؛ ليكتسبَ معنًى وبُعْدًا مهمًّا في إبراز الصّورة المرسومة في المَثَل[2]، ونُسِبَ البَحْرُ إلَى اللُّجَّةِ وصْفًا لَهُ بِأنَّهُ عَميقٌ كثيرُ الماءِ[3]، وبذلك يكونُ أشَدَّ ظُلمةً، فهو عميقٌ مُمتلئٌ لا يُسْبَرُ غورُه، ولا يُدْرَكُ قَعْرُه[4].

نُكْتَةُ وصفِ الظّلماتِ بأنّها ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾:

التّهويلُ والتّخويفُ من صورةِ الظّلماتِ المُفْزِعةِ في مكانٍ مُخيفٍ

وُصِفَتِ الظُّلماتُ بأنّها ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾؛ لما يحملُه هذا اللّفظُ من معنى التّردُّد والاضطراب؛ فلُجَّةُ البحرِ هي تَردُّد أمواجِه، قال

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (بحر).

(2) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 580.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 329.

(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 110.

تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ﴾ [النّمل: 44]، والجمعُ: لُجَجٌ، تقول العرب: التَجَّ البَحرُ؛ أيّ: تلاطمت أمواجُه، والتجَّ الأمرُ: إذا عَظُمَ واختلط، واللُّجَّةُ: معظم الماء، وهو ذو لُجٍّ، إشارةٌ إلى أنَّه عميق لا يُدْرَكُ له قرارٌ؛ لأنَّ اللُّجَّ مُعظمُ الماء[1].

وتَدور تفاسير أهل العلم لهذا اللَّفظ على معنيَيْن؛ **الأوّلُ**: التّردُّدُ والاضطراب النّاتجُ عنِ اختلاط الأمواجِ وهيجانها، ويُؤيِّد هذا المعنى ما بعدَه من قوله: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾، قال الرّاغبُ مُبيِّنًا هذا المعنى: "ومنه لَجَّة الصَّوتِ - بفتح اللّام - أيّ: تَرَدُّدُه، ولُجَّة البحر - بالضَّمّ - أيّ: تَرَدُّد أمواجه"[2]، ويُستفاد من هذا الوصفِ أنَّ المَكان المُصَوَّر للمُشَبَّه به مكانٌ مَخوفٌ مُفْزِعٌ موْحِشٌ، والبحرُ أخوفُ ما يكون إذا توالت أمواجُه، فإذا انضمّ إلى ذلك وجودُ السّحاب من فوقه زادَ الخوفُ[3]، و**الثّاني**: لُجّيّ: العميق كثيرُ الماءِ منسوبٌ إلى اللّجّ؛ وهو معظم ماء البحر، يُقال: لُجّ الماءِ ولُجَّتُه؛ أيّ: معظمه[4]، ويُؤَيِّد هذا المعنى - وهو دلالةُ وصفِ البحر بأنَّه لُجّيٌّ على عُمقه - ما ثبتَ في عِلْم البِحار مِن أنَّ الأمواج الباطنيَّة التي تكون تحتَ سطحِ الماء، المُعَبَّرَ عنها بقوله: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾، لا تكون إلّا في البحار العميقة[5]، ويُستَفادُ من هذا الوصفِ أنَّ مكانَ التَّشبيهِ مكانٌ مُظلِمٌ، إذْ هذه طبيعةُ قاعِ البحارِ العميقة، وذلك أنَّ الأمواجَ الباطنيَّة لا تكون إلّا في عُمق البحارِ العظيمة، ومكانُ التَّشبيهِ كائنٌ تحتَها؛ ويكون مجموعُ المُستَفادِ مِن قوله: ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ أنَّ المُشَبَّهَ به كائنٌ في مكانٍ ما في قاع بحرٍ عظيمٍ عميقٍ مُظلم مُضطربِ الأمواجِ مُخيفٍ مُفْزِعٍ.

سِرُّ التّعبير بالفعل ﴿يَغۡشَىٰهُ﴾:

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالغشيان دون التّغطيَة في قوله: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾ باعتبار أنّه صفةٌ أُخرى للبحر؛ أيّ: يستره ويُغطّيه[6]، و"غشى: غَشيَهُ غِشاوَةً وغِشاءً: أتاه إتيانُ ما قد

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (لجج)، وابن الأثير، النّهاية: 4/ 233، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 283.
(2) الرّاغب، المُفردات: (لجج).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 39.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 335، والهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/ 604.
(5) محمَّد حسن هيتو، المعجزة القرآنيّة، ص: 195.
(6) حقّي، روح البيان: 6/ 162.

غَشيَهُ؛ أيْ: ستره، والغِشاوَةُ: ما يُغَطّى بِهِ الشَّيءُ"[1]؛ فالمعنى: يغشى ذلك البحر؛ أيْ: يُغطّي بعضُه بعضًا؛ بمعنى: أن تجيءَ موجةٌ تتبَعُها أُخرى، فهو مُتلاطِمٌ لا يَسْكُن[2].

بيانُ صفةِ التَّغطيةِ الحاصلةِ في البحرِ

دلالةُ الجملةِ الفعليّةِ ﴿يَغۡشَىٰهُ﴾، وكون فعلِها مُضارعًا:

إفادةُ الاستمرارِ التَّجدُّديِّ لغشيانِ الموجِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ في صفةِ الغشيانِ بالجملة الفعليّة ﴿يَغۡشَىٰهُ﴾ مع أنّ الصِّفةَ الأولى للبحر ﴿لُّجِّيّٖ﴾، ومع ذلك عدلَ النّظمُ الكريمُ في الصِّفة الثّانية إلى الفعليَّة دونَ الأولى؛ لأنّ المُراد بالثّانية الاستمرارُ التَّجدُّديّ، وأمّا كونُه لُجّيًّا فدائِمٌ، وأُخِّرت الثّانيةُ لطول ذيلِها، أو لتَوقُّفِها على الأولى[3]، وممّا يُؤكِّد معنى الفعليّةِ مجيئُها بصفةِ المضارعِ التي تدلُّ على تصويرِ حالةِ المَوجِ المُتتابعةِ والمُستمرّة، ويُلْحَظُ ذلك مِن صورةِ الأمواجِ المُتلاحقةِ التي يَعلو بعضُها فوقَ بعضٍ بصورةٍ رقيقةٍ دونَ انقطاعٍ أوِ انفصالٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بالضَّميرِ في ﴿يَغۡشَىٰهُ﴾ دونَ الظّاهرِ:

الإشارةُ إلى المكانِ الواقعِ فيه المُشَبَّهُ به صاحبُ الظُّلماتِ في قاعِ البحرِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالضَّميرِ في ﴿يَغۡشَىٰهُ﴾ دون الظّاهرِ؛ لتَعدُّدِ المُراد به؛ فمنهم مَن قال: إنّه لصاحب الظّلمات أو للبحر[4]؛ ويَحتمِل أن يكون للمكان الذي فيه المُشَبَّهُ به المدلولُ عليه بقوله: ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾؛ أيْ: في مكانٍ ما منَ البحرِ اللُّجّيّ كما تقدَّم، ولكنْ بالنّظرِ والتّدقيقِ نرى أنّ القولَ بأنّ الضَّميرَ يعودُ على البحرِ فيه نَظَرٌ؛ وذلك لأنَّ الموج داخل البحر وجزءٌ منه، والغشيان هو التَّغطية، والموج لا يُغطّي البحر؛ وإنّما يَتَردَّدُ فيه.

والقولُ إنَّ الضّمير لصاحب الظّلمات جَيِّد؛ إلّا أنّه لم يتقدَّم ما يُشير إليه في السّياق، وإن كان سيأتي بعدُ في قوله: ﴿إِذَآ

(1) الرّاغب، المُفردات: (غشي).

(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 53.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 401.

(4) الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/ 605.

﴿أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾، لذلك فالأقوى أنَّ الضَّمير يعود على المكان الذي حُدّد في قاع البحر العميق الذي هو مسرحُ المَثَل، وهو يَتَضمَّن صاحبَ الظُّلمات إذ هو فيه؛ فتكون جملةُ: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾ صفةً للمكان الواقع فيه المُشَبَّه به صاحبُ الظُّلماتِ في قاع البحر، والسّياق يُبَيِّن المكانَ الذي يقع فيه المُشَبَّه به وما يعتريه من أسفل إلى أعلى؛ فالمكانُ في قاع البحر المُظْلِم ويُغطّيه ويغمرُه موجٌ من فوقه، وفوقَ ذلك الموجِ موجٌ آخر، وفوقَ البحر سحابٌ، كما يَدُلُّ السّياق على أنَّ هذه العواملَ تُسْهِمُ في حَجْب النّور عنِ الكائن في ذلك المكانِ، وتُصَوِّر شِدَّة الظُّلمة المُحيطة بالمُشَبَّه به كما سيأتي في قوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾، وهذه الصّورة المرسومة للمُمَثَّل به تَدُلُّ على وجود موجٍ داخلَ البحر واقعٍ بينَ قاعِهِ وسطحِهِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾:

تصويرٌ لحالةِ الخوفِ المجتمعةِ والمتتابعةِ

دلّ التّعبيرُ بقوله: ﴿مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾ على تصوير حالةِ الخوف المتتابعةِ والمُتراكمة من خوف البحر وأمواجه والسَّحابِ المُرتفعِ فوقَه، وقيل: إنَّ المعنى: يغشاه موجٌ من بعد موجٍ، فيكون الموج يَتبع بعضُه بعضًا حتَّى كأنّ بعضَه فوقَ بعضٍ، والبحرُ أخوفُ ما يكون إذا توالت أمواجُه[2]، والسّحابُ المُرتفعُ فوقَه بظلامِه.

دلالةُ التّعبيرِ بالظَّرفيّة ﴿فَوۡقِهِۦ﴾:

الفَوقيَّةُ دالّةٌ على تكاثُفِ وترادُفِ الظُّلماتِ؛ بيانًا لِشِدَّةِ الأمرِ وتعاظُمِهِ

دلَّ التّعبيرُ بالظّرفيّة ﴿فَوۡقِهِۦ﴾ في قوله: ﴿فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾ و﴿فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾ على إبراز صورة الظّلمات المُتراكمة والمُترادفة من أمواج البحر وتتابعها؛ فالضَّمير في قوله: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ﴾ يعود على الموج المُتقدّم ذِكْرُه في قوله: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾، فقولُه: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾

---

(1) هيتو، المعجزة القرآنيّة، ص: 195.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 46.

صفةٌ للموج المُتَقَدِّم ذِكْرُه[1]، وهذا الموج هو الكائِنُ على سطح البحر المشاهَدُ بالعيان، وذلك أنَّ هذا المعنى هو المُتبادِر إلى الذّهن إزاءَ لفظ (الموج)، ولم يُصرَف عن ذلك بصارفٍ، كما أنَّه هو الموجُ الذي يكون السَّحابُ من فوقه، والموج الذي يكون على سطحه، وفي هذا تقريرٌ لحقيقة علميَّة، وهي: أنَّ هناك أمواجًا داخليَّةً تَكَلَّم عنها العِلْمُ الحديثُ وأثبتها، كما يُشير إلى الأمواج السَّطحيَّة التي نراها ونعرفُها، وهذا المعنى واضح من قوله تعالى: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ﴾؛ أيّ: إنَّ الموجَ الأوَّل مِنَ الأسفل، والموجَ الثّاني يأتي من فوقه، ولم نعد بحاجةٍ إلى ارتكابِ المجازِ في قولنا: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ﴾؛ أيّ: من بعده، وأن تتابعَ الموجِ يُظْهِره كأنَّ بعضَه يَرْكَب بعضَه الآخر، فالآيةُ واضحةٌ كُلَّ الوضوحِ، وصريحةٌ في دلالتها على هذا الذي اكتشفَهُ العِلْم الحديثُ مِنَ الأمواج الباطنة التي تعلوها الأمواجُ السّطحيَّة، ولا سيما أنَّ الآيةَ قالت: ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾؛ أيّ: عميقٌ، وهذا إِنَّما يكون في المحيطات لا على الشَّواطئ والخُلجان[2].

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾:

شِـدّةُ الخوفِ وهولُ الصّورة

دلّ التّعبير بقوله: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾ بعدَ فوقيّةِ الموج على تصوير حالةِ الخوف الشّديدة التي تعتري الإنسانَ من هذا السّحاب المُظْلِم؛ لأنّه سَتَر النّجومَ التي يهتدي بها مَن في البحر، ثُمَّ إذا أمطرت تلك السُّحبُ وهبّتِ الرّيحُ المعتادَة في الغالب عند نزول المطر، تكاثفتِ الهمومُ، وترادفتِ الغُمومُ، وبلغَ الأمرُ إلى الغاية التي ليس وراءَها غايةٌ، ولهذا قال سبحانه: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾؛ أيّ: هي ظلماتٌ متكاثفةٌ مترادفة، دلَّ عليها ذِكْرُ فوقيَّةِ السَّحاب بعد ذِكْرِ فوقيَّةِ الموج التي تصوّر تَراكُمَ الأمواجِ الهائلة

---

(1) الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/ 605.

(2) هيتو، المعجزة القرآنيّة، ص: 195، 196.

وتَضاعيفها حتَّى كأنَّها بلغَتِ السَّحابَ[1]؛ ففي هذه الجملةِ بيانٌ لشِدّة الأمر وتعاظمِه[2].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿سَحَابٌۚ﴾:

الـدّلالـةُ على الـشُّـمـول والإحـاطـةِ في الحُجُبِ

قولُه تعالى: ﴿سَحَابٌۚ﴾؛ أيْ: سحابٌ كثيفٌ متَراكِمٌ قائم[3]، فتنكيرُ لفظِ السّحاب يَدُلُّ على انتشارِ السّحابِ الكثيفِ المتراكِم وتغطيتِه للأرجاء المُحيطةِ بصاحب المَثَل.

نُكْتَةُ فصلِ جملةِ: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ عمّا قبلها:

إجمالُ ما سبق تفصيلُه بذِكْر كَمالِ شِدَّةِ الظُّلماتِ بسبب كثرة الحُجُبِ

فُصِلت جملة: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها جملةٌ استئنافيّةٌ، والتّقدير: (هي ظلمات)، وهذه الجملةُ فيها إجمالٌ بعدَ تفصيل؛ وذلك أنّه قال في أوّل المَثَل: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾، ثُمَّ فصَّلَها وبَيَّنَ أنَّها مكوّنةٌ من ظُلمة قاعِ البحر النّاتجةِ عن موجٍ فوقَه وموجٍ فوقَ الموجِ الأوَّل، وسحاب فوقَ الجميع، ثُمَّ أَجْمَلَ بقوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾، ثمّ فصَّل بقوله: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾.

سِرُّ وصفِ أمواجِ البحرِ بالظّلمة:

سـوء مـآل الـكـافـريـن، ظـلـمـات فـوق ظلمات

وصف القرآنُ الكريمُ أمواجَ البحر بالظّلمة في قوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ مع أنّ الموجَ هو حركة ماء البحر، وماء البحر شفاف، فكيف يُسَمَّى ظُلمة؟ والجواب: أنَّ تسمية هذه الحُجُب ظلمةً إنّما هو باعتبار أنّها مُسبِّبَةٌ لها، والسّياق يَدُلُّ على أنَّ الظُّلْمَةَ لم تحدث من شيءٍ واحدٍ، وإنّما أسهمت هذه العوامل مُجتمعةً في تكوينها واستحكامها؛ فالسَّحابُ والموجُ الأوَّل والموجُ الثّاني كُلٌّ منها عزلَ شيئًا منَ الضَّوء؛ فأحدَثَ ظُلمةً فيما تحتَه[4]، فعُلِم من هذا الإجمالِ بذِكْر الظُّلمات المتَراكمةِ بُعْدُ مكانِ المُمَثَّل به عن مصدر

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 181، 182.

(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 46.

(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 134.

(4) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 587.

الضّوء وشِدّةُ ظلمته؛ لوجود الحُجُبِ الكثيرة بينَه وبينَه، وهذه الظُّلمة ملازِمَةٌ لا تتأثّر بإشراق الشَّمس نهارًا فوقَ السَّحاب، أو غيابِها ليلًا، فسببُها الحُجُبُ الكثيفةُ المانعةُ للضّوء والبُعْدُ السَّحيقُ؛ فهي مُتكاثِفةٌ مُتراكِمةٌ، وهذا بَيانٌ لكَمالِ شِدَّةِ الظُّلماتِ(1).

بلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ المتُّواترةِ:

تعدُّدُ القراءاتِ ثَراءٌ للمعنى

قرأ الجمهورُ: ﴿سَحَابٌۢ﴾ بالرَّفع والتَّنوين، و﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾ بالرَّفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف تقديرُه: هي ظلماتٌ، وقراءةُ الجمهور تبيينٌ لتلك الظُّلمات الثَّلاث في قوله: ﴿مَّوۡجٌ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٌ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٌۢ﴾؛ فهذه ثلاثُ ظُلُماتٍ(2)، وقرأ ابن كثيرٍ في رواية قُنبل: ﴿سَحَابٌۢ﴾ بالرَّفع والتَّنوين، و﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ بالخفض على البدلِ من ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾ الأولى، كأنّه قال: (أو كظُلُماتٍ بعضُها فوقَ بعض)، وقرأ البزّيّ: ﴿سَحَابُ ظُلُمَٰتٍ﴾ على إضافة السّحاب إلى الظّلمات(3)، فقد جعلَ الموجَ المتراكِمَ بمنزلةِ السَّحابِ كما يُقالُ: سَحابةُ رحمةٍ؛ فأضافَ ﴿سَحَابُ﴾ إلى ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾؛ ليبيِّنَ في أيِّ شَيءٍ هو(4)، ووجه الإضافة أنَّ السَّحاب يرتفع وقتَ هذه الظُّلُمات، فأُضيفَ إليها لهذه الملابسة.

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في ﴿بَعۡضُهَا﴾:

تأكيدُ ما تَقدَّم مِن أنَّ الحُجُبَ ظُلماتٌ

الضَّمير في ﴿بَعۡضُهَا﴾ من قوله تعالى: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ يعودُ إلى الظُّلمات الثَّلاث التي سبق تفصيلُها، وهو يُفيد تأكيدَ ما تقدّم من أنَّ الحُجُبَ ظلماتٌ؛ أيْ: إنَّها تسبَّبت في حصول الظُّلمة وحَجْبِ الضَّوء، وهكذا الحال في المُمَثَّل له - كما

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 182، محمَّد سالم محيسن، المستنير في تخريج القراءات المتواترة، ص: 134.

(2) ابن خالوَيْه، الحُجَّة، ص: 263، والسَّمين الحلبيّ، الدُّر المَصون: 8/ 415، والمَظهريّ، التَّفسير المَظهريّ: 6/ 543.

(3) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 332.

(4) ابن زَنْجلَة، حُجَّة القراءات، ص: 502، ومَكّيّ، الكشف عن وجوه القراءات: 2/ 140، والعُكْبَريّ، التِّبيان في إعراب القرآن: 2/ 973.

يدلّ عليه الاعتبارُ والقياسُ - فهو في ظُلمةٍ شديدةٍ حالكةٍ، بسببِ حُجُبٍ حَجَبت عنه نورَ الهداية، وهكذا الحالُ في المُمثّل لهم - هذا القسم منَ الكفّار - الذين قامت بهم حُجُبٌ حجبت قلوبَهم عن نور الهداية، وضُربت عليهم حُجبٌ منعت أنوارَ الهداية أن تصل إليهم جَزاءً وِفاقًا[1].

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿فَوۡقَ﴾ دونَ حرف الجرِّ:

استغراقُ الجهةِ في هذا الموضعِ

أثبتَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجَرّ في جُملةِ ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾، ولم يُثبته في جملة ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾؛ لأنَّ المُرادَ استغراقُ الجهةِ في هذا الموضع؛ فهي ظُلماتٌ مُتراكمةٌ يَبْعُد كُلَّ البُعدِ أن ينفذ فيها بَصَرٌ[2]؛ فأفادت أنَّ الحُجُبَ مترتبةٌ مُتعاقبة بعضُها أقربُ إلى الشَّخص الكائن في ذلك المكان المُظلم، وبعضها أقربُ إلى مصدر النّور، وقوله: ﴿بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ يقابِلُ قولَه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ [النور: 35] في مَثَل النّور المُتقدِّم في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ [النور: 35] الآية.

دلالةُ حذفِ زمنِ وقوعِ الظُّلمةِ:

ليشملَ زمنَ اللّيلِ والنّهارِ

لم يَذكُرِ السّياقُ زمنَ وقوعِ هذه الظُّلماتِ الواردةِ في المَثل القرآنيّ، أهي حاصلة باللَّيل أم النَّهار؟ مع أنّ بعضَ المُفسِّرين اعتبر أنَّ الزَّمان الذي تقع فيه الظُّلمة هو اللّيل، وأنَّه هو الأنسبُ[3] لسياق المَثَل المُصَوِّر لشِدَّة الظُّلمة، إلّا أنَّ اعتبار الزَّمان نهارًا له وجهٌ مُعتَبَرٌ في المَثَل؛ حيثُ يَدُلُّ على أنَّ مصدر النّور الذي هو الشَّمس موجودٌ إلّا أنَّ صاحب الظُّلماتِ أوقع نفسَه في مكانٍ محجوبٍ عنِ النّور، وفي حالٍ أوجبت أن يُحال بينَه وبين النّور، وعلى هذا فالأنسب في المَثَل افتراضُ أنَّ الشّمس

(1) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 604.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 287.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 39، والهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/ 605.

مُشرقةٌ فوقَ السَّحاب، وذلك للاعتبارات الآتية؛ **أوَّلًا:** أنَّ ذلك أبلغ في إفادةِ شِدَّةِ الظُّلمة، إذ إنَّ الظُّلمة اللّازمة التي لا تتأثّر بليلٍ ولا بنهارٍ أشدُّ وأعظمُ منَ الظُّلمة الطّارئة المُتأثِّرة بالشَّمس، **ثانيًا**: أنَّ افتراض أنَّ الشَّمس مُشرقةٌ، يُفيد في الدّلالة على بُعد الواقع في ذلك المكان المُظلِم عن مصدر النّور - الشَّمس - الذي يُقابَل في المُمَثَّل له بنور العِلْم، ممّا يُفيد في بيان أنَّ ضلالَه إنَّما هو بسبب بُعْدِه عن مصدر النّور، ووجودِ تلك الحُجُب، وليس انعدامَ مصدرِ النّور، **ثالثًا**: أنَّ التَّفصيل في ذِكْرِ الحُجُب، وتسميتَها (ظُلماتٍ) يدلُّ على أنَّ لها أثرًا في إحداث الظُّلمة، وذلك لا يتحقَّق إلّا بافتراض أنَّ الشّمس مشرقةٌ، حيثُ يخترق بعضَ أشعتِها السَّحابُ، أمّا في اللَّيل فإنَّ السَّحاب كافٍ في إحداث الظُّلمة، حيثُ يحجب النُّجوم، وعندها تستوي الظُّلمة فوقَ البحر وداخلَه، ولا حاجةَ لِذكْر الحُجُبِ الأخرى، ولكن يُناسب ذلك مع وجود بعض الضَّوء الذي تَسَرَّب منَ السَّحاب - والشَّمس مشرقة - إذ يبرز أثر تلك الحُجُب في حَجْبِ ذلك الضَّوء النّافذِ عن قاع البحر[1].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ عمّا قبلَه:

المبالغةُ في بيان شِدّة هذه الظّلمات

فُصل قولُه تعالى: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ عمّا قبله؛ مُبالغةً في بيان شِدَّة هذه الظُّلمات، وهو منَ التّفصيل بعدَ الإجمال ببيان المُراد من وصف الظُّلمة المُتقدِّم، وهو إفادة عَدَمِ قُدرة مَنْ كان فيها على الإبصار والاهتداء إلى طريق النَّجاة[2].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿لَمۡ يَكَدۡ﴾، وفائدةُ التَّعبيرِ به:

المُبالغةُ في وصفِ استحكامِ الظُّلْمةِ في نفيِ مُقاربةِ الرُّؤيةِ فيها

اختلف عُلماءُ اللُّغة والتَّفسيرِ في قولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾؛ هل يقتضي أنَّ هذا الرَّجل المُقدَّر في هذه الأحوال إذا أخرج يده من كُمِّه لم يرها البتّة، أو رآها بعد عُسْرٍ وشِدَّة؟ فقالت فرقة: لم

(1) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 591.

(2) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 592.

يرها البتّة؛ وذلك أنَّ (كاد) معناها: قارب؛ فكأنَّه قال: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾ لم يُقاربْ رؤيتَها، وهذا يقتضي نفيَ الرّؤية جُملةً، وقالت فرقة: بل رآها بعد عُسر وشِدّة[1]، وكاد ألّا يراها، ووجه ذلك: أنَّ (كاد) إذا صَحِبَها حرفُ النَّفي وجبَ الفعل الذي بعدَها، وإذا لم يصحبها انتفى ذلك الفعل، وخلاصة القول في المُراد بقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾، أنّ الرّاجح في معناها: أنّه لا يراها ولا يقرُب من رؤيتها، وإذا لم يُقارب رؤيتها فهو من أن يراها أبعدُ؛ فالكائنُ في ظلمات البحر اللّجيّ التي ما زال فيها شيءٌ من ضوءٍ، لا يرى يدَه إلّا بصعوبةٍ، لكن إذا غاص إلى الأعماق التي تغرق في الظّلام الشّديد، ومَدّ يدَه أمامَ عينيه، فإنّه لا يراها أبدًا.

وهذا التّفسير متّفِقٌ مع معنى (كاد)؛ الذي يُفيد المقاربة، ومُتَّفق مع دلالة الأسلوب ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾، الدّال - كما تقدَّم - على نفي مُقاربة الرُّؤية؛ فهو مع صِحَّته أبلغُ في إفادة المعنى المُراد المتّفِق مع السّياق الذي دلَّ على استحكام الظُّلمة ونتيجةِ ذلك، وهو عدمُ قدرةِ الكائن في هذا المكان على إبصار يده.

سِرُّ انتخابِ اليدِ دونَ سائرِ الأعضاءِ في الرُّؤيةِ:

كونُ اليدِ أقرب عضوٍ لمحلِّ رؤية الإنسان

لمّا كانت العادةُ في اليد أنّها مِن أقرب ما يراها الانسان، وأبعدُ ما يُظَنّ أنّه لا يراها؛ قال تعالى: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾؛ وفي هذا بيانٌ لبلوغ تلك الظُّلمة التي هي أقصى النِّهايات[2]، وللدّلالة على أنّه إذا عجز عن إبصار يده فهو عن إبصار غيرها أعجزُ، فيكون عاجزًا عجزًا تامًّا عنِ الاهتداء إلى طريق النّجاة، وعنِ الفكاك عن ذلك المكان المُظلم الموحِش المُهلِك[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 336.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 14/ 408.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 244، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 54، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 619، 620.

دلالةُ الاعتراضِ التَّذييليّ:

مَن يُضلل اللهُ فلا هاديَ له

قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ، جيءَ به لتقرير ما أفاده التّمثيلُ من كون أعمال الكُفّار كما فُصّل في المَثَل السّابق، وختام المَثَل بقوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فيه دلالةٌ على فعل اللّه ﷻ، وأنَّه لم يجعل لهم نورًا حيثُ منعَ عنهم النّورَ بالحجاب الذي ضربَه على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، وهذا المعنى الذي دلَّ عليه المَثَل - وهو ختمُ اللّه وطَبْعُه على قلوب وأسماع الكافرين - دلّت عليه نصوصٌ كثيرةٌ.

دلالةُ التّعبيرِ بالموصول (مَن) وموقعُه منَ الجملة:

الإشارةُ بما في حَيِّز الصِّلَةِ إلى علَّةِ الحُكمِ

إيرادُ الموصولِ في قولِه: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا﴾؛ للإشارة بما في حيِّز الصِّلَة إلى عِلَّة الحُكم، وأنَّهم مِمَّن لم يشإِ اللّه تعالى هدايتَهم؛ أيْ: مَن لم يَشإِ اللّه تعالى أن يهديَه لنوره في الدُّنيا فما له هدايةٌ ما، مِن أحدٍ أصلًا[1].

دلالةُ التَّعبير بالجَعْل في قولِهِ: ﴿يَجۡعَلِ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ الله تعالى مُتصَرِّفٌ بالإعطاءِ والمَنعِ

في التَّعبير بالجَعْل تنبيهٌ على أنَّ اللّه تعالى مُتصَرِّفٌ بالإعطاءِ والمَنعِ على حَسَبِ إرادتِه وحِكمتِه وما سبَقَ مِن نِظامِ تَدبيرِه[2]، فهو إثباتٌ لفعل اللّه سُبحانه في إضلالهم، ومنعِه النّورَ عنهم، بما ضُرِب عليهم منَ الخَتْم والطَّبع والغِشاوة[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

في التَّعبيرِ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الملكُ الأعظمُ ﴿لَهُۥ نُورٗا﴾ منَ الأنوار[4]؛ تدليلٌ على عَظَمة النّورِ والهداية الصّادِرَيْن منَ المعبود الحقِّ.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 182، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 376.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 257.

(3) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/ 619.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 287.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾:

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على ذِكْرِ النّور في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا﴾ تشويقٌ للمُؤَخَّر - وهو النّور - الحاصلِ بتوفيق الله تعالى.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن نُّورٍ﴾:

استغراقُ النَّفي وشمولُه لِكُلِّ جزءٍ من أجزاءِ النّورِ

جيءَ بـ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ ليَدلّ وجودُها على استغراق النَّفي وشموله لِكُلِّ جُزءٍ من أجزاء النّور، ولو قيل: (فَما لَهُ نّورٍ) بدون (مِن)؛ لما أفاد هذا المعنى الذي دلَّ عليه وجودُها.

بلاغةُ الطِّباقِ في الجمعِ بينَ الظُّلماتِ والنّور:

إيضاحُ المَثَلِ المَضروبِ، وترسيخُ دلالةِ مبناه في النُّفوسِ

بين لفظيّ ﴿نُّورٍ﴾ و﴿ظُلُمَٰتُۢ﴾ طباقٌ أفصحَ عن دلالة الرَّبط في الآية الكريمة، وأدَّى إلى مزيدِ إيضاحٍ للمَثل المضروب وترسيخ لدلالته؛ بما يُسبّبه هذا الطِّباق بينَ اللَّفظتَيْن من شَدٍّ للانتباه، وجذبٍ للنَّفس المُتلقّية له قراءةً، وتدبُّرًا، وفي ذلك تعزيزٌ للوظيفة الإبلاغيَّة للطِّباق بالوظيفة التَّأثيريّة التي يترسَّخ من خلالها المنهجُ الفطريُّ السّليم للنَّفس البشريّة، باتّباع الهُدى والاستبشار بالنّور واتِّباعه، والنُّفرةِ من ظُلمة الكفر والعصيان ونبذها.

نُكْتَةُ جمعِ الظّلماتِ وإفرادِ النّورِ:

النّورُ واحدٌ لا يتعدّدُ؛ والظّلماتُ مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ الأهواءِ والضّلالاتِ

لَمّا كان طريقُ الحَقِّ واضحًا مُستقيمًا كان واحدًا، وأمّا الباطلُ فلمّا كان غامضًا مُبهمًا؛ كانت طُرقُه كثيرةً مُتشعِّبةً مُتعدّدة مختلفة، ولمّا كانت الظُّلمة بمنزلةِ طريقِ الباطلِ، والنّورُ بمنزلةِ طريقِ الجنّة، أُفرِد النّور وجُمعتِ الظُّلمات؛ إذ إنَّ أصل النّور واحدٌ، وهو اللهُ جلَّ في علاه، وأصلُ الظّلمات مُتعدِّد بتعدُّد الأهواءِ والضّلالات، وتعدّد طُرُقِ الغَيِّ، فإفرادُ النّورِ لوَحْدَة الحَقّ، كما أنَّ جمع الظُّلمات لتَعدُّد

فنونِ الضَّلال[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإفراد إيماءٌ إلى القِلَّة، والجمع إيماءٌ إلى الكثرة، وأنَّ أهل الحَقِّ هم القِلَّة القليلةُ في كُلِّ عصرٍ ومصرٍ.

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 120، وطريق الهجرتيْن، ص: 177، والزّركشيّ، البرهان: 4/ 12.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١﴾ [النّور: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

هداية مخلوقات الله تعالى إلى تسبيحه وتنزيهه تستدعي النّظر والاعتبار

لّما بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ أنّه ﷻ مُنَوِّرُ السّماوات والأرض وواهبُ الهدايةِ لخَلْقه؛ فمنهم مَن انتفع بنوره واهتدى بهديه، ومنهم مَن ضَلّ وتراكمت عليه الظّلمات ولم يهتدِ لنور اللّه؛ جاءت هذه الآيةُ بالدّعوة إلى النّظر والاعتبار في هداية اللّه تعالى إلى كثيرٍ من أهل السّماواتِ والأرضِ الذين نَزَّهوا اللّهَ عن كلّ نقصٍ، وبما ألهم الطّيرَ إلى تسبيحه؛ فكانت أصواتُها دلائلَ حالٍ على تسبيحِ اللّهِ وتنزيهِهِ عنِ الشّرك بلسانِ الحالِ[1].

ومنها: لّما ذَكَرَ اللّهُ تعالى مَثَلَ المؤمنِ والكافرِ، وأنَّ الإيمانَ والضَّلال أمرُهما راجعٌ إليه؛ أعقبَ بذِكْرِ الدَّلائلِ على قُدرته وتوحيدِه[2].

ومنها: أنَّه تعالى لّما وصف نورَه في الآيات السّابقة، وذَكَر من اهتدى به وما أُعِدّ لهم مِنَ الثّواب، وبَيَّنَ حال مَن لم يُرزق ذلك النّور؛ ذَكَر في هذه الآية ما يُفْضي إلى تحصيل ذلك النّور ويدلُّ على التَّوحيد الذي هو بَدْرُ البُدور فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ الآيةَ[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُسَبِّحُ﴾: (سبح) أصلٌ يدلُّ على جِنْسٍ مِنَ العِبادَةِ؛ وهو: البُعْدُ، والتَّسْبيحُ: التَّبْعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحَتُ في الأَرْضِ؛ أيَ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 258.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 55.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 404.

أَبْعَدْتُ فيها(1)، والتَّسْبيحُ: التَّنْزيهُ والتَّقْديسُ والتَّبْرِئَةُ، يُقال: سَبَّحْتُ اللّه، وسَبَّحْتُ لَهُ أُسَبِّحُهُ تَسْبيحًا وسُبْحانًا؛ أيْ: نَزَّهْتَهُ وبَرَّأْتَهُ من كُلِّ سوءٍ ونَقْصٍ(2)، ويأتي التّسبيح بِمعنى قَوْلِ: سُبْحانَ اللّهِ، فيُقال: سَبَّحَ الرَّجُلُ؛ أيْ: قال: سُبْحانَ اللّهِ، ويُطْلَقُ التَّسْبيحُ أيضًا على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بِالعِبادَةِ(3)، والمُراد بالتَّسبيحِ في الآيةِ: قَوْلٌ، أو مجموعُ قَولٍ مع عَمَلٍ، يدُلُّ على تَعظيمِ اللّه تعالى وتَنزيهِهِ.

2) ﴿صَٰٓفَّٰتٍۖ﴾: (صفَّ) أصلٌ يدلُّ على أصلٍ واحدٍ؛ وهو استواءٌ في الشَّيءِ وتَساوٍ بَيْنَ شيئَيْنِ في المَقَرِّ، مِنْ ذلكَ الصَّفُّ(4)؛ وهو السَّطْرُ المُسْتَوي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وجَمعُهُ: صُفوفٌ(5)، يُقالُ: وقَفا صَفًّا؛ إذا وقَفَ كلُّ واحدٍ إلى جَنْبِ صاحِبه، واصطفَّ القَوْمُ وتَصافّوا، والأَصلُ في ذلكَ الصَّفْصَفُ، وهو المُستَوي مِنَ الأَرضِ(6)، والطَّيْرُ الصَّوافُّ: التي تَصُفُّ أجنحتَها فلا تُحَرِّكُها(7)، والمُراد من ﴿صَٰٓفَّٰتٍۖ﴾ في الآية؛ أيْ: باسطاتٍ أجنحتَهُنَّ في الهواءِ حينَ الطَّيرانِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـكـونُ كـلُّـهُ يُسبّحُ خالِقَه

معنى قوله ﷻ في هذه الآية: ألم ترَ أنَّ اللّهَ يُسَبِّحُه وينزِّهُه عنِ النَّقائِصِ كُلُّ مَن في السَّماواتِ وكُلُّ مَن في الأرضِ مِنَ الملائكةِ والنّاسِ والجِنِّ والحيواناتِ والنَّباتاتِ والجَماداتِ، والطَّيرُ باسِطاتٍ أجنِحَتَها في السَّماءِ حالَ الطَّيرانِ تُسَبِّحُ رَبَّها، وكُلُّ مَخلوقٍ قد عَلِمَ صلاتَه وتَسبيحَه للّه تعالى، واللّهُ ذو عِلمٍ بما يفعَلُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح)، والخطابيّ، غريب الحديث، ص: 685.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).
(3) ابن سيدَه، المُحْكَم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبح)، والمُناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 96.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صف).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (صفف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صف).
(7) الخليل، العين، وابن دُرَيد، جمهرة اللّغة: (صف)، و(صفف).

كُلُّ مُصَلٍّ ومُسَبِّحٍ منهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، وهو مُجازيهم على ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

طَلَبُ النَّظرِ والاعتبارِ بمَن رُزِقَ الهدايةَ بعد ذِكْرِ مَنْ حُرِمَها

فُصِل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ عمّا سبقه؛ لأنّه استئنافٌ ابتدائيٌّ، أعقبَ تمثيلَ القرآنِ لأهل الضّلالة، وكيف حرمهمُ اللّهُ الهُدى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ بِطَلَبِ النَّظرِ والاعتبار، كيفَ هدى اللّهُ تعالى كثيرًا من أهل السَّماوات والأرض إلى تنزيهه المُقتضي الإيمانَ به وحْدَه، وبما ألهمَ الطَّيرَ إلى أصواتها المُعْرِبَة عن بهجتها بنِعْمَة وجودِها ورِزْقِها النّاشِئَيْن عن إمداد اللّهِ إيّاها بهما؛ فكانت أصواتُها دلائلَ حالٍ على تسبيح اللّه وتنزيهه عنِ الشَّريك[2].

وقيل: هو استئنافٌ خوطِب بِهِ النَّبيُّ ﷺ، وإن أُريدَ به كلّ المُكَلّفين؛ وذلك للإيذان بأنّه تعالى قد أفاض عليه ﷺ أعلى مراتبِ النّور وأجلاها، وبَيَّنَ له مِن أسرار المُلك والمَلَكوت أدقَّها وأخفاها؛ والمعنى: قد علمتَ - أيُّها الرَّسول - عِلمًا يقينيًّا شبيهًا بالمُشاهدة في القوَّة والرَّصانة بالوحي الصَّريح والاستدلال الصَّحيح[3].

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

تقريرُ تنزيهِ اللهِ وتقديسِه، وبيانُ انقيادِ كلِّ الكائنات لربِّها

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ للاستفهام، وهو هنا للتّقرير، وغرضُه: إثارةُ الذِّهن، والتشويق لما يَرِدُ بعدَه منَ الكلام، وإيقاظ الانتباه والحِسّ عند فريقٍ منَ المشركين الذين لهم عقولٌ؛ لذلك جاء

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 334، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 72، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 570.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 257.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 182.

النَّظمُ الكريم بأسلوبٍ فيه استفهامٌ تقريريٌّ؛ للإشارة إلى أنّ تسبيح الكائنات وانقيادها له سُبحانه، واضحٌ إلى حَدٍّ أن يُرَى ويُعلَم عِلْمًا لا شكَّ فيه بأنَّ هذا الكونَ كُلَّه بما فيه من سماءٍ وأرضٍ وفضاءٍ وكُلِّ شيءٍ؛ يدلُّ دلالةً قويَّةً على تنزيهِ الحَقِّ ﷻ، ويَشْهَدُ على ذلك بلسان الحال والمقال، ويَحتمِل أن يكون هذا الاستفهامُ مُستعملًا كنايةً عن التّعجيب من حال فريق المُشركين الذين هم من أصحاب العقول، ومع ذلك قد حُرِموا الهُدى لما لم يجعلْه اللّهُ فيهم، وقد جعل الهُدى في العجماوات؛ إذ جَبَلَها على إدراك أثرِ نعمة الوجود والرّزق[1].

دلالةُ الخِطاب في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

الخطابُ للنّبيِّ ابتداءً ولأُمَّته من بعدِه

الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، وإن أُريدَ بِهِ العموم؛ فيَعُمّ كُلَّ مخاطَبٍ كما هو الشّأن في أمثاله[2]؛ للإيذان بأنّه تعالى قد أفاض على نبيّه ﷺ أعلى مراتبِ النّور وأجلاها، وبيّن له من أسرار المُلك والمَلكوت أجلاها وأخفاها[3]، والظّاهر في الأسلوب العموم؛ والمعنى: أَلَم تَرَ أيُّها المُخاطَبُ[4]؛ لأنَّ هذا الكلامَ جرى مجرى المَثَلِ في التَّعجيبِ أيضًا[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

تنزيلُ المعلومِ منزلةَ المشهودِ

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالرُّؤية دونَ العِلْم في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾؛ للدّلالة على أنّ علمَه ﷺ ويقينَه بحال الكائنات في تسبيحها قد وصل إلى منتهاه، ويُؤكّد هذا المعنى ما قاله أبو السّعود: "قد علمتَ علمًا يقينيًّا شبيهًا بالمشاهدة في القوّة والرّصانة، وجاء علمُك عن طريق الوحي الصّريح والاستدلال الصّحيح"[6]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 258.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 258.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 182.
(4) ابن عُثَيمين، تفسير سورة النّور، ص: 284.
(5) بهجة صالح، إعراب القرآن الكريم، ص: 63.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 182.

وعلى هذا: تكون الرّؤية علميَّةً؛ والمعنى: ألم تعلم سواء كان علمُكَ عن طريق المُشاهدة بالبصر، أو عن طريق السَّمع بالأذن، أو عن طريق الاستنتاج بالعقل والتَّفكير، وهذه الثَّلاثةُ هي طُرُق العِلْم كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: 36]، فـ (ألم تعلم) عِلْمًا ناتجًا عن هذه الأمور الثَّلاثة، أو عن واحد منها، لأنَّ قولَه بعد ذلك: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يشمل الملائكةَ، وتسبيحُ الملائكة نحن لم نعلمه عن طريق الرُّؤية، ولكن عن طريق الوحي الذي هو السَّمع، فقد جاء عن نبيّنا ﷺ أنّ الملائكة تُسَبِّح الله، وسمعنا قولَ الله ﷻ أنَّ الملائكة تُسَبِّح[1]؛ فالرُّؤيةُ في هذه الآية بمعنى العِلْم، والظّاهر أنَّ إطلاقها عليه حقيقة، وقيل: هي حقيقةٌ في الأبصار، وإطلاقُها على العِلْم استعارةٌ أو مَجازٌ لعلاقة اللُّزوم.

وممّا يُذْكَر في سِرّ التّعبير بالرّؤية؛ الدّلالةُ على وضوح أمر التّسبيح إلى حَدٍّ أنّه يُرَى ويُعْلَم عِلْمًا واضحًا يُدْرِكه كلُّ قلبٍ أشرق بالنّور الإلهيِّ، وانتفع بالمعارف الرّبانيّة.

ويجوز أن تكون الرُّؤية هُنا بصريَّةً؛ لأنَّ تسبيح العُقلاء مُشاهَدٌ لكلّ ذي بَصَرٍ، وتسبيح الطَّير مُشاهَدٌ باعتبار مُسمّاه، فما على النّاظر إلّا أنْ يَعْلَم أنَّ ذلك المُسمَّى جديرٌ باسم التَّسبيح، وعلى هذا الاعتبار كان الاستفهامُ الإنكاريّ مَكينَ الوَقْعِ[2]، وكونها علميّةً أَوْلى.

سِرُّ التّعبيرِ بالرّؤيةِ بدلًا منَ السّماعِ:

العينُ أقوى الحواسّ وسيّدةُ الأدلةِ

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بالرّؤية دونَ السّماع في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ مع أنّ التّسبيح - ولا سيما تسبيح المقال - يناسبُه السّماعُ؛ لأنّه لمّا كانتِ العينُ هي أقوى الحواسّ وسيِّدةَ الأدلّة - كما يُقال: (ليس مع العين

(1) ابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 284.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 258، 259.

أين) - عبّر بها؛ لأنّها لا تحتاج إلى دليلٍ، بخلاف السّماع فيَحتاج إلى ما يُصَدّقُه، ولذلك يُقال: (ليس مَن رأى كمَن سَمِعَ)، ولمّا كان المقامُ هنا يتعلّق بأمر تسبيح الكون، وهذا أمرٌ ظاهرٌ للعيان، سواءٌ كان منَ المُكلّفين أو كان من غيرهم بما يدلُّ عليه حالُهم - عبّر بالرّؤية؛ بخلاف السّماع فإنّه يكون مقصورًا على تسبيح المقال، وهذا غير مُرادٍ.

دلالةُ التّعبير بالاسمِ الجليلِ:

لتَضمُّنِه لكلّ صفاتِ الجمالِ والكمالِ

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالجلالة في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ لأنّه المُتضمِّن لكلّ صفاتِ الجمال، والحائزُ لكلّ صفات الكمال[1]، وهو المناسبُ للتّسبيح الذي يقوم به أهلُ السّماوات والأرض منَ العقلاء وغيرهم[2]؛ فهم يُنَزِّهونه على الدّوام في ذاته وصفاته وأفعاله عن كلّ ما لا يليق بشأنه من نقصٍ وآفةٍ.

بلاغةُ التَّوكيد بـ ﴿أَنَّ﴾ والجُملةِ الاسميَّةِ:

في التَّأكيد بـ ﴿أَنَّ﴾ واسميَّة الجُملة في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ تأكيدٌ لوقوع التَّسبيح، وأنَّه حاصلٌ من هذه المخلوقات المذكورة حالًا ومقالًا.

سِرُّ انتخابِ التَّسبيحِ دونَ غيرِه منَ الذِّكْرِ:

تقبيح حالِ الكَفَرة في إخلالهم بالتَّنزيه

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالتَّسبيح الذي هو تنزيه اللّه تعالى وتقديسُه، وإثباتُ ما يليق بجلالِهِ من صفات الكمال[3]؛ لما أنَّ سياق الكلامِ لتقبيح حالِ الكَفَرة في إخلالهم بالتَّنزيه، وذلك بجَعْلِهم الجماداتِ شُركاءَ له في الأُلوهيَّة، ونسبتِهم إيّاهُ إلى اتّخاذ الولد، تعالى اللّهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا[4]؛ ولأنّ التّسبيح هو القضيّة الأولى

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 288.

(2) حقّيّ، روح البيان: 6/ 163.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 135.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 182.

التي ذكرتها الملائكة في قولهم للّه تعالى: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: 30]؛ فجاء التّعبيرُ بالتّسبيح في هذه الآية؛ ليُبيِّن أنّ أمر التّسبيح ليس مقصورًا عليهم؛ بل الكونُ كلُّه يُسَبّح للّه ربِّ العالَمين.

سِرُّ التَّعبير بالمُضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾:

تَجَدُّدُ التَّسبيحِ مِن هذه المخلوقاتِ واستمرارُه

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالمضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ مع أنّه ورد بالماضي أيضًا في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحشر: 1] [الصف: 1]، وقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحديد: 1]، وبالأمر في نحو قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى: 1]، وكلّ هذه الصّيغ تدلّ على أنّ كلّ تلك الأجناس مُسَبّحة للّه في كلّ الأوقات؛ لكنّه آثَرَ في هذه الآية التّعبيرَ بالمضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ الذي يدلُّ على تَجدُّد التّسبيح للّه ﷻ في ذاته وصفاته وأفعاله؛ فهم يُجدّدونه في كلّ وقتٍ، ولا يفترون عنه أبدًا.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾:

الاعتناءُ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقُ على المُؤَخَّرِ

جيء بشِبْهِ الجُملةِ ﴿لَهُۥ﴾ مُقدَّمًا في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للاعتناء بالمُقدَّم؛ وهو كون التَّسبيح له خاصًّا به ﷻ لا يُصْرَف لغيره، وكذلك للتَّشويقِ إلى المُؤخَّر؛ وهو ذِكْر المخلوقاتِ العظيمة المُسبِّحة بِقُدسِه ﷻ.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تغليبُ العُقلاءِ جريًا على عادةِ الخطابِ القرآنيّ، ولأنَّهم أعلى مكانةً

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (ما) مع أنَّ فيها ما لا يعقل؛ لأنَّها كلُّها في دلالتها على التَّسبيح أُقيمت مقامَ العاقل؛ ولمّا كان فيها عُقلاء وغيرُ عقلاء؛ فقد غلَّب في البيان العقلاءَ؛ لأنّ التّسبيح أظهر للعُقلاء من غيرهم، ولأنَّهم أعلى

مكانةً من غيرهم، كالملائكة فإنَّهم أعلى من غيرهم، ومثل ذلك عقلاءُ الإنس والجنِّ المَهديّون، وغيرهم[1].

وممّا يُذْكَر في سِرّ التّعبير بها؛ الدّلالةُ على كمال دلالة المخلوقات عليه سُبحانه وغاية وضوحها؛ حيث عبَّر عنها بما يخصُّ العُقلاء منَ التَّسبيح الذي هو أقوى مراتب التَّنزيه وأظهرها؛ تنزيلًا للسان الحال منزلةَ لسانِ المقال - وذلك على قول في التّفسير - فأكّد ذلك بإيثار كلمة ﴿مَن﴾ على (ما)؛ كأنّ كلّ شيءٍ ممّا عَزَّ وهان، وكُلّ فردٍ من أفراد الأعراض والأعيان - عاقلٌ ناطقٌ، ومُخبرٌ صادقٌ بعُلوِّ شأنِه تعالى وعِزَّة سُلطانه[2].

سِرُّ تخصيصِ التّسبيحِ بالعقلاءِ:

خِلْقَةُ العقلاءِ أشَدُّ دلالةً على وجودِ الصّانعِ

وجهُ تخصيص التّسبيح في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بالعُقلاء؛ أنَّ خِلْقَةَ العقلاء أشَدُّ دلالةً على وجود الصّانع ﷻ؛ لأنّ العجائب والغرائب في خلقهم أكثر؛ وهي العقل والنّطق والفهم، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: 21] وذلك على قولٍ في التَّفسير[3]، فإذا قيل: إنَّ التّسبيح بالمقال؛ فمنَ المعلوم أنَّ الكافر لا يُسبّح اللّهَ بمقاله؛ يعني: لا يقول سُبحان اللّه؛ لأنّه يصفُ اللّه بالعيب، ويجعلُ مع اللّه شريكًا؛ لكنّه مُسَبّح للّه بحالِه وما جُبلَ عليه؛ إذِ الوجودُ كلُّه منَ الذّرّة إلى المَجَرة يتحرّكون بأمر اللّه وسُنَنِه، وهذا التّسبيحُ غيرُ عاقلٍ، وإنّما هو تسبيحٌ خَلْقيٌّ بنظامهم، فالتّسبيحُ يشمل: التّسبيحَ بالقول وبالحال، بالقولِ مِثْل: سبحان اللّه، وبالحالِ أنّك إذا تأمَّلت خَلْقَه وما جُبلوا عليه علمتَ بذلك أنّ اللّه تعالى مُنزَّه عنَ العبث وعنِ النّقائص، فيُسَمّى هذا: التّسبيح بالحال[4].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5202.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 182.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 288، وزاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 6/ 237، والشِّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 628.

(4) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 286.

وبعضُ العلماء يرى أنّ التّسبيح لا يَبْعُد أن يكون باللّسان؛ وذلك بأن يخلق اللّهُ لكلِّ ما في الأرض من حيواناتٍ وطيورٍ ألسنةً تُسَبّح صانعَها بلُغةٍ تعرفُها، أودعَ اللّهُ فيها خصائصها، وإن لم نفهمها نحنُ؛ قال اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: 44].

دلالةُ الابتداءِ بِذِكْرِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

ابتدأ النَّظمُ الكريم بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ مِلكَها يَدُلُّ على مِلكِ الأرض بطَريقِ الأَولى[1]، وأيضًا: لعظَمِها، ولأنَّها أشرفُ مِن الأرضِ وأعلَى[2].

بلاغةُ جَمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

بيانُ كونِ السَّماواتِ أجناسًا مُختلفةً والأرضِ جنسًا واحدًا

النّاظرُ في آيات القرآن الكريم يجد أنّ لفظَ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جاء مُفردًا في جميع مواضعه، سواءٌ كان ذلك مُقترنًا بذِكْر السّماوات كما في هذه الآية: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أو مُفردًا عنها كما في قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ [الرّعد: 4]، مع أنّ لفظ (السّماوات) ورد في القرآن بينَ الإفراد والجمع، وتعدَّدت توجيهاتُ العلماء لذلك؛ فمنهم مَن يرى أنّ عِلّة الإفراد للأرض لفظيَّةٌ؛ وهي خِفَّة اللّفظ بالنّطق وجريانُه في الفم بسهولةٍ ويُسْرٍ بخلاف لفظ الجمع (أراض)، و(أرَضون)؛ فهو ثقيلٌ مُستكْرَهٌ على اللّسان والسّمع، ويُؤكّد ذلك أنّ القرآن الكريم لمّا أراد أن يُعَبّر عن الأرض بالجمع عبّر عنها بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطّلاق: 12]؛ فقال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطلاق: 12] ولم يَقُلْ: (سبع أرضين)، ممّا يُؤكّد أنّ القرآن حريصٌ على تجنُّب هذا الجمع لثِقَلِه، وآثَر عليه المُفرد، أمّا (السَّماواتُ) فجُمعت؛ لأنَّها أجناسٌ مُختلفةٌ، وكلُّ سماء من جنسِ غيرِ الأُخرى، ووَحَّد (الأرض)؛ لأنَّها كُلَّها تُراب، ولأنَّ الأرض عالمٌ واحدٌ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/ 156.

(2) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 251.

وممّا يُذْكَر أيضًا في جمع (السّماوات) وإفراد (الأرض) أنّ السّماوات أشرفُ منَ الأرض، والجمعُ أبلغُ في التّفخيم منَ الإفراد[1].

سِرُّ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

مكانةُ السّماواتِ وأهمّيّتُها وعَظَمتُها

قُدِّمَ ذِكْرُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جريًا على عادةِ القرآنِ الكريم؛ فإنّ القرآنَ قدَّمَ ذِكرَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بما يزيدُ عن مئةِ آيةٍ، ولم يتأخَّرْ ذِكْرُ (السماء) عنِ (الأرض) إلّا في أربع آياتٍ لموجبٍ دلاليّ[2]، وقُدِّم ذِكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ - أيضًا - من باب تقديم الأعظم والأعلَى، فالشّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذِكْرُ الأعظم والأعلَى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يوجِبُ خِلافَه، والتَّقديمُ للأَهميّةِ والقَداسة؛ فالسَّماءُ فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنّةُ والمَلَأُ الأعلى، وسوى ذلكَ منَ الغيبيّاتِ.

دلالةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَٱلطَّيۡرُ﴾:

التّنصيصُ على عمومِ مَن يسكنُ السّماواتِ والأرضَ وما بينهما

عُطِفَ (الطّير) في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ على قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتّنصيص على عموم مَن يسكنُهما، ولإفادة الشّمول للجميع حتّى مَن يكون بينهما؛ فضلاً عن وصف الطّير في هذه الحالة؛ وهي استقرارُها في الفضاء صافَّةً أجنحتَها لا تُحرِّكها بتموُّج الهواء من تحتها ليقوى على حَملِها[3].

سِرُّ تخصيصِ الطّيرِ بالذّكْرِ من بينِ المخلوقاتِ:

ما يتميّزُ به الطَّيرُ من خاصّيّةِ الوقوفِ في الجوِّ بين السّماءِ والأرضِ

خُصّ الطَّيرُ بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ مع اندراجِها في جُملةِ ما في الأرضِ؛ لعدَمِ استِقرارِ قَرارِها واستِقلالِها بصُنْعٍ بارعٍ وإنشاءٍ رائعٍ؛ قَصدَ بَيانُ تَسبيحِها من تلك الجهَةِ؛ لوُضوحِ إنبائِها عن كَمالِ قُدرةِ صانعِها، ولُطْفِ تَدبيرِ مُبدعِها،

(1) ومَنْ أراد المزيدَ في علّة الإفراد والجمع، دلالات الإفراد والتّثنية والجمع في القرآن الكريم، ص: 90.
(2) وهذه المواضع هي: آل عمران: 5، ويونس: 61، وإبراهيم: 38، والعنكبوت: 22.
(3) الجباليّ، شفاءُ الصّدور بتفسيرِ سورة النّور، ص: 247.

ولكثرةِ لبثِها في الهواءِ، والطّيرُ في هذه الحالةِ ليس منَ السّماءِ ولا مِنَ الأرضِ؛ ففيها صنعةٌ بديعةٌ يَقْدِر بها تارةً على الطّيران، وتارةً على المَشْي؛ بخلاف غيرها من الحيوانات.

دلالةُ تقييدِ ﴿وَٱلطَّيۡرُ﴾ بقولِه: ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾:

لبيانِ استقرارِها في الفضاءِ وهي صافّةٌ أجنحتَها لا تُحَرِّكها

قيَّدَ القرآنُ الكريم ﴿وَٱلطَّيۡرُ﴾ بقولِه: ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ في قوله: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾؛ لبيان استقرارِها في الفضاءِ وهي صافّةٌ أجنحتَها لا تُحرّكها، وهذه خاصّيّةٌ أودعها اللّهُ في الطّير لا يملكها البشرُ؛ لأنّ إعطاءَ الأجرامِ الثّقيلةِ ما به تقوَى على الوقوفِ في الجوِّ باسطةً أجنحتَها بما فيها مِنَ القبضِ والبَسْطِ حُجَّةٌ قاطعةٌ على كمالِ قدرةِ الصّانعِ تعالى، ولُطفِ تدبيرِه(1)، فقولُه تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ تخصيصٌ بعدَ التّعميم، لِما فيها من إعجازٍ من أنّها تطير وتسير في الفضاء من غير أن يكون سيرُها على أجرامٍ جامدةٍ تتحمّل ما يسير عليها؛ بل هي تسير من غير جرْمٍ جامدٍ ثقيل تسير عليه، ولذلك خصَّها بالذِّكر لفضل ما تدلُّ عليه من إبداعٍ في الخَلْق والتّكوين حتّى كانت موضعَ درسٍ للإنسان، فأراد أن يُقلِّدَها وتَمّ له ما أراد؛ فكانتِ الطّائراتُ التي تقطع أجواءَ الفضاء، وسبحان مَن خلق كلَّ شيءٍ من غيرِ مثالٍ سبق(2).

دلالةُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾:

الإشـارةُ إلى الحالِ العجيبةِ المهيبةِ للطّيرِ عند تسبيحِها

خَصّ القرآنُ الكريم الطّيرَ بحالةٍ من أغرب أحوالها؛ وهي استقرارُها في الهواءِ مُسَبِّحةً للّه حالَ كونِها صافّاتٍ، وهي في أروعِ مظاهرِها وأعلى منازِلِها، حيثُ تكون مُحلِّقَة في جَوِّ السَّماءِ صافَّةً أجنحتَها؛ أيْ: باسطتَها في حالٍ منَ الهدوء والسُّكون، كأنَّها

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 110، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 56، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 183.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 405، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5202.

تستعرض العالَمَ الأرضيّ، وتبسطُ ظِلّها عليه؛ فهي في عُلوِّها وتربُّعِها على هذا العرش، لم يدخل عليها شيءٌ مِنَ الكِبْر والغرور، كما يقع ذلك لكثيرٍ مِنَ النّاس؛ بل إنّها لتزداد بهذا ولاءً وخشوعًا للّه؛ فتُقيم صلاتَها للّه في جَوّ السّماء صافّةً أجنحتَها مرسِلةً جوارحها في خشوعٍ واستسلام، معتمِدةً على قدرة اللّه، لا تخشى أن تهوي من حالق، وهذا هو التّوكل في أروع مظاهره[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالجمعِ ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ مع الطّيرِ:

عبّر القرآنُ الكريمُ بلفظِ الجمعِ ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ وصفًا للطّير؛ لأنَّ لفظ ﴿وَٱلطَّيۡرُ﴾ يقع على الواحد والجماعة، قال ابن الأنباريّ: "الطّير جماعة، وتأنيثُها أكثر مِنَ التّذكير"[2].

نُكْتَةُ فصلِ قولِهِ: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾:

فُصِلت جملةُ: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾؛ لأنّها استئنافٌ ثانٍ جيءَ به لبيان مَظْهَرٍ من مظاهر قُدرةِ اللّه تعالى وحِكمته حيثُ ألهم سُبحانه كلَّ مخلوقٍ من مخلوقاته كيفيَّة التّسبيح لخالقه ﷻ[3]؛ فهو مِن تمام العِبرة، إذ أودع اللّهُ في جميع أولئك ما به مُلازمتُهم لما فُطِروا عليه من تعظيم اللّهِ وتنزيهِهِ[4].

تمامُ العِبرة ببيانِ مظاهر قُدرةِ اللهِ وحِكمتِهِ في إلهامِ كُلِّ مخلوقٍ كيفيَّة التَّسبيحِ لخالقِهِ

دلالة التعبير بـ ﴿كُلّٞ﴾:

﴿كُلّٞ﴾ في قوله: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ مبتدأٌ مرفوعٌ وعلامةُ رفعه الضّمّة المُنونة؛ لانقطاعه عنِ الإضافة، والمُضافُ إليه الذي ناب عنه تنوينُ ﴿كُلّٞ﴾ ما يشمل المذكور المُصرّح به، والمُندرجَ تحتَ العموم حتَّى الجماد، فيَشمَلُ الطّيرَ وغيره مِنَ المُندرجِ في العموم السّابق، وفيه: أنَّ مِمّا اندرج في العمومِ الجمادُ، ولا يُنسب

الدّلالةُ على العمومِ والشُّمولِ

(1) الخطيبُ، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1298.
(2) سليمان الجمل، حاشية الجمل على الجلالَيْن: 3/ 231.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 136.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 258.

إليه العِلْمُ، وإنْ كان بمعنى مُطلقِ الإدراك، والتزم أنّ له علمًا وأنّه سبحانه ألهَمَه صلاةً وتسبيحًا لائقَيْن به، ممّا لا يرتضيه كثيرٌ منَ النّاس، فيجوز أن لا يكون هُناك استعارةٌ، والعِلْم على حقيقته، ويُراد به مُطلق الإدراك، ويُراد بما ناب عنه التّنوين أنواعُ الطَّير أو أفرادُها، وبالصَّلاة والتَّسبيح ما ألهمه الله ﷻ كلَّ واحدٍ منَ الدُّعاء والتَّسبيح المخصوصَيْن به، ولا بُعْدَ في هذا الإلهام؛ فقد ألهم سبحانَه كلَّ نوعٍ من أنواع الحيوانات علومًا دقيقةً لا يكاد يهتدي إليها جهابذةُ العقلاء، وهذا مِمّا لا سبيل إلى إنكاره[1].

نُكْتَةُ استعمالِ ﴿قَدۡ﴾، ودلالةُ دخولها على الفعل الماضي:

تحقيقُ العِلْمِ الحاصلِ عن علمٍ ورَوِيَّةٍ

دلَّ دخولُ ﴿قَدۡ﴾ على الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾، على تحقيق العِلْم الذي يُظهِر كمالَ عراقة كُلِّ واحدٍ ممّا ذُكِرَ منَ الطَّير، وما اندرج في عموم ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في التَّنزيه ورسوخ قَدَمه فيه، بتمثيل حالِه بحال من يعلم ما يصدر عنه منَ الأفاعيل، فيفعلُها عن قصد ونيَّةٍ، لا عن اتّفاقٍ بلا رويّةٍ[2].

بلاغةُ عودِ الضَّميرِ المحذوفِ في ﴿عَلِمَ﴾:

تنويعُ المعنى وتكثيرُه بحسبِ العائدِ مِن تلك الضّمائرِ

تعدّدت أقوالُ العلماء في عود الضَّمير المحذوف الذي هو فاعل ﴿عَلِمَ﴾ في قوله: ﴿عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾؛ فمنهم مَنْ قال: يُعود على المُصَلّي والمُسَبِّح؛ أيَ: كُلُّ واحدٍ مِمَّن يُصلّي لله تعالى، ويُسَبِّح بحمده قد عَلِمَ معنى صلاته ومعنى تسبيحه، فهو لم يعبد الله اتّفاقًا أو بلا رويّةٍ، وإنَّما عَبَدَهُ تعالى عن قصدٍ ونيَّةٍ، ولكن بكيفيَّةٍ نُفوِّض معرفتَها إلى الخالقِ ﷻ وحدَه، ومنهم مَن يرى أنَّ الضَّمير في ﴿عَلِمَ﴾ يعود إلى الله تعالى، فيكون المعنى: كلُّ واحدٍ من هؤلاء المُصلّين والمُسَبِّحين قد عَلِمَ الله تعالى صلاتَهم وتسبيحَهم له علمًا تامًّا شاملًا.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 380، وبهجت صالح، إعراب القرآن الكريم، ص: 63.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 380.

قال بعضُ العلماء ما ملخَّصُه: واعلم أنَّ الأظهر أن يكون ضميرُ الفاعلِ المحذوف في قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ﴾ راجعًا إلى المُصَلّين والمُسَبِّحين؛ أيْ: كلٌّ منَ المُصلّين قد عَلِم صلاةَ نفسِه، وكلٌّ منَ المُسَبّحين قد عَلِم تسبيحَ نفسِه؛ لأنّه على هذا القول يكون قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ من باب التّأسيس، أمّا على القول بأنّ الضّمير يعود إلى اللّه تعالى؛ أيْ: كلٌّ واحدٍ منهم قد عَلِمَ اللّه صلاتَه وتسبيحَه، فيكون قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ من باب التَّأكيد اللَّفظيِّ، والتَّأسيس للأحكام أولى منَ التَّأكيد لها[1].

نُكْتَةُ انتخابِ الاسميَّةِ في الصَّلاةِ والتَّسبيحِ:

انتخب النَّظمُ الكريمُ الاسميَّةَ في لفظي الصَّلاةِ والتَّسبيحِ في جُملةِ ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ﴾؛ لِبيانِ كمالِ الرُّسوخِ في الأمريْنِ، والثُّبوتِ فيهما[2].

بلاغةُ استعمالِ لَفْظِ (التَّسبيحِ) بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

تسبيحُ العقلاءِ حقيقةٌ، وتسبيحُ الطّيرِ بلسانِ الحالِ

تعدَّدت وجهةُ نظرِ العلماء في حَمل التّسبيح على الحقيقة أو على المجاز؛ نظرًا لجمع الآية بينَ العقلاء وغير العقلاء؛ فذهب بعضُهم إلى أنّ تسبيح العقلاء حقيقةٌ، وتسبيحَ الطَّير - على قول - مَجازٌ مُرسَلٌ في الدّلالة على التَّنزيه، وفيه استعمالُ لفظ التَّسبيح في حقيقته ومجازه، ولذلك خولف بينهما في الجُملة الثّانية، فعبَّر بالصَّلاة والتَّسبيح مُراعاةً لاختلاف حال الفريقيْن: فريقِ العُقلاء، وفريقِ الطَّير، وإنْ جمعتْهُما كلمةُ ﴿كُلٌّ﴾؛ فأُطْلِقَ على تسبيح العُقلاء اسمُ الصَّلاة؛ لأنَّه تسبيحٌ حقيقيٌّ، فالمُراد بالصَّلاة الدُّعاء، وهو من خصائص العُقلاء، وليس في أحوال الطَّير ما يستقيم إطلاقُ الدُّعاء عليه على وجه المجاز، وأُبقيَ لدلالة أصواتِ الطَّيرِ اسمُ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 136.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 380.

التَّسبيح؛ لأنَّه يُطلق مجازًا على الدّلالة بالصَّوت بعلاقة الإطلاق، وذلك على التَّوزيع، ولولا إرادة ذلك لَقيلَ: كُلٌّ قد عَلِمَ تسبيحَه، أو كلٌّ قد علِمَ صلاتَه[1].

ومنهم مَنْ قال: إنّ التّسبيح والصّلاة على الحقيقة؛ فالطَّير تُسبِّح وتُصلّي صلاةً وتسبيحًا يعلمُهما اللّه، ونحن لا نعلمهما كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: 44]، ومنَ الآيات الدّالّة على أنّ غير العقلاء منَ المخلوقات لها إدراك يعلمُه اللّه ونحن لا نعلمه قولُه تعالى في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 74]، فأثبتَ خشيةً للحجارة، والخشية تكون بإدراكٍ، وقولُه تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: 21]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ [الأحزاب: 72] الآية، والإباءُ والإشفاقُ إنَّما يكونان بإدراك، والآياتُ والأحاديثُ واردةٌ بذلك، وهو الحَقُّ، وظاهرُ الآيةِ أنَّ للطَّير صلاةً وتسبيحًا، ولا مانع منَ الحملِ على الظّاهر[2]، وهذا ما عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، وهو أنَّ اللّه تعالى عَلِمَ في الجماداتِ وسائرِ الحيواناتِ سِوى العُقلاءِ عِلمًا لا يَقِفُ عليه غيرُه، فلها صلاةٌ وتَسبيحٌ وخَشيةٌ، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [الحجّ: 18] الآيةَ؛ فيَجِبُ على المرءِ الإيمانُ به، ويَكِلُ عِلمَه إلى اللّهِ ﷻ[3].

بلاغةُ التَّذييلِ:

تقريرُ ما سَبَقَ من بيانِ قدرة اللهِ بعلمهِ بجميعِ خَلْقِهِ

لمّا بَيَّنَ اللّهُ تعالى قُدرتَه على جميع تلك الشُّؤون، عطف عليه قولَه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾؛ أي: المُحيط علمًا وقُدرةً، ﴿عَلِيمُۢ﴾ بما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 258.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 287، والشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 552.
(3) البغويّ، معالم التنزيل: 1/ 132.

ثبت مِمّا أخبركم به في هذه السّورة من دقائق أقوالكم وأحوالكم، وضمائركم وأفعالكم[1]، ففي الإعلام بسعة علم الله تعالى الشّامل للتّسبيح وغيره منَ الأحوال[2] تذييلٌ مُقرِّرٌ لَمضمونِ ما قبْلَه[3].

دلالةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ موضعَ الإضمارِ:

في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ إظهارٌ للاسم الجليل في موضع الإضمار؛ لتربية المهابة، والإشعار بعِلَّة الحُكم؛ إذْ هو وعيدٌ وتَخويفٌ[4].

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ المُبالغةِ (فعيل):

الإشـــارة إلى سعةِ علمِ الله ﷻ المحيطِ بكلِّ شيءٍ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بصفةِ ﴿عَلِيمُۢ﴾ على وزن (فعيل)؛ للمبالغة في وصفِ قُدرةِ الله تعالى وعِلمِه بخَلْقه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾، وللإشارة إلى سعةِ عِلْم الله ﷻ، المحيطِ بكلِّ شيءٍ، والعالم بكلِّ ما يَعلم الخلقُ وما يعملون، وهذا يُؤيِّد معنى أنَّ هذه المخلوقات لها عِلْمُها الذي تعمل به، وأنَّ لله ﷻ عِلمُه المحيطُ بعلمِها وعملِها جميعًا[5].

دلالةُ التّعبيرِ بالموصولِ في قولِه: ﴿بِمَا﴾:

إفـادةُ العمومِ والـشُّـمـولِ في تـقـريـرِ الـعِـلْـمِ والجزاءِ

دلّ التّعبيرُ باسم الموصولِ (ما) في قولِه: ﴿بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ على إفادةِ العموم؛ لذلك جمعَ النَّظمُ الكريم بين عِلْمه تعالى بأعمال المخلوقات وذلك بتعليمه إيّاها، وبين عِلْمه بأعمالها المُتَضمِّن للجزاء[6]، والموصول (ما) في التّذييل؛ إمّا عبارةٌ عنِ الدّلالة الشّاملة لجميع الموجودات مِنَ العقلاء وغيرهم، والتَّعبير عنها بالفعل ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ مُسنَدًا إلى ضمير العُقلاء لما أُشير إليه سابقًا من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 290.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 259.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 183، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 259.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 56، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 381.
(5) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1298.
(6) عبد الملك قاسم، عقد الجمان، ص: 748.

تغليبٍ للعقلاء، وإمّا عبارةٌ عنها وعنِ التّسبيح الخاصّ بالطّير مَعًا، أو عن تسبيح الطّير فقط، فالفعلُ على حقيقته، وإسناده إلى ضمير العُقلاء لما مَرَّ، فالجملةُ حينَئِذ مقرّرةٌ لتسبيح الطّير فقط، وعلى الأوَّلَيْن لتسبيح الكُلِّ، وإمّا عبارةٌ عنِ الأعمّ منَ الصّلاة والتّسبيح وغيرهما منَ الأفعال الصّادرة عمّن في السّماوات والأرض والأحوال العارضة له، والاعتراض حينَئِذٍ مُقرِّرٌ لمضمون ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾[1].

سِرُّ التّعبيرِ بضميرِ الجمعِ للعاقلِ في قولِهِ: ﴿يَفْعَلُونَ﴾:

التّعريضُ بالجُهلاءِ الخارجين عن نظامِ الكونِ المُسَبِّحِ بحمدِ ربِّهِ

المُستفادُ منَ التّعبير بضمير العقلاء في قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ مع ما أُشير إليه سابقًا من تغليب الخِطاب للعُقلاء أنَّ أهلَ العالَمِ العُلْويِّ والسُّفليّ والطّيورَ لمّا آمنت باللّه الذي هو نور السَّماواتِ والأرض؛ سَمَتْ بفِكْرها وأبانت عن عُلوّ عقلِها موافقةً للفطرة الرّبانيّة فيها، أمّا الذين أعرضوا عنِ الإيمان وعاندوا الحَقَّ والحقيقةَ ولم يؤمنوا باللّه الذي هو نورهُما، ولم يظهر نورُه على عيون رؤوسهم ونفوسهم؛ فهؤلاء هم الذين لا يعقلون؛ لجهلِهم بالحقيقةِ النّورانيّة، ولذلك يكون ختامُ الآيةِ من باب التَّعريضِ بأولئك الجُهلاءِ الخارجين عن نظامِ الكونِ المُسبِّحِ بحمدِ ربِّه[2].

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ دون (يعلمون) مع دلالةِ الصّيغةِ:

الفعلُ أعمّ منَ العمل، وتعلّق علمِ اللهِ بالأعمِّ أنسبُ للجمعِ بينَ العقلاءِ وغيرِهم

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل دونَ العمل في قوله: ﴿عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ لأنّ الفعل لفظٌ عامٌّ يُطلَق على إحداث الشّيء، سواء كان بقصدٍ أو بغير قصد؛ بخِلاف العمل فهو مبنيٌّ على القَصْدِ والعِلْم، وعلى هذا فالفعلُ أعمُّ منَ العمل؛ فإذا تعلّق عِلْم اللّهِ بالعامّ والأعمّ، فمِنْ باب أَوْلى أن يتعلّق بالخاصّ والأخصّ، ولأنّ الآية جمعت بين العقلاء وغيرهم؛ فكان التّعبير بالفعل هو المناسب لهذا الاقتران.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 381.

(2) عبد الكريم مدرّس، مواهب الرَّحمن، ص: 63.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٤٢﴾ [النّور: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بَيَّنَ اللّهُ تعالى في الآية السّابقة عُبوديَّةَ المخلوقاتِ، وافتقارَهم إليه من جهة العبادة والتَّوحيد؛ بَيَّنَ في هذه الآيةِ افتقارَهم من جهة المُلك والتَّربية والتَّدبير[1]، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وعلى هذا؛ تكون منزلةُ الآية ممّا قبلَها منزلةَ النّتيجةِ مِنَ الدّليل، ومنزلةَ الثّمرةِ مِنَ الشّجرة.

الخَلْقُ كلُّهم مُفتقِرون إلى الله تعالى مُلكًا وتربيةً وتدبيرًا

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُلۡكُ﴾: (ملك) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أَملَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوَّيْتُهُ، والأَصْلُ هذا، ثُمَّ قيلَ مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَملِكُهُ مَلْكًا، والاسمُ المِلْكُ؛ لأَنَّ يَدَهُ فيهِ قَوِيَّةٌ صَحيحَةٌ[2]، والمُلْك: نَوْعٌ مِنَ المِلْكِ - بِكَسْرِ الميم - فالمِلْكُ جِنْسٌ، والمُلْكُ نَوْعٌ مِنْهُ، وهو أَعْلَى أَنْواعِه، ومَعْناهُ: التَّصَرُّفُ في جَماعَةٍ عَظيمَةٍ أَوْ أُمَّةٍ عَديدَةٍ تصرّفُ التَّدْبير للشّؤون، وإقامَةِ الحُقوقِ، ورِعايَةِ المَصالِحِ، ودَفْعِ العُدْوانِ عَنْها، وتَوْجيهها إلى ما فيهِ خَيْرُها، بِالرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ[3]، والمُرادُ بِالمُلْكِ في الآية: الحقُّ الدّائم للّه تعالى.

2) ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: (صير) أَصْلٌ صَحيحٌ، وهو المآلُ والمَرْجِعُ، مِنْ ذلكَ صارَ يَصيرُ صَيْرًا وصَيْرورَةً[4]، والصَّيْرُ: رُجوع المُنتجِعين

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 570.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح: (ملك).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ملك)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 213.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).

إلى مَحاضِرِهم، يُقال: أَيْن الصّائرةُ؛ أيْ: أَيْن الحاضِرَةُ[1]، وصَيرُ الأمرِ: مُنْتهاهُ وما صيرَ إليه، وأنا على صيرٍ مِنْ أمرِ كذا؛ أيْ: على ناحيةٍ منه، وصَيّورُ الشَّيءِ: آخِرُه ومُنْتهاهُ[2]، والمَصير: المَوْضِعُ الَّذي تَصير إليه المياهُ[3]، والمُراد بالمَصيرِ في الآية: الرُّجوعُ والانتهاءُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

اللهُ تعالى له المُلكُ في الأولى والآخِرةِ

بيّنت هذه الآيةُ أنّ اللّه تعالى وحْدَه له ملكُ السَّماواتِ والأرض، وهو الحاكِمُ المُتصرِّف فيهما؛ إيجادًا وإعدامًا بَدءًا وإعادةً، وإليه وحْدَه سبحانه مَرجِعُ عِبادِه، فيَبعَثُهم بعدَ مَوتِهم، ويُجازيهم على أعمالِهم؛ فلْيُحسِنوا عبادَتَه، ويجتَهِدوا في طاعتِه، ويُقدِّموا لأنفسهم صالح الأعمال[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة اللّامِ في الاسمِ الأعظمِ (لله):

إفادةُ المُلكِ والاختصاصِ بدلالةِ الحرفِ والسّياقِ

اللّام في الاسم الأعظم لِلْمُلْكِ والاختصاصِ؛ فهوَ المُنْشِئُ الخالِقُ، فصِفَةُ المُلْكِ تَدُلُّ على القُدْرَةِ الباهِرَةِ؛ فالخَلْق كلُّهم عبيدُه وإماؤُه، وهو خالقُهم ورازقُهم، وحُكمُه نافذٌ فيهم، وفي كلِّ شيءٍ دلالةٌ على ربوبيَّتِه ووحدانيَّته، وهو وحدَه المُسْتَحِقُّ للعبادةِ؛ لأنَّه المالكُ المُدبِّرُ لكلِّ ما في السَّماوات وما في الأرض؛ فمعنى ﴿وَلِلَّهِ﴾؛ أي: الذي لا مَلِكَ سواه[5].

سِرُّ الحَصْرِ بتقديمِ المعمولِ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ﴾:

تحقيقُ اختصاصِ اللهِ بالسُّلطانِ الكاملِ على مخلوقاتِهِ خَلْقًا ومُلْكًا

تَقديمُ المعمولِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ﴾ لإفادةِ الاختصاصِ؛

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صير).
(2) ابن سيدَه، المُحكَم، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صير).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (صير).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 335، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 116، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 570.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 291.

أيْ: إنَّ التَّصرُّفَ في العوالِمِ للّهِ لا لغَيرِه[1]؛ فالمعنى: للّه وحْدَه السُّلطانُ الكامل في الأرض والسَّماء[2]؛ فهيَ له خَلْقًا ومُلْكًا، لا لغيره أصلًا؛ لا استقلالًا ولا اشتراكًا.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمُلْكِ مصدرًا:

الدّلالةُ على السُّلطانِ الكامل الذي لا يحولُ ولا يزولُ

المُلك هو السُّلطان الكامل، واللّه تعالى له السّلطانُ على السّماوات والأرض وحْدَه؛ لأنّه هو الذي خلقها وما فيها ومَن فيها منَ الذَّوات والصِّفات والأفعال، وله المُلْكُ والقُدْرة على الإيجاد، فالمقدورات قبل وجودها للحقِّ مَملوكةٌ، وكذلك في حال حدوثها وبعد عدمِها عائدةٌ إلى ما كانت عليه، فمُلْكُه الذي لا يحدث ولا يزول، ولا يَؤول شيءٌ منه إلى البُطول[3].

بديعُ الطِّباقِ بذِكْرِ السَّماواتِ والأرضِ:

تأكيدُ السُّلطانِ الكاملِ، وبيانُ عمومِ مُلكِ اللهِ لكلِّ ما يظنُّ الإنسانُ قدرتَه على تملُّكِه

أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ السُّلطانَ الكاملَ للّه ربِّ العالمين على مخلوقاته بالطِّباقِ بَيْنَ لَفظَتَي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لأنّه لا أحدَ منَ الخَلْق يَدَّعي أنّ له سُلطانًا عليهما، لا في خَلْقٍ ولا تصريفٍ، فإنِ ادَّعى أحدٌ منَ الخَلْق سلطانًا على شيءٍ منَ الأرض؛ يُكَذِّبْه حالُه وضَعفُه في مُلكِ سلطانِ السَّماءِ.

سِرُّ تخصيصِ السَّماواتِ والأرضِ بالذِّكْرِ:

كونُ السَّماواتِ والأرضِ أعظمَ ما يُرَى، والسَّماواتُ أعظمُ المذكورَين

خَصَّ النَّظمُ الكريمُ السَّماواتِ والأَرْضَ بالذِّكْر من بَيْنِ المخلوقات؛ لِأَنَّهما أَعْظَمُ ما يُرَى مِنَ المَخْلوقاتِ الظّاهرة المحسوسةِ وأعجبُها شأنًا، وفيهما العبرةُ والمنافع لهم، ولأنّ كلَّ مخلوقٍ لا يخلو عن أن يكون في إحدى هاتيْن الجهتيْن؛ فالمُلك لهما إشارةٌ إلى مُلكِه لكلِّ شيءٍ[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 260.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5204.

(3) ملّا علي القاري، أنوار القرآن وأسرار الفرقان، ص: 478، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5204.

(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 2/ 750، وحقّي، روح البيان: 1/ 161، والهَرَريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 2/ 198.

دلالةُ الواوِ وسرُّ العطفِ بقولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

منه المبدأُ وإليه المَعادُ

لمّا كان التَّقديرُ: وللّه ملكُ السَّماواتِ والأرض ومِنَ اللّه المَبدأ للكُلِّ بالإيجاد منَ العدم؛ عطفَ عليه قولَه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: الذي له الإحاطة بِكُلِّ شيءٍ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ أيْ: لهم كلّهم بعد الفناء[1]، وفي هذا العطفِ تنبيهٌ على أنَّه سبحانه وتعالى مالكٌ للأوّل والآخِر، فقولُه: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ابتداءٌ، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ انتهاءٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه إذا كان المُلك للّه والمَرجع إليه؛ فإنّه لا يَحِلُّ لنا أن نتصرّف إلّا حسب ما شرع لنا ما دُمنا مُلكًا للّه عز وجل، ومصيرُنا إلى اللّه، وما دُمنا نعلم أنّ مصيرَنا إليه فلا بدّ أن نستعدَّ لهذا المصير؛ لأنّه سوف يحاسبنا[2].

غرضُ تقديمِ شِبهِ الجملة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾:

تقريرُ الحاجةِ إلى المغفرةِ لأنّ الرّجوعَ إنّما يكونُ للحسابِ والجزاءِ

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تذييلٌ لِما قَبْلَهُ، وقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ على ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لإفادَةِ الحصر؛ أي: المصير إليك لا إلى غيرِك، والاختصاص بِتَعَلُّقِ ذَلِكَ المَصيرِ بِتَصَرُّفِ اللّه المَحْضِ؛ والمعنى: إليه تعالى خاصَّة لا إلى غيرِهِ رُجوع الكلِّ بالفناء والبعث في المعاد، بعد بيان اختصاص المُلكِ به تعالى في المَبدأ[3].

دلالةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ في موضعِ الإضمارِ:

تربيةُ المَهابةِ والإشعارُ بعِلَّةِ الحُكمِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إظهارٌ للاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لتَربيةِ المَهابةِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكم، فهو تذكيرٌ وتَخويفٌ[4]؛ فالتَّذكير بكون المصير والحشر إليه يُقوّي أمرَ التَّخويف منَ اللّه تعالى[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 291.
(2) ابن عثيْمين، تفسير سورة النّور، ص: 291.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 184.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 184، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 56.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 189.

دلالةُ التَّعريف في لفظة ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

التَّعْريفُ في ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ لِلاسْتِغْراقِ؛ أَيْ: مَصيرُ النّاسِ كُلِّهِم؛ فهي لفظةٌ عامَّةٌ شاملةٌ لمآلِ العبدِ في كلِّ أمرٍ، وكلِّ نازلةٍ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المصير والمآب والمَرْجِع:

المصيرُ المآلُ، والمآبُ الرُّجوعُ إلى المستقَرِّ، والرُّجْعُ تحوّلٌ إلى عكسِ الاتجاه أو الحال

المصير يدلُّ على التَّحوّل إلى غايةٍ أو مَجْمَعٍ؛ ليكون المآلُ والمُنْتهى، ومنه قوله تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]، وقد ورد في القرآن الكريم بلفظ (المصير) ثلاثًا وعشرين مَرّةً، وبلفظ (مصيرًا) أربع مرّات [النّساء: 97، 115، الفرقان: 15، الفتح: 6]، وبلفظ ﴿مَصِيرَكُمۡ﴾ مرَّةً واحدةً [إبراهيم: 30]، وبصيغة الفعل المضارع مَرّةً واحدةً، في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشّورى: 53].

والمآب رجوع الشّيء إلى مُسْتَقَرِّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، وقولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢﴾ [النّبأ: 21 - 22].

والمَرجِعُ مصدرٌ ميميٌّ، أو اسمُ زمانٍ، والرُّجوع: هو العودُ إلى ما كان منه البَدء، والرَّجْعُ: الإعادةُ أو التّحوّلُ عنِ الاتّجاه أو الحالِ إلى عكسِه، وكلُّ ما في القرآن من (تُرجع، تُرْجَعون، يُرْجع، راجعون، مرجعكم، مرجعهم) فهي إلى الله ﷻ[1].

(1) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤَصّل: (صير)، (أوب)، (رجع).

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣﴾ [النّور: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآياتُ الآفاقيّة دليلٌ على العَظَمة الإلَهيّة

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ بعضًا منَ الأدلّة الحسّيّة التي تشهد لقُدرة اللّه تعالى في هذا الكون ومدى انقياده للّه تعالى؛ جاءت هذه الآيةُ بذِكْر دليلٍ آخرَ من أدلّةِ العَظَمَة الإلَهيّة التي نراها ونلمسها في كلِّ وقتٍ وحينٍ؛ فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ الآية.

ومن المناسبة: لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى انقيادَ مَن في السّماواتِ والأرضِ والطَّيرِ إليه سبحانه، وذَكر مُلْكَه لهذا العالمِ وصيرورتَهم إليه؛ أكَّدَ ذلك بشيءٍ عجيبٍ من أفعالِه مُشعرٍ بانتقالٍ من حالٍ إلى حالٍ، وكان عَقِبَ قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ فأعْلَم بانتقالٍ إلى المعاد، فعطفَ عليه ما يدلُّ على تَصرُّفه في نقل الأشياء من حالٍ إلى حالٍ[1].

ومنَ المناسبة أيضًا: لمّا ذَكَرَ في الآية السّابقةِ مُلْكَه وسلطانَه وقُدرتَه في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ ذَكَرَ في هذه الآيةِ شواهدَ قدرتِه وعَظَمتِه من سَوْق السّحاب بينَ السّماءِ والأرضِ وتسخيرِه، وضَمِّ بعضِه إلى بعضٍ، ونزولِ المطرِ منه، وإصابتِه في مكانٍ دون مكانٍ فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ الآية[2].

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 56.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 580.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُزۡجِي﴾: (زجى) أصلٌ يدُلُّ على الرَّمي بالشَّيءِ وتَسْييرِهِ مِنْ غير حَبْسٍ، يُقالُ: أَزْجَتِ البقرةُ ولدها، إذا ساقَتْهُ[1]، وزَجَّى الشَّيْءَ، وأزجاه: ساقَه ودفعَه[2]، والرّيحُ تُزجي السَّحابَ: تَسوقُهُ سَوْقًا رفيقًا[3]، فأمّا المُزْجَى فالشَّيءُ القليلُ، وهو مِنْ قياسِ البابِ؛ أيْ: يُدفَعُ به الوقتُ، وهذهِ بضاعةٌ مُزْجاةٌ؛ أيْ: يسيرةُ الاندفاعِ[4]، والمُراد بالإزجاءِ في الآية: دَفْعُ الشّيء برفقٍ وسهولةٍ لينساقَ[5].

2) ﴿يُؤَلِّفُ﴾: (ألف) أَصلٌ واحدٌ يَدُلُّ على انضمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، والأشياءِ الكثيرةِ أيضًا[6]، وكلُّ شيءٍ ضَمَمتَ بَعضَه إلى بعضٍ فقد ألَّفْتَه تأليفًا[7]، وأَلَّفْتُ بَيْنَهُم تأْليفًا، إِذا جَمَعْتَ بَيْنَهُم بَعْدَ تَفَرُّقٍ، وأَلَّفْتُ الشَّيْءَ تأْليفًا، إِذا وصلْتَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؛ ومِنْهُ تأْليفُ الكُتُبِ[8]، والمقصود بقوله: ﴿يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾: يصلُ بعضَه ببعضٍ، ويجمع بعضَه مع بعضٍ[9].

3) ﴿رُكَامًا﴾: (ركم) أَصلٌ واحدٌ، يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيْءِ[10]، والرَّكْمُ: جَمعُكَ شَيْئًا فوقَ شَيْءٍ؛ يَرْتَكِمُ بعضُه على بعضٍ[11]، وارتكم الشَّيءُ، وتراكم، إذا اجتمع، والرُّكْمَةُ: الطّينُ المجموع، والرُّكامُ: الرَّملُ المُتراكِمُ، وكذلك السَّحاب المُتراكِمُ[12]، ووزنُ (فُعالٍ) و(فُعالَةٍ) يدلُّ على معنى المفعولِ؛ فالرُّكامُ بمعنى المَركوم، كما جاءَ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ٤٤﴾ [الطّور: 44][13]؛ وعليه فالمُراد بالرُّكامِ في الآية: ما يُجمَعُ ويُضَمُّ بعضُه إلى بعضٍ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زجي).
(2) ابن سيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (زجو، زجا).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (زجا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زجي).
(5) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (زجي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ألف).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ألف).
(8) ابن سيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (ألف).
(9) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 138.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركم).
(11) الخليل، العين، وابن عبّاد، المُحيط في اللّغة: (ركم).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (ركم).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 261.

4) ﴿ٱلۡوَدۡقَ﴾ (ودق) أصلٌ يدُلُّ على إتيانٍ وأنَسَةٍ، يُقالُ: ودَقْتُ به، إذا أَنِسْتَ به ودْقًا، والمَوْدِقُ: المَأْتَى والمكانُ الَّذي تَقِفُ فيه آنِسًا[1]، والوَدْقُ: ما يكون من خلال المطر كأنّه غبارٌ، وقد يُعَبّر به عن المَطَرُ كلِّه، شديدِه وهيِّنِه؛ لِأَنَّهُ يَدِقُّ؛ أيْ: يَجيءُ مِنَ السَّماءِ[2]، وحربٌ ذاتُ ودْقَيْنِ؛ أيْ: شديدةٌ تُشَبَّه بسحابةٍ ذاتِ مطرتَيْن شديدتَيْن، وسحابةٌ وادِقةٌ[3]، وقد ودَقَ يَدِقُ ودْقًا؛ أيْ: قَطَرَ[4]؛ وعليه فالمُراد بالوَدْقِ في الآية: المَطر.

5) ﴿خِلَٰلِهِۦ﴾: (خلَّ) أَصلٌ واحدٌ يتقاربُ فروعُه، ومرجعُ ذلك إمّا إلى دِقَّةٍ أو فُرْجَةٍ[5]، مِنْ ذلك الخَلُّ: طريقٌ نافذٌ بين رمالٍ مُتراكمةٍ؛ سُمّي به لأنَّه يَتَخَلَّلُ؛ أيْ: ينفذ[6]، والخَلَلُ: مُنْفَرَجُ ما بين كلِّ شَيْئَيْنِ، والجميع الخِلالُ، وهي أيضًا فُرَجٌ في السَّحاب يخرج منها المطر[7]، وتخلَّلْتُ القَومَ، إذا دخلتُ بَين خُلَلِهم وخِلالهم، ومِنْه تخَلُّل الأسنان[8]، والمُراد بالخِلالِ في الآية: الفُتوقُ، جَمعُ خَلَلٍ، كجَبَلٍ وجبالٍ[9].

6) ﴿بَرَدٖ﴾: (برد) خلافُ الحَرِّ، يُقالُ: بَرَدَ فهوَ بارِدٌ، وبَرَدَ الماءُ حَرارَةَ جَوْفي يَبْرُدُها[10]، والبَرَدُ: حَبُّ الغَمام، تَقولُ مِنْهُ: بُرِدَتِ الأَرض، وبُرِدَ القَوْمُ: أَصابهم البَرَدُ، وأَرضٌ مَبْرودَةٌ كَذَلِكَ[11]، وسحابٌ بَرِدٌ وأَبْرَدُ؛ أيْ: ذو بَرَدٍ، وسَحابةٌ بَرِدَةٌ[12]؛ والبَرَدُ في الآية مُرادُ به: المطرُ الجامدُ.

7) ﴿فَيُصِيبُ﴾ أَصلُ الإصابة في الرَّمية، ثمَّ اختُصَّت بالنّائبة الفادحة، وتُستعمل في الخير والشَّرِّ؛ قال تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ﴾ [التّوبة: 50]، وقال بعضُهم: الإصابة في الخير اعتبارًا بالصَّواب وهو المطر، وفي الشَّر اعتبارًا بإصابة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ودق).
(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المُحيط في اللّغة: (ودق).
(3) الخليل، العين: (ودق).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ودق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خل).
(6) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن عبّاد، المُحيط في اللّغة: (خل، خلل).
(7) ابن عبّاد، المُحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (خلل).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 261.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برد).
(11) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (برد).
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (برد).

السَّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصلٍ واحدٍ[1]، ومعنى الإصابةِ: اتِّصالُ شَيءٍ بآخَرَ ووُرودُهُ عليه، وهي مُشْتَقَّةٌ مِنَ الصَّوْبِ وهوَ النُّزولُ، ومِنْهُ صَوْبُ المَطَرِ، فجَعَلَ نُزولَ البَرَدِ إصابةً؛ لأنَّهُ يُفسِدُ الزَّرْعَ والثَّمَرَةَ[2].

8) ﴿سَنَا﴾: (سنى) أَصلٌ يدلُّ على العُلوِّ والارْتِفاعِ[3]، والسَّنا - مقصورٌ - حَدُّ مُنْتَهى ضوْءِ البرْقِ، وقَدْ أَسْنَى البَرْقُ: إذا دَخلَ سَناهُ عليكَ بيتَك، أَو وقَع على الأَرض، أَو طارَ في السَّحابِ، قالَ أَبو زَيْدٍ: سَنا البرْقِ ضَوْءُه مِنْ غَيْرِ أَن ترَى البرْقَ أَو تَرَى مَخرَجَه في موْضِعه، فإِنَّما يَكونُ السَّنا بِاللَّيلِ دونَ النَّهارِ، ورُبَّما كانَ في غَيْرِ سَحابٍ[4]، وقال ابْنُ السِّكّيتِ: السَّناءُ مِنَ المَجْدِ والشَّرَفِ، مَمدودٌ، والسَّنا: سَنا البرقِ، وهوَ ضوْءُه، يُكْتَبُ بالأَلف، ويُثَنَّى سَنَوان، ولَم يَعرِفِ الأَصمعي لَهُ فِعْلًا، والسَّنا، بِالقَصْرِ: الضَّوْءُ[5]، والمُراد بالسّنا في الآية: الضَّوء السّاطع[6].

9) ﴿بَرۡقِهِۦ﴾: أصلُ (برق) أصلٌ يدلُّ على لَمَعانِ الشَّيْءِ، والبَرْقُ: وميضُ السَّحابِ، يُقالُ: بَرَقَ السَّحابُ بَرْقًا وبَريقًا، وأَبْرَقَ أَيْضًا لُغَةٌ[7]، إذا لَمَعَ[8]، ويُقال: مَرَّتْ بنا اللَّيْلَةَ بَرّاقةٌ وبارِقةٌ؛ أيْ: سَحابَةٌ ذاتُ بَرْقٍ[9]، وسُمّيتِ السّيوفُ بارقةً وبوارقَ تَشْبيهًا بالبَرْقِ، وكلُّ شيءٍ يتلألأُ فهو بارقٌ[10]، والمُرادُ بالبَرْقِ في الآيةِ: ما يَراه الرّائي من نورٍ لامعٍ يَظهر من خلالِ السَّحابِ[11].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يبيّن اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ الكريمة بعضَ مظاهرِ قدرته بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾

---

(1) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 407، وابن جرير، جامع البيان: 16/ 458، والرّاغب، المُفردات: (صوب)، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/ 43.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 307، 18/ 262.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سنى).
(4) المرزوقيّ، الأزمنة والأمكنة، ص: 338.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سنا)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 246.
(6) الرّاغب، المُفردات: (سنا).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (برق).
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (برق).
(9) ابن سيدَه، المُحكم: (برق).
(10) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (برق).
(11) طنطاويّ، التّفسير البسيط: 7/ 455.

تعديدُ الدّلائلِ علـى ربوبيّتِـهِ تعالى

يَسوقُ بقُدرتِه السَّحابَ إلى حيثُ يشاءُ، ثمَّ يجمَعُه بعدَ تفرُّقِه، ثمَّ يجعَلُه مُتراكِمًا بعضُه فوقَ بَعضٍ، فترى المطَرَ يخرُجُ من بينِ السَّحابِ الكثيفِ، ويُنَزِّلُ سبحانه من السَّماءِ بَرَدًا من قِطَعِ سَحابٍ عَظيمةٍ كأمثالِ الجِبالِ، فيُصيبُ به مَن يَشاءُ من عبادِه؛ عقوبةً لهم، فيَضُرُّهم في أنفُسِهم وأموالِهم، ويُتلِفُ ثمارَهم وزُروعَهم، ويَصرِفُه عَمَّن يشاءُ مِن عبادِه؛ رَحمةً بهم، فلا يُصيبُهم ضَرَرُه، ويُقارِبُ ضَوءُ بَرقِ السَّحابِ أن يُعميَ عُيونَ النّاظِرينَ إليه من شِدَّةِ ضَوئِه ولَمَعانِه(1).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصْلِ الآيةِ عن سابقَتِها:

الانتقالُ إلى الاستدلالِ على عِظَيمِ قُدرةِ اللهِ وسُموِّ حِكْمَتِهِ

فُصِل قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ عمّا سبق؛ لما فيه من حُسْنِ التَخَلُّص؛ حيثُ أعقب الدّلالة على إعطاء الهُدى في قوانينِ الإلهام في العجماواتِ بالدّلالة على خَلْقِ الخصائصِ في الجمادِ، بحيث تسير على السَّيرِ الذي قَدّره اللّهُ لها سيرًا لا يَتَغَيَّر؛ فهي بذلك أهدى من فريقِ الكافرين الذين لهم عقولٌ وحواسٌّ لا يهتدون بها إلى معرفة اللّه تعالى، والنَّظرِ في أدلّتها، وهذا استدلالٌ آخرُ بنظامِ بعضِ حوادث الجَوِّ الواردة في قوله: ﴿يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾، وقد حصل من هذا حُسْنُ التَّخلّص؛ للانتقال إلى الاستدلال على عِظَمِ القُدرة وسُموِّ الحِكْمَة، وسَعَةِ العِلْم الإلهيِّ(2).

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

التَّنبيهُ على آياتِ اللـهِ، والـحَثُّ علـى رؤيتِـهـا للتَّقريرِ بها

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهامٌ تقريريّ، والتَّقرير المُستعمَل فيه الاستفهامُ من حيثُ إنَّه تقريرٌ له معانٍ تردُف عليه؛ من أبرزها:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 338، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 290، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 73، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 571.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 56، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 260.

التَّذكيرُ والاعتبار بآثار رحمة اللّه وقُدرته الفائقة؛ فالمقصودُ مِنَ الاستفهامِ التّنبيهُ إلى آياتِ اللّه التّاليةِ للاستفهامِ المذكورِ، والحَثُّ على رؤيتِها أو التّقريرِ بها(1).

سِرّ تكرارِ الاستفهامِ بقولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

استقلالُ كلِّ دليلٍ عنِ الآخرِ في دلالتِهِ على عِظَمِ قدرةِ اللهِ تعالى وسَعَةِ عِلْمِهِ

كَرّرَ القرآنُ الكريم الاستفهامَ بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي﴾ مع سبق ذِكْرها في الآية السّابقة في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ الآية، ولم يكتف بورودها قبل ذلك؛ للدّلالة على استقلالِ كلِّ دليلٍ عنِ الآخر في دلالته على عِظَم قدرته سبحانه وسَعَة عِلْمه؛ فكأنّ هذا الاستفهامَ من بابِ التّأكيدِ على وحدانيّته ﷻ بما سبق من الأدلّةِ الواردةِ في تسبيح مَنْ في السّماواتِ والأرضِ.

دلالةُ الخطابِ في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

الخطابُ للنَّبيِّ ابتداءً، ولأُمَّتهِ مِن بعدِهِ

الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي﴾ إمّا لرسول اللّه ﷺ، وخطابُه خطابٌ لأُمَّته؛ لأَنَّه إمامُها، وإمّا لِكُلِّ مَنْ هو أَهلٌ للخِطاب مِنَ المُكلَّفين(2)، وهذا المعنى مقصودٌ من خلالِ عدم تحديدِ المُخاطَبِ، حتّى يعلمَ كلّ مَنْ هو أهل للخِطاب بآيات اللّه الكونيّةِ والعِلْميّةِ التي تدلُّ على وحدانيّته سبحانه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ عنِ العِلْمِ في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

تنزيلُ المعلومِ منزلةَ المُشاهَدِ للعيانِ في الوَثاقَةِ والإيقانِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالرّؤيةِ عنِ العِلْم في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾؛ لأنّ ما ذُكر في هذه الآيةِ من أدلَّةٍ كونيّةٍ لا يتحقّق المُرادُ منها بالرّؤيةِ البصريّةِ؛ حيثُ لم يَرَوا بالحسِّ أنّ اللّه يُزجي سحابًا؛ أيْ: يُثيرُها من بخار الماء، فيتكونُ من هذا البخار سحابٌ، فيدفعُه اللّهُ تعالى ويسوقُه في تجمُّعِه حتّى يصيرَ ركامًا،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 409، وابن عُثَيْمين، تفسير سورة النّور، ص: 293.

(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 19/ 377، ونخبة من العلماء، التَّفسير الوسيط، ص: 1440، ويُنظر تحرير نظير هذا الأسلوب في الآية السّابقة.

وكلّ ذلك لا يتأتّى عن طريق الرُّؤية البصريّة؛ بل عن طريق العِلْم[1]، وممّا يُؤكّد أنّها ليست بصريّةً أنَّ الأعمى لا يدري عن شيءٍ، ومعناه أنَّه لم يَعتبر بهذا السَّحاب لأنَّه لا يراه، فالأَوْلَى أنّها عِلميَّة؛ لأنَّ العِلميَّة تتضمَّن البصريَّة، فالرُّؤية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى العِلْم، وتفسيرُها بالعِلْم أعمُّ من تفسيرها بالرُّؤية البصريَّة؛ لأجل أن يشمل رؤيةَ الإنسانِ ببصره؛ أيْ: عن طريق المُشاهدة؛ لأنَّها تؤدّي إلى العِلْم، ورؤيةَ الإنسانِ بسَمعِه بما يُخْبَر به؛ لأنَّها تُؤدّي أيضًا إلى العِلْم، ورؤيةَ الإنسانِ بقراءته عن هذا الأمر؛ لأنَّه يُؤدّي إلى العِلْم، والمُهِمُّ أنَّه ما دامتِ الرُّؤيَّةُ مُحتمِلة لأن تكون بمعنى العِلْم، فتفسيرُها بالعِلْم أَوْلَى؛ لأنَّه أشملُ وأعمُّ منَ السَّماع[2]، وذَكَرَ بعضُ المُفسِّرين أنَّ الرُّؤية هُنا يجوز أن تكون بصريَّةً؛ لأَنَّ تحريك السُّحبِ وما يتلوه من آثارٍ أَمرٌ مرئيٌّ لكلِّ ذي عَيْنَيْن.

ويمكن أن يُجْمَعَ بينَ البصريّة والعِلْميّة بأن يُقال: إذا كان الخِطابُ لرسول اللّه ﷺ، فعِلْمُه بذلك يكون عن طريق الوحي الذي نزل عليه، وما يراهُ من صورةِ السُّحب المتراكمةِ يكون عن طريق البصر، وبذلك يُجْمَع بينَ أكثر وسائل الإدراك؛ وهما: العِلْم بالخبرِ، وبالعينِ الباصرةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يُزْجِي﴾ مادَّةً:

الإشـارةُ إلى أنَّ السَّحابَ بالنّسبةِ إلى قدرتِهِ تعالى أمرٌ سهلٌ

آثَرَ القرآن الكريم التّعبيرَ بالإزجاء في قوله تعالى: ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾ لما يتميّز به من معنًى لا يوجد في غيره كالدّفع مثلًا؛ فالإزجاءُ: سَوْقُ الشَّيءِ قليلًا قليلًا برفقٍ وسُهولة لينساقَ، وغلبَ في سَوْقِ شيءٍ يسير أو غير مُعتَدٍّ به، ومنه البضاعةُ المُزجاةُ، فإنَّها

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5204.

(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 14/ 414، وابن عُثيمين، تفسير سورة النّور، ص: 293، ويُنظر تحرير نظير هذا الأسلوب في الآية السّابقة.

يُزجيها كُلُّ أحدٍ ويدفعُها لِقِلَّة الاعتداد بها؛ ففي التَّعبير بـ ﴿يُزۡجِي﴾ إيماءٌ إلى أنَّ السَّحاب بالنِّسبة إلى قدرته تعالى شيءٌ هيِّنٌ بالنِّسبة إلى ما هو أكبر منه بقُدرة اللّه ﷻ(1).

إيثارُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ: ﴿يُزۡجِي﴾:

الدّلالةُ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ في حُدوثِ الظّاهرة حالًا واستقبالًا

إيثارُ المُضارع ﴿يُزۡجِي﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي﴾؛ للدّلالة على التَّجدُّد والاستمرار في حُدوث الظّاهرة حالًا واستقبالًا؛ لأنَّها سُنّة اللّه في الحياة، وفيه إشارةٌ إلى تصوير سَوْق السّحاب، وكأنّ بعضَه يتداخل في بعضٍ من غير عنفٍ ولا انفصالٍ.

دلالةُ إسنادِ الإزجاءِ إلى الله تعالى:

الفاعلُ على الحقيقة هو الله ﷻ

أسنَدَ القرآنُ الكريم إزجاءَ السّحاب إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾؛ لأنّه سبحانه الفاعلُ على الحقيقة، وإن كان الإزجاء في الظّاهر يتمّ من خلال السُّنن الكونيّة المشهودة من حَمل السّحاب عن طريق الرّياح، وهذا المعنى عبّرت عنه آياتٌ كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ [فاطر: 9]؛ لكن لّما كان الخالقُ والآمر للكلّ هو اللّه؛ قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54].

دلالةُ الإفرادِ في قوله: ﴿سَحَابٗا﴾:

السّحابُ واحدٌ في اللّفظِ ومعناه الجمعُ

جاء التّعبير القرآنيُّ بصورةِ الإفرادِ بلفظِ ﴿سَحَابٗا﴾؛ لأنّه واحدٌ في اللّفظِ ومعناه الجمعُ؛ فهو اسمُ جنسٍ جمعيّ، ولذلك يوصَف بالمُفرد مراعاةً لِلَّفظ، كما يوصَف بالجمع مراعاةً للمعنى، ويُعامَل الفعل معه تبعًا لمعناه(2).

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿سَحَابٗا﴾:

﴿سَحَابٗا﴾ اسم جنسٍ جمعيّ واحدُه (سحابة)، وجاء تنكير

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 165.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 18/ 190.

﴿سَحَابًا﴾ لإفادة الكثرة والتَّعظيم؛ أيْ: قِطَعًا مُتفرّقًا مُتناثرًا في كُلِّ الجِهات[1].

دلالة التّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾:

إفادةُ التَّراخي في تَجمُّع السَّحاب بعد تَفرُّقه

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ دونَ غيرِها من حروف العطف؛ لأنّها للتَّراخي، فإنَّ التَّأليف مُتأخِّر عنِ ابتداء السَّوق؛ لأنَّ بَيْنَ تصاعد الأبخرة المائيَّة في الأفق، وبين تكوين السَّحاب منها فتراتٍ منَ الزَّمن؛ فهي تستغرق فترةً زمنيَّةً حَتَّى تَتِمَّ[2]، وفي هذا دليلٌ على أنّ ذلك لا يكون عقبَ تكوينِ السّحاب مباشرةً، إنّما يكون بعد زمنٍ؛ أيْ: يجمع بين قِطَع السّحاب المُتفرّقة بعضِها إلى بعض، فيجعله شيئًا واحدًا بعد أن كان قِطَعًا[3].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿يُؤَلِّفُ﴾ مادّةً وصيغةً:

الـدّلالـةُ على الـتَّـقـويـةِ والاتّـصـالِ والتَّكثيفِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالتَّأليفِ في قوله: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾؛ لأنّ معناه الضَّمُّ والجمع مع مُراعاة الأُلفة والتّناسب؛ فإنَّ اللّه ﷻ يُؤلِّف بَيْنَ هذا السّحاب؛ أيْ: يضمّ بعضَه إلى بعضٍ فيجعلُ القِطَعَ المُتفرّقة قطعةً واحدةً كبيرةً[4]، وفي التَّعبير بالتَّأليف في هذه الآيةِ دلالةٌ زائدةٌ على مُجرَّد الجمع، فهو يجمعُه عند انتشائِه ليقوى ويتَّصل ويَكْثُفَ[5]، وفيه إشارةٌ إلى وجوده مُتقدِّمًا مُتفرِّقًا؛ لأنّ التّأليف لا يكون إلّا بين موجودَيْن، فيُضَمّ بعضُه إلى بعضٍ، وهذا المعنى يظهر من صيغة المضارع الذي يدلُّ على التّجدُّد والحدوث، واستحضار صورة التّأليف لأجزاء السّحاب، وكأنّك تراها وهي ينضَمُّ كلُّ جُزءٍ منها إلى الآخر.

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 3/ 143، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 675.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 409، وزغلول النَّجّار، تفسير الآيات الكونيَّة، ص: 304.
(3) الثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 112، وحقّي، روح البيان: 6/ 165.
(4) المحلّي والسيوطيّ، تفسير الجلالَيْن، ص: 358.
(5) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 287.

دلالةُ دخولِ الظَّرفيّةِ ﴿بَيۡنَهُۥ﴾ على مُفرد ﴿سَحَابٗا﴾:

إرادةُ الجنسِ في السَّحابِ، أو إرادةُ أجزائِه

دلَّ دخولُ الظّرفيّة ﴿بَيۡنَهُۥ﴾ على مُفرد ﴿سَحَابٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ مع أنّها لا تدخل إلّا على المُثنَّى فما فوقَه؛ لأنَّه إمّا أن يُرادَ بالسَّحابِ الجنسُ؛ فعاد الضَّميرُ عليه على حُكمِه، وإمّا أن يُرادَ حَذفُ مُضافٍ؛ أيۡ: بيۡن قِطَعِه؛ فإنَّ كلَّ قِطعةٍ سَحابةٌ[1]؛ لأنَّ السَّحاب ذو أجزاءٍ؛ أيۡ: يُؤلِّف بينَ السَّحابات منه[2]، وممّا يُذكَر في سِرّ دخولِها: أنّ بينَ السّحاب فُروجًا؛ فالمعنى الجمعيُّ موجودٌ كما تقول: (جلستُ بين الشّجرِ)، والمقصود هنا الجمع.

دلالة التّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ﴾:

إفـادةُ التَّراخي في عمليّةِ تَجمُّعِ السُّحبِ

العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ مَرّةً أُخرى يُفيد التَّرتيبَ مع التَّراخي؛ للإعلام بمرحلةٍ ثالثةٍ من مراحل تكوين السَّحاب، وحملِها لكُتَلٍ هائلةٍ منَ الماءِ تحۡجُبُ ضوءَ الشَّمسِ ونورَ القمر، وتُلَطِّف الهواءَ للحيلولةِ بينَه وبينَ حرارةِ الشَّمس، وهذه المرحلةُ تستغرقُ فترةً زمنيَّةً أيضًا[3]، حتَّى يصيرَ السَّحابُ المُؤلَّف مُتراكبًا بعضُه على بعض، بعد أن كان مُتفرِّقَ الأجزاء[4]؛ لأنّ السّحابَ يَمُرّ بمراحلَ في تكوينه؛ فيولّد أوّلًا دخانًا، ثمّ يدفعه الرّيح في خِفّة ويُسرٍ، ثمّ يجتمع هذا السّحابُ بعضُه إلى بعضٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿رُكَامٗا﴾ مادَّةً وصيغةً:

الإشـــارةُ إلى حـملِها المـاءَ الـكـثـيرَ الـذي يـكـونُ بـه المطرُ الغزيرُ

دلَّ التّعبيرُ بقوله: ﴿رُكَامٗا﴾ وهو مصدر منَ الفعل رَكَمَ يَرۡكُم على الجمع والضَّمّ، فالرُّكام بمعنى المَركوم؛ أيۡ: متراكم، يركب بعضُه بعضًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ٤٤﴾ [الطّور: 44][5]، وحاصلُ ذلك التّعبير ﴿رُكَامٗا﴾ أنّه تتّصل

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 8/ 419.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 261.
(3) زغلول النَّجار، تفسير الآيات الكونيَّة في القرآن الكريم، ص: 305.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/ 272.
(5) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 287.

سحابةٌ بطرف سحابة، ثمّ تعلوها ويُؤتى بأُخرى تتّصل بها، وبأُخرى تتّصل بهذه وتعلوها وهكذا حتّى تكونَ كالجبال، وإذا أَرْكَمتِ السُّحبُ وتكاثفت سُمّيت بـ (السَّحاب الثِّقال)، وهذا يدلُّ على حَملها الماءَ الكثيرَ، ومن هذه السُّحُب يكون المطرُ الغزير[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالجَعْلِ في قولِه: ﴿يَجۡعَلُهُۥ﴾:

الجَعْلُ يدلُّ على التّصييرِ والتّحويلِ

دلَّ التّعبيرُ بقوله: ﴿يَجۡعَلُهُۥ﴾ دون غيرِهِ على التّصييرِ والتّحويلِ لأمرِ السّحابِ المُتراكِم، وهذا الأمرُ يكون من تكاثفِ البُخارِ الصّاعدِ إن كان قليلًا، وكان في الهواء منَ الحرارة ما يُحَلّل ذلك البخار؛ فحينَئِذٍ يَنْحَلّ وينقلب هواءً، وأمّا إن كان البخارُ كثيرًا، ولم يكن في الهواء ما يُحَلّل ذلك البخارَ، فتلك الأبخرةُ المتصاعدة إمّا أن تبلغ في صعودها إلى الطبقة الباردة منَ الهواء أو لا تبلغ؛ فإن بلغتْ فإمّا أن يكون البَرْدُ هناك قويًّا أو لا يكون؛ فإن لم يكن قويًّا تكاثف ذلك البُخارُ بذلك القَدْر منَ البرد، وعند ذلك يحدث المَطرُ، وأمّا إن كان قويًّا فلا يخلو الأمرُ من حالتَيْن؛ إمّا أن يصل البَرْدُ إلى الأجزاء البخاريّة قبلَ اجتماعها وانحلالها حباتٍ كبارًا أو بعدَ صيرورتها كذلك؛ فعلى الوجه الأَوّل تنزل ثلجًا، وعلى الثّاني تنزل بَرَدًا، وكلّ ذلك دلّ عليه التّعبيرُ بالجَعْلِ الذي يدلُّ على التّصييرِ والتّحويلِ[2].

نُكْتَةُ تنكير ﴿رُكَامًا﴾:

الدّلالةُ على عَظَمةِ تلك السُّحبِ المُجتمعةِ

دلَّ التّنكير في ﴿رُكَامًا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ على عَظَمةِ تلك السُّحبِ المُجتمعةِ، فهي في غايةِ العَظَمةِ؛ مُتراكبًا بعضُه على بعضٍ، بعد أن كان في غايةِ الرِّقة[3].

دلالةُ العطفِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَتَرَى﴾:

جاء التّعبيرُ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَتَرَى﴾ لعطفِ مرحلةٍ على مرحلةٍ

(1) أطفيِّش، تيسير التَّفسير: 10/ 129، وعبد الملك قاسم، عقد الجُمان في تفسير القرآن، ص: 749.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 261.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 292.

مع إفادةِ التّرتيبِ مع التَّعقيبِ بدلالةِ الواقعِ؛ لأنّ التّراكمَ سببٌ للمطرِ، فيكون أيضًا سببًا لرؤيته؛ لذلك جاء العطفُ بحرف الفاءِ الذي يدلُّ على التَّرتيبِ مع التَّعقيبِ؛ لأنَّ نزولَ المطرِ بإذن اللهِ تعالى يتمُّ بعد إتمام عمليَّة الرَّكم مُباشرةً، وأنَّ هذا الماءَ ينزل من خلالِ وسطِ قاعدةِ السَّحابةِ الرُّكاميّةِ أوّلًا؛ وهي منطقةُ ضَعْفٍ تنتجُ عن توقُّف اندفاعِ تياراتِ الهواءِ الصّاعدِ أو ضعفِها، وغلبةِ تيّار الهواءِ الهابط عليها، ثُمَّ بعدَ ذلك ينزلُ من جوانب قاعدةِ السَّحابةِ أو منها كُلِّها[1]، ففي العطفِ مُبالغةٌ في سُرعةِ الخروجِ باتِّصاله بحصولِ التَّركيم[2].

المُبالغةُ في سُرعةِ الخروجِ باتِّصالِه بحصولِ التَّركيمِ

سِرُّ التّعبيرِ بالرّؤيةِ:

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبير بالرّؤية في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾؛ لِلَفْتِ الانتباه إلى مولّد المطرِ منَ السّحاب في تراكمه؛ وذلك لما فيه من إيقاظ النّفوس الغافلةِ ولفْتِها إلى عَظَمة الخالق سبحانه عندما ترى منظرَ السّحابِ في تراكمِه، ثمّ نزولِه مطرًا أو ثلجًا أو بَرَدًا.

إيقاظُ النّفوسِ الغافلةِ ولفْتُها إلى عَظَمةِ الخالقِ سبحانه

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الرُّؤيةِ مُضارعًا:

الرّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾ بصريَّةٌ، والتّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ لإفادةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ لهذه الظّاهرةِ التي بها قِوام الحياةِ؛ فمعنى قوله: ﴿فَتَرَى﴾ أيْ: في تلك الحالة المُستمرّة[3]، وهذا المشهد تكون رؤيتُه واضحةً في الصّحراءِ، وكأنّي بالآيةِ تُخاطِب الذين يعبدون الأصنامَ، كيف تعبدونها وهي لا تملكُ من أمرِ المطرِ شيئًا، فضلًا عن إيجاده؟!

إفادةُ التّجدُّدِ والاستمرارِ في رؤيةِ هذه الظّاهرةِ التي بها قِوامُ الحياةِ

سِرُّ التّعبيرِ بـ﴿ٱلۡوَدۡقَ﴾ عن المطرِ:

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالوَدْق عنِ المطر في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾؛ لأنّه أعمّ منَ المطرِ؛ فيُطلق على المَطر الضّعيفِ الخفيفِ؛

بيانُ أثرِ الماءِ النّازلِ على الأرضِ

(1) زغلول النَّجار، تفسير الآيات الكونيَّة في القرآن الكريم، ص: 305.

(2) أطفيِّش، تيسير التّفسير: 10/ 129.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 292.

فهو لا ينهمر انهمارًا، ولا يكون وابلًا؛ لأنّ الوابلَ تنحلُّ فيه السّحابُ وتنهمر، أمّا المطرُ فيُطلَق على المطرِ الشّديدِ الذي يكون في الغالب مصاحبًا لبريقِ البرقِ[1]، وممّا يُذْكر في سِرّ تسمية المطرِ ودْقًا: أنّه سُمّيَ بذلك لأنَّه يَنزل مُتساقطًا في قطراتٍ، فيَدِقُ الأرضَ؛ أيّ: يترك فيها آثارًا[2]، ففي هذا التَّعبير بيانٌ لما يَترتَّبُ على هذا السَّوقِ الرَّفيقِ، والتَّجمّعُ الدَّقيقُ من آثارٍ[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ: ﴿فَتَرَى﴾ و﴿يَخْرُجُ﴾:

إفادةُ تجدُّدِ الرُّؤيةِ بتجدُّدِ تساقطِ المطرِ ونزولِه

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن رؤية خروجِ المطرِ منَ السَّحاب بالمُضارع؛ نظرًا لتَجدُّد هذه المَشاهِد واستمرارِ حدوثها على مَرِّ الأزمانِ والفصولِ، فدَورةُ الحياةِ وقِوامُها على الماء النّازل الذي جعلَ اللّهُ به كُلَّ شيءٍ حَيٍّ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿مِنْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾:

الإلْفاتُ إلى مولدِ المطرِ من هذا السَّحابِ، وتَحلُّبه من خلالِه

﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ لابتداء الغاية[4]، وفي التَّعبير بها إلْفاتٌ إلى مولدِ المطرِ من هذا السَّحاب، وتحلُّبه من خلاله، كما يتحلَّب اللَّبنُ مِنَ الضَّرع، وليس يُدرِك سِرَّ هذه اللَّفتةِ إلى قطرات الماء وهي تتساقط منَ السَّحاب، إلّا مَن عاش في الصَّحراء، وشَهِدَ آثارَ الماء حين ينزل إلى الأرض، ويبعث الحياةَ والحركةَ في جمادها ونباتها وحيوانها[5].

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾:

الواو في قولِه: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عاطفةٌ للفعل ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ على ﴿يُزْجِى﴾؛ وذلك لاشتراكِهما في بيانِ الأدلة؛ فقولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ إشارةٌ إلى دليلٍ آخَر من دلائلِ قدرةِ اللّهِ وعَظَمتِه[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5205.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1299.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 137.
(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 6/ 545.
(5) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1299.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 411.

بلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ المتُواترةِ:

قراءةُ التَّضعيفِ تُفيدُ المُبالغةَ والتَّكثيرَ في التّنزيلِ

تعدَّدتِ القراءاتُ في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بينَ التّخفيفِ والتّشديدِ؛ فقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ويعقوبُ ﴿وَيُنزِلُ﴾ بسكون النّون من (أنزل)، وقرأ الباقون بفتحها وتشديد الزّاي من نَزّلَ على وزن (فَعَّلَ) المُضَعَّف، وقراءةُ التَّضعيفِ ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ تدلُّ على المُبالغةِ والتَّكثيرِ في التّنزيل[1]، أمّا قراءة ﴿وَيُنزِلُ﴾ بالتّخفيف فتَدُلُّ على بَدْءِ الإنزال، وبذلك تتكامل القراءتانِ في تصوير بَدءِ حالةِ الإنزالِ وكثرتِهِ وشِدَّتِهِ.

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداء الغاية؛ أيّ: من جهتها مُبتَدِئًا[2].

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن جِبَالٍ﴾:

بيانٌ لعِظَمِ السَّحاب

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ للتَّبعيض؛ لأنَّ ما يُنَزِّلُه اللّه بعضُ تلك الجبال التي في السَّماء[3]، والمُراد بالجبال سحابٌ أمثالُ الجبال[4]؛ فالأشياءُ تُشَبَّهُ بالجبال وتُنسَب إليها؛ إمّا للكثرة، وإمّا للشِّدَّة والغِلَظ والعِظَم، كقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النّمل: 88]، وفي هذا بيانٌ لعِظَم السَّحاب[5].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿جِبَالٍ﴾:

قولُه تعالى: ﴿مِن جِبَالٍ﴾؛ يعني: قطعًا عِظامًا تُشَبَّه بالجبال في عِظَمها وضَخامتها وجُمودها، كائنةً تلك الجبالُ مِن بَرَدٍ[6]، فالتَّنكيرُ للتَّعظيم.

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/218، وابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 189، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 19/ 377.

(2) ابن الأنباريّ، البيان في غريب إعراب القرآن: 2/ 197.

(3) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 300.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 261.

(5) الماتُريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 580.

(6) المَظهريّ، التّفسير المَظهريّ: 6/ 545.

تشبيهُ السّحابِ بالجبالِ تشبيهٌ بليغٌ

بلاغةُ التّشبيهِ في ﴿جِبَالٖ﴾:

التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٖ﴾ تشبيهٌ بليغ؛ فهي قِطَعٌ عِظامٌ تُشْبِه الجبالَ في العِظَم والضَّخامة، والمُراد بالجبال قِطَعُ السحاب[1]، وإطلاقُ الجبالِ في تشبيه الكثرةِ معروفٌ، يُقال: فلانٌ جَبَلُ عِلْم، وطَوْدُ عِلْم[2]، وممّا يُؤكّد ذلك ما ذكره أبو زهرة بقوله: "وقد شُبِّه السّحابُ المُتراكمُ الذي يعلو طبقةً فوقَ طبقةٍ بالجبال؛ لكمال تماسكِها وتراكُمِها وعُلوِّها حتّى صارت كالجبال في منظرها، ومَن رَكِبَ الطّائراتِ في أيّامنا هذه ونظر إلى السّحاب حَسِبَه جبلًا أو جبالًا، وفي هذا دليلٌ على إعجاز القرآن، وأنّه ليس من كلام البشر؛ لأنّ رسول الله ﷺ لم يركب طائرةً تَمُرّ فوقَ السّحاب[3].

بيانُ خَلْقِ هذه الجبالِ في السَّماءِ واستقرارِها فيها

فائدةُ الظّرفيّةِ في قولِهِ: ﴿فِيهَا﴾:

﴿فِيهَا﴾ في قوله: ﴿مِن جِبَالٖ فِيهَا﴾ صفةٌ لـ ﴿جِبَالٖ﴾، كأنَّه قال: ويُنَزِّل منَ السَّماء من جبالٍ مُستقرَّة في السَّماء، مخلوقةٍ من بَرَد[4]، فإنَّ اللّه يخلق في السَّماء جبالَ بَرَدٍ، كما خلَق في الأرض جبالَ حَجَرٍ[5].

بيانُ جنسِ هذا النّازِلِ، وأنّه من بعضِ جبالِ السّحابِ

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِنۢ﴾ في قولِه: ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾، وسِرُّ تَكَرُّرِها:

﴿مِنَ﴾ الأولى في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداء الغاية؛ أي: ابتداءُ نزولِ الماءِ منَ السَّحابِ، و﴿مِن﴾ الثّانية في قوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٖ﴾ للتَّبعيض؛ أيّ: هذا الماءُ النّازلُ منَ السَّحاب مِن بعض جبال الغُيوم فيها، و﴿مِنۢ﴾ الثّالثة في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾ بيانيَّة؛ أيّ: جنس هذا النّازلِ من بعض جبال السَّحابِ هو بَرَد، والبَرَد هو قطرات الماء المُتجمّدة، وإنّ ورودَ حرفِ الجَرّ (مِن) ثلاثَ مرّاتٍ مُتجاوِرات في جملة قصيرة من روائعِ التَّعبير القرآنيّ، فالتّقدير

(1) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 18/ 273.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 261.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5205.
(4) مكّي، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 8/ 5130.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 85.

في الآية: يُنَزِّل منَ السَّماء من جبالٍ في السَّماء مِن بَرَدٍ ماء[1]، وفي هذا التّكرار بيانٌ لمصدريَّة النُّزول ومكانه، والحالةِ التي يكون عليها عند نزوله.

دلالةُ ذِكْرِ البَرَدِ دونَ الثَّلج:

كونُ البَرَدِ مِمّا تعرِفُه العربُ لنزولِه بأرضها

ذَكَرَ القرآنُ الكريم البَرَدَ دونَ الثّلجِ في قوله: ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَعرِفونه، فخوطِبوا بما يعرِفون، وتَرَك ذِكرَ الثّلجِ، وهو أكثرُ نزولًا مِن البَرَدِ؛ لأنَّهم كانوا لا يعرِفونَه في بلادِهم[2]، ولأنّ البَرَدَ يُبَرّد وجهَ الأرضِ منَ السّخونة المعهودةِ في طبيعة المناطق الصّحراويّة؛ لذلك كان التّعبير به من بابِ إبرازِ مِنّةِ اللّهِ عليهم.

سِرُّ التّعبيرِ بالإصابةِ دونَ الإنزالِ:

الدّلالةُ على حلولِ المكروهِ بإصابتِهم، وما يحصُل لهم منها بسببه

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالإصابةِ دونَ الإنزال في قوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ لأنّ الإصابة قد تكون بالخير، وقد تكون بغيره، فقد يكون المطرُ غيثًا فيه كرمٌ يُغاث فيه النّاسُ، وقد يكون مُدَمّرًا؛ لذلك كان التّعبيرُ بالإصابة هو الموافِقُ للسّياق؛ لأنَّ الإصابةَ إذا أُطْلِقَت في كلامِهم دلَّتْ على أنَّها حُلولُ مَكروهٍ، ومِن ذلك سُمّيَت المُصيبةُ الحادثةَ المكروهة، فجعَلَ نُزولَ البرَدِ إصابةً؛ لأنَّه يُفسِدُ الزَّرعَ والثَّمرةَ[3] فيصيبُ به مَن يشاءُ في نفسه أو زَرْعه أو ثمره[4].

دلالةُ التَّعبير بقولِه: ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾:

تأكيدُ ما يحدثُ منَ العقوبةِ بسببِ البَرَدِ

عبَّر القرآنُ الكريم بقوله تعالى: ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾؛ أيْ: يصرِفُ شَرَّه[5]؛ فالصَّرف غالبًا ما يكون في صرفِ الأشياءِ الضّارّةِ، يُقال: صرفَ اللّهُ عنك السّوء؛ فيكون هذا تأكيدًا لما قبلَه،

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 301، والمَظهريّ، التَّفسير المَظهريّ: 6/ 545، والصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالَيْن: 3/ 46.
(2) مكّي، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 6/ 4062.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 262.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5205.
(5) الشَّيخ علوان، الفواتح الإلهيّة: 2/ 13.

وتكون جملةُ ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ مَسوقةً لبيان العقوبة التي تَحدث بهذا البَرَد[1]، وفي ذلك توجيهُ النَّظَر إلى ناحيةٍ أُخْرى من نواحي دلالة السّحابِ والظّواهرِ الجويّة التي تدلُّ على عَظَمَته سبحانه في توزيعها كما يشاء.

دلالةُ تعلّقِ الإصابةِ والصَّرفِ بالمشيئةِ:

الحوادثُ كلُّها مستندةٌ إلى إرادةِ اللهِ تعالى

دلَّ تعلّقُ الإصابةِ والصّرفِ بالمَشيئةِ في قولِه تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ على إسنادِ الأمورِ كلّها إلى إرادته تعالى، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الحوادثَ كلَّها مستندةٌ إلى إرادتِه تعالى[2].

عودُ الضَّميرِ في ﴿بِهِۦ﴾ و﴿وَيَصۡرِفُهُۥ﴾:

بيانُ مظاهرِ القُدْرةِ واللُّطفِ الإلهيِّ

يعودُ الضّميرُ في قولِه تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ على النّازلِ منَ السّماءِ مِن نَوعَيِ المطرِ والبَرَد، فيكونُ رحمةً بالبعض، ويَصْرِفُه عن آخَرين حِكمةً وابتلاءً، ويكون المعنى: فيُصيبُ بالبَرَد مَن يشاءُ نِقْمَةً؛ لما فيه من نَثْرِ الثّمارِ وإتلافِ الزُّروعِ، ويصرِفُه عمَّن يشاء رحمةً بهم، وخلاصتُه: أنَّ الضّمير إمّا للأقرب على الثّاني، أو له ولما قبلَه على الأوَّل[3]، وهذا مظهرٌ آخَرُ من مظاهرِ القُدْرة واللُّطف الإلهيّ[4].

دلالةُ حذفِ مُتعلّقِ المشيئةِ:

الاختصارُ للعِلْمِ بالمحذوفِ منَ السّياقِ

من إيجازِ الحذفِ في هاتيْن الجملتيْن ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ حذفُ متعلّق المشيئةِ بعد الفعليْن ﴿فَيُصِيبُ﴾، و﴿وَيَصۡرِفُهُۥ﴾، والتّقدير: يصيبُ به مَن يشاء أن يصيبَه به فيناله ما

(1) ابن عُثيْمين، تفسير سورة النّور، ص: 297.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 413.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 66، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 399.
(4) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 578.

ينالُه من ضَررٍ في نفسه وماله، ويصرفُه عمّن يشاء أن يصرفَه عنه فينجو من غائلته[1].

براعةُ التَّقسيمِ والطِّباقِ:

نفيُ ثالثٍ للقِسمَيْن المَذكورَيْن

في قوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ حُسْنُ تقسيم واستقصاءٍ للأقسام، إذ لا ثالثَ لهَذَيْن القِسْمَيْن المَذكورَيْن، فلمّا كان المطرُ أقربَ إلى أن يكون ظاهرةَ رحمةٍ، والبَرَدُ أقربَ إلى أن يكون ظاهرةَ عذابٍ، معَ احتمال خِلافِ ذلك في كلٍّ منهما رَتَّبتِ الآيةُ على كُلٍّ منَ الإصابة والصّرف، رحمةً كان أو عذابًا، وهذا ما بيّنه وجلّاه وأكّده بطباقِ الإيجابِ، بين لفظتي الإصابة والصَّرف.

دلالةُ الجمعِ بين ذِكْرِ الماءِ والبَرَدِ النّازِلَيْن منَ السَّماءِ:

التَّنبيهُ على ما يَطمَعونَ فيه بالمطَرِ، وعلى ما يخافونَ منه بالبَرَدِ

جمع القرآنُ الكريم بينَ ذِكْرِ الماءِ والبَرَدِ النّازِلَين منَ السّماء في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾؛ ليُنَبِّه خَلْقَه على ما فيه نفْعُهم؛ ليطمَعوا فيه، وعلى ما فيه هَلاكُهم؛ ليخافوا منه، فنَبَّه على ما يَطمَعونَ فيه بالمَطَر، ونَبَّه على ما يخافونَ منه بالبَرَدِ، وهو شَبيهٌ بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ [الرّعد: 12].

نُكْتَةُ الجملةِ الوصفيّةِ:

تنبيهُ العقولِ إلى التَّدبُّرِ في هذه التَّغيُّراتِ

جملة ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ وصفٌ لـ (سحابًا)، وفائدةُ هذه الصِّفةِ تنبيهُ العقولِ إلى التَّدبُّر في هذه التَّغيُّرات، إذ كان شعورُ النّاسِ بحدوثِ البرقِ أوضحَ وأكثرَ من شعورِهم بتَكَوُّن السَّحابِ وتراكُمِه ونزولِ المطرِ والبَرَدِ، إذ قد يغفل النّاسُ عن ذلك؛ لكثرة حدوثِه وتَعوُّدِهم به، بخِلافِ اشتدادِ البرقِ فإنَّه لا يخلو أحدٌ

(1) المنصوريّ، المُقتطف: 3/ 526.

من أن يكون قد عرضَ له مرّاتٍ، فإنّ أصحابَ الأبصارِ التي حرّكها خفقُ البرقِ يتذكَّرون تلك الحالةَ العجيبةَ الدّالّةَ على القُدْرةِ، ولهذه النُّكْتَةِ خُصِّصَتْ هذه الحالةُ من أحوالِ البرقِ بالذِّكْرِ[1].

معنى ﴿يَكَادُ﴾ وموقعُها منَ الجملةِ الكريمةِ:

إثباتٌ لمُقاربةِ ذهابِ البصرِ من شِدّةِ لمعانِ البَرقِ

اختُلفَ في (كاد)؛ فقيل: هي كسائر الأفعال، نفيُها نفيٌ وإثباتُها إثباتٌ، وقيل عكسُه: نفيُها إثباتٌ وإثباتُها نفيٌ، فكاد زيدٌ يقوم؛ معناه: ما قام، ولم يَكد زيدٌ يقوم، معناه قام، والصَّحيح الأوَّل؛ لأنّ (كاد) معناها مُقاربةُ الفعل، فإذا دخل عليها نفيٌ انتفت مقاربةُ الفعل، فانتفاءُ نفسِ الفعل أَوْلَى إلّا بدليلٍ يُثبتُه، وفي الإثبات تثبتُ مُقاربةُ الفعل، ويبقى نفسُ الفعل على استصحاب النَّفي إلّا بدليلٍ يُثبته، فقولُنا: كاد زيدٌ يقوم؛ أيْ: قاربَ القيام، أمّا كونُه قامَ؛ فالأصل عدمُه إلّا أن يثبت بدليلٍ، وقولُنا: ما كاد زيدٌ يقوم؛ أيْ: ما قارب القيام، فانتفاء القيام بنفسه أَوْلى، إلّا أن يثبت بدليلٍ؛ فها هُنا في قوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ إثباتٌ لمقاربةِ ذهابِ البصرِ، فنَفْسُ ذهابِه على أصلِ العدمِ، ولا دليلَ على إثباتِهِ[2].

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾:

قولُه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أيْ: ضَوءُ بَرقِ السَّحابِ، وإضافةُ البرْقِ إليه قبْلَ الإخبارِ بوُجودِه فيه؛ للإيذانِ بظُهورِ أمرِه، واستِغنائِه عنِ التَّصريحِ به[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَذْهَبُ﴾:

قولُه: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أيْ: يخطَفُها من فرطِ الإضاءةِ وتَجدُّدِها، وسُرعةِ وُرودِها واستمرارِه[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 262.
(2) الطّوفيّ، الإشارات الإلهيّة، ص: 458.
(3) أبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 185.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 110، وأبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 185.

بلاغةُ استعارةِ لفظِ السّنا لذي الإرادةِ والقوّةِ:

المُبالغةُ في وصفِ السّنا بالصّفاءِ والعُلّوِ

أصل السَّنا الضَّوءُ واللّمعانُ، وبالمَدّ الرِّفعةُ والشَّرفُ، وفي جملة ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيثُ شَبّه سنا البرقِ بذي إرادةٍ وقوّةٍ، وحَذَف المُشَبَّه به، وذَكَر صِفَةً من صفاته، وهي القُدرة على أن يستلب الأبصارَ ويذهبَ بها، فلا جَرَم أنَّه كِنايةٌ عن قوَّة الضَّوء، وسِرُّ هذه الاستعارةِ: المُبالغةُ في وصفِ السَّنا بالصَّفاءِ والعُلوِّ وقوَّةِ اللَّمعانِ، فشَبَّه المحسوسَ منَ البرقِ لارتفاعِهِ في الهواءِ بغير المحسوسِ منَ الإنسانِ[1].

دلالةُ إطلاقِ الأبصارِ:

مزيدُ تهويلٍ لأمرِ البرقِ وشِدَّةِ ضوئِهِ

في إطلاقِ الأبصارِ مَزيدُ تَهويلٍ لأمرِه، وبَيانٌ لشِدَّةِ تأْثيرِه فيها، كأنَّه يكادُ يذهَبُ بها ولو عندَ الإغماضِ، وهذا من أقوى الدَّلائلِ على كَمالِ القُدرةِ من حيثُ إنَّه تَوليدٌ للضِّدِّ مِنَ الضِّدِّ[2].

فنُّ العُنوانِ في الآيةِ الكريمةِ:

الآيةُ عنوانٌ للعِلْمِ المعروفِ بالآثارِ العُلْويّةِ والجغرافيا الرّياضيّةِ وعِلْمِ الفَلَكِ

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ الآية، فنٌّ انفردَ بهِ القليلُ من علماء البيان، وهو فنُّ العُنوان، وعرَّفوه: بأن يأخذ المُتكلِّمُ في غرضٍ له من وصفٍ أو فخرٍ أو مدحٍ أو عتابٍ أو هجاءٍ، أو غيرِ ذلك منَ الفنون، ثمّ يأتي لقصد تكميلِه وتوكيده بأمثلةٍ من ألفاظٍ تكونُ عنواناتٍ لأخبارٍ مُتقدِّمةٍ وقصصٍ سالفةٍ، ومنه نوعٌ عظيمٌ جدًّا، وهو ما يكون عنوانًا للعلوم، وذلك أن تَذْكُر في الكلام ألفاظًا تكون مفاتيحَ لعلومٍ ومداخلَ لها، والآيةُ التي نحن بصددها فيها عنوانُ العِلْمِ المعروفِ بالآثار العُلْويَّة والجغرافيا الرّياضيّة وعِلْمِ الفَلَك[3].

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 8/ 58، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 413.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 110، وأبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 185.
(3) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 18/ 273.

توجيهُ المتَشابهِ اللّفظيّ:

تشابهت هذه الآيةُ الكريمةُ مع قولِهِ تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: 20]، وبإنعام النّظر فيهما نجد بينهما فرقًا؛ فآية سورة النّور هي في مقام الاعتبار، وآية البقرة في مقام التَّهديد؛ ولذلك وُجِدَ اختلافٌ في تركيب ألفاظ الآيتَين، وإن كان المعنى بينهما مُتقاربًا؛ فقولُه تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، هو كقولِه في سورة البقرةِ: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: 20]، سِوى أنَّ هذه الآيةَ زيدَ فيها لفظُ ﴿سَنَا﴾؛ لأنَّ هذه الآيةَ واردةٌ في مَقام الاعتبارِ بتَكوينِ السَّحابِ وإنْزالِ الغَيثِ؛ فكان المَقامُ مُقْتَضيًا للتَّنويهِ بهذا البرْقِ وشِدَّةِ ضيائِه؛ حتَّى يكونَ الاعتبارُ بأمرَيْن: بتكوينِ البرْقِ في السَّحابِ، وبقوَّةِ ضيائِه حتَّى يَكاد يَذهَبُ بالأبصارِ، وآيةُ سورة البقرةِ واردةٌ في مَقام التَّهديدِ والتَّشويهِ لحالِهم، حين كانوا مُظهِرينَ الإسلامَ ومُنطَوينَ على الكُفرِ والجُحودِ؛ فكانتْ حالُهم كحالةِ الغَيثِ المُشتمِلِ على صَواعِقَ ورعْدٍ وبرْقٍ؛ فظاهِرُه مَنفعةٌ، وفي باطنِه قوارعُ ومَصائبُ.

وممّا يُذْكَر في التّشابه بينهما أنَّ التَّعبير في هذه الآية ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، وهنالك بقولِه: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: 20]؛ لأنَّ في الخَطْفِ مِن معنى النِّكايةِ بهم، والتَّسلُّطِ عليهم ما ليس في (يَذهَبُ)؛ إذ هو مُجرَّدُ الاستِلابِ.

وممّا يُذكر أيضًا: أنّ التَّعبير هنا ﴿بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ مُعرَّف باللّام؛ بخلافِ آيةِ (البقرةِ) ﴿أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: 20]؛ فجاء معرّفًا بالإضافة؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ البرْقَ مُقارِبٌ أنْ يُزيلَ طائفةً مِن جِنسِ الأبصارِ؛ فالحُكْمُ على حالةِ البرْقِ الشَّديدِ مِن حيثُ هي، بخلافِ موضع (البقرةِ) فإنَّه في مَقامِ التَّوبيخِ لهم، بأنَّ ما شأنُه أنْ يَنتفِعَ النّاسُ به قد أشرَفَ على الضُّرِّ بهم؛ فلذلك ذُكِرَ لفظُ (أبصار) مُضافًا إلى ضَميرِهم، مع ما في هذا التَّخالُفِ مِن تفْنينِ الكلامِ الواحدِ على أفانينَ مُختلفةٍ؛ حتَّى لا يكونَ الكلامُ مُعادًا، وإنْ كان المَعنى مُتَّحِدًا، ولا تجدُ حَقَّ الإيجازِ فائتًا؛ فإنَّ هَذَيْن الكلامَيْن في حَدِّ التَّساوي في الحُروفِ والنُّطقِ، وهكذا نَرى بلاغةَ القُرآنِ وإعجازَهُ وحلاوةَ نظْمِه[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنزال والتَّنزيل:

الإنزالُ دَفْعيٌّ وهو أعمُّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ وهو أخصُّ

الإنزالُ على ما يكون دفعةً واحدة[1]، ويُطْلَق التَّنزيل على ما يكون مُفرَّقًا أو تدريجيًا، فالإنزال دَفْعيٌّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ، قال الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣﴾ [آل عمران: 3]؛ وهذا لأنّ حُكْمَ القرآن الكريم مؤبَّدٌ، وهو مناسبٌ لـ ﴿نَزَّلَ﴾ [آل عمران: 3]؛ فإنَّه بناءٌ لِلمبالغة، ولِما في التَّنزيل مِن معنَى التَّدريج، فبينَ الإنزالِ والتَّنزيل عمومٌ وخصوصٌ، والإنزالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ لأنّه قد يدلُّ على معنى التَّدريج وقد لا يدلُّ[2]، ولا يُشكِلُ على هذا الفَرْقِ وقوعُ التَّعبيرِ عَنِ نزول القُرآن الكريم بالفِعْلَيْن معًا؛ وذلك لأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريمِ نُزولَيْنِ، دَفْعيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنيا، وتدريجيٌّ بحسب الوقائع والأحداث[3].

---

(1) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (نزل)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 79، والجُرجانيّ، التَّعريفات، ص: 68، والشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 1/ 3.

(2) الرّاغب، المُفردات: (نزل).

(3) المقدسيُّ، المُرشِد الوَجيزُ، ص: 17، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/ 146.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾ [النور:44 - 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

الدَّليلُ الدامغ على قدرته ﷻ في خلقه

بعد أن ساق سبحانه في الآية السابقة: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ [النور: 43] دليلًا علويًّا على وحدانيَّتِه وقدرته؛ أتبعه دليلًا زمنيًّا يحسُّه الناس، ويشاهدونه في حياتهم، وهو تقليب الله اللَّيل والنَّهار، أي: إنَّه يعاقب بينهما، ثمّ ساق سبحانه دليلًا ثالثًا من واقع خَلْقِ كل دابَّة، وبديع صنعه فيما خَلَقَهُ(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُقَلِّبُ﴾: (قلب) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ أَحَدُهُما يَدُلُّ على خالِصِ شَيْءٍ وشَرِيفِه، والآخَرُ يَدلُّ على رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، فالأَوَّلُ القَلْبُ: قَلْبُ الإِنْسانِ وغَيْرِه، سُمِّيَ به؛ لِأَنَّهُ أَخْلَصُ شَيْءٍ فيه وأَرْفَعُهُ، وخالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وأَشْرَفُهُ: قَلْبُهُ(2)، وقَلْبُ الشيء: تصريفُهُ وصرفه عن وجه إلى وجهٍ، كقلب الثَّوب، وقلب الإنسان، أي: صرْفُهُ عن طريقته، قال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ [العنكبوت:21]، والانْقِلابُ: الانصراف، وقَلْبُ الإِنْسان: قيل: سُمّي به؛ لكثرة تَقَلُّبه، ويُعبَّر بالقلب عن المعاني التي تختصُّ به، من الرّوح والعلم والشَّجاعة وغير ذلك(3).

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 137.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(3) الراغب، المفردات: (قلب).

والمعنى هنا: يصرِّف اللّهُ اللَّيلَ والنَّهار، بتحويل الظَّلامِ ضياءً، والضياءِ ظلامًا، والنَّقصِ تارةً، والزيادةِ أخرى، مع المطر تارةً، والصحو أخرى، والتقليبُ: تغييرُ هيئةٍ إلى ضدِّها[1].

2) ﴿لَعِبۡرَةً﴾: (عبر) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على النُّفوذِ والمُضيِّ في الشَّيْءِ، وأصلُه مِنْ عَبْري النَّهْرِ؛ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما عِبْرٌ مُساوٍ لِصاحِبِه، فذاكَ عِبْرٌ لِهَذا، والعِبرةُ: الاعتبار بما مضى[2]، والعِبرةُ الدلالة بالشَّيء على مِثْلِه[3]، والاعْتبارُ والعِبْرَةُ: يختصّان بالحالة التي يتوصَّل بها من معرفة المشاهَدِ إلى ما ليس بمشاهَدٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً﴾[4]، فالعِبرة هنا يُراد بها ما يشتمل على الاستدلال على مقصود مطلوبٍ.

3) ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: (بصر)، هذه المادَّة أَصْلانِ؛ أَحَدُهُما: العِلْمُ بِالشَّيْءِ، يُقالُ: هوَ بَصيرٌ به، والبَصيرَةُ: البُرْهانُ، وأَصْلُ ذَلِكَ كُلِّهِ وُضوحُ الشَّيْءِ، ويُقالُ: رَأَيْتُهُ لَمحًا باصِرًا، أَيْ: ناظِرًا بِتَحْديقٍ شَديدٍ، ويُقالُ: بَصُرْتُ بِالشَّيْءِ؛ إِذا صِرْتَ به بَصيرًا عالِمًا، وأَبْصَرْتُهُ؛ إِذا رَأَيْتَهُ، وأَمّا الأَصْلُ الآخَرُ؛ فبُصْرُ الشَّيْءِ: غِلَظُهُ، ومِنْهُ البَصْرُ: هوَ أَنْ يُضَمَّ أَديمٌ إِلَى أَديمٍ، يُخاطانِ كَما تُخاطُ حاشيَةُ الثَّوْبِ[5]، والبَصَرُ يقال للجارحة الناظرة، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل:77]، و: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأحزاب:10]، وللقوَّة التي فيها، ويقال لقوَّة القلب المدركة: بَصيرَةٌ وبَصَرٌ[6].

والمراد بقوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: أصحابُ الأبصار النافذة، والقلوب الناقدة، يَعْبُرون منها إلى معرفة ما لمدبِّر ذلك من القدرة التامَّة والعلم الشامل الدالِّ قطعًا على الوحدانيَّة[7].

4) ﴿دَآبَّةٖ﴾: (دَبَّ) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ مُنْقاسٌ، وهوَ حَرَكَةٌ على الأَرْضِ أَخَفُّ مِنَ المَشْيِ، تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكُلُّ ما مَشَى على الأَرْضِ فهوَ دابَّةٌ"[8].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 273.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبر).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عبر).
(4) الراغب، المفردات: (عبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(6) الراغب، المفردات: (بصر).
(7) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 273.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دب).

والمقصود بـ: ﴿دَآبَّةٍ﴾ في الآية: كلُّ ما يدبُّ على الأرض مِن جنس الحيوان مِن الإنسان وغيرِه، أي: معنى الكلمة العامُّ، بقرينة قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾، وقولِه: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾.

المَعنى الإجْماليُّ:

بديعُ صنع الله تعالى يشمل الزمانَ والإنسانَ على السواء

يقلِّبُ اللّٰهُ اللَّيلَ والنهار بالمعاقبة بينهما، أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحرِّ والبرد والظُّلمة والنور، أو بما يعمُّ ذلك، إنَّ في ذلِك التقليب لدلالةً قويَّةً على وجود الصانع القديم، وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزُّهه عن الحاجة، واللّٰه خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ ماءٍ مخصوص، هو النُّطفة، فمنهم الزَّواحف، ومنهم النَّعمُ والوحش، ومنهم الإنسُ والطير، وهو سبحانه يخلق ما يشاء بمقتضى مشيئتهِ؛ لأنَّه تعالى عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، فيفعل ما يشاء(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل صدر الآية عمَّا قبلَهُ:

سبحان مَن لا يُحيط بسَعة قدرته إلّا هو

فُصِلت جملة: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ عمّا سبق؛ لكونها واقعةً موقع الاستئناف البياني من قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ [النور:43]؛ إذ إنَّه لمّا ذكر قدرته تلك، وأعقبها بقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣﴾ [النور:43] الدال على المبالغة في بيان مزيد هذه القدرة؛ أتبع ذلك البيان بأوسع منه، فقال: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، على تقدير أنَّ قائلًا قال: لم كان هذا؟ وما سرُّ قوَّة هذا السحاب؟ وما الأمر المترتب عليه؟ فورد الجواب: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ الآية، ففصلت؛ لشبه كمال الاتِّصال، ويجوز أن يكونَ بين

(1) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 4/ 111.

هذه الآية وما قبلها كمال اتِّصال؛ لأنَّها في المعنى نتيجة لما قبلها مِن استدلالات، فهي تلزم عنها، وهي يلزم منها ذكرُ استدلالات قبلَها، فلهذا غابت الواو.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

قدرته تعالى دائمة وأبديَّةٌ

قلبُ الشَّيء وتقليبه تصريفه وصرفه عن وجهٍ إلى وجهٍ، وتغييره مِن حال إلى حال، ومنه: قلبُ الثوبِ والإنسان، أي: تصريفه وتحويله عن طريقته، ومجيء التَّعبير به فعلًا مضارعًا: ﴿يُقَلِّبُ﴾؛ للدَّلالة على تجدُّده واستمراره بلا انقطاع، مع استحضار تلك الصّورة في الأذهان، فالتَّجدُّدُ هو المصوِّر للتَّقليب، والمتناغي معه.

دلالةُ إسنادِ الفعل إلى اسم الجلالةِ المظهر:

في تقليب اللَّيلِ والنهار يظهر جلال الله وجماله

أقيمَ الظّاهرُ: ﴿ٱللَّهُ﴾ مقامَ الضَّميرِ؛ تعظيمًا لشأنه ولإدخال الروع في النُّفوس؛ ليقوّي الدّاعي الذي سيق الكلام له، وهو كونه ﷻ الذي يقدر على إدخال اللَّيل في النَّهار والعكس، وتصرُّف أحوالهما زيادةً أو نقصًا أو غير ذلك، فهو إدخال حقيقيٌّ إذًا، وإظهارُ اسم الجلالة فيه إشعار بقوَّة ظهور دلائل الألوهيَّة في هذا التقليب؛ لِمَن أراد الاعتبار والاتِّعاظ.

سرُّ تخصيص ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ بالذِّكر:

كلُّ شيءٍ يدلُّ بظاهره وباطنه على الله ذاتًا وصفاتٍ

التَّعبيرُ باللَّيل والنَّهار هنا تعبيرٌ مجازيٌّ لغويٌّ مرسلٌ علاقتُه الحالية؛ لكونهما زمانين لحالة التقليب المذكورة، "فالْمُقَلَّبُ هوَ الجَوُّ بما يَخْتَلِفُ عليه مِنَ الأعْراضِ، ولَكِنْ لَمّا كانَتْ حالَةُ ظُلْمَةِ الجَوِّ تُسَمّى لَيْلًا، وحالَةُ نورِهِ تُسَمّى نَهارًا؛ عَبَّرَ عَنِ الجَوِّ في حالَتَيْهِ بهما، وعُدّيَ التَّقْليبُ إلَيْهِما بِهَذا الِاعْتِبارِ"[1].

وورود ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ معرَّفين بـ(أل)؛ لشهرتهما، ولكونهما معلومين لكلِّ سامع، ولقصر التقليب عليهما دون سواهما قصرًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 264.

حقيقيًّا؛ ولكونهما مخصوصَين بهذا الفعل، مع ما يفيده التَّقليب من المبالغة في أمر التغليب والتقليب.

سرُّ الفصل:

فُصِلت جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ عن جملة: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ لكونها تعليلًا لها وتفسيرًا على جهة الاستئناف البياني؛ لبيان السِّرِّ في تقليب اللَّيل والنَّهار، وهذه الجملة هي المقصود مِن السياق، ولكن بُني نظمُ الكلام على تقديم الجملة الفعلية: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ لما تقتضيه مِن إفادة التَّجدد، بخلاف أن يقال: إنَّ في تقليب اللَّيل والنَّهار لعبرةً[1]، وفي استقلال معنى هذه الجملة المستأنفة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ﴾: تفخيمٌ للتقليب مِن جهة، وللعبرة مِن جهة أخرى.

هدايةُ الإنسان إلى الطريق المستقيم غاية عليَّةٌ

بلاغةُ التَّأكيد:

أكَّد القرآنُ مضمون جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسمية الجملة واللام؛ اهتمامًا بالخبر واحتفالًا به؛ لأنَّه يوجِّه المتلقّين إلى الانتفاع بالدلائل السابقة وغيرها، أو لتنزيل المشركين - ومَن لفَّ لفَّهم في هجرهم الاتِّعاظ وتركهم أخذ العبرة - منزلةَ المنكر؛ لأن يكون في هذه الأدلَّة - ومنها التقليب المذكور - عظةٌ وعبرة[2]، ومن الممكن جدًّا هنا أن يكون التوكيد ناظرًا إلى ذات المعنى، باللَّفت إلى عظيم أهمّيته في باب الاستدلال والاعتبار.

الغافلُ الجاحد إنَّما يُعمي قلبَهُ الذي في صدره

معنى ﴿فِي﴾ وغرض ذكرها:

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ظرفيَّة، والظرفيَّة هنا معنويَّة واردة لمزيد التوكيد في الجملة الواردة بعد بيان قدرتِهِ ﷻ على تقليب الليل والنهار، وإدخال أحدهما في الآخر؛

أدلَّةُ القرآنِ هي الأعلى والأسخى والأمكن والأقوى في بابها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 264.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 264.

زيادةً أو نقصًا، وهي دالَّة على تمكُّن العِبرة في هذا الشَّأن تمكُّنَ الظَّرف من المظروف، أو هي راجعةٌ إلى جميع الآيات السابقة من إنشاء اللّه السحاب، وإنزاله منه الودقَ، ومن السَّماء البردَ، وفي تقليبه اللَّيل والنَّهار[1].

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ للبعيد:

كـلُّ دليـل على الألوهيَّةِ هو عليُّ المنزلةِ في بابه

وردت الإشارة - في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ - إلى ما يحدث لكلٍّ من الليل والنهار من التغيير والتصريف باسم الإشارة للبعيد: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لتمييز ذلك أكملَ تمييزٍ بإحضاره في ذهن السّامع؛ ليكونَ أكثر تصوُّرًا له بألّا يغيبَ عنه شيء من أوصافه، أو للإشارة لكلٍّ ما سبق من إزجاء اللّه السَّحاب والتأليف بينه، وإنزاله المطر والبَرَدَ، وتقليبه اللَّيل والنهار، لتعظيم هذه الأمور؛ لكونه لا يقادر قدرها، ولا يدرك كنهها؛ إذ هي من صنع الذي يقول للشيء كن فيكون، وللإيذان بعلوِّ رتبتها وعظيم نفعها، والنكات البلاغية هنا لا تتزاحم[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾:

أحسن تعالى بخَلْق الدليل، وبالتمكين منه

عبَّر القرآن بـ: ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ لأنَّ المتلقي يتمكَّن من الأدلَّة المذكورة سابقًا كتقليب الليل والنهار، ومِن شأنه بسهولةٍ وقوَّة أن يستدلَّ به على المطلوب، مِن المستدَلِّ عليه، وهو اللّه تعالى، والعِبرةُ هي الألصق بكون التقليب مشاهدًا أثرُه ونتيجتُه؛ فيكون دليلًا قويًّا على ثبوت ما ليس بمُشاهَدٍ ذاته، وهو اللّه ﷻ.

سرُّ تخصيصِ ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بالذِّكر:

﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ هنا جمع بصر بمعنى البصيرة، وقيل: هو بمعنى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 203.

(2) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 185، والآلوسي، روح المعاني: 18/ 192.

البصر الظّاهر، كما هو المتبادر منه، والتّعبير بذلك دون البصائر؛ للإيذان بوضوح الدِّلالة[1]، وخصَّهم بالذِّكر؛ لأنَّهم المنتفعون، حيث يتأمَّلون، فيجدون الماء والبَرَدُ، والظُّلمة والنور تخرج من شيء واحدٍ، وعلى حمل ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ على أنَّها جمعُ بصيرة، يكون بينها وبين: ﴿بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٣﴾ [النور: 43] في الآية السابقة جناس تامٌّ؛ لاتِّفاقهما في عدد الحروف ونوعها وترتيبها وهيئتها، واختلافهما في المعنى.

آياتُ الله تعالى واضحةٌ لكلِّ ذي لبٍّ وبصر

دلالةُ العطف:

جملة: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، واردة على سبيل الاعتبار والعظة، وكونها دليلًا من الأدلَّة التي ساقها اللّه تعالى؛ لبيان مزيد قدرته وبالغ وحدانيَّته، فلمّا ذكر أوَّلًا الدليل على وحدانيَّته وقدرته في إزجاء السحاب الذي ينتج عنه الخير الوفير، وما يتبعه من البرق وغيره، وساق الدليل الثاني على قدرته وحكمته في تقليب زمن الليل والنهار، وكونهما عِبرةً للمتبصِّرين؛ عاد هنا بذكر الدليل على قدرته في خلقه وبديع صنعه ﷻ في هذا الخلق، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾، فاكتملت صورةٌ بتلك الأدلَّة جميعها تشمل السماءَ والأرض وما بينهما وما فيهما؛ لبيان هذه القدرة وعظمة الوحدانيَّة لجلاله وكبريائه[2]، فيُلاحَظ التدرُّج في سوق هذه الأدلَّة بما يُفْهِمُ أنَّ اللّه سخَّر ما في السماوات وما في الأرض لهذا الإنسان.

مِـــن كـمـال إحسانِهِ تنويعُ الأدلة على كمال قدرته

سرُّ التَّعبيرِ باسم الجلالة المظهرِ:

ورد لفظُ الجلالة المعظَّم (اللّه) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾ مظهرًا دون إضماره - مع سبق ذكره في الدليل السابق - لإدخال الروع في النُّفوس؛ ليقوّي الدّاعي الذي سيق له الكلامُ من أجله،

سبحانَ الحاضرِ عِـزُّ ألوهيَّتِه في كلِّ شيءٍ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 384.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 294.

وهو بيان هذا الخلقِ العجيب على جميع هيئاته، والذي لا يقدر على إيجاده وتكوينه إلّا الله عزَّ سلطانه، ولكون المقام مقتضيًا التعظيم، وذِكْرُ اسم الجلالة مظهرًا هنا وفي الآية السابقة؛ للتَّنبيه على عظيم الاستدلال بكلِّ دليل على حدة، وعظيم الامتنان بما ذُكِر في كلٍّ منهما على حدة أيضًا، فهو يوحي باستقلال مضمون آيتِهِ في باب الاستدلال أصالة، والامتنان تبعًا.

بلاغةُ تقديمِ المسندِ إليه على المسندِ:

الخلقُ من عظيم الأدلَّةِ على وحدانيَّةِ الله تعالى وألوهيّته

جاء المسند إليه: ﴿وَٱللَّهُ﴾، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾ مقدَّمًا؛ لأصالته، ولكونه مشوِّقًا إلى الخبر ﴿خَلَقَ﴾، وحينئذٍ قُدِّم ليتمكَّن الخبرُ، ويتحقَّق في ذهن السامع، وللدَّلالة على هذا التَّحقق ورد الفعل ماضيًا، وهو بجملته خبرُ هذا المبتدأ المسند إليه هذا الخلق.

وفي تقديمه أيضًا على ما بعده إشارةٌ لطيفة، وهي أنَّ ما بعده مِمَّا مِن شأنه أن يعرِّف بالله ويوصل إلى الله، والقرآن يرمي إلى ذلك؛ ليلفتهم إلى ما بين أيديهم، وما يعيشون فيه ومعه، وقد غفلوا عنه، أي: عن ثمرته استدلالًا وامتنانًا.

وقدَّمه أيضًا: لأنَّ المقصودَ التعريفُ بالله على العموم، والتَّعريفُ بقدرته على الخصوص، ولهذا قيل في فاصلة الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، ومِن شأن المُعرَّف أن يُقدَّم.

دلالةُ صيغة الخَلق:

كونه تعالى خالقًا أمر جليٌّ

واستعمل لفظ الماضي ﴿خَلَقَ﴾؛ لتحقُّق هذا الخلق وحصوله حتّى صار أمرًا واقعًا لا يشكُّ فيه أحد منذ القِدَم، ولا ينكره؛ لكونه مشاهدًا لهم جميعًا، مع فائدة أخرى، وهي عدمُ فوات الدلالة على التَّكرير، حيث عُقِّب الكلام بقوله: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 265.

الكُلِّيَّةُ إحسانٌ؛ فإنَّها تفصيلٌ في الاستدلالِ والامتنانِ

دلالةُ التَّعبير بلفظ العموم:

لفظ ﴿كُلَّ﴾ دالٌّ على العموم، وهو "اسم وُضِع لضم أجزاء الشيء على جهة الإحاطة من حيث كان لفظُهُ مأخوذًا من لفظ الإكليل والكلَّة والكلالة ممّا هو للإحاطة بالشَّيء، وذلك ضربان، **أحدهما**: انضمامٌ لذات الشَّيءِ وأحواله المختصَّة به، وتفيد معنى التمام، و**الثاني**: انضمام الذوات، وهو المفيد للاستغراق، ثمَّ إن دخل على منكَّر أوجب عمومَ أفراد المضاف إليه، أو على معرَّف أوجب عمومَ أجزاء ما دخل عليه، وهو ملازم للأسماء، ولا يدخل على الأفعال"[1]، وهو هنا مضاف إلى نكرة مفردة؛ للدلالة على استغراقه وشموله وعمومه.

بمجموع القراءتَين ظهر نور الاستدلال بقوَّةٍ وشدَّةٍ

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتي قوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ﴾:

قرأ الجمهور: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ بالفعل الماضي ونصب: ﴿كُلَّ﴾، وقَرَأَهُ حمزة والكسائي وخلف: ﴿وَٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ بصيغَةِ اسْمِ الفاعِلِ، مع جرِّ لفظ: (كلّ) على الإضافة، أي: من قبيل إضافة اسْمِ الفاعِلِ إِلَى مَفْعولِه؛ للدَّلالة على ثبوت الخلق ودوامه واستمراره، فهو أمرٌ ثابتٌ لا يتغيَّر من بدْءِ الخليقة إلى نهايتها[2].

وقراءةُ الفعل الماضي تشملُ ما كان، وما هو كائن، وما سيكون؛ فكلُّ دابَّةٍ على وجهِ الخليقةِ منذ أول يوم خُلِقت فيه دابَّةٌ إلى آخِرِ يوم تُخْلَقُ فيه دابَّةٌ قد خلقَها اللّه ﷻ وكان الأشكلُ بذلك هو الفعلَ المضارعَ؛ لأنَّه أعمُّ مِن الماضي؛ لكنَّ في الماضي حسمًا وفصلًا وقطعًا لمسألة الخلق تلك؛ لكمال ظهورها في بصر كلِّ عاقلٍ منصف غير جاحدٍ، وكأنَّ هذه القراءةَ لِمَن هو كذلك مِن أهل الإيمان، ومن غيرِهم مِمَّن إذا عُرِضَ عليهم الهُدَى؛ اهتدَوا.

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 317.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 266، بتصرف.

معنى ﴿مِّن﴾:

(مِن) في قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ لابتداء الغاية، والمعنى: أنَّ بداية هذا الخلق كانت من الماء، أي: من نطفة خاصة بكلِّ نوعٍ من أنواع الدوابِّ.

دلالةُ تنكير لفظ ﴿مَّآءٍ﴾ هنا، وتعريفه في سورة الأنبياء:

التَّنكيرُ لمقام بسط استدلال، والتعريف لمقام قبضه

جاء لفظُ ﴿مَّآءٍ﴾ هنا نكرةً؛ لِأَنَّ المَعْنَى أَنَّهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ نَوْعٍ مِنَ الماءِ يَخْتَصُّ بِتِلْكَ الدّابَّةِ، فالمقصودُ إرادةُ النَّوْعِيَّةِ؛ تَنْبيهًا على اخْتِلافِ صِفاتِ الماءِ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الدَّوابِّ؛ إِذِ المَقْصودُ تَنْبيهُ النّاسِ إِلَى اخْتِلافِ النُّطَفِ لِلزِّيادَةِ في الِاعْتِبارِ، وقولُه: ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ - بالتفصيل بالمضاف إليه - ألصقُ بتنكير قوله: ﴿مَّآءٍ﴾، وبالتعبير بالخَلْق، وتمهيدٌ للتفصيل في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾.

وَإِنَّما جاءَ مُعَرَّفًا في قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30]؛ لِأَنَّ المَقْصودَ هُنا أَنَّ أَجْناسَ الحَيَوانِ كُلَّها كأنَّها مَخْلوقَةٌ مِنْ جِنْسِ الماءِ، وهوَ جِنْسٌ واحِدٌ اخْتَلَفَتْ أَنْواعُهُ، فتَعْريفُ الجِنْسِ هُناكَ إِشارَةٌ إِلَى ما يَعْرِفُهُ النّاسُ إِجْمالًا، ويَعْهَدونَهُ مِنْ أَنَّ الحَيَوانَ كُلَّهُ مَخْلوقٌ مِنْ نُطَفِ أُصولِهِ[1]، وقولُه: ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30] بالعموم غير المفصَّل في قوله: ﴿شَيْءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30]: ألصقُ بالتعبير بالجعل، وبتعريف الجنس في قوله: ﴿ٱلْمَآءِ﴾ [الأنبياء: 30].

السرُّ في تعميم ذِكرِ الخَلقِ مِنَ الماء:

الأَصْلُ الأَوَّلُ لِلخِلْقَةِ هوَ الماءُ

إنَّ الله تعالى ذكر خلق الدوابِّ في جميع أجناسها من الماء بلفظ العموم، مع أنَّ هناك الكثيرَ من الحيوانات، أو الملائكة عليهم السلام أو الجنِّ ليسوا مخلوقين من الماء، ولا صلةَ لهم به البتَّة، "والجَوابُ مِنْ وُجوهٍ: **أَحَدُها** ... وهوَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ صِلَةُ: ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾، ولَيْسَ هوَ مِنْ

---

(1) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 12/ 17، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 266.

صِلَة: ﴿خَلَقَ﴾، والمَعْنَى أَنَّ كُلَّ دابَّةٍ مُتَوَلِّدَةٍ مِنَ الماءِ؛ فهيَ مَخْلوقَةٌ للّه تَعالَى، وَثانيها: أَنَّ أَصْلَ جَميعِ المَخْلوقاتِ الماءُ ...، ولَمّا كانَ المَقْصودُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ بَيانَ أَصْلِ الخِلْقَةِ، وكانَ الأَصْلُ الأَوَّلُ هوَ الماءَ؛ لا جَرَمَ ذَكَرَهُ على هَذا الوجه، وَثالِثُها: أَنَّ المُرادَ مِنَ الدّابَّةِ الَّتي تَدِبُّ على وجْهِ الأَرْضِ، ومَسْكَنُهُم هُناكَ، فيَخْرُجُ عَنْهُ المَلائِكَةُ والجِنُّ، ولَمّا كانَ الغالِبُ جِدًّا مِنْ هَذِهِ الحَيَواناتِ كَوْنَهُم مَخْلوقينَ مِنَ الماءِ؛ إِمّا لِأَنَّها مُتَوَلِّدَةٌ مِنَ النُّطْفَةِ، وإِمّا لِأَنَّها لا تَعيشُ إِلّا بِالماءِ؛ لا جَرَمَ أَطْلَقَ لَفْظَ الكُلِّ؛ تَنْزيلًا لِلغالِبِ مَنْزِلَةَ الكُلِّ"[1].

معنى الفاءِ ودلالة التَّعبير بها:

تفصيلٌ جَليٌّ يحكي عن قدرة الله العلي

الفاء في قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ تفريعيَّةٌ عاطفةٌ، فقد ورد تفصيل هذه الأصناف وتفريعها على الإجمال في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾؛ لبيان أنواع هذه المخلوقات دلالةً على قدرته ﷻ، والفاء العاطفة معناها التعقيبُ، وهو في كلِّ شيء بحسبه، ومن معاني الفاء عطفُ المفصَّل على المجمل، وقد أقامت الفاءُ الكلام على التَّرقّي من القليل إلى الكثير إلى الأكثر، وهلمَّ جرًّا.

بيانُ المرادِ من لفظَي (مِنْ) و﴿مَّن﴾ في الآية:

لا يخلو شيءٌ من مُكوِّنات البيان القرآني من فائدةٍ وغرضٍ

(مِن) الأولى في قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ للتَّبعيض، والمعنى: بعضهم الذي يمشي إلى آخره، أمّا ﴿مَّن﴾ الثانية؛ فهي الموصولة، وقالوا فيها: أصلها أن تكون لِمَن يعقل، وإن استُعملت في غيره؛ فعلى المجاز، وإذا أُطلقت على ما لا يعقل؛ فإمّا لأنّه عوملَ معاملة مَن يعقل، وإمّا لاختلاطه به؛ فيكون مجيء ﴿مَّن﴾ هنا للتغليب الذي اقتضاه الاختلاطُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾، فعُبِّر بها عمَّن يمشي على بطنه، وهم الحيّات،

(1) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 12/ 17.

وعمَّن يمشي على أربع، وهم البهائم؛ لاختلاطهم مع مَن يعقل في صدر الآية؛ لأنَّ عمومَ الآية يشمل العقلاءَ وغيرهم، فغُلِّب على الجميع حكم العاقل"[1].

وجملةُ: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي﴾ لا محلَّ لها من الإعراب معطوفةٌ على جملة ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ﴾ من باب عطف المفصَّلِ على المجمل؛ زيادةً في البيان والإيضاح من قبيل التفصيلِ بعد الإجمال، وجملة ﴿يَمۡشِي﴾ الأولى هنا لا محلَّ لها، صلةُ الموصول ﴿مَّن﴾ الأولى وهكذا، وبين: (مِن) و: ﴿مَّن﴾ تشابهٌ لفظيٌّ يُمكِّنُ المعنى، ويؤكِّده.

سرُّ التَّذكير في: ﴿فَمِنۡهُم﴾:

قد يدلُّ غيرُ العاقل على المطلوب أكثرَ مِن العاقل مبالغةً

جاء الضَّمير في ﴿فَمِنۡهُم﴾ هنا مذكَّرًا لتغليب العقلاء، والتَّعبيرُ بـ﴿مَّن﴾ التي للعاقل فيما لا يعقل؛ ليوافقَ التفصيلُ الإجمالَ، والترتيبُ لتقديم ما هو أعرف في القدرة"[2]، فورد الضَّمير هنا عائدًا إلى لفظ ﴿كُلَّ﴾ باعتبار معناه، فغُلِّب فيه العاقلُ على غيره، فمن هذه الدَّواب مَن يمشي على بطنه كالزواحف وغيرها، ومنهم مَن يمشي على رجلين كالإنس والطير، ومنهم مَن يمشي على أربع، مثل الأنعام والوحوش، والتَّغليب هو ترجيح أحد المعلومين على الآخر، وإطلاق لفظِه عليهما، وقد يُنزلون غير العقلاء منزلتهم؛ إذا وصفوه بما هو مختصٌّ بهم"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَمۡشِي﴾:

لقراءتَي (خلق كل) أثرٌ في توجيه هذا المضارع

المشي: الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة، ويُكنى به عن النَّميمة، قال تعالى: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١﴾ [القلم:11]، ويُكنّى به عن شربِ المسهل، فقيل: شربت مِشْيًا ومَشْوًا"[4]، والتَّعبير بالفعل

(1) الزركشي، البرهان: 411/ 4 - 413.

(2) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 185.

(3) الطيبي، كتاب التبيان في المعاني والبديع والبيان: 294 - 293.

(4) الراغب، المفردات: (مشى).

المضارع؛ للدَّلالة على التجدُّد والاستمرار والحدوث شيئًا فشيئًا، وهذا ما يصوِّر حقيقةَ المشي، وهذا التَّعبيرُ بالمضارعِ على ظاهره، على قراءة: ﴿خَالِقُ كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، وهو على غير ظاهره، على قراءة: ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾، فيكون دالًّا على استحضار هذه الصورة الماضية.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾:

في المشي حركةٌ للبحث عن الرزق وتحقيق الغايات

في الآية الكريمة استُعيرَ المشي الذي هو انتقال من مكان إلى مكان للزحف على البطن، كما استعارت العرب المشفر الَّذي هو من خصائص البعير؛ لشفة الإنسان لكبرها، والاستعارة هنا تبعيَّة في الفعل، والقرينة عقلية لاستحالة المشي على البطن حقيقة؛ مبالغةً في سرعة الحركةِ، كما يقع من الماشي الحقيقي، أو سُمّيت هنا مشاكلة؛ لوقوعها في صحبة أختيها، وهما المشي على الرجلين أو الأربع مشاكلة تقديريَّة، ولا تعاند بين القول بالاستعارة والقول بالمشاكلة، وكما هو شائع في لغة القوم، يقولون: مشى فلان في هذا الأمر؛ إذا استمرَّ فيه، وقطع فيه أشواطًا، وسُمِّي زحف الدواب مشيًا؛ إشارةً إلى كمال القدرة، وتحقيقها هدف المشاة، وهو الانتقال والحركة للبحث عن الرزق وتحقيق الغايات[1].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالة التعبير بها:

تنوُّعُ أساليبِ المشي من تمام قدرته تعالى

﴿عَلَىٰ﴾ في أصل وضعه حرف جرٍّ، يُراد به الاستعلاء حقيقة أو مجازًا، وهنا استُعمِل للزَّحف على البطن حقيقة، ولاستعلاء المشي على البطن من الأرض؛ لكون هذا الزّاحف لا أرجل له يمشي عليها، فمشيهُ على بطنه زحفًا هو وسيلتُهُ وآلته الوحيدة، ومجيئها هنا أبلغُ من أن يقال: يمشي ببطنهِ، وشاع الاستعمال، وكثُر التَّعبير بلفظ ﴿عَلَىٰ﴾ بين القوم جميعًا، يقال: مشى فلانٌ على ركبتيه وعلى بطنه؛ مبالغةً في السُّرعة والحركة وعدم البطء، فـ:

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 71.

﴿عَلَىٰ﴾ تُصوِّر تمكينَ الله ما يمشي على بطنه مِن ذلك الزَّحف الذي عُبِّر عنه بالمشي.

معنى الواو، وبلاغة الترتيب في الآية:

اعتباراتُ ترتيب المعاني تتغاير، وتختلف، ولا تتعاند

الواو في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي﴾ عاطفة، وهي "التي تُشْرك في الإعراب والحكم، وهي لمطلق الجمع على الصحيح، ولا تدل على أنَّ الثاني بعد الأوَّل، بل قد يكون كذلك، وقد يكون قبله، وقد يكون معه"[1]، وهنا عطفت الواو جملة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ على ما قبلها؛ ترقّيًا من الأدنى إلى ما هو أعلى منه شيئًا، ثم إلى ما هو أعلى من الاثنين؛ لكثرته في ذاته، وإن كان الأوَّلُ أدقَّ من أخويه.

وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ القرآن قدَّم ما هو أعرقُ في القدرة، وهو الماشي بغير آلة مشْيٍ من أرجل أو قوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع[2]، ولفت الشيخ ابن عاشور في الآية لفتة جميلة؛ إذ قال: "وَرُتِّبَ ذِكْرُ الأَجْناسِ في حالِ المَشْيِ على تَرْتيبِ قوَّةِ دَلالَتِها على عِظَمِ القُدْرَةِ؛ لِأَنَّ الماشيَ بِلا آلَةِ مَشْيٍ مُتَمَكِّنَةٍ أَعْجَبُ مِنَ الماشي على رِجْلَيْنِ ... ولَيْسَ في الآيَةِ ما يَقْتَضي حَصْرَ المَشْيِ في هَذِهِ الأَحْوالِ الثَّلاثَةِ؛ لِأَنَّ المَقْصودَ الاِعْتِبارُ بِالغالِبِ المُشاهَدِ"[3].

سرُّ الفصلِ:

يَتَجَدَّدُ خَلْقُ اللهِ ما يَشاءُ أَنْ يَخْلُقَهُ مِمّا عَلِمنا وما لَم نعْلَم

لَمَّا بيَّن تعالى بعضَ أقسام مخلوقاته على جهة التعديد، وعلى جهة التَّرقي؛ كان ذلك من شأنه أن يُحرِّك المتلقّين للسؤال عن وجود خلْقٍ آخرَ عجيبٍ كالمذكور، فكان الجواب: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، ففُصِلت هذه الآية عمّا قبلَها؛ لما بينها وبين ما قبلها مِن شبه كمال الاتِّصال.

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 436.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 71.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 266.

في إظهاره تنبيهٌ على كمال نور وجوده وألوهيَّته في الدليل

بلاغةُ وضع المظهرِ موضعَ المضمر:

ورد اسمُ الجلالة في قوله: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ﴾ مظهرًا في موضع الإضمارِ؛ للإبلاغ في تعظيم شأنِ الخالق ﷻ لكونه يخلقُ في الكون للناس وغيرهم ما لا يعلمون في الهيئات والطبائع والحركات والقوى[1].

وقد يُراد بإظهارِه إلقاءُ الرَّوع في النُّفوس؛ لتقوية الدّاعي الَّذي سيق الكلام من أجلِه، وهو بيانُ كمالِ قدرته ﷻ على خلق جميع أصناف الموجودات ممّا عُلِم وممّا لم يُعْلَم؛ ففيه تفخيمُ شأن الخلق المذكور، والإيذان بأنَّه من أحكام الألوهيَّة[2].

سرُّ الفصلِ:

فُصِلت جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عن سابقتها؛ لكمال الاتِّصالِ؛ لكونها توكيدًا وتعليلًا لما سبق، فمجموعُ ما قبلَها في الآية ينتجها، ويلزم منها أيضًا، وهي واردة موردَ التَّذييل[3].

سرُّ التَّوكيدِ:

يؤكِّدُ لهم بعد بيان الدَّليل على المؤكَّدِ إحسانًا إليهم

ورد توكيدُ مضمون جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ لبيان أنَّ اللّهَ تعالى لا يعجزه خلقُ ما يريد خلقه، ولا يمنعه من ذلك مانعٌ؛ إذ إنَّ كلَّ ما في الكون خاضعٌ لقدرته، ينفِّذ ما يريده الخالق - ﷻ - وفي الآية ردٌّ على مَن تسوِّل له نفسُه أنَّ باستطاعته أن يغيِّر مقادير الكون التي نظَّمها اللّه تعالى والأدلَّة السابقة على هذه الجملة ناظرةٌ إلى البعث أتمَّ نظرٍ، وكان أهلُ الكفرِ منكرين له، فأكِّد لهم هذا المعنى[4].

غرضُ إظهارِ اسم الجلالة:

اسمُ الألوهيَّة له رهبته ومهابته

الغرضُ من الإظهار بيانُ كمال عظمته وقدرته على فعل ما يريد،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 274.

(2) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 186.

(3) التذييل: هو تعقيب الجملة بجملة أخرى متَّفقة معها في المعنى تأكيدًا للجملة الأولى، الخطيب القزويني، الإيضاح: 3/ 205.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 294.

وخلق ما يشاء حسب إرادته، مع تأكيد استقلالِ الاستئناف الفعليِّ[1]، وليَكون كلامًا مُسْتَقِلًّا بِذاتِهِ؛ لِأَنَّ شَأْنَ التَّذْيِيلِ أَنْ يكون كالمَثَلِ[2].

علَّةُ التعبير بلفظ العموم: (كل) مكرَّرًا:

لمّا قيل أوَّلًا: ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾؛ أعاد لفظَ العموم في مقطع الآية، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ لبيان قدرتهِ على جميع الأشياء بعمومها خلقًا وإيجادًا، وإعدادًا وإمدادًا، فناسب آخرُ الكلام أوَّلَهُ؛ لعموم قدرة اللّه تعالى وعظم شأنه، وعلوِّ سلطانه.

من لـوازم تمام القدرة إحاطتُها بكلِّ شيء

دلالةُ تنكير: ﴿شَيۡءٖ﴾:

المرادُ بتنكيرِ ﴿شَيۡءٖ﴾ - في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ - التعظيمُ والتكثير، والتكثير يكون في الكميَّة، والتعظيم يكون في الكيف، وقد يجتمعان معًا كما هنا، واللّه ﷻ قادرٌ على كلِّ شيء، عَظُمَ، أو صغُر، قلَّ، أو كثُر.

ليس كمِثْلِ قدرتِهِ قدرةُ أحدٍ

سرُّ التعبير بصيغة (فعيل):

ورد التَّعبيرُ عن القدرة هنا بصيغة فعيل: ﴿قَدِيرٞ﴾ الذي هو أبلغُ من فاعِلٍ؛ نظرًا إلى التفصيلِ في بيان قدرتِهِ بأنَّه تعالى خلقَ كلَّ دابَّةٍ من ماء، ثم تفصيلِ ذلك إلى أن قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ لأنَّه ﷻ هو القادر على الكلِّ؛ كما أنَّه هو العالم بالكلِّ المطَّلع على أحوال هذه المخلوقات وأمورها، ومن هنا لا يمكن لأيِّ عقلٍ أو فكرٍ أن يقف عليها، ولا يستطاعُ الوصول إلى أيِّ سرٍّ من أسرارها، وليس بمقدور أحدٍ - مهما أوتي - أن يُكشَفَ له هذا السِّرُّ أبدًا.

سبحان مَن يُصرِّفُ بيانَه عن صفاته، حسب موارد سياقاتها في كلامه

الفروق المُعْجَميَّة:

التقليب والتغيير والتكوير:

إنَّ التَّحوُّلَ من حالةِ اللّيل إلى حالة الضّياء، ومِن حالة النَّهار

التغيير أعمُّ مِن التقليب والتكوير اللذين هما صورتان من صوره

(1) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 186.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 266.

إلى حالة الظَّلام - وذلك كلُّه متعلِّقٌ بالجوِّ الذي يختلِفُ عليه مِن الأعراض ما يختلِفُ - الألصقُ بها هو التقليب؛ لأنَّهُ ردُّ الشيء مِن جهة إلى جهة، وتغييرُ هيئة إلى ضدِّها.

وأمَّا التغيير؛ فإنَّه يدلُّ على مطلق اختلاف شيئين، والانتقال فيه ظاهرٌ؛ كما في قولك: غيَّرتُ داري؛ إذا بنيتَها بناء غيرَ الذي كان، وأمَّا التقليبُ؛ فالانتقال فيه ذو لُطْفٍ، كقلب الإنسان، أي: صرْفُهُ عن طريقته، وبدليل أنَّه يُعبَّر بالقلب عن المعاني التي تختصُّ به، مِن الرُّوح والعلم والشجاعة وغير ذلك، وعمليَّةُ تقليب الليل والنهار بالنسبة لنا جِدُّ لطيفة، فلا يكادُ يُدركها أحدٌ بالنَّظر المجرَّد، وإن تابَعَ، وراقَبَ، وإنَّما يُدرِك أثرَها ومآلَها.

وأمّا التكويرُ؛ فهو حالة خاصَّة مِن التغيير، فمادَّته تدور على دَوْرٍ وتَجَمُّعٍ، وضمِّ بعض الشَّيء إلى بعضٍ، والله تعالى قال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر:5]؛ إشارةً إلى جريان الشمس في مطالعها وانتقاص اللَّيل والنهار وازديادهما[1].

العبرة والذِّكْر:

العِـبرةُ أعـمُّ مِـن الـذكـرى، والذكرى طريقٌ للعبرة

إنَّ مادَّةَ العِبرة تدور على النفوذ والمضيِّ في الشيء، والاعتبار والعبرة مقيسان من عَبْرَيِّ النَّهر؛ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما عِبْرٌ مُساوٍ لِصاحِبه، فذاكَ عِبْرٌ لِهَذا، وهَذا عِبْرٌ لِذاكَ، فإذا قُلْتَ: اعْتَبَرْتُ الشَّيْءَ، فكَأَنَّكَ نَظَرْتَ إلَى الشَّيْءِ، فجَعَلْتَ ما يَعْنيكَ عِبْرًا لِذاكَ، فتَساوَيا عِنْدَكَ، وهَذا اشْتِقاقُ الاعْتِبارِ[2]، وأمّا الذِّكْرُ؛ فهو مِن: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلافُ نَسِيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ على ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ، أَيْ: لا تَنْسَهُ، والذِّكْرَى: كثرة الذِّكر، وهي أبلغُ من الذِّكر، قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كور)، والراغب، المفردات: (كور).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبر)، والراغب، المفردات: (عبر).

﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣﴾ [ص:43]، وقال: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات:55][1]، والإنسان لن يعتبر بشيء أو مِن شيء، وهو قد نسيه، أو تناساه، فالعِبرة مؤسَّسةٌ على الذِّكر والذكرى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر)، والراغب، المفردات: (ذكر).

﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾ [النور:46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإلـحـاحُ في الإرشاد إحسانٌ عظيمٌ

كانت الآياتُ السابقة محمَّلةً بجملةٍ مِن الدلائل والعِبر على ألوهيَّة اللّه تعالى وعظيم قدرته، فجاءت هذه الآيةُ تذييلًا ونتيجةً لها؛ ولذلك خُتِمَت بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: إن لم يهتدِ بتلك الآيات أهلُ الضلالة؛ فذلك لأنَّ اللّه لم يهدِهم؛ لأنَّه يهدي مَن يشاء، والمراد بالآيات هنا آياتُ القرآن، كما يقتضيه فعلُ الإنزالِ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَآ﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّبَيِّنَٰتٖۚ﴾: (بين) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ، فالبَيْنُ الفِراقُ، يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، والبَيونُ: البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ، والبينُ: قِطْعَةٌ مِنَ الأَرْضِ قَدْرُ مَدِّ البَصَرِ، قالَ:

بِسَرْوِ حِميَرَ أَبْوالُ البِغالِ به *** أَنَّى تَسَدَّيْتَ وهْنًا ذَلِكَ البينا

وَبانَ الشَّيْءُ وأَبانَ؛ إِذا اتَّضَحَ، وانْكَشَفَ، وفُلانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلانٍ، أَيْ: أَوْضَحُ كَلامًا مِنْهُ(2)، والبَيِّنَة: الدلالة الواضحة عقليَّة كانت أو محسوسة، والبَيان: الكشف عن الشيء، وهو أعمُّ من النُّطق، لأنَّ النُّطق مختصٌّ بالإنسان، ويُسمّى ما بيَّن به بيانًا"(3).

والمعنى هنا: ﴿مُّبَيِّنَٰتٖۚ﴾: أي: لا خفاء في شيءٍ منها عند أحد مِن الخَلْق، فهنَّ موضَّحاتٌ مكشوفاتٌ مِن قِبَل اللّه تعالى على قراءة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 267.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) الراغب، المفردات: (بين).

الفتح: (مبيَّنات)، وهنَّ سببٌ في توضيح بعض المقاصد وكشف حقائقها، والمراد منها، على قراءة الكسر: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾[1].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

سبحانه يلفت إلى آياته الظاهرات إحسانًا منه

لقد أنزلنا في هذه السورةِ - وما تقدَّمها - بما لنا مِن العظمة آياتٍ مشتملةً على الحِكَم والأحكام والأدلَّة والأمثال، وهذه الآياتُ واضحاتٌ في أنفسهنَّ، وموضِّحةٌ لغيرهِنَّ، فلا حجَّة لأحد من الخَلْقِ بأنَّ فيها نوعَ نقصٍ؛ لأنَّ اللّٰه قد أراد هدايتكم، بعضكم بالبيان، وبعضكم بخلق الإذعان، والمَلِكُ الأعظمُ سبحانه يهدي مَن يشاء مِن عباده كلِّهم إلى صراط مستقيم، بالقوَّة بإنزال الآيات، وبالفعل بخَلْق الإيمان والإخْباتِ، فيؤمنون حينئذٍ إيمانًا ثابتًا عريقًا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل الآية عمّا قبلها:

جدَّد إحسانًا عليهم بتجديد الدعوة إلى التعرُّف على أدلَّة الوحدانيَّة

هذه الجملةُ كلام مسوقٌ لذكر آيات اللّٰه ﷻ عن طريق الالتفاتِ من الغيبة فيما سبق إلى التكلُّم، على طريقة التذييل؛ لبيان الأدلة كلِّها على كمال قدرة اللّٰه تعالى على خلق جميع الموجودات، أو المراد بها القرآن الكريم؛ لكونه مشتملًا على جميع الدلائل والعِبَر من عظمة اللّٰه ﷻ المسرودة في هذا الكون العظيم، فوردت كالنتيجة المتمِّمة لهذا الاستدلال على تلك القدرة الإلهية، والأَوْلى الحملُ على هذا، فتكون الآيةُ راجعةً إلى مطلع السورة: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ [النور:1]، ولذلك لم تُعطف هذه الآية على ما قبلَها، بعكس قوله السابق: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور:34]؛ لأنَّ مضمونَها يلزم مِن معاني

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 274.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 274.

الاستدلالات والعِبَرِ السابقة، فبينهما كمال اتصال، على جهة اللزوم والتوكيد المعنوي.

بلاغةُ التوكيدِ:

عظمةُ هذه الآيات مستمَدَّةٌ من عظمة منزلها ﷻ

وردت أكثرُ من أداة للتأكيد في قوله: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ﴾، وهي اللام وقد، وكلُّها لبيان عظمة الآيات المنزَّلة، التي هي سببٌ بالغ من أسباب الهداية التي نشرها الله تعالى في جميع الكون، وبيانِ نسبتها إلى المنزِّل ﷻ فلا يشوبها شكٌّ، ولا تحوم حولها شبهةٌ، بل هي بيِّنات ظاهرات واضحاتٌ لا تغيب شمس هدايتها عن الأعين، فالمقام إذًا يستدعي هذا التأكيد، ويحثُّ عليه.

سرُّ إسناد فعلِ الإنزال إلى ضمير العظمة:

لا يقدر على إنزال هذه الآياتِ إلّا مَنْ هو عظيمٌ في ذاته وصفاته

لمّا كانت الآيات دالَّةً على عظم قدرة الله تعالى وحسن تصرُّفِهِ في خلقه حسبما تقتضيه إرادتُهُ ومشيئته؛ أُسندت إلى ضمير العظمةِ في قوله: ﴿أَنزَلۡنَآ﴾؛ تشريفًا وتقديرًا للمنزِّل - ﷻ - وتقديرًا للمنزَّل، وهو هذه الآيات البيِّنات، وقد تقدَّم ما يدلُّ صراحةً على ضمير المعظِّم نفسه، فجاء التعبير بإيراد أدلَّة التوحيد بهذا البيان الجامع الشامل لجميع تلك الأدلَّة، فالأمر إذًا جدٌّ عظيم، ولمّا كان الأمر كذلك؛ عُبِّر بما هو أعمُّ، وهو لفظ الإنزال دون التنزيل؛ لعظم الأمر.

دلالةُ الجمع:

أحسن تعالى بتنويع الآياتِ وتمييزها

جُمِعَت الآيات في قوله: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ﴾ لجمع الدلائل، وتنوُّعها وكثرتها، "والمرادُ بالآيات هنا آياتُ القرآن، كما يقتضيه فعلُ أنزلنا"[1]، ولَمَّا كانت آياته تعالى مميَّزة؛ لما فيها مِن سيما الألوهيَّة، وكان في مُكْنة العباد الاستدلالُ بها على الله، وحسنُ الانتفاع بها واستثمارها؛ عُبِّرَ بالآيات، وهو جمع مؤنَّث سالم، وهو مِن أوزان القلَّة، أو ملحق بهنَّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 267.

سرُّ الوصف بـ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾:

كمالُ الوضوح والبيان سمةُ هذه الآيات

الوصفُ دليلٌ على موصوفه وبرهانٌ عليه؛ فبعد أن ذكرَ اللّه تعالى الحكمَ والأدلَّة على عظم قدرتهِ، وساق الأمثلة على ذلك بالآيات؛ ذكر وصفها، مِن كونها واضحاتٍ مبيِّناتٍ كاشفات عن تلك القدرة وعظيم تصرُّفه في كونه على ما شاءت حكمته وإرادته؛ لمزيد الترغيب في النَّظر فيها، والانتفاع بها، والتعبيرُ بالوصف: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يعمُّ كلَّ ما نصب اللّه تعالى من آية ودليلٍ على ألوهيَّته ووحدانيَّته، والمراد بكونها: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أنَّها لا خفاء فيها ولا التواء في أيِّ شيء منها عند سائرِ الخَلق، وأنَّها تدلُّ على اللّه ﷻ دلالةً واضحة بيّنة.

توجيهُ قراءتَي قوله: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾:

آياتُه تعالى كاملةٌ تامَّة فيما أريد منها؛ فهي بيِّنةٌ في ذاتها مبيِّنة لغيرها

قرأ ابن عامر وحفص والكسائي وحمزة وخلف ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بكسر الياء على البناء للفاعل: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، والمعنى: هذه الآياتُ مبيِّنات لكلِّ ما لكم حاجة إلى بيانه من الحدود والأحكام والآداب، إلى غير ذلك من مبادئ يراد بيانها وتوضيحها، فصارت هذه الآياتُ كاشفةً للخلق جميعًا جلالَ قدرةِ اللّه تعالى وعظيمَ تصرُّفه في هذا الكون العريض، وأُسند التبيين إلى الآيات إسنادًا مجازيًّا عقليًّا لعلاقة السببيَّة؛ إذ صارت هذه الآيات سببًا في البيان، والمراد ما تسبَّب عنها من بيان تلك القدرة العظيمة، فأطلق السَّبب، وأُريد المسبَّبُ عنه، وهو الإيقانُ والاتِّعاظ.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وشعبة ويعقوب (مبيَّنات) بفتح الياء على البناء للمفعول، والمعنى عليه: آياتٌ بيَّنها اللّه تعالى وجعلها واضحةَ الدِّلالة على الأحكام والحدود وغيرها من الآداب الواردة في هذه السورة الكريمة، بيَّنها، ووضَّحها، وجعلها خاليةً من اللَّبس والغموض.

بلاغةُ العطفِ بالواوِ:

دلائل الحقِّ ظاهرةٌ، ولكنَّ الهداية إلى الحق بيدِ الله وحده

عُطِفت جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ على سابقتها؛ لاتِّفاقهما في الخبرية، وصارت هذه الجملة كالمتمِّمة لقوله: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ﴾؛ فلمّا ذكر أوَّلًا الكلامَ عن هذه الآيات الواضحات؛ بقي أن يشير إلى المترتِّب عليها، وهو الانتفاع بتلك الآيات؛ بإسناد الهداية إليه ﷻ الذي تولَّى هدايةَ هذا الخلق إلى معرفة تلك الآياتِ الواضحات؛ تتميمًا للغرض المقصود منها، والمراد: أنَّه ﷻ يرشدهم إلى تفهُّم هذه الآيات وتعقُّلها، ويرشد من يشاء إلى الطريق القويم، الذي لا اعوجاج فيه البتَّة، وقد ورد ترتيبُ الجملتين على نسق المقدِّمة والسَّبب، والنَّتيجة والمسبِّب؛ للإعلام بأنَّ هذه الآيات المبيّنات هي السَّبيل القويم إلى تلك الهداية إلى الصراط المستقيم.

سرُّ ذكرِ المسند إليه مُظهَرًا:

أظهرَ اسمه؛ ليلفت الغافلين إليه

ورد المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي﴾ مظهرًا، مع سبْق الحديث عنه فيما سبَق؛ بيانًا وتشريفًا وتعظيمًا للاسم الجليل، وتربيةً للمهابة في النُّفوس بذكره صراحةً لا كنايةً، ولا إضمارًا، أو لإلقاء الرَّوع في النُّفوس؛ لتقوية الغرض المسوق له الكلام، وهو بيان أنَّ أحدًا لا يقدر على هداية أحد إطلاقًا، وإنَّما الذي يملك هذا، ويستطيعه هو الله - ﷻ - فنُفيت الهداية عن الخلق جميعهم، وبقيت للّه ﷻ وحده.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

هدايةُ الله تعالى لخلقه مستمرَّةٌ ومتجدِّدةٌ

الفعلُ المضارع: ﴿يَهۡدِي﴾ دالٌّ في أصل وضعه على التجدُّد والاستمرار، مع استحضار الصورة الماضية للفعل، فإيقاعُهُ مضارعًا دلَّ على تكراره وتجدُّده بلا انقطاع، وهذا مشاهَدٌ منذ خلق آدم إلى اليوم.

نكتةُ حذفِ المتعلّق:

حُذِفَ متعلِّق فعل المشيئة، والأصل: (والله يهدي من يشاء

هدايته، أو: أن يهديه)، والحذف أبلغُ في تقرير مشيئته ﷻ فإنَّها المشيئة المختارة، وقد حسَّن الحذفَ أنَّ مفعولَ المشيئة ليس غريبًا تعلُّقه بالفعل، بل هو معلوم من سياق الكلام، وتعلُّقه به تعالى ظاهر، ولو كان غريبًا تعلُّقه به؛ لكان من البلاغة ذكرُه صراحةً.

في الحذف سيما الألوهيَّة

معنى ﴿إِلَىٰ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

﴿إِلَىٰ﴾ حرف يدلُّ على انتهاء الغاية، وهي تقابل (مِن) الدالَّة على ابتداء الغاية، ولا يخلو أن تقترنَ بها قرينةٌ تدلُّ على أنَّ ما بعدَها داخل فيما قبلها، أو غير داخل، وإن لم تقترن بها قرينةٌ تدلُّ على أنَّ ما بعدها داخل فيما قبلها أو غير داخل، فيصار إليه قطعًا؛ وإن لم يقترن بها[1]، وهنا جعل الله تعالى الصراط المستقيم هو الغاية التي يصل إليها كلُّ مهتدٍ أراد الله هدايته، ووراء ذلك من المعنى عظمةُ ذلك الصراط المستقيم وفخامته.

غايةُ كلِّ الأمالي، وقبَّة الشرف والمعالي أن يسلكَ المرء الطريق المستقيم

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿صِرَٰطٍ﴾:

ورد التَّعبيرُ بلفظ الصِّراط المستقيم استعارةً تصريحيَّةً أصليَّةً؛ شُبِّه الدّين القويم - في آدابه وترتيب أحكامه وبيان أوامره ونواهيه؛ ممَّا يصل بالإنسان إلى النور والهدى والاستقامة، مع إقامة الأدلَّة والبراهين على سموِّ أخلاقه - بالصراط المستقيم الموصِّل إلى حقيقة الحقِّ والعدل والفوز بالجنة؛ مبالغةً في الاعتدال والاستقامة، والقرينةُ حاليَّةٌ مفهومة من سياق الكلام الدالِّ على طهارة هذا الدين وروعة بنيانه، ووصفُ الصراط بالاستقامةِ هنا كنايةٌ عن اعتدالهِ وصدق براهينه وحججه القويمة.

الصِّراطُ المستقيمُ هو الموصِّل إلى الحق والعدل والفوز بالجنة

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 232.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٧﴾ [النور:47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من أعجبِ العجبِ البقاءُ على الضَّلال والنفاق مع البيان الشّافي

لمّا أخبر ﷻ أنَّه أنزل الآيات، ثم قيَّد الهداية إليها؛ لأنَّها من قِبَلِهِ، لبعض دون بعض، وقد ذكر دلائل التوحيد؛ أتبع ذلك بذَمِّ قومٍ اعترفوا بالذَّنب بألسنتهم مع عدم قَبولهم له بقلوبهم، فهم نموذجٌ لمن لم يهتدِ، بل ضلَّ عن الصِّراط المستقيم؛ فحالُهم عجيبٌ غريب؛ عموا عن دلائل التَّوحيد التي أقامها تعالى، وعدّدها، وأوضحها بحيث صارت كما ذكر تعالى أعظمَ من نور الشمس، ثم يقولون ما يتعاند مع ذلكَ[1]، فهذه الآية امتدادٌ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَطَعْنَا﴾: (طوع) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الإِصْحابِ والانْقيادِ، يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ؛ إذا انْقادَ مَعَهُ، ومَضَى لِأمرِهِ، وأَطاعَهُ بِمَعْنَى: طاعَ لَهُ، ويُقالُ لِمَنْ وافَقَ غَيْرَهُ: قَدْ طاوَعَهُ[2]، ويضادُّ الطوعَ الكرهُ، قال ﷻ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:11]، والطّاعَةُ مثل الطوعِ لكن أكثر ما تقالُ في الائتمار لما أمر، والارتسام فيما رسم[3].

ومعنى: ﴿وَأَطَعْنَا﴾ في الآية: أوجدْنا الانقياد لأوامر اللّٰه ورسوله، ونواهيهما؛ لأنَّه جاء بعد قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾.

2) ﴿فَرِيقٌ﴾: (فرق) أُصَيْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَمييزٍ وتَزْييلٍ بَيْنَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 295.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(3) الراغب، المفردات: (طوع).

شَيْئَيْنِ، مِنْ ذَلِكَ الفَرْقُ: فَرْقُ الشَّعْرِ، يُقالُ: فرَقْتُه فرْقًا، والفِرْقُ: القطعة المنفصلة، ومنه: الفِرْقَةُ للجماعة المتفرِّدة من النّاس، ومنه الفِرْقُ: القَطيعُ من الغنم، ومِنَ الباب: الفَريقَةُ، وهوَ القَطيعُ مِنَ الغَنَمِ، كَأَنَّها قِطْعَةٌ فارَقَتْ مُعْظَمَ الغَنَمِ، والفَرْقُ يقارب الفلق، لكن الفلق يقال اعتبارًا بالانشقاق، والفرق يقال اعتبارًا بالانفصال، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [البقرة:50]، والفَريقُ: الجماعة المتفرِّقة عن آخرين[1].

وقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ﴾، أي: جماعة متميِّزةٌ عن غيرهم مِن المنافقين ومِن المؤمنين، مِن شأنها بثُّ الفرقة في صفوف المجتمع المسلم.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا يعلم جميعَ أحوال كلِّ المنافقين إلّا اللهُ تعالى

المنافق مخادعٌ، يروغ من الحقِّ روغانَ الثَّعالب، يقول المنافقون: لقد صدَّقنا بتوحيدِ الله وبالرسول محمَّد، وأطعناهما فيما أمرا به، ونهيا عنه، فيما كان، وفيما يكون، وفيما سيكون، ورضينا فيما حكما به خصوصًا، ولكنَّ فريقًا منهم يعرض، ويمتنع عن قَبول حكمِه، فهؤلاء المعرضون ليسوا بالصادقين في الإيمانِ الذين توافق قلوبُهم ألسنتَهُم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في صدر الآية:

مَن مات منافقًا لم تشمله هداية التوفيق

عَطَفَ القرآنُ جُملَةَ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على جُملَةِ: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ لِما تَتَضَمَّنُهُ جُملَةُ: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ مِن هِدايَةِ بَعْضِ النّاسِ وحِرْمانِ بَعْضِهِم مِنَ الهِدايَةِ، كَما هوَ مُقْتَضى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وهَذا تَخَلُّصٌ إلَى ذِكْرِ بَعْضٍ مِمَّنْ لَم يَشَأِ اللّه هدايَتَهُم، وهُمُ الَّذينَ أَبْطَنوا الكُفْرَ، وأَظْهَروا الإِسْلامَ، وهُم أَهْلُ النِّفاقِ، فبَعْدَ أَنْ ذُكِرَتْ دَلائِلُ انْفِرادِ اللّه تعالى بِالإِلَهيَّةِ، وذُكِرَ الكُفّارُ الصُّرَحاءُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع)، والراغب، المفردات: (فرق).

الَّذينَ لَم يَهْتَدوا بها في قَوْلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ [النّور:39]؛ تَهَيَّأَ المَقامُ لِذِكْرِ صِنْفٍ آخَرَ مِنَ الكافِرينَ الَّذينَ لَم يَهْتَدوا بِآياتِ اللّٰه، وأَظْهَروا أَنَّهُمُ اهْتَدَوا بها[1].

وفَهِمَ بعض المفسِّرين أنَّ جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، قد عُطِفت عليها جملةٌ محذوفة؛ لتتأسَّس عليها الآيةُ اللاحقة، والتقدير: (واللّٰه يضلُّ من يشاء، فيكفرون بالآيات والذكر الحكيم)، وآية: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: معطوفةٌ على هذه المقدرة[2].

سرُّ التعبيرِ بفعلِ القولِ مضارعًا:

هؤلاءِ المنافقون لا يملّون من الكذب والنفاق

عَبَّرَ بِالمُضارِعِ في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لإفادَةِ تَجَدُّدِ ذَلِكَ مِنَ المنافقين واسْتِمرارِهِم عليه؛ لِما فيهِ مِنْ تَكَرُّرِ الكَذِبِ ونَحْوِهِ مِنْ خِصالِ النِّفاقِ[3]، فهُم لا يملّون من استمراء الكذبِ وخداع المؤمنين.

بلاغةُ إسناد القول إلى جماعة:

مِن سماتِ أهل النِّفاق كمالُهم في الظاهر

أُريد بواو الجمع - في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ - المنافقون جميعهم، وإن كانت قد نزلت في بعضهم - كما ذكر كثير من المفسرين - إلّا أنَّ التَّعبير قد ورد بلفظ الجمع؛ لعموم القول وغلبتِهِ؛ ليشمل جميع مَن يقول ذلك ممَّن لم يهدِهم اللّٰه تعالى إلى الصراط المستقيم، وفي هذا الإسناد ما في إسناد العقر إلى الجميع في قوله: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الأعراف: 77]، ففيه مجازٌ عقلي، وهذا الضمير رجَع إلى المنافقين المعروفين عند المتلقّين للسورة الكريمة؛ لأنَّ ما ذكر بعده هو من أحوالهم، وعود الضَّمير إلى شيء غير مذكور كثير في القرآن الكريم، على أنَّهم قد تقدَّم ما يشير إليهم بطريق التَّعريض في قوله: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور:37].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 267.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 274.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 267.

دلالةُ صيغةِ فعل الإيمان:

تحقُّق خلوِّ قلوبِهم مِن الإيمان، وقد ادَّعوه باللِّسان

ورد الفعل ﴿ءَامَنَّا﴾ على لسان هؤلاء المنافقين ماضيًا؛ للإيهام بتحقُّق وقوع الإيمان منهم، وإن كان قولًا كاذبًا، أي: لبيان أنَّه كالواقع المُتحقَّق حصولُهُ، فهم يوهِمون أهلَ الإيمان بأنَّهم مثلهم، قد تحقَّق إيمانهم.

دلالةُ تَكرار الباءِ على خلاف الظاهر:

التَّكرارُ مطيَّةُ المبالغة

قوله: ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ إذ الإيمان بالرَّسول من متمِّمات الإيمان بالله تعالى كما أنَّ طاعته - ﷺ - من طاعة الله تعالى والمعطوف على المجرور مجرورٌ، فكان الظاهر ألَّا تتكرَّر الباء، فلمّا تكرَّرت؛ كان كأنَّه قيل: وآمنا بالرسول؛ لأنَّ تكرار الحرف تكرار للعامل، وفي هذا التَّكرار مبالغةٌ منهم في ادِّعاء كمال اعتدادهم بالرَّسول وزعمهم طاعته واتِّباعه والاقتداء به.

نكتةُ إطلاقِ الرَّسول مِن الإضافةِ:

ربَّ حقٍّ أُريدَ به باطلٌ

لَمَّا كان مِن سِمت دعوى المنافقين للإيمان المبالغةُ في كلِّ جهة ومن كل وجهٍ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ أطلقوا لفظَ الرَّسول، ولم يقيّدوه، فلم يقولوا: (وبرسوله)، وإنَّما قالوا: ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ ما جاء به - وكذلك لسان حاله ولسان مقاله - يدلُّ على أنَّه مرسَلٌ مِن قِبَل الله، على جهة الظُّهور والكمال، فهم يوهمون المؤمنين بأنَّهم قد آمنوا بهذا الرَّسول الذي قد ظهر صدقُهُ، وثبتت رسالتُهُ.

دلالةُ عطفِ فعل الطاعةِ على فعل الإيمان:

لا إيمانَ بدونِ امتثالٍ وطاعةٍ

لَمّا كان "الإيمان يُستعمل تارةً اسمًا للشريعة التي جاء بها محمَّد ﷺ وعلى ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة:69]، ويوصف به كلُّ من دخل في شريعته مقرًّا بالله وبنبوَّته، وتارةً يُستعمل على سبيل المدح، ويُراد به إذعانُ النَّفس للحقِّ على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياءَ: تحقيقٍ بالقلب، وإقرارٍ باللسان، وعملٍ

بحسب ذلك بالجوارح"[1]، ولمّا كانت الطاعة تعني الانقيادَ والإذعان لكلِّ ما يُؤمر به؛ صار عطفُ الطاعة على الإيمان إذًا من قبيل عطف الخاصِّ على العامِّ؛ تشريفًا لكلا الأمرين: الإيمان والطاعة، فلا يكمل هذا الأوَّل إلّا بالإتيان بالثاني وهكذا، فصار أمرُ الطاعة من متمِّمات الإيمان، وبه يُعرَفُ صدقُ العبد من عدمِه، ولهذا المعنى ادَّعى المنافقون إيمانهم باللّه وبرسوله، ثمَّ انقيادهم لما قضى به الرَّسول ﷺ بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾، زاعمين كمالَ إيمانهم باللّه تعالى وبرسوله ﷺ.

دلالةُ حذفِ المفعولِ به:

الطّاعةُ هي مقياسُ الإيمان الحقيقي

حُذِفَ مفعولُ الفعل الوارد على ألسنتهم كذبًا وزورًا في قوله: ﴿وَأَطَعۡنَا﴾، والتقدير: وأطعنا اللّه تعالى الذي جعل رسوله ﷺ حكمًا قاضيًا، وأطعنا الرسول ﷺ فيما قضى به، وحكم به، فحذف المفعولَ إيجازًا؛ لدلالة قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ عليه، وللإشعار بكمالِ طاعتهم له ﷺ بما في الحذف مِن معنَى أنَّ الأصلَ طاعةُ اللّه وطاعة الرسول ﷺ.

معنى ﴿ثُمَّ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

لا بُدَّ لمُدَّعي الإيمان من اختبار يكشف سرَّه وخبثه

﴿ثُمَّ﴾ حرفُ عطف يفيد الترتيب مع التراخي، وقد تجيءُ (ثمّ) كثيرًا لتفاوتٍ ما بينَ رتبتين في قصد المتكلِّم[2]، فعطفت ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾ تولِّيَهم عن قَبول الحقِّ - بعد إعلانهم الكاذبِ إيمانَهم باللّه وبرسوله وانقيادهم لحُكمه وقضائه - على جملة القول ومقوله، فأبانت ضلالهم وكفرهم، و﴿ثُمَّ﴾ هنا تفيد غايةَ قُبح هذا التولّي بعد ذلك المذكور، مع التعجُّب منه غاية التعجُّب، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ

(1) الراغب، المفردات: (أمن).

(2) الزركشي، البرهان: 4/ 266، وما بعدها.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام:1].

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ التَّولي:

التَّـولّي يكشفُ حقيقةَ دعوى إقبالِـهم على الله ورسوله

التولّي في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ هو الإعراضُ والنُّفور وإدارة الظَّهر للناصح، عن طريق عدم الالتفات لما يُمليه هذا الناصح، أو هو تركُ الإصغاء كليَّةً لما يقال، أو عدمُ الائتمار بأمره والإذعان لقوله، ففيه من السَّخافةِ وعدم الحِلم ونزع الأدب ما فيه، وهو كنايةٌ دقيقة مصوِّرة لهذه الحالة التي يكون عليها هؤلاء المعرضون؛ إمّا لغرورهم وصلفهم وعنادهم، وإمّا لجهلهم وعدم الفهم والسَّمع.

وعُبِّرَ به أيضًا؛ لأنَّه مقابل لما يدلُّ عليه قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾؛ معنًى وصورةَ معنًى، مِن إقبالهم بكُلِّيَّاتهم على الله ورسوله، على ما يُفْهِمه ذِكرُ الله ورسوله معًا، والتَّعبيرُ باسم الجلالةِ، وبالرسول دون النَّبي، ومِن تكرار حرف الباء، إلى آخر صورِ المعاني، وهذا التَّقابلُ لطيفٌ، والطرفُ الثاني - وهو التولّي - يُكذِّبُ الطرف الأوَّل، ويبيِّن حقيقتَه.

دلالةُ صيغةِ التولي:

ما قدرَ المنافقون اللهَ حقَّ قدره

صيغةُ المضارع: ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾: ناظرةٌ إلى تجدُّد التولّي عند تجدُّد ما يُخرِجُهُ منهم، ويكشفُهُ فيهم، فعلامةُ المنافقين تكرُّر تولّيهم وإعراضهم عن كلِّ ما يدعوهم إليه رسولُ الله ﷺ، ويدعوهم إليه، وتأتي صيغةُ المضارع كذلك لاستحضار صورةِ التولّي؛ لبيان التعجُّب منه؛ لأنَّه كان عقِبَ ادِّعاء الكمال في الإيمان باللّه ورسوله، وطاعتهما.

سرُّ التعبيرِ بلفظ: ﴿فَرِيقٞ﴾ دون (جماعة):

كلُّ داعٍ للفُرْقةِ ضعيفٌ خسيسٌ حقيرٌ

الموصوفُ بالتولي والإعراض - في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ - جماعةٌ مِن المنافقين،

تميَّزوا عن غيرهم مِن المنافقين بإعلانهم الكفرَ، بعدم الرِّضا بحُكْم اللّه ورسوله، أي: إنَّهم أعلنوا نفاقَهم باعتبار ما كان، والكفرَ باعتبار ما هو كائنٌ وما سيكون، وأمّا باقي المنافقين؛ فاستمرّوا على المواربة والنِّفاق[1]، فقُصِد بيانُ مغايرة تلك الجماعة لباقي المنافقين، فعُبِّر بـ: ﴿فَرِيقٌ﴾؛ لأنَّ مادَّته تدور على تَمييزٍ وتَزْييلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، فتميّزوا، وانفصلوا بذلك عن باقي أهل النِّفاق، وعن أهل الإيمان أيضًا، ثمَّ هم يقصدون بثَّ روح الفُرقة في المجتمع المسلم؛ فلهذا عبَّر القرآن عنهم بـ: ﴿فَرِيقٌ﴾.

وأمّا كلمةُ: (جماعة)؛ فهي تصدق عليهم، وتصدق على باقي المنافقين، وتصدق على كلِّ جماعةٍ غير المنافقين، تضامَّت في شيء أو أكثر، أو مِن أجل شيء أو أكثر، ثمَّ إنَّ هذه الجماعةَ التي أعلنت عن نفاقها تميَّزت أيضًا عن الذين آمنوا باللّه وبالرَّسول، وأطاعوهما ظاهرًا وباطنًا، وهم الصادقون في إيمانهم، والحاصل أنَّ هذه الجماعة كانت منفصلةً عن هؤلاء المؤمنين، وعن باقي المنافقين، فوُصِفوا بأنَّهم: ﴿فَرِيقٌ﴾.

دلالةُ تنكير: ﴿فَرِيقٌ﴾:

تأسَّس على التَّعبير بـ: ﴿فَرِيقٌ﴾ كونُ تنكيره للتقليل والتحقير؛ لانحطاط شأن هؤلاء إلى حدٍّ، لا يمكن معه أن يتمَّ تعريفهم، وهو تنكيرٌ للأفراد المذكورين الموصوفين بهذا الإعراضِ حتّى صاروا لا يؤبَهُ لهم، ولا يُقام لهم وزنٌ، فلا يستحقّون التعريفَ والتَّعظيم، فهم نوعٌ مرذول؛ لا يعرف الحقَّ، ولا يسلك بابه أبدًا.

كـــلُّ مُــفــرِّقٍ بالباطلِ ليس ذا بالٍ

معنى (مِنْ)، ومعنى مدخولها:

(مِن) في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ للتَّبعيض، أي: هذا الفريقُ المتولِّي بعضُ مَن يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾،

المنافقون كلُّهم شـــوكٌ، ولـن تـجـنـيَ مـن الشَّوك العنب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 267.

وعليه فالضَّمير في قوله: ﴿مِّنۡهُم﴾ يرجع إلى واو الفاعلين في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، و(نا) الفاعلين في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾، و: ﴿وَأَطَعۡنَا﴾؛ فقد أشارت الآيةُ إلى المنافقين عامَّة، ثمَّ إلى فريق منهم أظهروا عدم الرِّضا بحكم الرَّسول ﷺ فكلا الفريقين موسومٌ بالنِّفاق، ولكنَّ أحدهما استمرَّ على النِّفاق والمواربة، وفريق آخرُ لم يلبث أنْ أظهر الرُّجوع إلى الكفر، بمعصية الرسول علنًا[1].

معنى: ﴿مِّنۢ﴾، ودلالة ذكرها:

المـنـافـقـون مفضوحـون لا محالة

﴿مِّنۢ﴾ في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ ابتدائيَّة، وقد دلَّت: ﴿مِّنۢ﴾ بذكرها قبل كلمة: ﴿بَعۡدِ﴾ على قُرب المسافة الزمانيَّة التي كانت بين ادِّعائهم الإيمان، وبين تولِّيهم، كأنَّهم لم يستطيعوا، ولم يتحمَّلوا كِتمان الكفر مدَّةً طويلةً؛ لأنَّ قلوبَهم تبغض اللّه ورسوله ودينهما بغضًا عظيمًا.

دلالةُ التقييد بقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾:

قلوبُ المنافقين أرضٌ خصبة بالكفر، عامرة ببغض الإيمان

قولُه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾ متعلِّقٌ بحال محذوفٍ مبيِّنٌ لصاحبه، في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾؛ لبيان كذبِهم مباشرةً بعد إعلان الإيمان باللّه ورسوله وطاعتهم لحكم اللّه وحكم رسوله، الَّذي ادَّعوه كذبًا وزورًا، والمراد: من بعد ما صدر عنهم من ادِّعاء الإيمانِ باللّه تعالى وبرسوله ﷺ والطاعة لهما؛ افتُضِح أمرهم، وبان كذبهم وضلالهم بهذا القيد: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾.

دلالةُ الإشارةِ بقوله: ﴿ذَٰلِكَۚ﴾:

بُغضُ المنافقين للإيمان في الحقيقة بقدر تعظيمهم له في الظاهر

﴿ذَٰلِكَۚ﴾ اسمُ إشارة للبعيد، والتعبير به في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾؛ لبيان حقيقة حالتهم، وأنَّهم بلغوا في إعراضهم عن الحقِّ مبلغًا كبيرًا وبُعدًا عظيمًا؛ كذبًا وافتراءً، فبين قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 18/ 194.

﴿وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾ وحقيقة باطنهم بونٌ واسعٌ وبُعدٌ شاسع، والتَّعبيرُ باسم إشارة للبعيد وسيلةٌ إلى تصوير ما هم فيه من حقارة النَّفس، ودناءة الطَّبع، وخسَّة العقل والفهم.

بلاغةُ العطف:

نفيُ الإيمانِ عنهم في مقطع الآيةِ يُمسِك بادِّعائه لهم في أوَّلها

عُطِفت جملة: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لاتِّفاقهما في الخبريَّة لفظًا ومعنًى، وهي واردةٌ على سبيل التَّذييل لنفي الإيمان عمَّن ادَّعاه كذبًا وزورًا، وهذا التَّذييل جاء ردًّا قاطعًا عليهم كلَّ سبيل من الكذب والزور، نافيًا دعواهم تلك صراحةً؛ لأنَّ مَن أيقن الإيمان الحقيقي، وأعلن الطاعة الصادقة، لا يمكن أن يوسمَ بوسم النُّفور والاستكبار، والجملة هنا حاليَّةٌ مؤكِّدة لمضمون الكلام بوصف الحالة التي عليها هؤلاء.

سرُّ ترتيبِ المعاني في الآية:

المعاني في الآية جاءت على هذا الترتيب:

اللهُ لا يرضى النِّفاق للمنافقين، ويحبُّ لهم الإيمان

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾: وهذا بيانٌ لحقيقة هؤلاء المنافقين المستمرَّة المتجدِّدة، ومدارها على القول باللسان.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾: وهذا تعليقٌ على هذه الحقيقة القولية بحالهم الفعليِّ والعمليِّ والتطبيقيِّ، فلسانُ حالهم يكذِّب لسان مقالهم، والتكذيب هنا بقصِّ شيء من حالهم، وهو التولّي والإعراض، وليس بإثبات الكذب أو الكفر لهم، أو نفي الإيمان عنهم.

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: وهذا تصريحٌ بنفي الإيمان عنهم؛ ليلزمَ عنه إثباتُ الكفر لهم على الصِّفة التي أُثْبِت لهم الإيمانُ عليها، وهنا ترَقٍّ في الترتيب، كما ترى.

معنى (ما)، وبلاغة التعبير بها:

(ما) في قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾: نافيةٌ حجازيَّة لها صدرُ الكلام،

لا إيمانَ لِمن أعرض عن الله ورسوله

وقد وردت هنا؛ لنفي الإيمان عن هؤلاء المدَّعين له، ونفي طاعتهم أيضًا، فهم موسومون بعدم الانقياد والاستسلام لأمر الله تعالى ولا لأمر رسوله ﷺ وهي في الآية لنفي الحال؛ لأنَّ جملتها قيدٌ في المعنى لقول المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾، فجملتها تردُّ على ادِّعائهم الإيمان صراحةً، والألصق بهذا كونُها للحال، وإن أفهم مجموعُ الآية أنَّهم ليسوا بمؤمنين؛ ما داموا يبطنون الكفر، ويُظهرون الإسلام.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

كم مِن أحدٍ يدَّعي القربَ، وهو بعيدٌ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ في محل رفع اسم (ما) الحجازية، والإشارةُ هنا إلى القائلينَ لا إلى الفريقِ المتولّي منهم فقط؛ لعدم اقتضاءِ نفيِ الإيمانِ عنهم نفيهُ عن الأوَّلينَ بخلافِ العكسِ، فإنَّ نفيَهُ عنِ القائلينَ مقتضٍ لنفيه عنهم على أبلغِ وجهٍ وآكدِه.

وما فيه من معنى البُعد؛ للإشعار ببُعد منزلتِهم في الكفر والفسادِ، أي: وما أولئك الذين يدَّعون الإيمانَ والطّاعةَ، ثم يتولَّى بعضُهم: الذين يشاركونهم في العقدِ والعملِ بالمؤمنين[1]، وفي التَّعبير به تنبيهٌ على أنَّ هذا الفريق خصوصًا جديرٌ بما بعد اسم الإشارةِ؛ بسبب ما قبلَهُ، مِن تولّيه وإعراضه.

معنى الباء، وسرُّ التعبير بها:

كيف يدَّعي الخالي مِن الإيمان الكمالَ فيه

الباءُ في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: حرفُ جرٍّ زائد في الصناعة النحويَّة، غيرُ زائد بيانًا وبلاغةً، فقد أكَّدت نفي الإيمان عن هؤلاء المنافقين، والمرادُ به الإيمانُ الكامل المبنيُّ على الطّاعة الكاملة والانقياد التامِّ لحكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ فهذه الباء المؤكِّدة تواجِهُ ما ادَّعاه هؤلاء المنافقون مِن الإيمان المؤكَّد الحقيقي، مِن تعبيرِهم بالفعل الماضي: ﴿ءَامَنَّا﴾، ومِن إعادة الباء مع الرَّسول:

(1) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 186، والآلوسي، روح المعاني: 18/ 194، 195.

﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾، فلا بدَّ أن يكون المنفيُّ على قدر المثبت، والنَّفيُ مطابقًا للإثبات.

دلالةُ التَّعريفِ:

المنافقون أهلُ ألسنةٍ لا قلوبٍ

المؤمنُ هو مَن رضي باللّٰه ربًّا وبرسولهِ ﷺ نبيًّا ورسولًا، والملائكة الكرام، والكُتُبِ العظام، واليوم الآخرِ، والقدر خيره وشرِّه، وعُرِّف المؤمنون في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ باللام العهديَّة، على معنى: ليسوا هؤلاء بالمؤمنين حقيقةً، أي: بالمؤمنين المعهودين بالإخلاص والثَّبات عليه، ونفيُ الإيمان بهذا المعنى عنهم مقتضٍ لنفيه عن الفريق الذي تولّى وأعرض، على أبلغ وجهٍ وآكده، ولذا اختيرَ كونُ الإشارةِ إليهم[1].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الطاعة والاتِّباع:

الـطـاعـةُ أعـمُّ وأبلغُ مِن الاتِّباع، والانـقـيـاد، والاتِّباعُ أبلغُ مِن الانقياد

الطّاعةُ موافقةُ الإرادةِ الحادثة إلى الفعل برغبته، أو رهبته، والطاعةُ تكون من الأدنى للأعلى؛ لأنَّها في موافقة الإرادة، واقعةٌ موقعَ المسألة[2]، والطاعة أبلغُ وأقوى مِن الاتِّباع؛ لأنَّ الاتِّباع تُلوٌّ وقَفْوٌ، والطاعة انقيادٌ كامل، وأهلُ النِّفاق مِن سمتهم المبالغةُ في دعوى الإيمان والاستجابة للّٰه ورسوله، وعناصرُ الآيةِ تتظاهر على بيان ذلك؛ ألا ترى أنَّهم جمعوا في الذِّكر بين اللّٰه ورسوله، مع أنَّ الإيمان بأحدهما إيمانٌ بالآخر، ولكنَّهم أرادوا الإبلاغ في إيمانهم، فذكروهما جميعًا، ثم لم يكتفوا بذلك، بل زادوا إبلاغًا آخر، وصورتُه تكرارُ الباء على خلاف الظاهر في قوله: ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾؛ مع أنَّه معطوفٌ على اللَّفظ المجرور في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ إبلاغًا في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 18/ 195.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: 335 - 334.

الاعتداد بنبوَّته ورسالته، وأوامر الله ونواهيه التي جاءت على لسانه، وإبلاغًا في أنَّهم يراقبون لسان حاله، فيقتدون به في كل شيء، ألا ترى أنَّ المناسب لذلك التعبيرُ بالطاعة، لا بالاتِّباع؟ والانقياد مِن معاني الطاعة والاتِّباع، فهو في نفسه أدنى رتبةً منهما.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨﴾ [النور:48]

من شأن المنافقين أن يسعوا في كشف سترِ الله عنهم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في الآية السابقة حَكَى القرآنُ ما أخفاه أهل النِّفاق مِن بُغض الإيمان، وتوليّهم وانصرافهم بقلوبهم عن الله ورسوله، وإن قالوا بألسنتهم عكس ذلك، وفي هذه الآية بيانٌ لما أظهروه مِن الإعراضِ العمليِّ الدَّالِّ على كمالِ رفضهم للإيمان بهما.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دُعُوٓاْ﴾: (دعو) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ أَنْ تُميلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ، تَقولُ: دَعَوْتُ أَدْعو دُعاءً، والدَّعْوَةُ إِلَى الطَّعامِ بِالفَتْحِ، والدِّعْوَةُ في النَّسَبِ بِالكَسْرِ، هَذا أَكْثَرُ كَلامِ العَرَبِ[1]، والدُّعاء كالنِّداء، إلّا أنَّ النِّداء قد يقال بـ(يا)، أو (أيا)، ونحو ذلك من غير أن يُضمَّ إليه الاسم، والدُّعاء لا يكاد يقال إلّا إذا كان معه الاسم، نحو: يا فلان، وقد يُستعمل كلُّ واحدٍ منهما موضعَ الآخر، والدُّعاءُ إلى الشيء: الحثُّ على قصده[2].

وقولُه: ﴿دُعُوٓاْ﴾، أي: نودوا، وهم عارفون بالمنادي معرفةً من شأنها أن تجعلهم يهرولون إليه.

2) ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: (عرض) هذا بناءٌ تَكْثُرُ فُروعُهُ، وهيَ مَعَ كَثْرَتِها تَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ واحِدٍ، وهوَ العَرْضُ الَّذي يُخالِفُ الطّولَ، ومِنَ البابِ: أَعْرَضْتُ عَنْ فُلانٍ، وأَعْرَضْتُ عَنْ هَذا الأَمْرِ، وأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ، وهَذا هوَ المَعْنَى الَّذي ذَكَرْناهُ؛ لِأَنَّهُ إِذا كانَ كَذا؛ ولّاهُ عَرْضَهُ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(2) الراغب، المفردات: (دعا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

وقوله: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾، أي: انصرفوا بوجوههم عن الحاكم الرسولِ وحكمِهِ غيرَ راضين عن الحاكم وبحُكمِهِ، والانصرافُ بالوجه انصرافٌ لكليَّة الإنسان.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

من شأن مُبغضِ الإيمان أن يَظهرَ باطنُهُ بسرعةٍ وقوَّةٍ

مِن شأن المنافقين أنَّهم إذا دعوا إلى رسوله؛ ليحكم بينهم (ﷺ) - فإنَّه الحاكمُ الدنيوي ظاهرًا -: فاجؤوا بالإعراض عن المجيء إليه؛ إذا كان الحقُّ عليهم؛ لعلمهم بأنَّه لا يحكم لهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى العطف، وعلاقته بمرجع الضمير في: ﴿دُعُوٓاْ﴾:

في الآية موقف يُبيِّن خصالهم القبيحةَ وطبائع نفوسهم المريضة

عُطِفت جملة: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ على سابقتها: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾؛ إتمامًا وبيانًا لحالةٍ أخرى من أحوالهم الذَّميمة التي بيَّنت تولّيهم عن حكمِ اللّه تعالى وحكم رسوله ﷺ وعدم قَبوله لإعراضهم عنه، ونفاقهم، وسوء دواخل أنفسِهم المريضة، فجاءت هذه الآيةُ بيانًا واضحًا لخصالهم القبيحةِ وطبائع هذه النُّفوس المريضة؛ زيادةً في النفور والإعراض والاستكبار وعدم الطاعة، فالضَّميرُ في قوله: ﴿دُعُوٓاْ﴾ لهذا الفريق.

ويجوزُ أن تكونَ معطوفةً على قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾، فالضَّميرُ في: ﴿دُعُوٓاْ﴾ عائدٌ إلى ضمير: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، وإسناد الفِعْلِ: ﴿دُعُوٓاْ﴾ إِلَى جَميعِهِم - وإِنْ كانَ الْمُعْرِضونَ فريقًا مِنْهُم لا جَميعَهُم - لِلْإِشارَةِ إِلَى أَنَّهُم سَواءٌ في التَّهَيُّؤِ إِلَى الإِعْراضِ، ولَكِنَّهُم لا يظهرونه إِلَّا عِنْدَ ما تَحُلُّ بهمُ النَّوازِلُ، فالْمُعْرِضونَ هُمُ الَّذينَ حَلَّتْ بهمُ الخُصوماتُ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 269.

معنى (إذا)، ودلالةُ التَّعبير بها:

لو كان إيمانهم خالصًا؛ لنجحوا في هذا الاختبار

(إذا) في قوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ ظرفُ زمان مستقبل متضمِّن معنى الشرط، وفي التعبير بـ(إذا) في صدر الآية: تحقيقٌ لإقامة حجَّة اللّه عليهم، بدعائهم إلى اللّه ورسوله، وتحقيقٌ لإعراض فريق منهم، فإنَّهم كلَّما دعوا إلى حكم اللّه وحكم رسوله؛ أعرضوا عنه، ولم يستجيبوا له.

دلالةُ بناءِ فعل الدَّعوة للمفعول:

إذا كان الحَكَمُ عــدلًا؛ دعا الخصمَ إليه، كائنًا مَن كان الداعي

ورد الفعل ﴿دُعُوٓاْ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ لعموم الفاعل، فسيكون الإعراض من الفريق المذكور؛ كائنًا مَن كان داعيهم إلى اللّه ورسوله، والمعنى: وإذا طُلبوا إلى تحكيم كتاب اللّه واتِّباع هديه، وإلى الرسول ﷺ ليحكمَ بينهم في خصوماتهم؛ أعرضوا عن قَبول هذا الحكم.

معنى ﴿إِلَى﴾، ودلالة التعبير بها:

غـايـةُ الـفـلاح قَبولِ حكمِ الله ورسولِهِ والرِّضا به

﴿إِلَى﴾ حرفٌ يدلُّ على انتهاء الغاية، وهي مقابلة لـ: (مِن) الدّالة على ابتداء الغاية، وقد دلَّت في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ على أنَّ حكمَ اللّه تعالى وحكم رسول اللّه ﷺ هو الغاية التي ينتهي إليها دعوة هؤلاء المنافقين؛ للفصل والقضاء، ثمَّ يحصل منهم التولّي والإعراض عن هذه الغاية، فهي إذًا حرف تُحَدُّ به نهاية تلك الغاية.

سرُّ كونِ فعل الدَّعوة متعلِّقًا بالله ورسوله معًا:

حكمُ النَّبيِّ ﷺ لا يعتريه خطأٌ؛ لأنَّــه يَـحْـكُـمُ بوَحْيٍ

تعلَّق الفعل ﴿دُعُوٓاْ﴾ في الآية باللّه تعالى ورسوله ﷺ مع أنَّهم دُعوا إلَى رَسول اللّه ﷺ دلالةً على أنَّ حكمَ الرسولِ ﷺ هو حكمُ اللّه القائمُ على الحقِّ والعدل؛ إذ هو المفوَّضُ من قبل اللّه تعالى ليكون هو الحكمُ الذي يفصل للنّاس أمورهم[1].

وفي ذكر اسم الجلالة أيضًا: تفخيمٌ لنبيِّنا ﷺ وإيذان بجلال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 269.

محلِّهِ عند اللّه تعالى [1] ووراء ذلك أيضًا: كلُّ تحقير وذمٍّ لهم؛ لإعراضهم الذي ترتَّب على حكم رسولنا، ﷺ.

معنى اللام، وعلَّةُ التعبير بلفظ الحكم:

مَــن أطــاع الـرَّسـولَ فقد أطاع الله

اللام في قوله: ﴿لِيَحۡكُمَ﴾ لامُ التعليل، وهي التي يصلح موضعها: (من أجل)، والمراد: وإذا دُعوا إلى اللّه ورسوله؛ من أجل الحكم بينهم، والحُكم بالشيء أن تقضي بأنَّه كذا، أو ليس بكذا، سواءٌ ألزمت ذلك غيره، أم لم تلزمه، ويجوز أن يقال: الحكم فصل الأمر على الأحكام بما يقتضيه العقل والشَّرع، فإذا قيل: حكم بالباطل؛ فمعناه: أنَّه جعل الباطل موضع الحقِّ، ويُستعمل الحكم في مواضع لا يُستعمل فيها القضاء، كقولك: حُكم هذا كحكم هذا، أي: هما متماثلان في السَّبب أو العلَّة أو نحو ذلك"[2]، فهذه اللَّفظة هي الألصقُ بمقام الفصل بين المتخاصمَين، ولو عُبِّر بالقضاء، فقيل: (ليقضي)؛ لما ناسب حالَ المنافقين المرادَ بيانُهُ.

دلالةُ صيغةِ الحُكمِ:

المضارعةُ في ﴿لِيَحۡكُمَ﴾، تشير إلى تجدُّد الإعراضِ المذكور في قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾؛ كلَّما تجدَّد حكمٌ للرسول في شأن مِن شؤونهم أو شؤون بعضهم.

نكتةُ الإفرادِ:

نـبـيُّـنـا مـحـمَّـدٌ حاكم مؤيَّد من الله تعالى

ورد فعلُ الحكم مفردًا، وقد تقدَّمه اسمان، وهما: ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، والإفراد إمّا على ظاهره، بإسناد الفعل إلى ضميرهِ ﷺ لأنَّه المقصودُ بالحكم، ومجيء اسم الجلاله: ﴿ٱللَّهِ﴾ معه؛ لتقويتِهِ ودعمه، وإلزامهم بالحكم والحجَّة، وأنَّ مِثْلَهُ ﷺ لا يُردُّ حكمه، ولا يُعرض عنه، وإمّا على خلاف الظاهر، بأن يكون الفعل متعلِّقًا باللّه

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 130.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 201.

ورسوله، وهما اثنان، والفعل لم تُلحق به علامة تثنية؛ للدَّلالة على أنَّ حكمَ رسول اللّه هو عين حكم اللّهِ؛ لأنَّه من اللّه تلقَّاه.

معنى: (بَيْن)، ودلالة التعبير به، ومرجع الضمير:

لفظُ (بَيْن) موضوعٌ للخلالة بين الشَّيئين ووسطهما، يقال: بانَ كذا، أي: انفصل، وظهر ما كان مستترًا منه، ولمّا اعتُبِرَ فيه معنى الانفصال والظهور؛ استُعمل في كلِّ واحد منفردًا، و(بَيْن) يُستعمل تارة اسمًا، وتارة ظرفًا[1]، وهو هنا ظرفُ مكانٍ متعلِّق بالفعل ﴿لِيَحۡكُمَ﴾؛ إذ الأمر هنا مرادٌ به الفصل والقضاء بينهم في خصوماتِهم، وما وقعوا فيه.

وكلمةُ: (بين) هي الألصق بلفظة الحكم في ﴿لِيَحۡكُمَ﴾؛ لتمكين معنى إرادة الفصل في التَّنازع، وتمييز الحقِّ مِن الباطل، ولو قيل مثلًا: (ليحكم فيهم) لما كان ذلك.

والضَّمير في قوله: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ عائدٌ على هؤلاء المنافقين الذين لم يقبلوا حكم رسول اللّه ﷺ بما أراه اللّه إيّاه، وهؤلاء المنافقون أحدُ الطَّرفَيْن، والطرف الآخر محذوفٌ، أي: ليحكم بينهم وبين خصمهم؛ لأنَّ البينيَّة تقتضي طرفين، أو الضَّمير في: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ يعود على مجموع المتخاصمين المتنازعين؛ وإن لم يكن لخصمِهم ذِكرٌ في السياقِ، على أنَّه خصمهم.

توجيهُ قراءةِ الفعل ﴿لِيَحۡكُمَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

قرأ أبو جعفر (لِيُحْكَمَ) بضمِّ الياء وفتح الكاف فيهنَّ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الكاف ﴿لِيَحۡكُمَ﴾[2].

فعلى قراءة أبي جعفر (لِيُحْكَمَ) يكون الفعلُ مبنيًّا للمفعول، والظَّرف قائمٌ مقام الفاعل، وبناءُ فعل الحكم هنا لما لم يُسمَّ فاعله

المؤمن حقًّا مَن يبصر الحقَّ والعدل في نبيّنا ﷺ

المنافقون لا يريدون الإسلامَ أصلًا؛ فلا يقبلون حكمَهُ من أيِّ أحدٍ

---

(1) الأبياري، الموسوعة القرآنية: 8/ 77.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 227.

يُراد به عمومُ مَن يحكم، سواء كان رسول اللّه ﷺ أم غيره ممَّن يقتدي برسول اللّه في الحُكم بين المتنازعين والمتخاصمين؛ بدليل ما رويَ أنَّ أحد المتخاصمين رجع في أمره إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وضربه الفاروق بسيفه، ووُسم مِن يومها بالفاروق على لسان رسول اللّه ﷺ لمّا رفض هذا الرجل حكم رسول اللّه ﷺ وفي البناء للمفعول تكون النَّفس متَّجهةً إلى الحدث، لا إلى مَن وقع منه الحدث، فهذه القراءةُ مع قراءة البناء للفاعل تصوِّر حقيقة تلقّي هؤلاءِ لحكم اللّه ورسولهِ، وهي حقيقةُ الرفض.

وعلى قراءة الجمهور ﴿لِيَحۡكُمَ﴾ يكون الفعل مبنيًّا للمعلوم، وهو النَّبيُّ ﷺ، وإسنادُ الفعل إليه ﷺ؛ لأنَّه الحاكم بأمر اللّه تعالى بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 49]، وغيرها من الآيات الدالّة على أنَّ من وظائفه الحكم بين الناس.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ والاسمية:

إعراضُهم كان عينَ المفاجأة؛ لأنَّهم أظهروا الإيمان العلنيَّ للجميع

﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ فجائيَّةٌ، والمعنى هنا: فاجأ فريقٌ منهم الإعراض عن المحاكمة إليه ﷺ لكون الحقِّ عليهم، ولعلمهم بأنَّه ﷺ لا يحكم إلّا بالحقِّ[1]، ودلت ﴿إِذَا﴾ هنا على سرعة إعراضهم وتولّيهم، وعلى التَّعجيب من حالهم؛ إذ كيف يكون هذا حال من يدَّعي الإيمانَ وطاعةَ اللّه والانقياد رسوله، كما زعموا بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾.

والجملةُ الشرطيَّة شرح للتَّولّي ومبالغة فيه، حيث أفادت مفاجأتَهم الإعراض عقب الدعوة، دونَ الحكم عليهم، مع ما في الجملةِ الاسميَّة الواقعة جزاءً مِن الدلالة على الثُّبوت والاستمرار[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 386.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 18/ 195.

سرُّ ذِكرِ قوله: ﴿مِّنۡهُم﴾:

من ظنَّ أنَّ الحقَّ يجب أن يكون دومًا معه قاده ظنُّه إلى دفع الحقِّ وردِّه

ورد التَّعبيرُ بقوله: ﴿مِّنۡهُم﴾ في قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾؛ للإشعار بمعنى التَّخصيص، أي: لكون هذا الفريق منهم، لا من غيرهم؛ لكونهم طُبِعوا على النِّفاق والمراوغة وعدم قَبول الأحكام التي تكون عليهم في خصوماتِهم؛ ظنًّا منهم أنَّ الحقَّ يجب أن يكون دومًا لهم، وهكذا شأن أهلِ الباطل؛ إذ إنَّ هِجّيرهم الضَّلال، وعدم قَبول الحقِّ، خاصَّة إذا كان من قبل اللّٰه تعالى ورسوله ﷺ ولو عقلوا قليلًا، أو طهرت نفوسَهم؛ لقبلوا هذا الحكم، ولكنَّهم كان مِن خصائصهم وخصالهم الدَّنيئة أن يكون الحقُّ لهم؛ وإن كان كذبًا وزورًا، وهذا ليس غريبًا عنهم، فذِكرُ ﴿مِّنۡهُم﴾؛ لتخصيصه بـ: ﴿فَرِيقٞ﴾؛ بحيث لا يتعدّاه إلى غيره، فذكرُه إبلاغٌ في ذمِّ المنافقين عمومًا، وهذا الفريق منهم خصوصًا.

بلاغةُ نظمِ الإعراض اسمًا:

الإعــراضُ جرى فــي عـروقِـهـم وامـــتـــزج بـدمـائِـهـم، فلا يـمـكـن فـصـلُـهُ عنهم

ورد التَّعبيرُ باسم الفاعل ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾؛ للدَّلالة على ثبوت الإعراض واستمراره منهم، وأنَّه لا ينفكُّ عنهم أبدًا، حتّى صار هذا الإعراض صفةً لازمةً لهم، وهو أبلغُ من التَّعبيرِ بالفعل، فلو قيل: (يعرضون): لم يؤدِّ الغرضَ؛ لأنَّه لم يؤذن بمزاولة هذا الفريق الإعراض، واستمرارهم عليه، فـ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ أشعرت بهذه الصِّفة، وهي أوكدُ في اتِّصافهم بالإعراض وألزم.

وفي الاسمية أيضًا إشارةٌ إلى عراقة الإعراضِ ورسوخهِ في نفوسِهم، وهم يدَّعون الإيمان باللّٰه ورسوله وطاعتهما، وأنَّه ليس أمرًا عارضًا، بل هو كائنٌ فيهم راسخٌ بهذه الصفة القويَّة الثابتة لهم.

بلاغةُ حذفِ المتعلِّق:

لـيـس كـمِـثْـل الإعـــراض عن العظيم إعراضٌ عن غيره

حُذِفَ متعلِّقُ قوله: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾؛ لكونِهِ معلومًا بدلالةِ الحال، وهو إعراضهم عن حكم اللّٰه تعالى وحكم رسوله ﷺ وهو قد جرى ذكره في قوله تعالى: ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾، وأيضًا لتتوجَّه النُّفوسُ إلى

إثبات الفعل للفاعل، وألّا تنشغلَ بالمفعول؛ لعدم وجود داعٍ لذكرِه، وللإشعار بأنَّهم بمجرَّد دعوتهم إلى الحقِّ: ينفرون من الداعي نفورًا سريعًا شديدًا، بدون تدبُّر أو تمهُّل؛ لأنَّهم يعلمون علم اليقين أنَّ الحقَّ عليهم لا لهم، أمّا إن لاح لهم أنَّ الحقَّ لهم لا عليهم؛ فإنَّهم يهرولون نحو الرسول ﷺ يطلبون حكمَهُ[1]، وحذفُ المتعلِّق تمكينٌ لمعنى الإعراضِ نفسه؛ لأنَّ الإعراضَ إهمالٌ للمعرَض عنه، وهنا المعرَضُ عنه قد غاب من الجملةِ، وهذا إبلاغٌ في ذمِّ الإعراضِ عن الله ورسوله.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 143.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ٤٩﴾ [النور: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بالقَرْنِ بينَ أحوالِ الإنسانِ تظهرُ حقيقةُ قولِه وفعلِه

هذه الآيةُ مِن تمام الآية السابقة؛ لأنَّ المنافقين إذا دعوا إلى اللّه ورسوله؛ فإمّا أن يكون الحقُّ عليهم، وهذه الحالة صوَّرتها الآيةُ السابقة، وإمّا أن يكون الحقُّ لهم، وهذه الحالة تصوِّرها هذه الآية، وقد نُظِم كلٌّ منهما في آية مستقلَّة؛ إبلاغًا في بيان حقيقة ادِّعائهم الإيمانَ باللّه ورسولِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُذْعِنِينَ﴾: (ذعن) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الإِصْحابِ والِانْقيادِ، يُقالُ: أَذْعَنَ الرَّجُلُ؛ إذا انْقادَ، يُذْعِنُ إِذْعانًا، وبِناؤُهُ ذَعَنَ، إلّا أَنَّ اسْتِعْمالَهُ أَذْعَنَ، ويُقالُ: ناقَةٌ مِذْعانٌ: سَلِسَةُ الرَّأْسِ مُنْقادَةٌ[1].

وقولُه تعالى: ﴿مُذْعِنِينَ﴾، أي: منقادين، مع كمال رغبةٍ وإسراعٍ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

المنافقون مِن أحرص الناس على الدُّنيا

إنَّ هؤلاء المنافقين إذا دُعوا إلى اللّه ورسوله ليحكم بينهم، والحالُ أنَّ الحقَّ معهم ولهم: يكن منهم إتيانٌ سريع، وانقياد سريع، مع رغبة عظيمة، وارتياح شديد.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في صدر الآية:

عُطِفت جملة الشرط والجواب: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ على سابقتها - وهي آية: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ التي

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذعن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ذعن).

هي جملةُ الشرطِ وجوابِه - بالواو؛ لكونهما خبريَّتين لفظًا ومعنًى، والمعطوف زاد في وصف هؤلاء المنافقين المعرضينَ عن حكم الرسول ﷺ مؤكِّدًا الحالةَ التي عليها هؤلاء، فهُم إنَّما يؤثرون مصالحهم على مصالح غيرهم؛ لسخافة عقولهم، وطيش أحلامهم، وغرور أنفسِهم، فإذا ثبت الحقُّ لهم؛ انقادوا، وأذعنوا، وإن كان عليهم؛ نفروا، وأعرضوا، بل أصرّوا، واستكبروا استكبارًا.

هذه الآيةُ تضيف جديدًا مِن حال المنافقين، وتؤكِّد ما سبق ذكرُه

سرُّ التَّعبيرِ بـ: (إنْ):

تَرِدُ (إنْ) في الأمر المشكوك في وقوعِه والمتردَّد فيه، أمّا (إذا)؛ فلا تكون إلّا في الأمر المقطوع بوقوعه المتحقَّق حصولُهُ، والتعبيرُ بـ(إذا) في جانب الباطل: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، إشارةٌ إلى تحقُّقه، فهُم عندئذٍ عليهم الحقُّ، لا لهم، فهم في باطل، فيُعرِضون، بخلاف جانب الحقِّ؛ فلذا عُبِّر فيه بـ(إن)[1]، فهُم إن كان لهم الحقُّ من أدنى طريق أو جهة، ولو كان ذلك قليلًا؛ أسرعوا إلى رسول اللّه ﷺ أو المراد: بمجرَّد أن يكون لهم الحقُّ؛ يأتوا إليه مذعنين، مع أنَّ مِن حقِّهِ ﷺ عليهم أن يأتوا إليه مذعنين في كل حالٍ، كان لهم الحقُّ، أو كان لغيرهم.

قد يكونُ الحقُّ مع المنافق، ولكن في أمر دنيوي

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَكُن﴾، وإثبات نونه:

ورد الفعل ﴿يَكُن﴾ في قوله: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ مجزومًا؛ لكونه فعل شرط، أي: ثابتًا محقَّقًا، وفي مادَّة الكون تنبيهٌ على اعتقادهم الجازم في أنَّ الحقَّ لهم، فهو كائنٌ كونًا ثابتًا جدًّا[2].

مِن شأن المنافقين شدَّةُ الحرص على مصلحتهم

وهو كامل تامٌّ في أبصارهم وبصائرهم، على ما يُفهمه إثباتُ نونِ الكون، مع أنَّه كان يمكن حذفُهُ على الجواز، فيقال: (يكُ)، على مذهب جمهورِ النُّحاة؛ لأنَّ أوّل حرف في الكلمة التي بعد فعل الكون مُتحرِّكٌ.

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 395.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 275.

ومجيئُه مضارعًا؛ للدلالة على تجدُّدِهِ واستمراره؛ فمتى ما تجدَّد لهم حقٌّ؛ سارعوا إلى حكمِ رسول اللّه ﷺ.

معنى اللام، ودلالة تقديم ﴿لَّهُمُ﴾ على ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

اللام في قوله: ﴿لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ للاختصاص، والمرادُ بها: أنَّها دالَّةٌ على أنَّ بين الأوَّل والثاني نسبةً؛ باعتبار ما دلَّ عليه متعلِّقه، والمعنى على ذلك: وإن كان الحقُّ خاصًّا بهم، أو يخصُّهم أقبلوا إليه منقادين طائعين؛ إذ إنَّهم لا يلتفتون إلّا لما يخصُّهم، وما هم به أعنَى؛ لتعلُّق نفوسهم به، ولهذا وقع الخبر الكون: ﴿لَّهُمُ﴾ مقدَّمًا؛ لهذا الاختصاص، والمراد: يكنِ الحقُّ لهم، لا عليهم، وفي هذا مزيد ذمٍّ لهم وتقبيح لشأنهم، والضمير في: ﴿لَّهُمُ﴾: عائد إلى هؤلاء المنافقين المعرضين عن حكم اللّه تعالى وحكم رسوله ﷺ.

المنافقون يعتزُّون بما لهم اعتزازًا بالغًا؛ على حين يهملون ما لغيرهم بالكليَّة

سرُّ ورود لفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ معرَّفًا بـ(أل):

ورد لفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ معرَّفًا بـ(أل) العهدية، والعهد هنا ذهنيٌّ؛ لعدم سبق ذكر لهذا المعرَّف لا صريحًا ولا كناية، إلّا أنَّه يُدرك المقصودَ منه مَن نطق الكلام، فأُحضر في الذِّهن إحضارًا تامًّا.

الحقُّ معروفٌ لدى الجميع؛ لكن مَن في قلبه نفاقٌ يحيد عنه

علَّةُ التعبير بالإتيان:

قوله: ﴿يَأۡتُوٓاْ﴾ فعل مضارع مجزوم؛ لأنَّهُ جواب الشَّرط في قوله: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾، والإتيان مجيءٌ بسهولة، ومنه قيل للسَّيل المارِّ على وجهه: أتيٌّ، وأتاويٌّ، والإتيان يقال للمجيء بالذات، وبالأمر، وبالتدبير، ويقال في الخير، وفي الشَّرِّ، وفي الأعيان، وفي الأعراض[1]، ووراء السهولة مِن المعنى الإسراعُ، والمعنى: أنَّهم يأتون إلى الحقِّ - إذا كان لهم - مسرعين مذعنين، وهذا هو الألصق بحالهم.

مِن علامات النِّفاق، خفَّةُ المشي في الأمر الذي يكون الحقُّ فيه لهم فقط

(1) الراغب، المفردات: (أتى).

الموقعُ الإعرابيُّ لـ﴿إِلَيۡهِ﴾، ودلالته:

قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ يتعلّق إمّا بالفعلِ في قوله: ﴿يَأۡتُوٓاْ﴾، وإمّا باسم الفاعل: ﴿مُذۡعِنِينَ﴾، وعلى الثاني يكون قد تقدَّم على الحال: ﴿مُذۡعِنِينَ﴾، قال الزَّمخشريُّ في الثاني: "وهذا أحسن لتقدُّم صلته، ودلالته على الاختصاص، والمعنى: أنَّهم لمعرفتهم أنَّه ليس معك إلّا الحق المرُّ والعدل البحت: يزورّون عن المحاكمة إليك؛ إذا ركبهم الحقُّ؛ لئلّا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم، وإن ثبت لهم حقٌّ على خصم؛ أسرعوا إليك، ولم يرضوا إلا بحكومتك؛ لتأخذ لهم ما ذاب لهم في ذمَّة الخصم"(1).

المـنـافـقـونَ قد يـجـمـعـونَ بين كـمـال الإقـبـال عـلـى الـرَّسـول وكمال الإعراضِ عنه

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿مُذۡعِنِينَ﴾:

مِن شأن هذا الفريق المنافق أنَّه لا يرى إلّا مصلحته، ولا يُلقي بالًا مطلقًا لغيره مِن المنافقين، ولا للّه ورسوله، فهو قد أعلن نفاقه، فإذا دعوا إلى اللّه ورسوله؛ ليحكمَ بينهم - وليس لهم الحقُّ -: إذا هم معرضون بالكلّيَّة؛ لعدم رغبتهم مطلقًا في الإيمان باللّه ورسوله، وهذا يعني كمالَ خلوِّ قلوبهم مِن ذلك الإيمان، وكمالَ بغضهم للّه ورسولِه، وإن يكن لهم الحقُّ يأتوا إلى رسول اللّه، منقادين مُقبلين بالكلّيَّة عليه، مع كمال رغبة وأريحيَّة وإسراع؛ لأنَّ مادة الإذعان تدلُّ على الإصحاب والانقياد، ونقل ابن منظور عن أهل اللغة والتَّفسير أنَّ الإذعانَ: الإسراع مع الطاعة، ولا شكَّ أنَّ معاني الرغبة الشديدة والارتياح الشديد، ونحوَ ذلك ممَّا يتّبَع هذا المعنى لهذه اللفظة، وكلمة الطاعة ليس فيها معنى الإسراع، فلا يكون فيها معاني الرغبة والارتياح والشهوة في المطلوب، كما في كلمة الإذعان(2).

الإذعانُ في الرِّضا والـغـضـب من لوازم الإيمان

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 72.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ذعن).

دلالةُ الاسميَّة في: ﴿مُذۡعِنِينَ﴾:

كأنَّ الإذعانَ للرَّسولِ في جِبِلَّتِهِم؛ إذا كانَ لهُم الحقُّ

قد ورد لفظ ﴿مُذۡعِنِينَ﴾ حالًا، وهو اسم فاعل مِن: أذعن، أي: انقاد، وأطاع فلان لفلان؛ إذا انقاد له، وخضع لأمره، والتَّعبير باسم الفاعل ﴿مُذۡعِنِينَ﴾؛ يدلُّ على ثبوت هذا الانقياد والخضوع، واستمراره، وكونه لا ينقطع عنهم ولا يفارقهم البتَّة، وذلك لكونهم واثقين من حكمه ﷺ خصوصًا في هذه الحالة، وأنَّه لا يبخس أحدًا حقًّا، ولا يجور على خصم، مهما كان، عدوًّا، أو صديقًا، وإذعانُهم هذا وخضوعهم إنَّما لحكمة ولسبب يكون؛ إذا كان، ويغيب إذعانهم؛ إذا غاب، فلا يكون ذلك منهم إلّا إذا كانوا أصحابَ حقٍّ في أيِّ قضية أو خصومة من قضايا دنياهم بينهم وبين غيرهم، وهم يعلمون أيضًا أنَّ محمَّدًا ﷺ لا يحكم إلّا بالحقِّ الصريح.

دلالةُ حذفِ المتعلّق:

مِن شأنِ المنافقين أن تقودهم أهواؤهم

حُذِفَ متعلِّق قوله: ﴿مُذۡعِنِينَ﴾؛ إيجازًا واختصارًا؛ لكونه معلومًا من دلالة الحال وسياق الكلام، والمراد: مذعنين لحكمه لهم، وأنَّه لا يبخسهم حقَّهم من وجهة نظرهم، وأيضًا لتوجيه النُّفوس لإثبات الانقياد والطّاعة منهم لحكمه، وأنَّ النفس منصرفةٌ عن هذا المحذوف - لعلمها به - إلى شيء غيره، وهو الخضوع التّام والانقياد لهذا الحكم، ففي حذف المتعلِّق تمكينٌ لمعنى الإذعان، كأنَّهم مذعنون له في كلِّ شيء؛ لعظيم فرحهم بأنَّه سيقضي، ويحكم لهم؛ لأنَّ الحقَّ معهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإذعان والطاعة:

الإذعانُ أخصُّ مِن الطاعة

الطاعة: انقياد وإصحاب، والإذعان: الإسراع مع الطاعة، ويتبع ذلك معاني الرغبة والشوق والارتياح وما جرى في هذا الطريق من المعنى، وتلك ليست بهذه القوَّة في كلمة الطاعة؛ لأنَّ الإسراع ليس مِن أصل معناها[1].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ذعن).

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ [النور:50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من تنوير بصيرة المتلقّي هنا تحليلُ نفسيَّة المنافق له

هذه الآيةُ نتاج ما قبلَها مِن الآيات، مِن قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾ إلى آخر قوله: ﴿يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾؛ فإنَّهم ادَّعوا كمال الإيمان باللّه ورسوله، ثم نقضوا ذلك بقوَّة وسرعة، فكان مِن شأن حالِهم هذا أن يكون مُشْكِلًا في أبصار المتلقّين وبصائرهم، فصوَّرَ القرآنُ ذلك بهذه الآية التي قامت على أسلوب الاستفهامِ المشاكل لحالهم المذكور.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّرَضٌ﴾: (مرض) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على ما يَخْرُجُ به الإِنْسانُ عَنْ حَدِّ الصِّحَّةِ في أَيِّ شَيْءٍ كانَ، والمرضُ ضربان: الأوَّل: مَرَضٌ جسميٌّ، والثاني: عبارة عن الرَّذائل كالجهل، والجبن، والبخل، والنِّفاق، وغيرها من الرَّذائل الخُلُقيَّة، ويُشبَّه النِّفاق والكفر ونحوهما من الرذائل بالمرض، إمّا لكونها مانعةً عن إدراك الفضائل، كالمرض المانع للبدن عن التصرف الكامل، وإمّا لكونها مانعةً عن تحصيل الحياة الأخرويَّة المذكورة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت:64]، وإمّا لميل النَّفس بها إلى الاعتقادات الرَّديئة، كمَيل البدن المريض إلى الأشياء المضرَّة[1].

وقوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: أفي قلوبهم نوعُ فسادٍ مِن أصل الفطرة، يحملهم على الضَّلال؟[2]

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرض)، والراغب، المفردات: (مرض).
(2) الراغب، المفردات: (مرض).

2) ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾: (ريب) أُصَيْلٌ يَدُلُّ على شَكٍّ، أَوْ شَكٍّ وخَوْفٍ، فالرَّيْبُ: الشَّكُّ، قالَ اللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة:1-2]، أَيْ: لا شَكَّ[1]، والريب والريبة: الشكُّ والظنُّ والتهمةُ، ويقال: أراب الرجلُ يريب؛ إذا جاء بتهمة، وارتبتُ فلانًا: اتهمتُه، فالريبُ شكٌّ مع تهمةٍ، كما ذكر أهل اللُّغة[2].

وقوله: ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾، أي: أم حدثت لهم شُبْهة أعمتهم عن الطريق الحقِّ بعد ما تبيَّنَ لهم، فكان لا شُبْهَةَ فيه، بدليل: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾.

3) ﴿يَحِيفَ﴾: (حيف) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ المَيْلُ، يُقالُ: حافَ عليه يَحيفُ؛ إذا مالَ[3]، والحَيْفُ: الميلُ في الحكم والجنوح إلى أحد الجانبين، قال الله تعالى: ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: يخافون أن يجورَ في حُكمه، ويقال: تَحَيَّفْتُ الشيء: أخذته من جوانبه[4].

ففي: ﴿يَحِيفَ﴾ معنى الظُّلم والجور في الحكومة، مع معنى الميل، والمعنى: أنَّهم يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله، ويميل رسولُهُ عنهم إلى غيرهم.

المَعنى الإجْماليُّ:

المنافقون حالُهم دائمًا مُشْكِلٌ

ماذا حدث لهم، أفي قلوبهم وأصل فطرتهم نوعُ فساد حملهم على تلك المخالفة الشنيعة؟ أم شكّوا في نبوَّته ﷺ فزالت ثقتهم به، مِن أجل تهمةٍ وشبهةٍ عرضت لهم؟ أم يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله، مع ميل رسوله عنهم إلى غيرهم؟ إنَّ الحقَّ أنَّ هؤلاء هم الذين ظلموا الحقَّ، وظلموا أنفسهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ريب).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 275، وابن منظور، لسان العرب: (ريب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيف).
(4) الراغب، المفردات: (حيف).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل صدرِ الآية عمّا قبله:

مِن شأنِ الأمور العجيبة السُّؤال عن سببها

وردت الآية: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مفصولةً عمّا سبقها؛ لكونها مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الآيات السابقة تحرِّك المتلقي لأن يسأل عن سبب أحوالهم الذميمة، فكان الجوابُ في هذه الآية؛ مُبيِّنةً منشأ إعراضهم المذكور "بعد استقصاء عدَّة مِن القبائح المُحقَّقةِ فيهم، والمُتوَقَّعةِ منهم، وترديد المنشئيَّة بينها"[(1)].

بلاغةُ الاستفهام:

مِـثْـلُ هـذه الأسباب يُتنبَّه لـها، ويُـتـوخَّـى الحذرُ منها

الاستفهام - في قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ﴾ - إنكاريٌّ توبيخيٌّ، وهو واردٌ في جملة تحليل أنفسهم المريضة وتصرُّفاتهم القبيحة؛ بإثبات نفاقهم، وبالتَّعجيب من تردُّدهم وريبهم، وباستنكار ما هم عليه من خُلُقٍ ذميم، فهو ترديدٌ لسبب الإعراض المذكور، فمدارُ الاستفهام ما يُفهم مِن الكلام، كأنَّه قيل: أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه ﷺ أنَّهم مرضى القلوب، لكفرهم ونفاقهم؟ أم سببه أنَّهم ارتابوا، وشكوا في أمر نبوَّته ﷺ مع ظهور حقيَّتها؟ أم سببه أنَّهم يخافون أن يحيف، ويجور اللّٰه - تعالى شأنه - عليهم، ورسوله ﷺ؟ فالاستفهام لإنكار السببيَّة[(2)].

وفي هذا الاستفهام تنبيهٌ على أخلاقهم، ولفت للأذهان إِلَى ما انْطَووا عليه، والدّاعي إِلَى ذَلِكَ: أَنَّها أَحْوالٌ خَفيَّةٌ؛ لِأَنَّهُم كانوا يُظْهِرونَ خِلافَها[(3)].

معنى (في)، ودلالة التعبير بها:

فـسـدتْ فـطـرتُـهـم، فتمكَّن فيها كلُّ قبيحٍ

حرف الجر (في) دالٌّ على الظرفيَّة، وعُبِّر به؛ للدلالة على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 130.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 18/ 196.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 270.

تمكُّن المرض من قلوبهم تمكُّنَ الظَّرف من المظروف؛ فإنَّ الكفر والفساد - المعبِّر عنهما بالمرض هنا - تمكَّنا من نفوسهم تمكُّنًا لا يبارح قلوبهم، حتى صار داخلًا فيها يملأ جميع جوانبها، فلا تكاد تعثر على قلب قد خلا منه، والتَّعبيرُ بالظرفية المقدَّمة هنا أبلغُ في أداء المراد من أن يقال: أمرضت قلوبهم أو أمريضة قلوبهم؟ إذ التعبير بالظرفية أوجزُ وأوفى في تصوير حالتهم النفسيَّة من أيسر طريقٍ وأخصره، مع المبالغة في بيانِ حالتِهم تلك، وقوَّى هذه الصورةَ دخولُ همزةِ الاستفهام الإنكاري على هذه الظرفيَّة.

سرُّ التَّعبيرِ بالقلب:

إذا فسد القلبُ؛ فسدَ الجسد كلُّه

القلبُ محلُّ التقلُّب كما هو سبب تسميتِه، وهو المحلُّ الجامع لخصال الإنسان؛ حسنةً كانت أو سيِّئةً، وعليه دوران حياة الإنسان من عدمها، وهو أشهر في التَّعبير عن جوامع الخير وموانعه، ويُعبَّر بالقلب عن المعاني التي تختصُّ به من الرّوح والعلم والشَّجاعة وغير ذلك، وتَقْليبُ اللّه القلوب والبصائر: صرْفُها من رأي إلى رأي، والتَّقَلُّبُ: التَّصرُّف، ورجل قُلَّبٌ حوَّلٌ: كثير التَّقلُّب والحيلة[1]، فإذا كان في قلوبهم مرضٌ؛ كان هذا المرض سببًا عظيمًا نشأ عنه الإعراضُ المذكور؛ لأنَّ فساد هذا المرض مُعتَبَرٌ؛ لحلوله في المكان الذي يكون فيه فعَّالًا.

عودُ الضَّميرِ في: ﴿قُلُوبِهِم﴾:

كلُّ مَنْ رفضَ حُكمَ الله تعالى وحكم رسوله مُتَّهم في قلبه

يعود الضمير في قوله: ﴿قُلُوبِهِم﴾ على الفريق المنافق الذي رفض حكم اللّه تعالى وحكم رسوله ﷺ وعُبِّر بالضمير، ولم يُعبَّر بالاسم الظاهر؛ لسبق الحديث عنهم؛ إيجازًا، ولعدم الرغبة في إعادة ذكرهم باسمهم الظاهر؛ تقبيحًا لشأنهم، وحطًّا لمنزلتهم، حتَّى صاروا لا يُؤبه لهم، فيُذكرون صراحة.

(1) الراغب، المفردات: (قلب).

بلاغةُ تقديمِ ما بعد الهمزةِ على: ﴿مَّرَضٌ﴾:

مرضُ المنافقين هو المرضُ

تقدَّم الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم﴾ على قوله: ﴿مَّرَضٌ﴾؛ للتَّخصيص، والمعنى: تخصيصُ قلوبهم بالمرض دون غيرهم؛ لكون القلب هو محلُّ هذه الأمراض، ولكونهم هم المقصودين بهذا الوصف، لا أحد سواهم؛ زيادةً في التَّوبيخ، والذَّمِّ، والإهانةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمرض:

أصعبُ الأمراض ما كان معنويًّا

المرضُ المستفهَم عن ثبوته في قلوبهم - في قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ - هو الكفرُ أو النِّفاق الذي مِن شأنه أن يجعلَهم غير منضبطين نفسًا وعقلًا، بقرينة سياق الكلامِ، فهم لا يُذمّون على المرض الحقيقي، فاستُعير للكفر أو النِّفاقَ المرضُ - الذي هو مصدر - استعارةً تصريحيَّةً؛ بجامع أنَّ كلًّا منهما يفسد ما دخله، فالنِّفاق أو الكفر يفسد الروح والنفس والقلب والفطرة والعقل، والمرض الحقيقيُّ يعكِّر على الإنسان صفوه؛ بسبب ما يعتري بدنَه مِن ألم وتعب.

سرُّ تنكير ﴿مَّرَضٌ﴾:

عَظُمَ الداء في قلوبهم، واستفحل

ورد لفظُ المسند إليه ﴿مَّرَضٌ﴾ نكرةً؛ للنَّوعيَّة، أي: نوع شديد فظيع من المرض يسدُّ عليهم منافذَ الإيمان والحقِّ والعدل، فينصرفون عنه، ولا يقبلون حكمه فيهم؛ لفساد تلك القلوب وغلظتها ومرضها.

معنى ﴿أَمِ﴾ في الآية:

هؤلاءِ المنافقون جمعوا أخسَّ الصفات

﴿أَمِ﴾ في قوله: ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ﴾: هي المنقطعةُ بمعنى: بل والهمزة، وهي للإضراب الانتقالي، فهي حرفُ عطف نائب عن تكرير الاسم والفعل، وقيل: إنَّما تشرك بين المتعاطفين، كما تشرك بينها (أو)، وقيل: فيها معنى العطف، وهي استفهام كالألف إلّا أنَّها لا تكون في أوَّل الكلام؛ لأجل معنى العطف[1].

---

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 180، 181.

وَأَتْبَعَ القرآنُ بَعْضَ الِاسْتِفْهامات بَعْضًا بِحَرْفِ: ﴿أَمْ﴾ المُنْقَطِعَة الَّتي هيَ هُنا لِلإضْرابِ الِانْتِقاليِّ كَشَأْنِها إِذا عَطَفَتِ الجُمَلَ الاسْتِفْهاميَّةَ؛ فإنَّها إِذا عَطَفَتِ الجُمَلَ؛ لَم تَكُنْ لِطَلَبِ التَّعْيين، كَما هيَ في عَطْفِ المُفْرَداتِ؛ لِأَنَّ المُتَعاطِفاتِ بها حينَئِذٍ لَيْسَتْ مِمّا يَطْلُبُ تَعْيينَ بَعْضِه دونَ بَعْضٍ، وأمّا مَعْنَى الاسْتِفْهام؛ فمُلازِمٌ لَها؛ لِأَنَّهُ يُقَدَّرُ بَعْدَ أم، والانتِقالُ هُنا تَدَرُّجٌ في عَدِّ أَخْلاقِهِم، فالمَعْنى: أَنَّه إِن سَأَلَ سائِلٌ عَنِ اتِّصافِهِم بِخُلُقٍ مِنْ هَذِهِ المَذْكورات؛ عَلِمَ المَسْؤولُ أَنَّهُم مُتَّصِفونَ به، فكانَ الِاسْتِفْهامُ المُكَرَّرُ ثَلاثَ مَرّاتٍ مُسْتَعْمَلًا في التَّنْبيهِ مَجازًا مُرْسَلًا[1].

فإن قيل: هذه الثلاثة: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية: متغايرة، ولكنَّها متلازمة، فكيف أدخل على الثاني والثالث كلمة ﴿أَمْ﴾؟ فالجواب الأقرب: أنَّه تعالى أنبههم على كل واحدة من هذه الأوصاف، فذِكرُ ﴿أَمْ﴾ في الثاني جعله مستقلًّا عن الأول، وذِكرُها في الثالث جعله مستقلًّا عن الثاني، فكان في قلوبهم مرضٌ وهو النِّفاق، وكان فيها شكٌّ وارتياب، وكانوا يخافون الحيفَ من الرَّسول، وكلُّ واحد من ذلك كفرٌ ونفاق[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ الارتياب:

ارتـابَ المنافقون بداية في حقيقة الإسـلامِ، فـتـحـقَّـق لـهـم الارتـيـاب بـعـد ذلك

الشَّكُّ: هو تردُّد الذهن بين أمرين على حدٍّ سواء، والريب: أن تتوهَّم بالشيء أمرًا ما، فينكشف عمّا تتوهَّمه، والارتياب يجري مجرى الإرابة، وإنَّما قيل: ريْبٌ لما يُتوهَّم فيه من المكر، والرّيبة اسم من الريب، والرَّيبُ شكٌّ مع تُهْمة وشُبْهة، "وقد خُصَّ الارتيابُ بما له منشأٌ مصحِّح لعروضِه لهم في الجُملةِ، والمعنى: أم ارتابوا بأنْ رَأَوا منه ﷺ تُهمةً، فزالَتْ ثقتُهم ويقينُهم به ﷺ فمدارُ النَّفيِ حينئذٍ نفسُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 271.
(2) ابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب: 14/ 429.

الارتياب ومنشؤه معًا"[1]، ولا يصحُّ أن يُعبَّر هنا بصريح الشَّكِّ؛ لأنَّ إقرارهم بالإيمان في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ يمنع منه، بل إنَّ حدوث المخالفة منهم مِن بعد ذلك الإقرار، يعني: أنَّ ظنًّا أو تهمةً أو شبهةً عرضت لهم؛ لحدوث الإشكال بتعقيب الإقرار بالمخالفة بالإعراض والتولّي، فكان الألصق بحالهم هذه اللفظة: ﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾.

دلالةُ المُضيِّ في: ﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾:

الارتيابُ عريقٌ وحَيٌّ فيهم

وردَ فعل الارتياب ماضيًا؛ لتحقُّق وقوعه منهم، وحصوله حقيقةً، وقد كان ارتيابهم في حقيقة الإسلام، وكونِه حقًّا، فتحقَّق لهم الارتيابُ بعد وقوع الإيمانِ منهم، وإن كان هذا الإيمانُ غيرَ ثابت أو راسخ فيهم.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الخوف:

مَن أساء الظنَّ بأحدٍ لزمه الخوف منه

الخَوْفُ: توقُّع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، والرَّجاء والطمع: توقُّع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويضادُّ الخوفَ الأمنُ، ويُستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية، والخوف من اللّه لا يُراد به ما يخطر بالبال مِن الرُّعب، كاستشعار الخوف مِن الأسد، بل إنَّما يُراد به الكَفُّ عن المعاصي واختيار الطّاعات، ولذلك قيل: لا يعدُّ خائفًا مَن لم يكن للذنوب تاركًا، والتَّخويفُ من اللّه تعالى هو الحثُّ على التَّحرُّز[2]، وإنَّما عُبِّر بالخوف في حقِّهم في قوله: ﴿أَمْ يَخَافُونَ﴾؛ لأنَّهم سيِّئو الظنِّ باللّه ورسوله؛ بدليل عدم انقيادهم لحكمه ﷺ إذا لم يكن الحقُّ لهم، فأمّا إن كان لهم؛ أتَوه مذعنين.

دلالةُ صيغةِ فِعل الخوف والحيف:

المنافقون يسيئون الظنَّ بالله في كل وقت

ورد معنى الحيف - وكذلك فعل الخوف - مضارعًا؛ لِلْإِشارَة

(1) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 187.
(2) الراغب، المفردات: (خوف).

إلَى أَنَّهُ خَوَّفَ في الحالِ مِنَ الحَيْفِ في المُسْتَقْبَلِ، كَما يَقْتَضيهِ دُخولُ: ﴿أَن﴾ - وهيَ حَرْفُ الاسْتِقْبالِ - على فِعْلِ: ﴿يَحِيفَ﴾؛ فهُم خافوا مِنْ وُقوعِ الحَيْفِ بَعْدَ نَشْرِ الخُصومَةِ، فمِنْ ثَمَّ أَعْرَضوا عَنِ التَّحاكُم إلَى الرَّسول ﷺ[1] فهو للدّلالة على تجدُّده؛ كلّما دُعوا إلى حكم اللّه ورسوله، مع استحضار صورة الفعل الماضي.

علّةُ التَّعبيرِ بلفظ الحيف:

اللّجوء إلى اللّه تعالى ركنٌ حصين، لا جور فيه، ولا حيف

الحَيْفُ: الميل في الحكم والجنوح إلى أحد الجانبين، والمراد به هنا الجَورُ في الحكم، ويقال: تَحَيَّفْتُ الشيءَ: أخذته من جوانبه"[2]، فهُم ظنّوا بعقولهم القاصرة أنَّ لجوءَهم إلى رسول ﷺ ليكون حكَمًا بينهم، يكون داعيًا إلى جَوْره ﷺ عليهم، مع ميله عنهم إلى غيرهم، فقد أساؤوا الظنَّ باللّه وبرسوله، فدخل في قلوبهم بغضُهما، فكانوا يُحِسُّون دائمًا ببُغض اللّه ورسوله لهم، فنشأ عن هذا توهُّمُ أنَّ رسول اللّه سيجور في حكومته عليهم مائلًا إلى غيرهم؛ لأنَّ الحيف جورٌ مع ميل، والجورُ: قد يصحبه ميلٌ، وقد لا يصحبه، وهذا دأبُ المنافقين الذين عميت قلوبُهم، وسُدَّت أمامهم أبواب الحقِّ، فأصبحوا لا يرون، ولا يسمعون إلّا حديث أنفسهم لمرض قلوبهم، وفساد معتقدهم، كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلّا دُعاءً ونداءً.

سرُّ إسنادِ فعل الحيف إلى اللّه ورسوله:

لمّا بالغوا في دعواهم الإيمانَ باللّه ورسوله؛ نسبوا الحيف إليهما

لمّا كان رسول اللّه ﷺ إنّما يحكم بحكم اللّه تعالى ويأمر بشرعهِ الذي شرعه اللّه له، وكان المنافقون موسومين بمرض قلوبهم وفساد معتقدهم؛ وُسِمَ فعلُ الحيف بكونه منسوبًا إلى اللّه تعالى - حاشاه وحاشا رسوله - وإلى المعصوم ﷺ وهو لا يحكم إلّا بوحي من اللّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 272.
(2) الراغب، المفردات: (حيف).

وإسنادُ الحيف إلى اللّه ورسوله إنّما هو على معنى أن يكون ما شرعهُ الإسلامُ حيفًا لا يُظهرُ الحُقوق، وهذا كناية عن كونهم يعتقدون أنّهُ غيرُ مُنزّل من اللّه، وأن يكون حُكمُ الرّسول بغير ما أمر اللّه، فهُم يطعنون في الحُكم وفي الحاكم، وما ذلك إلّا لأنّهُم لا يُؤمنون بأنّ شريعة الإسلام مُنزّلة من اللّه، ولا يُؤمنون بأنّ مُحمّدًا ﷺ مُرسل من عند اللّه، فالكلامُ كناية عن إنكارهم أن تكون الشّريعةُ إلهيّةً، وأن يكون الآتي بها صادقًا فيما أتى به(1).

معنى (على)، ودلالةُ التعبير بها:

تمكّنَ بغضُ الإيمان منهم، فظهر في كل أحوالِهم قولًا وفعلًا

معنى (على) في أصل الاستعمال العلوُّ حقيقة أو مجازًا، وهو في قوله: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ علوٌّ مجازيٌّ، فيدلُّ على علوِّ حكم اللّه تعالى عليهم وإحاطته بهم، فيكون ظلمُ اللّه ورسوله إيَّاهم بالغًا فيهم كلَّ مبلغ، فهو محيط بهم، يكتنفهم مِن كلِّ جهة، وهذا إبلاغ في إساءة الظنِّ باللّه ورسوله؛ ناشئةٌ عن بغضهم الإيمان بهما، فبدل أن يجعلوه حكمًا صادقًا وعادلًا جعلوه ظلمًا وحيفًا بهم وجورًا على حقوقهم، وذلك بسبب نفوسهم، وقلوبهم المريضة، وارتيابهم في هذا الحكم العادل الذي لا يُظلم أحدٌ في حضرته ﷺ لأنَّ حُكمه مِن حُكم اللّه تعالى واللّه تعالى هو العدلُ المطلق، ومِن ثَمَّ كان نبيُّه ﷺ كذلك.

سرُّ توسُّطِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بين ﴿ٱللَّهُ﴾، و﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

المبالغةُ في سوء الظنِّ باللّه ورسوله مِن شأن المنافقين

في توسُّط الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بين ﴿ٱللَّهُ﴾، و: ﴿وَرَسُولُهُۥۚ﴾: إشارةٌ إلى فخامة هذا الحيف في أبصار المنافقين وبصائرِهم؛ لأنَّه حيفٌ مستمدٌّ من جهتين استقلالًا: جهةِ اللّه، وجهةِ رسوله ﷺ فيكون تقديرُ الكلام؛ بناءً على تقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿وَرَسُولُهُۥۚ﴾: أن يحيف اللّه عليهم، ورسولُهُ عليهم، وكأنَّ السبب في ذلك هو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 272.

بغضُهم للإيمان نفسِه، لا لشخص الرسول محمَّدٍ ﷺ ويؤنس بهذا أنَّ أوَّل ما قصَّه القرآنُ عنهم في هذا المقطع المعنويِّ هو قولُهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾، ففي توسُّطه بينهم وتقديمه على ما بعده: تنبيهٌ على عظيم بُغْضهم للإيمان باللّه ورسوله.

سرُّ الفصلِ والإضراب في جملة: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

المنافقون قوم تحقَّق فيهم الظُّلم كلُّه

لمّا عدَّد القرآن - فيما سبق - مرضَ قلوبهم وارتيابَهم وخوفَهم جَور اللّه تعالى وجور رسوله ﷺ انتقل هنا لبيان صفة أخرى، فقال تعالى: ﴿بَلۡ﴾، وذلك على جهة الاستئناف البياني؛ لأنَّ المتلقّي لمّا تلقَّى تلك الاستفهاماتِ الثلاثة السابقة، ثمّ أعقبهنَّ حرف الإضراب؛ ترقَّبَ ماذا سيكون عليه تحقيقُ حال المنافقين المحدَّث عنهم، فكان قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بيانًا لما يترقَّبُه، ويتشوَّفُ إليه[1].

معنى ﴿بَلۡ﴾:

مجموعُ ما قبل (بل) يؤدّي إلى ما بعدها من إثبات الظلم لهم

﴿بَلۡ﴾ حرف للإضراب الانتقالي، ووردت في قوله: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ للانتقال من الحديث عمّا اتَّصفوا به من الصفات المذكورة آنفًا إلى إثبات ظلمهم، واتِّصافهم بهذه الصفة الشنيعة، التي سَدَّت عليهم منافذَ الخير والاعتراف بالحقِّ والقبول به؛ لتكون صفةُ الظُّلم كالتعليل لما سبقها من الصفات الذميمة، وتوكيدًا أيضًا لها، وأيُّ ظلمٍ أكبر من النِّفاق ومخادعة اللّه وسوء الظن به وبرسوله؟

علَّةُ عدم تكرار (أم):

كونُ المنافقين ظالمين أمرٌ جليٌّ

لَم يُؤْتَ بالإِضْرابِ بِـ(أَم) في قوله: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لِأَنَّ (أَم) لا بُدَّ مَعَها مِنْ مَعْنَى الاسْتِفْهام، ولَيْسَ المُرادُ عَطْفَ كَوْنِهِم ظالِمِينَ على الاسْتِفْهام المُسْتَعْمَلِ في التَّنْبيهِ، بَلِ المُرادُ به إفادَةُ اتِّصافِهِم بِالظُّلْمِ دونَ غَيْرِهِم؛ لِأَنَّهُ قَدِ اتَّضَحَ حالُهُم، فلا داعيَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 272.

لإيرادِهِ بصيغةِ اسْتِفْهامِ التَّنْبيهِ، ولَيْسَتْ ﴿بَلۡ﴾ هُنا لِلْإِبْطالِ؛ لِأَنَّهُ لا يَسْتَقيمُ إِبْطالُ جَميعِ الأَقْسامِ المُتَقَدِّمَةِ، فإِنَّ مِنْها مَرَضَ قُلوبِهِم، وهوَ ثابِتٌ، ولا دَليلَ على قَصْدِ إِبْطالِ القِسْمِ الأَخيرِ خاصَّةً، ولا على إِبْطالِ القِسْمَيْنِ الآخَرَيْنِ[1].

دلالةُ الإشارةِ بالبعيد:

مِـثْـلُ الـظـالـمِ لـلـه ولـرسـوله ولنفسه يحذرُ منه كلُّ عاقل

وردت الإشارة بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى هؤلاء المنافقين؛ لقصد تمييزهم أكملَ تمييز في وصفهم بصفة هي من أخسِّ الصفات وأرذلها، وهي الظُّلم؛ إذ هو شامل للجهل والشِّرك والفسوق وغيرِ ذلك مِن مجاوزة الحقِّ، وعدمِ الرُّكون إلى العدل، ومِن هنا يُستعمل في الذنوب كبيرها وصغيرها سواءً.

وعُبِّر بـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أيضًا؛ لتعيينهم بالذَّمِّ بما تحقَّق فيهم من الظُّلْم، فهُم يَقيسونَ النّاسَ على حَسَبِ ما يَقيسونَ أَنْفُسَهُم، فلَمّا كانوا أَهْلَ ظُلْمٍ؛ ظَنّوا بِمَنْ هوَ أَهْلُ الإِنْصافِ أَنَّهُ ظالِمٌ، كَما قالَ أَبو الطَّيِّبِ:

إِذا ساءَ فِعْلُ المَرْءِ ساءَتْ ظُنونُهُ *** وصَدَّقَ ما يَعْتادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ[2]

وقد تكون الإشارة بالبعيد؛ لتحقير شأنِهم وما هم عليه، أو للدَّلالة على بُعدِهم وإغراقهم في الظُّلم، وقد سبقت الإشارة بذكر أوصاف لهم، فجاء قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّهم جديرون بالحكم عليهم بالظُّلم؛ بسبب تلك الأوصاف الثابتة لهم.

دلالةُ تعريفِ طرفَي الجملة:

حـالُ المنافقينَ يُـثـبـت كـونَـهـم ظالمين

ذُكِرَ طرفا الجملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ معرَّفين؛ فدلَّ تعريفهما على التَّخصيص والقصر، أي: هم الظالمون، لا شرع اللّه، ولا حكم رسوله، فالثاني هو المقصور، والأوَّل هو المقصور عليه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 273.

والمعنى: أنَّهم يخافون أن يحيف الرَّسول عليهم، ويظلمهم، وليس الرسول بالذي يظلم، بل هم الظالمون، فأسلوب القصر ذو قوَّة وحسم في الردِّ على المنافقين[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿هُمُ﴾:

امتلأت قلوبُهم باعتقاد ظلم الله ورسوله إيَّاهم، فاستحقوا عكسَ ذلك بقوةٍ

يُعَدُّ ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ أحدَ أدوات التوكيد، وسمّي ضميرًا؛ تجوُّزًا لمجيئه على صورة الضَّمير، وسمّي ضمير فصل؛ لكونه فاصلًا بين المبتدأ وخبره، وهو لا محلَّ له من الإعراب، ويفيد التَّأكيد والاختصاص، وأنَّ ما بعده خبرٌ لا صفة، والخبر أقوى في الدلالة من الصِّفة لكونه عمدةً في الكلام، ومجيئه هنا زاد الأمر تأكيدًا في وصف هؤلاءِ بالظُّلم، مع كونهم مخصوصين بتلك الصِّفة لا يتجاوزونها، ولا تنفكُّ عنهم أبدًا، سواء كان دالًّا على القصر، أم لا، وعلى كلٍّ فهو توكيدٌ لمضمون الجملة فوق التوكيد الحاصل بالقصر المتحقِّق مِن تعريف الطرفين.

دلالةُ تعريفِ: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

مَن أبغضَ الإيمان؛ كمل ظلمُه

عُرِّف قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بـ(أل)، ومعناها الكمال، كـ(أل) التي في: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 2] في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:2]، والمعنى: هم الكاملون في الظُّلم، الجامعون لتلك الخصالِ؛ لأنَّ قلوبَهُم مطبوعةٌ على المرض والريب، لا أنَّ فيها نوعًا واحدًا منه، وليسوا يخافون الجور، بل هو مرادُهم؛ إذا كان الحقُّ عليهم[2]، ومن هنا لم يقبلوا حكمَ رسولِ اللّهِ فيهم.

دلالةُ حذفِ المتعلِّق:

أبغضوا الإيمان؛ فانفردوا بعموم ظلمهم

حُذِف متعلِّق قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ إيجازًا لسبق ما يدلُّ عليه، فيما ذُكر من الأوصاف التي سبقت عن هؤلاء، ثمَّ إنَّ ذِكرَ هذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 273.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 276.

المتعلِّق يوهمُ خلاف المقصود؛ لأنَّ الظُّلم هنا تشعَّب، وتعدَّد بين ظلم أنفسهم، وظلم الرسول ﷺ في الحكم، وظلم غيرهم ممَّن اقتفى أثرهم، فإذا ذُكر متعلِّقٌ معيَّنٌ؛ أوهم استبعادَ غيره، فحُذِف لعمومه، وهذا تقويةٌ لمعنى الكمال في: (أل)، ولمعنى القصر في تعريفِ الطَّرفين؛ كأنَّه لا ظالمَ غيرهم على جهة الحقيقة.

وحُذِفَ أيضًا؛ لتوجيه النُّفوس لإثبات فعل الظُّلم لهؤلاء في كونهم الفاعلين له دون النَّظر إلى المفعول، والمرادُ: الظّالمون أنفسَهم وغيرهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحيف والجور:

الجورُ يختصُّ بأنَّه خلاف الاستقامة، والحيف جورٌ معَ ميلٍ

الحَيْفُ: الميل في الحُكم والجنوح إلى أحد الجانبين، فهو جورٌ مع ميل، والجورُ خلاف الاستقامة في الحكم، وفي السيرة السلطانية تقول: جار الحاكمُ في حكمه، والسلطان في سيرته؛ إذا فارق الاستقامة في ذلك[1]، فالجور قد يكون معه ميلٌ، وقد لا يكون، فالحيفُ أعمُّ مِن هذه الجهة، وبناء عليه: فالتَّعبير بالحيف - في نور سياق حكومة رسول اللّه (ﷺ) فيهم - يكشف طبيعةَ قلوبِهم المريضة حيث إنَّهم يخشون أن يحكمَ عليهم، فيُنْتَقصُ ممّا عندهم، أو يضيع كلُّه، فهم لا يرضون بهذا ولا ذاك لفساد قلوبهم وخُبْث طويَّتهم، وفي هذه المادة: ﴿يَحِيفَ﴾ إشعارٌ بأنَّهم أحسوا ببُغض اللّهِ لهم، وأنَّه - حاشاه ﷻ - يميلُ عنهم إلى غيرهم، فلذلك قصَّ القرآن أنَّهم تولوا، وأعرضوا.

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: 172، والراغب، المفردات: (حيف).

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥١﴾

[النور:51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّقابل بين فريقَي الكفر والإيمان مؤثِّرٌ في القلوب

لمّا بيَّن اللّٰه تعالى ما عليه المنافقون وأضرابهم مِن ادِّعاء الإيمان والطّاعة كذبًا وزورًا، وهم يسلكون سبيل الإعراض والنفور، وأنَّهم إذا طُلبوا إلى حكم اللّٰه تعالى وحكم رسوله ﷺ كان دأبهم الإعراض، وعدم الانصياع لهذا الحُكْم، وبيَّن ما قرَّ في قلوبهم وأنفسهم من الكفر والفساد والارتياب وخوفِ الظُّلم في هذا الحكم؛ جاء الحديث هنا عن صفات المؤمنين التي هي أضداد صفات المنافقين، مِنَ الامتثال والخضوع لحكم اللّٰه تعالى وحكم رسوله ﷺ وتلك صفاتهم وطيب معدنهم حتَّى استحقّوا الفلاح والفوز، ومِن عادة القرآن - إذا ذكر فريقَ الكفرِ - أن يذكرَ فريقَ الإيمانِ، والعكس صحيح.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَمِعْنَا﴾: (سمع) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَإِيناسُ الشَّيْءِ بِالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيْءَ سَمعًا، والسَّمعُ: قوَّة في الأذن بها تُدرك الأصوات، وفعله يقال له: السَّمعُ أيضًا، والسِّمعُ: الذِّكْرُ الجَميلُ، يُقالُ: قَدْ ذَهَبَ سِمعُهُ في النّاسِ، أَيْ: صيتُهُ[1].

فالسَّمع هنا على حقيقته، وهو قوَّة في الأذن، بها تُدرك الأصوات، والقرينة قوله: ﴿وَأَطَعْنَاۚ﴾، أي: سمعنا الدُّعاء، وأطعنا بالإجابة.

2) ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: (فلح) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما يَدُلُّ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع)، والراغب، المفردات: (سمع).

شَقٌّ، والآخَرُ على فوْزٍ وبَقاءٍ، فالأَوَّلُ: فَلَحْتُ الأَرْضَ: شَقَقْتُها، والعَرَبُ تَقولُ: (الحَديدُ بِالحَديدِ يُفْلَحُ)؛ ولِذَلِكَ سُمّيَ الأَكّارُ فلّاحًا، والأَصْلُ الثّاني الفَلاحُ: البَقاءُ والفَوْزُ، وقَوْلُ الرَّجُلِ لِامرَأَتِه: (اسْتَفْلِحي بِأَمرِكِ) مَعْناهُ: فوزي بِأَمرِكِ، والفَلاحُ: السَّحورُ، والفَلاحُ: الظَّفَرُ وإدراك بغية، وذلك ضربان: دنيويٌّ وأخرويٌّ، فالدُّنيويُّ: الظَّفر بالسَّعادات التي تطيب بها حياة الدُّنيا، وهو البقاء والغنى والعزُّ، وفَلاحٌ أخرويٌّ، وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنًى بلا فقر، وعزٌّ بلا ذلٍّ، وعلم بلا جهل[1].

وقولُه: ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، أي: هم الفائزون بكلِّ مطلب، والناجون من كلِّ محذور[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الـتـصـديـقُ والإذعـان شأن المؤمن الحقِّ

إنَّما كان من شأن المؤمنين الصادقين في إيمانهم، والذين طابق ظاهرهم باطنَهم؛ إذا طُلِبوا إلى حكم اللّه تعالى وحكم رسوله ﷺ في خصومةٍ أو غيرها؛ السَّمعُ والطاعةُ، فاستحقّوا - لاستجابتهم لهما وامتثالهم لأمرهما ونهيهما - أن يكونوا مِن الفائزين في الدُّنيا والآخرة.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل الآية عمَّا قبلها:

القـرآنُ يـرغِّـب المنافقين، ويثبِّت المؤمنين

جملة ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ لِأَنَّ الإِخْبارَ عَنِ الَّذين يعرضون عِنْدما يُدْعَوْنَ إِلَى الحُكومَةِ بِأَنَّهُم لَيْسوا بِالْمُؤْمنينَ، في حين أَنَّهُم يُظْهِرونَ الإيمانَ؛ يُثيرُ سُؤالَ سائِلٍ عَنِ الفاصِلِ الَّذي يُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ الحَقِّ، وبَيْنَ الَّذي يُرائي بِإِيمانِهِ في حين يُدْعَى إِلَى الحُكومَةِ عِنْدَ رَسول اللّه ﷺ فيَقْتَضي أَنْ يُبَيّنَ لِلسّائِلِ الفَرْقَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح)، والراغب، المفردات: (فلح).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 132.

بَيْنَ الحالَيْن؛ لِئَلّا يَلْتَبِسَ عِنْدَهُ الإيمانُ المُزَوَّرُ بالإيمانِ الصّادِق، فقَدْ كانَ المُنافِقونَ يُمَوِّهونَ بأَنَّ إعْراضَ مَنْ أَعْرَضَ مِنْهُم عَنِ التَّحاكُمِ عِنْدَ رَسولِ اللّه لَيْسَ لِتَزَلْزُلٍ في إيمانِه بِصِدْقِ الرَّسولِ، ولَكِنَّهُ إعْراضٌ لِمُراعاةِ أَعْراضٍ مِنَ العَلائِقِ الدُّنْيَوِيَّة، كَقَوْلِ بِشْرٍ: إنَّ الرَّسولَ يُبْغِضُني؛ فبَيَّنَ اللّه بُطْلانَ ذَلِكَ بأَنَّ المُؤْمِنَ لا يَرْتابُ في عَدْلِ الرَّسولِ وعَدَمِ مُصانَعَتِهِ، وفي هذا الاستئناف ثناءٌ على المؤمنين الأحقَّاء، بضدِّ ما كان ذمًّا للمنافقين، وهذا مِن عادات القرآن في إرداف الذَّمِّ بالثناء وعكسه[1].

بلاغةُ القصرِ:

إنَّـمـا يتحلَّى المـؤمـنـون بـالـسَّـمـع والطاعة

ورد التَّعبير بأداة القصر: ﴿إِنَّمَا﴾، وهي تُستعمل في الأمر الذي لا ينكره المخاطَب، ولا يجهله، أو فيما يُنزَّل هذه المنزلة، أو في تنزيل الجاهل منزلةَ العالم بالشيء غير المنكر له، وفي أسلوب القصرِ دفعٌ أن يكون مخالف هذه الحالةِ المذكورةِ في الآية في شيءٍ من الإيمان، وإن قال بلسانه: إنَّه مؤمنٌ، وهذا القصرُ قصرُ موصوفٍ - وهو قولُهم - على صفة السَّمع والطّاعة، أي: ما قولُ المؤمنين في هذه الحالة إلّا سمعنا وأطعنا، وهذا مدح لإيمانِهم الثابت، وهو إضافيٌّ؛ لأنَّه بالنِّسبة إلى حال المنافقين الذين إذا دُعوا إلى حكم الرَّسول؛ عصوا أمره، وبمخالفة حالِ المؤمنين حالَ المنافقين نبصر التَّعريض في: ﴿إِنَّمَا﴾، أي: إنَّما كان قول المؤمنين في هذه الحالة سمعنا، وأطعنا، لا: سمعنا، وعصينا، وهو قصر إفراد؛ لملاحظته ادِّعاءَ اشتراك المنافقين والمؤمنين في الاستجابة للّه ورسوله، ومعلوم أنَّ أقوال المؤمنين حين يُدعون إلى رسول اللّه ﷺ ليحكم بينهم؛ غير منحصرة في قول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ولا في مرادفِه، فلعلَّ منهم مَن يزيد على ذلك.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 273.

سرُّ ذِكرِ ﴿كَانَ﴾، ودلالة صيغتها:

كان مِن الممكن أن يقال: (إنَّما قول المؤمنين ...)، ولكن جيء بكلمة الكون؛ لتشير إلى أنَّ قولهم هذا هو من ديدنِهم وشأنهم؛ إذا دُعوا إلى اللّه ورسوله، ولن يكون كذلك إلّا برسوخ الإيمان في القلب والنَّفس، وحقَّق ذلك كونُه ماضيًا، فهو أمرٌ محسومٌ مقطوع به في حقِّهم.

مَن ذاق حلاوةَ الإيمان؛ لم يكن منه لله ورسوله إلّا التَّسليمُ المطلقُ

بلاغةُ تقديم خبرِ ﴿كَانَ﴾:

ورد قوله تعالى: ﴿قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خبرًا لـ: ﴿كَانَ﴾، مقدَّمًا على اسمها الذي هو المصدر المنسبك من ﴿أَن﴾ والفعل: ﴿أَن يَقُولُواْ﴾، أي: قولُهم: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾، وقُدِّم المسندُ على المسند إليه؛ مُتابَعَةً لِلاسۡتِعۡمالِ العَرَبيِّ؛ لأنَّهم إذا جاؤوا بَعۡدَ كانَ بِأنۡ والفِعۡلِ؛ لَم يَجيئوا بِالخَبَرِ إلّا مُقَدَّمًا على الاسۡمِ؛ نَظَرًا إلَى كَوۡنِ المَصۡدَرِ المُنۡسَبِكِ مِنۡ (أَنۡ) والفِعۡلِ أَعۡرَفَ مِنَ المَصۡدَرِ الصَّريحِ، ولَم يَجيئوا بِالخَبَرِ إلّا مُقَدَّمًا؛ كَراهِيَةَ تَوالي أَداتَيۡنِ، وهُما: كانَ وأَنۡ[1]، وفي تقديم الخبر لفتٌ قويٌّ إلى مغايرة قول المؤمنين لقول المنافقين، فيقوَى نفيُ التسوية الضمنيُّ بين الفريقين، ويتأكَّدُ.

قد يخفَى الفرقُ بينَ المنافقين والمؤمنين، والتَّقديمُ إمعانٌ في تجليته

معنى (أل)، وعلاقتُه بدلالة الاسميّة في: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: مُعرَّف بـ(أل)، والتعريف بها للعهد الذهنيِّ، أي: المؤمنين الذين يعهدهم المنافقون، ويعرفونهم، أو للجنس؛ لبيان مغايرة المنافقين لجنس المؤمنين في كل عَصۡرٍ ومِصۡرٍ وجِنۡسٍ.

قانونُ إيمانِ الكُمَّل مطَّردٌ في كل عصر ومصر وجنس

والحمل على الجنس أوۡلَى مِن الحمل على الاستغراقِ الذي يُستحضَرُ به الأفرادُ فردًا فردًا؛ نظرًا إلى جريان الحديث عن المنافقين على جهة الجمعية، وجريان الحديث عن المؤمنين على جهة الجمعية أيضًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 275.

وقد تحمل على الاستغراق؛ نظرًا إلى الحمل على لفظ (مَن) بالإفراد في قوله تعالى في اللحاق المباشر: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ﴾.

أو أنَّ (أل) معناها الكمال، أي: المؤمنين الكاملين في إيمانهم بجمعهم بين الإيمان والاتِّباع والانقياد.

علّةُ التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾:

مَـن دخـلَ قلبَهُ الإيمانُ؛ صار مِن أهل الاستجابة والإحسان

عبَّر التَّنزيل الكريم بـ﴿إِذَا﴾ الشرطية في قوله: ﴿إِذَا دُعُوٓاْ﴾؛ لبيان تحقُّق معنى أنَّ المؤمنين دُعوا إلى اللّه ورسوله، وتحقّق - تبعًا لذلك - استجابتهم للّه ورسوله في قوله: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾، فذلك مِن دأبهم في أحوالهم مع اللّه ورسوله.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل المبنيِّ للمفعول:

حبُّ الله ورسوله جعلهم يستجيبون لكلِّ أحدٍ مِن قِبَلِهما

ورد الفعل: ﴿دُعُوٓاْ﴾ مبنيًّا للمفعول، بحذف فاعله، وإقامة المفعول مقامه للعموم، أي: سواء دعاهم الرَّسول ﷺ أو مَن يقوم مقامه ممَّن له الطّاعة والتسليم؛ إذ الغرضُ الإعلام بوقوع الفعل بالمفعول دون النَّظر إلى الفاعل مَن هو؛ لأنَّ القصدَ مدحهم بالتسليم المطلق لحكم اللّه ورسوله مِن أيِّ داعٍ كان.

معنى ﴿إِلَى﴾:

لم يتوجّهوا إلى الله ورسوله إلّا لمعرفتهم بهما

﴿إِلَى﴾ لانتهاء الغاية، والمراد دعوتهم إلى غاية مقصودة، وهي حكم اللّه تعالى وحكم رسوله ﷺ وأنعِم بها من غاية يُنتَهى إليها! وهذا يعني: سعيهم في إرضائهما؛ لأنَّهما غايةُ الغايات عندهم.

سرُّ تعلُّقِ فعل الدُّعاء بالله ورسوله:

الكُمَّلُ يُبصرون أنَّ الألوهية الحقَّة حاضرة في كلِّ شيء

تعلَّق الفعل ﴿دُعُوٓاْ﴾ بكونه إلى اللّه تعالى وإلى رسوله ﷺ مع أنّه في الظاهر للرسول؛ لأنَّه الحَكَمُ المباشرُ بينهم وبين خصمهم، فاسم الجلالة: ﴿ٱللَّهِ﴾ مذكورٌ على خلاف الظاهر، وسرُّ ذلك: بيانُ

أنَّ المؤمنين يبصرون جلال اللّه وجماله في أمر رسول اللّه محمَّد ﷺ فلا يكون منهم إلّا تفخيمُه وتعظيمه وكمال الانقياد له رغبةً ورهبةً، وسلمًا وحربًا، وطوعًا وكرهًا، وعسرًا ويسرًا، وفي هذا كلُّ مدحٍ لهم، يتبعه كلُّ ذمٍّ لأضدادهم مِن المنافقين.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ الحُكْم:

المنافقون ملاحَظون في الحديث عن المؤمنين

عُبِّرَ في الآية بالحُكْمِ في قوله: ﴿لِيَحۡكُمَ﴾؛ لأنَّها في الحديث عن الفريق المؤمن المقابل للفريق المنافق الذي إذا دخل في تخاصُم وتنازُع؛ دُعي إلى محكمَةِ رسول اللّه ﷺ فالسّياق الشامل لهم جميعًا هو سياق التحاكم إلى رسول اللّه، والرِّضا بحكمه، والانقياد له، وسياق الحكم في التخاصم والتنازع، ولا شكَّ أنَّ الحكم يكون قبل القضاء، فإذا لم يكن مِن المنافقين رضًا بحكمه؛ فكيف يرضون بقضائه؟ إنَّهم لا يرضون أوَّلًا بحكمِه، فيُعرِضون عنه؛ إذا لم يكن الحقُّ لهم، فلو عبَّر القرآنُ بـ: (ليقضي)؛ لَما راعَى حالَ المنافقين، وهو يتحدَّث عن أضدادهم، مِن المؤمنين، مع أنَّ الأبلغ في مدح المؤمنين أن يقال: (ليقضي)؛ فيكون هذا التَّعبير منطويًا على رضاهم بحكمه من باب أولى، ولكنَّ سياق الآية - كما ذكرنا - يراعي حال المنافقين؛ لأنَّ الملحوظ - من سياق هذه الآية وما قبلها مِن الحديث عن المنافقين - نفيُ التسويةِ بينهم في أكثر من جهة، أعلاها وأمُّها جهةُ الإيمان باللّه ورسوله.

دلالةُ الإفرادِ في: ﴿لِيَحۡكُمَ﴾:

من أطاع الرسول؛ فقد أطاع الله

كان الظاهرُ - بناءً على قوله: ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ - أن يقال: (ليحكما بينهم)، ولكنَّ القرآن أفرد، فقال: ﴿لِيَحۡكُمَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ حكم رسول اللّه ﷺ هو حكم اللّه تعالى فهو إنَّما يحكم بوحي من اللّه تعالى وهذا يعود على تعلُّق فعل الدُّعاء باللّه ورسوله بالتَّحقيق والتَّوكيد.

معنى اللّامِ:

مِن وظائف الرَّسولِ الحكمُ بين الناس

اللامُ في قوله: ﴿لِيَحۡكُمَ﴾ لام التَّعليل والتي يُنصَبُ الفعل المضارع بعدها بأن مضمرة وجوبًا، ولام التعليل هي التي يصلح أن يوضعَ موضعها (لأجل)، والمعنى هنا: من أجل الحكم بينهم.

تخصيصُ التَّعبيرِ بفعلَي السَّمع والطّاعة:

مَن سمِع عن الله وجبت عليه الطّاعة، فهما قرينان

شُهِر التعبيرُ بهذَين اللَّفظين عن كمال الانقياد والتسليم والاستجابة، فهما كنايةٌ عن ذلك، حتَّى صار استعمالهما كالأمر المسَلَّم به في عرفهم، وجرى مجرى المثل في الاستعمال[1]، ففي قول المؤمنين: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ ضَرْبٌ مِن الإيجاز، وفيه أيضًا مبالغةٌ في كمال التسليم والانقياد.

بلاغةُ العطفِ:

لا يستوي الظالمون والمفلحون حالًا ومآلًا

وقعت جملة: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ جوابًا عن السؤال عن حال المؤمنين بعد نفي الإيمان عن المنافقين، وبعد تمام بيان ذلك جاءت جملةُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ استئنافًا بيانيًّا آخرَ؛ جوابًا عن السؤال عن تحقيق حالهم، والحكم العام عليهم بما يشمل جزاءهم، كقوله تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فكان الظاهرُ غيابَ الواو؛ لشبه كمال الاتصال بين الجملة وما قبلها.

وفي ذكر الواو احتفالٌ بمضمون هذه الجملة؛ بما في الواو من معنى المغايرة الذي لا يبرحها، والذي يشعر باستقلال ما بعد الواو عمَّا قبلها نوعَ استقلالٍ، مع جليل اهتمام؛ لأنَّ هذه الجملة ترشح مِن الفلاح فيها على ما قبلها، مِن قول المؤمنين إذا دعوا إلى اللّٰه ورسوله: سمعنا وأطعنا، فذلك مِن الفلاح.

وفيه لفتٌ إلى تحقيق حالهم؛ ليقارن المُتَلَقُّونَ بينه وبين حال المنافقين في قوله: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 275.

وبالجملة: فالاحتفال بفلاحهم احتفالٌ بأقوالهم وأفعالهم، وإظهارٌ لفضلهم على أضدادهم مِن المنافقين، فيقوى بيانُ نفي التسوية بينهما، وذلك ما سيقت له الآيةُ أصلًا، وفي الاحتفال بفلاحهم إشعارٌ بأنَّهم كأنَّهم فازوا به، وذكرُ الواو قرينة قويَّة على إرادة نفي التسوية بين الفريقين؛ كأنَّ القرآن بعدما ذكر بعض أحوال المنافقين يُعدِّد شيئًا مِن أحوال المؤمنين.

دلالةُ الإشارةِ بالبعيد:

السَّمعُ والطاعة لرسول الله سببٌ عظيم للفلاح

قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنين؛ باعتبار صدور القول المذكور عنهم، ومعنى البُعد فيه مُشعِرٌ بعلوِّ رتبتهم، وبُعْد منزلتهم في الفضل، والمعنى: أولئك المنعوتون بما ذُكِر مِن النَّعت الجميل(1)، وفيه أنَّهم جديرون بالاتِّصاف بالفلاح في الدارين - لإطلاقه عن التقييد - بسبب ما حدَّث عنهم قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

دلالةُ ذكر ﴿هُمُ﴾، وعلاقته بتعريف الطرفين:

في التَّوكيد مدحٌ للمفلحين، وذمٌّ للمنافقين

ضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾: من أدوات التَّوكيد، وهو يفيد الاختصاص، وأنَّ ما بعده خبرٌ لا صفة، والخبر أقوى في الدِّلالة وفي تثبيت الحكم من الصِّفة؛ إذ الخبر عمدةٌ في الكلام، وسُمّي ضمير الفصل ضميرًا تجوُّزًا؛ لمجيئه على صورة الضَّمير، وعُبِّر بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾؛ لتحقيق إثبات فلاحهم وتوكيدِه، ويجوز أن يكون طريقًا دالًّا على القصر، وإن حُمِل على مطلق التوكيد، فالدالُّ على القصر هو تعريف الطرفين: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فالأوَّلُ معرَّف بالإشارة للبعيد، والثاني معرَّف بـ(أل).

نكتةُ مشاكلة: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ لتركيب: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾:

يُلاحَظ أنَّ تركيبَ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ في وصف المؤمنين

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 132.

التشابهُ في الإبانة عنهم صورةٌ لكمال التَّغاير بينهم

بالفلاح، جرى على حذوِ التركيب الذي قيل في وصف المنافقين بالظُّلم، بصيغة القصر المؤكَّد بـ﴿هُمُ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ وهذا أوّلًا تحريكٌ للمتلقّين لأن يقارنوا بين الفريقين، وثانيًا: إبلاغٌ في نفي التسوية بينهما، وثالثًا: أن يكون الثَّناءُ على المؤمنين ضدًّا لمذمَّة المنافقين تمامًا، كما قال ابن عاشور[1].

علَّةُ التعبير بـ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ ودلالة (أل) فيه:

من أدرك الفلاحَ؛ فقد استكمل أبواب النفع والخير

عُبِّر بالفلاح، ونُظِم اسمَ فاعلٍ في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ مِن بعد ذِكر قول المؤمنين؛ إذا دعوا إلى الله ورسوله: سمعنا وأطعنا؛ إشارةً إلى أنَّ المؤمنين شقّوا طريقًا مِن طُرُقِ الفلاح؛ لأنَّ الفلاح يدلُّ في أصلٍ مِن أصلَيْهِ على شَقٍّ، فهذا الطريقُ الذي شقَّهُ المؤمنون سديدٌ سدادًا تامًّا عريقًا مِن جهة، وذو مشقَّة عليَّة بالغة مِن جهة أخرى، فإيمانُهم ليس لسانيًّا فقط، وإنَّما هو يقينيٌّ عمليٌّ.

وإشارةً إلى أنَّهم سلكوا هذا الطريق، وهم يُحارَبون مِن جهة عدوِّهم في الدين، وهم يُجاهدون أنفسهم، والشياطين، وغيرَ ذلك؛ فقد فازوا بالإيمان وجزائه، ونجوا مِن الكفر وشرِّه وعقابه.

وبمعونة ذلك كلِّه نفهم أن (أل) في قوله: ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: معناها الكمال، فهُم أهل كمال في فلاحهم، أي: في سمعهم وطاعتهم، وفلاحهم هو الفلاح الكامل، الذي لا يُعتدُّ بفلاحٍ غيره مبالغةً.

دلالةُ حذفِ المتعلِّق:

من صور النَّعيم أن تجد الفلاح رفيقًا لك في جميع حالاتك

حُذِفَ متعلِّق قوله: ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ إيجازًا لكونه معلومًا بدلالة الحال من سياق الكلام، ولتوجيه النُّفوس لإثبات صفة الفلاح للمؤمنين دون الانشغال بالمتعلِّق، ولتعميم الحكم عليهم بالفلاح؛ تعظيمًا لشأنهم، ورفعة قدرهم، وفي الحذف أيضًا تمكينٌ لمعنى كمالهم في سبيل الفلاح، وتمكينٌ لكمال الفلاح نفسِه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 275.

بلاغةُ التَّضادِ بين هذه الآية وآية المنافقين السّابقة:

لايستوي المنافقُ والمؤمن كما لا يستوي الخبيثُ والطيب

ذكر اللّه تعالى قول المنافقين فيما سبق حين دعْوَتِهم إلى اللّه ورسوله ليحكم بينهم، وحاصلُهُ الإعراضُ والنُّفور؛ لاعتراضهم على حكمه وعدم الإذعان لهذا الحكم، وهذا دون قولِ المؤمنين الذين يعلنون سمعهم وطاعتهم لهذا الحكم، ففرقٌ بين العاصي والمطيع؛ فالأَوَّلون المنافقون رفضوا الإذعان والخضوع، وهؤلاء قبلوا حكم اللّه تعالى وأعلنوا السَّمع والطّاعة لهذا الحكم، والتقابلُ بينهم يحرِّك المتلقّين لفقه حال كل فريق في نور حال الفريق الآخر، فيتمكَّن المعنى في النفس، ويظهر لها على جهة الكمال، فهو إحسان إلى المعنى وإلى المُتلقِّين جميعًا.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٥٢﴾ [النور:52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بـــابُ الـتـوبـة مـفـتـوحٌ، فأين التائبون؟

في الآية السابقة بيَّن القرآنُ حال المؤمنين المضادَّ لحال المنافقين، وفي هذه الآية عمَّمَ تعالى حال الطائعين، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ بأسلوب الشرط والجواب؛ ليفتح باب الإيمان به وبرسوله وطاعتهما للمنافقين وغيرهم مِن أهل الكفر والمخالفات، ولا ريب أنَّ ذلك يعود على مضمون الآية السابقةِ بالتحقيق والتوكيد.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَخْشَ﴾: (خشي) أصلٌ يَدُلُّ على خَوْفٍ وذُعْرٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليه المَجازُ، فالخَشْيَةُ الخَوْفُ، ورَجُلٌ خَشْيانُ، وخاشاني فُلانٌ فخَشَيْتُه، أَيْ: كُنْتُ أشدَّ خَشْيَةً مِنْهُ، والمَجازُ قَوْلُهُم: خَشيتُ، بِمَعْنَى: عَلِمتُ[1]، والخَشْيَة: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خُصَّ العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:28][2].

وقوله: ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ أي: ويخَفِ الله خوفًا عظيمًا، بخصوص ما عسى أن يكونَ قد فرَّط فيه مِن التَّكاليف، على أنَّ الخشية تعُمُّ التقصير كلَّه[3].

2) ﴿وَيَتَّقْهِ﴾: (وقى) أصلٌ يَدُلُّ على دَفْعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ بِغَيْرِه، والوِقايَةُ: ما يَقي الشَّيْءَ، واتَّقِ الله: تَوَقَّهُ، أَيِ: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خشي).
(2) الراغب، المفردات: (خشي).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 276.

كالوِقايَةِ، قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللّه عليه وآلِهِ وسَلَّمَ: «اتَّقوا النّارَ، ولَوْ بِشِقِّ تَمرَةٍ»، وكَأنَّهُ أَرادَ: اجْعَلوها وِقايَةً بَيْنَكُم وبَيْنَها[1].

وقولُه: ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾، أي: ويجعل فيما يستقبل بينه وبين ما يسخط اللّه وقايةً[2].

3) ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾: (فوز) هذه المادَّةُ كَلِمَتانِ مُتَضادَّتانِ، فالأولَى النَّجاةُ، والأُخْرَى الهَلَكَةُ"[3]، والفَوْزُ على المعنى الأول: الظَّفر بالخير مع حصول السَّلامة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [البروج: 11]، والمَفازَةُ قيل: سُمّيت تفاؤلًا لِلْفَوْزِ، وسمّيت بذلك؛ إذا وُصِل بها إلى الفَوْزِ، وعلى المعنى الثاني: فَوَّزَ الرَّجُلُ؛ إذا ماتَ[4].

وقوله: ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾؛ أي: الذين أدركوا الحقَّ فاتَّبعوه، وأقبلوا عليه بكليَّاتهم، وعملوا بما أمكنهم مِن أسبابه، ولم يلتفتوا إلى الباطل، فنجوا مِن شقاء النُّفوس في الدُّنيا وفي الآخرة، فتُنُعِّموا نعيمًا مقيمًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

فاز مَن تمسَّك بحبل اللّه وصراطه

تقرِّر الآية الكريمة أنَّ كلَّ مَن يؤمن باللّه ورسوله، فامتثل لأوامرهما، واجتنب نواهيهما، وندم على ما كان منه من تقصير ندمًا عظيمًا؛ تسبَّب في حصول خشيته مِن اللّه، على ما مضى، واتِّقائِه فيما يَستقبل، بأن يجعل بينه وبين غضبه وسخطه وقاية؛ بترك ما يجلب ذلك، فهو الناجي حقًّا مِن كل سوء وشقاء في الدُّنيا والآخرة، النائل مِن السعادة والنعيم ما يناله الفائزون الكُمَّلُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ العطف في صدر الآية:

دعوةٌ عريضة لسلوك مسلكَ أهل السَّمع والطّاعة

جملة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ جيء بها؛ لتقرير

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقي).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 276.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوز).
(4) الراغب، المفردات: (فوز).

مضمونِ ما قبلها من حُسنِ حالِ المُؤمنين وترغيب مَن عداهُم في الانتظام في سلكِهم، أي: ومَن يُطعهما كائنًا مَن كان فيما أُمرا به من الأحكامِ الشَّرعيَّةِ اللازمةِ والمتعديةِ، وقيل في الفرائضِ والسُّننِ[1]، فالطاعة في الآية السابقة خاصَّة، والطاعة في هذه الآية عامَّة، وقد عطفت الواو هذه الجملة على سابقتها لاتِّفاق الجملتين في الخبرية مع وجود جهة جامعة بين الجملتَين، ففي الأولى إعلان السَّمع والطّاعة، وفي الثانية تفسيرٌ للأولى ببيان جزاء المطيع المتَّقي الذي يخشى اللّه تعالى بالفوز والنَّجاة، "وَمَوْقِعُ هَذِهِ الجُملَةِ مَوْقِعُ تَذْيِيلٍ؛ لِأَنَّها تَعُمُّ ما ذُكِرَ قَبْلَها مِنْ قَوْلِ المُؤْمِنِينَ: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾، وتَشْمَلُ غَيْرَهُ مِنَ الطّاعاتِ بِالقَوْلِ أَوْ بِالفِعْلِ"[2].

معنى (مَنْ)، ودلالة نظم الأفعال مضارعةً:

تجديدُ الإيمانِ يكون بالتَّرقّي في سُلَّم الطاعة

(مَنْ) اسمُ شرط جازم يجزم فعلين: أحدهما: فعل الشرط، والثاني: جوابه وجزاؤه، وهي في محلّ مبتدأ، و(مَنْ) مبيِّنة بشرطها لحالة من يلتزم طاعة اللّه تعالى وتقواه وخشيته، على العموم، ويترتَّب على ذلك الفوز والظَّفر.

وقد نُظمت أفعال الشرط المجزومة ﴿يُطِعِ﴾ ﴿وَيَخۡشَ﴾ ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ بصيغة المضارعة؛ للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار؛ لأنَّ كلَّ ذلك بمنزلة دلائل على الإيمان باللّه ورسوله، وبتجديدها يتجدَّد الإيمان، وينمو، ويزداد حياة في القلب.

سرُّ ذكرِ معاني الطاعة والخشية والتقوى وترتيبِها:

قد يحتاج غيرُ المنافق إلى التثبيت؛ لأنَّ القلوب بيد الله

سيقت آية ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾؛ لترغيب كل متلقٍّ في الإيمان باللّه ﷻ ورسوله ﷺ ليدخل في زمرة أهل معاني الشرط والجواب المنافقون الذين سبق الحديثُ عنهم، فدعتِ

---

(1) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 188.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 276.

الآيةُ إلى الطاعةِ - لا إلى الاتباع - التي هي مجلى الإيمان؛ تنبيهًا على ترغيبهم في الإيمان الكامل، لا في مطلق إيمان، والتي ادَّعاها المنافقون على جهة الإبلاغ في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾؛ ليفهموا أنَّهم مقصودون بهذه الآية أيضًا، وأنَّ لهم فيها نصيبًا.

وهذه الطاعة هي المعنى الأُمُّ المقصود تحقيقُه مِن معاني الشرط، وقد بدَت للمُتلقِّينَ ثقيلةً جدًّا على المنافقين، فكان حالُ الجميعِ مفتقرًا إلى بيان ما يُساعِدُ، ويُعينُ على تحقيق تلك الطاعة تحقيقًا يرضَى عنه اللّه ورسولُه، ويكون صورةً واضحةً لكمال الإيمانِ المطلوبِ، فذُكِرت الخشيةُ، وهي ناظرةٌ إلى ما يصير ماضيًا مِن الأحوال والأقوال والأفعال؛ مِمَّا قد فرَّط فيه الإنسانُ، ولمَّا كانت أعلى مِن الخوف؛ تعلَّقت بكل تقصيرٍ في جنب اللّه ورسوله، وبها تتحقَّق التخليةُ.

ثم ذُكِرت التقوى، وهي ناظرةٌ إلى ما يستقبله الإنسان، مِن أحوال وأعمال، بحيث يحذر، ويخاف مِن المخالفة فيها، فكان كلٌّ مِن الخشية والتقوى مِن تمام الطاعة.

وأُخِّرت التقوى، وقُدِّمت الخشيةُ؛ لأنَّ مِن منهج الإسلام الحنيف أنَّ التخلية تكون قبل التَّحلية، وبالتقوى هنا تكون التحليةُ.

بلاغةُ الفاءِ:

جملة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾: جواب الشرط، وقد ارتبطت جملةُ الشرط بالفاء، والمعنى: لمّا حصلت منهم هذه الخصالُ الحميدة؛ ترتَّبَ عليها الفوز والظَّفر دنيا وأخرى، وفي الفاء امتنانٌ عظيم من اللّه عليهم؛ باعتداده تعالى بالطاعة المذكورة والخشية والتقوى أسبابًا للفوز العظيم عنده تعالى.

سبحان مَن يوفِّقُ للخير، ويجزي عليه!

دلالةُ (أولئك):

أهلُ السعادةِ الفائزون دائمًا مميَّزون

عُبِّرَ باسم الإشارة: (أولئِكَ) البعيد؛ لبيان بُعدِ منزلة هؤلاء

المطيعين المتَّقين، وكونهم أحقّاءَ بأن يُشار إليهم بهذه الإشارة، فهم جديرون بهذه المنزلة، وعلوِّ الرتبة، وقد سبق اسمَ الإشارة أوصافٌ تَحَلَّوا بها، يليها مآثر تُبِينُ عن استحقاقهم هذا الفوزَ، فورد اسم الإشارة؛ تنبيهًا على أنَّ المشارَ إليه الذي اجتمعت له هذه الأوصاف حريٌّ بأن يثبت له الفوز والظَّفر.

دلالةُ ذكر: ﴿هُمُ﴾ وعلاقته بتعريفِ الطرفين:

تحقيقُ معنى الجملة بالقصر تمكينٌ لتسبُّب معاني الشرط فيه

عُبِّرَ بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾؛ لإفادة وكادة هؤلاء في حصول الفوزِ، ويجيء الضَّمير دلالةً على فخامة شأن صاحبِه، بحيثُ يُجعل لفرط شهرته كأنَّه يدلُّ على نفسه، وضميرُ الفصل مِن طرق القصرِ، فما بعده هنا هو المقصورُ، وما قبلَهُ هو المقصور عليه، أي: ما الفائزون إلّا هم، لا غيرهم، وما الفوز إلّا لهم، لا لغيرهم، وهذا القصر مستفادٌ أيضًا من طريق تعريف الطَّرفين: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ - ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾، وهذا قصرٌ إضافيٌّ، قصر إفرادٍ؛ لأنَّه يلاحظ المنافقين الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ باللِّسان فقط.

دلالةُ الاسميَّة:

دوامُ الفوزِ فوز مستقل

جاء وصفُ هؤلاء المطيعين المتَّقين في قوله: ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ باسم الفاعل؛ للدِّلالة على ثبوت صفة الفوزِ واستمرارها، وكونها صفةً لازمة، لا تنفكُّ عنهم أبدًا، فهم متلبِّسون بها؛ جزاءً وفاقًا لهم.

دلالةُ التعريف بـ(أل):

الـكُـمَّـلُ هم الفائزون

(أل) في قوله: ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾: معناها الكمال، أي: إنَّ فوزهم هو الفوزُ الكامل المعتدُّ به الذي لا فوزَ يُعتبر سواه، ووراء هذا مِن المعنى كمالُ الاعتداد بسُبُلِ ذلك الفوز؛ مِن الطاعة، والخشيةِ، والتَّقوى.

حذفُ المتعلّق:

حُذِفَ متعلّق: ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾؛ إيجازًا لكونه معلومًا من سياق الكلام والحال، ولتوجيه النُّفوس لإثبات الفعل للفاعل، دون الانشغال بهذا

المتعلِّق، وتعظيمًا لما حصل عليه هؤلاء الفائزون، والمراد: الفائزون بالنَّعيم المقيم، لا من عداهم، وفي الحذف تفخيمٌ للفوز وتعظيم له؛ لإيهامه أنَّه فوزٌ بكل شيء يُسعِد في الدارين.

إنَّ حُكْمَ الله بفوز أهل طاعته وخشيته وتقواه لهو الفوز العظيم

دلالةُ الحملِ على لفظ: (مَن) ومعناها:

كلمةُ: (مَن) شرطيَّةٌ عامةٌ، لفظها مفرد، ومعناها الجمعُ، وقد حُمِل على لفظها في نظم معاني الشرط بالإفراد والتذكير، فقيل: ﴿يُطِعِ﴾ ﴿وَيَخْشَ﴾ ﴿وَيَتَّقْهِ﴾، وحُمل على معناها في نظم معنى الجواب بالجمع المذكَّر؛ تغليبًا للذُّكور على الإناث، فقيل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

الوصولُ إلى الفوز برضوان الله يسير على من يسَّره الله عليه

ففي الإفرادِ: دعوةُ كلِّ فرد من أفراد المنافقين على حدة للإيمان اليقينيِّ الَّذي يحقِّق النَّجاة في الآخرة، وفيه بثٌّ لروح النجاةِ والتَّنافس في صفِّ أهل الإيمان؛ فكلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة، وكلُّ نفس ستُجزى بما كسبت، فعلى كلِّ فرد أن ينجوَ بنفسه، وأن يحقِّق سبيلَ الفوز من الطاعة والخشية والتقوى بنفسه متجرِّدًا، غيرَ معتمدٍ على أحدٍ، ولا متأثِّرٍ بأحد، حتى لا يعوقَهُ أحدٌ أو جماعةٌ.

إنَّ مقام الطاعة والخشية والتقوى جليلٌ وخطير، يفتقر إلى جهد ومشقَّة كبيرين، وهذا ما يشير إليه التَّذكيرُ.

وفي الجمع والتذكير: تعظيمٌ وتفخيم وتشريف للفوز، الناتج عن مقامات: الطاعة، والخشية، والتَّقوى، تلك التي يصير بها المؤمنُ غريبًا في الدُّنيا.

وفي الجمع: إنباءٌ بالاحتفال الجمعيِّ بالجزاء في الآخرة؛ إن لم يتأتَّ في الدُّنيا، وفيه أيضًا: تبشيرٌ بكثرة مَن يحقِّق معانيَ الشرط، فيدخل في زمرة الفائزين في الجواب.

سرُّ المغايرة بين عجزي الآيتين: ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾:

الفاصلةُ نتاج ما قبلَها، وتلخيص له بلُطْفٍ

وردت الفاصلةُ في قول المؤمنين: ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، والمراد: هم الفائزون بكلِّ مطلب، والنّاجون من كلِّ محذور؛ لأنَّه المناسبُ للسَّمع والطّاعة، ووردت الفاصلة في قوله - معدِّدًا صفات هؤلاء تفصيلًا -: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾، أي: بالنَّعيم المقيم؛ ترغيبًا لمن عداهم في الدُّخول في عدادهم، والمتابعة لهم، والخشية من اللّه ﷻ والتقوى له، فناسب القول الأوَّل الفلاح، أي: الفلاح التّام دنيا وآخرة، وناسب وجودَ الصِّفات المذكورة الفوزُ بالملك الأبديِّ، ولا فوز لغيرهم.

واصطفى القرآن: ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ في الأولى؛ لبيان خسران مَن يقولون: (آمنا باللّه وبالرسول وأطعنا، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون)، فالسياقُ للمقارنة بين الفريقين، قولًا وفعلًا وحالًا ومآلًا.

واصطفى: ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ في الثانية؛ لأنَّ عرْضَ أحوالِ الفريق المؤمن يُحرِّك العاقل مِن أهل الإيمان ومِن أهل الكفر للتسابق والتَّنافس؛ كلٌّ في مقامه، فالكافر مع أهل الكفر، فهو مُرغَّبٌ مُحرَّكٌ؛ لأن يتركهم، ويتخلَّى عن أحوالهم بالكلّيَّة؛ فيفوز بالإيمان، والمؤمن مع أهل الإيمان، فهو كذلك؛ ليرقَى في سُلَّمِ مقامات الإيمان، فيفوز بأعلى درجات الجِنان.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخشية والخوف:

كـلُّ خشيةٍ خـوفٌ، وليس كل خوف خشيةً

الخشية أعمُّ مِن الخوف؛ لأنَّ الخوف مدارُهُ على الذعر والفزع، والخشية خوف يشوبه تعظيمٌ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خصَّ العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:28].

ومِن الفروق بينهما أيضًا: أنَّ الخوف يتعلَّق بالمكروه وبترك المكروه، والخشية تتعلَّق بمُنْزِل المكروه.

ومنها أيضًا: أنَّ الخوف تألُّم النَّفس مِن العقاب المتوقَّع؛ بسبب ارتكاب المنهيّات، والتقصير في الطاعات، وهو يحصل لأكثرِ الخلق، وإن كانت مراتبُه متفاوتةً جدًّا، والمرتبة العليا منه لا تحصل إلّا للقليلِ، والخشية: حالةٌ تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبتِه، وخوف الحجب عنه، وهذه حالة لا تحصل إلّا لمن اطلع على حال الكبرياء، وذاق لذَّة القرب، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾، فالخشية: خوفٌ خاصٌّ، وقد يطلقون عليها الخوف، ويؤيِّد هذا الفرقَ أيضًا قولُه تعالى يصف المؤمنين: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد:21]، حيثُ ذكر الخشيةَ في جانبه سبحانه والخوفَ في جانب الحساب[1].

الفوز والنجاة:

الفوز أعـمُّ من النَّـجـاة التي هي سابقةٌ على الفوز

الفرقُ بين النَّجاة والفوز: أنَّ النَّجاة: هي الخلاص من المكروه، والفوز: هو الخلاص من المكروه، مع الوصول إلى المحبوب؛ ولهذا سمّى اللّه تعالى المؤمنين فائزين؛ لنجاتِهم من النار، ونيلهم الجنَّة، ولمّا كان الفوز يقتضي نيل المحبوب؛ قيل: فاز بطُلبته، وقال تعالى: ﴿يَـٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧٣﴾ [النساء:73]، أي: أنال الخير نيلًا كثيرًا[2]، فالتعبير بالفوز يكشف مدى عظمةِ الجائزة التي نالها هؤلاء الذين سمعوا، وأطاعوا، وتقلبوا في الخشية للخالق المعبود - ﷻ - فكان نصيبهم الفوزَ والقرب منه تعالى ووراء ذلك عظيمُ المشقَّة التي أقاموا فيها أنفسهم، بالطاعة والخشية والتقوى.

---

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 218، 219.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 532.

﴿۞وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣﴾ [النور:53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أهلُ النِّفاقِ كَذَبَةٌ لا عهد لهم

لمّا ذكرَ اللّه تعالى أوّلًا إعراضَ المنافقين عن حُكم اللّه وحكم رسوله، وذكر ثانيًا موقفَ المؤمنين الطّائعين الذين ارتضوا حُكمَ اللّه وحكم رسوله، وأعلنوا له السَّمع والطّاعة، فكانوا مِن أهل الفلاح والفوز؛ عاد إلى الحديث عن المنافقين، ليكمل بيانَ أحوالهم؛ فهم يُقْسِمون على الأيمان المغلَّظة؛ لإعلان طاعتهم، وهم ليسوا كذلك؛ لنفاقهم وكذبهم، فأبان اللّهُ خسيسة أنفسهم، ودناءة طباعهم، وما هم عليه مِن كراهيَّتهم وبغضهم لرسول اللّه، وكذبَ دعواهم، وأنَّ المطلوب منهم - إن كانوا صادقين حقًّا - أن يُقِرّوا بطاعته متمثِّلين له صرفًا بألسنتهم، وتصديقًا بقلوبهم، ويقينًا بأفعالهم، والفعل والإيقان يُصدِّقان قول اللسان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾: (قسم)، اليَمينُ القَسَمُ، وأقسم حلف، قالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: أَصْلُ ذَلِكَ مِنَ القَسامَةِ، وهيَ الأَيْمانُ تُقْسَمُ على أَوْلِياءِ المَقْتولِ؛ إذا ادَّعَوا دَمَ مَقْتولِهِم على ناسٍ اتَّهَموهُم به، ثم صار اسمًا لكلِّ حلف، قال: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [الأنعام:109]، وقال: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ [الأعراف:49]، وقاسَمَهُ، وتَقاسَما، قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف:21][1].

وقولُه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾: أي: نطقوا بالقَسَم، أي: اليمين.

2) ﴿جَهۡدَ﴾: (جهد) أَصْلُهُ المَشَقَّةُ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه ما يُقارِبُهُ،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم)، والراغب، المفردات: (قسم).

يُقالُ: جَهَدْتُ نَفْسي، وأَجْهَدْتُ، والجُهْدُ الطّاقَةُ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة:79]، ويُقالُ: إنَّ المَجْهودَ اللَّبَنُ الَّذي أُخْرِجَ زُبْدُهُ، ولا يَكادُ ذَلِكَ يَكونُ إلّا بِمَشَقَّةٍ ونَصَبٍ"[1]، والجَهْد بالفتح: المشقَّة، والجُهْد: الوسع، وقيل: الجهدُ للإنسان، وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، أي: حلفوا، واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم، والاجتهادُ: أَخْذُ النَّفسِ ببذل الطاقة وتحمُّل المشقَّة[2].

وقولُه: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، أي: إنَّهم أتعبوا أنفسهم، وشقوا عليها في الحلف بالإيمان؛ ليوهِموا سامعهم أنَّهم صادقون في أيمانهم.

3) ﴿مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾: (عرف) هذه المادَّة أَصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على تَتابُعِ الشَّيْءِ مُتَّصِلًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، والآخَرُ على السُّكونِ والطُّمَأْنينَةِ، فالأَوَّلُ العُرْفُ: عُرْفُ الفَرَسِ، وسُمّيَ بِذَلِكَ لِتَتابُعِ الشَّعْرِ عليه، والأَصْلُ الآخَرُ المَعْرِفَةُ والعِرْفانُ، تَقولُ: عَرَفَ فُلانٌ فُلانًا عِرْفانًا ومَعْرِفَةً، وهَذا أَمرٌ مَعْروفٌ[3]، والمَعْرِفَةُ والعِرْفانُ: إدراك الشَّيءِ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثره، وهو أخصُّ من العلم، ويضادُّهُ الإنكارُ[4].

وقوله: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾، أي: طاعةٌ مشهورة، وباردة مِن حرارة الإيمان الحيِّ الصادق.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

المـنـافـقـون مفضوحون لا محالة

أقسم هؤلاء المنافقون بالأيمان المغلَّظة الموثَّقة بأشدِّ وسائلِ التَّوثيقِ بأنَّهم متى أمرهم الرسول ﷺ بالخروج معه للجهاد ليخرجنَّ سراعًا؛ تلبيةً لأمره، وكذلك لو أمرهم بأيِّ شيء غيره؛ ليكوننَّ منهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جهد).
(2) الراغب، المفردات: (جهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(4) الراغب، المفردات: (عرف).

الاستجابة السريعة، ثمَّ أمره الله بالردِّ عليهم مكذِّبًا إيّاهم؛ تهكُّمًا وسخرية بهم، قائلًا: لا تقسموا على قولكم، فلو كنتم صادقين فيما تزعمونه فالطّاعة عملٌ وإيقان، وليس إطلاقًا باللسان، فطاعتكم طاعةٌ معروفة خالية مِن الإيمان.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في صدر الجملة:

نظامُ الآيات لا يخلو مِن الهدايات والإشارات

قولُه تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾، أُتْبِعَتْ حِكايَةُ قَوْلِهِم ذَلِكَ بِحِكايَةِ قَسَمِ أَقْسَموهُ باللّه؛ لِيَتَنَصَّلوا مِنْ وصْمَةِ أَنْ يَكونَ إعْراضُهُم عَنِ الحُكومَةِ عِنْدَ الرَّسولِ ﷺ فجاؤوهُ، فأَقْسَموا بأنَّهُم لا يُضْمِرونَ عِصْيانَهُ فيما يَقْضي به؛ فإنَّهُ لَوْ أَمَرَهُمُ الرَّسولُ بأَشَقِّ شَيْءٍ - وهوَ الخُروجُ لِلْقِتالِ - لَأَطاعوهُ[1].

فهذا الإقسام متعلِّق بهذا الفريق المُتولِّي المُعرِض عن حكم رسولِ الله؛ إذا دُعي إليه، فالمتعاطفانِ حينئذٍ حديثٌ عن هذا الفريق مِن المنافقين، فبينهما توسُّطٌ بين الكمالين، وعلى ما سبق فالآيتان الحادية والخمسون والثانية والخمسون كالاعتراض بين آيات الحديث عن المنافقين، وإنّما جيء بهما على سبيل الاعتراض؛ ليكون الحديثُ عن المؤمنين، كالنور الذي يلوح للمنافقين في جوٍّ الظلام؛ لأنَّ النِّفاق ظلامٌ، والمنافقين مُظلِمون، حتى يلتفتوا لهذا النور، فيقتبسوا منه - وهم في الدُّنيا - فيقتدوا به، فيكون منهم رجوع إلى أنفسهم، فإنَّهم إذا رجعوا إليها راجعوها، وإذا راجعوها؛ اهتزَّت نفوسُهم للحقِّ، وتهيَّأت للتَّخلّي من الباطل نفاقًا وكفرًا، والتَّحلّي بالحقِّ إيمانًا وأخلاقًا؛ فلهذا أيضًا تأخَّرَت هذه الآيةُ عن الآيات المتحدِّثة عن المنافقين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 276.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ القسم:

قال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾، ولم يقل: (وحلفوا)؛ إشارةً إلى أنَّ نصيبهم مِن الاستجابة للّه ورسوله هو هذا القسم أو الإقسام؛ لأنَّه مأخوذٌ مِن القَسامة، وهي الأيمانُ تُقسَّمُ على أولياء المقتولِ، إذا ادَّعوا دم مقتولهم على ناسٍ اتَّهموهم به، وإشارةً إلى تكاسلهم وتباطُئِهم في دفع الشُّبْهة عن أنفسهم، وهي أنَّهم يُعرِضون عن الحكومة عند رسول اللّه ﷺ لأنَّ مادَّة: (قسم) تدورُ على أصلين، أحدهما تجزئةُ شيءٍ، فلو عُبِّر بالحلف، فقيل: (وحلفوا باللّه) لفات ذلك كلُّه، ولَما أبان عن حال المنافقين.

علاماتُ النِّفاق لا تكاد تُعَدُّ وتُحْصَى

دلالةُ صيغةِ الفعل:

قولُه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾: معطوفٌ على قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أو: ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾، فكان الظاهرُ أن يقال: (ويقسمون)، ولكنْ عُدِل عنه إلى الماضي؛ تمكينًا لمعنًى تشير إليه مادَّة الكلمة، وهو التباطُؤ والتكاسل؛ المؤسَّس على ما فيها مِن معنى تجزئة الشيء، فقد دلَّت صيغة الماضي على "أنَّهم لم يسمحوا به أكثر من مرَّةٍ؛ لما يدلُّ عليه مِن زيادة الخضوع والذُّلِّ"[1].

المنافقون مع ذلِّ نفاقهم يشعرون بالعزِّ والرفعة

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿جَهۡدَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: يصوِّر حقيقةً مِن حقائق المنافقين، وهي خلوُّ نفوسهم وقلوبهم مِن الإيمان، فبقدر خلوِّها منه يكونُ بذل ما في وسعهم في سبيل إثباته؛ لأنَّهم لا يُحِسُّون بشيء مِن الصِّدق، بل عندهم كمالُ إحساسٍ بكذبهم، وببغضهم للإيمان باللّه ورسوله؛ ولهذا عبَّر القرآنُ بما يصوِّر عظيم ما بذلوا مِن مشقَّة، فقد بذلوا بلسانِهم أقصى طاقتِهم وما في وسعهم؛ كي يُبرِّئوا أنفسهم ممَّا حكَم اللّه عليهم به، وهو قولُه: ﴿جَهۡدَ﴾، ومادَّتُه تدورُ على المشقَّة، والمشقَّةُ لا يصحبُها فعلٌ أو قولٌ ما في الوسع والإمكان، بل هي

ما أقبحَ المبالغةَ في الكذبِ والنفاقِ والكفرِ!

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 299.

تقتضي بذلَ ما فوق الطاقة، وما فوق السَّعة؛ ممَّا يَشُقُّ على الإنسان، فلو قيل: (طاقة أيمانهم)، أو (سعة أيمانهم)، ونحوُ ذلك؛ لَمَا كان ألصق وأبرَّ بحال هؤلاء المنافقين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدر:

أتعب المنافقون أنفسَهم من غير جدوى

لم يقل القرآن: (جاهدين أيمانهم)، بل عبَّر بالمصدر: ﴿جَهۡدَ﴾ الذي هو أقوى في الدَّلالة على معناه مِن غيره مِن المشتقّات، فقد تحقَّقوا بمعناهُ على أبلغ وجه وأتمِّه وأكملِه.

دلالةُ ذكرِ اليمين، وجمعِه:

بلغ المنافقونَ في شقشقةِ اللِّسان كلَّ مبلغٍ

صرَّح القرآنُ باليمين؛ ليدلَّ على إبلاغهم في الدِّفاع عن أنفسِهم باللِّسان وجمعه، فقال: ﴿أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ لينبِّهَ على هذا الإبلاغ في الدِّفاع عنهم، بتكرار الأيمان، وتتابُعِها متوافقةً ومتغايرةً، على ما يُفْهِمُهُ صيغةُ الجَمعِ.

دلالةُ الإضافةِ:

إنَّما جُعل اللِّسان على الفؤاد دليلًا

في إضافة الجَهْدِ إلى الأيمان، في قوله: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ تنبيهٌ على أنَّ صورة جَهْدَ أنفسِهم هي جهدُ الأيمان، وأنَّهم بالغوا في قولِها وتكرارها وتنوُّعها، فلم يقلِ القرآن: (وأقسموا باللّه جاهدين أنفسهم)، ولا: (جهدَ أنفسهم)، ولا: (جاهدين أيمانهم)، وإنَّما قال: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، وهو أبلغُ ممَّا سبق ذكرُه.

ثم إن كان قوله: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ حالًا مِن ضمير: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ على تأويل المصدر باسم الفاعل، أي: جاهدين: فالتَّقدير: جاهدين أنفسهم، أي: بالغين بها أقصى الطّاقة، وهذا على طريقة التَّجريدِ، ومعنى ذلك: أنَّهم كرَّروا الأيمان، وعدَّدوا عبارتها حتى أتعبوا أنفسهم؛ ليوهِموا أنَّهم صادقون في أيمانهم، وعلى هذا الوجهِ تكون الإضافةُ على معنى: (مِن)، أي: جهدًا ناشئًا مِن أيمانهم.

وإن كان منصوبًا على المفعول المطلق الواقع بدلًا مِن فعلِه،

والتقدير: جهدوا أيمانهم جهدًا، والفعلُ المقدَّر في موضع الحال مِن ضمير: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾، والتقدير: أقسموا يجهدون أيمانهم جهدًا، فالإضافةُ على هذا الوجه مِن إضافة المصدر إلى مفعوله، فقد جُعِلَت الأيمان كالشخص الذي له جهدٌ، على سبيل الاستعارةِ المكنيَّةِ، ورُمِز إلى المشبَّه بِه بما هو مِن روادفه، وهو أنَّ أحدًا يجهدُهُ، أي: يستخرجُ منه طاقته، فإنَّ كلَّ إعادةٍ لليمين هي كتكليف لليمين بعمل متكرِّر كالجهد له[1].

سرُّ الفصلِ:

أقسموا على السَّمع والطّاعة في المنشطِ والمكره، وطبيعتهم الكذب

فصلت جملة: ﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ﴾ عن سابقتِها لكمال الاتِّصال؛ لكونها مبيِّنة لجملة: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، والمعنى: واللّه لئن أمرتنا - يا محمد - بالخروج لنخرجنَّ مع المجاهدين كما طلبت منّا، ولئن أمرتنا بالجهاد؛ جاهدنا.

معنى اللام وإنْ:

الاجتهادُ في الكذب والمداراة من شيم المنافقين

اللام في قوله: ﴿لَئِنۡ﴾ موطِّئة للقسم؛ لأنَّها وطَّأت الجواب للقسم، أي: مهَّدته، وليست جوابًا للقسم، وإنَّما الجوابُ ما يأتي بعد الشَّرط[2]، و: (إن) شرطيَّة، فعلُها قوله: ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾، وجوابُها قولُه: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الأمر:

المبالغةُ في الكذب مِن سيما المنافقين

الأمرُ هو طلب الفعلِ على جهة الاستعلاء، ويدلُّ الأمر على الوجوب وعلى غيره بدلالة القرينةِ، وهو من الأعلى إلى الأدنى، وإن كان من الأدنى إلى الأعلى؛ فهو الدُّعاءُ، وإن كان من المساوي؛ فهو التماسٌ، والمرادُ بالأمر في قوله: ﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ﴾: الأمرُ المقابلُ للنَّهي، أي: أمرهم بالخروج للجهاد والقتال معه، وإنَّما عُبِّرَ بالأمر؛ تناسُبًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 277 - 278.
(2) الزركشي، البرهان: 4/ 338.

مع ذِكر حكومة رسول اللّه ﷺ في سياق السباق القريب: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾، والحاكمُ مِن شأنه الأمرُ والنَّهيُ، فيدخلُ في الأمر هنا كلُّ مأمور به، حقيرًا كان أو عظيمًا، وهذا يكشف عن مبالغتهم في تقرير كذبهم.

دلالةُ حذفِ متعلّق الأمر والخروج:

العمومُ مطيَّةُ المبالغة

أكَّد النَّظمُ القرآنيُّ دلالةَ التَّعبير بالأمر في قوله: ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾؛ بحذف متعلّقه للعموم، أي: لئن أمرتهم بأيِّ شيء، فحذْفُهُ للعموم هو الألصق بمادَّة: (أمر) في قوله: ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾، والإبلاغُ بالحذف نراه أيضًا في قوله: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾، أي: ليخرجنَّ على كلِّ حال، والضَّمير يعود على متعلِّق: ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾ المحذوف، وهذا مِن الحذف المؤسَّس على حذفٍ، فيدخلُ في المتعلِّق المحذوف معهما: الدور، والبلاد، والأموال، وكلُّ حال يكونون فيه وعليه.

معنى اللّامِ، وعلَّةُ التعبير بالخروج:

أنفسُهم أحبُّ إليهم من المال أفيجودون بها طاعة لله ورسوله؟

اللام في قوله: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ واقعةٌ في جواب القسم، والمعنى: "لأقسموا بطريقِ حكايةِ فعلِهم، لا حكايةِ قولِهم"[1]، وكان مِن الممكن أن يقول القرآن: ليفعلنَّ، أو: ليصنعنَّ، أو: ليعملنَّ، ونحوَ ذلك، ولكنَّه كشَف بدقَّة تعبيره: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ عن ادِّعاء هؤلاء المنافقين كمالَ الاستجابة للّه ورسوله، وكمالَ الإقبالِ بكلِّيَّاتهم على رسوله ﷺ فإنَّهم بمجرَّد أمرهم من قِبَلِه ﷺ يخرجون مِن الحال الذي يكونونَ فيه إلى حالٍ آخَر مغايرٍ له، والخروجُ على هذا مستعار للتَّرك التّام، والقرينة أنَّ الخروج الحسّيَّ الذي هو مقابل الدخول الحسّيِّ ضيّق المتعلّقات، لكنَّ التَّرك واسعُ المتعلِّقات، والمعنى: ليتركن ما هم مُتلبِّسون به كائنًا ما كان إلى ما يأمرهم به الرَّسول ﷺ وذلك أنَّهم

(1) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 188.

كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أينما كنتَ؛ نكنْ معك، إن خرجتَ؛ خرجنا، وإن أقمت؛ أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد؛ جاهدنا[1].

والمستعارُ أبلغُ مِن المستعار له؛ لأنَّه لا يكون إلّا حسّيًّا، والمستعار له يكون حسّيًّا ومعنويًّا، ففي المجاز تصويرٌ للمعنويِّ والمعقول بصورة الحسّيِّ، فترْكُ المنافقين لأمر معنويٍّ كتركهم لأمر حسّيٍّ، فهم يعالجون الترك، ويجتهدون في تنفيذه حقيقةً وأداءً؛ استجابةً للّه ورسوله كما يزعمون، ويدَّعون.

وكونُ الخروج في قوله: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ مجازًا، مؤسَّسٌ على كون متعلِّقه المحذوف عامًّا، وكونُ متعلِّقه المحذوف عامًّا مؤسَّسٌ على كون متعلق قوله: ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾ عامًّا، وكونُه عامًّا مُؤسَّسٌ على التعبير بمادَّة الفعل: ﴿أَمَرۡتَهُمۡ﴾، وكلُّ أولئك مطابقٌ لحال المنافقين، مِن الشَّطط والمبالغات التي لا تتناهَى.

علَّةُ التوكيدِ:

عـدمُ الانـفعالِ بالمعاني مِن شأن المنافقين

لكمال إحساس المنافقين بكذبهم وعدم وفائهم بشيءٍ مع كلِّ تلك المبالغات، التي دلَّت عليها تعبيرات القرآن مِن حيث مادَّتُها، وحذفُها وغيرُ ذلك؛ أكَّدوا ادِّعاءَهم الترك الحقيقي والخروج المجازي، في قوله: ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾، بنون التوكيد الثقيلة المشدَّدة المفتوحة، فهذا التَّوكيد صورةُ عدم انفعالهم بشيءٍ مِمَّا ذكروا، وإنَّما هو مجرَّد شقشقة لسان.

سرُّ الفصلِ:

هـذهِ الجملـةُ بـيـانٌ لـموقـف الحاكم البشري منهم

فُصِلت جملة: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾ عمّا سبقها؛ لشبه كمال الاتِّصال، والتقدير: فماذا كان ردُّه ﷺ أو: ماذا تفعل في اختبارهم؟ فأُمِرَ أن يجيبهم بقوله: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾، فجاء هذا ردًّا عليهم، وزجرًا لهم عن التَّفوُّه بها، وإظهارًا لعدم القبول؛ لكونهم كاذبين فيها: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾، أي: على ما يظهره كلامُكم من الطّاعة[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 277.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 277.

مقامُ رسول الله ﷺ رفيـع عند ربِّه

سرُّ ذِكر الأمر: ﴿قُل﴾:

كان مِن الممكن أن يقول القرآن: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾، بغياب الأمر: ﴿قُل﴾، لكن الرَّسول ﷺ له حضورٌ قويٌّ في الحديث عن المنافقين، فهو الحاكم الذي يُدْعَى المنافقون إلى الاحتكام إليه، وهو الذي تولَّى المنافقون، وأعرضوا عنه، فأجرَى اللّه على لسانه أمرَهُم بذلك: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾؛ تسليةً له ﷺ وتمكينًا لحكمه ﷺ فيهم وعليهم، فالحاكمُ خبيرٌ بالمحكوم عليه، ورفعًا له ﷺ عليهم، وقد أرادوا خفضه، بإعراضهم عنه.

ثمَّ في ذكره أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ حقيقة حال المنافقين لا تخفَى على المخلوق - وهو هنا أشرفُهم (ﷺ) - فهل تخفَى على خالقهِم؟ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك:14]، وفي كون المأمورِ الرسولَ ﷺ تنبيهٌ على أنَّ للمنافقين مِن الأحوال الخفيَّة ما لا يدركه إلّا هو ﷺ ولذلك كان حكَمًا بينهم وبين غيرهم.

بالغوا، وعمَّموا فـي الـقَـسَـم، فكان نهيهم عن القسم سخيًّا

الغرضُ من النَّهي:

قوله تعالى: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾ من الكلام ذي اللَّفظ القليل والمعنى الكثير؛ فإنَّه كَلامٌ موَجَّهٌ؛ لِأَنَّ نَهْيَهُم عَنْ أَنْ يُقْسِموا بَعْدَ أَنْ صَدَرَ القَسَمُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكونَ نَهْيًا عَنْ إِعادَتِهِ؛ لِأَنَّهُم كانوا بِصَدَدِ إِعادَتِهِ، بِمَعْنَى: لا حاجَةَ بِكُم إِلَى تَأْكيدِ القَسَمِ، أَيْ: فإِنَّ التَّأْكيدَ بِمَنْزِلَةِ المُؤَكَّدِ في كَوْنِهِ كَذِبًا، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ النَّهْيُ مُسْتَعْمَلًا في مَعْنَى عَدَمِ المُطالَبَةِ بِالقَسَمِ، أَيْ: ما كانَ لَكُم أَنْ تُقْسِموا؛ إِذْ لا حاجَةَ إِلَى القَسَمِ؛ لِعَدَمِ الشَّكِّ في أَمرِكُم، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ النَّهْيُ مُسْتَعْمَلًا في التَّسْوِيَة، مثل: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطّور:16]، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ النَّهْيُ مُسْتَعْمَلًا في حَقيقَتِهِ، والمُقْسَمُ عليه مَحْذوفٌ، أَيْ: لا تُقْسِموا على الخُروجِ مِنْ دِيارِكُم وأَموالِكُم، فإِنَّ اللّه لا يُكَلِّفُكُم

بِذَلِكَ، ومَقامُ مواجهَة نفاقِهم بالكشف والتَّصحيح يَقْتَضي أَنْ تَكونَ هَذِهِ الاِحْتِمالاتُ مَقْصودَةً[1].

سرُّ الفصلِ:

إنَّـمـا تـظـهـر الـحـقـائـق بالمواجهة

فُصِلت جملة: ﴿طَاعَةٌ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ عمَّا قبلها؛ لأنها واقعة تعليلًا لما قبلها على جهة الاستئناف البياني، فهي جوابٌ عن السؤال عن علَّة النَّهي في قوله: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾.

علَّةُ اختصاص الطاعةِ بالذِّكْرِ:

الطّاعة مظهرُ الإيمان

خُصَّتِ الطاعة بالذِّكْر؛ لأنَّها مجلى الإيمان على ألسنتهم هم، فقد قالوا من قبل: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾، فالطاعةُ صورةُ هذا الإيمان الكامل، فعُبِّر بها؛ ليرجع عجُز الكلام إلى صدره.

دلالةُ تنكيرِ الطاعةِ:

كـلُّ طـاعـةٍ لـلـمـنـافـقـين معروفة

لَمَّا أطلقوا الطاعة في قولهم: ﴿وَأَطَعۡنَا﴾، فحذفوا المفعول، وهو اللّه ورسوله، وكان ظاهرُ الكلام عموم متعلِّق الطاعة، أي: في كلِّ شيء، كالعموم الذي في قوله: ﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾؛ نكَّر الطاعة هنا، فقال: ﴿طَاعَةٌ﴾؛ لأنَّ المقصود به نوعُ الطاعة، وليست طاعةً معيَّنةً، فهو من باب: تمرةٌ خيرٌ مِن جرادةٍ[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾:

في الأمر بـ (قل) بـذرةُ وصـفِ طاعتهم بأنَّها معروفةٌ

قد تأسَّس على النَّهي عن القَسَم على أيِّ توجيهٍ له مِن المعنى: وصفُ الطاعة بأنَّها معروفةٌ، ومِن العجيب أنَّ القرآن الحكيم قد واجه نفاق المنافقين ومبالغاتهم التي يتركَّبُ بعضُها فوق بعض بجملة موجزة جدًّا، فهدَم كلَّ ادعاءاتهم بكلمة: ﴿مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾، أي: لا تحتاج إلى أن تخفوها، فضلًا عن أن تحتشدوا لذلك بتلك المبالغات التي شقَّت عليكم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 287.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 279.

وفي الوصف بها أيضًا إشارةٌ إلى أنَّه مِن الممكن أن يتمكَّن مِن معرفة طاعتهم مَن يريد ذلك، وأيضًا تأسَّسَ التَّعبيرُ بـ: ﴿مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ على كون طاعتهم طاعةً نفاقيَّةً مذمومةً، فكونُها كذلك معروف مشهور لكلِّ أحدٍ[1].

إيجاز القصر ووجهُه:

هـدمُ الطاعةِ هـدمٌ للإيمان؛ لأنَّهـا صـورة الإيمان

هذه الجملةُ كلامٌ أُرْسِل مثَلًا، وتحته معانٍ جمَّةٌ، تختلف باختلاف الاحتمالات المتقدِّمة في النهي في قوله: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾؛ وهي مبنيَّة على أن قوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير - مثلًا -: طاعتكم طاعة معروفة، على سبيل ذمِّ طاعتهم النفاقيَّة، أي: لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة؛ لأنَّ طاعتكم طاعةٌ نفاقية واقعة باللِّسان فقط مِن غير مواطأةٍ مِن القلب.

فعلى احتمال أن يكونَ النَّهي عن القسَم مستعملًا في النَّهي عن تكريرِه يكونُ المعنى مِن قبيل التَّهكُّم، أي: لا حُرْمة للقسَم، فلا تُعيدوه؛ فطاعتكم معروفة، أي: معروف وهَنُها وانتفاؤُها.

وعلى احتمال استعمال النَّهي في عدم المطالبة باليمين يكون المعنى: لماذا تُقسمون؟ أَفَأَنا أشكُّ في حالكم؟ فإنَّ طاعتكم معروفةٌ عندي، أي: أعرف عدم وقوعها، والكلامُ تهكُّمٌ أيضًا.

وعلى احتمال استعمال النَّهي في التسوية، فالمعنى: قسَمُكم ونفيُه سواءٌ؛ لأنَّ أيمانكم فاجرةٌ، وطاعتكم معروفة.

وإن كان النَّهيُ مستعملًا في حقيقته؛ فالمعنى: لا تُقسموا هذا القَسَم، أي: على الخروج مِن ديارِكم وأموالِكم؛ لأنَّ اللّٰه لا يُكلِّفُكم الطاعةَ إلّا في معروف، فيكونُ وصف: ﴿مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ مشتقًّا من العرفان، أي: عدم النُّكران، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ [الممتحنة:12].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 132.

وحملُ الطاعة في هذه الجملة على الطاعة الحقيقية، بتقدير ما يناسبها مِن مبتدأ أو خبر على قراءة الرفع المتواترة، أو فعلٍ على قراءة النصب غير المتواترة، نحو: الذي يُطلَبُ منكم طاعةٌ معروفةٌ حقيقيَّةٌ، لا نفاقيَّةٌ، أو طاعةٌ معروفةٌ أمثَلُ، أو: ليكن طاعةً معروفةً، أو أطيعوا طاعةً معروفةً: مِمَّا لا يُساعِدُ عليه المقامُ[1].

دلالةُ حذفِ المبتدأِ:

مِـثْـلُ طـاعـةِ المنافقين مردودةٌ على أهْلِها

حُذِفَ المبتدأُ في قوله: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ - أي: طاعتكم طاعة معروفة - دلالةً على كمال احتقارِه وضعفِه وبطلانه؛ لأنَّ أصلَ تلك المعاني المقدَّرة حاصلٌ بالمعنى الظاهر للجملة وسياقها.

سرُّ الفصلِ:

هـذه الجـملـةُ تُحقِّق معنَى ما قبلَها، وتُضيف إليه جديدًا مِن حَتْميَّة الجزاءِ

فُصِلَت جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عمَّا قبلها مِن مجموع الآية الذي هو كشفٌ وفضح لنيات المنافقين وخفاياهم؛ لأنَّها تعليلٌ له، على سبيل الاستئنافِ البيانيِّ، على تقدير أنَّ أحدًا سأل عن علَّة فضيحتِهم وكشف حقيقة أمرهم، أو عمَّن قدر - ويقدر - على بيانِ حالِهم ذلك البيان، فكان الجواب أن يعلموا أنَّ اللّه خبيرٌ بما يعملون مِن الأعمال الظاهرة والباطنة؛ لعلَّهم يراجعون أنفسَهم، فيرجعون عمَّا هم فيه.

ومعنى هذه الجملة لازم لمعنى قوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾، ولمعنى قوله: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾، وكلٌّ منهما يُنْتِجه، فكانت هذه الفاصلة مؤكِّدةً لما قبلها، فغابت الواوُ مِن قبلها؛ لما بينهما مِن كمال الاتِّصال.

غرضُ التَّوكيدِ بأكثرَ مِن مؤكِّدٍ متنوِّعٍ:

تـوكـيـدُ الـكـلامِ بقدر مبالغتهم فـي الـكـذب والادِّعاء

مِن أجلِ ما ارتكبَهُ المنافقون مِن مبالغاتٍ في تغطية مخالفاتهم الظاهرة، مِن الأكاذيب المحقَّقة بالأيمان الفاجرة وغيرها، والباطنة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 132، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 279.

مِمَّا يُضْمِرونه في قلوبهم من الكفر والنِّفاق والعزيمة القويَّة على مُخادعة المؤمنين؛ نزَّلَهُم القرآنُ منزلةَ مَن ينكر مضمون الخبرِ جملةً وتفصيلًا، فأكَّدَه لهم؛ ليقرِّره في نفوسهم بقوَّة، وليلفتهم إلى عظيم قيمته بالنِّسبة لهم، وذلك بحرف التوكيد والنَّصب: ﴿إِنَّ﴾، وباسميَّةِ الجملةِ، وبالتعبير باسم الجلالة: ﴿ٱللَّهَ﴾ المسيطر على الأسماء كلِّها، فهو الاسم الجامعُ لجميع الأسماءِ والصفات، ما علمنا منها، وما لم نعلم؛ لأنَّ كمالاته تعالى لا تتناهَى، فعُبِّر به؛ ليلفت إلى معنى إحاطته بكلِّ شيءٍ علمًا وقدرة؛ لأنَّ العلم ينشأ عنه الحساب، ولأنَّ القدرة ينشأ عنها المجازاةُ، وبمعنى: ﴿خَبِيرٌ﴾ دون: (عليم)؛ لأنَّه مأخوذٌ مِن: خبرتُ الشَّيءَ؛ إذا عرفتَ حقيقةَ خبرِهِ، فالتَّعبير بـ: ﴿خَبِيرٌ﴾ فيه معنى العلم وزيادة، ففيه قوَّةٌ ومبالغة في الوصف، وهذا يناسب المعنى المراد من أنَّ الله تعالى خبيرٌ بمثل نيات المنافقين، وبما طويَت عليه نفوسُهم، وبصيغة فعيل في قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾، التي تصوِّر قوَّة معنى الكلمة، فالإحاطة بجميع أحوالهم ليس فوقها إحاطةٌ.

معنى (ما)، ودلالة التعبير بها:

سبحان مَن لا تخفَى عليه خافية!

(ما) في قوله: ﴿خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: اسمٌ موصول بمعنى الذي، يستوي فيه التَّذكير والتَّأنيث، والإفرادُ والتَّثنية والجمع، وهو اسمٌ مبهمٌ في غاية الإبهام؛ حتّى إنَّه يقع على المعدوم، ويقع على مَن يعقل عند اختلاطهِ بما لا يعقل تغليبًا، ويأتي لأنواع مَن يعقل، وصلته تزيل إبهامه.

وفي إبهامهِ مع مدِّ الألف، فيه تصويرٌ لعموم ما يأتيه المنافقون مِن أعمال، فيكون متناغيًا بقوَّة مع صيغة: ﴿خَبِيرٌ﴾، والإبهام في: (ما) يرشِّح على صلته: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، وهذا ألصقُ بأحوال المنافقين، والمعنى: إنَّ الله خبير بالذي تعملونه، فيجازيكم عليه، وصلةُ الموصول في محلِّ جرٍّ متعلِّقة بقوله: ﴿خَبِيرٌ﴾.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ العمل مادةً وصيغةً:

في اللّفت إلى عموم الأعمال والأحوال كمالُ ترهيبٍ

عُبِّرَ بالعمل في قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ إشارةً إلى كلِّ قول وفعل يكون منهم؛ تناسُبًا مع مقام الإبلاغ في ترهيب المنافقين، ومع اسم الجلالة، وصيغة: ﴿خَبِيرُۢ﴾، ولفظ: (ما)؛ إذ العمل هو إيجاد الأثرِ في الشَّيء، يقال: فلان يعمل الطّينَ خزفًا، ويعمل الخوصَ زنبيلًا، والأديم سقاء، ولا يقال: يفعل ذلك؛ لأنَّ فعل ذلك الشَّيء هو إيجاده عن سبب، وقد يُلاحظُ فيه الاحتذاء على مِثال سابق، وقال اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: 96]، أي: خلقكم، وخلق ما تؤثرون فيه بنحتكم إيّاه، أو صوغكم له، ولا يقال: (تصنعون)؛ لأنَّ الصُّنع ترتيبُ العمل وإحكامه على ما تقدَّم علم به، وبما يوصل إلى المراد منه، ولم يقل: (تجعلون)؛ لأنَّ الجعلَ تغييرُ صورة الشَّيء بإيجاد الأثر فيه، وبغير ذلك"[1]، فصار التَّعبيرُ بالعمل أشملَ وأدقَّ من غيره، ويحقِّقُهُ نظمُه مضارعًا؛ فعمومُ العمل وكثرتُه تقتضي التجدُّد والاستمرار.

دلالةُ حذفِ المفعول:

عِلمُ اللّه هو العلم الشامل

يؤكِّدُ دلالةَ التَّعبيرِ بالعمل مادةً وصيغةً حذْفُ متعلّق الفعل: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ على تنزيل المتعدي منزلة اللازم؛ تنبيهًا على أنَّ الغرض مجرَّدُ إثبات الفعل لفاعله؛ دون نظر إلى مفعول، أو على أنَّ الحذفَ للعموم، وفي الحذف إبلاغٌ في إثبات معنى الجملة، فلكمال علمِه به لا يحتاج إلى ذكره في الكلام.

بلاغةُ الكناية:

لا تخلو جملةٌ قرآنيَّةٌ مِن ترغيب وترهيب

في سياق مواجهة المنافقين، وفضْحِ نفاقِهم، وتهديدهم على ذلك؛ يأتي وعيدُهم بأنَّه تعالى يجازيهم على جميع أعمالِهم السيِّئة التي منها نفاقهم، فيكنّي القرآن عن ذلك بمضمون قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ إذ هذه المجازاةُ تلزم من كونه سبحانه خبيرًا بما

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 140، 141.

يجدِّدون مِن أعمال، وفي أسلوب المكنّى به دليلٌ على حصول المكنّى عنه - لا محالةَ - مِن اسم الجلالة: ﴿ٱللَّهَ﴾ الدال على الألوهيَّة الحقَّة العادلة التي ما خلقت شيئًا عبثًا، ومِن معنى: ﴿خَبِيرٌ﴾.

دلالةُ جريانِ معنى الجملةِ على نسقِ الخطابِ:

سبحان من يرغب ويرهب في وقت واحد!

جرى معنى الجملة على جهة خطاب المنافقين، بأن قيل: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ دون: (يعملون)؛ وفي هذا بثُّ روح التهديد والترهيب فيهم مِن جهةٍ؛ إذ يواجههم سبحانه بأنَّه محيطٌ بأعمالهم، وأنَّه سيجازيهم عليها، وروح التَّرغيب والوعد بالقَبولِ؛ إن رجعوا؛ لأنَّ في الخطاب بالإقبال عليهم إحسانًا إليهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القسم والحلف:

القسمُ أبلغُ من الحلف

تدور مادَّةُ القسم على أصلين: على جمال وحُسْنٍ، وعلى تجزئة شيء، والحلفُ تدور مادَّته على أصلٍ واحد: وهو الملازمة، ففُرِّق بينهما بأنَّ القسم أبلغ من الحلف؛ لأنَّ معنى قولنا: (أقسم باللّه): أنَّه صار ذا قسم باللّه، والقسم النَّصيب، والمراد أنَّ الذي أقسم عليه من المال وغيره قد أحرزه، ودفع عنه الخصم باللّه، وأنَّ الحلف من قولك: (سيف حليف)، أي: قاطع ماضٍ، فإذا قلت: (حلف باللّه)؛ فكأنَّك قلتَ: قطعَ المخاصمة باللّه، فالأوَّل أبلغُ؛ لأنَّهُ يتضمَّن معنى الآخر، مع دفع الخصم، ففيه معنيان، وقولنا: (حلف) يفيد معنًى واحدًا: وهو قطعُ المخاصمة فقط، وذلك أنَّ من أحرز الشَّيء باستحقاقٍ في الظاهر؛ فلا خصومةَ بينَهُ وبين أحدٍ فيه، وليس كلُّ من دفع الخصومةَ في الشَّيء؛ فقد أحرزَهُ، واليمين اسمٌ للقسم مستعارٌ، وذلك أنَّهم كانوا إذا تقاسموا على شيء؛ تصافقوا بأيمانهم، ثم كَثُرَ ذلك حتى سُمّي القسم يمينًا[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم)، وأبو هلال العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 429، والراغب، المفردات: (قسم).

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾ [النّور: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دعوةُ المنافقينَ المتقاعسين إلى طاعة اللهِ، بعدَ كَشْفِ ادِّعائِهم الكاذِبِ

لمّا بكَّتَ ﷺ المنافقينَ في قولِه: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣﴾ [النّور: 53]، وأخبرَ بأنَّهُ مُطَّلِعٌ على سرائرِهم؛ تلطَّفَ بهِم، فأمرَهم بطاعةِ اللهِ والرَّسولِ[1].

وقيلَ: لمّا نبَّهَ تعالى على خِداعِهم؛ أشارَ إلى عدم الاغترارِ بإيمانهم، وأمرَ بترغيبِهم وترهيبِهم، فقالَ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾[2].

وقيلَ: الآيةُ تلقينٌ آخرُ للرَّسولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بما يردُّ بُهْتانَهم بقلَّةِ الاكتراثِ بمواعيدِهم الكاذبةِ، وأنْ يَقتصِروا منَ الطّاعةِ على طاعةِ اللهِ ورسولِهِ فيما كلَّفَهم، دونَ ما تبرَّعوا بهِ كَذِبًا[3]، ففي طاعة اللهِ تعالى واتِّباع رسولهِ الهدايةُ الرّاشدة، والسَّبيلُ الأقوم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: (ولي) أصل يدلّ على القُرْب، يقالُ: تباعدَ بعدَ ولْيٍ، أي: بعدَ قُرْبٍ، وجلسَ ممّا يَليني، أي: ممّا يُقارِبُني[4]، ومِنْ ذلكَ: المَوْلَى، ولهُ معانٍ، منها: المُعتِقُ، والمُعتَقُ، والصّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العَمِّ، والنّاصرُ، والجارُ، وكلُّ مَنْ وليَ أمرَ آخرَ؛ فهو وليُّهُ[5]، ويقالُ: ولَّى، وتولَّى هاربًا توليةً؛ إذا أدبرَ، وذهبَ، ويقالُ: ولَّى عنهُ؛ إذا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 64.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 301.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 279.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (ولي).

أعرضَ، أو نأى، وكذلكَ: تولَّى عنهُ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [يوسف: 84][1]، ويُقال: ولَّيْتُ، وتولَّيْتُ، وقيل: موَلّيها، أَي: متوليّها ومتَّبعها وراضيها، وقالَ أَبو معاذ النَّحْويُّ: التَّولّي يكون بِمَعْنى الإِعْراض، قالَ تَعالَى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: 38]، أَي: تُعرضوا عَنِ الإِسْلام[2]، وهو المعنى المراد في الآية.

2) ﴿حُمِّلَ﴾: (حمل) أصل يدلّ على إقلال الشَّيءِ[3]، يقالُ: حَمَلْتُ الشَّيءَ أَحْمِلُهُ حَملًا[4]، ويُستعمَلُ الحملُ في الأثقالِ المحمولةِ في الظّاهرِ، كالشَّيءِ المحمولِ على الظَّهرِ، وفي الأثقالِ المحمولةِ في الباطنِ، كالولدِ في البَطْنِ، والماءِ في السَّحاب، والثَّمرةِ في الشَّجرةِ؛ تشبيهًا بحَملِ المرأةِ، قال ابن السِّكّيت: الحملُ ما كان في بطن أو على رأس شجرةٍ، والحِمل بالكسر: ما كان على ظهر أو رأس، يقال: امرأةٌ حامِل وحاملة؛ إذا كانت حُبلى[5]، وقولُهُ عزَّ شأنُهُ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: 5]، معناهُ: كُلِّفوا أَنْ يتحمَّلوها، أي: يَقوموا بحقِّها، فلم يَحْملوها[6]، وقولُهُ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾، أي: البَلاغُ، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، أي: الإيمانُ بِهِ وبما جاءَ بِهِ[7].

3) ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: (بلغ) أصل يدلّ على الوصول إلى الشَّيءِ[8]، فالبُلوغُ: الانتهاءُ إلى أقصى المَقْصِدِ والمُنتهَى، مكانًا كانَ أو زمانًا، أو أمرًا مِنَ الأمورِ المُقدَّرة، وربَّما يُعبَّرُ به عن المُشارَفةِ عليه، وإنْ لم يُنْتَهَ إليه، فمنَ الانتهاءِ قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: 15]، ومِنَ المُشارَفةِ قولُهُ ﷻ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطَّلاق: 2]، فإنَّها إذا بلغَتْ أقصى الأَجَلِ؛ لا يصحُّ للزَّوجِ مراجعتُها وإمساكُها[9]، ويقالُ: بلغَ زيدٌ مُرادَهُ؛ إذا وصلَ إلى ما يريدُ[10]، وبلغَ المكانَ بُلوغًا؛ إذا وصلَ إليهِ، وانتهَى[11]، والبلاغُ بمعنى

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (ولي).
(2) محمّد بن فتوح، تفسير غريب ما في الصّحيحين، ص: 177.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جبل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (حمل).
(6) الرّاغب، المفردات: (حمل).
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حمل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(9) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(10) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بلغ).
(11) الزّبيديّ، تاج العروس: (بلغ).

التَّبليغِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[1]، والإبلاغ: الإيصال، وكذلك التَّبليغ، والاسم منه البلاغ[2]، وفي التَّنزيل: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ [الجنّ: 23]، أي: لا أجد منجًى إلّا أن أبلِّغَ عن اللّه ما أرسلت به[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

وجوبُ طاعةِ اللهِ ورسولِه، الَّذي عليه البلاغ، وعليكم الاهتداء والطّاعة

يقولُ تعالى ذكرُهُ: قلْ - يا محمَّدُ - لهؤلاءِ المنافقينَ وغيرِهم: أَطيعوا اللّهَ - أيُّها القومُ - فيما أمرَكم به، ونهاكم عنهُ، وأَطيعوا الرَّسولَ، فإنْ تُعْرِضوا، وتُدْبِروا عمّا أمرَكم به رسولُ اللّهِ ﷺ، أو نهاكم عنهُ، فإنَّما عليهِ فعلُ ما أُمِرَ بفعلِهِ مِنْ تبليغِ رسالةِ اللّهِ إليكُم، وعليكُم أنْ تفعَلوا ما ألزمَكم، وأوجبَ عليكُم، مِن اتِّباعِ رسولِهِ ﷺ، وإنْ تُطيعوهُ؛ تَرْشُدوا، وتُصيبوا الحقَّ في أمورِكم، ولا يجبُ على الرَّسولِ إلّا أنْ يُبلِّغَ الرِّسالةَ بلاغًا وافيًا[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

غايةُ استقلالِ الكلامِ تأكيدُ ما له مِنَ الدَّلالة والاهتمام

جاءَ قبلَ هذهِ الآيةِ قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٥٣﴾ [النّور:53]، وكانَ الظّاهرُ أنْ يقالَ: (قُلْ لا تُقْسِموا طاعةٌ معروفةٌ، إنَّ اللّهَ خبيرٌ بما تعملونَ، وأَطيعوا اللّهَ، وأَطيعوا الرَّسولَ) بالعطفِ بينَ الجملتينِ، لكنْ عُدِلَ عنِ الوصلِ إلى الفصلِ، وأُعيدَ الأمرُ بالقولِ، فقيلَ: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٥٣ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ [النّور: 53 - 54]؛ للاهتمامِ بهذا القولِ بوقوعِهِ كلامًا مفصولًا مُستقلًّا غيرَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 250، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 281.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بلغ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بلغ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 207.

معطوفٍ[1]، ولو عُطِفَ على ما قبلَهُ؛ فقد يُظَنُّ أنَّهُ تابعٌ لهُ، وليسَ مقصودًا لذاتِهِ.

تعيينُ المُخاطَبِ بقولِه: ﴿قُلۡ﴾:

تميُّزُ المُخاطَبِ الرَّسولِ إشارةٌ إلى أهميَّة المَقولِ

المأمورُ بالقولِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾، هو النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّهُ هو المُكلَّفُ بتبليغِ الشَّرعِ، والمعنى: قُلْ - يا محمَّدُ - لهؤلاءِ المُقْسِمينَ باللهِ جَهْدَ أيمانِهم وغيرِهم: أَطيعوا اللهَ، وأَطيعوا الرَّسولَ[2]، وفي تكليف الرَّسول بالقول - بصيغة الخطاب المباشر ﴿قُلۡ﴾ - تأكيدٌ لأهميَّة الأوامر المُسنَدة إلى الرَّسول ﷺ، والإلماحُ إلى أنَّ المنهج موحًى به، وأنَّ دورَ الرَّسول المخاطَب بالأمر إنَّما هو البلاغُ عنِ اللهِ ﷻ.

غرضُ الأمرِ في قولِه: ﴿قُلۡ﴾:

إفادةُ الأمرِ الوجوبَ، ملْمَحٌ لإبرازِ المضمونِ المطلوب

الظّاهرُ أنَّ الأمرَ في قولِهِ ﷻ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ في صيغةِ الأمرِ، ولا صارفَ عنهُ هنا، فيُفيدُ الكلامُ وجوبَ أنْ يُبلِّغَ النَّبيُّ ﷺ الكلامَ المذكورَ، وذلك جزءٌ مِنَ الأوامرِ الَّتي أُنيطت بكاهلِه، وائتُمِنَ على بلاغها للمُخاطَبين، وهي لا تنفكُّ عن مسؤوليَّة البلاغ الَّتي لا يتأخَّر النَّبيُّ في بلاغها لمن آلفَ ومَن خالف، وبها تُخلَى ذِمَّتُه من أمانة الأمر بالبلاغ.

علَّةُ تكرارِ الأمرِ بالقولِ:

إبرازُ كمالِ الاعتناءِ بالمَقولِ مِن بليغ البيان بالقولِ

كُرِّرَ الأمرُ بالقولِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾، بعدَ تقدُّمِه في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣﴾ [النور: 53]؛ لإبرازِ كمالِ العنايةِ بهِ، والإشعارِ باختلافِهما مِنْ حيثُ إنَّ المَقولَ في الأوَّلِ نهيٌ بطريقِ الرَّدِّ والتَّقريعِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 280.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 207، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5218.

[المؤمنون: 108]، وفي الثّاني أمرٌ بطريقِ التَّكليفِ والتَّشريع[1]، وقيلَ: هذا التَّكريرُ منهُ تعالى؛ لتأكيدِ وجوبِ الطّاعةِ عليهم، فإنَّ قولَهُ سبحانَهُ: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ [النور: 53] في حُكمِ الأمرِ بالطّاعة[2].

دلالة تعيين المُخاطَبِ المأمورِ بالطّاعةِ:

الخطابُ للمنافقينَ وغيرِهم ممّن ضاهاهم ولفَّ لفَّهم

المُخاطَبُ بقولِهِ ﷻ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ المنافقونَ وغيرُهم مِنَ الكفّارِ، وكلِّ مُعرِضٍ عنِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ[3]، والطّاعة وحدَها هي الّتي تكشف ما يختفي من نيّات، وما يظهر من أمورٍ، قد تَبيّن في لحن القول، والمنافقون يُعْرَفون في لحن أقوالهم، كما قال: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمّد: 30][4].

غرضُ الأمرِ في قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾:

أصلُ الأمرِ للوجوب، وبسياقِهِ يتحقَّق المطلوب

لمّا كانَ السّياقُ لتقريعِ المُنافقينَ وأضرابِهِم، وحثِّهم على إخلاصِ الطّاعةِ للّهِ ورسولِهِ؛ دلَّ ذلكَ على أنَّ الأمرَ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ للوجوبِ، كما هو الأصلُ في صيغةِ الأمرِ، ولا صارفَ عنهُ هنا، ويُؤيِّدُهُ تعقيبُ الأمرِ بالتَّهديدِ، في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾، فإنَّ التَّهديدَ إنَّما يكونُ على تركِ أمرٍ واجبٍ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ الأُلوهيَّةِ: ﴿ٱللَّهَ﴾:

الإشارةُ إلى علَّةِ وجوبِ الطّاعةِ، بإسنادها للآمرِ بالطّاعة

قولُهُ ﷻ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾، أمرٌ بتبليغِ ما خاطبَهمُ اللّهُ بهِ على الحكاية[5]، والتَّقديرُ: قُل لهُم - يا محمَّدُ - قالَ اللّهُ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾، ولم يقلْ: (أطيعوني)، بل عُدِلَ إلى الإظهارِ، وعُبِّرَ عن ذاتِهِ المُقدَّسةِ سبحانَهُ بلفظِ الغَيبةِ؛

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 391.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 54.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 192.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5218.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 112.

إيماءً إلى عِلَّةِ وجوبِ طاعتِهِ عليهم[1]، كأنَّهُ يقولُ: أَطيعوني؛ لأنَّني اللّٰهُ الَّذي لهُ الكمالُ المُطلَقُ[2]، ولهُ الأمرُ والنَّهيُ والقُدرةُ الباهرةُ، والَّذي لا يَفوتُهُ مَنْ يُخالِفُهُ، ويَعصي أوامرَهُ، وهي دعوةٌ صُراحٌ إلى المنافقين الَّذين غلبت عليهم شقوتهم، أن يخرجوا من وُحولِ النِّفاق، ومخاطرِ الانزلاق، إلى الاستقامة على الجادَّة، والالتزام بنهج المؤمنين، وذلك بطاعة اللّٰه ورسوله، وامتثالِ مأموره على لسان نبيِّه الأكرم، وكتابِه الأعظم، ففي فِعْل ذلك الرَّشادُ المُنجي في المَعاد، وفي التَّولّي والمُناكفة يتمحَّض دورُ الرَّسول للبلاغ؛ اقتصارًا على مهمَّته المَنوطة به[3].

سِرُّ ذِكرِ لفظِ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ معَ ﴿ٱللَّهَ﴾ في السّياق:

تلازمُ طاعةِ اللهِ وطاعةِ الرَّسولِ، مقصدٌ جاءت به صحاحُ النُّقول

ذِكْرُ الرَّسولِ ﷺ معَ اللّٰهِ، في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، معَ أنَّ طاعةَ اللّٰهِ تتضمَّنُ إطاعةَ رسولِهِ؛ للإشارةِ إلى التَّلازمِ بينَهما، وإلى أنَّ طاعةَ الرَّسولِ واجبةٌ على الأُمَّةِ؛ لكيلا يتهاونَ اليهودُ والمنافقونَ بإجابةِ الرَّسولِ، زاعمينَ في نُفوسِهم الفاسدةِ الفصلَ بينَ طاعةِ اللّٰهِ وطاعةِ رسولِهِ[4]، وقيلَ في توجيهِ هذا العطفِ مِنْ ناحيةِ الصِّناعةِ النَّحويَّة: عُطِفَ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، معَ أنَّ إطاعةَ الرَّسولِ إطاعةُ اللّٰهِ في الوجودِ الخارجيِّ، كما قالَ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: 80]؛ لكونِهِ غيرَهُ بحسَبِ المفهوم، وهذه الغيريَّةُ كافيةٌ لصحَّةِ العطفِ[5].

نُكْتَةُ إعادةِ الأمرِ بالطّاعةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾:

طاعةُ الرَّسولِ واجبةٌ بنصِّ البيانِ القرآنيِّ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (قُلْ أَطيعوا اللّٰهَ والرَّسولَ)، لكنْ كُرِّرَ الأمرُ بالطّاعةِ، فقال تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾؛ لتأكيدِ

(1) زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 6/ 247.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 302.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1313 (بتصرّف).
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5218.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 433.

وجوبِ طاعةِ الرَّسولِ ﷺ وزيادةِ الحثِّ عليها[1]؛ لأنَّ في تكرارِ الفعلِ إشارةً إلى أنَّها طاعةٌ مُستقلَّةٌ مِنْ حيثُ الصّورةُ اللَّفظيَّةُ، وذلكَ يستوجبُ مزيدَ الاعتناءِ بها، خصوصًا أنَّ السُّنَّةَ قد تزيدُ حُكْمًا غيرَ موجودٍ في القرآنِ، ففي إفرادِ الرَّسولِ بالأمرِ بالطّاعةِ مزيدُ حَثٍّ على اتِّباعِهِ في هذهِ الأحكام، ومَنْعٌ لِمَنْ تُسَوِّلُ لهُ نفسُهُ الاقتصارَ على القرآنِ، والإعراضَ عنِ السُّنَّة؛ ذلك أنَّ القرآن ليس كتابَ أحكامٍ فقط، كما هو حالُ الكُتبِ السّابقة، إنَّما هو كتابٌ جامعٌ بينَ التَّشريعِ والإعجاز، والأصل فيه أنَّه مُعْجزة اللّهِ الخالدة، الَّتي خوطِب بها البشرُ، وتحدّاهمُ اللّهُ أن يأتوا بمثلها، ولذلك أدخل فيها بعضَ الأصولِ والأحكام، فأبانه بالإجمال والتَّفصيل، وترك البعضَ الآخرَ لبيان القدوةِ الرَّسولِ، وتوضيحِه في الحديث المنقول، وبذلك فقد جَعَل للنَّبيِّ ﷺ حقًّا في التَّشريع بنصِّ القرآن المُحْكَم الفصيح، ممّا تُبَيِّنُه الآيةُ الكريمة: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: 7][2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطّاعة عُنوانًا للرِّسالةِ:

الـحـثُّ عـلى الطّاعةِ مسلكٌ لبناء المجتمع

ذِكْرُ عُنوانِ الرِّسالةِ، في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾؛ للحثِّ على الطّاعةِ، فإنَّ مُقتضَى الرِّسالةِ منهُ وجوبُ الإطاعةِ[3]، كأنَّهُ قيلَ: وأَطيعوهُ؛ لأنَّهُ رسولٌ مِنَ اللّهِ ﷺ، وإنَّما يأتي بما يأتي بهِ بوَحْيٍ مِنَ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ، ولا يأتي بشيْءٍ مِنْ تِلْقاءِ نفسِه.

معنى (أل) في ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ الأكرم الأكمل:

لم يُفَوَّض أحدٌ في التَّشريع، إلّا النَّبيُّ الخاتمُ الشَّفيع

(أل) في ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بالرَّسولِ نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، والمعنى: (قلْ

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 54، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 391.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 1031.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 395، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 391.

أَطيعوا اللّهَ، وأَطيعوا رسولَهُ محمَّدًا ﷺ، في امتثالِ ما أمرا بهِ، واجتنابِ ما نَهَيا عنهُ)، وقد ألمَحَ الشَّعراويُّ لإشارة هذه الآية، إلى بيانِ الفَرْقِ بين تشريع اللّه تعالى وتشريع رسوله، فقال: "في المسائل الَّتي لم يَرِدْ فيها تشريعٌ ونَصٌّ، فالرَّسولُ في هذه الحالة هو المُشَرِّع، وهذه من مميّزات النَّبيُّ ﷺ عن جميع الرُّسل، فقد جاؤوا جميعًا لاستقبال التَّشريع وتبليغه للنّاس، وكان ﷺ، هو الوحيد الَّذي فوِّض منَ اللّه في التَّشريع"[1].

دلالةُ الطّاعةِ المأمورِ بها في سياق الآية:

طاعةُ المنافقين المزعومة، ليسَتْ مِنَ الطّاعةِ المعلومةِ

إطلاقُ الطّاعةِ المأمورِ بها، في قولِ الحقِّ تبارك شأنُهُ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾، عن وصفِ الصِّحَّةِ والإخلاص ونحوهما، بعدَ وصفِ طاعتِهم، بقولِهِ تعالى فيما سبقَ: ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ [النور: 53]؛ للتَّنبيهِ على أنَّ طاعتَهم المذكورةَ فيما مضَى، ليسَتْ مِنَ الطّاعةِ في شيءٍ أصلًا[2]؛ ولذلكَ أُمروا بإحداثِ طاعةٍ يَرْضَى عنها اللّهُ ورسولُهُ، وتستحقُّ أنْ يُطلَقَ عليها لفظُ الطّاعةِ، وهي الطّاعةُ النّابعةُ مِنَ القلبِ، الَّتي يوافقُ فيها الظّاهرُ الباطنَ.

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

احتمالُ حرفِ المعنى معانيَ مُتعدِّدةً، من فصيح البيان

قيلَ: الفاءُ في قولِ اللّهِ تبارك شأنُهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾؛ لترتيبِ ما بعدَها على تبليغِهِ ﷺ للمأمورِ بهِ إليهم، أي: إنْ تتولَّوا عنِ الطّاعةِ إثْرَ ما أُمِرْتُم بها[3]، وقيلَ: الفاءُ لتفريعِ ما بعدَها على قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ معَ التَّقسيم، أي: حالُ المنافقينَ بعدَ هذا الخطابِ إمّا التَّولّي أو الإطاعةُ[4]، وقيلَ: الفاءُ تُفْصِحُ عن كلامٍ مُقدَّرٍ، أي: إنِ استجَبْتُم؛

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 1031.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 391.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 435.

فقد آمنتُم، وإنْ تولَّوا؛ فالعاقبةُ عليكُم، ويدلُّ على ذلك قولُهُ ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾(1).

بلاغةُ الإيجازِ في قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

عدمُ التَّصريحِ بتبليغِ الرَّسولِ للمأمورِ بِهِ، من فصيحِ البيانِ

قيلَ: الفاءُ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۖ﴾؛ لترتيبِ ما بعدَها على تبليغِهِ ﷺ للمأمورِ بِهِ إليهِم، ولعدمِ التَّصريحِ بِهِ؛ للإيذانِ بغايةِ ظُهورِ مُسارعتِهِ ﷺ إلى تبليغِ ما أُمِرَ بِهِ، وعدمِ الحاجةِ إلى الذِّكرِ، أي: إنْ تتولَّوا عنِ الطّاعةِ إثْرَ ما أُمِرتُم بها(2).

غرضُ تقديمِ التَّولّي على الإطاعةِ:

كثرةُ وقوعِ التَّولّي مِنَ المنافقينَ، دأبُهم في كلِّ حين

في قولِهِ ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾، تقسيمٌ لحالِ المنافقينَ، أي: حالُ المنافقينَ بعدَ الخطابِ بقولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾، إمّا التَّولّي أو الإطاعةُ، وقد قُدِّمَ التَّولّي؛ لأنَّهُ كثيرُ الوقوعِ منهُم؛ فهو شأنُهم ودَيْدَنُهم(3)، وقيلَ: تأخيرُ الإطاعةِ عن بيانِ حُكْمِ التَّولّي؛ لما في تقديمِ التَّرهيبِ مِنْ تأكيدِ التَّرغيبِ وتقريبِهِ، ممّا هو مِنْ بابِهِ مِنَ الوعدِ الكريمِ(4)، وقيلَ: في تقديمِ التّولّي وتأخيرِ الإطاعةِ، إشارةٌ إلى أنَّ التَّرهيبَ أولى بهِم، وأنَّهم مُلابِسونَ لما يقتضيهِ(5).

نُكْتَةُ الفعلِ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾، ودلالتُه البلاغيَّةُ:

ورودُ الفعلِ بينَ الماضي والمضارعِ، وأثرُ ذلك في السّياقِ

قيلَ: الفعلُ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ ماضٍ، والواوُ ضميرُ الغائبينَ، وفي الكلامِ التفاتٌ مِنَ الخطابِ إلى الغَيبةِ، وحُسْنُ هذا الالتفاتِ: أنَّهُ لم يواجِهْهم بالتَّولّي والإعراضِ(6).

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5218.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 435.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 392.

(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 192.

وقيلَ: الفعلُ مضارعٌ حُذِفَتْ إحدى تاءيه، والأصلُ: تَتَوَلَّوا، ويُرجِّحُهُ قراءةُ البَزّيِّ بتشديدِ التّاءِ[1]، ويُرجِّحُهُ أيضًا الخطابُ، في قولِه: ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾[2]، ويَبْعُدُ أنْ يُدَّعى الالتفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى الخطابِ ثانيًا[3].

وقيلَ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ خطابٌ للمأمورينَ بالطّاعةِ مِنْ جهتِه تعالى، لا مِنْ جهةِ الرَّسولِ ﷺ، وهو واردٌ لتأكيدِ الأمرِ بها، والمبالغةِ في إيجابِ الامتثالِ، والحَملِ عليهِ بالتَّرهيبِ والتَّرغيبِ؛ لأنَّ صَرْفَ الكلامِ المَسوقِ لمعنًى مِنَ المعاني، عن سَنَنِهِ المَسلوكِ، يُنبِئُ عن اهتمامٍ جديدٍ بشأنِهِ مِنَ المُتكلِّمِ، ويستجلِبُ مزيدَ رغبةٍ فيهِ مِنَ السّامعِ، لا سيَّما إذا كانَ ذلكَ بتغييرِ الخطابِ بالواسطةِ إلى الخطابِ بالذّاتِ، فإنَّ في خطابه تعالى إيّاهم بالذّاتِ - بعدَ أمرِهِ تعالى إيّاهم بوساطتِهِ ﷺ، وتصدّيهِ لبيانِ حُكْمِ الامتثالِ بالأمرِ والتَّولّي عنهُ إجمالًا وتفصيلًا - مِنَ التَّأكيدِ والمبالغةِ ما لا غايةَ وراءَهُ[4].

وقيلَ: قولُهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ تفريعًا على ﴿أَطِيعُواْ﴾، فيكونَ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ مِنْ جملةِ ما أَمرَ النَّبيُّ ﷺ، بأنْ يقولَهُ لهُم، ويكونُ فعلًا مضارعًا حُذِفَتْ منهُ تاءُ الخطابِ للتَّخفيفِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ تفريعًا على ﴿قُلۡ﴾، أي: فإذا قلتَ ذلكَ، فتوَلَّوا، ولم يُطيعوا ... إلى آخرِه، فيكونُ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ ماضيًا مواجهًا بِهِ النَّبيُّ ﷺ، أي: فإنْ تَوَلَّوا، ولم يُطيعوا؛ فإنَّما عليكَ ما حُمِّلتَ مِنَ التَّبليغِ، وعليهِم ما حُمِّلوا مِنْ تَبِعَةِ التَّكليفِ، فيكونُ في ضمائرِ قولِه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ التفاتٌ، وأصلُ الكلامِ: فإنَّما عليكَ ما حُمِّلتَ، وعليهِم ما حُمِّلوا[5].

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِنَّمَا﴾:

الفاءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾، هي الواقعةُ في جوابِ الشَّرطِ[6]، والمعنى: فاعلَموا أنَّما على النَّبيِّ ﷺ ما حُمِّلَ، وعليكُم ما حُمِّلتُم[7]، وقيلَ: جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ أُقيمَ عِلَّتُهُ مقامَهُ، والمعنى: (وإنْ تَوَلَّوا - أيُّها المنافقونَ - فضَرَرُ التَّولّي

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 433.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 207، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 296.
(3) السّمين، الدّر المصون: 8/ 433.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 391.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 280.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5218.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 55.

عليكُم فقطْ)؛ لأنَّ على الرَّسولِ ما حُمِّلَ مِنَ التَّبليغِ، وقد فعلَ ذلكَ بأكملِ وجهٍ، وعليكُم ما حُمِّلْتُم مِنَ الامتثالِ، ولم تمتثِلوا، فبَقيتُم على الشَّقاءِ المُؤبَّدِ[1].

شتّانَ بين نبيٍّ حُمِّلَ فوَفّى، وبينَ منافقين حُمِّلوا فنَكثوا

بلاغةُ القصرِ الإضافيِّ بالأداة (إنَّما):

قَصْرُ المُحَمَّلِ على كلِّ طرفٍ، مفيدٌ في البيان

القَصْرُ المُستفادُ مِنْ (إنَّما) في قولِهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ﴾ قصرٌ إضافيٌّ، والمعنى: فإنْ تَوَلَّوا؛ فإنَّما على الرَّسولِ ﷺ ما كُلِّفَ بهِ مِنَ التَّبليغِ، وليسَ عليهِ هدايتُكم.

دلالةُ المشاكلةِ في لفظي: ﴿حُمِّلَ﴾ و﴿حُمِّلۡتُمۡۖ﴾:

ليس مَن حُمِّلَ خيرًا، كَمَن حُمِّلَ وِزرًا

في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ مشاكلةٌ، أي: عليه التَّبليغ، وعليكم إثمُ التَّكذيب، وقيل: "فاعلموا أنَّما عليه ﷺ ﴿مَا حُمِّلَ﴾، أي: ما أُمِرَ بهِ منَ التَّبليغ، ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾، أي: ما أُمِرْتُم بهِ منَ الطّاعة، ولفظُ ﴿حُمِّلَ﴾ محمولٌ على المُشاكلة[2]، وهي المُماثلَة، وهي عِنْد أهلِ البديع: أَن يُذْكَر الشَّيْءُ بِلَفْظ غَيره؛ لوُقوعه في صحبته، كَقَوْله تَعالَى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التَّوبة: 67][3]، وقوله تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾ [البقرة: 138][4].

دلالةُ (على) في قولِهِ: ﴿عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾:

التَّعبيرُ عن مشقَّةِ التَّكليفِ المُراد، باللَّفظ الدّالِّ على المعنى المُستفاد

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ (على) في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾، على تكليفِ ما فيه شدَّةٌ ومَشَقَّةٌ على المُكلَّف، فالنَّبيُّ ﷺ، مُكلَّفٌ بأداءِ أمانةٍ ثقيلةٍ، وهي أمانةُ تبليغِ ما أمرَهُ اللّهُ ﷻ به، والمنافقونَ مُكلَّفونَ بالطّاعةِ والامتثالِ، وعليهِم تَبِعاتُ عَدَمِ ذلكَ.

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 435.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189.

(3) مجمع القاهرة، المعجم الوسيط: (شكل).

(4) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 424.

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

الـدَّلالـةُ على الاخـتـصـاصِ، مستفادٌ من هذا السّياق الخاصِّ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، أي: عليهِ ما حُمِّلَ مِنَ التَّبليغِ، ليسَ عليهِ غيرُهُ، فهو لا يَهْديكم، ولكنْ يُرشِدُكم ويَدْعوكم، وعليكُم ما حُمِّلْتُم مِنْ إجابةٍ للتَّبليغِ، وقيامٍ بحقِّ الطّاعةِ، وإنْ لم تَقوموا بحقِّ ما حُمِّلْتُم ضلَّ سبيلُكم، وخابَ أمرُكم[1]، ويُفيدُ التَّقديمُ أيضًا: الاهتمامَ بالمُقدَّمِ، وهو كونُ التَّبليغِ على النَّبيِّ ﷺ، وكونُ الامتثالِ على المنافقينَ وأضرابِهم.

دلالةُ ﴿مَا﴾ الموصولة في السّياق:

تضافرَ الموصولِ وجملة الصِّلة، على بيان المعنى المُراد

﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ موصولةٌ، والعائدُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فإنَّما عليهِ ما حُمِّلَهُ، وعليكُم ما حُمِّلْتُموهُ، وما حُمِّلَهُ الرَّسولُ ﷺ هو ما أُمِرَ به مِنَ التَّبليغِ، لما كُلِّفَ به، وقد فعلَ ذلكَ، ولم يُقَصِّر فيه شَرْوَ نَقيرٍ، وقوله: ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾، أي: ما أُمِرتُم به مِنَ الطّاعةِ والإجابةِ، وهو وعيدٌ لهم، كأنَّه قال لهم: (فإن تولَّيتُم، فقد صرتُم حاملين للحِمل الثَّقيل)[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّحميلِ:

التَّحميل إشعارٌ بِثِقَلِ التَّكليفِ، وكـونِـهِ مُـؤْنـةً باقيةً في الذِّمَّة

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾، معناهُ: عليهِ ما أُمِرَ به مِنَ التَّبليغِ، وقد شاهدتُموهُ عندَ قولِه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾، وعليكُم ما أُمِرْتُم بِهِ مِنَ الطّاعةِ، قيلَ: والتَّعبيرُ عنهُ بالتَّحميلِ؛ للإشعارِ بِثِقَلِهِ في نفسِهِ، وكونِهِ مُؤْنَةً باقيةً في عُهْدتِهم بَعْدُ، كأنَّهُ قيلَ: وحيثُ تولَّيتُم عن ذلكَ، فقد بَقيتُم تحتَ ذلكَ الحِملِ الثَّقيلِ، وقولُهُ تعالى: ﴿مَا حُمِّلَ﴾ محمولٌ على المشاكَلةِ[3]، ولا يَبْعُدُ أنْ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5218.

(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 9/ 253 (بتصرّف).

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 391.

يكونَ في ﴿مَا حُمِّلَ﴾، دلالةٌ على ثِقَلِ التَّبليغِ على النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّهُ أمانةٌ مِنَ اللّهِ يجبُ عليهِ أداؤُها، فلا يكونُ محمولًا على المشاكلة.

نُكْتَةُ بناءِ الفعلينِ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهما:

تفخيمُ شأنِ الفاعلِ، مُظْهِرٌ لأهميَّةِ الفعلِ، وثِقَلِهِ المعنويِّ

في التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ، في قولِ الحقِّ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ تفخيمٌ لشأنِ الفاعلِ، وهو اللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِما في هذهِ الصّيغةِ مِنَ الإشعارِ، بأنَّ هذا الفعلَ لا يُتَصوَّرُ إلّا مِنْ فاعلٍ واحدٍ، لهُ الخَلْقُ والأمرُ، وهو اللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المعبودُ بالحقِّ، الَّذي يَحْكُمُ ما يشاءُ، ويفعلُ ما يريدُ، وهو الَّذي يأمرُ بتبليغِ التَّكاليفِ، ويأمرُ بالامتثالِ بها، ويُعاقِبُ على تركِها.

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾:

العطفُ اشتراكٌ في الجُمَلِ المتنوِّعة

الواوُ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على ما قبلَها، وهو قولُهُ تعالى: ﴿عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ﴾، فتفيدُ اشتراكَها معَها في الوقوعِ في حيِّزِ جوابِ الشَّرطِ، والاشتراكُ في الحيِّزِ لا ينفي المغايرةَ في الفعلِ، واختلافَ النَّتيجة؛ ذلك أنَّ ما حُمِّلَهُ الرَّسولُ غيرَ ما حُمِّلَهُ المنافقون الَّذين تناولت الآيةُ حالَهم، حيثُ أُمِروا بطاعة اللّه ورسوله، فلم ينصاعوا لذلك، فكان ما حُمِّلوه مناسبًا لفعلهم.

غرضُ الإخبارِ بقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

التَّهديدُ والوعيدُ، أسلوبٌ مَفادُهُ التَّرهيبُ والتَّقريع

في الإخبارِ بقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾، تهديدٌ ووعيدٌ للمنافقينَ، بحُلولِ نِقْمةِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ بهم؛ بسببِ عدمِ الامتثالِ، والمعنى: فإنْ تَوَلَّوا؛ فليسَ على الرَّسولِ إلّا تأديةُ ما كُلِّفَ به مِنَ التَّبليغِ، وقد أدّاهُ، وعليكُم عاقبةُ عصيانِكم ومخالفتِكم، ويزيدُ التَّخويفَ والتَّهويلَ، أنَّهُ لم تُذكَرْ عقوبةٌ مُعيَّنةٌ، بل تُرِكَ البابُ مفتوحًا؛ ليَذهبَ الفِكْرُ في تقديرِ العِقابِ كلَّ مذهبٍ.

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾:

إرداف التَّرهيب بالتَّرغيب، من بيان السّياق البليغ

الواوُ في قولِه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾؛ لعطفِ هذهِ الجملة على ما قبلَها، ومِنْ أسرارِ هذا العطفِ إردافُ التَّرهيبِ الَّذي تضمَّنَهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾، بالتَّرغيبِ في الطّاعة؛ استقصاءً في الدَّعوةِ إلى الرُّشْدِ[1]، وذلكَ جارٍ على عادةِ القرآنِ الكريمِ في تعقيبِ الوعدِ بالوعيدِ، والتَّرغيبِ بالتَّرهيبِ، وعكسِ ذلكَ.

بلاغةُ أسلوبِ الشَّرطِ بالأداة (إنْ):

جَعْلُ الاهتداءِ مقرونًا بالطّاعةِ، من أساليب التَّشويق للالتزام

في استعمالِ أسلوبِ الشَّرطِ في قولِه ﷻ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ الاهتداءَ مقرونٌ بالطّاعة، فلا يقعُ إلّا بها[2]، والمعنى: وإنْ تُطيعوهُ فيما أمرَكم بِه مِنَ الطّاعة؛ تَهْتَدوا إلى الحقِّ الَّذي هو المَقْصِدُ الأصليُّ، الموصِلُ إلى كلِّ خيرٍ، والمُنجي مِنْ كلِّ شرٍّ[3].

سِرُّ إفرادِ المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿تُطِيعُوهُ﴾:

الإشارةُ إلى تلازمِ طاعةِ الله وطاعةِ رسوله، وكونِ الثّانيَةِ مَظهرًا للأولى

كان الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وإنْ تُطيعوهما تَهْتَدوا)؛ ليناسبَ صَدْرَ الآية، وهو قولُه تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى الإفرادِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على تلازم الإطاعتينِ، فهما بمنزلةِ إطاعةٍ واحدة[4]، وقيلَ: الضَّميرُ للرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّ الكلامَ في إطاعتِه في حُكْمِه[5]، وقيلَ: لأنَّ التَّقديرَ: وإنْ تُطيعوا اللّهَ؛ تَهْتَدوا، والرَّسولُ كذلكَ[6]، فيكونُ في الكلامِ حذفُ جملة.

سِرُّ ورودِ لفظِ الهدايةِ، جزاءً للإطاعةِ:

الإشارةُ إلى نَيلِ خيراتِ الدُّنيا والآخرة في إطاعة الله ورسوله

أوثِرَ التَّعبيرُ بالهدايةِ في قولِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾، وجُعِلَتْ جزاءً للإطاعةِ؛ لِما يشيرُ إليهِ لفظُ الهدايةِ، مِنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 281.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 296، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 64.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 435، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10315.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 207، واطفيّش، تفسير اطفيّش: 7/ 8.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 435.

أنَّ المُهتديَ قد ظَفِرَ بخيراتِ الدُّنيا والآخرةِ، فهو يسيرُ في مَحَجَّةٍ بيضاءَ، لا تُفضي بِهِ إلّا إلى كلِّ خيرٍ دُنيويٍّ وأُخرويٍّ، والمعنى: وإنْ تُطيعوهُ فيما أمرَكم بِهِ مِنَ الطّاعةِ؛ تَهْتَدوا إلى الحقِّ الَّذي هو المَقْصِدُ الأصليُّ، الموصِلُ إلى كلِّ خيرٍ، والمُنجي مِنْ كلِّ شرٍّ[1].

نُكْتَةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿تَهۡتَدُواْۚ﴾:

المـبـالـغـةُ والـتَّـعـمـيـمُ في المُـهْـتـدَى إليهِ، مُبْيَنَةٌ عنِ المُرادِ

حُذِفَ مُتعلِّقُ فعلِ الهدايةِ في قولِ اللّهِ عزَّ سُلطانُهُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾، فلم يقلْ: (تَهْتَدوا إلى كذا)؛ لِما في هذا الحذفِ مِنَ الإشعارِ بتعميمِ المُهْتَدَى إليه، وفي ذلك مبالغةٌ في الحثِّ على الإطاعةِ الَّتي توصِلُ إلى كلِّ خيرٍ، وتُنْجي مِنْ كلِّ شرٍّ[2].

موقعُ جملةِ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ ممّا قبلَها:

جملةُ التَّذييلِ ذاتُ أثـرٍ في السّياقِ ودلالتِه

قولُه ﷻ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لِما قبلَهُ، مِنْ أنَّ غائلةَ التَّولّي وفائدةَ الإطاعةِ، مقصورتانِ على المُخاطَبينَ[3]، وهذا جارٍ على اصطلاحِ مَنْ يُجوِّزُ مجيءَ الاعتراضِ في آخِرِ الكلامِ، وإلّا فالجملةُ استئنافٌ.

بلاغةُ الإطنابِ في آخرِ الآيةِ:

الجملةُ بيانٌ لِما حُمِّلَهُ الرَّسولُ ﷺ

جملةُ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، بيانٌ لإبهامِ قولِهِ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ﴾[4]، وفي البيانِ بعدَ الإبهامِ لونٌ مِنْ ألوانِ الإطنابِ، يُفيدُ تقرُّرَ المعنى في النَّفْسِ، وذلكَ بسببِ رؤيتِهِ في صورتَينِ مختلفتينِ: صورةٍ مُجمَلةٍ، وصورةٍ مُفصَّلةٍ، فيتأكَّدُ، ويَتقرَّرُ.

دلالةُ ﴿عَلَى﴾ في: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾:

الـدَّلالـةُ على تحميلِ ما فيهِ كُلفةٌ ومَشَقَّة، وهـو أمـانـةُ التَّبليغ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قولِ الحقِّ جلَّتْ أسماؤُهُ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، على تحميلِ ما فيهِ كُلْفةٌ ومَشَقَّةٌ،

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 392.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 302.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 392.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 281.

فالنَّبيُّ ﷺ مُكلَّفٌ بأداءِ أمانةٍ ثقيلةٍ، وهي أمانةُ تبليغِ ما أمرَهُ اللّهُ ﷻ بهِ.

تَراوُحُ اللّامِ بينَ الجنسِ والعهدِ، ثراءٌ في المعنى المورَدِ

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ من قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، إمّا للجنسِ المُنتظِم لهُ ﷺ انتظامًا أوَّليًّا، بحيثُ يكونُ مقصودًا قبلَ غيرِه، والمعنى: وما على جنسِ الرَّسولِ كائنًا مَنْ كانَ إلّا التَّبليغُ، أو للعهدِ، أي: وما عليهِ ﷺ إلّا التَّبليغُ[1].

إرادةُ التَّعميمِ في التَّذييلِ، تجري بها العبارةُ مجرى الأمثالِ

سِرُّ إظهارِ لفظ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ دون إضماره:

إذا كانَتْ لامُ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ للجنسِ؛ فالإتيانُ بلفظِ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ مُظهَرًا ظاهرٌ، وإنْ كانَتْ للعهدِ - على أنَّ المرادَ بهِ النَّبيُّ ﷺ - فالظّاهرُ أنْ يقالَ: (وما عليهِ إلّا البلاغُ المبينُ)، لكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ ليُفيدَ الكلامُ التَّعميمَ، مِنْ حيثُ ظاهرُ اللَّفظِ، وليكونَ التَّذييلُ جاريًا مَجْرَى الأمثالِ.

الدَّلالةُ على تأديَةِ الأمانةِ، مرهونٌ بأداءِ الرِّسالة

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾:

لمّا كانَ معنى البُلوغِ في الأصلِ: الوصولَ إلى الشَّيءِ، والانتهاءَ إلى أقصى المَقْصِدِ والمُنتهَى، مكانًا كانَ أو زمانًا، أو أمرًا مِنَ الأمورِ المُقدَّرةِ؛ عُبِّرَ بالبلاغِ الَّذي هو بمعنى التَّبليغ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما كُلِّفَ بهِ الرَّسولُ ﷺ، هو إيصالُ الأمانةِ إلى المُبلَّغينَ، وإنهاؤُها إليهم، وفي ذلكَ مزيدُ تأكيدٍ، لدفعِ أنْ يكونَ مُكلَّفًا بهدايتِهم، وإنَّما عليهِ إيصالُ وحْيِ اللّهِ إليهِم.

نُكْتَةُ وصفِ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ بكونِهِ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾:

وَصْفُ البلاغِ بالمُبينِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 189.

مناسبةُ الوصفِ لمقامِ التَّبليغِ، يلائم الإبانةَ عنِ المقصود

﴿ٱلۡمُبِينُ﴾؛ إمّا لأنَّهُ بيِّنٌ في نفسِهِ واضحٌ جَليٌّ؛ لكونِهِ مقرونًا بالآياتِ والمعجزاتِ[1]، وعليهِ فهو مِنَ الفعلِ اللّازم، وإمّا لأنَّهُ مُبينٌ لكُم أحكامَ اللّهِ تعالى وتكاليفَهُ، بحيثُ لا يَعْتَريها شُبْهَةٌ، بل هي واضحةٌ نيِّرةٌ جَليَّةٌ[2]، وعليهِ فهو مِنَ الفعلِ المُتعدّي، وأيًّا كانَ ففي التَّعبيرِ بهذا الوصفِ مناسبةٌ لمقامِ التَّبليغِ وإقامةِ الحُجَّةِ على المُخاطَبينَ.

بلاغةُ القصرِ الإضافيِّ في سياق آية التَّذييل:

الرَّسولُ مقصورٌ على البلاغ لا الهدايةِ، واللهُ هو الهادي والمُجازي

القَصْرُ بـ (ما) النّافيةِ و﴿إِلَّا﴾، في قولِ الحقِّ تبارك شأنُهُ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، مِنْ قصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ بالنِّسبةِ إلى كونِهِ ﷺ مسؤولًا عن هدايتِهم، والمعنى: أنَّهُ عليه الصلاة والسلام مقصورٌ على الاتِّصافِ بالتَّبليغِ، لا يتجاوزُهُ إلى الاتِّصافِ بكونِهِ هاديًا لهُم، أي: خالقًا للهدايةِ في قلوبِهم، وفي هذا مِنَ الوعيدِ البالغِ ما لا يَخْفَى؛ إذ تضمَّنَ أنَّ عقابَكم، إنَّما يتولّاهُ المُرسِلُ لا الرَّسولُ، وما كُلِّفَ الرَّسولُ مِنْ أمرِكم غيرَ تبليغِكم[3].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 250، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 359، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 412، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 359، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 359.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النّور: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ تمكينِ المُخلِصينَ، بعدَ ذِكْرِ أحوالِ المُنافقينَ

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجوهٌ، منها: أنَّهُ سبحانَهُ ذكرَ المُخلِصينَ بعدَ ذكرِ المنافقينَ[1]، ومنها: أنَّ الآيةَ مُقرِّرةٌ لِما في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ مِنَ الوعدِ الكريمِ، ومُعرِبةٌ عنهُ بطريقِ التَّصريحِ، ومُبيِّنةٌ لتفاصيلِ ما أُجمِلَ فيهِ مِنْ فُنونِ السَّعاداتِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، الَّتي هي مِنْ آثارِ الاهتداءِ، ومُتضمِّنةٌ لِما هو المرادُ بالطّاعةِ الَّتي نيطَ بها الاهتداءُ[2]، ومنها: أنَّهُ انتقلَ إلى هذا الكلامِ بمناسبةِ التَّعرُّضِ إلى أحوالِ المنافقينَ، الَّذينَ أبقاهُم على النِّفاقِ تردُّدُهم في عاقبةِ أمرِ المسلمينَ، وخشيتُهم ألّا يستقرَّ بالمسلمينَ المُقامُ بالمدينةِ، حتَّى يغزوهم المشركونَ، أو يُخرِجَهم المنافقونَ حينَ يجدونَ الفُرصةَ، فكانوا يُظهِرونَ الإسلامَ اتِّقاءً مِنْ تمامِ أمرِ الإسلامِ، ويُبطِنونَ الكفرَ معاونةً لأهلِ الشِّركِ، معَ ما لهذا الكلامِ مِنَ المناسبةِ معَ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾، فيكونُ المعنى: وإنْ تُطيعوهُ؛ تَهْتَدوا، وتُنْصَروا، وتأْمَنوا[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾: (خلف) أصولٌ ثلاثةٌ، أحدُها: خِلافُ قُدّامٍ، والثّاني: التَّغيُّرُ، ومنهُ قولُهم: أَخْلَفَ فوهُ؛ إذا تغيَّرَ، والثّالثُ:

(1) النّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 515.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 125.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 281.

أنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَهُ[1]، ومِنْ ذلكَ: الخِلْفةُ، يقالُ في أنْ يَخْلُفَ كلٌّ واحدٍ الآخرَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: 62]، ويقالُ: خَلَفَ فلانٌ فلانًا؛ إذا قامَ بالأمرِ عنهُ، إمّا معهُ وإمّا بعدَهُ، قالَ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾ [الزّخرف: 60]، والخِلافةُ: النّيابةُ عنِ الآخر، إمّا لغَيبةِ المَنوبِ عنهُ، وإمّا لموتِهِ، وإمّا لعَجْزِهِ، وإمّا لتشريفِ المُستخلَفِ، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ استخلفَ اللّهُ أولياءَهُ في الأرضِ، قالَ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 39][2].

2) ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾: المكانُ: الموضعُ الحاوي للشّيءِ، قالَ تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى ۝٥٨﴾ [طه: 58]، ويقالُ: مَكّنْتُهُ، ومكّنتُ لهُ، فتمكّنَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾[3]، وتمكينُهُ: تثبيتُهُ وتوطيدُهُ[4]، ومكّنَه اللّهُ منَ الشّيءِ، وأمكنه منه بمعنًى، واستمكن الرَّجلُ منَ الشّيءِ، وتمكّن منه بمعنًى، وفلانٌ لا يمكنه النُّهوضُ، أي: لا يقدر عليه[5]، وقولُهُ تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 6]، معناهُ: ملّكْناهم وجعَلْناهم متمكِّنينَ مِنَ المكانِ الّذي ولّيْناهُم إيّاهُ، أي: قوّيْناهم، مِنْ تمكّنَ فلانٌ مِنْ كذا؛ إذا قَدَرَ عليهِ، وأطاقَهُ[6]، وهو المعنى المراد في الآية.

3) ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾: (رضا) أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على خِلافِ السُّخْطِ[7]، ورضا العبدِ عنِ اللّهِ: ألّا يكرهَ ما يَجْري بهِ قضاؤُهُ، ورضا اللّهِ عنِ العبدِ: هو أنْ يراهُ مُؤتَمِرًا لأمرِهِ، ومُنتهيًا عن نَهْيِهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: 119]، وقالَ: ﴿۞لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 18][8]، والمعنى المراد من ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾: اختار، ورضي لهم.

4) ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾: (بدل) قيامُ الشّيءِ مقامَ الشّيءِ الذّاهبِ[9]، فالإبدالُ والتّبديلُ والتّبدُّلُ والاستبدالُ، جعلُ شيءٍ مكانَ آخرَ، وقد يقالُ: التّبديلُ للتّغييرِ مُطلَقًا، وإنْ لم يُؤْتَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خلف).
(3) الرّاغب، المفردات: (مكن).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 251.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (مكن).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خلف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (رضي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بدل).

ببدلِه، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾[1]، وتبديلُ الشَّيءِ أيضًا: تغييرُهُ، وإن لم يأتِ ببدل، واستبدل الشَّيء بغيره، وتبدَّله به؛ إذا أخذه مكانَهُ، والمُبادَلة: التَّبادل[2]، والمُرادُ بالآية: تغييرُ الحال منَ الخوف إلى الأمن.

المَعْنى الإجْماليّ:

يُجازَى الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ بالاستخلاف والتَّمكين والأمن

وعدَ اللّهُ الَّذينَ جَمَعوا بينَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ أنَّهُ يجعلُهم الخُلَفاءَ والغالبينَ والمالِكينَ في الأرضِ، كما استخلفَ عليها مَنْ قبلَهم، وأنَّهُ يُمكِّنُ لهُم دينَهم بتأييدِهم بالنُّصرةِ والإعزازِ، ويُبدِّلُهم مِنْ بعدِ خوفِهم مِنَ العدوِّ أمنًا، بأنْ يَنْصُرَهم عليهم، فيقتُلوهم، ويأمَنوا بذلكَ شَرَّهم، فيعبدوني آمِنينَ، لا يُشرِكونَ بي شيئًا، ولا يخافونَ، ومَنْ كفرَ بعدَ هذا الوعدِ؛ فأولئكَ هم الفاسقونَ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

الجملةُ استئنافٌ مُقَرِّرٌ لِما قبلَهُ، مفيدٌ في البيان

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ مُقَرِّرٌ لِما في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ مِنَ الوعدِ الكريمِ، ومُعْرِبٌ عنهُ بطريقِ التَّصريحِ، ومُبيِّنٌ لتفاصيلِ ما أُجمِلَ فيهِ مِنْ فُنونِ السَّعاداتِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، الَّتي هي مِنْ آثارِ الاهتداءِ، ومُتضمِّنٌ لِما هو المرادُ بالطّاعةِ الَّتي نيطَ بها الاهتداءُ[4]، وقيلَ: هو استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتُقِلَ إليهِ بمناسبةِ التَّعرُّضِ إلى أحوالِ المنافقينَ الَّذينَ أبقاهم على النِّفاقِ تردُّدُهم في عاقبةِ أمرِ المسلمينَ، وخشيتُهم ألّا يستقرَّ بالمسلمينَ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بدل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بدل).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 412.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190.

المقامُ بالمدينةِ، حتَّى يغزوَهم المشركونَ، أو يُخرِجَهم المنافقونَ حينَ يجدونَ الفُرصةَ، فكانوا يُظهِرونَ الإسلامَ؛ اتِّقاءً مِنْ تمامِ أمرِ الإسلامِ، ويُبطِنونَ الكفرَ؛ معاونةً لأهلِ الشِّركِ[1].

عِلَّةُ تصديرِ الآيةِ بالوعدِ:

تبشيرُ المُخاطَبينَ، وحثُّهم على الاستعدادِ مِنَ البيانِ المُستفاد

يدلُّ تصديرُ الآيةِ بالوعدِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، على تبشيرِ المُخاطَبينَ، وحثِّهم على الأخذِ بأسبابِ حصولِ الوعدِ لهُم؛ لأنَّ الوعدَ بِشارةٌ بخيرٍ لم يأتِ زمنُهُ بعدُ[2]، "فإنَّه وعَدَ مَن قام بالإيمان والعملِ الصّالح من هذه الأمَّة، أن يستخلفَهم في الأرض، يكونون هم الخلفاءَ فيها، المُتصرّفين في تدبيرها، وأنَّه يُمَكِّنُ لهم دينَهم الَّذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام"[3]، ولا جَرَمَ فإنَّ وعْدَ اللّه لا يتخلَّف؛ لأنَّه تعالى لا يُخْلِف الميعاد، ومَن أخذ وعدًا بالتَّمكين منَ اللّه؛ بلغ غايتَهُ، وحقَّق مُناه، وحصَّل المأمولَ في دنياه وأُخراه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿وَعَدَ﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الوعدِ وتيقُّنِه

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، على أنَّ هذا الوعدَ الكريمَ مِنَ اللّهِ ﷻ مُتحقِّقٌ مُتيقَّنٌ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، وقد سبقَ في حُكمِ اللّهِ وقضائِهِ، وفي ذلكَ مزيدُ ترغيبٍ للمُخاطَبينَ في الأخذِ بأسبابِ حصولِهِ لهُم، بالاستزادةِ مِنَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، اللَّذينِ جُعِلا عُنوانًا لهُم.

نُكْتَةُ إسنادِ الوعدِ إلى لفظِ الجلالةِ:

تأكيدُ صِدْقِ الوعدِ، بإسنادهِ إلى الله جلَّ في عُلاه

أُسنِدَ الوعدُ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ تأكيدًا لحقّيَّةِ الوعدِ وصِدْقِهِ؛ لأنَّهُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 281.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10318.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 573.

ما دامَ الوعدُ مِنَ اللهِ الّذي لهُ صفاتُ الجلالِ والكمالِ، فهو صِدْقٌ، كما قالَ سبحانَهُ: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النِّساء: 122] وقالَ: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التَّوبة: 111]، والّذي يُفسِدُ على النّاسِ وُعودَهم، ويَجُرُّ عليهم عدمَ الوفاءِ كونُ الإنسانِ مُتغيِّرًا بطَبْعِهِ مُتقلِّبًا، فقد يَعِدُ إنسانًا بخيرٍ، ثمَّ يتغيَّرُ قلبُهُ عليه، فلا يَفي لهُ بما وعدَ، وقد يأتي زمنُ الوفاءِ، فلا يَقْدِرُ عليه، أمّا الحقُّ تباركَ شأنُهُ؛ فلا يَتغيَّرُ أبدًا، وهو سبحانَهُ قادرٌ على الوفاءِ بما وعدَ به، فليسَتْ هناكَ قوَّةٌ أخرى تمنعُهُ، فهو سبحانَهُ واحدٌ، لا إلهَ غيرُهُ، ولذلكَ يكونُ وعدُهُ ﷻ ناجزًا(1).

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّ الصِّلةَ سببُ الوعدِ الموقَنِ في السّياقِ المُعْلَنِ

التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما في حيِّزِ الصِّلةِ، سببُ هذا الوعدِ المُؤكَّدِ(2)، كأنَّهُ قيلَ: وعدَهم اللهُ بالاستخلافِ وما عُطِفَ عليه؛ لأنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ، والموصولُ عامٌّ لا يختصُّ بمُعيَّنٍ، وعمومُهُ عُرْفيٌّ، أي: غالبٌ، فلا يَضرُّ ما يكونُ في الأمَّةِ مِنْ مُقصِّرينَ في عملِ الصّالحاتِ، فإنَّ تلكَ المنافعَ عائدةٌ على مجموعِ الأمَّةِ(3).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ﴾:

تحقُّقُ الإيمانِ وعملِ الصّالحاتِ مِنَ المُخاطَبينَ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الإيمانَ وعملَ الصّالحاتِ أمرانِ ثبَتا، وتحقَّقا مِنَ المُخاطَبينَ الموعودينَ، وأنَّ لهُم قَدَمَ صِدْقٍ وسَبْقٍ فيهما، حتَّى صارا بمنزلةِ صفاتِهم الذّاتيَّةِ الجِبلِّيَّةِ، الّتي تُجعَلُ عُنوانًا لتعريفِهم.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10318.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5219.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 283.

المــؤمــنــون مــوعــودون بالاستخلاف، عــمــومًــا وخصوصًا

معنى (مِنْ) في شبه الجملة: ﴿مِنكُمۡ﴾:

الظّاهرُ أنَّ (مِنْ) - في قولِه ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ - بيانيَّةٌ[1]، أي: الَّذينَ هم أنتُم؛ لأنَّ المُخاطَبينَ هم المؤمنونَ، فلا يَصلُحُ أنْ تكونَ كلمةُ (مِنْ) للتَّبعيضِ، وفائدةُ البيانِ زيادةُ التَّمكُّنِ في الذِّهنِ[2]، وقيلَ: (مِنْ) للتَّبعيضِ، والمرادُ: المهاجِرونَ منهُم، فإنَّهم هم الخُلَفاءُ المُستخلَفونَ في الأرضِ[3].

بين آيتي (النّور) و(الفتح) اختلافٌ، يدلُّ على دِقَّة السّياق وبلاغته

نُكْتَةُ توسيطِ ﴿مِنكُمۡ﴾ بينَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ:

وُسِّطَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنكُمۡ﴾ بينَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وأُخِّرَ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ﴾ [الفتح: 29]، وقد اختُلِفَ في سِرِّ ذلكَ، فقيلَ: التَّأخيرُ في آيةِ الفتحِ دلَّ على أنَّ وعدَ اللهِ تعالى بالمغفرةِ والأجرِ العظيمِ، مُسبَّبٌ عن إيمانِهم المُقترنِ بالأعمالِ الصّالحاتِ؛ لأنَّ الاتِّصافَ بهما مناسبٌ؛ لِأَنْ يكونَ علَّةً للمغفرةِ والأجرِ العظيمِ، وتوسيطُهُ في آيةِ النّورِ دلَّ على أنَّ الإيمانَ هو الأصلُ في الاعتبارِ، وأنَّ الأعمالَ كالتّابعةِ لهُ، فتأثيرُ العملِ الصّالحِ في الاستخلافِ دونَ تأثيرِهِ في إثباتِ المغفرةِ والأجرِ العظيمِ[4]، وقيلَ: قُدِّمَ هذا القيدُ اهتمامًا بهِ[5]، وقيلَ: توسيطُ ﴿مِنكُمۡ﴾ بينَ المعطوفينَ؛ لإظهارِ أصالةِ الإيمانِ وعَراقتِه، في استتباعِ الآثارِ والأحكامِ، وللإيذانِ بكونِهِ أوَّلَ ما يُطلَبُ منهُم، وأهمَّ ما يجبُ عليهِم، وأمّا تأخيرُهُ عنهما

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 251، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 112، والنَّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 515.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 436.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 395.

(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 132، والخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 396.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 304.

في آيةِ الفتحِ؛ فلأنَّ (مِنْ) هناكَ بيانيَّةٌ، والضَّميرُ للَّذينَ معَهُ ﷺ مِنْ خُلَّصِ المؤمنينَ، وهم جامعونَ بينَ الإيمانِ والأعمالِ الصّالحة، مثابرونَ عليهما، فلا بُدَّ مِنْ وُرودِ بيانِهم بعدَ ذكرِ نُعوتِهم الجليلةِ بكمالِها[1]، وقيلَ: وُسِّطَ ﴿مِنكُمۡ﴾؛ لتعجيلِ ذِكْرِ مَسَرَّةِ المؤمنينَ؛ فإنَّ الآيةَ سيقَتْ لذلكَ[2]، ولأنَّ الإيمانَ هو الأصلُ الَّذي ينبني عليهِ الاستخلافُ، وهو مُستلحِقٌ للعملِ الصّالحِ؛ إذا تحقَّقَ، ولا شكَّ أنَّ المرادَ الإيمانُ المُحقَّقُ، فالعملُ الصّالحُ فرعُهُ؛ ولذلكَ أَخَّرَهُ[3].

تعيينُ المُخاطَبِ في قوله تعالى: ﴿مِنكُمۡ﴾:

الخطابُ لرسولِ اللهِ ﷺ ولِمَنْ معَهُ

الخطابُ في قولِه ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، لرسولِ اللهِ ﷺ، ولِمَنْ معَهُ[4]، وقيلَ: المُرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كلُّ من اتَّصفَ بالإيمانِ بعدَ الكفرِ على الإطلاقِ، مِنْ أيِّ طائفةٍ كانَ، وفي أيِّ وقتٍ كانَ، لا مَنْ آمنَ مِنْ طائفةِ المنافقينَ فقط، ولا مَنْ آمَنَ بعدَ نزولِ الآيةِ الكريمةِ فحَسْبُ، ضرورة عموم الوعدِ الكريمِ للكُلِّ كافَّةً، فالخطابُ في ﴿مِنكُمۡ﴾ لعامَّةِ الكَفَرةِ، لا للمُنافقينَ خاصَّةً[5]، وهو خِلافُ الظّاهِرِ[6].

دلالةُ عطفِ (العملِ الصّالحِ) على (الإيمانِ):

الإيمانُ والعملُ الصّالح، لا ينفكُّ أحدُهما عنِ الآخر

قولُهُ تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عطفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والمقصود: "الَّذين جمعوا بينَ الإيمان والعمل الصّالح، أن يستخلفَهم في الأرض، فيجعلَهمُ الخلفاءَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 392، أطفيّش، تفسير أطفيّش: 7/ 9.
(3) أطفيّش، تفسير أطفيّش: 7/ 9.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 251.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 515.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 392.

والغالبين والمالكين، كما استخلف عليها مَن قبلهم في زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما"[1]، وقد قيلَ في سِرِّ هذا العطفِ: إنَّ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ داخلٌ معَ ﴿ءَامَنُواْ﴾ في حيِّزِ الصِّلة، وبهِ يتمُّ تفسيرُ الطّاعةِ الَّتي أَمرَ بها، ورتَّبَ عليها ما نُظِمَ في سِلْكِ الوعدِ الكريم[2]، وقيلَ: عَطفُ العملِ الصّالحِ على الإيمانِ؛ لأنَّهُ تصديقٌ لهُ[3].

دلالةُ (أل) في لفظ: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

لفظُ الصّالحاتِ دالٌّ على استغراقٍ عرفيٍّ لكلِّ الأعمال الصّالحة

(أل) في لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للاستغراقِ، أي: عَمِلوا جميعَ الصّالحاتِ، وهي الأعمالُ الَّتي وصفَها الشَّرعُ بأنَّها صلاحٌ، واستغراقُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استغراقٌ عُرْفيٌّ، أي: عَمِلوا مُعظمَ الصّالحاتِ ومُهِمّاتِها ومَراجِعِها، ممّا يَعودُ إلى تحقيقِ كلّيّاتِ الشَّريعةِ وجَرْيِ حالةِ مجتمعِ الأمَّةِ، على مَسْلَكِ الاستقامةِ[4].

سِرُّ جمعِ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الإشارةُ إلى سُلوكِ عامِلي (الصّالحات) مُختلِفَ طُرُقِ الخيرِ

في إيرادِ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مجموعًا؛ إشارةٌ إلى أنَّ المُخاطَبينَ الموعودينَ بما ذُكِرَ، قد كَثُرَتْ خُطاهم في طُرُقِ الخيراتِ، وطَرَقوا مُختلفَ أبوابِ الأعمالِ الصّالحاتِ، مِنْ صيامٍ وصدقةٍ وحجٍّ ونحوِ ذلكَ، ولم يَقتصِروا على عملٍ واحدٍ، فالصّالحاتُ أنواعٌ كثيرةٌ، وهم قد حَرَصوا على أنْ يكونَ لهُم منها على اختلافِها وتنوُّعِها، أتمُّ النَّصيبِ وأوفاهُ، ولذلكَ أكرمَهم اللهُ سبحانه وتعالى بهذا الوعدِ الكريمِ.

---

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 14/ 437.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 304.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 283.

بلاغةُ الإيجازِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

حذفُ الموصوفِ في السّياق، من بليغ ما يُفيد في الكلام

حُذِفَ الموصوفُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقلْ: (وعدَ اللّهُ الَّذينَ آمَنوا منكُم، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحاتِ) إيجازًا، ولأنَّ الصّالحاتِ جمعُ صالحةٍ، وهي الفَعْلَةُ الحَسَنَةُ، وهي في الأصل صفةٌ جرَتْ مَجْرى الأسماءِ؛ لأنَّهم يقولونَ: (صالحةٌ) و(حَسَنَةٌ)، ولا يُقدِّرونَ موصوفًا محذوفًا[1].

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾:

أسلوبُ القَسَمِ ذو أثرٍ في الدّلالة المتُوخّاة

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للقسَمِ[2]، والقسَمُ محذوفٌ، تقديرُهُ: وعدَهم اللّهُ، وأقسمَ لَيَسْتَخْلفَنَّهم، ويحتملُ أنْ يكونَ قد نُزِّلَ وعدُ اللّهِ في تَحقُّقِهِ منزلةَ القسَمِ، فتُلُقِّيَ بما يُتلقَّى بِهِ القسَمُ، كأنَّهُ قيلَ: أقسمَ اللّهُ لَيَسْتَخْلفَنَّهم[3]، بمعنى: أنَّه ليجعلنَّهم خلفاءَ مُتصرِّفين في الأرض تصرُّفَ المُلوكِ في مماليكهم، وهو جوابُ قسمٍ مُضْمَرٍ، تقديره: وعدهمُ اللّهُ، وأقسم ليستخلفنَّهم[4].

دلالةُ السّينِ والتّاءِ في: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾:

أحرفُ التّأكيدِ الزّائدة على الأصول، ذاتُ أثرٍ في البيان

المرادُ بالاستخلافِ - في قولِهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ - جَعْلُهم خُلَفاءَ عنِ اللّهِ في تدبيرِ شؤونِ عبادِهِ، وأصلُ الكلامِ: لَيُخْلِفَنَّهُم في الأرضِ، والسّينُ والتّاءُ للتّأكيدِ[5]؛ لأنَّ الاستخلافَ مِنَ اللّهِ، وفِعْلُهُ سبحانه وتعالى لا يتخلَّفُ[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 352.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 193، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 414.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 251، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 414.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 112.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 285.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5219.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارِعِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾:

الاستخلافُ أمرٌ مستقبليٌّ، يوعَد به باعتبار ما سيكون

عُبِّرَ بصيغةِ المضارِعِ، في قولِ الحقِّ تبارك شأنُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ الاستخلافَ أمرٌ موعودٌ بهِ، ووقوعُهُ سيكونُ في المستقبلِ، فيناسبُهُ إيرادُ هذه الصّيغةِ.

نُكْتَةُ توالي المؤكِّداتِ في السّياق:

مناسبةُ التَّأكيدِ لمقامِ التَّرغيبِ في الآيةِ الكريمة

لمّا كانَ المقامُ للتَّرغيب في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ أكَّدَ ﷻ وعدَهُ بالقَسَمِ، وبنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ الدّاخلةِ على الفعلِ ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾، وبالمشابهةِ بينَهم وبينَ مَنْ سَبَقوهم، ممَّنْ جعلَهم خُلَفاءَ في الأرضِ[1].

معنى ﴿فِي﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الظَّرفيَّةُ المكانيَّةُ لها أثرٌ في الدَّلالة على مفاد السّياق

يدلُّ التَّعبيرُ بـ ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّةِ، في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، على أنَّ مكانَ استخلافِ المذكورينَ هو الأرضُ، أو أنَّ المعنى: لَنَجعلنَّهم بأجمعهم متصرِّفين في الأرض تصرُّفَ الملوكِ في مماليكهم، أو كاستخلاف بني إسرائيل حيثُ أُهلِكَ الجبابرةُ بمصرَ والشّام، وأورثَهم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم[2].

دلالةُ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في الآية الكريمة:

احتمالُ اللَّفظِ معانيَ مُتعدِّدةً مفيدٌ في البيان

قيلَ: المرادُ بالأرضِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أرضُ الكفّارِ، وقيلَ: أرضُ المدينةِ[3]، وقيلَ: هي البلادُ الَّتي تُجاوِرُهم، وهي جزيرةُ العربِ، ثمَّ افتتحوا بلادَ الشَّرقِ والغربِ، ومزَّقوا مُلْكَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5220.

(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 6/ 550.

(3) النّسفيّ، مدارك التنزيل: 2/ 515.

الأكاسرةِ، ومَلَكوا خزائنَهم، واستولَوا على الدُّنيا[1]، وقيلَ: الصَّوابُ أنَّ المرادَ مِنَ الأرضِ جميعُها، وأنَّ الظَّرفيَّةَ المدلولةَ بحرفِ ﴿فِي﴾ ظاهرةٌ في جزءٍ مِنَ الأرضِ، وهو موطنُ حكومةِ الأمَّةِ، وحيثُ تنالُ أحكامُها سكّانَهُ، والأصلُ في الظَّرفيَّةِ عدمُ استيعابِ المظروفِ الظَّرفَ[2].

الإيماءُ إلى أنَّ الاستخلافَ يحصلُ في مُعظَمِ الأرضِ

نُكْتَةُ تقييدِ (الاستخلافِ) بكونِهِ في الأرضِ:

جاء الاستخلافُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مقيَّدًا بلفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إيماءً إلى أنَّ الإسلام سينتشر، ويشيعُ أمرُه في الأرض كلِّها، وهذه بشرى لأهل الإسلام جميعًا، وكلَّما استمسك المسلمون بدينهم، وأحسنوا تمثيلَه والعملَ بمقتضاه، وأخذوا بأسباب الاستخلاف والنَّصر؛ كان لهم من هذه البشرى النَّصيبُ الأوفى.

استخلافُ الصّالحين قانونٌ إلهيٌّ مكين

دلالة (ما) في جملة: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ﴾:

(ما) في قولِهِ ﷻ: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مصدريَّةٌ، وهو صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: استخلافًا مِثلَ استخلافِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم في تحقُّقِ الوقوعِ[3]، والمعنى: ليجعلنَّهم بدلًا عنِ الكفّار، متصرِّفين في الأرض العرب والعَجَم تصرُّفَ الملوك في مماليكهم، كما استخلفَ اللّهُ تعالى بني إسرائيل في مصر والشّام بعد إهلاك فرعون والجبابرة، وكما استخلف هارونَ، ويوشع، وداود، وسليمان"[4].

بيانُ إمكانِ المُشبَّهِ، وتأكيدُ تحقُّقِ الوعدِ الواقعِ مِنَ الله تعالى

بلاغةُ التَّشبيهِ في جملة: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ﴾:

المُرادُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، تشبيهُ استخلافِ المُخاطَبينَ، باستخلافِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم، أي: استخلافًا مِثلَ استخلافِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم، في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 285.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 437.
(4) الجاويّ، مراح لبيد: 2/ 119.

تحقُّقِ الوقوعِ، شُبِّهَ ما هو مُنتظَرُ الوقوعِ، بما وقعَ في الماضي في عدمِ احتمالِ الخلافِ، فالغرضُ مِنَ التَّشبيهِ بيانُ إمكانِ المُشبَّهِ[1]، وتأكيدُ تحقُّقِ الوعدِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسۡتَخۡلَفَ﴾:

تحقُّقُ استخلافِ السّابقينَ، يُؤيِّدُه الواقعُ التّاريخيُّ المبين

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، على أنَّ استخلافَ السّابقينَ المُشبَّهَ بِهِ قد تحقَّقَ؛ لأنَّهُ وقعَ في الزَّمانِ الماضي الَّذي هو قبلَ زمانِ المذكورينَ، وذلكَ ممَّا يُقوّي وقوعَ استخلافِ المُخاطَبينَ، حيثُ شُبِّهَ بما هو واقعٌ معروفٌ لا يُنازِعُ فيهِ أحدٌ.

توجيهُ القراءاتِ في لفظ: ﴿ٱسۡتَخۡلَفَ﴾:

اختلافُ القراءاتِ بالبناءِ للفاعلِ والمفعولِ

قرأَ شُعبةُ: (استُخلِفَ) بضمِّ التّاءِ وكسرِ اللّامِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿ٱسۡتَخۡلَفَ﴾ بفتحِهما[2]، فقراءةُ الجمهورِ على بناءِ الفعلِ للفاعلِ، وأمّا قراءةُ شُعبةَ؛ فعلى بناءِ الفعلِ للمفعولِ، فالموصولُ منصوبٌ على الأوَّلِ، ومرفوعٌ على الثّاني[3]، وقيل: "الكاف نعتٌ لمصدر محذوف، أي: استخلافًا كاستخلاف الَّذين من قبلهم، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول ﴿ٱسۡتَخۡلَفَ﴾، و﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ متعلِّقان بمحذوف صلة الَّذين"[4].

بيانُ المُرادِ بعبارة: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

احتمالُ اللّفظِ معانيَ مُتعدِّدةً مُثرٍ للبيانِ في السّياق

اختُلِفَ في المرادِ بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، فقيلَ: المرادُ بهم بَنو إسرائيلَ، أهلكَ اللّهُ سبحانَهُ الجبابرةَ بمصرَ والشّامِ، وأورثَهم أرضَهم وديارَهم[5]، وقيلَ: المرادُ بهمُ الأُمَمُ الَّتي حكمَتْ مُعظَمَ العالَمِ، وأخافَتْ جميعَهُ،

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 437.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 332.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 434.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 642.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 299.

كالأشوريّينَ، والمصريّينَ، واليهودِ زمنَ سليمانَ عليه السلام، والفُرْسِ، واليونانِ، والرّومانِ، وقيلَ: هذهِ الآيةُ تتضمَّنُ خِلافةَ أبي بكرٍ وعُمرَ وعثمانَ وعليٍّ رضي الله عنهم، وعلى هذا، فالمرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: صُلَحاءُ الملوكِ، كيوسفَ، وداودَ، وسليمانَ، وذي القرنين، وبعضِ مَنْ ولي جمهوريَّةَ اليونانِ[1]، وقيلَ: المرادُ بهِم: مَنْ بعدَ نوحٍ عليه السلام، كعادٍ وغيرِهم[2].

أثرُ الجارِّ والمجرورِ المُتعلِّقينَ بصِلةِ الموصولِ المحذوفةِ

إعرابُ قولِهِ تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ - في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ - مُتعلِّقانِ بصِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ المحذوفةِ، والمعنى: كما استخلفَ الَّذينَ استُخلِفوا مِنْ قبلِهم، أو كما استخلفَ الَّذينَ كانوا مِنْ قبلِهم.

بيانُ أثرِ الجملةِ المعطوفةِ على جملةِ الاستخلافِ

دلالةُ إعرابِ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾، معطوفٌ على قولِهِ: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، وهو مُنتظِمٌ معَهُ في سِلْكِ جوابِ القَسَمِ[3]، ولذلك فهو "أساس لما قبلَه ولما بعدَه، فالدّينُ يُمَكَّن فيما بينَهم، فلا يكون ثمَّةَ ما يُسَوِّغ ضعفَ اليقين، بل تبقى الحُجَّةُ للقرآن وحدَه، ويدركُه النّاسُ في دَعَةٍ واستقرار، ولا يوجد إيذاءٌ ولا استخذاء ولا استهزاء، ولا تهكُّمٌ على المؤمنين"[4].

التَّمكينُ كالأثَرِ للاستخلافِ، وكلاهما وعدٌ منَ الله للمؤمنين

سِرُّ تأخيرِ تمكينِ الدّينِ عنِ الاستخلافِ:

تأخيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾، عن قولِهِ: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، معَ كونِهِ أَجَلَّ الرَّغائبِ الموعودةِ وأعظمَها؛ لأنَّهُ كالأثَرِ للاستخلافِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 286.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5220.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5221.

المذكورِ، وقيلَ: لأنَّ النُّفوسَ إلى الحُظوظِ العاجلةِ أميَلُ، فتصديرُ المواعيدِ بها في الاستمالةِ أدخلُ[1]، وقيلَ: ذَكَرَ سبحانَهُ الاستخلافَ لهُم أوَّلًا، وهو جَعْلُهم مُلوكًا، وذَكَرَ التَّمكينَ ثانيًا، فأفادَ ذلكَ أنَّ هذا المُلكَ ليسَ على وجهِ العُروضِ، بل على وجهِ الاستقرارِ والثَّباتِ، بحيثُ يكونُ لهُم ولعَقِبِهم مِنْ بعدِهم[2].

معنى اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾:

التّـمكينُ عـزّةٌ وقـوّةٌ، واستيعابٌ لحركة الحياة الدّؤوبة

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، معطوفٌ على قولِهِ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وهو مُنتظِمٌ معَهُ في سِلْكِ جوابِ القَسَمِ[3]، وعلى هذا: فاللّامُ في السّياق واقعةٌ في جوابِ القَسَم، ومعنى تمكين الدّين: سيطرتُه على حركة الحياة، واستيعابُه لمعاملات النّاس ومبادلاتهم، فلا يصدر من أمور الحياة أمرٌ إلّا في ضوئه وعلى هَدْيه، ولا غروَ أن نُدرك بأنَّ تمكينَ الدّين يعني: توظيفَهُ الإيجابيَّ، وتوفيرَ الظُّروفِ المُثلى لقيامه بدوره في حركة الحياة المتماوجة، والمُتضمِّنة لكلِّ ما هو ناجِع، من حيثُ التَّنظيمُ والصّيانة[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾:

تمكينُ الدّين أمرٌ مستقبليٌّ واقعٌ بأمر الله وقَدَرِه

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، "أي: وعدَ اللهُ المؤمنين بأن يجعلَهم خلفاءَه في أرضه، وبأن يجعلَ دينَهم - وهو دينُ الإسلام الَّذي ارتضاه لهم - ثابتًا في القلوب، راسخًا في النُّفوس، باسطًا سلطانَه على أعدائه، له الكلمةُ العُليا في هذه الحياة"[5]، وحيثُ إنَّ تمكينَ الدّين أمرٌ موعودٌ به، ووقوعُهُ سيكونُ في المستقبل، فيناسبُهُ إيرادُ هذه الصّيغة.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 393.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 55.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10324 (بتصرّف).
(5) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 10/ 147.

مناسبةُ التَّوكيدِ لمقامِ الوعدِ الأكيد

نُكْتَةُ توكيدِ الفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾:

أُكِّدَ الفعلُ ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ؛ لمناسبةِ التَّوكيدِ لمقامِ الوعدِ الَّذي وعدَ بِهِ اللّهُ ﷻ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ؛ لِما يُفيدُهُ التَّوكيدُ مِنْ تحقُّقِ وقوعِ الموعودِ بِهِ، وفي ذلكَ مزيدُ تبشيرٍ للمُخاطَبينَ، ومزيدُ حَثٍّ لهُم على تحصيلِ أسبابِ وقوعِ المَوعودِ بِهِ.

المسارعةُ إلى بيانِ كونِ الموعودِ مِنْ منافعِهِم

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿لَهُمْ﴾ على ﴿دِينَهُمُ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ - في قولِهِ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ - مُقتضَى الظّاهرِ فيهِ أنْ يكونَ بعدَ قولِهِ: ﴿دِينَهُمُ﴾؛ لأنَّ المجرورَ بالحرفِ أضعفُ تعلُّقًا مِنْ مفعولِ الفعلِ، فقُدِّمَ ﴿لَهُمْ﴾ عليهِ؛ للإيماءِ إلى العنايةِ بهِم، أي: بكونِ التَّمكينِ لأجلِهِم[1]، ومِنْ منافعِهِم؛ تشويقًا لهُم إليهِ، وترغيبًا لهُم في قَبولِهِ عندَ وُرودِهِ، ولأنَّ في توسيطِ ﴿لَهُمْ﴾ بينَ المفعولِ وبينَ وصفِهِ - أعني: قولَهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ - مِنَ الإخلالِ بجزالةِ النَّظمِ الكريمِ، ما لا يَخْفَى[2].

تشريفُ الدّينِ والتَّرغيبُ فيهِ مِنْ مقاصدِ السّياقِ

نُكْتَةُ إضافةِ (الدّينِ) إلى ضميرِهِم: ﴿دِينَهُمُ﴾:

إضافةُ الدّينِ إلى ضميرِ المذكورينَ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾؛ إشارةٌ إلى رُسوخِ أقدامِهِم فيهِ، وأنَّهُ أبَديٌّ لا يُنسَخُ[3]، وتأليفٌ لقلوبِهِم، ومزيدُ ترغيبٍ فيهِ وتثبيتٍ عليهِ[4]، وفي الإضافةِ أيضًا تشريفٌ لهُم بِهِ؛ لأنَّهُ دينُ اللّهِ، كما دلَّ عليهِ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: الَّذي اختارَهُ؛ ليكونَ دينَهُم، فيقتضي ذلكَ أنَّهُ اختارَهُم أيضًا ليكونوا أتباعَ هذا الدّينِ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 394.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 304.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.

الموصوفينَ بهذهِ الصِّلةِ، هم الَّذين يَنشُرونَ هذا الدّينَ في الأُمَمِ؛ لأنَّهُ دينُهم، فيكونُ تمكُّنُهُ في النّاسِ بواسطتِهم[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ (التَّمكين):

التَّمكينُ استعارةٌ للاستقرارِ والثَّباتِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾، معناهُ: لَيَجْعَلَنَّ دينَهم ثابتًا مُقرَّرًا، بحيثُ يستمرّونَ على العملِ بأحكامِهِ، ويرجعونَ إليهِ في كلِّ ما يأتونَ، وما يَذَرونَ، والتَّعبيرُ عن ذلكَ بالتَّمكينِ الَّذي هو جعْلُ الشَّيءِ مكانًا لآخرِ - يقالُ: مكَّنَ لهُ في الأرضِ، أي: جعلَها مَقرًّا لهُ - للدَّلالةِ على كمالِ ثباتِ الدّينِ ورَصانةِ أحكامِهِ، وسلامتِهِ منَ التَّغييرِ والتَّبديلِ؛ لابتنائِهِ على تشبيهِهِ بالأرضِ في الثَّباتِ والقرارِ، معَ ما فيهِ منْ مراعاةِ المناسبةِ بينَهُ وبينَ الاستخلافِ في الأرضِ[2]، وقيلَ: تمكينُ الدّينِ: انتشارُهُ في القبائلِ والأُمَمِ، وقدِ استُعيرَ التَّمكينُ الَّذي حقيقتُهُ التَّثبيتُ والتَّرسيخُ، لمعنى الشُّيوعِ والانتشارِ؛ لأنَّهُ إذا انتشرَ؛ لم يُخْشَ عليهِ الانعدامُ، فكانَ كالشَّيءِ المُثبَتِ، وإذا كانَ مُتَّبِعوهُ في قلَّةٍ؛ كانَ كالشَّيءِ المُضطرِبِ المُتزلزِلِ[3].

دلالةُ وصفِ الدّينِ بالارتضاءِ:

مدحُ الدّينِ والتَّرغيبُ فيهِ، ملمحٌ في البلاغ بارزٌ فيه

وُصِفَ الدّينُ في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾ بالارتضاءِ؛ لمدحِهِ بهذهِ الصِّفةِ الجليلةِ[4]، وفي ذلكَ أيضًا تأليفٌ لقلوبِهم، ومزيدُ ترغيبٍ فيهِ، ومزيدُ تثبيتٍ عليهِ[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿ٱرۡتَضَىٰ﴾:

تحقُّقُ الارتضاءِ مبينٌ عنِ المُراد المقتضى

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ارتضاءَ الدّينِ أمرٌ قد

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 65.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.

مضَى، وتحقَّقَ في حكمِ اللّهِ ﷻ منذُ الأزلِ، وفي ذلكَ مزيدُ مدحٍ للدّينِ، ومزيدُ ترغيبٍ فيهِ، ولا غَرْوَ في ذلكَ، فهو دينُ الحقِّ والتَّوحيدِ الَّذي جاءَ بِهِ جميعُ الأنبياءِ ﵈.

سِرُّ إيثارِ صيغةِ الافتعالِ: ﴿ٱرۡتَضَىٰ﴾:

المبالغةُ في الرِّضا؛ للمبالغة في رضاه تعالى عنه للبشر

لمّا كانَ سياقُ الوعدِ الكريمِ بالاستخلافِ وتمكينِ الدّينِ والأمنِ، مُشتمِلًا على مدحِ الدّينِ والتَّرغيبِ فيه، أوثِرَتْ صيغةُ الافتعالِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾، ولم يقلْ مثلًا: (الَّذي رَضيَ لهُم)؛ للمبالغةِ في رِضا اللّهِ تعالى ذِكْرُهُ عن الدّينِ؛ لأنَّ زيادةَ المَبْنَى تدلُّ على زيادةِ المعنى.

نُكْتَةُ حذفِ عائدِ الصِّلةِ في: ﴿ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾:

الحذفُ إيجازًا في السِّياق، مبينٌ عنِ البيان المسوق

حُذِفَ عائدُ الصِّلةِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾، ولم يقلْ: (الَّذي ارتضاهُ لهُم)؛ إيجازًا، وحذفُ عائدِ الصِّلةِ كثيرٌ في الكلامِ عندَ دلالةِ السِّياقِ عليهِ.

دلالةُ اللّامِ في جملة: ﴿ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾:

تمكينُ الدّينِ ليسعد به الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ

يدلُّ التَّعبيرُ باللّامِ الدّالَّةِ على التَّمليكِ في ﴿لَهُمۡ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾، على أنَّ تمكينَ الدّينِ لأجلِ الَّذينَ آمَنوا، وعَمِلوا الصّالحاتِ، وفي ذلكَ مزيدُ حَثٍّ لهُم على التَّمسُّكِ بهِ، وتحريكٌ لسوانحِ الشُّكرِ في قلوبِهم.

سِرُّ تأخيرِ الوعدِ بالأمنِ عن الوعدِ بالتَّمكينِ:

الأمنُ مُتوقِّفٌ على القوَّةِ والتَّمكينِ، وكلاهما ضروريٌّ لعزوة الدّين

أُخِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، عن قولِهِ: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾؛ لأنَّ المسلمينَ قد كانوا واثقينَ بالأمنِ، ولكنَّ اللّهَ قدَّمَ على وعدِهم بالأمنِ، وعدَهم بالاستخلافِ في الأرضِ وتمكينِ الدّينِ والشَّريعةِ لهُم؛ تنبيهًا لهُم على أنَّ سنَّةَ

اللّهِ، أنَّهُ لا تأمنُ أمَّةٌ بأسَ غيرِها، حتَّى تكونَ قويَّةً مكينةً مُهيمِنةً على أصقاعِها[1].

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

عطفُ السّياق للعبارات، تعدادٌ للأنْعُم المتُوخّاة

جملةُ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ معطوفةٌ على ما قبلَها[2]، فتكونُ داخلةً أيضًا في حيِّزِ الموعودِ بِه، وهو الاستخلافُ في الأرضِ، وتمكينُ الدّينِ والشَّريعةِ والأمن.

معنى اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

القَسَمُ على الفعل لمزيد يقينٍ بحصوله في أوانه

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، معطوفٌ على ما قبلَهُ، وهو مُنتظِمٌ معَهُ في سِلْكِ جوابِ القَسَم، وعلى هذا، فاللّامُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ واقعةٌ في جوابِ القَسَم، وفي هذا إزالة للمخاوف؛ لذلك أكَّد - باللّام الدّالَّة على القَسَم - أنَّه سيبدِّل خوفهم أمنًا، حيثُ "يؤمِّن سِربَهم، ويزيلُ عنهم الخوفَ الَّذي كانوا عليه، وذلك أنَّ النَّبيَّ صلّى اللّه عليه وآله وسلَّم وأصحابه، مكثوا بمكَّة عشرَ سنين خائفين، ولمّا هاجروا؛ كانوا في المدينة، يصبحون في السِّلاح، ويمسون فيه"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

حصولُ الأمنِ أمرٌ مستقبليٌّ، موعودٌ به قابلًا

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾؛ لأنَّ تبديلَهم مِنْ بعدِ خوفِهم أمنًا أمرٌ موعودٌ بِه، ووقوعُهُ سيكونُ في المستقبلِ، فيناسبُهُ إيرادُ هذه الصّيغةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّبديلِ في قولِهِ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

إيقاعُ التَّبديل على الذّاتِ للمبالغةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ مبالغةٌ؛ إذِ التَّبديلُ في الخوفِ، حيثُ زالَ الخوفُ منهُم، وحصلَ الأمنُ بدلَهُ،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 282.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 56.

(3) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 10/ 404.

وإيقاعُ التَّبديلِ عليهِم للمبالغةِ؛ إذ لا تبديلَ للذّاتِ، بل هو مِنْ صفةٍ إلى صفةٍ أخرى[1].

نُكْتَةُ توكيدِ الفعلِ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

مناسبةُ التَّوكيدِ لمقامِ الوعدِ، مُبينةٌ عنِ المُرادِ

أُكِّدَ الفعلُ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ - في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ - بنونِ التَّوكيدِ الثقيلة؛ لمناسبةِ التَّوكيدِ لمقامِ الوعدِ الَّذي وعدَ بِهِ اللّهُ ﷻ الَّذينَ آمَنوا، وعَمِلوا الصّالحاتِ؛ لِما يُفيدُهُ التَّوكيدُ مِنْ تحقُّقِ وقوعِ الموعودِ بِهِ، وفي ذلكَ مزيدُ تبشيرٍ للمُخاطَبينَ، ومزيدُ حثٍّ لهُم على تحصيلِ أسبابِ وقوعِ الموعودِ بِهِ.

توجيهُ القراءاتِ في جملة: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

اختلافُ القراءاتِ بتشديدِ الدّالِ وتخفيفِها، إثراءٌ للمعنى

قرأَ ابنُ كثيرٍ ويعقوبُ وشُعبةُ: (وَلَيُبْدِلَنَّهُم) بتخفيفِ الدّالِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بالتَّشديدِ[2]، فقيلَ: الإبدالُ والتَّبديلُ لغتانِ بمعنًى واحدٍ، وقيلَ: الإبدالُ: تنحيَةُ جوهرٍ واستئنافُ آخرَ، والتَّبديلُ: تغييرُ الصّورةِ إلى غيرِها، والجوهرُ باقٍ بعينِهِ[3]، وكونه قُرِئَ من (أبدل) ومن (بدَّل)، وهما لغتان، فإنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، وقراءة التَّشديدِ أرجحُ في الدَّلالة والإفصاح عنِ المراد من قراءة التَّخفيف، وفي فتح البيان: "وزعم ثعلب أنَّ بينهما فرقًا، وأنَّه يقال: بدَّلته، أي: غيَّرته، وأبدلته: أزلته، وجعلت غيرَه مكانَه، قال النّحاس: وهذا القول صحيح، والمعنى: أنَّه سبحانه يجعل لهم مكانَ ما كانوا فيه مِنَ الخوف من الأعداء أمنًا، ويذهب عنهم أسبابَ الخوفِ الَّذي كانوا فيه، بحيثُ لا يخشون إلّا اللّهَ سبحانه، ولا يرجون غيره"[4].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بعبارة: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾:

ربطُ استغراقِ الأمنِ العامِّ بما بعدَ الخوفِ

قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، فيهِ وعدٌ مِنَ اللّهِ تعالى

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 438.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 333.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 538.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 9/ 255.

بتحقيقِ الأمنِ للَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ، ولمّا كانَ الأمنُ العامُّ غيرَ مُستغرِقٍ لجميعِ الزَّمانِ، أُشيرَ إلى ذلكَ بإثباتِ الجارِّ، فقالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾، أي: مِنْ بعدِ خوفِهم هذا الَّذي هم فيهِ الآنَ[1].

سِرُّ إيثارِ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ على (وَلَيُؤْمِنَنَّهم):

حصولُ الأمنِ بعدَ خوفٍ، نعمةٌ منَ الله جليلة

أوثِرَ التَّعبيرُ بقولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، ولم يقلْ: (وَلَيُؤْمِنَنَّهُم)، كما قالَ: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، و﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ﴾؛ لأنَّهم ما كانوا يَطْمَحونَ يومئذٍ إلّا إلى الأمنِ، فكانوا في حالةٍ هي ضِدُّ الأمنِ، فكانَ في إعطائِهم الأمنَ بعدَ الخوفِ مِنَّتانِ عليهم، ولو أُعْطوا الأمنَ دونَ أنْ يكونوا في حالةِ خوفٍ؛ لكانَ الأمنُ مِنَّةً واحدةً[2].

نُكْتَةُ إضافةِ الخوفِ إليهم في قوله: ﴿خَوۡفِهِمۡ﴾:

الإشارةُ إلى كون الخوفِ معروفًا ومُقرَّرًا

إضافةُ الخوفِ إلى ضميرِ المذكورينَ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهُ خوفٌ معروفٌ مُقرَّرٌ[3]، وفي هذهِ الإضافةِ مزيدُ حثٍّ لهُم على تحصيلِ أسبابِ هذهِ النِّعمةِ العظيمةِ، وهي حصولُ الأمنِ بعدَ الخوفِ.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿أَمۡنٗاۚ﴾:

تعظيمُ أمرِ الأمنِ، مَلْحَظٌ قرآنيٌّ مألوف

لمّا كانَ السّياقُ لبيانِ الوعدِ الكريمِ منَ الحقِّ ﷻ، وكانَ مِنْ جملةِ الموعودِ بهِ حصولُ الأمنِ بعدَ الخوفِ؛ نُكِّرَ ﴿أَمۡنٗاۚ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾؛ لتعظيمِ شأنِه، أي: أمنًا عظيمًا بمقدارِ هذا الخوفِ[4]، ويدلُّ على كونِ التَّنكيرِ للتَّعظيمِ كونُ الأمنِ مُبدَّلًا مِنْ بعدِ خوفِهم المعروفِ بالشِّدَّةِ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 305.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.

دلالةُ الطِّباق بينَ (الأمنِ) و(الخوفِ):

تقابل الصّورتين، يُبرز المِنَّة بالأمن بعد الخوف

في الجمعِ بينَ الأمنِ والخوفِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، مراعاةُ الطِّباقِ بينَهما، وذلكَ مِنْ مُحسِّناتِ الكلامِ؛ لأنَّهُ يجعلُ أمامَ القارئِ صورتينِ مُتقابلَتينِ، يَرى في إحداهما الخوفَ، وهو في أَوْجِه، ويرى في الأخرى الأمنَ العظيمَ الشَّأنِ، وبذلك تَعْظُمُ المِنَّةُ على المُخاطَبينَ الموعودينَ، بهذا الوعدِ الكريمِ.

بلاغةُ الإيماءِ في التَّمكينِ وتبديلِ الخوفِ أمنًا:

التَّهيُّؤُ لتحصيل أسبابِ الوعدِ، مِن ألطاف الله الجليَّة

في الوعدِ بالاستخلافِ والتَّمكينِ وتبديلِ الخوفِ أمنًا، في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، إيماءٌ إلى التَّهيُّؤِ لتحصيلِ أسبابِ الوعدِ، معَ ضمانِ التَّوفيقِ لهُم، إنْ هم أَخَذوا في ذلكَ، وأنَّ مِلاكَ ذلكَ، هو طاعةُ اللهِ والرَّسولِ ﷺ، كما دلَّ عليهِ قولُهُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾[1].

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ وفائدتها:

تَراوحُ الجملةِ بينَ الاستئناف أو الحال، إثراءٌ للدَّلالة المتاحة

قولُهُ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾، يجوزُ أنْ يكونَ مستأنفًا[2]، وفائدةُ الاستئنافِ: بيانُ المُقتضي للاستخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ[3]، والاستئنافُ بيانيٌّ، كأنَّ سائلًا قالَ: ما حالُهم حتَّى استحقّوا بسببِها استخلافَهم وأمنَهم مِنَ الخوفِ؟ فقالَ تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾، أي: استمرارُهم على عِبادتي اقتضَى ذلكَ[4]، ويجوزُ أنْ يكونَ في موضعِ الحالِ، والتَّقديرُ: وعدَ اللهُ المؤمنينَ في حالِ عِبادتِهم وإخلاصِهم للهِ ﷻ، لَيَفْعَلَنَّ بهم كذا وكذا[5]، وفائدةُ الحالِ تقييدُ الوعدِ بالثَّباتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 283.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 51.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113.

(4) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 440.

(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 51.

على التَّوحيدِ[1]، وقيلَ: جملةُ ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هم يَعبُدونَني، والجملةُ استئنافيَّةٌ تقتضي المدحَ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾:

الـدَّلالـةُ على اسـتـمـرارِ العبادةِ، يُناسب المضارعيَّة

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ على أنَّ الَّذينَ آمَنوا، وعَملوا الصّالحاتِ، الموعودينَ بما ذُكِرَ، مُستمِرّونَ على عبادةِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ[3]، وفي إفادةِ الاستمرارِ، تعريضٌ بالمنافقينَ؛ إذ كانوا يؤمنونَ، ثمَّ ينقلبونَ[4].

سِرُّ التَّعبيرِ بضميرِ المُتكلِّمِ وحْدَهُ:

مناسبةُ ضميرِ المتكلِّمِ لسياقِ التَّوحيدِ، مفيدٌ في البيان

عُبِّرَ بضميرِ المتكلِّمِ وحدَهُ، في قولِهِ ﷻ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾، دونَ ضميرِ الغائبِ، ودونَ ضميرِ العظَمةِ، فلم يقلْ: (يَعبُدونَهُ)، أو (يَعبُدونَنا)، وفي ذلكَ مِنَ اللَّطافةِ ما لا يَخْفَى[5]؛ لِما في صيغةِ التَّكلُّمِ، مِنْ زيادةِ تعيينِ المعبودِ بالحقِّ، ولِما في صيغةِ الإفرادِ، مِنَ التَّنصيصِ على الوحدانيَّةِ.

دلالةُ إعرابِ جملةِ: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي﴾:

تـنـوُّعُ الـتَّـأويـلِ الإعرابيِّ مفيدٌ في توسيعِ المعاني

قولُهُ ﷻ: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مستأنفًا[6]، ويجوزُ أنْ يكونَ حالًا مِنْ فاعلِ ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾، أي: يَعبُدونَني موحِّدينَ[7]، وفائدةُ الحالِ تقييدُ العبادةِ بهذهِ الحالةِ؛ لأنَّ المشركينَ قد يَعبُدونَ اللّهَ، ولكنَّهم يُشرِكونَ معَهُ غيرَهُ[8]، ويجوزُ أنْ يكونَ بدلًا مِنَ جملةِ ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ الواقعةِ حالًا[9].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 434.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 440.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 288.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 394.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 435.
(7) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 435.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 288.
(9) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 435.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يُشۡرِكُونَ﴾:

الدّلالةُ على استمرارِ انتفاءِ الإشراكِ، مناسبٌ لصيغة المضارع

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِه تبارك شأنُه: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾، على استمرارِ انتفاءِ الإشراكِ باللّهِ ﷻ، كما هو مُقتضَى التَّوحيدِ؛ لأنَّ المضارعَ يُفيدُ الاستمرارَ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ؛ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ.

نُكْتَةُ نفيِ الإشراكِ، بعدَ إثباتِ العِبادةِ:

التَّأكيدُ على الإخلاصِ في العِبادةِ مَلْمحٌ قرآنيٌّ مألوف

في تعقيبِ العِبادةِ بنفيِ الإشراكِ، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ تأكيدٌ على ضرورةِ إخلاصِ العِبادةِ للّهِ ﷻ، والمعنى: لا يُشرِكونَ في عِبادتِهم إيّايَ الأوثانَ والأصنامَ، ولا شيئًا غيرَها، بل يُخلِصونَ لي العبادةَ، فيُفرِدونَها إليَّ دونَ كلِّ ما عُبِدَ مِنْ شيءٍ غيري[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ في السّياق:

السّياقُ يستوعبُ ألوانَ الشِّركِ الظّاهرِ منها والخفيِّ

تنكيرُ ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾، في قولِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ للتَّعميمِ، والمعنى: لا يُشرِكونَ بي شيئًا مِنَ الأشياءِ أيًّا كانَ، ويدلُّ - على كونِ التَّنكيرِ للتَّعميمِ - سياقُ التَّوحيدِ وإفرادِ اللّهِ ﷻ بالعِبادةِ، ومفادُ قولِه تعالى: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾، أي: لا يشركون بي في أيِّ مَلمحٍ من ملامح العبادة الظّاهرة والباطنة، فلا شركَ في عبادةٍ، ولا طاعةٍ، ولا عملٍ، بل يكون التَّعبُّد كلُّه ممحَّضًا للّه وحده، فلا يطيعون مخلوقًا، ويتركون طاعة الخالق، وإذا خُيّروا بين عصيان المخلوق الكَنود، وعصيانِ الخالقِ للوجود؛ اختاروا عصيانَ المخلوق؛ حتّى يستمرَّ لهم السُّلطانُ في الأرض، كما وعدَهم اللّهُ[2].

دلالةُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

قيلَ: الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 209.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5221 (بتصرّف).

﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ للعطفِ، والجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَعَدَ﴾، أو على مُقدَّرٍ، أي: (مَنْ آمنَ هم الفائزون، ومنْ كفرَ ... إلى آخره)[1]، وقيلَ: الجملةُ معطوفةٌ على ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾؛ لأنَّ معناهُ: (ومَنْ لم يَعْبُدْني)[2]، وقيلَ: الواوُ استئنافيَّةٌ، والجملةُ ابتدائيَّةٌ سيقَتْ لبيانِ حالِ مَنِ ارتدَّ مِنْ هؤلاءِ المؤمنينَ الموعودينَ[3].

تنوُّعُ دلالةِ حرفِ المعنى، دليلٌ على دقَّةِ المعنى وسعته

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالكُفْرِ والفِسْقِ عَقِبَ ما سبقَهُ:

جملةُ ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، تحذيرٌ بعدَ البِشارةِ، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾، وذلكَ جارٍ على عادةِ القرآنِ، في تعقيبِ البِشارةِ بالنِّذارةِ والعكسِ؛ دفعًا للاتِّكالِ[4]، فيكونُ في الكلامِ مقابلةٌ حسنةٌ.

تعقيبُ البِشارةِ بالنِّذارةِ، من أساليبِ البلاغِ الحكيمة

معنى (مَنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

تحتملُ (مَنْ) في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، أنْ تكونَ موصولةً، وتحتملُ أنْ تكونَ شرطيَّةً[5]، وعلى الثّاني تكونُ الفاءُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ رابطةً لجوابِ الشَّرطِ، وعلى الأوَّلِ لشَبَهِ الموصولِ بالشَّرطِ والمعنى المسوق، مَفادُهُ أنَّ "الَّذي يترك الإيمانَ في حال عِزّه وقَهْره، وعدمِ وجودِ الأسباب المانعة منه، يدلُّ على فساد نيَّته، وخُبثِ طَويَّته؛ لأنَّه لا داعيَ له لترك الدّين إلّا ذلك"[6].

تَراوحُ الأداةِ بينَ الموصوليَّة والشَّرطيَّة، يُبرزُ الدَّلالةَ ويوجِّه المعنى

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 396.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 306.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 441.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 288.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 395.
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 573.

المرادُ بالكفرِ في جملة: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

المُـرادُ بالكفر مقابلُ الإيمانِ، علـى ظاهـرِ السّياق المدرج

الظّاهرُ أنَّ المُرادَ بالكفرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الكفرُ المُخرجُ مِنَ المِلَّة؛ لأنَّ الظّاهرَ أنَّه متى أُطلِقَ الكفرُ؛ كانَ المُرادُ مقابلَ الإسلام والإيمانِ(1)، وقيلَ: معنى قولِه تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: ومَنْ كفرَ بهذهِ النِّعَم، والمُرادُ بالكفرِ كُفرانُ النِّعمةِ؛ لأنَّهُ تعالى قالَ عَقِبَهُ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾، والكافرُ باللّهِ فاسقٌ، بعدَ هذا الإنعامِ وقبلَهُ(2).

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿كَفَرَ﴾:

الـدّلالـةُ على الرُّسوخِ في صفةِ الكفرِ، تدقيقٌ في الوصف بليغ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى الرُّسوخِ في صفةِ الكفرِ، أي: اتَّصفَ بالكفرِ بأنْ ثبتَ، واستمرَّ عليهِ، ولم يتأثَّرْ بما مرَّ مِنَ التّرهيبِ والتّرغيبِ، فإنَّ الإصرارَ عليهِ بعدَ مشاهدةِ دلائلِ التّوحيدِ، كفرٌ مُستأنَفٌ زائدٌ على الأصلِ، وهذا على أنَّ المرادَ استمرارُ الكافرِ الأصليِّ على كفرِه، وقيلَ المُرادُ: كَفَرَ بعدَ الإيمانِ، فيكونُ الكلامُ في المُرتدِّ، وقيلَ المرادُ: كَفَرَ بهذهِ النِّعمةِ العظيمةِ(3)، فلا يكونُ المُرادُ بالكفرِ مقابلَ الإيمانِ.

تعيينُ المُشارِ إليه ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾:

احتمالُ رجوعِ الإشارةِ إلى عدَّةِ مَعانٍ، مفيدٌ في الإبانة

اختُلِفَ في تعيينِ المُشارِ إليهِ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، فقيلَ: المُشارُ إليهِ هو الوعدُ، والمعنى: ومَنْ كفرَ بعدَ الوعدِ(4)، وقيلَ: المُشارُ إليهِ هو الاستخلافُ(5)، وقيلَ: الإشارةُ إلى الإيمانِ المُعبَّر عنهُ هنا بـ ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾، والمُعبَّرِ عنهُ في أوَّلِ الآيةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 65.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 300.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 516.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 307.

بقولِهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: ومَنْ كفرَ بعدَ الإيمانِ وما حصلَ لهُ مِنَ البِشارةِ عليه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيدِ:

تعظيمُ شأنِ المُشارِ إليهِ، من فصيحِ البيانِ

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ، في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بعد ذلك الوعدِ الكريمِ من مِنَحِ اللّهِ العظيم، بما فُصِّل منَ المطالبِ العاليةِ، المستوجبةِ لغايةِ الاهتمامِ بتحصيلِها، والسَّعيِ الجميلِ في حيازتِها[2]، وذلك أنَّ الكُفرانَ بعد الإغداقِ بمختلفِ المِنَحِ، والنُّكرانَ بعد الإغراقِ في النِّعمِ المادّيَّةِ والمعنويَّةِ، تَمَرُّدٌ يعكس خبثَ الطَّويَّةِ، وقد عَبَّرَ عنه السّياقُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ المُشارِ إليهِ، أي: ومَنْ كفرَ بعدَ ذلكَ الأمرِ العظيمِ الشَّأنِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

الإشارةُ إلى بُعدِهِم في الغِوايةِ والضَّلالِ

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قولِ اللّهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُشارَ إليهم - وهم الكفرةُ - قد تناهَوا في الغَيِّ والضَّلالِ، وأوغَلوا فيهما إيغالًا شديدًا، فهم بُعَداءُ عنِ الحقِّ والخيرِ، تائهونَ في تيهِ الغوايةِ والضَّلالِ[3]، وفيهِ أيضًا: إشارةٌ إلى أنَّهم لا يستحقّونَ عِزَّ الحُضورِ، ولذلكَ يُشارُ إليهم إشارةَ المُبغَضِ البعيدِ.

بلاغةُ القصرِ في قوله: ﴿هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

المُرادُ أنَّهم الكاملونَ في الفِسْقِ، وذلك غايةُ التَّبشيعِ للوصفِ

قولُهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، معناهُ: فأولئكَ هم الفاسقونَ الكاملونَ في فِسْقِهم[4]، ومعنى الكمالِ مستفادٌ مِنْ ضميرِ الفصلِ وتعريفِ الخبرِ، المُفيدَينِ للقَصْرِ والتَّخصيصِ، كقولكَ:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 288.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 18/ 288.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 307، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113.

هو الرَّجلُ كلُّ الرَّجلِ[1]، وكأنَّ المعنى: إنْ أردتَ أنْ تعرفَ حقيقةَ الفاسقينَ، فهم النّاسُ الَّذينَ بلغَكَ أنَّهم كَفَروا.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

الإتيانُ بلامِ الجنس؛ للمبالغة في الإخبار عنهم

التَّعريفُ في لفظ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ للجنسِ، وفائدةُ الإتيانِ بلامِ الجنسِ المبالغةُ في ادِّعاءِ كونِهم الفاسقينَ دونَ غيرِهم، وكأنَّ جنسَ الفاسقينَ مُنحصِرٌ فيهم، لا يتجاوزُهم إلى غيرِهم[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِسْقِ دونَ غيرِه:

الفِسْقُ هو الخروجُ مِنْ مَنْفَذٍ ضيِّقٍ، واستعمالُه مُبينٌ عنِ المُراد

في استعمالِ لفظِ (الفِسْقِ) دونَ غيرِه في قولِ اللّهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ لطافةٌ؛ لأنَّ مادَّةَ الفِسْقِ تدلُّ على الخروجِ مِنَ المكانِ مِنْ مَنْفَذٍ ضيِّقٍ[3]، وكأنَّ في ذلكَ إشارةً إلى أنَّهم بَذَلوا غايةَ وُسْعِهم في الخروجِ مِنَ الدّينِ، وتجشَّموا الصِّعابَ في سبيلِ ذلكَ.

(1) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 441.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 288.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 289.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾ [النّور: 56]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رَبْطُ معاني الأعمالِ الصّالحاتِ، بالشَّعائرِ وطاعة الرَّسولِ المبلِّغ

لمّا قدَّمَ ﷻ في قولِهِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، شرطَ عملِ الصّالحاتِ؛ بيَّنَها في هذهِ الآيةِ، فنَصَّ على أهمِّها، وهي إقامةُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وعَمَّ بطاعةِ الرَّسولِ؛ لأنَّها عامَّةٌ لجميعِ الطّاعاتِ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَطِيعُواْ﴾: (طوع) أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على الإصحاب والانقياد[2]، ولُيونة الشَّيءِ وتأتّيهِ لِما يُرادُ منهُ[3]، يقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ؛ إذا انقادَ لهُ، وأطاعَهُ بمعنى: طاعَ لهُ، ويقالُ لِمَنْ وافقَ غيرَهُ: قد طاوعَهُ[4]، والتَّطوُّعُ في الأصلِ: تكلُّفُ الطّاعةِ، وهو في عُرْفِ الشَّرعِ للتَّبرُّعِ بما لا يلزمُ، كالتَّنفُّلِ، والاستطاعةُ: وجودُ ما يصيرُ بِهِ الفعلُ متأتّيًا[5]، والمُراد بالآية: الانقيادُ للمأمور به.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ارتباطُ فعلِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ في الإسلامِ بطاعةِ الرَّسولِ ﷺ

يقولُ ﷻ: وأَقيموا الصَّلاةَ بحدودِها، ولا تُضيِّعوها، وآتوا الزَّكاةَ الَّتي فرضَها اللّهُ عليكُم لمستحقّيها، وأَطيعُوا الرَّسولَ فيما أمرَكم بِهِ، ونهاكُم عنهُ؛ كي يَرحمَكم ربُّكم، فيُنجيَكم مِنْ عذابِه[6].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 193.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طوع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(5) الرّاغب، المفردات: (طوع).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 210.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

احتمالُ الجملةِ وجوهًا مِنَ الإعرابِ، من بليغ البيان في الخطاب

قيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، ولا يَضرُّ الفصلُ؛ لأنَّه لا يَبْعُدُ أنْ يقعَ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ فاصلٌ، وإنْ طالَ[1]، وقيلَ: هو معطوفٌ على مُقدَّرٍ، وذلكَ أنَّهُ لمّا تمَّتِ البُشْرى، وكانَ التَّقديرُ: فاعمَلوا، واعبُدوا؛ عُطِفَ عليهِ قولُهُ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[2]، وقيلَ: هو عطفٌ على جملةِ ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ﴾؛ لِما فيها مِنْ معنى الأمرِ بتركِ الشِّركِ، فكأنَّهُ قيلَ: اعبُدوني، ولا تُشرِكوا، وأقيموا الصَّلاةَ؛ لأنَّ الخبرَ إذا كانَ يتضمَّنُ معنى الأمرِ؛ كانَ في قوَّةِ فعلِ الأمرِ[3].

بلاغةُ الالتفاتِ منَ الغَيْبَةِ إلى الخِطاب:

إبرازُ شعيرتَي الصَّلاةِ والزَّكاةِ، للحصانة مِنَ الفسق والآفات

قولُهُ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، التفاتٌ منَ الغَيْبةِ إلى الخطابِ، ويُحسِّنُهُ الخطابُ في ﴿مِنكُمْ﴾[4]، وذلك في سياقها وسياقِ ما قبلَها، حيثُ يقول تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والأمر هنا - مع تلوُّن الصّيغ بينَ الغَيْبة والحضور - لفتٌ للانتباه؛ لترك ما يُشِّع مِنَ الفِسق وحيثيّاته، وللدَّعوة لإقامة الشَّعائر المانعة منه، من أداء الصَّلاة وإيتاءِ الزَّكاة، في ظلِّ طاعةٍ تامَّة للّه تعالى ورسولِه ﷺ؛ لتحصيل الرَّحمة المنصوص عليها في السّياق.

دلالةُ الأمرِ في أفعال الأمرِ في الآية:

الأمرُ غايتُه الوجوب، ومَفادُه الائتمار بما ورد في السّياق

صيغةُ الأمرِ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، تُفيدُ الوجوبَ، فالصَّلاةُ والزَّكاةُ أُمّا العِباداتِ، ومِنْ أركانِ الإسلامِ، وطاعةُ الرَّسولِ ﷺ هي مِلاكُ الأمرِ، وسِرُّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 252.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 307، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 56.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 289.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 66.

السَّعاداتِ الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ، وقدِ ارتبط الأمرُ بطاعة اللّه في الأركان - كالصَّلاة والحجِّ - بطاعة الرَّسول المُبلِّغ في سائر ما يأمر به، قال أبو السُّعود: "أي: وأطيعوه في كلِّ ما يأمرُكم به، وينهاكم عنه، أو تكميلًا لما قبلَه مِنَ الأمرين الخاصَّين المُتعلِّقين بالصَّلاةِ والزَّكاةِ، على أنَّ المُرادَ بما ذُكر ما عداهما مِنَ الشَّرائعِ، أي: وأطيعوه في سائر ما يأمرُكم به"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في جملة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

تشبيهُ الصَّلاةِ بالعودِ الَّذي يُقَوَّم، من بليغ التَّصوير

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ؛ لأنَّ إقامتَها عبارةٌ عن تعديلِ أركانِها، وحفظِها مِنْ أنْ يقعَ في شيءٍ مِنْ فرائضِها وسُنَنِها وآدابِها زَيْغٌ، مِنْ أقامَ العودَ؛ إذا قوَّمَهُ، وعَدَّلَهُ، وقيلَ: إقامتُها عبارةٌ عنِ المواظبةِ عليها، مأخوذٌ مِنْ قامتِ السّوقُ؛ إذا نَفَقَتْ، فإنَّها إذا حوفِظَ عليها؛ كانَتْ كالنّافقِ الَّذي يُرغَبُ فيه، وقيلَ: إقامتُها عبارةٌ عنِ التَّشمُّرِ لأدائِها، عن غيرِ فُتورٍ ولا تَوانٍ، مِنْ قولِهم: قامَ بالأمرِ، وأقامَهُ، إذا جدَّ فيه، واجتهدَ، وقيلَ: إقامتُها عبارةٌ عن أدائِها، عُبِّرَ عنهُ بالإقامةِ؛ لاشتمالِه على القيامِ[2]، فيكونُ مِنْ قبيلِ المجازِ المُرسَلِ.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

تـنـوُّعُ دلالـةِ الـحـروف مفيدٌ في البيان المألوف

الظّاهرُ أنَّ (أل) في لفظ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للعهدِ، والمُرادُ بالصَّلاةِ خصوصُ الصَّلَواتِ الخمسِ المفروضةِ؛ لأنَّها هي الَّتي تجبُ على المُكلَّفينَ، ويحتملُ أنْ تكونَ اللّامُ في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للجنسِ، ويكونَ المُرادُ بالصَّلاةِ عمومَ الصَّلَواتِ، سواءٌ كانَتْ فرضًا أم نفلًا، وصيغةُ الوجوبِ باعتبارِ أنَّ النّافلةَ يجبُ فيها أيضًا تعديلُ أركانِها وحفظُها مِنْ أنْ يقعَ فيها زَيْغٌ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 18/ 289.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 31.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإيتاءِ دونَ الأداءِ في الآية:

الإشارةُ إلى أنّ الزّكاة عطاءٌ يُؤتى، لا غَرامة تُزْجَى

عُبِّرَ في قولِ الحقِّ تبارك شأنُهُ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بالإيتاءِ دونَ الأداءِ، فلم يقلْ: (وَأَدّوا الزَّكاةَ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الزَّكاةَ عطاءٌ يُعْطَى، ويُعطيها المُزَكّي على أنَّها مَغْنَمٌ، لا على أنَّها مَغْرَمٌ، وهي تعاونٌ اجتماعيٌّ لا مَذَلَّةَ فيهِ لفقيرٍ، ولا استطالةَ لغنيٍّ[1].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

بيانُ أنَّ (أل) لمعهودِ الزَّكاة المعروفة في الأركان الواجبات

(أل) في لفظ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ للعهدِ، والمُرادُ بالزَّكاة: الزَّكاةُ المعهودةُ، وهي الزَّكاةُ المفروضةُ الَّتي هي أحدُ أركانِ الإسلام، بقرينةِ الأمرِ في قولِه: ﴿وَءَاتُواْ﴾، فإنَّهُ للوجوبِ.

سِرُّ اقترانِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ في الأمرِ بهما:

بيانُ أنَّ الصَّلاةَ والزَّكاة هما مُرتَكَزُ أشرفِ العباداتِ

اقترنَ الأمرُ بإقامةِ الصَّلاةِ بالأمرِ بإيتاءِ الزَّكاةِ، في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لأنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ هما أُمّا العِباداتِ في الإسلامِ، فالصَّلاةُ أُمُّ العِباداتِ البَدَنيَّةِ، والزَّكاةُ أُمُّ العِباداتِ الماليَّةِ، وقد جرَتْ عادةُ القرآنِ بالجمعِ بينَهما، فلا تكادُ تُذكَرُ إحداهما دونَ ذِكْرِ الأُخرى، وعَقَلَ أبو بَكْرٍ الصِّدّيق ﷺ هذا المعنى، فاحتجَّ به على الصَّحابة في الرِّدَّة، فقالَ: "واللّهِ، لأُقاتِلَنَّ مَنْ فرَّق بينَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ"[2].

عِلَّةُ تقديمِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

بيانُ عِظَمِ أهمّيَّةِ الصَّلاةِ ومكانتِها في الإسلامِ

قُدِّمتِ الصَّلاةُ على الزَّكاةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لأنَّ الصَّلاةَ هي الرُّكنُ الوحيدُ الَّذي فُرِضَ مِنَ اللّهِ مباشرةً في رحلة المِعْراجِ، أمّا بقيَّةُ الأركانِ؛ فقد فُرِضَتْ بالوَحْيِ، ولأنَّ النُّطقَ بالشَّهادتينِ والصَّلاةَ - وهما مِنْ أركانِ الإسلامِ الخمسةِ - هما الرُّكنانِ الدّائمانِ اللَّذانِ لا يَسقُطانِ عنِ المُؤمنِ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5222.

(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1335)، ومسلم في صحيحه، برقم: (20)، عن أبي هريرة ﷺ.

بحالٍ مِنَ الأحوالِ، وأمّا الصَّومُ والزَّكاةُ والحجُّ؛ فقد لا تتوفَّرُ لكَ شروطُها، فلا تجبُ عليكَ، كما أنَّ الصَّلاةَ هي الفريضةُ المُكرَّرةُ على مدارِ اليومِ واللَّيلةِ خمسَ مرّاتٍ، وبها يَتِمُّ إعلانُ الوَلاءِ للهِ دائمًا، وقد وزَّعَها الحقُّ سبحانَهُ على الزَّمنِ؛ ليظلَّ المُؤمنُ على صِلَةٍ دائمةٍ بربِّهِ، ولأهمّيَّةِ الصَّلاةِ ومكانتِها في الإسلامِ اجتمعَ فيها كلُّ أركانِ الإسلامِ، ففي الصَّلاةِ تتكرَّرُ الشَّهادةُ، وفي الصَّلاةِ زكاةٌ؛ لأنَّ الزَّكاةَ فرعُ العملِ، والعملُ فرعُ الوقتِ، والصَّلاةُ تأخذُ الوقتَ نفسَهُ، وفيها صيامٌ حيثُ يُمتنَعُ فيها عمّا يُمتنَعُ عنهُ في الصَّومِ بل وأكثرَ، وفيها حَجٌّ؛ لأنَّ المُصلّيَ يتَّجهُ في صلاتِهِ إلى الكعبةِ[1].

نُكْتَةُ ذِكْرِ الأمرِ بالصَّلاةِ والزَّكاةِ دونَ غيرِهما:

بيانُ أنَّ أهمَّ الأعمالِ القربةُ البَدنيَّةُ والماليَّة

ذُكِرَ - في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ - الأمرُ بإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ دونَ غيرِهما مِنَ الأعمالِ الصّالحةِ، معَ دخولِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّهما أهمُّ الأعمالِ[2].

عِلَّةُ العطفِ في جملة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾:

العطفُ تكميلٌ، أو هو مِن عطفِ العامِّ على الخاصِّ

يُحتمَلُ أنْ يكونَ المُرادُ بالمُطاعِ فيهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ جميعَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ المُنتظِمةِ للآدابِ المَرْضيَّةِ أيضًا، أي: وأَطيعوهُ في كلِّ ما يأمرُكم بهِ، وما ينهاكُم عنهُ[3]، وعليهِ يكونُ عطفُهُ على ما سبقَ مِنْ عطفِ العامِّ على الخاصِّ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ تكميلًا لِما قبلَهُ مِنَ الأمرينِ الخاصَّينِ المُتعلِّقينِ بالصَّلاةِ والزَّكاةِ، على أنَّ المُرادَ بما ذُكِرَ ما عداهما مِنَ الشَّرائعِ، أي: (وأَطيعوهُ في سائرِ ما يأمرُكم بهِ ... إلى آخرِه)[4].

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10325.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 193.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 192.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 192.

وقيلَ: خُصَّ الرَّسولُ ﷺ بالإطاعةِ في الصَّلاةِ والزَّكاةِ؛ لأنَّهُ صاحبُ البيانِ والتَّفصيلِ لِما أجملَهُ الحقُّ سبحانَهُ في فرضيَّةِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ، فتَفصيلُ كلٍّ منهما في السُّنَّةِ المُطهَّرةِ[1].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾:

الرَّسولُ رَمزٌ للقُدوة الرَّضيَّة، والنَّموذجيَّة الفريدة

(أل) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المُرادَ بالرَّسولِ المأمورِ بطاعتِهِ هو نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ؛ لأنَّه عنوانُ القُدوة والكمال، وبطاعته يُمكنهم أن يستقيموا على الجادَّة، وأن يأخذوا وُجهتَهم مع المؤمنين، بأن يمتثلوا ما أمرَ اللّهُ به على لسان نبيِّه الكريم، فإن فعلوا؛ كانوا مع الرّاشدين، وإن تَوَلّوا؛ فإنَّما على الرَّسول البلاغُ، وعلى اللّه هدايةُ مَن زاغَ، وحسابُ مَن بَغَى[2].

نُكْتَةُ إعادةِ الأمرِ بطاعة الرَّسول الأسوة:

طاعةُ الرَّسولِ الأكرم ﷺ من أُسسِ الدّين

تقدَّمَ الأمرُ بطاعةِ الرَّسولِ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾، وعُلِّقَتْ بطاعتِهِ الهدايةُ، فقيلَ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾، وكُرِّرَ الأمرُ بطاعتِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، وعُلِّقَتْ بهِ الرَّحمةُ، والغَرَضُ مِنْ هذا التَّكرير: تأكيدُ وجوبِ طاعتِهِ ﷺ[3]، وتقريرُ مضمونِ الأمرِ السّابقِ، وقد أمرَهم اللّهُ ﷻ هنا بالذّاتِ، بما أمرَهم بهِ فيما سبقَ بواسطةِ الرَّسولِ ﷺ[4].

سِرُّ تكرارِ طاعةِ الرَّسولِ دونَ تكرار طاعةِ اللهِ تعالى:

تأبّي نُفوسِ العربِ على الانقياد للرُّسل مِنَ البشر

كُرِّرَ الأمرُ بطاعةِ الرَّسولِ ﷺ - في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ - بعدَ الأمرِ بها في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾، ولم يُكرَّرِ الأمرُ بطاعةِ اللّهِ سبحانَهُ؛ لِما أنَّ في

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10327.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1313 (بتصرّف).

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 252، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 517.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 192.

النُّفوسِ - لا سيَّما نُفوسِ العربِ - مِنْ صعوبةِ الانقيادِ للبشرِ، ما ليسَ فيها مِنْ صعوبةِ الانقيادِ للّهِ تعالى[1].

عِلَّةُ عدمِ ذكرِ المُطاعِ فيه في السّياق:

تعميمُ المُطاعِ فيه؛ لتأكيد الالتزام بكلِّ مأمور الشَّريعة

قيلَ: لم يُذكَرْ - في قولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ - ما يُطيعونَهُ فيهِ لقصدِ التَّعميم؛ لأنَّ مِثلَ هذا الحذفِ مُشعِرٌ بالتَّعميم[2]، وطاعتُه في حياته تكون باتِّباع أوامره في تنظيم الحياة، وضبطِ العلائق في الحَرب والسِّلم على حَدٍّ سواء، وتكون طاعتُه بعدَ مماته باتِّباع ما أُثِرَ من سُنَّته، فهي المَحَجَّة الواضحة، والسَّبيلُ القويم، والمَلجأ الحَصين، الَّذي لا يخاف المُحْتَمي به دَركًا، ولا يَخْشَى[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾:

(لعلَّ) مِنَ اللهِ واجبةٌ؛ ترغيبًا في تَطَلُّبِ الرَّحمة

لفظُ ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، معناهُ: في حقِّكم ومُعتقَدِكم[4]، أي: لتكونوا عندَ مَنْ يَجْهلُ العواقبَ، على رجاءٍ مِنْ حصولِ الرَّحمةِ، ممَّنْ لا راحِمَ في الحقيقةِ غيرُهُ[5]، وأمّا علّامُ الغُيوبِ ﷻ، فلا تَخْفَى عليهِ العواقبُ، و(لعلَّ) منهُ واجبةٌ[6]، وفي ذلكَ مزيدُ حَثٍّ على طاعةِ الرَّسولِ ﷺ، وقال أبو زهرة: "والرَّجاء هنا منَ النّاس، لا منَ اللّه تعالى، فاللّهُ تعالى لا يرجو؛ لأنّه عالمُ الغيب، وما يُكِنُّه المستقبلُ"[7].

نُكْتَةُ بناءِ ﴿تُرۡحَمُونَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ:

تفخيمُ شأنِ الفاعلِ، مُبينٌ عنِ المُراد

جيءَ بالفعلِ ﴿تُرۡحَمُونَ﴾ - في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ - مبنيًّا لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ؛ تفخيمًا لشأنِ الفاعلِ؛ لأنَّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 397.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 56، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 289.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5222 (بتصرّف).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 193.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 307.
(6) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 69.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5223.

فِعْلَ الرَّحمةِ لا يُتصَوَّرُ إلّا مِنَ اللهِ ﷻ، المُتفرِّدِ بالأُلوهيَّةِ، وصفاتِ الجلالِ والكمالِ، والمعنى: "رجاءَ أن تُرْحَموا ببقاءِ العِزَّة، وألّا تكونوا نهبًا مقسومًا بينَ الأُمم، وألّا تتداعَى عليكمُ الأُمم تداعيَ الأَكَلةِ على قَصْعَتِها"[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿تُرۡحَمُونَ﴾:

الرَّحـمـةُ أمـرٌ مـسـتـقـبـليٌّ، تتوخّاه الأنفسُ الطّائعةُ الزَّكيَّةُ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ تبارك شأنُهُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾؛ لأنَّ المضارعَ هنا للاستقبالِ، بقرينةِ أنَّ الرَّحمةَ موعودٌ بها، وهي مُعلَّقةٌ على طاعةِ الرَّسولِ ﷺ، وتكرارُ الأمر بطاعة الرَّسول ﷺ؛ لتأكيد وجوبها، وتعليقِ الرَّحمة بها، أي: بالطّاعة، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، أي: راجين الرَّحمةَ.

بلاغةُ الإيجازِ في الآيةِ:

اشتمالُ الآيةِ على جميعِ الأعمالِ الصّالحاتِ، مفيدٌ في البيان

جمعَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ جميعَ الأعمالِ الصّالحاتِ، فقدِ اشتملَ على أهمِّها - وهو إقامةُ الصَّلاةِ وإيتاءُ الزَّكاةِ - بالتَّصريح، واشتملَ على سائرِها بعُمومِ حذفِ المُتعلِّق، بقولِهِ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، أي: في كلِّ ما يأمرُكم بهِ، وينهاكُم عنهُ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ

فُرِّقَ بينَ الإيتاءِ والإعطاءِ مِنْ وجوهٍ، منها: أنَّ في الإعطاءِ دليلَ التَّملُّكِ دونَ الإيتاءِ[3]، ومنها: أنَّ الإيتاءَ أقوى مِنَ الإعطاءِ؛ لأنَّهُ يُستعمَلُ في الأشياءِ العظيمةِ، كالمُلْكِ والحِكْمةِ والقرآنِ، ومنها: أنَّ الإيتاءَ فيهِ معنى الوجوبِ والإلزامِ، والإعطاءَ فيهِ معنى التَّفضُّلِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5223.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 289.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 86.

والإكرام[1]، قال الجوينيُّ: "لا يكادُ اللُّغويون يُفرِّقون بينَ الإعطاء والإتيان، وظهر لي بينَهما فَرقٌ انبنى عليه بلاغةٌ في كتاب الله، وهو أنَّ الإتيانَ أقوى منَ الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له مطاوع، يقال: أعطاني فعَطوتُ، ولا يقال في الإيتاء: آتاني فأتيتُ، وإنَّما يقال: آتاني فأخذتُ، والفعل الَّذي له مطاوع أضعفُ في إثبات مفعولِهِ مِنَ الَّذي لا مطاوعَ له"[2].

(1) زيدان، الفروق اللّغويّة: 248 - 249.

(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن، ص: 75.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾ [النّور: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ حالِ الكافرينَ، بعدَ بيانِ حالِ المؤمنينَ وطاعتِهم ومآلِهم

لمّا كانَ الكفّارُ مِنَ الكثرةِ والقوَّةِ بمكانٍ كانَ الحالُ جديرًا بتأكيدِ معنى التَّمكينِ؛ جوابًا لسؤالِ مَنْ كأنَّهُ قالَ: وهل ذلكَ مُمكِنٌ؟ فقيلَ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1].

ومن المناسبة: لمّا بيَّنَ الحقُّ جلَّ وتباركَ حالَ مَنْ أطاعَهُ ﷺ، وأُشيرَ إلى فوْزِهِ بالرَّحمةِ المُطلَقةِ المُستتبِعةِ لسعادةِ الدّارينِ؛ عقَّبَ ذلكَ ببيانِ حالِ مَنْ عصاهُ ﷺ، ومآلِ أمرِهِ في الدُّنيا والآخرةِ، بعدَ بيانِ تناهيهِ في الفِسْقِ؛ تكميلًا للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾: (حسب) أصولٌ أربعة، أحدها: العَدُّ، تقول: حسَبْتُ الشَّيءَ أحسِبُهُ حَسْبًا وحُسبانًا، قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾ [الرَّحمن: 5]، ومن قياس الباب الحُسبانُ الظَّنُّ، وذلك أنَّه فُرِّقَ بينَه وبين العَدِّ بتغيير الحركة والتَّصريف، والمعنى واحدٌ؛ لأنَّه إذا قال: حَسِبْتُه كذا، فكأنَّه قال: هو في الذي أعدُّه مِنَ الأمور الكائنة[3]، وحسِبْتُهُ صالحًا أحسَبُهُ بالفتح، مَحْسَبَةً ومَحْسِبَةً وحِسْبانًا بالكسر، أي: ظَنَنته[4]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: 42]، وقولُهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 2]، وقوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 308، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 398.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 192، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 398.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهريّ، الصّحاح: (حسب).

﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، كلُّ ذلكَ مصدرُهُ الحُسْبانُ[1]، والمشهورُ أنَّ (حَسِبَ) يرادفُ (ظنَّ)[2].

2) ﴿مُعۡجِزِينَ﴾: عَجُزُ الإنسانِ: مُؤَخَّرُهُ، وبهِ شُبِّهَ مُؤَخَّرُ غيرِهِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: 20]، والعَجْزُ أصلُهُ التَّأخُّرُ عنِ الشَّيءِ، وحصولُهُ عندَ عَجُزِ الأمرِ، أي: مُؤَخَّرِهِ، وصارَ في العُرْفِ اسمًا للقُصورِ عن فعلِ الشَّيءِ، وهو ضِدُّ القُدرةِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ [المائدة: 31]، ويقالُ: أعجَزْتُ فلانًا، وعجَّزْتُه، وعاجَزْتُهُ، أي: جعلتُهُ عاجزًا، قالَ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 2]، والعَجوزُ سُمّيَتْ بذلكَ؛ لعَجْزِها في كثيرٍ مِنَ الأمورِ[3].

3) ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ﴾: (أوي) أصلانِ، أحدُهما: التَّجمُّعُ، والثّاني: الإشفاقُ، فمِنَ الثّاني يقالُ: أَوَيْتُ لفلانٍ آوي لهُ مَأْوِيَةً، وهو أنْ يَرِقَّ لهُ، ويرحمَهُ، ومِنَ الأوَّلِ يقالُ: أَوَى الرَّجلُ إلى منزِلِهِ أُوِيًّا، وآوَى غيرَهُ إيواءً، يقالُ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[4]، والمَأْوَى في نحوِ قولِهِ تعالى: ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ [آل عمران: 197] اسمٌ للمكانِ الَّذي يُؤْوَى إليهِ[5]، وهو المعنى المرادُ في الآيةِ.

4) ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: (صير) أصل واحدٌ، وهو المآلُ والمَرْجِعُ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: صارَ يَصيرُ صَيْرًا وصيرورةً، ويقالُ: أنا على صَيْرِ أمرٍ، أي: إشرافٍ مِنْ قضائِهِ[6]، ويقالُ: صارَ إلى كذا؛ إذا انتهَى إليهِ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشّورى: 15][7]، وصارَ إلى فلانٍ مصيرًا، كقولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾ [آل عمران: 28] وهو شاذٌّ، والقياسُ مَصارٌ مثلُ معاشٍ، و(صَيّرَهُ) كذا (تصييرًا) جعله[8]، والمعنى المُراد بالآية: المآلُ والمَرجع.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حسب).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حسب).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عجز).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى).
(5) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(7) الرّاغب، المفردات: (صير).
(8) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (صير).

لا يُعجِزُ الكفّارُ الجبّارَ، ومأواهم في الآخِرَةِ النّارُ

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّهُ تعالى شأنُهُ: لا تَظُنَّنَّ - يا مُحمَّدُ، أو أيُّها المُخاطَبُ - الَّذينَ كَفَروا، وكذَّبوا قادرينَ على الإفلاتِ مِنَ اللّهِ تعالى، بل هو قادرٌ عليهم، وسيُعذِّبُهم على ذلكَ أشدَّ العذابِ، ومأواهم في الدّارِ الآخِرةِ النّارُ، ولَبِئْسَ المآلُ هي، ولَبِئْسَ القرارُ والمِهادُ هي[1]، وخلاصةُ المعنى: لا تحسبنَّهم معجزينَ اللّهَ تعالى عن إدراكِهم بالإهلاك، في قُطْرٍ من أقطار الأرض، وإن هربوا كلَّ مهربٍ[2]؛ لأنَّه لا مَلْجَأَ ولا منجًى مِنَ اللّه إلّا إليه، فهو الَّذي إليه المنتهى، وإليه المصير.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

تأكيدُ معنى التَّمكينِ مِنَ السّياقِ المُفصحِ المُبين

قيلَ: لمّا كانَ الكفّارُ مِنَ الكثرةِ والقوَّةِ بمكانٍ؛ كانَ الحالُ جديرًا بتأكيدِ معنى التَّمكينِ؛ جوابًا لسؤالِ مَنْ كأنَّهُ قالَ: وهل ذلكَ مُمكِنٌ؟ فقيلَ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الآيةَ[3]، وعلى ذلكَ يكونُ فصلُ الجملةِ عمّا قبلَها؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذا استئنافٌ بيانيٌّ، جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ.

وقيلَ: بيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيتينِ السّابقتينِ، أنَّهُ يكونُ للمؤمنينَ الصّالحينَ الاستخلافُ في الأرضِ بوعدِ اللّهِ المُؤكَّدِ، وفي هذهِ الآيةِ يُبيِّنُ مآلَ المُشركينَ الَّذينَ يحاربونَ اللّهَ ورسولَهُ والمؤمنينَ، فالفصلُ بينَ الجملتينِ لكمالِ الاتِّصالِ بينَ موضوعِ الآيتينِ، فالآيتانِ السّابقتانِ فيهما بيانُ ما للمؤمنينَ مِنْ منزلةٍ، وما تَحَلَّوا بهِ مِنْ طاعةٍ للرَّسولِ، والآيةُ الأخيرةُ فيها بيانُ المخالفةِ والمعاندةِ، والآيةُ الأولى تُبيِّنُ غايةَ الجهادِ، والثّانيةُ تُبيِّنُ حالَ الَّذينَ يجاهدُهم المؤمنونَ[4].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 81.
(2) الجاويّ، مراح لبيد: 2/ 120.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 308، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 398.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5223.

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لتحقيقِ مُقتضَى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، فقد كانَ المشركونَ يومَئذٍ في قوَّةٍ وكثرةٍ، وكانَ المسلمونَ يخافونَ بأسَهم، فرُبَّما كانَ الوعدُ بالأمنِ مِنْ بأسِهم، مُتلقًّى بالتَّعجُّبِ والاستبطاءِ الشَّبيهِ بالتَّردُّدِ، فجاءَتْ هذهِ الآيةُ تطمينًا وتسليةً[1].

غرضُ النَّهي في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

التَّنبيهُ على تحقيقِ الخبرِ، مُبينٌ عنِ المراد

المقصودُ مِنَ النَّهي عنِ الحُسْبانِ، في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ التَّنبيهُ على تحقيقِ الخبرِ[2]، فكونُ الكافرينَ غيرَ مُعجزينَ في الأرضِ، أمرٌ مُحقَّقٌ ثابتٌ لا شكَّ فيهِ ولا امتراءَ، ولا ينبغي أنْ يُخْطِرَهُ المُخاطَبُ في بالِهِ.

نُكْتَةُ توكيدِ ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

تحقيقُ مضمونِ الكلامِ مُعينٌ على الإبانةِ والإفهامِ

أُكِّدَ السّياقُ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾، في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لِما يُفيدُهُ التَّوكيدُ مِنْ تحقيقِ مضمونِ الكلامِ، وهو عدمُ حُسْبانِ الَّذينَ كفَروا مُعجزينَ في الأرضِ، وفي هذا ملاءمةٌ لمقامِ تقويةِ عزائمِ المؤمنينَ الموعودينَ بالاستخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ، ومقامِ إزالةِ الخوفِ والرَّهبةِ مِنْ قلوبِهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

الدَّلالةُ على الدَّوامِ والاستمرارِ تُلخِّصُ ما في العبارةِ مِنَ الاعتبارِ

عُبِّرَ بالمضارعِ الدّاخلِ عليهِ حرفُ النَّهيِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لِما يُفيدُهُ المضارعُ مِنَ الدَّوامِ والاستمرارِ المُناسبَينِ لمقامِ التَّثبيتِ، وتقويةِ العزائمِ، والمعنى: دُمْ على عدمِ الحُسْبانِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 290.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 443.

توجيهُ القراءاتِ في لفظ ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

اختلافُ القراءاتِ بالغيبةِ والخطابِ، يستوعب المعنى ويُجَلّيه

قرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ بياءِ الغَيبةِ، والباقونَ بتاءِ الخطابِ، وفتحَ السّينَ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ وأبو جعفرٍ، وكسرَها غيرُهم[1]، أمّا قراءةُ الجمهورِ؛ فهي على الخطابِ[2]، ومَحَلُّ الموصولِ النَّصبُ على أنَّهُ مفعولٌ أوَّلُ للحُسْبانِ، وقولُهُ: ﴿مُعۡجِزِينَ﴾ مفعولٌ ثانٍ[3]، وأمّا قراءةُ ابنِ عامرٍ وحمزةَ: فالفاعلُ فيها مُضمَرٌ يعودُ على ما دلَّ السّياقُ عليهِ، أي: لا يحسبَنَّ حاسبٌ أو أحدُ الَّذينَ كَفَروا مُعْجِزينَ في الأرضِ[4].

تعيينُ المُخاطَبِ في جملة ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

المُخاطَبُ عامٌّ لكلِّ أحدٍ، أو خاصٌّ بالنَّبيِّ الأمجد

اختُلِفَ في تعيينِ المُخاطَبِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ على قراءةِ الخطابِ، فقيلَ: الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ، أي: ولا تحسبَنَّ - يا محمَّدُ - الَّذينَ كَفَروا مُعْجِزينَ في الأرضِ[5]، والغرضُ مِنْ توجيهِ الخطابِ للنَّبيِّ ﷺ التَّهييجُ، أو تحقيقُ الأمرِ، وأنَّهُ بحيثُ لا يشكُّ فيهِ ناظرٌ[6]؛ لأنَّهُ على قَدْرِ عظمةِ المُخاطَبِ يكونُ إنجازُ الوعدِ[7]، وقيلَ: الخطابُ لكلِّ مَنْ يقفُ عليهِ كائنًا مَنْ كانَ[8].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإشارةُ إلى علَّةِ خُذلانِ الكافرينَ، مستفادٌ منَ السّياقِ المُبين

التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يُشيرُ إلى السَّببِ في نصرِ المؤمنينَ وخُذلانِ الكافرينَ[9]، وهذا خطابٌ للرَّسولِ ﷺ، ينهاه فيه ربُّه تعالى

---

(1) القاضي، البدور الزّاهرة، ص: 225.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 397.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 192.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 435.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 397.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 443.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 308.
(8) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 397، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 290.
(9) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5224.

أن يظنَّ قصدًا أو عَرَضًا، أنَّ الَّذين كفروا مهما كانت قوَّتهم مكينة، وسطوتهم أكيدة، سيفوتون اللّهَ تعالى، ويهربون ممّا أراد بهم من خِزي وعذاب، بل سيُخْزيهمُ اللّهُ القدير، ويُذِلُّهم، ويؤولُ بهم إلى سوء المصير[1]، كأنَّهُ قيلَ: لا تحسبَنَّ الَّذينَ كَفَروا مُعْجِزينَ في الأرضِ؛ لأنَّهم كافرونَ، واللّهُ قد حَكَمَ بنصرِ أهلِ الإيمانِ، وخُذلانِ أهلِ الكفرِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

تحقُّقُ كفرِ الكفرةِ المحكومِ عليهم بالخذلانِ وثبوتُه

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، على أنَّ كُفْرَ الكَفرةِ المحكوم عليهم بالخُذلانِ، أمرٌ قد وقعَ، وتحقَّقَ، وثبتَ، ولا يحتاجُ إلى إقامةِ برهانٍ عليهِ، وقد صارَ كالصِّفاتِ الرّاسخةِ فيهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ: ﴿مُعۡجِزِينَ﴾:

استعارةُ الإعجازِ للإفلاتِ منَ الطَّلبِ، من بليغ المَجاز

في قولِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ حقيقةَ المُعْجِزِ، هو الَّذي يجعلُ طالبَ شيءٍ عاجزًا عن إدراكِهِ، ويُستعمَلُ مجازًا في معنى الإفلاتِ مِنْ تناولِ طالبه[2]، فالمعنى هنا: لا تحسبَنَّ الَّذينَ كَفَروا مُفلِتينَ مِنْ وعيدي، أو خارجينَ عن قُدرتي.

دلالةُ ﴿فِي﴾ في شِبه الجملة: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

الدَّلالةُ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، مُبينةٌ عنِ المُراد مِنَ السّياق

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، في قولِهِ ﷻ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، على أنَّ الأرضَ هي مَحَلُّ كونِ الَّذينَ كَفَروا غيرَ مُعجزينَ، قال الشَّنقيطيُّ: "والمعنى: لا يحسبَنَّ الَّذين كفروا أحدًا يُعْجِزُ اللّهَ في الأرض، حتّى يطمعوا هم في مثل ذلك، وهذا معنًى قويٌّ جيِّدٌ، وأن يكون فيه ضميرُ

---

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 586.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 89.

الرَّسولِ لتقدُّم ذِكْره في قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وأن يكون الأصلُ: (لا يحسبنَّهم الَّذين كفروا معجزين)، ثمَّ حُذِفَ الضَّميرُ الَّذي هو المفعول الأوَّل، وكأنَّ الَّذي سوَّغ ذلك أنَّ الفاعلَ والمفعولين، لمّا كانت لشيء واحد؛ اقتنع بذِكْر اثنين عن ذِكْر الثّالث"[1].

المرادُ بـ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في شبه الجملة: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

المُرادُ بالأرضِ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضُ الدُّنيا، أي: هم غيرُ غالبينَ في الدُّنيا، كما حَسِبوا أنَّهُ ليسَ ثمَّةَ عالَمٌ آخرُ[2]، وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفٌ لـ ﴿مُعْجِزِينَ﴾، كما أسلفنا، لكن ليست لإفادةِ كونهم غيرَ معجزين فيها لا في غيرها، فإنَّ ذلك واضحٌ لا يحتاجُ إلى بيانٍ، بل لإفادة شمولِ عدم إعجازِهم بجميعِ أجزائِها، بما مفاده: ألّا تحسبنَّهم مُعجزين اللّهَ ﷻ عن إدراكِهم وإهلاكِهم في قُطرٍ من أقطارِ الأرضِ، وإنْ هربوا منها كلَّ مهربٍ[3].

المرادُ أرضُ الدُّنيا قاطبةً؛ إذْ لا مَفرَّ من عقاب الله وقَدَره

فائدةُ التَّقييدِ بشِبه الجملة: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

الجارُّ والمجرورُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفٌ لـ ﴿مُعْجِزِينَ﴾، في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، لكنْ لا لإفادةِ كونِ الإعجازِ المنفيِّ فيها لا في غيرِها، فإنَّ ذلكَ ممّا لا يحتاجُ إلى البيانِ، بل لإفادةِ شُمولِ عدمِ الإعجازِ لجميعِ أجزائِها، أي: لا تحسبنَّهم مُعجزينَ اللّهَ ﷻ عن إدراكِهم وإهلاكِهم، في قُطْرٍ مِنْ أقطارِ الأرضِ؛ وإنْ هَرَبوا منها كلَّ مَهْرَبٍ[4]، وقيلَ: التَّعبيرُ بقولِهِ: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لبيانِ حالِهم في الدّارينِ، أي: هم في الدُّنيا مَقدورٌ على إهلاكِهم، وفي الآخرةِ مأواهم النّارُ[5].

إفادةُ شُمولِ عدمِ الإعجازِ لجميعِ أجزاءِ الأرضِ

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 556.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 290.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 192.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 192، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 389.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 397.

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾:

بيانُ أثرِ العطفِ في تنوُّعِ المعنى وتكامُلِه

الواوُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ للعطفِ، وفي المعطوفِ عليهِ ثلاثةُ أوجهٍ، **أحدُها**: أنَّ الجملةَ عطفٌ على جملةِ النَّهي قبلَها، مِنْ غيرِ تأويلٍ ولا إضمارٍ، وذلكَ على مذهبِ سيبويهِ، وهو تجويزُ عطفِ بعضِ الجُمَلِ على بعضٍ، وإنِ اختلفَتْ أنواعُها خبرًا وإنشاءً، **الثّاني**: أنَّها معطوفةٌ عليها بتأويلِ جملةِ النَّهي بجملةٍ خبريَّةٍ، والتَّقديرُ: (الَّذينَ كَفَروا لا يَفوتونَ اللّهَ، ومأواهم النّارُ)، **الثّالثُ**: أنَّها معطوفةٌ على جملةٍ مُقدَّرةٍ، والتَّقديرُ: (لا تحسبَنَّ الَّذينَ كَفَروا مُعجزينَ في الأرضِ، بل هم مقهورونَ، ومأواهم النّارُ)[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ عنِ النّارِ بأنَّها مَأْوَى:

التَّعبيرُ بأسلوبِ التَّهكُّمِ، ملمحٌ للإخافةِ من سوءِ العذابِ

في إيرادِ النّارِ - في قولِ الحقِّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾، بعُنوانِ كونِها مأوًى ومصيرًا لهُم، إثْرَ نَفْيِ فوْتِهم بالهربِ في الأرضِ كلَّ مَهْرَبٍ - جزالةٌ لا تخْفَى[2]، وكأنَّ السّامعَ يرى صورتَهم، وهم يحاولونَ الهربَ في أقطارِ الأرضِ، ثمَّ لا يَجدونَ لهُم مأوًى إلّا النّارَ المُعَدَّةَ لعذابِهم، وكذلكَ المأوَى هو المكانُ الَّذي يُؤْوَى إليهِ، فالتَّعبيرُ عنِ النّارِ بأنَّها مأوًى فيه تهكُّمٌ بهم[3].

دلالةُ إعرابِ جملةِ: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

الاعتراضُ التَّذييليُّ ذو أثرٍ في بيانِ السّياقِ

قولُهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لما قبلَهُ، وهو كونُ النّارِ مَأْوًى للكافرينَ[4]، قال الآلوسيُّ: "وفي إيراد النّار بعنوان كونِها مأوًى ومصيرًا لهم، إثرَ نفي فوتِهم بالهرب في الأرض كلَّ مَهْرَب منَ الجزالة ما لا غايةَ وراءَه، فالله تعالى دَرُّ شأن التَّنزيل"[5].

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 437.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 399.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5224.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 399.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 399.

معنى اللّامِ في عبارة: ﴿وَلَبِئۡسَ﴾:

جوابُ جملةِ القَسَمِ المُقدَّرة، ذو أثرٍ في الدّلالة مؤثّرة

قولُه جلَّ وتبارك: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جوابٌ لقَسَمٍ مُقدَّرٍ، أي: وباللهِ لَبِئْسَ المصيرُ هي، أي: النّارُ، فاللّامُ في قولِه: ﴿وَلَبِئۡسَ﴾ واقعةٌ في جوابِ القَسَمِ، والغرضُ منها زيادةُ التَّوكيدِ، والمَخصوص بالذَّمِّ محذوفٌ، أي: وباللّه لَبِئْسَ المَصيرُ هي، أي: النّار، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بجملة: ﴿وَلَبِئۡسَ﴾:

المبالغةُ في ذَمِّ النّارِ، من دقيق اللَّفظ المُختار

(بِئْسَ) لفظٌ يدلُّ على الذَّمِّ، وفي قولِ الحَقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ مبالغةٌ في ذَمِّ مصيرِ الكافرين النّارِ، فهي تُذَمُّ؛ لأنَّها عذابٌ، ولأنَّ الكفّارَ خالدونَ فيها، وقد أكَّدَ ﷻ الذَّمَّ باللّامِ الواقعةِ في جوابِ القَسَمِ المَحذوفِ[2].

بلاغةُ الإيجازِ في جملة: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

الإيجازُ بحذفِ المخصوصِ بالذَّمِّ، وأثرُه في المعنى

في قولِه ﷻ: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ المخصوصَ بالذَّمِّ محذوفٌ، والتَّقديرُ: وباللهِ لَبِئْسَ المَصيرُ هي، أي: النّارُ[3]، وهم ليسوا مُعاجزين اللّهَ المُقتدرَ على وجوه الانتقام، عن أخذهم وإهلاكهم، سيَّما في الأَرْضِ الَّتي هي مملكة الحَقِّ، ومحلُّ تصرفاته سبحانه، بل قد أخذهمُ اللّهُ الرَّقيبُ عليهم بظلمهم وبغيهم، واستأصلهم عن وجه الأرض في النَّشأة الأولى، ومَأْواهُمُ النّارُ في الأُخرى، واللّهِ لَبِئْسَ المَصيرُ مصيرُهم، وهو أسوأُ مرجع، وشَرُّ منقلبٍ، وأقبحُ مثوًى ومآب[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظَّنُّ والحُسْبانُ:

الظَّنُّ فيه تغليبٌ لأحدِ النَّقيضين على الآخر، والحُسْبانُ لا تغليبَ فيه

الحُسبانُ: أنْ يُحكَمَ لأحدِ النَّقيضين، مِنْ غيرِ أنْ يُخطِرَ الآخرَ ببالِهِ.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 399.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5224.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 399.

(4) علوان، الفواتح الإلَهيَّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 16.

والظَّنُّ: أنْ يُخطِرَ النَّقيضينِ ببالِهِ، فيُغلِّبَ أحدَهما على الآخرِ[1]، والظَّنُّ ضربٌ من الاعتقاد، وقد يكون الظَّنُّ حسبانًا، لكن ليس باعتقاد.

وقيل: "أصل الحُسْبانِ منَ الحِساب، تقول: أحسِبُهُ بالظَّنِّ قد مات، كما تقول: أَعدُّهُ قد مات، ثمَّ كثر حتّى سُمّي الظَّنُّ حُسْبانًا على جهة التَّوسُّع، وصار كالحقيقة، بعد كثرة الاستعمال، وفُرِّق بينَ الفعل منهما، فيُقال في الظَّنِّ: حَسِب، وفي الحساب حَسَب"[2]، قال اللّه تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرّحمن: 5]، أي: يجريان في منازلهما بحساب، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ [الأنعام: 96]، قال الأخفش: أي: بحُسبان، قال: وهو جمعُ حسابٍ، مثل: شهاب وشُهبان، قال ابنُ السِّكّيت: حُسْبان مصدر حَسَبتُ الشَّيء، أَحْسُبُه حَسْبًا وحُسْبانًا[3]، وغالبًا ما تُفَسَّرُ آياتُ الحُسْبان بالظَّنِّ في القرآن، ممّا يؤكِّد أنَّ هناك صلةً بينَ المعنيين في العموم.

المَثْوَى والمَأْوَى:

المَثْوَى مكانُ الإقامةِ المُنبِئةِ عنِ المُكْثِ

المَثْوَى: مكانُ الإقامةِ المُنبِئةِ عنِ المُكْثِ، والمَأْوَى: المكانُ الَّذي يأوي إليهِ الإنسانُ دونَ إنباءٍ عنِ المُكْثِ[4]، ويقول أهلُ اللُّغة: إنَّ المأوى هو المَلجأُ الَّذي يُلْجَأ إليه، ومن ذلك ما ورد في القرآن على لسان ابن نوح في قوله: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: 43]، مع التَّنويه بأنَّ لفظ (المأوى) وارد في موضعِ الجنَّة، قال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النَّجم: 15]، وموضع النّار، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٣٩﴾ [النّازعات: 39]، علمًا بأنَّ المَأوى والمثوى كلمتان، تدلّان على مكان اللُّجوء، ومكان الإقامة، ولا علاقة لأيٍّ منهما في

(1) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 343.
(3) نشوان بن سعيد، شمس العلوم: (الحُسبان).
(4) حقّي، الفروق، ص: 148.

ذاتها بالجنَّة والنّار، ولكنَّ الاستعمال القرآنيَّ خصَّهما باستعمالٍ على سبيل الإضافة للجنَّة والجحيم، دونَ أن يمنع ذلك استعمالَهما في المعنى العامِّ في مواطن أُخرى غير النَّصِّ القرآنيِّ، بمعنى مكان اللُّجوء، دونَ تخصيص لهما.

المصيرُ والمَرْجِعُ:

المصيرُ يجبُ أنْ يخالفَ الحالةَ الأولى، وليس المَرْجِعُ كذلكَ

فُرِّق بينَ المصيرِ والمَرْجِع: بأنَّ المصيرَ يجبُ أنْ يخالفَ الحالةَ الأولى، ولا كذلكَ المَرْجِعُ، فإنَّهُ قد يوافقُ المبدأَ[1]، واعتُرِضَ: بأنَّهُ يُنافي هذا الفرقَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصّافات: 67 - 68]، معَ أنَّهم لم يكونوا قبلَ ذلكَ في الجحيم، وأُجيبَ: بأنَّهُ قد رويَ أنَّ أهلَ النّارِ يورَدونَ الحميمَ لشُرْبه، وهو خارجٌ مِنَ الجحيم، ثمَّ يُرَدّونَ إلى الجحيم، بدليلِ قولِهِ تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرَّحمن: 44][2].

---

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/ 262، وحقّي، الفروق، ص: 149.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 492.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَـٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَـٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨﴾ [النّور: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

وُرودُ مسالكَ للطّاعةِ المذكورةِ آنفًا، تستوفي آدابَ الاستئذانِ ومواقيتَه

في الآية رجوعٌ إلى تتمَّةِ الأحكامِ السّابقةِ بعدَ الفراغِ مِنَ الإلهيّاتِ الدّالَّةِ على وجوبِ الطّاعةِ، فيما سبقَ مِنَ الأحكامِ وغيرِها، والوعدِ عليها، والوعيدِ على الإعراضِ عنها[1].

ومنها: أنَّ الآيةَ انتقالٌ إلى سُلوكٍ يَمَسُّ المجتمعَ مِنْ داخلِه، وهو الأُسْرةُ، بعدَ أنْ ذُكِرَ في أوَّلِ السّورةِ الأحكامُ الخاصَّةُ بالمجتمعِ الخارجيِّ.

ومنها: أنَّ الحُكمَ المذكورَ في الآيةِ ممّا يُطاعُ اللهُ تعالى ورسولُهُ فيهِ، وتخصيصُهُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ دخولَهُ في الطّاعةِ باعتبارِ أنَّهُ مِنَ الآدابِ أبعدُ مِنْ غيرِهِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾: (أذن) أصلانِ متقاربانِ، أحدُهما: الجارحةُ، وهي أُذُنُ كلِّ ذي أُذُنٍ، والآخرُ: العِلْمُ[3]، يقالُ: قد أَذِنْتُ بهذا الأمرِ، أي: علمتُ، وآذنَني فلانٌ: أَعْلَمَني[4]، والإذنُ في الشَّيءِ:

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 400.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (أذن).

إعلامٌ بإجازتِهِ والرُّخصةِ فيهِ، والاستئذانُ: طلبُ الإذنِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التّوبة: 45][1]، وهو المعنى المراد في الآية.

2) ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾: (ملك) قوَّةٌ في الشَّيءِ وصحَّةٌ، يقالُ: أَملَكَ عجينَهُ، قوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، وقيلَ: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ؛ لأنَّ يدَهُ فيهِ قويَّةٌ صحيحةٌ[2]، وخُصَّ مِلْكُ العبيدِ في القرآنِ باليمينِ، كما في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾[3]، وما رويَ من أنَّ رسولَ ﷺ: «كانَ عامَّةُ وصيَّتِهِ عِنْدَ المَوْتِ: الصَّلاةَ وما مَلَكَتْ أَيْمانُكُم»[4]، يريد الإحسانَ إلى الرَّقيق، والتَّخفيفَ عنهم، وقيل: أرادَ حقوقَ الزَّكاة وإخراجها مِنَ الأموال الَّتي تملكها الأيدي، كأنَّه عَلِم بما يكون من أهل الرِّدة[5]، والأوَّل أصحُّ، وهو المراد بالآية.

3) ﴿ٱلۡحُلُمَ﴾: (حلم) أصولٌ ثلاثةٌ، الأوَّلُ: تركُ العَجَلةِ، والثّاني: تثقُّبُ الشَّيءِ، والثّالثُ: رؤيةُ الشَّيءِ في المنام، فالأوَّلُ: الحِلْمُ خِلافُ الطَّيْشِ، والثّاني: قولُهم: حَلَمَ الأديمُ؛ إذا تثقَّبَ، وفَسَدَ، وذلكَ أنْ يقعَ فيهِ دوابُّ تُفْسِدُهُ، والثّالثُ: قد حَلِمَ في نومِهِ حُلْمًا[6]، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ﴾ [النّور: 59]، أي: زمانَ البُلوغِ[7].

4) ﴿تَضَعُونَ﴾: (وضع) أصلٌ يدلُّ على خَفْضِ الشَّيءِ وحَطِّهِ، يقالُ: وضعتُهُ بالأرضِ وضْعًا، ووَضَعَتِ المرأةُ ولدَها[8]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢﴾ [الشّرح: 2]، أي: حَطَطْنا وأسقَطْنا، ويقالُ: وضعَ الأميرُ عن قومِهِ كذا، أي: أسقطَهُ[9]، والمراد بـ ﴿تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾: تُلقون ثيابَكم في هذه الأوقات، وتُسقطونها عنكم.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أذن).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).

(3) الرّاغب، المفردات: (أذن).

(4) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (12169) بسند صحيح، والنّسائي في السّنن الكبرى، برقم: (7095)، وابن ماجه في سننه، برقم: (2697).

(5) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 4/ 358.

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلم).

(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حلم).

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وضع).

(9) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وضع).

5) ﴿ٱلظَّهِيرَةِ﴾: (ظهر) أصلٌ يدلُّ على القوَّةِ والبُروز[1]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: ظَهَرَ عليهِ: غلبَهُ، ويقالُ: ظاهرتُهُ: عاونتُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾ [الممتحنة: 9][2]، وأصلُ ذلكَ مِنَ الظَّهرِ الَّذي هو الجارحةُ؛ لأنَّ المُعاوِنَ يساعدُ صاحبَهُ بجوارحِهِ، وأقواها ظَهرُهُ، ثمَّ جُعِلَ عبارةً عن كلِّ مُعاوَنةٍ، وإنْ كانَتْ بغيرِ الظَّهرِ حتَّى باللِّسانِ[3]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الجن: 26]، أي: لا يُطلِعُ عليهِ[4]، والظُّهورُ: ضدُّ الخفاءِ، قالَ تعالى: ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 48]، أي: بدا ما وعدَ اللهُ بهِ رسولَهُ والمؤمنينَ مِنَ النَّصرِ، وفشا دينُ الإسلامِ، وأصلُ ذلكَ مِنْ حُصولِ الشَّيءِ على وجهِ الأرضِ، ثمَّ صارَ مُستعمَلًا في كلِّ بارزٍ للبصرِ والبصيرةِ[5]، والظَّهيرةُ: وقتُ الظُّهرِ، وأظهرَ فلانٌ: حصلَ في ذلكَ الوقتِ[6].

6) ﴿عَوۡرَٰتٖ﴾: العَوْرَةُ: سَوْءَةُ الإنسانِ، وأصلُها مِنَ العارِ، وذلكَ لِما يَلْحَقُ في ظُهورِها مِنَ العارِ، أي: المَذَمَّةِ، ولذلكَ سُمّيَتِ النِّساءُ عَوْرَةً، ومِنْ ذلكَ: العَوْراءُ للكلمةِ القبيحةِ، والعَوْرَةُ: شَقٌّ في الشَّيءِ كالثَّوبِ والبيتِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ﴾ [الأحزاب: 13]، أي: مُتخرِّقةٌ مُمكنةٌ لِمَنْ أرادَها، ومنهُ قيلَ: فلانٌ يحفظُ عَوْرَتَهُ، أي: خَلَلَهُ، وقولُهُ تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾، أي: نصفُ النَّهارِ، وآخِرُ اللَّيلِ، وبعدَ العِشاءِ الآخِرةِ، وقيلَ لها: عَوْراتٌ؛ لأنَّ النّاسَ يُلْقونَ ثيابَهم في هذهِ السّاعاتِ؛ لكونِها مَظِنَّةَ الوَحْدةِ[7].

7) ﴿طَوَّٰفُونَ﴾: (طوف) أصلٌ يدلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يَحُفَّ بهِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: طافَ بهِ وبالبيتِ، يَطوفُ طَوْفًا وطَوافًا، وأطافَ بهِ، واستطافَ، ويقالُ لِما يَدورُ بالأشياءِ، ويُغشّيها مِنَ الماءِ: طوفانٌ[8]، ويقالُ: أطافَ بهذا الأمرِ، أحاطَ بهِ[9]، والطّائفُ: هو الخادمُ الَّذي يَخدِمُكَ برِفقٍ وعنايةٍ، وجمعه: الطَّوّافون، وقول النَّبيِّ ﷺ في الهرَّة:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(2) الرّاغب، المفردات: (ظهر).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ظهر).
(4) الرّاغب، المفردات: (ظهر).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ظهر).
(6) الرّاغب، المفردات: (ظهر).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عور).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(9) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (طوف).

«إنّما هي من الطّوّافين عليكم أو الطّوّافات»[1]، أراد ـ واللّه أعلم ـ أنّها من خَدَم البيت[2].

المَعنى الإجْماليّ:

تفصيلُ آدابِ استئذانِ الخَدَمِ والصّغارِ في المواقيتِ المعيَّنة باللّيل والنّهار

اشتملَتْ هذهِ الآيةُ الكريمةُ على استئذانِ الأقاربِ بعضِهم على بعضٍ، فأمرَ اللّهُ تعالى المؤمنينَ أنْ يستأذنَهم خَدَمُهم وأطفالُهمُ الأحرارُ، الَّذينَ لم يَبْلُغوا الحُلُمَ في ثلاثةِ أوقاتٍ: مِنْ قبلِ صلاةِ الفجرِ؛ لأنَّ النّاسَ يكونونَ نيامًا في فُرُشِهم، وحينَ يُلقون ثيابَهم في الظَّهيرةِ وقتَ القيلولَةِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَضَعُ ثيابَهُ في تلكَ الحالِ معَ أهلِهِ، ومِنْ بعدِ صلاةِ العِشاءِ؛ لأنَّهُ وقتُ النَّومِ، فيُؤْمَرُ الخَدَمُ والأطفالُ ألّا يَدْخُلوا دونَ استئذانٍ على أهلِ البيتِ في هذهِ الأوقاتِ؛ لِما يُخْشَى مِنْ أنْ يكونَ الرَّجلُ مع أهلِهِ، ونحوِ ذلكَ مِنَ الأعمالِ، ولهذا قالَ سبحانَهُ عن هذهِ الأوقاتِ الثَّلاثة: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾، ثمَّ قالَ تباركَ شأنُهُ: وإذا دَخَلوا في وقتٍ غيرِ هذهِ الأوقاتِ، فلا إثمَ عليكُم في تمكينِكم إيّاهم مِنْ ذلكَ، وبعدَ بيانِ هذهِ الأحكامِ، قالَ جلَّ ثناؤُهُ:كذلكَ يُبيِّنُ اللّهُ لكُم جميعَ أدلَّتِهِ وشرائعِ دينِهِ، واللّهُ ذو علمٍ بما يُصلِحُ عِبادَهُ، حكيمٌ في تدبيرِهِ إيّاهم[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾ عمّا قبلَهُ:

الجملةُ استئنافٌ لبيانِ حكمٍ جديدٍ، ممّا يوضِّح المعنى ويُجَلّيه

قولُ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، استئنافٌ انتقاليٌّ إلى غرضٍ مِنْ أحكامِ المُخالَطة

(1) أخرجه مالك في الموطأ، برقم: (13)، وأبو داود في سننه، برقم: (75)، والتّرمذيّ في سننه، برقم: (92)، والنّسائيّ في سننه، برقم: (68).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (طوف)، وهو تشبيه للهرة بالخادم، أو بمن يطوف بالإنسان للحاجة أو المسألة.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 212.

والمُعاشَرةِ، وهو عَوْدٌ إلى الغرضِ الَّذي ابتُدِئَت بِهِ السّورةُ، وقُطِعَ عندَ قولِهِ جلَّ وتبارَكَ: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤﴾ [النّور: 34][1].

دلالةُ افتتاحِ الآيةِ بالنِّداءِ بوصفِ الإيمانِ:

الحَثُّ على الخُضوعِ والانقيادِ، مُبينٌ عنِ المعنى المُراد

صُدِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ بالنِّداءِ؛ لِما فيهِ مِنْ إيقاظِ السّامعِ وتنبيهِهِ، وحَثِّهِ على تلقّي ما يُلْقَى إليهِ مِنَ الكلامِ، وجيءَ بوصفِ الإيمانِ في المُنادَى؛ لتهييجِ المُخاطَبينَ وإلهابِهم بذِكْرِ الوصفِ الَّذي ينبغي عليهم بسببه الالتزامُ بما يُتلَى عليهِم مِنَ الأحكامِ والآدابِ، يعني: يا مَنْ آمنتُم بي ربًّا حكيمًا مُشرِّعًا لكُم، حريصًا على مصلحتِكم، استَمِعوا لهذا الأدبِ[2]، كأنَّهُ قيلَ: إنْ كنتُم مُؤمنينَ؛ فاستَمِعوا لهُ؛ لأنَّ الاستماعَ لهُ معَ القبولِ مِنْ مُقتضَياتِ الإيمانِ والانقيادِ والخُضوعِ للشّارعِ الحكيمِ ﷻ.

دلالةُ تعميمِ المُخاطَبِ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

قد يكون المُرادُ خطابَ الرِّجالِ، وتَلْحَقُ النِّساءُ بدلالةِ النَّصِّ

ظاهرُ قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، أنَّهُ خطابٌ للرِّجالِ فقطْ، كما يدلُّ عليهِ اسمُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، لكنْ لا خِلافَ في أنَّهُ خطابٌ عامٌّ شاملٌ للرِّجالِ والنِّساءِ، ووجهُ عُمومِهِ: أنَّهُ واردٌ على أسلوبِ تغليبِ الرِّجالِ على النِّساءِ[3]، وقيلَ: يحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ للرِّجالِ خاصَّةً، والنِّساءُ داخلاتٌ في الحُكمِ بدلالةِ النَّصِّ[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الدَّلالةُ على رُسوخِ المُخاطَبينَ في الإيمانِ، مُفيدةٌ في البيان

جيءَ بصيغةِ الماضي، في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُخاطَبينَ راسخونَ في صفةِ الإيمانِ، وأنَّها صارَتْ بمنزلةِ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ، حتَّى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 291.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10329.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193.

صحَّ أنْ يُدْعَوا، ويُنادَوا بها، كأنَّهُ قيلَ: (يا أيُّها الَّذينَ ثبتَ إيمانُهم، واستقرَّ، وصارَ مِنْ جملةِ أوصافِهم المُعرِّفةِ لهُم... إلى آخره).

نُكْتَةُ تعميمِ الخطابِ معَ تخصيصِ المأمورِ:

التَّنبيهُ على أنَّ على أربابِ البيوتِ تأديبَ أتباعِهم وفقَ الشَّريعة

الأمرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾، وإنْ كانَ في الظّاهرِ للمملوكينَ والصِّبيانِ، لكنَّهُ في الحقيقةِ للمخاطَبينَ، فكأنَّهم أُمِروا أنْ يَأْمُروا المَذْكورينَ بالاستئذانِ؛ لأنَّ على أربابِ البيوتِ تأديبَ أتباعِهم، وبهذا يَنْحلُّ ما قيلَ: كيفَ يأمرُ اللّهُ ﷻ مَنْ لم يَبْلُغِ الحُلُمَ بالاستئذانِ، وهو تكليفٌ، ولا تكليفَ قبلَ البُلوغِ، والحاصلُ: أنَّ اللّهَ تعالى لم يأمُرْهُ حقيقةً، وإنَّما أمرَ سبحانَهُ الكبيرَ أنْ يأمرَهُ بذلكَ، كما أمرَهُ أنْ يأمرَهُ بالصَّلاةِ[1]، وقيلَ: الأمرُ للبالغينَ مِنَ المَذكورينَ على الحقيقةِ، ولغيرِهم على وجهِ التَّأديب.

دلالةُ الأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾:

الأمرُ للوجوبِ على الظّاهرِ من معنى الأمرِ المطلوب

اختُلِفَ في دلالةِ الأمرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾، فقيلَ: الأمرُ على النَّدبِ والاستحبابِ، وقيلَ: الأمرُ على الفرضِ والإيجابِ، وهذا أولى؛ لأنَّ ظاهرَ الأمرِ للوجوبِ[2].

نُكْتَةُ ورودِ لامِ الأمرِ مع المضارعِ المجزومِ:

أثرُ حرفِ المعنى مع زمنِ الفعلِ على ترسيةِ المعنى وبيانه

في قوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، وردت فيه لامُ الأمرِ جازمةً للفعلِ المستقبلِ، للمأمورِ الغائبِ على أصلِ دخولها، كقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطّلاق: 7]، وهي كثيرةُ الدَّورانِ في القرآنِ، والشِّعرِ، ومنثورِ الكلامِ، فأمّا إذا أمرت

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 400، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 292.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 416، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 68، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 18/ 292.

مخاطبًا؛ فقد يكون غيرَ محتاجٍ إلى اللّام، كقولك: (اذهبْ يا زيد)، وقد يحتاج إليها توكيدًا، فتقول: (لتذهبْ يا زيد)، وعلى هذا قُرِئَ: (فَبِذَٰلِكَ فلْتَفْرَحوا) [يونس: 58][1] على الخطاب[2].

دلالةُ قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ على العموم:

بيانُ أنَّ آدابَ الاستئذانِ تطالُ العبيدَ والإماءَ أيضًا

الظّاهرُ - في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ - عُمومُ الَّذينَ ملكتِ الأيمانُ في العبيدِ والإماءِ، الكِبارِ منهُم والصِّغارِ، وهو قولُ الجمهورِ، وقيلَ: المرادُ العبيدُ دونَ الإماءِ، وقيلَ: المرادُ الإماءُ دونَ العبيدِ[3]، وقيل: النِّساءُ اللّائي يستأذِنَّ في هذه الأوقات خاصَّة، ويستأذن الرِّجال في جميع الأوقات، قاله ابن عمر، والثّاني: أنَّهم العبيدُ والإماء على العموم دون الخصوص[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿مَلَكَتۡ﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ مِلْكِ اليمين وثُبوته

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي ﴿مَلَكَتۡ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ كونَهم مملوكينَ للمُخاطَبينَ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، كما هو شأنُ المِلكِ في العادةِ.

سِرُّ تخصيصِ الأيمانِ في ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾:

التَّعبيرُ باليمين مِنَ اليدينِ لاستحبابِ التَّيامنِ وقوَّةِ اليمين

اختيرَ التَّعبيرُ باليمينِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، دونَ الشِّمالِ، ودونَ اليدينِ معًا؛ لأنَّ اليمينَ أقوى اليدينِ، وبها يُزاوَلُ الكثيرُ مِنَ الأعمالِ، ولذلكَ يُنْسَبُ إليها الكثيرُ مِنَ الأعمالِ الَّتي فيها قوَّةٌ وتمكُّنٌ، وأكثرُ ما يكونُ الأخذُ والعطاءُ باليمين.

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ عنِ البُلوغِ بالاحتلامِ:

الاحتلامُ مَظِنَّةُ البُلوغِ، والبلوغُ ملمحُ الرُّشدِ والتَّصوُّر

المرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ الصِّبيانُ

---

(1) وهي من المتواتر، برواية رويس عن يعقوب.

(2) الزَّجاجيّ، اللّامات، ص: 92.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 68، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 292، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 400.

(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 120.

الَّذينَ لم يَبْلُغوا مِنَ الأحرارِ، فعُبِّرَ بطريقِ الكنايةِ عنِ البُلوغِ بالاحتلامِ؛ لأنَّهُ أقوى دلائلِه[1]؛ إذِ البُلوغُ لازمٌ للاحتلامِ[2].

نُكْتَةُ طلبِ الاستئذانِ مِنَ المماليكِ والصِّبيانِ:

قِلَّةُ تَحرُّجِ النّاسِ مِنَ المذكورينَ، مكمَنُ ضَررٍ، واحتمال خطر

طُلِبَ الاستئذانُ مِنَ المماليكِ والصِّبيانِ، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾؛ لأنَّ في عُرْفِ النّاسِ ألّا يتحرَّجوا مِنِ اطِّلاعِ المماليكِ عليهم؛ إذ هم خَوَلٌ وتَبَعٌ، وأمّا الأطفالُ؛ فلأنَّهم لا عنايةَ لهُم بتطلُّعِ أحوالِ النّاسِ، والحكمةُ مِنْ طلبِ الاستئذانِ: أنَّ رؤيةَ العَوْراتِ منظرٌ يَخْجَلُ منهُ المملوكُ، وينطبِعُ في نفسِ الطِّفلِ؛ لأنَّهُ لم يَعْتَدْ رؤيتَهُ، ولأنَّهُ يجبُ أنْ ينشأَ الأطفالُ على سَتْرِ العَوْرةِ، حتَّى يكونَ ذلكَ كالسَّجيَّةِ فيهِم؛ إذا كَبِروا[3].

نُكْتَةُ تقديمِ (المماليكِ) على (الصِّبيانِ):

بيانُ أنَّ دخولَ المماليكِ أكثرُ مِنْ دخولِ الصِّبيانِ غالبًا

قُدِّمَ في طلبِ الاستئذانِ المماليكُ على الصِّبيانِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾؛ للعنايةِ والاهتمامِ، ووجهُ العنايةِ: أنَّ دخولَ المماليكِ أكثرُ مِنْ دخولِ الصِّبيانِ؛ لكثرةِ مُخالطتِهم لمالكيهم.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحُلُمَ﴾:

بيانُ أنَّ مختلفَ التَّكاليفِ والأحكامِ تَلْزَمُ كلَّ بالغٍ الاحتلام

اللّامُ في لفظةِ ﴿ٱلۡحُلُمَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾ لامُ الجنسِ، والمعنى: والَّذينَ لم يَبْلُغوا الجنسَ المُسمَّى بالحُلُمِ، "قال الأخفش: الحُلُم مِن حَلَمَ الرَّجلُ، بفتحِ اللّامِ، ومِنَ الحِلْمِ حَلُمَ بضَمِّ اللّامِ يَحْلُمُ بكسرِها، واتَّفقوا على أنَّ الاحتلامَ بلوغٌ، واختلفوا فيما إذا بلغ خمسَ عشرةَ سنةً، ولم يحتلِم، فقال أبو حنيفة: لا يكون بالغًا

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 6/ 398، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 401.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 292.

حتّى يبلغ ثماني عشرةَ سنةً، ويستكملها، والجارية سبعَ عشرةَ سنةً، وقال الشّافعيُّ وأبو يوسف ومحمَّد وأحمد: في الغلام والجارية بخمسَ عشرةَ سنةً يصير مكلَّفًا، وتجري عليه الأحكامُ، وإن لم يَحْتَلِم"[1].

الأحرارُ والمماليك سيّان في الالتزام بأحكام الاستئذان

نُكْتَةُ استعمالِ شِبهِ الجملة ﴿مِنكُمْ﴾:

المرادُ بـ ﴿مِنكُمْ﴾ في قولِهِ جلَّ سُلطانُهُ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾: مِنَ الأحرارِ ذكورًا كانوا أو إناثًا[2]، ويدلُّ - على أنَّ المرادَ الأحرارُ - ذِكرُهم في مقابَلَةِ المماليكِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[3].

تَراوُحُ اللّفظِ بينَ المصدريَّةِ أو الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ، مبينٌ عنِ الدَّلالة

نُكْتَةُ إعرابِ لفظ ﴿ثَلَٰثَ﴾:

يَحتملُ ﴿ثَلَٰثَ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أنْ يكونَ منصوبًا على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ، أي: ثلاثةَ أوقاتٍ، ثمَّ فسَّرَ تلكَ الأوقاتِ بقولِهِ: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾، ويَحتملُ أنْ يكونَ منصوبًا على المصدريَّةِ، أي: ثلاثةَ استئذاناتٍ[4].

مناطُ وجوبِ الاستئذانِ، مرورُ المُستأذِنينَ بالمُخاطَبينَ

نُكْتَةُ التَّعبيرِ عنِ الأوقاتِ بالمرّاتِ:

على تفسيرِ المرّاتِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ بالأوقاتِ، يَرِدُ سؤالٌ عن سِرِّ تسميَةِ الأوقاتِ بالمَرّاتِ، وقد أُجيبَ عن ذلكَ: بأنَّهُ إنَّما قيلَ: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، ولم يقلْ: (ثلاثَةَ أوقاتٍ)؛ لأنَّهُ أرادَ مرَّةً في كلِّ وقتٍ مِنْ هذهِ الأوقاتِ؛ لأنَّهُ يكفيهم أنْ يستأذنوا في كلِّ واحدٍ مِنْ هذهِ الأوقاتِ مرَّةً واحدةً[5]، وأُجيبَ أيضًا: بأنَّ التَّعبيرَ عنها بالمرّاتِ؛

(1) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 9/ 259.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 68.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 447.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 438.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 418.

للإيذانِ بأنَّ مدارَ وجوبِ الاستئذانِ، مقارنةُ تلكَ الأوقاتِ لمُرورِ المُستأذِنينَ بالمُخاطَبينَ لا أنفُسُها[1].

نُكْتَةُ تعيينِ الاستئذانِ في هذهِ الأوقاتِ الثَّلاثةِ:

تعيينُ الأوقاتِ الَّتي تقتضي عادةُ النّاسِ الانكشافَ فيها، حكمةٌ بالغة

أمرَ اللّهُ ﷻ بالاستئذانِ في الأوقاتِ الثَّلاثةِ المذكورةِ، في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾؛ لأنَّها الأوقاتُ الَّتي تقتضي عادةُ النّاسِ الانكشافَ فيها، وملازمةَ التَّعرّي في المضاجعِ، أمّا عندَ الصَّباحِ؛ فلأنَّ النّاسَ في ذلكَ الوقتِ عُراةٌ في مضاجعِهم، وقد ينكشفُ النّائمُ، فمَنْ مشَى، ودخلَ، وخرجَ؛ فحكمُهُ أنْ يستأذنَ؛ لئلّا يطَّلِعَ على ما يجبُ سَتْرُهُ، وكذلكَ في وقتِ الظَّهيرةِ، وأمّا بعدَ العِشاءِ؛ فلأنَّهُ وقتُ التَّعرّي للنَّومِ والتَّبدُّلِ للفراشِ، وأمّا غيرُ هذهِ الأوقاتِ الَّتي هي عَوْرَةٌ؛ فالعُرْفُ مِنَ النّاسِ التَّحرُّزُ والتَّحفُّظُ، فلا حَرَجَ في دخولِ المذكورينَ بغيرِ إذنٍ؛ إذ هم طوّافونَ يَمضونَ، ويجيئونَ، لا يجدُ النّاسُ بُدًّا مِنْ ذلكَ[2].

دلالةُ إعرابِ عبارة: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾:

تنوُّعُ احتمالاتِ الإعرابِ يُثْرِي الدَّلالةَ، ويوسِّع المعنى

يحتمل قولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ ثلاثةَ أوجهٍ منَ الإعرابِ؛ **أحدُها**: أنَّهُ بدلٌ مِنْ قولِهِ: ﴿ثَلَٰثَ﴾، فيكونُ في محلِّ نصبٍ[3]، **والثّاني**: أنَّهُ بدلٌ مِنْ ﴿مَرَّٰتٖ﴾، فيكونُ في محلِّ جرٍّ[4]، والبدلُ في الحالينِ بدلُ مُفصَّلٍ مِنْ مُجمَلٍ، وحرفُ ﴿مِّن﴾ صِلَةٌ للتَّأكيدِ[5]، **والثّالثُ**: أنَّهُ خبرُ مبتدأٍ مُضمَرٍ، أي: هي - أي: تلكَ المرّاتُ - مِنْ قبلِ صلاةِ الفجرِ... إلى آخرِه، فيكونُ في محلِّ رفعٍ[6]، والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ[7].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 402.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 194.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 438.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 438.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 293.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 438.
(7) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 448.

بيانُ أنَّ طَرَفَي الوقتِ الممتدِّ، متَّصلانِ بصلاتي الفجرِ والعشاء

المرادُ بالقَبْليَّةِ والبَعْديَّةِ في ﴿مِّن قَبۡلِ﴾... ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ﴾:

ليسَ المرادُ بالقَبْلِيَّةِ والبَعْديَّة - المَذكورتينِ في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ - مُطلَقَهما المُتحقِّقَ في الوقتِ المُمتدِّ المُتخلِّلِ بينَ الصَّلاتين، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف: 3]، وقولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف: 100]، بل ما يَعْرِضُ منهما لطرفَيْ ذلكَ الوقتِ الممتدِّ، المتَّصلينِ بالصَّلاتينِ المذكورتينِ اتِّصالًا عاديًّا(1).

الإضافةُ البيانيَّةُ مفيدةٌ في تحديد الدَّلالة وترسيتِها

معنى الإضافةِ في ﴿صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾... ﴿صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾:

الإضافةُ في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾، وقولِه: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ بيانيَّةٌ، والمعنى: مِنْ قبلِ الصَّلاةِ الَّتي هي الفجرُ، ومِنْ بعدِ الصَّلاةِ الَّتي هي العِشاءُ.

الدَّلالةُ على الاستمرارِ والدَّوامِ، يناسب المُضارعيَّة

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿تَضَعُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾؛ لِما تُشيرُ إليهِ هذه الصّيغةُ مِن استمرارِ وضعِ النّاسِ المُخاطَبينَ ثيابَهم في وقتِ الظَّهيرة؛ لأنَّهُ عادةٌ جاريةٌ غالبةٌ في النّاسِ، يَسْتَرْوِحونَ بذلكَ مِنْ متاعبِ العملِ ومَشاقِّه، ويُجدِّدونَ نشاطَهم لِما بعدَ الظَّهيرةِ مِنَ الأعمالِ، وشؤونِ الحياةِ اليوميَّة.

الإشارةُ إلى الحاجةِ إلى التَّخفيفِ مِنَ الثِّيابِ وقتَ القيلولة

نُكْتةُ التَّعبيرِ عن خَلْعِ الثِّيابِ بوضعِها:

عُبِّرَ عن خَلْعِ الثِّيابِ بالوضعِ في قولِه تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾؛ لِما في الوضعِ مِنَ الإشارةِ إلى ثِقَلِ الموضوعِ، وشِدَّةِ الحاجةِ إلى وضعِه، وكأنَّ ثيابَ النَّهارِ الَّتي يرتديها النّاسُ في قضاءِ شؤونِهم وحوائجِهم، تكونُ ثقيلةً عليهم في وقتِ الظَّهيرةِ الَّذي تشتدُّ فيهِ حاجتُهم إلى الرّاحة.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 403.

بيانُ أنَّ المُراد ثيابُ النّهارِ الَّتي ترتبط بالضَّرب في الأرض

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثِيَابَكُم﴾:

المُرادُ بالثّيابِ المضافةِ إلى المُخاطَبينَ - في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ - الثّيابُ الَّتي يلبسونَها في النَّهارِ، ويخرجونَ بها، ويعملونَ، والمعنى: وحينَ تضعونَ ثيابَكم الَّتي تلبسونَها في النَّهارِ، وتخلعونَها لأجلِ القيلولةِ[1].

تحقُّقُ وضعِ الثّيابِ في الزَّمنِ المُبيحِ لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ

سِرُّ التَّصريحِ بالوضعِ في هذا الحينِ دونَ سواه:

التَّصريحُ بمَدارِ الأمرِ بالاستئذانِ - وهو وضعُ الثّيابِ - في حينِ الظَّهيرةِ، في قوله تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾، دونَ ما قبل صلاةِ الفجرِ، وما بعدَ صلاةِ العِشاءِ؛ لأنَّ التَّجرُّدَ عنِ الثّيابِ فيهِ لأجلِ القيلولةِ؛ لقلَّةِ زمانِها، كما يُنبِئُ عنها إيرادُ الحينِ مضافًا إلى فعلٍ حادثٍ مُتقضٍّ، ووقوعُها في النَّهارِ الَّذي هو مَئِنَّةٌ لكثرةِ الوُرودِ والصُّدورِ، ومَظِنَّةٌ لظُهورِ الأحوالِ وبُروزِ الأمورِ - ليسَ منَ التَّحقُّقِ والاطِّرادِ بمنزلةِ ما في الوقتينِ المذكورينِ، فإنَّ تحقُّقَ التَّجرُّدِ واطِّرادَهُ فيهما أمرٌ معروفٌ، لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ بهِ[2].

(مِنْ) بيانيَّةٌ على الأظهرِ، وأثرُها في البيانِ واضحٌ

دلالةُ ﴿مِّنَ﴾ في شبه الجملة ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾:

الظّاهرُ أنَّ حرفَ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ لبيانِ الجنسِ، أي: حينَ وضْعِ ثيابِكم الَّذي هو الظَّهيرةُ[3]، وقيلَ: ﴿مِّنَ﴾ بمعنى اللّامِ، والمعنى: مِنْ أجلِ حَرِّ الظَّهيرةِ[4]، وقيلَ: ﴿مِّنَ﴾ بمعنى (في)، أي: وحينَ تضعونَها في الظَّهيرةِ[5].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 403.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 193، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 403.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 114، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 438.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضيّ: 6/ 398.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 438.

سِرُّ إثباتِ ﴿قَبۡلِ﴾ و﴿بَعۡدِ﴾ في الوقتينِ الأوّلِ والثّالثِ دونَ الثّاني:

الحرفُ المستعملُ في موضعه، ملائمٌ للسّياق وجودًا وعدمًا

في ﴿قَبۡلِ﴾ و﴿بَعۡدِ﴾ من قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾؛ دلالةٌ على قُرْبِ الزّمنِ مِنَ الوقتِ المذكورِ لضبطِهِ، وقد أُسقِطَ ذلك في الوقتِ الأوسطِ، وهو قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾؛ دلالةً على استغراقِهِ؛ لأنَّهُ غيرُ مُنضبِطٍ[1].

دلالةُ فصلِ جملة ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ عمّا قبلَها:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، مِنْ بليغِ الاستعمال

قولُهُ تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾، خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وقولُهُ سبحانَهُ: ﴿لَّكُمۡۚ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾، أي: كائنة لكم، والجملةُ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ علَّةِ وجوبِ الاستئذانِ، أي: هنَّ ثلاثةُ أوقاتٍ يختلُّ فيها التَّستُّرُ عادةً[2]، كأنَّ سائلًا قالَ: ما سببُ وجوبِ الاستئذانِ في هذهِ الأوقاتِ الثّلاثةِ؟ فقيلَ: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾.

بلاغةُ التَّعبيرِ عنِ الأوقاتِ بالعَوْراتِ:

المبالغةُ في وقوعِ الانكشافِ في هذهِ الأوقاتِ، ذاتُ أثرٍ في السّياق

العَوْرَةُ في الأصلِ: الخَلَلُ، وقد غلبَتْ في الخَلَلِ الواقعِ فيما يُهتَمُّ بحفظِهِ، ويُعتنَى بسَتْرِهِ، وأُطلقَتْ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ على الأوقاتِ المُشتملة عليها مبالغةً، كأنَّها نفسُ العَوْرةِ[3]، وذلكَ على طريقِ تسميَةِ الشَّيءِ باسمِ ما يقعُ فيهِ؛ مبالغةً في كونِهِ مَحَلًّا لها[4].

دلالةُ توجيهِ القراءاتِ في لفظ ﴿ثَلَٰثُ﴾:

اختلافُ القراءاتِ بالرَّفعِ والنَّصبِ، مُثْرٍ للمعنى المَسوق

قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وشُعبةُ: (ثلاثَ) بالنَّصبِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿ثَلَٰثُ﴾ بالرَّفعِ[5]، أمّا قراءةُ النَّصبِ؛ فهي بدلٌ عن ﴿ثَلَٰثَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 310 (بتصرف).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 294.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 194، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 403.
(4) زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 6/ 251.
(5) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 333.

﴿مَرَّٰتٖ﴾[1]، وأمّا قراءةُ الرَّفعِ؛ فهي خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: هنَّ ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾[2].

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ﴾:

أثَرُ اختلافِ الإعرابِ باختلافِ القراءاتِ في (ثَلاثُ عَوْراتٍ)

جملةُ ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ لها مَحَلٌّ مِنَ الإعرابِ، وهو الرَّفعُ نعتًا لـ ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ﴾ في قراءةِ مَنْ رفعَها، كأنَّهُ قيلَ: (هنَّ ثلاثُ عَوْراتٍ مخصوصة بعدم الاستئذانِ)، ويجوزُ ألّا يكونَ لها مَحَلٌّ مِنَ الإعرابِ، بل هي كلامٌ مُقرِّرٌ للأمرِ بالاستئذانِ في تلكَ الأحوالِ خاصَّةً، وذلكَ في قراءةِ مَنْ نصبَ، وقرأَ: (ثَلاثَ عَوْراتٍ)[3]، وقيلَ: الجملةُ على القراءتينِ مستأنفةٌ، مَسوقةٌ لتقريرِ ما قبلَها بالطَّردِ والعكسِ[4].

دلالةُ (على) في جملة ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ﴾:

الدَّلالةُ على عدمِ تحميلِهم الجُناحَ

تُستعمَلُ (على) في الأصلِ فيما يُحمَّلُهُ الإنسانُ، ويُكلَّفُ به، كقولِكَ: عليكَ أنْ تفعلَ كذا، وهي عكسُ اللّامِ الَّتي تُستعمَلُ فيما للإنسانِ فيهِ منفعةٌ، كقولِكَ: لكَ كذا وكذا مِنَ المالِ، ودخولُها في حيِّزِ النَّفيِ، في قولِ اللّهِ تباركَ سُلطانُهُ: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾، يدلُّ على نفيِ تحميلِ الجُناحِ للمُخاطَبينَ، وأنَّ اللّهَ ﷻ قد وضعَ عنهُم الإثمَ والحَرَجَ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ (لا) في عبارة ﴿وَلَا عَلَيۡهِمۡ﴾:

تأكيدُ النَّفيِ في السِّياقِ، من البيانِ المُفصِحِ عنِ المرادِ

جيءَ بـ (لا) النّافيةِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾؛ لتأكيدِ النَّفيِ المستفادِ مِنْ ﴿لَيۡسَ﴾، والمعنى: أنَّه لا جناحَ على الطَّرفينِ، أي: على المماليكِ والصِّبيانِ، ولا إثمَ في

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 253.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 143، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 439.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 419، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 441.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 194.

الدُّخولِ بغيرِ استئذانٍ؛ لعدمِ ما يوجبه من مخالفةِ الأمرِ، والاطِّلاعِ على العوراتِ.

مرجعُ الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿بَعۡدَهُنَّۚ﴾:

مرجعُ الضَّميرِ هو العَوْراتُ الثَّلاثُ، في السّياقِ المُحْكَم

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿بَعۡدَهُنَّۚ﴾ - في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ - هو العَوْراتُ الثَّلاثُ، أي: بعدَ كلِّ واحدةٍ مِنْ تلكَ العَوْراتِ الثَّلاثِ، وهي الأوقاتُ المُتخلِّلةُ بينَ كلِّ اثنتينِ منهنَّ[1].

نُكْتَةُ إيرادِ الأوقاتِ المُتخلِّلةِ بعُنوانِ البَعْديَّةِ:

توفيةُ حقِّ التَّكليفِ والتَّرخيصِ، من بليغ التَّنصيص

قولُهُ تعالى: ﴿بَعۡدَهُنَّۚ﴾ معناهُ: بعدَ كلِّ واحدةٍ مِنْ تلكَ العَوْراتِ الثَّلاثِ، وهي الأوقاتُ المُتخلِّلةُ بينَ كلِّ اثنتينِ منهنَّ، وإيرادُ هذهِ الأوقاتِ بعُنوانِ البَعْديَّةِ، معَ أنَّ كلَّ وقتٍ مِنْ تلكَ الأوقاتِ قبلَ عَوْرةٍ مِنَ العَوْراتِ، كما أنَّهُ بعدَ أخرى منها؛ لتوفيةِ حَقِّ التَّكليفِ والتَّرخيصِ الَّذي هو عبارةٌ عن رفعِ التَّكليفِ؛ إذِ الرُّخصةُ إنَّما تُتصوَّرُ في فعلٍ يقعُ بعدَ زمانِ وقوعِ الفعلِ المُكلَّفِ بهِ[2].

نُكْتَةُ نفيِ الجُناحِ عنِ المُخاطَبينَ، والكلامِ على غيرِهم:

الإيماءُ إلى وجوبِ استئذانِ العبيدِ على السّادةِ، من أدب المخالطة

نفيُ الجُناحِ عنِ المُخاطَبينَ - في قولِهِ تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ بعدَ أنْ كانَ الكلامُ على استئذانِ المماليكِ، والَّذينَ لم يَبْلُغوا الحُلُمَ - إيماءٌ إلى لَحْنِ خطابٍ حاصلٍ مِنْ قولِه: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾، فإنَّ الأمرَ باستئذانِ هؤلاءِ عليهم، يقتضي أمرَ أهلِ البيتِ بالاستئذانِ على مماليكِهم؛ إذا دعاهُم داعٍ إلى الدُّخولِ عليهم في تلكَ الأوقاتِ، وإنَّما لم يُصرَّحْ بأمرِ المُخاطَبينَ، بأنْ يَستأذِنوا على مماليكِهم؛ لنُدورِ دخولِ السّادةِ على عبيدِهم؛ إذِ الشَّأنُ أنَّهم

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 194، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 60.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 194.

إذا دعَتْهم حاجةٌ إليهم أنْ يُنادوهم، فأمّا إذا دعتِ الحاجةُ إلى الدُّخولِ عليهم؛ فالحُكمُ فيهم سواءٌ[1]، وقيلَ: كانَ الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ليسَ عليهم جُناحٌ بعدَهنَّ)، مُقتصَرًا عليه؛ لأنَّ المأمورينَ ظاهرًا بالاستئذانِ في العَوْراتِ الثَّلاثِ، هم المماليكُ والمراهقونَ الأحرارُ لا غيرُ، وإنِ اعتُبِرَ المأمورونَ في الحقيقة، كانَ الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ليسَ عليكُم جُناحٌ بعدَهنَّ)، مُقتصَرًا عليه، ولعلَّ الجمعَ بينَهما لرعايةِ المبالغةِ في الإذنِ، بتركِ الاستئذانِ فيما عدا تلكَ الأوقاتِ الثَّلاثة، حيثُ نُفيَ الجُناحُ عنِ المأمورينَ به فيها ظاهرًا وحقيقةً[2].

علّةُ فصلِ ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ عمّا قبلَهُ:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ قولَهُ سبحانَهُ: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ استئنافٌ تعليليٌّ؛ لتركِ الاستئذانِ وراءَ هذهِ المرّات، يعني: أنَّ بكُم وبهم حاجةً إلى المُخالَطةِ والمُداخَلة، يطوفونَ عليكُم للخِدْمة، وتطوفونَ عليهم للاستخدام، فلو طُلِبَ الاستئذانُ في كلِّ وقتٍ؛ لأدَّى ذلكَ إلى الحَرَجِ والمَشَقَّة[3].

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾:

الإيجازُ بحذفِ كلمةٍ وحذفِ جملةٍ، من البيان البليغ

في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ إيجازٌ بالحذفِ في موضعينِ، **أحدُهما**: حذفُ المبتدأ، والمعنى: هم - أي: الَّذينَ ملكَتْ أيمانُكم، والَّذينَ لم يَبْلُغوا الحُلُمَ - طوّافونَ عليكُم[4]، **والثّاني:** في الكلامِ اكتفاءٌ، تقديرُهُ: (وأنتُم طوّافونَ عليهم)، يدلُّ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾، وقولُهُ عَقِبَهُ: ﴿بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 294.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 404.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 253، والنّسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 518.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 53.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 295.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ ﴿طَوَّٰفُونَ﴾:

الإشارةُ إلى كثرةِ الطَّوافِ، دالٌّ على المخالطةِ والاكتناف

عُبِّرَ بصيغةِ المبالغةِ، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾؛ للإشارةِ إلى كثرةِ طوافِ المماليكِ والصِّبيانِ على المذكورينَ، وفي ذلكَ مزيدُ مناسبةٍ لمقامِ تعليلِ تركِ الاستئذانِ فيما عدا الأوقاتِ الثّلاثة، كأنَّهُ قيلَ: ليسَ عليكُم ولا عليهِم جُناحٌ في تركِ الاستئذانِ فيما عدا الأوقاتِ الثّلاثة؛ لكثرةِ طوافِهم عليكُم.

دلالةُ (على) في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَيۡكُم﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ (على) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ على أنَّ المُخاطَبينَ مَحَلُّ طوافِ المماليكِ والصِّبيانِ، وتردُّدِهم عليهِم لقضاءِ حوائجِهم.

دلالةُ إعرابِ ﴿بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ مفرداتٍ وجملة:

تنوُّعُ الاحتمالِ الإعرابيِّ، مفيدٌ في ثَراءِ المعنى

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾ أنْ يكونَ مرفوعًا بالابتداءِ، وخبرُهُ قولُهُ: ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾، على معنى: بعضُكم طائفٌ على بعضٍ، وحُذِفَ؛ لأنَّ ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ يدلُّ عليه، ويجوزُ أنْ يرتفعَ بـ (يَطوفُ) مُضمَرًا، أي: يطوفُ بعضُكم على بعضٍ[1].

وجملةُ ﴿بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ بدلًا مِنَ الَّتي قبلَها، ويجوزُ أنْ تكونَ مُبيِّنةً مُؤكِّدةً، والمعنى: إنَّ بكُم وبهِم حاجةً إلى المُخالَطةِ، يطوفونَ عليكُم للخِدمةِ، وتطوفونَ عليهِم للاستخدامِ وطلبِ الحاجاتِ، فلو أُمِرَ بالاستئذانِ في كلِّ وقتٍ؛ لأفضَى ذلكَ إلى الحَرَجِ[2]، وقيلَ: الجملةُ مستأنفةٌ أيضًا[3].

مرجعُ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في السّياقِ:

البيانُ بالغُ الغايةِ في الكمالِ تعبيرًا وإيحاءً ودلالةً

الإشارةُ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 253.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 518.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 295.

إلى مصدرِ الفعلِ الَّذي بعدَهُ[1]، أي: مِثْلَ ذلكَ البيانِ الَّذي طَرَقَ أسماعَكم، يُبيِّنُ اللهُ لكُم الآياتِ، فبيانُهُ بالغُ الغايةَ في الكمالِ، حتَّى لو أُريدَ تشبيهُهُ بشيءٍ؛ لَما شُبِّهَ إلّا بنفسِه[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تفخيمُ شأنِ المُشارِ إليهِ والإيذانِ ببُعدِ منزلتِه

﴿كَذَٰلِكَ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾، إشارةٌ إلى مصدرِ الفعلِ الَّذي بعدَهُ، وما فيهِ مِنْ معنى البُعدِ؛ لتفخيمِ شأنِ المُشارِ إليهِ، والإيذانِ ببُعدِ منزلتِهِ وكونِهِ مِنَ الوضوحِ بمنزلةِ المُشارِ إليهِ حِسًّا، أي: مِثْلَ ذلكَ التَّبيينِ يُبيِّنُ اللهُ لكُم الآياتِ الدّالَّةَ على ما فيهِ نفعُكم وصلاحُكم[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُبَيِّنُ﴾:

الدَّلالةُ على استمرارِ التَّبيينِ، مفيدةٌ في السّياقِ المُبيِّنِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾، على استمرارِ التَّبيينِ، وأنَّ ذلكَ عادتُهُ جلَّ شأنُهُ معَ عبادِهِ، يُبيِّنُ لهُم ما يحتاجونَ إليهِ مِنَ الأحكامِ والآدابِ الَّتي فيها صلاحُ أمورِ دينِهم ودُنياهُم.

بلاغةُ إسنادِ الفعلِ إلى لفظِ الجلالةِ في ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾:

تعظيمُ شأنِ التَّبيينِ، بإسنادِه لربِّ العالَمين

في إسنادِ التَّبيينِ إلى لفظِ الجلالةِ - في قولِهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ - تعظيمٌ لشأنِ هذا التَّبيينِ، بأنَّهُ صادرٌ مِنَ اللهِ تعالى الَّذي لهُ صفاتُ الكمالِ، الَّتي بها يستحقُّ الأُلوهيَّةَ والعِبادةَ، ومنها إحاطةُ العِلْمِ والقُدرةِ[4]، وفي ذلكَ ترشيحٌ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، المُستفادَينِ مِنَ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ، ومِنْ تشبيهِ التَّبيينِ العظيمِ الشَّأنِ بنفسِهِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 194.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 295.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 194.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 311.

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَكُمُ﴾:

بيانُ الامتنانِ ببيانِ الآياتِ الّتي أفاءَ اللهُ بها على الإنسان

يدلُّ التَّعبيرُ باللّامِ الجارَّةِ ﴿لَكُمُ﴾ في قولِهِ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾، على أنَّ تبيينَ الآياتِ ممّا امتنَّ اللّهُ بهِ على المُخاطَبينَ، وفيهِ نَفْعٌ لهُم في أمورِ دينِهم ودُنياهُم؛ لِما تُشعِرُ بهِ اللّامُ مِنْ معنى التَّمليكِ والاختصاصِ والتَّكريمِ.

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾:

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ والتَّشويقُ إلى المُؤخَّرِ

﴿لَكُمُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾، مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُبَيِّنُ﴾، وتقديمُهُ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، وهو كونُ التَّبيينِ لأجلِهم ولمصلحتِهم، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو الآياتُ المُبيَّنَةُ العظيمةُ الشَّأنِ[1].

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾:

ملمَحُ المجازِ في إطلاقِ الدّالِّ على مدلولِه

تعريفُ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ للجنسِ، والمرادُ بالآياتِ: القرآنُ، فإنَّ ما يقعُ فيهِ إجمالٌ منها، يُبيَّنُ بآياتٍ أخرى[2]، وقيلَ: المرادُ بالآياتِ: الأحكامُ[3]، فيكونُ لفظُ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ مجازًا، مِنْ إطلاقِ الدّالِّ على مدلولِهِ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ الحاليَّةِ والمحلِّيَّةِ[4]، أو مِنْ ذِكْرِ الكلِّ وإرادةِ الجزءِ؛ لأنَّ الآياتِ تشتملُ على الأحكامِ[5].

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

تنوُّعُ معنى الواوِ، مفيدٌ في التَّوسُّعِ في الدَّلالة

تَحتملُ الواوُ - في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ - أنْ تكونَ استئنافيَّةً، والجملةُ بعدَها مستأنفةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وهذا الاستئنافُ بمنزلةِ التَّذييلِ الَّذي يجري مَجْرى الأمثالِ، وتَحتملُ أنْ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 194.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 295.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 114.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 398.

(5) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 452.

تكونَ حاليَّةً، والجملةُ بعدَها في محلِّ نصبٍ على الحالِ، وقيلَ: جملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مُعترِضةٌ، والمعنى: يُبيِّنُ اللهُ لكُم الآياتِ بيانًا كاملًا - وهو عليمٌ حكيمٌ - فبيانُهُ بالغٌ غايةَ الكمالِ(1).

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ المُضمَرِ:

ملاءمةُ الإظهارِ للتَّذييلِ الجاري مَجْرى الأمثالِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وهو عليمٌ حكيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۗ﴾، لكنْ عُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لِما في التَّعبيرِ بعُنوانِ لفظِ الجلالةِ المُشتمِلِ على صفاتِ الجلالِ والكمالِ مِنَ المناسبةِ لمقامِ شرعِ الأحكامِ وتبيينِها، ولِما فيهِ مِنْ ملاءمةِ جَعْلِ التَّذييلِ جاريًا مَجْرى الأمثالِ؛ لعدمِ توقُّفِهِ على ما قبلَهُ.

نُكْتَةُ ختمِ الآيةِ بوصفَيْ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

ملاءمةُ العِلْمِ والحِكْمةِ لمقامِ التَّشريعِ والتَّبيينِ

مِنْ وجوهِ بلاغةِ القرآنِ الكريمِ: أنَّ الآياتِ التي تُخْتَمُ ببعضِ أسماءِ اللهِ الحُسْنى، تكونُ هذهِ الأسماءُ ممّا يتلاءمُ مَعَ مضمونِ الآياتِ، ومِنْ ذلكَ آياتُ الأحكامِ، فإنَّها تُخْتَمُ في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ بصفتَيِ العِلمِ والحِكمةِ المُناسبَتَينِ لمقامِ التَّشريعِ، فإنَّ تشريعَ الأحكامِ وتبيينَها يدلُّ على عِلْمِ المُشرِّعِ بأحوالِ المُشرَّعِ لهُم، وعلى حِكمةٍ في سَنِّ التَّشريعاتِ الَّتي فيها مصلحةُ العبادِ، ولا توقِعُهم في المشقَّةِ والعَنَتِ والحَرَجِ، فمعنى قولِهِ تعالى هنا: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: واللهُ عليمٌ بأحوالِكم، حكيمٌ في جميعِ أفعالِهِ، فيُشَرِّعُ لكُم ما فيهِ صلاحُ أمرِكم مَعاشًا ومَعادًا(2).

دلالةُ تقديمِ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾:

العِلْمُ بأحوالِ المُشـرَّعِ لهُم سابقٌ على الحِكْمةِ في التَّشريعِ

إذا كانَ اللهُ يبيِّنُ الآياتِ بيانًا واضحًا، يمنعُ المجتمعَ أن تحدثَ فيهِ تناقضاتٌ في المستقبلِ القريبِ والبعيدِ، فهو تعالى عَليمٌ بكلِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 295.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 194.

ما يُصلِح خلافةَ الإنسانِ في الأرض، حَكيمٌ في تشريعاته وأوامره، لا يَضَعُ الحُكمَ إلّا بحِكمة[1]، وبناءً على ذلك، فإنَّه لمّا كانَ تشريعُ الأحكام محتاجًا إلى عِلْم المُشرِّع بأحوالِ المُشرَّع لهُم، وإلى حِكمةٍ في تشريعِ ما يناسبُهم دونَ مَشَقَّةٍ وحَرَجٍ؛ قُدِّمَ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وصفُ ﴿عَلِيمٌ﴾ على وصفِ ﴿حَكِيمٌ﴾؛ لأنَّ العِلْمَ بأحوالِ المُشرَّعِ لهُم، يكونُ قبلَ تشريعِ ما فيهِ خيرُهم ونَفْعُهم وصلاحُهم، فروعيَ في الآيةِ هذا التَّرتيبُ الواقعيُّ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستِئْذانُ والاستِئْناسُ:

الاستئناسُ طلبُ الأُنْسِ، والاستئذانُ طلبُ الإذنِ

الاستِئْناسُ في الأصلِ: طلبُ الأُنْسِ، وهو الطُّمأنينةُ وزوالُ الوَحْشة، والاستئذانُ في الأصلِ: طلبُ الإذنِ، وهما متقاربانِ في المعنى الدَّلاليِّ، لكنْ يُلمَحُ في الاستِئناسِ التَّلطُّفُ في الطَّلبِ وزوالُ الوَحْشة[2]، وفُرِّقَ بينَهما: بأنَّ الاستئناسَ يكونُ قبلَ الاستئذانِ، وذلكَ بأنْ يفعلَ طالبُ الإذنِ بالدُّخولِ فِعلًا يُؤنِسُ به.

الثّيابُ واللِّباسُ:

الثّيابُ هي الزِّينةُ الخارجيَّةُ الَّتي تسترُ جميعَ البَدَنِ، واللِّباسُ ما يسترُ بعضَ البَدَنِ

أصلُ مادَّةِ (ثوب) في اللُّغةِ يدلُّ على الرُّجوعِ، وأصلُ مادَّةِ (لبس) يدلُّ على المُخالَطةِ والتَّغطيةِ، والمُتأمِّلُ في آياتِ القرآنِ يجدُ أنَّ الثّيابَ تُستعمَلُ في التَّعبيرِ عنِ الزّينةِ الخارجيَّةِ الَّتي تسترُ البَدَنَ كلَّهُ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾ [هود: 5]، وأمّا اللِّباسُ بالكسر؛ ما يُلْبَس وكذا المَلْبَس واللِّبْسُ، ولِبْسُ الكعبةِ أيضًا والهودجِ ما عليهما من لباس، ولباسُ الرَّجلِ امرأتُه، وزوجُها لباسُها، قال اللّه تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: 187]، ولباسُ التَّقوى: الحياءُ[3]، وقد استُعمِلَ في

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/ 10333.
(2) داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 52.
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 278.

الحديث عن مماسَّةٍ لجُزءٍ مِنَ البَدَنِ، كما في قولِه سبحانَهُ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف: 26]، وأمّا قولُهُ تعالى في صفةِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [الحج: 23]؛ فالمرادُ بِهِ أنَّ الحريرَ الَّذي حُرِّمَ على الرِّجالِ في الدُّنيا يكونُ لهُم في الجنَّةِ، بمنزلةِ اللِّباسِ الدّاخليِّ، وأمّا الثّيابُ الخارجيَّةُ؛ فهي مِنْ سُنْدُسٍ وإستبرقٍ[1].

الجُناحُ والإثمُ:

الجُناحُ يمتازُ عنِ الإثمِ بما فيهِ مِنْ معنى المَيَلِ

الإثمُ في اللُّغةِ: البُطْءُ والتَّأخُّرُ عنِ الخيرِ، والجُناحُ في اللُّغةِ: المَيْلُ إلى الجِنايةِ والجُرْمِ، والجُناحُ يمتازُ عنِ الإثم بما فيهِ مِنْ معنى المَيَلِ[2]، وقال أبو الهيثم في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 235] الجُناح: الجِناية والجُرْم، وقال غيرُه: هو التَّضييق، وفي قول ابن عبّاس في مال اليتيم: "إنّي لَأَجْنَحُ أَنْ آكُلَ مِنْهُ"[3]، أي: أرى الأكلَ منه جُناحًا، والجُناح الإثم، قال ابن الأثير: وقد تكرَّر الجُناح في الحديث، فأين ورد؛ فمعناه الإثمُ والمَيل[4].

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليّة: 167 - 171.

(2) داود، معجم الفروق الدّلاليّة: 32 - 34.

(3) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (3753) بسند حسن.

(4) ابن الأثير، النّهاية: 1/ 305، والزَّبيديّ، تاج العروس: (جنح).

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾ [النّور: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

الاستقصاءُ في بيانِ حكمِ استئذانِ الأطفالِ في جميعِ مراحلِهم

لَمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السابقةِ ما يتعلَّقُ بالاستئذانِ وحُكمَ الصِّبيانِ والأرقّاءِ الذين هم أطوَعُ للأمرِ، وأقبَلُ لكُلِّ خيرٍ؛ أتبَعَه حُكمَ البالغينَ مِن الأحرارِ، فقال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾[1]، فبعد بيان حُكم الأطفال من أنَّهم لا يحتاجون إلى الاستئذانِ في غيرِ الأوقاتِ الثَّلاثة؛ عقَّبَ النظم الجليل ببيانِ حالهم إذا بلغوا؛ دفعًا لما عسى أنْ يُتوهَّم أنَّهم - وإنْ كانوا أجانبَ - ليسوا كسائرِ الأجانبِ بسببِ اعتيادهم الدخول[2].

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿بَلَغَ﴾: (بلغ) الوُصولُ إلَى الشَّيْءِ، تَقولُ: بَلَغْتُ المَكانَ؛ إذا وصَلْتَ إليْهِ، وقَدْ تُسَمَّى المُشارَكَةُ بُلوغًا بِحَقِّ المُقارَبَةِ[3]، وبَلَغَ الغلامُ: أدْرَكَ، واحْتَلَمَ، كأنَّهُ بَلَغَ وقْتَ الكِتابِ عليْهِ والتَّكْليفِ، وبَلَغَ الصَّبيُّ والجاريَةُ: إذا أدْرَكا، وهُما بالغانِ، والإِبْلاغُ: الإيصالُ، والبَلاغُ: الكفايةُ[4]، والبَلاغُ والبلوغُ هو الانتهاءُ إلى المقصدِ والمنتهى مكانًا أو زمانًا أو أمرًا من الأمورِ المقدَّرةِ[5]، ومعنى ﴿بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ﴾، أي: أدركوا السِّنَّ التي يُحكم فيها عليهم بالبلوغِ، أي: احتلموا[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 312.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 406.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(4) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بلغ).
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 254.

2) ﴿ٱلۡأَطۡفَٰلُ﴾: (طفل) هو المَوْلودُ الصَّغيرُ، يُقالُ: هوَ طِفْلٌ، والأُنْثَى طِفْلَةٌ، ويُقال لِلمَرْأَةِ النّاعِمَةِ: طَفْلَةٌ، كَأَنَّها مُشَبَّهَةٌ في رُطوبَتِها ونَعْمَتِها بِالطِّفْلَةِ[1]، والطِّفْلُ: الولدُ ما دام ناعمًا، ويُطلقُ على الصَّبيِّ من حين يولد إلى حين يحتلم، والطِّفْلُ: يكون واحدًا وجمعًا، ويُجمعُ أيضًا على أَطْفالٍ[2]، ومعنى ﴿ٱلۡأَطۡفَٰلُ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: الولدُ من حين يولد إلى أنْ يحتلم.

3) ﴿ٱلۡحُلُمَ﴾: (حلم) رُؤْيَةُ الشَّيْءِ في المَنام، يُقالُ: حَلَمَ يَحْلُمُ؛ إذا رأى في المَنام، والحُلم والاحْتِلامُ: الجِماع ونَحْوُهُ في النَّوْم، والاِسْمُ الحُلُم[3]، ويُقال: حَلَمَ الرجلُ بالمَرْأَةِ؛ إذا حَلَمَ في نَوْمِه أَنَّه يُباشِرُها، والاحتلامُ يَحْصُلُ بِهِ البُلوغ في حقِّ الرَّجُلِ، وحلَمَ الصَّبيُّ: أدركَ، وبلغَ مبلغَ الرِّجال[4]، والحُلُمُ: زمنُ البلوغ، وسُمّي الحُلُمُ؛ لكونِ صاحبه جديرًا بالحلم[5]، والمراد هنا في الآية: سنُّ الاحتلام والبلوغ[6].

4) ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾، ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَ﴾: (أذن) أصلٌ يدلُّ على العِلْم والإعلام، تقولُ العرب: قد أَذِنْتُ بهذا الأمرِ، أي: عَلِمتُ، وآذَنَني فلانٌ: أعلمني[7]، والإِذْنُ: الإطلاقُ في الفِعْلِ بعد منعٍ، وأَذِنْتُ له في كذا: أَطْلَقْتُ لهُ فعلَهُ، وأَذِنَ لَهُ في الشَّيءِ: أَباحَهُ لَهُ[8]، والإِذْنُ في الشيء: إعلامٌ بإجازته والرُّخصة فيه، والاستئذانُ: طَلَبُ الإذن[9]، والإِذْنُ يأتي بمعنى الإباحةِ، أو القبولِ والتَّمكين، مع العلم بقدرِ ما مُكِّن فيه[10]، ومعنى ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ﴾ موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: فليطلبوا الإذنَ في الدُّخول عليكم؛ إنْ أرادوا الدُّخول[11].

5) ﴿يُبَيِّنُ﴾: (بين) أصلٌ واحد، وهو بمعنى البُعدِ والانكشافِ والظُّهورِ والتَّوضيحِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طفل).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طفل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حلم).
(4) الزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حلم).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حلم).
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 19/ 429.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(8) الجوهري، الصحاح، والفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس: (أذن).
(9) الراغب، المفردات: (أذن).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أذن).
(11) الهرري، حدائق الروح والريحان: 19/ 429.

وبانَ الشَّيءُ، وأَبانَ؛ إذا اتَّضحَ، وانْكَشفَ، وفُلانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلانٍ، أَيْ: أَوْضَحُ كَلامًا مِنْهُ[1]، والبَيانُ: الفَصاحَةُ واللَّسَنُ، وقيل: البَيانُ إِظْهارُ المَقْصودِ بِأَبلغ لفظٍ، وهو من الفَهْمِ وذكاءِ القَلْبِ مَعَ اللَّسَنِ، والبَيانُ أَيْضًا ما يَتَبَيَّنُ بِهِ الشَّيْءُ مِنَ الدَّلالَةِ وغَيْرِها[2]، ومعنى يُبَيِّنُ لكم آياتِهِ، أي: أعلامُهُ، أَي: يبيِّن لكم الأعلامَ التي تحتاجون إليها، وتعرفون ما يسعُ لكم ممّا لا يسع، وما يُؤتى ممّا يُتَّقى[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تعليمُ الأطفالِ البالغين الثِّقةَ والعـفَّـة من خـلال آداب الاستئذان

تُبيِّن الآية تمامَ بعضِ الأحكامِ والآدابِ التي شرَعها الله تعالى لعبادِه، عند بلوغِ الصِّغار مَبلغَ الرِّجالِ، أيْ: الاحتلام، فعليهم أنْ يَستأذِنوا في كلِّ الأوقاتِ استئذانَ الرِّجال البالِغينَ من أولادكم وأقربائكم الأحرار، أي: فلا يدخلوا عليكم في وقتٍ من الأوقاتِ إلّا بإذن، لا في أوقاتِ العوراتِ الثلاث ولا في غيرها، هكذا يبيِّن اللهُ لكم آياته وأحكامه وشرائع دينه، كما بيَّن لكم أمرَ هؤلاء الأطفالِ في الاستئذانِ بعد البلوغ، واللهُ عليمٌ بما يُصلحُ خلقَهُ وغير ذلك من الأشياء، حكيمٌ في تشريعِه وتدبيره[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) في مطلع الآية:

عـطـفُ حُـكـمٍ على آخرَ، مُبيِّنٌ لـلـمُـراد من السّياق المستفاد

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ معطوفٌ على الآية السّابقة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [النور: 58] بجامعِ أنَّ كليهما في حكم الاستئذان في البيوت، إلا أنَّ الآيةَ السابقة في حكمِ استئذان الأرقّاء والأطفال الذين لم

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(2) الرازي، مختار الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بين).
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 592.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 215.

يبلغوا الحُلُمَ، وأمّا هذه الآية؛ فهي في حكمِ استئذان هؤلاء الأطفال بعد أنْ يبلغوا الحُلُمَ، دون الأرقّاءِ الذين لم يتغيَّر حُكمهم بالبلوغ[1].

ويحتملُ أنْ تكونَ الواو استئنافيةً[2]، استأنفتْ حكمًا جديدًا؛ فبعد بيان حُكم الأطفال الصغار، استأنف النَّظم حكمًا جديدًا وهو تعليم هؤلاءِ عند البلوغ آداب الاستئذانِ، ووجه الاستئناف أنَّ الآية السابقة خطابٌ للمكلَّفين الكبار في كيفيَّة التعامل مع الصغار، والآية الثانية إخبارٌ بحكم تكليفي عندما يكبر الصغار.

نكتةُ تعليقِ الشرط بـ (إذا) الشَّرطيَّة:

اشـتراطُ آدابِ الاستئذان حالةَ بلوغِ الأطفال الحُلُمَ

جاء استعمالُ أداة الشرط (إذا) التي تدلُّ على تحقُّق الوقوع دون (إنْ) التي تدلُّ على مظنَّة تحقُّقه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾؛ لأنَّه الأنسبُ في قطعيَّة وقوع حكم البلوغ لمجمل الأطفال، وليس هذا هو المقصود وحدَهُ؛ لأنَّه أمرٌ فطريٌّ مركوزٌ في فطرة الناس جميعًا، وإنَّما المقصودُ هو تحقيقُ الحكم التكليفي، وهو الاستئذانُ في دخول البيوتِ، كما تحقَّق لمن سبقهم من الناس، وفيه إيماءٌ إلى ضرورة تربيتِهم وإرشادهم وتعليمهم ما يجب عليهم أن يقوموا به، قبل بلوغِ هذا السنِّ؛ لما تدلُّ عليه (إذا) من معنى الاستقبال.

بلاغةُ لفظِ ﴿بَلَغَ﴾ في السّياق:

الاستئذانُ منوطٌ ببلوغِ الحُلُمِ؛ حفاظًا على محاسن القيم

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿بَلَغَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ﴾، ولم يقلْ مثلًا: (وصل)؛ وذلك لاتِّساع دلالة ﴿بَلَغَ﴾، ولكونها أنسبَ للسياق؛ إذ أصلُ مادة ﴿بَلَغَ﴾ تدلُّ على الوُصول إِلَى الشَّيْءِ، كأنَّهُ بَلَغَ وقْت الكِتابِ عليْه والتَّكْليف، والبَلاغُ والبلوغُ هو الانتهاءُ إلى المقصدِ والمنتهى مكانًا أو زمانًا أو أمرًا من

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 215، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 312.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 650.

الأمورِ المقدَّرةِ[1]، وهذه المعاني كلُّها تتناسب مع السياق الذي يوجبُ حكمَ الاستئذانِ على الطِّفلِ الذي انتهى من مرحلةِ الطفولةِ، ووصلَ إلى سنِّ البلوغ ومرحلة الإدراك؛ ليصبحَ في حكمِ الكبار، فلا يدخل بغير استئذان؛ لِما يجرُّ ذلك من كشفٍ للعورات، وليكون اسمُ البلوغ ملتصقًا بأحكام تكليفيَّة شرعيَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي ﴿بَلَغَ﴾:

إذا تحقَّق البلوغُ الشَّرعيُّ؛ تعيَّنت أحكام الاستئذان

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالفعل الماضي ﴿بَلَغَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ البلوغِ منهم؛ لأنَّ الأصلَ في الماضي أنَّه يدلُّ على حدثٍ وقع ومضى وانقضى، وهذا يدلُّ على أنَّ وجوبَ الاستئذان، متعلِّقٌ بتحقُّق بلوغهم، فإذا تحقَّق البلوغُ؛ تحقَّقت أحكامه.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلْأَطْفَٰلُ﴾:

تنوُّعُ دلالةِ أداة التَّعريف، توسُّعٌ في معاني السّياق المنيف

اللام في لفظ ﴿ٱلْأَطْفَٰلُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ عهديَّةٌ، معهودها ذكريٌّ بغيرِ لفظه، وهو ما مرَّ في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ﴾ [النّور: 58]، أي: المقصود الأطفال المعهودون الذين جُعلوا قسيمًا للمماليك، أي: إذا بلغَ الأطفالُ الأحرارُ[2]، ويؤكِّد كونَ اللام للعهد الإتيانُ بالتشبيهِ لبيان كيفيَّة استئذان هؤلاء، وذلك التَّشبيهُ لا يتسنّى إلّا بتشبيههِ باستئذان المعهودين عندَ السّامع[3]، وذهب بعضُ العلماء إلى أنَّها جنسيَّة، وهو جمع محلّى بـ(أل)، فيعمُّ كلَّ الأطفال الأحرار والمماليك، فيجبُ الاستئذانُ على من بلغَ من الفريقين، ومن قال بذلك؛ أوجبَ استئذانَ العبدِ البالغ على سيِّدته[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بلغ).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 312، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 406.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 406.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 406.

أحوالُ البالغين بين الجمع والإفراد، منبئةٌ عن البيان المراد

نكتةُ جمع لفظ ﴿ٱلۡأَطۡفَٰلُ﴾:

آثر النَّظمُ القرآنيُّ جمعَ لفظ ﴿ٱلۡأَطۡفَٰلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الأطفالَ بعد البلوغ قد تكوَّنت لديهم الميول الغريزية، ولكلِّ واحدٍ منهم ميولُه وشخصيَّتُه وشطحاته، بخلافِ الأطفال قبل البلوغ، فإنَّه لم تتكوَّن لديهم الغريزة، وليستْ لهم هذه الميول أو المآرب، فكأنَّهم واحدٌ، فهم بهذه المنزلة نظرتُهم واحدة، ولذلك عبَّر عنهم باللفظ المفرد في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور: 31][1]، فلمّا اختلف الاعتبارُ؛ اختلف الجمع والإفراد.

بيانُ أنَّ المخصوصين بالاستئذان هنا، هم الأحرارُ لا العبيد

دلالةُ (مِنْ) في شبه الجملة ﴿مِنكُمُ﴾:

حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ﴾ بيانيَّةٌ؛ فلفظ الأطفال يشملُ الأحرار والمماليك، فبيَّن بقوله: ﴿مِنكُمُ﴾ أنَّ المراد من الأطفالِ، ما هم من الأحرار المخاطَبين؛ ليؤكِّد اختصاصه بهم، لقوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ [النور: 58][2]، والمعنى: أنَّ الأطفال من أولادكم وأقاربكم مأذونٌ لهم في الدخول بغير إذنٍ إلّا في العوراتِ الثلاث، فإذا اعتادَ الأطفال ذلك، ثم خرجوا من حدِّ الطفولة بأنْ يحتلموا، أو يبلغوا السنَّ التي يُحكم فيها عليهم بالبلوغ؛ وجبَ أنْ يُفطَموا عن تلك العادة، ويُحملوا على أنْ يستأذنوا في جميع الأوقات، مثل الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدُّخول عليكم إلّا بإذن، وهذا ممّا الناسُ منهُ في غفلة[3]، ولذا أكَّدت عليه (من) البيانيَّة.

بلوغُ أوانِ الاحتلامِ، يجري على البالغ جميع الأحكام

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡحُلُمَ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بلفظِ الحلُم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10334.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 145.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 146.

﴿ٱلۡحُلُمَ﴾ أنَّ البيانَ القرآنيَّ قد جعل حدَّ التكليف ببلوغ الصبيِّ الحلُم، سواءٌ برؤيةِ الشَّيءِ في المنام، أو بالإدراك وبلوغِ الطفلِ مبلغَ الرجال بظهورِ علامتهم عليه، أو ببلوغِه سنًّا يبلغُ فيها الأطفال عادةً؛ لأنَّ المعنى اللغوي للحلم يشملها جميعًا[1]، وقد ورد في السُّنَّة ما يؤكِّد كونَ التَّكليف يبدأ بالحلم؛ إذ قال ﷺ: «رُفِعَ القلم عن ثلاثة ... وعن الصَّبي حتى يحتلِمَ»[2].

دلالةُ (الفاء) ووظيفتها:

المسارعةُ إلى الاستئذان واجبةٌ بعد بلوغ الإنسان

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرط، وتدلُّ على ضرورةِ سرعةِ تحقُّق فعل الاستئذان من الأطفال بمجرَّدِ وقوع فعل الشَّرط؛ وهو حصولُ البلوغ عندهم، وهو يدلُّ على أنَّ المسارعةَ في الاستئذان المترتِّب على بلوغ الحلم لا ينبغي التَّساهل فيه، أو التغافل عنه، وقد تساهل النّاس في هذا الحكم، وغفلوا عن خطورته.

نكتةُ الأمرِ بالاستئذان ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾:

علَّةُ وجوبِ الاستئذان، دَرْءُ الفتنةِ والاحتياط للأعراض

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ للوجوب، وتاركهُ عاصٍ، وهو مستعملٌ في معناه الحقيقي، لكونِ الرجال المشبَّه باستئذانهم لا يُعدّون من الطوافين، ولكن يُعدّون من الداخلين على البيتِ الذين يجب عليهم الاستئذانُ قبل الدخول فيه، ولو كانوا داخلين على آبائهم وأمهاتهم، ويؤكِّد ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أوجبَ على الرَّجل أنْ يستأذنَ على أمِّه، فإنَّ الاستئذانَ يُطلبُ من الرجال على كلِّ حال[3].

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حلم).

(2) سنن أبي داود، كتاب الحدود، رقم: (4401).

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5228.

تعيينُ مرجعِ ضمير ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾:

ضميرُ الجمعِ في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾ يعودُ إلى الأطفال الذين بلغوا الحُلم؛ لأنَّه قد سبق ذكرهم في الآية، وعودُ الضَّميرِ ربْطٌ للآية بما قبلَها في اتِّساق وبيان.

دلالةُ حذفِ متعلّقِ فعل الاستئذان:

بيانُ أهميَّةِ عمومِ المتعلِّق في الأشخاصِ والأزمان

حذفَ النَّظمُ الحكيم متعلِّقَ فعل الاستئذان في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾؛ إذ التقدير: فليستأذنوا عليكم في الدُّخول؛ للإيماءِ إلى عمومِ المتعلِّق في الأشخاص والأزمان، أي: ليستأذنوا على جميعِ الناس في جميعِ الأوقات[1]، وفي هذا الحذفِ إيماءٌ إلى أنَّ النّاس ستغفل عن هذا الحكم، وأنَّ المطلوب أن يكونَ الاستئذان فعلًا لازمًا لهم في كلِّ أحوالهم ما داموا قد بلغوا.

نكتةُ العدولِ عن الخطاب إلى الغيبة:

الخطابُ بالأحكامِ للمكلَّفين، لا للأطفال غير المميّزين

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبير بصيغة: ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾ على الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾ ولم يقلْ: (فليستأذنوكم) على الخطاب، كما في الآية التي قبلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ [النور: 58]؛ وذلك لأنَّ الأطفالَ في آية خطاب الأولياء غير مكلَّفين، فالخطابُ للمكلَّفين وهم أولياؤهم، فآباؤهم وأمَّهاتهم هم من يعلِّمهم تلك الآدابَ، فالأمانةُ في رقابهم والواجبُ منوطٌ بهم، بخلافِ آية ضمير الغيبة فالأطفالُ قد بلغوا الحلم، وصاروا أهلَ تكليف، وصارت المهمَّةُ في أعناقهم، والأمانةُ في رقابهم، فكان التَّكليفُ منوطًا بهم، فجاء الضَّمير غيبةً.

دلالةُ الكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾:

(الكاف) حرفُ تشبيهٍ وجرٍّ، في حيِّز النَّصبِ على أنَّه نعتٌ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 312.

لمصدرٍ مؤكَّدٍ للفعل السّابقِ، والتقدير: فليستأذنوا استئذانًا كائنًا مثلَ استئذانِ المذكورينَ قبلهم بأنْ يستأذنوا في جميعِ الأوقاتِ[1]، وفي هذا النَّعتِ بيانٌ لهذ الاستئذانِ الواجبِ المؤكَّدِ على الأطفال الذين بلغوا الحُلُم.

تربيةُ الصِّغارِ على الامتثال على شاكلةِ سابقيهم من الكبار

دلالةُ (ما) على المصدريَّةِ في السّياق:

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ مصدريَّةٌ، والمصدر المؤوَّل من (ما) والفعل ﴿ٱسْتَـْٔذَنَ﴾ في محلِّ جرٍّ بالكاف متعلِّقٌ بمحذوف مفعولٍ مطلقٍ عامله ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾، والتقدير: فليستأذنوا استئذانًا كاستئذانِ الذين من قبلهم، وقد قوّى البيانُ القرآني الاستئذان بالمصدر المؤوَّل وزاده بيانًا؛ لأنَّهُ أقوى وآكدُ في الدَّلالة على الحدثِ من المصدر المجرَّد؛ لكون فعل استأذن ماضيًا يفيدُ تحقُّق الوقوع وانقضائه.

(ما) المصدريَّةُ تقويةٌ وزيادةُ بيانٍ لمعنى الاستئذانِ

بلاغةُ التَّشبيهِ ووظيفته التَّشريعيَّة:

المرادُ من التَّشبيهِ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾، إلحاقُ من بلغ جديدًا بمن تقدَّم بلوغه في وجوب الاستئذان؛ لأنَّه قد يظنُّ ظانٌّ أنَّ من خدمَ في حالِ الصِّغر، فإذا بلغ يجوز له ألّا يستأذنَ، ويفارق، حالُهُ حال من لم يخدم، ولم يملكْ، فبيَّن تعالى أنَّه كما حظرَ على البالغين الدُّخول إلّا بالاستئذان، فكذلك على هؤلاء، إذا بلغوا، وإنْ تقدَّمتْ لهم خدمةٌ، أو ثبتَ فيهم ملكٌ لهنَّ[2]، فالتَّشبيهُ في هذه الآية له حكمُ القياس على متقدِّم، وإلحاق فرع جديد بأصل قديم.

ملمحُ إلحاقِ فرعٍ جديدٍ بأصلٍ قديمٍ؛ قياسًا لاتِّحادِ العلَّة

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي ﴿ٱسْتَـْٔذَنَ﴾:

عبَّرَ النظمُ الكريم بالفعل الماضي ﴿ٱسْتَـْٔذَنَ﴾ في قوله تعالى:

الأمرُ بالاستئذانِ لما هو معلومٌ مشاهدٌ، لا لمبهمٍ خفيٍّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 195، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 650، والخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 805.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 419.

﴿كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ﴾؛ إظهارًا لكون حكم استئذان البالغين، هو حكمٌ قديمٌ ثابتٌ قد وقعَ، وهو معروفٌ لدى المخاطَبين من الأطفال الذين بلغوا الحلمَ، فهم يعرفونه؛ ذلك لأنَّ الماضي يدلُّ على زمنِ وقوعِ الحدثِ قبلَ زمنِ التكلُّم، فالتَّشبيه لم يكن بأمرٍ غامضٍ، أو مبهمٍ، أو خفيٍّ، بل بأمرٍ ظاهرٍ واضحٍ بيِّنٍ، وهذا ما يجعل التَّشبيه ذا دلالةٍ فقهيَّة تربويَّة.

دلالةُ تعلُّقِ قيد ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ بمحذوفٍ:

بيانُ تقديرِ المحذوف، باعتبارِ سابقِ ذكرهم أو بلوغهم

تعلَّق قيد ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، في قوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، بمحذوفٍ مقدَّرٍ، أي: (كما استأذن الذين ذُكروا من قبلهم) في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ [النّور: 27]، فالمقصود بالقبليَّة أنَّهم مذكورون قبلهم[1]، ويجوز أنْ تكون القَبْلِيَّةُ باعتبارِ الوصفِ لا باعتبارِ الذِّكرِ في النظم الجليل، بقرينة ذكرِ البلوغ وحكم الطفوليَّة، أي: (الذين بلغوا من قبلهم)[2].

بلاغةُ استعمالِ الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تنوُّعُ تأويل الحرف انفساحٌ في المعاني المتاحة

اختلفَ العلماءُ في دلالة الكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، فمنهم من ذهبَ إلى أنَّها كافُ تشبيهٍ رُكِّبت مع اسم الإشارة، فيتعيَّن تعرُّف المشار إليه وما هو المشبَّه به، أي: مثل ذلك البيان العجيب الَّذي طرقَ أسماعكم في آيات الأحكام يبيِّن اللّهُ لكم، ومنهم من يرى أنَّها اسمٌ بمعنى (مثل) منتصبٌ على المفعوليَّةِ المطلقةِ لـ﴿يُبَيِّنُ﴾ أي: مثل البيانِ العجيب يبيِّن اللّهُ لكم، فليس تشبيهًا، ولكنَّه تمثيلٌ لحالةٍ، ومنهم من يرى أنَّ الكاف مقحمةٌ للتوكيد، لا تدلُّ على تمثيلٍ ولا تشبيهٍ، فيصير اسمُ الإشارة على هذا نائبًا منابَ مفعولٍ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 195.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 406.

مطلق لـ﴿يُبَيِّنُ﴾، كأنَّه قيل: ذلك البيانُ يبيِّن الله لكم، أي: فعدلَ عن المصدر إلى اسم إشارتِهِ النائب عنه؛ لإفادةِ عجابةِ هذا البيان بما في اسمِ الإشارة من علامة البعد المتعيَّن فيها لبعد المرتبةِ، والتشبيهُ على هذا الوجه مقصودٌ منه المبالغة بإيهام أنَّه لو أراد المشبِّه أنْ يشبِّهَ هذا في غرابته؛ لَما وجد له إلا أنْ يشبِّهه بنفسه[1].

تعيينُ مرجعِ اسم الإشارة (ذلك):

بلوغُ غاية كمالِ المشبَّه أن يُشبَّهَ بنفسِه

يرجعُ اسم الإشارة (ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ إلى البيانِ الذي بيَّنه في آياتِ الأحكام، والمعنى: مثل ذلك البيانِ الذي طرقَ أسماعكم يبيِّنُ اللهُ لكم الآيات، فبيانُهُ بالغٌ غايةَ الكمالِ حتى لو أُريدَ تشبيهُهُ؛ لَمَا شُبِّه إلّا بنفسه[2].

وفي تكرير هذا البيان بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ آياتِ الاستئذان أتقنُ حاسمٍ لمواد الشرِّ، وتركها أعظمُ فاتحٍ لأبوابِ الفتن، وأنَّ إخراجَ الكلام في أحكام الحلال والحرام مع التَّهذيب والبيان من الفخامة بمكان، وأنَّ فطْمَ النُّفوسِ عمّا ألفتْ في غايةٍ من العسرِ شديد، وفي هذا كلِّهِ إشارةٌ إلى أنَّ آيات الاستئذان - لِما لها من العلوِّ - جديرةٌ بالتأكيد[3].

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيد:

(ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ اسمُ إشارةٍ للبعيد؛ للإيذانِ بعلوِّ رتبةِ أحكام الاستئذان[4]، فالاستئذانُ أدبٌ راقٍ ورتبةٌ في الالتزام عليَّةٌ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يُبَيِّنُ﴾:

وضوحٌ وانكشافٌ يناسبُ اسمَ السّورة و أحكامها

عبَّرَ النظمُ الكريم بلفظ التبيين في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 2/ 15، 18/ 292.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 18/ 292.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 313.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 15، 18/ 292.

﴿ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾، الدّال على معنى البُعدِ والانكشاف والظهور والتوضيح[1]، وهذه المعاني تتناسب مع اسم السورة (النور) ومعنى النّور هو الظهور والضياءُ والوضوح[2]، ويناسبُ أيضًا مضامينَ السورة وما جاء فيها من أحكام واضحةٍ مفصَّلة في نظمها ومضمونها، وفي مقصدها وهو إخراجُ النّاس من الجهلِ إلى النّور، ويناسبُ الحكم الواضحَ الظاهرَ في الآية، وهو وجوبُ الاستئذان؛ إذا بلغَ الطفلُ الحلم.

براعةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يُبَيِّنُ﴾:

تجدُّدُ بيانِ القرآنِ وبرهانه المواكب للحياة، كأنَّما أُنزل الآن

إيثارُ التَّعبيرِ بصيغة الفعل المضارع ﴿يُبَيِّنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ دونَ الفعل الماضي، - ومقتضى الواقع أنَّ البيان قد تحقَّق ووقع - للإيماء إلى أنَّ هذا البيان مستمرٌّ متجدِّدٌ مصلحٌ لكلِّ زمان ومكان، فإذا طلب العالم المتدبِّر بيانَ اللّه تعالى؛ وجده، بقطع النظر عن الزمان والمكان، فتومئ الصيغةُ إلى أنَّ نظم القرآن لا يُصيبه الهرمُ المعرفي كما هو في كثير من النصوص، بل هو جديدٌ، كأنَّما أُنزل الآن، وفيه دعوة للنَّظر والتَّأمل والتدبر، فإنَّ نفعَ هذه التشريعات الأسرية وما تحقِّقُ من طُهرٍ ومودَّةٍ ورحمةٍ، تكون بذلك منحةً للمخاطَبين، ولمن جاء بعدَهم، وفي هذا كلِّهِ إشارةٌ إلى إعجازِ القرآن الكريم.

دلالةُ تعريفِ المسند إليه بلفظِ الجلالة:

صفاتُ العظمةِ والجلالِ دالَّةٌ على كمالِ شرعِ الله وعلوِّه

جاء المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ الدالِّ على الذّاتِ الجامعةِ لصفاتِ الإلهيَّة كلِّها؛ إظهارًا لِما له سبحانه من صفاتِ الكمال والعظمة والجلال، بما يشيرُ إلى كمالِ ما شرعَهُ سبحانه وعلوِّهِ من أحكامِ الاستئذان

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (نور).

التي هي أتقنُ حاسم لمواد الشرِّ، وتركُها أعظمُ فاتحٍ لأبوابِ الفتن، وذلك للمخاطَبين مع ما لهم من خِلال النقص[1].

نكتةُ تقديمِ القيدِ على المفعول:

بيانُ أنَّ الامتنانَ على المخاطَبين؛ لبعث لواعج التَّشويق للأمر

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الجار والمجرور ﴿لَكُمُ﴾، على المفعول به ﴿ءَايَٰتِهِۦۗ﴾، في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾؛ للامتنان، فهو بيانٌ للمخاطَبين، وفي البيان منَّةٌ عظيمة؛ إذ لم يُنزل كتابًا خافيًا على النّاس، وتشويقًا للمؤخَّر، وهي الآياتُ الشريفة التي أضافها لذاته سبحانه، واهتمامًا بالمقدَّم، وإيثارًا لهم بالخطاب، أي: لكم دون غيركم؛ وذلك للمُبالَغةِ في حَملِهم على العملِ بمضمونِ أحكام الاستئذان؛ لأنَّ من شأن المرءِ الاعتِناءَ بشأنِ نفسِه، والاهتمامَ بتحصيلِ مَنافِعِه.

نكتةُ جمعِ لفظ ﴿ءَايَٰتِهِۦۗ﴾:

البيانُ يلفُّ جميعَ آياتِ القرآن البليغة

جُمِعَتِ الآياتُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ لإفادةِ العموم؛ لأنَّ الجمعَ المعرَّف بالإضافة من صيغ العموم، وللدَّلالةِ على تعدُّدِ هذه الآيات، وتجدُّدها، ويرسِّخُ العمومَ والكثرةَ التعبيرُ بالجملةِ الفعلية المضارعيَّة الدّالَّة على الاستمرارِ التجدُّدي.

نكتةُ إضافةِ ﴿ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ إلى الضَّمير:

بيانٌ لعِظَمِ شأنِ آياتِ الاستئذانِ، وشرفِ معانيها

أُضيفت الآياتُ إلى الضَّميرِ العائد إلى الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ بيانًا لهذه الآيات، بأنَّها العلاماتُ الدّالَّة على اللهِ من هذه الفرعيّات وما رقَتّ إليه الأصليات[2]، وتخصيصًا لها بالله، وتشريفًا لها[3]، وتعظيمًا لشأنها، "وحثًّا على تدبُّر ما تقدَّم منها؛ لاستحضار ما دعتّ إليه من الحكم، وفصَّلت به من المواعظ، وتنبيهًا على ما فيها من العلوم النافعة دينًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 313.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 313.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 195.

ودنيا"[1]؛ مبالغةً في طلبِ الالتزام بها، وترهيبًا من التَّهاون في شرعه تعالى، وتفنُّنًا في الكلام، ولتقويةِ تأكيدِ معنى كمالِ التَّبيين الحاصل من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وتأكيدِ معنَى الوصفين ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: هي آياتٌ من لَدُن مَن هذه صِفاتُه، ومَن تلك صِفاتُ بَيانِه[2].

توجيهُ المتشابه في التَّعريف بـ (أل) والإضافة:

العهدُ ناسَبَ المُعتبَرات الواضحة، والإضافةُ ناسبتْ سياق تعظيمِها

خُتِمَت هذه الآيةُ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ بالإضافةِ إليه، وخُتِمَتْ ما قبْلَها واللاحقة لما بعْدَها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ [النور: 58]، بالتَّعريفِ بـ (أل)، ووجْهُهُ: أنَّه لَمّا تقارَبَ اللَّفظُ الواحدُ؛ عدَلَ عن تكراره بلفْظٍ واحدٍ فيما تقارَبَ، على عادةِ العرَبِ في استثقالِ تكرُّرِ اللَّفظِ الواحدِ بعَينِه فيما تقارَبَ من الكلام، ما لم يَحمِلْ على ذلك حاملٌ من المعنى، فجيءَ باللفظِ في الآياتِ في الأولى مُعرَّفًا بالألفِ واللّام للعهْدِ، فيما تقدَّمَ من المُعتبَرات الواضحة الدَّلالة، وفي الآيةِ الثّانيةِ مُضافًا إلى الضَّميرِ المُتَّصلِ؛ لتَحصُلَ نِسبةُ الآياتِ لِمَن هي له تعالى، وكانت الثّانيةُ هي المُضافَةَ؛ لأنَّها مع ما تُعطيهِ من النِّسبةِ مُبيِّنةٌ للأولى بيانًا تأكيديًّا؛ إذ مِن المعلوم أنَّها آياتُه سُبحانه، فجاء ذلك على ما يجبُ، ومن الواردِ على هذا الرَّعْي - واللّهُ أعلَمُ - قولُه في سورةِ البقرة: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ [البقرة: 219]، ثمَّ قال تعالى بعدَ آيٍ: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾ [البقرة: 221]، فهذا مِثْلُ الواردِ في سورةِ البقرة[3].

دلالةُ (الواو) في السّياق المحكم:

الجملةُ الاعتراضيَّةُ توكيدٌ؛ لبيان كمالِ الآيات

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ اعتراضيَّةٌ، والجملةُ بعدها معترضةٌ، وفائدتها تقويَةُ الكلامِ الَّذي اعترضتْ بين أجزائه،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 313.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 296.

(3) الغرناطيّ، ملاك التَّأويل: 2/ 373.

وتوكيدٌ لمعناه؛ إذ الاعتراضُ جارٍ عند العرب مجرى التَّأكيد[1]، أي: مبالغةً في بيانِ كمالِ بيانه لآياته سبحانه، والمعنى: يبيِّن اللّٰهُ لكم الآيات بيانًا كاملًا، وهو عليمٌ حكيم، فبيانُه بالغٌ غايةَ الكمال لا محالة[2].

نكتةُ إظهار الاسم الجليل (الله):

تربيةُ المهابةِ في قلوبِ المستَأْذنين مِنَ الله العليم الحكيم

جاءَ الاسمُ الجليلُ (اللّه)، مُظهرًا في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، فلم يقلْ: (وهو العليم الحكيم)؛ تربيةً للمهابة في قلوبِ المخاطَبين، وإدخال الروعة فيها؛ تحذيرًا وتخويفًا لهم من مخالفة أحكام الاستئذان، ومناسبةً لسياقِ التَّعظيم سواءٌ بذكر الاسم الجليل في الآية ذاتها ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾، أم في إضافة الآيات إلى ضمير الجلالة ﴿ءَايَٰتِهِۦۗ﴾، أم بذكر اسم الإشارةِ للبعيد؛ لبيانِ عظمة آياتِ اللّه سبحانه.

سرُّ تقديمِ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾:

العِلمُ بالأحكام مقدّمةٌ للعلم بحكمتها

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ صفةَ العِلم على صفة الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ مناسبةً للسياقِ الذي هو بالعلم أولى، فالسياقُ سياقُ تبيينٍ وتعليمٍ لأحكامِ الاستئذان، وليس سياق جزاءٍ وحساب، وكذلك هو من بابِ تقديمِ السَّببِ على المسبَّبِ؛ فإنَّ معرفةَ أحكامِ الاستئذان وعلمها أسبقُ من تأمُّلِ حكمتها وسرِّ إحكامها.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

عظمةُ علم الله وحكمته أَدعى للالتزام بأمره وشرعِهِ

نُكِّرَتْ صفتا ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لإفادةِ معنى التَّفخيم والتَّعظيم لعلمِ اللّٰهِ المحيط، وحكمته فيما يشرِّعه، فاللّٰهُ عليمٌ بأحوالكم ظاهرها وباطنها، وحكيمٌ فيما شرع، وأمر، فهو يبيِّن لكم الأحكامَ، وما يليقُ بكلِّ حال، إذًا عظمةُ علمِه وفخامة حكمته سبحانه أدعى لالتزامِ المخاطَبين بشرعه.

---

(1) ابن جنيّ، الخصائص: 1/ 336.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 295.

نكتةُ حذفِ متَعلّقِ الاسمين الجليلين:

عِلْمُ العبدِ بعلمِ الله وحكمته، يوجبُ الثِّقة بأحكامِهِ

حُذِفَ متعلِّق الاسمين الجليلين في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، فلم يقل: عليمٌ بحالكم، حكيمٌ بتشريعه استئذانَ البالغين؛ للإشعارِ بالعموم والشمول، فهو عليمٌ بحالكم وأقوالكم وأفعالكم ونياتكم وما ينفعكم وما يضرُّكم، بل عليمٌ بأحوالِ كلِّ النُّفوس وبما يصلحها من آداب، حكيمٌ في كلِّ ما يشرعه سبحانه من أحكام، وهذا العمومُ فيه من التَّحذير ما فيه، فاللهُ مطَّلعٌ على جميعِ ما تفعلونه سرًّا وجهرًا، وذلك يوجبُ على العبدِ الخوفَ منه والالتزامَ بأحكامه، وفيه من التَّطمينِ للمخاطَبين والتَّحفيزِ للعملِ بحكم الاستئذان ما فيه، فهو عليمٌ بما ينفعهم، وحكيمٌ بما يشرعه ممّا يصلحهم.

فائدةُ اقترانِ صفتَي ﴿عَلِيمٌ﴾ و﴿حَكِيمٌ﴾:

بيانُ علمِ اللهِ بالنُّفوس، ترغيبٌ في الالتزامِ بأحكامه

التَّذييلُ بالاسمين الجليلين (العليم) و(الحكيم) تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ الكلامِ قبلَهُ، ممجِّدٌ له، وأنَّه كائنٌ وفقَ عِلمِه وحِكمتِه؛ فبعد أن بيَّن أحكامَ استئذان البالغين بما يحقِّق حفظًا للعورات، وسدًّا لأبوابِ الفساد؛ عقَّب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ علم اللهِ بنفوسِ البشر، وما يصلحها من الآداب، ومقامُ حكمته كذلك في علاجِ النُّفوس والقلوب، وللإشارة إلى زيادةِ التَّرغيب في العلم والحكمة اللَّذين تتضمَّنهما هذه الآيات المليئة بالعلوم النافعة دينًا ودنيا، وبالحِكَم الساطعة، وأنَّ ذلك هو سببُ كلِّ سعادةٍ[1]، بما يحفِّز المخاطَبين بالالتزام بها، وعدم الإعراض عنها.

نكتةُ تكرارِ الفاصلة مع الآية السّابقة:

تحفيزُ الأذهان؛ للـيقـظـة إلى أحكام الاستئذان

تكرَّر قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، في فاصلة الآية السّابقة وهذه الآية؛ لكون الغرض من الكلامين واحدًا، وهو بيانُ أدب الاستئذانِ؛ ولأنَّ المناسبة في الموضعين واضحةٌ، فالمعنى: اللهُ عليمٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 313.

بما فيه صلاحكم، حكيمٌ فيما شرعه لكم، وقد جاء هذا التّكرار بألفاظٍ واحدةٍ؛ تأكيدًا لمعنى كمالِ بيانه لآياته سبحانه، وزيادةً في الاهتمام بها، وامتنانًا بما تحمله من خير[1]، ومبالغةً في الأمرِ بالاستئذان، وامتثالِ المكلَّفين بما أُرشدوا إليه من الالتزام بأحكامه، وتأكيدًا للإنذار من المخالفة[2]، ولما في هاتين الصِّفتين من التَّلويح بأنَّ العباد يتهاونون في أحكام الاستئذان، فكان تكرارُ الفاصلة بمنزلة همز الأذهان؛ لليقظة إلى أحكامِ الاستئذان.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطِّفل والغُلام والصَّبي:

الـطِّـفـلُ هـو المولود، والصَّبيُّ هو الولدُ المميِّز، والـغـلامُ من قاربَ سنَّ البلوغِ

تتقاربُ معاني هذه الألفاظ (الطِّفل، الغلام، الصبي)؛ إذ جميعها تُطلق على الولد إلى أنْ يحتلم، ولهذا قد يُستعمل أحدها موضعَ الآخر، إلا أنَّنا إذا رجعنا إلى المعنى اللغوي لكلِّ منها؛ نلحظ أنَّ بينها فروقًا دقيقةً تميِّز كلَّ لفظ عن الآخر، كما سيأتي:

أصلُ الطفل: المَوْلودُ الصَّغيرُ، يُقالُ: هوَ طِفْلٌ، والأُنْثَى طِفْلَةٌ، ويُقال لِلْمَرْأَةِ النّاعِمَة: طَفْلَةٌ، كَأَنَّها مُشَبَّهَةٌ في رُطوبَتِها ونعْمَتِها بِالطِّفْلَةِ[3]، والطِّفْلُ: الولدُ ما دام ناعمًا، ويُطلق على الصَّبي من حين يولد إلى حين يحتلِم، والطِّفْلُ: يكون واحدًا وجمعًا، وقد يجمع على أَطْفالٍ[4].

وأصلُ الغلام يَدُلُّ على حَداثَةٍ وهَيْجِ شَهْوَةٍ، مِنْ ذَلِكَ الغُلامُ: هوَ الطّارُّ الشّارِبِ[5]، والغُلامُ: الابْنُ الصَّغيرُ، ويُطْلَقُ الغُلامُ على الرَّجُلِ مَجازًا[6]، أو هو الصَّبيُّ حين يولَدُ إلى أنْ يَشبَّ أو حين يقاربُ سنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 295.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 195، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 407.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طفل).
(4) الراغب، المفردات، ص: 521، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 2/ 409.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلم).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (غلم).

البلوغ[1]، وقيل: الولدُ غلامٌ من ولادته إلى أنْ يحتلِمَ، وأساسُ تسميته غلامًا هو اغتلامهُ، أي: بلوغُهُ حالةَ الرغبة في الأنثى[2].

وأصلُ الصَّبي يدلُّ على صِغرِ السِّنِّ، يُقالُ: رأيَتُه في صِباهُ، أي: في صِغَرِه، والصَّبيُّ: مِنْ لَدُنْ يولَد إلى أَنْ يُفْطَم[3]، وقيل الصَّبيُّ: من لم يبلغ الحُلُمَ[4]، وقيل: يبقى الطِّفلُ يسمّى طفلًا حتى يميِّزَ، ثمَّ لا يُقال له بعد ذلك: طفلٌ بل صبيٌّ[5].

وقد استعملَ القرآنُ لفظ الطِّفل والأطفال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾ [الحج: 5]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ [غافر: 67]، وفي هذين الموضعين يدلُّ على معنى الصِّغر ونعومة الجسم، وفي سورة النّور استعمل القرآن لفظَ الطِّفل في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور: 31]، والطِّفل هنا الصَّغير الذي لا يدري ما ثمَّ لصغره[6]، وهذا يكون دون سنِّ التمييز.

واستُعمِلَ لفظ (صبي) في موضعين: في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: 12]، وقد روي عن ابن عباس أنَّه كان ابن سبع سنين[7]، وهو سنُّ التمييز، وأمّا في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ [مريم: 29]؛ فقد قيَّده بكونه في المهد صبيًّا؛ كي لا يُفهمَ منه أنَّه كان مميِّزًا.

فالطِّفلُ: هو الولدُ الصغير ما دام ناعمًا، ولم يبلُغْ سنَّ التَّمييز، والصَّبيُّ: هو الولد المميِّز، والغلامُ: هو الولد الذي نبتَ شاربه، وقاربَ سنَّ البلوغ؛ لأنَّه بلغَ حالةَ الرغبة في الأنثى، هذا هو الغالب في الاستعمال اللُّغوي، وأمّا الاستعمال القرآنيُّ؛ فيستعمل اللَّفظ بحسب السياقِ، ولنكتةٍ تكون فيه.

الاستئذان والاستئناس:

يتقاربُ لفظا الاستئذان والاستئناس في معنى الإعلام، واستعملهما القرآنُ الكريم

(1) أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (غلم).
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (غلم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبي)، وابن منظور، لسان العرب: (صبا).
(4) الراغب، المفردات، ص: 475.
(5) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 227.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 164.
(7) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 7/ 245.

الاستئذانُ: هو طلبُ الإذنِ مطلقًا، والاستئناسُ: طلبُهُ بعد الشُّعور بالأُنسِ

في أدبِ المعاشرة والمخالطة بين الناس ودخول البيوت، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ [النور: 27]، ومع هذا التَّقارب فإنَّ هناك فرقًا بين اللَّفظين، وإيضاح ذلك: أنَّ أصلَ الاستئذانِ يدلُّ على العِلْم والإعلام، يُقال: آذَنَني فلان: أعلمني[1]، والإِذْنُ: الإطلاقُ في الفِعْلِ، ويكون الأمرُ إِذْنًا، وكَذلِكَ الإِرادَة، وقيل الإذن: هوَ فكُّ الحَجْر، وإطْلاقُ التَّصرُّف لِمَنْ كانَ مَمنوعًا شَرْعًا، وأَذِنْتُ له في كذا: أَطْلَقْتُ له فعلَهُ، وأَذِنَ لَهُ في الشَّيءِ، أَباحَهُ لَهُ[2]، والإِذْنُ في الشيء: إعلامٌ بإجازتهِ والرُّخصة فيه، والاستئذانُ: طَلَبُ الإذن[3].

وأصلُ الاستئناس يدلُّ على ظهورِ شيءٍ، وكلُّ شيء خالفَ طريقةَ التوحُّش[4]، وآنَسَ الشَّيءَ: أَحَسَّه وعلمه، واستأنستُ: استعلمتُ، وآنَسَ الشَّخْصَ، واسْتَأْنَسَهُ: رَآهُ، وأَبصرَهُ، ونَظَرَ إِليه، وقيل: الاستئناسُ: الاستئذانُ، ومَعْنَى ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾: فتَعْلَموا أَيريد أَهلُها أَن تَدْخُلوا أَم لا؟[5].

فيشتركُ الاستئذانُ والاستئناس بمعنى طلب السَّماح، فأمّا الاستئذانُ؛ فيكون طلبًا صريحًا في الإذن والإباحة والرُّخصة، وأمّا الاستئناسُ؛ فهو أنْ تطلبوا الأُنسَ بكم، أي: تطلبوا أنْ يأنسَ بكم صاحب البيت، وأُنسه به بانتفاءِ الوحشة والكراهيةِ، وهذه كناية لطيفةٌ عن الاستئذان، أي: أنْ يستأذنَ الداخلُ، أي: يطلب إذنًا من شأنه ألّا يكون معه استيحاشُ ربِّ المنزل بالدّاخل[6]، أي: ينفردُ الاستئناسُ بمعنى طلبِ الأُنس وعدمِ الوحشة والنُّفور، فيكون فيه تلطُّفٌ في الطَّلب.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).

(2) الجوهري، الصحاح، والفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس: (أذن).

(3) الراغب، المفردات، ص: 71.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أنس).

(5) ابن منظور، لسان العرب: (أنس).

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 197.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٦٠﴾ [النّور: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ مِن بيانِ أحكامِ عمومِ النِّساءِ إلى بيانِ أحكامِ القواعدِ منهنَّ

لَمّا ذَكَرتِ الآياتُ بعضَ الآدابِ الاجتماعيَّةِ، ومِنها أمرُ النِّساءِ بالتَسَتُّرِ وعدمِ إبداءِ الزِّينةِ لغيرِ محارِمِهنَّ، وكان ذلك شاملًا لعمومِ النِّساءِ؛ استثنى هنا العجائزَ الكبيراتِ في السِّنِّ، وبَيَّنَ ما يجوزُ لهُنَّ، وما هو الأفضلُ في حَقِّهِنَّ، فقال تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾[1]، كما أنَّه لَمّا ذكرَ سبحانه اقتبالَ الشباب في تغييرِ حكم الحجاب؛ أتبعهُ الحكمَ عند إدبارِ الشباب، في إلقاءِ الظاهرِ من الثياب، فقال: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[2]، كما أنَّه ناسب أن يذكر بعد فرضِ الاستئذان في الأوقاتِ التي يضعُ الرجالُ والنساء فيها ثيابهم عن أجسادِهم، إلى نوعٍ من وضعِ الثّياب عن لابسها؛ وهو وضعُ النّساء القواعد بعض ثيابِهن عنهنَّ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾: (قعد) أَصلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ لا يُخْلَفُ، وهوَ يُضاهي الجُلوسَ، وإنْ كانَ يُتَكَلَّمُ في مَواضِعَ لا يُتَكَلَّمُ فيها بالجُلوسِ، يُقالُ: قَعَدَ الرَّجُلُ يَقْعُدُ قُعودًا، وقَعيدَةُ الرَّجُلِ: امرَأَتُه، وامرَأَةٌ قاعِدَةٌ؛ إنْ أرادَتِ القُعودَ[4]، والقُعودُ يُقابلُ به القيام، والقاعِدَةُ: لمن قعدتْ عن الحَيْضِ والتَّزوُّج، والقَواعِدُ جمعها، قالَ اللّٰه تعالَى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾[5].

(1) الشنقيطي، تفسير سورة النور، ص: 196.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 313.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 296.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قعد).
(5) الراغب، المفردات، ص: 679.

2) ﴿يَرْجُونَ﴾: (رجى) أَصْلانِ مُتَبايِنانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على الأَمَلِ، والآخَرُ على ناحيَةِ الشَّيْءِ، أصلُ الرجاء من الأَمَلِ، يُقالُ: رَجَوْتُ الأَمرَ أَرْجوهُ رَجاءً، وناسٌ يَقولونَ: ما أَرْجو، أَي: ما أُبالي[1]، والرجاءُ، بِمَعْنَى: التَّوَقُّعِ والأَمَلِ، وهو نَقيضُ اليَأْسِ، وقيل هوَ تَرَقُّبُ الانْتِفاعِ بِما تقدَّمَ لَهُ سَبَبٌ ما، وقيل: هوَ الطَّمَعُ في مُمكِنِ الحُصولِ، أَي: بخلافِ التَّمنّي فإنَّه يكونُ في المُمكِنِ والمُسْتَحيلِ[2]، وقال الرّاغب: هو ظنٌّ يَقْتَضي حُصولَ ما فيهِ مَسَرَّة[3]، ومعنى ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾: لا يطمعنَ فيه[4]، ولا يُرِدْنَهُ[5].

3) ﴿نِكَاحًا﴾: (نكح) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو البِضاعُ، والنِّكاحُ يَكونُ العَقْدَ دونَ الوَطْءِ، يُقالُ: نَكَحْتُ: تَزَوَّجْتُ، وأَنْكَحْتُ غَيْري، ويُجرَى نَكَحَ أيضًا مجرى التَّزويج، يُقالُ: نَكَحْتُ: تَزَوَّجْتُ، وامرأةٌ ناكِحٌ، أي: ذاتُ زوجٍ[6]، والنِّكاحُ: البُضْعُ، وذَلِكَ في نَوْعِ الإنسان خاصَّةً[7]، وقيل: إنَّ أصلَ النِّكاحِ للعَقْدِ، ثم استُعيرَ للجِماعِ[8]، وقيل: النِّكاحُ في الأصلِ هو الوطءُ، وقيل: هو العقدُ، وهو التَّزويج؛ لأَنَّهُ سَبَبٌ لِلْوَطْءِ المُباحِ[9]، وكلُّ ما في القرآن من التركيب فهو بمعنى الزواج[10]، إلّا ما وردَ في سورة الأحزاب من قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: 49]، فهو بمعنى العقدِ، فيكون معنى: ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ في الآية، أي: لا يرجون زواجًا.

4) ﴿جُنَاحٌ﴾: (جنح) أصلٌ يدلُّ على المَيْلِ والعُدْوانِ، يُقال: جَنَحَ إلى كذا، أي: مالَ إليه، والجُناحُ: الإثْمُ، سُمّيَ بِذلِكَ: لِمَيْلِهِ عَنْ طَريقِ الحَقِّ[11]، والجُناحُ: الجِنايَةُ والجُرْمُ، وقيل: هو التَّضييقُ، ومعنى قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾، أَي: لا إِثم عَلَيْكُم ولا تَضْييقَ[12]، والمرادُ بالآية هنا: موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: لا إثْمَ عليهنَّ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجى).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رجو).
(3) الراغب، المفردات، ص: 346.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 255.
(5) الزجاج، معاني القرآن: 4/ 53.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نكح).
(7) ابن سيده، المحكم: (نكح).
(8) الراغب، المفردات، ص: 823.
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نكح).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نكح).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنح).
(12) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جنح).

5) ﴿مُتَبَرِّجَاتٍ﴾: (برج) له أصلان الأول: البُروزُ والظُّهورُ، والآخر الوَزَرُ والمَلْجأُ، فمن الأول: البَرَجُ، وهوَ سَعَةُ العَيْنِ في شِدَّةِ سَوادِ سَوادِها، وشِدَّةِ بَياضِ بَياضِها، ومِنْهُ التَّبَرُّجُ، وهوَ إظْهارُ المَرْأَةِ مَحاسِنَها، ومن الأصل الثاني: بُروجُ السَّماءِ، وأَصْلُ البُروجِ: الحُصونُ والقُصورُ[1]، والتبرُّج: التفعُّل من البرجِ، وهو الظهورُ، وثوبٌ مُبَرَّج: صوِّرتْ عليه بروجٌ، واعتُبر حُسنُه، فقيل: تَبَرَّجَتِ المرأة، أي: تشبَّهتْ به في إظهارِ المحاسن، وقيل: ظهرَتْ من برجها، أي: قصرها[2]، والتَّبَرُّج: إظهارُ المرأَة زينتَها ومحاسنَها لِلرِّجالِ، وما يُسْتَدعَى بِهِ شَهْوَةُ الرَّجُلِ، وتَبَرَّجَتِ المرأَةُ: أَظهرت وجْهَها، وإِذا أَبدت المرأة مَحاسِنَ جيدِها ووَجْهِها؛ قيلَ: تَبَرَّجَتْ[3]، ومعنى ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾، أي: غير متظاهراتٍ بالزينةِ؛ لِيُنظرَ إليهن، وغير قاصداتٍ التبرُّجَ بالوضع[4].

6) ﴿بِزِينَةٍ﴾: (زين) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حُسْنِ الشَّيءِ وتحسينه، فالزَّينُ: خلافُ الشَّين[5]، والزينةُ الحقيقيَّةُ: ما لا يَشينُ الإنسانَ في شيءٍ من أحوالِهِ لا في الدُّنيا ولا في الآخرة[6]، والزينةُ: ما يُتَزَيَّنُ به، وهي تحسينُ الشَّيءِ بغيرِه من لِبسة، أو حِلية، أو هَيئة[7]، وزيَّنَتِ المرأةُ وجهَها: جمَّلته، وحسَّنته، والتزيُّنُ: التحلّي بحليةٍ مجتلبةٍ تقليدًا لما هو ناشئٌ من البدن، كالتجمُّل بالأصباغِ ونحوها[8]، ومعنى ﴿بِزِينَةٍ﴾ في الآية موافق للمعنى اللُّغويِّ.

7) ﴿يَسْتَعْفِفْنَ﴾: (عفف) أصلٌ يدلُّ على الكَفِّ عَنِ القَبيحِ، ومنه العِفَّةُ: وهو الكَفُّ عَمّا لا يَنْبَغي، وعمّا لا يحلُّ[9]، والعِفَّة: الكَفُّ عَمّا لا يَحِلُّ، ويَجْمُلُ، وقيل: عَنِ المَحارِمِ والأَطْماعِ الدَّنيَّةِ، والاسْتِعْفاف: طَلَبُ العَفافِ، وهوَ الكَفُّ عَنِ الحَرامِ والسُّؤالِ مِنَ النّاسِ، والتَّعَفُّفُ: الصَّبْرُ والنَّزاهةُ عَنِ الشَّيْءِ، وقيلَ: العَفيفَةُ مِنَ النِّساءِ: السَّيِّدَةُ الخَيْرَةُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برج).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (برج).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (برج).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 70.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زين).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (زين).
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عفّ).

وامرأة عَفيفة: عَفَّةُ الفَرج[1]، والعِفَّةُ: حصولُ حالةٍ للنَّفس تمتنعُ بها عن غلبةِ الشَّهوة، والمُتَعَفِّفُ: المتعاطي لذلك بضربٍ من الممارسة والقهر[2]، ومعنى ﴿يَسْتَعْفِفْنَ﴾: يطلبنَ العفَّة بتركِ وضعِ الثّياب[3].

8) ﴿خَيْرٌ﴾: (خير) أصلٌ يدلُّ على العَطْفُ والمَيْلُ، ثم يُحمل عليه، فالخيرُ: خلافُ الشرِّ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَميلُ إليه، ويَعْطِفُ على صاحِبِه[4]، والخَيْرُ: ما يَرغبُ فيه الكلُّ، كالعقلِ مثلًا، والعدلِ، والفضلِ، والشَّيءِ النافع، وخير: يمكنُ أنْ يكون اسمًا، ويمكن أنْ يكون وصفًا، وتقديره (أفعل منه)[5]، والمرادُ بـ ﴿خَيْرٌ﴾ هنا: أفعلُ التفضيل، أي: استعفافهنَّ بعدمِ إلقاءِ الجلبابِ، وأن يتستَّرنَ كالشبابِ أفضلُ لهنَّ من الإلقاء[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مراعاةُ الأحوالِ في أحكام القواعد من النِّساء القائمة على التَّيسير

تُبيِّن الآيةُ أحكامَ النِّساء العجائزِ اللّاتي قعَدْنَ عن الحَيضِ والولدِ، ولا يطمعنَ في الزواج؛ لكِبَرِ سِنِّهنَّ، فلا حرجَ، ولا إثمَ عليهنَّ في أنْ يضَعْنَ بعضَ ثيابِهنَّ الظّاهرةِ، كالقناعِ الذي يكونُ فوقَ الخمار، والرِّداءِ الذي يكونُ فوقَ الثّياب، والّتي لا يُفضي نزعها إلى كشفِ عورة، أو إظهارِ زينةٍ أمرَ اللهُ تعالى بسترها، ولُبْسُهنَّ هذه الثيابَ مُبالَغةً في التَّستُّرِ والتَّعفُّفِ أحسَنُ لهُنَّ، وأطهرُ لقلوبهنَّ، وأبعدُ عن التُّهمة، وأنفى لسوءِ الظنِّ بهنَّ، وأزكى عندَ الله وأطهَرُ، واللهُ سَميعٌ لأقوالِكم، عليمٌ بأعمالِكم[7].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عفف).
(2) الراغب، المفردات، (عفف).
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 19/ 432.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير).
(5) الراغب، المفردات: (خير).
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 70، والهرري، حدائق الروح والريحان: 19/ 432.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 217، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 153.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطف الأحكام على الأحكام:

الاستقصاء في بيان الأحكام المتعلّقة بموضوعٍ واحد

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾ المعطوفةُ على جملة جواب النِّداء في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النور: 58][1]، والجامع هو أنَّ حُكمَ كلتا الآيتين يتعلّق بشكلٍ أو بآخر بوضع الثياب، أمّا الأولى؛ فهي فرضُ الاستئذان في الأوقات التي يضعُ الرِّجالُ والنِّساء فيها ثيابهم عن أجسادهم، وأمّا الثانية؛ فهي جوازُ وضع النِّساء القواعد بعض ثيابهنَّ عنهن، وهذا العطف يناسبُ كون الآية جاءتْ لتخصّصَ قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾... ﴿عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور: 31][2]، فالعطف فيه استقصاءٌ لأحكام الاستئذان والحجاب بما يحفظ على البيت المسلم هيبته وعفَّته.

معنى (أل) في لفظِ ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ﴾:

التّخفيفُ عن القواعد، يشملُ كلَّ قاعدٍ بمجرَّد تحقُّقِ القعود

(أل) التَّعريف في لفظِ: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ﴾ إمّا أن تكون جنسيَّة؛ لإفادة العموم، أي: إنَّ نفيَ الجُناح في وضع الثّيابِ الظّاهرةِ يشملُ كلَّ من انطبق عليها لفظ (قاعد) من العجائز، وهي الّتي لا ترجو نكاحًا، وإمّا أن تكون موصولة بمعنى: (اللّاتي قعدن)[3]، ويدلُّ عليه دخول الفاء، في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ﴾، أي: إن تحقَّق القعود؛ فليس عليهنَّ جناحٌ في وضع الثياب.

بلاغةُ المجاز في مفردة ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ﴾:

القعودُ ملمحٌ في عدم القدرة على إنفاذ أمرٍ مخصوص

القواعدُ وصْفٌ نُقِلَ لمعنًى خاصٍّ بالنساء؛ وهو القعود عن الولادة وعن المحيض؛ إذ استُعير القعودُ لعدم القدرة؛ لأنَّ القعودَ يمنعُ

---

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/ 292.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 296.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 651.

الوصولَ إلى المرغوبِ، وإنَّما رغبةُ المرأة في الولدِ، والحيضُ من سبب الولادة، فلمّا استُعيرَ لذلك، وغلبَ في الاستعمال؛ صار وصفُ قاعد بهذا المعنى خاصًّا بالمؤنَّث، فلم تلحقه هاء التأنيث لانتفاءِ الدّاعي إلى الهاء، من التَّفرقةِ بين المذكَّر والمؤنَّث، وقد بيَّنه قوله: ﴿ٱلَّتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحًا﴾، وذلك من الكِبَرِ[1].

سرُّ جمعِ ﴿وَٱلۡقَوَاعِدُ﴾ جمعُ تكسير:

القاعدُ اليائسةُ من النِّكاح، غير القاعدةِ الَّتي ليست جالسة

جاء لفظ ﴿وَٱلۡقَوَاعِدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ جمع تكسير، ولم يقل: (القاعدات)، فلم يُجمع جمع مؤنَّث سالم؛ لأنَّ القواعدَ واحدتها (قاعد) بلا هاء؛ ليدلَّ حذفُها على أنَّهم قعودٌ عن الحيض والولد للكِبَرِ، كما قالوا: امرأةٌ حاملٌ، ليدلَّ بحذفِ الهاء أنَّه حملُ حبَلٍ[2]، بينما قاعدات جمع قاعدة، وهنا ليس المقصود قعودَ الجلوس؛ إذ قاعدات جمع القاعدة التي بمعنى الجالسة[3]، كما أنَّ القواعدَ من صِفات الإناث على الخصوص، فلا يُقال: رجالٌ قَواعِد[4].

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في السّياق المحكم:

حرفُ المعنى ذو أثرٍ في إفادة المعنى وتأويله

تحتمل ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحًا﴾، معنيين: الأوَّل أنْ تكونَ لِلتَّبْعيضِ، والمعنى: القواعدُ من بعضِ النِّساء، وهنَّ اللّواتي قعدنَ عن الحيضِ والحمل، وهذا مستلزِمٌ للقعود من الأزواج في الأكثر، وعلى هذا يكونُ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحًا﴾، صفةً كاشفةً للقواعدِ لا للنِّساء، والاحتمال الثّاني: أنْ تكون ﴿مِنَ﴾ للبيان، فيكون قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحًا﴾، صفةً كاشفةً للنِّساء أو موضِّحةً أو مخصِّصةً[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 297.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 309.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 4/ 671.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: 1/ 136.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 454.

دلالةُ الوصفِ بالموصولِ ﴿ٱلَّٰتِي﴾:

الإيمـاءُ إلى وجهِ استحقاقِ القواعدِ رخصةَ اللهِ في التَّخفيف

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ وصفَ ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ﴾ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّٰتِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾، وهو "وصفٌ كاشفٌ للقواعد، وليس قيدًا"[1]، أي: رخَّص للتي لا تحيض، ولا تحدِّث نفسَها بالأزواج أنۡ تضعَ جلبابها، وأمّا الَّتي قد قعدتۡ عن المحيض، ولم تبلغ هذا الحدَّ؛ فلا[2]، وفي التَّعبير بالموصوليَّة إيماءٌ إلى وجهِ استحقاقِ القواعد من النِّساء لرخصةِ وضع الثّياب الظاهرة، وهو كونهنَّ لا يرجون نكاحًا، أي: بلغن حالًا لا يرغبُ فيهنَّ الرجال؛ لكبرهنَّ وضعفهنَّ، "وإنَّما خصَّهنَّ اللّهُ تعالى بذلك؛ لأنَّ التُّهمة مرتفعةٌ عنهنَّ، وقد بلغنَ هذا المبلغ، فلو غلب على ظنِّهنَّ خلاف ذلك لم يحلَّ لهنَّ وضع الثياب"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَرۡجُونَ﴾:

ضابطُ رجاءِ النِّكاح انتفاؤه في المستقبل، وعدم تصوُّر وقوعِهِ مطلقًا

أفادَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع في قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾: أنَّ صفة النِّساء القواعد التي رُخِّصَ بسببها لهنَّ وضع الثياب الظاهرة من الجلبابِ وغيره، وهي عدمُ الرغبةِ والطَّمع بالزَّواج والانتظار له متجدِّدةٌ لا تنقطع، أي: إذا لم تنقطعۡ رغبةُ العجوز في النِّكاح، فلا تستحقُّ هذه الرخصة، ويجب عليها أنۡ تلبسَ جلبابَها، وعليه فإذا تُصوِّر أنَّ رجاءَ نكاحِ الرِّجال قد يقع في المستقبل، فحينها لا ينطبق على القواعد الحكم؛ لأنَّ هذه الصِّفةَ كاشفةٌ، فلا معنى للموصوفِ إلّا بتحقُّق صفته على التَّمام والكمال.

فائدةُ استعمالِ مفردة النِّكاح:

الأحكامُ مرتهنةٌ بمقاصدِها، لا بظواهرها وشكليّاتها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ النِّكاح دون الزَّواج في قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾؛ لإفادةِ أنَّ المُرادَ هو الاستمتاع، وأمّا نفسُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 297.
(2) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 3/ 246.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 420.

العقد؛ فلا ينقطع طمعهنَّ فيه لمصلحةٍ أخرى[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الشارعَ الحكيم يحرصُ بهذا الحكم - مع التَّخفيف عن العجائز - على قطعِ أسبابِ الفتنة لا التَّضييق على العباد.

دلالةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَلَيْسَ﴾:

انتفاءُ رجاءِ النِّكاح شرطٌ لاستحقاقِ الرُّخصةِ والتَّخفيف

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ واقعةٌ في جواب الموصول؛ لأنَّ الألف واللام - على أحد القولين - في لفظِ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ بمعنى (اللاتي قعدن)[2]، وقد اقترنَ الخبرُ، وهو (ليس عليهنَّ جناحٌ) بالفاءِ؛ لأنَّ الكلامَ بمعنى التسبُّب والشرطيَّة، فالمبتدأ وهو ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يُشعرُ بترقُّب ما يردُ بعده، فشابهَ الشَّرط[3]، أي: إن وقع قعودٌ عن رجاء النِّكاح، فلهنَّ أن يتخفَّفن من الثِّياب.

نكتةُ النَّفي بفعل (لَيْسَ):

بيانُ أنَّ النَّفي بـ(ليس) في القرآنِ الكريم، يأتي لرفعِ الحرج

نفى النَّظمُ الحكيمُ الجُناحَ عن القواعد من النِّساء في أنْ يضعنَ جلابيهنَّ غيرَ قاصداتٍ بذلك التبرُّج بزينة بـ (ليس) دون (ما) أو (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾؛ لأنَّ (ليس) تُستعملُ لِما يُتوهَّم وقوعُه، والإثمُ كان متوهَّمًا وقوعُهُ على من تضع جلبابها من النِّساء القواعدِ؛ لأنَّهُ قد سبق الأمرُ للنِّساء عمومًا بأنْ يضربنَ بخمرهنَّ على جيوبهنَّ، وألّا يدنينَ عليهنَّ من جلابيبهنَّ، ولهذا نفى القرآنُ الجناحَ عن هذا الفعل؛ احتراسًا ممّا عساه يسبقُ إلى الفهم من حرمة وضعِ الثياب للعجائز، فأزالَ هذا الوهمَ من الفهم، وعلَّمنَا أنَّ رخصةَ اللهِ لا إثمَ فيها، وقد شاع استعمال (ليس) في القرآن في رفع الجُناحِ والحرج في أمر الرُّخَصِ.

فائدةُ تقديمِ الخبر على المبتدأ المسند إليه:

قدَّم النَّظمُ القرآنيُّ خبرَ (ليس)، وهو ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ على اسمها،

---

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 454.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 651.

(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 978، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 297.

الاهتمامُ برخصِ العجائز دليلٌ على واقعيَّة التَّشريع الإسلاميِّ

وهو ﴿جُنَاحٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾، ولم يقل: (ليس جناحٌ عليهنَّ)؛ للاهتمام والعنايةِ بالنِّساء المتقدِّمات في السنِّ؛ لأنهنَّ كنَّ يتأثَّمنَ في أنْ يضعنَ جلابيبهنَّ رغم ما يجدنه من مشقَّة، ولاختصاصهنَّ كذلك بهذا الحكم دون بقيَّةِ النِّساء، أي: استثناهنَّ اللّهُ من عمومِ النِّساء في حكم وجوب لبسِ الجلباب، وفي الأمرين إشارةٌ إلى رحمةِ اللّهِ وسماحةِ تشريعات الإسلام.

بلاغةُ الكنايةِ باستعمال مفردةِ الجناح:

سَعةُ رحمةِ اللهِ بالعجائزِ، اقتضت عدمَ العقابِ وعدمَ العتاب

آثرَ النَّظمُ الحكيم التَّعبيرَ بالجُناح، في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾؛ لأنَّه أعمُّ من غيره من المفرداتِ المقاربة في المعنى، كالإثم والحرج وأنسبُ للسّياق؛ فالإثم خاصٌّ بما يقتضي العقاب، أمّا الجناح؛ فيُستعمل فيما يقتضي العقاب، وفيما يقتضي العتاب والزَّجر دون العقاب، وفي هذا إشعارٌ بسعةِ رحمةِ اللّه تعالى: حيث لم يُعاقبْ من تضع جلبابها من القواعدِ اللّاتي لا يرجون نكاحًا، ولم يعاتبها، فاستعمالُ لفظِ الجُناح كنايةٌ عن نفي الإثم والحرج، والتَّقصير والعتاب أيًّا كان نوعُه.

غرضُ تنكير ﴿جُنَاحٌ﴾:

عمومُ نفي المعاتبات، دقيقةً كانت أو جليلة

أفاد تنكيرُ ﴿جُنَاحٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ عمومَ نفي أيِّ نوعٍ من أنواعِ الإثم أو العتابِ في عدم لبس القواعد للجلباب، "وأيِّ شيءٍ من ذلك"[1] - ولو كان يسيرًا - وذلك لأنَّ تنكير ﴿جُنَاحٌ﴾ جاء في سياق النَّفي، فأفادَ العمومَ الذي يؤكِّد سعةَ رحمةِ اللّه بالعباد وخاصَّة الضُّعفاء منهم.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المنصوبِ بـ ﴿أَن﴾:

تجدُّدُ نفي الحرجِ، استحضارٌ لرحمةِ الله تعالى

جيءَ بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يَضَعْنَ﴾ دون الصَّريح في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾؛ إذ لم يقلْ: (ليس عليهنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 314.

جناحٌ في الثّيابِ)؛ للإشارة إلى نفي الحرج في تكرارِ وضع الثياب؛ لما يدلُّ عليه الفعل المضارعُ من تجدُّدِ هذا الوضع، فنفيُ الحرجِ يتجدَّدُ بتجدُّده، فالمصدرُ المؤوَّلُ هنا جعلَ الكلام صالحًا لدخولِ الفعلِ المضارع ﴿يَضَعۡنَ﴾ على الجملة بما أعطاها من التجدُّد والحدوث والاستمرار المستفاد من الفعل، بما يدلُّ على زيادةِ نفي الحرج عنهنَّ، ويدلُّ على رحمةِ الله الواسعة بهنَّ.

دلالةُ الإضافةِ في لفظ ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾:

بيانُ أنَّ الإضافةَ لتخصيصِ عمومِ الثّياب بالثّياب الظّاهرة

الإضافةُ في لفظِ ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ للعهد، فإنَّ الإضافةَ تنقسم إلى ما تنقسم إليه اللّامُ، والمرادُ: الثّيابُ الظّاهرة فوق الثّيابِ السّاترة بحضرةِ الرِّجال، لا عموم الثّياب؛ احترازًا عن الثيابِ الباطنة، وهي الثّياب التي تنكشف العورة بوضعها، والقرينةُ على إرادة العهد قاعدةُ الشَّرع؛ فإنَّ المُراد بالثياب لو كانت مطلقة أو الباطنة؛ لأفضى إلَى خلاف الشَّرع؛ وهو الإذنُ بكشفِ العورة، وهذا مدفوعٌ بالنَّصِّ، فالمُراد الثيابُ الظّاهرَة كالجلباب ونحوه[1]، ويدلُّ على ذلك قراءة ابن عباس ﵄ (أن يضعنَ جلابيبهنّ)، وقراءة ابن مسعود ﵁ (من ثيابهن) التي تدلُّ على البعضيَّة، والتي تُفهم كذلك من سياق القول[2]، أي: تضعُ الجلباب، وهو ما يغطّي ثيابَها من فوق كالملحفة[3]، وإنَّما خصَّهنَّ الله تعالى بذلك؛ لأنَّ التُّهمة مرتفعةٌ عنهنَّ، وقد بلغنَ هذا المبلغ، فلو غلبَ على ظنِّهنَّ خلاف ذلك؛ لم يحلَّ لهنَّ وضع الثّياب[4].

بلاغةُ الحالِ في الاحتراسِ التَّشريعيِّ:

مدارُ تشريعِ الحجابِ على الطُّهر والعفَّة والاحتجاب

قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ حالٌ من الضَّمير في ﴿أَن

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 454.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5229.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 314.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 420.

يَضَعۡنَ﴾[1]، والمعنى: لا حرجَ على النِّساء القواعد من خلع ثيابهنَّ الظّاهرة، حال كونهنَّ غيرَ مظهرات للزّينة الَّتي أمرهنَّ اللّٰه تعالى بإخفائها، وغير قاصداتٍ بهذا الخلع لثيابهنَّ الظاهرة التَّبرُّج وكشف ما أمر اللّٰه تعالى بستره[2]، وفي الحاليَّة بيانٌ لحرصِ الشَّرع على المقصد الأساس والصالحِ العام، وهو إقامةُ المجتمع على دعائم الطُّهر والعفَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة التَّفعُّل:

الإيمـاءُ إلى بعض القواعدِ، اللّاتي يحرصن على إظهار زينتهنَّ

آثرَ النَّظمُ استعمال ﴿مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۚ﴾ دونَ أن يقول: (غير متزينات)، وبصيغة التَّفعل، ذلك أنَّ مادَّة (برج) تدورُ على البُروز والظُّهور[3]، والتَّبرُّج: التكلُّف والتصنُّع في إظهار ما يخفى[4]، فدلَّت صيغة التَّفعُّل على مبالغة المرأةِ في إظهارِ زينتِها ومحاسنها للرجال، وذلك للإيماءِ إلى أنَّ ما ظهر منها من وجهها أو زينتها عفوًا غيرَ مقصود به الفساد لا حرجَ فيه[5]، كما أنَّ هذه الصيغةَ تومئ من طرفٍ خفيٍّ إلى أنَّ القاعدَ من النِّساء لا تظهر زينتُها إلّا بتكلُّفٍ شديد، فإذا نُهيت عن التَّبرُّج، فلن ينفعَها قليلُ الزّينة، وكأنَّ الآيةَ تُشير إلى ما وصل إليه حالُ بعض القواعد في هذا الزَّمان من الحرص على الزّينة، كما تحرصُ الشابّات عليها بل أزيد، فصيغة التَّفعُّل تومئ إلى واقعٍ شهده النّاس في هذا الزَّمان، وهذا من لطيف الإشارات القرآنيَّة.

دلالةُ (الباء) في قوله: ﴿بِزِينَةٖۚ﴾:

تضمينُ التَّبرُّجِ قصدَ وضعِ الزّينة وإظهارها

الباء في قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۚ﴾ للملابسة، فيؤول إلى ألّا يكون وضعُ الثياب إظهارًا لزينةٍ كانت مستورة، والمرادُ: عدمُ إظهار

---

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 978، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 4/ 671.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 154.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برج).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 114.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 314.

ما عادة المؤمنات سِترُهُ[1]، ويحتمل أنْ تكون بمعنى اللام، أي: غيرَ مظهراتٍ لزينةٍ، أو أنْ تكون للتعدية، أي: غير مظهراتٍ زينة[2]، أو غير قاصدات بالوضعِ التّبرّج، على تضمين التَّبرُّج معنى القصد بوساطة الباء، فحينئذٍ يكون معناه: غير قاصداتٍ بالوضع إظهارَ ما يجب إخفاؤه من الزينة[3]، وهذا يُرشِّحُ المذكور سابقًا في نكتة صيغة التَّفعُّل.

نكتةُ السّياق بعكس الظّاهر:

نفيُ التبرُّجِ في حقيقتهِ، نفيٌ للزّينة المصطنعةِ

في قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ يدلُّ بظاهرهِ، على أنَّه نفيٌ لصفة موصوف، أي: نفي التَّبرُّج بالزّينة، وهو في حقيقته نفيٌ للموصوف، وهو الزّينة أصلًا، والمعنى: والقواعدُ من النِّساء اللّاتي لا زينةَ لهنَّ، فيتبرَّجنَ بها، ومجيءُ النَّفي على هذه السُّنن المتلوَّة، بديعٌ لا تكاد تُكتنهُ بلاغته وعبارته[4].

دلالةُ عطفِ حكمِ الاستحباب على المباح:

الرُّخصةُ تخفيفٌ وترغيبٌ، في كمالِ الاحتشام لقدره عند الله

عُطِفَ قولهُ تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ﴾ على ما قبلَهُ ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾؛ لأنَّه لمّا ذكرَ الجائزَ، وهو وضعُ الثياب الظاهرة من الجلباب والقناع، وكان إبداءُ الوجه داعيًا إلى الريبة؛ أشار إليه بقوله: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ ذاكرًا المستحبَّ؛ بعثًا على اختيار أفضل الأعمالِ وأحسنها، أي: يطلبنَ العفَّةَ بدوام السَّترِ، وعدم التَّخفُّف بإلقاء الجلباب والقناع[5]، فالعطفُ يشيرُ إلى أنَّ كلا الأمرين - الرُّخصة والعزيمة - منه سبحانه، إلا أنَّه رغَّبَ في العزيمة، وهي كمالُ التَّستر والاحتشام؛ لِما بين التَّبرُّجِ والفتنةِ من صلة، وبين التَّحجُّب والعفَّةِ من صلةٍ، وذلك وفق منهج

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 298.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 651.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 149.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 653.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 314.

الإسلام في أنَّ خيرَ سبل العفَّة تقليلُ فُرَصِ الغوايةِ، والحيلولة بين المُثيرات وبين النُّفوس.

ترغيبُ القواعدِ باستحبابِ طلب العفَّةِ والدَّوام عليها

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَسۡتَعۡفِفۡنَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع في قولِه تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾؛ لإفادة استحبابِ الدَّوام على المبالغةِ في طلب العفَّة، أي: يطلبْنَ العفَّةَ بدوام السترِ وعدم التخفُّف بإلقاء الجلباب والخمار[1]، ولإفادةِ استحضارِ صورة استعفافهنَّ بلبسِ الجلباب الذي يزيدهنَّ وقارًا، لتحملَهم هذه الصورة الجميلة على الاستمرارِ في طلبِ هذا الاستعفافِ.

دلالةُ السّينِ والتّاءِ في﴿يَسۡتَعۡفِفۡنَ﴾:

السّينُ والتّاءُ في لفظ الاستعفافِ، في قوله تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ للمبالغة، مثل استجاب، فالاستعفافُ تاجٌ تتحلّى به المرأةُ كبيرةً كانت أم صغيرةً.

بلاغةُ اختيارِ مفردة الاستعفاف:

طلبُ الاحتشام والتَّستُّر خيرٌ للمرأة، حتى ولو كانت من القواعد

سمّى اللهُ تعالى إبقاء ثيابهنَّ عليهنَّ استعفافًا، أي: طلبًا للعفَّة؛ للإشعار بأنَّ الاحتشامَ والتَّستُّرَ خيرٌ للمرأةِ حتى ولو كانت من القواعد[2]، أي: تَعَفُّفُهُنَّ عن وضع الثياب عنهن أفضلُ لهنَّ؛ ولذلك قيَّد هذا الإذنَ بالحال، وهو ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾، أي: وضعًا لا يقارنه تبرُّج بزينة[3].

نكتةُ حذف متعلّق ﴿خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾:

لفتُ الأذهانِ إلى نتائجِ الأفعالِ أولى من مقيِّداتها

حُذِفَ متعلّق ﴿خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾؛ إذ التقديرُ: (خيرٌ لهنَّ من وضعِ الثياب المذكورة)؛ اختصارًا؛ لأنَّه سبق في الكلام ﴿أَن يَضَعۡنَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 314.
(2) سيّد طنطاويّ، التفسير الوسيط: 10/ 154.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 297.

ثِيَابَهُنَّ﴾، وللإيماءِ إلى أنَّ وضْعَ الثياب الظاهرة من قِبَلِ العجائز اللاتي لا يرجون نكاحًا، كما هو مرغوبٌ عنه في واقعِ الناس فعلًا؛ رُغِب عنه ذِكرًا، ولذا حُذِف، ولم يُذكر، ولإطلاق المفاضلة بالخيريَّة، ممّا يُشير إلى خيريَّة الدُّنيا والآخرة، وهو لفت الأذهان إلى نتائج الأفعال، وهو أولى من تقييدها بألفاظٍ تحصر الأنظارَ إلى المذكور.

بلاغةُ استعمالِ لفظ ﴿خَيْرٌ﴾:

الاستعفافُ أحسَنُ للقواعِدِ عندَ اللهِ، وأبعدُ عن الشُّبهات

عبَّر النَّظمُ الحكيم بلفظ ﴿خَيْرٌ﴾ وهي من أسماءِ التفضيل في قوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾؛ ليرغِّب القواعدَ من النِّساء بعدمِ وضع الثياب الظاهرة من الجلبابِ وغيره، فينبِّه بذلك على عِظم السِّتر والعفَّةِ؛ مبالغةً مِن الشّارع الحكيم في ترسيخِ دعائم الطُّهر، وسدِّ جميعِ أبواب الشرِّ في المجتمع؛ لأنَّ معنى ﴿خَيْرٌ﴾ في اللُّغة هو خلافُ الشرِّ، والخيرُ ما تميلُ إليه النُّفوسُ السليمة والفِطَرُ النقيَّة، ويرْغَب فيه الكلُّ، فأصلهُ العطفُ والميل[1]، ولأنَّ صيغتها - التي هي للتفضيل - ترسِّخ ذلك، وتؤكِّده، فهي تدلُّ على أنَّ الاستعفاف خيرٌ وأفضل من الأخذ بالرُّخصة، أي: إبقاءُ القواعد لثيابهن الظاهرة عليهن بدون خلعٍ أحسَنُ لهُنَّ وأطهرُ لقلوبهنَّ، وأبلغُ في حيائهنَّ، وأبعدُ عن التُّهمة، وأنفى لسوءِ الظنِّ بهنَّ، وأزكى عندَ اللّهِ وأطهَرُ.

فائدةُ الإخبار عن الاستعفاف بالخيريَّة:

حثٌّ على الالتزام بالاستعفاف، ولزومه في الأحوالِ كلِّها

في الإخبارِ عن الاستعفافِ بالخيريَّة، في قوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ تنبيهٌ وحثٌّ وتحريضٌ كريمٌ للقواعد من النِّساء، اللّاتي لا زينةَ لهنَّ للالتزام بهذا الواجب المفروض، الَّذي كتبه اللّه على النِّساء، وهو الاستعفافُ بعدم وضعِ ثيابهنَّ الظّاهرة،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير)، والرّاغب، المفردات، ص: 300.

وتذكيرٌ بما ينبغي، وبما يليق بهنَّ في رفقِ قول، من غير أنْ يؤذي إحساسهنَّ[1]، وهو حثٌّ كذلك لغيرهنَّ من ذواتِ الزّينة من بابٍ أولى، أي: إنَّه إذا كان استعفافُ هؤلاء اللّاتي لا زينةَ لهنَّ عن وضع الثّياب خيرٌ لهنَّ؛ فما ظنُّك بذواتِ الزّينة من الثّياب؟ وأبلغُ ما في ذلك أنَّه جعلَ عدمَ وضع الثياب في حقِّ القواعد اللواتي لا زينةَ لهنَّ من الاستعفاف؛ إيذانًا بأنَّ وضْعَ الثياب لا مدخل له في العفَّة، هذا في القواعد، فكيف بالكواعب؟[2] وفي ذكر المستحبِّ عقبَ ذكر الجائز تنبيهٌ على اختيار الأفضل في كلِّ باب[3].

لا أحسنَ مِنَ الاستعفافِ لِلمرأةِ ولا أكرمَ

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿خَيۡرٞ﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿خَيۡرٞ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾؛ لإفادةِ معنى التَّعظيم لشأنِ الاستعفاف، وتفخيمه وعلوِّ منزلته.

الأحكامُ الشَّرعيَّةُ تُضبط بالرَّقابة الإلهيَّة

دلالةُ عطفِ الفاصلة في السّياق:

عطفَ النَّظمُ الحكيم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لبيان رقابةِ اللّه تعالى على العباد، ومعرفة النّيّات وما يجول فيها، فإنَّ رفْعَ الحرجِ عن القواعد من النِّساء في عدمِ ارتداء الجلباب وغيره من الثياب الظاهرة؛ رحمةً بهنَّ لكبرهنَّ وضعفهنَّ، فلا ينبغي لهنَّ التجاوز في حكم الحجاب، فهو سبحانه الذي لا يغيبُ عنه شيءٌ من حالهنَّ، فهو يسمعُ كلامهنَّ، ويعلم نياتهنَّ، أي: يطَّلع على ما يقوله اللِّسان، وما يوَسوَسُ في الجنان.

الاسمُ الجليل أدلُّ في التَّعظيمِ، وأقوى في التَّفخيمِ

دلالةُ تعريفِ المسند إليه بلفظ الجلالة:

جاء تعريفُ المسند إليه بلفظ الجلالة (اللّه) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾؛ لأنَّه أدلُّ في التَّعظيمِ وأقوى في التفخيمِ،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5229.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 653.

(3) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 212.

فهو "الذي له جميعُ صفات الكمال"[1]، وفي هذا تربيةٌ للمهابةِ في النُّفوسِ، بما يزيدُها خوفًا من مخالفته سبحانه، ويتناسبُ مع الاسمين الجليلَين، وهما (السميع) و(العليم) اللَّذانِ يفيدُ الإخبارُ بهما في الآية التوعُّدَ والتَّحذيرَ والترهيب من المخالفة[2].

بلاغةُ تتابعِ المؤكّدات في الفاصلة:

تأكيدُ كمالِ سمعه وعلمهِ ترهيبٌ من مخالفةِ أمره

أُكِّد قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بعدَّةِ مؤكِّدات، هي: الجملةُ الاسميَّة التي تفيدُ الثبوتَ والدوامَ، وصيغةُ المبالغةِ في الاسمين الجليلين اللَّذين جاءا على وزن فعيل؛ ﴿سَمِيعٌ﴾ لِما يقول كلُّ قائل وقائلة، ولكلِّ ما من شأنه أنْ يُسمع، و﴿عَلِيمٌ﴾ بمقصدِ كلِّ أحدٍ، وبأحوالِ النُّفوسِ وحركاتها وسكناتها[3]، وكذلك تكرارُ خبرِ الجملةِ الاسميَّة؛ إذ إنَّ ﴿عَلِيمٌ﴾ خبرٌ ثانٍ للمبتدأ، وهو اسم الجلالة (اللّه).

وفي حشدِ هذه المؤكِّدات التي تفيدُ المبالغةَ في تأكيدِ كمالِ علمه سبحانه من التوعُّد والتَّحذير والتَّرهيب من مخالفته في تطبيقِ حكمِ التَّستُّر وعدمِ إبداءِ الزينة من قِبَل القواعدِ من النِّساء ومن قِبَل الشابات بطريق الأولى.

بلاغةُ التَّذييلِ في السّياق الجليل:

وعْدٌ على الامتثالِ للأوامر، وتحذيرٌ من مخالفةِ الآمر

ذُيِّلَتِ الآيةُ بالاسمين الجليلين، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثل؛ لاستقلاله بالإفادة، وعدم افتقاره إلى ما قبلَهُ في الكشف عن حقيقة معناهُ، والمراد منه: العلمُ بالأقوال والنّيّات، والمقصودُ مع معناه الأصلي الإشارةُ إلى لازمِه، وهو الوعدُ على الامتثالِ بأمرِ اللّه في حكم حجابِ القواعد، والتَّحذيرِ من المخالفةِ بأعذارٍ لا تخفى مقاصدها عن اللّه، أو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 315.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 195.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 195، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 154.

بالتوسُّع في الرخصةِ، أو جعلها ذريعةً لِما لا يُحمَدُ شرعًا، فوصْفُ ﴿سَمِيعٌ﴾ تذكيرٌ بأنَّه يسمعُ ما تُحدِّثهنَّ به أنفسهنَّ من المقاصد، ويسمعُ مقالهنَّ مع الأجانب، هل يخضعنَ فيه، ويتصنَّعنَ في ترخيم الصوت به، أو يلقينه على الحالةِ المعروفة غير المنكرة؟ لأنَّ حالهنَّ من الخلطةِ على الوصفِ المذكور لا يخلو عن كلام ووصفٍ، و﴿عَلِيمٌ﴾ تذكيرٌ بأنَّه يعلمُ أحوالَ وضعهنَّ الثيابَ وتبرُّجُهنَّ ونحوها، ويعلمُ مقاصدهنَّ من الاختلاطِ ووضع الثياب[1].

نكتةُ تقديمِ ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾:

ذكـرُ سمعهِ وعلمهِ حافزٌ للتَّغيير، وفرصةٌ للتَّشمير

قَدَّمَ البيانُ القرآنيُّ صفةَ السَّمع على صفةِ العلم، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ووصْفُ السَّمعِ أخصُّ اهتمامًا به هنا؛ لأنَّه عندما تعلَمُ النِّساء القواعد أنَّ اللّهَ يسمعُ ما تُحدِّثهنَّ به أنفسهنَّ من المقاصد، أو أنَّه يسمعُ بجميعِ ما يجري بينهنَّ وبين الرِّجالِ من المقاولة[2]، يكون ذلك أدعى إلى الحذرِ، من أنْ يكون القصدُ من وضعِ الثِّياب التَّبرُّجَ بالزِّينة، والتَّعرُّضَ للرِّجال، ثمَّ تدرَّج بهذا التَّخويفِ، بأنَّ علمه لا يقتصرُ على ذلك، بل إنَّه يعمُّ جميعَ المعلومات، فهو لا يخادعُ بقولٍ أو عذرٍ، ولا يخفى عليه شيء، وفي هذا من التَّرهيبِ ما لا يخفى؛ لأنَّ من عَلِم علمًا صحيحًا أنَّ اللّهَ سميعٌ لِما يقول، عليمٌ بما يفعل حاسبَ نفسه، وناقشها، ومن فعلَ ذلك تجلّى له كلَّ آنٍ من تقصيرها ما يحمله على التَّشمير.

نكتةُ تنكيرِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

علمُ اللهِ محيطٌ بالعبادِ، لا تخفى عليه الخفايا

أفاد تنكيرُ الاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ معنى التَّفخيمِ والتَّعظيمِ لعلم اللّهِ، مع إفادة العموم، فهو سميعٌ بكلِّ مسموعٍ، عليمٌ بكلِّ معلوم، يعلَمُ علمًا دقيقًا، هو علمُ من يسمعُ ويعلم،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 315، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 407، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 299.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 6/ 195، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 299.

فهو محيطٌ بكلِّ شيءٍ علمًا[1]، وعلمُهُ هذا بأقوال خلقهِ وأفعالهم عظيمٌ، لا يُحَدُّ حدُّه، ولا يُقادر قدْرُهُ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّكاح والزَّواج:

النِّـكاحُ يُطلق عـلى الـعـقـدِ والـوطءِ، والـزَّواجُ اقتران متجانسين

يتقاربُ لفظا النِّكاحِ والزواج إلى درجة الترادف؛ إذ يُستعمل أحدُهما موضعَ الآخر، ويُعرَّف أحدهما بالآخر، ولكن عند الرجوع إلى المعنى اللغوي والاستعمال القرآني نجد لكلِّ لفظ ما يميِّزه، فأصلُ (نكح) هو البِضاعُ، والنِّكاحُ يكونُ العَقْدَ دونَ الوَطْءِ، يُقالُ: نَكَحْتُ: تَزَوَّجْتُ، وأَنْكَحْتُ غَيْري، ويُجرَى نَكَحَ أيضًا مجرى التزويج، يُقالُ: نَكَحْتُ: تَزَوَّجْتُ، وامرأةٌ ناكِحٌ، أي: ذاتُ زوجٍ[2]، والنِّكاحُ: البُضْعُ، وذلك في نَوْعِ الإنسان خاصَّةً[3]، وقيل: إنَّ أصلَ النِّكاح للعَقْد، ثم استُعيرَ للجِماع[4]، وقيل: النِّكاحُ في الأصل هو الوطءُ، وقيل: هو العقدُ، وهو التَّزويج؛ لأَنَّه سَبَبٌ لِلْوَطْءِ المُباح[5].

وأصلُ الزَّواج من (زوج)، ويدلُّ على مُقارَنَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، ومن ذلك الزَّوْجُ: زَوْجُ المَرْأَةِ، والمَرْأَةُ: زَوْجُ بَعْلِها[6]، والزَّوْجُ: الاثنان، وهو خِلافُ الفَرْدِ، والزَّوْج: الفَرد الَّذي لَهُ قرين، وكُلُّ شَيْئَيْنِ اقْتَرَنَ أَحدهما بِالآخَرِ: فهُما زَوْجانِ، وتزوَّجَ في بني فلان: نكحَ فيهم[7]، والزواجُ: عقد اقتران الرجل بالمرأة، وزاوجَ بين رجلٍ وامرأة: زوَّجهما، أنكحه إيّاها، أو عقدَ له الزواج عليها[8]، إذًا: يتميَّز لفظ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5229.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نكح).
(3) ابن سيده، المحكم: (نكح).
(4) الراغب، المفردات، ص: 823.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نكح).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (زوج).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (زوج).

النِّكاح بأنَّه خاص بالإنسان، ويُطلق على العقد وعلى الوطءِ وعلى التزويج، بينما يتميَّز لفظ الزواج بمعنى الاقتران، ويطلق على الإنسان وغيره.

الجُناح والإثم:

الجناحُ: هو الميلُ إلى الإثم، والإثمُ: معصيةٌ تُؤخِّر صاحبَها عن فعل الثَّواب

أصل (جنح) يدلُّ على المَيْلِ والعُدْوانِ، يُقال: جَنَح إلى كذا، أي: مالَ إليه، والجُناحُ: الإِثْمُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِهِ عَنْ طَريقِ الحَقِّ[1]، والجُناح: الجِنايَةُ والجُرْمُ، وقيل: هو التَّضييق، ومعنى قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 233]، أَي: لا إِثم عَلَيْكُم، ولا تَضْييقَ[2].

وأصل (أثم) هو البُطْءُ والتَّأَخُّرُ، يُقالُ: ناقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ: مُتَأَخِّرَةٌ، والإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذا الإِثْم بَطيءٌ عَنِ الخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ[3]، والإثم: التقصير، وسميت الخمر إِثْمًا؛ لِأَنَّها تقصر بشاربها لذهابها بعقله، والإثم لا يكون إلّا تعمُّدًا[4]، والإثم: الذَّنبُ، وقيلَ: هوَ أَن يعمَلَ ما لا يَحِلُّ لَهُ، وهو فعلٌ مُبَطِّئٌ عَن الثَّواب، فالإثمُ معصيةٌ وخطيئة تستحقُّ على صاحبها الذمَّ، والإثمُ ما يحمل على قلق النَّفس[5].

وكلمةُ الجُناحِ وردتْ منفيَّةً في جميع مواضع القرآن وهي (أربعة وعشرين موضعًا)، وهذا يعني الإباحةَ لكلِّ ما ذكر في تلك المواضع، فنفي الجُناح تخييرٌ بين الفعلِ والترك[6].

فالاستعمالُ القرآنيُّ للفظ (جناح) يجعله أعمَّ من الإثم؛ لأنَّ الإثمَ يقتضي العقاب، أمّا الجناحُ؛ فيُستعمل فيما يقتضي العقاب، وفيما يقتضي الزجر دون العقاب[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنح).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جنح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثم).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 233.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (إثم).
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 457.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 2/ 293.

إذًا الجناحُ هو الميل إلى الإثم والجناية والجرم، فهو ميلٌ إلى الإثم، وليس اقترافًا له، ونفي الجناح هو تخييرٌ بين الفعل والترك، بينما الإثمُ: هو تأخيرٌ عن الخيرِ والثواب، وفعلُ ما لا يحلُّ له، فيستحقُّ عليه صاحبه الذمَّ واللوم، والإثمُ: هو الذي تنفرُ منه النَّفس، ولا يطمئنُّ له القلب[1].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 496.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًاۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٦١﴾ [النور: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ أحكامِ حُرماتِ البيوت، إلى بيان أحكام المباح فيها

لَمّا ذكَرَت الآياتُ السّابقة مِن حُرُماتِ البُيوتِ المُستلزِمة لصيانةِ الأبضاعِ على وجهٍ يلزَمُ منه إحرازُ الأموالِ؛ أَتْبَعَهُ ما يُباحُ مِن ذلك للأكلِ - الذي هو مِن أجَلِّ مقاصِدِ الأموالِ - اجتِماعًا وانفِرادًا، فقال في جوابِ مَن كأنَّه سألَ: هل هذا التَّحجيرُ في البُيوتِ سارٍ في الأقارِبِ وغَيرِهم في جميعِ الأحوالِ؟[1].

كما أنَّه بعد أنْ تحدَّثتِ الآياتُ الثلاث السابقة عن أدبِ الاستئذان من المماليك وصغارِ الأطفال والبالغين على ذويهم، وجواز تركِ العجائز لبْسَ الثياب الخارجيَّة كالأردية تخفيفًا عنهنَّ؛ جاءتْ هذه الآية الكريمة لتحدِّثنا عن أنواعٍ أخرى من الآداب الإسلاميَّة الرفيعة، أوَّلها: ما يرتبطُ بأصحابِ الأعذار، وثانيها: ما يرتبطُ بالأصحّاء، وثالثها: تحيَّةُ الإسلام عند الدخول[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 315.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1468.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾: (عمي) أصلٌ يدلُّ على سَتْرٍ وتَغْطيَةٍ، من ذلك العَمَى: ذَهابُ البَصَرِ من العَيْنَيْنِ كِلْتَيهِما، يُقال: رَجُلٌ أَعْمَى وامرَأَةٌ عَمياءُ، ولا يَقَعُ على عَيْنٍ واحدةٍ، والجَمعُ عُميٌ وعُميانٌ[1]، وعَميَ عليه الأمر؛ إذا التبسَ، واشتبهَ، وخفي، والعَمَى أَيْضًا: ذهابُ بَصَرِ القَلْبِ، تقولُ: رجُلٌ عَمي القَلْبِ، أَي: جاهِلٌ[2]، والمراد هنا في الآية: فاقدُ البصرِ، أي: الذي ذهبَ بصرُ عينيه[3].

2) ﴿ٱلۡأَعۡرَجِ﴾: (عرج) أصلٌ يَدُلُّ على مَيْلٍ ومَيَلٍ، والعَرَجُ مَصْدَرُ الأَعْرَج، ويُقالُ: عَرِجَ يَعْرَجُ عَرَجًا؛ إذا صارَ أَعْرَجَ، وقالوا: عَرِجَ يَعْرَجُ خِلْقَةً، وعَرَجَ يَعْرُجُ؛ إذا مَشَى مِشْيَةَ العرجانِ، ويُقالُ لِلطَّريقِ؛ إذا مالَ: انْعَرَجَ، وانْعَرَجَ الوادي، ومُنْعَرَجُهُ: حَيْثُ يَميلُ يَمنَةً ويَسْرَةً، وانْعَرَجَ القَوْمُ عَنِ الطَّريقِ؛ إذا مالوا عَنْهُ[4]، والأعرجُ: من أُصيبَتْ إحدى رجلَيهِ، فاختلَّ مشيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٌ﴾[5].

3) ﴿حَرَجٌ﴾: (حرج) أصلٌ يدلُّ على تجمُّعِ الشَّيْءِ وضيقِهِ، فمِنْهُ الحَرَجُ جَمعُ حَرَجَةٍ، وهيَ مُجْتَمَعُ شَجَرٍ، والحَرَجُ: الإِثْمُ، والحَرَجُ: الضِّيقُ[6]، والحَرَجُ: المَوْضِعُ الكثيرُ الشَّجَرِ الَّذي لا تَصِلُ إليه الرّاعيةُ، فالحَرَجُ في الأَصل الضّيقُ، ويَقَعُ على الإثمِ والحَرامِ، والحارِجُ: الآثِمُ، وقيلَ: الحَرَجُ أَضْيَقُ الضّيقِ[7]، وتحرَّجَ: تجنَّبَ الإِثمَ، وابتعدَ عن الشُّبهاتِ، وتحرَّجَ منه: تجنَّبه مع احتمالِ مشقَّة وضيق، ومعنى ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٌ﴾، أي: مانع أو إثم أو حُرمة[8].

4) ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾: (فتح) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الإِغْلاقِ[9]، ومفاتح: جمع مِفتح ومفتاح، والمفتاحُ: مِفْتاحُ البابِ، وهو آلَةُ الفَتْحِ، أي: كُلُّ ما فُتِحَ بِهِ الشَّيْءُ، أو ما فُتِحَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).
(2) الزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عمي).
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 19/ 434.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عرج).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرج).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حرج).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حرج).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتح).

بِهِ كلُّ مُسْتَغْلَقٍ، ويُجمعُ على مفاتيحَ ومَفاتِحَ، وهو جمع مَفتحٍ أيضًا، والمَفتح بفتح الميم هي: الخزانة والكنز[1]، ومعنى ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللُّغوي، أي: مفاتيحُ الأبوابِ أو الخزائن[2].

5) ﴿أَشۡتَاتٗاۚ﴾: (شَتَّ) أصلٌ يَدُلُّ على تَفرُّقٍ وتَزَيُّلٍ، مِنْ ذَلكَ تَشْتيتُ الشَّيْءِ المُتَفَرِّقِ، تَقولُ: شَتَّ شَعْبُهُم شَتاتًا وشَتًّا، أَيْ: تَفرَّقَ جَمعُهُم[3]، وجاؤوا أَشْتاتًا، أَيْ: مُتَفرِّقينَ، ويُقالُ: أَخافُ عليكُم الشَّتاتَ، أَي: الفُرْقَةَ[4]، ومعنى ﴿أَشۡتَاتٗاۚ﴾: متفرِّقين كُلٌّ وحده، أي: فرادى[5].

6) ﴿تَحِيَّةٗ﴾: (حيَّ) خلافُ الموتِ، ومنه الحياةُ[6]، وأصلُ التَّحيَّةِ من الحياة، فالتَّحيَّةُ أنْ يُقال: حيّاك اللّه، أي: جعلَ لك حياة، وذلك إخبارٌ، ثم يُجعل دعاء تحيَّة؛ لكون جميعهِ غيرَ خارجٍ عن حصولِ الحياة، أو سببَ حياة إمّا في الدُّنيا، وإمّا في الآخرة[7]، والتَّحيَّة: السَّلامُ، والبقاءُ، والمُلْك، يُقال: حَيّاك اللّهُ، أي: سلَّم عليك، أو أَبْقاكَ، أو مَلَّكَكَ، أو سَلَّمك، وقيل: هوَ بمنْزِلَةِ أَحْياك اللّه، أَي: أَبْقاك[8]، وهو المرادُ في الآية.

7) ﴿مُبَٰرَكَةٗ﴾: (برك) أصلٌ يدلُّ على ثَباتِ الشَّيْءِ، يُقالُ: بَرَكَ البَعيرُ يَبْرُكُ بُروكًا، ويُقالُ: بَرَكَ فُلانٌ على الأمرِ، وبارَكَ؛ إذا واظَبَ عَلَيْه، والبَرَكَةُ مِنَ الزّيادَةِ والنَّماءِ، والتَّبْريكُ: أَنْ تَدْعوَ بالبَرَكَةِ، و﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 54] تَمجيدٌ وتَجْليلٌ[9]، والبركةُ: كثرةُ الخيرِ وتزايده، وخُصَّتِ البركةُ بثبوتِ الخير الإلهي والفيضِ الربّاني، والمباركُ: اسمُ مفعولٍ من ذلك، وهو ما فيه البركةُ[10]، ومعنى ﴿تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ﴾، أي: كثيرةُ الخيرِ ومرجوَّة الثواب[11].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فتح).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 223.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شتّ).
(4) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (شتت).
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10340، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5232.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيّ).
(7) الراغب، المفردات: (حيّ).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حيا).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برك).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (برك).
(11) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1467، وحجازي، التفسير الواضح: 2/ 700.

8) ﴿طَيِّبَةً﴾: (طيب) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلافِ الخبيث[1]، والطّيبُ: الأفْضَلُ من كُلِّ شَيْء، وتتَّسعُ معانيه، فيُقال: أرضٌ طيِّبةٌ للتي تصلحُ للنبات، وريحٌ طيِّبةٌ؛ إذا كانت ليِّنة ليستْ بشديدة، وكلمةٌ طَيِّبة؛ إذا لَم يَكُنْ فيها مَكْروهٌ، وطعمةٌ طيِّبةٌ؛ إذا كانت حلالًا[2]، ومعنى ﴿طَيِّبَةً﴾: تطيبُ بها نفسُ من يستمعُ إليها[3].

9) ﴿تَعْقِلُونَ﴾: (عقل) العقل: نَقيضُ الجَهْلِ، يُقال: عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا؛ إذا عَرَفَ ما كان يجهلُهُ قبلُ، أو انْزَجَرَ عمّا كان يفعله، ورجلٌ عَقولٌ؛ إذا كان حَسَنَ الفَهْمِ وافِرَ العَقْلِ[4]، والعَقْلُ: الحِجْر والنُّهى، وضِدُّ الحُمق، والعاقِلُ الَّذي يَحْبِس نَفْسَهُ، ويَرُدُّها عَنْ هَواها، والعَقْلُ: القَلْبُ، والمَعْقول: ما تَعْقِله بِقَلْبِك، وسُمّي العَقْلُ عَقْلًا؛ لأَنَّه يَعْقِلُ صاحبَهُ عَنِ التَّوَرُّط في المَهالِك، أَي: يَحْبِسه[5]، والعَقْل: القوَّة المتهيِّئة لقبولِ العِلم، ويُقال للذي يَسْتَنبِطُه الإنسانُ بتلكَ القوَّة: عَقْلٌ[6]، أَو هوَ العِلمُ بصفاتِ الأشياءِ من حُسنِها وقُبحِها، وكمالِها ونُقصانِها[7].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تنظيمُ العلاقاتِ بين الأقاربِ والأصدقاءِ من المبتلين والأسوياء

تبيِّنُ الآيةُ حكمَ أصحابِ الأعذارِ، كالأعمى والأعرَجِ والمَريضِ، بأنَّه ليس عليهم حرَجٌ في أنْ يأكُلوا مِن بيوت المذكورين في سياق الآية، ولا حرَجَ عليهم أنْ يأكُلوا مجتَمِعينَ أو متفرِّقينَ، في حال دخولهم بُيوتَ غَيرِهم، فلْيُسلِّم بعضُكم على بَعضٍ بتحيَّةِ الإسلامِ، تحيَّةً مُباركةً طَيِّبةً شَرَعها اللهُ لعبادِه المؤمنين، مِثلَ هذا التَّبيين يبيِّنُ اللهُ لكم آياتِه؛ لِتَعقِلوها، وتعمَلوا بها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طيب).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طيب).
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1467.
(4) العين، الخليل، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عقل).
(6) الراغب، المفردات، ص: 577.
(7) الزبيدي، تاج العروس: (عقل).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

بيانُ حُكمِ استئذانِ ذوي العاهاتِ، وحُكمِ الأكلِ من البوتاتِ

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ عمّا قبله؛ من باب الاستئناف البيانيِّ؛ إذ إنَّه لَمّا ذكر سبحانه من حُرماتِ البيوت المستلزِمة لصيانة الأبضاع على وجهٍ يلزمُ منه إحراز الأموال؛ فكأنَّ سائلًا قد سأل: هل هذا التَّحجير في البيوت سارٍ في الأقارب وغيرهم، وخاصَّةً أصحاب الأعذار في جميع الأحوال ممّا يتعلَّق بالأكل منها وكيفيَّته؟ فقال: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾[1]، وهذا عند من عدَّ هذه الآية متَّصلةً مع قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ وهما في غرضٍ واحدٍ، وهو حكمُ الأكل، وأمّا عند من عدَّ الآية منفصلةً عن قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، وأنَّها من تمام آية الاستئذان؛ فتقديرُ السُّؤال: ما حُكم استئذان الأعمى في الدخول على البيوت؛ إذ الاستئذانُ من أجلِ البصر؟[2].

بلاغةُ الاحتراسِ بالنَّفي بأداة ﴿لَّيۡسَ﴾:

نفيُ الحرجِ عن أفعالٍ، قد تُتوهَّمُ حرمتُها، وهي مباحةٌ

نفي الحرج في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ بأداة ﴿لَّيۡسَ﴾ دون غيرها من أدوات النَّفي؛ لكونها تُستعملُ لِنفي ما يُتوهَّم وقوعُه، وبذلك تكون أنسبَ للمقام؛ لأنَّ أصحابَ الأعذار كانوا يتوهَّمون الإثمَ في عدمِ القيام بكلِّ فعلٍ كان عذرهم سببًا فيه، ومنه عدمُ خروجهم للجهاد، أو يتوهَّمون الإثم في أكلهم من بيوت المجاهدين التي أوكلوا بها، أو في أكلهم مع الناس لِما يُسبِّب لهم هذا العذر من إيذاء النّاس، أو في أكلهم من بيوت أهلِ من يصطحبونهم معهم وأقاربِهم؛ لكونهم من المحاويج، أو أنْ يكون توهُّم الإثم من النّاس عند مؤاكلتهم لأصحابِ الأعذارِ بما يسبِّبونه لهم من ظلم في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 315.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 300.

الأكل، ولهذا نفى القرآن الجُناحَ عن هذا الفعل؛ احتراسًا ممّا عساهُ يسبقُ إلى الفهم من حرمته، فأزالَ هذا الوهمَ من الفهم.

دلالةُ ﴿عَلَى﴾ في ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾:

حرفُ المعنى بين الاستعلاءِ المجازيِّ، والظَّرفيَّة المجازيَّة

استُعمل حرف الاستعلاءِ، في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾؛ للاستعلاءِ المجازيِّ، المكنّى به في الآيةِ، عن الإلزام والوجوب، والمقصود من الآية، رَفْعُ هذا الإلزام عن المخاطَب، وهو الأعمى والأعرج والمريض الَّذين ألزموا به أنفسهم، من عدم الأكلِ من بيوتِ المذكورين في حالِ غيابهم لغزوٍ أو غيره، ومن عدمِ الأكل مع الجماعة، حرصًا على عدمِ إيذاء غيرهم[1].

فائدةُ تقديمِ المسندِ على المسندِ إليه:

بيانُ مدار الحُكم في رفع الحرج عن أصحاب الأعذار

آثرَ النَّظمُ الكريم تقديم ﴿عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ على ﴿حَرَجٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ﴾ ولم يقل: (ليس حَرَجٌ على الأعمى)؛ وذلك لأنَّ مصبَّ الفائدة في رفع الحرج عنهم، وللاهتمام بشأن أصحابِ الأعذار من الأعمى والأعرج والمريض، والعنايةِ بأحوالهم؛ لأنَّهم كانوا يتحرَّجون بسببِ الأذيَّة التي يسبِّبونها لمن يأكلون معه، سواء في إزعاج الآخرين منهم، أو في عدم قدرتهم على الأكل كما يأكل الآخرون، ويفيدُ التَّقديمُ كذلك اختصاصهم بهذا الحكم، وهو رفعُ الحرج عنهم فيما يتعلَّق بأعذارهم دون الأصحّاء، وفي الأمرين إشارةٌ إلى رحمةِ الله بأصحابِ الأعذار.

معنى (أل) في ألفاظ العاهات والمرض:

ذِكرُ عموم المشمولين دليلٌ على سعةِ رحمةِ ربِّ العالمين

لامُ تعريف ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ و﴿ٱلۡأَعۡرَجِ﴾ و﴿ٱلۡمَرِيضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ

(1) ابن عادل، اللباب: 14/ 457.

﴿حَرَجٌ﴾ جنسيَّةٌ، تفيدُ العمومَ، أي: نفيُ الحرجِ يشملُ كلَّ أعمى، وكلَّ أعرج، وكلَّ مريض، وليست خاصَّةً بنوعٍ منهم.

فائدةُ تَكرارِ حرف النَّفي (لا):

دَفْعُ توهُّمِ الاستئنافِ، فيقع خلافُ المقصودِ مِنَ الحُكمِ

كرَّر النَّظمُ الحكيم حرفَ النَّفي (لا) مع المعطوفِ على المَنْفيِّ قبْلَهُ في قولِه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ تأكيدًا لمعنى النَّفي، أي: نفي الحرجِ عن أصحاب الأعذار، وهذا الاستعمالُ كثيرٌ في القرآن الكريم[1]، ولدفع توهُّم اختلاف الحكم، فلو قال: (وعلى الأعرج حرج)؛ لَتوهِّم الاستئنافُ، فكان ذكر (لا) توكيدًا دافعًا لتوهُّم الاستئنافِ، فيقع خلافُ المقصود من إيقاع الحرج على الأعرج والمريض.

بلاغةُ الإطنابِ في إفراد كلِّ مذكورٍ بجملة:

دفْعُ توهُّمِ اجتماع أصحاب الأعذارِ في حالٍ واحدة

أُفرِدَ ذِكرُ الأعرج والمريض في جملة تامَّة في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾، دون أن يقولَ: (ليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج)، وهو أوجز لفظًا، ونكتة ذلك أنَّ إفرادَ كلِّ حالةٍ منها بجملة مستقلَّة، يعطيها حكمًا خاصًّا يتناسب مع واقع هؤلاء، فإنَّ رفْعَ الحرج شمل كلَّ أعمى، وكلَّ أعرج، وكل مريض، وفي جميع الأحوال، ولو جمعهم في جملة واحدة؛ لَفُهِمَ أنَّه لا بدَّ أن يشترك هؤلاء في حال واحدة، كحال الجهاد، أو حال السفر، أو حال الإقامة، فلمّا انفردوا في جملٍ مستقلَّة؛ عُلِمَ إرادة عموم الأحوال، وأثبتَ لكلِّ واحدٍ منهم حكمًا مستقلًّا؛ لأنَّ أعذارهم متفاوتةٌ باختلافِ أسبابها، فالحرجُ مرفوعٌ عن كلِّ منهم بحسبِ مرضه وعذره، فيرخَّص للأعمى فيما يُشترَطُ فيه البصرُ، وللأعرج فيما يُشترط فيه المشي، وللمريض بحسب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 302.

مرضهِ، وما يمكن أنْ يسقطَهُ عنه من التَّكليف، فلمّا اختلفتِ الأحوالُ؛ ناسبَ أنْ يُرفَعَ الحرجُ عن كلِّ حالةٍ بحسبها، بخلاف ما لو اشتركَ الجميعُ، واستَوَوا في حُكم واحدٍ، كقول الله تعالى في سورة التوبة في حكم الغزو: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ [التوبة: 91]، وكرَّر كذلك الحرج للزيادة في التقرير والتوكيد على نفي الحرجِ عنهم[1]؛ تخفيفًا عنهم، وفي هذا إيماءٌ إلى شدَّةِ ورَعِ الصَّحابة الكرام، وقوَّةِ إيمانهم، وإحساسهم بمسؤوليَّة قيامهم بالأحكام التي شرعها ﷻ.

بلاغةُ ترتيبِ ذِكر أصحابِ الأعذار:

الأعمى والأعرج والمريضُ مرتَّبون بحسب الضَّرر والغبن

بدأ البيانُ القرآنيُّ بذكر حكم ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، باعتبار البدءِ بالأكثرِ عذرًا من غيره، فالأعمى أشدُّ المذكورين عذرًا في عدم القدرةِ على التَّكسُّب؛ لاعتماده على غيره في الانتقال وفي معظم أعمال الحياة البدنية، ثم يأتي الأعرجُ في صعوبة الانتقالِ؛ إذ كان التَّكسُّب في زمانهم يغلب في عمل الأبدان[2]، ثم أُخِّرَ المريضُ؛ لأنَّ المريضَ يُرجى برؤهُ من مرضِه، بخلافِ الأعمى والأعرج؛ فعاهاتُهما مستدامة غالبًا[3]، فالتَّرتيب باعتبار الأشدِّ فالأخفِّ.

فائدةُ إطلاق الكلام وعدم تقييده:

في إطلاقِ نفيِ الحرجِ عن أهلِ الأعذار، عمومُ كلِّ ما يتوقَّف على العذر

إذا جعلنا الواوَ استئنافيَّةً في قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾[4]؛ فتكون نكتةُ إطلاقِ الكلامِ في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، دون تقييدٍ كما قيَّده في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾؛ للإشارة إلى

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1328.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 300.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 316.

(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 575.

إرادةِ العموم في معنى نفي الحرج، وعدم تقييده بالأكل أو بغيره، بحيث يكون المعنى: ليس على هؤلاء حرجٌ في تركِ الأمور الواجبة التي تتوقَّف على واحدٍ منها، وذلك كالجهاد ونحوه، ممّا يتوقَّف على بصر الأعمى، أو سلامة الأعرج، أو صحَّة المريض.

وجهُ تخصيص أهل الزَّمانة بالذِّكر:

أهـلُ الأعـذار أحقُّ بالمواساةِ والعنايةِ من غيرهم

خصَّ النَّظمُ الحكيم أهلَ الزَّمانة من الأعمى والأعرج والمريض بنفي الحرج فيما يتعلَّق بموطن الأكل وكيفيَّته بالذكر، وبدأ بذكرهم مع أنَّهم داخلون في عموم قولهِ تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ وعموم قوله تعالى المؤكِّد لها: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ﴾؛ لأنَّهم بضرارتهم أحقُّ من الأصحّاء بالمواساة والمشاركة والتَّخفيف، وهذا عند من يرى الواو في قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ عاطفةً، وأنَّ الكلام منتظمٌ فيما يتعلَّق بموطن الأكل وكيفيَّته[1].

دلالةُ الواو في عبارة ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾:

التَّلميحُ إلى رفع الحرج عن الأكل من البيوت الواردة في السّياق

تحتملُ الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، أن تكونَ عاطفةً، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٌ﴾، والمعنى: (ليس عليكم حرجٌ في الأكل من بيوتكم)[2]، وهو قولُ جمهور المفسِّرين، أي: نفيُ الحرج، هو عن أصحابِ الزَّمانة وعمَّن سواهم، فلهم أنْ يأكلوا من بيوتٍ من سمّى اللّه تعالى.

ويرى بعضُ المفسِّرين أنَّ الواو استئنافيَّةٌ، وأنَّ نفيَ الحرج عن الثلاثة الأصناف الزَّمنى مقطوعٌ عمّا قبله، وأنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ كلامٌ مستأنفٌ، وأنَّ اللّهَ رفعَ الحرجَ عن الأعمى فيما يتعلَّق بالتَّكليف الذي يُشترط فيه البصرُ، وعن الأعرج فيما يُشترط في التَّكليف به المشي، وما يتعذَّر من الأفعال مع وجود الحرجِ، وعن

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 13/ 318.
(2) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1307.

المريضِ فيما يتعلَّق بالتَّكليف الذي يؤثِّرُ المرضُ في إسقاطه كالصوم، وشروط الصَّلاة وأركانها، والجهاد، ونحو ذلك[1].

أصحابُ الزَّمانةِ والعاهات، عددُهم الأقلُّ في المجتمعات

نكتةُ الالتفاتِ من المفرد إلى الجمع:

التفت النَّظمُ من لفظِ المفرد ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ و﴿ٱلۡأَعۡرَجِ﴾ و﴿ٱلۡمَرِيضِ﴾ إلى لفظ الجمع ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾؛ ليتناسبَ مع صيغِ الجمع الواردة بعده، ولِما في هذا الالتفات من إيماءٍ إلى كون الأعمى والأعرج والمريض عددًا قليلًا بالنسبة لأفراد المجتمع المخاطَبين بلفظ ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾.

نكتةُ عدمِ ذِكرِ الحرجِ فيما يتعلَّقُ بالمخاطَبين:

مراعاةُ أهلِ الزَّمانةِ أصلٌ، ومراعاةُ مَن سِواهم تَبَعٌ لهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، لم يأتِ رفعُ الحرج عنهم نصًّا مصرِّحًا به، كما جاء مصرِّحًا به مع الأعمى، والأعرج، والمريض، بل جاء بالحملِ على الحكم السّابق؛ إذ التقدير: (ولا على أنفسكم حرجٌ)؛ لأنَّ المقصودَ برفع الحرج في الآية إنَّما هو عن أولئك العجزة ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ و﴿ٱلۡأَعۡرَجِ﴾ و﴿ٱلۡمَرِيضِ﴾، وأنَّ من دخل بعدهم في هذا الحكم من الأهل والأقارب وغيرهم إنَّما جاء تبعًا لهم؛ وليدلَّ على أنَّهم أولى في هذا المقام من الأهل والأقارب، وأنَّه رُفِعَ الحرجُ عن الأقارب تبعًا لهؤلاء[2]، وكذلك للاكتفاء بذكره فيما مرَّ، والأواخرُ محلُّ الحذف[3]، وقيل: للإشارة إلى مغايرته للمذكور من أنواعِ الحرج؛ ولكون حذفِهِ لا يقدحُ في دلالته عليه، لا سيَّما إذا قلنا: إنَّ الدال غيرُ منحصر فيه[4].

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾:

الإيماءُ إلى أنَّ أصلَ النّاس جميعًا إلى نفسٍ واحدة

آثر النَّظم القرآنيُّ استعمالَ الأنفس في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، فلم يقل: (ولا عليكم)، رغم أنَّ المرادَ بالأنفس ذوات

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 13/ 318.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1328.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 408.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 408.

المخاطَبين، فكأنَّه قيل: ولا عليكم جناحٌ أنْ تأكلوا، أي: ولا على غير من ذُكِرَ من المؤمنين، فالخطابُ للأمَّة؛ وذلك تذكيرٌ للمخاطَبين بأنَّ الكلَّ من نفسٍ واحدة[1]، وأنفسهم كالنَّفس الواحدة، بما يحملهم كذلك على التَّسامح والتَّوادِّ والتَّعاطف، وطيبِ النَّفس فيما بينهم، قال ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنينَ في تَوادِّهِم، وتَراحُمِهِم، وتَعاطُفِهِم مَثَلُ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَداعَى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمَّى»[2].

دلالةُ تخصيصِ الأكلِ بالذِّكر:

بناءُ التَّوازنِ في قاعدة الحقوقِ والواجبات الاجتماعيَّة

في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ﴾، خصَّ النَّظم الحكيمُ الأكلَ دون غيره من الأفعال، كالادِّخار أو أخذ ما ليس بمأكول؛ مناسبةً لمقصدِ الآية وسببِ نزولها، فقد كان أغلبها في التحرُّج عن الأكل[3]، ولمقصد القرآن في الحضِّ على إطعام الطعام، وعدم منعه عن النّاس، وخاصَّة الضعفاء والأهل والأقارب والوكلاء والأصدقاء، وللإشارة إلى ألّا يجاوزوا إلى الادِّخار، ولا إلى ما ليس بمأكولٍ، وإنْ كان غيرَ محرزٍ عنهم إلّا بإذنٍ منهم[4].

بلاغةُ الاكتفاءِ بذكرِ الأكلِ دونَ الشُّرب:

إباحةُ الأكلِ تقتضي إباحةَ الشُّربِ دون العكس

خصَّ البيانُ القرآنيُّ الأكلَ دونَ الشُّربِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ﴾؛ لأنَّ الحاجةَ إلَى الأكل غالبةٌ، فاكتفى بذكره عن ذكر الشُّرب؛ لدلالته عليه كدلالة الحرِّ على البردِ في قَوْله تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: 81][5]، ولأنَّ إباحةَ الأكلِ تقتضي إباحةَ الشُّرب، دون العكس، فلا يكونُ الأكلُ سائغًا دون شرابٍ من ماءٍ ونحوه، والصَّبر على انعدامِ الأكل محتملٌ أكثرُ من الصَّبر على انعدام الماءِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 316، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 301.
(2) صحيح مسلم، كتاب كتاب البر والصلة والآداب، الحديث رقم: (2586).
(3) ذكر ابن العربي ثمانية أسباب للنزول، أحكام القرآن: 3/ 420.
(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 422.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 464.

فائدةُ ذكرِ ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾ والأكلِ فيها:

ذكرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾ مع أنَّ نفيَ الحرج فيها أمرٌ معلوم؛ لئلّا يحصلَ من تركها لو تركها ريبةٌ، وليدخل فيها بيوت الأولاد[1] وبيوت الأزواج؛ لاتِّصالهم بهم نسبًا أو دينًا، فنسبةُ البيوت إليهم مجازٌ عقليٌّ[2]، وتوطِئةً؛ ليَبْنِيَ عليه ما يَعطِفُه على جُملتِه مِنَ البُيوتِ الَّتي قُصِدَ إباحةُ الأكلِ منها؛ فإنَّه إذا عُلِمَ أنَّ الإنسانَ لا جُناحَ عليه أنْ يأكُلَ مِن بَيتِه؛ فكذلك لا جُناحَ عليه أنْ يأكُلَ مِن هذه البُيوتِ؛ ليدلَّ على "أنَّ انتفاءَ الإثم والحرج في بيوت الآباء إلَى آخرِهِ كانتفاءِ الحرج في بيوت أنفسِهم"[3]، أي: إنَّ أكلَ النّاس من بيوتهم لم يذكر هنا؛ لنفي حرجٍ كان متوهَّمًا، وإنَّما ذُكر لإظهارِ التَّسوية في هذا الدين - المبني على كون المؤمنين بعضُهم أولياءُ بعضٍ - بين أكلِهم من بيوت أقاربهم وأصدقائهم، وبين أكلِهم من بيوتهم[4]، وليُشيرَ إلى أنَّ أموالَ هذه القرابةِ كَمالِ الإنسانِ، فيكون سُبحانه قد أدمَجَ في ذلك الحضَّ على صِلَةِ الأرحام، ومُعامَلَتِهم مُعامَلَةَ الإنسانِ نفْسَه[5].

إلحاقُ انتفاءِ الإثمِ والحرجِ عمَّن ذُكِرَ، بانتفاءِ الحرجِ في بيوتِ أنفسِهم

سرُّ عدمِ ذكر بيوتِ الأولادِ:

لم تذكرِ الآيةُ الكريمة بيوتَ الأولاد عند ذكر بيوت الأقارب؛ لأنَّ التَّعبيرَ بـ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾ يتضمَّنها؛ ولأنَّ الآباء والأبناء شيءٌ واحد[6]، فولَدُ الرَّجلِ بَعضُه، وحُكمُه حُكمُ نفْسِه، وبَيتُه بَيتُه[7]، أي: إنَّ بيوتَ الأبناءِ معلومٌ حكمُها بالأولى[8]، "ألا ترى أنَّ الشَّرع يوجب على الولد نفقةَ الوالدين؛

وَلَدُ الرَّجُلِ بَعضُهُ، وحُكمُهُ حُكمُ نفْسِهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 316.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 460.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 460، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 156.
(4) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 156.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 654.
(6) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10339.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 71.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 301.

إذا كانا محتاجين؟"[1]، وبالتالي فبُيُوتُ الأبناءِ داخلةٌ في بُيوتهم؛ فاكتفى بذِكْرِها دونَها، وإلّا فبُيوتُهم أقربُ مِن بُيوتِ مَن ذُكِر في الآيةِ[2]؛ ولأنَّ الأولادَ من كسبِ الأب، ومالُ ابنِ الإنسانِ مالٌ له[3]، قال ﷺ: «إنَّ أَطْيَبَ ما أَكَلْتُم مِنْ كَسْبِكُم، وإنَّ أَوْلادَكُم مِنْ كَسْبِكُم»[4]، أي: كسبُ أولادِكم طيِّبٌ لكم مثلُ كسبِ أنفسِكم، ولقوله ﷺ: «أنتَ ومالُكَ لوالِدِكَ»[5]، فلزِم من ذلك عدمُ ذكر بيوت الأبناء، وليستْ بيوتُ الآباء والأمهات من قبيل ذلك؛ إذ لا يجوز للأبناء التَّصرُّف فيها إلّا بإذن الوالدين أو أحدهما، ولو ذكر بيوت الأبناء؛ لفُهِم أنَّها في الأصل كانت ممنوعةً.

دلالةُ جمعِ لفظَي الآباء والأمَّهات:

الرُّخصةُ تشملُ جميعَ الآباءِ والأمَّهاتِ، وإنْ بَعُدَتِ الأنسابُ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ جمعَ لفظ الأب والأمِّ، في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾، ولم يقل: (بيوت أبيكم أو بيوت أمِّكم)؛ وذلك لأنَّ جمع البيوت يقتضي جمع الآباء والأمهات، فالخطابُ لمجموع المؤمنين، فكما لهم بيوتٌ، فلهم آباءٌ، وللدَّلالة على جميعِ الآباء وجميع الأمَّهات، أي: بيوت آبائِكم وأمَّهاتكم، وإنْ بعُدَتْ أنسابكم؛ فإنَّها مرباكم وحرمتها حرمتكم[6].

نكتةُ تقديمِ الآباءِ على الأمَّهات:

البيوتُ تُنسبُ للآباءِ في العُرف الغالبِ المعهود

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الآباءَ على الأمَّهات في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾؛ لأنَّ ذلك أنسبُ بالواقع، فالأب مقدَّمٌ في التوقير على الأم، ولأنَّ البيت يُنسب إليه ابتداءً؛ إذ الأبُ هو الحاكمُ في بيته دائمًا، والمالُ له[7].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 655.
(2) ابن القيم، إعلام الموقعين: 1/ 88.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 422.
(4) أخرجه أبو داود، كتاب الإجارة، الحديث رقم: (3530)، والنَّسائي، كتاب البيوع، الحديث رقم: (4450)، والتِّرمذي، كتاب الأحكام، الحديث رقم: (1358).
(5) أخرجه ابن ماجة، كتاب التجارات، الحديث رقم: (2291)، وأخرجه أحمد، الحديث رقم: (6902).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 316.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 316

نكتةُ جمع الإخوة والأخوات:

جاء التَّعبيرُ عن الإخوة والأخوات بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الرُّخصة تشمل بيوتَ جميع الإخوة والأخوات من الأبوين أو الأب أو الأم بالنَّسب أو الرَّضاع، فإنَّهم من أولى من رضي بذلك بعد الوالدين[1]، وهذا يشيرُ إلى الترابط الأسري في الإسلام.

رخصةُ الأكلِ تشملُ جميعَ بيوتِ الإخوة والأخوات

مناسبةُ تقديمِ الإخوة على الأخوات:

قدَّم البيانُ القرآنيُّ ذكرَ بيوتِ الإخوة على الأخوات؛ من أجل أنَّ وليَّ البيت إذا كانت الأخت مُتزَوّجة هو زوجها، بخلاف بيوت الإخوة؛ فإنَّ الأخَ هو وليُّ البيتِ، والحاكم فيه، وهذا التَّقديمُ يناسبُ سياق الآيات، وهو رفعُ الحرج عن الأكل من البيوت، وهو من أنواع المال[2]، ويناسبُ عادةَ القرآنِ في تقديم الذكور على الإناث في سياق الإنفاقِ.

مراعاةُ صاحبِ الحقِّ في النَّفقة والتَّصرُّف

نكتةُ جمعِ الأعمام والعمّات:

عبَّر النَّظمُ الحكيم عن الأعمام والعمّات بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الرُّخصةَ ورفع الحرج المتكلَّف في الأكل شملَتْ جميع الأعمام والعمّات، فإنَّهم إخوةُ آبائكم سواءٌ كانوا أشقاءَ أو إخوةً لأبٍ أو أمٍّ، ولو أفردَ العمَّ أو العمَّة؛ لتوهِّم أنَّه الشقيق فقط، فإنَّه أحقُّ بالاسم[3].

رفعُ الحرجِ المتكلَّف في الأكلِ، يشملُ بيوت إخوة الآباء

سرُّ تقديمِ الأعمام والأخوال على الإناث:

تقديمُ الأعمام على العمّات والأخوال على الخالات في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ﴾ لضعفِ العمّات والخالات، فالولايةُ في بيوتهنَّ

التَّقديمُ إنَّما يكون بالأولويَّة، لمن له الكفالةُ والإنفاق

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 316.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 316.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 316.

لأزواجهنَّ لا لهنَّ؛ ولأنَّ عادةَ القرآن تقديمُ الذُّكور على الإناث في سياقِ الإنفاق[1].

دلالةُ ﴿مَا﴾ وفائدةُ استعمالها:

إباحـةُ الأكـلِ، تشملُ كلَّ ما له حكمُ البيوت في الاستعمالِ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، موصولةٌ صادقةٌ على المكان أو الطَّعام، أي: على غير العاقل، وهو غالبُ استعمالها، وبهذا يكون العطف على ﴿بُيُوتِ﴾، لا على ﴿خَلَٰتِكُمۡ﴾[2]، واستُعملت لإفادة عموم كلِّ ما ثبتَتْ له صلةُ الموصول من الموجوداتِ، سواءٌ كان هذا الطَّعام موجودًا في بيوتٍ أو في خزائنَ، أو في ضيعٍ وبساتين، أو غير ذلك من الأماكن، وبهذا يكون التَّعبيرُ بـ ﴿مَا﴾ إيجازًا عن التَّعبير بكلِّ ما سبق.

بلاغةُ الكنايةِ ودلالتها:

بيـانُ الرُّخصةِ بجواز الأكل ممّا هو تحتَ الحيازةِ والتَّصرُّف

كلمةُ مَفاتح في قوله تعالى: ﴿مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ جمع مِفتح - بكسر الميم - وهو آلةُ الفتح، وملك هذه المفاتح كنايةٌ عن كونِ الشَّيء تحت يدِ الشخص وتصرُّفه وحفظه، بوكالةٍ أو ولايةٍ، "لا عن كونه في ملكه"[3]، بقرينةِ كون المملوكِ المفاتحَ دونَ الدّورِ أو الحوائط[4]، والمعنى: يرخِّص لكم الأكلَ من البيوت التي تملكون التَّصرُّف فيها بإذن أصحابِها، كأنْ تكونوا وكلاء عنهم في التَّصرُّف في أموالهم[5]، كوكيل الرجل وقيِّمه في ضيعته وماشيته، والمختزن للطَّعام وناطور الحائط ذي الثمر، فلا بأس عليهم أنْ يأكلوا من الثَّمر، ويشربوا من لبنِ الماشية بدون إذن، ولا يتجاوز شبع بطنه، وفي هذه الكناية توكيدٌ لرخصةِ اللّه لهم بجواز أكلِ الشخص ممّا هو تحت يده وتصرُّفه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 316 - 317.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 301.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 461.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 302.
(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 156.

بلاغةُ استعمال مفردة (الصَّديق):

الصِّدقُ في المودَّة جعلَ للصَّديق مرتبةَ القرابة

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ (الصَّديق) في قوله تعالى: ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ دون الصاحب أو القرين؛ لكونه أنسبَ مع السّياق الَّذي هو سياقُ مسامحةٍ قائمة على محبَّة، وهذا يكون في الصَّديق، وربَّما لا يكون في الصّاحب أو القرين؛ ولأنَّ لفظ الصديق يتميَّز بمادَّته، وهي الصدق، فإنَّ اشتقاق اسمه من صدقِ المحبَّة وصفاء المودَّة، فهو الَّذي ساوى باطنُه ظاهرَهُ في إخلاص المودَّة[1]، وهو من يصدقُ في مودَّتك وتصدقُ في مودَّته[2].

نكتةُ اقترانِ الصَّديق بالأقارب:

الصَّديقُ له مودَّةٌ ومكانة، تعجزُ عنها الإبانة

قرنَ النَّظمُ الحكيم الصَّديقَ بالقرابة المحضة الأكيدةِ في نفي الحرج من الأكل، في قوله تعالى: ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ للصَّداقةِ حقًّا، وهو كذلك، والسَّببُ: الصِّلةُ التي بيْنَك وبيْنَه[3]، وتنبيهًا على شريفِ رُتبةِ الصَّداقةِ، ولَطيفِ سِرِّها، وخَفيِّ أمرها، قال جَعفرُ الصّادق: (مِن عِظَم حُرمةِ الصَّديقِ أن جعَلَهُ كالنَّفْس والأبِ ومَن معَه)[4]؛ ولأنَّ قربَ المودَّة من الصَّديق لصيقٌ[5]، ولأنَّ محبَّة الصِّلة مع الأصدقاء ممّا هو موقورٌ في النُّفوس[6]؛ ولأنَّ الصَّديق أرضى بالتَّبسُّطِ وأَسرُّ به من كثيرٍ من ذوي القرابة، روي عن ابن عباس رضي اللّٰه تعالى عنهما: الصديق أكبر من الوالدين إنَّ الجهنَّميّين لَمّا استغاثوا؛ لم يستغيثوا بالآباء والأمهات، فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ [الشعراء: 100 - 101]، وقد كان السَّلف ينبسطون بأكل أصدقائهم من بيوتهم، ولو كانوا غُيَّبًا،

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 656.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1470.
(3) ابن عثيمين، تفسير النور، ص: 414.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 317.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 316.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 302.

ويُحكى عن الحسن أنَّه دخل داره، وإذا حلَقَةٌ من أصدقائه، وقد استلّوا سلالًا من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمةِ، وهم مكِبّون عليها يأكلون، فتهلَّلت أساريرُ وجهه سرورًا، وضحكَ، وقال: هكذا وجدناهم، هكذا وجدناهم، يريدُ كبراءَ الصَّحابة، ومن لقيهم من البدريّين[1]، ولهذا لا تجوز شهادةُ الصديق لصديقه، كما لا تجوزُ شهادة القريب لقريبه[2].

نكتةُ إفرادِ لفظ الصَّديق:

صِـــدْقُ المــودَّة قليلٌ، والصِّدق في المحبَّة ثقيلٌ

لفظُ الصَّديق يقعُ على الواحد والجمع، والمراد به في قوله تعالى: ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ الجمع، أي: الجنس الصادق بالجماعة، بقرينة إضافته إلى ضميرِ جماعة المخاطَبين، وهو اسمٌ تجوزُ فيه المطابقة لمن يجري عليه إنْ كان وصفًا أو خبرًا في الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث وهو الأصل[3]، ولكنَّ النَّظمَ الحكيم عبَّر به بلفظ المفرد لا الجمع، أي: لم يقل: (أصدقائِكم)؛ للإشارة إلى قلَّة الأصدقاء[4]، قال القشيري: "وعزيزٌ من يصدقُ في الصَّداقة، فيكون في الباطن، كما يرى في الظاهر، ولا يكون في الوجه كالمرآة، ومن ورائك كالمقراض"[5]، وقد نُقل عن هشام بن عبد الملك أنَّه قال: (نِلتُ ما نلتُ حتى الخلافة، وأعوزني صديقٌ لا أحتشمُ منه)؛ وللإشارة إلى أنَّ شأنَ الصداقةِ رفْعُ الاثنينية[6]، أي: كأنَّ الصديقَين رجلٌ واحد؛ ولأنَّ الصَّداقة الحقَّة هي ما كانت للّه غير متعدِّدة الأغراض، فهي إذًا لا تتعدَّد[7]، فصداقةُ المؤمنين واحدة، صداقةٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 410.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 316.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 302.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 317.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 623.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 410.
(7) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10592.

في اللّه؛ ولذلك أفردها، ولأنَّهم حتى إنْ كانوا جماعةً لا بُدَّ أنْ يكونوا على قلبِ رجلٍ واحد، وإلّا ما كانوا أصدقاء(1).

نكتةُ تأخيرِ الصَّديق عن الأقارب:

حقوقُ القرابةِ نظام جبريٌّ، وحقوقُ الصَّداقة أصلٌ فطريٌّ

أخَّر القرآنُ الكريم ذِكرَ الصديق عن الجميع رغمَ مكانتِه، واقترانه بأهلِ الإنسان وأقاربِهِ؛ لأنَّ الأقاربَ المذكورين متَّصلون، مع من أباحَ اللّه لهم الأكلَ من بيوتهم، اتِّصالًا نَسَبيًّا، فهم كأنفسِهم، وعلى هذا فقد قدَّم الأقربَ فالأقرب(2)، فالأقارب صلتهم واجبةٌ، واللّه ﷻ جعلهم جبرًا عن العبد لا بإرادته يختار أقاربه، بخلاف الصَّديق فهو اختيارُ العقل والنفس والأخلاق، وهذا فيه إشارةٌ إلى بيان مكانةِ القرابة في الإسلام، وإلى أنَّ الأصلَ تقديمُ القرابة.

سرُّ تخصيصِ المنصوص عليهم بالذِّكر:

التَّبسُّطُ فيما بين الأقرباء والأصدقاء، عُرْفٌ مألوفٌ في النّاس

خصَّ البيانُ القرآني هؤلاءِ الأصنافَ بالذِّكر، في رفْعِ الحرج المتكلَّف دون غيرهم، في قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾؛ لأنَّه عُلِمَ بالعادة أنَّ هؤلاءِ القومَ المذكورين تطيبُ أنفسُهم بأكلِ من يدخل عليهم بدون دعوة(3)، والعادةُ كالإذن في ذلك(4)، ولأنَّهم اعتادوا التبسُّط فيما بينهم، والرضا فيهم محقَّق غالبًا(5)، وكذلك في تخصيصهم - وهم جميعُهم من الأرحام ما عدا الصَّديقَ - دعوةٌ إلى صلتهم، وترسيخ العلاقة فيما بينهم، وهذا يؤدّي إلى ترابطِ الأُسر وقيامها على المودَّة والمحبَّة.

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10339.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 462.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 301.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 422.

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 115، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 196، والمراغي، تفسير المراغي: 18/ 136.

بلاغةُ ترتيبِ الأصناف بالذِّكرِ:

ترتيبُ المذكورين باعتبار الحقوق الشَّرعيَّة ثمَّ العرفيَّة

جاء ترتيبُ الأصناف المذكورين، في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ ابتداءً من الآباء وانتهاء بالصديق، مُلاحِظًا فيه الترتيبَ اللفظيَّ والموضوعيَّ، بحسب الحقوق الشَّرعيَّة فالعرفيَّة؛ فقدْ بدأتْ ببيت الإنسان نفسِه، ثمَّ بيوتِ الآباء، فالأمهاتِ، فالإخوة، فالأخواتِ، فالأعمام فالعمات، فالأخوال فالخالات، فالبيوتِ التي يملكون التَّصرُّف فيها، فبيوت الأصدقاء، وكان التَّعبيرُ عنها بألفاظٍ جاءت متناسبةً متناغمةً في الزِّنة: ﴿ءَابَآئِكُمۡ﴾، ﴿أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾، و﴿إِخۡوَٰنِكُمۡ﴾، و﴿أَعۡمَٰمِكُمۡ﴾، و﴿عَمَّٰتِكُمۡ﴾[1]، وهذا الترتيب هو ترتيبٌ تنازليٌّ في رفعِ الحرج، حسب درجةِ القرابة[2]، وفيه من التَّهذيب ما فيه، وذلك بانتقاءِ الكلامِ على مقتضى البلاغة، بتقديم الأقرب فالأقرب[3].

نكتةُ تَكرار لفظ البيوت:

البيوتُ عادةً لا تتماثلُ، والتَّفاضل بينها لا يُتغافل

كُرِّر ذكرُ لفظِ البيوت في الآية الكريمة عشر مرّات، ولو قال: (أنْ تأكلوا من بيوتكم وبيوت آبائكم وأمهاتكم وإخوانكم)؛ لَفُهِمَ المقصودُ، وذلك للإيماء إلى انفراد كلِّ بيت بنوعِ خصوصيَّة، فإنَّ درجةَ بيتِ الأب ليست كدرجة بيت الأخ، ودرجةَ بيت العم ليست كدرجةِ بيت الخال، ودرجةَ بيت الأخِ ليست كدرجة بيت الأخت، فكان التَّكرارُ مفيدًا هذا الانفراد وتلك الخصوصيَّة، ولكي تتفاوتَ معايير النظر فيها.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 657، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10157.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1330.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 656.

وللإشارةِ إلى أهميَّة البيوت في المجتمع المسلم، وأنَّها أهمُّ محضنٍ تربويٍّ، وخاصَّة بيوت الأهل والأقارب، وللتناسب مع المقصدِ العام للسورة (النور)، التي دارت حولَ المحافظة على البيوتِ المسلمة، والتي تُعدُّ أكثر سورة ورد فيها ذِكرُ البيوت في القرآن الكريم؛ إذ ذُكِرَتِ البيوت في القرآن أربعَ عشرةَ مرَّة: عشرةً منها في سورة النور، وهي سورةٌ تشتملُ على أحكام من شأنها حماية البيوت، وإقامتها على دعائم الحُبِّ والستر والعفَّة، وكذلك في التَّكرارِ إيماءٌ بأنَّ لكلِّ بيت خصوصيَّتَهُ.

دلالةُ ﴿أَوْ﴾ في السّياق المحكمِ:

مـفادُ التَّـخيير في الـوقـت، أو بحسب الاعتبارِ الاجتماعي

حرفُ العطف ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾؛ للتَّخيير في الوقت، ومعنى هذا أنَّه لا يُتصوَّر أن يأكلَ الآكلُ من هذه البيوت كلِّها في وقتٍ واحد، فخُيِّر بينها، أو للتَّخيير في الانتقاء، فقد تكون العلاقةُ الاجتماعيَّة سويَّةً مع شخصٍ دون آخر، وتكون الرابطةُ مع أحد هذه البيوت أوضحَ من غيرها، فالتَّخييرُ للمخاطَبين بهذا الاعتبار، أي: إن لم تأكل في هذه البيوت فكُلْ في تلك، فالتَّخييرُ راجعٌ إلى الاعتبار الاجتماعيِّ.

بلاغةُ الكناية في سياق الآية:

الإشـــارةُ إلى أهميَّة البيوت، في كونها محضنَ الأُنسِ والمودَّة

كنّى البيانُ القرآنيُّ عن الأموال بالبيوتِ التي هي حرزُ الأموال ومقرُّها من بابِ تسميةِ الشَّيء بما جاوره، كقولهم: (سال الميزاب، وجرى النهر)[1]، للإشارة إلى أهميَّة البيوت التي يتحقَّق بها الأنس، وفي هذا إيماءٌ إلى ضرورةِ تحقُّق الأُنس والمحبَّة والمودَّة في

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 656.

هذه الرُّخصة التي شرعَها اللّه تعالى، وهي الأكلُ من بيوتِ الأهل والأقاربِ والوكلاء والأصدقاء.

علّةُ فصلِ الجملة عن الكلام السّابق:

بيانُ أنَّ الفصلَ محمولٌ على كمال الاتِّصال أو شبهه

فُصِلَت جملة ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا﴾، إمّا لكونها تأكيدًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ﴾[1]، فهي من كمال الاتِّصال، وإمّا للاستئناف البيانيِّ لبيانِ حكم آخرَ من جنسِ ما بُيِّنَ قبله[2]؛ إذ بعد أنْ ذكرَ الأكلَ ذكرَ حاله وكيفيَّته[3]، فهي من شبهِ كمال الاتصال، كأنَّ سائلًا يقول: هل نفيُ الحرج في الأكل من بيوت من ذكر خاصٌّ فيما إذا كان الأكل مع أهل تلك البيوت أم لا؟ فأُجيب بقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا﴾، أي: مجتمعين مع أهلِ تلك البيوت في الأكل أو أشتاتًا، أي: متفرِّقين بأن يأكل كلٌّ منكم وحده ليس معه صاحب البيت[4]، والَّذي يُقوّي الاستئناف البياني ما ورد في سببِ نزول الآية، حيث كان فريقٌ من المؤمنين يتحرَّجون أنْ يأكلوا طعامَهم مُنفردين، أو كان الغنيُّ منهم يدخلُ على الفقيرِ من ذوي قرابتهِ، فيدعوه إلى طعامِه، فيقول: إنّي أتحرَّجُ أنْ آكلَ معك، وأنا غنيٌّ، وأنت فقيرٌ، أو كان قومٌ من الأنصار لا يأكلون إذا نزلَ بهم ضيفٌ إلّا مع ضيفِهم، أو كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعامًا؛ عزلوا للأعمى وأشباهِه طعامًا على حدةٍ، فرُخِّص لهم في أنْ يأكلوا كيف شاؤوا.

سرُّ تقديم الخبر على المبتدأ:

ملمحُ الحرصِ على مشاعرِ أصحابِ الخصوصيّات

في تقديم خبر ليس - وهو ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ - على اسمها - وهو ﴿جُنَاحٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ﴾؛ إذ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 302.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 196.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 317.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 411.

لم يقل: (ليس جناحٌ عَلَيكُم) اهتمامٌ وعنايةٌ بشأن المخاطَبين من الأعمى والأعرج والمريض، وذوات المؤمنين المخاطَبين، ورحمةٌ بهم؛ لأنَّهم كانوا يتحرَّجون حرجًا متكلَّفًا في أنْ يأكلوا مجتمعين أو متفرِّقين؛ حرصًا على مشاعر بعضهم.

نكتةُ الفرقِ بين نفي (الحرج) و(الجناح):

نفيُ الحرجِ فيما اتَّسعت دائرته، ونفيُ الجناح فيما وردَ بين أمرين

غايرَ البيانُ القرآنيُّ بين المنفيِّ في الآية؛ إذ عبَّر عنه بالحرج في بدايتها بقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ﴾، وعبَّر عنه بالجُناح في تمامها؛ إذ قال: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾، وتكمنُ نكتة هذه المغايرة في اختيارِ اللَّفظِ الأنسب لموضعه، أي: لمّا كان النَّفيُ في الآية فيما اتَّسعت دائرته، أي: واقعًا على أمور كثيرةٍ من عدم المشاركة بالجهاد أو بالأكل من أصحاب الأعذار، أو بأيِّ عملٍ بسبب العذر، وعلى أشخاص كثيرين سواءٌ من أصحاب الأعذارِ أو غيرهم من المخاطَبين، أو من يأتي بعدهم من المؤمنين؛ ناسبَ استعمال لفظ ﴿حَرَجٞ﴾ الذي يدلُّ في أصله على تَجَمُّع الشَّيْءِ وضيقه[1]؛ ليكون نفيُهُ أدلَّ على تحقُّق السَّعةِ وأنسبَ، ولمّا كان النفيُ في الآية واقعًا فيما ورد فيه بين أمرين: هما الأكل جميعًا أو متفرِّقين؛ ناسبَ استعمالُ لفظ ﴿حَرَجٞ﴾ الذي يدلُّ في أصله على الميل[2]؛ ليكون نفيُهُ أدلَّ على التخيير بين هذين الأمرين[3].

دلالةُ (على) في قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

الاستـعـلاءُ المجـازيُّ يفيدُ الإلزامَ والظَّرفيَّةَ المجازيَّة

معنى حرف الجرِّ (على) في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾ هو الاستعلاءُ المجازي المكنّى به في الآية عن الإلزام والوجوبِ، والمقصودُ من الآية رفْعُ هذا الإلزام عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنح).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 411.

المخاطَبين الذين ألزموا به أنفسَهم من عدمِ الأكل منفردين، فإنَّه إنْ لم يجدوا مَنْ يأكل معهم؛ عافوا الطَّعام.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿جُنَاحٌ﴾:

نَفيُ عمومِ الإثمِ عن كيفيَّةِ الأكلِ، أيسرُ في البُعدِ عن التَّكلُّف

نُكِّر لفظُ ﴿جُنَاحٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾؛ لإفادةِ عموم نفيِ أيِّ شيء من الإثم الَّذي من شأنه أنْ يميلَ بصاحبِه عن السّواء، أي: ليس عليكم أيُّ شيء من الإثم في أنْ تأكلوا مجتمعين، وإنْ كان بينكم ناقصُ الخِلقة؛ لأنَّ من كان معرَّضًا للآفات جديرٌ بأنْ يرحم المبتلى، فلا يستقذره حذرًا من انعكاسِ الحال، أو متفرِّقين لغير قصد الاستقذار، والترفُّع والإضرار[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى يُسرِ الإسلام، وبُعده عن التَّكلُّف في التَّشدُّد على النَّفس مع المحافظة على حقوق الضُّعفاء وحماية مشاعرهم.

نكتةُ إيراد ﴿أَن﴾ مع المصدر المؤوَّل الفعليِّ:

تجدُّدُ نفي الحرجِ عن الآكلين، دليلٌ على عِظَمِ يُسرِ الإسلام

جاء التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن تَأۡكُلُواْ﴾ دون الصَّريح، في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾، فلم يقل: (ليس عليكم جناحٌ في أكلكم جميعًا أو أشتاتًا)؛ للإشارة إلى استمرارِ نفي الحرجِ في تكرارِ الأكل مجتمعين أو متفرِّقين؛ لِما يدلُّ عليه الفعل المضارع ﴿تَأۡكُلُواْ﴾ من تجدُّدِ هذا الأكل، ونفيُ الحرجِ يتجدَّدُ بتجدُّده، بما يدلُّ على زيادةِ نفي الحرج عن الآكلين، وعلى عِظَم يُسر شريعة الإسلام.

دلالةُ تقديم ﴿جَمِيعًا﴾ على ﴿أَشۡتَاتٗاۚ﴾:

الاجتماعُ على الطَّعامِ سُنَّةٌ فضلى، وبركة عظمى

دلَّ تقديمُ ﴿جَمِيعًا﴾ على ﴿أَشۡتَاتٗاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾ على أنَّ الأكلَ في جماعة أفضَلُ وأبرَكُ[2]، ويؤكِّد ذلك ما رويَ أنَّ رجلًا قال للنَّبيِّ ﷺ: إنَّا نأكلُ ولا نشبَع، فقال:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.

«فَلَعَلَّكُم تَأْكُلونَ مُتَفَرِّقينَ، اجْتَمِعوا على طَعامِكُم، واذْكُروا اسْمَ اللّه؛ يُبارِكْ لَكُم فيهِ»[1]، وعن عمرَ ﵁، عن رسول اللّه ﷺ قال: «كُلوا جَميعًا، ولا تَفَرَّقوا؛ فإنَّ البَرَكَةَ مَعَ الجَماعَة»[2]، وفي التقديم وما ورد في السُّنَّة ما يؤكِّد أنَّ النَّفي في الآية هو نفيٌ للحرج، لا نفيٌ للفضيلةِ، وإلّا فالأفضلُ الاجتماعُ على الطَّعام[3].

دلالةُ ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾:

رخصةُ اللهِ في أكلِ الإنسانِ وحدَهُ، لغير شحٍّ ولا استقذارٍ

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿أَشۡتَاتٗاۚ﴾ على ﴿جَمِيعًا﴾ الذي هو حالٌ من ﴿تَأۡكُلُواْ﴾ بأداة ﴿أَوۡ﴾ التي تفيد التَّخيير في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾؛ للدَّلالة على الإباحة، أي: التخيير بين أنْ يأكلَ الرَّجُلُ وحدَهُ، وأنْ يأكل معَ الجماعةِ حسب الظروف والأحوال، أي: إنَّ الرخصةَ في الأمرين معًا[4]، وذلك إذا كان قد أكلَ وحدَهُ، ليس عن شَرَهٍ وشُحّ، يجعلانه يؤثرُ نفسَهُ بما بين يديه من طعام، دون أنْ يلتفتَ إلى من حوله من زوجٍ وولد وخادم؛ للأثر: «ألا أُنَبِّئُكَ بِشَرِّ النّاسِ؟ مَن أكلَ وحدَهُ، ومنعَ رفدَهُ، وضربَ عبدَهُ»[5]، وليس قصدَ الاستقذارِ والتَّرَفُّعِ والإضرار بمن هم من أصحاب الأعذار[6].

بديعُ فنِّ الطِّباق وفائدته:

زيادةُ إيضاحِ المعنى بأوجز عبارةٍ وأحسنها

في قوله تعالى: ﴿أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾ جَمع بين لفظتين هما: ﴿جَمِيعًا﴾ و﴿أَشۡتَاتٗاۚ﴾ تضادتا تضادًّا أوجبَ لهما وصفهما بالمطابقة؛ لأنَّ المعنى (جميعًا أو متفرِّقًا)[7]، وهذه المطابقة تزيدُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318، والحديث أخرجه ابن ماجه برقم: (3286).
(2) أخرجه ابن ماجة برقم: (3287).
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 575.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 86.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1332، والحديث أخرجه السيوطي في الجامع الصغير برقم: (2884).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 657.

الكلامَ حسنًا، وتزيد المعنى إيضاحًا بأوجزِ عبارة، وهو سَعةُ الأمر فيما يتعلَّق بتخيير المخاطَبين بكيفيَّة الأكل، وعدم التكلُّف فيه، بما يدلُّ على رحمةِ الشَّريعة ويُسرها وكمالها.

المبالغةُ في وصفِ حالِ المخاطَبين، أنسبُ في تحقيقِ المراد منهم

بلاغةُ الحالِ من فعل الأكل:

انتصبَ ﴿جَمِيعًا﴾، ﴿أَشۡتَاتٗاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾ على الحال، أي: حال كونكم مجتمعين أو متفرِّقين[1]، وقد تكون ﴿أَشۡتَاتٗاۚ﴾ في الأصلِ مصدرًا، فهي جمع شَتٍّ، يُقال: شَتَّ الأمرُ يشتُّ شتًّا وشتاتًا؛ إذا تفرَّقَ، فيكونُ البيانُ القرآنيُّ قد وصَفَ به كيفيَّةَ الأكل متفرِّقين مُبالَغةً[2]، لما كانوا يتحرَّجون من الأكل متفرِّقين تحرُّجًا متكلَّفًا لا ترضاهُ الشَّريعة.

الـــقـــرابـــةُ والـــصَّـــداقـــةُ والمـخــالـطــةُ، أسـبـابٌ موجبة لحسن الأدبِ

دلالةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم﴾:

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ﴾ تحتملُ أنْ تكون عاطفةً[3]، فيها معنى السببيَّة، أي: لَمّا ذكر الإذنَ بالأكل من البيوت وكيفيَّته؛ اقتضى ذلك ذكرَ الحال التي يكون عليها الداخل إلى تلك البيوت[4]، وفيها معنى التَّعقيب بالتزام الأدب في التَّعامل، فإنَّها تدلُّ على الشُّروع مباشرةً في رعايةِ الأدب عند مباشرة ما رُخِّص فيه[5]، أو أنْ تكون تفريعيَّة، أي: هي تفريعٌ على الإذن لهم في الأكل من هذه البيوت بأنْ ذكَّرهم بأدبِ الدُّخول المتقدِّم.

الإيـــمـــاءُ إلى تقوية العلاقات بتحقيق دخول البيوتات

دلالةُ تعليق الشَّرط بـ (إذا):

آثر النَّظمُ الكريم استعمال (إذا) الشَّرطيَّة - الدّالَّةِ على المستقبل، المفيدةِ في الأصل الجزم بوقوع مدخولها في قوله تعالى:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 72.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 196.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 652.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 411.

﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ﴾، دون (إن) التي تفيدُ عدمَ تحقُّق الوقوع، لمناسبة المقام ببيان أحكام دخول البيوت وإيضاحِها، وفيه بشارةٌ بأنَّهم - أي: مِنْ خاطبهم النَّصُّ القرآنيُّ، وهم الصَّحابة الكرام - يطيعون فيما أرشدهم اللّهُ به فيما يتعلَّق بالأكل من المواطن الَّتي ذكرها، وكيفيَّة الأكل منها، وحالهم عند دخولها، بعد أنْ كانوا تحرَّجوا من ذلك كلِّه حين أنزل اللّه تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النِّساء: 29][1]، وأنَّ ذلك كلَّه أمرٌ محقَّقٌ منهم، كما أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ تلك البيوت يجب أن تُدخل، وليس لأحدٍ أن يقطع أصحابها، فالمسلم شديدُ التَّعلُّق بأقاربه وأصدقائه، فلا يُتصوَّر - في مَن في قلبِه تعظيمٌ لحرمات المؤمنين - التَّقصيرُ في دخول بيوتهم، ولما تتركه الزِّيارة من أثر نفسيٍّ واجتماعيٍّ أمرَ الحقُّ ﷻ بزيارة تلك البيوت، وإبقاء الصِّلة قائمةً.

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

حكمُ دخول البيوت حكمٌ ثابتٌ قاطعٌ لا تغييرَ فيه

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن فعل الدخول بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا﴾؛ لكونه سُبِقَ بأداة الشَّرط (إذا) التي تفيدُ القطعَ بوقوع الشَّرط، وهذا يناسبهُ أنْ يقترنَ الفعل الماضي بها؛ لكون الماضي أقربَ إلى القطعِ من المستقبل غالبًا، فالتَّعبيرُ بالفعل الماضي يفيدُ ثبوتَ هذا الحكم، أي: حكم دخول البيوت.

دلالةُ تنكير لفظ ﴿بُيُوتٗا﴾:

كلُّ ما يصدق عليه اسمُ البيت، فهو داخلٌ في حكم السَّلام

نُكِّر لفظُ ﴿بُيُوتٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا﴾ في سياق الشرط؛ لإفادةِ العموم، فتشمل البيوتَ كلَّها[2]، بيتَ الإنسان وبيتَ غيره، سواءٌ كان في البيت ساكنٌ أم لا[3]، أيَّ بيوتٍ كانت، سواء كانت مملوكةً

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 426.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 575.

أم لا، مساجدَ أم غيرها[1]، أي: يُرشدُ اللّهُ المؤمنين أنْ يسلِّموا عقبَ دخول أيِّ بيتٍ كان، والمعنى: فإذا دخلتم بيوتًا من بيوتِ المسلمين، أو بيتًا من بيوت اللّه تعالى فسلموا، فاللّه جلَّ ثناؤه لم يخصِّصْ من ذلك بيتًا دون بيت، فكان معلومًا؛ إذ لم يخصِّص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنَّه معنيٌّ بها جميعها؛ مساجدها وغير مساجدها[2].

دلالةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَسَلِّمُواْ﴾:

السَّـلام عند الدُّخـول من مـأثـور سنَّة الرَّسول

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، رابطةٌ لجواب الشَّرط[3]، تفيد التَّأكيد على أنَّ دخول البيوت يقتضي السَّلام، والمعنى: فسلِّموا على أنفسِكم عقبَ الدُّخول[4]، أي: فابدؤوا بالسَّلام على أهلها[5].

دلالةُ فعلِ الأمر بالسَّلام في ﴿فَسَلِّمُواْ﴾:

الأصلُ في الأمرِ الوجوبُ، والحكم يتبع أحوال المسلَّمِ عليهم

غرضُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ مختلفٌ فيه بين الفقهاء، فقيل: سُنَّة، وهو المشهور، وتاركه واقعٌ بالمكروه، ولتأكيدِ الأمرِ في استحبابِ السَّلام؛ أكَّده بالمصدر وبالوصف، وقال بعضهم: السَّلامُ سُنَّةٌ على الكفاية، وقيل: السَّلامُ واجبٌ[6]، والصَّحيح أنَّ التَّسليم يتبع حال الدّاخل إن كان وحدَه أو مع غيره، وإن كان داخلًا على جماعةٍ بينهم طمأنينة وسلام، أو خصومة ونزاع، فإنَّ الحكمَ يتبع الأحوال، والأصل في الأمر أنَّه للوجوب، فكيف إذا كان من اللّه تعالى.

فائدةُ استعمالِ لفظ ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾:

المؤمنُ يُنزِّل إخوانَهُ منزلة نفسه، ويحبُّ لهم ما يحبُّ لها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن المسَلَّم عليهم، وهم من في البيوت بـ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 227.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 653.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 318.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 258.
(6) ابن عادل، اللباب: 6/ 538.

﴿أَنفُسِكُمۡ﴾، في قول تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لتنزيلهم منزلتها لشدَّة الاتِّصال[1]، فالمعنى: فسلِّموا على أهلِها الذين بمنزلة أنفسِكم؛ لِما بينكم وبينهُم من القرابة الدّينيةِ والنَّسبيةِ الموجبة لذلك[2]، فالمؤمنُ للمُؤمِنِ كالبُنْيانِ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا، فهو كقَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ [التوبة: 128]، والمعنى إذًا: سَلِّموا على مَن فيها؛ لأنَّكم وإيّاهم نفْسٌ واحِدةٌ[3]، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النِّساء: 29][4]، فالمسلمون كأنَّهم شخصٌ واحدٌ مِن تَوادُدِهم، وتراحمِهم، وتعاطفِهم[5]، وفي هذا تَنبيهٌ على السِّرِّ الَّذي اقْتَضى إباحةَ الأكْلِ مِن هذه البُيوتِ المعدودة، وأنَّ ذلك إنَّما كان لأنَّها بالنِّسبةِ إلى الدّاخلِ كبَيْتِ نفْسِه؛ لاتِّحادِ القرابةِ، فلْيَطِبْ نفْسًا بالبساطِ فيها[6]، ولينتبَّه إلى أنَّ المؤمنَ لا يحمل لأخيه المؤمن إلّا الأمنَ والسَّلامة، فهما كنفسٍ واحدة.

وقيل: عبَّر بـ ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾؛ ترغيبًا في السَّلام، والإحسانِ في الإكرام، ولتصلحَ العبارةُ لِما إذا لم يكنْ فيها أحدٌ، فيقالُ حينَئذٍ: (السَّلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصّالحينَ)، فيكون من الاستعمال في الحقيقة والمجاز[7]، وذلك على أحدِ القولين.

دلالةُ اختلافِ وصف المسَلَّم عليهم:

موازنةُ السّياقِ بين الإباحةِ والمنعِ، وبين بيوتِ الأقاربِ والأباعد

اختلفَ التَّعبيرُ عن المسَلَّم عليهم في الآيتين في السّورة ذاتها، رغم أنَّ المراد بأنفسكم هو أهلُ البيت المدخول؛ لمناسبة سياقِ كلِّ موضوع؛ إذ ناسبَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾ سياقَ الحديث عن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 411.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.
(3) ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين: 4/ 384.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 303.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 575.
(6) حاشية ابن المنير على تفسير الزمخشري: 3/ 258.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.

دخول بيوتِ الأهل والأقارب والأصدقاء، وإباحةِ الأكلِ منها دونَ استئذان ودون أيِّ حرجٍ، وهم ألصقُ النّاس بالإنسان، ومن تكون العادةُ بينهم التّباسط، بينما ناسبَ التّعبيرُ بلفظ ﴿أَهۡلِهَاۚ﴾ [النّور: 27] في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النّور: 27]، سياقَ الحديثِ عن بيوتِ الغرباء، والمنعِ من دخولها، واشتراطِ الاستئناسِ مع الاستئذانِ؛ لوجودِ الوحشةِ فيما بينهم، ولأنَّ السّياق سياق استئذانٍ مجرَّد.

دلالةُ ﴿مِّنۡ﴾ في السّياق المحكم:

يجوز أنْ يتعلَّقَ حرفُ ﴿مِّنۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بمحذوف صفة لـ ﴿تَحِيَّةٗ﴾، وأَنْ يتعلَّقَ بنفسِ ﴿تَحِيَّةٗ﴾، أي: تحيَّةً صادرةً من جهةِ اللّه، و﴿مِّنۡ﴾ لابتداء الغايةِ مجازًا[1]، كونَ التَّحيَّةِ من عند اللّه مباركةً، ويكسبها قداسةً ووقارًا.

نكتةُ استعمالِ مفردة (السَّلام):

دعاءٌ بالسَّلامة مع اللُّطفِ، وتأمينٌ بالسَّلام مع الأنسِ

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ لفظَ التَّسليم دون غيرِه، في قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، ولم يقل: (فحيّوا، أو فألقوا التَّحيَّة)؛ لأنَّ لفظَ السَّلام يجمعُ معنيين، هما تأنيسُ الدّاخلِ بتأمينه إنْ كان لا يعرفه، وباللُّطفِ له إنْ كان معروفًا؛ لأنَّ لفظَ السَّلام مشتقٌّ من السَّلامة، فهو دعاءٌ بالسَّلامة، وتأمينٌ بالسَّلام؛ لأنَّه إذا دعا له بالسَّلامة؛ فهو مسالمٌ له، فكان الخبرُ كنايةً عن التَّأمين، وإذا تحقَّقَ الأمرانِ؛ حصلَ خيرٌ كثيرٌ، وفي كلمة (عَلَيۡكُمۡ) معنى التمكُّن، أي: السَّلامةُ مستقرَّةٌ عليكم؛ ولذا كانت تحيَّةُ السَّلام من جوامع الكلِم[2].

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 444.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 304.

بلاغةُ اختيارِ مفردة ﴿تَحِيَّةٗ﴾:

انْتَصَبَ لفظُ ﴿تَحِيَّةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ﴾ على المَصْدَرِ بقوله: ﴿فَسَلِّمُواْ﴾؛ لأنَّ معناه فحيّوا[1]، من بابِ قَعَدْتُ جُلوسًا، وأَصْلُ ﴿تَحِيَّةٗ﴾ مَصْدَرُ حَيّاهُ تَحيَّةً[2]، كَأنَّهُ قالَ: فحيّوا تَحيَّةً مِن عِنْدِ اللّه[3]، وفي المصدريَّة تأكيدٌ لاستحبابِ إلقاءِ السَّلام من قبل الدّاخل إلى البيوت؛ لِما فيه من تأمينٍ ولُطْفٍ وتأنيسٍ، وفي استعمال لفظ ﴿تَحِيَّةٗ﴾ مع ﴿فَسَلِّمُواْ﴾ جمع بين التسليم والتحيَّة دون الاقتصار على أحدهما، فلم يقل: (فسلِّموا على أنفسكم سلامًا)، أو (فحيوا أنفسكم تحية)، ففيه جمعٌ بين المعاني، وتكثيرٌ للدَّلالات.

الجمعُ بين المعاني وتكثير الدَّلالات تنوُّعٌ وإبانة

غرضُ تنكير لفظ ﴿تَحِيَّةٗ﴾:

نُكِّر لفظُ تحيَّةٍ في قولِه تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ لتفخيم تحيَّةِ الإسلام وتعظيمها، وهي السَّلامُ عليكم ورحمة اللّه وبركاته، فهي تحيَّةٌ فخيمةٌ لا يُقادَرُ قَدرُها.

تحيَّةُ الإسلام السَّلام، وهي رمزٌ للأمان، وملمحٌ للسَّلام

دلالةُ تعليقِ التَّحيَّةِ بكونها من عند الله:

جاء تعليقُ ﴿تَحِيَّةٗ﴾ بأنَّها ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ للإشارة إلى شرفها ومكانتها؛ فهي تحيَّةٌ جديرةٌ لتمام حُسْنها أنْ تُضافَ إلى مَنْ له الكمالُ كلُّه[4]؛ ولأنَّه هو الذي شَرَعها، وأمَرَ بها سبحانه[5]، فهي ثابتةٌ بأمره مشروعةٌ منه[6]؛ ولأنَّ التَّحيَّةَ في حقيقتها طلبُ سلامةٍ وحياةٍ للمسَلَّم عليه والمحيّا من عند اللّه[7]، ولأنَّه غايتُها، أي: الذي تَنتهي إليه هذه التَّحيَّةُ؛ ليُثيبَ عليها، ويُجيبَها؛ لأنَّك تقول: السَّلامُ علينا،

تُضافُ التَّحيَّةُ إلى مَنْ له الكمالُ كلُّهُ، وهي ثابتةٌ بحكمِهِ وأمره

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 73.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 304.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 423.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 423.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 258.

أو السَّلامُ عليكم، فهي تُطلَبُ منه، فهو غايتُها[1]، ولأنَّ السَّلامَ اسمٌ مِن أسماءِ اللّه تَعالى؛ ولأنَّ الرَّدَّ عليه - إذا سَلَّم - دُعاءٌ له عند اللّه؛ ولأنَّ الملائكةَ تَرُدُّ عليه، فيَكونُ ثَوابًا مِن عند اللّه[2].

سرُّ وصف التَّحيَّة بالبركة:

تحيَّةُ المُؤمِن مضاعفةٌ في أجرِها، مستمرَّةٌ في عوارف بركتها

وُصِفَتِ التَّحيَّة بالبَرَكةِ في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ﴾؛ لأنَّها دَعوةُ مُؤمِنٍ لِمُؤمنٍ بالسَّلامة، فيبقى أثرُها ومنفعتُها[3]، وكلاهما يرجو بها مِن اللّهِ زيادة الخَيرِ[4]؛ إذ من معاني البركة في اللغة الثباتُ والنَّماءُ والزيادة، فهي كثرةُ الخيرِ وتزايدُه؛ ولكونها خُصَّتْ بثبوتِ الخير الإلهيِّ والفيض الرَّبانيِّ[5]، وللإشارة إلى ثباتِ خيرها، والمعنى: تحيَّةً "ثابتَةً أعظَمَ ثَباتٍ بِكَونِها موافِقَةً لِما شَرَعَ اللّه من خالِصِ قُلوبِكم"[6]، ولِما فيها مِن نيَّةِ المُسالَمَةِ، وحُسنِ اللِّقاءِ والمُخالطةِ، وذلك يوفِّرُ خَيرَ الأُخوَّةِ الإسلاميَّة[7]، ولأنَّها "مستتبعةٌ لزيادةِ البركات والخيرات ولزيادةِ المحبَّة والمودَّة"[8]، ومن بركتِها أنَّ المسلمَ يُثابُ عليها[9].

دلالةُ وصفِ التَّحيَّة بالطِّيب:

التَّحيَّةُ دعوةٌ بالسَّلامَةِ، تطيبُ بها النَّفس، ويتلذَّذُ بها السَّمع

وُصِفتِ التَّحيَّة في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ﴾ بالطِّيبِ، وهو طيبٌ مَجازيٌّ بمعنى النَّزاهةِ والقَبولِ في نفوسِ النَّاسِ؛ ولأنَّها دعاءُ المؤمنِ للمؤمنِ بالسَّلامَةِ، وإيذانٌ بالمُسالَمَةِ

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة النور، ص: 417.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 126.
(3) الجصاص، أحكام القرآن: 3/ 435.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 258، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 157.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برك)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 183.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.
(8) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 157.
(9) تفسير الجلالين، ص: 469.

والمُصافاةِ[1]، ودعاءٌ كذلك بطيبِ الرِّزق[2]، وبها يتلذَّذُ السَّمعُ، وتطيبُ نفسُ من يستمعُ إليها[3]، ولِما فيها من طيبِ العَيْشِ بِالتَّواصُل، وطيبِ الذِّكْرِ والشَّأْنِ[4].

نكتةُ تنكيرِ لفظَي ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ و﴿طَيِّبَةً﴾:

تحيَّةُ الإسلامِ عهدٌ بالأمان، يُفشى لكلِّ إنسان

نُكِّرَ لفظا ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ و﴿طَيِّبَةً﴾، في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾؛ لإفادةِ معنى التَّعظيم والتَّفخيم، والتَّكثير للخير الَّذي تحتويه تحيَّةُ الإسلام، وللطّيبِ والأمان والمسالمة والمصافاة الَّتي تقومُ عليه.

لطيفةٌ في تعداد الصِّفات:

في كثرةِ صفاتِ تحيَّةِ الإسلامِ وتنوُّعِها، تأكيدٌ على فضيلتها

أفادَ تعدُّدُ الصِّفات للتَّحيَّة في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، تأكيدَ فضيلةِ السَّلام؛ لِما فيه مِن جَلبِ المودَّةِ والمحبَّةِ والخيرِ، فقد وصفها بثلاثةِ أوصافٍ: أنَّها تحيَّةٌ كائنةٌ ثابتةٌ من عند اللّه، وأنَّها مُباركةٌ، وأنَّها طيِّبةٌ[5]، ومن أهْدى سَلامًا إِلَى إِنْسان، فهيَ هَديَّةٌ خَفيفَةُ المحمل، طيبَّةُ الرّيح، مباركةُ العاقِبَة[6].

براعةُ ترتيبِ صفات التَّحيَّة:

مراعاةُ السَّببيَّةِ المقتضية للتَّرقي مِنَ الأعلى إلى الأدنى

جاء ترتيبُ التحيَّةِ بكونها من عند اللّهِ، ثمَّ أتْبعها بكونِها مباركةً، ثمَّ أتْبعها بكونها طيِّبةً؛ مراعاةً للترقّي من الأعلى إلى الأدنى، ومراعاةً للسببيَّة؛ فإنَّ كون التَّحيَّةِ من عند اللّه سببًا لبركتها وطيبها، فالبركةُ خُصَّتْ بثبوتِ الخير الإلهيِّ والفيض الربانيِّ[7]، والطَّيِّب أنْ تكونَ موافقةً لشريعةِ اللّه؛ لأنَّ الأعمالَ الصالحة والطَّيِّبة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 258.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 319، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 319، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 127.
(5) ابن عثيمين، تفسير سورة النور، ص: 420.
(6) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 553.
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 183.

هي الموافقةُ للشرع؛ بأنْ تكونَ مخلصًا فيها للّه مُتَّبِعًا فيها رسول اللّه ﷺ؛ ولكون بركتِها بالإثابة عليها سببًا في طيبها[1].

سرُّ المبالغةِ في التّعبير بصيغة ﴿طَيِّبَةً﴾:

بيانُ أنَّ تَحيَّة الإسلام، خيرٌ من تَحيَّةِ أهلِ الجاهليَّة

وَزنُ ﴿طَيِّبَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ (فَيْعِلَة)، وفي استعمال هذا الوزن مُبالَغَةٌ في الوصف[2]، فالطَّيِّبُ هو: المَوْصوفُ بالطّيب الشّديدِ، وأصلُ مَعنَى الطَّيِّبِ المُلاءَمَةُ فيما يُرادُ مِنَ الشَّيْءِ[3]، والغرضُ من هذه المبالغة هو بيانُ أنَّ كلمةَ (السَّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته) خَيْرٌ مِنْ تَحيَّةِ أَهْلِ الجاهليَّة[4]، فالسَّلامُ اسمٌ من أسماء اللّه تعالى، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: السَّلامُ عليكم معناهُ اسْمُ اللّه عليكم[5].

دلالةُ فصل الجملة عمّا قبلَها:

بيانٌ إجماليٌّ، لما في الآيات من كمالِ حُسنٍ وإحسانٍ

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لما بينهما من كمالِ اتِّصالٍ؛ إذ إنَّه لمّا ذكر سبحانه ما يتعلَّق برفعِ الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض، وحكم الأكل من بيوتِ الأهل والأقارب والأصدقاء، وحكم السَّلام عند دخول هذه البيوت؛ وصَفَ هذا البيانَ بأنَّه عظيمُ الشَّأنِ؛ تنبيهًا على ما في هذه الآيات من الحُسن والإحسان، أي: مِثْلَ هذا البَيانِ العظيمِ الشَّأْنِ يُبَيِّنُ اللّه المُحيطُ بكلِّ شيءٍ لَكُمُ الآياتِ الَّتي لا أَكْمَلَ مِنها[6].

دلالة (الكاف) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

ذكرُ استيعاب الشّريعةِ في الحياة، لكلِّ الأحكام المقتضاة

(الكاف) من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كافُ تَشْبيهٍ، و(ذَلِكَ) إشارَةٌ إلى هذهِ الأحكام، أَيْ: كَما بَيَّنَ لَكُم أحكامَ دينِكُم في هذهِ الأَشْياءِ، يُبَيِّنُ لَكُم سائِرَ ما بِكُم من حاجَةٍ إليه في دينكم[7].

---

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة النور، ص: 417.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 137.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 423.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 319.

مرجعُ اسمِ الإشارة (ذَٰلِكَ):

بيانُ اللهِ للأحكام الَّتي بيَّنها سبحانه، بالغُ الغاية في الكمالِ

يرجعُ اسم الإشارة (ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ إلى البيانِ الذي بيَّنه سبحانه في الآية، من أحكام نفيِ الحرجِ، وإباحةِ الأكل من بيوتِ الأهل والأقارب والأصدقاء، ونفيِ الحرج في أكلهم مجتمعين أو متفرِّقين، واستحبابِ السَّلام عند دخول البيوت، والمعنى: مثل ذلك البيانِ الذي طرقَ أسماعكم يبيِّنُ اللّهُ لكم الآيات، فبيانُه بالغٌ غايةَ الكمالِ حتى لو أُريدَ تشبيهُهُ؛ لَما شُبِّه إلّا بنفسه.

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيد:

الإيماءُ إلى ضرورة تطبيق تلك الأحكام، وفهم حكمها

استُعمِلَ اسمُ الإشارة (ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ للبعيد؛ للإيذانِ بعلوِّ رتبةِ هذه الأحكام التي تضمَّنتها الآيةُ من نفي الحرجِ، والإباحةِ في الأكل، واستحبابِ السَّلام، وأنَّها أحكامٌ فخيمةٌ عظيمةُ الشَّأن[1]، وللتنبيه على أهميَّة هذه الأحكام، وأنَّها أحكام عظيمة ينبني عليها شأنٌ عظيم من شؤون الحياة الاجتماعيَّة؛ فلا ينبغي التَّهاون فيها، أو التراخي في تطبيق أحكامها وفهم حِكَمِها.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يُبَيِّنُ﴾:

تجدُّدُ البيانِ على مدار الزَّمان، دليلُ الإعجاز التَّشريعيِّ والغيبيِّ

دلَّ التَّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يُبَيِّنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ على التجدُّد والاستمرار، أي: إنَّ بيانَ اللّهِ لآياته وأحكامه، والانتفاعَ بهذا البيان مستمرٌّ متجدِّدٌ؛ كلَّما قُرِئَتْ هذه الآيات، ومصلحٌ لكلِّ زمانٍ ومكان، ومواكبٌ لجميعِ البيئاتِ وسائر الأحوالِ، ومناسبٌ لجميعِ الأجيال، فإنَّ نَفْعَ هذه التَّشريعات الأُسريَّة وما يتحقَّق فيها - من تخفيفٍ ونفي الحرج، وإباحةٍ للأكلِ من هذه البيوت، وإفشاءِ السلام والمودَّة والمحبَّة - عامٌّ لجميع المخاطَبين،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.

فبيانه مستمرٌّ على مدى الزمان، وفي هذا كلِّه إشارةٌ إلى إعجازِ القرآن الكريم التشريعيِّ والغيبي في آنٍ.

دلالةُ تعريفِ المسندِ إليه بلفظ الجلالة:

مَن له صفاتُ الكمالِ، يشرعُ لعبادِهِ أحكامًا فيها كمال خيرهم

عَرَّفَ القرآنُ المسندَ إليه في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾، بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ الدالِّ على الذاتِ الجامعةِ لصفاتِ الإلهيَّة كلِّها؛ إظهارًا لِما له سبحانه من صفاتِ الكمال والعظمة والجلال، فهو المحيطُ بكلِّ شيء، بما يشيرُ إلى كمالِ ما شرعه سبحانه وعلوِّهِ من أحكام من نفي الحرج، وإباحةِ الأكل من بيوتِ الأهل والأقارب وغير ذلك من الأحكام التي ذكرتها الآية، والتي تؤدّي إلى التَّخفيفِ واليُسر ومتانة العلاقات الاجتماعية من المودَّة والرحمة والمحبَّة.

دلالةُ تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾:

الاهتمامُ بالمخاطَبين حملٌ لهم على التزام الخطابِ المبين

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾، في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾: اهتمامًا بالمقدَّم، وهم المخاطَبون، وإيثارًا لهم بالخطاب، أي: لكم دون غيركم، وذلك للمُبالَغةِ في حَملِهم على العملِ بمضمونِ هذه الأحكام الواردة في الآية، وما تتضمَّنه من تخفيفٍ ويُسرٍ ورفعٍ للحرج عنهم، مع ما في التقديم من الامتنان، فإنَّ البيانَ فيه مصلحةٌ ونفعٌ للمبيَّن لهم.

نكتةُ جمع لفظِ ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾:

جمعُ ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ لإفادةِ العموم؛ لأنَّ الجمعَ المعرَّف بـ(أل) من صيغ العموم، وللدَّلالةِ على تعدُّدِ هذه الآيات وكثرتها وتفخيمها، فما نُسِبَ إلى الله من الآيات، عظيمُ القدرِ، جليلُ الأثرِ.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾:

(أل) التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

﴿ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾ جنسيَّةٌ، تفيد العموم؛ فيشمل المشبَّه كلَّ آياتِ اللّه سبحانه، أي: إنَّ اللّهَ يبيِّنُ لكم كلَّ الآيات مثل ما مرَّ من بيانِ الأحكام الواردة في الآية، فقد "جعل ذلك الشَّرع يُطابق العقلَ السَّوي، والنورَ الضَّويَّ، والمنهلَ الرَّوي، والسببَ القوي"[1]، أي: "يُفَصِّل لَكُم مَعالم دينكُم"[2]، وتكون اللّام أيضًا للكمالِ، أي: يبيِّنُ لكم الآياتِ الكاملةَ التي لا أكملَ منها[3].

الآيــاتُ اسـمٌ صـــادقٌ عـلى الـكـامـلات في المعاني والبيان

دلالةُ تَكرارِ الفاصلة في السّياقِ:

جاءتِ الفاصلة: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ في الآية قبل السّابقة، بإضافة الآياتِ إلى الضَّمير لا إلى لفظ الجلالة، والتي قبلها باللفظ ذاته، وذلك للإيذان بأنَّ كلَّ ما وقعَ قبل هذه الجملة بيانٌ لآياتِ القرآن اتَّضحتْ به الأحكامُ التي تضمَّنتها، وهو بيانٌ يُرْجى معه أنْ يحصلَ للمخاطَبين الفهمُ والعلمُ بما فيه كمالُ شأنِهم[4]، وللدَّلالة على مزيدِ تأكيدٍ للأحكام المختتَمةِ به، وتفخيم فخيم لها[5]، وفي تكرارها إشعارٌ بأهميتها، وإشعارٌ كذلك بطروٍّ الغفلة عند بعض النّاس عن تطبيقها.

بـيـانٌ مـؤكَّـدٌ لـيـحـصُـلَ لـلـمـخـاطَـبين، مـا فـيـه كـمـالُ شأنِهم

دلالةُ لفظِ (لعلَّ) في السّياق:

حرف (لعَلّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ معناه الرجاء، و(لعَلّ) تَرَجٍّ فيها معنى التَّعليل، وتومئُ إلى أنَّ تعقُّلهم وتفهُّمهم لمعاني الآيات مع ذلك أمرٌ يتطرَّقه احتمالُ التخلُّفِ، أي: لتكونوا على رجاء عند مَنْ يصحُّ منه الرجاء من ثباتِ هذا الوصفِ لكم، وهو ضبطُ النُّفوس وردُّها عن الأهواء، باتِّباع آياتِ الشَّرع التي أنزلها

تعليلٌ ورجـاءٌ بـحـصـولِ الفهمِ والعلمِ للمخاطَبينَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 320.
(2) تفسير الجلالين، ص: 469.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 319.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.

لكم، والذي كرَّرَ وصفه بأنَّه عليمٌ حكيم، فلا تتولّوا عن الإذعانِ للأحكام وأنتم معرضون[1].

علَّةُ فصلِ الجملةِ عمّا قبلَها:

الاستئنافُ يبيِّنُ علَّةَ بيانِ اللهِ المكرَّرِ المؤكِّدِ للآيات

فُصِل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ عمّا قبلَهُ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ ولم يأتِ بالعاطف؛ إمّا لِما بينهما من كمالِ اتِّصالٍ؛ إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ جاء تعليلًا لبيان اللهِ للآيات، وهو أنْ يُرْجَى من البيان أَنْ يَحْصُلَ للمخاطَبين الفَهْمُ والعِلم، وإمّا لِما بينهما من شبه كمال اتِّصال، أي: جاءتِ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا سألَ ما علَّة بيان اللّه للآيات؟ فجاء الجوابُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[2].

بلاغةُ الفاصلةِ في السّياقِ المحكم:

الأحكامُ في الآيةِ تقتضي التعقُّلَ، إلى ما فيه كمال الشَّأنِ الأمثل

ختمَ سبحانه الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ لمناسبتها لِما سبق؛ لأنَّ ما تضمَّنته الآيات من أحكام وشرائع واضحة بيِّنة، هو بيانٌ يقتضي منكم، ويحملكم على التعقُّل رجاءَ أنْ يحصلَ لكم الفهم والعلم بما فيه كمال شأنكم[3]، ولِما في هذا التَّذييل بعد التَّذييلين السّابقين من العلم والحكمة من الجزالة ما لا يخفى.

فائدةُ حذفِ مفعول ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

بيانُ اللهِ للآيات سببٌ لتعقُّلِ ما في تضاعيفها من الشَّرائعِ

حَذفَ النَّظمُ الحكيم مفعول ﴿تَعۡقِلُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ للإيذان بالعموم؛ إذ لو ذُكر المفعول لأوهمَ الاقتصارَ على مفعول واحد، والغرضُ أنْ يذهبَ الذهنُ كلَّ مذهبٍ يمكن أنْ يصلَ إليه، فيشمل: أنَّ هذا البيانَ للآيات سببٌ يُرجى معه تعقُّلُ المخاطَبين لكلِّ ما في تضاعيفها من الشَّرائعِ والأحكام، أي: كلُّ بيانٍ بيَّنه في الآيات التي سبقتْ قوله:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 321.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/ 296.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 305.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾، والعمل بموجبها للفوز بسعادة الدّارين[1]، ولقصدِ الإيجازِ مراعاةً للفاصلة كذلك؛ إذ ذِكْرُ الآياتِ قبلها يدلُّ على المحذوف، أي: لعلكم تعقلون كلَّ هذه الآيات التي يبيِّنها اللّهُ في كتابه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العمى والعَمَه:

العَمَهُ خاصٌّ في فقدِ البصيرة، والعمى عامٌّ في فقدِ البصرِ والبصيرة

العمى من (عَميَ)، ويدلُّ في أصلهِ على سَتْرٍ وتَغْطيَةٍ، ومنه العَمَى: وهو ذَهابُ البَصَرِ من العَيْنَيْن كِلْتَيهما، ولا يَقَعُ على عَيْنٍ واحدةٍ[2]، والعَمَى أَيْضًا: ذهابُ بَصَرِ القَلْبِ، تقولُ: رجُلٌ عَمي القَلْبِ، أَيْ: جاهِلٌ[3]، أي: يُقال في افتقادِ البصرِ والبَصيرة، وقَوْلُهُم: ما أَعْماهُ! إنَّما يُرادُ ما أَعْمَى قَلْبَهُ! ولا يُقالُ في عَمَى العُيونِ: ما أَعْماهُ! لِأَنَّ ما لا يَتَزَيَّدُ لا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ[4]، أي: يُذمُّ بعمى البصيرة دون عمى البصرِ، قال بعضهم: لم يعدَّ اللّهُ تعالى افتقادَ البصرِ في جنبِ افتقادِ البصيرة عمًى، حين قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: 46][5].

والعَمَهُ من (عَمِهَ)، ويدلُّ في أصله على حَيْرَةٍ وقِلَّةِ اهْتِداءٍ[6]، ويُقالُ: رَجُلٌ عَمِهٌ، أي: يَتَرَدَّدُ مُتَحَيِّرًا لا يَهْتَدي لِطَريقِهِ ومَذْهَبِهِ[7]، والعَمَهُ: التَّرَدُّدُ في الضَّلالَةِ والتَّحَيُّرِ، فالعَمَهُ في الرَّأْيِ، والعَمَى في البصَرِ[8]، فالفرقُ بين العمى والعَمَه: أنَّ العَمَهَ في عمى البصيرة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).
(3) الزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عمي).
(4) الرازي الحنفي، مختار الصحاح: (عمى).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 3/ 126 - 127.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمه).
(7) تاج العروس: (عمه).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (عمه).

خاصَّةً، والعَمَى عامٌّ في البصر والبصيرة، أي: العمى قد يكون ماديًّا، وقد يكون معنويًّا، بينما العَمَهُ يكون معنويًّا فقط.

التَّشَتُّت والتَّفرُّق:

التَّشتُّتُ أبلغُ من التَّفرُّق؛ إذ هو تشتيتُ الشَّيء المتفرِّق

يتقاربُ لفظا (التَّشتُّت) و(التَّفرُّق) إلى درجةِ الترادفِ؛ إذ يُعرَّف كلٌّ منهما بالآخر، فكلاهما ضدُّ التَّجمُّع، ولكن عند إمعانِ النظر في معانيهما اللُّغوية وفي الاستعمال القرآني نلحظ بعض الفروق، فأصلُ (شَتَّ) يَدُلُّ على تَفَرُّقٍ وتَزَيُّلٍ، مِنْ ذَلِكَ تَشْتِيتُ الشَّيْءِ المُتَفَرِّقِ، تَقولُ: شَتَّ شَعْبُهُم شَتاتًا وشَتًّا، أَيْ: تَفَرَّقَ جَمعُهُم[1]، وجاؤوا أَشْتاتًا، أَيْ: مُتَفَرِّقينَ، وتَشَتَّتَ؛ إذا انْتَشَر، وشَتّانَ ما بَيْنَهُما، أَي: بَعُدَ ما بَيْنَهُما، ويُقالُ: أَخافُ عليكُم الشَّتاتَ، أَي: الفُرْقَةَ[2].

وأصلُ (فَرَقَ) يدلُّ على تمييز وتزييل بين شيئين[3]، والتَّفرُّقُ: انفصالُ الشَّيء عن الشَّيء وتميُّزه منه، والتفريقُ ضدُّ التَّجمُّع[4]، والفَرْقُ: فصلُ بعض الشَّيء أو أشياء بعضها من بعضها الآخر فصلًا واصلًا إلى العمق، والتَّفريقُ: جعْلُ الشيءِ مفارقًا لغيره، كأنَّه جعلَ بينهما فرقًا حتى تباينا تباينًا ماديًّا كان أو معنويًّا[5]، إذًا: يتميَّز لفظ التشتُّتِ بمعنى التزييل والتَّباعد والانتشار وتشتيتِ الشَّيء المتفرِّق، فالتَّشتُّت أبلغُ في التفرُّق، أي: يكون كُلٌّ وحدَهُ، أي: منفردًا، بينما يدلُّ لفظ التفرُّق على انفصالِ الشيء وتميُّزه عن غيره حتى يتباينا، وذلك من خلال إحداث فرق، أي: فصلًا واصلًا إلى العمق.

الحَرج والجُناح:

الحرجُ ضيقٌ شديد، لا منفذَ فيه، والجُناحُ ميلٌ إلى الإثم والجناية والجرم

أصلُ (حرج) يدلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيْءِ وضيقه، والحَرَجُ: الإِثْمُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شتّ).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شتت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(4) الزبيدي، تاج العروس، ومحمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (فرق).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فرق).

والحَرَجُ: الضّيقُ[1]، وقيلَ: الحَرَجُ أَضْيَقُ الضّيقِ[2]، فالحرجُ ضيقٌ لا منفذَ فيه مأخوذٌ من الحرجةِ، وهي الشَّجر الملتفُّ حتى لا يمكن الدخول فيه ولا الخروج منه[3]، وأصلُ (جنح) يدلُّ على المَيْلِ والعُدْوانِ، يُقال: جَنَحَ إلى كذا، أي: مالَ إليه، والجُناحُ: الإِثْمُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِه عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ[4]، والجُناح: الجِنايَةُ والجُرْمُ، وقيل: هو التَّضييق، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 233]، أَي: لا إِثم عَلَيْكُم ولا تَضْييقَ[5].

إذًا يتميَّز لفظُ الحرجِ بمعنى الضيقِ الشديد الذي لا منفذَ فيه، بينما يتميَّز لفظُ الجُناح بمعنى الميل إلى الإثم والجناية والجرم، كما أنَّ نفيَ الحرج يكون فيما اتَّسعت دائرتُه، ونفيُ الجُناح فيما ورد بين أمرين[6].

العقل والعلم والفقه:

العقلُ هو قوَّةُ قَبولِ العلم، والعلمُ اعتقادٌ مطابقٌ للواقع، والفِقهُ أخصُّ من العلم

تتقاربُ هذه الألفاظُ في دلالاتها، فجميعها تدلُّ على المعرفة، وأنَّها نقيضُ الجهل، ويظهر ذلك من خلال الرجوع إلى معانيها اللُّغوية:

العَقْلُ: نَقيضُ الجَهْلِ، يقال: رجلٌ عَقولٌ؛ إذا كان حَسَنَ الفَهْمِ وافِرَ العَقْلِ[7]، والعَقْلُ: الحِجْر والنُّهى وضِدُّ الحُمق، والعَقْلُ: القَلْبُ، وسُمّي العَقْلُ عَقْلًا؛ لأَنَّه يَعْقِل صاحبَهُ عَنِ التَّوَرُّط في المَهالِك، أَي: يَحْبِسه[8]، والعَقْل: القوَّة المتهيِّئة لقبول العلم، ويُقال للَّذي يَسْتَنبِطُه الإنسانُ بتلك القوَّة: عَقْلٌ[9]، أَو هوَ العِلمُ بصفاتِ الأَشياءِ من حُسنِها وقُبحِها، وكمالِها ونُقصانِها[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرج).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حرج).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 181.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنح).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جنح).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 411.
(7) العين، الخليل، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقل).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (عقل).
(9) الراغب، المفردات، ص: 577.
(10) الزبيدي، تاج العروس: (عقل).

والعِلْمُ: نقيضُ الجهلِ، والعِلْمُ: اليقين، يُقال: عَلِمَ يعلم؛ إذا تيقَّن، وجاء بمعنى المعرفة أيضًا[1]، عَلِمَهُ: عَرفَهُ حقَّ المعرفة، والعِلْمُ: الاعتقادُ الجازم الثابت المطابق للواقع[2]، والعِلْمُ: إدراكُ الشَّيء بحقيقتهِ، وذلك ضربان: أحدهما: إدراكُ ذاتِ الشَّيء، والثاني: الحكمُ على الشَّيء بوجودِ شيءٍ هو موجود له، أو نفي شيء هو منفيٌّ عنه[3].

وأصلُ (فقه) يدلُّ على إدراكِ الشيء والعلم به، ثمَّ اختصَّ بذلك علمُ الشريعةِ، فقيلَ لكلِّ عالمٍ بالحلالِ والحرام: فقيهٌ[4]، والفقهُ: العلمُ بالشيءِ والفهمُ له والفطنةُ، ورجلٌ فقيهٌ: عالِم، وكلُّ عالمٍ بشيءٍ؛ فهو فقيهٌ[5]، وفسَّرهُ الراغبُ: بالتَّوصُّلِ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلم[6]، فالفقهُ بالشَّيء: معرفةُ الوصولِ إلى أعماقهِ وفهمه فهمًا عميقًا مستوعبًا، كأنَّما غاصَ في داخله، فأدركَ دقائقَهُ وخفاياه[7].

إذًا يتميَّزُ العقلُ بأنَّه الذي يزجرُ صاحبه، ويمنَعُهُ عن الوقوع في القَبيح، والعقلُ: الحفظُ؛ ويتميَّز العلم: بأنَّه إدراكُ الشَّيء بحقيقتهِ، فهو اعتقادٌ جازم مطابق للواقع[8]، ويتميَّز الفقهُ بأنَّه أخصُّ من العلم، إذ فيه معنى الفطنة إضافة إلى العلم، وقد استعمل القرآنُ الفقه في مواضعَ كثيرةٍ بمعنى دقَّة الفهم والتعمُّق في العلمِ؛ ليترتَّب عليه أثرهُ، وهو الانتفاعُ به.

(1) الفيومي، المصباح المنير: (علم).

(2) الزبيدي، تاج العروس: (علم).

(3) الراغب، المفردات، ص: 580.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فقه).

(5) الزبيدي، تاج العروس، وابن منظور، لسان العرب: (فقه).

(6) الراغب، المفردات، ص: 642.

(7) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فقه).

(8) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 125.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِن كمالِ الإيمان والأدبِ الاستئذانُ عند الخروج كالاستئذانِ عندَ الدُّخول

بعد أنْ أمرَ الله تعالى المؤمنينَ بالاستئذان عند الدُّخول في الآيات السّابقة، وفصَّل في ذلك أيَّما تفصيل؛ أمرَهم هنا بالاستئذان عندَ الخروج أيضًا، ليكتملَ بذلك الأدبُ دُخولًا وخروجًا، "فاعتُني من ذلك بالواجب منه، وهو استئذانُ الرَّسول ﷺ في مفارقةِ مجلسِه، أوْ مفارقةِ جَمعٍ جُمِعَ عن إذنِه لأمرٍ مهمٍّ كالشّورى والقتال والاجتماع للوعظ ونحو ذلك، وكان من أعمال المنافقينَ أنْ يحضُروا هذه المجامعَ، ثمَّ يتسلَّلوا منها"[1]، دونَ استئذان، فبيَّن سبحانه في هذه الآية أنَّ أخلاق المؤمنين كاملي الإيمان، تأبى هذا السُّلوك النفاقيَّ، وتتمسَّكُ بالأدب الإيمانيِّ، فتفرض عليهم أنْ يستأذنوا عند الخروجِ، كما يستأذنونَ عندَ الدُّخول؛ طاعةً لله وتمسُّكًا بكمال الأدب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَامِعٍ﴾: (جمع) أصلٌ يَدُلُّ على تَضامِّ الشَّيْءِ، أي: بتقريبِ بعضِه من بعض، يُقالُ: جَمَعْتُ الشَّيْءَ جَمعًا، والجُمّاع يقالُ في أقوام متفاوتةٍ اجتمعوا، وأَجْمَعْتُ كذا: أكثرُ ما يقالُ فيما يكون جمعًا يتوصَّلُ إليه بالفكرة، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 306.

71]، ويقال: أَجْمَعَ المسلمون على كذا، أي: اجتمعَتْ آراؤُهم عليه(1)، والجَمعُ أَيْضًا الجَماعَةُ؛ تَسْمِيَةً بِالمَصْدَرِ، ويُجْمَعُ الجمعُ على جُموعٍ، مِثْلُ: فلْسٍ وفُلوسٍ، والجَماعَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُطْلَقُ على القَليلِ والكَثيرِ، ويُقالُ لِمُزْدَلِفَة: جَمعٌ؛ إمّا لِأَنَّ النّاسَ يَجْتَمِعونَ بِها، وإمّا لِأَنَّ آدَمَ اجْتَمَعَ هُناكَ بِحَوّاءَ، ويَوْمُ الجُمُعَةِ سُمّيَ بِذَلِكَ؛ لِاجْتِماعِ النّاسِ بِهِ، وضَمُّ الميم - ميم الجمُعة - لُغَةُ الحِجازِ، وفَتْحُها لُغَةُ بَني تَميم، وإِسْكانُها لُغَةُ عُقَيْلٍ(2)، والمراد بقوله: ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: أمرٍ مهمٍّ يجبُ اجتماعُهم في شأنه، كالجمعة والأعياد والحروب وغيرها من الأمور الدّاعية إلى اجتماعِ أولي الآراء والتجارب(3).

2) ﴿يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾: (أذن) أَصْلانِ مُتَقارِبانِ في المَعْنَى، مُتَباعِدانِ في اللَّفْظِ، أَحَدُهُما: أُذُنُ كُلِّ ذي أُذُنٍ، والآخَرُ العِلْمُ، وعَنْهُما يَتَفرَّعُ البابُ كُلُّهُ، فأَمّا التَّقارُبُ؛ فبِالأُذُنِ يَقَعُ عِلْمُ كُلِّ مَسْموعٍ، ويُقالُ لِلرَّجُلِ السّامِعِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ: أُذُنٌ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ [التوبة: 61] ... والأَصْلُ الآخَرُ العِلْمُ والإِعْلامُ، تَقولُ العَرَبُ: قَدْ أَذِنْتُ بِهَذا الأَمرِ، أَيْ: عَلِمتُ، وآذَنَني فُلانٌ أَعْلَمَني، والمَصْدَرُ الأَذْنُ والإيذانُ(4)، وأَذِنْتُ لِلشَّيْءِ أَذَنًا مِنْ بابِ تَعِبَ: اسْتَمَعْتُ، وأَذِنْت بِالشَّيْءِ: عَلِمتُ بِهِ(5)، والاستئذانُ: طلبُ الإذن(6)، ومعنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ﴾، أي: يَطلبوا منه ﷺ أنْ يأذنَ، ويُرخِّصَ لهم في الانصراف.

3) ﴿شَأْنِهِمْ﴾ (شأن) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ العَرَبِ: شَأَنْتُ شَأْنَهُ، أَيْ: قَصَدْتُ قَصْدَهُ، ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُم: ما هَذا مِنْ شَأْني، أَيْ: ما هَذا مِنْ مَطْلَبي والَّذي أَبْتَغيهِ(7)، والشَّأْنُ: الحالُ، والأمرُ الذي يتَّفقُ، ويصلُحُ، ولا يقالُ إلّا فيما يعظُم من الأحوال والأمور، قال الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: 29]، أي: كلَّ وقت يُحدِثُ أشخاصًا، ويُجدِّد أحوالًا على ما سبق قَضاؤُهُ، فالمُرادُ شؤونٌ يُبديها، لا شؤونٌ يَبتديها،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (جمع).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (جمع).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(5) الفيومي، المصباح المنير: (أذن).
(6) الراغب، المفردات: (أذن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شأن).

وشَأْنُ الرَّأس: هو الوصلةُ بين متقابلاتِه التي بها قوامُ الإنسان، وجمعُه شؤون[1]، والمراد بقوله: ﴿لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾ بعضِ أحوالهم الخاصَّة بهم، التي يجدون حرجًا عليهم في أنْ يذهبوا مع الغزاة، أوْ يَستمرّوا مع المجتمعينَ لأمرٍ مّا[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

للإيمانِ مصاديقُ مـن أهـمِّـهـا كمالُ الأدبِ مع الرَّسول ﷺ

إنَّ المؤمنين حقًّا الصّادقينَ قولًا وفعلًا، هم - وحدهم دون سواهم - الَّذين آمنوا باللّه ورسوله، ولم يتركوا الرَّسولَ وحدَه في أمرٍ مهمٍّ يتطلَّبُ اجتماعَهم كالتشاور في الأمور العِظام كالجهاد، أو لأداء فريضةٍ جامعةٍ كصلاةِ الجمعة، أوْ لأيِّ غرضٍ آخر اقتضى اجتماعَهم معه، فهم لا يُفارقونه إلّا بعد أنْ يَستأذنوه في الانصراف، ويسمحَ لهم به، إنَّ الَّذين يُقدِّرونك حقَّ قدرك - أيُّها النبيُّ الكريم صلوات اللّه عليك وسلامه - ويدركونَ خطرَ الاجتماع، فلا ينصرفونَ عنك إلّا بعدَ موافقتك، هم الصُّادقون في إيمانهم باللّه ورسوله، فإذا استأذنَك هؤلاءِ لقضاء بعضِ مصالحهم؛ فائذَنْ بالانصراف لمن تشاء منهم، تقديرًا لظرفِه وحاجته، ومع ذلك اطلبِ المغفرةَ لهم من اللّه على انصرافهم الذي ما كان يليقُ أبدًا، إنَّ اللّه واسعُ المغفرة والرَّحمة[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عن السّابقة:

الاستئنافُ تأكيدٌ لأهميَّةِ الاستئذان وتقريرٌ له

فُصِلت الآيةُ عمّا سبقَها على الاستئناف المقرِّر لما سبقَ من الأحكام، والمؤكِّدِ لوجوب الالتزام بها، والمبيِّن في الوقت ذاته لأحكام أُخرى داخلةٍ في جنسِها[4]؛ إذ ربطَ الإيمان باللّه ورسوله الإيمانَ

(1) الراغب، المفردات: (شأن)، والكفوي، الكليات، ص: 542.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5235.

(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 530، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5234.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 197.

الحقَّ بقضيَّة الاستئذان، الدالَّةِ على عمق الإيمان وتغلغلهِ في النُّفوس الصادقة، فبين الجملة وما قبلها كمالُ الاتصال الموجبُ للفصلِ.

نوعُ القصر وبلاغتُه:

تمييزُ المؤمنين من غيرهم ممَّن تظاهروا بالإسلام إعلاءٌ لشأنهم وذِكرٌ لوصفٍ اختصّوا به

القصرُ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ هو قصرُ موصوفٍ على صفة، أي: "إنَّ الَّذين عُرفوا بوصف الإيمان، هم الَّذين آمنوا باللّٰه ورسوله، ولم يَنصرفوا حتى يستأذنوه، فالخبرُ هو مجموعُ الأمور الثلاثة، وهو قصرٌ إضافيٌّ قصرُ إفراد، أي: (لا غير أصحاب هذه الصِّفة من الَّذين أظهروا الإيمان، ولا يستأذنونَ الرَّسول عند إرادة الانصراف)، فجُعِلَ هذا الوصفُ علامةً مميِّزةً للمؤمنين الأحقّاء عن المنافقين يومئذٍ؛ إذ لم يكن في المؤمنين الأحقّاء يومئذٍ مَن ينصرفُ عن مَجلِس النَّبيِّ ﷺ بدون إذنه، فالمقصود: إظهارُ علامة المؤمنين وتمييزُهم عن علامة المنافقين"(1).

نكتةُ القصر بأسلوب ﴿إِنَّمَا﴾:

في الجمع بين الإثبات والنفي تحقيقٌ للرجاء وتأكيدٌ لليأس معًا

أوثر القصر بأداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾؛ لإفادة إثباتِ هذه الأوصاف للمؤمنينَ، ونفيِها عن غيرهم في الوقت نفسه مرَّةً واحدةً، فيتحقَّقُ الرجاءُ للمؤمنين، واليأسُ لغيرهم في الوقت نفسِه، كما نلحظُ في هذه الأداة تأكيدَ القصر وتقريرَه في الأذهان؛ دفعًا لريبِ المرتابينَ وإزالةً لوهمِ الشاكّين.

نوعُ التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

التعريفُ للجنسِ دالٌّ على استمرارِ الوصف وأبديَّتِهِ

التعريف في لفظ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ للجنسِ وهو الأَوْلى؛ لأنَّ الآية في بيان حقيقةِ الذين قام بهم وصفُ الإيمان الحقيقيِّ، وقد يُحمَلُ على العهد، والمعهودونَ هم الصَّحابة رضي الله عنهم؛ إذا نُظِر إلى سبب نزولها وظرفه، ونُظر إلى أحد مقاصد النصِّ الشريف، وهو تمييزُ المؤمنين الصّادقين، عن المتظاهرينَ به، وهم المنافقون زمن النزول، ومع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 306.

ذلك فالحملُ على الجنس أوْلى، على أنْ يدخل في الخطاب دخولًا أوليًّا الصَّحابةُ المعهودون، ولأنَّ حمل التعريف على إرادة الجنس يدلُّ على امتداد معنى الآية الكريمة وعطائها على طول الزَّمان وعُمقه؛ إذ العبرةُ بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، فتكونُ إرادةُ معنى الجنس مفيدةً للشمول والعموم، لكلِّ مَنِ اتَّصف بالإيمانِ الحقِّ باللّه ورسوله معَ أدب الاستئذان في عظائمِ الأمور، فيشملُ اجتماعَ المسلمين المقتدينَ بالرسول ﷺ على الأمورِ المهمَّةِ العظيمة التي تقتضي اجتماعَهم، وأنَّه لا يجوزُ الخروج منها دونَ استئذانٍ ممَّن له حقُّ الإذن، طالما اقتضى المقامُ ذلك، وبهذا لا تكون الآية مقصورةً على عهد النَّبي ﷺ، بل تكون ممتدَّةً ما وُجِدَ اجتماعٌ مهمٌّ على الحقِّ والعدل، ومجتمعونَ على هذا الاجتماع النافع القيِّم[1]، ولا يخفى أنَّ استعمال صيغةِ اسم الفاعل مع (أل) الجنسية يدلُّ على ثبوت هذا الوصف وأبديَّته واستمراره وعدمِ انقطاعه، فالمؤمنُ الحقُّ هو الذي يتَّصفُ بهذه الأوصاف دون من سواه.

نكتةُ استعمال الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الـثَّـنـاءُ على المـؤمـنـين والـنـصُّ بما تضمَّنتْهُ الصِّلة مـن أسـباب تـخـصيصـهـم بالثناء ومناطِه

نكتةُ استعمالِ الاسم الموصول وصلتِه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: تحقيقُ التَّشريف للمؤمنين الأحقّاء والثَّناءِ عليهم، والبيان لسبب اختصاصِهم بهذا الثَّناء دونَ غيرهم، وهو كلُّ ما تضمَّنته الصِّلة من أوصاف، وهو مجموع الأمور الثلاثة ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾، فبهذه الأوصاف المجتمعة استحقّوا هذه المكانةَ السّامقة، وهذا التَّشريفَ المنيف، وفي التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلتِه تعريضٌ بمَن سواهم ممَّن تظاهروا بالإسلام، ولم يُخلصوا في تطبيق مقتضياتِه، وفي الإخبار

(1) أفاض أبو حيان في تفسيره - البحر المحيط: 8/ 74 - في المسألة، حتى عدَّ منها الاستئذان من الإمام لمن أصابه الرُّعاف في الجمعة ونحوها كالعيدين.

عن المؤمنينَ بالموصول وصلته الفعليَّة بيانٌ لتحقُّق تلك الأوصاف في مفهوم الإيمان الكامل الجامعِ بين التَّصديق والعمل، فالمؤمنونَ الكاملونَ في إيمانهم هم الَّذين صدَّقوا، وعمِلوا بموجِب تصديقهم، وتأدَّبوا بآدابِ ذلك الإيمان ومُقتضياتِه.

بلاغةُ إيثار لفظ الجلالةِ:

تحديدُ المعبود الحقِّ كاشفٌ عن الإيمانِ الحقِّ

أوثر التعبير باسم الجلالة في قوله: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المقصود إيمانٌ يتبعُهُ كلُّ ما هو من مقتضيات الألوهيَّة الحقَّة، من إخلاص العبادة والالتزام بالتَّكاليف، وليس الإيمان القائمَ على الاعتراف بالوجود أو الخالقيَّة فقط؛ لأنَّ ذلك إيمانٌ قد يتحقَّقُ عند المشركين أيضًا، مع أنَّهم ليسوا مؤمنينَ في الحقيقة؛ إذ جحَدوا الإلهَ الحقَّ، ولم يعبدوه عبادةً مختصَّةً به، فيكونُ ذكرُ الاسمِ العلَم تحديدًا للمعبود الحقِّ الكاشفِ عن الإيمان الحقِّ.

نكتةُ عطفِ الرَّسول على لفظ الجلالة:

الجمعُ بين الإيمانينِ تحديدٌ للإيمان الحقِّ

لمّا كان ذِكرُ الاسم العلَم ردًّا لمشركي العرب الذين يعبدونَ آلهةً لا تضرُّ، ولا تنفع؛ عطفَ الإيمانَ بالرسول محمَّد ﷺ على الإيمان باللّه تعالى؛ ردًّا على مشركي أهل الكتاب، الذين آمنوا باللّه تعالى لكنَّهم رفضوا الإيمانَ برسوله الكريم، فكانَ في العطف جمعٌ بين الإيمانين لتحقيق الإيمان المطلوب، وإشارةٌ إلى أنَّ الإيمان بأحدهما لا يُغني من الحقِّ شيئًا.

نكتةُ تعريف الرَّسول بالإضافة:

الإضافةُ للتشريف ولإظهار قوَّة الارتباط

نكتةُ تعريف الرَّسول بالإضافة في قوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ لما في الإضافة من دلالةٍ على قوَّة الارتباط ولزوم الاتِّباع للرَّسول ﷺ؛ لأنَّ طاعته طاعةٌ لَمَن أرسله، وأضافه إليه لما لا يخفى على أيِّ ناظرٍ ما في هذه الإضافة من التَّشريف له ﷺ، وإنَّما لم يذكر اسمَ النَّبيِّ الكريم باسمه العلَم، كما في لفظ الجلالة، واكتفى بوصف الرِّسالة؛ لأنَّه

لا يخطر في البال غيرُه ﷺ، ولأنَّ سرَّ الإيمان بالنبي الكريم إنَّما يكمنُ في التَّصديق برسالته، والعملِ بموجب الرِّسالة التي أُنزِلت عليه، وذكرهُ بوصفِ الرسوليَّة دون غيرها من الصِّفات لبيانِ شرفه ومنزلتِهِ في تحقيق الإيمان الحقِّ.

تخصيصُ ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ﴾ بالعطفِ على الإيمان:

إنَّ مقتضى الإيمان باللّه ورسولهِ الطّاعةُ المطلقة للّه سبحانه ولرسوله ﷺ، وذلك بالعمل بجميع ما ذُكِرَ من التَّكاليف قبلَ هذه الجملة، وما ذُكِرَ بعدها، وما لم يُذْكر في هذا السّياق، وقد جرتْ عادةُ القرآن الكريم عند ذكرِ الإيمان أنْ يعطف العملَ الصّالح عليه؛ ليتحقَّق الإيمانُ الكاملُ الشامل للتصديق القلبيِّ والعمل بالجوارح، فلِمَ خَصَّ هذه الحالة بالذكر من بين سائرِ الأعمال الصّالحة؟ والجواب: أنَّ هذا النصَّ كالردِّ على ما كان يفعلُهُ المنافقون من التسلُّل من مجلسه ﷺ؛ سآمةً أوِ اعتراضًا أوَ لأيِّ خسيسةٍ أخرى من خسائسِهم، فذُكِرَ هذا العملُ دون غيره؛ ليميزَ اللّه به الخبيثَ من الطيب، ولينبِّه المؤمنينَ الصّادقين، ما الذي ينبغي عليهم فعلُهُ، إذا عرضَ لهم ما يستوجبُ خروجهم، ليكون لهم سلوكُهم النّابعُ من كونهم مؤمنين، حتّى لا يقعوا - دون أن يقصدوا - في تقليد سلوكِ المنافقين، ويضافُ إلى ذلك من فوائدِ التَّنصيص على تلك الخصلةِ التعريضُ والذمُّ الشديدُ للمنافقين ولأفعالهم، حيثُ لم ينصَّ عليهم صراحةً، وإنما عرَّض بهم "بأنْ أعرضَ عن وصف نفاقِ المنافقين، واعتنى باتِّصاف المؤمنين الأحقّاء بضدِّ صفة المنافقين"[1]؛ مهانةً لهم، وتحقيرًا لفعلهم، واعتناءً بما هو الأهمُّ.

التَّخصيصُ لفتٌ إلى وجوب استئذان المؤمنين عند للخروج، وتنبيهٌ على فعل المنافقين

نكتةُ استعمالِ (إذا) دون (إنْ):

أوثر التَّعبيرُ بـ (إذا) دون (إن)؛ للإشعار أوَّلًا بأنَّ شأن المؤمنين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 306.

الصّادقين ألّا يتخلَّفوا عن الأمور الجامعة، وأيضًا أنَّه لا يتصوَّر منهم الانصرافُ قبل إتمامِها إلّا إذا وُجِدَ سببٌ محقَّقٌ يستدعيه، وحينئذٍ يجبُ عليهم الاستئذانُ، فإن أُذن لهم؛ انصرفوا، وإلّا فلا، كما تفيد (إذا) تحقُّقَ وقوع ذلك الفعلِ؛ لكثرة اجتماعِ الرَّسول ﷺ بصحبِهِ الكرام عند الأمور العظيمةِ، وعليهم حينها أنْ يَجلسوا لسماعِهِ والتقيُّدِ بأوامرِهِ، فإنْ فكَّروا بالذَّهاب لإصلاح شؤونهم؛ التمسوا الإذن بالانصراف، وتلك خصلةُ المؤمنين الإيمانَ الحقَّ الكامل؛ لأنَّ الإعراض عن مجلسِه وسماعِهِ يُخشى أن يكونَ عن نفاقٍ أوْ مرضٍ قلبيٍّ يمسُّ أصلَ الإيمان وجوهرَه.

المؤمن الحقُّ لا يتخلَّفُ عن المهمّات، ولا ينصرف عنها قبل انقضائها إلّا لعظيم الملمّات

دلالة استعمال ﴿كَانُواْ﴾:

إيرادُ (كان) هنا في السّياق للتأكيد، ولبيان أنَّ سجيَّة المؤمن تقتضي الحرصَ على حُضور المهمّات، وعدمِ الانصراف عنها قبل أنْ تنتهيَ إلّا للجلل من الأمور، ولذا لم يقل: (وإذا اجتمعوا معه على أمرٍ لم يذهبوا)، كما تفيد (كان) استمرارَ تلك اللقاءات على الأمور المهمَّة كسماعِ العِلْم والتَّوجيه النبويِّ والتشريع الربانيِّ؛ لأنَّ (كان) تفيدُ عموم الأزمنة لدلالتها على الاستمراريَّة والصَّيرورة.

احرص على ما ينفعك

غرضُ ذِكرِ المعية ﴿مَعَهُۥ﴾ دون (عنده):

نصَّ على المعيَّة دونَ العنديَّة؛ للدلالة على المشاركة، بالوعي والرأي والمشورة لو طُلِبَ منه، والتأكيد على الالتزام بما يأمرُ به الرسول ﷺ، أو ينهى عنه، والإنصاتِ إليه عند حديثه، وليسَ مجرَّدَ الحضور المكانيِّ الذي كان يكفي فيه التَّعبير بـ (عند)، فهذا ما يقتضيه التَّعبيرُ بـ (مع)، كما أفاد التَّعبير بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ المشاركةَ الكاملةَ المتمكِّنة، وذلك: "لإفادةِ (مع) معنى المشاركة، وإفادة ﴿عَلَىٰٓ﴾ معنى التمكُّن منه"[1].

في حضور المجامع المهمَّة يطلبُ الحضور بالوعي والرأي، وليس بالجسد فقط

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 307.

وذلك أنَّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ موضوعٌ للاستعلاء على المكان الحقيقيِّ، و(الأمر الجامعُ) ليس مكانًا يُعتلى، لكنَّه بدلالةِ الاستعارة المكنية يفيد أنَّ تلك الكينونة والمعيَّة كانتْ عميقةً وواعيةً حتّى كأنَّهم جالسونَ على ذلك الأمر الجامع، كما تدلُّ المعيَّةُ على ما ينبغي أنْ يكون عليه حالُ الصَّحابيِّ من التبعيَّة والانقياد، فهم ليسوا مستقلّين عنه، بل معَه في كلِّ شؤونِهِ وقضاياه.

التَّناغُمُ بين المعنى والتنكير مفيدٌ للتَّعظيم

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿أَمۡرٖ﴾ وتنكيرها:

لفظ (الأمر) من الألفاظ العامَّة الجامعة، فهو يُطلَقُ من حيثُ المعنى على عامَّة الأفعال والأقوال كلِّها[1]، والمرادُ به هنا - من حيثُ السّياقُ - الشَّأنُ المهمُّ من الشؤون العامَّة المهمَّة، ولذا وُصِف الأمرُ بكونه جامعًا؛ ليدلَّ على عظمتِه ومكانتِه في سائر شؤون الحياة وتصاريفها، فقال: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾، وأفاد تنكيرُ الأمر هنا معنى التَّفخيم والتعظيم، وأنَّه أمرٌ مميزٌ ينبغي الاهتمامُ به والاستئذانُ عند إرادة الخروج من مقامِه، والأصلُ ألّا يجمعَهم رسول الله ﷺ إلّا لأمرٍ جللٍ مما يتعلَّقُ بدنياهُم وآخرتِهم.

شأنُ الاجتماعات الجامعة أنْ تكون للشأن العامِّ المهمِّ

بلاغةُ وصف الأمر بـ﴿جَامِعٖ﴾:

وُصِفَ الأمرُ بكونه جامعًا إشعارًا بمدى أهميَّته لارتباطِه بالشَّأن العامِّ دنيا وأخرى، فهو ﷺ لن يجمعَهم على أمرٍ يخصُّ شخصَه أوْ بيتَه، فلا بدَّ من أن يكون هذا الأمرُ شأنًا يهمُّ جميعهم "كشورى في مصلحة المؤمنين، أوْ دفعِ ضررٍ يعمُّهم إن وقع، أوْ مُداهمةِ عدوٍّ يغيرُ عليهم، أوِ الخروجِ لغزواتٍ اضطرَّتِ الأحوال الخروجَ إليها، كغزوة تبوك أو نحو ذلك، يجتمعونَ حوله لمبادلة النَّظر"[2]، حتّى ينتهوا معه ﷺ إلى رأيٍ، أوْ يَنتبهوا إلى رأيِهِ، فيعوه، ويَنصاعوا له، ولذا

(1) الراغب، المفردات: (أمر).

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5234.

فقد أفادَ تقييدُ الأمر بالوصفِ خطورةً في ذلك الأمرِ وتفخيمًا له، واعتناءً بشأنه، فتناغم الوصفُ مع معنى الموصوف وتنكيرِه.

المجازُ في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾:

دلالـةُ المجاز العـقـليّ على المبـالـغـة والتعظيم

ممّا يُعضِّد دلالةَ الأمر السابقة وتنكيرها وتوصيفَها إيرادُ المجاز هنا، وهو مجاز عقليٌّ إسناديٌّ؛ إذ وُصِفَ الأمرُ بـ﴿جَامِعٖ﴾، فأُسنِدَ الوصفُ إلى ضميرِه مع أنَّ الجامع هنا في الحقيقةِ هو الرَّسولُ ﷺ، لأنَّ الأمرَ العظيمَ سببُ الجمع، فالعلاقة سببيَّةٌ من إسنادِ ما للفاعل إلى سببِه الدّاعي له، والسرُّ في هذا هو المبالغةُ وتفخيمُ ذلك الأمر الذي ينبغي الاجتماعُ له، ويتوجَّب الاستئذانُ عنده، وهي التي أدَّت إلى جعل السَّببِ للجمع جامعًا[1].

بلاغةُ التَّعريض في ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾:

نـفـيُ الـذهـابِ بـلا اسـتـئـذانٍ تـعـريـضٌ بمَـن يـفـعـلـونَـهُ متسلِّلينَ من مـجـلـسـه ﷺ لواذًا

ومن البلاغةِ الدَّقيقة هنا قولُه: ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾؛ لإفادتِه التعريضَ بشأنِ مَن يَتسلَّلون من مجلسِه - لِواذًا دون استئذانٍ منه، وقبلَ أنْ يُعذِرَهم بالخروج - والتحقيرَ لشأنِهم والتَّسفيهَ لسلوكِهم، وللإيغالِ في التعريض بهم كانت المبالغةُ في مدح المؤمنينَ الصّادقين الذينَ لا ينصرفون إلّا إذا أُذِنَ لهم، ولا يستأذنونَ بالانصراف إلّا لجليلِ الأسباب وعظيم الأعذار، حيث لم يقل: (استأذنوه؛ ليذهبوا)، وإنَّما قال: ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾، وذلك أنَّ البدءَ بالنَّفي فيه دلالةٌ على امتناع ذهابهم لأيِّ اتجاهٍ أو مكان، حتى يقع منهم استئذانٌ، وإنَّما نفى الذهابَ لما في معنى المعيَّة المتحقِّقة في قوله: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ﴾ من دلالةٍ على المصاحبةِ المكانيَّةِ، فيكونُ نفيُ الذَّهاب دليلًا على حرصهم على البقاء معَهُ، وإنْ عرضَ لهم ما يوجبُ الذَّهاب؛ استأذنوا لذلك راغمينَ.

---

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 401، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 307.

نكتةُ استعمال مفردةِ ﴿يَذۡهَبُواْ﴾:

(الذهابُ المنفيُّ دالٌّ على نفاسة الاجتماع وقيمته والرَّغبة بالبقاء فيه)

في استعمال مفردة ﴿يَذۡهَبُواْ﴾ دون أيَّةِ مفردة أُخرى قريبةِ المدلول - كـ (يخرجوا ويمضوا ويسيروا) - دلالةٌ على امتناعهم عن مباشرة أمرِ الذَّهاب والانطلاقِ من مكان الاجتماعِ دونَ أمر الرَّسول ﷺ مهما كانَتْ مُغرياتُه ودوافعُه؛ لأنَّ مفردة (ذَهَب)، وإنْ كان معناها هنا المضيَّ والخروجَ من المكان الذي اجتمعوا فيه؛ لكنَّها في أصل المادَّة تفيدُ معنى النَّضارة[1]، ولذا اشتُقَّ منها (الذّهَبُ)، فلعلَّ اختيارها دون سواها يُبرز هذا المعنى الخاصَّ للمفردة، فهم يُفضِّلون البقاءَ معه، وإنْ وُجدتِ الموانعُ من البقاء حبًّا له ولسماعِ كلامِه ومواعظِه مفضِّلينَ لها على ما يهمُّهم من تحصيل حاجياتهم النَّفيسة، وكانَ في إسناد الفعلِ إلى ضمير الجمع دلالةٌ على الرَّغبة الجماعيَّة بالبقاء، والحرصِ الصّادر من الأفرادِ كلِّهم بالمكوث.

فائدةُ استعمال ﴿حَتَّىٰ﴾:

(الاستئذانُ من الرَّسول ﷺ بالذَّهاب من أمارات صحَّة الإيمان)

كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ تدلُّ على انتهاء الغاية مع اتِّصال ما بعدَها بما قبلَها، والمعنى: أنَّ عدمَ ذهابهم مغيًّا بإذنه ﷺ، فإنْ أَذِنَ؛ فقد انتهى الامتناع عنه، وجازَ لهم الذَّهابُ حينئذٍ، فتكون الغايةُ هي حصولَ الإذنِ والقَبولِ دونَ مجرَّد الاستئذان نفسِه، فلا بدَّ أنْ يتحقَّقَ الإذنُ أوَّلًا ليتسنَّى لهم الذهابُ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ رغبتهم تتمظهرُ في البقاء والمكوث لولا الظَّرف الطارئ الذي دفعَهم للاستئذانِ والذَّهاب، وفي هذا التركيبِ معنًى آخرُ هو أنَّ صحَّة إيمانهم مبنيَّةٌ على عدم ذهابهم حتى يَستأذنوه، فالدالُّ عليه الاستئذانُ، ولذا اكتفى به[2].

بلاغةُ مفردة (الاستئذان):

الاستئذانُ معناه طلبُ الإذن والترخيص في فعلِ شيءٍ، ومن

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذهب).

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 469.

الاستئذانُ بالانصرافِ من مجلسه ﷺ من لوازم توقيره وتعظيمه

مُحدِّدات استعمالِه أنَّه ينبغي أن يكون الشيءُ المستأذَنُ فيه مُباحًا، كما في الاستئذانِ بالذَّهاب في قوله: ﴿يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ﴾، فإنَّه لا بدَّ من أنْ يكونَ في شيءٍ مباحٍ في أصله، وأنْ تتوافر الأسبابُ الدّاعيةُ إليه، ومن دلالات الأمر باستئذانه ﷺ عند الانصراف إفادةُ توقيره وتفخيمُ شأنه، فهذا من عظيم التَّنبيه على عليِّ أمره، وشريفِ قدره، وذلك أنَّه سبحانه كما أمرَهم فيما سبق من آياتٍ بالاستئذان عندَ الدخول عليه أوْ على غيره، فقد أفردَه بأمرِهم باستئذانه عندَ الانصراف عن مجلسه ﷺ، وجعلَ رتبةَ ذلك تاليةً لرتبةِ الإيمان باللّه والرَّسول ودليلًا على كمالِ التَّصديقِ برسالته، وجعلَهما كالتَّشبيب[1] له مع تصديرِ الجملة بأداةِ الحصر، وإيقاعِ المؤمنين في مبتدأ مخبرٍ عنه بموصول أحاطت صلتُه بالرُّتب الثلاث شَرْحًا له[2].

معنى السين والتاء في مفردةِ ﴿يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ﴾:

العدولُ عن الإذن إلى الاستئذان تصويرٌ لحبِّ البقاء في المجلس وشديدِ الحاجة إلى الانصراف عنه

السّينُ والتاء في كلمة ﴿يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ﴾ زائدتانِ للطَّلب، والمعنى: أنَّهم يطلبونَ منه الإذنَ والسَّماح بالانصراف لبعض شؤونهم المهمَّة، وفي ذلك الطَّلبِ دليلٌ على مدى الحاجة في صدور الإذن لهم والموافقةِ لمطلوبهم، ومِنْ ثَمَّ عدل عن القول (حتى يأذن لهم)؛ لأنَّه لا يوحي بمقدار الحاجة الملحَّةِ عليهم بحيث يطلبونَ إذنَهُ بالانصراف، كما يدلُّ على شديدِ تعلُّقِهم ورغبتِهم بالبقاء معه لولا الظروفُ القويَّةُ التي تدفعُهم إلى الطَّلب والسُّؤال.

غرضُ التوكيد:

جملةُ (إنَّ الَّذينَ يَسْتَأْذِنونَكَ) بين تأكيدها والتأكيد بها

أُكِّدت جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بعدَّة مؤكِّدات، هي: ﴿إِنَّ﴾ التوكيديَّة، واسميَّةُ الجملة، وتعريفُ الطَّرفينِ الدالُّ على الحصر، وكان إيرادُ المسندِ إليه

(1) من تشبيب الكتب، وهو الابتداء بها، والأخذ فيها، وليس من التشبيب في الشعر، وهو ترقيقُه بذكر النساء، يُنظر: الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 157.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 322.

بالاسم الموصول تنبيهًا وإيماءً إلَى وجه بناء الخبر، فقد ثبتَ فيهم وصفُ الإيمان، وانحصرَ بهم؛ لأنَّهم كانوا يَستأذنونَ النَّبي ﷺ عند الانصرافِ احترامًا وتوقيرًا له[1]، ثمَّ هي نفسُها مؤكِّدةٌ لمضمون جملة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ مضمون هذه الجملة هو مضمونُ الجملة السابقة، لكنَّها تختلف عنها ببيان أنَّ الاستئذانَ هو الدليلُ على الإيمان باللّه ورسوله، بخلاف الجملة السابقة التي عرَّفتْ بأوصاف المؤمنين الأحقّاء، ومنها الاستئذان، وفي هذا التعقيبِ والقلبِ لمكوِّنات الجملة السابقة بيانٌ لقيمةِ الاستئذان وإعلاءٌ لشأن أولئك المستأذنين الدالِّ على كمال إيمانهم، وشديد احترامهم لمكانة النبي ﷺ.

توجيهُ تَكرار المعنى:

التَّكرارُ دليلٌ على جوهريَّة الاستئذان في تحقيق كمالِ الإيمان

مضى القول بأنَّ مضمونَ جملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ﴾، وجملة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ واحد، فكانت الثانية تأكيدًا للأولى، لكنْ بإبلاغٍ آخر وأسلوبٍ مغاير، حيث تفنَّن في نظم الجملة الثانية بتغيير أسلوب الجملة الأولى، فجعلَ مضمونَ المسند في الأولى مسندًا إليه في الثانية، والمسندَ إليه في الأولى مسندًا في الثّانية - فقد جعلَ أوَّلًا المؤمنين هم الَّذين يستأذنونَ، وفي الثانية جعلَ المستأذَنين هم المؤمنينَ - ومآلُ الأسلوبينِ واحد؛ لأنَّ المآل الإخبارُ بأنَّ هذا هو ذاك، على حدِّ قول الشاعر: (وشعري شعري)؛ تنويهًا بشأن الاستئذان وخطورتِهِ في تحقيق الإيمان وتحديدِ ملامحِهِ الدقيقة، وليُبنى عليها تفريعُ ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾؛ ليُعلِّم المؤمنين الأعذارَ الموجبةَ للاستئذان، أي: ليس لهم أنْ يستأذنوا في الذَّهاب إلّا لشأنٍ مهمٍّ من شؤونِهم[2].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 470.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 307، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 413.

بلاغةُ استعمالِ الاسم الموصولِ:

الثّناءُ عليهم بالتعبير بالاسم الموصول، والتّنبيهُ بما ذكر في جملة الصّلة إلى سببه

من البلاغة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ الإشارةُ إلى المخاطَبينَ باستعمالِ الاسم الموصول دونَ الاسم الظاهر، فلم يقل: (إنَّ المُستئذنينَ)؛ مدحًا لهم بالاسم الموصول المبهم الشأن، وتنبيهًا على أنَّ ما جاء في الصِّلة من أمر استئذانهم الرَّسولَ ﷺ هو سببُ المدح، وقصدًا للتَّعبير بالمضارعِ الذي يفيدُ تكرُّرَ هذا الاستئذانِ منهم؛ كلَّما دعا إليه داعٍ، انصياعًا منهم وتوقيرًا للمقام الشريف دونما تكبُّرٍ عنه، هذا مع كون التَّعبير به مضارعًا أيضًا استحضارٌ للحالة الماضية، وكأنَّها تقع أمامَ السّامع في وقت القراءة، مع أنَّهم قد استأذنوه بالفعل، فمُدِحوا به.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغيبة إلى الخطاب:

الالتفاتُ تشريفٌ وتعظيمٌ للمخاطَب

في قوله: ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ التفاتٌ من الغَيبة المفيدةِ للبُعد ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ إلى الخطاب الدالِّ على المباشرةِ والقُرب، وهدفُ الالتفات تطريةُ الكلام، وتنشيطُ أُذُنِ السّامع، وهو غرضٌ عامٌّ، وأمّا الهدفُ الخاصُّ هنا؛ فهو تشريفٌ للرَّسول ﷺ بهذا الخطاب[1]؛ لأنَّ مخاطبتَهُ تدلُّ على حضورِه عند الخطاب وسماعِه لموجِّه الكلام إليه، فيفيدُ قربَهُ من المخاطِب تعالى، وما ذاك إلّا لعلوِّ منزلته عند ربِّه، وفخامةِ شأنه لدى مَن اصطفاه.

نكتةُ تقييدِ فعل الاستئذان بالمفعول به:

لزومُ الاستئذانِ عند الانصراف من مجلسه ﷺ هو من خصائصه الشريفة

قيَّد فعلَ الاستئذان بالمفعولِ به المذكور في قوله: ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾، وهي كافُ الخطاب العائدةُ إليه ﷺ؛ تنبيهًا على أنَّ الاستئذانَ عند الانصراف هو من الآداب الخاصَّةِ به ﷺ، في حين أنَّ الاستئذان عند الدخول هو من الآداب العامَّة، لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 307.

﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور: 27]، وأفادَ ذكرُ المفعول به أنَّ هذا الأدبَ معَ النَّبيِّ ﷺ يدخلُ في تحقيقِ كمالِ الإيمان، بخلافِ الاستئذانِ من غيره عندَ الانصراف، فإنَّه أدبٌ محضٌ لخصوصية المخاطَب، وهو كونه رسولًا، فيوحي الانصرافُ عن مجلسه من دون استئذانٍ إلى نفورٍ عن سماعه، وقلَّةِ اكتراثٍ بكلامه، وهو عملٌ مشينٌ لا يتَّفقُ مع وجوب الإيمانِ به وبرسالته.

بلاغةُ مجيءِ المسند إليه اسمَ إشارةٍ للبعيد:

امتيازُ المتأدِّبينَ بالاستئذان منه دليلُ الوصول لكمال الإيمان

جيءَ باسم الإشارة الدالِّ على البُعد في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ للإشعارِ ببُعد منزلتهم في الإيمانِ وعُمق علاقتهم بالله ورسوله، كما يفيدُ التعريف باسم الإشارة كمالَ تميُّزِهم حتى إنَّهم صاروا محسوسينَ ومشاهدينَ ومُبصرين، وما ذاك إلّا لكمالِ وصفِ الإيمان بقلوبهم، الذي نالوه بتأدُّبِهم مع رسولهم ومكانتِه العظيمة.

بلاغةُ مجيءِ خبر ﴿إِنَّ﴾ جملةً اسميَّة:

الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةٌ على الدوام بطرفينِ مُفيدينِ للتعظيم والقصر

جيءَ بخبر ﴿إِنَّ﴾ وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ جملةً اسميَّةً؛ للدلالة على ثباتهم على أصلِ الإيمان بالله ورسوله، وعدمِ تزحزُحِهم عنه قيدَ أنملة، وقد تكوَّنتِ الجملةُ الاسميَّة الخبريَّة من اسم إشارةٍ للتعظيم واسم موصولٍ يفيد الإبهامَ للدَّلالة على عظمةِ المذكورين ومكانتِهم في سُلَّم الإيمان، وأفادَ تعريفُ الطَّرفينِ دلالةَ الحصرِ والقصرِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

كمالُ الإيمانِ يزيدُ بالطّاعة والبرِّ، كما ينقصُ بضدِّ ذلك، لكنَّ أصلَهُ ثابتٌ

عبَّر بصيغة المضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ في جملة صلة الموصول؛ دلالةً على استمرارهم على إيمانهم، وتجدُّده بما يزيدهم كمال إيمانٍ على إيمانهم، وكمالُ الإيمان يزيدُ بالطّاعة والبرِّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ

ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: 2]، وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة: 124]، وفي إسناد الفعلِ إلى ضمير الجمع إشارةٌ إلى تشاركِهم في الإيمان واتِّفاقِهم عليه.

نوعُ الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

تعديةُ الفعل بعد التضمين لتمييزِ الإيمان الحـــقِّ من الإيمان الزّائف

الباءُ في قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ للتَّعديةِ بعدَ تضمينِ الإيمان معنى التصديق والاعتراف، فيفيد أنَّ الذين يستأذنونَ النبيَّ ﷺ عندَ الانصراف من مجلسِه المبارك هم الَّذين يصدِّقون باللّه ورسوله التصديقَ المطلوب، وأمّا الذين يخرجونَ من مجلِسِه دونَ استئذانٍ؛ فهُم يتظاهرون بالتصديق باللّه ورسوله، لكنَّهم جاحدونَ غيرُ موقنين في الأمر نفسه، وأفادت (الباء) إيصالَ معنى الفعل إلى المفعول لغرضِ تمييز الإيمان الحقِّ من التَّصديق الزّائف، وأفادَ ذكرُ لفظ الجلالة الردَّ على المشركين الذين يعتقدونَ باللّه خالقًا، لكنَّهم يتوجَّهون في العبادة لغيره تعالى من الأوثان والأصنام التي يتوهَّمونَ أنَّها تضرُّ، وتنفع.

نكتةُ عطفِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على لفظ الجلالة:

الجحودُ بالنبوَّةِ والـرِّسـالـةِ علامة المشركين والمنافقين

عطفَ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على اسم الجلالة؛ لما أنَّ الإيمان باللّه يستلزمُ الإيمانَ بالرَّسول ﷺ، ولذا عطف بينهما بـ(الواو) التي تقتضي الجمعَ والتشريكَ في الحُكم، فلا يتحقَّقُ الإيمان الحقُّ إلّا بالإيمان والتصديق باللّه تعالى إلهًا وربًّا، وبمحمَّد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وفي ذلك ردٌّ على أهل الكتاب الذين يؤمنون باللّه تعالى، لكنَّهم ينكرون الرسول ﷺ، ويجحدون نبوَّته ورسالتَهُ، كما يشتملُ على الردِّ على المنافقينَ الذين يظهرونَ الإيمان باللّه ورسوله، لكنَّهم يَجحدونهما في الباطن والضمير، وعلامةُ الجحود والإنكار أنَّهم إذا اجتمعوا مع النبيِّ ﷺ؛ فإنَّهم يذهبونَ، وينصرفونَ من دون استئذانٍ؛ تهكُّمًا بالمجلس وكراهيةً للسَّماع وإفشالًا للخطاب.

نوعُ الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ استئنافيَّةٌ[1]، والجملةُ مستأنفةٌ لبيانِ تخييره ﷺ بين الإذنِ لهم أو عدمِه - إذا استأذنوه - بما يراه من خلال تقديرِ الموقفِ، وقيل: الفاءُ لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، أي: بعدَ ما تحقَّقَ أنَّ الكاملين في الإيمان هم المستأذِنونَ ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾ أي: لبعض أمرِهم المهمِّ وخطبِهم الملمِّ[2].

الفـاءُ إمّـا استئنافيـةٌ، أو للترتيب والسببيَّة

وعلى كلا المعنيين؛ فإنَّ الفاء أعطت تفصيلًا لم يُفهم من الاستئذان المجمَل السابق، وهو أن يكون الرسول ﷺ صاحبَ القرار في قبول الاستئذان وإعطاء الإذن بالموافقة على ترك المجلس والانصراف عنه.

سرُّ استعمالِ (إذا) دون (إن):

أوثرَ التَّعبيرُ بـ (إذا) دونَ (إن) في قوله: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾؛ لبيان أنَّ شأنَ المؤمنين الصّادقين لا يُتصوَّر منهم الانصرافُ عن رسول الله ﷺ إلّا باستئذانِه، فوقوعُ الاستئذان منهم أمرٌ مُحقَّق، وأنَّ ذلك الاستئذانَ صادرٌ منهم جزمًا، ومن ثَمَّ ينبغي تحديدُ موقفٍ منه وحكمٍ يليقُ به.

الاستئذانُ المحقَّق الوقوع محتاجٌ لبيان الحُكم فيه

تكرارُ الاستئذانِ في الآية:

قد استُعمل لفظُ الاستئذان والإذن في الآية أربع مرات، هي ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ - ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ - ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ - ﴿فَأۡذَن﴾، وفي هذا التكرارِ المقصود ما يدلُّ على أهميَّةِ قيمةِ الاستئذانِ في التعامل الحضاريِّ، وما ينبغي أنْ يكونَ عليه حالُ المسلم الحقِّ مع النَّبيِّ ﷺ من كمالِ الأدب والاهتمامِ بالمجلس والخطاب الَّذي يدورُ فيه؛ لأنَّ الإعراضَ عنه من دون استئذانٍ مؤشِّرٌ على الاستخفاف والنُّفور والإعراض، وذلك ممّا يتنافى مع الإيمان ومقتضياتِه الضَّروريَّة.

الاستئذانُ من الرَّسول علامةٌ على الإيمان والتَّسليم

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 9/ 285.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 413.

كلُّ عملٍ اختياريٍّ لا بدَّ له من غرضٍ باعثٍ عليه

نوعُ اللام في قوله: ﴿لِبَعۡضِ﴾:

(اللام) في قوله: ﴿لِبَعۡضِ﴾ هي لامُ التَّعليل والأجَل؛ إذِ الاستئذان عمل اختياريٌّ له علَّةٌ دافعة، وغايةٌ يرامُ تحصيلُها، والكشفُ عن ذلك المطلوب بـ(لام التعليل والغرض) دلالةٌ على أنَّ الاستئذان لا بدَّ له من باعثٍ يوجبُهُ، وغرضٍ يُقصدُ الوصولُ إليه.

صلاحيَّةُ المستأذَن لأجله كافيةٌ في القبول، وإنْ لم يكنْ من عظائمِ الأمور

غرضُ ذكرِ لفظ (بعض) وإضافته:

عبر البيان الإلهي بـ﴿لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾ مُعلِّقًا الحكم بالبعض دون الكلِّ، فلم يقل: (لشأنهم)؛ تنبيهًا على أنَّ مُسوِّغَ الاستئذان ليس شرطًا أنْ يكون أمرًا عظيمًا في نفسِه، كبيرًا في قدره وجلالته، بل العِبرةُ تكونُ بأهميَّته وكونِه سببًا صالحًا للاستئذانِ مُسوِّغًا له، ولو كان هو في نفسِهِ ليس شأنًا من عظائم الأمورِ، كما أنَّ في تَخْصيص الحكمِ بالبعض وتعليلِ الاستئذان به مُبالَغَةً في تقبيح الذَّهاب بلا إذن، فإنَّ الاستئذانَ لا يحسُنُ إلّا لبعضِ الشأن، وذلك البعضُ ليس مُطْلَقًا بل إذا كان من الأمور المهمَّة الصّالحة للاستئذان[1]، كما أنَّ الإضافة في قوله: ﴿لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾ هي إضافةُ تخصيص وبيان، أي: لبعض ما يخصُّهم من شؤونهم المهمَّة؛ إذ البعضُ مبهمٌ يحتاج إلى بيانٍ وتوضيح.

الشأنُ عذرٌ جديرٌ بالقبول، وعلامةٌ على الإيمان المقبولِ

نكتةُ استعمالِ لفظ (الشَّأن) دونَ (الأمر):

أوثرَ استعمالُ لفظ الشَّأن دونَ (الأمر) في قوله: ﴿شَأۡنِهِمۡ﴾؛ لأنَّ (الشأن) لا يقال إلّا فيما يعظُمُ من الأحوال والأمور[2]، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ اللّائق بالمؤمنينَ عند الاستئذانِ أنْ يُقدِّموا عذرًا صالحًا للاستئذان، له شأنٌ وخطرٌ يوجبُ خروجَ المؤمن من المجلس بكلِّ أدبٍ ووقار، فيكون ذلك العذرُ المقدَّمُ علامةً على سلوكٍ إيمانيٍّ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 471.
(2) الراغب، المفردات: (شأن).

يتناسبُ وحجمَ المجلسِ والخطابِ مع النبيِّ ﷺ، وفي إضافةِ الشأن إلى ضميرِ الغائبينَ دلالةٌ على أنَّ تحديد الشأن موكولٌ بالمستأذِن، فهو الَّذي يرى أنَّ ذلك شأنٌ يوجبُ عليه الخروجَ والانصراف، فهو بالنِّسبة إليه شأنٌ مهمٌّ، وإنْ لم يكن كذلك في نفس الأمر والواقع، ولا يخفى أنَّ بين ﴿شَأۡنِهِمۡ﴾ وما سيأتي من قوله: ﴿شِئۡتَ﴾ جناسًا في الاشتقاق، يظهر جمالُه عند الجمع بين (الشأن والمشيئة).

نوعُ الفاء ومعناها ﴿فَأۡذَن﴾:

تعليقُ الجواب بالشَّرط بيانٌ لحكمٍ شرعيٍّ تُقدَّمُ فيه الموافقةُ على الرفض

الفاءُ في قوله: ﴿فَأۡذَن﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرط، والشرط ما تقدَّم من قوله: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾، وفي تعليقِ الجوابِ على الشَّرط ما يدلُّ على بيان الحكمِ الشرعيِّ في مسألة الخروجِ من مجلس النبي ﷺ؛ لأنَّ المنافقين كانوا يخرجونَ بلا استئذان، فأرادَ الشارع بيانَ حُكم المستأذِنِ من المؤمنينَ، الذين يخرجونَ وعندهم مهمات وشؤون خاصَّة، وكان الجوابُ مُنبئًا عن تقديمِ الإذن والموافقة على الرفض، فلم يقل: فلا تأذن إلّا لمَن شئت منهم؛ لأنَّ الرّوحَ السَّمحاء للنبي الكريم والشريعةَ السَّمحاء التي دعا إليها تقدِّمُ الموافقةَ على عدمها والقبولَ على الرَّفض.

غرضُ الأمر في قوله تعالى: ﴿فَأۡذَن﴾:

التخييرُ في الموافقة والرَّفض دليلٌ على جواز اجتهاد النَّبي ﷺ

الأمرُ هنا ليس للوجوب بمعنى أنَّه يجبُ حتمًا على الرَّسول ﷺ الإذن لمَنْ استأذنَه، وإنْ أفاد الجوابُ تقديمَ الموافقة على الرَّفض، بل هو أمرٌ تخييريٌّ بدليلِ تقييدِه بقولِه بعدَهُ: ﴿لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾، وأوكل الأمر إلى نظرِه ﷺ وتقديرِه في طالبي العُذر وأعذارهم، وطبيعتهم الشخصيَّة ومكانتهم في مجلسه، وهذا المعنى التخييريُّ يفيدُ جوازَ الاجتهاد للنبي ﷺ.

وظيفةُ المتعلّقَين ﴿لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾:

يسمَّى كلٌّ من الجارَّين - وهما (اللّام ومِن) - الواردينِ في

التقييد والتوضيح سمتانِ أصيلتانِ للشَّرع الحكيم

قوله: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ متعلِّقًا، ويعملانِ على تقييد الفعلين اللَّذين يتعلَّقانِ بهما، فـ(اللام) قيَّدت فعلَ الإذنِ بمَن يختاره، ويريدُهُ الرَّسولُ ﷺ دون غيره، و(مِن) قيَّدت فعل المشيئة والاختيار ببعض الطالبين للخروج والانصراف، إذًا (اللام) أفادت تعديةَ فعل الإذن إلى اسم موصولٍ دالٍّ على غير معين؛ وذلك لبيان أنَّ الإذنَ ينحصرُ فيمَن يستحقُّه من أصحاب الأعذارِ الوجيهةِ المقبولة بغضِّ النَّظر عن شخصِ الطالب ومكانته، ومِن ثَمَّ جاء الاسم الموصول عامًّا مبهَمًا، ثمَّ وضَّح ذلك الإبهام بالصِّلة التي دلَّت على بيانِ ذلك العموم بمَن يشاؤُهُ الرَّسول ﷺ، وأوثر التَّعبيرُ بـ ﴿شِئْتَ﴾ دون (أردت)؛ لكون البتِّ في موضوع الإذن أو عدمه هو أمرٌ فوريٌّ لا يحتمل التأخير والتراخي، وهو الذي يناسبُهُ التعبيرُ بالمشيئة دون الإرادة، فـ "الإرادَة تكون لما يتراخى وقته، ولما لم يتراخَ، والمشيئة لما لم يتراخَ"[1]، ودلَّت (من) في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ على التَّبعيض، والبعضُ المقصود هو مَن قُبِل عذرُهُ، فأُذِن له، وتعودُ نكتةُ التقييد بقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ حيث لم يطلقْ، فيقول: (لمن شئتَ، واستغفر)؛ لأنَّ الإذنَ خاصٌّ بالمستأذِنين، وليس متعلِّقًا بعموم المجتمعين، والحاصل من هذين المتعلِّقَينِ إعطاءُ النَّبيِّ ﷺ القرارَ في منح الإذنِ مع دقَّة الشريعة في تحديدِ ملامح الحكم وتوضيحِهِ بشكلٍ لا يقبل التردُّدَ والشكَّ، والتوضيحُ والتفصيلُ خصيصتانِ بارزتانِ من خصائص الشَّريعة الإسلاميَّة.

عطفُ فعلِ الأمر ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾ على ﴿فَأْذَن﴾:

تنزيلُ الاستئذانِ منزلةَ الذَّنب لتغليب المصالح العامة الأخرويَّة على المصلحة الخاصَّة الدُّنيويَّة

عُطِفَ فعلُ الأمر ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾ على فعل الأمر ﴿فَأْذَن﴾؛ تنبيهًا إلى حكم الجمع بينهما، أي: بين الإذن والاستغفار، فيكونُ بين الجملتينِ تناسبٌ واقترانٌ في الخيال؛ إذ الإذنُ والموافقة على الانصرافِ تكون

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124.

مستصحبةً للقول: (غفرَ اللّه لك)، وليعلمَ المنصرفُ بهذا اللفظ أنَّ البقاء مع النبيِّ ﷺ في المجلس أوْلى وأعونُ على قضاء الحاجة، التي يرومُ تحقيقَها، أوْ يتعجَّلُ نيلَها، وقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾ بصيغة الأمر مُشعِرٌ بتنزيل الاستئذان منزلةَ الذَّنب الذي يُستَغفر منه؛ لأنَّ الاستئذانَ - وإنْ كان لعذرٍ قويٍّ وجيهٍ - لا يخلو عن شائبةِ تقديمِ أمر الدُّنيا الفانيةِ على أمورِ الآخرة الباقية، ومؤذنٌ بأنَّ ذلك الانصراف خلافُ ما ينبغي؛ لأنَّه من ترجيحِ حاجةِ المستأذِن على الإعانة على حاجةِ الأمَّة[1]، ويحتملُ أنْ يكون هذا الاستغفار مكافأةً لهم، و"أنَّه تعالى أمرَهُ بأنْ يستغفرَ لهم مقابلةً على تمسُّكهم بآداب اللّه تعالى في الاستئذان"[2]، والأولُ أوفقُ للنَّظم لتأكيد معناه بعد ذلك بقوله في تذييل الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، واقترنتِ (السين والتاء)، بقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾، وهما زائدتان للطَّلب، أي: واطلبْ لهم المغفرة من اللّه على تغليبهم المصلحة الخاصَّة على المصلحة العامة التي اقتضاها الأمر الجامع.

بلاغةُ تقديمِ ﴿لَهُمُ﴾ على لفظ الجلالة:

اختصاصُ الاستغفارِ والاهتمامُ بالمستغفَر لهم دعوةٌ للبقاء في المجلس المبارك

(اللّامُ) في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ﴾ هي لامُ التَّعليلِ والأجْل، أي: اطلبْ من اللّه تعالى المغفرةَ لأجلِهم، أوْ هي لامُ الاختصاص، أي: استغفرْ لهم خصوصًا بهم، بحيث لا يتناولُ غيرهم؛ لأنَّهم محطُّ الاستغفار والطَّلب لقيامهم من المجلس واعتذارِهم في تركِهِ مع أنَّه الأهمُّ لهم والأنفعُ لمصيرهم، وقُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمُ﴾ على اسم الجلالة لإفادة الاهتمام؛ إذ المقصودُ الاستغفار لهم دون بيانِ المستغفَرِ منه، وفي كلٍّ من دلالتي الاختصاصِ والاهتمام رمزٌ خفيٌّ إلى أنَّ البقاءَ في المجلس وتركَ الأعذار في الانصراف أوْلى وأجدرُ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 198، وابن عاشور التحرير والتنوير: 18/ 308.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 424.

غرضُ توكيدِ الجملة:

التَّعريضُ بغير المستأذنين والتطمينُ للمستأذنين

التوكيدُ في جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، غرضُه: الاهتمامُ بالخبر الدالِّ على تطمينِ المستأذِنينَ المنصرفينَ، حيثُ لا مخاطَبَ مُنكِرٌ لكونه سبحانه غفورًا رحيمًا، وفيه أيضًا تعريضٌ بغير المستأذنينَ وتفزيعٌ لهم، فإذا كان المستأذِنون المأذون لهم في محلِّ المؤاخذة؛ فيستغفرُ لهم، فكيف بهم هم؟ وهذه الجملة تعليلٌ لما قبلَها، ولذلك فُصِلَتْ عنها، فيكون بينهما شبهُ كمال الاتصال.

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

التَّكرارُ للاسم الجليل تربيةٌ روحيَّةٌ للمؤمنين وإفزاعٌ لقلوبِ الكافرين

أُظهِرَ اسمُ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وكان حقُّهُ الإضمارَ لسبق ذكره؛ لأنَّ ذكر الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ من شأنه أنْ يوقظَ الضَّمائر، ويهزَّ القلوبَ، ويربّيَ فيها المهابةَ لترتدعَ، وتنزجرَ، كما أنَّ الاسم الجليل يستصحبُ سائرَ الصِّفات الكماليَّةِ لدلالتِه على الذاتِ المتَّصفةِ بها؛ فيكون في ذكره - مُتكرِّرًا - إشارةٌ إلى أنَّه علَّةٌ لطلب المغفرة والاتِّصاف بالمغفرة والرَّحمة، ففيه دعوى الشَّيءِ ببيِّنة وبرهانٍ من قبيل ذكرِ الملزوم وإرادةِ لازمه، كما أفادَ هذا التَّكرارُ تخويفَ غير المؤمنين باللّه تعالى وإفزاعَهم؛ إذ تركوا المجلسَ، وهم لا يدركونَ حقيقة ما يفعلونَه ممّا يُسخطُ اللّه عليهم، ويستوجبُ عقابَهُ الأليم.

نكتةُ اختيارِ صفتَي ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

أخلق بمَن يطرقُ أبوابَ الغفور الرحيم أن يلجَها

في ذكر هاتين الصِّفتين الجليلتين ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في التَّذييل دلالةٌ على مدى إنعامِه سبحانه، وإفضاله على عباده بغفران الزَّلَل، والرَّحمة بالمذنب، طالما اعترفَ بذنبه، واستغفرَ منه، وأخلصَ في التوبة، وقد قال سبحانه: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ [النساء: 147]، وقال في الرَّجاء والإطماع في مغفرته وعفوه: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: 53]، ومن فوائد تذييلِ الآية بهذَيْن الوصفين الجليلَيْن ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أيضًا، حثُّ المقصِّرين على الرُّجوع والإنابةِ إلى اللّه تعالى، وإطماعُهم في مغفرته ورحمته؛ لأنَّه سبحانه موصوفٌ دائمًا بهما على الوجهِ الأكمل اللّائق به، فما عليكم إلّا طرْقُ الباب من خلالهما، وستُفتحُ لكم كلُّ الأبواب المفضيةِ إلى مغفرته ورحمته، وإنَّما اقتصرَ على هذين الوصفينِ؛ لأنَّ مِن شأن المستأذِن أنْ يكون محتاجًا إلى المغفرة من اللّه لانصرافه عن الحضور، وإلى الرحمة بعُذرِه المشروع الذي قدَّمه من أجل تحقيقِ الانصراف.

دلالةُ تقديم صفة ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

المغفرةُ سلامةٌ والرَّحمةُ غنيمةٌ، والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمة

وفي سرِّ تقديم ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ وهو كذلك في أكثرِ القرآن؛ لأنَّ المغفرةَ هي صونُ العبدِ من أنْ ينالَهُ العقابُ، أوْ يمسَّه العذاب، مأخوذةٌ من قولهم: اغْفِرْ ثوبك في الوعاء، واصبغ ثوبَك، فإنَّه أَغْفَرُ للوسَخِ[1]، وأمّا الرَّحْمَةُ؛ فهي رقَّة تقتضي الإحسانَ إلى المَرْحوم[2]، وعليه فالترتيبُ بين الصِّفتين في محلِّه، من حيث إنَّ تقديمَ ما يفيدُ الأولى مقدَّمٌ على ما يفيد الثانية؛ لأنَّ التخلية مقدَّمةٌ على التحلية[3]، وهو الأنسبُ أيضًا بتقديمِ الاستئذان على العذر؛ إذ الاستئذانُ بالانصراف يتناغمُ من المغفرة، وتقديمُ العُذر يتناسبُ معَ الرَّحمة، أو يقال: إنَّ تقديم ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ سببُهُ أنَّ المغفرةَ سلامةٌ والرَّحمةَ غنيمةٌ، والسلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمة[4].

دلالةُ استعمالِ صيغتَي (فعول وفعيل):

المبالغةُ في صفات اللّه مرجعُها إلى تعدُّدِ المفعولات وعظيمِ تأثيرها

صياغةُ هذين الوصفين الجليلينِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على طريقة

(1) الراغب، المفردات: (غفر).
(2) الراغب، المفردات: (رحم).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 5.
(4) الزركشي، البرهان: 3/ 249.

المبالغةِ بصيغتي (فعول، وفعيل) راجعةٌ إلى عظيم أمرهما وجلالة قدرهما، وإلى تكرُّر آثار كلِّ صفةٍ منهما مع الفرد الواحد، فهو سبحانَه يغفرُ لعبده مرّاتٍ، ويتوبُ عليه كرّات، ويرحمُه مرارًا وتكرارًا، فتمتدُّ آثار رحمة اللّه بالعبد رأسيًّا وأفقيًّا، وهكذا شأنه مع سائرِ العباد، وممّا وجَّه به العلماء مجيءَ صفات اللّه تعالى على جهة المبالغةِ كذلك، أنَّها منظورٌ فيها إلى اعتبار تعدُّد المفعولات[1]، وذلك لأنَّ صفاتِ المولى تعالى واحدةٌ لا تعدُّدَ فيها ولا تكثُّر، وإنَّما التكثُّرُ في متعلّقاتها وتأثيراتها، ومعنى ذلك أنَّ سلطان صفاتِ اللّه تعالى يقعُ على أفراد عديدينَ؛ بل جماعات متعدِّدة في الوقت الواحد؛ لأنَّه سبحانه عظيمٌ في صفاته جليلٌ في أفعاله وآثاره[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأمر والشَّأن:

الشَّأنُ أخصُّ من الأمر، فكلُّ شأن أمـرٌ وليس كـلُّ أمرٍ شأنًا

بين الأمر والشأن تقاربٌ دلاليٌّ كبير، حتى إنَّ كلًّا منهما يُعرَّف بما يعرَّف به الآخرُ في الجملة، فعند التَّعريف بالأمر، قال الرّاغب: الأَمرُ: الشَّأنُ، وجمعُهُ أُمور، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها[3]، لكنَّه عند التعرُّض لتعريف مفردة (الشأن) ذكر الفرقَ الدقيق بينهما، فقال: الشَّأْنُ: الحالُ والأمرُ الذي يتَّفِق ويصلحُ، ولا يقال إلّا فيما يعظُمُ من الأحوال والأمور، قال اللّه تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن: 29]، فظهرَ لنا من خلال ذلك أنَّ الشأن يكون معَ الأحوال والأمور العظيمة، وأنَّ الأمر أعمُّ منه، فهو لفظ عامٌّ يطلق على الأفعال والأقوال كلِّها عظيمةً أوْ غيرَ عظيمة، فتكون النَّتيجة: كلُّ شأنٍ أمرٌ، وليس كلُّ أمرٍ شأنًا.

---

(1) الزركشي، البرهان: 2/ 508.
(2) أحمد الخطيب: مفاتيح التفسير: 2/ 751.
(3) الراغب، المفردات: (أمر).

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النور: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المصائبُ سببٌ لإظهارِ المناقب أوْ إشهارِ المعايب

لمّا أظهرت هذه السّورةُ بعمومها، وهذه الآياتُ بخصوصها، شرفَ الرَّسول بما بهرَ العقول، لأجل ما وقع للمنافقِ من التجرُّؤ على ذلك الجناب الأشمِّ، والمنصب الأتمِّ، وعُلِمَ منه أنَّ له ﷺ في كلِّ أمره وجميعِ شأنه خصوصيَّةً ليست لغيره؛ صرَّحَ بذلك تفخيمًا للشَّأن، وتعظيمًا للمقام، ليتأدَّبَ مَن ناضلَ عن المنافق، أو توانى في أمره، فقصَّر عن مدى أهلِ السَّوابق، فقال منبِّهًا على أنَّ المصائب سببٌ لإظهار المناقب أوْ إشهارِ المعايب: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دُعَآءَ﴾: (دعو) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ أَنْ تُميلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ، تَقولُ: دَعَوْتُ أَدْعو دُعاءً[2]، ودَعَوْتُ اللّه أَدْعوهُ دُعاءً: ابْتَهَلْتُ إِلَيْهِ بالسُّؤالِ، ورَغِبْتُ فيما عِنْدَهُ مِنَ الخَيْرِ، ودَعَوْتُ زَيْدًا: نادَيْتُهُ، وطَلَبْتُ إِقْبالَهُ، ودَعا المُؤَذِّنُ النّاسَ إِلَى الصَّلاةِ، فهوَ داعي اللّه، والجَمعُ دُعاةٌ وداعونَ، مِثْلُ: قاضٍ وقُضاةٌ وقاضونَ[3]، والدُّعاء كالنِّداء، إلّا أنَّ النِّداء قد يقالُ بـ (يا، أَوْ أَيا)، ونحو ذلك من غير أن يضمَّ إليه الاسمَ، والدُّعاءُ لا يكاد يقالُ إلّا إذا كان معه الاسمُ، نحو: يا فلانُ، وقد يُستعملُ كلُّ واحدٍ منهما في موضع الآخر،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 324.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (دعو).

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾ [البقرة: 171][1]، والمراد بقوله: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾، أي: لا تقيسوا دعاءَهُ إيّاكم على دعاءِ بعضِكم بعضًا في جواز الإعراض، والمُساهلة في الإجابة، والرجوعِ بغير إذنٍ[2].

2) ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾: (سلّ) مَدُّ الشَّيْءِ في رِفْقٍ وخفاءٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، فمِنْ ذَلِكَ: سَلَلْتُ الشَّيْءَ أَسُلُّهُ سَلًّا[3]، وسَلُّ الشيءِ من الشيءِ: نزْعُهُ، كسلِّ السَّيف من الغمد، وسَلُّ الولدِ من الأب، ومنه قيلَ للولد: سَليلٌ، وسَلَّ الشيءَ من البيت على سبيل السَّرقة[4]، والسَّلَّةُ بالفَتْحِ السَّرِقَةُ، وهيَ اسْمٌ مِنْ: سَلَلْته سَلًّا مِنْ باب قَتَلَ؛ إذا سَرَقْته[5]، والمراد بالتسلُّل هنا: الانصراف عن النبي بغير إذنه، تستُّرًا وخفيةً منه[6].

3) ﴿لِوَاذٗاۚ﴾: (لوذ) أصلٌ يَدُلُّ على إطاقَةِ الإِنْسانِ بالشَّيْءِ مُسْتَعيذًا بِهِ ومُتَسَتِّرًا، يُقالُ: لاذَ بِهِ يَلوذُ لَوْذًا ولاذَ لياذًا؛ وذَلِكَ إذا عاذَ بِهِ مِنْ خَوْفٍ أَوْ طَمَعٍ، ولاوَذَ لِواذًا، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾، وكانَ المُنافِقونَ إذا أَرادَ الواحِدُ مِنْهُم مُفارَقَةَ مَجْلِسِ رَسولِ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ؛ لاذَ بِغَيْرِهِ مُتَسَتِّرًا، ثُمَّ نَهَضَ[7]، وما في الآية مِن قولهم: لاوَذَ بكذا يُلاوِذُ لِواذًا ومُلاوَذَةً؛ إذا استترَ به، أي: يستترونَ، فيلتجئُونَ بغيرهم، فيمضون واحدًا بعدَ واحد، ولو كان من: لاذَ يَلوذُ؛ لقيل: لياذًا، مثلُ: قام قيامًا، إلّا أنَّ اللِّواذَ هو فِعال من: لاوَذ، واللّياذُ من فعَل[8].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

قال سبحانه ناهيًا: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾، أي: لا ينادِ أحدُكم الرَّسولَ ﷺ، كما يُنادي بعضُكم بعضًا باسمِه مجرَّدًا من الألقابِ المعظِّمة، بأنْ تنادوهُ بـ (يا محمد) ونحوه، ولكن نادوه بـ: (يا رسول اللّه) و(يا نبي اللّه) ونحوهما،

(1) الراغب، المفردات: (دعا).
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 116.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلّ).
(4) الراغب، المفردات: (سلّ).
(5) الفيومي، المصباح المنير: (سلل).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 231.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوذ).
(8) الراغب، المفردات: (لوذ)، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 76.

إظهارُ كمالِ الأدب مع النبيِّ ﷺ والتحذيرُ من مخالفةِ أوامره

وأيضًا لا تقيسوا - أيُّها المؤمنونَ - دعاءهُ ﷺ إيّاكم بدعاءِ بعضِكم بعضًا، في المساهلة والرُّجوع من مجلِسِهِ بغيرِ استئذان، فإنَّ هذا محرَّمٌ عليكم، والواجبُ أنْ تحرصوا على احترام دعوته لكم إلى الاجتماعِ للأمور المهمَّة، وأنْ تستجيبوا لها، وألّا تجعلوها كدعوةِ بعضكم لبعضٍ في جواز التهاوُنِ فيها، والانصرافِ عنها دونَ استئذانٍ، واللّه سبحانه يعلمُ من ينصرفونَ بدونِ إذنٍ، مُختفينَ بينَ الجموع، حتى لا يراهم الرسولُ ﷺ، فليحذرِ المخالفونَ عن أمر اللّه أنْ يُعاقبهم سبحانه على عصيانهم بمحنةٍ شديدةٍ في الدُّنيا كالقحط والزلزال، أو بعذابٍ شديدِ الإيلام، قد أعدَّه لهم في الآخرة، وهي النار[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ هذه الآية عن سابقتِها:

توكيدُ المعنى يتلاءمُ مع خصوصيّات هذا النبي الكريم معاملةً وتصرُّفًا

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ استئنافٌ مقرِّر لمضمونِ ما قبله[2]، ومؤكِّدٌ له، والغرضُ من التَّوكيد تقريرُ المعنى السابقِ وتثبيتُه في ذهنِ السّامع؛ لأنَّ الاستئذانَ عند الانصرافِ، والإقبالَ عند السَّماع، دليلُ الاحترام والتفخيم لشأنِ هذا النبيِّ الكريم ﷺ، ومن ثمَّ لا يُمكنُ أنْ يكون دعاؤُه مثلَ دعاء غيره، ولا أنْ ينصرفَ المكلَّفُ عن سماع دعائِه وكلامِه مُتسلِّلًا لائذًا بغيره، ولأجل هذا المعنى التقريري والتوكيديِّ كان الفصلُ المسمَّى بـ(كمال الاتصال) أمرًا ثابتًا.

غرضُ النَّهي ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ﴾:

الغرضُ من النَّهي في قوله: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ﴾، هو التأكيدُ على وجوبِ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 18/ 141، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 530.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 198.

عدمُ إجابةِ دعوةِ الرسول ﷺ لمجالسه، والانصرافُ عنها دون إذنه مستويانِ حرمةً

قبول دعوةِ الرسول ﷺ إلى حضور مجامعِه ومجالسِه المباركة، وتحريمِ التخلُّفِ والإعراضِ عنها، إثرَ بيان التَّحريمِ عن الانصراف عن مجامعِه ومجالسِه دون إذنِه وموافقتِه؛ كي لا يتوهَّم أنَّ المنهيَّ عنه فقط هو ذلك الانصرافُ عنها دون إذن حال حضورها، وأنَّهم - إذا ما دُعوا إليها - مخيّرونَ بين حضورها وعدمه، "فالدُّعاء على هذا التأويل مصدرُ دعاه: إذا ناداهُ أَوْ أرسلَ إليه ليحضُرَ"[1]، وإنَّما عبَّر بالنهي عن عدم الإجابةِ بمساواة دعوته إيّاهم بدعوةِ غيره دونَ القول المباشر: (لا تتخلَّفوا عن دعوته؛ إذا دعاكم)؛ لأنَّ النَّهي عن الشَّيء بيانٌ لإمكانه، فاستبعدَ النصُّ صدورَ التخلُّف من المخاطَبين عن دعوته المباشرةِ لهم، وأراد أنْ ينهى عن ذلك بعدمِ مساواة دعوته لهم بدعوة غيره لهم؛ لأنَّه مظِنَّةُ الوقوع منهم.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغيبة إلى الخطاب:

الالتفاتُ يحقِّقُ الحثَّ على الالتزام وإبرازَ كمال الاعتناءِ بشأنِ النبيِّ ﷺ

في قوله سبحانه: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ﴾ التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب، حيثُ التفت من الإخبار عن المؤمنينَ بأنَّهم لا يَنصرفونَ عن مَجامِعِه ﷺ قبلَ انقضائها إلّا بإذنِه؛ تعريضًا بِمَن كانوا يفعلون ذلك من المنافقينَ، إلى خطابهم بالنَّهي عن التخلُّف عن حضورها، وذلك للحثِّ لهم على تلقّي الجملة بنشاطٍ وعلوِّ همَّةٍ، ولإبراز مزيدِ الاعتناءِ بشأنه ﷺ[2].

فائدةُ استعمالِ لفظ ﴿دُعَآءَ﴾ دونَ (نداء):

وجوبُ خفضِ الصَّوت عند دعائه ﷺ وأن يكون الدُّعاءُ بما يليقُ ومقامَهُ الشريف

﴿دُعَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ بمعنى النِّداء، وعلى القول بأنَّ المصدر هنا مضاف إلى المفعول يكون المعنى: لا تنادوهُ ﷺ، كما يُنادي بعضُكم بعضًا باسمِه مجرَّدًا، مثل: (يا زيد، ويا خالد)، فلا ينادِه أحدٌ منكم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 309.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 198، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 309.

بقوله: (يا محمَّدُ)، فإنَّه يجبُ له من التوقير والتقدير ما قد يتجاوزُ بعضُكم معَ بعضٍ فيه، واللّازم في دعائه أنْ يكونَ بما ناداه اللّه به، نحو: (يا أيُّها الرَّسولُ) أو (يا رسولَ اللّه)، و(يا أيُّها النبيُّ) أوْ (يا نبيَّ اللّه)، أوْ بكنيته الشريفة: (يا أبا القاسم)، ويضاف إلى ذلك وجوبُ مراعاةِ مقامِه في هيئة دُعائه، وليس فقط في الألفاظِ وخفضِ الصَّوت فـ"لا يدعوهُ من وراء الحجرات، وألّا يلحّوا في دعائه؛ إذا لم يخرجْ إليهم"[1]، وسرُّ التعبير بالدعاء دون النِّداء متعلِّقٌ بوجوب توقيره ﷺ، فلا يُدعَى إلّا بصوتٍ مُنخفض، أمّا النِّداءُ؛ فإنَّه يكون بصوتٍ مرتفعٍ[2]، وهو لا يلائمُ المقام الشريف، ولهذا قال اللّه تعالى ضمنَ لوازم توقيره ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الحجرات: 2 - 4]، وإنّما عدلَ عن النَّهي بالقول: (لا تدعوا الرسول كدعاء بعضكم بعضًا) إلى النَّهي عن الجعل المذكور؛ لأنَّ توجيهَ النَّهي إلى الدُّعاء يستلزمُ أنَّهم قد صدرَ منهم ذلك، وجاءَ النَّهي مانعًا منه، في حين يتحقَّقُ في النهي عن الجعل توجيهٌ لهم بملازمة ذلك الفعل والأدب معه، فلا يقتضي صدورُ الدعاء منهم له بما يدعونَ بعضَهم بعضًا.

نوعُ إضافةِ لفظ ﴿دُعَآءَ﴾ إلى ﴿ٱلرَّسُولِ﴾:

المصدرُ المضاف إلـى المفعول والفاعل محقِّقٌ للثراء الدلاليّ

المصدرُ في قوله: ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ هو مضافٌ إمّا للمفعول، أي: دعاؤكم للرَّسول ﷺ، وهو أنَّ الدّاعيَ؛ إذا دعا يقول: السَّلامُ عليك

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 309.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 38.

يا رسولَ اللّه، ولا يقولُ: السَّلام عليك يا محمَّدُ، فأُمروا بالتأدُّب معه، أو مضافٌ للفاعل، أي: لا تجعلوا دعاءَ الرَّسولِ لكم إلى أمرٍ من الأمور، كدعاءِ بعضكم لبعضٍ بحيثُ تَمتثلونَ أمرَهُ تارةً، وتخالفونَه أخرى، ويؤيِّدُ هذا المعنى الثاني قولُه تعالى بعد ذلك: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]، كما تدلُّ على المعنى الأوَّل آياتُ سورة الحجرات سابقةُ الذِّكر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ [الحجرات: 2]، وبهذا التعدُّد الاحتماليِّ يتحقَّقُ ثراءُ المعنى، ويكون النصُّ قد نهى عن خطابِ الرَّسول ﷺ بما يُخاطَبُ به النّاسُ العاديّونَ، وقد نهى عن الإعراضِ عن دعوته وندائِه للمؤمنين بالإقبالِ والسَّماع لكلامِه ومواعظِه وإرشادِه الحكيم.

سرُّ استعمال لفظِ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ دون (النبيِّ):

لفظُ الرَّسول أخصُّ من لفظ النبيِّ، وأرفعُ وأدعى لمزيدٍ من التوقير والتقدير

في استعمال لفظ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ دون (النبي) لفتٌ إلى الخصوصيَّة الكائنةِ في لفظ الرَّسول، فهو أخصُّ من لفظ النبيِّ؛ لأنَّ الرَّسولَ نبيٌّ أُنزِلَ إليه كتابٌ وشريعة أُمِرَ بتبليغهما، ومِن لازم ذلك حثُّهم على مزيدٍ من التوقير الذي يلائمُ هذا المقامَ الخاصَّ، الذي منحه اللّه بعضَ عباده المصطفَين، وآخرُهم رسولُ اللّه محمَّدٌ ﷺ، وأمّا الأنبياءُ؛ فهم كُثرٌ، كما أنَّ هنالك اقتضاءً بين لفظ (الدُّعاء) ولفظ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾؛ لأنَّ من شأن الرَّسول أن يدعوَ قومه إلى شريعته، ويبلِّغَ كلامَ اللّه الموحَى إليه، فيتحقَّق التَّناسبُ بينَ الرَّسول والدُّعاء.

بلاغةُ التَّقييدِ والتعريضِ في الظَّرف ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾:

في تقييد النَّهي بالظَّرف تنبيهٌ على حرمة النَّهي المطلق من باب أَوْلى

قال ابنُ عرفة: فإن قلتَ: ما فائدةُ قوله: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾، والأصلُ عدمُهُ؛ لأنَّ النَّهيَ المطلقَ أَوْلى من النَّهيِ المقيَّد؟ فالجوابُ: أنَّهم إذا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 230، والسمين، الدر المصون: 8/ 446.

نُهوا عن مخالفةِ أمرِهِ فيما بينَهم، أي: في حالِ غيبتِهِ عنهم، فأحرى أنْ يُنهَوا عن مخالفةِ أمرِهِ فيما بينَهم وبينَهُ، أي: بحضرتِهِ معهم، فيُعلَّقُ النَّهيُ بالأخصِّ؛ ليدلَّ على ما عداه من باب أحرى[1]، وفيه: تعريضٌ بالمنافقينَ الَّذين تمالَؤوا بينَهم على التخلُّف عن رسول اللّه؛ إذا دعاهم، كلَّما وجدوا لذلك سبيلًا، كما أشار إليه قولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 120][2].

في مقام النَّهي والـذَّمِّ، يُشبَّهُ الأعلى بالأدنى

معنى الكافِ وبلاغتها:

(الكاف) في قوله: ﴿كَدُعَآءِ﴾ للتشبيه، أي: تشبيهُ دعائهِ ﷺ بدعاءِ غيره، فهذا منهيٌّ عنه، ولمّا كان منهيًّا عنه؛ جازَ فيه تشبيهُ الأعلى بالأدْنى، على معنى أنَّ الأعلى لا ينبغي أن يكون له من المعاملة ما يكون للأدنى، فالغرضُ النَّهيُ عن تشبيه دعائه إلى المجامعِ أَوْ ندائه بدعاءِ بعضِكم بعضًا، فإنَّه له من التوقير والتقدير والتعظيم ما ليسَ لبعضِكم ببعضٍ، وفي التفاوتِ الواقع في الدُّعاء إشارةٌ إلى التفاوت في الذات والمنزلة؛ إذ للرَّسول ﷺ من الكمالات ما لا يمكنُ الوقوفُ على كنهه وحقيقته، وفي النَّهي عن مشابهةِ دعاءِ الرسول بدعاءِ بعضكم بعضًا دلالةٌ على كمالِ دعوة الرَّسول وعلوِّ درجته، فكيفَ بمَن يجعلُ دعاءَ الرَّسول أقلَّ من دعاء بعضِهم لبعضٍ، فيستلزمُ النَّهيُ عن المساواة النَّهيَ عن الأقليَّة.

إبهامُ الفاعل والمفعول إظهارٌ لمقام الرسالة المتفرِّد

معنى إضافة ﴿كَدُعَآءِ﴾ إلى ﴿بَعۡضِكُم﴾:

إضافةُ لفظ ﴿كَدُعَآءِ﴾ إلى ﴿بَعۡضِكُم﴾ هو من إضافة المصدرِ إلى فاعلِه، أي: كما يدعو بعضُكم بعضًا، ومن المعلوم أنَّ المصدر يدلُّ على الحدث العامِّ، فيشملُ جميعَ أفرادِ الدُّعاء وصورِهِ المختلفة،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 230.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 309.

فيتناسبُ هذا العمومُ مع عمومِ الفاعلينَ وعمومِ المفعولين، وإنَّما ذكر الفاعلَ مبهمًا عامًّا بقوله: ﴿بَعۡضِكُم﴾؛ للدَّلالةِ على تساوي الجميعِ في المقامِ دونَ المقامِ النبويِّ الكريم، فعلى الرَّغمِ من وجودِ تفاوتٍ بين البشرِ إلّا أنَّه مقارنةً بالمقامِ النبويِّ المباركِ ينحطُّ، ويضعف؛ فلا مقامَ أعلى من مقامِ النبوَّةِ والرِّسالةِ والاصطفاءِ الإلهيِّ.

نكتةُ التَّقييدِ بالمفعولِ ﴿بَعۡضٗاۚ﴾:

التَّنصيصُ على محطِّ النَّهي أوقعُ في النَّفس وأبلغُ

نصَّ على ذكر المفعول، وهو قوله: ﴿بَعۡضٗاۚ﴾؛ لأنَّه محلُّ النَّهي في الدُّعاء، فقد نُهوا عن أنْ يجعلوا دعاءَه ﷺ، كما يكون من بعضِهم لبعض، وليس النَّهيُ عن مطلقِ دعائه، فلا يدخلُ فيه دعاؤه ﷺ بما يقتضيهِ مقامُ التَّوقيرِ لشأنه، والتعظيمِ لحاله كما ينبغي.

علَّةُ فصلِ جملة ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ﴾:

الاستئنافُ التَّهديديُّ منسجمٌ مع النهيِ المتقدِّمِ

قوله تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ، هدفُها تهديدُ أولئك الَّذين كانوا يتسلَّلونَ من مجامعهِ ﷺ دون إذنِه، ببيان أنَّه سبحانَه مُطَّلعٌ عليهم وعلى فعلِهم، ومُعاقبُهم عليه، وهذا التَّهديدُ يتلاقى مع النَّهيِ المتقدِّمِ عليه؛ إذ النَّهيُ عن الشيءِ أمرٌ بضدِّه، فيكون في الإقدامِ على المنهيِّ عنه ما يستوجبُ التَّهديدَ والوعيد، فناسبَ أن يعقبَ التهديدُ النَّهيَ.

غرضُ استعمال ﴿قَدۡ﴾:

التحقيقُ والتكثيرُ زاجرانِ عند التَّهديدِ والوعيد

﴿قَدۡ﴾ في أصلِها تدلُّ على التَّقليل معَ المضارع، إلّا في أفعالِ اللّه تعالى، فإنَّها تدلُّ على التَّحقيق والتكثير كهذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [البقرة: 144]، وقوله سبحانه: ﴿۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾ [الأحزاب: 18]، فهي هنا للتَّحقيق والتَّكثير، وأنَّها بمنزلة (ربَّ) في دلالتها على التكثير[1]، وهذا المعنى

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 310.

أنسبُ بالزَّجر والتهديد؛ لأنَّ مَن كان يفعل ذلك من المنافقين قد يظنُّ أنَّ اللّه تعالى غيرُ عالم به، ولا يُطلِعُ رسولَه عليه، وعندما يسمعُ هذا الخطابَ، فإنَّه يفزعُ من حاله، ولعلَّه ينزجرُ بهذا الوعيدِ والتخويف، ولعلَّ الغرض أيضًا من إدخال ﴿قَدْ﴾ على المضارعِ هنا أنْ يزيدَ في أهلِ التَّحقيق تحقيقًا، ويفتحَ لأهل الرَّيب إلى الاحتمال طريقًا، فإنَّه يكفي في الخوف من النَّكال طروق الاحتمال[1]، وقد ردَّها بعضُهم إلى التَّقليل لكنْ بالنَّظر إلى متعلِّق العِلْم، يعني: أنَّ الفاعلين لذلك قليلٌ، فالتَّقليلُ ليس في العِلْم الإلهيِّ بل في متعلِّقه[2]، والأوَّلُ أوْلى وأوفقُ للنَّظم؛ لأنَّ التَّقليل لا بدَّ، وأنْ يكون لمدخول ﴿قَدْ﴾، والمتعلِّق ليس بمدخولٍ له، إلَّا أنْ يقال: إنَّ المتعلِّق لمَّا كان قليلًا؛ كان تعلُّقُ العِلْم به قليلًا؛ إذ المُرادُ التعلُّقُ الحادثُ، وهو متناهٍ بالفِعْل، وإنْ كان غيرَ متناهٍ بالقوَّة، بمعنى: لا يقفُ عند حدٍّ - قاله القونوي - ثمَّ أضاف: ولعلَّ هذا مرادُ مَن قال: إنَّ التقليل بالنِّسبة إلَى متعلِّقِه، فاحفظه؛ فإنَّه تحقيقٌ أنيقٌ وتوفيقٌ رشيقٌ[3].

دلالةُ صيغة المضارع ﴿يَعْلَمُ﴾:

استمرارُ المخالفةِ تستدعي استمرار التهديد والوعيد

عبَّرَ بالمضارع ﴿يَعْلَمُ﴾ دونَ الماضي (علِم)؛ للدَّلالة على استمرارهم على ما هم عليهِ من محاولات التسلُّل، واستمرارِ تهديدهم بعِلْمه سبحانه بما يُدبِّرون، ويفعلون، ولا يخفى أنَّ استمرارَ العِلْم بالنَّظر إلى متعلِّقِه أكبرُ تهديدٍ لأولئك المتسلِّلين، الذين لا ينفكون عن الخروج من مجلسِه المبارك متسلِّلين، فيناسبهم أن يكونَ التَّهديد واقعًا على سبيل الاستمرار والتجدُّد؛ وفيه أيضًا استحضارُ العِلْم الماضي بحالِهم، كأنَّهُ واقعٌ الآنَ، وفي زمنِ النُّزول، لعلَّ مَن يفعل ذلك ينزجرُ عن فعله، ويحصلُ له كمالُ التَّهديدِ معه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 325.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 447.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 475.

نكتةُ اختيارِ لفظِ الجلالة:

استلزامُ الاسم الجليل صفاتِ القهر والغلبة أوقعُ في التَّهديد وأنسبُ للزَّجر

اختيرَ اسمُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ لما له من الهَيْبةِ والجلال في مقام يستدعي الخوفَ والرَّهبة من عقابِه سبحانه، بغيةَ مراجعةِ النَّفس وتصحيحِ مسارها، ولا يخفى أنَّ الاسم الجليلَ يستدعي كلَّ صفاتِ العظمة والقهر، فيدخلُ اسم الذات مع صفاته كلِّها في نفوس المهدَّدين ليؤثِّرَ في أفئدتهم، وليعلموا أنَّ اللّه محيطٌ بهم، ويعلم ما كانوا يفعلونه من تسلُّلٍ وخروج بشكل خفيٍّ ظانّينَ أنَّهم ناجونَ من عِلْمِ اللّه تعالى بهم وبأحوالِهم، ولا يُطلِعُ رسولَه على ما يجترحونَه.

بلاغةُ استعمالِ الاسم الموصول:

ذمُّهم بما في جملة الصِّلة من الصِّفات المذمومة

عبَّر عن المخبَر عنهم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ دون الاسم الظاهر (المتسلِّلين) ذمًّا لهم، وتنبيهًا إلى ما تضمَّنَتْهُ جملة الصِّلة من تصرُّفهم المشين، الَّذي استحقّوا الذَّمَّ ثمَّ التهديد لأجله، وهو أنَّهم (يتسلَّلون لواذًا)، فيكرِّرونَ التسلُّل، ويعيدونَ محاولاته، وأيضًا فيه فتحٌ لباب الأملِ في الرُّجوع عن خَصلتهم هذه، فالتَّعبيرُ بالفعل لا يفيدُ الثَّبات، بخلافِ التَّعبيرِ بالاسم، وكانَ اختيارُ الفعل المضارع لاستحضار صورةِ التسلُّل، وكأنَّها واقعةٌ الآن ولبيانِ أنَّه تعالى لا يخفى عليه شيءٌ من أفعالهم، وبذلك يتَّسقُ العِلْمُ المستمرُّ مع التسلُّلِ المستمرِّ، فيحصلُ الزَّجرُ المناسبُ والوعيدُ الملائمُ لفعلهم، وفي إسنادِ فعل التسلُّل لجميع المنافقين دلالةٌ على أنَّ ذلك واقعٌ من جميعِهم دونَ استثناء، وأنَّهم كانوا يتعمَّدون فعلَهُ نكايةً بالرَّسول ﷺ ومخالفةً لأمرِه.

براعةُ استعمالِ مفردة ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾:

التسلُّلُ يعني الانسلالَ والانصرافَ في خفاءٍ على سبيل التدرُّج

تدلُّ مفردة (سَلَّ) على معنى نزعِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيء في خفاءٍ وخِلسة، كما مضى بيانُه في معاني المفردات، وهذا يقتضي ألّا يتمَّ مرَّةً واحدةً، ولكنْ في تُؤَدَةٍ وعلى مهلٍ، فالفعلُ (تسلَّل) نظيرُ

تدرَّج، وتدخَّل في دلالة (تفعَّلَ) على مواصلة العملِ في مُهلة، وهو معنى قولهم: إنَّ ذلك الفعل ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ وقعَ قليلًا قليلًا[1]، وكان التَّعبيرُ عنه بالمضارع؛ ليصوِّرَ حالةَ التسلُّلِ المستمرَّة المتجدِّدة، أي: كونُ التَّسلُّل يقتضي التعمُّل والتخفّي والتصنُّع لأجل إتمامِه، ومن مقتضاه أنْ يستترَ المتسلِّلُ بغيره حتى يخرجَ من مكان الاجتماع.

بلاغةُ تعلُّقِ الجارِّ والمجرور ﴿مِنكُمْ﴾ بالمؤمنين:

الانـسـلالُ من المـؤمـنـين دون المجلس تمييزٌ لـلـمـؤمـنـين وتـنـكـيـسٌ للمنافقين

لمّا كان المؤمنون جماعةً حاضرةً في المجلس، وكان المنافقون جماعةً حاضرةً فيه أيضًا، وهَمَّ المنافقونَ بالخروج، وأخذوا يتسلَّلون من المجلس؛ لم يخبرِ المولى تعالى عن انسلالِهم من المجلس والمكان، بل جعلَ التسلُّل من جماعة المؤمنين؛ تشبيهًا للمؤمنين بالمكان استعارة مكنيةً، فكأنَّ المؤمنين هم المجلسُ الجامعُ للحاضرينَ، والخروجُ عنهم خروجٌ من المكان، وقد اشتملَ هذا التعبيرُ الاستعاريُّ على أنَّ المتسلِّلين كانوا قلَّةً من الحاضرين، وأنَّ المزايلةَ عن المكان والمجلسِ زوالٌ عن الحاضرينَ فيه، ويحصلُ من المزايلةِ والتسلُّل من الحاضرين تميُّز المؤمنين من المنافقين، وعظمةُ العِلْم إنَّما تكمنُ في تعلُّقه بانسلالهم عن الحاضرينَ أكثرَ ممّا تظهر في انسلالهم عن المكانِ الجامعِ لهم.

بلاغةُ الحالِ ﴿لِوَاذًا﴾:

الحالُ المفصَّلة تـتـنـاسـبُ مع كـمـال العلم بـحـالـهـم بـغـيـة زجرهم وتهديدهم

قوله: ﴿لِوَاذًا﴾ منصوبٌ على الحال من فاعلِ ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾، أي: يتسلَّلونَ مُلاوذينَ، أي: يلوذُ بعضُهم ببعض، ويستترُ به مُتخفّيًا حتى يتمَّ له الخروجُ، فالحالُ هنا تُصوِّر هيئةَ الخروج، ومن صوره أيضًا أنْ يلوذَ بمَن يخرجُ بالإذن إراءةً أنَّه من أتباعِه، والغرضُ من ذكر الحال المقيِّدِ للتسلُّل بيانُ أنَّ ذلك الانسلالَ كان يتمُّ بكلِّ دقَّةٍ واحتياطٍ؛ ظنًّا منهم أنَّهم يتخفَّونَ عن اللّه تعالى ورسوله

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 402.

الكريم، فحكى الله لهم طريقةَ تسلُّلهم وتخفّيهم بكامل تفاصيلِها الجسمانيَّة والنفسيَّة إعلامًا لهم بإحاطتِهِ بأفعالِهم وسرائرِهم، وزَجْرًا لهم عن مثل هذا التصوُّر الوهميِّ الباطل، ويُمكن أنْ يكون ﴿لِوَاذٗاۚ﴾ منصوبًا على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعلٍ مضمَرٍ هو الحالُ في الحقيقة، أي: يلوذونَ لواذًا[1].

نوعُ الفاءِ ودلالتها في ﴿فَلۡيَحۡذَرِ﴾:

الترتُّبُ والتسبُّبُ بين التهديد والأمرِ بالحذر

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾؛ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، أي: لترتيب الحذرِ أوِ الأمرِ به على ما قبلَها من علمِهِ تعالى بأحوالهم، فإنَّه ممّا يوجبُ الحذرَ البتَّةَ[2]، والفاءُ الترتيبيَّة تتناسبُ مع إرادةِ الزجر والتهديد في الجملة المتقدِّمة؛ لأنَّ الغرض منهما أنْ يترتَّبَ عليهما حدثٌ ينبغي بالمخاطَبين العِلْمُ به والحرصُ على معرفته، فجاءت (الفاء) مُشعِرةً بذلك للمخاطَبين المهدَّدين.

بلاغةُ التَّهديد في صيغة ﴿فَلۡيَحۡذَرِ﴾:

استمرارُ الحذرِ يتَّسقُ مع استمرارِ المُخالفة

الظاهر أنَّ الأمرَ بالحذر للوجوبِ، وهو قولُ الجمهور[3]، والحذرُ يقتضي التهديدَ الشَّديد بأشدِّ ألوانِ الوعيد عند المخالفة والتجاوُز، وإنَّما جاءَ الأمر بصيغةِ المضارعِ المقترنِ بـ(لام الأمر) لإفادةِ الاستمرارِ والتجدُّدِ في عمليَّة المحاذَرة من مكرِ الله وغضبِهِ وانتقامه من المخالفينَ لأوامره، وبذلك يتَّسقُ الاستمرارُ في انسلالهم ولواذهم مع الاستمرار في حذرهم؛ إذ يكونُ بين الاستمرارينِ تساوٍ في الدرجة والنَّوع.

نكتةُ التَّعبير بالاسمِ الموصول:

عبَّر عن الفاعل للحذر بالاسم الموصول في قوله ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 198.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 198.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 76.

النصُّ على سبب التهديد والوعيد والحذر، وهو مخالفةُ أمر الرسول ﷺ

﴿يُخَالِفُونَ﴾ تنبيهًا على ما تضمَّنته الصِّلةُ مِن أسباب التهديد والوعيد في الآية، وهي مخالفةُ أمرِ الرسول ﷺ أو أمر اللّه تعالى؛ بناءً على ما يجوز من احتمالِ عود الضَّمير في ﴿أَمْرِهِۦٓ﴾ على اللّه تعالى لكونه الآمرَ حقيقةً، أوْ على الرسول ﷺ؛ لأنَّه المقصودُ بالذِّكر[1]، وإنَّما عدلَ عن صيغة الأمر (احذروا) إلى الأمر باللام؛ ليتسنَّى ذكرُ الفاعل اسمًا موصولًا، وليس ضميرًا متَّصلًا، والاسمُ الموصول يفيد العمومَ والإبهامَ المحتاجَ إلى الصِّلة؛ لتبيِّنَ علَّة الأمر بالحذر، وهو اتِّصافُ الفاعلينَ بالمخالفةِ المتعمَّدة من التسلُّل لواذًا عن مجلِسِ النَّبيِّ ﷺ بعدَ أنْ دعاهم إليه، وجمعَهم من أجله.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿يُخَالِفُونَ﴾:

المخالفةُ أشملُ أنواعِ المباعَدة الحسيَّة والمعنويَّة

المخالفة: المغايرةُ في الطَّريق التي يمشي فيها بأنْ يمشيَ الواحدُ في طريقٍ غيرِ الطَّريق الذي مشى فيه الآخرُ[2]، وهو هنا في قوله: ﴿يُخَالِفُونَ﴾ كنايةٌ عن المشاقَّة والمصادَّة والمعارضَة من كلِّ وجهٍ، والخلافُ اللُّغويُّ يشملُ الضدَّ والنَّقيض، كما يدلُّ على المغايرة والمباعَدة، فإنَّ هؤلاءِ المنافقين بانسلالهم عن المجلس قد اتَّخذوا لهم طريقًا مخالفًا لطريقِهِ ﷺ، وقد ابتعدوا عن منهجِهِ وتشريعِهِ ونظامِهِ وقضيَّتِهِ.

دلالةُ التعبير بصيغةِ المضارع ﴿يُخَالِفُونَ﴾:

استمرارُ المخالفةِ تستلزمُ استمرارَ الوعيدِ والمحاذَرة

عبَّر بالمضارعِ في قوله: ﴿يُخَالِفُونَ﴾ دونَ الماضي، فلم يقل: (خالفوا)؛ للدَّلالة على تكرُّر مخالفتهم أمرَ اللّه تعالى ورسوله ﷺ، واستمرارِهم على ذلك، وهو من دواعي تشديدِ الوعيد لهم، وفي إسنادِ الفعلِ إلى ضمير الجمعِ إشارةٌ إلى اجتماع كلمتِهم على المخالفة والمعارضة.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 260، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 198.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 311.

فعلُ المخالفة لزومًا وتعدّيًا يحقّقُ ثراءً دلاليًّا

بلاغةُ التَّضمين:

قوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ جاءَ متعدّيًا بحرف المجاوزة ﴿عَنۡ﴾، قيل: لأنَّ ﴿يُخَالِفُونَ﴾ مُضمَّنٌ معنى (يُعرضون)، أو (يَصُدّونَ)[1]، وقيل: الفعلُ على بابه بلا تضمينٍ، و﴿عَنۡ﴾ زائدةٌ[2]، والتقدير يخالفون أمره، والتحقيقُ في لفظ المخالفة أنَّه قد يُستعملُ لازمًا، فتكون تعديتُهُ بـ(عن) بطَريق التَّضمين، وقد يُستعمل متعدّيًا بنفسِه فيكون المفْعول الأَوَّلُ صريحًا، ويتعدَّى إلَى المَفْعول الثاني بـ (إلى)، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود: 88]، أوْ بـ (عن) كما هنا[3]، وسببُ حذف المفعول الأوَّل أنَّه لم يتعلَّقْ بذكره غرضٌ، بل الغرضُ ذِكرُ المخالِف والمخالَف عنه[4].

التَّعبيرُ بـ(الأمر) تعبيرٌ عامٌّ شاملٌ للأقوال والأفعال كلِّها

دلالةُ استعمال ﴿أَمۡرِهِۦٓ﴾ دونَ مُرادفاته:

أوثرَ التَّعبيرُ بلفظ (الأمر) دون غيره؛ لأنَّه من الألفاظ العامَّة الجامعة، فهو يُطلَقُ على عامَّة الأفعال والأقوال كلِّها[5]، ولأجل هذا العموم والشُّمول في معناه، كان التَّعبيرُ به دونَ غيره، فيكونُ المعنى: يخالفون عن قولِه أمرًا ونهيًا، أو عن فعلِه ﷺ خُلقًا وسلوكًا، ولم يقل: (عن شأنه) وإلا اختصَّ ببعضِ المخالفات المتعلِّقة بعظائمِ الأمورِ فحسب.

ترتُّبُ الوعيدِ على الحذرِ منَ المخالفة للأمر قرينةٌ مؤكِّدةٌ لوجوبِه

نكتةُ مجيءِ المفعول ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ﴾:

قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ﴾ مصدرٌ مؤوَّلٌ هو مفعولُ ﴿فَلۡيَحۡذَرِ﴾، وفي كونه مفعولًا للفعل ﴿فَلۡيَحۡذَرِ﴾ دليلٌ على أنَّ الأمرَ فيه للوجوب، فترتُّب هذا الوعيد - وما عُطِف عليه بعدُ، وهو قوله: ﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على الحذر قرينةٌ مؤكِّدةٌ لوجوبه؛ إذ لا مدخلَ للتَّهديد على

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 6/ 260، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 311.
(2) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 5/ 323.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 477.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 260.
(5) الراغب، المفردات: (أمر).

ترك غيرِ الواجب، و"لأنَّ التحذير من العقاب إنَّما يكونُ بعدَ قيام المقتضي لنزول العذاب"(1)، وإنَّما جاء المفعولُ لأجله بصيغة المصدر المؤوَّل؛ لبيان أنَّ إصابةَ العذابِ لهم على سبيل الاستمرارِ المتجدِّد.

غرضُ التَّعبير بالمضارع ﴿تُصِيبَهُمۡ﴾:

المضارعُ مشعرٌ بتنوُّعِ مصائبِ الدُّنيا

عبَّر بالمضارع في قوله: ﴿تُصِيبَهُمۡ﴾ لدلالته على الاستقبال، وللإشعار بتوالي المصائب عليهم وتنوُّعها بسبب المخالفةِ عن الأمر، كأن يسلِّطَ اللّٰه عليهم في الدُّنيا جائرًا يسومُهم سوءَ العذاب ونحو ذلك من الأهوال، أو يستدرجهم بالنِّعَم، ثمَّ يأخذهم بغتةً أخْذَ عزيزٍ مُقتدر، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: 44].

دلالةُ مفردةِ ﴿فِتۡنَةٌ﴾ مُنكَّرةً:

التَّعبيرُ بالفتنة أعمُّ؛ لأنَّ الفتنة ابتلاءٌ بالخير والشرِّ، والمصيبةُ إنَّما تكون بالشرِّ

أوثر التعبيرُ بالفتنة في قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ دون المصيبة؛ لأنَّ المصيبةَ منصرفَةٌ استعمالًا حتمًا إلى الابتلاء بالآلام الحسيَّة والمعنويَّة، ولذا فإنَّها تقابل بالحسنة، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ٥٠﴾ [التوبة: 50]، أمّا الفتنةُ؛ فهي أعمُّ منها حيثُ تشملُ الابتلاءَ بالنِّعم أيضًا استدراجًا واختبارًا، كما قال سبحانه: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35]، وكان إيرادُ الفتنةِ نكرةً للدَّلالة على أنَّها نوعٌ خاصٌّ من الفتن العجيبةِ العظيمة، فالتَّنكيرُ للتَّنويع أو للتَّعظيم والتهويل، فلفظُ الفتنة مشعرٌ بتنوُّع الابتلاء وشدَّته وكونه متوقَّعًا أنْ يجيءَ من باب النِّعَم، كما يأتي من باب الشرِّ، فهو غيرُ محدَّدِ الوجهة، فكان أدعى للحيرة وشدَّةِ الخوف، وقوَّى هذا المعنى إسنادُ الإصابة إلى (الفتنة) إسنادًا مجازيًّا؛ إذ غرضُه الحثُّ على

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 326.

الحذر منها لتوقُّع شدَّتِها وتنوُّعِها، وإلّا فإنَّ الذي يُصيبهم بالفتنِ هو اللَّه تعالى.

معنى حرف ﴿أَوۡ﴾ وتكرار فعل (الإصابة):

التَّعبيرُ بـ (أو) لمنعِ الخُلُو من أحدِ العقابين في الدُّنيا أو في الآخرة

﴿أَوۡ﴾ حرفُ عطف يفيد التَّنويعَ والتَّخييرَ، وغرضُ التَّعبير به هنا دون (الواو)؛ لأنَّ الجمع غيرُ مقصود، بل المقصود منعُ الخلو[1]، أي: أنْ يصيبهم هذا أوْ ذاك ويُحتَمل الجمعُ بينهما، وتفصيل ذلك: أنَّ الأمرَ الجامعَ الوارد في قوله: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾؛ إمّا أن يكون أمرًا دنيويًّا، كالتشاوُر في الأمور الحربيَّة ونحوها، فالانصرافُ عنه مظِنَّةُ إصابةِ المحنة الدنيويَّة ﴿فِتۡنَةٌ﴾ للمُنصرفين، وإما أنْ يكونَ أمرًا دينيًّا، كإقامة الجمعة التي فيها تعظيمُ شعائر الإسلام، والانصراف عنه مظِنَّة إصابةِ العذاب الأخرويِّ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولا يمنعُ أنْ يجوزَ اجتماعُ الأمرين معًا بأنْ يتخلَّفوا عن الأمر الجامع الدنيويِّ والأخرويِّ، فيقعونَ في الفتنة والعذابِ الأليم معًا[2]، ونلحظُ تكرارَ فعل (الإصابة) مع الفتنة والعذاب الأليم؛ للدَّلالةِ على أنَّ تلك الإصابةَ واقعةٌ لا محالة بهم؛ إنِ استمرّوا في مخالفةِ أمره.

غرضُ تنكيرِ ﴿عَذَابٌ﴾ ووصفِه:

تهديدُ المخالف بألوانٍ من العذاب لا يتوقَّعُ موضعَ إيلامِها

نكَّر العذابَ إبهامًا له لتهويلِه وتعظيمه، ولتذهبَ النَّفسُ في تفسيره كلَّ مذهب، ولتدلَّ على أنَّه نوعٌ مخصوصٌ من العذاب الذي لا يتصوَّرُه عقلٌ، ولا يحيطُ به جَنان، ولذا وصف بأنَّه ﴿أَلِيمٌ﴾؛ ليكشفَ عن حقيقته، ويوضِّحَ أثره في المعذَّبين به، والأَلَمُ هو الوجعُ الشَّديد، يقال: أَلَمَ يَأْلَمُ أَلَمًا فهو آلمٌ[3]، والإيجاع أنواعٌ وألوانٌ منها الحسّيُّ، وهو أظهرُها، ومنها النفسيُّ، وكلمة ﴿أَلِيمٌ﴾ تجمعُهما، ولذا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 198.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 417.
(3) الراغب، المفردات: (ألم).

أوثر التَّعبيرُ بها عن ألوان العذاب التي تنتظرُ مَن يخالف أمرَ اللّٰه تعالى وأمرَ رسوله ﷺ.

نكتةُ التعبير بصيغة ﴿أَلِيمٌ﴾:

المجازُ العقليُّ في إسناد الإيلامِ إلى العذاب مبالغة

قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾ هو فعيلٌ، وقد اختلف في معناه، فقيل: هو بمعنى اسم المفعول؛ لأنَّ الأكثرَ في هذه الصّيغة أنَّ الرُّباعيَّ بمعنى مُفعَل، وأصلُهُ (عذابٌ مُؤلَم) بصيغة اسم المفعول، أي: مؤلَم مَن يعذَّبُ به على طريقة (المجاز العقلي) في إسناد الإيلامِ إلى العذاب؛ لأنَّ المؤلَم هو المعذَّب به دونَ العذاب نفسه، كما قالوا في (جدَّ جدُّه)، وإنَّما أسندَ الإيلام إلى العذاب دون المعذَّبين به؛ ليكون أكثرَ مبالغةً في تشنيعِ العذاب وتقبيحِه وشدَّتِه، حتى إنَّه ليتعذَّب، ويتألَّم من شدَّتِه وقوَّتِه، ولِنتخيَّلَ أنَّ العذاب يتلوَّى من شدَّة العذاب، وقيل: هو من: فعيلٍ بمعنى فاعِل من (أَلِمَ) وهو مجاز مرسلٌ، بمعنى صار العذاب ذا ألمٍ ومنسوبًا إليه، مثل (تامر) بمعنى: ذو تمر و(لابن) بمعنى ذو لبنٍ، وقيل: هو من: فعيل بمعنى مُفْعِلٍ، أي: مُؤْلِم بكسر اللام[1]، وهو مجاز عقليٌّ أيضًا؛ لأنَّ العذابَ لا يفعل الإيلامَ بنفسه.

وعلى كلِّ هذه الاحتمالات فإنَّ المعنى: أنَّ عذابَ اللّٰه تعالى شديدٌ ألمه، ينبغي أن يُحذر، ويُتَّقى بصدق الإيمان، واتِّباع النبي ﷺ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 282.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾ [النور: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَن يحصي على الناس أعمالَهم، هو وحدَه القادر على تقدير جزائِهم الَّذي يستحقّونه

هذه آخرُ آيةٍ في سورة النور، وهي تذييلٌ لما تقدَّم في هذه السّورة كلِّها، وخصوصًا أنَّه لمّا أقامَ سبحانه الأدلَّةَ فيما مضى على أنَّه نورُ السّماوات والأرض، وأنَّه لا قيام لشيء إلّا به سبحانه، وختمَ بالتحذير والتهديد لكلِّ مخالفٍ؛ فقد أنتجَ ذلك أنَّ له كلَّ شيء، فقال مذيِّلًا للسّورة الكريمة: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُرۡجَعُونَ﴾: (رجع) أَصْلٌ كَبيرٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، يَدُلُّ على رَدٍّ وتَكْرارٍ، تَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا؛ إذا عادَ، وراجَعَ الرَّجُلُ امرَأَتَهُ، وهيَ الرَّجْعَةُ والرِّجْعَةُ، والرُّجْعَى: الرُّجوعُ[2]، والرَّجْعُ: المطر، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾ [الطارق: 11][3]، والرُّجوعُ: العودُ إلى ما كان منه البدءُ، أَوْ تقدير البدء مكانًا كانَ أَوْ فعلًا أَوْ قولًا، وبذاته كان رجوعُه أَوْ بجزءٍ من أجزائه، أَوْ بفعلٍ من أفعاله، فالرُّجوعُ: العودُ، والرَّجْعُ: الإعادةُ[4]، والمراد بيوم الرُّجوع في الآية يومُ البعث والقيامة؛ لأنَّ الناسَ يُرجَعون فيه إلى اللّه سبحانه للحساب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 326، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 311.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجع).
(3) الجوهري، الصحاح: (رجع).
(4) الراغب، المفردات: (رجع).

والجزاء، فكما كان منه البدءُ؛ كانت إليه الإعادةُ والرجوعُ، كما قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: 4]، وقال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: 104].

2) ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾: (نبأ) الإتْيانُ مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ، يُقالُ لِلَّذي يَنْبَأُ مِنْ أَرْضٍ إلَى أَرْضٍ نابِئٌ، وسَيْلٌ نابِئٌ: أَتَى مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ[1]، والنَّبأة: الصَّوتُ الخفيُّ ..- والنَّبَأُ: الخبرُ، تقول: نَبَأَ ونَبَّأَ، أي: أخبرَ، ومنه أُخِذَ لفظ (النبيء)؛ لأنَّه أنبأ عن الله تعالى وأخبرَ، وهو فعيلٌ بمعنى فاعِلٍ[2]، واختصَّ النَّبأُ بالخبر ذي الفائدة العظيمة، حيثُ يحصلُ به علمٌ أوْ غَلَبَة ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل: نَبَأٌ، حتى يتضمَّنَ هذه الأشياء الثَّلاثة، وحقُّ الخبر - الذي يقال فيه: نَبَأٌ - أنْ يتعرّى عن الكذبِ كالمتواتر وخبرِ الله تعالى وخبرِ النبيِّ ﷺ، ولتضمُّن النَّبأِ معنى الخبر؛ يقال: أَنْبَأْتُهُ بكذا، كقولك: أخبرتُهُ بكذا، ولتضمُّنِهِ معنى العِلْم؛ قيل: أَنْبَأْتُهُ كذا، كقولك: أعلمته كذا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: 67 - 68]، وقال سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ: 1 - 2][3]، ومعنى قوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يُخبِرُهم تخبيرًا عظيمًا[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الذي خلق هو مَن يعلم ما خلقَ

أكَّد الله سبحانه في خاتمة (سورة النور) ملكيَّتَهُ لكلِّ ما في السَّماوات من نجوم وكواكبَ، وبروجٍ مشيَّدةٍ، وغيرها، وما في الأرض من إنسٍ وجنٍّ، وجبالٍ ووِهادٍ، وما في باطنها من معادنَ جامدةٍ وسائلةٍ، وما فيها من بحار، فيها أحياءٌ تثيرُ العجبَ من إبداع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(2) الجوهري، الصحاح: (نبأ).
(3) الراغب، المفردات: (نبأ).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 327.

الخلق والتكوين، ولأنَّه سبحانه يملكُهما ملكيَّةً مطلقة؛ لأنَّه خالقُهما ومبدعُهما وما فيهما، فإنَّه يعلمُها، ويعلمُ كلَّ ما فيها، وقوله تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ إخبارٌ يحملُ التَّهديد والوعيد أيضًا، فما عليه النّاس من أقوالٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ هي معلومةٌ للّه تعالى، ويوم يرجعونَ إلى اللّه بعدَ موتهم، فإنَّه يُنَبِّئُهم بما عملوا، وقدَّموا من خيرٍ وشرٍّ، ويَجزيهم به الجزاءَ الأوفى، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾، فليحذَرْ كلُّ واحدٍ أن يخالفَ اللّه ورسوله، فإنَّ نقمتَهُ صعبةٌ وعذابَهُ أليمٌ شديدٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصلِ الآية عن السّابقة:

تحذيرُ المخالفين مــن مــغــبَّــة مــخــالــفــتــهــم لأمر اللّه تعالى ورسوله ﷺ

جملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مستأنفةٌ مؤكِّدةٌ في المعنى لما سبقَتْها، غرضُها تحذيرُ المخالفين من مغبَّة ما هم عليه من تنكُّرٍ لأمر اللّه تعالى ورسولِه ﷺ، ببيان أنَّه سبحانه خالقُ السَّماوات والأرض ومالكُهما، وهو وحدَهُ يعلمُ كلَّ ما فيهما ومَن فيهما، ومن ضرورة ذلك أنَّه يُحاسِبُ كلَّ أحد بما يعلمُهُ عنه، دون الحاجةِ إلى دليلٍ فوقَ هذا.

غرضُ الافتتاح بحرف التَّنبيهِ:

تنبيهُ الغافلين عن ربِّ العالمين ورسوله الأمين

﴿أَلَآ﴾ حرفُ استفتاحٍ، غرضُهُ التَّنبيهُ، والتنبيهُ إنَّما يكونُ في الأمر الغريبِ للغافلِ عنه لسببٍ ما، وهو هنا إصرارُهم على المخالفة مع قيام الدلائل على وجوبِ نبذها، واللّه تعالى الَّذي خلقهم، ويعلمُ ما يبدون، وما يكتمون، هو أوْلى بأنْ يطاعَ لا أن يُخالَفَ أمرُه، وإنَّ من طاعته طاعةَ رسولِه ﷺ الذي أرسلَه، وفرضَ على الناسِ اتِّباعَهُ وعدمَ الخروجِ عن أمره.

بلاغةُ التذييل في الآية:

براعةُ الاختتام متضمِّنة لجميع ما في السّورة من أحكام

هذه الآية هي تذييلٌ لما تقدَّم في هذه السورة كلِّها[2]، مقرِّرةٌ لكلِّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5237، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 595.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 312.

ما تضمَّنَتْهُ السّورة في تضاعيفها، من أوامر ونواهٍ، وتكاليفَ وأحكام، ووعدٍ ووعيدٍ، وتحذيرٍ وتهديدٍ لكلِّ مَن ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾، فهي تمثِّل براعةَ الاختتام؛ إذ اشتملَتْ على كلِّ ما وقع الحديثُ عنه والخطابُ به؛ لأنَّ مَن فهِمَ هذه الخاتمةَ؛ أدرك سرَّ تلك الأحكام؛ إذ مَن بيده ما في السَّماوات والأرض، فإنَّه يحكمُ كيفما يشاء، ويكلِّفُ بما يريد ومَن إليه الرُّجوعُ، فيحاسِبُ الناس عمّا عملوه من أعمال، فإنَّه يملكُ التَّحذير والوعيد، ومَن لا يخفى عليه شيءٌ من أمر مخلوقاته، فإنَّه محيطٌ بما يعملون، لا تخفى عليه منهم خافيةٌ، فلمَ يتخفَّون ظانّينَ أنَّهم يُعجزون الله تعالى ورسولَه ﷺ.

غرضُ التَّوكيدِ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾:

تعاضُدُ المؤكِّداتِ تحذيرٌ للمخالفين وتنبيهٌ للغافلين

أُكِّدَتِ الجملةُ الكريمة بعددٍ من المؤكِّدات هي: ﴿أَلَآ﴾ الاستفتاحيَّةُ المنبِّهة للمخاطَبين والغافلين، والدالَّةُ على أهميَّة ما يجيء بعدَها، ثمَّ ﴿إِنَّ﴾ التوكيديَّة، ثمَّ اسميَّة الجملة، ثمَّ أسلوبُ القصر المستفادُ من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾ على المسند إليه ﴿مَا﴾، أي: للّهِ وحدَهُ، لا غيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وكلُّ هذه المؤكِّدات قد تضافرتْ على تحذيرِ المخالفينَ، وتنبيههم على أنْ يفيقوا قبلَ فواتِ الأوان، وما اجتماعُ هذه المؤكِّدات إلّا لأنَّ الآيةَ تذييلٌ لكلِّ ما تقدَّم تفصيلُهُ، فيحتاج مَن يشكُّ في تلك المضامين لأكثر من مؤكِّدٍ، حتى يزولَ عنه كلُّ شكٍّ أوْ إنكار، فناسبَ توالي المؤكِّدت مُقتضى الحال.

بلاغةُ الموصولِ وصلته:

العمومُ والشُّمولُ مناسبانِ للمُلك المطلق ومُستلزمٌ للعِلم المُطلق

﴿مَا﴾ في ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ اسمُ موصول بمعنى (الذي)، وإيثارُ التَّعبيرِ بها دونها، هو إفادتُها العمومَ والشُّمولَ مع الاختصار، وناسب هذا العموم جملةَ الصِّلة الفعليَّة المتكوِّنة من فعل عامٍّ محذوف وجوبًا، وجارٍّ ومجرور يفيد الاتِّساع والشمول، والتقدير: (استقرَّ في السماوات والأرض)، وقد دلَّ حرف الظَّرفية ﴿فِي﴾

على استغراقِ كلِّ ما تحويه السَّماوات والأرض، فكلُّ ذلك بتفاصيله ودقائقه ملكٌ له سبحانه، ومعلومٌ له سبحانه "والمراد بالسَّماوات والأرض استغراقُ أمكنةِ الموجودات، فقد دلَّت الجملةُ على عموم الموجودات بالموصول وصلتِه، وإذا ثبت ملكُه للعموم؛ ثبتَ أنَّه لا يشذُّ عن ملكه موجود[1].

كشفُ حجمِ المنافقِ أمامَ نفسِهِ

بديعُ فنِّ الطِّباق بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

إنَّ المقابلةَ بينَ المتضادَّين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ كظرفين للمُلك الإلهي، يؤكِّدُ للمُعرِض عن ربِّهِ المخالفِ لأوامره سبحانه، المعاندِ لرسوله ﷺ، كم هو وحيدٌ عاجزٌ ضئيلٌ جدًّا، في مواجهة الطّائعينَ له سبحانه! فماذا يمثِّل هذا المخالفُ المعرضُ عن ربِّهِ مقابلَ السَّماوات والأرض وما فيهما ومَن فيهما؟ فالطباقُ حقَّق، وقرَّب صورةَ اتساع ملكِ اللّه تعالى الذي لا ينتهي، وما تمثيلُه بالسَّماوات والأرض إلّا على سبيل التقريب، وإلا فملكُه تعالى لا يحيطُ باتِّساعه مكانٌ ولا زمانٌ، ولا يحويه عقلٌ ولا نظرٌ.

المالكُ للسَّموات والأرضِ وما فيهما إيجادًا عالمٌ بكلِّ تفاصيلِهما

علَّةُ فصلِ جملة ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ جيء بها لإفراغ قدرٍ كبيرٍ من الهلع في نفوس المخالفينَ المنشقّين عن مجالِسِهِ ﷺ وعن أوامرِه، وهي بمنزلةِ النَّتيجة والتوكيدِ للجملة السّابقة له، ولذا فُصِلَت عنها؛ إذ مَن يملك السَّماوات والأرضَ وما فيهما، فإنَّه لا يعزُبُ عن علمه شيءٌ فيهما، ومِن ضمن ما فيهما ما أنتم عليه من أحوالٍ دقيقة ومفصَّلة، فهو المراقبُ لتلك الهيئات وتلك الحركات، ومن ضمنها حالةُ الانسلالِ لِواذًا متخفّين.

غرضُ التَّحقيق بأداة ﴿قَدۡ﴾:

غرضُ التَّحقيق بأداة ﴿قَدۡ﴾ تأكيدُ علمِه سبحانه بما هم عليه من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 20.

توكيدُ الوعيد بتوكيدِ العِلْم

المخالفةِ عن الدين والاستمرار بالنِّفاق، والغرضُ من توكيد العلم الردُّ على أولئك المنافقينَ المتخفّينَ بغيرهم من أصحابِ الأعذار المقبولة واهمينَ أنَّهم يخفَونَ على عِلْم الله تعالى وعلى عِلْم رسوله ﷺ، ومن أغراضِ التَّوكيد دفعُ الشكِّ وإزالةُ الرَّيب عندَ مَن اعتقد أنَّه قد يخفى على الله منهم شيءٌ من أفعالهم الدقيقةِ الخفيَّة، ويرجعُ توكيدُ العلم إلى توكيد الوعيد، والمعنى: أنَّ جميعَ ما في السماوات والأرض مختصٌّ به خَلقًا ومُلْكًا وعِلْمًا، فكيف يخفى عليه أحوالُ هؤلاء المنافقين العاجزينَ، وإنْ كانوا يجتهدونَ في سَترِها عن العيون وإخفائِها[1]؟ وقيل: هو توكيدٌ للوعد والوعيد معًا، بأنَّ "الوعد للمخلصين، والوعيد لِلمُنافقينَ"[2]، والأوَّلُ من حيث السِّباقُ أظهر، فقد لا تبدو ثَمَّةَ حاجةٌ إلى تأكيد الوعد في سياقٍ مُكرَّس لتهديد المخالفينَ وتخويفهم، والثاني من حيثُ اللحاقُ أوفق؛ لأنَّ إنباءَ الله يومَ يرجعونَ إليه شاملٌ لأصحابِ الأعذار المقبولةِ والمتخفّينَ بهم الخارجينَ معهم.

نكتةُ التعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ دون (علم):

عِلمُ الله تعالى محيطٌ بكلِّ ما يعمل المنافق والمخالفُ على إخفائهِ

عَبَّر بصيغة المضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ ليعلمَ المنافق والمخالف أنَّ عِلْمَ الله تعالى محيطٌ بما يعمل كلٌّ منهما على إخفائه من سيِّئ الأعمال، وأنَّه كذلك مستمرٌّ غيرُ منقطع، وأنَّهم كلَّما جدَّدوا عملًا؛ فإنَّ العِلْمَ الإلهيَّ يرصدُهُ، ويُسجِّلُهُ عليهم واقعًا، بعد أنْ كان مُسجَّلًا عليهم أزلًا أنَّه سيقع؛ لأنَّ عِلْمَهُ سبحانه بما سيقعُ أزليٌّ قديمٌ، ثم يأتي الواقعُ المخلوقُ له تعالى مصدِّقًا ما سبقَ في العِلْم الأزليِّ؛ إذ لا يقعُ شيءٌ على خلافِ عِلْمِه، وإلّا انقلبَ جهلًا - تعالى الله وتقدَّس عن ذلك - وقال البقاعي: المراد بالمضارع هنا وجودُ الوصف من غير نظرٍ إلى زمانٍ، ولو عبَّر بالماضي؛ لتُوُهِّمَ الاختصاص به[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 260، 261.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 481.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 327.

ولا يخفى أنَّ صيغة المضارع أليقُ بالتَّهديد والوعيد؛ مراعاةً لأحوال المهدَّدين الذين يظنّونَ في كلِّ زمان ومكانٍ أنَّهم بأعمالهم يخفَونَ على عِلْم الله تعالى، ويُعجزونه.

نكتةُ استعمالِ الموصول وصلته:

اللهُ عالمٌ بالذَّوات والأنفس والسرائر، لا يخفى عليه شيءٌ سبحانه

عبَّر بـ ﴿مَآ﴾ الموصولة لما تفيدُه من العموم والاستغراق لكلِّ الأحوال التي هم عليها، وعبَّر بالجملة الاسميَّة الواقعة صلةً ﴿أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾؛ تنديدًا بحالهم من الثَّبات على ما هم عليه من مخالفة وإعراضٍ عن طريق الحقِّ، ولذلك آثرَ التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة، فلم يقل: (قد يعلم حالكم أو شأنكم)، فإنَّ الجملة الاسميَّة تدلُّ على الحال في ضمن الدوام والثبوت[1]، ونلحظ أنَّ العمومَ في جملة الصِّلة هذه مناسبٌ للعموم المتقدِّم في الصِّلة السابقة، ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فإنَّ مَن أحاطَ مُلكُهُ بذلك خَلقًا وإيجادًا؛ فإنَّ علمَهُ محيطٌ ومستغرقٌ لجميع ما عليه الناس من أحوال؛ لأنَّهم جزءٌ ضئيلٌ ممّا ملكَهُ، وخلقَهُ تعالى، وفي تشخيصِ المخاطَبين بالضَّمير ﴿أَنتُمۡ﴾ زيادةُ تهديد ووعيد، فهُم معيّنونَ ومشخَّصون لديه، فكيف يظنّون واهمينَ أنَّهم يعجزونَهُ انسلالًا وهرَبًا؟

دلالةُ استعمالِ حرف الاستعلاء:

حرفُ الاستعلاء يدلُّ على التمكُّن

التَّعبيرُ بحرف الاستعلاء (على) في قوله: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ دالٌّ على أنَّ ما يُحصى عليهم، ويحاسَبون عليه هو ما قد تمكَّنوا من فعلِه، ووقع، وحصلَ منهم بالفعل، لا ما كان في الخواطر والنّيات، ولم يُترجَم إلى أعمال، فتقوم الحُجَّة عليهم بذلك، ولا يكون لهم عذرٌ في إنكارِه، ونلحظُ في الإخبار بـ﴿عَلَيۡهِ﴾ أيضًا دقَّةَ العلم بجميعِ ما يعرِضُ على المكلَّفين من حركاتٍ وسكَنات، فما من حال يكونون عليها إلّا وربُّنا مطَّلع عليه.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 417.

دلالةُ الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ﴾:

(الواو) في قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ عاطفة، عطفَتْ هذا التركيب الإضافي المنزل منزلة المفرد بتقدير (ويوم رجوعهم إليه) على الاسم الموصول ﴿مَآ﴾، والمعنى: يعلمُ ما أنتم عليه، ويعلمُ يومَ رجوعِكم إليه، فيُجازيكم فيه بما عمِلتُم[1].

يوم الرُّجوع إلى الله تُكشف الحقائقُ، وتُجازى الخلائق

وفي عطفِ الظرف الزمانيِّ على عموم أحوال المخاطَبين زيادةُ تهديدٍ لهم، فهو عالمٌ بما يفعلونه، وعالمٌ بيوم رجوعِهم إليه، فلا يظنّونَ الإفلات من عقابه وحسابه؛ لأنَّ مجرَّد العِلْم بانسلالِهم غيرُ كافٍ في التَّهديد إنْ لم يكن هنالك عِلْمٌ بيوم العَوْد للحساب والجزاء، وانظرْ إلى التَّناسب الشديد بين الانسلالِ والرُّجوع للحساب، فوقع طباقٌ خفيٌّ بين ما هم عليه من انسلال وهروبٍ وبين الرجوع والعود.

بلاغةُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغيبة:

واجهَهم بالخطاب تهديدًا، ثم التفتَ عنه إلى الغيبة تهويلًا وسُخرية

الخطابُ في قوله: ﴿أَنتُمۡ﴾ هو للمنافقينَ المعهودينَ في سياق الآية السّابقة، الذين كانوا يتسلَّلون لِواذًا من مَجامعِه ﷺ، وكذلك يعودُ إليهم ضميرُ الغَيبة في قوله: ﴿يُرۡجَعُونَ﴾، وعليه ففي الكلام التفاتٌ من الخطاب إلى الغَيبة، بحيث يكون قد واجهَهُم بالخطاب أوَّلًا تهديدًا وتنكيلًا، ثمَّ التفتَ عن خطابهم، وعبَّر عنهم بضمير الغيبة تفخيمًا وتهويلًا للأمر الذي ينتظرُهم بالرَّجعة إليه سبحانه وسخريةً بحالهم وتقليلًا لشأنهم، كما أنَّه لا يخفى ما فيه من تنبيهٍ على الإعراضِ عنهم يوم القيامة، فهم لما هم عليه لا يستحقّون أنْ يُقبل اللّه تعالى عليهم بالخطاب، وقد كذَّبوا بالقيامة من قبلُ، ففي هذا الالتفاتِ تنبيهٌ أيضًا "على الإعراض عن المكذِّب بالقيامة، والإقبالِ على المصدِّق، صَوْنًا لنفيس الكلام، عن الجُفاة الأغبياء

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 68.

اللِّئام"(1)، وجوَّز الزمخشريُّ أنْ يكون ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ خطابًا عامًّا، ويكونُ ﴿يُرْجَعُونَ﴾ للمنافقين(2).

نكتةُ استعمالِ (اليوم) في ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾:

وصـفُ القيامةِ بأنَّها يـومُ تفنيدٍ لإنكارِهم له

إنَّ هذا التكوين النَّحوي يؤول إلى مركَّب إضافيٍّ، تقديره (ويومَ رجوعهم إليه)، وإنَّما عبَّر عن يوم القيامة بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ لكونهم كانوا يُنكرون القيامة أصلًا، فهم لم يُصَدِّقوا به يومًا، فأخبرَ عنه بأنَّه كما يعلمُ سائرَ أحوالهم التي هم عليها؛ فإنَّه يعلم يومَ الرجوع والنشور، وعلمُهُ تعالى لا يتخلَّفُ بالأحوالِ التي هم عليها والأزمنةِ التي تجري عليهم حالًا واستقبالًا ومنها يوم القيامة، ومن ثَمَّ سمّاه يومًا، وأعطاهُ حيِّزًا زمنيًّا؛ ليكون كسائر الأيام المعهودة.

نكتةُ تعليقِ عِلْم الله تعالى بيوم الرجوع:

الكنايةُ أبلغُ في إثبـات الـرجـوع المنفيِّ

ومن البلاغة الظاهرة في قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ﴾ أنَّه علَّق علمَهُ تعالى بيوم رجوعهم لا بنفس رجوعهم، وذلك لزيادة تحقيقِ علمه تعالى بذلك، وغايةُ تقريره: لمّا أنَّ العلْمَ بوقت وقوعِ الشَّيء مستلزمٌ للعلم بوقوعِهِ على أبلغ وجهٍ وآكدِه، وفيه إشعارٌ بأنَّ علمَهُ تعالى لنفسِ رجوعهم من الظُّهور بحيثُ لا يحتاج إلى البيان قطعًا(3).

دلالةُ استعمال الفعل ﴿يُرْجَعُونَ﴾:

لـفـظُ الـرجـوع المتعـدّي معناه الإعادة والتصيير

قوله ﴿يُرْجَعُونَ﴾، أي: يصيرونَ إلى اللّٰه تعالى حيثُ يُعيدهم ربُّهم إليه، كما أنَّه قد بدأهم، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩﴾ [الأعراف: 29]، فهو هنا مِن الرَّجْع بمعنى: الإعادة، فلفظ "الرجوع، إنْ لم يتعدَّ، فهو بمعنى: العَوْدِ، وإن تعدَّى؛ فبمعنى: الإعادة"(4)،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 327.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 261، وأبو حيَّان البحر المحيط: 8/ 77.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 199.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/ 123.

ولذلك عُبِّر به مبنيًّا للمفعول على ما سيأتي، وإنَّما أرادَ به معنى (الإعادة)؛ لأنَّهم يُنكرونها كما يُنكرون يوم القيامة، فأثبتَ لهم أنَّه يعلم ما هم عليه من أحوالٍ، ويعلم ما سيجري عليهم من زمانِ القيامة، ويعلمُ إعادتهم ونشرَهم للحساب، فكانَ التوكيدُ بـ ﴿قَدۡ﴾ مُناسبًا لجميع ما يُنكرونه، ولا يُثبتونه للّه تعالى ردًّا على إنكارهم، وتفنيدًا لسوءِ مُعتقدهم باللّه تعالى الخالقِ المالكِ لهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمبنيِّ للمفعول ﴿يُرۡجَعُونَ﴾:

عَـبَّر بـالمـبـنـيِّ لـلـمـفـعـول تـهـويـلًا ودلالـةً عـلـى الـقـهـر واستخفافًا بهم

عبَّر بـ ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول تهويلًا؛ لإشعارهم بمدى القهر الواقع عليهم في الرُّجوع إلى ربِّهم، وقد كانوا طوالَ حياتهم يَفرّون منه، فهو رجوعٌ، مقهورونَ عليه لا اختيارَ لهم فيه، و"لا يقدرون له على دفاعٍ، ولا نوعِ امتناعٍ"[1]، كما أنَّ في تهويل ذلك الرجوع القهريِّ استخفافًا بهم وتقليلًا لشأنهم؛ إذ ظنوا أنَّ عمليَّة إعادتهم صعبةٌ غيرُ يسيرة، فأخبر عنها بصيغة المبنيِّ للمجهول للدلالة على أنَّها يسيرةٌ لا يُعبأ بهم عند الرجوع والإعادة.

غرضُ استعمال الجار والمجرور ضميرًا:

الرُّجوع سيكون لله الملك الواحد القهار

تعدَّى الفعل (رجع) بحرف الجر (إلى) في قوله ﴿يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ الذي يدلُّ على انتهاء الغاية؛ تنبيهًا لهم إلى الغاية التي سيؤوبون إليها؛ إذ لا ملجأَ لهم من اللّه إلّا إليه، وأنَّ ذلك الرجوع والانتهاءَ تبدأ محطَّتُه بالموت، وتنتهي بالقيام بين يديه تعالى للحساب والجزاء؛ إذ لكلِّ بدايةٍ نهايةٌ، وعبَّر بالضَّمير اختصارًا؛ للعِلْم بمرجعه، فالآيةُ مُستهلَّة بقوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وأيضًا لاختصاصه سبحانه بذلك، فالرُّجوعُ إنَّما يكون إلى اللّه سبحانه لا إلى غيره، كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 281]، وإنَّما لم يتقدَّمِ الجارُّ والمجرور؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 327.

ليفيدَ الانحصارَ للعلم بذلك في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فاكتفى به هنا لذلك.

نوعُ الفاءِ ومعناها: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾:

عطفُ التَّنبئةِ على الرُّجوع أبلغُ في نفي وهمِهم عدمَ البعث

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ عاطفةٌ مرتِّبةٌ ما بعدَها على ما قبلَها، فهي مرتِّبةٌ الإنباءَ على الرَّجعةِ، أي: يَرجِعونَ إليه، فيُرتِّب على ذلك إنباءَهم بما عملوا، وإنَّما لم يكتفِ بالإرجاع، وصرَّح بالتنبئة؛ لأنَّ السياق قائمٌ على إنكارِهم الرجوعَ، فلم يكتفِ بإثباته بل عمَدَ إلى التَّصريح بما يقعُ عقيبَهُ من الإخبار بما عملوا من أعمالٍ فاسدةٍ، وبما ظنّوه من أوهامٍ فارغة؛ ليكون أكثرَ إثباتًا لما نفوه، وأوضحَ دليلًا على ردِّ ما توهَّموه.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾:

إثباتُ العذابِ بإثباتِ ملزومِه وهي التَّنبئةُ بأعمالِهم السيِّئة

قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ تهديدٌ لهم؛ لأنَّه كنايةٌ[1] عن الجزاءِ الأليم الذي ينتظرُهم، فالإنباء نفسُهُ ليس غايةً يوقفُ عندها، بل يُذكر؛ ليُنبَّه به على ما بعدَه من الجزاء، فقد ذكر الملزومَ، وهي التَّنبئةُ، وأراد به لازمَهُ من العذابِ المنتظر؛ نتيجةَ استخفافهم باللّه ورسوله ﷺ.

نكتةُ التعبير بالموصول وصلته:

العمومُ العلميُّ يستدعي العلمَ بالعموم العمليِّ

وقع التعبير عن أعمالهم السيئة بالموصول وصلته، فقال: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ﴾، و(ما) قد تكون موصولًا اسميًّا بمعنى (الذي)، أي: ينبِّئهم بالَّذي عَمِلوه فيما مضى من حياتهم، ويُحتمل أن تكون اسمَ موصولٍ حرفيٍّ، فتتأوَّل مع الفعلِ بمصدر، أي: يُنبِّئُهم بعَمَلهم، وسواءٌ كانت موصولًا اسميًّا أم حرفيًّا، فإنَّ المراد أنَّ الله يُنبِّئهم بأعمالهم التي صدرتْ منهم، من دون زيادةٍ أوْ نقصان، ولذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 312.

أسندَ العمل إليهم؛ لبيانِ أنَّه صادقٌ في حسابهم، فلا يحاسبونَ على أعمال لم تصدُر عنهم، ومِن بلاغة الأسلوب أنَّه لمّا عبَّر قبلُ عن علمِه تعالى بالشمول والاتِساع عبَّر عن عملِهم بلفظ دالٍّ على العموم والاستغراق، للدَّلالة على أنَّه تعالى خبيرٌ بجميع ما قدَّموه محيطٌ بكلِّ ما فعلوه، فالعمومُ العلميُّ يستدعي العِلْمَ بالعموم العمليِّ، وكان اختيارُ (باء الملابسة) أداةً للتعليق مناسبًا لغرضِ التَّنبئةِ بأعمالهم التي لابسوها من دون زيادةٍ عليها أوْ نقصانٍ فيها.

نكتةُ استعمال (العمل) دون (الفعل):

(العمل) يدلُّ على القصد، بخلاف (الفعل) فقد يطلقُ على ما لا يكونُ مقصودًا

آثر التعبيرَ بـ(العمل) في ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ﴾ دون لفظ (الفعل)؛ لأنَّ العمل هو ما يكونُ عن قصدٍ وإدراك، بخلاف (الفعل)، فقد يكون بغير قصدٍ، ولذلك فإنَّ ما يُنسَبُ إلى الحيوانات هو فعلٌ، وليس عملًا[1]، وفي مقام المؤاخذةِ والمحاسبةِ يتعيَّن التعبيرُ بما يدلُّ على تعيُّن القصد، وهذا المعنى يتناسبُ مع عدالة المحاسِب، فهو لا يؤاخذُ الناس إلّا بما اقترفوه عن قصدٍ وإرادة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾:

عطفُ العامِّ على الخاصِّ للاحترازِ عن إرادة الخاصِّ

(الواو) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ للاستئناف، والجملة مستأنفةٌ مؤكِّدةٌ ومقرِّرةٌ لمضمون ما قبلَها، لا محلَّ لها من الإعراب[2]، ويحتمل أن تكون (الواو) عاطفةً للجملةِ الاسميَّة على الجملةِ الفعليَّة: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾، والغرضُ من العطف الاحترازُ عن وهْم مَنْ يتوهَّم أنَّه يعلمُ خصوصَ ما عليه المنافقونَ من أحوالٍ وتصرُّفات فحسب، فأردفَ ذلك بإثباتِ أنَّه بكلِّ شيءٍ عليم، لا يعزبُ عن علمِه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، فهو من عطف العامِّ على الخاصِّ.

---

(1) الراغب، المفردات: (عمل - فعل).

(2) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 18/ 293.

تعظيمُ الله تعالى من مقاصد الإسلام العظمى

بلاغةُ تقديم المسندِ إليه على المسنَد، وإظهاره:

قدَّم المسندَ إليه وهو اسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ على المسند ﴿عَلِيمٌ﴾ لإفادةِ الاهتمام والتعظيم والتبرُّك، ولذا أظهرَ الاسم الجليل (اللّه) في مقامِ الإضمار، فلم يقل: (وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ)؛ وذلك للتعظيم ولتأكيدِ استقلالِ الجملة المعطوفة، والإشعارِ بعلَّة الحُكم[1]، فهو عليمٌ بكلِّ شيء؛ لأنَّه هو اللّهُ الجامعُ لكلِّ صفات الكمال والجلال.

حصرُ العِلْم بالأشياء كلِّها بالله تعالى، والردُّ على مَن ينفون علمه بالجزئيات من الفلاسفةِ

غرضُ تقديم المتعلّق على المسند:

في تقديم قوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ على المسند ﴿عَلِيمٌ﴾ إفادةُ الحصر على معنى: (واللّه عليمٌ بكلِّ شيء)، وبهذا الحصرِ تحقَّقَ انحصارُ العِلْم بكلِّ شيءٍ باللّه تعالى، في حين أنَّ غيره إنَّما يعلمُ ببعضٍ دونَ بعض علْمًا حادثًا عاجزًا غير مفصَّلٍ، واختار لفظ (الكل) لنفي علْمِه ببعض الأشياءِ كما يزعمُهُ بعضُ الفلاسفة الَّذينَ يَنفونَ عنه سبحانه - وقد كذبوا - علمَهُ بالجزئيّات والتفاصيل لشُبَهٍ واهية، ولذا استعملَ أداةَ العموم (كل) للتَّنبيه والردِّ على مَن يَنفون علْمَهُ سبحانه بالجزئيات من الفلاسفة وغُلاة القدَريَّة، وقد قال تعالى في تأكيدِ علمه بكافَّة تفاصيلِ ما يقع في الكون: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾ [سبأ: 3]، وقال سبحانه: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: 59][2].

مهما دقَّ الشَّيءُ، أوْ صغُرَ؛ فإنَّ علْمَ الله تعالى قائمٌ به

براعةُ إضافةِ (كل) إلى ﴿شَيۡءٍ﴾:

في إضافة (كل) - وهي من صيغ العموم إلى ﴿شَيۡءٍ﴾، وهي مع

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 418.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 418.

تنكيرها تشملُ كلَّ ما يمكنُ أنْ يُسمّى شيئًا مهما دقَّ وصغُر - ما ينبِّهُ على إحاطة عِلْمِهِ سبحانه بكلِّ ما في الكون، ومن ثمَّ فلن يغيبَ عنه إيمانُ مَن آمن، ولا كُفرُ مَن كفر، مهما حاول أهلُ الكفر والنِّفاق إخفاءَه عن أعينِ النّاس.

فائدةُ التَّعبير بصيغةِ ﴿عَلِيمٌ﴾:

بناءُ الصِّفات الحُسنى على المبالغة مرجعُهُ إلى التمكُّن منها، وإلى تعدُّد متعلِّقاتها

صيغة ﴿عَلِيمٌ﴾ بوزن (فعيل) هي أشهر صيغ المبالغة، التي بُنيت عليها صفاتُ اللّه تعالى، فتدلُّ على مُنتَهى ما تدلُّ عليه الصّيغة من معنًى، ولأنَّ علمَه سبحانه يشملُ كلَّ شيء في هذا الكون الفسيح، فقد كان أوفقَ أنْ تُبنى الصِّفة على صيغةِ المبالغة، للدَّلالة على سَعة علمه، ولتعدُّد متعلِّقاتها وتنوُّعها وامتدادها في الزَّمان، وما قبلَ الزَّمان وبعدَه.

بلاغةُ الترابط بين صدرِ الآية وفاصلتِها:

ردُّ الختام على المبدأ، والتحامُ الآخِر بالأوَّل في أصحِّ معنًى وأرقِّ أسلوبٍ

لمّا بيَّن سبحانه في مستهلِّ الآية أنَّه (مالك كل شيء)، بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ ردًّا على مَن كفروا به، وظنّوا أنَّ باستطاعتهم إخفاءَ النِّفاق حتّى يتاحَ لهم التَّحرُّك بين المؤمنينَ والتدبير لهم كيفَما أرادوا؛ كان مقتضى ذلك أنْ يُظهِر لهم أنَّه أيضًا (عليم بكل شيء)، فكان التَّذييل والفاصلة: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾؛ حتى تلتقيَ الإحاطتانِ وتتعانقا: إحاطةُ المُلك وإحاطةُ العِلم بكلِّ ما في الملك؛ لأنَّه قد يملكُ الإنسانُ الشيءَ الكثير، لكنَّه لا يحيط علمًا بتفاصيله ودقائقه، فيغيبُ عنه ذلك مهما استعانَ بالإداراتِ وبالحواسيب، أمّا اللّه تعالى؛ فإنَّه لا يغيبُ عن عِلْمِهِ بملكه نقيرٌ ولا قطميرٌ، وبذلك حَسُنَ ردُّ العجُزِ على الصَّدر، والتحمَ الآخِر بالأوَّل، والختامُ بالبدء في أصحِّ معنًى وأرقِّ أسلوبٍ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّبَأ والخبر:

فرَّق العسكريُّ بين كلٍّ من (النَّبأ والخبر) من وجهين:

النَّبأُ أخصُّ من الـخـبر وأقــوى منه من جهة؛ كـونه مختصًّا بالخبر العظيم، وبكونه ممّا لا يعلمُه المخبَرُ

الأوّل: أنَّ (النَّبأ) لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمُه المُخبَر، أمّا الخبر؛ فإنَّه يجوز أن يكون بما يعلمُه، وبما لا يعلمُه، ولهذا يقال: تخبرُني عن نفسي، ولا يقال: تنبئُني عن نفسي، وكذلك تقول: تخبرُني عمّا عندي، ولا تقول: تنبئُني عمّا عندي، وفي القرآن الكريم: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ [الشعراء: 6]، وإنَّما استهزؤوا به؛ لأنَّهم لم يعلموا حقيقتَهُ، ولو علموا ذلك؛ لتوقَّوهُ - يعني العذاب - وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ [هود: 100]، وكان النبيُّ ﷺ لا يعرف شيئًا منها.

الثاني: أنَّ (النَّبأ) هو الخبر العظيمُ الشأن، قال علي بن عيسى عن النَّبأ: هو معنًى عظيمُ الشَّأن[1]، وقال الرّاغب: النَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به عِلْمٌ أَوْ غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبر في الأصل: نَبَأٌ حتى يتضمَّنَ هذه الأشياء الثّلاثة؛ وحقُّ الخبر - الذي يقالُ فيه: نَبَأٌ - أنْ يتعرّى عن الكذب، كالتَّواترِ وخبرِ الله تعالى وخبرِ النبيِّ عليه السلام، ولتضمُّن النَّبأِ معنى الخبر؛ يقال: أَنْبَأْتُهُ بكذا، كقولك: أخبرتُهُ بكذا، ولتضمُّنِه معنى العِلْم؛ قيل: أَنْبَأْتُهُ كذا، كقولك: أعلمتُهُ كذا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [ص: 67 - 68]، وقال: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: 1 - 2]، وبهذا يُعرف أنَّ (النَّبأ) أخصُّ من الخبر وأقوى منه، بما يحملُه من صفة الفائدة العظيمة، ومن كونه ممّا لا يعلمُه المخبَر، ولذا كان التعبير بالإنباء في الآية الكريمة: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ أنسبَ؛ لأنَّهم مقبلونَ على أمر عظيم هم يجهلونَهُ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41.

سُورَةُ الفُرقَانِ

سُورَةُ الفُرْقَانِ

التَّعريفُ العامُّ بالسّورة:

الأصحُّ أنَّ سورةَ (الفرقان) كلَّها مكّيّةٌ

سورة الفرقان من السّور المكّيَّة عند جمهور العلماء[1]، وذهبَ السّيوطيُّ إلى استثناء آياتٍ منها، وذكر أنها مدنيَّة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾ [الفرقان: 68 - 70][2].

وذهب الضّحّاك إلى أنَّها مدنيَّةٌ إلّا الآياتُ الثّلاثُ مِن أوّلها إلى قوله: ﴿وَلَا نُشُورًا ٣﴾ [الفرقان: 3][3].

لكنَّ الصَّحيحَ أنَّها مكّيَّة؛ قال ابن عاشور: "الصَّحيحُ أَنَّ هَذِهِ الآياتِ الثَّلاثَ مَكّيَّةٌ كَما في صَحيحِ البُخاريِّ في تَفْسيرِ سورَةِ الفُرْقانِ: «عَنِ القاسِمِ بنِ أَبي بَزَّةَ أَنَّهُ سَأَلَ سَعيدَ بْنَ جُبَيْرٍ: هَلْ لِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا مِنْ تَوْبَةٍ؟ فقَرَأْتُ عَلَيْهِ: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفرقان: 68]، فقالَ سَعيدٌ: قَرَأْتُها على ابْنِ عَبّاسٍ، كما قَرَأْتَها عَلَيَّ، فقالَ: هَذِهِ مَكّيَّةٌ نَسَخَتْها آيَةٌ مَدَنيَّةٌ الَّتي في سورَةِ النِّساءِ»[4]، يُريد قولهُ تعالَى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآيَةَ [النّساء: 93] ... وأسلوبُ السّورة وأغراضها شاهدة بأنّها مكّيَّة"[5].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 199.
(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 62.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 313.
(4) البخاري، الصحيح، كتاب التّفسير، حديث رقم: (4484).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 313.

وسورةُ (الفرقان) هي السّورةُ الخامسةُ والعشرون في ترتيب المصحف الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّلُ عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، جاءَتْ بين سورتي النّور والشُّعراءِ، وعددُ آياتها سبعٌ وسَبعونَ آيَة في جَميع العدَد لَيْسَ فيها اخْتِلاف[1]، وأمّا ترتيبها النُّزوليُّ؛ فقد ذكر بعضُهم أنَّ ترتيبها الثّانية والأربعون بين سورتي (يس) و(فاطر)[2]، والحقُّ أنَّ التَّرتيب النُّزوليَّ ليس قطعيًّا في ثبوته؛ لأن الرويات الذي ذكرت ذلك لم تثبت.

فضائل سورة الفرقان:

عندَ البحث والتَّحقيق في آثارِ فضلها نجدُ هذه الرواية المشتهرة عن عمرَ بن الخطاب - ﷺ - أنَّه قال: «سمعتُ هِشامَ بنَ حَكيم بنِ حزام يَقْرَأُ سورَةَ الفُرْقانِ على غَيْرِ ما أَقْرَؤُها، وكانَ رَسولُ اللَّه ﷺ أَقرَأَنيها، وكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْه، ثُمَّ أَمهَلْتُهُ حَتَّى انْصَرفَ، ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدائِه، فجِئْتُ بِه رَسولَ اللَّه ﷺ، فقُلْتُ: إنّي سَمِعْتُ هَذا يَقرَأُ على غيرِ ما أَقرَأْتنيها، فقالَ لي: أَرْسِلْهُ، ثُمَّ قالَ لَهُ: اقْرَأْ، فقَرَأَ، قالَ: هَكَذا أُنْزِلَتْ، ثُمَّ قالَ لي: اقْرَأْ، فقَرَأْتُ، فقالَ: هَكَذا أُنْزِلَتْ، إنَّ القُرْآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرُف، فاقروُوا منهُ ما تيسَّرَ»[3].

دلالة التّوقيت الزّمنيّ لنزول السّورة:

ظروفُ نزول السّورةِ حافلةٌ بالأحداثِ والتّحديّات للمُسلمينَ في مكّة

نزلَت السورة في أواسط الفترة المكّيَّة، وهي فترةٌ حافلةٌ بأحداثٍ جِسامٍ عاشَها الصحابة الكرام رفقة النَّبيِّ ﷺ، ويظهرُ ذلك جليًّا من خلالِ تزاحُم الآيات التي جاءتْ للتَّسرية عن النَّبيِّ ﷺ من مثلِ قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي

(1) الداني، البيان في عدّ آيّ القرآن، ص: 194.

(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43، ودروزة، التفسير الحديث: 3/ 47.

(3) البخاري، الصحيح، كتاب الخصومات، باب: كلام الخصوم بعضهم في بعض، حديث رقم (2288).

مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان: 9 - 10]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: 31 - 32]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: 56 - 58].

أسماءُ السّورة الكريمة:

سورةُ (الفرقان) لم تُسَمَّ باسمٍ غيرِه في الأثر

تقدَّم في التَّعريفِ بالسّورة أنَّ تسميتَها (سورةَ الفُرقان) قد ورد على لسانِ عمرَ بنِ الخطاب في الرِّوايات الصَّحيحةِ الثّابته عنه، وأنَّه نطق باسمِها أمامَ النَّبيِّ ﷺ: «فانْطَلَقْتُ به أقودُهُ (أي: هشام) إلَى رَسولِ اللّه ﷺ، فقلتُ: إنّي سَمِعْتُ هَذا يَقْرَأُ بسورَةِ الفُرْقانِ على حروف لم تقرِئْنيها، فقالَ رَسولُ اللّه ﷺ: أرسِلْهُ، اقرَأ يا هِشامُ، فقَرَأَ عَلَيهِ القِراءَةَ الَّتي سمعتُهُ يقرأ، فقالَ رَسولُ اللّه ﷺ: كذلكَ أُنزِلَتْ»[1]، قال ابن عاشور: ولا يُعرَفُ لِهَذهِ السّورَةِ اسمٌ غيرُ هَذا، والمؤَدِّبونَ مِنْ أَهْلِ تونِسَ يُسَمّونَها (تَبارَكَ الفُرْقانُ) كَما يُسَمّونَ سورَةَ المُلْكِ: (تَبارَكَ، وتَبارَكَ المُلْكُ)، ووَجْهُ تَسْمِيَتِها (سورَةَ الفُرْقانِ) لِوُقوعِ لَفْظِ الفُرْقانِ فيها ثَلاثَ مَرّاتٍ في أَوَّلِها ووَسَطِها وآخِرِها[2].

وقال المهايميُّ: سُمّيت بـ(الفرقان) لاشتمالها على كثرةِ خيرات الحقِّ بالفرقان، الذي هو التَّمييزُ بين الحقِّ والباطل[3]، وأضاف القاسميُّ: والأظهرُ أنَّه لذكرِ الفُرقان فيها بمعانيهِ الآتيةِ المتَّسع لها اللَّفظ[4]، وعلى هذا فإنَّ تسميتَها بالفرقان مرتبطٌ بالمُفاصلة

(1) البخاري، الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، حديث رقم (4706).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/ 18.
(3) المهايمي، تبصير الرّحمن وتيسير المنّان، ص: 426.
(4) القاسمي، محاسن التّأويل: 7/ 415.

بين الحقِّ والباطل من جوانبَ متنوِّعة، فالسّورةُ الكريمة قد بيَّنتْ أسبابَ هذه المفاصلة بين فريقَي الحقِّ والباطل، وبيَّنتْ شُبُهات أهل الباطل الفكريَّة والعقديَّة حولَ الكتاب والنُّبوَّة، وبيَّنت مآلاتِ إعراضِهم وآثارها عليهم في الدُّنيا والآخرة، وعقدتِ السّورة كذلك موازناتٍ بينهم وبينَ عباد الرَّحمن المتَّصفينَ بالصِّفات الخُلُقيَّة والعقديَّة والنَّفسيَّة، التي تؤهِّلُهم لأن يكونوا أنصارَ الحقِّ وحُماتَهُ.

محور السورة:

مَـدارُ الـسّـورةِ حــولَ تحقيق المـفـاصـلـةِ بين أهل الحقِّ وأهل الباطل

افتُتِحَتْ هذه السّورة الكريمة بالثَّناءِ على الله تعالى، الَّذي نزَّل الفرقانَ على عبده محمَّد ﷺ، والَّذي له ملكُ السَّماوات والأرض، والَّذي خلقَ كلَّ شيء، فقدَّرَهُ تقديرًا، ثمَّ انتقلتِ السّورة بعد ذلك إلى حكايةِ بعض أقوال المشركينَ، الذين أثاروا الشُّبهاتِ حول الرَّسول ﷺ وحولَ دعوته، وردَّتْ عليهم بما يمحقُ باطلَهم، وقارنَتْ بين مصيرهم السيِّئ وما أعدَّه الله تعالى للمؤمنين من جنّات: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان: 7 - 8]، ثم ذَكرت جانبًا من تطاولهم وعنادِهم في أكثر من موضع من السورة، والردّ عليهم بما يَكبِتُهم، وبما يزيدُ المؤمنين ثباتًا على ثباتهم: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٢٢ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ۝٢٣ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ۝٢٤﴾ [الفرقان: 22 - 24]، وجاءت بجانب من قَصَص بعض الأنبياء مع أقوامهم، فيقول: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ۝٣٥ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ۝٣٦ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝٣٧﴾

[الفرقان: 35 - 37] ثمَّ انتقلت السّورةُ الكريمة بعد ذلك إلى الحديثِ عن مظاهر قدرة اللّه تعالى، فتسوق لنا مظاهرَ قدرتهِ في مدِّ الظلِّ، وفي تعاقبِ اللَّيل والنَّهار، وفي الرّياح التي يُرسلُها سبحانه؛ لتكونَ بشارةً لنزول المطر، ثمَّ يعقِّب على ذلك بالتعجُّبِ من حال الكافرين، الذين يعبدونَ من دونه سبحانه ما لا ينفعُهم ولا يضرُّهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: 45 - 47][1].

موضوعات السورة وخصائصها:

العلَّةُ من إنزال الفرقان وإرسالِ الرُّسل هو تحقيقُ المفاصلة بين الحقِّ والباطل

تدور موضوعات السورة الكريمة حول إنزال القرآن ورد الشبهات عليه، وحول الرسول ﷺ والدفاع عنه، وعن رسالته، وهي على الترتيب الآتي:

الأول: بدأت السورة بإثبات الوحدانية للّه ﷻ، وبيان أن القرآن أنزله اللّه تعالى، وصحة رسالة النبي ﷺ، ووقوع البعث والجزاء يوم القيامة لا محالة، في الآيات [1 - 7].

الثاني: فنَّدت السورة عقائد المشركين، ونعت عليهم عبادة الأصنام والأوثان ونسبة الولد للّه ﷻ، وتكذيبهم بالبعث والقيامة، وهددتهم بما سيلقون من ألوان العذاب والنكال في نار جهنم، ومفاجأتهم بما في جنان الخلد من أصناف النعيم المقيم، في الآيات [8 - 16].

الثالث: اقتضى إنزالُ الكتاب وإرسالُ الرُّسل انقسامَ النّاس إلى فريقَيْن: فريق الحقِّ، وفريق الباطل، واقتضى هذا المحورُ كذلك أنْ تنعى السّورة على أهل الباطل اتِّخاذَهم الشُّركاء للّه، ونفَتْ عن هذه الآلهة المزعومةِ مظاهرَ النَّفع والضُّرِّ، في الآيات [17 - 19]، [55].

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 166 - 168.

الرابع: تعرضت السّورة الكريمة لأسبابِ إعراضهم، وأسانيدِ كفرهم الدّاخليَّة والخارجيَّة، التي منها: الاستكبارُ، واتِّباعُ الهوى، وتعطيلُ أدوات الانتفاع، وإغلاقُ نوافذ المعرفة، وعدمُ الاعتبار بمصائر الأمم السّابقة، في الآيات [21]، [40 - 44].

الخامس: تعرضَ السّورةُ الكريمةُ للآياتِ الكونيَّة في الأنفس والآفاق، الدّالَّةِ على صدق الفُرقان وصدقِ مَن نزل عليه، في الآيات [45 - 49]، [53 - 55].

السادس: ختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن المخلصين الموقنين، وما يتحلون به من أخلاق سامية وآداب رضية، تجعلهم يستحقون بها إكرام الله تعالى وثوابه الجزيل في جنات النعيم، في الآيات [62 - 77].

الخصائصُ الأسلوبيَّة لسورة (الفرقان):

سورة (الفرقان) انفردتْ بمُميِّزات وخصائصَ مازَتْها عن غيرها من السّور المكّيَّة

أولًا: انفردَتْ سورةُ الفرقان بذكر بعضِ الشُّبهات التي طرحها المشركون حول النُّبوَّة ومصدريَّة القرآن، فقد اتَّهموه باكتتاب هذا القرآن، واتَّهموه ببشريَّته وسحره، وأنَّه جاء بالقرآن منجَّمًا.

ثانيًا: تميَّزت السّورة الكريمة بذكر بعض المشاهد القرآنيَّة للأدلَّة الأنفسيَّة في خلق الإنسان وفي الآفاق، ممّا لم تشاركْها فيه سورةٌ أخرى، أَوْ شاركتها فيه، ولكنْ من زاويةِ عرضٍ أخرى، كقوله في خلق الإنسان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: 54]، وكذلك مدُّ الظِّلِّ، وإنزال المطر، وسقي الأنعام والأناسيِّ، ومرج البحرين، وخلق السّماوات والأرض في ستَّة أيام، والاستواء على العرش، وبروج السماء، والسراج، والقمر... إلى غير ذلك.

ثالثًا: انفردتِ السّورة الكريمة بوصف النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ لقومه بأنَّهم اتَّخذوا القرآنَ مهجورًا، حيث لم يرد في سورة أخرى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: 30].

رابعًا: امتازتِ السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ حيثُ لم تشاركها فيه سوى (سورة الملك)، علمًا أنَّ كلتا السّورتَيْنِ جاءتا بعد سورٍ مدنيَّة، فالمُلْك بعد التَّحريم، والفرقان بعد النّور، وكلتا السّورتَيْن المدنيَّتَيْن قد تعرَّضتا لأحكام بيت النُّبوَّة، لكنَّ سورة الفرقان تكرَّر فيها قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ ثلاث مرّات[1].

خامسًا: اختُتمتْ بعض آيات السّورة بلفظتَيْن مشتقَّتَيْن من أصل واحد، مثل: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: 21]، ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: 22، 53]، ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: 32]، ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان: 36]، ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: 39]، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا﴾ [الفرقان: 46]، ﴿يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: 71]. فضلًا عن اقتران فواصلِها ببعض المتقابلات، أو العامِّ والخاصِّ مثلُ قوله: ﴿ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان: 4]، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: 5]، ﴿جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الفرقان: 15]، ﴿وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: 3]، ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ [الفرقان: 56]، ﴿سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: 61]، ﴿سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: 64]، ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: 66، 76]، ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: 73]، ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان: 75].

سادسًا: وردتْ في السّورة بعضُ الألفاظ بنسبٍ لافتة للنَّظر بالنِّسبة إلى مجموع ورودِها في القرآن كلِّه، فقد وردت لفظة ﴿تَبَارَكَ﴾ فيها ثلاثُ مرّات من أصل تسعِ مرّات في القرآن كلِّه[2]، ووردتْ فيها لفظة ﴿ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ ثلاث مرّات من أصل أربعٍ في القرآن كلِّه[3]، و﴿وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ وردت مرَّتَيْن من أصل أربع[4]، و﴿نَسَبًا﴾ وردت مرَّةً من أصل مرَّتَيْنِ في القرآن كلِّه[5]، وكذلك تكرَّر فيها لفظُ: (السَّبيل) نحوَ سبعِ مرّات[6].

سابعًا: انفردتِ السّورة ببعض الأبنية الصَّرفيَّة لأسماءٍ وأفعالٍ لم ترد في غيرها، مثل:

---

(1) الآيات: 1، 10، 61.
(2) الآيات: الأعراف: 54، المؤمنون: 14، الفرقان: 1، 10، 61، غافر: 64، الزخرف: 85، الرحمن: 78، الملك: 1.
(3) الآيات: الإسراء، ص: 102، الفرقان: 13، 14، الانشقاق: 11.
(4) الآيات: الحج: 30، الفرقان: 4، 72، المجادلة: 2.
(5) الآيتان: الفرقان: 54، الصافات، ص: 158.
(6) الآيات: 9، 7، 27، 34، 42، 44، 57.

﴿ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ حيث وردت في السّورة في موضعَيۡن[1]، و﴿وَصِهۡرٗاۗ﴾[2]، و﴿وَزَفِيرًا ١٢﴾[3]، و﴿يَخِرُّواْ﴾[4]، و﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢﴾[5]، و﴿تَبَّرۡنَا﴾[6]، و﴿مَهۡجُورٗا ٣٠﴾[7]، و﴿مَقِيلٗا ٢٤﴾[8]، و﴿نُشُورٗا ٣﴾[9] وغيرها.

ثامنًا: انفردتِ السّورةُ كذلك بألفاظ فريدةٍ لم يرد من جذرها اشتقاقاتٌ وصيغٌ أخرى في القرآن الكريم وهي: ﴿فُلَانًا﴾ [الفرقان: 28] في قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾ [الفرقان: 28]، و﴿تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: 33]، في قوله: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: 33]، و﴿يَعۡبَؤُاْ﴾ [الفرقان: 77] في قوله: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾ [الفرقان: 77]، ولا يخفى ارتباطُ هذه الألفاظ بمحور السّورة ومقصودِها العامِّ.

بيانُ المناسبةِ بينَ السّورة وسابقتِها:

السّورةُ متَّصلةٌ تمامًا بسورة النّور مضمونًا وأسلوبًا

جاءتْ هذه السّورةُ في التَّرتيب المصحفيِّ بعدَ سورة النّور، وقد تلمَّس وجهَ اتِّصالهما الإمامُ السُّيوطيُّ بقوله: "ظهرَ لي بفضل اللّه بعد ما فكَّرت مدَّة: أنَّ نسبةَ هذه السّورة لسورة النّور، من حيث إنَّ النورَ قد خُتمت بقوله: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، ثمّ فُصِّلتْ هذه الجملة في (سورة الفرقان)، فافتُتِحتْ بقوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾، ثمَّ ذكر في خلال هذه السورة جملةً من المخلوقات، كـ(مدِّ الظِّلِّ، والليل، والنّوم، والنَّهار، والرّياح، والماء، والأنعام، والأناسيِّ، ومرج

(1) الآيتان: 7، 20.
(2) الآية: 54.
(3) الآية: 12.
(4) الآية: 73.
(5) الآيات: 22، 53.
(6) الآية: 39.
(7) الآية: 30.
(8) الآية: 24.
(9) الآيات: 3، 40، 47.

البحرين، والإنسان، والنَّسب، والصِّهر، وخلق السّماوات والأرض في ستَّة أيام، والاستواء على العرش، وبروج السَّماء، والسِّراج، والقمر)، إلى غير ذلك، ممّا هو تفصيلٌ لجملة: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ثمَّ أشار في هذه السّورة إلى القرونِ المكذِّبة وإهلاكهم، ثمَّ أوضحَ هذه الإشارة في السّورة التي تليها بالبسط التامِّ، والتَّفصيل البالغ.

ثمَّ ظهرتْ لي لطيفةٌ أخرى[1]، وهي: أنَّه إذا وقعتْ سورة مكّيَّة بعدَ سورة مدنيَّة، افتتحَ أوَّلُها بالثَّناء على اللّه، كـ(الأنعام) بعد (المائدة)، و(الإسراء) بعد (النَّحل)، وهذه بعدَ (النّور)، و(سبأ) بعدَ (الأحزاب)، و(الحديد) بعد (الواقعة)، و(تبارك) بعد (التحريم)؛ لما في ذلك من الإشارةِ إلى نوعِ استقلالٍ، وإلى الانتقال من نوعٍ إلى نوعٍ"[2]، وقد تقدَّم في سورة النّور أنَّ المراغيَّ قد ذكرَ وجوهًا أُخرى للمناسبةِ بينها وبينَ سورة النّور، منها:

الأول: أنَّه سبحانه اختتم (سورةَ النّور) بكونه مالكًا لما في السَّماوات والأرض مصرِّفًا له على ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة مع النِّظام البديع والوضع الأنيق، وأنَّه سيحاسبُ عبادَه يومَ القيامة على ما قدَّموا من العمَل خيرًا كان أوْ شرًّا، وافتتحَ (سورة الفرقان) بما يدلُّ على تعاليه في ذاتِه وصفاتِه وأفعاله، وعلى حبِّه خير عبادِه بإنزال القرآنِ لهم هاديًا وسراجًا منيرًا.

الثاني: اختتم (سورة النّور) بوجوب متابعة المؤمنينَ للرَّسول ﷺ معَ مدحِهم على ذلك، وتحذيرِهم من مخالفة أمره خوفَ الفتنة والعذابِ الأليم، وافتتحَ (سورة الفرقان) بمدح الرَّسول وإنزالِ الكتاب عليه لإرشادِهم إلى سبيل الرِّشاد، وذمّ الجاحدينَ لنبوَّته بقولهم: إنَّه رجلٌ مسحور، وإنَّه يأكلُ الطعام ويمشي في الأسواق ... إلى آخرِ ما قالوا.

الثالث: في كلٍّ من السّورتين وصفٌ للسَّحاب وإنزالِ الأمطار وإحياءِ الأرض الجرُز.

الرابع: ذكر في كلٍّ منهما وصفَ أعمالِ الكافرين يومَ القيامة، وأنَّها لا تجزيهم فتيلًا ولا قِطميرًا، فقال في الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: 39] الآية، وقال في هذه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: 23].

(1) الكلام لا زال للسيوطي.
(2) السّيوطيّ، تناسق الدّرر: 113 - 115.

الخامس: وصفَ النَّشأة الأولى للإنسان في أثنائِهما، فقال في الأولى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: 45]، وفي الثانية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: 54][1].

بيانُ المناسبةِ بينَ السّورة ولاحقتِها:

السّورةُ متّصلةٌ بسورة الشعراء مضمونًا وأسلوبًا

وأمّا وجهُ ارتباط (سورة الفرقان) بـ(سورة الشّعراء) فيمكنُ إجمال بعض وجوهِ اتِّصال السّورتَيْن الكريمتيْن بالنِّقاط الآتية:

الأول: إنَّ في (سورة الشّعراء) بسطًا وتفصيلًا لبعض ما ذكر في موضوعاتِ سالفتها، فقد انتصرَتْ سورةُ الشُّعراء للنَّبيِّ ﷺ، وردَّت على المشكِّكين في نبوَّته.

الثاني: إنَّ كلتيهما قد بُدِئَت بمدح الكتاب الكريم، ففي الشُّعراء وُصف الفرقان بقوله: ﴿طسٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾ [الشعراء: 1 - 2].

الثالث: اشتركتْ كلتا السّورتَيْن بالتَّسريةِ عن النَّبيِّ ﷺ، فقد ورد في الشُّعراء قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ③﴾ [الشعراء: 3]، وقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٢١٦ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٢٢٠﴾ [الشعراء: 216 - 220].

الرابع: إنَّ كلتيهما خُتمت بإبعاد المكذِّبين، فقد خُتِمت الفرقان بقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ٧٧﴾ [الفرقان: 77]، وخُتِمت الشُّعراء بوصفهم بالظُّلم وبوعيدهم بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشعراء: 227][2].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 18/ 145.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 19/ 44.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ① ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ②﴾ [الفرقان: 1 - 2]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

فاتحةُ سورة الفرقان تأكيدٌ وتفصيلٌ وتعليلٌ لخاتمة سورة النّور

هاتانِ الآيتان هما مستهلُّ (سورة الفرقان)، وبينهما وبينَ خاتمة (سورة النور) مناسبةٌ واضحةٌ تدلُّ على أنَّ القرآن في صورته الشاملة هو وحدةٌ كاملةٌ متلائمةُ الأجزاء، حتى لو تفرَّقت مضامينه في سور متعددة، وبيانُ ذلك هنا: أنَّه سبحانه لمّا ختمَ سورة النور بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾، فذيَّل بها سورةً كاملةً، ببيانِ أنَّ مُلكَ كلِّ ما في السَّماوات والأرض كبُر أوْ صغُر هو للّه تعالى وحدَه، ومن مقتضى ذلك إثباتُ أنَّه وحدَه المتصرِّف في مُلكه، "فكان ذلك إخبارًا بأنَّ ما فيهما ملكٌ له؛ أخبرَ هنا في مستهلِّ سورة الفرقان أنَّه له ملكُهما، أي: قهرُهما وقهرُ ما فيهما، فاجتمعَ له الملكُ لهما ولما فيهما"(1)، فظهرتْ بذلك مناسبةُ استهلال (سورة الفرقان) بالثناء على صاحب هذا الملك العظيم، الذي لا يُشاركه فيه أحدٌ من خلقه، وذي الخير الكثير بالإنعام على خلقه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ① ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فكان من جملةِ عِلَلِ استحقاق هذا الثَّناء هو كونُه سبحانه: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ لأنَّ الفرقان تفرَّقت فيه كلُّ ألوان الخير، وأنَّه سبحانه: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وأنَّه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، فهو وحدَهُ صاحبُ التصرُّف فيه،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 80.

وأنَّه وحده الذي: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، فكان التلاؤم ظاهرًا واضحًا بينَ ما خُتِمت به سورةُ النور، وما استُفتِحت به سورةُ الفرقان، وكأنَّ هذا الاستفتاح هنا هو تفصيلٌ وتعليلٌ للخاتمة هناك، وأيضًا فإنَّه لمّا قال في خاتمة سورة النّور: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ﴾، وهو بمنزلة التهديد والوعيدِ للمخالفينَ عن أمره سبحانه، وأمرِ رسولِه ﷺ، وأيضًا بمنزلةِ التَّبشير للطّائعينَ؛ فقد أظهرَ في مستهلِّ (سورة الفرقان) أنَّ الميزان الفاصلَ بينَ أهل الخلاف وأهل الوفاق، أوْ أهل الكفر وأهل الإيمان، هو هذا الكتاب الفارق بين الكفر والإيمان، وأنَّه بقدر امتثاله يتمايزُ أهلُ الإيمان، وبقدر التخلّي عنه ومخالفته يكونُ مقامُ أهل الكفر والعصيان، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وهذا ثناءٌ على اللّه سبحانه بكونه منزِّلَ الفرقان - وهو القرآن - على رسوله ﷺ، لينذرَ به الناسَ أجمعين، فيمتثلوه، ولا يجافوه؛ "لأنَّه الكتابُ الفارقُ بين مُلتبسٍ، فلا يدعُ خفاءً إلّا بيَّنه، ولاحقًّا إلّا أثبتَهُ، ولا باطلًا إلّا نفاهُ ومحقَهُ، فيه انتظامُ الحياة الأولى والأُخرى، فكان قاطعًا على عِلْم مُنزِله"[1] سبحانه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبَارَكَ﴾: (برك) أصلٌ يدلُّ على ثباتِ الشَّيء، ثم يتفرَّعُ فروعًا يقاربُ بعضُها بعضًا، يقال: بركَ البعيرُ يَبْرُكُ بُروكًا، وأصلُ البرك كما يقولُ الخليل: يَقَعُ على ما بَرَكَ مِنَ الجِمالِ والنّوقِ، على الماءِ أو بالفَلاةِ، مِنْ حَرِّ الشَّمسِ أوِ الشِّبَعِ[2]، ويُطلقُ على صدرِ البعير؛ لأنَّه الجزءُ الذي يُلامس الأرضَ عند البرْك، و﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعَلَ مطاوعُ باركَ، وهو فعلٌ لا يتصرَّفُ، ولم يُستعملْ في غيره تعالى، فلا يجيءُ منه مضارعٌ ولا اسمُ فاعل ولا مصدرٌ[3]، والبَرَكَةُ: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيء، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]، وسمّي بذلكَ لثبوتِ الخيرِ فيه ثبوتَ الماءِ في البركة، والمُبارَك: ما فيه ذلك الخيرُ، من ذلك قولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُۚ﴾ [الأنبياء: 50]؛ تنبيهًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 331.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برك).
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 79.

على ما يفيضُ عليه من الخيراتِ الإلهيَّة(1)، وكلُّ ما جاء في القرآن من: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 54]، و﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾؛ فهو تنويهٌ بعطائه الدّائم خَلقًا ورِزْقًا وربوبيَّةً وهدايةً(2)، والمرادُ بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعاظم خيرُه، وتوفَّر، والمراد بخيره كمالاتُه وتنزُّهاتُه(3).

2) ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: (فرق) أصلٌ يَدُلُّ على تَمييزٍ وتَزْييلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، مِنْ ذَلِكَ (الفَرْقُ): فَرْقُ الشَّعْرِ، يُقالُ: فرَقْتُهُ فرْقًا، و(الفِرْقُ): القَطيعُ مِنَ الغَنَم، والفِرقُ: الفِلْقُ مِنَ الشَّيْءِ؛ إذا انْفَلَقَ، قالَ اللّه تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء: 63]، ومِنَ البابِ: إفْراقُ المَحْمومِ مِنْ حُمّاهُ، وإِنَّما يَكونُ كَذا؛ لِأَنَّها فارَقَتْهُ(4)، والفُرْقانُ أبلغُ من الفَرق؛ لأنَّه يستعملُ في الفرقِ بينَ الحقِّ والباطل، وتقديره كتقدير: رجل قنعانٌ: يُقنَعُ به في الحُكم، وهو اسمٌ لا مصدرٌ فيما قيل، والفَرْق يُستعملُ في ذلك وفي غيره، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: 41]، أي: اليومُ الذي يفرقُ فيه بين الحقِّ والباطل، والحجَّة والشُّبهة(5)، و﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ هنا هو القرآنُ الكريم، وهو في الأصل مصدرُ (فرقَ)، وجُعِلَ علَمًا بالغلبة على (القرآن)؛ لكونه قد فرَّق بينَ الملتبسات وبين الحقِّ والباطل، بما بيَّنه من دلائل الحقِّ ودحض الباطل(6).

3) ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: (قدر) أصلٌ يَدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونهايَتِه، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ، يُقالُ: قَدْرُهُ كَذا، أَيْ: مَبْلَغُهُ، وكَذَلِكَ القَدَرُ، وقَدَرْتُ الشَّيْءَ أَقْدِرُهُ وأَقْدُرُهُ مِنَ التَّقْديرِ، وقَدَّرْتُه أُقَدِّرُهُ، والقَدْرُ: قَضاءُ اللّه تعالَى الأَشْياءَ على مَبالِغِها ونِهاياتِها الَّتي أَرادَها لَها، وهوَ القَدَرُ أَيْضًا(7)، والقَدْرُ والتَّقْديرُ: تبيينُ كمّيَّة الشَّيء، يقال: قَدَرْتُه وقَدَّرْتُه، فمعنى تقدير اللّه تعالى للأشياء: أنْ يجعلَها على مقدارٍ مخصوص ووجهٍ مخصوص حسبما اقتضتِ الحكمةُ، وذلك أنَّ فعلَ اللّه تعالى ضربان: ضربٌ أوجدَه بالفعل، ومعنى إيجادِهِ بالفعل أنْ أبدعَهُ كاملًا دفعةً لا تعتريهِ الزّيادةُ والنُّقصان إلى أنْ

(1) الراغب، المفردات: (برك).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (برك).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 316.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(5) الراغب، المفردات: (فرق).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 317.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).

يشاء أنْ يُفنيَهُ، أوْ يبدِّله كالسَّماوات وما فيها، ومنها ما جعلَ أصوله موجودةً بالفعل وأجزاءَه بالقوَّة، وقدَّره على وجهٍ لا يتأتّى منه غيرُ ما قدَّره فيه، كتقديره في النَّواة أنْ ينبتَ منها النَّخل دونَ التُّفاح والزّيتون، وتقدير مني الإنسان أنْ يكون منه الإنسانُ دون سائرِ الحيوانات[1]، ومعنى قوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ أي: هيَّأه لما أرادَ منه من الخصائصِ والأفعال، كتهيئة الإنسان للإدراكِ والفهم والنَّظَر والتدبير، واستنباطِ الصَّنائع المتنوِّعة، ومزاولةِ الأعمال المختلفة إلى غير ذلك[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الثناءُ المُستحَقُّ على الله تعالى بما هو أهلُه

يستَهلُّ النظم الجليل سورة الفرقان بالثناء على اللّه تعالى، وهو أهلٌ لكلِّ ثناءٍ، بحيث لا يحصي الثَّناءَ عليه أحدٌ سواه، فيقول: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، أي: تعالى أمر اللّه، وتزايدَ خيرُهُ وكثُرَ، ومن خيره الوفيرِ أنَّه هو الَّذي نزَّل القرآن فارقًا بين الحقِّ والباطل، والإيمانِ والكفر، والحلالِ والحرام، على عبدِهِ محمَّد ﷺ ليكون نذيرًا به مُبلِّغًا إيّاه إلى العالمين، ليبلُغوا الهدايةَ عن طريقه؛ إذ لا طريقَ لهم سواه، كما أنَّ من خيره الزائد الذي يستحقُّ عليه سبحانه كلَّ معاني الثَّناء أنَّه هو الذي يملكُ وحده السَّماوات والأرض؛ لأنَّه خالقُهما ومدبِّرُ أمرهما، وأمرِ مَن فيهما وما فيهما، والمنزَّه عن اتِّخاذ الولد، وأنَّه لم يكن له أيُّ شريكٍ في مُلكه، وقد خلقَ كلَّ شيء، فقدَّره تقديرًا دقيقًا بنواميسَ وخصائصَ مستقلَّة، بحيثُ لا يختلطُ أمرُ كائنٍ بأمرِ كائنٍ آخر، حتى يؤدّي كلٌّ دوره المنوطَ به في الحياة، حسبما قدَّر اللّه له، وشاءَ[3].

---

(1) الراغب، المفردات: (قدر).

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 117.

(3) الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1344، ومجموعة من علماء الأزهر، تفسير المنتخب، ص: 531، 532، ومجموعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 359.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ صيغةِ ﴿تَبَارَكَ﴾:

صيغةُ ﴿تَبَارَكَ﴾ على وزن (تفاعَلَ)، و(تفاعَلَ) هنا واردٌ للمبالغة في البركة، بمعنى: زيادة الخير، فإنَّ ما لا يُتصوَّرُ نسبتُهُ إليه سبحانه حقيقةً من الصّيغ، كالتكبُّر ونحوه لا تُنسَبُ إليه تعالى إلّا باعتبارِ غايتها، وعلى المعنى المجازي تكون علَّةُ المبالغة في صفاته سبحانه؛ باعتبار كثرة ما يفيضُ منه على مخلوقاته، لا سيَّما على الإنسان من فنون الخيرات، التي من جملتها تنزيلُ القرآن المنطوي على جميعِ الخيرات الدينيَّة والدنيويَّة، وصيغةُ ﴿تَبَارَكَ﴾ حينئذٍ يجوز أنْ تكون لإفادةِ نماء تلك الخيرات وتزايدِها شيئًا فشيئًا وآنًا فآنًا، بحسب حدوثها، أوْ حدوثِ متعلّقاتها، ولاستقلالِها بالدَّلالة على غاية الكمال وتحقُّقِها بالفعل، وللإشعارِ بالتعجُّب المناسبِ للإنشاء والإنباءِ عن نهاية التعظيم، ولذلك لم يجزِ استعمالها في حقِّ غيره تعالى[1].

صيغةُ (تفاعَل) مقصودٌ بها المبالغة؛ للدَّلالة على بلوغِها المنتهى في حقِّهِ سبحانه

بلاغةُ الكنايةِ عن الثَّناء في مطلع السورة:

لمّا استهلَّت السورة بالثناء على اللّه تعالى بهذا الثَّناء النّادرِ البديع - وهو سبحانه له أهلٌ - جاء في جملة الصِّلَة مسوِّغات هذا الثناء، وكان أوَّلُها قولَه سبحانه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ لما يتضمَّنُه من خيرَي الدُّنيا والآخرة، "فهو كنايةٌ عن تعظيم شأن الفرقان وبركته على الناس ... وهو أيضًا كنايةٌ عن تعظيم شأنِ الرَّسول عليه الصلاة السلام"[2]؛ لأنَّ تعظيم المولى تعالى لذاته بإنزالِ القرآن على عبده يستلزمُ تعظيمَ المنزَل والمنزَل عليه.

مستهلُّ السورة كنايةٌ عن تفخيم شأن القرآن وشأن مَن نزل عليه ﷺ

سرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

أوثرَ التعريفُ بالاسم الموصول دون اسمِ الجلالة، في قوله

التعريفُ بالموصول هنا في قوَّة التعريف بالاسم الجليل

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 200.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 316.

سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ لأَنَّ التعريفَ بالموصول هنا في قوَّة التعريف بالاسم الجليل، فما ذُكر من خصائصَ وصفاتٍ في جملة الصِّلة هو مما تفرَّد به اللّه ﷻ، بحيثُ لا يمكنُ أن يلتبسَ بغيره، فهذه الصِّفات هي "صفاتُ اللّه في نفس الأمر وعندَ المؤمنين، وإنْ كان الكفار يُنكرونها، لكنَّهم يعرفون أنَّ الرسول ﷺ أعلنَها، فاللّه تعالى معروفٌ بذلك عندهم معرفةً بالوجه، لا بالكُنْه الذي يُنكرونَه"(1)، وأيضًا فإنَّ ثبوت دليل الإعجاز في القرآن الكريم، وعجزهم عن تحدّيه ومعارضته قائمٌ مقام الاعتراف به، أي: إنَّه "لمّا ثبتَ كونه من عند اللّه بكونه معجزًا بالغًا إلى أقصى درجات البلاغة والفصاحة؛ نزَّله اللّه تعالى منزلةَ المعلوم للقوم بناءً على قوَّة دليله وظهوره"(2).

ولا يخفى أنَّ التعريف بالموصول يشيرُ إلى علَّة من علل إنشاء المباركة له تعالى في صدر الآية؛ إذْ تضمَّنت الصِّلةُ إنزالَ القرآن، وهو من أكبر النِّعَم والبركات وأعظمِها على العباد.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة ﴿نَزَّلَ﴾ لا (أنزل):

الـنـزولُ المفرَّقُ للقرآن الكريم نـعـمـةٌ عـلى الـرَّسـول ﷺ وعلى العالمين

أوثر التعبيرُ بصيغةِ ﴿نَزَّلَ﴾ وهي مشعرةٌ بالنزول المتكرِّر المفرَّق، دونَ (أنزل) الدالَّةِ على النُّزول دفعةً واحدةً؛ لأَنَّ المقصود هو بيانُ كون الفرقان نعمةً على المنزَّل عليه ﷺ وعلى العالمين، من حيث كونُه نذيرًا لهم وبشيرًا وهاديًا، وهذا كلُّه مرتبطٌ بنزوله مفرَّقًا على قلبه ﷺ طوالَ فترة البعثة والرِّسالة، وهي ثلاثٌ وعشرونَ سنةً، وقد قال اللّه تعالى في إبراز هذه النِّعمة بهذا النزول على هذه الكيفيَّة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: 32]، وقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 316.
(2) شيخ زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 6/ 264.

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: 106]، واختارَ صيغةَ الماضي؛ لإفادةِ تحقُّقِ الوقوع والقطعِ بالتنزيل، وأنَّه أمرٌ ماضٍ لا سبيلَ لمنعِهِ أو قطعِهِ.

توجيهُ تخصيصِ اسم ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ بالذِّكر:

الفرقانُ هو المبيِّنُ للفروق بين الحقِّ والباطل حتى صارَ ميزانًا لهما

أوثر التَّعبيرُ عن القرآنِ هنا باسم ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾، دون أن يذكره باسمِه العَلَم المشهور (القرآن)، فلم يقل: (تبارك الذي نزل القرآن)؛ للإيماء إلى أنَّ ما سيُذكَر من الدَّلائل على الوحدانيَّة وإنزال القرآن، هي دلائل قيّمةٌ تفرِّقُ بين الحقِّ والباطل، وقد أطلق على القُرآن (فرقانًا) بصيغة المصدرِ مُبالَغَةً في فصله بين الحقِّ والباطل، حتّى لكأنَّه عينُ الفصل مع أنَّه فاصلٌ وفارقٌ، فإسنادُ ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ إلَى القُرآن (مجازٌ عقليٌّ)[1]، مثلُ: (جدَّ جدُّه).

فائدةُ تعقيبِ تنزيل القرآن على لفظ الثناء ﴿تَبَارَكَ﴾:

ذِكرُ الصِّلة مشعرٌ بعليَّة الحُكم

عُقِّبَ قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ بتنزيلِ الفرقان في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾، حيثُ ذُكِرَ مقدَّمًا عليه؛ لما في إنزال الفرقان من كثرةِ الخير، فالمَعْنَى: اتَّصف تعالَى بتكاثُرِ خيره، لما نزَّل ما هوَ كثيرُ الخير، وهو القُرآن المجيد الذي عمَّت منافعُه، وعمَّتْ عوائدُه، كقولك: (قد جادَ مَن أغنى الفقراءَ بعطيَّتِه)، فإنَّ معناه: اتَّصف بالجود لإغنائِه الفقراء بعطائه، فإنَّ ذِكر الصِّلة بعد الحُكم مشعِرٌ بعلّيَّتها له[2].

فائدةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء:

حرفُ الاستعلاءِ دالٌّ على تشريف المُنزَّل وعلى التمكُّنِ في قلب المنزَّل عليه

أوثر التعدّي بحرف ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ دون (إلى)، فلم يقل: (نزَّل الفرقانَ إلى عبدِه)؛ لما يَستدعيه المقامُ من التَّشريفِ والتعظيمِ للقرآن، الَّذي يُشعِر به حرفُ الاستعلاءِ، ولا يُشعِر به حرفُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 316.

(2) ابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد مع القونوي: 4/ 14.

انتهاءِ الغاية (إلى)، ثمَّ ما يفيدُه حرفُ الاستعلاء أيضًا من دلالةٍ على التمكُّن، بحيث تمكَّنَ القرآن من قلبِه وفؤاده الَّذي حواه وحَفِظه، ولمّا كان الإنزال من السَّماء، وقد عُهِدت فوقيَّتُها على الأرض؛ ناسبَ أنْ يكون الإنزال بـ﴿عَلَىٰ﴾ الدالَّة على الهبوط من جهة العلوِّ إلى جهة السُّفْل، ففي الحرف استعارةٌ تبعيَّةٌ بتشبيه انتهاء الغاية بالعلوِّ بجامع البلوغ والوصول، ثمَّ حذفَ المشبَّه، وأبقى المشبه به، وهو لفظ ﴿عَلَىٰ﴾.

بلاغةُ اختيار وصف العبودية ﴿عَبۡدِهِۦ﴾:

مقامُ العبودية لله أعظمُ ما يتشرَّف به المرسَلون

عبَّر بلفظ (العبد) في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ لكون العبوديَّة أشرفَ صفاتِه ﷺ وأحبَّها إلى قلبه، وإنْ كان التَّعْبيرُ بالرَّسول أوِ النَّبيِّ أنسبَ بالنَّذير[1]، وقد أناله اللّه تعالى هذا الشَّرفَ مرَّتين: بذكر لفظ العبد، ثمَّ بإضافته إليه تشريفًا له بقوله: ﴿عَبۡدِهِۦ﴾، وفيه إيذانٌ بكونه صلوات اللّه تعالى وسلامُه عليه في أقصى مراتبِ العبوديَّة، وتنبيهٌ على أنَّ الرسول لا يكون إلّا عبدًا للمرسِل ردًّا على النَّصارى[2].

وفي وصف ﴿عَبۡدِهِۦ﴾ أيضًا تمهيدٌ لإبطال طلبهم منه، في قوله: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: 7][3].

معنى اللّام في ﴿لِيَكُونَ﴾:

العلَّةُ الجعليَّةُ غايةٌ مقصودةٌ من تنزيل الذِّكرِ الحكيم

(اللّام) في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ هي لامُ التعليل، أي: أنزلَ هذا الفرقانَ على عبده محمَّد ﷺ، كي يكونَ - أي: الفرقان أو عبدُه محمد ﷺ - للعالمينَ نذيرًا، ويوحي لفظ (اللّام) أنَّ الغرضَ من إنزال القرآن أن يكون الفرقانُ أو محمد ﷺ نذيرًا للخلق، ينذرهم عقاب ربِّهم، ويخوِّفهم عذابه، إن لم يوحِّدوه، ولم يخلصوا له العبادة، ويخلعوا كلَّ ما دونه من الآلهة والأوثان[4].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 14.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 422.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 317.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 394.

نكتةُ تقديمِ المتعلّق ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾:

الاهتمام بالمنذَرين والعنايةُ بتقديم ذكرِهم تأكيدٌ على عالميَّة الإسلام

قدَّم الجارَّ والمجرور ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ المتعلّق بالخبر ﴿نَذِيرًا﴾ عليه؛ لإفادةِ الاهتمام والتشويقِ وبيانِ الفرقِ بينَ رسولنا الكريم وبقيَّةِ الرُّسُل السّابقينَ - صلواتُ اللّه وسلامُه عليهم أجمعين - فقد أفادَ هذا التَّقديمُ اهتمامًا ملحوظًا بالمنذَرينَ، وهو شمولُ العالَم بأسره لبيانِ أنَّ هذا الرسولَ الخاتمَ ﷺ يتميَّزُ عن سائرِ الأنبياءِ والرُّسُل بعالميَّة رسالته وشموليَّة دعوته للخلقِ أجمعين من الإنسِ والجنِّ، وفي عموم الرِّسالة تصريحٌ بعالميَّةِ القرآن الكريم وشموليَّته وصلوحِه لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، ثمَّ لرعاية الفاصلة أيضًا[1].

وفيه أيضًا إشارةٌ إلى سَعة رحمة اللّه وفضله بإرساله محمَّدًا ﷺ، هاديًا للعالمين، يخرجهم من الظُّلمات إلى النور، وينجيهم من النار، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107].

معنى اللّام الجارَّة ولام التعريف في: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾:

دلالةُ التعديةِ إلى اللَّفظ المستغرق بيانٌ لعالميَّة الدَّعوة الإسلاميَّة

دلَّتِ (اللّامُ) الجارَّةُ على التعدية والإيصال للنِّذارة بلفظ (العالَمين)، كما دلَّتِ الألفُ واللّام التعريفيَّة في (العالمين) على أحدِ معنيين، فيحتملُ أن تكونَ (للعهد الخارجي)، وهو المتبادر، والمرادُ بهم الإنسُ والجنُّ، فالرَّسول ﷺ قد أُرسِل إليهما، ويحتملُ أن تكون (للجنس) أي: جنس العقلاء، فيشملُ الملائكةَ ﵈ أيضًا، كما رجَّحَهُ جمعٌ من المحقِّقين[2]، وأضاف بعضُهم غيرَ العقلاء أيضًا إلى رسالته ﷺ، على معنى: أنَّه أُرسِل للثَّقلين إرسالَ تكليف، وكذا للملائكة، وأمّا الحيوانات والجماداتُ التي لا تعقِلُ؛ فإرسالُه إليهم إرسالُ تشريفٍ وتكريمٍ[3].

---

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 405، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 422.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 422، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 331.
(3) الصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 3/ 141.

توجيهُ تخصيص ﴿نَذِيرًا﴾ بالذِّكر دون (بشيرًا):

عبَّر بالنَّذير دون البشير اكتفاءً، أو لأنَّ المقامَ يقتضيه أو لأسبابٍ أُخرى

اقتصرَ في وصف الرَّسول ﷺ هنا على صفة (النَّذير)، في قوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ دون (البشير)، كما ذُكِرا كلاهما في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: 24]؛ لأنَّ المقام هنا لتهديدِ المشركين؛ إذ كذَّبوا بالقرآن وبالرَّسول ﷺ، فكانَ مقتضيًا لذكر النِّذارة دونَ البشارة، أوْ أنَّ ذلك من باب (الاكتفاء)؛ لأنَّ البشارة تخطرُ ببال السّامع عند ذكر النِّذارة[1]، أو لأنَّ البشارةَ قد أشير إليها بشكل خفيٍّ بلفظ ﴿تَبَارَكَ﴾، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى كثرة المستحقّين للنِّذارة[2]، وقيل: إنَّما اقتصرَ على الإنذار؛ لأنَّ السورةَ مكيَّةٌ، وفي ذلك الوقت لم يَصلُحوا للتبشير[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلاتٍ متعدِّدة له:

وجـودُ غـيرِ المـعـلـوم من الـصِّـلات بين المـعـلـومِ منها يُنزلُها منزلتَها كناية عن كونها مقطوعًا بها

ممّا شرطه العلماءُ في جملة الصِّلة، أنَّها لا بدَّ من أنْ تكونَ معلومةً ومعهودةً للمخاطَبِ قبل التكلُّم بها؛ لأنَّ تعريفَ الموصول يكونُ بما في (الصِّلة) من العهد[4]، فكان ممّا يُلفت في الصِّلات الأربع المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أنَّ بعضَ هذه الصِّلات، لم يكن مسلَّمًا بها ومعلومًا من الجميع، فنفي اتِّخاذ الولد والشَّريك لم يكن مسلَّمًا ومعلومًا بهما عند الكفار، وإنْ كان مسلَّمًا بهما عند الرسول ﷺ والمؤمنين، فنتج

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 317.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 331.
(3) الصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 3/ 141.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 405، ثم قال الخفاجي: وفي شرح التسهيل أنه غير لازم وأنَّ تعريف الموصول كتعريف الألف واللام يكون للعهد والجنس، وأنه قد تكون صلتة مبهمة للتعظيم، كقول القائل:
فإن أستطع أغلب وإن يغلب الهوى *** فمثل الذي لاقيت يُغلب صاحبه

عن هذا وجودُ صِلتينِ في محلِّ التسليم من الجميع وصلتينِ مختلفٍ فيهما، فكيف الجواب عن ذلك؟ والجواب: أنَّ وجود بعض الصِّلات في محلِّ التسليم من الجميع يلزمُ عنه تنزيلُ غيرها منزلتها، وتفصيلُ ذلك: أنَّه قد "أُجريَتْ على اسم اللّه تعالى هذه الصِّفات الأربع بطريق تعريفِ الموصوليَّة؛ لأنَّ بعض الصِّلات معروفٌ عند المخاطَبين اتِّصافُ اللّه به، وهما الصِّفتان الأولى والرابعة، وإذ قد كانتا معلومتينِ؛ كانت الصِّلتانِ الأخريانِ المذكورتان معهما في حُكم المعروف؛ لأنَّهما أُجريتا على مَن عُرِفَ بالصِّلتين الأولى والرّابعة"[1]، فما أنكره الكفّار من الصِّلات هي "معلومةٌ للرَّسول ﷺ، وهو المخاطَب بها، كقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، ولا يلزمُ أنْ تكون معلومةً لكلِّ أحد ... وتنزيلُها منزلةَ المعلوم أبلغُ؛ لكونِهِ كنايةً عمّا ذكر، مناسبةً للردِّ على مَن أنكر التَّوحيد والنبوَّة"[2].

توجيهُ إعراب قوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ﴾:

إعـادةُ الموصولِ مُـحـتـمِـلًا أوجُـهًا إعرابيَّةً متـعـدِّدةً تكثيرٌ للمعنى وإثـراءٌ للمضامين

قوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ﴾ فيه وجوهٌ إعرابيَّةٌ محتملةٌ، فيجوزُ أن يكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوف، أي: هو ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملةُ عليه مستأنفةٌ مقرِّرةٌ لما قبلها[3]، ويجوز في ﴿ٱلَّذِي﴾ الرفعُ نعتًا لـ ﴿ٱلَّذِي﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ أوْ بيانًا أوْ بدلًا، وما بعد ﴿نَزَّلَ﴾ من تمام الصِّلة، فليس أجنبيًّا، فلا يضرُّ الفصلُ به بين الموصولِ الأوَّل والثاني إذا جعَلْنا الثانيَ تابعًا له أو بدلًا منه، قيل: ويجوز فيه النَّصبُ على المدح[4]، فإن قيل: فلِمَ أُعيدَ الاسمُ الموصولُ، ولم تُلحَقْ هذه الصِّلات بالَّتي قبلَها؟ فالجواب: أنَّه أعادَ الاسمَ الموصول لاختلاف الغرضِ من الصِّلتين؛ لأنَّ الصِّلة الأولى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 318.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 405.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 423.
(4) السمين، الدر المصون: 8/ 453، والهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 6، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 423.

في غرضِ الامتنانِ بتنزيل القرآن للهُدى، والصِّلة الثانية في غرضِ اتِّصاف اللّه تعالى بالوحدانيَّة[1].

نكتةُ مجيءِ جملةِ الصِّلة اسميَّةً بمكوِّناتها:

إرادةُ الدَّوام والحصرِ والمِلك والتَّخصيصِ تمجيدٌ لله تعالى وبيانٌ لعظمته

جاءتْ جملةُ الصِّلة اسميَّةً في قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ﴾ لإفادة الدَّوام والثبوت؛ إذ اللّه تعالى له ملكُ السَّماوات والأرض، فلا معنى لمشاركةِ غيره له بالعبوديَّة، ودعوةِ الأنداد له والخضوع لها من دونه، وقد اشتملتْ هذه الجملة الاسميَّةُ على مكوِّناتٍ آزرَتْ هذا المعنى وقوَّتْهُ؛ إذ قدَّمَ الجارَّ والمجرور المسند ﴿لَهُۥ﴾ على المبتدأ ﴿مُلْكُ﴾ المسند إليه؛ للاهتمامِ بالمقدَّم ولإفادةِ الحصر والاختصاص، فهو سبحانه وحدَه مالكُ كلِّ ما في السماوات والأرض، وهو "له خاصَّةً دون غيره لا استقلالًا ولا اشتراكًا"[2]، وما دام ذلك كذلك؛ فلا استحقاقَ للألوهية دونه، ولا يصحُّ عقلًا أنْ يُعبد من سواه من المملوكين له، وأفادتِ (اللّام) في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ المِلكَ والاختصاصَ والاستحقاقَ، فلِمَ يتوجَّهُ الإنسانُ إلى عبادة غيرِ المالك المستحَقِّ؟ ودلَّت الإضافةُ في ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على التخصيص، فله سبحانه وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والتَّعبيرُ بهما كنايةٌ عن جميع الملك، أي: ملكُ جميعِ الأشياء، واستندَ النَّصُّ على مقابلةِ السَّماوات والأرض بفن الطِّباق؛ للدَّلالة على شمول ملكِه سبحانَه للعالَم العلويِّ والعالم السُّفليِّ، ولذا اختيرتِ الجملةُ الاسميَّةُ بمكوِّناتها لبيانِ عظمةِ اللّه واستحقاقِه العبوديَّةَ، وخضوعِ جميع الأشياءِ لعظمتِه ومُلكه، فالَّذي يُقدم على الإشراك والجحود به؛ فإنَّه يخالفُ منطقَ الأشياء وحقائقَها البيِّنة[3].

بلاغةُ عطفِ الفعليَّة على الاسميَّة تقديمًا وتأخيرًا:

عطفُ المعلول على العلَّة برهانٌ واضحٌ ودليلٌ ساطعٌ

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ من الجملة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 318.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 200.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 10.

الاسمية، ونظمُهُ في سلك الصِّلة؛ للإيذانِ بأنَّ مضمونَهُ من الوضوح والظُّهور، بحيثُ لا يكاد يجهلُهُ جاهلٌ لا سيَّما بعد تقريرِ ما قبله[1]، وفي تقديم الحُكم بكونه سبحانه له ملكُ السَّماوات والأرض، قبلَ الحُكم بنفي اتِّخاذ الولد، هو كونُ الأوَّل تمهيدًا وتوطئةً للثاني، فإنَّ مَن له ملكُ السَّماوات والأرض ليس في حاجةٍ إلى اتِّخاذ الولد.

سرُّ النَّفي بـ(لم) في قوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ﴾:

مَـن لـم يحتَـج إلــى الــولد عند بدءِ الخلق، فلن يـكـون محتاجًا إليه بعد ثبوت المالكيَّة

آثرَ النَّفيَ بـ (لم) دون غيرها من أدوات النَّفي الأخرى في قوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ لأنَّ القصد هو نفي اتِّخاذِ الولد في الماضي والحاضر، والهدفُ منه الردُّ على مَن يزعُمون في الحاضر - وقت الخطاب وبعده - اتِّخاذه الولد، فإنَّ مَن لم يحتَجْ إلى الولد عندَ بدء الخلق، فإنَّه أكثرُ غناءً عنه، وأبعدُ عن الاحتياج إليه بعدَ استقرار مُلكِه وثبوتِ مالكيَّته لكلِّ شيء.

نكتةُ اختيار لفظ ﴿وَلَدٗا﴾ وتنكيره:

شـمـولُ النَّـفي الـذَّكـرَ والأنثـى والمخلوقَ وغيره

التَّنكيرُ في لفظ ﴿وَلَدٗا﴾ غرضُهُ التَّعميم، فهو نكرةٌ في سياق النَّفي، فتفيدُ العموم، والمرادُ بنفي اتِّخاذ الولد: أنَّه لا يُمكنُ أنْ يتَّخذَ ولدًا من مخلوقاته، أوْ يتَّخذَ ولدًا من ذاته؛ وإلّا لزمَ نقصٌ في مالكيَّته وكان له شريكٌ في مُلْكِه، واختارَ لفظَ (الولد) دونَ لفظ (الابن)؛ ليشملَ الذُّكورَ والإناثَ معًا، فيردَّ بذلك على مَن زعموا أنَّ عيسى ابنُ اللّه، أوْ أنَّ الملائكةَ بناتُ اللّه.

بلاغةُ تقديمِ نفي اتِّخاذِ الولد على نفي الشَّريك:

نفيُ اتِّخاذ الولد مـدخـلٌ ودلـيـلٌ على نفيِ اتِّخاذ الشَّريك بطريق الأَوْلى

قدَّم نفيَ اتِّخاذِ الولدِ على نفيِ الشَّريك، لكونِ نفيِهِ توطئةً وتمهيدًا لنفي الشَّريكِ ودليلًا عليه، فإنَّه إذا ما نفى عن نفسِه اتِّخاذَ الولد، فأَوْلى منه نفيُ اتِّخاذِ الشَّريك في الملك؛ لأنَّه لو كان

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 201.

متَّخِذًا شريكًا؛ لكان أوْلى به أنْ يتَّخذ له ولدًا، فيجعلَهُ شريكًا له، وحاشاه سبحانهُ، فهو الغنيُّ عنهما وعمّا سِواهما.

براعةُ اختلاف التَّعبيرِ بينَ نفيِ اتِّخاذ الولد ونفي الشَّريك:

نفيُ الولد بنفي الاتِّخاذ؛ ونفيُ الشَّريك بنفيِ الوجودِ

من براعةِ التَّعبيرِ في الآية الكريمة ذاك الاختلافُ في التعبير بين نفيِ اتِّخاذ الولد، ونفي وجودِ الشَّريك، إذ قال: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾، والفرقُ هو أنَّه عبَّر في جانب نفيِ الولد بقوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾، وذلك لسببين:

الأوَّل: أنَّه لا سبيل إلى وجود ولدٍ له سبحانه لو أرادَ إلّا بطريق الاتِّخاذ والاصطفاء، كما قال عزَّ مِن قائل: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الزمر: 4]؛ لأنَّ شرطَ إنجابِ الولد هو وجودُ صاحبةٍ، وهو سبحانه ليستْ له صاحبةٌ، فكيف يكون له ولدٌ؟ فنفيُ وجودِ الولد معتمدٌ على عدم وجودِ صاحبةٍ، فهي نتيجةٌ حتميَّةٌ، وقد قال تعالى في تقريرها: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ [الأنعام: 101]، فثبتَ بناءً على ذلك أنَّه لو كان له ولدٌ؛ فسيكون بطريق الاتِّخاذ والاصطفاء، ولذلك نفى وجودَ الولدِ هنا بنفيِ اتِّخاذه، فقال: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾، وهو ما تكرَّر في آيات أخرى، منها قولُه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ [الإسراء: 111]، وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢﴾ [مريم: 92].

الثاني: أنَّ الآية ردٌّ على مَنِ ادَّعوا بالفعل اتِّخاذَه سبحانه الولدَ، كادِّعاء النَّصارى في المسيح عليه السلام، واليهودِ في عزيرٍ عليه السلام، وبعض مُشركي العرب في الملائكة الكرام.

لو كان في الكون آلِـهَـةٌ إلا الله لفسد الكونُ

وأمّا قولُه في نفي الشريك وجودًا: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾؛ فلأنَّ وجودَ الشَّريك لا يكون بالاتِّخاذ، وإنَّما يكون بالقهر والغلَبة والمساواة للإله الحقِّ، وهذا باطلٌ، لا يمكنُ أن يكون موجودًا، وإلّا فسدَ الكونُ، وثبت عجزُ الإله عن مطلقِ الفعل والإيجاد، واختلَّ

النظام، وبطلتِ الألوهيَّةُ من أساسها، كما قال سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾ [المؤمنون: 91]، وقال: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء: 22]، فكانَ التعبير المناسبُ هو نفيَ الوجود، وقد نفاه سبحانه أيضًا بصيغةٍ دالَّةٍ على العموم كذلك، فقال: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾، فـ ﴿شَرِيكٞ﴾ نكرةٌ أيضًا في سياق النَّفي، فتفيد العمومَ، وأمّا إفرادُه؛ فمحمولٌ على إرادة الجنس، أو لأنَّ نفيَ المفرد نفيٌ للجميع من باب أولى، والمعنى: ليس له شريكٌ في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وما دعاءُ المشركينَ آلهتهم إلّا من قبيلِ وهْمهم أنَّها تفعلُ، وتؤثِّر، كفعلِ اللّه تعالى، فيتقرَّبون إليها رجاءً في نفعها واتقاءً من ضررِها.

وفيه ردٌّ على مَن زعموا الشَّريك، وتعدُّدَ الآلهة كـ(الثنويَّة) القائلينَ بوجود إلهينِ: أحدُهما للخير والآخرُ للشرِّ، وكالقائلينَ بعبادة النُّجوم، والقائلينَ بعبادة الأوثان[1].

غرضُ تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿شَرِيكٞ﴾:

تقديمُ المتعلّق يفيدُ اختصاصَ نفيِ الشريك بالله تعالى

قدَّم الجارَّ والمجرور المتعلِّق ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿شَرِيكٞ﴾ للاهتمام بالمقدَّم ولإفادةِ الحصر، فهو سبحانَه المتفرِّد بالملك بحيث لا يشاركُهُ فيه أحدٌ، وكلُّ مخلوقٍ له شريكٌ وشبيهٌ في ذاته وبعضِ صفاته وبعضِ أفعاله إلّا اللّهَ تعالى؛ فإنَّه لا شريك له في شيءٍ من ذلك سبحانه وتقدس.

بلاغةُ تحديد انتفاءِ محلِّ الشركة:

تكوَّنَ محلُّ نفيِ الشركة من جارٍّ ومجرور، هو ﴿فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾، وأفادَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 430، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 423.

تحديدُ محلِّ انتفاء الشريك برهانٌ على استحقاقِهِ الوحدانيَّة

استعمالُ حرفِ الظَّرفية ﴿فِي﴾ الدالِّ على الإحاطة والشُّمول، نفيَ تمكُّنِ أيِّ أحدٍ من مُلكه سبحانه وألوهيَّتِه وربوبيَّتِه مهما كان، فلو كانَ للّه شريكٌ؛ لكانَ مُشاركًا له في مُلكه، وذلك لا يناسبُ الإله الحقَّ المتفرِّدَ بالملك المطلقِ غيرِ المقيَّد، و(أل) في لفظ ﴿ٱلۡمُلۡكِ﴾ للجنس، فيشملُ كلَّ مُلك اللّه تعالى، فهو كنايةٌ عن ربوبيَّته وألوهيَّته تعالى، ولذلك جرى العلماءُ على جعْلِه ردًّا على مَنِ ادَّعَوا تعدُّدَ الآلهة، وجعْلَ الشريك للّه تعالى، قال الرازيُّ: قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ المرادُ أنَّه هو المنفردُ بالإلهيَّة[1]، وليس له فيها شريكٌ، وأنَّ الأمرَ ليس كما ادَّعى المشركونَ من وجود الشَّريك، فإنَّ وجودَ الشَّريك يُنافي حقيقةَ الانفراد بالألوهيَّة والربوبيَّة.

دلالةُ عطفِ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ على المتقدّم:

عطفُ العامِّ على الخاصِّ زيادةٌ في التقرير

عطفَ قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ على ما تقدَّمَهُ من نفي الولد والشريك؛ لما أنَّ كونه سبحانه بديعَ السَّماوات والأرض وفاطرَهما ومالكَهما منافٍ لاتِّخاذ الولد والشَّريك، كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ [الأنعام: 101][2]، وهو من باب عطفِ العامِّ على الخاصِّ، فقولُه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ عامٌّ في خلق الذوات وأفعالها[3]، والمعنى: أنَّه خلقَ كلَّ شيء من الأشياء في الكون، ومنه ما ادَّعَوه من الولد والشريك، بأنْ أحدثَهُ إحداثًا جاريًا على سنن التقدير حسبَما اقتضتْهُ إرادتُه المبنيَّةُ على الحِكَم البالغة، بأنْ خلقَ كلًّا منها من موادَّ مخصوصةٍ على صورٍ معيَّنةٍ، ورتَّبَ فيه قوًى وخواصَّ مختلفةَ الآثار والأحكام، كخلقِه الإنسان من موادَّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 430، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 424، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 117.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 424.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 80.

مخصوصةٍ وصورٍ وأشكالٍ معيَّنة[1]، وخلقَ غيره كذلك، وذكر الجمَلُ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ﴾ هو في معنى العلَّة لما قبلَه[2]، ومرادُه أنَّ إثبات اتِّخاذ الولد والشريك يلزمُ منه أنَّه تعالى لم يخلق كلَّ شيء، بل خلقَ بعضًا دون بعض، ولمّا كان المولى تعالى خالقًا لكلِّ شيء؛ فقد انتفى اتِّخاذُ الولد والشريك، وإلّا لزم أن يكون الولدُ والشريك مخلوقَين له تعالى، فتنتفي ألوهيَّتُهما لافتقارهما إلى الخالق.

وفي تقديم قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾؛ لكونه كالتوطئةِ والتَّمهيدِ له، فكونه مالكَ السَّماوات والأرض، يثبتُ أنَّه خالقُ كلِّ شيءٍ فيهما، ولا منازعَ له في ذلك.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل ﴿وَخَلَقَ﴾ دون (أوجد):

الخلقُ إبداعٌ على غير مثالٍ سابقٍ بخلاف الإيجاد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالخلق دون الإيجاد، في قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّ الخلقَ أصله: التقديرُ المستقيم، ويُستعملُ في إبداع الشَّيء من غير أصلٍ ولا احتذاء[3]، أي: على غير مثالٍ سابق، وهذا لا يكون إلّا للّه تعالى، أمّا كلمةُ (أوجدَ)؛ فلا تختصُّ بكون ما تمَّ إيجادُه على غير مثالٍ سابق، ولذلك يَستعمل القرآن الكريم في حقِّ اللّه تعالى دائمًا مفردة (الخلق).

براعةُ الترتيب في توسيطِ المختلفِ فيه بينَ المتَّفق عليه:

المتَّفقُ عليه من الأدلَّة هو كالسّور الحاضن للمختلَف فيه منها لجعلِه كأنَّه لا شيءَ

من براعة النَّظم وبديعهِ في الآية أنَّه وسَّط الكلام عن نفي اتِّخاذ الولد ونفي وجودِ الشَّريك، وهما مختلفٌ فيهما؛ لأنَّ المشركين وبعضَ الطَّوائف يقولون بهما، وسَّطه بين إثباتِ الملك للّه وكونه الخالقَ لكلِّ شيءٍ سبحانه، وهما متَّفقٌ عليهما، ولا شكَّ فيهما حتى عند المشركينَ الذين يُقرّون بخلق اللّه تعالى لهم وللسَّموات والأرض،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 117، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 201.
(2) الجمل، حاشية الجمل: 5/ 326.
(3) الراغب، المفردات: (خلق).

كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: 87]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، والسرُّ في هذه الإحاطة بالمتَّفقِ عليهما "أنْ يكون الوصفانِ المسلَّمان كالدَّليل أوَّلًا والنَّتيجةِ آخِرًا، فإنَّ الَّذي له ملكُ السَّماوات والأرض، لا يليقُ به أنْ يتَّخذَ ولدًا، ولا أنْ يتَّخذَ شريكًا؛ لأنَّ مُلكَهُ العَظيم يقتضي غناه المطلقَ، فيقتضي أنْ يكون اتِّخاذُه ولدًا وشريكًا عبثًا، إذ لا غايةَ له، وإذا كانت أفعالُ العُقلاء تصانُ عن العبث، فكيف بأفعالِ أحكم الحُكماء تعالى وتقدَّس"[1]، وكيف يتَّخذ ولدًا، أو يكون له شريكٌ، وهو الذي خلق كلَّ شيءٍ، ومخلوقاته مفتقرةٌ إليه، وهو الغنيُّ عنها سبحانه.

دلالةُ الإضافة في ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾:

عمومُ الخَلْقِ ينفي وجودَ الولد والشَّريك

في استعمال أداة العموم ﴿كُلَّ﴾ في قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ دلالةٌ على أنَّ الكون وما فيه هو من خلقِهِ سبحانَه دونَ غيره، فكيف يكون له ولدٌ أوْ شريكٌ في الملك؟ وفي إضافةِ ﴿كُلَّ﴾ وهي من صيغ العموم إلى ﴿شَيْءٍ﴾، وهي معَ تنكيرها تشملُ كلَّ ما يمكن أنْ يسمَّى شيئًا صغُر أوْ كبُر، ما يفيدُ على أنَّ كلَّ ما يُسمّى شيئًا من الموجودات هو مخلوقٌ للّه ﷻ، وذلك يشملُ كلَّ ما هو خلافُ ذاته سبحانه وصفاته من الموجودات.

علَّةُ عطفِ جملة ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ على ما قبلَها:

عطفُ التقدير على الخلق دافعٌ للأوهام السَّقيمة، مثبِّتٌ للحكمة العظيمة

(الفاء) للتَّفريع عاطفة التقدير لكلِّ شيء على خلقهِ، حيث فرَّع على قولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قولَه: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، لدفع توهُّم من يظنُّ أنَّ الخلقَ لم يكن بعنايةٍ ونظام دقيقين، وأنَّه خلْقٌ عشوائيٌّ غيرُ منظَّم، فكان العطفُ بيانًا؛ لكون الخلْقِ دالًّا على خالقٍ عليمٍ حكيمٍ، يخلقُ الأشياء، ويقدِّرُها، وينظِّمُها تنظيمًا عاليًا فيه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 318.

التوازنُ والانسجامُ التامّان، وعبَّر في الجملتينِ المتعاطفتينِ بالفعلَين: ﴿وَخَلَقَ﴾، ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بصيغة الماضي، مع كون عمليَّةِ الخلق والتقدير مستمرَّةً؛ تغليبًا للموجودِ المشاهدِ على غيره[1]، والضَّمير في ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ يعودُ إلى ﴿كُلَّ شَيۡءٖ﴾، أي: فقدَّر كلَّ شيء ممّا تمَّ خلْقُهُ تقديرًا عجيبًا.

ولعلَّ الغرضَ من ذكر التَّقدير عقيبَ الخلق الإشارةُ إلى أنَّ دعوى اتِّخاذ الولدِ أو الشَّريك تؤدّي إلى فساد نظامِ الخلق، فيزيدُ شيءٌ على حساب غيره، ويتقدَّمُ شيءٌ على آخر...، لَتعدُّد الآلهة وتنازُعها في وضع الأشياء في مواضعِها الدَّقيقةِ.

دلالةُ التَّوكيدِ في المفعول المطلقِ:

أكَّـدَ بالمصدر معنى الفعل؛ للدَّلالة على تمام التقدير وغاية الإتقان

ورد المفعول المطلق ﴿تَقۡدِيرٗا﴾ في قوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾، وهو مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعله، وذلك "للدَّلالة على أنَّه تقديرٌ كاملٌ في نوع التقادير"[2]، فخَلْقُ اللّهِ تعالى ليس خَلْقًا كيفَما اتَّفق، إنَّما خَلْقُهُ سبحانه بقَدَرٍ وحسابٍ وحِكمةٍ وتوازنٍ وانتظام، فيخلقُ الشَّيءَ على قَدْرِ مهمَّته التي يُؤدّيها، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: 2 - 3][3].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 10.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 19.

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10362.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾ [الفرقان: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التـقـابـلُ بين الأضـداد يُجلّي المعـانيَ، ويُزيلُ الغموض

بعد أنِ افتُتحتِ السّورة الكريمةُ بالثناء على مُنزِّل الفرقان على رسولِه سيِّد الأنام ﷺ، وذُكِرت نعوتُه ذاتُ الجلال والإكرام، بأنَّه الواحد الأحد، مالكُ المُلك، وخالقُ كلِّ شيء، الذي لم يلِدْ، ولم يَتَّخذْ شريكًا، ناسب أنْ يعطفَ على ذلك حالَ المشركين من اتِّخاذ الآلهة، التي هي على الضِّدِّ من صفات الله تعالى، فهي مخلوقةٌ لا خالقة، مملوكةٌ غير مالكة، لا تملكُ لنفسها ولا لغيرها ضرًّا ولا نفعًا، وفائدةُ هذه المناسبة بيانُ التقابل الضدّيِّ، بينَ الإله الحقِّ، وما اتَّخذه المشركون من الآلهة الباطلة، فتتحرَّكُ الأذهان لمعرفة طريق النَّجاة، وتركِ طريق الأوهام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دُونِهِۦٓ﴾: (دون) أصلٌ يدلُّ على المداناةِ والمقاربة، يُقالُ: هذا دونَ ذاك، أي: هو أقربُ منه، ولا يشتقُّ منه فعلٌ[1]، ويقالُ للقاصر عن الشَّيء: دونٌ، قال بعضُهم: هو مقلوبٌ منَ الدُّنوِّ، والأدونُ: الدَّنيء، وقولُه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ [آل عمران: 118]، أي: ممَّن لم تبلُغْ منزلتُه منزلتَكم في الدّيانة، وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: 116]، أي: غير الله[2]، والمراد: أنَّ المشركينَ عبدوا غيرَ الله تعالى آلهةً ليس بينَها وبينَه سبحانَه أيَّةُ مُقاربة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دون).
(2) الراغب، المفردات: (دون).

2) ﴿نُشُورًا﴾: (نشر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فتْحِ شيء وتَشَعُّبِه، ومنه: نَشَرْتُ الكِتابَ خِلافَ طويتُه، ونَشَر اللّه الموتَى، فنَشَروا، وأَنْشَرَ اللّه الموتَى أيضًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ [عبس: 22][1]، ومن النَّشْر: نَشَرَ الثوبَ، والصَّحيفَةَ، والسَّحابَ، والنِّعْمَةَ، والحَديثَ: بَسَطَها، ونشْرُ الميِّت مستعارٌ من نَشْر الثَّوب[2]، فإنَّ الميِّتَ يكونُ مَطويًّا في التُّراب، فينشرُهُ اللّه حيًّا كما كانَ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يتَّخذ آلهةً مخلوقةً إلا مَنِ اتَّصف بضَعْف العقلِ وهَوان النَّفس

تبيِّن الآيةُ حالَ المشركين الَّذين اتَّخذوا من دون اللّه تعالى آلهةً عاجزةً مخلوقةً مملوكةً، وتخلو من أيَّة مَيْزَةٍ تجعلُها جديرةً بالألوهيَّة، حقيقةً بالعبادة، فهي موصوفةٌ بستِّ صفات، تُخلَقُ ولا تَخْلُقُ، ولا تدفعُ ضرًّا عن نفسها، ولا تجلبُ نفعًا لنفسِها ولا لغيرها، كما أنَّها لا تستطيع إماتةَ أحدٍ ولا إعادتَهُ للحياة، فإذا كانتِ الآلهةُ متَّصفةً بإحدى هذه الصِّفات؛ بطلَ نعتُها بالآلهة، فكيف إذا اجتمعَتْ فيها أوصافُ الضَّعف والعجز والهوان؟ فلا يعبدُها إلّا مَنِ ارتضاها لنفسه من أهلِ الضَّعف والهوان.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها البيانيَّة:

مَنِ اعترفَ بخالقِ الأكوانِ؛ كيفَ لهُ أنْ يتَّخذَ آلهةً مِنَ الأوهامِ؟

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ استئنافيَّةٌ، جيءَ بجملتِها للتعجيبِ من أمر الكافرين، والتشنيع بفعلهم؛ لأنَّهم قابلوا نعمةَ إنزال الفرقان وغيرها من نِعَم اللّه تعالى بالجحود والطُّغيان، وأشركوا بمَن له صفاتُ الكمال والجلال آلهةً صفاتُها على النَّقيض من صفاته، والمعنى: إنَّ ممّا يثير العجبَ والاندهاش أنْ يتَّخذَ الكافرون

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(2) الراغب، المفردات: (نشر).

آلهةً غير اللّهِ، الذي نزَّل الفرقانَ على عبده، والَّذي لم يتَّخذ ولدًا ولا شريكًا، وخلقَ كلَّ شيءٍ على أحسنِ ما يكون، وله من الفضائل والنِّعَم ما لا يُحصى، ولا يُعدُّ، وتحتملُ أنْ تكون (الواو) عاطفةً على جملة: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: 2]، وما تلاها ممّا هو استدلالٌ على انفراده تعالى بالإلهيَّة؛ استطرادًا لبيان أهلِ الضَّلالة، وذكر في السّابقة قولُه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الفرقان: 2] الشاملُ لما اتَّخذوه من الآلهة، فكانَ ما تقدَّمَ مُهيِّئًا للتَّعجيب من اتِّخاذ المشركين آلهةً دون ذلك الإلهِ المنعوت بصفات الكمال والجلال[1].

دلالةُ استعمالِ مفردة: (اتَّخَذوا) مادَّةً وصيغةً:

الـكـافـرون مُـصِـرّون على الـشِّـركِ بالله وجُحودِ نِعَمِه

استعملَ النَّظمُ الحكيمُ الفعلَ: (اتَّخذوا) الدّالَّ بمادَّته على القوَّة في "حَوْز الشَّيء وجَبْيِه وجَمعِه"[2]، فدلَّت مفردةُ (الاتِّخاذ) على قوَّة المتَّخِذ وعنادِه فيما اتَّخذَه، وتمسُّكِه به تمسُّكًا شديدًا لا يُفلتُه، وبصيغتِه الماضيةِ على تحقُّق الشِّرك والقطعِ بحصوله؛ للإشارة إلى أنَّهم فعلوا ذلك بإصرارٍ عجيبٍ، وأقدموا عليه إقدامًا يدلُّ على ظُلمهم واجترائهم على ربِّهم، وجحودِهم لما أنعم به عليهم من نِعَمٍ لا حصرَ لها، ولا يستطيع غيرُه سبحانه أنْ يجودَ بمثلها، فيكون اختيارُ الفعلِ مُناسبًا للغرض الَّذي سيقَ له الكلامُ.

إعـادةُ الأذهـانِ إلـى الـنُّـقـطـة الأولى في عبادة الباطل

والاتِّخاذ: افتعالٌ من الأخذ[3]، ما يعني: أنَّ الاتِّخاذ فيه نوعٌ من الحرص والقوَّة، بسبب الزّيادة في البناء، ولمجيئة بصيغة (الافتعال) التي تفيد المبالغةَ في عمليَّة الأخذ والعُبوديَّة، فآثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن فعلهم وعبادتِهم بـ(الاتِّخاذ)؛ لأنَّ السّياق حديثٌ عن صنيعهم قبلَ العبادة، فهم اتَّخذوا تلك الآلهة ليَعبدوها،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 319.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (أخذ) 87.

والسّياق يُخبرنا عن اتِّخاذِهم مَن لا يخلق، ولا يملك، ولا يقدر، وتركِ عبادة الخالق المالك، وفيه ملحظٌ عجيبٌ، وهو أنَّ الآياتِ تردُّ المشركين إلى نقطة البداية التي انطلقوا منها، وهي الاتِّخاذ، ليُنكر عليهم واقعَهم في عبادة تلك الآلهة، وليبيِّن أنَّ هذه الآلهة متَّخذةٌ من أفعال عابديها؛ لا أنَّها معبودةٌ لما فيها من الاستحقاق.

نكتةُ إسنادِ فعلِ الاتِّخاذِ إلى الضَّمير:

عبادةُ مخلوقاتٍ ضعيفة فعلٌ مستقبَحٌ وعملٌ مُستهجَنٌ

أُسنِدَ فعلُ الاتِّخاذ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ إلى ضمير الجمع العائدِ على المشركين - مع أنَّه لم يَسبِق ذكرُهم - للدَّلالة على أنَّ هذا الفعلَ القبيحَ لا يصدر إلّا عن معلوم لدى المُخاطَبين، وأنَّ صدورَهُ عنهم أمرٌ بدهيٌّ يعرفُه القاصي والدّاني، ولا يحتاجُ إلى تصريح، بالإضافةِ إلى "استهجان نسبةِ هذا الفعلِ الشَّنيع إلى فاعلٍ مُعيَّن؛ توبيخًا لهم وإرشادًا إلى مبادرة كلِّ مُنصفٍ إلى نفيِه عن نفسه"[1]، واستقباحِه لها، فإنَّ من شأنِ العقلاء ألّا يصدرَ عنهم مثلُ هذا الصَّنيع، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ على النَّبيه أن يستقبحَ أنْ يكون ممَّن اتَّخذ من دون اللّه آلهةً، وفي ذكر ضمير الجماعةِ ما يدلُّ على أنَّ الشِّركَ ملَّةٌ واحدةٌ، لا فرقَ بين مَن عبد نبيًّا مُرسَلًا أوْ مَلَكًا مُقرَّبًا، أو اتخذ حجارة وأوثانًا، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ مرجعُه إلى المفهوم من لفظ (شريك)[2]؛ إذ يُفهمُ منه أنَّ مَنِ اتَّخذ من دون اللّه آلهة أنَّه مُشرك، وجمعُه مشركون.

نوعُ حرف ﴿مِن﴾ ودلالته:

تحديدُ جهةِ الاتِّخاذ ملائمٌ للتعجيب المفهوم من السّياق

أفاد حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ الابتداء، أي: ابتداءً ممّا هو دونَ اللّه تعالى رتبةً ومكانةً واستحقاقًا، فإنَّ المشركين اتَّخذوا الآلهةَ ليعبدوها ممّا هي دون اللّه تعالى، وأفاد الابتداءُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 294.
(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 18/ 320.

المكانيُّ مجازًا تحديدَ جهة الاتِّخاذ لتأشير أنَّ عملهم عجيبٌ؛ إذ ينطلقُ ممَّن هو دونَ اللّه تعالى في الرُّتبة والمقام والاستحقاق.

نكتةُ اختيارِ لفظ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ مضافًا إلى الضَّمير:

نظرُ المُشرِكِ قاصرٌ، وفكرُهُ عن بلوغ الحقِّ حاسِرٌ

دلَّ لفظُ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ على أنَّ كلَّ معبودٍ هو دونَ المعبودِ الحقِّ سبحانه، وأنَّ نظر المشركين إنَّما كان لما هو دون اللّه تعالى، فنظرُهم قاصرٌ، وفكرُهم حاسرٌ، وقد أُضيف إلى ضمير الغَيبة العائدِ على اللّه تعالى، للتَّأكيد على أنَّهم مخلوقاتٌ دونَ علوِّ اللّه تعالى في كبريائه وخالقيَّته ورازقيَّته، فمَن أراد الرِّفعةَ؛ فليبتعد عن طريق الدّون، وليتَّجه صوبَ الحقِّ ﷻ؛ لينالَ الرِّفعةَ والجلال، ولم يخترِ النَّظمُ الكريم لفظَ (غير)، فلم يقلْ: (واتخذوا آلهة غير اللّه)؛ لأنَّ المغايرة لا تفيدُ ما أفادته (دون) من الانحطاط والضَّعف الدالِّ على غلطِهم وسوءِ اختيارهم، كما أفاد الظّرفُ فائدةً استدلاليَّةً تحقِّقُ التعجيب من حالهم، وهي مكمنُ غلطهم ومنشأ ضلالتهم؛ إذ صرفوا نظرَهم عند التقديس إلى مَن ليس مُستحقًّا للعبادة؛ لأنَّ كلَّ معبود متوهَّمٍ هو مخلوقٌ وضعيفٌ وعاجز، فهو دونَ اللّه في الرُّتبة والاستحقاق والتقديس.

نكتةُ تقديم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على المفعول:

متَّخذو الآلهةِ نظروا إلى الدّون فوقعوا في الفتون

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على المفعول: ﴿ءَالِهَةً﴾؛ للتَّنبيه على مكانة الآلهة التي اتَّخذها المشركون، فهي في منزلة دونٍ، وفي مَقعَدِ سُفلٍ، كما أنَّ فيه تشويقًا لمعرفة ما هو الذي اتَّخذه المشركون (من دون اللّه تعالى)، وفائدةُ التَّقديم بيانُ أنَّ ما اتُّخِذ آلهةً هو في الدرجة الأولى اتُّخِذ من دون اللّه تعالى، وما كان كذلك، فيلحقه الذَّمُّ، ويلحقُ مَنِ اتَّخذه العارُ، كما أفاد التقديمُ الاهتمامَ بمكانة المتَّخذ دونَ المتَّخذِ نفسه؛ لأنَّه محلُّ التَّعجيب والاستغراب؛ إذ ينصرفُ هؤلاء الضّالّونَ عن عبادة اللّه تعالى ذي المرتبة العظيمةِ

إلى اتِّخاذ مَن دونَهُ في المقام، فليس التَّعجيب من الآلهة المتَّخذةِ نفسِها، بل من جهة المتَّخذِ ومقامه الدونيِّ.

نكتةُ جمع الآلهةِ وتنكيرها:

كثرةُ الآلهةِ دليلُ هوانِ عابديها وتنكيرُها دليلُ سخفِ متَّخذيها

جُمعتِ الآلهةُ ﴿ءَالِهَةً﴾؛ لإفادة كثرتها، وهذه الكثرة تدلُّ على بُطلانها، وهوانِ عابديها، وإفادةِ أنَّ المشركين تنوَّعت صورُ آلهتهم: فمنهم مَن عبدَ وثنًا، ومنهم مَنِ اختار نبيًّا مُرسَلًا، ومنهم مَن أشرك بالله ملَكًا مقرَّبًا، وتعدُّدُ المتَّخذ من دون الله دليلُ التحيُّر في التعيين، وإشارةٌ إلى عدم امتلاكهم الدَّليلَ القاطع على صحَّة معبوداتهم من دونِ الله تعالى، ونُكِّرت الآلهة لبيانِ حقارتها وسُخفِ عقل مُتَّخذيها، ممّا يؤكِّد عجزَ قدرتها، وبطلانَ عبادتها؛ لأنَّ كثرتها تؤدّي - حتمًا - إلى التَّنازع والفشل، المُفضي إلى الفساد والعطَب، قال تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22]، وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ [المؤمنون: 91].

دلالةُ وصف المفعول بجملةِ النَّفي:

عجزُ الآلهةِ المزعومةِ دائمٌ شاملٌ

وُصِفَ المفعولُ: ﴿ءَالِهَةً﴾ بجملة: ﴿لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾؛ وذلك لاستجماع هذه الجملة معالمَ ضعفِ الآلهة وهوانِها، فهي آلهةٌ لا تخلقُ شيئًا، وهي مشتملةٌ على نفيِ خلْقِ شيءٍ من الأشياء مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، حقيرًا أوْ عظيمًا، مع ذكر مفردةِ (الخلق)؛ للإشعار بأنَّها مخلوقةٌ، وتوطئةٌ للتصريح بذلك، والنَّعتُ بوضعه دالٌّ على الكشف والبيان، فكانَ البيانُ كاشفًا عن صورةٍ من العجزِ الكلّيِّ تجلَّى بالنفي لفعل الخلق والإيجاد المختصِّ بالإلهِ الحقِّ.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العاقل:

تنبيهُ الغافلين إلى حقيقةِ معبوداتِهم بالإيماءِ والإشارةِ

جاء إسنادُ فعل الخلق المنفيِّ عن الآلهةِ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَخۡلُقُونَ﴾ إلى ضمير العاقلين؛ تهكُّمًا بالمشركين، وازدراءً بهم، حيث

أقاموا آلهتَهم مقامَ العُقلاء، وأنزلوها منازلَ أهلِ الإدراك، وهي في الحقيقة لا تعقلُ، ولا تدركُ، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ المعبود يجبُ أن يكون خالقًا عالمًا، لا مخلوقًا غيرَ مُدرك، ففيه تنبيهٌ بديعٌ على سُخف العقولِ، وضَعْف الإدراك، ويحتمل أنَّ في الإسناد تغليبًا للمعبودات العاقلة على غيرها؛ إذ من جملةِ المعبودات من دون اللّه تعالى المسيحُ عيسى ابنُ مريم والعُزَير وغيرهما، وأشار بهذا التغليبِ إلى أنَّ العقلاءَ - الذين هم أحسن حالًا من غيرهم - مسلوبو القدرةِ على الخلق والإيجاد، فكيف بمَن كنَّ مسلوباتِ العقل أصلًا كالجمادات من الأصنام والأوثان والحيوانات؟

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

عمومُ النَّفي مقابل لعموم الإيجاب

جاء لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرةً في سياق النفي؛ ليدلَّ على العموم، فالآلهةُ المعبودة لا تخلق أيَّ شيءٍ مُتصوَّر في عالم الأفكار البشريَّة، وفي هذا السَّلب الكلّيِّ ما يُنبِّههم إلى أنَّ ما يعبدونه من دون اللّه، ويتَّخذونه إلهًا، عاجزٌ بالكليَّة عن الإيجاد والصُّنع والتكوين، الذي لا يمكن أنْ يكون الإلهُ إلهًا، وهو عاجزٌ عن فعل أيِّ شيء، بل حتى أفعالُهم التي يصنعونها مخلوقةٌ للّه تعالى إيجادًا وإبداعًا، وقد نظرَ في هذا السَّلب إلى قوله في وصفِ ذاتِه العظيمة: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الفرقان: 2]، الدالِّ على أنَّ كلَّ المخلوقات برأها اللّه، وأوجدها من العدم، ومنها تلك المعبوداتُ من دونه.

فائدةُ عطف الجملةِ المثبتة على المنفيَّةِ:

التصريحُ بالواضحات كاشفٌ عن العجز عن إدراك البدهيّات

جيء بجملة: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ مثبتةً معطوفةً على الجملة المنفيَّةِ بـ(الواو)، التي تفيد المشاركةَ؛ للدَّلالة على أنَّ العجزَ صفةٌ متأصِّلة في تلك الآلهة، وليس طارئًا عليها؛ لأنَّها خُلِقت عاجزةً، ونفي الخالقيَّة يُثبت المخلوقيَّة، وعليه فالجملةُ المعطوفة أفادت التوكيدَ للجملة المعطوف عليها، وفائدتُه بيان الواضحات لمن لا يفقه بطريق

الاستنباط والاستدلال، فكان التَّصريح توبيخًا لأفهام المشركين، وتقريعًا لهم، والذي يترجَّح أنَّ نفي الخالقيَّة لا يُثبت المخلوقيَّة؛ لأنَّه لا يلزمُ من نفي خالقيَّتِهم للأشياء أنَّهم لا يخلقونَ أنفسَهم، وأنَّهم مخلوقون من غيرهم، فقد يظنُّ ظانٌّ أنَّ الآلهةَ المزعومة عاجزةٌ عن التَّخليق لغيرها، لكنَّها تخلقُ ذاتَها ونفسَها، فجاء النفيُ احتراسًا عن هذا التوهُّم، وأثبتَ أنَّهم عاجزون عن التَّخليق بل هم مخلوقونَ كسائرِ المخلوقاتِ العاجزة، وعليه فالجملةُ المعطوفةُ أفادتِ الاحتراسَ عمّا يُتوهَّم من الجملة المعطوفِ عليها معَ التَّوكيدِ لمضمونها.

غرضُ تقديمِ المسند إليه على المسند الفعلي:

تقوِيةُ الحكم دالٌّ على كمال العجز والاحتياج المنافِيَين للألوهيَّة

قُدِّم المسند إليه ﴿وَهُمۡ﴾ في جملة: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ على الخبر الفعليِّ؛ لتقوية معنى خلقِهم وتأكيدِه، ولتنبيهِ المخاطَبين على أنَّ الذين اتَّخذتموهم معبوداتٍ من دونه مخلوقونُ له تعالى، وفي التعبير بالفعلينِ المُضارعينِ في جملتَي النفي والإثبات إشارةٌ إلى استمرار عجْزِهم عن التَّخليق، واستمرار خلق النحّاتين لهم الدالِّ على كمال عجزهم النّافي لألوهيَّتهم.

نكتةُ بناء الفعل للمفعول:

المشركُ يكفيه قبحًا أن يعبدَ ما صنعَ بيديه

جيءَ بالمسند: ﴿يُخۡلَقُونَ﴾ مبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعله؛ لأنَّ خالقَ كلِّ شيءٍ معلومٌ، وهو اللّه ﷻ، كما نصَّت عليه الآيةُ السّابقة، أوْ أنْ يكون المعنى: لا يقدِرون على أن يختلقوا شيئًا، وهم يُختَلَقون، حيث تختلقُهم عبدَتُهم بالنَّحت والتَّصوير[1]، ما يعني: أنَّهم عبدوا آلهةً من صُنعِ أيديهم، وهو أمرٌ يجعلُها في منزلةٍ دونَ منزلتهم، ويزيدُ صنيعَهم شناعةً وقبحًا وتعجيبًا، كما دلَّ البناء للمجهول على أنَّ معبوداتِهم من الجمادات يجهلونَ مَن صنعَهم، وإنْ كان الفاعلُ معلومًا بالنِّسبة للمخاطَبين، سواءٌ كان الفاعلُ هو اللّهَ تعالى أم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 83.

النّاحتينَ لهم؛ لأنَّهم مسلوبو العقلِ والإرادة؛ إذ يخلقُهم اللّه تعالى، وهم لا يَعلمونه، ولا يَعرفونه، وفي هذا تقبيحٌ لشركهم؛ إذ تجهلُ معبوداتُهم مَن خلقَها، وصنعَها.

بلاغةُ طباقِ السَّلب:

لا عَجْزَ أبْيَنُ من عجزِ النّاحتِ لآلهتِهِ

بين فعل ﴿لَّا يَخْلُقُونَ﴾ المنفيِّ، وفعل ﴿يُخْلَقُونَ﴾ المثبَت طباقُ السَّلب الذي يدلُّ على أنَّه "لا عَجْزَ أبْيَنُ من عجزِ تلك الآلهة؛ لأنَّهم لا يقدرونَ على شيءٍ من أفعال اللّه، ولا من أفعالِ العباد، إذ لا يَفتعلونَ شيئًا، وهم يُفتعَلون؛ لأنَّ عبدتَهم يَصنعونَهم بالنَّحت والتصوير"(1)، ويُشكِّلونهم على الصّورة التي يُحبّونهم عليها، ولا يوجدُ دليلٌ على عجزهم أوضحُ من ذلك.

بلاغة فنِّ التَّرديد:

المشركون يَصنعون الآلهةَ، ويَنحتونها، ويَضعونَ لها قوانينَ الامتثال

كما أنَّ في اتِّحاد الفعل المنفيِّ والمثبَت ﴿يُخْلَقُونَ﴾ مع اختلاف إسناده بلاغةً عالية، حيث إنَّه يُحتمل (فنُّ الترديد)، فإذا جعلنا الخلقَ في الجملتين بمعنى الخلقِ من العدم، فهو من باب التماثل، وتكونُ الثانيةُ من باب التوكيد لما جاء في الأولى، وإذا جعلنا الخلقَ في الجملة الأولى بمعنى الإيجاد من العدم، وفي الجملة الثانية بمعنى التقدير، فهي محمولةٌ على فنِّ الترديد، فتكونُ الجملة الأوْلى نفَتْ عنهم ما أُثبت للخالق سبحانه، فيُفهم لزومًا أنَّهم مخلوقون، وتكونُ الجملة الثانية قد أثبتت أنَّ المشركين يقدِّرون صورَ الآلهة، ويصنعونَها، ويضعون لها قوانين الطاعة والامتثال.

مناسبةُ ترتيب الجمل المتعاطفة:

الآلهةُ المعبودةُ من دون الله أعجزُ من الحيوان

عَطفت الآية جملة ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾؛ "لبيان ما لم يدلَّ عليه ما سبق من مراتبِ عجزهم وضَعْفِهم، فإنَّ بعضَ العاجزينَ عن الخلقِ رُبَّما يملكُ دفعَ الضُّرِّ وجلبَ النَّفعِ في

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 263.

الجملة كالحيوان"[1]، فجيء بها لبيان أنَّ هذه الآلهةَ أعجزُ من الحيوان، فإنَّه ربَّما يملكُ دفعَ الضُّرِّ عن نفسه، أوْ جلبَ النَّفع لها في بعض الأحيان.

فائدةُ استعمال أداة النفي (لا):

الشُّمول الزمني دليلُ الافتقار الكلي

استعمل النظمُ الكريم أداةَ النَّفي (لا) في الجمل المنفيَّة؛ ليشمل الماضي والحاضر والمستقبل، ولو قال: (لم يملكوا)؛ لاقتصرَ على الماضي فقط، والمراد شمولُ الزَّمانِ كلِّه، فكما أنَّهم لا يخلقون شيئًا على سبيل الاستمرار الكليِّ، فإنَّهم لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا كذلك.

بلاغةُ التَّعبير بمفردة ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ﴾:

المقصودُ بالملك الاستطاعةُ القويَّةُ من باب المجاز المرسَل

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ﴾ دونَ رديفاتِها، ومعناها: لا يقدرون على دفع الضرِّ، وحقيقةُ معنى الملِك: التمكُّنُ من التصرُّف بدون معارض، ثمَّ أُطلق على استطاعة التصرُّف في الأشياء بدون عَجْزٍ، ونشأ إطلاقُ الملِك بمعنى الاستطاعة القويَّة الثابتة على سبيل المجازِ المرسَل للتلازم بين الملِك والاستطاعة، فقد تعلَّقَ فعلُ الملِك فيها بمعانٍ لا بأشياء وذوات، وذلك لا يكون إلّا على جعل الملِك بمعنى الاستطاعة القويَّة[2]، وآثر التَّعبيرَ بهذه المفردة دون (يَستطيعون)؛ لأنَّ نفيَ الامتلاك أقوى وأوسعُ وأشمل، فإنَّ نفي ملك الاستطاعةِ أقوى من نفي الاستطاعة نفسِها، فمن لم يملك ابتداءً، كيف له أن يتصرَّف انتهاءً؟ كما آثرَ النظمُ التعبيرَ بـ ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ﴾ دون (ولا يضرون ولا ينفعون)؛ لأنَّ نفي ملك الضرِّ والنَّفع والتصرُّف فيهما أبلغُ من نفي نفسيهما؛ إذ لا يلزمُ من نفي الضُّرِّ والنَّفع عدمُ امتلاك القدرة على النَّفع والضرِّ؛ ولذا كان نفيُ القوَّة أبلغَ من نفيِ الفعل.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 83، إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 137.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 289.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع المنفيِّ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾؛ للدَّلالة على نفي عَجْزهم المطلق عن مِلك الضرِّ والنفع وامتدادِه مع تجدُّد الأزمان والحدثان، وبلوغِهم في ذلك مدًى لا حدودَ له، وفي هذا التعبير إشارةٌ إلى أنَّ اللّه ﷻ هو الذي يملكُ لهم الضرَّ والنَّفعَ باستمرار.

نـفـيُ ملك الـضـرِّ والنفع عـن الآلـهـة إثـبـاتٌ للمالك الحقيقيِّ لهما

نوعُ اللّام ودلالتُها:

عُدِّي فعل ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ بحرف اللّام في قوله: ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾ لإفادة الاختصاص؛ لدفع توهُّم أنَّهم يَملكونه لها إنْ لم يَملكوه لغيرها، كما أفادت اللامُ تشخيصَ محلِّ نفيِ المِلك، وهي النَّفسُ، لإظهار مدى العجْز والضَّعف.

الآلهة المعبودة من دون الله في غاية العجز

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾ على المفعول به: ﴿ضَرًّا﴾؛ فلم يقل: (ولا يملكون ضرًّا لأنفسهم)؛ للتَّنبيه على أنَّ من لا يستطيع دفْعَ الضُّرِّ عن نفسه، ولا جلبَ المنفعة لها لا يستطيعُ فعلَ ذلك لغيره من باب أَوْلى، ففيه إثباتُ عَجْزهم بالدليل والبرهان، وفي التعبير عنهم بلفظ (الأنفس) دون الضَّمير، فلم يقل: (ولا يملكون لهم)؛ لأنَّ النَّفس أخصُّ أحوال الإنسان، ومن عجزَ عن نفع نفسِه التي بين جنبَيه أو ضرِّها؛ فكيف يتأتَّى له نفعُ ما هو من مصالحه وأحواله وضرها؟

الـعـاجـزُ عن حـمـايـةِ نفسه أعجزُ عن حمايةِ غيرِه

نكتةُ تنكير ﴿ضَرًّا﴾:

نَكَّر المفعول به: ﴿ضَرًّا﴾ ليَعُمَّ كلَّ ضرٍّ يُتصوَّر، مهما كان صغيرًا في أثره أَوْ كبيرًا، فإنَّ القدرة على دفعِه ممنوعةٌ، وذلك أنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تدلُّ على العموم، فالحكمُ من عموم السَّلب الدالِّ على سلْبِ ملكيَّة الضرِّ بأيِّ شكلٍ من أشكاله، وذلك مُنتهى العَجْز والضَّعْف.

عـمـومُ السَّـلب دالٌّ على منتهى العجز

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي في تقديم الضرِّ وتأخيره:

تقديمُ الضرِّ باعتباره أيسرَ على المخلوقين، وتأخيره من باب الاستقصاء

قُدِّم ﴿ضَرًّا﴾ على: ﴿نَفۡعًا﴾ في الآيةِ، وفي قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾ [الأنعام: 76]؛ لأنَّ النُّفوس أشدُّ تطلُّعًا إلى دفعِه مِن تطلُّعها إلى جلبِ النَّفع، فكان أعظمُ ما يدفعهم إلى عبادة الأصنام أنْ يستدفعوا بها الأضرارَ بالنَّصر على الأعداء، وبتجنُّبها إلحاقَ الإضرار بعابديها، ولأنَّ دفعَ الضرِّ أوْلى من جلب النَّفع، ولأنَّه أوَّلُ مراتبِ النَّفع وأولاها بالتقديم، ولأنَّ مَن قدِر عليه كان أقدرَ على جلبِ المنفعة، وأمّا في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعًا وَلَا ضَرًّاۚ﴾ [الرعد: 16]؛ فقد قُدِّم ذكرُ النَّفع على الضرِّ؛ لأنَّه من باب الاستقصاء في عَجْزهم؛ لأنَّ شأن الضرِّ أنَّه أقربُ للاستطاعة وأسهلُ[1]، كما أنَّ لفظ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ [الرعد: 16] الوارد في الآية يستدعي تقديمَ النَّفع على الضَّرِّ؛ إذ ظنّوهم أنصارًا يَحمونهم، وينفعونهم من دون اللّه، فسُلِبَتْ عنهم ملكيَّةُ النَّفع دَفْعًا لوهْمِهم الفاسد وتصوُّرِهم الكاسد.

فنُّ الطِّباق:

اللَّفظانِ المُتضادّانِ حاصرانِ لجميع الصّوَرَ الكامنة بينهما

بين لفظتَي (النَّفع والضرِّ) طباقٌ، حيث إنَّ ذكرَ اللفظتين تقابلٌ جامعٌ لكلِّ أنواع الخير والشرِّ، ومَن كان عاجزًا عن إحداث الضَّرر والنَّفع بنفسه - وهما ضدّان - فهو عاجزٌ عن جميع صور الخير والضَّرر الكامنينِ بينهما، فما توهَّمات هؤلاء المشركين بأنَّ هذه الآلهةَ تدفعُ عنهم مضرَّةً، أوْ تجلب لهم مصلحةً إلّا ضلالٌ مبين وتصوُّرٌ خبيث.

نكتةُ إعادة حرف النَّفي:

عطفَ النَّظم القرآنيُّ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَا نَفۡعًا﴾ على المفعول به:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 113.

تأكيدُ نفيٍ ما قد تتوهَّمه الأفهامُ القاصرة

﴿ضَرًّا﴾ مسبوقًا بحرف النَّفي مع إمكان الاستغناء عنه؛ لتأكيدِ عجز الآلهةِ المزعومةِ عن النَّفع، وفي ذكر حرف النفي (لا) تأكيدٌ لهذا النَّفي، فقد يُتصوَّر أنَّ الآلهة قد لا تقدرُ على دفع الضُّرِّ، لكنَّها قد تقدرُ على جلب النَّفع، فذكر حرفَ النَّفي تأكيدًا لهذا المعنى، كما أفادت (لا) المؤكِّدةُ استغراقَ النَّفي وشمولَهُ، فهم غيرُ مالكينَ لشيءٍ ممّا قد يتوهَّمُه العابدون من خيرٍ يُرتجى أوْ ضرٍّ يندفع.

مناسبةُ ترتيبِ الجُمَلِ المتعاطفة:

مَنْ عَجَزَ عن الأمرِ الهَيِّن؛ كان عن العظيم أشدَّ عجزًا

جيءَ بجملةٍ معطوفةٍ منفيَّةٍ أخرى، وهي: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾؛ للتَّصريح بعجزهم عن إماتةِ الأحياء وإحياءِ المَوْتى وبعثِهم، بعدَ بيانِ عَجْزهم عمّا هو أهونُ من ذلك؛ لأنَّ مَن عجز عن الأمر الهيِّن؛ كانَ عن العظيم أعجزَ، فالتَّنصيصُ على هذه الجملة بعدَ بيانِ عجزِهم عمّا هو أهونُ من هذه الأمور، مِن دفع الضُّرِّ وجلب النَّفعِ لأنفسِهم؛ للتَّصريحِ بعَجْزهم عن كلِّ واحدٍ ممّا ذُكر على سبيل التَّفصيلِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ الإله يجبُ أنْ يكونَ قادرًا على جميعِ ذلك[1]، وبذلك العطف يترقّى العجزُ المُثبتُ لتلك الآلهة المزعومة، وتزدادُ الفوارق بين الإله الحقِّ وتلك الآلهة الباطلة، فالجامعُ بين الجملتينِ المُتعاطفتين خياليٌّ لتقارُن صوَر العَجْز وتداعيها في الخيال.

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

نفيُ الامتلاك أبلغُ من نفي الفعل

وفيها عبَّر بالفعل المنفيِّ: ﴿يَمۡلِكُونَ﴾ مضارعًا؛ لإفادة عجزهم عن الإماتة والإحياء والبعث، واستمرار ذلك العجز في كلِّ العصور والأزمان، وللإيماء إلى أنَّ هذا الملك هو للمَلِك الحقِّ، ولم يقل: (ولا يُميتون، ولا يُحيون، ولا يَنشرون)؛ لأنَّ نفيَ القوَّة أبلغُ من نفيِ الفعل؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 83.

إذ لو انتفى الفعلُ، فلا يعني أنَّهم فاقدونَ لتلك القدرة، ولذا كان النَّفيُ متوجِّهًا لنفي القدرة على الفعل دونَ الفعل ذاتِه.

نكتةُ تكرارِ فعل ﴿يَمْلِكُونَ﴾:

الآلـهـةُ لا تـسـتـطـيـعُ الـتَّـصـرُّفَ بتفاصيل الحياة ولا بكُلّيّاتها

كُرِّر ذكر فعل ﴿يَمْلِكُونَ﴾ في الآية الكريمة؛ لانفراد كلِّ نفيٍ بنفسِه، فنفى في الجملة الأولى مِلك الآلهة دفعَ الضرِّ وجلبَ النَّفع، ونفى في الأخرى مِلكَ الآلهة الحياةَ أو الموتَ، وذلك أنَّ الأولى تخصُّ الحياةَ بتفاصيلها اليوميَّة المتعلّقة بالنَّفس، والأخرى تناولت أصلَ الحياة وزوالِها، فهي تخصُّ الحياة بكليّاتها، فالآلهةُ المزعومة عجزت عن هذه بتفصيلاتها اليوميَّة، وعجزَتْ عن النُّهوض بكليّاتها، فمَن لم يفهم هذه فليفقَهِ الأُخرى، كما انحصرَ نفيُ الجملة الأولى في جلْبِ المنافع ودفعِ المكاره عن النَّفس، فكان ذلك مدعاةً لنفي الجملة الثانية المتعلِّقة بالآخرين، ومن ثمَّ فلا يملكون حياةً أوْ موتًا أوْ نشورًا لغيرهم، وأجملَ في الجملة الأولى الضُّرَّ والنَّفعَ، وفصَّلهما في الجملة الثانية.

غرضُ تنكير ﴿مَوْتًا﴾ وتقديمه:

كـلُّ مـا يصدق عليه اسمُ الموت فـهـو خـارجٌ عـن حـدود الاستطاعة

جاء المفعول ﴿مَوْتًا﴾ نكرةً؛ ليعمَّ كلَّ ما يدخل تحت لواء لفظ (الموت)، فهذه الآلهةُ لا تملك موتًا ولا إماتةً ولا إنامةً ولا سلْبًا للرّاحة، وهذا من بديع أغراض التنكير أنْ يدخلَ في اللَّفظ جميعُ أنواع المعاني الحقيقيَّة والمجازيَّة، المصدريَّة والاسميَّة، العَلَميَّة والوصفيَّة، كما دلَّ التنكيرُ المنفيُّ على أنَّهم لا يملكون أدنى قدرةٍ على أقلِّ أنواع الموت ومُسبِّباته، فالتنكيرُ مفيدٌ التقليلَ، والموتُ له صورٌ كثيرة وأحوالٌ متعدِّدة، وهم عاجزونَ عن إحداث أيَّة صورةٍ وحالٍ منه، وإنَّما قدَّم الموتَ على الحياة لمُناسبتِه تقديمَ الضرِّ على النَّفع في الآية، كما أنَّ العابدينَ كانوا يخشَونَ من الآلهة إيقاعَ الموتِ فيهم، فقُدِّمَ لاهتمامهم به، ولذا أخَّر الحياةَ مع أنَّها النازلة فيهم

أوَّلًا، ويحتملُ أنَّه أراد بالحياة ما كانتْ بعد الموت، فيكون التقديمُ بحسب التحقُّق الواقعيِّ.

نكتةُ العطف بالواو وتكرار النفي ﴿وَلَا﴾:

استغراقُ النّفي والجمعُ بين المتضادَّين لإظهار العجز الكامل

جاء العطف بالواو دونَ (أو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا حَيَوٰةً﴾؛ لأنَّ الأمرَ ليس خاضعًا للتخيير، بل لنفي استطاعتهم تحقيقَ شيءٍ من الحياة، كما أنَّ (لا) النافية تكررت لإفادة التوكيد والشمول.

بلاغة الطباق في قوله: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ﴾:

بين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا﴾، وقوله: ﴿وَلَا حَيَوٰةٗ﴾ طباق، والجمعُ بين اللَّفظينِ المتضادّين دالٌّ على منتهى العَجز عن الفعل والتأثير.

دلالة التعبير بـ ﴿حَيَوٰةٗ﴾ مادة وصيغة:

الحياة بمفهومها الحقيقيِّ والمجازيِّ هي لله تعالى وحدَه

جاء لفظ ﴿حَيَوٰةٗ﴾ نكرةً في سياق النَّفي، فعمَّ كلَّ معنًى يحتملُهُ هذا اللَّفظ، من الحياة الحقيقيَّة والمجازيَّة، فهم لا يملكون الحياةَ المعهودة، ولا الإحياءَ بعدَ الموت، ولا الحياةَ المعنويَّة التي هي بمعنى السَّعادة، ولا الحياةَ التي بمعنى الهداية، ولا الحياة بمعنى الوجود من عدم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هذه الحياة لا يملكُها على التحقيق إلّا اللّٰهُ ، ونلحظ في التنكير أيضًا دلالة التقليل من وجهٍ آخر؛ فهم لا يمتلكون القدرة على أقلِّ صور الحياة وأشكالها، والحياة لها صورٌ متعدِّدةٌ وأشكال متنوِّعة، وهم عاجزون عن أدناها وأقلِّها، وعبَّر عن (الموت والحياة) بلفظِ المصدر الدالِّ على الحقيقة والماهية لنفي أيِّ امتلاك لهم لتلك الحقيقتينِ بأيَّة صورة من صوَرهما ومصداقٍ من مصاديقهما المعروفة، ونفيُ الحقيقة أبلغُ من نفي الأفراد للشُّمول والاستغراق.

بلاغةُ اختيارِ لفظ ﴿نُشُورٗا﴾:

النُّشورُ مرحلةٌ متوسِّطة بين الإحياء والحساب

آثرَ النَّظم الكريم اختيارَ لفظ (النّشور) في قوله تعالى: ﴿وَلَا نُشُورٗا﴾، دونَ (البعثِ) أوِ (الحشر) ونحو ذلك من الألفاظ؛ لما في هذا اللَّفظ من بيانٍ لأولى مراحل البعث والحساب، فإنَّ النُّشورَ

يكون بعدَ طيِّ الإنسان واستحالتِه ترابًا في الأرض، فنبَّهتِ الآية على أنَّ النشورَ قريبٌ من معنى الإحياء، وقريبٌ من معنى البعث للحساب، فلا يكون النَّشرُ إلّا صورةً من صور الإحياء، وما يأتي بعده هو غايةُ البعث، وهو الحساب، فذِكرُ هذه المفردة فيه تنبيهٌ على هذا المعنى البديع، وهذا مبنيٌّ على أنَّ المراد بالحياة ما كانتْ بعدَ الموت، وإنْ أُريد بالحياة ما كانت أوَّلَ مراحل الإنسان الوجوديَّة التي يعقبُها الموتُ، فإنَّ النُّشور متحقِّقٌ بعدَ الموت، فيكونُ ذكرُ النُّشور لفتًا إلى معنى عزيز، وهو أنَّ مَن لا يملك الإماتة والأحياء لا يملك النَّشر للأموات، وأنَّ مَن يملكهما يملكُ النَّشرَ أيضًا، فما بالُكم تُنكرون النشر والبعث بعد الموت؟

فنُّ الإدماج:

من لـوازم الإله الـحـقِّ الـبـعـثُ لمحاسبة الخلقِ

ذكرت الآية الكريمة (النشور)، ولم يدَّعِ العربُ قدرةَ الآلهة على ذلك، بل أنكروا الإيمان بعقيدة البعثِ بعد الموت، فإيرادُه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ جاءَ لإدماج معنى الاعتراف بالآخرة في سياق نفي قدرة الآلهة على شيءٍ، وتظهر بلاغةُ الإدماج في لازم معنى الإلهيَّة، فإنَّ الإله الحقَّ خلق الخلقَ؛ ليكلِّفهم بالعبادةِ، فيعبدوه، ثمَّ يُحاسبَهم، وهذا لا يكون إلّا بعد النشور، فإذا لم يكن ذلك للإله؛ فليس هو بإلهٍ، وهذا المعنى عقليٌّ لزوميٌّ، ففيه حجاجٌ بديعٌ، خفيَ على كثيرٍ ممَّن تصدّى لبيان حِجاج القرآن مع المشركين.

نكتةُ تكرار حرف النَّفي:

دفْعُ توهُّم قدرة الآلهة على فعل بعض المَنفيّات

ممّا يُلحَظُ في نظم الآية تكرارُ حرف النَّفي: (لا) ستَّ مرّات، في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾، وعدمُ الاكتفاء بذكره ثلاثَ مرّات قبل الأفعال، كما يقتضي

الظّاهر، ونكتةُ ذلك: نفيُ قدرة الآلهة على فعلِ أيٍّ واحدٍ من هذه الأشياء نَفْيًا مستقلًّا، ودفعُ توهُّم أنَّها تقدر على بعض المنفيّات، ولا تقدرُ على بعضِها الآخر، و"الإيذانُ بغايةِ جهل المُشركين وسَخافةِ عقولِهم، كأنَّهم غيرُ عارفين بانتفاء ما نُفي عن آلهتِهم من الأمورِ المذكورةِ مفتقرونَ إلى التَّصريح به"[1]، كما أنَّ تواليَ النَّفي بشكلٍ مكثَّفٍ يرسمُ في ذهن المخاطَبِ بهذا النَّظم أنَّ هذه الآلهةَ المزعومة عبارةٌ عن عدم محْضٍ؛ لأنَّ مَن لا فعلَ له في شيءٍ، ولا يمتلكُ التَّأثيرَ الفعليَّ المضادَّ كالضر والنفع والإحياء والإماتة؛ فهو مسلوبُ التأثير والفعل، وما ذاك إلّا دليلٌ على عدميَّتِه في الحقيقة، وهو المقصدُ الذي يراد الوصولُ إليه، وتنبئُ عنه معنى كلمة التَّوحيد (لا إلهَ إلا اللّه)؛ لأنَّ الإلهَ الحقَّ هو الفاعلُ والموجِدُ للأفعال كلِّها.

بلاغةُ الإيجاز بالحذف:

عند أمن اللَّبسِ يحسُنُ الحذفُ ويجملُ البيان

في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ إيجازٌ بحذف الأفعال على سبيل الاحتباك، فحُذِفَ فعلُ ﴿يَمۡلِكُونَ﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَلَا نَفۡعٗا﴾ لدلالةِ الأوَّل عليه، وحذفَه مع قوله تعالى: ﴿وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾؛ لدلالة الثاني عليه، وقوَّى وجهَ الحذف ذكرُ (لا) مع الأسماء الثلاثة، وهذا من بديع الحذف؛ لأمن اللَّبس، وفي حذفِ الفعل والاكتفاءِ بالعطف تأشيرٌ إلى أنَّ مناطَ التركيز عليه هي الأفعال المسلوبةُ عنهم دون فعل الامتلاك المنفيِّ، فهم لا يقدرونَ على إيجاد فعلٍ من الأفعال كالضرِّ والنَّفع والإماتةِ والإحياء والنَّشر.

بلاغةُ النَّفي التصاعديِّ:

من لطيف ما يُذكر في الآية بلاغةُ النَّفي التصاعديِّ، فنفى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 83.

نفيٌ لواحدٍ فاثنين فثلاثة تدرُّجٌ في إقامةِ الحجَّة

ابتداءً في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾، قدرتَهم على الخَلۡق، وهو نفيٌ لشيءٍ واحد، وخصَّه وحدَه بالنَّفي لأهميَّتِه ومكانته؛ إذ مَن لا قدرة له على الإيجاد والتخليق، فليس بإلهٍ أصلًا، ثمَّ نفى عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ استطاعتَهم دفۡعَ الضرِّ وجلبَ النَّفع، وهو نفيٌ لشيئين، وخصَّهما بالذكر لما بينَهما من التَّناسبِ الضدّي أوَّلًا، ولأنَّ العابدين يتمكَّنون من الضرِّ والنفع ظاهرًا، فكيف يتوجَّهون بالعبادة والخضوع لمسلوب النَّفع والضرِّ ثانيًا؟ ثمَّ نفى عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ استطاعتَهم الإماتةَ والإحياءَ والنُّشور، وهي نفيٌ لثلاثة أشياء، وجمعَها في الذِّكر لما بينَها من التناسُب الضديِّ، وأنَّها تنتمي إلى حقلٍ يتعلَّقُ بالمخلوقات بعدَ إيجادها، من منحِها الحياة أوۡ سلبِها لها أوۡ نشرِها بعد موتها، وهذا نفيٌ تصاعديٌّ بليغٌ، ونكتتُهُ قائمةٌ على التدرُّج في إقامة الحُجَّة ببطلان عبادة الآلهة المزعومة، وإثبات أحقيَّة ذلك للّٰه تعالى وحدَه.

فنُّ المقابلة بين الآية والتي قبلها:

التَّناغمُ والانسجامِ بينَ ما أثبت للّٰه تعالى وما نُفي عن الآلهة المزعومة

ولو قارنا هذه الآية التي تراكمَ فيها النفي وتكاثف مع الآية التي سبقتها؛ لتبيَّن لنا مدى التناسُب بينهما؛ إذ قال تعالى قبل هذه الآية: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾ [الفرقان: 2]، مثبتًا لذاته الجليلة مالكيَّتَه لجميع المخلوقات، وأنَّه ليس له ابنٌ يخلفُه، وليس له شريكٌ فيما يملكه، وأنَّه خالقُ كلِّ شيء وقد نظَّمه، وقدَّره بشكل دقيق لا اختلالَ فيه ولا اضطرابَ، فناسبَ أنۡ يقابل ذلك التفرُّد التامَّ بتوالي النفي الذي يسلبُ أيَّ قدرةٍ تأثيريَّةٍ لتلك الآلهة الباطلة، وقد وضَّح ذلك التقابل وفصَّله ابن عاشور بقوله: "وَبَيۡنَ قَوۡلِهِ: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ [الفرقان: 2]، وقَوۡلِهِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾

مُحَسِّنُ الطِّباقِ، وجُملَةُ: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ مُقابِلَةٌ جُملَةَ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: 2]، وجُملَةُ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ مُقابِلَةٌ جُملَةَ: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان: 2]، وجُملَةُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ مُقابِلَةٌ جُملَةَ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: 2]؛ لِأَنَّ الشَّرِكَةَ في المُلْكِ تَقْتَضي الشَّرِكَةَ في التَّصَرُّف، وجُملَةُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ مُقابِلَةٌ جُملَةَ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: 2]، فكلُّ مقطعٍ من هذه الآية يُقابل مقطعًا من الآية التي سبقَتْها بترتيبٍ عجيب ونظم دقيق، فيتحقَّق الغِنى والتفرُّد المطلق للّه تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، والافتقارُ والحاجة والعجزُ لتلك الآلهة الموهومة.

دلالةُ النَّفي على الإثبات بطريق المخالفة:

مَـنْ يـقـدرُ على فعل المنفيّات هو المعبود الحقيقيُّ

نفيُ هذه الأفعالِ عن الآلهة المزعومة يقتضي - بطريق المخالفة - إثباتَها للّه تعالى وحدَه؛ لأنَّ في نفيها عنها تنبيهًا إلى أنَّ الإله يجبُ أنْ يكون قادرًا على التخليق والإيجاد من العدم، وقادرًا على دفع الضرِّ وجلبِ النَّفع، وقادرًا على الإحياء والإماتة والبعث للأموات، ومَن لم يكن كذلك؛ فهو "بمعزِلٍ عن الألوهيَّة؛ لعَرائه عن لوازمِها، واتِّصافه بما يُنافيها"(1)، وبما أنَّ اللّه تعالى هو وحدَه القادرُ على الضرِّ والنَّفع والإحياء والإماتة والبعث، "فيجب أن يكون المعبودَ الحقيقيَّ، وما سواه ليس بمعبود بل هو عابدٌ وخاضعٌ له، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: 93]"(2)، وهؤلاء المشركون كانوا يؤمنونَ باللّه ربِّ العالمين ذاتًا موجودةً، لكنَّهم توهَّموا في معبوداتهم وأصنامِهم وأنبيائهم أنَّ لهم تأثيرًا منحهم اللّه تعالى إيّاه من الضرِّ والنَّفع، فوقعوا في حبل

(1) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 4/ 206.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 137.

الشِّرك وأباطيله، وخضعوا لها وعبدوها من دون اللّه تعالى، فأراد اللّه تعالى أنْ يُبيِّن لهم أنَّ ما نسبوه لتلك الآلهة المزعومة مسلوبٌ عنها، لا تتمكَّنُ من فعله، وأنَّ الفاعل الحقيقيَّ هو اللّه تعالى وحده، الذي هجروا عبادتَه وتركوه لمعبوداتٍ باطلة ضعيفةٍ، لا تملك لنفسِها ولا لغيرِها أيَّ ضرٍّ أوْ نفعٍ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة صفاتِ ما اتَّخذه المشركون آلهةً للعبادة والطّاعة والتذلُّل، وأثبتَتْ بطريق اللُّزوم والمقابلة تلك الصِّفات للّه وحدَه، وأومأتْ إلى سَخافة عقولِ المشركين الَّذين استحسنوا عبادةَ تلك الآلهة؛ ناسبَ أنْ يذكر في هذه الآيةِ ما هو أشدُّ عجَبًا، وهو ما قالوهُ في شأن القرآن الَّذي يدعوهم إلى عبادة الإله الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما أنَّ فيها ارتباطًا ببداية السّورة المتحدِّثة عن تنزيل الفرقان، وأنَّه من عند اللّه تعالى، فتكونُ هذه الآية استقصاءً للردِّ على شُبُهات المنكرين، وتعجُّبًا من كلام المُشركين في حقِّ الذِّكر الحكيم.

مَنِ اتَّخذ الباطل إمامًا له؛ فسيرفضُ الحقَّ آمِرًا له

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِفۡكٌ﴾: (أفك) أصلٌ يدُلُّ على قَلْبِ الشَّيْءِ وصَرْفِه عَنْ جِهَتِه، يُقالُ: أُفِكَ الشَّيْءُ، وأَفِكَ الرَّجُلُ؛ إذا كَذَبَ، والإِفْكُ الكَذِبُ[1]، "ولا يقال: إفكٌ حتى يكذِبَ كذبةً يفحُش قبحُها"[2]، فالإفكُ هو الكذِبُ الشَّديدُ، وهو المقصودُ في الآية على ألسُن المشركين الكاذبة الظّالمة.

2) ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: (فرى): "الفَرْيُ: قطعُ الجِلد للخرز والإصلاح، والإِفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثر، واستعملَه القرآن في الكِذْب والشِّرك والظُّلم"[3]، "ومِنَ الباب: فُلانٌ يَفْري الفَرِيَّ؛ إِذا كانَ يَأْتي بِالعَجَبِ، كَأَنَّه يَقْطَعُ الشَّيْءَ قَطْعًا عَجَبًا"[4]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(2) العسكري، الفروق اللغوية: (أفك).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (فرى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرى).

والمقصودُ في الآية أنَّ النبيَّ ﷺ افترى القرآن من عنده، عن سابقِ تقديرٍ ونسبَهُ إلى الله تعالى.

3) ﴿وَأَعَانَهُۥ﴾: العَوْنُ: المُعاوَنَةُ والمظاهرة، يقال: فلانٌ عَوْني، أي: مُعيني، والتَّعاوُنُ: التَّظاهر، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2]، والاستِعانَةُ: طلب العَوْن[1]، والمذكورُ في الآية أنَّ هناك مَن قدَّم الإعانة للنبيِّ ﷺ في هذا الإفك المُفترى المنسوب للّه تعالى المسمَّى بالفرقان، وأنَّ ما فيه من الحقائق والأخبار والمعاني والدَّلالات ما هي إلّا من مساعدة أقوام أُخرى له على الإتيانِ بها.

4) ﴿وَزُورًا﴾: (زور) أصلٌ واحدٌ يَدلُّ على المَيْلِ والعُدولِ، مِنْ ذَلِكَ الزّورُ: الكَذِبُ؛ لِأَنَّهُ مائِلٌ عَنْ طَريقَةِ الحَقِّ، ويُقالُ: زَوَّرَ فُلانٌ الشَّيْءَ تَزْويرًا، وَزَوَّرَ الشَّيْءَ في نَفْسِهِ: هَيَّأَهُ؛ لِأَنَّهُ يَعْدِلُ بِهِ عَنْ طَريقَةٍ تَكونُ أَقْرَبَ إِلَى قَبولِ السّامِعِ[2]، والزّور هو الباطلُ المُفترى.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

ضعف حجة المشرك في إشراكه وقوتها في محاجة أهل الإيمان

تُبيِّن الآية الكريمة حالَ المشركين في افترائهم على رسولِ اللّه ﷺ واتِّهامهم له بأنَّه افترى الكذبَ والباطلَ على اللّه تعالى، وأنَّه أتى بالقرآن من عند نفسِه، مُستعينًا بأهل الكتاب، في إثرِ بيان اتِّخاذ الأوثان الباطلة؛ لبيان الفرقِ بينَ عقل المُشرك في اتِّخاذ هواه، وعقلِ المشرك في اتِّهام ما يخالفُ هواه، فهم في مُنتهى القصور والضَّعف العقليِّ عند توجُّههم إلى عبادةِ منحوتاتهم التي لا تمتلكُ أيَّ شيء، بينما تقوى في نفوسهم حججهم عند ردِّ آيات اللّه وتوجيهِ الاتِّهامات الباطلة للقرآن الكريم، الَّذي يُخالف هواهم وضلالاتِهم مع أنَّ عبادتَهم لما لا يستحقُّ صورةٌ جليَّةٌ على إفكهم وافترائهم، فكيف ينسبونَ ذلك الافتراء للكلام الحقِّ المبين؟

(1) الراغب، مفردات القرآن: (عون).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زور).

❁ الإيضاحُ اللُّغوي والبلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

أقوالٌ تثير العجب بعد أفعال تثير الاشمئزاز

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ للعطف على جملة: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، والمعنى: إنَّ ممّا يزيد العجبَ والدَّهشة أنْ يقول المشركون في القرآن ما ليس فيه؛ ظُلْمًا وزورًا، بعدَ أنِ اتَّخذوا من دون اللّه آلهةً، ليس لها من موجِبات العبادة والتأليه أيُّ شيء، فهو من عطف الأقوالِ على الأفعال، كأنَّه قيل: كيف يتناسبُ هذا القولُ مع ذلك الفعل؟ إذ فعلُهم دليلُ إفكهم وافترائهم، ومع ذلك ينسبونَ الافتراء والإفك للفرقان الكريم، كما أفاد العطفُ القوليُّ على الفعليِّ شدَّةَ ظُلمهم؛ إذ جمعوا بين الفعل الباطل ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ والقول الزّائف ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وبذلك مارسوا أَعلى درجاتِ التزوير والكذِب والظُّلم، فالجامعُ المُقتضي للوصل خياليٌّ لتقارنٍ بين الفعل والقول في الخيال.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

الأقوالُ الصّادرة عن المشركين إداناتٌ سرمديَّة يوم الدين

جاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي: ﴿وَقَالَ﴾؛ لما يُفيده من تأكيد صدور هذ القول منهم، ودفعِ مَظنَّة أنَّه سيُقال، وفيه تسجيلٌ على المشركين ما قالوه في حقِّ النبيِّ ﷺ تصريحًا، وفي حقِّ القرآن بداهةً، وفي حقِّ اللّه تعالى تلويحًا، فإنَّ قولهم هذا بمنزلة إدانةٍ لهم، سيُحاسبون عليه في الدُّنيا، وسيُجازون عليه في الآخرة؛ إنْ ماتوا على اعتقاد هذا القول.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول الجمعيِّ:

علَّةُ الافتراءِ على الدّين التشبُّثُ بأوهام المُضلّين

جاء التعبيرُ بالمسند إليه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمًا موصولًا ظاهرًا بدلًا من الاسم الظّاهر، فلم يقل: (وقال الكافرون)؛ ليتوصَّلَ بفعل صلتهِ الماضي: ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ الدالِّ على تشبُّعهم بالكفر ورسوخهم فيه - إلى ذمِّهم، وإلى بيان السَّبب الَّذي دفعهم إلى الافتراء على القرآن،

والمعنى: "ما جرَّأَهم على هذا البهتانِ إلّا إشراكُهم وتصلُّبُهم فيه، ليس لشُبْهةٍ تبعثُهم على هذه المقالة"[1]، وأسند فعلَ القول إلى الاسم الموصول الدالِّ على الجمع - مع أنَّ القائلينَ ليسوا كلَّ الكافرين - لأنَّهم سكتوا عن إنكار هذا الافتراء، وكانوا به راضينَ، وزادوا على ذلك بأنْ ردَّدوه، وتناقلوه، كما أفاد التَّعبيرُ بالموصول بيانَ علَّة ذلك القول الذي تُنبئُ عنه الصِّلة، فقولُهم الظّالمُ الصّادرُ عنهم بسبب كُفرِهم وضَلالهم وطغيانهم؛ إذ مَن جحدَ الإلهَ الحقَّ، وتركَ عبادته، فهو جديرٌ بجَحْد النبيِّ ﷺ وما أُنزل عليه من ربِّه.

فائدةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

عنوانُ الكفر يشمل كلَّ مشركٍ ومَن يؤيِّده من أهل الكتاب

آثَرَ النَّظمُ الكريم إظهارَ الفاعل بالاسم الموصول دونَ إضمارِه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، فلم يقل: (وقالوا)؛ للتَّصريح بعنوان القائلين، وهو الكفرُ الجامعُ للمشركين صراحةً، ولغيرهم من أهل الكتاب تلويحًا، فإنَّ المشركين وجدوا تأييدًا من أهل الكتاب في قيلهم، فكان التَّعبيرُ بعموم (الكفر) أعمَّ وأشملَ من التعبير بخصوص (الشِّرك)، ولبيان أَنَّ مَنِ اتَّخذ من دون الله آلهةً؛ فهو مشركٌ وكافرٌ معًا، فكلُّ مشركٍ كافرٌ، وليس كلُّ كافرٍ مُشركًا.

نوعُ ﴿إِنْ﴾ ودلالتها:

جاء استعمالُ حرفِ ﴿إِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، وهو حرفُ نفيٍ، لما يفيدُه من شدَّة التَّأكيد معنًى وجرْسًا، كما يوحي بالتَّهوين والتقليل لمن نُفي عنه، فلم يقل: (ما هذا)؛ لأنَّ في (ما) نوعَ تفخيمٍ وتعظيم لما ينفي عنه الخبر.

غرضُ استعمالِ اسمِ الإشارة القريب:

تصويرُ عُنجُهيَّة المُشرك وكِبْره وإبائه الحقَّ

جاء استعمالُ اسمِ الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ للقريب؛ إشارةً إلى القرآن الكريم، وعبَّر الذين كفروا به دونَ الاسمِ الصَّريح (القرآن)؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 12.

للحطِّ من رُتبة المشارِ إليه، والتقليلِ من شأنِه، فإنَّ اسمَ الإشارة يدلُّ على المعنى بحسب السّياق، ولمّا كان السّياق في ذكر ما وصفَ به المشركون القرآن بالمفترى؛ كانت دلالتُه على التَّقليلِ من شأنه والازدراء به، وهو ما يُصوِّر عنجهيَّتهم وكبرهم وغطرستَهم.

بلاغةُ أسلوب القصر:

قلبُ الحقائقِ لا يخفى على أهل الحقِّ والرَّقائق

في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ قصرُ موصوف على صفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ، يُفيد قلبَ حقيقة القرآن من كونه وحيًا أنزله اللّه تعالى على رسوله ﷺ؛ ليُنذرهم بما فيه، إلى كونه إفكًا، يزعمون أنَّهم تأكّدوا من افتراء محمَّدٍ له، ومظاهرتهم في ذلك من قِبَلِ بعض أهل الكتاب، وفي هذا القصر دلالةٌ على التَّأكيد بأجلى صوره، وذلك بجعلِ هذا الافتراء الباطلِ حقًّا وصدقًا، فأكَّدوه لتقرير نسبتِه في أذهانِ المُخاطَبين، كما يرسمُ هذا القصرُ مدى ظُلمِهم وضلالِهم، حتَّى إنَّهم نسبوا هذا الكلامَ الحقَّ بجميع ما فيه من حقائقَ وبراهينَ إلى الكذب والافتراء؛ إذ صارَ بهذا القصر ارتباطٌ شديدٌ بين المشار إليه والإفك المفترى.

نكتةُ القصرِ بطريق النَّفي والاستثناء:

المشركُ يحرصُ على إقناع المخاطَب بما هو شاكٌّ فيه

جاءَ القصرُ بطريق النَّفي والاستثناء؛ لأنَّه يمتازُ عن غيره من طرُق القصر بكونه يُستعمل عندما يكون الكلام موجَّهًا إلى مخاطَب شديدِ التمسُّك بما هو عليه، شديدِ الرَّفض لكلِّ ما عداه، فيحاولُ المتحدِّث صرفَه عن ذلك، وإقناعَه بضدِّه، باصطفاء هذا الطَّريق الذي يزدادُ فيه المعنى قوَّةً من خلال النَّفي أوَّلًا والاستثناء ثانيًا، فقصرُ الخبر بالنَّفي والاستثناء لأمرٍ يُنكره المخاطَبُ، ويشكُّ فيه[1]، والمشركُ يسعى إلى إقناع المخاطَبين بأنَّ هذا القرآن إفكٌ مفترًى، وهو على شديد القناعة بضدِّ ما يقولُه، فكان خيرَ أسلوبٍ يسلكُه هو

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، ص: 332.

النَّفي فالإثبات بالاستثناء، كما يكشفُ عن مدى الظُّلم الذي اتَّصف به الكافرون حتى إنَّهم نسبوا الكلامَ الحقَّ المبين إلى الإفك المفترى.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿إِفْكٌ﴾:

القـرآنُ يـأتي بـنظـمٍ يكشف خفيّات النُّفوس وخبايا الصُّدور

ما تداوله المشركون من وصف القرآن بأنَّه ﴿إِفْكٌ﴾ هو محضُ الإفك والكذب والافتراء، وقد آثر النَّظم القرآنيُّ أن يذكر هذه المفردة الصّادرة عنهم، وأنْ يأتي بمعنى قيلهم وببعض مفردات قولِهم، بنظم مُعجز بديع، يُظهر خفيّات صدورهم، بما لا يستطيعونَ هم الإتيانَ به، والإفكُ هو الكذبُ العظيمُ الشَّديدُ الأثر في النّاس، وهو الكذبُ المُخترع الَّذي يُرجى من ورائه نشرُ الفساد، فعلى قدر هذا المعنى الذي حَوَتْهُ هذه المفردة كان قبحُ وصفِ المشركين للقرآن، وكانت قوَّة القرآن في ذكر وصفهم، وفي نسبتهم الإفكَ إلى الفرقان الذي بدأت به السّورةُ تقابلٌ عجيب؛ إذ وصفَه اللّه بالفرقان بين الحقِّ والباطل والخير والشرِّ، فهو إذًا لا يميلُ عن الطَّريق الصَّحيح، فقابلوه بأنَّه إفكٌ وكذبٌ يرادُ منه الإفسادُ للعقول والقلوب، وأصل الإفك الميلُ عن الحقِّ إلى الباطل.

نكتةُ تنكيرِ مفردة ﴿إِفْكٌ﴾:

تعظيمُ الإفك، بقصد الإقناعِ وتأكيد التُّهمة

نُكِّر ﴿إِفْكٌ﴾؛ للمبالغة في التعظيم، وليتسنّى وصفُه بجملة: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، وهذا المعنى مكتسَبٌ من السّياق، فإنَّ إرادة المشركين وصْفَ القرآن بالإفكِ، يدلُّ على عظيم المبالغةِ في الاتِّهام، وأنَّ رسول اللّه ﷺ - حاشاه - قد أتى بأمرٍ مُنكَر، فإنَّ شأن المُفترين أن يبالغوا في افتراءاتهم، وأن يُعظِّموا من شأن أكاذيبهم؛ ليُقنعوا سامعيهم بما يقولونَه.

براعةُ استعمالِ مفردة ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾:

الافـتراءُ أعظمُ الـكـذب وهـو مسبوقٌ بتدبيرٍ وتقدير

اختصَّت مفردةُ الافتراء بالكذب الذي فُكِّر به سابقًا، وهو الكذبُ الذي يَفتريه صاحبُه عن سابق تقدير وتأمُّل وتدبُّر بما يكون

مُحكمًا غيرَ قابلٍ لأن يُخدش، فليس كلُّ كذب افتراءً، ولكن كلُّ افتراءٍ كذبٌ، فالافتراءُ يختصُّ بالكذب العظيم، المتَّصف بحُسن التدبير والتفكير، وهذا لا يصدرُ إلّا عن صاحبِ مكرٍ وخديعة، فكانَ وصْفُ النبيِّ ﷺ بالافتراء دليلًا على أنَّهم أرادوا وصفَه بلوازم الافتراء، وهو ما يدعو للتَّأمُّل في حال المشركين، وأنَّهم قد بلغوا من الاضطراب والخلل ما لا يخفى على ذي عقل، كما يدلُّ هذا الوصفُ الفعليُّ على استحكام صفة الافتراء في هذا الإفك وتحقُّقه وحصوله، وفيه إقرارٌ ضمنيٌّ بإحكام ما فيه، ودقَّةِ معانيه، وعظيم تأثيره في القلوب والعقول، حتى إنَّهم نسبوه إلى الكذبِ المُحكَمِ المُتقن، الذي يحتاجُ إلى قوَّة عقليَّةٍ في ردِّه وتفنيده.

فائدةُ الوصفِ بالجملة الفعليَّة الماضية:

المبالغةُ الكاذبة في اتِّهام الخصمِ دليلُ الضَّعف في الحجَّة

جاء وصف ﴿إِفْكٌ﴾ بالجملة الفعليَّة الماضية ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ لغرض تأكيد أنَّ القرآنَ إفكٌ، وليس وحيًا؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ الرسول ﷺ اختلقَه، وألَّفَه بنفسِه مع إحكام وإتقانٍ في صنع فِريته - حاشاه ﷺ - وأنَّه لم يوحَ إليه شيءٌ منه، وأنَّ هذا الافتراء قد كان له منذ فترة، وليس بالأمر الجديد، ولصحَّة العطف عليها بقوله: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾، ولو خلا منها البيان القرآني؛ لفُهم أنَّهم لا يتَّهمون الرَّسولَ نفسَه بالكذب، ولا يطعنونَ في شخصِه، وهو ما يخالفُ قصدَهم وهدفَهم.

نكتةُ إسنادِ فعل الافتراء إلى الضَّمير:

تحاشي ذِكرِ الرَّسول بالاسم أوِ الوصف حسَدًا واستخفافًا

أُسنِد فعلُ الافتراء ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إلى ضمير الرَّسول ﷺ دون اسمه الظّاهر أوْ وصفه بالرِّسالة أوِ النُّبوَّة؛ ليكون في عزوفهم عنهما دلالة على عدم الاعترافِ بدعوتِه، وعدم إيمانهم برسالتِه، وليكون ثَمَّ توافقٌ بين ما يتكلَّمون به عنه، وما يتَّهمونه به من افتراءِ القرآن وتأليفه، مع ما في الإضمار من الاستهانة وتقليل شأن المتكلَّم عنه،

فهم يَتجنَّبون ذكره كراهيةَ ذكرِه؛ لما بدا من صدورهم من الغلِّ والحسد والاستخفاف، فأرادوا أنْ يَصونوا ألسنتهم عن ذكره، فصانَه الله تعالى عن ألسنتِهم القبيحة.

معنى (الواو) ودلالةُ عطف الجملة على الجملة:

الكافرون يحرصون على تقوية افتراءاتهم ودعمِها

عُطفت جملة: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ على جملة: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾؛ لبيان حال المُشركين في ذِكر أدلَّةٍ من شأنها تقويةُ افترائهم على القرآن، وتأكيدُ اتِّهامهم له بأنَّه أشنعُ الكذب، من خلال ادِّعائهم أنَّ الرسول ﷺ لم يفترِ القرآنَ وحدَه وبقدرتِه الشخصيَّة المحضة، بل أعانه على ذلك ناسٌ لهم علمٌ بالتوراة والإنجيل، وأخبارِ الأمم الدّارجة، فكانوا يُلقونَه إليه، ويقومُ هو بنظمه بأسلوبه وطريقته، وبين كلٍّ من فِعلَي الافتراء والإعانة تناسبٌ وتقارنٌ؛ لأنَّ أحدهما يدلُّ على إتقانٍ شخصيٍّ والآخر يدلُّ على جهدٍ اكتسابيٍّ، جعلَ الجملتين تشتركانِ في تحقيق الهدفِ المنشود لهم، وهو تكذيبُ هذا القرآن الكريم وردُّه وتفنيدُه.

براعةُ استعمال مفردة ﴿وَأَعَانَهُۥ﴾:

المشركون مُتناقضون في أقوالهم مُفترون في ادِّعائهم

استعملَ النَّظمُ الكريم جملة ﴿وَأَعَانَهُۥ﴾؛ لبيانِ العلاقة بين رسول الله ﷺ وأهل الكتاب، وأنَّ العلاقة بينهم قامت على الإعانة في فحوى القرآن، وتضمينه الأخبارَ والمعاني والحقائق والدلالات، بدل أن يعترفوا بالحق، ويُذعنوا له، وفي اختيار (الإعانة) دون رديفاتها محاولةٌ للغضِّ من رسول الله ﷺ، فهم يَرَوْن أنَّه ﷺ لا يستطيع أنْ يأتي بهذا الإفك المفترى وحدَه، بل لا بدَّ من الإعانة من أهل الكتاب، وهم في الوقت ذاته لا يُدركون أنَّهم وقعوا في بداية شَرَكِهم الذي نصبوه، فهم أرادوا التُّهمة لهم بالضَّعف، فوقعوا في المدح للقرآن ولمن أتى به، بأنَّه احتوى أخبارًا صادقة، ثمَّ وقعوا في التناقض بأنْ قالوا: افتراه، والافتراء كذبٌ محض، ومن يفتري الكذبَ لا يحتاج إلى إعانة

قوم آخرين، ويحتملُ أنَّهم أرادوا بالإفكِ المفترى ما فيه مِنَ الدَّعوة إلى عقيدة التوحيد، التي تفرَّد بها هذا الكتاب حتّى عن أهل الكتاب، وتقبيحِ ما هم عليهم من عبادة الأوثان والأصنام، وأردوا بالإعانة ما فيه من أخبارِ الأمم الماضية والأنبياءِ السّابقين وقصصهم، التي حفلَتْ بها كتُبُ أهل الكتاب وأخبارُهم، فالقرآنُ لا يخرجُ عن قسم مُفترًى وقسمٍ حصل بإعانة أهل الكتاب، ويكونُ التناقضُ حينئذٍ بينَ دعوته إلى عقيدة التوحيد التي تفرَّد بها عن أهل الكتاب، مع اعتمادِه عليهم مصدرًا للإعانة، فكيفَ يأخذ منهم أخبارَ الماضين، وهو ينسبُ لكلِّ الأنبياء تلك العقيدة المفتراة حسبَ زعمهم؟

نكتةُ التعبير بالماضي:

تحرَّى المشركون تأكيدَ الافتراءِ وتثبيتَ الإعانة

جاء التعبيرُ بصيغة الماضي ﴿وَأَعَانَهُۥ﴾؛ لأنَّ المشركين أرادوا تأكيدَ حصولِ العون والمظاهرة، وببنائِه الذي يتوسَّطُه حرفُ المدِّ (الألف)؛ ليدلَّ على إرادة المشركين بيانَ أنَّ مساعدة أهل الكتاب قد بلغَتْ في الاختلاق أقصى ما يمكنُ وأبعدَ ما يكونُ.

لطيفةُ اتِّصال الفعل بالضَّمير:

جاء الضميرُ في قوله تعالى: ﴿وَأَعَانَهُۥ﴾ العائدُ إلى الرَّسول ﷺ متَّصلًا وجوبًا بالفعل؛ للإشارة إلى أنَّ مظاهرتهم له كانت مُباشرة - في زعمهم - ليس فيها وساطةٌ أوْ إنابة، كما أنَّ فيه استخفافًا وتهكُّمًا بهذا النبيِّ العظيم ﷺ، فلم يشيروا له باسم أوْ وصفٍ، بل اختاروا الضَّميرَ الغائبَ للدَّلالةِ على شدَّةِ جَحْدهم النّاجم عن حِقدهم وحسدِهم له.

نكتةُ استعمال حرف الاستعلاء:

تمكُّنُ النبيِّ ﷺ من الإقناع؛ علَّةُ المشركون بالاستعانة بآخرين

استعملَ النَّظمُ الكريم حرفَ الاستعلاءِ متَّصلًا بالضَّمير العائد على الإفك في ﴿عَلَيۡهِ﴾، وذلك في قوله: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾؛ للإلماح إلى أنَّ الَّذين أعانوا الرَّسول ﷺ علَّةٌ لتمكُّن النبي

ﷺ على ما جاء به من وحي، جعلوه في نظرهم إفكًا واختلاقًا، كما يتمكَّنُ الفارس من الحصان، أي: جعلوه قادرًا على إقناع الآخرين بأنَّ ما يقولُهُ وحيٌ، لا إفكَ فيه، وهذا من بديع بيانِ القرآن لما تقوَّله المشركون على الوحي، وفي هذا الاستعلاء دليلٌ على الإعانة القويَّة والمساعدة الكبرى من أجل إنجاز هذا الإفك.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿قَوۡمٌ﴾:

القومُ هم الَّذين يَتظاهرون على أمـرٍ فيقومون عليه

جاء التَّعبيرُ عن المسند إليه بلفظ: ﴿قَوۡمٌ﴾ المشتقِّ من فعل القيام؛ للدَّلالة على أنَّ أهل الكتاب كانوا جادّينَ في المساعدة والمظاهرة، كما يَجِدُّ النَّاسُ في القيام لمساعدة أبنائِهم وذويهم، فلم يقل: (ناسٌ) أَوْ (طائفة)؛ فالقومُ هم الَّذين يتظاهرونَ على أمرٍ، ويقومونَ مُتعاونين عليه، وهذا على حدِّ زعمِهم وافترائهم، وإلّا فلا قائمٌ ولا مُقامٌ له.

دلالةُ تنكير ﴿قَوۡمٌ﴾:

نُكِّرَ لفظ ﴿قَوۡمٌ﴾ لتعظيم شأن القوم، فهم قومٌ استجمعوا صفاتٍ بها قاموا على هذا الأمر الجلَلِ، الَّذي لا يقدر عليه إلّا أصحابُ العِلْم والدِّراية والمعرفة.

فائدةُ الوصفِ بقوله: ﴿ءَاخَرُونَۖ﴾:

الآخـــرون هم الكتابيّون من غيرِ العرب

وُصِفَ القومُ بأنَّهم ﴿ءَاخَرُونَۖ﴾، أي: قومٌ آخَرون من أهل الكتاب، فهم آخَرونَ غيرُ العربِ الأمّيّين، وهذا أدعى للتَّصديق، وأقربُ للقبول؛ إذ العربُ معرفون بأنَّهم أمّيّون، وليس لهم كُتُبٌ يقرؤونها، كما لليهود والنصارى، فيكون النَّظمُ من النَّبيِّ ﷺ، والمعاني والأخبارُ من القوم الآخرين، وهذا الزَّعمُ في غاية القُبْح وبالغ السُّخف؛ إذ اشتملَ القرآنُ على تشريعاتٍ وعقائدَ وقوانينَ أخلاقيَّةٍ وسلوكيَّةٍ لا تجدُها في كُتُبِ أهلِ الكتاب وأخبارهم.

نوعُ الفاءِ ومعناها:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾ تفريعيَّةٌ؛ إذ تفرَّعَ على

لمّا اتَّهم المشركونَ الحقَّ بالافتراءِ؛ كان لازمُه عليهم الظُّلمَ والزّورَ

حكاية قولهم هذا ظهورُ أنَّهم ارتكبوا بقولهم ظُلمًا وزورًا؛ لأنَّهم حينَ قالوا ذلك ظهرَ سريعًا أنَّ قولَهم زورٌ وظُلْمٌ؛ لأنَّه اختلاقٌ واعتداء[1]، فما جاؤوه من "الظُّلم والزّورِ هو عينُ ما حُكيَ عنهم، لكنَّه لمّا كان مُغايرًا له في المفهوم، وأظهرَ منه بُطلانًا؛ رُتِّب عليه بالفاء ترتيبَ اللّازم على الملزوم تَهويلًا لأمره"[2].

غرضُ استعمالِ أداة التَّحقيق:

تأكيدُ ظُلمِ المُفترين وزورِ الكاذبين

استُعمِلت أداةُ التحقيق في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ لتأكيدِ مَجيئهم بالظُّلم والزّور، وتحقُّقِ ذلك، فإنَّ مَن يفتري الافتراءَ الكبير، ويدَّعي البهتانَ، ويَنسِبُه لصاحب الحقِّ؛ فقد تأكَّد منه الظُّلمُ، وتحقَّقَ الزّورُ، وليكونَ التوكيدُ مُقابلًا لتوكيد القصرِ في قولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ﴾، فيتحقَّق التوازن الجدليُّ بينَ توكيدهم نسبةَ الافتراءِ للكتاب المنزَّل معَ توكيد أنَّهم ظلمةٌ في أحكامِهم، ومزوِّرون للحقائق في اتِّهاماتهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿جَآءُو﴾:

رُبَّ قولٍ أشدُّ من فعلٍ وربَّ افتراءٍ أعظمُ من قتلٍ

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ الفعل ﴿جَآءُو﴾ دونَ أن يقول: (قالوا) - وهو مُقتضى الظّاهر - لتصويرِ الحدث الجلَلِ الذي فعلوه، والافتراءِ العظيم الذي قالوه، واقترَفوه، فالمجيءُ يكون للحسّيّات، فيكون هنالك استعارةٌ تصريحيَّةٌ، حيث شبَّهوا فعل القول الاتِّهاميِّ بفعل المجيء بالشَّيء، بجامع الإتيان في كلٍّ بأمرٍ، فقد تجاوزوا مستوى القولِ، وصارتْ أقوالُهم أفعالًا على مستوى الإنجاز والتأثير، وقد تعدَّى فعلُ المجيء بنفسِه مع أنَّه يتعدّى في أصله بالحرف، إمّا لتضمينِه معنى الافتراء، كأنَّه قال: فقد افترَوا ظُلمًا وزورًا، أَوْ "يكون بمعنى: فعلوا، و﴿ظُلۡمٗا﴾ مفعولٌ به، والمعنى:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 323.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 84.

فقد فعلَ الكافرون بقولهم هذا ظُلمًا عظيمًا، وزورًا كبيرًا، ويصحُّ أن يكونَ ﴿ظُلۡمٗا﴾ منصوبًا بنزع الخافض، أي: فقد جاؤوا بظُلْم فظيع، وكذبٍ شنيع"[1]، ويدلُّ فعلُ المجيء مع حرف الجرِّ المحذوف، وهو (الباء) على صعوبة في عمليَّة الإتيان، ممّا يدلُّ على أنَّهم في افترائهم قد ارتكبوا مركبًا صعبًا، حتَّى إنَّهم حملوا الظُّلم والزّور وجاؤوا بهما بكل صعوبة وثقلٍ؛ لأنَّ هذه الاتِّهامات غريبةُ الشَّأن عن القرآن، وحملُها على ظهورهم وإلصاقُها بالقرآن أمرٌ بالغُ الصُّعوبة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل الماضي:

بيانُ عِظَمِ ما اقترفوه وشناعةِ ما قالوه

جاءَ التَّعبيرُ بفعل ﴿جَآءُو﴾ ماضيًا؛ لأنَّه يدلُّ بزمانِه على تحقُّق فعلِهم وحصولِه حصولًا أكيدًا لا شكَّ فيه، وبمادَّته التي تفيد الصُّعوبة والإلجاء[2]، وببنائِه الذي يتوسَّطُه حرفُ المدِّ على عِظَم ما اقترفوه، وشناعةِ ما قالوه في حقِّ كلام اللّه، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يدَيْهِ ولا من خَلْفه.

نكتةُ استعمالِ مفردة ﴿ظُلۡمٗا﴾:

لم يُظْلَم كتابٌ كما ظُلِم القرآنُ على ألسن المشركين

جاءَ استعمالُ مفردة ﴿ظُلۡمٗا﴾ فيما قاله المشركون في وصف القرآنِ، ووحيِ النبيِّ العدنان ﷺ؛ لأنَّهم جعلوا الحقَّ الذي لا شكَّ فيه كذِبًا شنيعًا افتراه بعضُ البشر، مُتجاوزين بذلك حدودَ العدل والإنصاف؛ لأنَّ القرآنَ كلَّه حقٌّ وصدقٌ، وليس فيه شيءٌ من الإفك على الإطلاق، فكانَ وصفُه بما وصفوه أعظمَ ظُلم عرفه البشرُ في حقِّ رسولٍ، فهم أعلمُ النّاس بالكلام الفصيح، والقول البليغ، واستماعُهمُ القرآنَ وما فيه من العقائد الواضحة والتشريعات البيِّنة والأخلاق القويمةِ، ثمَّ اتِّهامُهم له بما اتَّهموه به؛ هو عينُ الظُّلم الذي لا يُبلغ قدرُه، ومن المعلوم أنَّ التعبير بالمصدر الدالِّ على الحقيقةِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 44، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 172.
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (جاء).

يُفيد أنَّهم مُستغرقون في ذلك الظُّلم، حتّى كأنَّهم افترَوا عينَ الظُّلم وحقيقتَه، وفي ذلك مبالغةٌ تتناسبُ مع مبالغتهم الشَّديدة في وصف القرآن بأنَّه إفكٌ مُفترًى على الله تعالى.

نكتةُ استعمالِ مفردة ﴿وَزُورًا﴾:

كلُّ كذبٍ مفترًى مـن صاحبه؛ فهو زورٌ

جاء استعمالُ مفردة ﴿وَزُورًا﴾؛ لأنَّ ما وصفوا به الرَّسولَ ﷺ باطلٌ وكذبٌ لا حقيقةَ له، وآثرَ استعمالَ (الزّور)، وهو الكذبُ المحسَّن المموَّه بحيث يَشتبهُ بالصِّدق؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ كلامَهم باطلٌ، وأنَّه كذبٌ عظيم هُم مَن افتراه؛ فالرَّسول ﷺ مشهودٌ له بالصِّدق، والكذبُ عليه ليس كالكذب على غيرِه، والذين زعموا أنَّهم أعانوه، ليسوا بالدرجة التي تُمَكِّنُهم من النَّظم على منوال القرآن في البلاغة والإعجاز، ونلمح أنَّ الاتِّهام الذي أطلقه هؤلاء المكذِّبون المفترونَ قد قامَ على أمرين: **أحدُهما**: أنَّ هذا القرآن كذبٌ وافتراءٌ على اللّه تعالى، **وثانيهما**: أنَّه مُعانٌ على تأليفه من أهل الكتاب، فجاء الردُّ عليهم بوصفين على سبيل (اللَّفِّ والنشر المرتَّب)؛ إذ في نسبتهم هذا القرآن إلى الكذب البيِّن قد وقعوا في الظُّلم، وتجاوزوا الحدَّ في الاتِّهام، فلو كانوا يمتلكون ذرَّةً من العدل في الحُكم أدركوا أنَّه ليس من كلام البشرِ الكاذبينَ والمُفترين، وفي ادِّعائهم أنَّه معانٌ على تأليفه من أهل الكتاب، فقد ارتكبوا في كلامِهم الزّورَ والبهتان؛ إذ لا تشابُهَ بينه وبين تلك الكتبِ إلّا فيما يتعلَّقُ بأخبار بعض الأنبياء مع تغايرٍ كبيرٍ في المضمون والمغزى والمعتقد والتشريع، والظُّلمُ وصفٌ يتجانسُ مع الأفعال، والزّور وصفٌ يتناسبُ مع القول، فكان قولُهم وفعلُهم ظلمًا وزورًا بيِّنًا.

غرض تنكير ﴿ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾:

تفخيمُ الظُّلم والزّور وتعظيمُ آثارهما

نُكِّر لفظُ ﴿ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾؛ للتَّفخيم والتَّهويل، أي: جاؤوا ظلمًا عظيمًا هائلًا، لا يُقادَر قَدرُه، وقالوا كذبًا شنيعًا لا حدَّ لشناعته، ولا إحاطة بآثاره.

دلالةُ اقترانِ وصفَي ﴿ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾:

مستقبلُ الإسلامِ الانتشارُ ومستقبلُ الشِّرك الاندثارُ

جاء النَّظمُ الحكيم بقوله تعالى: ﴿وَزُورٗا﴾ معطوفًا على المفعول به: ﴿ظُلۡمٗا﴾؛ ليُبطل الاتِّهام الموجَّه إلى النبيِّ ﷺ بافتراء القرآن، كما أبطلَ اتِّهام القرآن بالإعانة من أهل الكتاب في قوله: ﴿وَزُورٗا﴾؛ ذلك أنَّ اتِّهام أحدِهما فيه اتِّهام للآخر، وفي قرن هذين الوصفين المتعاطفَين دلالةٌ على أنَّ عمل الظالمين المُبطِلين سيؤول بهم إلى دائرة الضَّعة والهوان، وإلى وادي الإهمال والنِّسيان، فكلُّ ظلم موضوعٌ، وكلُّ زور مندثرٌ، ففيه إيماءٌ إلى مستقبل الإسلام بالبقاء والانتشار، ومستقبل الشِّرك بالزوال والاندثار.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإفْكُ والكَذِب:

الإفكُ أفحشُ الكذب، وكلُّ إفكٍ كذبٌ، وليس كلُّ كذب إفكًا

الإفك هو: الكذبُ الفاحشُ القُبح، مثل: الكذبِ على الله ورسولِه، أو على القرآن، ومثل: قذفِ المُحصَنة، وغير ذلك ممّا يفحُش قبحُهُ، أمّا الكذبُ؛ فهو: اسم موضوعٌ للخبر الذي لا مُخْبِر له على ما هو به، وأصلُه في العربية: التقصير، ومنه قولُهم: كذبَ عن قرنِه في الحرب؛ إذا ترك الحملةَ عليه، وسواءٌ كان الكذب فاحشَ القبح، أم غيرَ فاحش القبح[1]، فالإفك أشدُّ ذمًّا من الكذب، ويقترنُ بسوء القصد على الدَّوام، بخلاف الكذب فقد يكونُ عن غير قصدِ إساءةٍ، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ، فكلُّ إفكٍ كذبٌ، وليس كلُّ كذبٍ إفكًا.

الافْتَراء والاختلاق:

الافتراءُ نقلُ الكذبِ والتحدُّثُ به، والاختلاق تلفيقُ الكذبِ والإخبارُ به

الأوَّلُ مشتقٌّ من الثلاثي: (فَرَى)، فهو مزيدٌ بحرفين على وزن: (افتعل)، والثاني مشتقٌّ من الثلاثي: (خَلَقَ)، فهو - كذلك - مزيدٌ بحرفين على وزن: (افتعل).

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 450.

والأوَّلُ، يعني: القطعَ، والثاني، أصلُهُ: التَّقديرُ المستقيم، ويستعملُ: في إبداع الشَّيء من غير أصلٍ ولا احتذاء[1]، فالفرقُ بينهما: أنَّ "افترى، يعني: قطع على كذبٍ، وأخبرَ به، واختلقَ، يعني: قدَّر كذبًا، وأخبرَ به"[2]، كما أنَّ الافتراء يدلُّ على كذبٍ على الآخرِ بما لا يرتضيه، ولا يقبله، بخلاف الاختلاق فإنَّه صنعُ كذبةٍ سواءٌ كان الآخرُ يَرتضيها أم لا، وعلى هذا فكلُّ افتراءٍ اختلاقٌ، وليس كلُّ اختلاقٍ افتراءً، وبينهما علاقةُ عمومٍ وخصوصٍ مطلقٍ أيضًا.

المجيء والإتيان:

المجيء يدلُّ على عِظَم ما يترتَّبُ عليه، والإتيان مجيءٌ بسهولة

"المجيء كالإتيانِ، لكنَّ المجيء أعمُّ؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولة، والإتيانُ: قد يقال باعتبار القصدِ، وإنْ لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ: يقال اعتبارًا بالحصول، ويقال في الأعيان والمعاني، ولِما يكون مجيئُه بذاته وبأمره، ولِمَن قصد مكانًا أوْ عملًا أو زمانًا"[3].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (خلق).

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 62.

(3) الراغب، مفردات القرآن: (خلق).

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾ [الفرقان: 5 - 6]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

استقصاءُ أقوالِ المُفترين من علامات سلامةِ الدّين

لمّا بيَّن في الآيات السّابقة افتراءَ المشركين، وحشدَهم للأدلَّة بقصد الافتراء والكذب على القرآن والرَّسول ﷺ؛ ناسب أنْ يَستطرِدَ، ويَستقصي في ذكر بقيَّة الأقوال الَّتي قالها المشركون في حقِّ الرَّسول والرِّسالة، ليكون الرَّدُّ عليها مجملًا، مردودًا إلى مطلَع السورة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: (سطر) أَصْلٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ على اصْطِفافِ الشَّيْءِ[1]، أَساطيرُ جمعٌ، مفردُه: أَسْطارٌ وأُسْطورة، وهي تعني: "الأكاذيبَ والأباطيلَ المُسَطَّرة في الكتب من غير أنْ يكون لها حقيقةٌ"[2]، وأُسطورة بضم الهمزة كالأُحدوثة والأحاديث، والأُغلوطة والأَغاليط، وهي القصَّةُ المسطورة[3]، والمقصودُ في الآية أنَّ ما جاء به النبيُّ ﷺ هو أساطيرُ وُجِدتْ في الكتب القديمة للسّابقين لا علاقةَ لها بالحقِّ، ولا صلةَ لها بالواقع فضلًا عن أن تكونَ من عند الله تعالى.

2) ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾: (كتب) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَمعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ[4]، الكَتْبُ: ضمُّ أديمٍ إلى أديمٍ بالخياطة، وقد يقال ذلك للمضموم، بعضُه إلى بعضٍ باللَّفظ، وفي التَّعارف: ضمُّ الحروفِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سطر).
(2) الراغب، مفردات القرآن، ص: 881.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 324.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).

بعضُها إلى بعضٍ بالخطِّ، ولهذا سُمّي كلامُ اللّه - وإنْ لم يُكْتَبْ - كتابًا، أمّا الاكْتِتابُ؛ فهو متعارفٌ في المُختَلق[1]، وأرادوا بـ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾، أي: ألَّفها، وضمَّ بعضَها إلى بعض نقلًا عن الأساطير السّابقة.

3) ﴿تُمۡلَىٰ﴾: (ملا) الإملاءُ: الإمدادُ، ومنه قيل للمدَّة الطَّويلة: مَلاوَةٌ من الدَّهر، وأصلُ أمليْتُ: أملَلْتُ، فقُلِب تخفيفًا، قال تعالى: ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾[2]، والمعنى: تُلقَى عليه ليَحفَظَها.

4) ﴿ٱلسِّرَّ﴾: (سرّ) "السرُّ: إخفاءُ الشَّيءِ في النَّفس، ولو اختفى بسِتْرٍ أوْ وراءَ جدارٍ لم يكن سرًّا، ويقال: هذا الكلام سرٌّ؛ تشبيهًا بما يُخفى في النفس، ويقال: سرّي عند فلان، تريدُ ما يُخفيه في نفسه من ذلك"[3]، والمقصود بالسِّرِّ في الآية: الغيبُ الَّذي لا يكون إلّا للّه تعالى.

المَعْنى الإجْماليّ:

افتراءٌ جديدٌ وردٌّ مُبْطِلٌ

إنَّ هؤلاءِ الكافرين لم يكتفوا بقولهم السّابق في شأن الفرقان، بل أضافوا إليه قولًا أشدَّ قبحًا، وأكثرَ شناعةً، حيث زعموا أنَّه أكاذيبُ الأوَّلين وخرافاتُهم المكتوبةُ قديمًا، وأَمَرَ الرَّسولُ بجَمعِها من كُتُبِهم وكتابتها، ثمَّ إلقائِها عليه وترديدِها في الصَّباح والمساء؛ ليحفظَها ويقرَأَها على النّاس، وقد أمرَ اللّه تعالى رسولَه أنْ يردَّ عليهم بما يُبطل افتراءَهم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

التَّعجيبُ من تتابع افتراءات الكافرينَ على القرآنِ الكريم

(الواو) في صدر هذه الآية لعطفِ افترائهم الجديد في حقِّ الذِّكر الحكيم على جملة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في الآية السّابقة؛ استمرارًا للتشنيع بهم، والتَّعجيبِ من اجترائهم على رميِ القرآن

(1) الراغب، مفردات القرآن: (كتب).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (ملا).
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 276.

بأبشع التُّهَم وأقبحِها، والتي لا يقولُ بها عاقلٌ منصفٌ، والمعنى: إنَّ ممّا يزيدُ أحوالَ الكافرين شناعةً واستغرابًا أنْ يقولوا في القرآن كلامًا، لا يخطرُ على بالِ أحد؛ إذ زعموا أنَّه أساطيرُ الأوَّلين أُمليَتْ على الرَّسول ليحفظَها، ثمَّ يُلقيها إلى الناس على أنَّها وحيٌ أوحاه اللّٰه تعالى إليه، وفي عطفِ القول على القول معَ تغايُر المقول إشارةٌ إلى تخبُّطهم في الافتراء والكذب، وتعدُّدِ مقولاتهم في القرآن الكريم، وما ذاك إلّا دليلٌ على أنَّه أعجزَهم لغرابته، وأتعبَهم في البحث عن طرائقِ تكذيبِه، فهرعوا إلى أقوالٍ متعدِّدةٍ وآراء مضطربة من أجل ردِّه وتفنيده.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

المبالغةُ في الافتراء إلى أبعدَ ممّا يُتصوَّر

وعبَّر البيانُ الحكيم عن كلامِهم بالفعل الماضي: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾؛ لدلالتِه بزمانه على تأكيدِ صدورِ هذا القول أيضًا منهم، وببنائِه الذي يتوسَّطُه حرفُ المدِّ على ذهابهم في الافتراء إلى أبعدَ ممّا يُتصوَّر، وأشنعَ مما يُتوقَّع، وبمادَّته على أنَّهم كانوا يتلفَّظونَ بذلك مُعتقدينَ صحَّتَه ومُتوهِّمين صوابَه.

نكتةُ إضمار الفاعل:

آثارُ الكفر حاضرةٌ في الأقوال ملاحظَةٌ في الأفعال

أُسنِد فعلُ القول ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ إلى واو الجماعة العائد إلى الاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذا القولَ من آثارِ رُسوخهم في الكفر، ونتيجةٌ لتشبُّعهم به، ولِما سبق بيانُهُ من عدم إنكار أحدٍ منهم هذا الافتراءَ، ورضاهم جميعًا به، وتناقلِهم له، "فمدلولُ الصِّلة مراعًى في هذا الضَّمير إيماءً إلى أنَّ هذا القول من آثار كفرهم"[1].

فائدةُ حذف المسند إليه:

أكثرَ المشركون من تداولِ مصطلح (أساطير الأولين)

حُذِف المسندُ إليه في جملة: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهي مقالةُ المشركينَ الثانيةُ في كتاب اللّٰه المجيد؛ للدَّلالة على تَعَمُّدهم الحطَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 324.

من قيمتِه والتَّقليلَ من شأنِه، فلم يقل: (القرآن أساطيرُ الأولين)، أوْ (هذه أساطير الأولين)، كما قالوا سابقًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾، وفيه دلالةٌ على أنَّهم قد أكثروا من هذه التُّهمة حتى أصبحَتْ لكثرتِها محذوفةَ المبتدأ، أي: إنَّهم إذا قالوا في مكَّة: أساطيرُ الأوَّلين؛ فلا ينصرفُ الذِّهن إلّا إلى القرآن، فأفادَ الحذفُ كثرةَ تداول هذا المصطلح على ألسُن المشركين، بقصد الإساءةِ، وتشويهِ سمعةِ الإسلام وكتابه الخالد.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

تنفيرُ النّاس من الاستماع إلى القرآن

جاء التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ لما تُفيده من ثبوتِ فِرْيَتهم عندَهم بأنَّ القرآنَ أباطيلُ وخرافاتٌ، وتأكيدِها بغرض تسويغِ عدم إيمانهم به، ولتنفير للنّاس من الاستجابة للرَّسول، أوِ الاستماع لما يُلقيه عليهم.

نكتةُ الجمعِ المضاف:

المبالغةُ في عدد الخُرافات والأباطيل

جاءَ التَّعبيرُ بالخبرِ: ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ مجموعًا؛ للتَّكثير والمُبالغة والاستغراق في عددِ ما نُقل من تُرَّهاتٍ وأباطيلَ، فلا تخلو أخبارُهُ وأحكامُه بكمالها وتمامها من أنْ تكونَ من تلك الأساطيرِ السّابقة التي نسمعُها، وتتردَّدُ على الآذان، وأضافوه إلى: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ تقويةً لفِريتهم وتأكيدًا لها وتخصيصًا لها بالمتقدِّمين من الأُمم السّالفة التي انقرضتْ، واندثرتْ، لما تفيدُه الإضافةُ من أنَّه لا عِلمَ لأحدٍ بحقيقة هذه الأخبارِ، متى وقعت؟ وكيفَ وقعت؟ ومن ثمَّ لا يسعُ النّاسَ تصديقُها.

نكتةُ استعمال ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دون (السّابقين):

المبالغةُ في تأكيدِ مفهوم الأسطورةِ بعيدةِ الصِّدق

استعملَ النَّظم كلمة ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دون أنْ يقول: (أساطير السّابقين) باعتباره الأشيع في استعمالهم، بالإضافة إلى أنَّ هذا الشّائعَ في الاستعمال هو وصفٌ لَمن تقدَّم حتى لا يُعلَمَ له أثرٌ

لانقراضه واندثارِه، ولا يمكنُ الوقوفُ لقدمِه السَّحيق على ما يُثبته ويصدِّقه، فهي مبالغةٌ في استبعاد صحَّة ما وردَ عن أولئك الأوَّلين، فهي ليست أساطيرَ فحسب، بل هي أساطيرُ الأوَّلين المتقدِّمين في الزمان لا السّابقين القريبين، ليُفهم أنَّ هذا التقدُّمَ العميقَ في الزمن مع كونها أساطيرَ وأحاديثَ لا صلةَ لها بالواقع كفيلٌ بزعزعة الثِّقة بالقرآن، حاشا كتاب الله تعالى من ذلك وعلا علوًّا كبيرًا.

دلالةُ التَّعبير بالاكتتاب:

الـتَّرويـجُ لـبهـتـانِـهـم، ومحاولةُ إقناع الناس به

قوله تعالى: ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ جملةٌ حاليَّةٌ عبَّر بها المشركون؛ "ترويجًا لبهتانهم؛ لأنَّهم علِموا أنَّ هذا الزّور مكشوف، وقد لا يُقبلُ عند الناس عقلًا، لعلمِهم بأنَّ النبيَّ ﷺ أمّيٌّ، فكيف يستمدُّ قرآنَهُ من كُتُبِ الأولين؟ فهيَّأ لقبول ذلك بأنَّها كُتِبتْ له، فاتَّخذَها عنده، فهو يُناوِلُها لمَن يُحسنُ القراءة، فيُملي عليه ما يَقصُّه"[1]، وهذا جاء بناءً على أنَّ اكتتبَ بمعنى: كتبَ ودوَّنَ، وحينئذٍ فما هذه إلا كذبةٌ كبيرةٌ لا تنطلي على عاقل؛ إذ كيف يُعقل أنْ يأمرَ الرَّسول ﷺ أحدًا من مجتمعِهِ ومحيطِه - وإن كان من أهل الكتاب - أنْ يَستنسخ من أساطير الأوَّلينَ قِصَصًا وأحكامًا وتشريعات، ثمَّ يُمليها عليه ليقومَ بالاستنباء بها، والإخبار عنها، ومن هو ذلك الأحد؟ ولِمَ لم يَنسبْها لنفسه؟ أو أينَ كان يعيش في مكَّة والمدينة طيلةَ زمنِ نزول القرآن الكريم؟ ولهذا كانتِ الأمّيَّةُ صفةَ نقصٍ في كلِّ إنسان إلّا في النبيِّ الكريم ﷺ، فهي صفةُ كمال ورفعةٍ في حقِّه؛ إذ معَ أمّيَّتِه جاءهم بكتاب وفرقانٍ خالد تعجَّبوا منه، فنسبوهُ بهتانًا إلى أساطير الأولين، التي طلب أنْ تُكتب له لأمّيَّتِه، وقام بتبليغها والتحدُّث عنها، وهو أمرٌ متعذِّرُ الحصول لظهور التلفيق فيه بشكلٍ بارز، فصار تلفيقُهم هذه الفرية أشبهَ ما يكون بأساطيرِ الأوَّلين التي افتروها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 325.

على القرآن الكريم، فكانت فريتُهم في حدِّ ذاتها أسطورةً وخرافةً لا يمكنُ قبولُها والتفوُّه بها.

بلاغةُ إسناد الفعل في قوله تعالى: ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾:

دارت مقاصدُ المشركين على تأكيد النَّقلِ من كُتُبِ الأوَّلين

في إسناد فعلِ الاكتتاب - الذي يعني: تكلُّفَ الكتابةِ - إلى ضمير الرسول ﷺ مجازٌ؛ إذ: "الاكْتِتابُ: افْتِعالٌ مِنَ الكِتابَةِ، وصِيغَةُ الافْتِعالِ تَدُلُّ على التَّكَلُّفِ لِحُصولِ الفِعْلِ، أيْ: حُصولُهُ مِنْ فاعِلِ الفِعْلِ، فيُفِيدُ قَوْلُهُ: اكْتَتَبَها أنَّهُ تَكَلَّفَ أنْ يَكْتُبَها، ومَعْنَى هَذا التَّكَلُّفِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمّا كانَ أُمِّيًّا؛ كانَ إسْنادُ الكِتابَةِ إلَيْهِ إسْنادًا مجازيًّا، فيؤول المَعْنَى: أنَّهُ سَألَ مَنْ يَكْتُبُها لَهُ، أيْ: يَنْقُلُها، فكانَ إسْنادُ الاكْتِتابِ إلَيْهِ إسْنادًا مَجازيًّا؛ لِأنَّهُ سَبَبُهُ"[1]، ويمكنُ أنْ يكون الاكتتابُ مستعارًا لقوَّة الحفظ وإتقان الإلقاء استعارةً تصريحيَّةً، والمعنى: يجتهدُ في فهمِها واستيعابِها وحفظها، ليُلقيَها مشافهةً، كما يُلقَى الكلامُ المكتوبُ المحبوكُ، وأيًّا كان نوع المجاز؛ فغرضُهم تأكيدُ نقلِها من كتب الأوَّلين، ونفيُ نزول الوحي على الرَّسول ﷺ، وهو ما كان يُصرِّحُ به (النَّضر بن الحارث)، ويردِّدُه في كلِّ المحافل، وفي إيثارهم صيغةَ (الافتعال) ما يدعمُ قصدَهم ويقوّيه[2]، ويحتمل أنَّ هذه الصّيغةَ دالَّةٌ على معنى الاتِّخاذ، فيكون المعنى أنَّه اتَّخذَ مَن يكتبُ له ما يجمعُهُ من أخبار النّاقلين وأفواهِ الإخباريّين وقصصِ الماضين.

نوعُ الفاءِ ودلالتها:

تفريعُ الإملاءِ على الاكتتاب لغرضِ التَّعريضِ بالرَّسول والرِّسالة

الفاءُ في جملة: ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ تفريعيَّةٌ، بمعنى: أنَّ هذه الأساطير تُجمع وتُكتبُ أوَّلًا، ثم تُملى عليه؛ ليَحفظَها ثانيًا، ويمكنُ أنْ يُضاف إلى ذلك معنى التسبُّب، أي: إنَّ السَّبب في طلبه جمعَها وكتابتَها أنْ تُملى عليه ليحفظَها، ثمَّ يقومَ بإبلاغها للنّاس على أنَّها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 325.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 325.

وحيٌ أوحي به إليه، والغرضُ من ذلك: التعريضُ بالنبيِّ وغَمزُه، ببيان أنَّه يحرص على ترتيب الأمور وإحكامِها، حتى يظهرَ للناس بمظهَر الموحَى إليه، وليس بمظهَر النّاقل المُختلِق.

غرضُ تقديم المسند إليه:

قُدِّم المسند إليه: ﴿فَهِيَ﴾ على الخبر الفعلي: ﴿تُمۡلَىٰ﴾؛ لتأكيدِ معنى إملاء الأساطير وتمكينِه في ذهن المتلقي[1]، فيثبتُ لديه أنَّ الذي يُملى هو خرافاتُ الأوَّلين، وليس شيئًا من الوحي والتَّنزيل.

نكتةُ تقديم الاكتتابِ على الإملاء:

الإمـــلاءُ يكون بـعـد إرادةِ الاكتتابِ وطلبه

قُدِّم ذِكرُ ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ على ﴿تُمۡلَىٰ﴾؛ وقد يُسألُ، فيُقال: كيف قيلَ: اكتتبها، فهيَ تُملى عَلَيْه، وإنَّما يقال: أمليتُ عليه، فهو يكتتبُها؟ ويُجاب عنها بوجوه منها: أنّه أراد اكتتابَها أَوْ طلبَه، فهي تُملى عليه، وهذا على تقدير محذوفٍ، مثلُ: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ﴾، أي: أردتم القيامَ، أَوْ كُتبت له – وهو أمّيٌّ – فهي تُملى عليه، أي: تُلقى عليه من كتابِه يَتحفَّظها؛ لأنَّ صورةَ الإلقاءِ على الحافظ كصورة الإلقاءِ على الكاتب[2].

بلاغةُ اختيار مفردة ﴿تُمۡلَىٰ﴾:

استمرارُ الإملاء بقصد الإحكام والضبط

جاء اختيارُ مفردة ﴿تُمۡلَىٰ﴾؛ لأنَّ المشركين أرادوا بيانَ أنَّ النبيَّ ﷺ لمّا أُملي عليه الكلامُ؛ ثبتَ ثبوتًا راسخًا من كثرة عمليَّة الإملاء والمُداومة عليها، ولا ننسى أنَّ مفردة (الإملاء) تستدعي التأنّي في عملية الإلقاء ممّا يولِّد ضبطًا وإتقانًا مُحكمًا للملقَى عليه، وهو أقوى في الاتِّهام له بأنَّ إحكامَ كلامه كان من إحكام عمليَّة حفظِه، وهو ما يدلُّ على أنَّهم اعتنَوا بالكلمات الدّالّة على مرادهم، في توجيه التُّهم لسيِّد الخلق ﷺ.

(1) القزويني، الإيضاح بشرح الشيخ عبد المتعال الصعيدي: 1/ 96.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 264.

نكتةُ بناء الفعل للمفعول:

مناسبةُ إبهامِ الفاعلين لما تقدَّم ذكره

بُنِيَ الفعل: ﴿تُمۡلَىٰ﴾ للمفعول؛ وذلك أنَّه لمّا أبهمَ ذكرَ القوم الآخَرين المتقدِّم ذكرُهم ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾؛ ناسبَ هنا أن يُبهم ذكرَ الفاعلين، فالعبرةُ بالحدث وهو الإملاءُ المبنيُّ على الاكتتاب؛ إذ أشدُّ ما في الأمر أنَّ هناك إملاءً يقوم به قومٌ من أهل الكتاب، كما يدلُّ الحذفُ على أنَّهم في اتِّهامهم الباطل كانوا شاكّين وغيرَ عارفين بمَن يكتب له، أوْ يُملي عليه، فكان حذفُ الفاعل مصوِّرًا لحالة الجهل والرَّيب الذي ينتابُهم في اتِّهامهم الباطل وافترائِهم الضالِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

مكنةُ الحفظِ لم تكن معهودةً في الرَّسول ﷺ

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿تُمۡلَىٰ﴾؛ لبيانِ أنَّ الإملاء ما توقَّف في وقت الاكتتاب، فهي تُملى عليه؛ ليحفظَها، وترسُخَ عنده، وهم يُشيرون بذلك من حيث لا يشعرونَ إلى أنَّ حفظَ النبيِّ ﷺ للوحيِ حفْظٌ ثابتٌ راسخ، وهم من حيث يريدونَ إثباتَ رسوخ الحفظ بسبب كثرة الإملاء والمداومةِ عليها، لا يعلمون أنَّهم ينبِّهون النّاس إلى صفةِ حفظِه، التي يُشير إليها قولُه تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [الأعلى: 6]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن ممَّن يحفظ الأشعار وأقوالَ العرب، كما هو شأن الحفَظة، فلم يكن قارئًا ولا كاتبًا ولا حافظًا، وهذا كلُّه من دلائل صدقِه فيما يُخبِرُ به عن ربِّه، ولو كان حافظًا ومشهورًا به؛ لما قالوا: ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾.

دلالةُ استعمالِ حرف الاستعلاء:

الإشـــارةُ إلى طلب المُكنةِ بما يُقوّي الحفظ

عُدّيَ فعلُ الإملاء المضارع: ﴿تُمۡلَىٰ﴾ إلى ضمير الرَّسول ﷺ بحرف الاستعلاءِ؛ للإشارة إلى أنَّ الأساطيرَ تُلقى عليه بطريقة تجعلُهُ مُتمكِّنًا منها تمكُّنَ الرّاكبِ من حصانه، أوْ يتجدَّدُ إملاؤُها عليه حتى يتمكَّنَ منها؛ ليُحال بذلك بين الناس والتَّشَكُّكِ فيها.

الإشارةُ إلى أنَّ الإمـلاء دائـمٌ لا يتوقَّف

فنُّ الطِّباق:

بين كلمتي: ﴿بُكۡرَةَ وَأَصِيلًا﴾ طباقٌ؛ لأنَّ الأولى تعني: أوَّلَ النهار، والثانية تعني: آخرَه، والغرضُ من جمعِهما في سياقٍ واحد الدَّلالةُ على أنَّ تلقّيه الأساطير - التي يجمعها له مَنْ كَلَّفهم بذلك - أمرٌ مُستمرٌّ لا يتوقَّفُ، ولا ينقطعُ في أيِّ وقت من النَّهار أوِ اللَّيل، وهذا يدعم اتِّهامهم الباطل، ويحتملُ أنَّه أراد حقيقةَ الوقتين دونَ الاستمرار، وذلك أنَّ إملاءها عليه لا يتمُّ إلّا في أوقات انشغال النّاس بأعمالهم وبيوتهم، وعدم تفرُّغِهم لضبطهِ مُتلبِّسًا بتَلقّيها، وسواءٌ أُريد حقيقةُ الوقتين أم أُريد الاستمرارُ، فإنَّ عمليَّة الحفظ لا تتناسبُ معَ قضيَّة نزول القرآن منجَّمًا ومفرَّقًا حسبَ الحاجات والمتطلَّبات، ممّا يدلُّ على أنَّ عمليَّة الاكتتاب والإملاء لا تتناسبُ إلّا مع نزوله جملةً واحدةً؛ إذ يستحيلُ معرفةُ ما يستجدُّ من ظروفٍ حتّى تُملى عليه تلك الآياتُ المناسبةُ لها.

نكتةُ تقديمِ ﴿بُكۡرَةَ﴾ على ﴿وَأَصِيلًا﴾:

قُدِّمَ ذِكرُ ﴿بُكۡرَةَ﴾ على ﴿وَأَصِيلًا﴾؛ لأنَّ انشغالَ النّاس فيه أكثرُ، أوْ لأنَّ المتلقِّيَ يكونُ فيه أكثرَ نشاطًا، وأشدَّ تركيزًا، والصَّباحُ هو مبدأُ العمل، فتقديمُهُ هو ما يقتضيهِ الظّاهرُ.

التـقـابـلُ بـينَ الأوقــاتِ يُنتج الــفــروقَ بين المعاني

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي:

ممّا يُلحظ في النَّظم القرآنيِّ أنَّه يجمع بين: ﴿بُكۡرَةَ وَأَصِيلًا﴾؛ إذا كان القصدُ الدَّعوةَ إلى اغتنام الأوقات، الَّتي يكثر فيها انشغالُ النّاس بالأعمال والبيوت وغيرهما من أحوال الدُّنيا، كما في: [الفرقان: 5]، و[الأحزاب: 42]، و[الفتح: 9]، و[الإنسان: 25]، وللسَّبب نفسه يجمعُ بين: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾، كما في [الأعراف: 205]، و[الرعد: 15]، و[النور: 36]، أمّا إذا كان قصدُه الإحاطةَ والشُّمولَ باليوم كلِّهِ أوْ بالوقت كلِّهِ، فإنَّهُ يجمع بين: ﴿بُكۡرَةَ وَعَشِيًّا ١١﴾، كما في: [مريم: 11]، و[مريم: 62]، وبين: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّاۚ﴾، كما في

[غافر: 46]، وبين: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾، كما في [الأنعام: 52]، و[الكهف: 28]، ويقوّي ذلك ضيقُ وقتِ الأصيل واقتصارُه على المدَّة ما بين العصر والمغرب، واتِّساعُ وقت العشي وامتدادُه إلى "ذهاب العتمة وطلوع النَّهار"(1).

علَّةُ فصلِ صدر الآية:

شِبهُ كمالِ الاتِّصال محقِّقٌ للبيان موضِّحٌ للحال

جاءَ صدرُ الآية ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ﴾ مفصولًا عمّا سبق على الاستئناف البيانيِّ، فكأنَّ مُؤمنًا سأل: فماذا قيلَ لهُ في الرَّدِّ على افتراءات المشركين عليه؟ فكان الجوابُ: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾، وهو المسمَّى عند البلاغيّين بالفصل لشبهِ كمال الاتِّصال، وفي هذا تحقيقٌ للبيان الشّافي وتوضيحٌ للحال، وتفسيرٌ للموقف الذي تطاولَ فيه هؤلاءِ المعتدونَ على القرآن الكريم الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: 42].

غرضُ الأمرِ ودلالته:

تقويةُ الرَّسول في ردِّه على افتراءات المُشركين

خطابُ اللّٰه ﷻ نبيَّه ﷺ آمرًا له بقوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾ بقصدِ توجيهِه إلى عدم السُّكوتِ على افتراءاتِ المشركين على الذِّكر الحكيم، وضرورةِ الردِّ عليهم ببيانٍ واضحٍ يُخرسُهم، ويُسكتُهم، والغرضُ من أمره بذلك: الاهتمامُ والعنايةُ، كأنَّه وصيَّةٌ خاصَّة في هذا الأمر؛ لِأَنَّهُ إذا كان اللّٰه هو الَّذي يُلَقِّنُه الحُجَّة كان ذلك أبلغَ في تقويتِه، فكأنَّ اللّٰه يُلَقِّنه الحجَّة؛ ليُحاجَّ عنه، لكن على لسانه(2)، ولا يخفى التَّناسبُ بين استعمالِهم عندَ الافتراء فعلَ القول ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ وهو حدثٌ كلاميٌّ، وبينَ جوابهم والدِّفاع عن القرآن الكريم بفعلِ القول أيضًا، وهو حدثٌ كلاميٌّ موازٍ له، وأقوى منه قوَّةُ الأمر على الماضي، وقوَّةُ الطَّلب على الإخبار، ممّا يولِّدُ حوارًا جدليًّا ومناظرةً عمليَّةً بين أولئك المفنِّدين المتوهِّمين، وبين القول الشّافي والحُجَّة القاطعة.

(1) الراغب، مفردات القرآن: (عشا).
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم "سورة الفرقان"، ص: 45.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

معارضةُ دعوى الافتراءِ بدعوى الإنزالِ

جاءَ الفعلُ: ﴿أَنزَلَهُ﴾ بصيغةِ الماضي؛ لِما يُفيدُهُ من تحقُّقِ إنزالِهِ ﷺ الفرقانَ على رسوله، وتأكيدِ ذلك تأكيدًا يُخرِس جميعَ الألسنة، ويُفحِم كلَّ المفترين، وهذا الجوابُ معارضةٌ لدعواهم أنَّ هذا القرآنَ ﴿إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾، أو أنَّه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وكلُّها تدلُّ على أنَّ مصدرَهُ بشريٌّ وأرضيٌّ، فذكر معارضًا لهم أنَّه منزلٌ من اللّه تعالى، وفي ذكر لفظ الجلالة الدالِّ على عظمتِه وقدرته دليلُ تلك المعارضة؛ لأنَّ هذا النَّظمَ بما فيه مضامينُ لا يقدر بشرٌ أنْ يحيطَ بشيءٍ من ألفاظِه المنظومة ومعانيه المحكَمة، والغايةُ من هذه المعارضةِ لفتُ انتباههم إلى السَّماء، التي غابتْ عن أذهانهم، فذهبوا يختلقونَ الأكاذيبَ المتنوِّعة.

دلالةُ العدولِ عن الاسميَّة إلى الفعليَّة:

تضمينُ الإنزالِ أنَّ القرآنَ حقٌّ ليس بأساطير

في استعمالِ مفردةِ (الإنزال) ردٌّ واضحٌ على افتراءِ وصف القرآن بأنَّه إفكٌ مفترًى أوْ أنَّه أساطيرُ الأوَّلين، ولذلك لم يقل: (هو الحقُّ) في مقابل ﴿إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وعدلَ عن الاسميَّة إلى الفعليَّة؛ لبيان واقع القرآن بأنَّه أُنزل من اللّه تعالى، وأتى بالدَّليل على أنَّ القرآنَ حقٌّ؛ لأنَّ ما ينزلُ من اللّه تعالى حقٌّ، وليس إفكًا أو أساطير الأوَّلين؛ لأنَّه أصدقُ القائلين وأحكمُ المُنزلين، ويلزمُ من هذه الجملة الفعليَّةِ أنَّه حقٌّ مبين وصراطٌ مستقيم.

نكتةُ تقديمِ المفعول به ضميرًا:

نفيُ الافتراء عن القرآنِ هو المقصودُ بالخطاب الحِجاجي

جاء التَّعبيرُ بالمفعولِ به ضميرًا متَّصلًا في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُ﴾؛ لما يفيدُه من تعيين المُتَحَدَّثِ عنه تعيينًا يحولُ دون صرفِ الحديث عنه إلى شيءٍ غيرِه، والمعنى: (أنزل - ما تزعمون أنَّه أساطيرُ الأوَّلين - ربُّ العالمين الذي يعلمُ السِّرَّ)، وقُدِّم الضمير - المفعول به - على المسند إليه الفاعل؛ لأنَّ الاهتمام موَجَّهٌ إلى نفي الافتراء

عنه، ولتأكيد إنزالهِ من لدن ربِّ العالمين، وكان هذا الإبهام المتحقِّقُ في ضمير الغيبة للتَّنويه بشأنِه والتفخيم لأمره؛ حتى إنَّه لا يستدعي أن يتقدَّمَ له مرجعٌ ليُعرف، وهذا التفخيمُ في مقابلةِ ذلك الازدراء، الذي قدَّمه هؤلاء المشركون بقولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾، وقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:

إظهارُ علَّةِ الإنزال وبيان الحقِّ للبريّات

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الفاعلِ بالاسم الموصولِ: ﴿ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ دون أنْ يقول: (اللّه) أو (عالمُ السرِّ)؛ لما يُفيدُه من التَّفخيم والتَّعظيم لإبهامه، وليتوصَّلَ بما في حيِّزه من صلةٍ إلى إحاطةِ علمِه ﷻ بما في السَّماوات والأرض وما بينهما من أسرارٍ، لا يعلمُها غيره، ولا يعرفها أحدٌ سِواه، بما فيهم رسولُ اللّه ﷺ، فيُثبت للجميع أنَّ ما في القرآن من أسرارٍ كونيَّة، وأخبارٍ غيبيَّة، وأحكام تشريعيَّة ليست مختلقةً ولا مُعانًا عليها من قومٍ آخَرين ولا أساطيرَ الأولين، وأنَّها من تنزيل ربِّ العالمين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

إحاطةُ علمِ اللهِ بكلِّ شيءٍ برهانُ إنزالِه القرآنَ

التَّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ﴾ يدلُّ على إحاطة علمِهِ سبحانه بكلِّ ما يقع، وبكلِّ ما يتجدَّدُ حصولُه في السَّماء وفي الأرض، ما يعني أنَّ افتراء القرآنِ لا يخفى عليه، وأنَّه جلَّ شأنه لا يرضى أنْ يُنسب إليه ما ليسَ له، من غير أن يُنْزِل بمَن فعلَهُ العذابَ الأليم، فالمعنى: "أنزلَه مَن يعلمُ السرَّ، فلو كذب عليه؛ لانتقمَ منه، لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥﴾ [الحاقة: 44 - 45]"(1)، فكيف يكون إفكًا افتراه؟ وهذا منعٌ لدعواهم أنَّه يكذبُ على اللّه تعالى، وينسبُهُ إليه افتراءً عليه، وسندُ المنعِ أنَّه يعلمُ الأسرارَ، فلا يستطيع أحدٌ أن يفتريَ عليه في تبليغاتِه لعبادِه.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 45.

معنى التَّعريفِ في لفظ: ﴿ٱلسِّرَّ﴾ ودلالته:

إحاطتُه بالأسرار كلِّها ينفي إعانة غيرِه لهُ فيه

جاء المفعولُ به: ﴿ٱلسِّرَّ﴾ معرَّفًا بـ(أل) التي للجنس؛ للدَّلالة على أنَّ عِلمَه تعالى يستغرقُ كلَّ سرٍّ في السَّماوات وفي الأرض، وفي نفوس العالمين وعقول العلماء العاملين، والسرُّ في ذكر ﴿ٱلسِّرَّ﴾؛ ليكون المنعُ متوجِّهًا إلى قولهم: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ بأنَّ المنزل يعلمُ الأسرارَ، ويحيط بها، فكيف يستطيع أحدٌ في السَّماء والأرض أن ينسبَ إلينا ما لا نريدُه من التبليغات؟

بلاغةُ التَّعريضِ باستعمال مفردة: ﴿ٱلسِّرَّ﴾:

عِلمُ الإنسانِ بما يُخفيه من معرفة الحقِّ يُحاسَبُ عليه عند العرضِ على الحقِّ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ ﴿ٱلسِّرَّ﴾؛ لما تحويه من إثبات علمِه تعالى أسرارَ السَّماوات والأرض، "ومن جملته ما تسرّونَهُ - أيُّها الكافرون - من الكيدِ لرسوله، مع علمِكم أنَّ ما تقولونه باطلٌ وزورٌ، وكذلك باطنُ أمرِ الرسول ﷺ وبراءتُه ممّا تُبهتونَه به، وهو يُجازيكم، ويُجازيه على ما علِم منكم وعلِم منه"(1)، وبذا يكون استعمال مفردة ﴿ٱلسِّرَّ﴾ تعريضًا بالمشركين؛ لما فيها من التهديد والتخويف المُفضي بالمشركين إلى التراجُع عن افتراءاتهم وأكاذيبهم في حقِّ القرآن الكريم، وفي حقِّ الرَّسول الأمين، كما أنَّهم في ادِّعائهم أنَّ القرآن إفكٌ افتراهُ، ومعانٌ عليه، أوْ أساطيرُ الأولين قد دخلوا في محاولةٍ للكشف عن سرِّ القرآن الكريم الذي أعجزَتْهم معارضتُه، كما أعجزهم الردُّ عليه والاتِّهامُ له، وذلك دليلٌ على أنَّه سرٌّ من أسرار اللّه تعالى الذي لا سبيلَ للكشف عنه والإحاطةِ بدقائقه وأسراره، فناسبَ أنْ يختار كلمة السرِّ دون أن يقول مثلًا: (الذي يعلم كلَّ شيءٍ).

بلاغةُ الاكتفاءِ بذكر ﴿ٱلسِّرَّ﴾ عن العلن:

العـلـمُ بالسرِّ يستوْجب العلمَ بالعلَن

اقتصرَ البيانُ القرآنيُّ على ذكر ﴿ٱلسِّرَّ﴾ دون (العلن)؛ لأنَّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 265.

مَن يعلم السرَّ، ويحيطُ به؛ يعلم العلنَ، ويحيطُ به من باب أَوْلى، و"للإيذان باشتمال ما أنزله الله تعالى على أسرارٍ مطويَّةٍ عن عقول البشر"[1]، وللإشارة إلى أنَّ مدار الخلافِ بين المشركين والنَّبيِّ ﷺ قائمٌ على إسرار معرفة الحقِّ من قبل المشركين، وقد قدَّمنا آنفًا وجهًا يُعلِّلُ سرَّ الاقتصار على السرِّ دون العلَن.

نكتةُ تقييدِ علمِ الله السرَّ بالجارِّ والمجرور:

الإعلامُ بالإحاطة بأسرار السَّماوات ترهيبٌ بالجزاء لما تُخفيه النُّفوس

قُيِّدَ الفعل: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ بالجارِّ والمجرور: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لشمولِهما الكونَ بما فيه ومَن فيه، وللدَّلالة على أنَّ مَن يحيط بأسرارهما مع اتِّساعهما، يُحيط بأسرارِ مَن دونَهما من خلقِهِ، ويعلمُ ما يدبِّرونه، وما يَفترونه، وفيه من التَّرهيب ما يكفي لتخويف الكافرين وردعِهم عن الافتراءِ؛ لو كانوا يشعرون، فإنَّ مَن أحاط علمًا بكلِّ شيءٍ، ثمَّ أعلمنا بالإحاطة؛ كان إعلامُه ترهيبًا بالجزاء على ما تُخفيه النُّفوس.

بلاغةُ التَّعليلِ:

تعليلُ إمهالِ الكافرين مع شناعة افترائاتهم

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ تعليلُ إمهالِ الله تعالى الكافرين، وعدمِ مُعاقبتهم على افترائاتهم، على الرَّغم من قُبحها وشناعتها، فإنَّ مَن يعلم السرَّ في السَّماوات والأرض، يعلمُ افترائات المشركين على القرآنِ، وهذا يَستوجبُ إنزالَ العقوبة بهم، ولكنَّ الله تعالى يُخبرنا بأنَّ رحمتَهُ ومغفرتَه سببان في الإمهال؛ لعلَّ القومَ يرجعون، فيهتدون، ففيه ترغيبٌ في الإقلاع عن كِبْرهم وافترائاتهم، فإنَّه "لمّا كان ما تقدَّمه في معنى الوعيد؛ عقَّبه بما يدلُّ على القدرة عليه؛ لأنَّه لا يوصَف بالمغفرة والرَّحمة إلّا القادرُ على العقوبة، أوْ هو تنبيهٌ على أنَّهم استوجبوا بمُكابرتِهم أن يُصَبَّ عليهم العذابُ، ولكنْ صَرَفَ ذلك عنهم أنَّه غفور رحيم: يُمهِل،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 426.

ولا يُعاجل"[1]، ولإرادةِ التَّعليلِ فُصِلت هذه الجملةُ عن سابقتها، والعلاقةُ بينهما شبهُ كمال الاتِّصال.

دلالةُ التَّوكيدِ:

جاء التأكيدُ بإنَّ والجملة الاسميَّة في جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لتأكيد اتِّصافه سبحانه بالمغفرة والرَّحمة، وللإلماح إلى قدرته تعالى عليهم؛ لأنَّ مَن قدَر على العفْوِ؛ قادرٌ على الأخذ والقهْر.

نكتةُ ذكرِ فعل ﴿كَانَ﴾:

تأكيدُ أزليَّةِ اتِّصاف الله بهاتَين الصِّفتين على الدَّوام

جيءَ بخبر (إنَّ) جملةً اسميَّةً مُصَدَّرةً بفعل التكوين: ﴿كَانَ﴾ دونَ أنْ يقول: (إنَّه غفورٌ رحيم)؛ لتأكيدِ دوام اتِّصاف المولى سبحانه بصفتَي المغفرة والرَّحمة، وأنَّه لا يصدر فيهما عن ضَعْف، وإنَّما يفعل ذلك؛ لأنَّهما صفتان أزليَّتان، لا ينفكّان عنه، والمعنى: "أنَّه تعالى أزلًا وأبدًا مُستمرٌّ على المغفرةِ والرَّحمةِ المُستتبِعَتَيْن للتَّأخير، فلذلك لا يُعجِّلُ بعقوبتِكم على ما تقولون في حقِّه، مع كمال استيجابِه إيّاها وغاية قُدرتِه تعالى عليها"[2].

دلالةُ استعمالِ صيغة المبالغة:

في قوله تعالى: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: خبرانِ جيءَ بكلِّ واحد منهما على صيغةٍ من صيغ المبالغة؛ لبيانِ سَعَة عفوِ اللّٰه تعالى ورحمته، وقدرته على المغفرة عن خلقِه على ما كان منهم من افتراءٍ وتكذيبٍ يَستوجبان المُعاجلة بالعقوبة والعذاب.

نكتةُ تقديمِ المغفرة على الرَّحمة:

تقديمُ الثَّمرات على أسبابها

بدأ النَّظمُ الكريم بذكر (المغفرة) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لأنَّها سببٌ في حصول الرَّحمةِ؛ إذ مَن غفرَ اللّٰه له ذنوبَه؛ كان مؤهَّلًا لنيلِ رحمتِه وثوابِه، أو هي من تقديم الثَّمرةِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 265.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 85.

على العلَّة، كأنَّه قال: غفرَ لكم؛ لأنَّه رحيمٌ بكم، وختمَ بالرَّحمة لإذهاب ما يمكنُ أنْ يعلقَ بالنُّفوس من هَلَعٍ أوْ يأسٍ؛ بسبب الإخبار بعِلْمِه سبحانه السرَّ، وقدرتِه على المُعاقبة والأَخْذ، ويحتملُ أنَّه ذكر هاتين الصِّفتَينِ المُناسبتين؛ لكونِ القرآن سرًّا من أسرارِ اللّه تعالى، فهو الغفورُ لمَن لم يفهم تلك الأسرارَ فهمًا مُحيطًا بها، والرَّحيمُ بمَنِ اطَّلع على شيءٍ من أنوارِ تلك الأسرار التي تضمَّنها، وآمنَ بها، وأقرَّ بالعلم الإلهيِّ المحيطِ بكلِّ شيءٍ، فلم ينسبِ القرآنَ لغير مُنزله، ولم تأخذْهُ الحيرةُ في الردِّ والنَّقض.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨﴾ [الفرقان: 7 - 8]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من ذِكر افتراءات المُشركين في الرِّسالة إلى افتراءاتهم في الرَّسول

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة ذِكرَ إنزالِ الفرقان، وذِكرَ طائفةٍ من أقوال أهل البهتان في شأنِ القرآن، ثمَّ الردَّ عليهم؛ ناسبَ أنْ يستكمل الحديثَ في ذِكر افتراءاتهم في شأن الرَّسول، فإنَّ الطَّعن في أحدهما هو طَعْنٌ في الآخر، فلا يُكتفى بالرَّدِّ على الطّاعنين في القرآن، بل لا بدَّ من إتباعِ ذلك الردِّ على الطّاعنين في الرَّسول.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾: (سوق) أَصْلٌ يدلُّ على حَدْوِ الشَّيْءِ، يُقالُ: ساقَهُ يَسوقُهُ سَوْقًا، والسّوق: مَوْضِعُ البياعاتِ، أوِ الموضعُ الَّذي يُجلَبُ إليه المتاعُ للبيع، والجَمعُ أسواقٌ، سُمّيَتْ بها؛ لأَنَّ التِّجارَةَ تُجلَبُ إِلَيْها، وتُساق المَبيعاتُ نحوَها[1]، وهو المعنيُّ في الآية.

2) ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾: (لقي) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُها يَدُلُّ على عِوَج، والآخَرُ على تَوافي شَيْئَيْنِ، والآخَرُ على طَرْحِ شَيْءٍ[2]، اللِّقاءُ: مقابلَةُ الشَّيء ومصادفتُه معًا، وقد يُعبَّر به عن كلٍّ واحدٍ منهما، يقال: لَقيَهُ يَلْقاهُ لِقاءً ولُقيًّا ولُقْيَةً، ويقال في الإدراك بالحسِّ، وبالبصر، وبالبصيرة، والإلْقاءُ: طرحُ الشَّيء حيث تلقاه، أي: تراهُ، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طرح[3]، والمقصودُ بالإلقاء في الآية: الإعطاءُ، أي: أنْ يُعطى كنزًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (سوق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (لقي).

3) ﴿كَنزٌ﴾: (كنز) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَجَمُّعٍ في شَيْءٍ[1]. "الكَنْزُ: جعْلُ بعضِ المال على بعضٍ وحفظه، وأصله من: كَنَزْتُ التَّمرَ في الوعاء، وزمنُ الكِناز: وقتُ ما يُكْنَزُ فيه التَّمر، وناقةٌ كِنازٌ مُكْتَنِزَةُ اللَّحم ... وقوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ [هود: 12]، أي: مالٌ عظيمٌ"[2].

4) ﴿مَّسۡحُورًا﴾: (سحر) أُصولٌ ثَلاثَةٌ مُتَبايِنَةٌ: أَحَدُها عُضْوٌ مِنَ الأَعْضاءِ، والآخَرُ خَدْعٌ وشِبْهُهُ، والثّالِثُ وقْتٌ مِنَ الأَوْقاتِ[3]. "السِّحْرُ: عملٌ يُقَرَّبُ فيه إِلَى الشَّيْطان وبِمَعونَته"[4]، وقيل هوَ: "إِخْراجُ الباطِلِ في صورَةِ الحَقِّ، وقيل: الخَديعَةُ"[5]، والمسحورُ: الذي أصابَه السِّحرُ، فاختلَّ عقلُه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

سِتُّ قبائحَ اتُّهِم بها الرَّسولُ؛ لِصَرْفِ النّاسِ عن اتِّباعه

لم يكتفِ المشركون بالافتراء على القرآن الكريم بأنَّه إفكٌ مُفترًى ومُعانٌ على افترائِه بغيرِه، وأنَّه أساطير الأوَّلين، بل امتدَّت أباطيلُهم لتشملَ رسول اللّه ﷺ؛ بغرض صرفِ النّاس عن اتِّباعه والإيمان به، فزعَموا أنَّه ليس رسولًا؛ لأنَّه بشرٌ يأكلُ الطَّعام، ويمشي في الأسواق، وطالبوا بأنْ ينزلَ إليه ملكٌ ليساعدَه في مهامِّ الرِّسالة، أَوْ يُلقى إليه كَنْزٌ يكفيهِ طلبَ المعاشِ في الأسواق، أَوْ تكونَ له حديقةٌ يأكلُ منها، ويأكلونَ معَه من خَيراتها، وزادوا على ذلك أنِ اتَّهموه بالوقوع تحت تأثيرِ السَّحرة، الَّذين سيطروا على عقله وإرادته، فأصابَه اختلالٌ عقليٌّ منهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها:

التَّعجيبُ من إنكار الكافرين رسالةَ النبيِّ ﷺ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ لعطفِ ما بعدَها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كنز).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (كنز).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (سحر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).

على جملة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ للتَّعجيبِ من "عقولهم التي يعدّونها أصفى العقولِ أفكارًا، وأعلاها آثارًا، فيما أَبْدَوْه ممّا ظنّوا أنَّه دليلٌ على عدم الرِّسالة، ولا شيءَ منه يصلحُ أنْ يكون شُبهةً، فضلًا عن أن يكون دليلًا"[1]، فالجامعُ بين الجملتين خياليٌّ؛ لتقارن ردِّ الرِّسالة مع رد الرَّسوليَّة في الخيال.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي:

إذا ثبتَ الكفرُ؛ رشَحتْ آثارُه

آثرَ النَّظمُ الحكيم التعبيرَ بفعل القول ماضيًا ﴿وَقَالُوٓاْ﴾؛ لأنَّه يدلُّ بزمانه على تحقُّق صدور هذه الأقوال منهم، وعدمِ الشكِّ أوِ الافتراء في إسنادِها إليهم، ويدلُّ ببنائه على بلوغ ثقتِهم في كلامهم عن رسول الله ﷺ مبلغًا كبيرًا، وفي استعمال فعلِ القول دون الكلام مثلًا إشارةٌ إلى أنَّ هذا المقول كانوا يعتقدونَهُ، ويؤمنونَ به، وأنَّهم يتعاملونَ مع الدَّعوة وصاحبِها ﷺ على هذا الأساسِ والمنطلق.

نكتةُ إضمارِ المسند إليه دون إظهاره:

عندما يُعلَم القائلُ البغيض؛ فإضمارُه أبلغُ من إظهاره

آثر النَّظمُ الكريم الإضمارَ على الإظهار في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ فلم يقل: (وقال الذين كفروا) كما تقدَّم، فأُسنِدَ إلى ضمير الجمعِ العائد إلى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مع أنَّ القائلين ليسوا كلَّ الكافرين - لما سبق بيانُهُ من عدم إنكار أحدٍ منهم هذه الافتراءات، وسكوتِهم جميعًا عن رفضها، إضافةً إلى ما فيه من دلالةٍ على أنَّ رسوخَهم في الكفر وراءَ إكثارِهم منها، وللإيماءِ إلى اشتهار هذه الأقوالِ عنهم، فلم ينطقْ بها أحدٌ سواهم، ولنْ يتبادَرَ إلى الذِّهن سواهم.

نكتةُ حذفِ متعلِّق القول:

مقولاتُ الكافرين التشكيكيَّة تتردَّدُ في كلِّ حينٍ وآن

ولم يُظهرِ النصُّ الكريم لِمَن توجَّه فعلُ القولِ هذا؟ ويحتملُ أنَّهم قالوا ذلك للرَّسول ﷺ، كما يحتمل أنَّهم قالوه لأصحابه ومُتَّبِعيه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 295.

ويرشدُ إليه قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ بالحمل على حقيقة الاتِّباع، ويحتملُ أنَّهم قالوه لَمَن يَستمعون كلامَهُ لغرض الاهتداء أوِ النَّقض والردِّ بحمل الاتِّباع على المجاز المرسل بمعنى الاستماع والإصغاء، وكلُّ ذلك محتملٌ، ومن ثمَّ أبقى النظم ذلك مفتوحًا إشارةً إلى أنَّ قول الكافرين هذا يصلحُ للجميع، ويقولونه للجميع، ولن يتوقَّفَ إلى قيام السّاعة.

غرضُ الاستفهام وبلاغةُ تركيب ﴿مَالِ هَٰذَا﴾:

تعجُّبُ المشركينَ لإنكار الرِّسالة لا للبحثِ عن الحقِّ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾؛ للتعجُّب والإنكارِ لأفعال النبيِّ ﷺ؛ لاعتقادِهم الفاسدِ أنَّ الرسولَ يجبُ أن يكون مَلَكًا، ولا يصحُّ أن يكونَ بشرًا، فيفعلَ أفعالَ البشر، ويُنَزِّلَ منازلهم، وهم يريدونَ بذلك إنكارَ رسالتِهِ لا البحثَ عن الحقِّ، وتركيب ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ ونحوِه يفيدُ الاستفهامَ عن أمر ثابتٍ له، فاسمُ الاستفهام مبتدأ، و﴿هَٰذَا﴾ خبرٌ عنه، ومثارُ الاستفهام في هذه الآية هو ثبوتُ حالِ أكلِ الطَّعام والمشيِ في الأسواق للَّذي يدَّعي الرِّسالةَ من اللّه تعالى[1]، فهم يستفهمونَ عن حالٍ غريبةٍ غيرِ عاقلةٍ أوجبتْ أنْ يكون الرَّسولُ مُمارسًا لعاداتِ البشر بقصد التَّعجيب من تلك الحال والإنكار لصحَّتها، والغرضُ من ذلك نفيُ تلك الحالِ توصُّلًا لإنكار الرِّسالة بالكلّيَّة؛ لأنَّ مَن أنكرَ حالًا ووصفًا؛ اتَّصف به مدَّعي النُّبوَّة ممّا يعتقدُ أنَّه يتنافى معها، فإنَّه ينقضُّ على دعوى الرِّسالة ليفنِّدها، ويُبطلَها.

نوعُ اللامِ ودلالتها:

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ للاختصاص، أي: ما لهذا الرَّسول دونَ غيره يصنعُ كيتَ وكيتَ، والاختصاصُ دالٌّ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 327.

أنَّهم يعتقدون أنَّ الرُّسُل الذين يختارُهم اللّه لا بدَّ أن يكونوا من الملائكةِ المقرَّبين.

غرضُ استعمال اسم الإشارةِ للقريبِ والإبدالِ منه:

غرضُ التَّعبيرِ باسم الإشارة: ﴿هَٰذَا﴾ تعمُّدُ الاستهانةِ بالمشار إليه، والتَّقليلِ من شأنه، فإنَّ لاسم الإشارةِ أغراضًا كثيرةً تُعيَّن بحسب السّياق الواردةِ فيه، وقد أَتَوا بوصفِ: ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ بدلًا من اسم الإشارة، للاستهزاءِ والسُّخرية؛ لأنَّهم لا يؤمنون برسالته أصلًا، ولا يعترفونَ بنبوَّته، فكأنَّهم قالوا: ما لهذا الذي يزعم أنَّه رسولٌ، يفعلُ أفعالَنا، وينزلُ منازلنا؟ فهو استهزاءٌ بعد استهزاءٍ، وهو ما يدلُّ على عداوةِ المشركين وحسَدهم لرسولِ اللّه ﷺ على ما أعطاه اللّه تعالى من الخير الوفيرِ، كما يحملُ اعترافُهم الظاهريُّ - بأنّه رسولٌ - دلالةَ التسليم الجدليِّ لغرض المناقضةِ، فكأنَّهم قالوا: لو سلَّمنا أنَّك رسولٌ، فما بالك تفعلُ أفعالَ البشرِ العاديين؟ إذًا لا يمكنُ أن تكون رسولًا.

الاستهزاءُ سلوكُ الحاسدين للتَّخفيف من ألمِ الحقدِ الدَّفين

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع: ﴿يَأۡكُلُ﴾؛ لدلالتهِ على تجدُّدِ الأكلِ من النَّبي ﷺ، الدالِّ على بشريَّته، واحتياجه المستمرِّ للأكل والشرب، والرَّسولُ لا يكون محتاجًا؛ لما يحتاجه البشرُ العاديّون، كما يتوهَّمون، ونسوا أنَّ الرسول الحقيقيَّ لا بد أن يكون من جنس المبعوثِ إليهم، حتى يقاسيَ ما يقاسونه، ويشتهي ما يشتهونَ، حتّى تكونَ التَّكاليف مقدورًا تنفيذُها بعد أن يكونَ الرَّسولُ من جنسِهم، وإلّا تعلَّلوا بأنَّهم لا يفعلون تلك التَّكاليف؛ لأنَّهم بشرٌ عاديّون، وليسوا ملائكةً مُرسَلين.

الطَّعامُ يُشيرُ إلى تعدُّدِ أصنافِه وتنوُّعِ ألوانه

بلاغةُ ذِكرِ المفعولِ في اختيارِ مفردة ﴿ٱلطَّعَامَ﴾:

صرَّح النَّظمُ الكريمُ بالمفعولِ به، فقال: ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾، وهو

أمرٌ بدهيٌّ؛ لأنَّ الطَّعامَ لا يكون إلّا مأكولًا، والمقصود - بحسب ما يقتضيه الظاهرُ - إثباتُ الحاجةِ إلى الأكل، فلو قال: ﴿يَأۡكُلُ﴾؛ لكفى في بيان المقصودِ، وفي ذلك إمعانٌ في الاستغرابِ، وتلميحٌ إلى ما يحتاجُ إليه الطّاعمُ من التَّخلّي وقضاء الحاجة، فيكون هنالك كنايةٌ عن البشريَّة المحضةِ التي لا تتناسبُ مع كونهِ رسولًا من ربِّ العالمين على حسَب زعمِهم، كما أنَّ في ذكر ﴿ٱلطَّعَامَ﴾ إلماحةً إلى تنوُّعه، إذ الطَّعامُ يكون متنوِّعًا في أنواعه وأصنافه، ففيه إشارةٌ إلى أنَّه ليس مجرَّدَ طالبٍ للأكل، بل هو يبحثُ عن أصناف المطعومات اشتهاءً وتلذُّذًا، وهذا لا يكون - على زعمهم - لِمَن كان رسولَ ربِّ العالمين، بل إنَّ التَّصريحَ بالطَّعام يفيدُ العهدَ والتوكيدَ على حدِّ قولهم: (رأيتُهُ بعَيني، ولَمَسْتُه بيدي)، فيتقوّى المعنى، ويتوضَّح المرادُ؛ إذ مجرَّدُ الأكل لا يحدِّد أنَّه طعامُ أهلِ الدُّنيا، فأشاروا بالعهد إلى أنَّه الطَّعام المعروف الذي يأكله البشرُ العاديّون، وبذكرهِ اكتسب الأكلُ توكيدَ الحصول.

فائدةُ الاكتفاءِ بذكرِ الأكل عن الشُّرب:

دقَّةُ الإيجازِ سرُّ الإعجاز

اكتُفي بذكر أكلِ الطَّعام دون شُرب الماءِ؛ لأنَّه من لوازمهِ وضروريّاته، فما دامَ الطَّعامُ معهودًا، والأكلُ حاصلًا بحيث لا يحتملُ غيرَهُ؛ فإنَّ شُرْبَ الماءِ المعهود يكونُ لازمًا له ومن مقتضياتِه، ففي ذكرِ أكْلِ الطَّعامِ اكتفاءٌ وتحقيقٌ للغرض والغاية.

نوعُ الواو ودلالتها:

عطفُ التَّعجُّب على التعجُّب تقويةُ الإنكارِ

عُطِفتْ جملة: ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ على جملة: ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ لتوافُقِهما في الخبريَّة لفظًا ومعنًى؛ زيادةً في التعجُّب والاندهاش، بسبب قيامه بعملَين من أعمال البشر العاديّين، وليس عملًا واحدًا، ما يعني أنَّه لا يمتازُ عنهم في شيءٍ، حتى يكون رسولًا دونَهم، فقد اتَّفقتْ كلمةُ الجاحدينَ لنبوَّة الأنبياء على أنَّ الرسولَ

لا يمكنُ أنْ يكونَ من جنس البشرِ؛ إذ قالوا جميعًا لرُسُلِهم: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [يس: 15]، فكيفَ يختارُ اللّهُ بشرًا عاديّين لإنزال رسالةٍ عليهم؟ إلّا أنَّ مشركي مكَّةَ فصَّلوا في تلك البشريَّة، وذكروا على سبيل العطفِ الدليلَ الدّامِغَ على بشريَّة الرَّسول ﷺ معتقدينَ أنَّه يتنافى مع الرَّسوليَّة، ويتقاطع، ويكونُ حجَّةً واضحةً على عدم رسوليَّته ﷺ، وذلك لا ينكرُه الرَّسولُ الكريم، كما لا تنكرُهُ سائر الرسل والأنبياء لقولهم: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [إبراهيم: 11]، بل يتَّفقُ رسولنا الكريم ﷺ معهم في أنَّه بشرٌ كسائرِ البشر، لكنَّه مرسَلٌ بالتَّبليغ والإنذار، فكأنَّ القرآنَ يؤكِّدُ بشريَّتَه ويحقِّقُ إنسانيَّتَه واتِّصافه بصفات البشر على ألسُن الكفّار من أكلِ الطَّعام والمشي في الأسواق وغيرهما من الصِّفات، لكنَّ ذلك كلَّه لا يتنافى مع كونهِ رسولًا ونبيًّا، وبين المتعاطفَينِ علاقةُ عطفِ السَّببِ على المسبَّب، وهو من أسباب الوصلِ والاقترانِ بين الجمل؛ لارتباطِ المشيِ في الأسواق تحصيلًا للمال بقضية المعاش التي تتجلَّى بأكل الطَّعام.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

الاستمرارُ على الفعل دليلُ البشريَّة بشكلٍ ظاهرٍ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالمضارع: ﴿وَيَمۡشِي﴾، كما وقعَ ذلك في المعطوف عليه ﴿يَأۡكُلُ﴾؛ لما يدلُّ عليه من تجدُّد حصول المشي وكثرته، فهو يمشي كغيره طالبًا حاجتَه، مُبتغيًا رزقَهُ، والغرضُ من دعوى الاستمرار على عمَل تلك الحاجاتِ الاستدلالُ على أنَّ ذلك دليلُ الحاجة وسمةُ البشر العاديّين.

بلاغةُ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرور:

الانـدهـاشُ من حرصِ الرَّسول علـى طـلـب المعاش

قُيّد فعلُ المشي بالجارِّ والمجرور: ﴿فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ محالِّ البيع والشراء والمعاملات الماليَّة، وممارسة التجارة؛ للدِّلالة على أنَّه في حاجةٍ إلى المال؛ لابتغاء الأرزاق وطلبِ المعاش، شأنُه شأن الناس، يُقوّيه التَّعبير بالفعل: ﴿وَيَمۡشِي﴾ المُشار به إلى تَفَقُّد الأسواق، ومتابعةِ أحوالها

وأسعارِها، بقصد الحرصِ على الاستفادة منها، وبذلك يتناسبُ ذكرُ هذا القيدِ مع قيد الجملة المعطوفِ عليها ﴿ٱلطَّعَامَ﴾، ففي تشخيص كلٍّ من الطَّعام والأسواق ما يُغني عن كثيرٍ من الصّوَر الأخرى، فقد مرَّ بنا كيف أغنى ذكرُ أكلِ الطَّعام عن كثيرٍ من صور الاحتياج، وأغنى هنا المشيُ في الأسواق عن صورٍ كثيرةٍ من صور التكسُّب والعمل، فيتحقَّقُ إيجازٌ بالغ في هذين الاكتفائين والصّورتينِ المذكورتين.

توجيهُ تخصيصِ الأكل والمشي بالذِّكر:

إظهارُ ما تكثرُ مشاهدتُهُ لإبطال ما قويتْ حُجَّتُه

خصَّ النظم الكريمُ صورتَي ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ بالذِّكر دون بقيَّة الأحوال البشريَّة؛ "تذرُّعًا منهم إلى إبطال كونه رسولًا، لزعْمِهم أنَّ الرَّسول عن اللّه تكون أحوالُهُ غيرَ مماثلةٍ لأحوال الناس، وخَصّوا أكلَ الطعام والمشيَ في الأسواق؛ لأنَّهما من الأحوال المُشاهدة المتكرِّرة"(1)، فلا سبيلَ لإنكارِهما والتردُّدِ فيهما؛ إذ كلٌّ منهما يصدرانِ على سبيل الحصولِ الدائم، وذلك أقوى في الاحتجاج، وأبلغُ في الإنكار للرسوليَّة على حدِّ زعمِهم الفاسد.

غرضُ استعمالِ أسلوب التَّحضيض:

لا يعني أهلُ الباطل سوى تعجيزِ أهلِ الحقِّ في مطالبهم

جيءَ بأداة ﴿لَوۡلَآ﴾ بمعنى: هلّا؛ لحضِّ الرَّسول وحثّه على تقديم الأدلَّةِ والبراهين، التي تُثبتُ أنَّ اللّه تعالى اختصَّهُ بالوحي دونهم، فهي تُفيد التحضيضَ والحثَّ على الإسراعِ في تقديمِ ما يطلبونَه، وقد سلكوا هذا المسلكَ بغرضِ التعجيزِ والتَّيئيس من اقتناعِهم بكون محمدٍ البشري ﷺ رسولًا من عند اللّه إليهم، وفيه دلالةٌ على "قِصَر نَظَرهم وركاكة تفكيرِهم؛ لأنَّهم يعتقدونَ أنَّ تميُّزَ الرُّسُلِ لا يكونُ إلّا بأمور ماديَّةٍ، وتجاهلوا أنَّه يحصلُ بما فطرهم اللّه تعالى عليه من خصالِ الكمال، كما يدلُّ عليه قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110]"(2).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 17.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 426.

دلالةُ بناءِ الفعلِ للمفعول:

يَتحاشى المشركون التَّصريحَ بما يُدينُهم

جاء بناءُ الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ للمفعول؛ لأنَّ فاعلَ الإنزالِ - إذا حصلَ - معلومٌ، وهو اللّه ﷻ، فهم يُطالبون بإنزال الملَك كما أُنزل القرآنُ، ولو صرَّحوا بالمُنزِّل سبحانه؛ لكان ذلك منهم اعترافًا بأنَّ اللّه تعالى أرسلَهُ رسولًا، كما أنَّ جهالتَهم بالمنزِّل يدلُّ على تكذيبهم ادِّعاء الرسول ﷺ أنَّ اللّه تعالى أنزلَ عليه القرآن، فلم يُعيِّنوا جهةَ الإنزال بل جعلوها محذوفةً؛ لتدلَّ على أنَّه يدَّعي أنَّ المنزِّل هو اللّهُ، وهم غيرُ مصدِّقين بذلك.

نكتةُ استعمالِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ دون (عليه):

المشركون يريدون مَلَكًا تناهى إليه، فيرونَه لدَيه

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ لأنَّهم يُريدون مشاهدتَهُ معه، ويتحقَّقون من مساعدتِهِ له في القيام بأعباءِ الرِّسالة، يقوّيه التَّعبيرُ بلفظ: ﴿مَعَهُۥ﴾ الدالِّ على المُصاحبة، ولو قالوا: (عليه)؛ لفاتَ معنى المشاهدةِ الَّذي هو قصدُهم من طلَبِ إنزالِ المَلَك إليه، لإفادتِهِ أنَّ "المَلَك يتغشّاه بالوحي"[1]، دون أنْ يراه أحدٌ، والقرآن قد صرَّح بأنَّ جبريلَ ﷺ ينزلُ عليه بالرِّسالة، فهم يريدونَ مَلَكًا تناهى إليه، فيرونَه لديه.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

قُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿إِلَيۡهِ﴾ على: ﴿مَلَكٌ﴾؛ لأنَّ الاهتمامَ ليس منصبًّا على مجرَّد النُّزولِ، ولكنَّه منصبٌّ على نزولهِ إليه تأييدًا ومساعدةً وبرهانًا، كما يفيدُ التقديمُ الاختصاصَ؛ لأنَّ الغرضَ من طلب النُّزول أنْ يكونَ إلى الرَّسول ﷺ دون غيرهِ من النّاس؛ إذ لم يدَّعِ غيرُه الرِّسالة، فخصَّصوا طلبَ النُّزولِ إليه وحدَهُ حتّى يصدِّقوه فيما يقولُه ويدَّعيه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 298.

غرضُ تنكيرِ ﴿مَلَكٌ﴾:

جيء بلفظ: ﴿مَلَكٌ﴾ نكرةً؛ ليَعُمَّ، إذْ ليس قصدُهم نزولَ مَلَكٍ بعينِه، مثلُ أمينِ الوحي جبريلَ ﷺ، أَوْ غيرِه من الملائكة المعروفين، ولكنَّهم يُريدون نزولَ أيِّ واحدٍ من جنسِ الملائكة، بقطعِ النَّظر عن مكانته أَوْ منزلته فيهم أو مواصفاتِه؛ لأنَّ الغايةَ هي إثباتُ عجْزِه عن ذلك، فإنكارُ الرِّسالة بأكملها، وبذلك يكونون متساهلينَ معه في طلب المؤيِّد له، وتكون حجَّتُهم أقوى وأرصنَ؛ لأنَّهم لم يطلبوا مواصفاتٍ معيَّنةً في ذلك الملاك المطلوب.

> لمّا ارتبط الطَّلبُ بالتَّعجيز؛ غابتِ المواصفات

معنى الفاء ودلالتها:

(الفاءُ) في قولهم: ﴿فَيَكُونَ﴾ للسببيَّة، وهي تدلُّ على أنَّ قصدَهم المُعلَنَ من طلبِهم إنزالَ الملَك أنْ يُساعدَهُ في القيام بمهامِّ الرِّسالةِ وأعمالها، أمّا غيرُ المعلَن؛ فهو التَّقليل من شأنِه ووصفِه بالعجز والانصراف عنه إلى المَلَك.

> المساعدةُ في أعمال الرِّسالة هي قصدُهم المعلَن

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع: ﴿فَيَكُونَ﴾:

عُبِّر بصيغة المضارع ﴿فَيَكُونَ﴾؛ لأنَّه يدلُّ بمادَّته على أنَّ الملَك مهيَّأٌ للنِّذارة، ومُكَوَّنٌ من أجل القيام لها وبها، ويدلُّ بزمانِه على قدرته على القيام والمعاونة؛ كلَّما تجدَّدتِ الحاجات والمُهمّات، وإنَّما عدلَ عن القول: (فينذرَ معه)؛ لأنَّ فعلَ الكونِ والوجود يفيدُ استغراقًا وتوكيدًا واستمرارًا للمصاحبة عند الإنذار معه؛ إذ بفعل الكون والحصول تنحصرُ الغاية من إنزال الملك بالنِّذارةِ معه، بخلاف فعل الإنذار وحده، الذي لا يفيد ذلك الانحصار من الحصول.

> العدولُ إلى فعل الكون يعطي استغراقًا وتأكيدًا وانحصارًا

غرضُ تقديم: ﴿مَعَهُۥ﴾ على ﴿نَذِيرًا﴾:

قُدِّمَ ذكرُ ﴿مَعَهُۥ﴾ على ﴿نَذِيرًا﴾؛ تقويةً لمعنى المشاهدة، وتأكيدًا لقصد المصاحبة الَّذي يُريدونه من وراءِ طلبهم إنزالَ الملك، فهم لا يريدونَ أن يكونَ نزولُه مُستتِرًا، بحيث لا يراهُ، ولا يسمعُه إلّا الرَّسولُ

> تعليلُ المطالبات تمويهٌ على الغايات

وحدَه، كما هو حاصلٌ، بل يريدون رؤيتَهُ بالعين دائمًا، وألّا يتحوَّل عنها بصعود إلى السَّماء، ليكونَ دليلًا محسوسًا على أنَّه رسولٌ من عند اللّهِ مؤيَّدٌ بمعجزةٍ حسيَّةٍ مُشاهدة، بجانب ما سبقَ ذكره من التَّلميح إلى عَجْز الرَّسول وضعفِهِ بسبب بشريَّتِه عن القيام بمهامِّ الرِّسالة، لا سيَّما مهمَّةُ الإنذارِ، وفي المعيَّةِ دلالةٌ على المتابعة، فيكونُ المنذرُ الرَّئيسُ هو الرَّسولَ ﷺ، ويكونُ المعينُ والمساعدُ هو الملاكَ، وهذا تنزُّلٌ ثانٍ منهم وتساهلٌ بقصد إخراجِ دعواهُم مَخرجَ حُسن النّيَّةِ في الطَّلب.

نكتةُ تنكيرِ ﴿نَذِيرًا﴾:

التَّعظيمُ وتربيةُ المهابة في قيامِه بالنِّذارة

نكتةُ تنكير ﴿نَذِيرًا﴾ هو التَّعظيم، والمعنى: "ليكون أهيبَ في النِّذارة، بما له من الهَيبة والقوَّة"[1]، فإنَّ شأنَ القويِّ أن يُنذرَ، وأنْ يغلبَ إنذارُه بِشارتَه.

توجيهُ تخصيصِ النِّذارة بالذِّكر:

أكثرُ ما يُزعج المتكبِّر هو عنصرُ النِّذارة

خصَّ المطالبون من المشركين النِّذارةَ بالذِّكر دونَ البشارة؛ لأنَّهم لمّا أُنذروا من قبل الرَّسول ﷺ؛ أصابَهم الحقدُ والغِلُّ، فالنِّذارة هي التي أنبتَتْ حقدَهم عليه[2]، كما أنَّه يُفهم من كلامهم أنَّهم يزعمونَ إنْ نزلَ الملك بأنَّهم على باطلٍ، وهو على حقٍّ، فيحتاجون حينئذٍ إلى النِّذارة أكثرَ من احتياجهم إلى البشارة، وهذا عنصرٌ ثالثٌ من عناصر تساهُلهم في الطَّلب، وذلك بإخراج مطلبهم مطلبَ الميسِّر حتى يكون مسموعًا مقبولًا وأكثر إقناعًا وتيسيرًا.

نكتةُ تقديمِ طلب نزولِ الملك على غيره:

ما يعتقدُهُ الجاهلون يُقدِّمونَهُ في الاحتجاج

قُدِّم ذِكرُ طلبِ نزول الملَك في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ على غيره من المطالبِ الآتية؛ لأنَّه أعظمُ البراهينِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 298.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 17.

وأكثرُها تعجيزًا، بجانبِ ما فيه من تحقيقِ اعتقادِهم ضرورةَ أن يكونَ الرَّسولُ مَلَكًا لا بشرًا، بصورة غير مباشرة، ولأنَّ هذا الطَّلبَ هو أكثرُ مطالبِهم دَورانًا على ألسنتهم وفي نواديهم ومجالسِهم.

معنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالتها:

التخييرُ بالمطالبةِ تأكيدٌ على المُماطلة

قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾ هو البرهانُ الثاني من البراهين التي حثَّ المشركون رسولَ اللّه ﷺ على الإسراع في تقديمها؛ تأكيدًا لكونه رسولًا من عند اللّه، و﴿أَوۡ﴾ حرفُ عطفٍ يُفيد التَّخييرَ والمطالبةَ، والمعنى: إنْ لم ينزِلْ إليه ملكٌ، فليُلقَ إليه كنزٌ يصير به ذا مالٍ كثير، يُغنيهِ عن طلَبِ المعاش في الأسواق، ويكون ذا مزيَّةٍ، يَستحقُّ بها أن يكونَ بشرًا رسولًا.

دلالةُ بناءِ الفعل للمفعول:

لسانُ حالِ المشركين: إلقاءُ الكنزِ أوِ الإصرارُ على الزَّجر

جيءَ بفعلِ الإلقاء ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾ مُبنيًّا لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ غرضَهم حصولُ الفعل من أيِّ فاعلٍ كان، وليس قصدُهُم حصولَه من فاعلٍ بعينه، وآثروا التَّعبير به لرغبتهم في أنْ يكون دليلًا محسوسًا على أنَّه رسولٌ من عند اللّه تعالى، كما حملَ حذفُ الفاعل دلالةً على أنَّهم مُكذِّبون له فيما يدَّعيه أنَّه مرسلٌ من اللّه تعالى إليهم، ولذا طالبوه بإلقاء كنزٍ إليه من الجهة التي يدَّعيها وهم غيرُ عالِمينَ بها، وفي فعل الإلقاء الذي هو الرَّميُ من فوق ما يدلُّ على الاستهانة بالرزّاق تعالى والاستبعادِ لحصوله، والتهكُّمِ بالنَّبي ﷺ.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرور: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

الإيماءُ إلى سُخريةِ المشركين بسيِّد المُرسَلين

جيءَ بالضَّمير العائدِ إلى رسول اللّه ﷺ مجرورًا بحرف الانتهاء: ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ لرغبتِهم في أنْ يكونَ الإلقاء من السَّماء منتهيًا إليه؛ تأكيدًا لرسالتِه، وقُدِّم الجارُّ والمجرور على المسند إليه: ﴿كَنزٌ﴾؛ لأنَّ الاهتمام موجَّهٌ إلى حصول إلقاءِ الكنز إليه وحدَه، وليس إلى الإلقاءِ فقط، فيكون هو المقصودَ بالإلقاء، مع ما في ذلك من الإشعار بالسُّخرية.

دلالةُ تنكيرِ ﴿كَنزٌ﴾:

المطالبةُ بكنزٍ كبيرٍ ومالٍ وفيرٍ

نُكِّرَ لفظُ ﴿كَنزٌ﴾؛ لإفادة التَّعظيم معنًى وجرْسًا، والمعنى: أنَّهم يُريدون أنْ يكونَ الكنزُ المُلقى إليه كبيرًا وضخمًا يختلفُ عن المالِ المُعتاد، ليُصبح به ذا مالٍ كثيرٍ، يندهشُ الملوكُ والأغنياءُ من كثرته وغرابته وجودتِه، حتى يمتازَ به عنهم، ويُغنيه عن نزول الأسواق لطلبِ المعاش، كما يفعلون، ظنًّا منهم أنَّ نزول الأسواق عملٌ، لا يليقُ بالأنبياء والمرسَلين عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّهم إنْ لم يكونوا ملائكةً؛ فهم إلى الملائكة أقربُ، وفيه دلالةٌ على الخلل في التفكير، والمكابرةِ عن الإيمان، وهم لا يريدون المطالبةَ بكنزٍ معيَّنٍ معهود، بل بكنزٍ غريب في نفاستِه وجودتِه يتحقَّق منه المطلوبُ وهو الكثرة الكاثرةُ، التي يصدقُ وصفُها بالكنز.

بلاغةُ ترتيب الجملِ بحرف ﴿أَوۡ﴾:

المطالبةُ بجنَّةٍ تحصدُ الخيرَ الكثير إنْ لم يُلقَ إليه الكنزُ الكبير

قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾ هو الدليل الثّالثُ الذي حضَّ المشركون رسولَ اللّه ﷺ على الإسراعِ في تقديمه، وحرفُ العطف ﴿أَوۡ﴾ للتخيير والمطالبة، والمعنى: إنْ لم ينزِلْ إليه ملكٌ، ولم يُلقَ إليه كنزٌ، فلتكن له جنَّةٌ يَكْتفي بما فيها من زروع وثمار، "وتُفَرِّغُه عمّا يفعلُه في بعض الأحيان من طلب المعاش، ويكونُ غناهُ أعزَّ له، وأجلبَ للخواطر إليه، وأحثَّ لعكوف الأتباع عليه، وأجمعَ فيما يريده"(1)، فهو انتقالٌ من المطالبة بالكنز الوفير، إلى جنَّةٍ تأتي بالمال الكثير.

غرضُ ذِكرِ فعل ﴿تَكُونُ﴾ مضارعًا:

صفاتُ الجنَّةِ المطلوبةِ دائمةُ العطاءِ متجدِّدةُ الثِّمار

جاء ذكر الفعل: ﴿تَكُونُ﴾ مضارعًا؛ لما يفيدُه بزمانِه من تجدُّد ثمار الجنَّة وتنوُّعها، بحيث تكفيه الغذاءَ والتفكُّهَ؛ كلَّما تجدَّدت حاجتُه إليهما، وتُغنيه عن نزول الأسواق، وتَحول بينه وبين الاختلاط

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 265.

بالبشرِ، ولما يفيدُه ببنائهِ من ضرورة أن تكونَ هذه الجنَّةُ مشاهدةً معروفةً للقاصي والدّاني؛ لتكونَ دليلًا محسوسًا على اختصاصِهِ بالوحي والرِّسالة، فلا يُصيبُها ما يُصيب بقيَّة الجنّات من آفاتٍ وأمراض، فهي دائمةُ العطاء متجدِّدة الثِّمار.

دلالةُ بناءِ الفعل للفاعل:

الـكـافـرونَ مُـنـشـغـلـون بـالأمـور المـاديَّة غـافـلـون عـن الروحيَّة

بُني الفعل ﴿تَكُونُ﴾ للفاعل، وهو معطوفٌ على فعلٍ مبنيٍّ للمفعول؛ دلالةً على تكالبهم على الدُّنيا، واهتمامِهم الأكبر بها، وانشغالِهم بالأمور الماديَّة التّافهة، وليس بما يمتازُ به أنبياء اللّه تعالى ورسلُهُ من خصال الكمال البشريِّ، وأسباب الاصطفاء الإلهيِّ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور: ﴿لَهُۥ﴾:

إظهارُ الاهتمامِ بـتـخـصـيـص الجنَّةِ للرَّسول

جيءَ بالضَّمير العائد إلى رسول اللّه ﷺ مجرورًا بحرف (اللام) المفيدِ للاختصاص، ومقدَّمًا على المسند إليه: ﴿جَنَّةٌ﴾؛ لأنَّ اهتمامَهم منصبٌّ على اختصاصِ الرَّسول ﷺ بالجنَّة، وتكوينها من أجله، وليس منصبًّا على الفعل فقط، وهذا تساهلٌ منهم مجدَّدًا في الطَّلب وتيسيرٌ في الإنجاز، فلم يطلبوا أنْ تكونَ الجنَّة لهم وله معًا، بل تختصُّ به لتكونَ دليلًا على صدقهِ في الرِّسالة إظهارًا منهم لإمكانِ ما يطلبونَه، ويُسرِ ما يريدونه من معجزات وآيات، مع أنَّه كلَّما قدَّم لهم معجزةً؛ اتَّهموه، وكذَّبوه، وطالبوهُ بغيرها.

نكتةُ اختيارِ لفظ ﴿جَنَّةٌ﴾ وتنكيرِها:

تعظيمُ الجنَّة بحيث لا يُصيبها فسادٌ، فتكفي على الدوام

نُكِّر لفظ ﴿جَنَّةٌ﴾ للتَّعظيم والتفخيم، بمعنى: أنْ تكونَ الجنَّةُ المخصَّصة له عظيمةً، لا نظيرَ لها، ولا يمتلك أحدٌ مثلَها، حتّى تكفيَهُ، وتكفيَ مَن يريد أنْ يأكلَ منها معَه، "وجعلوا إعطاءَ الجنَّة له علامةً على النُّبوَّة؛ لأنَّ وجودها في مكَّةَ خارقٌ للعادة"[1]، ويظهر من ثنايا هذه المطالبات حاجتُهم لها، وسعيُهم وراءَ تحصيلها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 18.

تأكيدُ وجودِها على الدَّوام للأكلِ والمشاهدة

نكتةُ الوصفِ بالجملة الفعليَّةِ بصيغة المضارع:

في وصف المسندِ إليه: ﴿جَنَّةٌ﴾ بجملة: ﴿يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾ تأكيدٌ للمطالبة بأنْ تكونَ على الدَّوام، غيرَ مُعرَّضة لتلفٍ أوْ فساد، فيبقى الأكلُ مُستمرًّا، وتقريرٌ لمشاهدتِهم لها، وأنَّها صارت دليلًا محسوسًا، وعبَّروا بالمضارع ﴿يَأۡكُلُ﴾ للدَّلالةِ على توفُّرِ غذائها وفاكهتها بصفة متجدِّدة دائمة.

طمعُ المشركين يُزاحِمُ حُججَهم

نوعُ (من) ودلالتها:

قُيِّدَ فعلُ الأكلِ بالجارِّ والمجرور: ﴿مِنۡهَاۚ﴾ لتقويةِ تجدُّد الأكل، وتأكيدِ كفايتها له عن طلب المعاش في الأسواق، وأفاد حرف (من) التَّبعيضَ، فهو يأكل بعضًا منها، ونحن نأكل بعضًا منها، ويُؤيِّده معنى القراءة بالنون في (نأكل)، وهذا يدلُّ على أنَّ طمعَ المشركين يُزاحِم حججَهم وأدلَّتهم التي يزعمون أنَّهم يطالبون بها؛ بحثًا عن الحقِّ.

إسنادُ الأكلِ للرَّسول في قراءة ولهم في أخرى

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

قرأ الجمهور ﴿يَأۡكُلُ﴾ بالياء، مسندًا إلى ضمير الغائبِ العائدِ إلى الرَّسول ﷺ، والمعنى: نراهُ يأكلُ منها - كلَّما أراد - لتكفيَه عن المشي في الأسواق، وتُغنيه عن مخالطة العامَّة والدَّهماء، وغير ذلك ممّا لا يليق بالأنبياء والمرسَلين، وقرأ حمزة والكسائيُّ وخلَف: ﴿نَأۡكُلُ﴾ بالنّون[1]، مسندًا إلى ضمير المتكلِّمين، والمعنى: (نراها بأعيننا، ونأكلُ منها بأنفسِنا؛ لتكونَ دليلًا محسوسًا على تَميُّزِه عنّا، واختصاصِه بالرِّسالة من بيننا، كما أنَّ أكلَنا منها أجلبُ لنا إلى اتِّباعه، وأعونُ على الإيمان به)، وفيه مزيدُ مُكابرةٍ وفَرطُ تَحكُّمٍ ومخادعة[2].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 333.

(2) أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم: 5/ 87.

بلاغةُ أسلوبِ الكناية:

غايةُ المهاتراتِ التَّعجيزُ بالمطالبات

كنَّى المشركون بجملتي: ﴿يُلۡقَىٰٓ﴾، و﴿يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾ عن استغنائهِ بالكنز، وكفايتِه بالأكل من الجنَّة عن مخالطة النّاس في الأسواق وغيرها من الأماكن، الَّتي يغْشونَها لطلب المال والطَّعام، ولا يمنع ذلك من أنَّهم يُريدون المعنى الحقيقيَّ لكلٍّ منهما، بغرض تعجيزهِ وإثباتِ أنَّه ليس رسولًا؛ لأنَّه لا يمتازُ عنهم بشيءٍ.

توجيهُ ترتيبِ المطالب:

التَّنَزُّلُ مِنَ الأعلى إلى الأدنى

قُدِّمَ طلبُ إنزال المَلَك على غيره؛ لأنَّه أعظمُ البراهين وأكثرُها تعجيزًا من وجهة نظرهم، وثَنّوا بطلب تلقّي الكنز؛ لأنَّه يليهِ في العظمة والفخامة، وختَموا بتخصيص الجنَّة؛ لأنَّها أقلُّها وأهونُها، كما يعتقدون، فالترتيب ترتيبٌ تنازليٌّ، يبدأ بالأعلى، وينتهي بالأدنى.

معنى الواو ودلالتها:

التَّعجيبُ من تمادي الكافرين في افتراءاتهم على الأمين

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للعطف على جملة: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا﴾؛ لغرضِ التَّعجيب من تماديهم في الافتراء عليه، حيث أضافوا إلى ما قالوه تهمةً أشنعَ وأقبحَ، وهي اختلالُ العقل؛ بسبب وقوعِه تحتَ تأثير السّاحرينَ وإفكِهم، والجملةُ شروعٌ في بيان الفِرْيَةِ السّادسة التي افتراها الظالمون من الكافرينَ على الرَّسول ﷺ، ونلمحُ أنَّ كلَّ تلك الافتراءات أوصلَتْهم إلى هذه النَّتيجةِ الحاسمة، فالشَّخص الذي يتصرَّف تصرُّفَ الرِّجال العاديّين - من أكْلِ الطَّعام والمشيِ في الأسواق، ثم يدَّعي أنَّه مرسلٌ من اللّه، ولا يُقدِّم البيِّنات القاطعة على رسالته - يَنتجُ عنه أنَّه رجلٌ عاديٌّ، بل هو رجلٌ مسحورٌ فاقدٌ للعقل، أمّا كونُه رجلًا عاديًّا؛ فلأنَّه يُزاول حياتَه اليوميَّةَ مثلنا، وأمّا كونه مسحورًا؛ فلأنَّه فاقدٌ للدلائل القاطعةِ على دعواه الرِّسالة.

نكتةُ العدولِ عن صفةِ الكفر إلى الظُّلم:

أشدُّ أنواعِ الكفرِ المقترنِ بالظُّلم

أُسنِد فعلُ القول إلى ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مُعَرَّفًا؛ للتَّشهير بالقائلينَ، والتَّشنيعِ بصنيعهم، وبيانِ أنَّهم جاوزوا كلَّ الحدود، وجاؤوا بإضلالٍ لا نظيرَ له، وبلغوا في الظُّلم حدَّهُ الأعلى الذي لا زيادةَ عليه، ولو أتى بلفظ: (الكافرون)؛ لخَلا البيانُ ممّا يدلُّ على ظلمِهم واعتدائِهم في افتراءاتِهم على الرَّسول ﷺ بصفةٍ عامَّةٍ، وافترائهم عليه بالوقوع تحتَ تأثير السَّحرة بصفةٍ خاصَّةٍ، وهو ما أراد النَّظمُ إبرازَهُ؛ زيادةً في التَّشنيع والتَّشهير، ولا يبعدُ أنْ يكونَ هذا الافتراء صادرًا من الظّالمين من الكافرين، كما يدلُّ عليه قول المفسرين أنَّ هذه المقولة بعينها صدرتْ من (عبد اللّه بن الزبعري)[1]، في حين أنَّ الافتراءاتِ السّابقة قد صدرت من عموم الكافرين، ولهَجوا بها.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

إظـهــارُ وصـف الظُّلمِ زيـادةٌ في التَّشنيع على الكافرين

مقتضى الظّاهر أنْ يُسند الفعلُ إلى الضَّمير، فيقال: (وقالوا) عطفًا على ما تقدَّم، ولدخولِهِ في حكم السّابق، ولكنَّ النَّظم القرآنيَّ عدلَ عن الإضمارِ إلى إظهار الفاعل، فعبَّر بـ: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لاختلاف الوصف، فلمّا أراد أن يذكرَ صفة الظُّلْم، وأن يُنَبِّه على خطره؛ كان إظهاره هو الأوفقَ بعمود البلاغةِ، وهو الخادمُ لمقصود الكلام، وهذا مبنيٌّ على أنَّ الظالمين هم الكافرون، ولكنْ يحتملُ أنَّه أراد بالظالمين هم الذين جمَعوا بين الكُفر والظُّلم من عُتاة الكافرين وكُبرائهم، فيكونُ التَّصريح بهذا الوصف للدِّلالة على شناعة هذه الفِرية مقابلَ الافتراءات السّابقة، التي كانت تكتفي بطَلب المعجزات، لكنَّ الفرية الأخيرة كانت تحكُم على الرَّسول الكريم ﷺ بالوقوع تحت تأثير السِّحر والاختلال العقليِّ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 329.

نوعُ ﴿إن﴾ ودلالتها:

﴿إن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ حرفُ نفي، آثَروا التَّعبيرَ به؛ لما يُفيده من الإبلاغ في تأكيدِ الاتِّباع معنًى وجرسًا، ولكونه موصلًا للقصر بـ﴿إِلَّا﴾.

بلاغةُ المجازِ المرسَلِ في لفظ ﴿تَتَّبِعُونَ﴾:

التَّخويفُ من عواقب الاتِّباع، ومآلات الاستماعِ

قولهُ تعالى: ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ فعلٌ مضارعٌ، أوثرَ التَّعبير بمادَّته؛ لما يدلُّ عليه بجانب الاستمرار التجدُّديِّ من استحضارِ المخاطَبين لصورتِهم، وهم يهتدونَ برجلٍ، فقدَ عقلَه، ويفعلونَ ما يأمُرُهم به، كأنَّهم يَرَوْنَها؛ بغرض شدَّة تنفيرِهم منها، ويحتملُ لفظُ ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ الحقيقةَ؛ إنْ كان الخطاب للمؤمنين به والجدال معهم، وفيه تهكُّمٌ واستخفافٌ بعُصبة المؤمنين، ويحتمل إرادة المجاز المرسَل؛ إنْ كان الخطابُ يُجرونه فيما بينهم، بذكر اللّازم وهو الاتِّباع وإرادة الملزوم وهو سماعُ النّاس من رسول اللّه ﷺ القرآنَ الذي يستلزم الاتِّباع لرجلٍ مسحور؛ للتَّخويف من عواقب الاتِّباع، ومآلات الاستماع؛ إذ الاستماعُ يوصل للاتِّباع، وبما أنَّه رجلٌ مسحورٌ، فيكونُ في الاستماع إليه تضييعًا للأوقات ومجلبةً للنقائص.

دلالةُ تنكير ﴿رَجُلًا﴾:

كلُّ المقدِّمات المتوهَّمة أوصلَتْهم إلى هذه النَّتيجة الخاطئة

جيء بلفظ ﴿رَجُلًا﴾ لإثبات أنَّه واحدٌ منهم، فهو ليس مَلَكًا، ونُكِّر بقصدِ التَّقليل من شأنِه؛ فهو رجلٌ كباقي الرِّجال، لا يزيدُ عنهم بشيءٍ، وإن زاد؛ فهو رجلٌ مسحورٌ، فقد انتقى هؤلاء الظّالمون هذا اللَّفظَ الموصوف؛ لكي يبنوا عليه وصفَ (المسحور)، واختاروه دونَ غيره لإثباتِ أنَّه مجرَّدُ رجلٍ عاديٍّ، لا يحملُ رسالةً ولا يتَّصفُ بشيءٍ من صفاتِ المرسَلين، الذين كما توهَّموا تصطحبُهم الملائكةُ، أوْ تُلقى إليهم الكنوز، أوْ يملكون جنّاتٍ وأنهارًا، وما دام أنَّه لا يتَّصفُ بشيءٍ من ذلك؛ فهو رجلٌ عاديٌّ، بل هو أسوأ حالًا من ذلك؛ ولذا وصفوه بأنَّه مسحورٌ.

غرضُ الوصفِ بصفة السِّحر:

تأكيدُ بشريَّة الرسول وزيادة التَّنفير من اتِّباعه

وصفَ المشركون ﴿رَجُلًا﴾ بصفةِ ﴿مَّسۡحُورًا﴾؛ تأكيدًا لبشريَّته، وزيادةً في التَّنفير من الاستماع إليه واتِّباعه والإيمان به؛ لأنَّه إذا كان الرَّسولُ لا يصحُّ أن يكون بشرًا، فكيف به إذا كان بشرًا مسحورًا، لا يعي ما يقول، ولا ينتبهُ لما يتحدَّثُ به؟ فهو رجلٌ كباقي الرِّجال؛ لأنَّه يأكلُ الطَّعام، ويمشي في الأسواق، وهو مسحورٌ لا يعي ما يدَّعيه من مقتضياتِ كونِه رسولًا، وهو تأييدُه بالآيات الجازمة بما يقولُه ويدَّعيه.

غرضُ استعمال أسلوبِ القصر:

تأكيدُ نفي الرِّسالة وإثباتُ وقوعِه تحت طائلة السِّحر

في جملة ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾ قصرُ صفةٍ على موصوف قصرًا إضافيًّا، بطريق النَّفي والاستثناء، الذي يُستعمل للتَّأكيد؛ لأنَّه يزيد المعنى تأكيدًا بطريقتَين: **الأولى**: نفيُ اتِّباع المخاطَبين رسولًا من عند الله، **والأخرى**: إثباتُ اتِّباعهم لرجلٍ واقعٍ تحت تأثير السَّحرة، فلا يقولُ إلّا سحرًا، ولا يفعلُ إلّا سحرًا، ولا علاقة لما يقوله، أوْ يفعلُه بالوحي من قريبٍ أوْ بعيد، وقصدُ الظّالمينَ من تأكيد هذا الاتِّهام الشَّنيع: تنفيرُ الناس بصفةٍ عامَّة، والمؤمنين بصفةٍ خاصَّة من اتِّباع الرسول ﷺ، وحثُّهم على الانصراف عنه، وعدمِ الإيمان به، وفي هذا القصرِ ما يحمل معنى التشبيه، وكأنَّ أصلَ الكلام: ما هذا الذي تسمعونَ لكلامه إلّا مثلَ رجلٍ مسحور، ولذا ترتَّب عليه قوله الآتي: ﴿ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٩﴾ [الفرقان: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تثبيتُ الرَّسول وتسليتُهُ عمّا أصابَه من الاتِّهامات

تأتي هذه الآيةُ رَدًّا من الله تعالى على اتِّهامات المشركين السّابق بيانُها لرسول الله ﷺ بالتهوينِ من شأنهم، والتَّعجيبِ من تفاهةِ تفكيرهم، والتَّنبيهِ على تخبُّطِهم وضلالِهم، تثبيتًا له وتسليةً عمّا أصابَه منهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾: (مثل) "أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وهَذا مِثْلُ هَذا، أَيْ: نَظيرُهُ ... والمَثَلُ: المِثْلُ أَيْضًا، كَشَبَهٍ وشِبْهٍ"[(1)]، وهو: "عبارةٌ عن المشابهةِ لغيره في معنًى من المعاني، أيَّ معنًى كان، وهو أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة"[(2)]، بمعنى: أنَّه يكون مستعملًا عندما تكون هنالك مشابهةٌ في الجوهرِ والكيف والكميَّة والمقدار والمساحة، بخلاف ألفاظ: (المُشابهة والمُساواة والمُشاكلة والنِّديَّة)، فهو أضيقُها دلالةً، وأخصُّها مشابهةً.

2) ﴿فَضَلُّواْ﴾: (ضلّ) "أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَعْنًى واحِد، وهوَ ضَياعُ الشَّيْءِ وذَهابُهُ في غَيْرِ حَقِّهِ، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ، لُغَتانِ، وكُلُّ جائِرٍ عَنِ القَصْدِ ضالٌّ"[(3)]، "والضَّلالُ: العدولُ عن الطَّريق المستقيم عمدًا كان أوْ سَهْوًا، يسيرًا كان أوْ كثيرًا، وتُضادُّه الهدايةُ"[(4)].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (مثل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (ضل).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مـن ضــلَّ عن طـريـقِ الـهـدى ضـلالًا؛ خابت مساعيه تحقيقًا

في هذه الآية يأمرُ اللّه تعالى رسولَه ﷺ أنْ يتأمَّلَ ما حدثَ للمشركين من ضلالٍ وخَيبةٍ بمجرَّد محاولاتِهم النَّيلَ منه والإساءةَ إليه؛ إذ باءَتْ كلُّ مساعيهم بالفشل، وصارَ التخبُّطُ والعجزُ سمةً لازمةً لهم في كلِّ الأحوال.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ:

تشريفُ الرَّسول وتسليتُه بكريم الخطاب

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ﴾ جملةٌ استئنافيَّة مترتبةٌ عمّا قبلَها ترتُّبَ النّاظر المتأمِّلِ في سيلِ الاتّهامات التي يتلقّاها من خصمِهِ اللَّدود الجاهلِ باللّه تعالى وحكمته من خلق الإنسان وإرسال الرُّسل للامتحانِ والاختبار والتكليف، فانتقلَ بها البيانُ القرآنيُّ من الحديث عن افتراءات المشركين إلى مخاطبةِ الرَّسول ﷺ؛ بقصد تشريفِهِ وتكريمه وإذهابِ ما عَلَق بنفسه؛ بسببِ أباطيل الظالمين وافتراءاتهم؛ إذ بدلًا من إذعانِهم العقليِّ لأوامر اللّه تعالى بالطّاعة لرسوله الصّادق الأمين ﷺ، أخذوا يوجّهون التشكيكَ والرّيبَ في آياته ومعجزاته، وآمنوا باعتقادهم الضالِّ أنَّ الرَّسول لا يجوزُ أن يكون من جنس البشر، ولو كان بشريًّا؛ فليكن معه مَلَكٌ يُنذر الناس مُعينًا له، أوْ يتمتَّع بأموال وجنان حسيَّة، ونسوا أنَّ هذه مطالباتٌ تستلزمُ نقضَ التكليف من أصلِه؛ إذ هو يقومُ على الإيمان بالغيبِ بعدَ سماع الآياتِ الدالَّةِ على صدقِ الرَّسول والمعجزاتِ، التي يختارها اللّه تعالى لأنبيائِه دون تحكُّم من المَدعوّين بها، وليس على وفقِ ما يشتهيه البشر، وإلّا لزم أنْ يكون هذا الرَّسولُ ناقِضًا لِحكمة الخلق والتَّبليغ، وهو امتحانُ اللّه تعالى عباده بالإيمانِ، وليس امتحان العباد لقدرة اللّه بإرسال الآيات، وليتَهم يؤمنون عند رؤيتها، بل سوف يذهبون إلى أنَّه ساحرٌ يسحرُ عيونَهم عن الحقيقة، ولو كانوا

يؤمنونَ إيمانًا صادقًا؛ لكَفَتْهم المعجزاتُ الحسيَّةُ التي أتاهم بها، والآياتُ القرآنيَّة التي أعجَزَتْهم بحكمتها وبلاغتها ومضامينها.

غرضُ الأمرِ ودلالتُه:

إرشادُ الرَّسول إلى معالم الوصول

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ بفعل الأمر: ﴿ٱنظُرۡ﴾ بغرض توجيهِ النَّبيِّ ﷺ وإرشاده إلى التأمُّل في حال المشركين الذين رَمَوْه بهذه التُّهم؛ ليتأكَّد من بطلانها؛ لأنَّها صادرةٌ من قوم ضلّوا طريقَ الهدى، وساروا في طريق الباطل، وما صدر عن أهلِ الباطل فهو باطلٌ، وفي الأمر بالنَّظرِ والتأمُّل دعوةٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الاستغرابِ من تلك المواقف، والتعجُّب من تلك الاعتراضات، وإرشادٌ له إلى كيفيَّة التَّعامُل مع تلك العقول الجاحدة، وتثبيتٌ له على الحقِّ الذي لا مِرية فيه، فلا تهزُّه تلك الانتقادات، ولا تضعفُ رغبتَهُ في الدعوة تلك الاتِّهاماتُ.

بلاغةُ اختيارِ مفردة النَّظر:

الأمـرُ بالنَّظر دعوةٌ للوصول إلى العلم بالتَّأمُّل والتفكر

اختارَ النَّظمُ الكريم مفردةَ النَّظر في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ﴾ التي تكون مرتبطةً في وضعها باستعمال حاسَّة البصر، وأراد بها العِلْم والتأمُّلَ في واقع هؤلاء الكافرينَ ومطاليبهم، وكيف يتعاملونَ مع الدَّعوة وصاحبها، فيكون التعبيرُ من قبيل الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة، التي استُعير فيها ﴿ٱنظُرۡ﴾ "لمعنى العِلْم، تشبيهًا للأمر المعقول بالأمر المرئيِّ لشدَّة وضوحه"[1]، وإنَّما كان هذا اللفظُ استعارةً؛ لأنَّ كيفيَّةَ ضرب الأمثال تُعلَم، ولا يُنظَرُ إليها بالعين المجرَّدة، وإنَّما عدلَ عن (العلْم) إلى (النَّظر) زيادةً في تحقيق الاستغراب والتعجيبِ للنَّبيِّ ﷺ من أقوالهم وافتراءاتهم، حتى إنَّ تلك الأقوالَ لوضوحها لا تحتاجُ إلى علم عميق لمعرفةِ أنَّها كاذبةٌ وافتراءاتٌ وأوهامٌ، وقلبٌ للحقائق وتزويرٌ للمواقف؛ إذ بدلًا من الإذعان والتَّصديق لجؤوا إلى الامتحان والتشكيك، وبدلًا من القبولِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 19.

بالحقِّ دافعوا عن الباطل، وبدلًا من اختيار الطَّريقة المثلى رغبوا في الطَّريق المظلم السَّيِّئ، وبدلًا من الاعتقاد بأنَّ الرَّسول بشرٌ عاديٌّ، لكنَّه مختارٌ للتبليغ توهَّموا أنَّه لا ينبغي أن يكونَ منهم، وبدلًا من الإيمان بالمعجزات - التي أتاهم بها - تطلَّبوا غيرها، مُبطلين بذلك التَّكليفَ برؤية الملائكة، وما يستلزمُه من عملٍ وجهادٍ؛ حتى تحصلَ لهم الكنوزُ والجنّاتُ بإيمانهم وجهادِهم وصبرِهم، فانقلبوا إلى مُمتحِنينَ للّه تعالى ورسوله، معَ أنَّهم هم المُمتحَنونَ والواقعونَ في دائرة الاختبار.

غرضُ إيرادِ الاسم ﴿كَيۡفَ﴾:

التَّعجُّبُ من أحوال المُفترين وأدلَّة الأفّاكين

أوثِرَ استعمالُ اسمِ الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾؛ لما تُفيدُهُ بجانب تنشيط المتلقّي من استعظام الأباطيل التي اجترَؤوا على التَّفوُّهِ بها، والتَّعجيبِ منها، والمعنى: انظُر كيف قالوا في حقِّك تلكَ الأقاويلَ العجيبةَ الخارجةَ عن المعقول، واخترعوا لك تلك الصِّفاتِ، والأحوالَ الشّاذةَ البعيدة من الوقوع[1]؟ وبذلك ينسجمُ فعلُ الأمر مع أداة الاستفهام في دلالة التَّعجيبِ والاستغراب، فكلٌّ منهما يتشاركانِ في تعميق ذلك الإحساس المُستغربِ من صدور تلك الأقوال والأوهام الباطلة عن الظّالمين للحقِّ ولأنفسِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بفعل ﴿ضَرَبُواْ﴾:

شأنُ المفترين عجيبٌ، وأعجبُ منه موقفُ المتفرِّجين

قوله تعالى: ﴿ضَرَبُواْ﴾ معناه: ذكروا لك الأمثالَ، وسَرَدوا لك الأشباهَ، وتفوَّهوا لك بتلك الصور والأعاجيبِ، وجيء بالفعل ﴿ضَرَبُواْ﴾ دونَ ألفاظٍ أُخرى، مثل: (ذكروا أَوْ مثَّلوا أَوْ قالوا أَوْ شبَّهوا)؛ لبيانِ قوَّة المضروبِ من جهتهم، وأنَّه قولٌ مستعظَمٌ وتشبيهٌ ظالمٌ وتجاسُرٌ مكشوف، وهو مناطُ التَّعجيب والاستعظام، وفي الفعل الماضي ما يدلُّ على تأكيد حصول ذلك الأمر ووقوعِه منهم،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 87.

وأُسنِدَ الفعل: ﴿ضَرَبُواْ﴾ ماضيًا إلى ضمير الجماعة؛ للتَّعجيب من اجتراء نَفَرٍ من المشركين على الإساءة لرسول اللّه والافتراء عليه، ومن اجتراء الباقينَ على نقل تلك الأباطيل ونشرها، وعدمِ وجود أحدٍ فيهم يُنكِرها، أو يُمسِكُ عن ترديدها.

نوعُ اللّامِ ودلالةُ تقديمِها مع المجرور:

الانـتـقـاصُ من صاحب القضيَّةِ انـتـقـاصٌ منها ومن أتباعها

قُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿لَكَ﴾ على المفعول به: ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾؛ لأنَّ عنايةَ الظّالمين واهتمامَهم موجَّهٌ إلى تشويه شخصيَّةِ الرَّسول ﷺ، بقصد تنفير النّاسِ مِن اتِّباعه والإيمانِ به، واللّام للاختصاص؛ لأنَّهم يُدركون أنَّ الانتقاص من صاحبِ الدَّعوة، واتِّهامه بأنَّه رجلٌ مسحورٌ انتقاصٌ من الدَّعوة وأتباعها جميعًا؛ إذ تعظُمُ الدَّعوة بعظمةِ صاحبها وشخصيَّتِه الصّادقة، وعقليَّتِه المتفتِّحة، ونفسيَّتِه الصّائبة.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردة ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾ جمعًا معرَّفًا:

اسـتـعـارةٌ تصريحيَّةٌ تُنبئ عن شدَّة انتشار الأقـوال المفتراةِ بين الناس

جيءَ بالمفعول به: ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾ جمعًا مُعَرّفًا بـ(أل)؛ للإشارة إلى أنَّ افتراءاتِهم على الرَّسول ﷺ صارت أقاويلَ عجيبةً خارجةً عن العقول، جاريةً لغرابتها مَجرى الأمثالِ، واخترعوا لك تلك الصِّفاتِ والأحوالَ الشّاذةَ البعيدةَ من الوقوعِ[1]، حيثُ "جعلوهُ مِثْلَهُم في الاحتياج إلى الغذاء تارةً، ونظيرَهم في التوسُّل إلى التوصُّل للأرباح والفوائد تارةً، ومغلوبَ العقل مُختلِطَ المزاج، يأتي بما لا يرضى به عاقلٌ تارةً ثالثةً، وساحرًا يأتي بما تعجُزُ عنه قواهم، وتَحَيَّر فيه فكرهُم تارةً أخرى"[2]، فالأمثال استعارةٌ تصريحيَّةٌ للأقوال التي قالوها؛ لبيان شدَّة الانتشار لها بين النّاس، وهي تومئُ إلى صبره ﷺ فيما قيلَ فيه من اتِّهامات، واستمراره على طريق الدَّعوة بالحكمة والموعظة الحسَنة، وكيف أنَّه تحمَّل الأذى، وواجهَ ذلك

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 204.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 299.

بالصَّبر والجهاد، ورضيَ بما كتبه اللّه تعالى له ابتغاءَ نيلِ مرضاته، وقيامًا بواجباته من التبليغ والدَّعوة والإرشاد.

نوعُ الفاءِ ودلالتها:

مَن يجترئ على ضربِ الأمثال مصابٌ بآفة الضَّلال

جاءتِ (الفاءُ) لتفريع ﴿فَضَلُّواْ﴾ على ﴿ضَرَبُواْ﴾، والمعنى: أنَّ الضَّلال قد أصابَهم، والتّيهَ قد نَزلَ بهم، بمجرَّدِ افترائهم عليك، واتّهامهم لك بالباطل، فزاغوا "عن طريقِ المُحاجَّة، ولم يأتوا بشيءٍ يُمكن صدورُه عمَّن له أدنى عقلٍ وتمييزٍ، فبقوا مُتحيِّرين"[1]، لا يهتدونَ، ولا يعرفون للهداية سبيلًا، ولا يخفى أنَّ الضَّلال والوهمَ سببٌ لضربهم الأمثالَ، لكنْ لمّا لم يكنْ يُعرَفُ الضَّلالُ إلا بضربهم لها؛ جعلَهُ مُتفرِّعًا عليه، فـ(الفاء) للتعقيب الذِّكريِّ، وإنْ كانت سببًا له ومتقدِّمةً عليه، وأفادت (الفاء) سرعةَ معرفة الضَّلال بمجرَّد ضرْب الأمثال؛ لأنَّ مَن يضرب الأمثال تلك يكونُ ضالًّا في الوقت ذاتِه.

غرضُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿فَضَلُّواْ﴾:

مجازاة الضّالّين ونصرةُ سيِّدِ المرسَلين

عبَّر البيانُ الإلهي بالفعل: ﴿فَضَلُّواْ﴾ ماضيًا مسندًا إلى ضمير الجماعة إسنادًا مجازيًّا؛ للدَّلالة على أنَّ الخيبةَ وضلال الغاية والوسيلةِ قد أصابَهم جميعًا بلا استثناء، وأسندَ الفعل إليهم؛ لأنَّهم تسبَّبوا فيه بافتراءاتِهم على الرَّسول ﷺ، واجترائِهم على الإساءة إليه، وإلّا فإنَّ المُضِلَّ هو اللّه تعالى، ففي الإسناد مجازٌ عقليٌّ من إسنادِ ما للشَّيءِ إلى سببِه، وفيه من تكريم النَّبي ﷺ وتسليتِه ما يكفي لتطييبِ خاطِرِه الكريم، وإذهابِ ما علِقَ في نفسِه العظيمة؛ لأنَّ ضلالَهم بسبب ما افتروه على رسول اللّه الصّادق الأمين، فجازاهم بالضَّلال المُبين، ونصرَ عليهم سيِّدَ الأنبياء والمُرسَلين.

نكتةُ التَّعبير بالفعلِ ﴿فَضَلُّواْ﴾:

عقَّب النَّظمُ الفعلَ ﴿فَضَلُّواْ﴾ على ضربِهم الأمثالَ؛ لبيانِ أنَّهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 87.

مُتحيّرون حتى في اتِّهاماتِهم للنَّبي ﷺ، وما ذلك إلّا لمُجانبتِهم الصّواب في عداوته وكراهية طريقِه المُستقيم، فلم يوفَّقوا إلى الوصف الدقيقِ في اتِّهام الرَّسول ﷺ، كما أنَّهم ضلّوا، ولم يهتدوا إلى الدّين الحقِّ باتِّباع الرسول ﷺ الهادي بشريعتِه إلى الفوز والفلاح، فيكونُ فعلُ الضَّلال مُستعمَلًا في معنيَين معًا، الأوَّلُ: عدمُ الاتِّفاق في الاتِّهام، والثاني: عدمُ الاهتداء إلى الصَّواب، وفي ذلك تصويرٌ لبشاعةِ الضَّلال وشدَّتِه؛ حتى صار شعارًا لهم وسلوكًا يُعرَفونَ به.

مجانبةُ الصَّواب شعارُ الظّالمين

نوعُ الفاءِ ودلالتها:

لمّا كان الرَّسولُ ﷺ هو الدَّليلَ إلى الله تعالى، والطَّريقَ المستقيم الموصلَ إليه؛ أنبأتِ (الفاء) - في قوله: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ المستعملةُ لعطفِ فعلِ الاستطاعة المنفيِّ على الماضي المُثبَت: ﴿فَضَلُّواْ﴾، المفيدةُ معنى التعقيب والتسبُّب أيضًا - السّامعينَ أنَّ فشلَ الكافرين في الاهتداء إلى أيِّ شيء حتّى في اتِّهاماتِهم، قد أعقبَ تخبُّطَهم في ضربِ الأمثال، وتَسَبَّبَ عنه، فصاروا عاجزينَ، وأصبحوا مُتحيّرينَ، لا يستطيعون التوصُّلَ إلى شيءٍ فيك، ولا يستطيعون كذلك العدولَ عمّا هم فيه من ضلالٍ وخَيبةٍ إلى الحقِّ والصِّدق؛ لأنَّهم ارتابوا في الدَّليل والطَّريق المقرِّب إلى حضرةِ علّام الغيوب، وهذا سرُّ عدم الوصول والاهتداء إلى أيِّ شيءٍ، سواءٌ كان متعلّقًا بالدليل نفسه أم بمدلوله أيضًا.

المُجترئُ على الرَّسول ﷺ ممنوعٌ من مُطلقِ الوصول

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (الاستطاعةِ) مضارعًا منفيًّا:

آثرَ النظمُ الكريم الإتيانَ بلفظِ (الاستطاعة) في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ بصورة المضارع المنفيِّ دون أنْ يقول: (فلا يهتدونَ)، مع أنَّه المناسبُ لأوَّلِ وهلةٍ مع لفظِ (السَّبيل)؛ لأنَّ الاستطاعةَ أعمُّ من الاهتداء؛ إذ عدمُ الاستطاعةِ للفعل مثبتٌ

كبتُ الضّالين تفريجٌ للمؤمنين ومؤانسةٌ للصّابرين

لكمال العَجْز، ويترتَّب عليه عدمُ الاهتداء لشيء أبدًا؛ إذ مَن لا يستطيعُ تبيُّنَ السَّبيلِ، كيف يهتدي إلى الحقِّ؟ كما أنَّه لو قال: (فلا يهتدون)، كان تكرارًا لقوله: ﴿فَضَلُّواْ﴾، وعبَّر بالفعل: ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ منفيًّا بأداةِ (لا)؛ للدَّلالة على تجدُّد فشلِهم وخيبتِهم، كلَّما تجدَّدتْ محاولاتُهم النَّيلَ منك، وكلَّما حاولوا الرجوعَ عن هذه المحاولاتِ إلى الطَّريق القويم، بجانب ما في حرف النَّفي من دلالةٍ على أنَّ هذا الفشلَ لا أملَ معه في الاهتداء أبدًا، وفيه من مؤانسة النَّبيِّ ﷺ والتَّسريةِ عنه ما يُريحُ النَّفس، ويُذهبُ الحُزن، ويدفعُ إلى مزيدٍ من الثَّبات والصَّبر.

غرضُ تنكيرِ ﴿سَبِيلًا﴾:

قـطْـعُ الـسُّبُـل كافَّة فتحٌ لأبواب الهداية للعامَّة

جاءَ لفظُ ﴿سَبِيلًا﴾ نكرةً؛ ليشملَ كلَّ السُّبُلِ التي يحاول المشركونَ أنْ يَسلِكوها في تشويه سمعةِ الرَّسول ﷺ وشخصيَّته الفذَّة، أوْ في محاولة العدولِ عمّا هم فيه من ضلالٍ إلى طريق الهُدى والرَّشاد، أو في غير ذلك، والمعنى: "لا يجدونَ سبيلًا إلى القدح في نبوَّتك، بأنْ يجدوا قولًا يستقرّون عليه، وإنْ كان باطلًا في نفسِه، أوْ ضلّوا عن الحقِّ ضلالًا مبينًا، فلا يجدون طريقًا موصِلًا إليه، فإنَّ مَن اعتاد استعمالَ أمثالِ هذه الأباطيلِ؛ لا يكادُ يهتدي إلى استعمال المقدِّماتِ الحقَّةِ"[1]، والتكوينُ بعد هذا كلِّه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ كنايةٌ عن مُنتهى الضَّلال وشدَّتِه وبلوغِه مَدًى بحيثُ لا يَتبيَّنونَ طريقًا يَسلكونَهُ، ولا سبيلًا يسيرونَ عليه بشكلٍ صحيحٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 87.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورٗا ١٠﴾ [الفرقان: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من الاقتراحاتِ الباطلة إلى بيان القُدرة عليها

لمّا ذكرَ في الآيات السّابقة اقتراحاتِ المُشركين بقصد التَّعجيز والتكذيب؛ ناسبَ أنْ يذكرَ في هذه الآية الكريمة قدرةَ المولى ﷻ على إمدادِ النَّبيِّ ﷺ بما طلبَهُ أولئك الظّالمون، فهي امتدادٌ لما بدأتْهُ الآيةُ السّابقة من تشريفِ الرَّسول ﷺ، وتثبيتِه وتسليتِه عمّا علِقَ بنفسه، بسبب أباطيلِ الظّالمين، ومطالباتِهم المستمرَّةِ بأن يُلقى إليه كنزٌ، يُغنيه عن طلَب المعاشِ، أوْ تكونَ له جنَّةٌ، تكفيهِ طلبَ الطَّعامِ والمشيَ في الأسواق.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُصُورٗا﴾: (قصر) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما يَدُلُّ على أَلّا يَبْلُغَ الشَّيْءُ مَداهُ ونِهايَتَهُ، والآخَرُ على الحَبْسِ[1]. "القَصْرُ مِنَ البِناءِ: هوَ المَنْزِلُ، وقيلَ: كُلُّ بَيْتٍ واسِعٍ عَظيمٍ بُنِيَ مِنْ حَجَر، سُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لأَنَّه تُقْصَرُ فيهِ الحُرَمُ، أَي: تُحْبَس، وجَمْعُهُ: قُصور"[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

مطالبُ الضّالّين لا تستنزلُ النِّعمَ، ولا تُغيِّر الحِكَم

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمة قدرةَ اللّه تعالى الذي جلَّ شأنُه، فهو إنْ شاء، وتعلَّقت إرادتُه؛ جعلَ لك - أيُّها الرسول الكريمُ - خيرًا من ذلك الذي اقترحوه من الكنوز والبساتين، بأنْ يهبَكَ جنّاتٍ عظيمةً تجري من تحتها الأنهارُ، ويهبَكَ قصورًا فخمةً ضخمةً، لكنَّه سبحانه لم يشأ ذلك؛ لأنَّ ما ادَّخره لك من عطاء كريمٍ خيرٌ وأبقى[3]، بل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قصر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قصر).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 176.

قدَّم لك الآياتِ الحسيَّةَ والمعجزات الظاهرة الكافية لأهل العقول السَّليمة أنْ يُؤمنوا بك، ومنحَكَ القرآن الكريم الذي فيه سرُّ تحصيلهم لكلِّ ما يُريدونه بعد تطبيقِه والعملِ بما فيه، وأمّا هذه المطالبُ المُشتهاة؛ فإنَّها لا تنقلُهم للإيمان، بل بمجرَّد الإتيان بها سوف يزدادونَ تكذيبًا ونسبةً لك إلى السِّحر، كما فعلوا سابقًا مع المُعجزات السّاطعات والآيات البيِّنات والحُجَج الظّاهرات.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ ابتداء الآية بما بدأتْ به السّورة:

بين البدايات والمقاصد وشائجُ لفظيَّةٌ تدلُّ على دلالاتٍ حفيَّة

ابتُدِئَتِ السّورةُ بتعظيم الله وثنائِه على أنْ أنزلَ الفرقان على رسوله، وأعقبَ ذلك بما تلقَّى به المشركون هذه المزيَّةَ من الجحود والإنكار الناشئِ عن تمسُّكِهم بما اتَّخذوه من آلهةٍ، صفاتُها تنافي الألوهيَّةَ الحقَّة، ثمَّ طعنوا في القرآن، والذي جاء به بما هو كُفرانٌ للنِّعمة ومَن جاء بها، فلمّا أُريد الإعراضُ عن باطلِهم والإقبالُ على خطاب الرَّسول ﷺ بتثبيتِه وتثبيت المؤمنين؛ أُعيد اللَّفظ الذي ابتُدئت به السّورة على طريقة وصل الكلام بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ﴾[1]، والغايةُ من التَّكرار لمطلَعِ السّورة التَّنبيهُ إلى جهالتهم الكبيرة وغباوتِهم المستمرَّة؛ إذْ أنبأَتْ مطالبُهم عن عدمِ معرفة عظمةِ الله الحقيقيَّة وجليلِ قدرته المُتعالية، بأنْ يَنظروا في مخلوقاته الأرضيَّة والسَّماويَّة، فيتوقَّفوا عن تلك المطالبِ التافهة والأماني الحقيرة، التي لا تَزيدهم إلّا كفرانًا وطغيانًا لضيقِ مداركهم وتحجُّرِ عقولهم وضآلةِ تفكيرهم، فهل بعدَ خلْقِ العالمِ وإيداعِ الكنوز والجنّاتِ فيه من آيةٍ أعظمَ تُنبئُ عن الحكيم الخبير؟

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 330.

بلاغةُ الاستئنافِ ودلالته:

الرَّدُّ على مزاعم المشركين بتثبيت مُنزِّل الفرقان

قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ، جيءَ بها للردِّ على مطالب المشركين، ببيان قدرة الله تعالى على أن يَهَبَ رسولَهُ ﷺ أكثرَ وأعظمَ ممّا طالبوه به، وللتَّنبيه إلى أنَّه سبحانه لم يترك ذلك إلّا لحكمةٍ لا يعلمُها غيره، ومصلحةٍ أكيدةٍ لا يُحيط بها أحدٌ سواه، بجانبِ ما تقصد إليه الآيةُ من مؤانسة النَّبيِّ ﷺ وتبشيرِه بما عند ربِّ العالمين، وما فيها من استهانةٍ واستخفافٍ بمطالبِ المشركين التي لا تتناسبُ مع عظمة الله المحيطةِ بكلِّ شيءٍ، كما يدلُّ عليها قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: 67].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَبَارَكَ﴾ ماضيًا:

قدرةُ الله تعالى وخيرُه لا حدَّ لاتِّساعِهما

أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل الماضي: ﴿تَبَارَكَ﴾؛ لأنَّه يدلُّ بزمانه على ثبوت معناه لله تعالى ثبوتًا قطعيًّا، وانفراده سبحانه بالجلال والاقتدار، ويدلُّ ببنائِه الذي يتوسَّطُه حرفُ المد على بلوغه ﷻ في التعالي والاقتدار وكثرة الخيرات مبلغًا لا حدودَ له ولا إحاطةَ به، والمعنى: تعالى وتكاثرَ وتزايدَ وتعاظمَ خيرُ الَّذي أنزلَ ونصرَ ودبَّرَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ:

تطمينُ المؤمنين وترويعُ الكافرين

عبَّر النَّظم الكريمُ عن المسند إليه بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِي﴾؛ لما يُفيده من التعظيمِ والتفخيم، والتشويق إلى جملة الصِّلة التي تمَّ التوصُّلُ بها إلى طلاقةِ قدرةِ الله تعالى، ورجوعِ العطاء والمنع إلى مشيئتِه سبحانه، وليس إلى شيءٍ آخرَ، والقصدُ: تطمينُ الرَّسولِ ﷺ ومؤانستُه والمؤمنين، وترويعُ الكافرينَ وأتباعِهم إلى يوم الدّين.

فائدةُ الاعتراضِ بالآية:

التَّعليقُ تصويرٌ لكمال القدرة الإلهيَّة

جيءَ بجملةِ الاعتراضِ ﴿إِن شَآءَ﴾ بين الاسم الموصول وصِلَته؛ للتَّنبيه إلى أنَّ الله تعالى لا يفعلُ شيئًا عن عجزٍ أَوْ إكراهٍ، وهذا

الاعتراضُ مبنيٌّ على أنَّ المجعول له من الجنات والقصور ما يكونُ في الآخرة من نعيم مقيم وجناتٍ وقصورٍ، وهو خيرٌ ممّا طلبوه منه في الدُّنيا، وتكون ﴿إِن﴾ لإفادة تحقُّق الوقوع بقرينة قوله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾، ويحتمل أنَّ الجملة استئنافيَّةٌ بناءً على أن المجعول له جنّاتٌ وقصورٌ في الدُّنيا، وتكون ﴿إِن﴾ للشكِّ في الوقوع بمعنى (لو)؛ لأنَّ "عدمَ جعْلِها راجعٌ لمشيئته المبنيَّةِ على الحِكَم والمصالحِ"[1]، وأفاد الاعتراضُ أو الاستئنافُ - بالشَّرط المشكوك الوقوع بناء على الاستئناف، أوالمحقَّق بناءً على الاعتراض - أنَّ اللّه تعالى مع قدرته العظيمة على فعلِ أيِّ أمر، فإنَّ ذلك محكومٌ بتعلُّق إرادتِه بذلك الفعل، فيكونُ تصويرًا للقدرةِ المطلقة والإرادة الكاملةِ، فلا يُعجزه شيءٌ، ولا يتحكَّمُ في قراره أحدٌ، ولا يُلبّي طلباتِ التّافهينَ متى أرادوا شيئًا من ذلك، وهو الغنيُّ عن العالَم بأسرِه، والمُختبِرُ لعباده، فلا يوضَعُ موضِعَ الاختبار والامتحانِ جلَّ في عُلاه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملة الشَّرط:

إرادة اللهُ تعالى خفيَّة عن الخلقِ

في استعمال ﴿إِن﴾ التي هي لعدمِ تحقُّقِ الوقوع وضعًا؛ بناءً على أنَّ الجملة استئنافيَّةٌ، وأنَّ المطلوب لهم من الجنات والقصور في الدُّنيا غيرُ متحقِّقة لحكم ومصالح - إشارةٌ إلى أنَّ إرادته عزوجل لا يطَّلع عليها خَلْقٌ من خلقِه، ولا يُحيط بها أحدٌ سواه، والتَّعبيرُ بالفعل: ﴿شَآءَ﴾ مُسندًا إلى ضمير الموصول يدلُّ بزمانه وبنائه على أنَّه لا سلطان على اللّه، ولا رادَّ لمشيئتِه، فلو شاء سبحانَه أنْ يمنحَك ذلك في الدُّنيا؛ فلن يحولَ دونَ حصولِه أحدٌ، على أنَّه يُمكن القول بأنَّ اللّه تعالى منحَهُ ما هو أعظمُ من الجنّات والقصور؛ إذ ملَّكَه مدَّةَ دعوتِه أغلبَ بلادِ العرب، وهو فيها زاهدٌ راضٍ بالقليل.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 88.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿جَعَلَ﴾ الماضي:

فعلُ الله تعالى راجعٌ لمَحْضِ إرادتِه

في التَّعبيرِ بالماضي: ﴿جَعَلَ﴾ الدّالِّ على الخَلْق والإيجاد[1]، مسندًا إلى ضمير الاسم الموصول؛ دلالةٌ على تحقُّق الفعل وحصولِه حصولًا أكيدًا، متى أراده اللّه ﷻ، ما يجعل التعبيرَ دالًّا على التعريض بالكافرين، والاستخفافِ بما طلبوه، ويحتملُ أنْ يكون التَّعبير بالماضي دالًّا كذلك على أنَّ المعمول وهو: ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ممّا لا يطرأ عليها أيُّ تغيُّرٍ تحتاجُ معه إلى تجدُّد العناية والمتابعة.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

مؤانسةُ النبيِّ ﷺ ببيانِ استحقاقِهِ للخيرِ كلِّهِ

قُدِّمَ ضميرَ الخطاب المجرورَ بحرفِ الاختصاص: ﴿لَكَ﴾ على المفعولِ به: ﴿خَيۡرًا﴾؛ اهتمامًا وتأكيدًا لتخصيصِ هذا الخير بالرَّسول ﷺ؛ اتِّساقًا مع قصدِ الآية الكريمة مؤانستَه وإذهابَ ما علِق في نفسه؛ بسبب افتراءاتِ المشركين ومطالبِهم التهكُّميَّة.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة اسم التفضيل ﴿خَيۡرًا﴾:

التَّشويقُ إلى البدل وتعظيمُ المفعول

عبَّرَ النظمُ الحكيمُ عن المفعول باسمِ التفضيل: ﴿خَيۡرًا﴾؛ لأنَّه يدلُّ - بالإضافة إلى ما فيه من تشويقٍ وإثارةٍ إلى ترقُّب البدل - على أنَّ ما يَخُصُّ اللّهُ تعالى به رسولَهُ ﷺ أعظمَ بكثيرٍ ممّا طالب به المشركون، ولو خلا منه البيانُ، فقيل: (جعل لك جنات)؛ لما فُهِمَ أنَّ هذه الجنّات - مع عظمتِها وكثرتها وتوفُّرِ كلِّ شيء فيها - يمكن أنْ تبلغَ ما تَصوَّره المشركون، أوْ تزيدَ عليه.

نكتةُ استعمالِ اسم الإشارة للبعيد:

الاستخفافُ بالمشارِ إليه والتَّهوينُ من شأنه

التَّعبيرُ عن المفضول باسم الإشارة الموضوع للبعيد: ﴿ذَٰلِكَ﴾، والمشارُ به إلى ما طلبَوه من إلقاءِ الكنز أوْ تخصيص الجنَّة، يومئ إلى الاستخفاف بالمشار إليه والتهوين من شأنه، باستبعادِ حالِه

(1) الراغب، مفردات القرآن: (جعل).

وذكرِه، فهو في منزلةٍ بعيدةٍ لا يُلتفتُ إليها، ولا تستحقُّ الاعتناءَ بها بتقريبِ ذكرها، وفيه إشارةٌ إلى بُعْدِ الكافرينَ عن الصَّواب والحكمة، وجهلِهم بقدرة اللّه تعالى في مطالبتهم بتلك الأمور، التي لا تُعَدُّ شيئًا ذا بالٍ؛ إذا ما قورنت بما يمكنُ أنْ يَهبَهُ اللّه تعالى لرسولِه ﷺ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وجمعها:

طلبَ المشركون جنَّةً، فكانتْ له جنانٌ عظيمةٌ

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بدلٌ من المفعول به: ﴿خَيۡرًا﴾؛ توضيحًا لوجهِ الأفضليَّة بأنْ يكونَ الموهوبُ له جناتٍ، وليست جنَّةً واحدةً فحسبُ، وجاء به البيانُ القرآنيُّ نكرةً مجموعًا، للتكثير والتعظيم، فهي ليست جنَّةً واحدةً، كما طلبوا، ولكنَّها جنانٌ لا إحاطةَ بعددها، ولا يوجدُ على الأرض ما هو أفضلُ منها، ولا ما هو أعظمُ من أقلِّها.

بلاغةُ الوصفِ بالجملة الفعليَّة:

تعظيمُ الجنّاتِ بديمومةِ مياهها

وُصِفتِ الجنّات بالجملة الفعليَّة: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لبيانِ غفلتِهم عن حقيقة الأمر، وعظيم الشَّأن، وللإشارةِ إلى توفُّر الماءِ الَّذي يجعل زروعَها متجدِّدةً، وثمارَها طازجةً يانعةً، "فهي لا تزالُ ريًّا تُغني صاحبَها عن كلِّ حاجةٍ، ولا تُحوِجُهُ في استثمارِها إلى سَقْيٍ"[1]، والغرضُ من الوصف بيانُ الأفضلية من جهةٍ أخرى، وهي أنَّها جنانٌ لا تحتاجُ لخدمةٍ وعنايةٍ كما في جنان الدنيا، كما أنَّها ذاتُ بهاء وجمال، إذا نظرَ صاحبُها إلى ما تحتَها وحواليها؛ وجدَ الأنهارَ جاريةً تحتَها وحواليها، فيزداد استمتاعًا وراحةً.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

تصويرُ المشهدِ بأحسنِ الماء وأعذبه

عبَّر النَّظمُ الكريم في وصف ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بصيغة المضارع ﴿تَجۡرِي﴾؛ لما يدلُّ عليه من تجدُّد جريانِ الماء، واستمرارِ تدفُّقه بما يكفي حاجةَ الجنان، ويزيدُ؛ ولأنَّ "أحسنَ الماء ما كان جاريًا غيرَ قارٍّ، حيث يكون

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 300.

بذلك جديدًا؛ كلَّما اغترف منه شاربٌ، أوِ اغتسلَ منه مغتسل"[1]، بالإضافة إلى ما يمتازُ به التَّعبير بالمضارع من استحضارِ الصّورة المُتحدَّث عنها، كأنَّها ماثلةٌ حاضرةٌ.

غرضُ تقديم ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على الفاعل:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ تأكيدًا لمعنى جريانِ الماء ووجوده فيها، وإبرازًا لصورتِه وأثرِه الرَّئيس في نعيم الجنانِ، وكمالِ الاستمتاع بها، فالتَّقديمُ لبيانِ بهاء هذه الصّورة، وللَفْتِ الأنظار إلى قيدٍ معروفٍ، فيُتفكَّر في سرِّ إيراده، ونكتةِ ذكره.

الماءُ سببٌ رئيسٌ في كمال الاستمتاع بالجنان

نكتةُ تقييد الجريان بالتَّحتيَّة:

قد يسألُ سائلٌ عن نكتة تقييدِ جريان الماء من تحت الجنّات، وهي كذلك؛ إذ لا تجري من فوقها؟ والجواب أنَّ هذا القيدَ كاشفٌ، قُصِدَ منه زيادةُ إحضارِ حالةِ جَرْيِ الأنهارِ؛ إذِ الأنهارُ لا تجري من فوقُ، فهذا القَيْدُ جيءَ به لتصويرِ الحالةِ للسّامع[2]، والمعنى: أنَّ أنهارَ الماء تتخلَّلُها، حتى كأنَّها تحتَها، أو أنَّ الماء تحتَها فعلًا، بأنْ "تكون أرضُها عيونًا نابعةً، فأيُّ موضعٍ أُريد منه إجراءُ نهرٍ جرى"[3].

تصويرُ حالة الجريانِ بما يتركُ مُتعةً في النَّفس

فائدةُ جمع ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وتعريفها:

جيءَ بالمسند إليه: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جمعًا للتَّكثير، وعُرِّف بلام العهد؛ استحضارًا لصورة الأنهار، فأنهار هذه الجنّات كثيرةٌ، وتعريفها بالمعهودِ الذهني المركوزِ في فِطَر المؤمنين، وهذا عنصرٌ آخرُ يفوقُ ما طلبوهُ من جنَّةٍ خاليةٍ من نهرٍ، فخصَّه اللّه بجنانِ الخلدِ فيها أنهارٌ كثيرةٌ.

توجيهُ المجازِ العقليِّ:

في إسناد الفعل: ﴿تَجۡرِي﴾ إلى: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مجازٌ عقليٌّ، علاقتُه

إذا جرت المياه؛ جرت بها الأنهار عطاءً وبركة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 354.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 355.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 300.

المكانيَّةُ؛ إذ من المعلوم أنَّ النهرَ، وهو الشقُّ لا يجري، إنَّما الجاري ماؤهُ، وفيه نوعٌ من التصويرِ الذي يُرينا سرعةَ المياهِ في جريانها، والأمواج في تلاحُقِها، حتَّى ليخيَّل إلينا أنَّ الأنهار هي التي تجرى، ولو قيل: (تجري من تحتها المياه)؛ لما كشفت هذه الحقيقةَ عن امتلاء الأنهار بالماء وسرعةِ جريانه فيها، ولكان أقصى ما يُفهم منها مجرَّدَ وصفِ الماء بالجريانِ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

قـــراءةُ الـجـزمِ تفيد أنَّ القصورَ جـزءٌ من نعيم الجنّاتِ

الفعل: ﴿وَيَجۡعَل﴾ فيه قراءتان: أولاهما: بالجزم، عطفًا على محلِّ جواب الشَّرط: ﴿جَعَلَ﴾ بناءً على أنَّ ﴿إِن شَآءَ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ، و﴿إِن﴾ فيها للشَّرط الدالِّ على عدم الوقوع في دار الدُّنيا؛ لأنَّ المرادَ بالقصور والجنّات الدنيويَّة، فتكون بمعنى (لو)، وهي قراءة الجمهور[1]، وفيها دلالةٌ على أنَّ إيجاد القصور مصاحِبٌ لإيجاد الجنّات ومرتبطٌ به، وأنَّ هذه القصور يمكنُ أن تكون موجودةً بداخلها، فيكملُ بوجودها نعيمُ الجنان ومتعتُها؛ لاحتوائها على الغذاء والماء والبناء، ولكنَّ ذلك لم يتحقَّق للنَّبيِّ ﷺ في الدُّنيا، بل ما وُعِدَ به في الجنَّة والدار الآخرة.

قراءةُ الرَّفع تدلُّ على أنَّها نعيمٌ مستقلٌّ بذاته

أمّا القراءة الأخرى - وهي قراءةُ ابن كثير وابن عامر وشُعبة - فهي برفع (اللام) في ﴿وَيَجۡعَلُ﴾ على أنَّ ﴿إِن شَآءَ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ وليستْ شرطيَّةً جازمةً، وتكون القصور في النظم ليست قصورَ الدُّنيا، بل قصور الآخرة، فتكون معطوفةً على ﴿جَعَلَ لَكَ﴾، وهو غير واقعٍ في حيز الجزم أوْ مُستأنفةً، وفيها دلالةٌ على أنَّ إيجاد القصور وإنشاءها غيرُ مرتبط بإيجاد الجنّات، وأنَّه نوعٌ من النَّعيم يضارعُ الجنان في العظمة والفخامة والاستمتاع، ولا يبعد أن يكون كلُّ قصرٍ في حدِّ ذاته جنَّةً مُستقلَّةً.

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 333.

دلالةُ التَّغايرِ بين الماضي والمضارع:

جاءَ التعبيرُ عن (الجعل) بصيغة الماضي في ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ﴾، وتغيَّرَ التعبيرُ عنه إلى صيغةِ المضارع في ﴿وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ إيجادَ القصور وإنشاءَها كائنٌ لا مناصَ منه، وهو وعدٌ عظيم من ربٍّ كريم لنبيٍّ رحيم، كما أنَّ الماضيَ يفيدُ تحقُّقَ الوقوع، والمضارعَ يفيدُ تجدُّده واستمراره، ويكونُ ذلك وعدًا من الله تعالى لرسولِه أنَّ الجنان قد أُعِدّت له، وفيها قصورٌ، ويبقى الجعلُ للقصور مُستمِرًّا من دون توقُّف في ذلك، وهذا عنصرٌ آخرُ فاقَ فيه ما وعدَهُ ربُّهُ ما طلبوه منه تهكُّمًا وسُخرية.

الماضي يفيدُ الإعدادَ والمضارعُ يفيدُ الاستمرار

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

قُدِّم ضميرُ الخطاب المجرور بحرف الاختصاص: ﴿لَّكَ﴾ على المفعول به: ﴿قُصُورَۢا﴾؛ لتأكيد أنَّ هذه القصورَ والمنازل العظيمة مُخصَّصةٌ لك - أيُّها الرسول - وسيوجدُها الله تعالى من أجلك؛ اتِّساقًا مع ما تقصد إليه الآيةُ من تكريم النَّبيِّ وتشريفه ومؤانسته، وإذهابِ ما علقَ في صدره؛ بسبب افتراءات المشركين ومطالبِهم التعجيزيَّة التَّهكُّميَّة.

تخصيصُ الرسول بإكرامٍ يجمع بين الوعد المعنويِّ والحسيِّ

فائدةُ تنكيرِ ﴿قُصُورَۢا﴾ وجمعِه:

لفظُ ﴿قُصُورَۢا﴾ مفعولٌ به للفعل ﴿وَيَجۡعَل﴾ جاء به البيانُ القرآنيُّ نكرةً؛ للتَّعظيم والتفخيم، والإلماحِ إلى أنَّ العبارة لا تفي بوصفِ هذه القصور، ولا تحيطُ بما تتركُه في نفس صاحبها من راحةٍ ومُتعة، ولا في نفس مَن يراها من إعجابٍ ودهشة، كما جاء التَّعبيرُ به جمعًا؛ للتَّكثير، فهي قصورٌ لا حصر لعددِها، ولا يوجدُ لدى أحدٍ ما هو قريبٌ منها، أو شبيهٌ بأقلِّها.

العبارةُ لا تفي بتوصيف فخامةِ القصور عمارةً وأثرًا

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾

[الفرقان: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

علّةُ قبائحِ المشركين التّكذيبُ بيوم الدين

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ ما وعد اللّه به نبيَّه ﷺ؛ ناسبَ أنْ يعودَ لبيانِ سببِ قُبحِ مطالبِهم وهو قبحُ اعتقادِهم، فالآيةُ امتدادٌ لحديث السّورة الكريمة عن قبائح المشركين ورذائلهم، فبعد ذِكْرِ قبائحِهم السّابقة؛ انتقلَ البيانُ القرآني لذكر رذيلة أخرى من رذائلهم التي لا تتوقَّفُ، وهي: إنكارهم للبعث والحساب، كما أنَّهم أنكروا أنْ يكون للرَّسول ﷺ جنّاتٌ وقصورٌ في الدنيا، فأخبرهم بأنَّه يملكُها في الدار الآخرة، لكنَّهم كذبوا بالساعة، ومِن ثَمَّ لا يُصدِّقون ملكيَّتَه لها، وبهذا يتحقَّقُ الارتباطُ بينَ هذه الآية والآية السّابقة لها، كما تدلُّ عليه ﴿بَلۡ﴾ الإضرابيَّة.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾: (عتد) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على حُضورٍ وقُرْبٍ(1). "العَتادُ: ادِّخارُ الشَّيءِ قبلَ الحاجةِ إليه كالإعدادِ، والعَتيدُ: المُعِدُّ والمُعَدُّ، قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣﴾ [ق: 23]، ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨﴾ [ق: 18]، أي: مُعْتَدٌّ أعمالَ العباد، وقوله: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾ [النساء: 18]، قيل: هو أفعَلْنا مِنَ العَتادِ، وقيل: أصلُه أعدَدْنا، فأُبدِلَ من إحدى الدّالين تاء"(2)، والمرادُ: هيَّأنا وجهَّزنا.

1) ﴿سَعِيرًا﴾: (سعر) "أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على اشْتِعالِ الشَّيْءِ واتِّقادِهِ وارْتِفاعِهِ، مِنْ ذَلِكَ: سَعيرُ النّارِ، واسْتِعارُها: تَوَقُّدُها،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتد).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (عتد).

والمِسْعَرُ: الخَشَبُ الَّذي يُسْعَرُ بِهِ، والسُّعارُ: حَرُّ النّارِ"[1]، والمراد: نارٌ عظيمةٌ شديدةُ الاشتعال.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

التَّكذيبُ بالسّاعة أدهى وأمرُّ

تُبيِّن الآيةُ حالَ المشركين، وموقفَهم من السّاعة والبعث، فلم يتوقَّفِ المشركون في فعلِ القبائح والرَّذائل على شركِهم باللّه تعالى، ولا على تشويهِهم لكتابه، ولا على ازدرائهم لرسولِه ﷺ؛ إذ أضافوا إلى ذلك رذيلةً جديدةً، وهي تكذيبُهم بالسّاعة وإنكارُهم لما فيها، والحاصل أنَّنا بعظمتنا وقدرتنا قد جهَّزنا لِمَن كذَّب بهذا اليوم نارًا عظيمةً شديدةَ الاشتعال.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالتها:

التَّعجيبُ من إنكار الكافرين السّاعةَ وما فيها

حرف ﴿بَلۡ﴾ يفيدُ الإضراب، إذا وليَهُ مفردٌ؛ كان للعطف، وإذا وليَهُ جملةٌ؛ كان حرفَ استئناف، على الأرجح"[2]، وجيءَ به هنا للإضراب الانتقاليِّ، وللتعجيب والتنبيه إلى رذيلةٍ أُخرى من رذائل المشركين التي لا تنتهي، ولا تتوقَّف، رذيلةٍ تُعَدُّ سببًا رئيسًا في اجترائِهم على الشِّرك باللّه تعالى، وتشويهِ كتابه، والتهكُّم برسوله، وهي تكذيبُهم بالسّاعة وإنكارهم ما فيها من بعثٍ وحشرٍ وحسابٍ وعقاب، والمعنى: بل أتَوا بأعجبَ من ذلك كلِّه، وهو إنكارُهم للبعث وما بعده.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل الماضي:

الكافرون بلَغوا في إنكار البعث ما يُشابهُ اليقين

في بيان موقفِ الكافرين من السّاعة وما يأتي بعدَها؛ عبَّر النظم الحكيم بالفعل: ﴿كَذَّبُواْ﴾ ماضيًا؛ لأنَّه يدلُّ بزمانه على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعر).
(2) المرادي، الجنى الداني: 235، وما بعدها.

حصول التَّكذيبِ وتأكُّد وقوعِه منهم، ويدلُّ ببنائه المشتملِ على حرفٍ مُضَعَّفٍ في وسطِه على رسوخهم في الإنكار، وبلوغِهم فيه حدَّ اليقين، الرّافض لكلِّ ما يخالفُه، فهذهِ الصّيغةُ الصَّرفيَّةُ تفيدُ المبالغةَ والتَّكثيرَ في الفعل، فتناسِبُ ما تقدَّم لهم من أقوالٍ وأفعالٍ تكذيبيَّة بالكتاب المنزَلِ والنَّبيِّ المُرسَل.

نكتةُ إيثارِ لفظ السّاعة:

إنكارُ البعث داعٍ إلى إنكار ما بعده

قُيِّد فعلُ التكذيب بقوله تعالى: ﴿بِٱلسَّاعَةِۖ﴾، والسّاعةُ جزءٌ من أجزاء الزَّمان، عُبِّر به هنا عن القيامة؛ تشبيهًا بذلك لسُرعة الحسابِ[1]، فتكون استعارة تصريحية، أوْ سُمّيتْ باسم جزءٍ من أجزائِها، وهو: ساعةُ البعث[2]، فتكون مجازًا مُرسلًا من تسمية الكلِّ باسم الجزء، وعُدّي فعلُ التكذيب إليها دونَ غيرها ممّا في الآخِرة؛ لأنَّ من كذَّبَ بساعةِ البعث؛ كان بما وراءَها - من أهوال القيامةِ وشدائد الحشرِ والحساب والجزاء - أشدُّ تكذيبًا وأحرى، و(أل) في لفظ ﴿بِٱلسَّاعَةِۖ﴾ للعهد العِلْميِّ؛ لأنَّها صارتْ عَلَمًا بالغلبة على (القيامة) وما يجري في عالَمِها، كما نقول: زرتُ المدينةَ، أي: مدينةَ رسول الله ﷺ؛ ولذا جاءتْ مُعرَّفةً ومُنكَّرةً في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ [الروم: 55]، فأفادَ التعريف أنَّها القيامة، وأفاد التَّنكيرُ السّاعةَ التي هي جزءٌ من الوقت والزَّمان، وبناءً عليه يكونُ إطلاقُ السّاعة على (القيامة) إطلاقًا حقيقيًّا غيرَ مُلتفتٍ إلى أصلِه المجازيِّ؛ لشُهرتِه وعدمِ احتياجِه إلى القرينة، لكنْ يُعَلَّلُ حينئذٍ سرُّ الاشتهار بالمبالغةِ وكمالِ المدح وغيرهما.

نوعُ الواوِ ودلالتها:

استئنافٌ لبيان وعيدِ المشركين

(الواو) في جملة: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ استئنافيَّةٌ، جيءَ بها لبيانِ ما

(1) الراغب، مفردات القرآن: (ساعة).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 21.

أعدَّه اللّه تعالى لمُنكري البعثِ من عقاب في الآخرة، معترضةٌ بالوعيد لهم، وهو لعمومِه يشملُ المشركين المتحدَّث عنهم، فهو تذييلٌ، ومِن غرضه مقابلةُ ما أعدَّ اللّه للمؤمنينَ في العاقبة بما أعدَّه للمشركين[1]، وأفادَ تعقيبُ الوعيدِ للمُكذِّبين تعليلَ سببِ الإعداد؛ إذ الاستئنافُ يدلُّ على التسبُّب والتعليل.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ ماضيًا:

جُهوزيَّةُ السَّعير لاستقبال مُنكري السّاعة وتعذيبهم

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن العقابِ المُنتظَرِ حصولُهُ مستقبلًا بالفعل الماضي: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإعداد وحصولِه حصولًا أكيدًا، يُفهَم منه جهوزيَّةُ النّارِ لاستقبالِهم وتعذيبِهم على تكذيبهم بالسّاعة وما يليها، فإنْ كان اللّه تعالى قد أعدَّ لرسوله ﷺ ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾، فإنَّ اللّه قد أعدَّ في مقابلة ذلك لَمن كذَّب بلقاء اللّه تعالى عذابًا سعيرًا، فلم يكتفِ النظمُ الكريم بإجابتِهم عمّا وعد اللّه تعالى نبيَّه الكريم عندما طالبوه بالمُعجزات، بل أخبرَهم أنَّه قد أعدَّ له ذلك وأكثرَ، وأعدَّ للمكذِّبين منكم جهنَّمَ.

دلالةُ إسنادِ الفعل إلى الضَّمير:

تهويلُ ما أعدَّهُ اللّه من عذابٍ وسعير

وفي إسناد الفعل: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ إلى ضمير الحقِّ سبحانه بصيغة التعظيم دلالةٌ على أنَّ اللّه تعالى جدُّه هو الذي تولَّى إعدادَ السَّعير وتجهيزَه لعقابِ مَنْ كذَّبوا بالسّاعة ولقاء اللّه، وفعلوا مع التَّكذيب الجرائمَ والأباطيلَ التي تحدَّثت عنها السورةُ الكريمة، بغرض تأكيدِ حصول الفعل، وتفخيمِ ما أُعدَّ لهم وتهويلِه، بغرض زيادة التهديد والوعيد.

فائدةُ تقديمِ المجرور باللّام:

السَّعيرُ عذابُ المكذِّبين بالسّاعة

جيء بالاسم الموصول: ﴿لِمَن﴾ مجرورًا بـ(اللّام) الَّتي تفيدُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 332.

الاختصاص، ومُقدَّمًا مع صلته على المفعول به: ﴿سَعِيرًا﴾؛ للدَّلالة على تخصيصِ السَّعير بهؤلاء المكذِّبين، جزاءَ تكذيبِهم بالسّاعة، والمعنى: أعدَدْنا لمَنْ كذَّب بالسّاعة نارًا مخصوصةً، لا يُشارِكُهم فيها غيرُهم لشدَّة مُبالغتهم في التَّكذيب، ودخولهم في مراحلَ عميقةٍ فيه، وبذلك يتناسبُ اختصاصُ الجنّات والقصور بالنبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾، مع اختصاصِ السَّعير بهؤلاء المكذِّبين المُبالغينَ في التَّكذيب.

نكتةُ إظهارِ الاسم الموصول:

بيانُ سببِ ولوجِ النّار كفيلٌ بالارتداعِ عند أصحابِ العقول

عبَّرَ بالاسم الموصول (مَنْ) على خلافِ الظّاهر الذي يقتضي التَّعبيرَ بالضمير، فيقال: (وأعتدنا لهم)؛ ليتوصَّلَ بصلته: ﴿كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ﴾ إلى التَّشنيعِ لفعلِهم، وتأكيدِ سببِ إعداد السَّعير وتجهيزه لهم، وليشمَلَهم ويشملَ كلَّ مَن كذَّب بالساعة، كائنًا من كان؛ لأنَّ (مَن) تفيدُ العمومَ بخلاف الضَّمير، ويشيرُ من خلال تكرار الفعل ﴿كَذَّبَ﴾ الواقعِ في جملة الصِّلة على أنَّ سببَ هذا النَّوعِ من العذابِ الشَّديد أنَّهم بالغوا في التكذيب، وأغرقوا فيه حتّى خرجوا عن المألوف، فاستحقّوا ذلك الإعداد.

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

إظهارُ الألفاظِ المكذَّب بها دليلُ شناعة المكذِّبِ وبشاعة معتقده

في جملة الصِّلة جاء وضعُ لفظِ ﴿بِٱلسَّاعَةِ﴾ موضعَ ضميرها؛ تأكيدًا لعقاب مَن يكذِّب بها، وتشنيعًا بفعله، وتقبيحًا لصنيعهِ، واكتفاءً بالتصريح بها عن ذكر ما سبقَ من جرائمِ المشركين، الموجبةِ للعقاب، والمتمثِّلة في الشِّرك بالله، وتشويهِ كتابه، والتهكُّم برسوله، ما يدلُّ على أنَّ التكذيبَ بها جامعٌ لكلِّ قبيح، وكافٍ عن ذكر كلِّ شنيع، فكأنَّ "مَن كذب بها؛ صار جامعًا للقبائح التي أوردَتْها السّورة من قبلُ بالتفصيل؛ لأنَّه أتى بأقبحِ صفاتهم، وأكثرِها دورانًا

على ألسنتهم"(1)، وأفاد التَّعريفُ للسّاعة هنا العهدَ الذِّكريَّ، مثلُ قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: 15 - 16]، أي: المتقدِّم ذكرُه، وتكونُ (السّاعةُ) حينئذٍ دالَّةً على ما يحدث في القيامة من بعثٍ ونشرٍ وحسابٍ وجزاءٍ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿سَعِيرًا﴾:

السَّعيرُ نارٌ عظيمةُ الاشتعالِ شديدةُ الاستعار

نُكِّرَ لفظُ ﴿سَعِيرًا﴾ للتَّعظيم والتهويل، والإلماحِ إلى أنَّ العبارة لا يسَعُها أنْ تُعبِّرَ عن حقيقتها، ولا أنْ تفيَ بوصفها، كما أنَّ بناءَ الكلمة المشتملَ على حرفَي مدٍّ يتوسَّطُهما حرفُ (الرّاء) يرسمُ صورةً للمعذَّبين بها بين الانخفاض والارتفاع والتقليب، بجانبِ ما يوحي به حرفُ (الألف) في آخرها من أنَّه لا حدودَ لاستعارها، ولا سقفَ لاشتعالها، والمعنى التقريبي: أَعتدنا لِمَنْ كذَّب بالسّاعة نارًا عظيمةً، يشتدُّ اشتعالها، ويزداد استعارها، ومن المعلوم أنَّ الصيغة الصَّرفيَّةَ (فعيل) تفيدُ المبالغةَ والكثرة، ولذا أوثر التَّعبيرُ به عن (مسعور) الذي هو الأصلُ له؛ إذ النّارُ مسعورةٌ، وليستْ سَعيرًا، لكنْ عُدِلَ عن اسم المفعول للمبالغة بشدَّةِ استعارها وعظيمِ لهيبِها.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 430.

﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢﴾ [الفرقان: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من الوعيدِ إلى وصفِ الوعيدِ

لمّا ذُكِر في الآية السّابقة الإيعادُ بالسّعير في قوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾ [الفرقان: 11]؛ أخبر هنا أنّ للنّار معهم حالًا منَ الشِّدّة والحِدّة، بالتّغيّظ والزّفير، وهما من خصائص السّعير المذكور، وبذلك انتقل من حالة اليأس مِن اقتناعهم إلى وصف السّعير الذي أُعِدَّ لهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَأَتۡهُم﴾: (رأى) أصلٌ يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بِعَيْنٍ أو بَصيرَةٍ؛ فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمرِ، وجَمعُهُ: الآراءُ[2]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئيِّ، والرَّأْيُ: اعتقاد النَّفس أحدَ النَّقيضيْن عن غلبة الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرَى في المنام[3]، والرُّؤْيَةُ بالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْن، والمُراد بالرُّؤية في الآية: البَصريّة.

2) ﴿تَغَيُّظٗا﴾: (غيظ) أصلٌ يَدُلُّ على كَرْبٍ يَلْحَقُ الإِنْسانَ مِنْ غَيْرِهِ[4]، التّغيُّظُ: مصدرٌ قياسيٌّ لفعل (تغيّظ) الخماسيّ، ووزنُه (تفعَّل) بفتح التّاء وضَمّ العين المُشدّدة[5]، والتّغيّظ: إظهارُ الغيظ، والغَيْظُ: هو أَشدّ الغضبِ، وعلامتُه: الحرارةُ التي يجدها الإنسانُ من فوَران دَم قلبِه[6]، فحقيقةُ الغيظ تظهر في حال الفوران والغَلَيان الذي يعتلج النّفوسَ ويُسيطر عليها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 332.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(3) الرّاغب، المُفرَدات، والسّمين، عُمدةُ الحُفَّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيظ).
(5) صافي، الجدول: 9/ 312.
(6) الرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غيظ).

3) ﴿وَزَفِيرًا﴾: (زفر) أَصْلانِ: أَحَدُهُما يَدُلُّ على حِملٍ، والآخَرُ على صَوْتٍ مِنَ الأَصْواتِ[1]، الزَّفيرُ: تَرَدُّد النَّفَس حتّى تنتفخَ الضُّلوعُ منه[2]، والزَّفر والزّفير: أنْ يَملأ الرّجلُ صدرَه غمًّا، ثمّ هو يزْفِر به[3]؛ أيّ: يرمي بِنَفَسِه للخارج، وزفير النّار في الآية: كنايةٌ عن هذا المعنى، وهو اغتمامُها واكترابُها بأهلها، ولذا ناسَبَ اقترانُه بالتّغيّظ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ مقامٍ يُنادي على أهلِهِ اللّائقين به

بيّنتِ الآياتُ وصفًا من أوصاف النّار في حالها مع أهلها مِنَ المشركين السّاخرين على الرّسول ﷺ، والمُتَنقّصين من مقامه الشّريف؛ بناءً على معايير الدّنيا والمادّة الزّائلة، فأخبر أنّ هذه النّار يخلق اللّهُ لها انفعالًا وشعورًا مِنَ الغضب وشِدّة الفوران والغَليان والاستعار، إذا رأتِ الدّاخلين فيها من بعيدٍ، فبِمُجَرّد أن يَلوحوا بأشخاصهم لها، وتلمَحهم وتعرفهم، يظهر عليها هذا الانفعالُ السّاخِطُ عليهم، من إظهار الغَيظ وتنفيس الزّفير؛ اكترابًا عليهم، وإيعادًا لهم، واغتمامًا منهم[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ ممّا قبلها:

النّارُ مخلوقٌ لله؛ فإذا شاءَ خَلَقَ لها سمعًا وبصرًا

جملةُ ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ شرطيّةٌ في موضعِ نصبِ صفةً لـ ﴿سَعِيرًا ۝﴾ [الفرقان: 11] في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ [الفرقان: 11]؛ لأنّ السّعير مؤنّثٌ في معناه وهو النّار؛ ولذلك لم توصَلِ الجملةُ بالعاطف، وفُصِلت عمّا قبلَها؛ لكمال الاتّصالِ بينَ الصّفةِ والموصوفِ، والوصف مِن موجباتِ الفَصْلِ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيظ).
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (زفر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (زفر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 409، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/ 13.
(5) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 126.
(6) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 461.

دلالةُ التّصدير بـ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إن):

تصديرُ جملةِ الوعيد في قوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ بـ ﴿إِذَا﴾، دونَ (إن)؛ للدّلالة على تحقيق الوعيد؛ إذْ لا يصحّ تناول الأخبارِ الغيبيّة بالشّك والاحتمال، ولذا لم يُعبّر بـ(إنْ).

دلالةُ سَوْقِ الوعيدِ بأسلوبِ الشّرطِ:

النّارُ تَشْعُر بأهلِها فتزدادُ عليهم إحراقًا

سياقُ جملةِ الوعيدِ بأسلوبِ الشّرطِ في قولِه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ لإثباتِ المُطاوعَةِ بينَهم وبين مادّة العذاب النّارِ، وهذا من تصاوير التّرهيب المُفجِعة، أنْ يكون للنّار فِعلٌ مُعلَّقٌ على فِعلِ المُعذَّبين فيها، ففِعْلُ النّارِ بالتّغيُّظ والزّفير مشروطٌ برؤيتها لهم، فإذا لاحوا لها بأشخاصهم، لاحَتْ لهم بغيظها وزفيرها، ومن طبائع الأجزية أن تُساق بأسلوب التّعليق؛ كأسلوب الشّرط؛ لأنّ الجزاء بالشّيء مُعلَّقٌ على سببه منَ العمل، وحيثُ كانت الآيةُ في لونٍ من ألوانِ الجزاءِ، سيقتْ بهذا الأسلوبِ لإيقاعِ التّعليقِ بينَ الأجزيَةِ وأسبابِها منَ الأعمالِ.

دلالةُ تأنيثِ الفعلِ في ﴿رَأَتْهُم﴾:

تعديدُ النّعوتِ في مقامِ الذّمِّ أبلغُ فيه وأتمّ

تأنيثُ الضّمير في فعلِ الرّؤية في قولِه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ بعد قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾؛ لعَوْدِه على معنى السّعير دونَ لفظه؛ لأنّ (السَّعير) مُذَكّر ومعناه مؤنّث؛ وهو النّار، فعاد الضّمير إلى النّار؛ لأنّها ماهيّةُ العذاب، فيتعلّق باسمها كلُّ وصفٍ من أوصافها، والسّعير صفةٌ من صفات النّار، فلمّا أراد أنْ يُثنّيَ بعدَه بوصفٍ آخَر؛ أعاده إلى النّار لا إلى السّعير؛ قصدًا لتعديد الصّفات، ولِتتواردَ النّعوتُ على أصل الشّيء الموصوف، فلا يَصِف وصفًا بوصف، وهذا أحسنُ في إفادة التّعديد والإلفات إلى ذات الموصوف بكثرة نُعوته، وتعديدُ النُّعوتِ أبلغُ في الذّمّ.

نُكْتَةُ نسبةِ الرّؤية إلى النّارِ:

المُستَكْرَهُ المَخوفُ لا يُتَطلَّعُ إليه

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (إذا رأوها)، بإسناد فعل الرّؤية إليهم؛ بل نسبَ الرّؤيةَ إلى النّار: ﴿رَأَتۡهُم﴾؛ للإيذان بأنّ التّغيّظ والزّفير منها؛ لِهَيَجان غضبها عليهم عند رؤيتها إيّاهم[1]، وأيضًا: مراعاةً لقوله: ﴿مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾؛ فأشارَ بالإسناد إليها أنّها تراهم وهم في مكانٍ بعيدٍ عنها، فلا يَلْزَم أن يكونوا رأوها، فلهذا الاحتمالِ لم يُسنِد الرّؤيةَ إليهم، ويُقوّي هذا قولُه: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا﴾، والسّمعُ قد لا يتزامن مع الرّؤية؛ بل قد يكون أسبقَ منها، لا سيّما في المواقع البعيدة، فأنتَ تسمع الأصواتَ منها قبلَ الاطّلاع عليها، وأيضًا في نسبة الرّؤية إلى النّار إشارةٌ إلى أنّها لشِدّة اضطرامها وغليانها صارت مُتطلِّعةً إليهم، ترى الكُفّارَ وتطلبُهم إليها وتتغيّظ عليهم[2]، وفيه من شِدّة التّرهيب ما لا يخفى، وفي عدم إسناد الرّؤية إليهم إشارةٌ إلى أنّ النّار مُسْتَكْرَهَةٌ مرهوبةٌ، والمُستَكْرَه المَخوف لا يُتَطلَّع إليه، فلا جَرَمَ لم ينسبِ الرّؤيةَ إليهم.

قد يكونُ الرّائي الملائكة

ويجوز أن يكون الرّائي خَزَنَةَ جهنّم، وملائكتُها أطلقوا منافذَها؛ فانطلقت ألسنتُها بأصوات اللّهيب، كأصواتِ المُتَغيّظِ وزفيرِه، فيكون إسنادُ الرّؤيةِ إلى النّار مجازًا عقليًّا[3].

بلاغةُ استعارةِ الرّؤيةِ للنّارِ:

أهلُ النّارِ للنّارِ خُلِقوا

في جَعْلِ النّارِ تَرى في قوله: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم﴾ تشبيهٌ للنّار بالذّوات الحَيَّة التي يكون لها حاسّةٌ وإرادةٌ، فأثبتَ للنّار ذلك على سبيل الاستعارة المَكنيّة، فحَذَفَ المُشبّهَ به، وأثبتَ للمشبّه ما يدلّ على المُشبّه به، ورمز إليه بشيء من صفاته ولوازمه، وهو الرّؤية التي

(1) مكّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5184، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 206.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 437.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 332.

هي من لوازم الحياة؛ بل هي من لوازم الذّوات العاقلة؛ لأنّها رؤيةُ عِلم ويقين، كأنّه قيل: رأتهم فأبصرتهم فعرفَتْهم بسيماهم، فليس المُرادُ الإبصارَ المُجرّدَ فقط؛ بل الإبصارُ المُقترنُ بالتّمييز، وفائدة الاستعارة: تصويرُ أنّ النّار سيكون لها خصومةٌ مع أهلها المُقْتحِمين فيها، حتّى إنّها ترقبهم من بعيد، وتترصّد لهم ترصُّدَ الخَصْم حين يريد قَنْصَ عدوّه والغدرَ به، والاستعارةُ مرشّحة ذُكِرَ فيها ما يُلائِمُ المُشبّهَ به المحذوفَ[1].

الاستعارةُ التّصريحيّةُ في ﴿رَأَتۡهُم﴾:

الاستعارةُ بابٌ واسعٌ، محكومٌ بضبطِ التّصوّرِ، وجودةِ التّنزيلِ

يصِحّ أن تجريَ الرّؤيةُ على الاستعارة التّصريحيّة، بجعل رؤيةِ النّار لهم هي المُشبّه به، فصَرّح النّظمُ بالمُشبّه به، وحذفَ المُشبّه، وهو رؤية الكافرين للنّار؛ كأنّه جعل رؤيةَ الكافرين للنّار كأنّها رأتهم، وذُكِر في النّظم ما يُلائِمُ المُشبّهَ، وهو الرُّؤية؛ فالاستعارةُ مُجَرّدةٌ[2].

معنى ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن مَّكَانِۭ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ﴾ ابتدائيّة؛ أيَ: من جهة مكانٍ بعيدٍ؛ فالبُعد فيها مبتدأُ حالِهم، والضّيقُ مُنتهاه.

دلالةُ وصفِ المكانِ بالبعيدِ:

إظهارُ الجفاءِ للبعيدِ إيذانٌ بالجَفْوةِ الأشدِّ إذا اقتَرَب

وَصْفُ المكانِ بالبعيد في قوله تعالى: ﴿رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾؛ للإشارة إلى أنّ بُعْدَ ما بينها وبينَهم منَ المسافة حين رأتْهم، خارجٌ عن حدود البُعد المعتاد في المسافات المعهودة، وفيه مَزيدُ تهويلٍ لأمرِها[3] وزيادةُ نكايةٍ بهم؛ لأنّ بُعْدَ المكانِ يقتضي زيادةَ المَشَقّة إلى الوصول، ويقتضي امتدادَ الرُّعب ممّا سمعوا طوالَ مُدّة المسير إلى مثواهم في جهنّم ﴿مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾ بحسَبِ ما سيأتي[4].

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 8/ 11.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 8/ 11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 332.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 206.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 333.

تطبيعُ النّارِ بصفاتِ العقلاءِ زيادةٌ في إرهابِ أهلِها

معنى اللّام في ﴿لَهَا﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ للبيان، بيانِ الجهةِ المسموعة؛ أيْ: تعيينِ صوتِ التّغيّظ والزّفير لأيّ شيءٍ هو، كأنّه قيل: سمعوا منها، على معنى بيانِ مبدأِ الصّوتِ وجِهةِ السّماعِ[1].

مجازُ الحذفِ في ﴿لَهَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ مجازٌ بحذفِ المُضافِ على أحدِ وجوهِ التّفسير، والتّقدير: (سمعوا لأهلها، أو لخَزَنتِها)[2]، وفي الاكتفاء بالمَذكور منَ السّعة التَّعبيريّة ما لا يَخفى.

الاخـتـصـاصُ يُبينُ عن طبائعِ الأشياءِ

نُكْتَةُ التّعدّي بحرفِ الاختصاصِ دونَ غيرِه:

تعدية الفعلِ باللّامِ التي هي حرفُ اختصاصٍ، في قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾، ولم يَقُلْ: (سمعوا فيها)، أو (سمعوا منها)؛ للدّلالة على أنّ هذا الصّوت هو للنّار حقيقةً، وهو غير صوت المُعَذّبين فيها، فهو لها مختصٌّ بها[3].

كلّما زاد المُعذَّبون في النّار زادَ اضطرامُها وسعيرُها

دلالةُ الجمع بينَ الحقيقة والمجاز، أو عمومِ المجاز:

يصحّ أنْ يكون السّمع لصوتِ النّار وصوتِ المُعذَّبين فيها، على طريقةِ الجمعِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ، أو عمومِ المجازِ، وهو أن يُستعمل اللّفظُ في معنًى مجازيٍّ يندرجُ في المعنى الحقيقيّ، فسماعُهم لصوتِ المُعذَّبين فيها مجازٌ مندرجٌ في المعنى الحقيقيّ، وهو صوت النّار؛ لأنّ صوتَ المُعذَّبين فيها جُزءٌ من صوتِ النّارِ؛ فالنّار يكونُ لها صوتٌ بكثرةِ ما تلتهمه في جوفها منَ المحروقين بها[4].

انفعالُ النّارِ بالغيظِ مَلزومٌ عن انفعالِ أهلِها بالاصطراخِ

بلاغةُ الكنايةِ في التّركيب:

في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ على اعتبار أنّ الصّوت للنّار؛

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 531.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 119.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 531.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 202.

فالتّركيبُ كنايةٌ عن لازِمه، وهو صوت المُعذَّبين فيها، فإذا كانتِ النّارُ نفسُها لها صوتٌ بالغيظ والزّفير؛ فكيف بحال أهلها الغائبين في دركاتِها؟!

المجازُ العقليُّ في إسنادِ الصّوت للنّار:

النّارُ تَـؤزّ أهلَها إلى استغاثاتٍ لا تَهْدأ

معنى قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾: سمعوا لها صوتَ تغيّظٍ وصوتَ زفيرٍ؛ فأُسنِد الصّوتُ للنّار، كأنّه قيل: سمعوا صوتَ النّار، فأُسنِد الفِعل لغير مفعوله الحقيقيّ؛ لأنّ صوتَ التّغيظِ والزَّفيرِ الذي سمعوه هو صوتُ المُعذَّبين في النّار، لا صوتُ النّارِ نفسِها، بدليل قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾ [هود: 106]، ولكن لمّا كانت النّار هي السّبب في ذلك؛ أُسنِد الفِعلُ إليها، وجُعِلَت كأنّها هي التي تُصوِّت[1].

بلاغةُ الاحتباكِ واللّفِّ والنّشرِ في النَّظمِ:

الـوضـوحُ وحصولُ الإفهامِ مـن دواعـي الحذفِ

في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ حُذِفَ أوّلُ الكلام إيجازًا؛ لدلالةِ آخرِه عليه، على سبيلِ الاحتباكِ (الحذف التّقابليّ)؛ استنطاقًا لِوَعْيِ السّامعِ، واستنهاضًا لِفَهْمِه في استنباطِ المحذوفِ، والتّقدير: (رأوا لها تغيّظًا وسمعوا لها زفيرًا)، أو يُجْعَل تقديرُ المحذوفِ على طريقةِ اللَّفِّ والنّشرِ المُرتَّبِ؛ أيْ: (رأَوا وسمعوا لها تغيّظًا وزفيرًا)؛ فالرؤية للتّغيُّظ، والسّمعُ للزّفيرِ؛ لأنّ للزّفيرِ صوتًا فيُسمَع، وللتّغيّظ هيئةً فيُرَى[2].

بلاغةُ المجازِ المُرسلِ في التَّعبيرِ بالتّغيُّظِ:

لا سُكونَ في النّارِ ولا قرارَ

بإجراءِ النّظم على ظاهرِه في إسنادِ السّمعِ إلى التّغيّظِ في قولِه: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ يكونُ في إطلاق لفظِ التّغيّظ مجازٌ مُرسلٌ، علاقتُه اللّازميّة، فأَطلَقَ اللّازمَ وهو التّغيُّظُ، وأراد المَلزومَ وهو

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 531.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 125.

احتدامُ أجرامِ النّارِ وصوتُ غليانِها وفَوَرانِها؛ كأنّه قيل: سمعوا صوتَ غليانِها منَ الغيظِ، أو سمعوا صوتَ غليانِ التّغيُّظِ، ولك أن تجعل التّغيُّظ هو المَلزوم، والغَليان والاضطرامُ لازمٌ عنه، كمَنْ يغتاظ فيَهيجُ ويضطربُ، ويكون المَجازُ المُرسلُ علاقتُه المَلزوميَّة، ويصِحّ أن تكون العلاقةُ المُسبَّبيَّة، على اعتبار أنَّه أطلَقَ التّغيّظَ على الغليان؛ لأنّ الغليان هو سببُ التّغيُّظ، فأَطلَق المُسبَّب وأراد السَّبَب[1].

دلالةُ استعارةِ التّغيّظِ والزّفيرِ للنّار:

الغَيظُ والغليانُ قرينان

في إثباتِ التّغيُّظ والزّفيرِ للنّارِ استعارةٌ مَكنيّةٌ؛ إذْ شَبَّهَ صوتَ غليانِها بصوتِ المُغتاظِ وزفيرِهِ، وطوى ذِكْر المُشبَّه به، ورَمَزَ إليه بشيءٍ من لوازِمِه؛ وهو الغيظُ والزّفير، وهو مرشّح الاستعارة[2].

توجيهُ الاستعارةِ التّمثيليَّة في التّركيب:

إذا حضرَ الغيظُ ولّى الخيرُ

ويصحُّ إجراءُ التّركيبِ في قولِه تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ على الاستعارة التّمثيليّة، بتشبيهِ أحوالِ النّارِ واضطرامِها على مَن فيها، بحالِ نافِرٍ مُغتاظٍ ينفُثُ زفَراتِ الغضبِ[3].

بلاغةُ التّشبيهِ البليغ في التّركيب:

يتأذّى أهلُ النّار مِنَ النّار قبلَ دخولِهم فيها

في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ على جَعْل التّغيُّظ والزّفير معمولَيْن للفِعْل: ﴿سَمِعُواْ﴾ من غير تقدير محذوفٍ يختصّ بالتّغيُّظ، كما سبق في وجه الاحتباك، فعلى هذا التّوجيه يكون في التّركيب تشبيهًا بليغًا؛ أيْ: سمعوا صوتًا تغيّظًا وزفيرًا؛ أيْ: صوتًا كالتّغيُّظ، وصوتًا كالزّفير، فحُذِف وجهُ الشّبهِ وأداةُ التّشبيه، والمقصود: الإخبارُ بأنّهم يسمعون وعيدًا شديدًا كصوت المُغتاظ

(1) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 4/ 10، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 202، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 438، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 24.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 119.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 31.

حين يصيح، وكصوت المُهتاجِ حين يَزْفِر من جَهْد التّوعُّد لِخصمِه[1]، فكأنّ "السّعير شُبِّهتْ بالإنسان الذي يُرْمَى ويتغيّظُ ويَزْفرُ، ويُحِسّ ويَشْعرُ، إذا رأى شخصًا يريدُ عقابَه، فإنّه يتغيَّظ ويزفرُ؛ والمعنى: أنّ السّعير تستعِدّ وتتهيَّأ هائجةً لَمجيء العُصاةِ إليها، ويسمعون ما يُشْبِه التّغيُّظَ والزّفير من مكانٍ بعيدٍ"[2].

بلاغةُ التّضمينِ في العاملِ:

من أعمال التّضمينِ وقايةُ النّظمِ من تصرّفاتِ الحذفِ

يصحّ إجراءُ العاملِ في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ على تضمينه معنًى يُناسِب لَفْظَي التّغيّظ والزّفير، فيُضَمَّن السّماعُ معنى الإدراكِ؛ أيّ: أدركوا لها تغيُّظًا وزفيرًا[3]، وفائدة التّضمين: إيقاعُ الكلام موجزًا على غير تقديرٍ لمحذوفٍ؛ تفاديًا لكثرة التّصرُّف في النّظم.

السّماعُ بإدراكٍ أَشدُّ وقعًا على نفسِ المُعذَّبِ من مُجرّدِ السَّمعِ

وقد يُراد بالتّضمينِ جماعُ المعنيَيْن، فهو سماعٌ بإدراكٍ، وتحرير ذلك أنّ استعمال الفعل ﴿سَمِعُواْ﴾ في هذا الموضع، فيه قصدٌ إلى معنًى مُعيَّن لا يتأتّى من دون ذِكْرِه، إلّا أنّ استعمالَه مع لَفْظَيْن يناسبان فعلَ الإدراك ضربٌ منَ التَّوسُّع في المعنى مع غاية الإيجاز، ومُؤدّاهُ أنّ للفعل دلالةَ أصلِ معناه، وبِتَطلُّبِ السّياقِ فعلًا آخَرَ يُصبحُ للمعادلة وجهان متكاملان؛ إذ يُؤدّي الفعلُ أصلَ معناه بالتّصريح به، ويقتضي معنى الفعل الذي يطلبه بالتّضمين، فكأنّ سماعَهم هاهنا سماعٌ بإدراكٍ، وهو أشدُّ وقعًا من مُجَرَّدِ السّمعِ.

دلالةُ بناء ﴿تَغَيُّظًا﴾ على صيغةِ (تَفَعُّل):

حركةُ الانفعالات متدرّجةٌ متباطِئةٌ، تبدأ هَشّةً، ثمّ تقوى، ثمّ تشتدُّ

مجيء المصدر في قوله: ﴿تَغَيُّظًا﴾ على بناء (تفعُّل) يدلّ على المطاوعة؛ كأنّهم أغاظوا النّارَ أو خزَنَتها لّما لاحوا لهما، فتغيّظا، كما يُقال: كسرتُه فتَكَسَّر تكسُّرًا، ويدلُّ على إظهار الفعل، فالغيظ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 333.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5256.
(3) السَّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 461.

حاصلٌ؛ لكنّه ظَهَرَ ولم ينكتِم؛ فصار تغيُّظًا، ويدلّ على الإظهار قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: 8]، فإنّ تميُّزَها هو انفصالُها وتقطّعُ أجزائِها، وهو وصفٌ ظاهريٌّ، وهو ناشئٌ منَ الغيظ الوجدانيّ؛ أيّ: إنّ تميُّزها يعني ظهورَ هذا الغَيظِ وخروجَه على هيئة التّميُّز والانصداع، وهذا يعني إظهارَ الغَيظِ.

في الـتّـدرُّجِ في حصولِ الغيظِ مبالغةٌ في وعيدِهم

ويدلُّ التّغيّظُ على التّدرُّج في الحصول؛ فالغَيظ انفعالٌ نفسيٌّ يطرأُ لحصول ما يُحرّض عليه، ويظهر لاطّراد دوافعه واستمرار أسبابه، وحركةُ الانفعالات مُتدرِّجةٌ مُتباطئةٌ، تبدأ هشّةً، ثمّ تقوى، ثمّ تشتدّ؛ فهي مُتناميةٌ مُتصاعِدةٌ مُتراكمة، ولا تبدأ شديدةً أبدًا، ودلالةُ التّغيّظ على التّدرّج له مناسبةٌ بديعة في النّظم؛ وهو المبالغةُ في وعيدهم، فإنّه قال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا﴾، فهي تتهيّج بالغيظ بمُجرّد رؤيتهم منَ المكان البعيد، فكيف إذا اقتربوا منها؟! فإنّها تزداد تهيُّجًا وغيظًا! فالتّدرّج في الغيظِ واضحٌ بين بُعدِهم عنها واقترابِهم منها، ويدلّ على التّدرّج قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾؛ أيّ: تتقطّع وتتصَدّع، والصَّدعُ يبدأ ساريًا مُتمَدِّدًا في أنحاء الشَّيء أوّلًا، ثمّ يتفتّت وينفصل، وهذا تدرّج.

يستحقُّ الكافرُ العنيدُ أنْ يواجَهَ بتغيّظٍ شديدٍ قويٍّ

ويدلّ أيضًا وزن (تفعّل) على التّكلّف وإيقاعِ الفعل بشِدّةٍ وقوّة؛ لأنّ مَن تكلّف شيئًا قاوَمَ في فعلِه واشتدّ في إيقاعه[1]، فالتّغيّظ يدلّ بهذا الوزن على أشدّ درجاتِ الغَيظ، وأنّه غيظٌ شديدٌ يواجَه به الكافرُ العنيد، ويدلّ أيضًا بلازم هذه الدّلالاتِ السّابقةِ على التّحوّلِ والصّيرورةِ، وهي دلالةٌ مصاحبةٌ لكلّ ما سبقَ.

دلالةُ بناء (فعيل) في ﴿وَزَفِيرًا﴾:

الزّفيرُ من أماراتِ الحياةِ وثوابتِ الخِلْقَةِ

صيغةُ (فعيل) في قوله: ﴿وَزَفِيرًا﴾ صفةٌ مُشبّهةٌ تدلُّ على ما هو سجيّةٌ مُطّرِدة، أو كالخِلْقة الثّابتة، فإنّ الزّفير من خصائص

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 333.

الأحياء ومن ثوابت الخِلْقَة فيهم، فصيغة (فعيل) دالَّةٌ على استدامة الوصف.

براعةُ المناسبةِ في توالي التّغيّظِ والزّفيرِ بعد السَّعير:

التّجاورُ يُؤذِنُ بمُراعاةِ المناسبةِ وتَمتيْنِ السَّبْكِ

في جعل التّغيّظ والزّفير من صفات النّار، وموالاةِ هذيْن الوصفيْن بعد لفظ (السّعير) في قوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾ [الفرقان: 11] مناسبةٌ بديعةٌ في السّبْكِ والتّجاور بينهما، فإنّ السّعير هو صفةُ شِدَّةٍ في النّار، توصَفُ به عند زيادة اشتعالها، وتصاعدِ لهَبها، واكتمالِ جِرمِها في الإشراق والإحراق، والتّغيّظُ والزّفيرُ وصفٌ مُطابق لهذا الاستعار؛ فمعنى أنّها صارت مسعورةً في حرقِها واشتعالِها؛ يعني: أنّها تغلي وتهيج؛ فهي كالمنفعِل بالغيظ الذي بلغ أقصى حَدٍّ في الغضب والاهتياج[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التّغيّظ والزّفير:

التّغيُّظ: انكتامٌ وانـقـبـاضٌ، والزّفيرُ: إخراجٌ وتنفيسٌ

التّغيّظ: إظهارُ الغَيظ، والغيظُ: هو الغضب الشّديد الذي تفور منه حرارةُ القلب[2]، والزّفير: النَّفس المُتردّد في مجاري الصّدر، يُخرجِه الإنسانُ ويطرحه، واستُعير للغَمّ المنفوثِ خارجًا بعدما كان مُنكتِمًا في النّفْس؛ تشبيهًا له بالنَّفَس الذي ينفثُه الإنسانُ ويُخرجُه بعدما كان داخلَ صدرِه[3]، والعلاقة بينَ التّغيُّظ والزّفير علاقةُ مقابَلَة، فأَصْلُ التّغيّظ: انكتامٌ وانقباضٌ، وأصلُ الزّفيرِ: تنفيسٌ وإخراجٌ، وهذا يشرح المناسبةَ البديعة في اقترانهما وتواليهما في قوله: ﴿تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾، فالتغيُّظ هو ظهور ملامح هذا الانكتام والضّغط الشّديد منَ الغضب والاعتلاج، غيرَ أنّه ما زال محبوسًا،

(1) السَّمين، عُمدةُ الحُفّاظ: (سعر).
(2) الرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (غيظ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (زفر).

والزّفير هو فكّ هذا الانكتام بالتّنفيس والنّفْث والتّخلّص، فالزّفير هو فُرجَةُ التّغيُّظ؛ ولذا جاء بعدَه، ولا يخفى حينَئِذٍ كونُ الزّفيرِ خُلاصةَ العذابِ، وكنايةً عن تصاعد شِدّته وانبعاث حُمَمِه.

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ [الفرقان 13 - 14]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

منازلُ أهلِ الانحرافِ منازلُ خِزيٍ وإهانةٍ

لمّا ذُكِر في الآية السّابقة حالُ النّار معهم منَ التّغيّظ والزّفير من مكانٍ بعيد قبلَ أن يتلبّسوا بها؛ انتقل في هذه الآية إلى بيان حالهم عند إقحامهم فيها، واستقرارهم في مكانٍ ضيّقٍ منها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُلۡقُواْ﴾: (لقي) أصلٌ يدلّ على توافي شيئَيْن، ومنه المُلاقاة بين جانبَيْن أو طَرفَيْن، ويدلّ على طرح شيءٍ، ومنه الإلقاء، وهو طرحُ الشّيءِ ونَبْذُه[1]، والإلقاءُ بمعنى الطّرحِ والرّمي يعود كذلك إلى المعنى الأوّل؛ لأنّ الإلقاءَ للشّيء بمعنى طرحِهِ ورَميِهِ يجعلُه موافيًا ومُلاقيًا ومُقابلًا للمَوضعِ الذي طُرِح فيه.

2) ﴿ضَيِّقٗا﴾: (ضيق) الضَّيْق والضّيق - بالفتح والكسر - ضِدّ السَّعة، وغلب استعمالُ الضّيْقةِ في الفقر والبُخل والغَمّ ونحوِ ذلك[2]، والمكان الضَّيِّقُ: ضِدّ الواسع، وضاق الصَّدرُ: انقبضَ وخلا من فُسْحةِ السّرورِ، والأوّلُ ضيقٌ مادّيٌّ، والثّاني ضيقٌ معنويٌّ.

3) ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: (قرن) أصلٌ يدلُّ على جمع شيءٍ إلى شيءٍ، ومنه القِران والقَرَن، وهو الحَبْلُ الذي يُقرَن به شيئان[3]، والاقْترانُ كالازدواج، في كونه اجتماعَ شيئَيْن أو أشياءَ في معنًى منَ المعاني[4]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(2) السَّمين، عُمدةُ الحُفَّاظ: (ضيق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرن).
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (قرن).

وقوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ أيْ: مجتمعين في قَرَن - أيْ: حبل - مُقيَّدين، فالتَّشديد فيه للتَّكثير[1].

4) ﴿ثُبُورًا﴾: (ثبر) الثُّبور: الهلاكُ، وأصله: المنعُ منَ الخير، يُقال: ما ثَبَرك عن كذا؟ أيْ: ما صرفَكَ ومنعَكَ، ولا شَكّ أنّ الممنوع منَ الخير هالكٌ، وثبر الرَّجلُ: ذهبَ عقلُه؛ لأنّ مَن يَفقِدُ عقلَه يهلِكُ، ومنه المُثابرة على الشّيءِ: المواظَبة؛ لأنّ المواظَبة عليه تَصرِفُكَ وتمنعُكَ عمّا سِواه[2].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مَن نَبَذَ الحقَّ وأولياءَه نُبِذَ في النّارِ وطُرِحَ

يُبيّن الجليلُ سبحانه خبرَ أولئك المشركين الذين كانوا يقيسون النّبوّة بالمال والجاه في قولهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ [الفرقان: 8]، وأنّهم سيُطرحون منبوذين منَ المكان الضّيّق في النّار، حتّى يغيبوا في جوفها وباطنها، وسيُفعَل بهم هذا الإلقاء، وهم مجموعون إلى أشباههم الذين قلّدوهم وأضلّوهم منَ الجنّ والإنس في قَرَنٍ واحدٍ ربْطًا وتصفيدًا؛ فإذا كانوا في هذا الموضع الصَّعب منَ العذاب دَعَوا على أنفسهم بالثّبور الذي يُفنيهم ويُريحُهم، فأُجيبوا بما يزيد يأسَهم ويُضاعِف ألَمَهم: لا تدعوا مَرّةً واحدةً، فثُبورٌ واحدٌ لن يُسعفَكم، وادْعوا ثُبورًا كثيرًا في تكراره، وكثيرًا لا حَدّ لكثرته؛ لأنّ سببَه من دوام العذاب لن يزولَ عنكم؛ فلن يُجديَ دعاؤكم في شيء، ولن يُغنيَ عنكم شيئًا[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ﴾ ممّا قبلها:

الجمعُ بين وصفِ حالِ جهنّم معهم، وحالِهم فيها

جملة: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ﴾ معطوفةٌ على جُملة: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾؛ ليَجْمَعَ

(1) السَّمين، عُمدةُ الحُفَّاظ: (قرن).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسَّمين، عُمدةُ الحُفَّاظ: (ثبر).

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 206، 207.

بين وصْفِ مُلاقاتِها لهم، ووصفِ إلقائِهم فيها[1]، ويَدْمُجَ بين صورة توصيف ضجيج أهلِ النّار من قوله: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾، ووصف داخل جهنّم بقوله: ﴿مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾، ووصفِ حالِ المشركين فيها بقوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ تَفَنُّنًا في أسلوب الكلام[2].

دلالةُ الفعلِ ﴿أُلۡقُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الإبهامُ وعدمُ الوضوحِ من جوالبِ الخَوفِ

جاء التَّعبيرُ بفعلِ الإلقاءِ بصيغةِ البناءِ لما لم يُسمّ فاعلُه في قوله: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا﴾؛ للدّلالة على الإكراهِ والإهانةِ، فهم لم يدخلوا مختارين؛ بل أُلْقوا فيها إلقاءً كما تُلقَى الأشياء المُبْتَذَلَة[3] بأمارة أصل فعلِ الإلقاء الدّالِّ على الطّرح والنَّبذِ ورَمي الشّيء[4]، وبناءُ الفعلِ لغيرِ المعلوم ترهيبًا منَ الفاعلِ وتخويفًا من بطشِه وشِدّتِه، وهم خَزنةُ النّارِ الغِلاظُ الشِّدّادُ على أهل الجحيم، فإنّ المُبْهَمَ مَخوّف كما قال تعالى في النّار: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التّحريم: 6].

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ بالإلقاءِ:

طرحُ الشّيءِ وإلقاؤه من مياسيرِ الأعمالِ وأمارةِ هوانِها

التَّعبيرُ بالإلقاءِ في قوله: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا﴾ كنايةٌ عنِ الإهانة والإجبارِ للمفعولِ، وعن يُسْر ذلك في تحصيلِه منَ الفاعلِ؛ لأنّ الإلقاءَ من مياسيرِ الأفعالِ، وهو علامةٌ على اقتدارِ المُلْقي، وعجْزِ المُلْقَى عنِ المقاومةِ والإرادة[5].

نُكْتَةُ التّعديَةِ بـ (مِن) دونَ غيرِه:

العذابُ يحصلُ من مبادئِ مَواقِعِه

لم يُقلْ في السّياقِ الكريم: (وإذا ألقوا فيها مكانا)؛ بل قال: ﴿أُلۡقُواْ مِنۡهَا﴾؛ ليَدُلّ على أنّ أهوال العذاب التي تجعلهم يتمنَّون الثّبورَ والهلاك

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 354.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 333 - 334.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5257.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 354، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 334.

كائنةٌ بمُجرّد مُلاقاتهم مبادئ مواقعِ العذابِ، فلا يحتاجون أن يتغَلْغلوا في باطنِ النّارِ أو يغيبوا في جوفها؛ بل يكفي أن يُلْقَوا منها؛ أيْ: من أيِّ موضعٍ يكون مبدأ إلقائهم منه، فالتّعدية بحرفِ الابتداءِ دلّتْ على ثلاثةِ أمورٍ؛ **الأوّل**: أنّ هذا الإلقاءَ المشروطَ هو مبدأ المقاماتِ في العذابِ التي يتحقّقُ بها الجوابُ في: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾، فكيف بما بعد المبدأ منَ المراحلِ؟! **الثّاني**: أنّ شِدّةَ العذابِ حاصلةٌ منَ النّارِ ولو لم تكن محيطةً بأهلها؛ بل بمُجَرّدِ الاقترابِ منها أو ملاقاة مكانِها، فكيف وهي محيطةٌ بالكافرين؟! **الثّالث**: أنّ إلقاءَهم يبدأ منها ثمّ ينتهي فيها، ولذا كانت محيطةً بهم، فهذا الإلقاء المَذكور في: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا﴾ هو مُقدَّمةُ الإحاطةِ في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤﴾ [العنكبوت: 54].

دلالةُ نزعِ الخافضِ:

يتبوّأُ الكافِرُ مقعدَه في النّارِ فيَحوزه كلَّه

انتصب ﴿مَكَانٗا﴾ على نزعِ الخافضِ في قولِه: ﴿أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا﴾، والتّقدير: (أُلقوا في مكانٍ ضيّقٍ)، وهو إسقاطٌ سماعيٌّ لا قياسيٌّ، ولم يأتِ النَّظمُ على إثباتِ الجارّ؛ للدّلالةِ على تمكُّن الفعل منَ الظّرف في إيقاعه عليه؛ ليَدُلّ على الإغراقِ في المعنى؛ فكأنّ إلقاءَهم حاصلٌ في المكانِ كلّه لا في جُزءٍ منه، وهو من تصاوير شِدّةِ العذابِ[1].

نُكْتَةُ وصفِ المكانِ بالضيّقِ:

في اقترانِ العذابِ بالضّيقِ شِدّتان

وصفُ المكانِ بالضّيّق في قولِه: ﴿مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾ أفادَ زيادةَ الشِّدَّة؛ فاجتمع عليهم شِدَّتان: شِدَّةُ العذابِ، وشِدّةُ ضيقِ المكانِ، فكلّما ضاق عليهم المكانُ كان العذاب أشدّ، كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ [النّبأ: 30]، وهو دليلٌ على ضِدّه المُقابلِ الثّابت بطريق اللّزوم؛ فإنّ السّعة كما تستلزم الانبساطَ والانشراح، فإنّ الضّيق يستلزم الانقباض والانخذاء[2].

---

(1) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 315.

(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 8/ 11، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 206.

بلاغةُ الكنايةِ في الوصف ﴿ضَيِّقًا﴾:

ضيقُ الأماكنِ يستلزمُ ضيقَ النّفوسِ

في وصفِ المكانِ بالضّيقِ كنايةٌ عن لازِمِهِ من تمام الوحشةِ، وزيادةِ الكربِ، والعجزِ عنِ التّململ والتّفلُّت؛ فإنّ ضيق الأماكن يُؤدّي إلى ضيق النّفوس والاكتراب، والاغتمام والجَزَع والعَجْز، وهو كنايةٌ أيضًا عن تراصّهم بعضِهم فوقَ بعض؛ لأنّ ضيق الموضع يستلزم تكدّسَهم، وكنايةٌ عنِ الإغلاق والإطباق، فإنّ المكان إذا أُغلِق ضاق، والإغلاق وصفٌ من أوصاف النّارِ، يستلزم أن تَضيق بأهلها، كما في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾ [البلد: 20]، وكلّ هذه الكنايات مندمِجةٌ في زيادة الشِّدّة وتناهي البلاءِ[1].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿ضَيِّقًا﴾:

تواردُ القراءاتِ على المدلولِ الواحدِ لتأكيدِ المعنى وتنويع المبنى

قرأ الجماعة: ﴿ضَيِّقًا﴾ بتشديد الياء، وقرأ ابن كثير ﴿ضَيۡقًا﴾ بسكون الياء، وكلاهما للمبالغة في الوصف، مثل: (مَيّت) و(مَيْت)؛ لأنّ الضَّيِّقَ بالتّشديد صيغةُ ديمومةٍ وثُبوت تُفيد تمكُّنَ الوصفِ منَ الموصوف، وهو صفةٌ مُشتقّة مُشبَّهة باسم الفاعل، والضَّيْق بالسُّكون وصْفٌ بالمصدر، والوصف بالمصادر للمبالغة كأنّ الموصوف هو نفْس الوصف وعيْنُه[2].

توجيهُ المُتشابهِ اللّفظيِّ في تباينِ البناءِ الصّرفيِّ:

الضّيقُ من طبائعِ العذابِ وهيئةٌ لازمةٌ للنّارِ

جاء الوصفُ بالضّيق في قوله: ﴿مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾ على وزن (فَيْعِل)، وكذلك في قوله: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ [الأنعام: 125] بخلاف سورة هود في قوله: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: 12] مع أنّه في المواضع الثّلاثة هو الوصف من ضاق يضيق، فهو ضَيِّق، وتوجيه ذلك أنّ الصِّفة المُشَبّهة باسم الفاعل إن قُصِد بها الحدوثُ والتّجدّد والطّروءُ جاءت

---

(1) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 267، والشّوكانيُّ، فتح القدير: 4/ 75، والمكّيّ النّاصريّ، التّيسير في أحاديث التّفسير: 4/ 308، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 27، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 179.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 262، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 343، وصافي، الجدول: 4/ 279، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 191.

على وزن (فاعل)، وإن لم يقصد به الحدوثُ والتّجدّد؛ بل الثّبوت والدّيمومة بقيَ على أصله، فـ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: 12] جاء على وزن اسم الفاعل؛ ليدلَّ على أنّ الوصف حالٌ عارضةٌ لا ثابتة، وأنّه وصفٌ غيرُ مستمرٍّ للموصوف، بخلاف ﴿صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ [الأنعام: 125] ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ فجاء صفةً مُشبّهةً؛ ليدلَّ على ثبوت الوصف وعدم تغيُّره عنِ الموصوف، وأيضًا: اسم الفاعل ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ [هود: 12] يصِحّ إطلاقُه على الموصوف قبلَ الاتّصاف به أو بعد الاتّصاف به؛ أيّ: في غير وقتِ عدمِ التّلبُّس بالصّفة، فيصِحّ هو ضائق أمس أو ضائق غدًا، وهذا مبنيٌّ على ملاحظة الطّروء وعدم الثّبات، وأمّا الصفة المُشبَّهة ﴿ضَيِّقًا﴾ فلا يصِحّ إطلاقها إلّا في حالة ملابسةِ الموصوف للوصف، ولا يخفى ما في ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ من ثبوت نسبة الوصف للموصوف، كما تثبت الطّبائع وركائزُ الصّفات لأصحابها، فالصّفة ركيزةٌ في الموصوفِ لا تتحوَّل عنه(1).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾:

كلُّ قرينٍ بقرينِهِ مُلْتَحِقٌ

التَّعبيرُ بمادّةِ التّقرينِ في قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾(2)؛ لأنّ كلّ كافرٍ يُقرَن بشيطانه الذي أغواه، فيُربَط به حقيقةً في العذاب، كما كان مربوطًا باتّباعه في الدُّنيا، وكان الشّيطانُ له قرينًا لا ينفكّ عنِ الوَسْوَسة له(3)، فدَلَّ به على أنّ الجزاء من جنس العمل، مع ما في اللّفظ من إشارةٍ إلى حالة المُلازمة والاقتران بينَ الأتباع والمتبوعين في الغَواية، وما يكون منِ استمرار تلك الحالة باشتراكهم في هيئة الاقتران الحِسّيّ في إذاقة العذاب؛ إذِ التّقرينُ هو جمعُ شيءٍ إلى شيءٍ في قَرَن، وهو الحَبل، وهو آلةُ الرّبط التي ينعقدون بها بعضُهم إلى بعضٍ(4).

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 28، والسّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 67.
(2) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 4/ 10.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 202.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 354.

دلالةُ التّضعيفِ في ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾:

التّضعيفُ يُفيدُ الشِّدّةَ في الفعلِ أو الوصفِ

لفظ ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ منَ (التّقرين) على زِنَةِ (التّفعيل)؛ للدّلالة على الشِّدّة في الفعل، وإحكام التّصفيد وقوّة الأغلال، فاللّفظ حالٌ من ضمير ﴿أُلۡقُوا۟﴾؛ أيّ: إنّ اقترانَ بعضِهم ببعض كحال الأسرى والمساجين حين يُقرَن عددٌ منهم في وثاقٍ واحدٍ[1]، فلا فكاكَ ولا مرونةَ ولا حركةَ إراديّة لهم، ولا راحةَ.

دلالةُ التّعبيرِ عنِ التّنادي بالدّعاءِ:

الآخرةُ دارُ مثوبةٍ وجــزاءٍ، لا دارُ عملٍ ورجاءٍ

عبّر عن تناديهم بالويل والثّبور بلفظ الدّعاء في قوله: ﴿دَعَوۡا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾؛ لأنّه لم يكن نداءً عاديًّا؛ بل كان دعاءً منهم على أنفسهم؛ فهو أشبه بدعاء العبادة الذي يشتمل على التّضرّع والتّمحُّض في الاستغاثة والاستذلال في طلب النّجدة، وهو شبيهٌ بالدّعاء التّعبّديّ؛ لأنّه صدر منهم على غير شَكٍّ وشِركٍ، وهو شَبيهٌ به لا نفسُه؛ لأنّهم في الآخرة، وهي دارُ جَزاءٍ لا تَعبُّد، ولمّا كان معنى الدّعاء: النّداء بأعلى الصّوت، فإنّ صدوره منهم كان بصيغة النّدبة: واثُبوراه[2].

فائدةُ إقحامِ الإشارةِ بينَ العاملِ ومعمولِهِ:

الوعيـدُ عميقٌ في ألَمِه، بعيدٌ في مواقعِهِ

جاء إقحامُ الإشارةِ بينَ العاملِ ومعمولِهِ في قولِه: ﴿دَعَوۡا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ لتأكيد نسبةِ دعائهم إلى موقعهم منَ العذاب؛ أيّ: دعاؤهم بالثّبور مُختصٌّ بهذا الإبعاد المكانيّ المَذكور، أو أنّ الدّعاء بالثّبور حقيقٌ بأن يُشار إلى محلّه بالبُعد؛ لأنّ آلام الوعيد عميقةٌ في معناها، وبعيدةٌ في مواقعها وسجونها؛ فاسمُ الإشارةِ في موقعه التّركيبيّ الوسيط بينَ العامل ومعموله يُشير إلى أنّ المُشار إليه بـ ﴿هُنَالِكَ﴾ والمقصودُ به محلُّ العذاب ومكانُه - هو سببُ دعائهم بالثّبور، فمكانُهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 334.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 334.

البعيدُ استلزمَ دعاءَهم بالإهلاك والإفناء والإبعاد[1]، واسمُ الإشارة للمكان بأداة البُعد تهويلٌ لشأن المكان والفاتٌ إليه، فيكون زيادةً في التّرهيب والإرعاب؛ لأنّ فيه تكرارًا للنّصّ على مكان العذاب؛ ليُلْحَظَ ويُستحضَر، فباستحضارِ الأماكن تُستحضَر أحوالُ القاطنين فيها، كأنّه قيل: دَعَوْا في ذلك المكان الهائلِ والحالةِ الفظيعة[2].

بلاغةُ الكناياتِ في الدّعاءِ بالثّبورِ:

إنّما يدعو على نفسِهِ البئيسِ

في الدّعاء على أنفسهم بالثّبورِ الذي هو الاستئصال بالهلاك كنايةٌ عن لوازمَ عديدةٍ، فهو **أوّلًا:** كنايةٌ عن يأسهم الشّديد ويقينِهم في عدم النّجاة منَ العذاب، **وثانيًا:** كنايةٌ عن بشاعة العذاب الذي يجعل صاحبَه يتمنّى الفناءَ ويدعو به لنفسه،؛ أيْ: تَمنّوا حلولَ الهلاك؛ فنادَوه كما يُنادَى مَن يُطلب حضورُه، أو ندبوه كما يُندَب مَن يُتَحسّر على فقده؛ أيْ: تَمنّوا الهلاكَ للاستراحة من فظيع العذاب، **وثالثًا:** كنايةٌ عن حسرتهم على أنفسهم، وفواتِ الأوان عنِ استدراك ما فرّطوا فيه وأسرفوا، **ورابعًا:** كنايةٌ عن طول مقامِهم وتأبُّدهم فيه[3].

دلالةُ إيثارِ المصدرِ ﴿ثُبُورًا﴾ على زِنَةِ (فُعول):

أعظمُ رجاءِ أهلِ النّارِ الثّبورُ

التَّعبير بالمصدر ﴿ثُبُورًا﴾ على زِنَة (فُعول) للدّلالة على حقيقة الفعل؛ مبالغةً منهم في إرادةِ تقحُّم الفناءِ والاستغراقِ في غياباتِ الموتِ، واستُعملَ الثّبورُ في الآيةِ دونَ الهلاك؛ للدّلالة على أنّهم يقصدون الفَناءَ، وهو الهلاكُ المُستدامُ الذي يصرفِهم عن الشّعورِ أبدًا، كأنّهم طلبوا هلاكًا يواظبون فيه على الرُّقاد المستمرِّ، فلا ينهضون بعدَه قطّ؛ فلأجل تلك المعاني الخاصّة عُبِّر بالثّبور دونَ غيره، كأنّهم طلبوا هلاكًا مخصوصًا؛ وهو الثّبور.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 2527.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 206.

(3) مكّيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5186، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 334، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 2527، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10377.

بلاغةُ المَجازِ في دعائِهم الثّبور:

اسْتُعملَ الدّعاءُ في مُناداتهمُ بالثّبور في: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ في معنى التّمنّي للهلاك، على طريقةِ المجازِ المُرسلِ بعلاقةِ الإطلاقِ والتّقييدِ، ودعاءُ الثّبور استعارةٌ مَكنيّةٌ؛ إذ نُزّل الثّبور منزلةَ شخصٍ يُطلبُ حضورُه ويُرتَجى إقبالُه، فشُبّه الثُّبور به في صحّة ندائه ودُعائه.

الـيـأسُ قـريـنُ الهلاكِ

موقع جملة: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ ممّا قبلها:

جملة ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ وقع جوابًا لسؤالٍ مُقدَّرٍ نشأ ممّا قبلَه، كأنّه لمّا قال: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ سأل سائلٌ: فماذا يُقال لهم عند دعائهم المَذكور؟ فأُجيبَ أنّه يُقال لهم: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا﴾، وعلى هذا يكون بينَ الجُملتيْن شِبهُ كمالِ اتّصال، ووقوعُها استئنافًا بيانيًّا هو عِلّة فصلها، أو الجملةُ مقولةٌ لقولٍ محذوف، تقديره: (فيُقال لهم)، وهذا القول المحذوف معطوفٌ على قوله: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾، أو هذا المحذوف منصوب على الحاليّة من فاعل ﴿دَعَوۡاْ﴾؛ أيْ: (دعوا حال كونهم مقولًا لهم: لا تدعوا اليوم)[1].

النّهيُ عن قليلٍ غيرِ حاصل، إلى كثيرٍ غيرِ ممكِن، مـن مـؤكّـدات التّهكّم

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ في جملةِ النّهي:

يصحّ إجراءُ التّركيبِ في جملةِ النّهي في قوله: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ على أنّه مقولٌ تمثيليٌّ لا حقيقيٌّ، كأنّه شُبِّه حالُهم بحال مَن يُقال له ذلك من غير أن يكون هناك قولٌ ولا خطابٌ؛ أيْ: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ حالَ كونِهم جديرين بأنْ يُقال لهم: لا تدعوا ثبورًا واحدًا[2].

التّنبيهُ بإمكانِ الإجـــراءِ، مع تـعـذُّره عـلى ما كـان ينبغي لو انتفى العُذْر

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

التَّعبيرُ بلفظِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قوله: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ وتقييد النّهي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 206، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 677، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 317.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 206.

استنباهُ المُخاطَبِ بحيثيّةِ الوقتِ لتحسيرِه

والأمر به في قوله: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ مع عدمِ خفاءِ أنّ ذلك الوعيد لا يكون إلّا في هذا اليوم الأُخرويّ الموعود - فيه مزيدُ تهويلٍ وتفظيعٍ، وتنبيهٍ على أنّه ليس كسائر الأيام المعهودة التي ينتهي عذابُها بثبورٍ واحدٍ، فهو تعظيمٌ لهذا اليوم وتمييزٌ لخصيصتِهِ في انتفاءِ الغايةِ عن أهوالِهِ، وفيه تعريضٌ بهم؛ لتذكيرِهم بسببِ عذابِهم، وهو التّكذيب بهذا اليوم، فلولا أنّهم كذّبوا به ما أصابهم ما هم فيه، ففي ذِكْرِ اليومِ زيادةُ إيلامٍ وتبكيتٍ لهم، وهو من بابِ تذكيرِ الجاني بسببِ هلاكه؛ إغاظةً وتحسيرًا له[1].

دلالةُ تقييدِ المَنهيِّ عنه بالوصفِ: ﴿وَٰحِدٗا﴾:

طلبُ الاستكثارِ مِنَ العذابِ استخفافٌ بأوجاعِ المُعذَّبين

تقييدُ معمولِ المَنْهيِّ عنه بوصفِ الوحدةِ في قولِهِ: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا﴾ يدلّ على أنّ النّهي يُراد به الوحدةُ العدديّةُ، لا الماهيّة الجنسيّة كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النحل: 51]، فهو لا ينهى عن أصل الاتّخاذ؛ بل عنِ الثّنائيّة، ويدلُّ على إرادة العدديّة لا الجنسيّةِ المقابلُ له قولُه: ﴿ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾[2].

بلاغةُ الكناياتِ في التّركيبِ:

مَن يدخلِ النّارَ لا ينتهي بلاؤُه

في خطابِهم بقوله: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ كناياتٌ عديدةٌ مِنَ الإقناطِ والتّيئيسِ لهم مِن انقطاعِ العذابِ، ويزيد مقدارُ هذا التّقنيطِ بزيادةِ سببِهِ من عدمِ الجوابِ عليهم، وكنايةٌ عن عدم تناهي البلاءِ، كأنّه يُقال لهم: ادعوا فإنّه لا غايةَ لهلاكِكم؛ لأنّ هلاكَكُم أكبرُ من أن تدعوا مَرَّةً واحدةً، وهذا كنايةٌ عن عدم الانقطاع ودوام تواتر التّعذيب في كلّ وقت، واستمرارِ تنويعه وإحداثه، والتّركيب كنايةٌ أيضًا عن نفي أن يحدث بسبب ذلك القول خِفّةٌ واستراحةٌ؛ فإنّ المُعذَّبَ إذا صاحَ وبكى وجَدَ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 434.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 34.

بسبب بكائِه واستغاثتِه راحةً، ولا راحةَ هنا بتكثّر الاستغاثةِ بإرادةِ الفناءِ[1]، وهو كنايةٌ أيضًا عنِ التهكُّم بهم واستنزافهم، كأنّه يقول لهم: ادعوا ثبورًا كثيرًا لا غايةَ لكثرتِه لتَخْلُصوا به، وأنّى بالهلاك الكثير؛ فأفادت الكثرةُ عدمَ حصولِ الثّبور المرجوّ، وفي هذا الوجه مَجازٌ مُرسلٌ في جعل التّعديد والكثرة ملزومًا لعدم الحصول[2].

الخطابُ الطّلبيُّ يخرجُ عن حقيقتِهِ بانتفاءِ قصدِ التّحصيل عنه

دلالةُ المجازِ في النّهيِ والأمرِ:

النّهي في قوله: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا﴾، والأمر في قوله: ﴿وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾؛ للإهانة والتّحقير، وزيادةِ الإيجاع والتّحسير، وهو من باب المَجاز المُرسَل علاقتُه: الإطلاقُ والتّقييدُ، ودليلُ خروجِ النّهي والأمر عن حقيقتهما: أنّه لا يترتّب عليه فائدةٌ ولا جوابٌ، ولا طائلَ من خطابهم به إلّا التّهكّمُ والإيلامُ، ويُؤيّده قولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ [إبراهيم: 21]، وقوله: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطّور: 16][3].

لا شيءَ يكفي في النّارِ، ولا شيءَ يَكفُّ عنها

دلالةُ التّعبيرِ عن اسمِ الفاعلِ بالمصدرِ:

الثّبورُ في قوله: ﴿وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ المُراد به المُهلِك؛ أي: الشّيءُ المُثْبِرُ المُميت، فعُبّر عنه بلفظ المصدر ﴿ثُبُورٗا﴾ وهو الهلاك؛ مجازًا للمبالغة في الاستغاثة، كأنّه لن يكفيهم في إراحتهم ممّا هم فيه سببُ الهلاكِ والموتِ؛ بل يحتاجون إلى جنس الهلاك كلّه بأنواعه وأفراده، حتّى يَنْجَعَ في إفنائهم وقطعِ العذاب عنهم، وإطلاقُ المصدر وإرادةُ اسم الفاعلِ مجازٌ مُرسلٌ، لعلاقةِ التّعلّق الاشتقاقيّ[4].

تَـلـتَـمَـسُ في الـدّعـاءِ حقائقُ الأشياءِ

نُكْتَةُ الإفرادِ في لفظِ الثّبورِ:

جاء لفظُ ﴿ثُبُورٗا﴾ على صيغةِ الإفرادِ؛ لكونه مصدرًا يقع في

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 224.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 434، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 334.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 34.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 34.

القليلِ والكثيرِ، فيُفيد الجمعيّةَ والجنسيّةَ بما يُغني عن جَمعه والتّغيير في بنائِهِ، والتّعبيرُ بالمصدرِ على بناءِ الإفرادِ هو الأصلُ والأبلغُ؛ لأنّه يُفيد حقيقةَ المعنى المستوعبةَ لخصائص أفراده، والمصادِر لا تُجْمَع، وإنّما يُعبَّر عن معنى الجَمعِ بالوصفِ، كما يُقال: قعدتُ قُعودًا طويلًا، وضربتُه ضَربًا كثيرًا، فكأنّ المعنى: ادّعوا بالثّبور دعاءً كثيرًا، لأنَّ حبْسَكم على العذابِ سيدوم[1].

معنى التّنكيرِ في: ﴿ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾:

التّنكيرُ في الصّفةِ والموصوفِ في قولِهِ: ﴿ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ للعموم والشّمولِ والتّهويلِ والتّعظيم، كأنّه قيل: ثبورًا كثيرًا لا يحصرُه الإحصاءُ ولا آخِرَ له[2]، وهلاكًا مُتتاليًا شديدًا، لا قصورَ فيه.

دلالةُ تقييدِ الثّبورِ بالوصفِ: ﴿كَثِيرٗا﴾:

تكرارُ الشّيءِ نفسِهِ تكثيرٌ له

وَصْفُ الثّبورِ المَدعوّ بـ﴿كَثِيرٗا﴾ باعتبارِ تكريرِ الدّعاءِ به، والثّبورُ واحدٌ في جنسِهِ لا يتعدّد، فالكثرةُ باعتبارِ ترديدِهِ وتكريرِهِ، وهو كنايةٌ عن عدمِ حصولِ الثّبورِ؛ لأنّ انتهاءَ النّداءِ يكون بحضورِ المُنادَى، أو هو يأسٌ يقتضي تكريرَ التّمنّي أوِ التّحسّرِ[3]، أو وصف الكثرةِ باعتبارِ كثرتِهِ في أنواعِهِ وأفرادِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ٥٨﴾ [ص: 58]، فكأنّه ردَّ عليهم بخلافِ مقصودِهِم تهكّمًا بهم؛ أيّ: لا تسألوا الهلاكَ الذي يُميتكم ويُريحكُم، فهذا هلاكٌ واحدٌ لا وجودَ له؛ بل اسألوا الثُّبورَ الكثيرةَ أنواعُه في العذاب والجحيم، بلا راحةٍ لكم ولا انقطاعٍ له.

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 9، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ثبر).

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 355.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 334.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان 15 - 16]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الاختيارُ بينَ العذابِ الأليمِ والنّعيمِ المُقيمِ، وتأكيدُ حسرةِ الهالكين

لمّا فصّل في الآيات السّابقة أحوالَ أهلِ السَّعير حين يواجهون الجحيم - انتقل في هذا الخطاب إلى مُساءلة العقول المستقيمة؛ لِتختار بين ذلك الجزاء الأليم، وجزاء النّعيم بجنّة الخُلد التي وعَدَها المتّقين، أيّهما أحرى بالاختيار والإيثار، والاستمساك وعدم التّفريط؟!

وثمّةَ مناسبةٌ ثانية: وهي أنّه ﷻ لمّا وصف حالَ العقابِ المُعدّ للمُكذّبين بالسّاعة، أتبعَه بما يُؤكّد حسرتَهم وندامتَهم وعظيمَ خُسرانِهم(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَزَآءً﴾: (جزي) أصلٌ يدلّ على الغَناء والكفاية في قيام الشّيء مقامَ شيءٍ يُقابله، والجزاء: ما فيه الكفاية منَ المقابلة، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، ولم يجئ في القرآن إلّا (جَزَى جزاءً) دون (جازى مُجازاةً)، وذاك أنّ المُجازاة هي المُكافأة، وهي المقابلة الدّائرة من كلّ واحد منَ الطّرفيْن، والمكافأة هي: مقابلةُ نعمةٍ بنعمةٍ هي كُفؤها، ونعمةُ اللّه تتعالى عن ذلك، ولهذا لا يُستعمل لفظُ المكافأة في اللّه ﷻ؛ لامتناع المُفاعلة في ذلك بين اللّه وعبيده(2).

2) ﴿وَمَصِيرًا﴾: (صير): (المصير): مصدر ميميّ على غير قياس للفعل (صار يصير) بمعنى: رجع تحوّلًا عن غير ما كان

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 439.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي)، والرّاغب، المُفردات: (جزا).

عليه من قبل، وهو على زِنة (مَفعِل) بكسر العين[1]، و(المصير) من (صير) وهو أصلٌ يدلّ على المآل والمُنتَهَى والمَرجع، من ذلك: صار يصير صَيرًا وصَيرورة[2]، إذا تنقّل من حالٍ إلى حالٍ أُخرى[3]، ولذا كان المصير هو منتهى التّصيير، وهو التّنقيل في أطوارٍ وأحوالٍ ينتهي إلى غايةٍ تجب أن تكون غيرَ حالةِ الشّيءِ الأولى، بخلاف (المرجِع)[4]، وهذه الغاية هي المُسمّاة بالمصير، وهي التي يحصل معها الجزاءُ والخُلود، ويَصِحّ أن يكون ﴿وَمَصِيرًا﴾ اسمًا للمكان على القياس؛ أيْ: كانت الجنّة جزاءً لهم ومكانًا يصيرون إليه، ويستقرّون فيه[5].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

سبحانَ من يَدلُّ على الأشياءِ بأضدادِها

يأمر اللّهُ نبيَّه ﷺ قائلًا له: قل لهم أيّها الرّسولُ الحفيظ على أخبار الغيب: أذلكَ المَذكور مِنَ العذاب الذي وُصِف لكم خيرٌ أم جنّة الخُلد التي يدوم نعيمُها ولا ينقطع أبدًا؟ وهي التي وعد اللّهُ المتّقين من عباده المؤمنين أن تكون لهم ثوابًا، ومأوًى يصيرون إليه يوم القيامة، وسيكون لهم في هذه الجنّة ما يشاؤون من النّعيم، كان ذلك على اللّه وعدًا، يسأله إيّاه عبادُه المُتّقون، ووَعْدُ اللّهِ مُتحقِّقٌ، فهو لا يُخلِف الميعادَ[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ ممّا قبلها:

الحواراتُ تقومُ على فصلِ الجُمَلِ

جملة: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ مُستأنفةٌ في معنى التَّفريع ممّا قبلها؛

(1) صافي، الجدول: 1/ 268.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صير).
(3) الرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صير).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/ 157.
(5) السَّمين، الدّرّ المَصون: 2/ 113.
(6) مركز تفسير للدّراسات القرآنيّة، المختصر في تفسير القرآن، ص: 361.

أيْ: إذا تقرّر لديكَ حالُهم في النّار وحالُها منهم؛ فقل لهم: أيّ الفريقيْن خيرٌ مقامًا؟! وفُصِلتِ الجملةُ لغرض استقلالها في ابتداء المُحاوَرَة وتجديد الخطاب[1].

الـغـيـبُ من توقيفاتِ الوحي لا من عنديّاتِ الرّسولِ

دلالةُ تصديرِ الخطابِ بفعلِ القول:

صُدِّرَ الخطابُ بفعلِ القولِ: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾؛ للتّنبيهِ على أنّ المُفاصَلةَ المذكورةَ بينَ المقامَيْن من توقيفاتِ الوحي لا من عِنديّات الرّسول ﷺ، واحتاج الخطابُ بذلك أنْ يُؤمَر به بفعل القول؛ لأهمّيّة مضمونه؛ إذ هو في الجزاء والمصير، وكونه من صفحات الغيب، ولِوروده كفصل الخطاب الخاتم لأخبار الوعيد المُفْحِم لمُهاترات الكافرين واعتراضاتهم، فكان البَدءُ بفعل القول أمكن في التّذكير وأنهضَ على استجلاء الحقيقة، بتجنيب الرّسولِ عن محلّ النّزاع وحَيّز الخصومة؛ لأنّ كلمة ﴿قُلۡ﴾ معناها أنّ جهةً أعلى منَ الرّسول تُخاطبهم، فلا عِبرةَ بِعراكِهم معه في قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: 7]، وقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: 7]، إلى آخِر الأمثال التي ضربوها، فأبْعَدوا بها عن عَيْنِ الحقيقة.

الاستفهامُ بقصدِ الاستنباهِ والاعتبارِ

معنى الاستفهامِ في: ﴿أَذَٰلِكَ﴾:

الاستفهامُ في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ للتّقريع والتّهكُّم، فهو مُستعمَل في غير حقيقته، على طريقة المَجاز المُرسَل بعلاقة الإطلاقِ والتّقييد، وإفادةُ التّهكّم والتّقريع على اعتبارِ الظّاهرِ منَ السّياقِ في كونِ الآياتِ خطابًا للكافرين، ويحتمل أن يكون الخطابُ للمؤمنين؛ أيْ: قل للمؤمنين أذلك خيرٌ؟! ويكون الاستفهامُ مُعترِضًا بين آياتِ الوعيدِ لمناسبةِ إبداءِ الفجوةِ بين حالِ المشركين وحالِ المؤمنين، والاستفهامُ حينَئِذٍ مستعملٌ في التّمليحِ والتّلطّفِ[2].

(1) صافي، الجدول: 9/ 314.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 533، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 179.

نُكْتَةُ العدولِ منَ الإضمارِ إلى الإظهارِ:

الخطابُ بالتّقوى عامٌّ في الأوّلين والآخِرين

في حال اعتبارِ الخطابِ في قوله: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ موجَّهًا للمؤمنين؛ أيْ: (قل للمؤمنين)؛ فإنّ السّياق يكون جاريًا على خلاف مُقتضى الظّاهر؛ لأنّ مُقتضى الظّاهر أن يُؤتَى بضمير الخطاب، فيُقال: (أذلك خير أم جنّة الخلد التي وعدكم؟)، ولكنّه عَدلَ عنِ الضّمير إلى الإظهار؛ لأنّ لفظ ﴿ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ أفاد العمومَ للمخاطَبين ومَنْ يجيءُ بعدَهم، فلا يقتصر على المُخاطَبين المُتقدِّمين الذين نزلت الآياتُ فيهم[1].

مرجعُ اسمِ الإشارةِ في ﴿أَذَٰلِكَ﴾:

مراعاةُ المعنى والمناسبة من مُحدّدات مرجعِ الضّمير

يرجع اسمُ الإشارةُ في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إلى المذكور منَ السّعير والإلقاء فيها مُقرّنين، وهم يصطرخون يدعون بالهلاك، ويبْعُد أن يعود إلى الكنز أو الجنّة في قوله: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾ [الفرقان: 8]؛ لبُعد السّياق، والأصلُ العودُ على أقرب مذكورٍ، ولِمتانة المعنى؛ فإنّ المقابلة بينَ الجَزائَيْن: جزاءِ النّار وجزاءِ الجنّة أَوْلى وأَحكَمُ؛ لأنّ حصولَ الكنوز والقصور والجنان في الدّنيا ليس مذمومًا لذاته، بخلاف منازل السّعير، ولا سيّما أنّ هذه الموازنةَ بين منازل الآخرة من عادات القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [فُصِّلت: 40][2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (ذلك) دونَ غيرِه:

النّارُ في الغايةِ المُبعَدةِ مِنَ الهولِ والفظاعةِ

التَّعبيرُ باسم الإشارةِ الدّالِّ على البعيدِ في قولِه: ﴿أَذَٰلِكَ﴾؛ للدّلالةِ على بُعْدِ المُشارِ إليه في مراتبِ النّفورِ منه والرّفضِ له؛ وللإشعارِ بأنّ النّارَ في الغاية القاصية منَ الهول والفظاعة[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 533.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 325، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 603.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 434.

تنتفي المفاضلةُ بينَ الأضدادِ المتُنافِرة

دلالةُ التّفضيلِ في ﴿خَيۡرٌ﴾:

كلمة ﴿خَيۡرٌ﴾ في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ اسمُ تفضيلٍ، وأصله (أَخْيَر) بوزن اسم التّفضيل، فحُذِفت الهمزةُ لكثرةِ الاستعمالِ[1]. "ولمّا كانت عادةُ العرب في بيان فضل الشّيء دونَ غيرِه الإتيان بصيغة (أفعل)؛ تنبيهًا على أنّ سلبَ الخيرِ عن مقابِلِه لا يخفى على أحدٍ، أو يكون ذلك على طريق التّنزُّل وإرخاءِ العِنان؛ تنبيهًا للعاقل على أنّه يكفيه في الرّجوع عنِ الغَيّ طروقُ احتمالٍ لكون ما هو عليه مفضولًا"[2] - جاء بما يحتمل الدّلالة على التّفضيل باعتبارَيْن؛ **الأوّل:** حيثُ كان الكلام استفهامًا جاز فيه مجيء لفظة التّفضيل بينَ الجنّة والسّعير في الخير؛ لأنّ المُستفهِمَ جائِزٌ له أن يوقِفَ مُحاوِرَه على ما شاء؛ ليَرى هل يجيبُه بالصّواب أو بالخطأ[3]، **الثّاني**: أنّه لمّا وقع التّساوي بينَ الجَنّة والنّار في أنّهما منزلان، صحّ وقوعُ التّفضيل بينهما على هذا الأصل[4].

ويُحتمل أن تكون لعدم قصد التّفضيل، فاسمُ التّفضيل قد يُستعمل لا لتفضيل شيءٍ على شيء آخَر مُعيّن؛ بل قد يُراد به مُجردُ الزّيادة في أصل الوصف؛ فيُراد باسم التّفضيل تجاوزُ صاحبِه وتباعدُه عنِ الغَير في الفعل، لا بمعنى تفضيله بالنّسبة إليه بعدَ المشاركة في أصل الفعل؛ بل بمعنى أنّ صاحبه مُتباعدٌ في أصل الفعل، مُتزايدٌ إلى كماله فيه على وجه الاختصار، فيحصلُ كمالُ التّفضيل[5]، فتكون كلمة ﴿خَيۡرٌ﴾ للتّنبيه على تفاوت ما بينَ المَنزلتَيْن، لا على أنّ في السّعير خيرًا[6]، فهي على ما جرت به عادةُ العربِ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 335.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 355.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 203.
(4) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 60، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 314.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 39، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 313.
(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 314.

بيان فضل الشّيء وخصوصيّته بالفضل دونَ مُقابِله[1]، فيُرادُ بها مُطلقُ الاتّصافِ، لا تفضيلُ شيءٍ على شيءٍ، كقوله: ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: 33][2].

معنى ﴿أَمۡ﴾ ودلالتُها:

امتحانُ عقليّة السّامع بالمفاضلةِ بين متباعِدَين لا اشتراك بينهما

﴿أَمۡ﴾ في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ هي المتّصلةُ العاطفة، المُعادلةُ لهمزة الاستفهام في طلبِ تعيينِ أحدِ الأمرَين، كأنّه قيل: أذلكَ العذابُ خيرٌ؟ أو أجنَّةُ الخُلْدِ؟ فيُقصَد بها تعيينُ أحدِ المُتعاطفَين في الجوابِ، والمُرادُ: تعيينُ الجنّةِ أو النّارِ في نِسبةِ أحدِهما إلى الخيريّةِ دون الثّاني، كأنّه قيل: أيُّ المَنزِلَيْن خيرٌ؟! وهذا يعني أنّ المُخاطَب عالِمٌ بخيريّة أحدهما، ولذا طولِب بتعيينه[3]، وتظهر بلاغةُ ﴿أَمۡ﴾ في إيجازها باجتماع أمرَيْن فيها؛ فهي عاطفةٌ ونائبةٌ عن همزة الاستفهام، ولذا كان في مجيئها إيجازٌ بديعٌ عن أن يُقال بالإطناب: أو أَجنّةُ الخُلْدِ؟! فكانت ﴿أَمۡ﴾ في نفسها استفهامًا وعطفًا.

بلاغةُ الكنايةِ في تركيبِ المُفاضلةِ:

يحتاجُ الإنسانُ أن يُذكَّر بالواضحاتِ إذا طالَ عليه الأَمَدُ فنَسي

المفاضلةُ في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ كنايةٌ عن لازمِ معناه منَ التّذكيرِ والتّحسيرِ: تذكيرِ العُقلاء منَ الكافرين بالحقيقةِ البَديهيَّةِ التي لا تحتملُ ارتيابًا أو نُكرانًا لموقعها الضّروريّ في الانكشافِ والوضوحِ، وتحسيرِ المُجرمين على مصيرِهِم حين يُطالِعون بأخيلتِهم البونَ الشّاسعَ بين منزلِهم في الجحيم، ومنازلِ المتّقين في النّعيم، فيُبْهَتون ويُفْجَعون تقريعًا لهم، كما إذا أعطى السّيّدُ عبدَه مالًا، فتمَرّدَ واستكبرَ فضربَهُ ضربًا موجعًا وهو يقول له على سبيل التّوبيخِ: هذا أطيبُ أم ذاك؟ وهو كنايةٌ أيضًا عن

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 88.

(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 325.

(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 256.

التّخيير؛ فمَنْ شاء منهم اختار أسبابَ العذابِ، ومَن شاءَ اختارَ أسبابَ الفلاحِ[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾:

ميزانُ الفلاحِ والرّباحِ الالتحاقُ بالمقامِ الخالدِ والنّعيمِ التّالِدِ

إضافةُ الجنّة إلى الخُلد من إضافة الموصوف إلى صفته؛ للمَدح ببيان صفة الكمال، ويلزم عنه زيادةُ السّرور للذين وعدهمُ اللّهُ تعالى بها، وفي الإضافة إلى الخُلْد تمييزُها من سائر الجنان، ويلزم عنه التّعريض بهم وبجنّاتهم التي تَباهَوا بها، وعَيّروهُ بعدم امتلاكه لها في قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾ [الفرقان: 8]، وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠﴾ [الفرقان: 10]، فلمّا قال: ﴿أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أشار إلى أنّ السّابق جِنانٌ زائلةٌ لا تصلح معيارًا في قياسِ النّاسِ ولا دليلًا على شَرَفِهم؛ بل الميزانُ في ذلك هو الالتحاق بالمَقام الخالد والنّعيم التّالِدِ[2].

نُكْتَةُ إيثارِ وصْفِ ﴿ٱلۡخُلۡدِ﴾ دونَ غيرِه:

إيثارُ وصْفِ الخُلْد لِحُسن مناسبته مع وصف أهلها بالخلود في قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ﴾؛ تنبيهًا على عدم فناء الحالِّ والمَحلِّ.

دلالةُ التّعريفِ بجملةِ الصّلةِ:

الغيبيّاتُ مضمونةُ النّفاذِ والتّحقّقِ بقوّةِ الوعدِ الإلهيِّ المعصومِ

عُرِّفَ الموصوفُ ﴿جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ بجملة الصّلة في قوله: ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾؛ توسُّلًا لوصفِ المعارفِ بالجُمَلِ المُصدّرةِ بالموصولِ، فإنّ الجنّةَ لمّا أُضيفتْ للخُلدِ تعرّفتْ، ثمّ وُصِفتْ بجملة الصّلة، وقد أفاد الموصولُ ﴿ٱلَّتِي﴾ العهدَ، وأفاد التَّعريفُ بالصّلةِ تمييزَ الموصوفِ أكملَ تمييزٍ، مع تعظيمه بمضمونِ تلك الصّلةِ، كما أنّ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 439، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5258.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 439، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 435.

وصْف الجنّةِ بالموصولِ وصِلته ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ أشْعَر بعِلّةِ الخيريّةِ في الجنّةِ، وهي أنّها وعدٌ ثابتٌ لأهلِ التّقوى لا يتغيّر، وما كان كذلك فهو خيرٌ.

دلالةُ البناءِ لما لم يُسَمّ فاعلُه في ﴿وُعِدَ﴾:

في صيغةِ الماضي تمامُ الانقضاءِ وكمالُ التّحقيقِ

بُنِيَ الفعل في قوله تعالى: ﴿وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ لما لم يُسمّ فاعلُه؛ لتعظيم أمرِ الموعودِ به؛ إذ هو غيبٌ، فناسبَ أن يُطوَى الفاعِلُ في الذِّكْرِ كما طويَ الموعودُ في الغيب، فضلًا عن أنّ بناء الفعل لغيرِ المعلوم فيه تعظيمٌ للفاعلِ الجليل مع شِدّةِ وضوحِه، وتعظيمٌ للفعلِ وتحقيقٌ له، كما تقول: (فُعِلَ الشَّيءُ)، و(أُنجِزَ الشّيءُ)، كأنَّ في البناء لغير المعلوم إجراءً للفعل بقوّة القَهر والانتزاع مع عدم إخراجِ السّامعِ عن حدودِ هذا الحدوثِ، فلا يُشغَل عنه بإظهارِ فاعلِه، ولا يخفى ما في الماضي من تمامِ الانقضاءِ وكمالِ التّحقيقِ.

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ أحدِ المفعولَيْن:

الاكتفاءُ بالمذكورِ اقتصادًا من عاداتِ القرآنِ الكريمِ

الفعل ﴿وُعِدَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ يتعدّى لمفعولَيْن، فحُذِف الأوّل إيجازًا؛ لدلالة الموصول عليه، وهذا المحذوف هو العائد على الموصول، والتّقدير: التي وُعِدها المتّقون[1]، والاكتفاءُ بالمَذكور اقتصادًا من عادات القرآن الكريم.

دلالةُ اصطفاءِ وصْفِ التّقوى دونَ غيرِه:

الوعدُ الصّادقُ بالجنّةِ يحصلُ بسببِ التّقوى

اصطفى النَّظمُ الجليلُ وصفَ التّقوى في قوله: ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾؛ لِسَبْقِ الحديث عن نُزُلِ النّارِ وضيقِ مكانِه واستِعارِ عذابِه، فنَبَّه بوصف (المتّقين) على أنّ عَمَلَهم الذي استحقّوا به الوعدَ كان اتّقاءَ العذابِ المَذكورِ، وإيذانًا باستجابتهم لأمرِ اللّهِ باتّقاءِ العذابِ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: 24][2].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 435.

(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 325.

موقع جملة ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ﴾ ممّا قبلها:

البَدليّةُ من دواعي الفصل لكمالِ الاتّصالِ

جملة ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا﴾ تذييلٌ لجملة: ﴿جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾؛ للتّنويه بشأن الجنّة، كما يُؤيّده تنكيرُ ﴿جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا﴾، فالجملةُ بدلٌ من ﴿وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾، وتفسيرٌ له، كأنّه قيل: أم جنّة الخُلْد التي كانت جزاءً ومصيرًا، فبينَ الجُملتَيْن كمالُ اتّصال، ولذلك فُصِلتْ؛ فالبَدليّة من دواعي الفَصْلِ، ويصِحّ أن تكون استئنافًا في موضعِ التّعليلِ؛ أيْ: وعَدَ المتّقين الجنّةَ؛ لأجلِ أنْ يُجازيَهم بها ويخلّدَهُم فيها[1].

مِن عظيمِ المَدحِ والجزاءِ إردافُ البشارةِ بالبشارةِ

وتكريرُ كونِ الجنّة جزاءَهم ومصيرهم في جملة الفاصلة مع أنّه قد عُلِمَ من قوله: ﴿جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ أنّ التَّذييل خرجَ لمزيد مدح لساكنيه، ودلالتُه على المَدح من جهة تنكيره؛ أيْ: جزاءً موفَّرًا لا يدخلُ تحتَ الوصف، وإردافُه بقوله: ﴿وَمَصِيرٗا﴾؛ أيْ: مصيرًا لا يُقادَر قَدْرُه، واجتماعُهما كالتّتميم لما يَتمّ به ما يُطلَب منَ المكان منَ التّرفُّه والتَّنَعُّم[2].

دلالةُ فعلِ الكونِ الماضي:

كلُّ ميسَّرٌ لما كان عليه قضاؤه الأوَّلُ

التَّعبير بفعل الكون الماضي في قوله: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا﴾ دلّ على تحقيق الوعد بجَنّة الخُلْد، وتأكيدِ نِسبتِها إلى معنى الجزاء والمثوبة؛ أيْ: تكوّنت ووُجِدَت بإيجاده سبحانه، فالوعدُ بها حتميُّ الوقوعِ؛ لأنّها موجودةٌ بالفعلِ، ولأنّ إحرازَها لأهلها مكتوبٌ في اللّوحِ المحفوظِ، مُستَقِرٌّ في عِلْمِ اللّهِ، واجبُ الإنجازِ ومُحتَّمُ النّفاذِ[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في فعلِ الكونِ الماضي:

الأقدارُ مضمونةٌ بكتابتِها القديمةِ

في التَّعبير بقوله: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ، شُبِّهَ الوَعدُ المُؤكَّد في انتظار حصوله بالحاصل المُحَقّق في انقضائه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 435، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 335.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 188.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 119.

وتمامه[1]، أو شُبّه الكونُ في المستقبل بالكون الماضي في تحقُّق الوقوعِ، فذُكِر لفظُ المُشَبّه به، وهو الكون الماضي، وأُريدَ المُشَبَّهُ، وهو المستقبلُ، إلّا أنْ يُقال: إنّ الكونَ الماضي هو باعتبار ثبوته الكِتابيّ في اللّوح المحفوظ والأزليّ في عِلْم اللّه، فحينَئذٍ يُحمَلُ الماضي على حقيقته، ولا استعارةَ[2].

دلالةُ تقديمِ شِبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾:

لم يَقُل في السّياق الكريم: (كانت جزاء لهم)؛ بل قُدِّم شِبهُ الجملة المُشتَمِل على ضميرهم في قولهم: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ﴾؛ للاعتناء والحصر؛ أيِّ: لهم خاصّةً دونَ غيرِهم.

معنى اللّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾:

اللّامُ في ﴿لَهُمۡ﴾ للأَجْلِ والاختصاصِ؛ أيِّ: كانت لأجلهم مُختصَّةً بهم، ولا يخفى مَبْلَغُ التّشريف، وعِظَمُ التّكريم في تخصيص الجنّة بالمُتّقين مثوبةً وجزاءً ومَقَرًّا.

دلالةُ الجمعِ بينَ الجزاءِ والمصيرِ:

الجنّةُ دائمةُ المَقَرِّ وخيرُها مُستمِرٌّ

أخبر اللّهُ سبحانه عنِ الجنّة - أوّلًا - بأنّها جزاءٌ؛ للدّلالة على استحقاقهم لها، وأنّهم حازوها بسببٍ وعملٍ، ثمّ أخبر عنها - ثانيًا - بأنّها مصير؛ أيِّ: مُنتهًى ومأوًى ومنقلبٌ ومَقَرٌّ، ونُكتَةُ ضَمِّ المصير إلى الجزاء وعدمِ الاقتصار على الجزاء؛ التّنبيه على أنّهم ارتضَوها فلا يتحوّلون عنها، ولا هي تتحوّلُ عنهم، فهي مَقَرٌّ دائمٌ لهم؛ لأنّ الشّيء قد يكون جزاءً، ولا يكون مصيرًا إذا لم يقبل صاحبُه السّكنَ فيه والمصيرَ إليه، أو إذا لم يكن مُعدًّا للاستمرار والاستقرار، فأخبر أنّها وافيةٌ كجزاءٍ، وصالحةٌ كمصيرٍ، وفي ذِكْر المصير إيماءٌ إلى مُقابلِه في الآية السّابقة في قوله: ﴿مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾، فهو مصيرٌ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 435.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 36.

فسيح، وليس كنظيره الكائن للكافرين، كما أنّ ذِكْر المصير هو مَدحٌ للجزاء؛ لأنّه إذا كان الجزاءُ في محلٍّ واسعٍ طيّبٍ كان أهنأَ وألَذَّ، كما أنّ العقاب إذا كان في موضعٍ ضيّقٍ شنيعٍ كان أنكى وأوجعَ(1).

سِرّ مجيءِ المُسنَد ﴿وَمَصِيرًا﴾ مصدرًا ميميًّا:

المصيرُ يدلّ على الذّاتِ الصّائرة، وعلى تمامِ الحدَثِ وغايتِه

قوله: ﴿وَمَصِيرًا﴾ على زنة (مَفعِل) وهي صيغةُ المصدر الميميّ على غير القياس، تدلُّ على الحَدَثِ المُجرّد مع دلالتها على الذّاتِ، فإنّ المَصير يحمِل معه الدّلالةَ على الذّاتِ الصّائرة، والدّلالةَ على تمام الحدثِ وغايتِه، فالمصيرُ يدلّ على تمام الصّيرورة ونهايتِها؛ أيْ: تصوير المعنى المصدريّ (المصير) واقعًا قائمًا مُتحقّقًا في الوجود، وهذه نُكْتَة إيثارِ التَّعبير بالمصدر الميمي دون غيره منَ المصادر كالصَّيْر والصَّيرورة التي تدلّ على الحدث مُجَرّدًا من غير اقترانِ معنًى إضافيٍّ به، ويصِحّ أن يكون (المصير) اسمًا للمكان على القياس؛ أيْ: كانت الجنّة جزاءً لهم ومكانًا يصيرون إليه، ويستقرّون فيه(2).

موقع جملة ﴿لَّهُمۡ فِيهَا﴾ ممّا قبلها:

الإقاماتُ معاشاتٌ تستلزمُ الحاجاتِ والرّغباتِ

جملة ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشأ ممّا قبلَه، ولذلك فُصِلتْ؛ لشِبْه كمالِ الاتّصال، فإنّه لمّا أخبر عنِ الجنّة ثوابًا لهم ونُزُلًا، وكانت الإقاماتُ معاشاتٍ تستلزم الحاجات والرّغبات، فكأنّ سائلًا سأل: ما يكون لهم فيها إذا صاروا إليها؟ فأُجيبَ بقوله: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾، ويصِحّ أن تكون الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾(3).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 356، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 435، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 335.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 2/ 113.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 435.

نُكْتَةُ تقديمِ أشباه الجُمَل:

تقديمُ أشباه الجُمل في قوله: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا﴾؛ للاختصاص والاعتناءِ والحَصْر؛ أيْ: لهم وحْدَهم دونَ غيرهم، وفيها خاصّة لا في غيرِها.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بحرفِ الوعاءِ ﴿فِيهَا﴾:

من تمامِ العذاب لأهل النّار أنّهم لا يُجابون لشيّءٍ يَرجونه

التَّعبير بحرفِ الوعاء والظّرفيّة (في) دون غيره في قوله: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾، ولم يَقُلْ: (لهم منها)؛ ليَدلّ به على استغراقهم في محاضن النّعيم وإحاطته بهم، ولا يخفى ما فيه منَ الدّلالة على المبالغة في حصول الأمن لهم، وسلامتِهم التّامّة من كلّ مكروهٍ وأذًى، فحرفُ الوعاء كنايةٌ عن عُزلتهم التّامّة عن كلّ ما يُخالِف النّعيمَ منَ النّقص وعدمِ الكمال، وفيه تنبيهٌ على مفهومِه المُخالِف، وهو أنّ كلّ ما خرج عنِ الجنّة يومئذٍ لا اعتبارَ لمشيئته وما يرجو؛ لأنّه ليس فيها، ولذا كان من مِنَنِ الكرامة على أهل الجنّة وعْدُهم بعدم إخراجهم منها في قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾ [الحِجْر: 48]؛ وكان من تمام العذاب لأهل النّار أنّهم لا يُجابون لشيءٍ يرجونه من تخفيف العذاب فضلًا عنِ الخروج منه؛ لأنّه لا مشيئةَ لهم؛ إذ لا مشيئةَ إلّا في الجنّة، فالتَّعبير عنهم بفعل المَشيئة تشريفٌ لأهل الجنّة واعتبارٌ لإراداتهم بجعلها نافذةً لا تُعترَض، فجعلَ النّعيمَ في الجنّة حاصلًا لهم على وفْق مشيئتهم، بخلاف النّعيم الذي هو طبْعٌ في الجنّة فلا يتوقّف على مشيئة المُنَعَّم، وتعليقُ المشيئةِ بحرف الوعاء فيه تشريفٌ لمَحلّ الجنّة، وإشارةٌ إلى معنى وصفِها بالمَقام الأمين ودارِ السّلام، فاجتمع في التّركيب: ﴿فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ تكريمُ الحالِّ، وتشريفُ المَحلِّ.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾:

(ما) الموصولة تدلّ على العموم، و(ما) الموصوفة تدلّ على الإطلاق

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ معرفةٌ موصولة، أو نكرةٌ موصوفة، والعائد محذوف؛ أيِ: الذي يشاؤونه، أو شيءٌ كائنٌ فيها يشاؤونه،

والفرقُ بينهما: أنّ (ما) الموصوفة نكرة، و(ما) الموصولة معرفة، فالموصولةُ تُفيد الإبهامَ والعُمومَ، والموصوفةُ تُفيد الإبهامَ والإطلاقَ، والفرقُ بينَ الإبهامَيْن أنّ إبهام الموصولةِ لا يمنع ملاحظةَ الأفراد في مشيئتهم فردًا فردًا على جهة الاجتماع والافتراق، فمشيئتُهم تتناول كلّ ما صلُح أن يدخل تحتَها من أفراد النّعيم دفعةً واحدةً أو على تقاسيم متوزِّعة، وأمّا إبهامُ الموصوفةِ فليس فيه ملاحظةُ الأفراد؛ بل ملاحظةُ فردٍ شائعٍ مُستقلٍّ عن ملاحظة غيره، ثمّ يأتي غيرُه بدلًا منه، فيُلاحَظ وحدَه باستقلالٍ، فلا يشترك مع غيره في ملاحظتهما أو أكثر منهما في نفس الوقت، ولذا فهو إبهامُ إطلاقٍ على سبيل البدل، وليس إبهامَ عموم على جهة الشّمول دفعةً واحدةً، وعليه: فـ (ما) الموصولةُ أبلغُ من (ما) الموصوفة، من حيثُ دلالتُها على الكثرة المُبهمة غيرِ المُنحصِرة، ولا ينفي إبهامُها تعيّنَ نوعِها أو جِنسِها التي تندرج تحتَه الكثرةُ المُبهمَة منَ النّعيم، فالنّعيمُ جنسٌ مُتعيِّنٌ، لكنّ أنواعَه لا تنحصر، والمأكلُ والمَشربُ نوعٌ منَ النّعيم مُتعيِّن؛ لكنّ أفرادَهما لا تنحصر، وأمّا الموصوفةُ فإبهامُها أكثرُ، وأفرادُها غيرُ مقصودةٍ بالتّعيين والاستغراق[1].

عِلَّةُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ:

مُـشَـهَّـيـاتُ النّعيم لا تكادُ تَنحصِرُ

جاء التعبير في قوله: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾، بدون ذكر المفعول صراحة، فهم يشاؤون ما يشاؤون من أمور، وذلك لأن أشيائهم المرادة كثيرة؛ فمُشَهَّياتِ النّعيم لا تنحصر، ولو انحصرت فإنّ تكرار مشيئتِهم لها لا ينقطع، فحُذِفَ الشّيءُ المَشيء؛ للتّعميم في النّعيم[2].

نُكْتَةُ إيثارِ فعلِ المَشيئةِ:

الإرادةُ احتماليَّةٌ والمَشيئةُ قطعيَّةٌ

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (لهم فيها ما يريدون)؛ بل اصطفى

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 37، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 132.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 37.

فعلَ المشيئة؛ ليَدلَّ على أنّ ما يرغبون فيه واجبُ الحصول والتّحقّق، ذلك أنّ المشيئةَ قطعيّة، والإرادةَ احتماليّةٌ، فالإرادةُ أعمُّ مِنَ المشيئة من حيثُ التّحقّقُ والنَّفاذُ، فالإرادةُ قد يُراد بها التّحقّق، فيجبُ أن تقع؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [الرّعد: 11]، وقد يُراد بها الإنشاءُ مع احتمال عدم وقوعها، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ [النِّساء: 28]، وأمّا المَشيئة فهي أخصّ، وهي جارية في الواقع النّافذ، ولذا عُلِّقتْ عليها مشيئاتُ الخَلْق، قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: 30]، وقوله ﷺ: «ماشاء الله كان»[1]؛ أيْ: وقع وحصل وجوبًا؛ وعليه: فإن التَّعبير الأنسبَ هاهنا هو (المشيئةُ) دونَ (الإرادة)، ولو قال هنا: (لهم فيها ما يريدون)، لكان غيرَ مناسبٍ؛ لأنّ حصول ما يرغبونه قطعيّ، ولو كان احتماليًّا، لكان نقصًا في النّعيم، ونعيمُ الجنّة كاملٌ لا نقصَ فيه، فعَلّقه بفعل المَشيئة على ما يُفيد وقوعَه قطعًا.

موقع جملةِ ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ ممّا قبلها:

حصولُ النّعيمِ لهم على وفقِ مشيئتِهم من تمامِ النَّعيم

جملة ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمون ما قبلَه ومُؤكِّدٌ عليه، والجملة في موضعِ التَّعليل لما قبلَها كذلك، كأنّه قيل: حصولُ النَّعيم لهم على وفقِ مشيئتِهم وخُلودِهم؛ لأنّ ذلك وعدٌ حتميٌّ مسؤولٌ به اللّهُ، أوِ الجملةُ في موقع الاستئنافِ البيانيّ، كأنّه لما أُخْبِروا بقوله: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ﴾ - وكان في حصول هذا استعظامٌ للجَزاء، واستعجابٌ من كُنْهِه - سُئِل: وهل هذا مضمونٌ في حصوله واستمراره؟ فأُجيبَ: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾.

دلالةُ اقترانِ الكونِ الماضي بحرفِ الاستعلاءِ:

إذا وعدَ اللهُ فقد أوجَب

في اقترانِ الكونِ الماضي بحرفِ الاستعلاءِ في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ مع حذفِ اسمِ كان والأحسنُ تقديرُه مِنَ المضمون المفهوم من

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (5075)، ويُنظر: النووي، الأذكار، ص: 84، 85.

جميع ما سبق؛ أيِّ: كان ذلك المذكورُ منَ النّعيم المُطلَق والخلودِ الآبِد حالَ كونه على ربّك، كتبَهُ على نفسه، وعْدًا ثابتًا ثبوتَ الشّيءِ المسؤولِ عند صاحبِه - إيجازٌ لدلالة ما قبلَه على المحذوف، وتحقيقٌ للنّسبة بينَ اسم كان وخبرها، وهو أنّ الموعود المذكور مضمونٌ لا ريبَ فيه، وفي تقديم الجارّ والمجرور - الواقع حالًا لتقدّمه على الموصوف في قوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا﴾ والأصل أنّه صفة له؛ أيِّ: وعدًا كائنًا على ربّك، فتقدّم عليه فصار حالًا - اعتناءٌ وحصرٌ، والتّعدية بحرف الاستعلاء دون غيره، فلم يَقُلْ: (كان من ربّك وعدًا)؛ للدّلالة على إيجاب اللّهِ لهذا الوعد، وعدمِ إمكان إخلافه، فشَبّه حالَ الوعدِ في عدم إمكان إخلاف اللّه له سبحانه، بحال الشّيءِ المُتمكّن على موضعه، يَلْزمُه ولا يَنفكّ عنه، فحرفُ الاستعلاء في تركيبه استعارةٌ تمثيليّة[1].

نُكْتَةُ التَّعبير بالرّبوبيّة وإضافتِها لضميرِ الخطابِ:

كـأنّ الـجـنّـة خُـلـقِـتْ لـرسـولِ اللهِ، وكأنّ وعدَ الـمؤمـنـين بـهـا جرى لأجلِه

تعليق الوعد باسم الرّبوبيّة في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا﴾؛ للتّنبيه على أنّ الجنّة تُؤتَى على جهة الفضل والإحسان منَ اللّه إلى خَلْقه، وإضافةُ الرّبوبيّة إلى ضمير خطاب الرّسول ﷺ إيذان بالعِوضِ بما هو خيرٌ له منَ الجنّة والكَنْز اللَّذَيْن عَيَّره الكفّار بعدم امتلاكهما في الدّنيا في قولهم: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ﴾ [الفرقان: 8]، فخصّه بالخطاب في ﴿رَبِّكَ﴾ إشارةً إلى أنّه الحقيق الأوّل بهذا الوعد؛ ففيه ترضيَةٌ عظيمةٌ وتسليَةٌ له ﷺ وتشريفٌ، والإشعارُ بأنَّه ﷺ هو الفائزُ الآثرُ بمغانمِ الوعدِ الكريمِ[2].

دلالةُ إقامةِ المصدرِ مقامَ اسمِ المفعولِ:

تسميةُ الجنّة بالوعدِ تشريفٌ وضمانٌ لها؛ لأنّ وعدَ اللهِ نافذٌ

في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا﴾ أَطلَقَ المصدرَ (الوعد)، وأراد اسمَ المفعولِ وهو (الموعود) على طريقة المجاز المُرسَل بعلاقة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 436، ودرويش، إعراب القرآن: 6/ 678.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 207.

التّعلّق الاشتقاقيّ[1]، ونُكْتَةُ العدولِ عنِ المفعول إلى المصدر مع إرادة المفعول هي المبالغةُ في إنجاز الموعود، ويكأنّ الجنّة خُلِقتْ من جنس الوعدِ الإلهيّ، فإنجازُها لهم وإيصالُهم إليها أمرٌ محتومٌ لا تتخلَّف نِسبتُه عنهم، كما أنّ الوعد الصّادر لا يُشَكّ في نِسبته إلى اللّه، وصحّ إقامةُ المصدرِ مقامَ المفعول؛ لعلاقة السّببيَّة بينهما، فالوعدُ سببٌ في حصول الموعود، ولا يخفى ما للتَّعبير عنِ الموعود بالمصدر منَ المبالغة في مدح الجزاء به، وكمالِ التّرغيب فيه، وفي التَّعبير بالمصدر مع إرادة المفعول نُكْتَةٌ بديعةٌ أخرى؛ وهو الإشارةُ إلى كون الجنّة ونعيمِها المقيم أحدَ أفرادِ هذا الوعد، فوعدُ اللّهِ سبحانه صفةُ فِعلٍ له، والجنّة أحدُ متعلّقاته، فإذا ارتابَ أحدٌ في موعود الآخرة بالنّعيم، أو استبعده أو استكثره على تَردّد، فيُقال له: دعكَ منَ الموعود، وارجع إلى مصدره وحقيقته، وهو الوعد الإلهيّ، فإذا كان الوعدُ في نفسه وفي متعلّقاته الأُخرى لا ناقضَ له، فكذلك موعودُ الآخِرة هو نظيرٌ لتلك المُتعلّقات، ومشمولٌ في حقيقةِ الوعد نفسِه، فلا ريبَ في ضمانه ونزاهته.

بلاغةُ الكناية في التّركيب:

في جَعْلِ الوعدِ مسؤولًا في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ كنايةٌ عن إنجازه، ونفيِ إمكانِ إخلافِه.

بلاغةُ المَجازِ في الوصف ﴿مَّسْـُٔولًا﴾:

الجنّةُ حقيقةٌ بالسّؤالِ والاستشرافِ

وَصْفُ الوعد بكونه مسؤولًا، يصِحّ إجراؤُه على الاستعارةِ التّصريحيّة بتشبيهِ الوعدِ في ثبوتِه ووقوعِه بالحقِّ المَسؤولِ في ثبوته عند صاحبِه، وجاهزيّتِه لبَذلِه وإيصالِه، وإن لم يكن هناك سؤالٌ له، ويكون في طيّ ذلك كنايةٌ عنِ الإلزام والإيجاب والثّبوت، كما أنّ الشّيءَ المسؤولَ ثابتٌ لازمٌ في حيازةِ صاحبِه، أو يجري التّركيبُ

(1) عصام عبد المنصف، الأسلوب العدوليّ بين المصدر والمُشتقّات، ص: 1141.

على التّشبيهِ البليغ؛ أيْ: وعدًا كالشّيءِ المَسؤولِ، فينبغي أن يُسْأَل ويُرتَجَى، ووجهُ الشَّبهِ: العَظَمةُ والجاهُ؛ أيْ: الجنّة عظيمةٌ غاليةٌ، حقيقةٌ بالسُّؤال والاستشراف، كالأشياء العظيمة التي تُتَشَوَّف وتُسْتَشرَف، وتكون مسؤولةً مرغوبةً.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَرْجع والمَصير:

المَــــرجِــــعُ متضمِّنٌ معنى الاســــترداد، والمَصيرُ مُتضمِّنٌ معنى التّحوُّلِ التَّبايُنيِّ

الرّجوع العَودُ من لاحقٍ إلى سابقٍ؛ فهو انتقالُ الشّيءِ إلى الحالِ التي كان عليها، فهو عَوْدٌ إلى نفْسِ الحالِ الأولى، سواء كان ذلك في القول أو الفعل أو في المكان ونحوِ ذلك؛ ففيه معنى استرداد السّابق.

وأمّا المَصير؛ فهو منَ الصّيرورة بمعنى الانتقال والتّحوُّل من حالٍ إلى أُخرى، سواءٌ كانت هذه الأخرى موجودةً من قبلُ أم غير موجودة، ولذا كان المَصيرُ في معنى العاقِبة والجزاء، إذِ العاقِبةُ حالٌ جديدة لم يكن عليها الإنسان من قبل، ولكنّه تحوُّلٌ من حالهِ الحاضرةِ إليها، بخلاف المَرجِع، فهو عوْدٌ إلى حالٍ كان منها البَدء[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات: (رجع)، و(صير)، وابن منظور، لسان العرب: (رجع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رجع)، و(صير).

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧﴾ [الفرقان: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إيقاعُ الحسابِ يومَ القيامة ملائمٌ لجميعِ الأوجُهِ والأحوالِ

لمّا كانتِ الآياتُ السّابقة مُستَتْبَعات لقوله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾ [الفرقان: 11]، فأعقبَه بوصف أحوالِهم منفردين بالأهوال مقتحميها - انتقل في هذه الآية إلى مشهد حسابهم والمُحاجة عليهم في شِركِهم، فجَمَعَهم بمعبوداتِهم التي انتحلوها أندادًا من دون بارئهم سبحانه، فذَكر أحوالَهم مجتمعين عابدين ومعبودين، بعد تحقيق وعيدِ العابدين المشركين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلُّواْ﴾: (ضلّ) أصلٌ يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِه في غَيْرِ حَقِّهِ[1]، والضَّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن، إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَن الحُجَّة، وضلَّ النّاسي، إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[2]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريق، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ، يَضلُّ، ضلالًا: إذا انحرفَ وضاعَ ولم يهتدِ إلى الطَّريق، وضَلَلْتُ الشَّيْءَ أَضِلُّه، إذا جعلتَه في مَكان ولم تَدْرِ أين هوَ، وأضْلَلْتُه؛ أَيْ: أضَعْتُه[3]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصود بالإضلال في الآيةِ: أوقعتُموهم في الغَواية والانحراف بإلْهائِهم عن طريق الحقّ حتّى ضاعَ منهم، فغابوا عنه.

2) ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: (سبل) أصلٌ يَدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ مِنْ عُلوّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضل).

إلى سُفْلٍ، وعلى امتِدادِ شَيءٍ، فالأَوَّلُ مِنْ قيلِك: أَسْبَلْتُ السِّتْرَ، وأَسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبمائِها، وأمّا الثّاني: فالمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهوَ الطَّريقُ؛ سُمّيَ بِذَلِكَ لِامتِدادِهِ[1]، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أغْلَبُ، والمُراد بالسّبيل في الآية: سَبيلُ اللّهِ سبحانَه، وهو طَريقُ الهُدى الذي دَعا إِليهِ وبيّنه بالوَحي.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

فَضْحُ المشركين والإشهادُ عليهم وإفحامُهم

يُخبرُ المولى سبحانه مُذَكِّرًا نبيَّهُ ﷺ وكلَّ مَن تنفعُه الذِّكرى بموقف الحشرِ يومَ القيامة، يومَ يَحشُرُ اللّهُ المشركين وما كانوا يعبدونه مِن دونه، فيقول لهؤلاء المَعبودين: أأنتُم أضللتُم عبادي هؤلاء عن طريق الحقّ، وأمرتُموهم بعبادتكم، أم هم ضَلّوا السّبيلَ، فعبَدوكم مِن تلقاء أنفسهم[2] ؟!.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ ممّا قبلَها:

الـحَـشـرُ هـو الإلـجـاءُ إلى المَصيرِ الـذي لا بُدّ منه

قولُه: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ يَحتملُ أنْ يكون معطوفًا على جملة ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ وكلمة ﴿وَيَوۡمَ﴾ منصوبةٌ على المفعوليّة بفعلٍ مُضمَر تقديرُه: (واذكر)، وهذا المُضمَر هو المعطوف على ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾، كأنّه قيل: واذكر لهم - بعدَ التّقريع والتّحسير المَقصودَين بالاستفهام عن خير المَنزِلَين - والتّقدير: (يومَ نحشرُهم فنسألهم ونحاسبهم)، ويصحّ أن تكون الجملة استئنافًا ابتدائيًّا مُقرِّرًا لمضمون ما قبلَه، و﴿وَيَوۡمَ﴾ منصوبة على الظّرفيّة بفعلٍ مُضمرٍ مُؤخَّر، حُذِفَ للتّنبيه على كمال هولِه وفظاعةِ ما فيه، والإيذانِ بقصور العبارة عن بيانه؛ أيْ: يومَ يحشرُهم يكون منَ الأحوال والأهوال ما لا يَفي ببيانه المَقالُ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل).
(2) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 361.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 208، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 41، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 321.

دلالةُ التَّعبير بضمير الغيبة في ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾:

الإشعارُ بعَظَمَة الرّحمنِ، وبُعْدِهم وحَجْبِهم عنه سبحانه

في التَّعبير بضمير الغيبة في ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ دون (يحشركم) أو (أحشركم) إشعارٌ بجلال الرّحمن وعَظَمته؛ لأنّ الغيبة تُؤْذِن بمَهابة الفاعل والإعراض عنِ المفعول، كأنّهم لِحِجابهم عن ربّهم، أُخبِر عنِ اللّه العظيم وعنهم بضمير الغيبة؛ تهميشًا لذَواتهم، وحَجبًا لهم عنِ الذّات العليّة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: 15]، وقولِه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ [آل عمران: 77].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ ﴿فَيَقُولُ﴾:

أمرُ الحشْرِ عظيمٌ، تعظُمُ بهِ المَكرُماتُ، وتَعظُمُ فيه الحَسَراتُ

قرأ نافع، وأبو عمرو، وشُعبة، وحمزة، والكسائيّ، وخَلَف بالالتفات منَ التّكلّم: ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾ إلى الغَيبة: ﴿فَيَقُولُ﴾؛ إشارةً إلى أنّ المُراد بالنّون في ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾ العَظَمة لا الجمع، لاستبعاد أن يُراد بالفاعل الملائكة بواسطة الأمر؛ ولأنّ القول عتابٌ فيناسبه الغَيبة، وفي قراءة ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾ تعظيمٌ لأمر الحَشْر، وتهويلٌ له، وفيه زيادةُ إيعادٍ وترهيبٍ لهم، وتربيةٌ للمَهابة في النّفوس منَ الفاعل الجليل العظيم سبحانه، وتنبيهًا على أنّ القول أخفُّ منه، وقرأ ابن عامر بنون العَظَمة في ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾ ﴿فَنَقُولُ﴾؛ بتوحيد الأسلوب في التّعظيم، وقرأ ابن كثير وحفص وأبو جعفر ويعقوب ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ ﴿فَيَقُولُ﴾ بالغيبة فيهما[1]؛ أيْ: واذكر لهم بعد التَّقريع والتَّحسيرِ يوم يحشرهم اللّه ﷻ[2].

معنى الواو في ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾:

ما قَدّم العبدُ شيئًا على ربّه إلّا خُذِلَ مِن قِبَلِه

الواو في قوله: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾ للعطف على ضمير الجمع في

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 360، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 436، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 43، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5259، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 337.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 233، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 208.

﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾؛ أيّ: يحشرهم ويحشر معبوديهم، وتفيدُ التّشريك في الحُكم والجمع بين هؤلاء وهؤلاء في الحشر؛ أيّ: يُجمَعون معًا في الحشر والحساب؛ كما يُجمَعُ بينَ الجاني والشّاهد، والجاني ووسائلِ الجناية، فهذه المعبوداتُ شاهدةٌ عليهم بالتّبرّي منهم، وهي أيضًا وسيلةُ الجُناة في الإثم والكفر(1).

معنى (ما) في ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾:

صَـرْفُ العبادةِ لغير الله دليلٌ على عدم العَقل منَ العابد

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾ موصولةٌ تدلُّ على ذوات غير العقلاء، فيُراد بها الأصنامُ خاصّةً والجمادات؛ مُراعاةً لمقتضى الحال؛ إذ عبادتُها هي الأغلب وقتَ المُخاطبة، والسّياق في المشركين أهلِ الأوثان، والأحسن تفسير (ما) على العموم في إرادة المعبودات الباطلة كافّة - عاقلةً عالِمة كالملائكة وعيسى ﵇، أو غير عاقلة كالجمادات والأصنام؛ على اعتبار أنّ (ما) تصلح لذوات غيرِ العاقل، وصفاتِ العقلاء، أو على اعتبار تغليب مَنْ لا يعقل على مَن يعقل - وفي هذا التّغليب ثلاثُ نكاتٍ بديعة؛ **الأولى**: الإشارة إلى أنّ أغلب العبادة تقع فيما لا يعقل، فأغلبُ هؤلاء يصرف عبادتَه إلى ما لا طائل منه بالكليّة، **والثّانية**: الإشارة إلى أنّ صرف العبادةِ لغير اللّه دليلٌ على عدم العقل منَ العابد، وعدم العقل منَ المعبود، فإنْ كان المعبودُ عاقلًا، ورضيَ بصرف العبادة إليه فهو فاسد العقل، كأنّه لا عقل له، **والثّالثة**: تنزيل مَنْ يعقل منَ المعبودات منزلةَ مَنْ لا يعقل منها؛ للدّلالة على أنّها جميعًا لا تصلح ولا تستحقّ أن يكون شيءٌ منها معبودًا(2).

نُكْتَةُ مجيءِ التّغليبِ على خِلافِ الأصلِ:

تحقيرُ الأصنامِ والإيـذانُ بنزولِ رُتبتِها

في قوله: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جاء التّركيب باستعمال

(1) السّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 464.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 268، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 78، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 130.

(ما) دون (مَنْ)، على اعتبار تغليب غير العاقل منَ المعبودات على العاقل منها - في أحد الأوجُه - والأصل في باب التّغليب: أن يُغَلّب الأشرفُ على غير الأشرفِ، والعاقلُ على غيرِ العاقل، إلّا أن يكون المُغلَّبُ خفيفًا على اللّسان، فيَجري الاستعمالُ عليه، كالقمريْن؛ يعني: الشّمس والقمر؛ فأجرى الاستعمال على تغليب الأدنى رتبةً لسهولة اللّفظ به؛ فكان الأصل في هذه الآية أنْ يُغلّب أولي العقلِ على غيرهم، فيضعَ (مَنْ) مكان (ما)، ولكنّه عدلَ عن الأصل؛ تحقيرًا للأصنام وإيذانًا بنزول رتبتِها جِدًّا أن تندرج تحتَ العاقلِ الأشرفِ، والغرضُ من تحقيرها: الإنباءُ عن بُعدِها عنِ استحقاقِ العبادةِ، بُعدًا لا شُبْهة معه، وذلك بإبعادها عن حيّز أولي العِلْم والقُدْرة إبعادًا تامًّا، وهذا الإبعادُ والتّحقير من جهة المولى سبحانه، لا من جهة العابدين، وهو تسجيلٌ عليهم وتبكيتٌ لهم، ونعيٌ على عقولهم(1).

نُكْتَةُ التَّعبير بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾:

لا تستوي فوقيّةُ الحقيقةِ مع دونيّةِ الزَّيْفِ

عبَّر في النَّظم الجليلِ بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾ في قوله: ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولم يَقُلْ: (يعبدون من غير الله)؛ للدّلالة على دُنوّ المكانة، وتفاوت الحال، لِمَنْ يعبدونهم من دون الله، وهو يُشعِرُ بنفي التّساوي بين معبوداتهم الباطلة وبينَ الله سبحانه، فـ ﴿دُونِ﴾ اسم بمعنى (غير)، يدلّ على أدنى مكانٍ منَ الشّيء، فأُتيَ به للدّلالة على نزولِ ما عَبَدوهم في الرّتبةِ والمقام عن مقامِ العليّ الكبيرِ، وأمّا (غير) فهي غير مناسبةٍ لسياق الآية؛ لإبهام مفهومها المُراد منها، فهي لا تتعرّف بالإضافة، والمفهوم المُراد بالآية مُتعيِّنٌ غير مُبْهَم، وهو الأصنام، بخلاف قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، وقوله: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ [الأنعام: 14]، ولم يَقُلْ: (من دون)؛ لأنّ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 41.

المُراد بحُكم الغيريّة مُطلقٌ ما سوى اللّه تعالى، فهو غيرُ مُتعيِّن، فيشملُ أيَّ وليٍّ مهما كان، وأيَّ خالقٍ سواه سبحانه على جهة الافتراضِ والتّحدّي[1].

موقعُ جملةِ ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ﴾ ممّا قبلها:

سُرعةُ الحسابِ بعد الحشرِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي﴾ للتّعقيب؛ أيْ: يحشرهم فيسألهم، وفيهِ الإشارةُ إلى سُرعة الحساب بعد الحشر، أو الفاءُ فصيحةٌ عاطفةٌ مدخولَها على شرط مُقدّر؛ أيْ: فإذا أوقفَهم بعد الحشر للحساب سألهم وقال لهم كذا، كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصّافّات: 24][2].

دلالةُ التّغليب في: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ﴾:

العـقـلُ هو مناطُ التّشريفِ والـتّـكـلـيـفِ بـالـخـطـابِ الإلَهيِّ

في قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ﴾ الخطابُ موجّهٌ للمعبودين منَ العقلاءِ وغيرِ العقلاءِ منَ الأصنامِ وغيرِها، فنَزَّل أصنامَهم منزلةَ العاقلِ من ذوي العِلْمِ، بقرينةِ توجيهِ الخطابِ، فالتّغليبُ للعقلاءِ[3].

فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفعليِّ:

يُقدَّم في الكلامِ مَـن تـعـلّـق بهِ القَصْدُ

تقدَّم المُسندُ إليه المبتدأُ في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ﴾، وفي قوله: ﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ﴾ على المُسنَدين الفِعْليّين الواقعين خبرًا، ولم يَقُلْ: (أأضللتم أنتم؟)، أو (أضلّوا هم)؛ لإفادة الاختصاص والحصر في توجيه الخطاب، كأنّه قيل: أأنتم خصوصًا لا غيركم أيّها المعبودات أضللتُموهم، أم هم خصوصًا وحدَهم دونَ غيرهم ضلّوا السّبيلَ من تلقاءِ أنفسِهم، ولا يخفى ما فيه من زيادةِ تعيّنهم بتقديمِ ضمائرِ ذواتِهم[4].

---

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (دون)، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 9/ 664.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 43، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5260.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 43، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 337.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 337.

نُكْتَةُ تقديمِ الاسمِ على الفعلِ في الاستفهامِ:

يُستَنطَق الجاني بين يدي القاضي إفساحًا له في المقالِ ليستوفيَ أعذارَه

لم يَقُلْ في السّياقِ الكريمِ: (أأضللتم)، و(أم أضَلّوا السبيل)؛ بل تلا الاستفهامَ ضمائرُ المعبودين والعابدين، في: ﴿ءَأَنتُمۡ﴾، و﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ﴾؛ لأنّ كلًّا منَ الإضلال والضّلال واقعٌ، فالاستفهامُ إنّما هو عن فاعل الحدثِ لا عنِ الحدث؛ استنطاقًا لهم كما يُستَنطَق الجاني بين يدي القاضي تبكيتًا له، أو إقامةً للحُجّة عليه، أو إفساحًا له في المقال؛ ليَستوفيَ أعذارَه أو يحتجّ بما هو صالحٌ؛ ليقعَ الجزاءُ على البيّنةِ التّامّةِ، وفيه تبرئةٌ لساحةِ المعبودين[1].

نُكْتَةُ تقديمِ سؤالِ المعبودينَ على سؤالِ العابدين:

المُـشـرِكُ يَـنـالُ الـذُّلّ والتّأخيرَ ممّن جعلَه في موضعِ التّقديمِ والتّقديرِ

جاء الاستفهامُ في السّياق الكريم في جانب المعبودين قبلَ الاستفهام في جانب العابدين في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾؟ ﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾؟؛ وذلك لنُكتة بديعةٍ تُطابِق حالَ العابدين مع معبوديهم، فإنّ رتبةَ المعبودِ مُقدّمةٌ على رتبةِ عابدِه، وهذه المعبودات منَ الأصنام وغيرها كانت مُقدَّمةً عليهم - في اعتقادهم - فعبدوها؛ بل وقدّموها على ربّ العالَمين سبحانه، فكانَ تقديمُ الاستفهام في جانب المعبودات على الاستفهام في جانب المعبودين مُطابقًا لاعتقادهم فيها، وحقُّ المعبودِ أن يُقدّم على عابده، فيُسألُ عنه، ويُستوضَح منه، ولَعَمرُ اللّهِ كم في هذا التّقديم منَ الرّجوع بالخِزي والحَسْرة على العابدين، كأنّه قال لهم: هؤلاء الذين قدّمتموهم إلى حدّ العبادةِ بالباطل والزّور، فكانوا أحقَّ بأن يُسألوا عنكم - فالمعبود يُسأل عن عابدِه ويُقدّم عليه في اعتقاده - فلمّا شهدوا عليهم وتبرَّؤوا منهم، كان في ذلك منتهى الخِزي والحسرة على العابدين، فأتاهم الذّلّ والتّأخير ممّن جعلوه في موضع التّقديم والتّقدير.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 90، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 181.

دلالةُ خطابِ المعبودين في ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ﴾:

ثبوتُ الحقيقةِ لا يتوقّف على إدراكِ الإنسانِ لها

إسنادُ الخطابِ إلى معبوداتِهم في قوله: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يقتضي أنّ اللّهَ يجعل في الأصنام نُطقًا يسمعه عبَدَتُها، أمّا غيرُ الأصنام مِمّن عُبِد منَ العقلاء فالقولُ فيهم ظاهرٌ، وهذا مبنيٌّ على إظهار لغةِ هذه الجمادات لِعابديها بحيثُ يفهمونها؛ لأنّ هذه الجمادات في الدّنيا موجودةٌ على إدراكٍ مخصوص بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: 44]، وقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: 10]، فغايةُ ما هناك أن يُحدِثَ اللّهُ إفهامًا وانكشافًا بينَها وبين عَبَدَتها، كما يَحْدُث ذلك بينَ الأعضاء وأصحابِها في قوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: 65][1].

مجازُ الإسنادِ في قولِهِ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ﴾:

الإضلالُ قد يقعُ مِنَ المعبودين إذا ارتَضوا أو أقرّوا

إسنادُ الإضلال إلى المعبودين إسنادٌ للفعلِ إلى غيرِ فاعلِهِ الحقيقيِّ؛ فالمعبودون منَ الأصنامِ وغيرهم منَ الملائكة وعيسى لم يُضلّوهم على الحقيقةِ، ولكن لمّا كانت عبادة الكافرين لهم سببًا في إضلالهم، نُسِبَ الفعلُ إلى السَّبب، على طريقة المجاز العقليّ، وبغرض تبكيت الضّالّين الذين أضلّوا أنفسَهم، وذلك كما تُسأل الموءودةُ بقوله: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩﴾ [التّكوير: 9][2]، والموءودة لا ذنبَ لها على الحقيقة، إلّا أنْ يُقال: إنّ الإضلال قد يقع منَ المعبودين إذا ارتَضوا أو أقَرّوا ذلك، كفرعون وسائرِ الأباطرة الذين حملوا النّاس على عبادتهم، فيكون نسبةُ الإضلال إليهم حينَئذٍ على الحقيقة، ولكن يُجاب على ذلك: بأنّ هذا الصّنف غير مُرادٍ في الآية؛ لأنّ الآية في المعبودين الذين لا رِضا لهم ولا إقرارَ على ذلك؛ لأنّهم سيُجيبون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 337.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 43.

ربّهم بقولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، فالمُراد بالمعبودين هنا صنفٌ خاصٌّ، وليس عمومهم.

دلالةُ الإضافةِ إلى ضميرِ العِزّةِ في ﴿عِبَادِي﴾:

دخـولُ الـنّـاسِ تـحـتَ الـرّحـمـةِ الـعـامّـةِ يـومَ الـقـيـامـةِ لا يـتـعـارضُ مع تـوفـيـتِـهـم جزاءَهم

إضافةُ العباد إلى ضمير الجلالة المُتكلِّم في: ﴿أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي﴾؛ لتعريف المُضاف بإضافته إلى أعرف المعارف ضميرِ الذّاتِ الجليلة، والغرضُ منه: التّرحُّم عليهم، كأنّه قيل: ما يزالون منسوبين إليَّ برغم ضلالِهم، وفيه إشارةٌ إلى صفةِ الرّحمة العامّة بمقتضى اسم الرّحمن، فالتّرحّم حاصلٌ لهم بمقتضى صفة الذّات (الرّحمن)، ويوافقه اقترانُ هذه الصّفة مع صفة العبوديّة بمقام الحساب والحشر في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: 93]، ويصِحّ أن تكون الإضافة لتعظيم جُرمهم لعبادة غيرِ خالقهم، ففيها كنايةٌ بالتّعريض واللّوم، كأنّه قيل: كان أجدرَ بكم أن تنتسبوا إليّ مُختارين في الدّنيا، قبل أن لا يكون لكم إرادةٌ في الانتساب إليّ في الآخرة، فالجميعُ مضطرٌ مقهور، فكأنّ المُرادَ بـ ﴿عِبَادِي﴾ عبادُ القَهرِ والإجبارِ، لا عبادُ التّسليم والاختيارِ، أو أنّ الإضافةَ للتّهكّمِ بهم؛ تذكيرًا لهم بالسّببِ الذي أقحمَهم في العذابِ، كأنّه يقول لهم: كان ينبغي لكم أن تكونوا عبادًا لي، كأنّه يُحَسِّرهم، كما يقول القاضي للمُجرم: (انطِق أيُّها البريء!) تهكّمًا به؛ أيّ: كان ينبغي أن تكون كذلك، ولكنّك لم تفعل، وقد فات أوانُ أن تفعل! أو لتعظيم أمر الإضلال عنِ العبادة، ففيه تعريضٌ بالمعبودين واستبعادُ ذلك منهم؛ أيّ: أنّى لكم أن تُضِلّوهم وهم عبادٌ لي مختصّون بي وحدي[1].

وسمّاهم عبادًا هنا مع أنّهم ضالّون؛ لأنّ الكلام في الآخرة، حيثُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 437.

الكلُّ عبيدٌ لله تعالى، مقهورون لإرادته سبحانه

لم يَعُدْ لأحدٍ اختيارٌ، فالاختيارُ كان في الدّنيا، وعليه تَمّ التّمييزُ بينَ (العبيد) و(العِباد)، أمّا في الآخرة فالجميعُ (عبيدٌ)، والجميع (عباد)، فقد زال ما يُميِّزهم؛ لأنهم جميعًا مقهورون لا اختيارَ لأحدٍ منهم، والعبدُ يعني أنّه خاضعٌ لأمرِ السّيِّد، وليس له تصرُّفٌ من ذاته، إنْ نظرتَ هذه النّظرة فكلُّ خَلْقِ اللّه عبيدٌ؛ لأنّ هناك أشياء لا يخرجون فيها عن مُراد اللّه تعالى كولادةٍ، أو مرضٍ، أو وفاة، فهل يستطيعُ مَن أَلِفَ مخالفةَ أوامرِ اللّه والتّمرُّدَ عليه سبحانه أنْ يتمرّد عند المرض والموت، فيقول: لن أمرضَ ولن أموتَ، كما يتمرَّدُ على الإيمان به فيكفرُ، ويُكذّبُ رسلَه، ويخالفُ أحكامَه؟ هَيْهات ذلك؛ لأنّ الكلَّ عبيدٌ للّه مقهورون لإرادته سبحانه، المؤمنَ والكافرَ، والطّائعَ والعاصي[1].

نُكْتَةُ الإشارةِ إلى الجمعِ المُضافِ:

اعتبارُ المُخاطَب بأقصى درجات الاعتبار والبيان ولو كان مُدانًا

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (أضللتم عبادي أم هم ضلّوا)؛ بل بالإشارة صفةً أو بدلًا أو عطفَ بيانٍ منَ الجمع المضاف، فقال تعالى: ﴿أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ لمنع الالتباس أن يُراد التّعميم، فلا يُتوهَّم أنّه يقصِد كلّ العباد، وفيه الإشارةُ إلى ذات المُتّهم المُدانِ مُناداةً عليه بالجنايةِ وتعيينًا له؛ لتأكيد أنّه المقصود بالخطابِ والحسابِ، وفيه اعتبارُ المُخاطَب بأقصى درجاتِ الاعتبارِ والبيانِ ولو كان مُدانًا، وفيه وجوبُ بناءِ المُحاكَماتِ على الوضوحِ التامِّ، وهذا من تمام العدلِ والنَّصَفَةِ في الحُكم والقضاءِ.

دلالةُ ﴿أَمۡ﴾ في ﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ﴾:

يُستشْهَدُ على الإنسانِ بما اعتقدَ الأمنَ مِن جهتِهِ

﴿أَمۡ﴾ في قوله: ﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ يصحّ أن يكون استئنافًا في حيّز القول في قوله: ﴿فَيَقُولُ﴾، وتكون ﴿أَمۡ﴾ منقطعةً تُفيد الإضراب عمّا قبلَها، وهو إضرابٌ مُقترنٌ بالاستفهام، ولا يخفى أنّ الاستفهام ليس على حقيقته؛ بل هو مجازٌ في التّقريع والتّسجيل على أهل

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10391 - 10392.

الضّلال، ويصحّ أن تكون جملة: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ معطوفة على ما قبلها في حيِّز القول؛ لإرادة التّعيين؛ أيّ: أيُّ الحالتيْن تنطبق عليها، الإضلال أم الضّلال؟ و﴿أَمْ﴾ على هذا الاعتبار هي المُتَّصلة العاطفة، وأثر ذلك في السّياق أنّه على اعتبار أنّها المنقطعة، فالاستفهامُ بها تقريريٌّ في قوله: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ بقصد التّقريع للكفرة، وتبرئة ساحة المعبودات، ففي ﴿أَمْ﴾ المنقطعة استدراكٌ على الاستفهام الأوّل في جانب المعبودين بتمحيض الجناية في جانب العابدين، وعلى اعتبار أنّها المتّصلة فالمُراد وصلُ الاستفهامَيْن في خطاب المعبودين بهما لتنزيل هذه المعبودات من الأصنام منزلة العاقل العالِم الذي يُطلبُ منه تعيينُ أحد الاحتماليْن مِنَ الإضلال والضّلال، ولا يخفى ما فيه من جريانه على المعنى المجازيّ للاستفهام، وهو إفادةُ التّبكيت للكفرة بالاستفهام عنِ الإضلال في: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ﴾، وإفادةُ التّقريع لهم بالاستفهام عنِ الضّلال في قوله: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾(1).

نُكْتَةُ التّعديَةِ من غيرِ جارٍّ في ﴿ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾:

مَنْ ضلّ السّبيلَ ميؤوسٌ منه، ومَنْ ضلّ عنِ السّبيلِ قد يُرجَى عودُهُ

قال تعالى: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾، ولم يَقُلْ: (ضلوا عنِ السّبيل)؛ للإشعار بأنّهم قد بلغوا في الضّلال أقصاه ومنتهاه، فكأنّهم ضلّوا السّبيل كلّه، فجاوزوه مجاوزةَ من غاب عنه الشّيء فلا يرى منه شيئًا، ويدلّ كذلك على قوّة فِعلِهم في الضّلال حتّى صار مُتعدّيًا بنفسه، لا يحتاج إلى واسطة تنقله إلى مفعوله بخلاف (ضلّ عنِ السّبيل)؛ يعني: كان مُستحضِرًا للسّبيل رائيًا له وضلَّ عنه؛ ففيه احتمالٌ أنّه لم يفقده بالكليّة، ويصحّ توجيه تعدية الفعل بنفسه على تضمين ﴿ضَلُّواْ﴾ معنى (أخطَؤوا)، أو على نزع الخافض(2).

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 43، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 250.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 443، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 361، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 338، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 181.

نُكْتَةُ تكريرِ فعلِ الضّلالِ:

مقامُ القضاءِ يَنبني على استيفاءِ التّحرّي والاستجوابِ

إعادةُ فعلِ (الضّلال) في جانبِ العابدين في قوله: ﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ مع أنّ انتفاءَ الإضلالِ لهم من جانبِ المعبودين في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِى﴾، كافٍ في ثبوت البيّنة؛ ليَجْريَ على ضميرهم مُسنَدٌ فِعليٌّ، فيُفيد التَّقْوِيَةَ في نسبةِ الضّلالِ إليهم، مع ما فيه منَ الإشارةِ إلى وجوبِ استيفاءِ تحصيلِ المُساءَلة لأطراف الاتّهام؛ ليَسْمَعَ كلُّ خَصْم ادّعاءَ خصمِه عليه، وفيه: أنّ تبرئة ساحةِ أحدِ الأطراف، لا يكون إلّا بإبطال ادّعاء الطّرف الآخر، ولا يَتمّ هذا إلّا باستكمال المُساءلة لتحصيل المُكاشفة بينهما؛ والمعنى: أم هم ضلّوا من تلقاء أنفسهم دون تضليلٍ منكم(1).

نُكْتَةُ عدمِ الاكتفاءِ بالسّؤالِ عن فِعلِ المعبودين:

حين ذَكَرَ حشْرَ المعبودين والعابدين، ناسَبَ أن يقعَ الاستفهامُ في الجانِبَيْن

لم يكتفِ في السّياق الكريم بالاستفهامِ عن فعل المعبودين في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾، كما اكتفى به في قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [المائدة: 116]؛ فاكتفى بالسّؤال عنه، ولم يكتفِ هنا بل وازن السؤال مع احتمال كون الضلال واقعًا من العابدين كذلك فقال: ﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾، وعِلّةُ ذلك في ثلاث نكاتٍ؛

الأولى: اختلاف السّياقيْن، فالسّياقُ - هنا - مذكورٌ فيه حشْر المعبودين والعابدين، فقال: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾، فناسَبَ أن يقع الاستفهام في الجانِبَيْن، وأمّا في سورة المائدة فلم يَذْكر إلّا جمعَ (الرُّسل)، ولم يذكر إلّا عيسى عليه السلام مُلحقًا بهم، فقال: ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ [المائدة: 109]، ثمّ قال: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِى عَلَيۡكَ﴾ [المائدة: 110]، ثمّ تَمّ السّياقُ بسؤاله خاصّة بعد ذِكر سؤال الرّسل؛ لخصوصيّة وضعه في انتحالِهم له

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 337.

معبودًا، فكأنّه سُئِل كالرّسل: ماذا قُلتَ وبماذا أُجِبتَ؟ فقال: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ [المائدة: 117]، **الثّانية**: أنّ المعبود في سورة المائدة منَ العقلاء الأشرافِ ذَوي العِلْم، وهو عيسى عليه السلام، فله حُجَّةٌ وشهادةٌ حقيقيّةٌ، وحيثيّةٌ معتبرةٌ تَكفي عن سؤال عَبَدَته، ولا حجّة لأحدٍ على اللّه بعد الرّسُل! وأمّا - هنا - فظاهرُ الكلام على المعبودين غيرِ العقلاء منَ الأصنام والجمادات بدلالة التّغليب في ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾؛ فالمعبودُ المُنتحَلُ لا حيثيّةَ له، ولا تكفي مُحاجَجَتُه عن مُحاجَجَةِ العقلاء من عَبَدَته، **الثّالثة**: أنّه ناسبَ - هنا - عدمُ الاكتفاء بفعل المعبودين، وقرَنَه بفعل عبَدَتهم في: ﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ زيادةً في التّبكيت والتّقريع للعبَدَة؛ لأنّ مَن يعبد الجمادَ أحقّ بالتّقريع والاستهجان ممّن يعبد العقلاءَ ذوي الرُّتبة والوَجاهة، فكان في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي﴾ تبكيتٌ لِلْعَبَدَة، وفي قوله: ﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ تقريعٌ لهم[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتعلّقِ الإضلالِ والضّلالِ:

الضّلالُ دركاتٌ بعضُها أشدُّ من بعضٍ

حُذِفَ مُتعلّقُ الإضلال والضّلال في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ فلم يَقُلْ: (أضللتم عبادي عن أيّ شيء)، و(لا ضلّوا السّبيل عن كذا وكذا)؛ للمبالغة والتّعميم في الإضلال والضّلال، فكأنّه قيل: (أضللتُم عبادي عن كلّ شيءٍ حتّى عن طريق الحقّ)، وضلّوا السّبيلَ كُلَّ السّبيلِ حتّى كأنّهم فقدوه رأسًا، لا أنّهم كانوا فيه ثمّ خرجوا عنه، كما يُشعِر به نزعُ الخافضِ (عن)[2].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 43.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 45.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(ضلّ) و(غوى) و(زاغ):

الـضّـلالُ يـقعُ عمدًا أو سهوًا، وأمّا الغيُّ ففيه تعمُّدٌ

أصل (ضلّ) يدلُّ على ضياع الشّيء وذهابه في غير حقّه، ولذا كان العدولُ عنِ الصّراط المستقيم ضلالًا؛ لأنّه غيبوبةٌ عنِ المَسار الذي ينبغي وتضييعٌ للقَصد؛ فالضّلال يُطلق على العدول أوِ الغيبوبة أوِ الضّياع عمّا ينبغي عمدًا أو سهوًا[1]، ومنه التّضليل في المعلومات، كما هو هنا في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِى﴾؛ أيْ: أوقعتُموهم في المُغالطات، وحرَفْتُموهم عنِ العِلْم الصّحيح.

وأمّا (غوى) فأصله يدلّ على ضلالٍ وإظلام في الأمر وفسادٍ في الشّيء، ولذا كان الغَيُّ هو الجهل المُسبَّب عنِ اعتقادٍ فاسدٍ، وهو الضّلال المُسبَّب عنِ الهوى وما في معناه، والفرقُ بينَ (الضّلال) و(الغَيّ) أوِ (الغَواية) هو أنّ الضّلال يقع عمدًا أو سهوًا، وأمّا (الغَيّ) فهو ضلالٌ بهوًى وانجذاب، ففيه درجةٌ منَ التّعمُّد، وهذا سِرّ الجمع بينهما في قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النّجم: 2]؛ أيْ: ما ضلّ بهوًى ولا بغير هوًى[2].

وهما بذلك يتمايزان من (الزَّيْغ) الذي يعني الميلَ عنِ الاستقامة، والجورَ والعدولَ عنِ الحقّ، ولا يُقال إلّا فيما كان عن حقٍّ إلى باطلٍ، ومنه قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: 8]؛ أيْ: لا تُمِلْنا عنِ الهدى والقَصْد، ولا تُضلَّنا[3]، ووجهُ المباينة التي أبعدتِ اصطفاءَه في الآية أنّهم لم يعرفوا الحقَّ ابتداءً، ولم تنشرح صدورُهم لنوره، فكيف يزيغون عنه، ومبدؤهم ضلالٌ ومنتهاهم؟!

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات: (ضلّ)، والسَّمين، عُمدةُ الحُفَّاظ: (ضلل).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غوى).

(3) الرّاغب، المُفرَدات، وابن الأثير، النّهاية، والزّبيديّ، تاج العروس: (زيغ).

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨﴾ [الفرقان: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكَر في الآية السّابقةِ استجوابَه سبحانه للمعبودين مِن دونه، بمحضر عابديهم وتحتَ شهادتهم؛ استأنف هنا حكايةَ جوابهم عليه سبحانه، وتبرئةَ أنفسِهم عن جناية العابدين وشِركِهم.

ساعةَ الحسابِ لا يُغني مولًى عن مولًى شيئًا

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّتَّخِذَ﴾: (أخذ) أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمعُهُ، قالَ الخَليلُ: هوَ خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[1]، فأصلُ الأَخْذِ تَناوُلُ الشَّيءِ باليَدِ[2]، وأمّا قوله: ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾ فمنَ (الاتّخاذ)، وهو (الافتعال) منَ (الأخذ)؛ ومعناه: المبالغة في الأخْذ، وأصل (اتّخذ) معناه: أخَذَ الشّيء لنفْسِه؛ وهذا يستلزم قبْضًا بقوّةٍ وحيازةً بشِدّة؛ وإذا تعدّى لمفعولٍ واحدٍ فمعناه: الكسْب، وإذا تعدّى لمفعولَيْن، فمعناه: التّصييرُ والجَعْل؛ فالأوّل كقوله تعالى: ﴿لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾ [الكهف: 77]، والثّاني كقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النّساء: 125]، وفي هذه الآية: ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يجوز أن يتعدّى لمفعولَيْن، فيكون بمعنى الجعل، فقوله: ﴿مِن دُونِكَ﴾ في محلّ نصب مفعولٍ أوّل، وقوله: ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ في محلّ نصب مفعولٍ ثانٍ، ويجوز أن يتعدّى لمفعولٍ واحدٍ؛ هو ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، و﴿مِن دُونِكَ﴾ مُتعلّق بالاتّخاذ أو بمحذوف حالٍ؛ أيْ: نتَّخذ أولياءَ متجاوزين إيّاكَ[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 271.

(3) الرّاغب، المُفرَدات، والسَّمين، عُمدةُ الحُفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ)، والسَّمين، الدّرّ المصون: 5/ 247، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 324.

2) ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾: (متع) أَصْلُ المَتَعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمتِعُ مَتْعًا؛ أيْ: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِه، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[1]، والتَّمَتُّعُ: الانتِفاعُ بالمَتاعِ، والمَتاع في الأَصْل: كلّ شَيْء يُنتفَع بِهِ ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّد، والفناء يَأْتي عَلَيْهِ في الدُّنْيا[2]، والتَّمتيعُ: الإمهالُ، وأيضًا: التَّعْميرُ، ومنْهُ قوْلُه تَعالَى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥﴾ [الشّعراء: 205]؛ أيْ: أطَلْنا أعْمارَهُم[3]، والمقصود بالتّمتيع في الآية: الانتِفاعُ القصيرُ زَمَنُهُ على جهة الإمهال الذي وسِع لاستيفاء آجالِهم واستكمال أرزاقهم، واكْتُفي معه بحصول الذّكرى لأمثالهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: 37]، وهو انتفاعٌ قصير بالقياس إلى سرعة انقضائه ودوام عاقبتِه، وهو على جهة الإمهال والمَدّ باعتبار أنّه وافٍ وكافٍ.

3) ﴿بُورٗا﴾: (بور) أصلٌ يدلّ على أمريْن؛ أحدهما: هلاكُ الشّيء وما يشبِهُه من تعطّله وخُلوّه، والآخر: ابتلاءُ الشّيء وامتحانُه[4]، والثّاني منَ الأوّل؛ لأنّ استمرارَ تجربة الشّيء وامتحانه تؤدّي إلى استنزافه وتعطيله، وكسادِه وإهلاكِه، والبور في قوله: ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٢﴾ مصدرٌ كالبَوار، بار بوْرًا وبوارًا، قال الفرّاء: "البور مصدر، يكون واحدًا وجمعًا، يُقال: رجلٌ بور، وقومٌ بور، والبائِر الذى لا شيء فيه، تقول: أصبحت منازلُهم بورًا؛ أيْ: لا شيءَ فيها، فكذلك أعْمالُ الكفّار تبطُل"[5]، والبور: الرَّجلُ الفاسِدُ الهالِكُ الذي لا خيرَ فيه، ويُقال: أرضٌ بور: إذا لم تُنبِتْ، أو أنبتت ما لا نفعَ فيه[6]، وقيل: بور: جمع: (بائر)، اسم فاعل من (بار)، كعائذٍ وعوذٍ[7].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

قال المعبودون من دون اللّه: تنزيهًا لكَ - يا ربَّنا - عَمّا فعلَ هؤلاء، فما يَصِحُّ أن نَتَّخِذ سواكَ أولياء نواليهم، ولكن متَّعتَ هؤلاء المشركين وآباءَهم بالمال والعافية في الدُّنيا،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (متع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بور).
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 264.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (بور).
(7) السَّمين، الدّرّ المَصون: 8/ 466.

حتّى نَسوا ذِكْرَكَ فأشركوا بك، وكانوا قومًا هَلْكَى، غلبَ عليهمُ الشّقاءُ والخِذْلان[1].

لا أثرَ للمتاعِ ولا قيمةَ للنّفوذِ إذا كان صاحبُه منَ المُبْعَدينَ يومَ الدّينِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ ممّا قبلها:

جملة ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن سُؤالٍ مُقَدّرٍ، كأنّه قيل: فماذا أجابوا بعد استنطاقهم واستشهادهم؟ فقيل: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾[2]، ولمّا كان السّؤال على التّعريض التّوبيخيّ، والمقصودُ تبكيتُ المعاندين وزيادةُ حسراتِهم وأَسَفِهم، وإلزامُ الحُجّةِ عليهم، وتفضيحُهم على رؤوس الأشهاد، وتغبيطُ المؤمنين إذا سمعوا هذا الجواب، أجابوا أوّلًا بما يدلُّ على تبرُّئِهم من نسبة الإضلال إلى أنفسهم بأقصى ما يمكن منَ المبالغة خذلانًا لهم؛ فأطنبوا بقولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ إلى آخره؛ تعجُّبًا، وثانيًا: بما يدلُّ على أنّ الكَفَرة هم ضَلّوا السَّبيل، لكن بتقدير الله وإضلاله، فأطنبوا في تعبيرهم بقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾ إلى آخره[3].

خيرُ الكلامِ ما افتُتِح بالتّمجيدِ والتّسبيحِ

دلالةُ العدولِ من المضارعِ إلى الماضي:

لم يأتِ القولُ في الجواب على نفس صيغة القول في السّؤال، فلم يَقُلْ: (فيقول أأنتم أضللتم ... فيقولون سبحانك)؛ بل جاء جوابُهم على صيغة الماضي: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ للإشارة إلى أنّهم كانوا على حال التّنزيه والتّعظيم في الدّنيا، فالمُضيُّ لتحقّق الوقوع، وثبوتِ ما في حيّز القول وتحقُّقه أزلًا، فإنّ السُّبْحانيّة لمّا كانت مُتحقّقةً، وكانت هي مقولَ قولهم - طابَقَ اللفظُ مضمونَه في التّحقُّق؛ فجاء بصيغة الماضي[4].

الملائكةُ وعيسى عليه السلام نقضوا تهمةَ الشّركِ بتحقيقِ التّنزيهِ

(1) نخبةٌ من العلماء، التّفسير الميسر، ص: 361.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 208، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 337.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 194، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 362.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 45.

دلالةُ التّسبيحِ بلفظِ ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾:

العبدُ إذا نزّه اللهَ وسبَّحه فقد نزَّه نفسَه عنِ الفتنةِ والإثمِ

﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ لفعل محذوف؛ أيّ: تنزيهًا لك عمّا لا يليق بك[1]، والتّعبير بالمصدر؛ لتحقيق التّنزيه عنِ الأنداد، ومبالغةً منهم في تبرئة أنفسهم بأجمع الألفاظ التي تدلّ على كمال الاعتقاد عند المُتكلِّم، فنطقوا بتنزيه المعبودِ بحقٍّ ﷻ، وبتنزيه أنفسِهم عن ضلال الذين عبدوهم، وتمامِ عبوديَّتِهم للّه العظيم.

نُكْتَةُ تصديرِ القولِ بالتّسبيحِ:

التّخليَةُ مُقدَّمَةٌ على التّحليَةِ

جاء في السّياقِ الكريمِ قوله: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ ولم يَقُلْ: (قالوا ما كان ينبغي لنا... سبحانك) بتأخير التّسبيح؛ بل صَدّروه في الجواب؛ تقديمًا للتّنزيه الإجماليّ على التّنزيه التّفصيليّ، وتقديمًا لما هو شهادةٌ في حقِّ اللّه، على ما هو شهادةٌ في حقّ أنفسهم، فإنّ تسبيحهم للّه عبوديّة، وشهادتهم بأعمالهم تزكيَةٌ، والعبدُ أوثق بما في حقّ اللّه، منه بما هو في حقّ نفسه، وتنزيهُ الرَّبّ يقينٌ، وتزكيةُ النّفس ظَنٌّ، واليقينُ مُقَدّم على الظَّنّ.

بلاغةُ الكنايةِ في جملةِ التّسبيحِ:

التّسبيحُ تمجيدٌ للهِ، وبراءةٌ منَ الشّركِ

في قولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ كنايةٌ عن لازمه منَ التّعجيبِ والاستبعادِ، فالتّعجّبُ حاصلٌ من أنْ يكونوا أندادًا معبودين مع اللّهِ ﷻ، والاستبعادُ حاصلٌ من أن يقع منهم إضلالٌ لهؤلاء؛ لأنّهم ملائكةٌ وأنبياءُ معصومون، أو أصنامٌ وجماداتٌ لا تَقْدِر على شيء[2]. "أيّ: كيف يَصِحُّ منّا أن نَصِفَكَ بما لا يليق بجلالك، ونحن عالمون بالتّقديس، وكيف يستقيم لنا أن نَحْمِل غيرَنا أن يتولَّوْنا دونَكَ، ونحنُ العابدون؟"[3].

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 681.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 45.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 194.

دلالةُ عمومِ المَجازِ في ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾:

القائلون بالتّسبيح في قوله: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ هم عمومُ المعبودين منَ العقلاء وغيرِ العقلاء، منَ الملائكة والأنبياء الذين عُبِدوا، ومنَ الأصنام، على معنى أنّ اللّهَ يخلق لها نطقًا على الحقيقة، فتقولُ وتتكلّم كلامًا يقع به الإفهامُ، وعلى اعتبار أنّ الأصنام تقول ذلك بلسان الحال، ففي فعل ﴿قَالُواْ﴾ عمومُ مجازٍ، أو الجمعُ بينَ الحقيقة والمجاز، فالقولُ في العقلاء حقيقةٌ، وفي غير العقلاء مجازٌ[1].

لـلآخِـرة سُـننٌ وأحوالٌ على غير ما تُعورِفَ عليه في الدّنيا

مراعاةُ أسلوبِ الحكيمِ في الجوابِ:

في جوابِ المعبودين: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ على سؤال ربّهم: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي﴾ مراعاةٌ لأسلوبِ الحكيم في الجواب، وهو منَ المُحسّنات البَديعيّة الرّفيعة، فقد أجابوا بما يتطابق مع مقاصد السّؤال، لا بمنطوق السّؤال، فلم يقولوا: (لم نُضِلّهم) بنفي الإضلال، كما هو وارد في السّؤال؛ بل أجابوا بالمقصود الجامع الأعظم، وهو إثباتُ المانعِ منَ الإضلال، وهو أنّهم أهلُ تسبيحٍ للّه، فكيف لهم أن يَخوضوا في ضِدّه منَ الشّرك والكفر، فضلًا عن أن يكون لهم إرادةٌ في تعبيد النّاس لهم، فلمّا كان السّؤالُ عنِ الضّلال والشّرك؛ أجابوا بالإخلاصِ والتّنزيهِ، فدفعوا المشؤومَ بالمَحمودِ، وأعرضوا عن سوءِ لفظِ الأوّل، بِحُسْنِ لفظ الثّاني، ولا يخفى ما فيه من تحرّي المنطقِ الأحسنِ، في مقامِ الاعترافِ للّهِ والاحتجاجِ إليه.

مَن عرفَ للخالقِ حقَّه كان لحقِّ المخلوقين أرعى وأوعى

دلالةُ النّفي بـ ﴿مَا﴾:

النّفيُ بـ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ أفادَ استمرارَ النّفي؛ أيِ: انتفاءُ ذلك مستمرٌّ لا ينفكّ عنّا[2].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 46.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 46، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 192.

إظهارُ العِرفانِ بما يجب وما يَحرُم من كمالِ أدبِ أهلِ الإخلاصِ

دلالةُ إقحامِ الكونِ الماضي بينَ النّفي والفِعل:

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (ما ينبغي لنا)؛ بل أقحم الكون الماضي بين أداة النّفي والفعل: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي﴾؛ فأفادَ تحقيقَ النّفي في الماضي واستمرارَه في الحاضر والمستقبل، فتسليطُ النّفي على الكون قبلَ الفِعل ﴿يَنۢبَغِي﴾ أفاد تحقيقَ النّفي وتأكيدَه، مع دَفْعِ توهّمِ اقتصارِ النّفي على الحال دون المُضيّ والدّوام.

لا يستأهِل مخلوقٌ أن يكون معبودًا

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يَنۢبَغِي﴾:

﴿يَنۢبَغِي﴾ هو مطاوع (ابتغى)؛ فيُقال: (ابتغى الشّيء فانبغى له)؛ أيْ: تذلَّل وتسَخّر، وتأتّى وتَيَسَّر، وكأنّهم قالوا: (ما كان لنا أن نبتغي عبادتهم حتّى تنبغي لنا)؛ فاصطفى هذا الفعلَ ليَدُلَّ على انتفاء المطاوعة والصِّلة بينَ هؤلاء وهؤلاء من جميع الوجوه، مع ما في نفي الفعل ﴿يَنۢبَغِي﴾ من الدّلالة على تنزّههم عن بُغيَة ذلك وتجرّدِهم منه، فضلًا عن عدم تيسّره أصلًا لهم؛ لعدم استئهالهم له[1].

أدعياءُ الأُلوهيّةِ يُخالفون تكوينَهم وطبائعَهم ليستمرّوا على ادّعائِهم

فائدةُ التّقييدِ بالمتعلّقِ في ﴿لَنَآ﴾:

لم يقلْ في السّياق الكريم: (ما كان ينبغي أن نتّخذ)؛ بل علّق الجارَّ والمجرورَ بالفعل المُشتمل على ضميرهم: ﴿يَنۢبَغِي لَنَآ﴾؛ ليدلَّ أنّ هذا مُمتَنِعٌ في حقّهم بقوّةِ العِصْمَة كما في الأنبياءِ والملائكةِ، أو بقوّةِ القَهْرِ الوجوديِّ كما في الأصنامِ والجمادات، وليَدُلّ على مفهومه المخالِف، وهو أنّه قد ينبغي لغيرهم بقوّةِ الاختيارِ، كفرعون والنّمرودِ والأباطرةِ المعبودين، ولو حُذِفَ الجارُّ والمجرورُ: ﴿لَنَآ﴾، لكان فيه إلباسٌ بتعميم امتناعِ ذلك، فدلَّ قولُه: ﴿لَنَآ﴾ على التّخصيصِ، كأنّهم قالوا: (ما ينبغي لنا خاصّة؛ لأنّنا غيرُ قابلين لذلك بقوّةِ التّكوينِ وقوّةِ التّشريعِ، بخلافِ غيرنا الذي ينبغي له ذلك).

---

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (بغي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بغو).

دلالةُ المصدرِ المؤوّلِ في ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾:

المصدرُ المُـؤوّلُ ذو معنيَيْن ينتظمان في سلكٍ واحدٍ

المصدر المُؤوّل من ﴿أَن﴾ و(الفِعل) في قوله: ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ وقع فاعلًا لقوله: ﴿يَنۢبَغِي﴾؛ أيِّ: (ما ينبغي اتّخاذُنا ذلك)، والمصدر المُؤوّل صيغةٌ استيعابيَّةٌ لدلالة الاسميّة ودلالة الفعليّة، فينتظِم فيه معنيان في سِلْكٍ واحدٍ، فيَدلّ على حركة المعنى في الزّمن، وهو الفعليّة، ويدلّ على معنى المصدر في دلالته على أصل الحَدَث وحقيقته، فيجمع بينَ الحُدوث والحَدَث، واستعمالُه - هنا - يدلُّ على كمالِ نفي الاتّخاذِ المذكورِ عنهم، وبراءتِهم الكليّةِ منه.

نفيُ الحدثِ دونَ تفصيلاتِه أدلُّ على الشُّمولِ

المصدرُ المُؤوّلُ ولا سيما مع ﴿أَن﴾ يدلُّ على مُجرَّدِ معنى الحدَثِ دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَن﴾ تحصينٌ منَ الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال، فينصرِفُ الكلامُ إلى الحَدَث دونَ صفةٍ من صفاته وهيئاتِه[1]، وتعبيرُهم بالمصدر المُنسبِك ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ يُراد منه نفيُ حَدَثِ اتّخاذِ المَعبودين مَن يعبدُهم أولياءَ، دونَ كيفيّات ذلك وحالاته؛ ليَشملَ كلَّ صورِ الولاية، وكيفيّاتِها، وماهيّاتِها.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿نَّتَّخِذَ﴾:

الولايةُ صفةٌ مُطاوعةٌ بين العابدِ والمعبودِ

قرأ الجمهور: ﴿نَّتَّخِذَ﴾ بالبناء للفاعل؛ أيِّ: لا نتخِذ العابدين لنا أولياءَ من دونك، وقرأ أبو جعفر المدنيّ: ﴿نُتَّخَذَ﴾ بالبناء للمفعول لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ أيِّ: لا يَتَّخِذُنا العابدون أولياءَ لهم من دونك، والقراءتان متكاملتان، والجمع بينهما يُفيد ثبوتَ الولايةِ بينَ العابد والمعبود، فالعابِدُ يتولّى معبودَه بالتّسليم والتّعظيم، والمعبود يتولّى عابِدَه بالتّأييد والقَبول[2].

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن دُونِكَ﴾:

كلُّ معبودٍ سوى اللهِ فهو حطيطٌ في تلك الرُّتبةِ لا يُداني اللهَ فيها

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِكَ﴾ صِلةٌ لتأكيدِ نفيِ الاتّخاذِ عن جانبِ

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 148.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 339.

اللّهِ بالكليّةِ؛ أيّ: لا اتّخاذَ يقع دونَك البتّةَ، ويصِحّ أن تكون ﴿مِن﴾ ابتدائيّةً؛ أيّ: لا يصلُحُ اتّخاذُ وليٍّ من جهةٍ سِواك، وكلّ ما سواكَ دونَك، و﴿مِن﴾ الابتدائيّة - هنا - أخصّ في المعنى مِنْ أن يقول: (نتَّخذ دونك)؛ لأنّه يُعيّن مبدأ الاتّخاذ، وتعيين المَبدأ يُفيد القُربَ وعدمَ الفاصل؛ أي: اتّخاذٌ ناشِئٌ منَ الجهة القريبة الدّانيَة منك التي تليكَ في الرُّتبةِ والمقام، فـ ﴿مِن دُونِكَ﴾ تدلّ على اعتقادهم ومسلكِهم في أنّهم كانوا يتَّخذون هذه المعبودات لِتُقرِّبهم إلى اللّه زُلفى، فهم يتّخذونها من دونه؛ أيّ: بعدَه مباشرةً، أو تدلّ على القُرب الرُّتبيّ، بمعنى أنّهم جعلوها في منزلةٍ قريبةٍ منَ اللّه في استحقاق العبادة، ولكن مع ذلك هي دونَه في الحقيقة ولا تساويه أبدًا، ولو قال: (نتَّخذ دونك) لاحتمل الاتّساع وعدمَ القُرب الرُّتبي، وهذا القُرب الرُّتبي هو كما بينَ الوسائل والغايات، فالوسيلةُ دونَ الغاية؛ لكنّها تقترب منها وتنشأ بعدَها[1].

معنى ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾:

لا يُزاحِمُ اللهَ في استحقاقِه إلّا العُتاةُ المُجرمون

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يُحتمل أن تكون الاستغراقيّة؛ لتأكيد مضمون النّفي، وتُفيد العموم؛ أيّ: لا نتّخِذُ دونَكَ وليًّا قطّ، أيًّا كان جِنسُه أو ماهيّتُه، وفيه: إفادةُ الحَصْر في مفهومه، كأنّه قيل: لا وليَّ إلّا أنت، فكلّ وليٍّ دونَكَ هَدَرٌ.

دلالةُ التّنكيرِ في ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في قوله: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ نكرةٌ في سياق النّفي، فتَعُمّ[2]؛ لتشمل كلَّ جنسِ الموجودات.

دلالةُ الاستدراكِ في ﴿وَلَٰكِن﴾:

تجريحُ الجاني في الشّهادةِ عليه بما يستحِقُّه

قولُه: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ استدراكٌ معطوفٌ على ما قبلَه داخلٌ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 681.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 339.

في حيّز القول في: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾، وهو استدراكُ توطئةٍ إلى الغايةِ بعدَه في قوله: ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ فالجملةُ الغائيّة مِنْ ﴿حَتَّىٰ﴾ وما في حيّزها هي المقصودةُ بالاستدراك، وجملة: ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ توسّلٌ إلى الغايةِ بسببِها.

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾:

التَّعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾ أفاد تحقُّقَ التّمتُّعِ ووقوعه، إمّا لأنّهم استوفَوا منه، وإمّا لأنّ هذا الجوابَ يومَ الحساب والتّمتيعُ المَذكور في أيّام الدّنيا؛ وكلاهما مُرادٌ.

دلالةُ الخطابِ في ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾ دونَ: (مُتِّعوا):

نَزّهَهُمُ اللهُ بالإنعامِ والمَتَاعِ، ولم يُنزِّهوه بالإخلاصِ والعُبوديّةِ

لم يُقلْ في السّياق الكريم: (ولكن مُتِّعوا) بالبناء للمفعول؛ بل جاء الفعل بضمير الخطاب للذّات العَليّة: ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾؛ لأنّه الأصل في السّياق، والنَّظمُ جارٍ على الخطاب في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، فحُقَّ له أن يَطّرِد على الخطابِ عند ذِكْر آثار السُّبحانيّة الإلَهيّة، وهو الإنعام بالتّمتيع، فكما خاطبوه بالتّنزيه ذاتًا في ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ خاطبوه كذلك بالتّنزيه فِعلًا في: ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾؛ ليَدُلَّ على أنّه نزَّهَهُم بالإنعام والمتاع، ومع ذلك لم يُنزِّهوه بالإخلاص وإفرادِه باستحقاق العبوديّة، ولا يخفى ما فيه منَ التّعريض بهؤلاء العابدين، وتسجيل المَذمَّة عليهم، وأيضًا: خطابُ المعبودين للجليل بـ ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾ فيه ثناءٌ منهم عليه سبحانَه بما يستلزمُ البَرهنة منهم على صحّة اعتقادِهم بنسبةِ الفضائلِ إلى اللّه وحدَه، وهذا من تَتِمَّةِ براءَتهم في قضيّة العابدين لهم، فأثْنَوا عليه إجمالًا بـ ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، وأَثْنَوا عليه تفصيلًا أو تفسيرًا بـ ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾، وكأنّهم فسَّروا الثّناءَ الأوّل بالثّناء الثّاني.

أعظمُ النِّعمِ ما اجتمع فيه راحةُ البدنِ وقِلّة التَّدبير

دلالةُ عطفِ الآباءِ عليهم:

قوله: ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ معطوفٌ على ضمير الجمع في: ﴿مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾؛

أيْ: متّعتهم ومتّعت آباءَهم، وفائدةُ ذِكْرِ الآباءِ: الدّلالةُ على أنّهم ورِثوا النّعيمَ والمتاعَ، فهم مُتأصّلون فيه، قد آلَ إليهم هذا التّمتيعُ على راحةٍ ويُسْر على غير نَصَبٍ وعناءٍ، ففي ذِكْرِ الآباءِ دلالةٌ على أنّ هذا التّمتيعَ المَذكورَ تمتيعٌ عظيمٌ، وأنّه إنعامٌ كثيفٌ بعضُه فوقَ بعضٍ، فكونُهم وُلِدوا في هذا التّمتيعِ عند آبائِهم نِعمةٌ عظيمةٌ، وكونُ التَّمتيعِ دامَ لهم نعمةٌ أُخرى أعظمُ.

دلالةُ جعلِ النّسيانِ غايةً للتّمتيع:

الـتّرفُ يُنسي ويُطْغي

جَعْلُ تَمتيعِهم في جملةِ الاستدراكِ سببًا لِنسيانهم ونسيانُهم غايةً له وصْفٌ لحالِهم بما لا يُبْقي لهم عُذْرًا، ولا يُتَوَهَّم معه ذريعةً في ضلالهم؛ لأنّه ربّما توهّم مُتوهِّمٌ أنّ بؤسَ عَيْشِهم كان ذريعةً في انقطاعهم عنِ الذِّكرى والاهتداء، فأَخبَروا عنهم بما ينبغي أن يكون سببًا في الإيمانِ والإحسانِ، فواجهوه بالكفرِ والنّسيانِ، وتلك هي نُكْتَةُ عدمِ الاكتفاءِ بجملةِ الغاية، ولذلك لم يُقَلْ: (ولكن نسوا الذّكر)؛ ليجمعوا في جوابهم على ربّهم تمامَ البراءةِ لأنفسهم، وتمامَ الجنايةِ لعابديهم وانقطاعِ الحُجّةِ عنهم.

دلالةُ ﴿حَتَّىٰ﴾ في ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ﴾:

النّسيانُ وعدمُ الاكتراثِ بالحقِّ غـايـةُ كُـفـرانِ النِّعمِ

﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ حرفُ غايةٍ وجَرٍّ، ولذا فإنّه يُفَسَّرُ بحرف الانتهاء، كأنّه قيل: (إلى أنْ نسوا الذّكر)، فالجملةُ بعدَ ﴿حَتَّىٰ﴾ صلةُ موصولٍ حرفيٍّ مُقدَّر، والمصدرُ المُؤوّل منَ الموصول المُقدَّر والفِعل مجرورٌ بـ ﴿حَتَّىٰ﴾[1].

دلالةُ جَعْلِ نسيانِ الذِّكْرِ مِن نواتِجِ التّمتُّعِ:

لا يَـحْـجُـبُ عنِ الذِّكْرِ إلّا إلهاءٌ عظيمٌ

جَعْلُ نسيانِ الذِّكْر من نواتج التّمتُّع في قوله: ﴿مَتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ كنايةٌ عن عِظَمِ هذا التّمتُّعِ ووفْرتِه وبَسْطَتِه؛ لأنّه

(1) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 325.

أدّى بهم إلى نسيان الذِّكر والضّلال، ولا يَحْجُب عنِ الذِّكر إلّا إلهاءٌ عظيمٌ، وهو كنايةٌ أيضًا عنِ استغراقهم في التّمتّع حتّى غاب بهم عنِ استحضار الذِّكرِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالنّسيانِ:

ما يـزالُ العبدُ يتركُ الخيرَ حتّى ينساه

التَّعبيرُ بالنّسيانِ في قولِه: ﴿نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ مجازٌ مُرسلٌ، أَطْلَق فيه النّسيان وأراد التَّرْك؛ أيْ: تركوا الذِّكْر؛ لأنّ الذِّكْر لائحٌ لا يُنسَى، فهم تاركوه على ذُكْرٍ منهم؛ فشُبِّه حالُهم في التّرْكِ والمُجانَبَةِ للذِّكْر بحالِ النّاسي شيئًا بالكلّيَّة فلا يستحضِره، فيغيبُ عنه ويَترُكُه، فيجري هذا التّشبيهُ على الاستعارة التّمثيليّة في التّركيب.

دلالةُ إسنادِ النّسيانِ للذِّكْرِ:

أهــدرَ حيـاتَـه مَـن لـم تنفَعْهُ الذِّكْرَى

إسنادُ النّسيان للذِّكْر خاصّة دونَ الوحي أوِ الحقّ أوِ العِلْم أوِ الكتاب، وغيرِ ذلك، فيه مقابلةٌ معنويّةٌ بديعةٌ، ومبالغةٌ في وصفِ ضلالهم؛ لأنّ الاستذكارَ يقابلُ النّسيانَ، فإذا نَسوا ما هو من خصائصه أنّه باعِثٌ على الذِّكْر والفِكْر، ومع ذلك نَسوه، ويكَأنّه يقول: نَسَوا حقيقةَ الذِّكْر، فعاشوا بالنّسيان لا بالاستذكار، فضلّوا شَرَّ ضَلالٍ.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾:

الذِّكْرُ كائنٌ في كـلّ مـا يبعـثُ عـلى الـتّـذكُّـرِ واليقظةِ

(أل) في ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ للجنس؛ أيْ: كلّ ما هو من خصيصته وحقيقته أنّه ذِكْرٌ يحفظ منَ الضّلال والنّسيان، وكأنّه أراد مَلَكةَ التّذكّر والجاهزيّة لها، فأخبر أنّهم من كثرة ضلالهم قد عُدِموا ذلك، وطُمِس على مَلَكاتِهم، واختيارُ اللّفظ تعريضٌ بهم، أو (أل) للعهد؛ أيْ: ذِكْر الوحي والكتاب، أو (أل) التّعويضيّة عن مُضافٍ إليه محذوف؛ أيْ: ذِكركَ، أو ذِكْرَ اللّه[1].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 49.

دلالةُ العطفِ بالكونِ الماضي:

العطفُ بالكونِ الماضي في الإخبارِ عنهم في قولِه: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ يَدُلُّ على أنّ غالب أحوالِهم الضّلال، ولم يعتادوا صلاحًا ولا استقامةً.

دلالةُ الإخبارِ عنهم بـ ﴿قَوۡمَۢا﴾:

الاجتماعُ على الكفرِ يُغري بعدمِ النّظرِ والتّحريرِ

التَّعبير عنهم بـ ﴿قَوۡمَۢا﴾ فيه إشارةٌ إلى إجماعهم على الضّلال إجماعَ تقويةٍ وتقويمٍ وتألُّفٍ، وأنّ مسلكهم في عبادةِ الأندادِ كان مسلكَ قومٍ مجتمعين عليه، يُقوّي بعضُهم بعضًا، ويتكاثرون عليه ويتظاهرون حتّى صارَ الضّلالُ دُستورًا بينَهم يُدافعون عنه[1].

دلالةُ الوصفِ بالمصدر ﴿بُورٗا﴾:

للضّلالِ غيبوبةٌ تُفسِدُ القلوبَ وتُبير النّفوسَ

وَصْفُ القوم بالمَصدر الذي يَصْدُق على الواحد والجماعة، والمُذَكّر والمؤَنّث في قوله: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾، مبالغةٌ في وصف حالِهم المُتمكّنة من عاقبة السّوء، لمّا تمكّنوا من أسبابها منَ الضّلال، فجَعَلَهم كأنّهم خُلِقوا منَ البور الذي هو الهلاك، وكأنّ حقيقةَ البوارِ متركِّبةٌ فيهم لا تنفكّ عنهم، ولتقرير هذا التّمكُّن من حقيقة الوصف المُقَرِّر لمضمون ما قبله لم يُقل: (نَسوا الذّكرَ وباروا)؛ للدّلالة على أنّ نسيانَهم كان عملًا، وبوارَهم كان جَزاءً، هم فيه ماكثون، ولا يخفى ما في التَّعبير بالاسميّة دونَ الفعليّة من صيانة الفاصلة ألّا تنخرِم[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البور والهَلاك:

الهلاكُ هو نتيجةُ البورِ

الفرقُ الدّقيق بينَ البور والهَلاك كالفرقِ بينَ السَّببِ والنّتيجة؛ فالبور في حقيقته كسادٌ وتَعَطُّلٌ وبُطلانٌ وفسادٌ يُنتِجُ الهلاكَ ويُؤدّي

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قوم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 341.

إليه، فالهلاكُ هو نتيجةُ البور، وغلبَ إطلاقُه على نفْس الهلاك استعمالًا لا أصلًا، من باب تسميَة الشّيء باسم ما يَؤول إليه، ويَتوجَّهُ أن يُقال: إنّ البور وجوهٌ عديدةٌ، منها الهلاكُ أو في نهايتها الهلاكُ، والهلاكُ وجهٌ واحد هو الزَّوالُ والفناء، أو ما يجري مجراهما ممّا يدلّ على حالة الانعدام والنّفاد التّامّ، ونُكْتَةُ استعمالِ البورِ هنا في قوله: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ دون الهلاك، هو الدَّلالةُ عليهم في حال الدّنيا؛ لأنّ السّياق يتناول حالًا لهم في الدّنيا في قوله: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾؛ فهو يُشير إلى ما آلَ إليه حالُهم في العمل والمَسلَك بعد نسيانهم الذّكر، وهو أنّهم كانوا قومًا بورًا، لا يُنتِجون عملًا صالحًا، ويُفْسِدون في الأرض ولا يُصْلِحون؛ فهم يعيشون حالةً من كساد الأحوال وفسادِ الأعمال، وهي حالةُ البور، كالأرض البور التي لا تنتِج، وإذا أنتجتْ ضَرَّتْ وما نفعتْ، ولا ريبَ أنّ مَن كانت هذه حالَه، فهو صائرٌ إلى الهلاك لا محالةَ، ولذا عَبّر بالبور، كأنّه قال: وكانوا قومًا بطّالين مُبْطِلين مُحبَطي الأعمال لا خيرَ فيهم، ولا عاقبةَ لهم إلّا الهلاك، ولو قال: (وكانوا قوما هالكين)؛ لأوهمَ أنّه يقصد الحالةَ الخاصّة منَ الهلاك، وهو وقتُ نزولِ العذابِ بهم في الدُّنيا، أو الهلاكِ الأُخْرَويّ.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾ [الفرقان: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستطاعةُ يومَ القيامةِ كائنةٌ للمؤمنِ الذي عبَدَ اللهَ وهو سالِمٌ مُستطيعٌ في الدّنيا

لمّا ذَكَرَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ احتجاجَ المعبودين عليهم وبراءَتهم منهم؛ التفتَ الحقّ سبحانه في هذه الآية إليهم بخطابٍ مُباغِتٍ وحاسم، كأنّه الحُكْمُ والقضاء بعد التّحرّي والاستقصاء؛ فقضى عليهم بأنّهم كاذبون مُكَذِّبون، وعاجزون مُضطرّون، وظالمون مُعذَّبون، فكانتِ القاصمة القاضية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرۡفٗا﴾: (صرف) أصلٌ يدلّ على رجْعِ الشّيءِ[1]، والصّرْف: ردُّ الشّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، وإبدالُ غيره به، وقيل: هو التّقليب والتّحويل[2]؛ يُقال: صَرَفْتُهُ فانْصَرَفَ: إذا رددتّه عن وجهه الذي كان عليه، فتَحَوّل عنه[3]، ولذا سُمّيتِ التّوبة بالصّرفِ؛ لكونها انقلابًا من حالِ المعصيةِ إلى حالِ الطّاعةِ[4]، وكلّ تغيّرٍ من حالٍ إلى حالٍ، فهو صَرْفٌ للحالِ ودفْعٌ لها إلى ما سواها، وقولُه في هذه الآية: ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾؛ أيّ: ما يستطيعون أن يصرفوا عن أنفسهم العذابَ ولا أن ينصروا أنفسَهم، فلا يَردّونه عنهم، ولا يُفلِتون بأنفسهم منه[5].

المَعْنى الإجماليُّ:

تعريفُ الجاني حيثيّةَ الحُكمِ عليه وتفصيلُ ذلك له

يُخبر سبحانه عن فصل الخطاب الذي بوغِتَ به المشركون في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).
(2) السَّمين، عُمدةُ الحُفَّاظ: (صرف).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (صرف).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (صرف).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (صرف).

مقام الاحتجاج عليهم أمامَ معبوديهم، فيُقال لهم: لقد كَذَّبَكم هؤلاء الذين عبدتُموهم في ادِّعائكم عليهم، فها أنتُم أولاءِ لا تستطيعون دَفْعًا للعذاب عن أنفسكم، ولا نصرًا لها، ومَن يُشرك بالله فيَظْلم نفسَه ويَعْبُد غيرَ الله، ويمُتْ على ذلك، يُعذِّبهُ اللهُ عذابًا شديدًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم﴾ ممّا قبله:

مواجهةُ الظّالِم بجناياتِهِ بعد إقامةِ الحُجَّةِ عليه

جملة ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ معطوفةٌ على قولٍ محذوفٍ ترتّب على جواب المعبودين السّابق في ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، والفاء فصيحة؛ أيْ: فقال اللهُ تعالى عند ذلك: فقد كذّبكم المعبودون أيُّها الكَفَرة في قولكم إنّهم آلهة، ففي الجملةِ حذفٌ للقول، والتفاتٌ بالخطاب إلى العابدين بعد تمام جواب المعبودين؛ مبالغةً في مفاجأتهم، والتّفرّغ لهم بالتّقريع والتّبكيت، وهو التفاتٌ إلى أحد طرفي الخصومة بعد استجواب الطّرف الآخر، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ [يوسف: 29] بعد قوله: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ [يوسف: 29]، والجملة على هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ[2].

نُكْتَةُ حَذفِ فعلِ القولِ:

مُعايشةُ الخبرِ هي غايةُ الاستفادةِ منه

في حذف فعل القول من قوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ على تقدير: (فقال الله تعالى: فقد كذّبوكم) استحضارٌ لصورة المقام كأنّه مُشاهَدٌ، فلا يحتاج للحكاية بالقول، وكأنّ السّامع يُشْهِد العابدين وقد بُهِتوا بالحُجّة، وخُذِلوا بعد الشّهادة عليهم مِنَ المعبودين، وهو تفنُّنٌ بديع في الحكاية، يعتمد على تنزيل المَحكيّ منزلةَ الواقعِ المُتخيَّلِ، كأنّه مشهودٌ معيشٌ[3].

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسر، ص: 361.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 209، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 342.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 342.

دلالةُ (قد) التّحقيقيّة في السّياقِ:

(قد) في قوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم﴾ تحقيقٌ لمضمونِ مدخولها، ونُكْتَةُ التّحقيق أنّه مَسوقٌ في موقع القضاء والفصل والاحتجاج؛ فاحتيجَ لإيقاعه بأسلوب التّحقيق واليقين.

معنى الباءِ في ﴿بِمَا﴾:

الباءُ في قوله: ﴿كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ للظّرفيّة المجازيّة؛ أيْ: كذّبوكم في شأنِ قولكم، أو للسّببيّة؛ أيْ: كذّبوكم بسبب ما تقولون[1].

معنى (ما) في ﴿بِمَا﴾:

العبرةُ بحقيقة القول في نفسه لا بتصوّر الأذهان عنه

(ما) في قوله: ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ يُحتمل أن تكون موصولًا اسميًّا، والعائد محذوف؛ أيْ: كذّبوكم في الذي تقولونه، ويُحتمل أن تكون موصولًا حرفيًّا، تؤوّل مع الفعل بمصدر؛ أيْ: كذّبوكم في قولكم، أو بسبب قولكم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقولِ دونَ غيرِه في ﴿تَقُولُونَ﴾:

القولُ مَلفوظٌ بالنّطقِ، أو مدلولٌ عليه بالحالِ

لم يُقَلْ في السّياق الكريم: (فقد كذّبوكم بما تفترون أو تدّعون)، ونحو ذلك؛ بل عُبّر بالقول: ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾؛ لأنّه قولٌ مقابلٌ لقولِ المعبودين، كما عبّر به في قوله: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾، فقولُ هؤلاء التّنزيه، وقولُ هؤلاء التّضليل، وأيضًا: التّعبير بالقول دونَ غيره في ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾؛ لاحتمال أن يُراد به قولُ المعبودين بالتّنزيه في قولهم: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ أيْ: فقد كذّبَكم العابدون أيّها المعبودون في قولكم: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء، حيثُ زعموا أنّكم آلهة[3].

دلالةُ القراءةِ بالغيبةِ في ﴿يَقُولُونَ﴾:

تباينُ الضمائرِ يُباينُ المعاني

قرأ قُنْبُل بخلاف عنه ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُمو بِمَا يَقُولُونَ﴾ على الغيبة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 342.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 441.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 441.

وتوجيه ذلك عَودُ الخطاب للعابدين في ﴿كَذَّبُوكُم﴾، وضمير الجمع فيه وفي ﴿يَقُولُونَ﴾ للمعبودين؛ أيّ: فقد كذَّبكم أيّها العَبَدةُ مَنْ كنتم تعبدونهم بقولهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، وأنّه ما كان ينبغي لهم أنْ يتّخذوا من دونه من أولياء، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تَقُولُونَ﴾[1].

معنى الفاءِ في ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ﴾:

مَنْ لم يستطعِ الحقَّ في الدُّنيا فلا استطاعةَ له في الآخرةِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ﴾ لتفريع مدخولِها على ما قبلَه، فما بعدَها مُترتِّبٌ على ما قبلها ترتُّب النّتيجة عنِ السّببِ، ويصِحّ أن تكون الفصيحة، فمدخولُها معطوفٌ على شرطٍ محذوفٍ ناشئ عمّا قبله؛ أيّ: فإذا ثبت كَذِبُكُم أيّها الكَفَرةُ في اتّخاذ المعبودين أندادًا من دون اللّه، وتحقّق الحقُّ ببراءة العابدين بتسبيحهم لربّهم، ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾، أو هي فاءُ التَّسبيب؛ أيّ: فتَسبَّبَ عن ذلك التّكذيبِ أنّكم أيّها المشركون لا تملكون دفعًا للعذاب ولا نصرًا لأنفسكم، وكلّ هذه المعاني لا تخرج عن معنى التّفريع المَذكور[2].

دلالةُ القراءةِ بالغَيبةِ في ﴿فَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

لا أحدَ يستطيعُ نفعًا أو ضرًّا إلّا بإذنِ اللهِ ورِضاه

قرأ الجمهورُ بالغَيبة في قوله: ﴿فَمَا يَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ على أنّ الضّمير للمعبودين؛ أيّ: ما يستطيع الشُّركاءُ والمعبودون صرفَ العذابِ عنكم، ولا جلْبَ النّصر لكم[3]، وقرأ حفصٌ عن عاصم بتاء الخطاب ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ﴾[4].

دلالةُ التّغليبِ في واوِ الجمعِ:

التّغليب ضربٌ منَ المجازِ

واو جمعِ العقلاءِ في قولِه: (يستطيعون) على قراءةِ الياءِ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 334، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/ 5262، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 441.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 364، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 342.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 16/ 439.

(4) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 463، وابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 271، ومكّي، التّبصرة، ص: 613، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 334.

عائدةٌ إلى المعبودين من الملائكة وعيسى وغيرهم من أولي العقلِ والعِلْم، وعائدةٌ إلى المعبودين منَ الأصنامِ والجماداتِ غيرِ العاقلةِ، بتغليبِ العاقلِ على غيرِ العاقلِ وتنزيلِهِ منزلتَه، ويمكن اعتبار إرادةِ المعبوداتِ كافَّةً (عاقلة وغير عاقلة) من طرائقِ عموم المجازِ، أو الجمع بين الحقيقةِ والمجازِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في ﴿صَرۡفٗا﴾ ﴿نَصۡرٗاۚ﴾:

ليس مَن يَعْجِزُ فلا يفعل، كمَن يحاولُ فيَعْجِز

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (كذّبوكم بما تقولون فلا تُصرفون ولا تُنصرون)؛ بل نفى الاستطاعةَ وأسندها إلى المصدر؛ ليمنعَ عنهم مُجرَّد الاتّصافِ بالفعل، فقد يحاول المَرءُ أنْ ينصر نفسَه، أو يصرفَ عنها السّوء، فيكون متَّصفًا بالفعل، ولكنّه يفشل في إمضائه، فعبّر بنفي الاستطاعة أوّلًا؛ ليُنبّه على تجرّدهم وخُلوِّهم من جاهزيّة المحاوَلةِ أصلًا، فهم مجبورون مقهورون، ثمّ أسندَ العَجزَ الذي استلزمه نفيُ استطاعتِهم إلى حقيقة الحَدَث، وهو الصّرْفُ والنّصر؛ ليَدُلَّ على ثبوت عجزهم واستمراره، وكأنّ جنسَ النَّصرِ كلِّه خرج عن حَيِّز استطاعتِهم، وزالَ عنهم أفرادُه وحقيقتُه، ويجوز أن يكون مفهومُ النَّصرِ عدمَ استطاعةِ الدّفاع عن نفسك، فيأتي مَنْ يدفع عنك، والصّرف: أن تدفع بذاتك عن ذاتك إنْ تَعرَّضَ لك أحدٌ بالشَّرّ[2]، وبذا يكون نفيًا للقُدرتَيْن: الذّاتيّة، والخارجيَّة.

المجازُ في ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ﴾ لغرضِ التّهكّم:

كلّ مخلوقٍ هو بين يدي اللهِ لا يستطيعُ شيئًا دونَ إرادتِهِ

في ترتيبِ عدم الاستطاعةِ على التّكذيبِ في قوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ مجازٌ لقصد التّهكّم بهم وإيلامِهم؛ لأنّ عدمَ استطاعتِهم صرفًا ولا نصرًا لا يتوقّف على التّكذيب المَذكور؛ فليس التّكذيبَ سببُه حقيقةً؛ بل هو مُجرّد

---

(1) السَّمين، الدّرّ المَصون: 8/ 468، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 46.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10396.

أمارةٍ عليه، وعدمُ استطاعتهم حاصلٌ لا محالةَ بتكذيب أو من غير تكذيب؛ لأنّ سببَها الحقيقيَّ هو نزع الاختيارِ والإرادةِ عنهم في موقفِ الحسابِ، فلا قدرةَ لهم على شيءٍ البَتّة، فنَزَّل الأمارةَ العارضة منزلَةَ السَّببِ الوجوديِّ الحقيقيِّ في إنتاج آثارِهِ وترتُّب الحوادثِ المُلائمةِ عليه، ويصِحّ إجراءُ هذا التّشبيهِ على الاستعارةِ التّمثيليّةِ في التّركيب.

موقعُ جملةِ ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾:

تُذَيِّلُ حيثيّاتِ القضايا بِبُرهانِها العامِّ مِنَ القانونِ

جملة ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾ تذييلٌ له معنى التّعليلِ مُقَرِّرٌ لمضمون ما قبلَه، كأنّه قيل: لا يستطيعون صرفًا ولا نصرًا لأنّهم ظالمون مستحِقّون للعذاب، أو هي استئناف مُقَرِّرٌ للحُكْم العامّ في المصير، وارِدٌ كما يَرِد القانون العامُّ في أعقاب الحيثيّات الخاصّة مُصادقةً عليها، وتنبيهًا على أنّ الوقائع المذكورة منوطةٌ بهذا التّشريع الجامع محكومةٌ به، وعلى التّوجيه الأوّل: فالخطاب في ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾ للمشركين العابدين الأنداد، وعلى التّوجيهِ الثّاني: فالخطاب لعموم النّاس، ويدخل فيهم المشركون دخولًا أوّليًّا، ويكون في الكلام إظهارٌ في محلّ الإضمار؛ لتقرير عموم الخطابِ، كأنّه عدلَ عن أنْ يُقال: (فما تستطيعون صرفًا ولا نصرًا ونذيقكم عذابًا) إلى التّعميم في الشّرط ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾، وليَدُلَّ بهذا التّعميم على أنّ كفرهم حقيقٌ بأنْ يُتوعَّدَ عليه استقلالًا؛ لإيغالهم فيه وبلوغهم الغايةَ منه، والظُّلم في كِلا الخِطابيْن يُراد به الشِّرك، ومعنى ﴿وَمَن يَظۡلِم﴾ على أنّ الخطاب خاصٌّ بالمشركين: الدّيمومةُ والاستمرار؛ أيْ: ومَن يستمرَّ على ظُلمه وشِركه[1].

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿نُذِقۡهُ﴾:

التّهكُّمُ بهم ومُضاعفةُ الآلامِ عليهم

في قوله: ﴿نُذِقۡهُ عَذَابٗا﴾ نُزِّل إدراكُ العذابِ الأليمِ والإحساسُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 442.

به أَلَمًا وإيجاعًا منزلةَ مَنْ يستسيغ الطّعمَ تذوّقًا واستحسانًا؛ ففيه استعارةٌ تبعيّةٌ؛ للتّهكّم بهم ومضاعفةِ الآلامِ عليهم(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالإذاقةِ:

قوله: ﴿نُذِقْهُ﴾ مُشْعِرٌ بأشدّ العذاب؛ لأنّ الإذاقة تدلّ على سريان الألَمِ في الحاسّة واستغراقه لها، وهذا من أبشع ما يكون في مستوى الإحساس بالوجَع والتّضرّر به.

۞ الفروقُ المُعجميّةُ:

(الذّوقُ) و(المَسُّ):

الـذّوق يـدلّ على الإحساسِ العـمـيـقِ والـتّـشـبُّـعِ بالشَّيءِ

المَسُّ يتعلّق بحاسّة اللَّمس، ويكون من طريق اليَد أو البَشَرة (ظاهر الجِلد)، وتعلُّقُه بذلك يدلُّ على أنّ الأصل فيه أن يتعلّق بالإحساس الظّاهر الخفيف، وقد يتعلّق بالإحساس العميق المُتشبِّع، ويُحَدّد ذلك السّياقُ الذي ورد فيه، وأمّا الذّوقُ فيتعلَّقُ بحاسّة اللّسان والتّعاطي بالفم، ويستعمل هو والمَسّ في عموم تجربة الشّيء واختباره حِسًّا، إلّا أنّه يُستلهَمُ من هذا التّعلّق اللّغويّ أنّ الذّوق يدلّ على الإحساس العميق والتّشبّع بالشّيء، فهو يدلّ على كمال الإحساس وتمامه، ولا يَلْزم ذلك في المَسّ إلّا بقرينة، وسياقات القرآن المجيد تُنَبِّئُ عن هذا الفَرْق.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14: 54.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مزاولةُ الإنسانِ لأغراضِهِ الحياتيّةِ بنفسِه تحقِّق له الاستغناءَ وتنفي عنه الاتّكاليّةَ

لمّا تقدّم الطّعنُ على الرّسول ﷺ بأكل الطّعام والمشي في الأسواق؛ أخبر سبحانه بما يدفع هذه الشُّبهةَ وينفي معارضتَها لأصول النُّبوّات، ويُقرّر أنّها منَ العادات المُطّرِدة التي لا تقدح في الرّسول ولا رسالته[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةً﴾: (فتن) أصلٌ يدلّ على ابتلاءٍ واختبار، ومنه الفَتْن: الإحراق[2]؛ لأنّ به تُختَبَرُ معادنُ الأشياء، وأصل الفَتْنِ: إدخالُ الذّهبِ النّارَ لتَظْهَرَ جودتُه من رداءَته، واستعمل في إدخال الإنسان النّار، كما في قوله: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ [الذّاريات: 14]؛ أيْ: عذابَكم[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أكلُ الطّعامِ والمَشيُ في الأسواق وما في حكمهما غيرُ قادحٍ في أحدٍ البَتّةَ

تأتي هذه الآية رَدًّا على المشركين في قولهم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: 7]، فيقول - سبحانه - مخاطبًا نبيّه ﷺ: وما أرسلنا قبلَكَ - أيّها الرّسول - أحدًا من رسلنا إلّا كانوا بَشَرًا يأكلون الطّعامَ، ويَمشون في الأسواق، فكانوا في استغناءٍ بأنفسهم في قضاء حاجات دُنياهم، فلا يفتقرون إلى حياة الرَّفاهيَةِ والتّرف وكَثْرةِ الخَدَم، وقد جعلنا بعضَكم - أيّها النّاس -

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 94.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (فتن).

لبعضٍ ابتلاءً واختبارًا في الحقّ والباطل، والغِنى والفقر، والصِّحة والمَرض، هل تصبرون فتقوموا بما أوجبَه اللهُ عليكم وتشكروا له فيثيبَكم مولاكم؟ أم لا تصبرون فتستحِقّوا العقوبةَ؟ وكان ربُّكَ - أيّها الرّسول - بصيرًا بمَن يَجْزَع أو يَصْبِر، وبمَن يَكْفُر أو يَشْكُر[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في صدرِ الآيةِ:

تأخيرُ الرَّدِّ على القضيّةِ المُتقدّمةِ في السّياقِ اعتبارًا لأولويّتِها في ذلك

جملة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للرَّدِّ على كُفّار قريشٍ في استبعادهم أن يكون منَ البشر رسولٌ، وقولُهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: 7]، وأخبر اللهُ تعالى مُحمّدًا ﷺ وأُمّتَه أنّه لم يُرسل قبلُ في سالِف الدّهرِ نَبيًّا إلّا بهذه الصِّفة[2].

بلاغةُ الجِناسِ في ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ و﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

إيقاعُ التّسليَةِ من خلالِ الوقوفِ على النّظائرِ المتماثلةِ في الأحوالِ

في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جِناسُ اشتقاقٍ بين فعلٍ واسمٍ: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، اتّفقا في الجذر الثلاثيّ: (رسل)، وفيه أسلوبُ التّصدير البديع، فكلمةُ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في آخر التّركيب مردودةٌ على كلمة ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ ردَّ العَجُز على الصَّدْر، ولا يخفى ما في اجتماعِ الجِناسِ مَعَ التَّصدير من عذوبة الجَرس الصّوتيّ في التّركيب، واستحضارِ حركةِ الإرسالِ مُذْ نشوئِها إلى بلوغِ غايتِها.

دلالةُ تقديمِ الظّرفِ على الجارِّ والمجرورِ:

قَصْدُ الرّسولِ ﷺ بالخطابِ

لم يُقَلْ في السّياقِ الكريم: (وما أرسلنا من المرسلين قبلك)، وإنّما قَدَّم الظّرفَ ﴿قَبۡلَكَ﴾ على المفعول ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ بتقدير نزع الخافض؛ للاعتناء والاختصاص؛ لإناطة الرّسول ﷺ بالخِطاب والقَصْد[3].

---

(1) نخبة من العلماء، التّفسير المُيسَّر، ص: 361.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 205.

(3) صافي، الجدول: 9/ 318.

الفرقُ بين ﴿قَبۡلَكَ﴾ وبين (من قبلك):

لم يُقلْ في السّياقِ الكريم: (وما أرسلنا من قبلك)؛ بل أسقط الجارّ، فقال: ﴿أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾؛ لاستغراق زمانِ القَبْليّة جميعِه، ليتناولَ عمومَ الرُّسلِ؛ أيْ: هذه حالُ المرسلين منذ حصلَ إرسالٌ للرّسُل قبلَك، فحَذْفُ (مِن) تشديدٌ على عدم التّخلّف والانخرام في الحال المَذكورة في أيّ قطعةٍ منَ الزَّمن، قبلَ النّبيِّ ﷺ[1].

معالجةُ أمورِ الحياةِ كالمَشي في الأسواقِ حالُ كلّ الرُّسلِ وصَنيعُهم

معنى ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ صلةٌ للتّأكيد والاستغراق؛ أيْ: من كلّ المُرسلين، ولذا صَحّ إجراء ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مفعولًا به، مجرورًا لفظًا منصوبًا محلًّا، لاعتبار التّركيب من غير (من)، كأنّه قيل: أرسلنا قبلك المرسلين، ويصحّ أن تكون ﴿مِنَ﴾ بيانيّةً على أنّ ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ صفةٌ للمفعولِ المُقَدّر؛ أيْ: أرسلنا رجالًا، أو أحدًا، أو عددًا منَ المُرسلين[2].

كمالُ الرّسالة إذا انضمّ إلى كمالِ البشريّةِ يعني العِصْمَةَ

دلالةُ أسلوبي النّفيِ والاستثناءِ في الآيةِ:

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ استثناءٌ من أعمّ الأحوال؛ أيْ: وما أرسلنا منَ المرسلين في حالٍ منَ الأحوال إلّا وإنّهم يأكلون ويمشون، والنَّفيُ مَعَ الاستثناء أفادَ القَصْرَ، قَصْرَ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، وقَصْرُ قلْب؛ فهو يَرُدُّ اعتقادَ المشركين في قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾، فأثبتَ عكسَ اعتقادِهم وقلَبَه عليهم، بتقرير أنّ أكلَ الطّعام والمَشي في الأسواقِ من أحوالِ الرُّسلِ المعهودةِ والاعتياديّة، واستُفيدَ القَصْرُ من طريق النّفي والاستثناء في التّركيبِ؛ لإنكارِ المُخاطَبين أن يتّصف الرّسول بصفة

المَشيُ في الأسواقِ يكونُ غالبًا لكسبِ التّجاراتِ أو ابتياعِ الطّعامِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 365.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 468، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 684، وصافي، الجدول: 9/ 318.

البشر، فكانوا طاعنين، لا مُجَرّد جاهلين غافلين، أو نزَّلَهم منزلةَ المُنْكِر؛ إذ كانت أحوالُ الرّسلِ الأوّلين لا تخفى عليهم، فاحتيجَ في الرَّدِّ عليهم إلى أوفى أساليبِ القَصْرِ(1).

توجيهُ مُضارعيَّةِ فِعْلَي الأكلِ والمَشي، وإعرابُ جملتيْهما:

الأكلُ والمَشيُ حالُ المُرسلين جميعًا

صَوغُ فِعْلَي الأكلِ والمَشي على هيئةِ المضارع يدلُّ على ديمومة فعلهم هذا، نشاطًا حياتيًّا يمارسونَهُ، وحالًا بَشريًّا يَدأبون عليه مُدّة حياتِهم، ومن هنا فالأقربُ إعرابُ جملة ﴿إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ حاليةً؛ أيْ: ما أرسلناهم إلّا والحالُ التي تُحيط بهم أنّهم يأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق؛ فتلكَ حالُهم، ويجوز أن يكون في الكلام محذوفٌ (هذه صفته)؛ فذُكرتِ الصِّفةُ مُغنيةً عنِ الموصوف المُقَدّر، ويكون سياق القولِ، وما أرسلنا إلّا رُسُلًا إنّهم ليأكلون، والحاليَّةُ أَوْلى؛ لأنّ ما لا يحتاج لتقدير أَوْلى(2).

بلاغةُ الكنايةِ في أكلِ الطّعامِ والمَشي في الأسواقِ:

حاجةُ الإنسانِ جَلْبُ الطَّعامِ ودفْعُه، ومَشيُهُ للسّعي في قضاء حوائجه

قولُه: ﴿يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ كنايةٌ عن لازمه من حصول الهضم والحَدَث والتّغوّط، وقوله: ﴿وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ كنايةٌ عن أنّهم يخدمون أنفسَهم ويسعون في قضاء حوائجهم كسائر النّاس(3).

بلاغةُ حَشْدِ المُؤكِّدات:

الكافرُ يبني قَدْحَهُ ومَدْحَهُ على المعادَلة الدُّنيويّة المحدودةِ والقاصرة

في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ تقريرٌ لأصلِ النّبوّات، وما يجوز معه ولا يُنافيه بأبلغِ تحقيقٍ وآكَدِ أسلوبٍ، فحَشَد لذلك المُؤكِّدات عنايةً بمضمون هذا الأصل، فساقَ التّركيبَ بأسلوب القَصْر، وبطريق النّفي والاستثناء، وافتتح الكلامَ بـ(إنّ) المُؤكّدة؛ تحقيقًا لجملة

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 55.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5263.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 205.

الحالِ في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ﴾؛ أيِّ: إلّا وإنّهم ليأكلون، أو: إلّا وهم يأكلون، ولم تقترن جملة الحال بالواو؛ لإغناء أداة الاستثناء عنِ الواو في الرّبط، لا سيّما وقد تأكّد الرَّبطُ بحرف التَّوكيد، فلا يُزاد حرفٌ آخَر، فتَتَوالى أربعةُ حروفٍ وهي: ﴿إِلَّآ﴾، و(إنّ)، واللّام المُزحلقة في الخبر، ويُزاد الواو[1].

عِلَّةُ الإطنابِ في وصفِ حالِ المُرْسَلين:

الإطنابُ المُطابِقُ للمَقامِ توفيةٌ للمعنى والمقْصِد

أطنب البيان القرآنيُّ في وصف حال المرسلين في قوله: ﴿لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾؛ لكونه ردًّا على ما استبعدوه واستعجبوا منه في قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾، فأثبت في الجواب ما انبنى عليه الاستعجاب، وهذه نُكْتَةُ تخصيصِ أكل الطّعامِ والمَشيِ في الأسواق بالذِّكْر؛ ليوافقَ المقامُ المَقالَ.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

الجَعْلُ قضاءٌ وحُكمٌ

جملة ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ استئنافٌ مُقَرِّرٌ لمضمون ما قبلَه، كأنّه قيل: أرسلنا الرُّسل بشرًا مثلَكم، يأكلون الطّعام ويمشون في الأسواقِ، يقضون حوائجَهم بأنفسِهم، لا يُخدَمون كالمُلوكِ؛ لنختبرَكم بهم هل تصدّقونهم في شؤونِ الإيمان والآخرة أم تُعيّرونهم بناءً على مقاييس الدّنيا وسَرَف العقول؟ ففي العطف به تسليةٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ على ما قالوه بعد نقضِه عليهم، وفيه دليلٌ على القضاءِ والقدرِ[2].

فائدةُ ضميرِ الخطابِ وعودِه في ﴿بَعۡضَكُمۡ﴾:

لا يعصي الإنسانُ ربَّه إلّا من طريقِ النّاسِ

ضميرُ الخطابِ في ﴿بَعۡضَكُمۡ﴾ لعموم المخاطَبين منَ النّاسِ؛ أيِّ: بعضُ النّاسِ جُعلوا فتنةً لبعضِ النّاسِ، وكلا البَعضَيْن مُبهمٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 94، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 343، وصافي، الجدول: 9/ 318.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 121.

يُبيِّنُه المقامُ، وحالُ الفتنةِ في كلا البعضيْن مختلفٌ، فبعضُها فتنةٌ في العقيدةِ، وبعضُها فتنةٌ في الأمنِ، وبعضُها فتنةٌ في الأبدانِ، وجعلنا هذا نبيًّا وخصّصناه بالرّسالةِ، وهذا مَلِكًا وخصّصناه بالدّنيا، وهذا فقيرًا وحرمناه الدّنيا؛ ليكونَ كلُّ صنفٍ مُمتَحنًا بضدّه، ويدخلُ في الخطاب بقوله: ﴿بَعۡضَكُمۡ﴾ صنفُ الرّسل مع سائرِ النّاسِ؛ أيَ: جعلنا الرُّسلَ امتحانًا للنّاس، هل يصبرون على اتّباعهم أم لا؟ فلأجل ذلك لم أُعْطِ رسولي الدّنيا، وجعلتُه ممّن يختار العبوديّة والكفافَ بطلب المعاش في الأسواق؛ لأبتلِيَكم في الطّاعةِ له خالصة، فإنّي لو أعطيتُه الدّنيّا، وجعلتُه ممّن يختار المُلك، لسارع الأكثرُ إلى اتّباعِه طمعًا في الدّنيا[1].

سِرّ إيثارِ لفظِ ﴿فِتۡنَةً﴾، ودلالةُ المجازِ فيه:

ما من خلاصٍ وتصفيةٍ إلّا بعد فتنةٍ وتخليَةٍ

إيثارُ لفظِ الفتنةِ في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾؛ لأنّه أرادَ أقصى درجاتِ الامتحانِ والابتلاءِ، وهي اختبار النّاس بالمُرسلين والرّسالات، واختبارهم بتبايُن القضاءِ والقَدَر والأرزاق فيما بينهم، فكان هذا كاختبارِ المعدِن بالنّار، وهو اختبارٌ لا يَكْذِب، فحُقّ أن يُعبّر عنه بلفظِ الفتنةِ دون غيره، والإخبار عنهم بأنّهم فتنةٌ في هذه الآيةِ مجازٌ مُرسَلٌ مِنْ تسمية الشّيء باسم مُسبِّبه، فالفتنةُ مُسبَّبةٌ عنهم، وهم سببٌ فيها[2].

بلاغةُ الاستفهامِ في الآيةِ ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾:

تنزيلُ الاستفهامِ منزلةَ التّكليفِ والتّحضيضِ

جملة: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ تعليليّةٌ للجَعل المذكور في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾؛ أيَ: جعلنا بعضَكم لبعض فتنةً لنَعلمَ أيُّكم يصبرُ[3]، وفي الاستفهام مع العِلّيّةِ تهديدٌ بليغٌ، ويجوز أن يكون الاستفهامُ استئنافًا للتّحذيرِ، أو للأمرِ والحثِّ؛ أي: اصبروا وإيّاكم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 344.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 344.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 121.

والفتنة، ويكون الاستفهامُ مجازًا عن ذلك، كما في قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: 91]؛ أي: انتهوا ولا تتورّطوا[1]، ولمّا كان المُرادُ بالفتنة أقصى درجاتِ الامتحانِ والابتلاءِ حُقَّ له أنْ يَسأل عنه بالصّبر دون سواه، فقال: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾، ولم يَقُلْ: (أتفلحون)، أو (أتعملون)، أو (أتستقيمون)؛ لأنّ الصّبر مُرٌّ غيرُ سائغٍ، كما أنّ الفِتَنَ مُؤلِمٌ تذوبُ له العزائمُ، كما يذوب المعدِن بالنّار.

دلالةُ لفظِ ﴿وَكَانَ﴾:

تحقُّقُ الكمالِ في الأزَلِ ينفي الطّروءَ المسبوقَ بانقطاعٍ في الماضي

التَّعبيرُ بفعلِ الكونِ في قوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ لتحقيقِ ثبوتِ الصّفةِ للموصوفِ ﷻ، وأنّها من شؤونه المُستمرّة الدّائمة ﷻ، فـ(كان) تُفيد ثبوتَ خبرِها لاسمها، وسيقتْ النّسبةُ بينَ اللّه وصفاته بهذا التّركيب المُحقَّق؛ ليبلغوا فيها عينَ اليقين، كأنّهم يشهدونها، والكون الماضي يدلّ كذلك على التّحقّق الأزليّ القديم للصّفة، ولا يدلّ على الانقطاع الطّارئ في الحاضر أوِ المستقبل، وناسَبَ المَجيءُ به ماضيًا؛ للدّلالة على أنّ ثبوتَ كمالاتِ اللّه وانتفاءَ النّقائص عنه متحقِّقٌ ثابتٌ أزَلًا، وتحقُّق الكمالِ في الأزَل ينفي الطّروءَ المسبوقَ بانقطاعٍ في الماضي، ومن كان كذلك كان استمرارُ كمالِه وعدمُ انقطاعِه في الحاضر والمستقبل أولَى، وهذا هو نُكتَةُ مجيءِ الكونِ ماضيًا[2].

رقابةُ اللهِ للنّاسِ دائمةٌ، يعلم ما يُخفون وما يُعلنون

ودلالةُ (كان) على الدّوام تُفيد أنّ النّاس تحتَ رقابة اللّه دائمًا يعلم بحال الصّابرين منهم علم السّميع البَصير، ويكافئ كُلًّا بحَسَب حاله التي علمها اللّه تعالى، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشَرٌّ، فليعملوا عملَ ما يُرَى ويُسْمَع؛ فاللّه بكلّ شيء محيط[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 366.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 400، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 8/ 336.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5264.

إيثارُ لفظ (الرّبّ) على اسمِ الجلالةِ:

إنّما يُؤمِنُ العبدُ ويعمل بألطافِ الرّبوبيّة ومعوناتها

أوثر التعبير بالرُّبوبيَّة على اسم الجلالةِ في قوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ للتّنبيه على أنّ تكاليف الامتحان مقرونةٌ بعطايا الإحسانِ، فامتحانُه للنّاس في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ مقرونٌ بألطاف عفوه ومِنَحِه، فهو يمتحنهم ليرحمَهم ويُحسنَ إليهم، وللتّنبيه على أنّهم إذا استجابوا لقوله: ﴿أَتَصْبِرُونَۗ﴾ فقد صبروا بأمداد الرّبوبيّة ومعوناتها، وسيُجزَون بآثار الرّبوبيّة وثوابِها، فهم في جميع أحوالهم مُفتقِرون لرُبوبيّتة سبحانه، وللتّنبيه على أنّ صفاتِ الجلال والكمال - كما في قوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ جاريةٌ على قانون الرّبوبيّة الواسع، فكلّ صفةٍ من صفات الإحاطة بالخلْق كالبصر والعلم وغيرها صفاتٌ لا تنفكّ عن معنى الرّبوبية في إيصال كلِّ مرغوبٍ، والوقاية من كلّ مرهوب.

دلالةُ الإضافةِ لضميرِ الرّسولِ في ﴿رَبُّكَ﴾:

خطابُ الرّسولِ في مقامِ العمومِ إشارةٌ إلى أنّ التّكاليفَ من طريقِه تُؤتَى

في إضافة اسمِ الرّبِّ إلى ضمير خطابِ الرّسول ﷺ في قوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ تسليةٌ للرّسول ﷺ، وبشارةٌ له أنّه مشمولٌ بكنَفِ الرّبوبيّةِ، محفوفٌ بآثارها، فهو مصونٌ محفوظٌ عند امتحانِ النّاسِ به، ومجزّيٌّ بالأجرِ الجزيلِ على صبرِهِ الجميلِ عليهم، فبين قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾، وقولِه: ﴿أَتَصْبِرُونَۗ﴾، هو ﷺ مُعافًى في محاضن الرّبوبيّة، ولا يخفى ما في الإضافة إلى ضميره وخطابه من استقلاله بالتّشريف وخصوصيّة الرُّتبة، وجاءت هذه الإضافةُ متناسقةً في الاطّراد معَ السّياق السّابق في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾[1].

إيثارُ اسمِ ﴿بَصِيرًا﴾ على غيرِه:

أوثِرَ التعبير بـ ﴿بَصِيرًا﴾ على غيره في قوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 207، 210.

مَن أيقنَ باللهِ بصيرًا لم يستخْفِ منه بمعصيةٍ

للتّنبيه على أنّ امتحان النّاس بالنّاس في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ مرصودٌ لا يَفوت ولا يُفلت شيءٌ فيه من أعمال النّاس، وللدّلالة على أنّ المُراد بالامتحان وسؤالِ الصّبر في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ هو إظهارُ تلك الأعمال؛ لتكونَ مشهودةً مبْصَرَةً؛ فتقوم الحُجّة على عامليها في عالم الشّهادة، كما هي ثابتةٌ عند الله في عالم الغيب، ولدَفْعِ توهّم أنّ فتنة النّاس وسؤالَهمُ الصَّبرَ صادرٌ عن نقصٍ في شهودهم والعِلْم بهم، وفيه ترهيبٌ للنّاس أنّهم مهما تمكّنوا وقَدَروا فلن يَسْتَخْفوا من ربّهم، فلْيَحذروا اطّلاعَه عليهم، فهو بهم محيطٌ(1).

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 121، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 367.

الجُزْءُ التَّاسِعَ عشَرَ

﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾

[الفرقان: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أقوالُ أهل الكفر وأباطيلُهم تكشفُ عن تناقض مداركِهم وانعدامِ بصيرتهم

بعدَ أن ذكر تعالى الابتلاءَ في الآية التي سبقت من قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: 20]، وبعد أن ذكر ما كان من شأن الحقّ ﷻ في أوّل السّورة من عظمتهِ وإحسانِه إلى خلقه، وما كان من حَقّ كلِّ مربوب أن يتعرّف إلى ربّه؛ لينال من إحسانه، ويتعزّزَ على أقرانه - أتبع ذلك في هذه الآية أنّه كشفَ الابتلاءُ عن أنّه لا بصرَ لهم[1].

ومن المناسبة: أنّه تعالى لمّا ذكر جملةً من أباطيلهم السّابقة مع بيان بطلانها؛ شرع في حكاية بعضٍ آخرَ من أقاويلهم الباطلةِ، فهم قد كذّبوا بلقاء الآخرة بما فيه من رؤية اللّه والملائكة، ثمّ طلبوا رؤيةَ اللّه في الدّنيا، ونزولَ الملائكة عليهم في الدّنيا، وأرادوا تلقّيَ الدّين منَ الملائكة أو منَ اللّه مباشرة!! فكان في حكاية قولِهم وذِكْر وصفِهم تعجيبٌ من تناقض مَداركِهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرۡجُونَ﴾: (رجا) أَصلٌ يَدُلُّ على الأَمَلِ، يُقالُ: رَجا حُصولَ الشَّيْءِ، يَرْجو، رَجاءً ورَجاوَةً، أيْ: أَمَّلَ وُقوعَهُ، وضِدُّه: اليَأْسُ والقُنوطُ[3]، وقيلَ: هو ظَنٌّ يَقْتَضي حُصولَ ما فيهِ مَسَرَّةٌ، أو تَعَلّقُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 367.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 210، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 19.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجا، رجو).

القَلْبِ بِحُصولِ مَحْبوبٍ مُسْتَقْبلًا[1]، ويأتي الرَّجاءُ بِمعنى الطَّمَعِ في الشَّيءِ، فيُقالُ: رَجا الخَيْرَ، أي: طَمِعَ فيه، والتَّرَجّي، والارْتِجاء، والتَّرْجيَة، كُلُّ ذلكَ بمعْنَى الرَّجاءِ[2]، ومن مَعانيه أيضًا: التَّرقُّب، والظَّنُّ، والخَوْفُ[3]، والمرادُ بالرَّجاء في الآية: الخوفُ، أي: لا يخافون، كما جاء في قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: 13][4].

2) ﴿لِقَآءَنَا﴾: (لقي) أَصلٌ يدُلُّ على تَوافي شَيْئَيْنِ[5]، اللِّقاءُ: مُقابلةُ الشَّيءِ ومصادفتُه معًا، وقد يُعبَّرُ به عن كلِّ واحدٍ منهما، يُقالُ: لَقيَهُ يَلْقاهُ لِقاءً ولُقيًّا ولُقْيَةً، ويُقال ذلك في الإدراك بالحسِّ، وبالبَصر، وبالبصيرة[6]، ولَقيتُه لَقْوَةً، أَيْ: مَرَّةً واحِدَةً، ولِقاءَةً، واللُّقْيَةُ فُعْلَةٌ مِنَ اللِّقاءِ، والجَمعُ لُقًى[7]، والالتِقاءُ: المُحاذاةُ[8]، والتَلَقّي: استقبالُ ما يُلْقَى[9]، وحقيقةُ اللِّقاءِ في الآية: مقابلةُ الشَّيء ومصادفتُه، والمُرادُ: لقاء جزائنا[10].

3) ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا﴾: (عتو) أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على استكبارٍ[11]، العُتوُّ: التَّجَبُّر والتَّكَبُّر، يُقالُ: عَتا يَعْتو عُتوًّا وعِتيًّا، استكبرَ وجاوزَ الحَدَّ[12]، والعُتوُّ أيضًا: النُّبوُّ عنِ الطّاعة[13]، والمُرادُ به في الآية: تجاوُزُ الحَدِّ في الاستكبارِ والعِنادِ والظُّلْمِ.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الآيةُ الكريمة هي الشُّبهة الرّابعة لمنكري نُبوَّة محمَّدٍ ﷺ، ومعناها: أنّ الَّذين ينكرون لقاءَ اللّه ﷻ يوم الجزاءِ قالوا: هلّا أنزَل اللّهُ علينا الملائِكةَ، أو نرى اللّهَ بأعيُنِنا فنُؤمِنَ؟ لقد تكبَّرَ هؤلاء الكُفّار الذين تجرَّؤوا على اقتراحِ نُزولِ الملائِكةِ

(1) الرّاغب، المفردات: (رجا)، والمناوي، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 174.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجى)، والزّبيديّ، تاج العروس: (رجو).
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 3/ 19.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(6) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (لقي).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقي).
(10) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 3/ 19.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عتو).
(12) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عتا).
(13) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عتو).

موقفٌ عجيبٌ من مواقف تعنُّتِ الكفّار في كُفرهم وعِنادهم

عليهم، أو رُؤيةِ اللّهِ في الدُّنيا، وتعظَّموا في أنفُسِهم، وتجاوَزوا الحدَّ في الكِبْرِ والظُّلمِ والطُّغيانِ، باقتراحِهم ذلك، فأيّ عُتوٍّ أكبرُ من هذا العُتوّ؟ ولذلك بَطَلت أعمالُهم واضمحلّت، وخسروا أشَدّ الخُسران، وحُرِموا غايةَ الحِرمان[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها:

الأباطيلُ مهما اختلفت فهي واحدةٌ في البُطلان

عُطِفَ بالواو قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ على قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 7] وما بعده[2] من أباطيلهم الأُخرى السّابقة، ويجوز أن يكون قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ معطوفًا على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: 4][3] عطْفَ النّتيجةِ على السّبب؛ فإنّ اتّهامَهم للرّسول الكريم ﷺ بالكذب وافتراءِ القرآن الكريم، سببٌ في إنكارهم لقاءَ اللّه تعالى.

الغرضُ منَ التّعبير بالمسنَد إليه اسمَ موصول:

ما يُحكى عنهم من شناعتهم لا يصدرُ عمَّن يعتقد المصيرَ إلى الله

كان القياسُ التّعبيرَ بالضّمير في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وذلك بأن يقول: (وقولهم لولا أُنْزِل علينا الملائكة)، فجاء بالموصول عوضًا منه؛ تنبيهًا على ما في حيّز الصّلة، فإنّ ما حكاه عنهم من شنيع مُرْتَكبهم بحيثُ لا يَصْدر عمّن كان معتقدُه أنّ المصير إليه سبحانه[4]، كما أنّ التّعبير بالموصول وصلتِه يُبيّن أنّهم معروفون بمضمون الصّلة، مشتهرون بها اشتهارَ لَمزٍ وتنقيص؛ وأنّ استمرارَهم على العِناد مرتبطٌ ارتباطًا كبيرًا بهذه الصّلة.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 426، والسّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 14، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 37.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 210، والآلوسيّ، روح المعاني: 3/ 10.

(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 7/ 19.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 210.

بلاغةُ التّعبير بجملة الصلة: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

الإيماءُ إلى عِلّة الحُكم؛ فانتفاءُ رجائِهم سببٌ في استكبارهم وعُتوّهم

التّعبيرُ بنفي رجاءِ لقاء الحَقّ سبحانه بقوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ دالٌّ على الاستعلاء المَقيت، والغُرور المُهلك، وهو وارد في سياق ذَمّهم؛ للإشعار بعِلّيَّة الحُكم؛ فانتفاءُ رجائِهم سببٌ في ما طلبوا من إنزال الملائكة، أو رؤيةِ الحَقّ سبحانه، ممّا أكسبهم صفةَ الاستكبار والعُتوّ؛ فأوصلَهم إلى غضب اللّه تعالى ومَقْتِه؛ لأنّهم تجاسَروا على عظمة اللّه وجلالِه، كما أنّ ذِكْر انتفاءِ رجائِهم تعجيبٌ من تنافي استيعابهم، وتناقضِ مَداركهم[1].

دلالةُ التّعبير بـ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾ من حيثُ مادّتُها وصيغتُها:

يَـعُـدّونَ لقاءَ اللّه مُحالًا على وجه التّجدّد والاستمرار

التّعبيرُ بصيغة المضارع المنفي للدّلالة على تجدّد عدم الرّجاء منهم واستمرارِه، كما أنّ التّعبير بنفيِ رجائهم لقاءَ الحَقّ ﷻ أبلغُ من قوله: (الذين يعتقدون عدمَ لقائنا)؛ لأنّ القول الأوّل يحتمل تكذيبًا باللّقاء وشكًّا فيه، فعَدَمُ الرّجاءِ يَفوقُ الجميعَ في أَبْلَغيَّته، فإنّه لا مطمعَ فيه بوجه[2]، فهذا التّعبير أبلغُ وأشَدُّ وقعًا؛ لأنّه ينفي أدنى شعورٍ بالأمل لديهم.

دلالةُ التّعبير بالكناية في ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

لا يخافون العذابَ ولا يؤمنونَ بالبعث ولا الحساب

ليس المرادُ من لقائِه سبحانَه الرّؤيةَ والاتّصالَ والمماسّةَ، أوِ الوصولَ إلى الشّيء، بلِ المرادُ منَ اللّقاء في هذا الموضع المصيرُ إلى حُكم المَلك الجَبّار حيثُ لا حُكْم عندئذٍ إلّا حُكْمُه، يومَ لا تملك نفسٌ لنفس شيئًا[3]، فالتّعبيرُ كنايةٌ عن إنكار البعثِ والحشر[4]، بل هو أَشَدُّ دلالةً عليه، وأبلغُ تعبيرًا عنه؛ فمَن يُنكر لقاءَ اللّه تعالى، فكأنّه يُنكر وجودَه، وينكرُ عقابَ اللّه تعالى وجزاءَه، وهو أخطرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 19.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 232.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 448.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/ 10.

مِن مُجَرّد إنكارِ البعث والحشر؛ لانطوائه على إنكار العقيدةِ الإسلاميّة بأكملها.

معنى ﴿لَوۡلَآ﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

المُكَذِّبُ حريصٌ على تعجيز الصّادق

تأخذ ﴿لَوۡلَآ﴾ حُكمَ (إنْ) الشّرطيّة[1]، وفي تحضيضهم على إنزالَ الملائكة، أو رؤيتِه ﷻ، معنى الشّرط؛ فكلامُهم على معنى: أنّه ليُثْبِتَ لنا صِدْقَه، بأن يَطْلُبَ من ربّه أن يُؤيّده بوسيلة أُخرى؛ لإبلاغ هذا الدّين إلينا؛ فإن كان صادقًا فلْيفعلْ ذلك[2]، واستُعمِل ﴿لَوۡلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وهو حرف دالّ على التّحضيض في كلام العرب[3]، وهو مُستعمَلٌ هنا لمعنى التّعجيز والتّعذّر والاستحالة، أي: هلّا جاء إلينا بالملائكة كي نُؤمنَ بذلك؟![4].

دلالةُ التّعبير بما لم يُسَمّ فاعلُه ﴿أُنزِلَ﴾:

دعاهم استكبارُهم وعُتوُّهم إلى أن لا يسمحوا بإسناد ذلك الإنزالِ إلى الحَقّ سبحانه، فورد بصيغة المبنيّ للمفعول ﴿أُنزِلَ﴾.

إيثارُ الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ بالهمزة لا (نُزّل) بالتّضعيف:

مُـرادُ أهـلِ الكفر لجهلِهم وحماقتِهم أن يَـنـزلَ عليهم الـقـرآنُ دُفعةً واحدة

أوثِرَ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ المَبدوءُ بالهمزة في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على الفعل (نُزّل) المُضعّف؛ لدلالة الثّاني على الإنزال تدريجًا وتفريقًا، ودلالةِ الأوّل على الإنزال جملةً واحدةً، وفي ذلك إيماءٌ إلى شِدّة جَهْلهم، وانغلاقِ أفهامِهم بأنْ كان مرادُهم أن يَرَوا المُنَزّل عليهم منَ الملائكة، أوِ الحقَّ سبحانه كلَّه دُفعةً واحدة[5].

فائدةُ تعْديةِ الإنزال بـ(على):

استُعمِل الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ متعدّيا بـ(على) في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 1/ 416.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 19.

(3) الزّجاجيّ، حروف المعاني والصّفات، ص: 4.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 19.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 368، وابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 97.

﴿عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ لأنّهم أرادوا أن تكون لهم رتبةُ الرّسولِ ﷺ فيُنزّلَ عليهم الوحيُ مباشرةً من دون أن يكون الرّسولُ وسيطًا ومُبلّغًا بينهم وبين الحَقّ سبحانه، وعادةُ الوحي أن يُنَزّل على الرّسول، ثمّ يصلَ إليهم، وهذا كان عينَ اعتراضِهم الدّالّ على استكبارهم وتَعنُّتِهم.

طلبوا رتبةَ النّبيِّ وأن يُنَزّل الوحيُ عليهم مباشرةً من غير وسيط

الغرضُ من تقديم شِبه الجملة ﴿عَلَيۡنَا﴾:

قُدِّم شِبهُ الجملة ﴿عَلَيۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ لإفادة الحصر والتّخصيص، والمعنى: أنّهم أولى بالرّسالة من غيرهم بنزول الوحي والمَلَكِ، وأنّها يجب أن تكون مختصّةً بهم؛ لأنّهم الرّؤساءُ والزّعماء والقادة[1].

اعتقادُ أهل الكفر أنّهم الأَوْلَى بالوحي لأنّهم الرّؤساءُ والزّعماء والقادة

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

أورد لفظُ الملائكةِ بـ (أل) في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، للإشارة إلى أنّ مطلبَهم "رؤيةُ جميعِ الملائكة الآخذين عنِ اللّه"[2] ﷻ؛ فالألف واللّام جنسيّةٌ دالّةٌ على الاستغراق، أي: جميع الملائكة، وذلك مِن عُتوِّهم وجَهْلِهم وعِنادِهم، فكأنّهم يقولون: إنّهم لا يؤمنون بالرّسول مهما كان عددُ الملائكة النّازلين معه.

مطلبُهم هو رؤيةُ جميع الملائكة الآخِذين عنه تعالى

معنى ﴿أَوۡ﴾، ودلالةُ التّعبير بالرّؤية في ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾:

مِنَ المعاني المشتهرة لـ ﴿أَوۡ﴾ في كلام العرب التّخييرُ[3]، وعلى هذا المعنى ورد قولُ الحَقّ سبحانه: ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾، تخييرًا بين نزول الملائكة، ورؤيةِ اللّه تعالى ليخبرَهم بصِدق الرّسول[4]، وفي طلب رؤية اللّه في قوله تعالى: ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ بعد معاينة الدّليل عتوٌّ وخروجٌ عن مقتضى الإيمان، فالإيمانُ بالغيب لا يثبتُ بالرّؤية، بل

طلبُ الرّؤيةِ بعد معاينة الدّليل عتوٌّ وخروجٌ عن الإيمان

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 18.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 369.
(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 228.
(4) الهلاليّ، تفسير القرآن الثّريّ: 1/ 19.

بالدّليل القاطعِ، فلو كانت رؤيةُ اللّه جائزةً لَما وبّخهم على سؤالهم لها، ولكنّهم بعد أن عاينوا الدّليل على وجوده طلبوا دليلًا آخر، وهو رؤيةُ اللّه تعالى، ممّا يدلّ على عُتوّهم وظلمهم، فالإيمان عند المعاينة لا يُعدّ إيمانًا بالغيب، بل هو يقينٌ ومعرفة[1].

دلالةُ التّعبير بفعل الرّؤيةِ مضارعًا:

لم يكتفوا بطلب رؤيتِه تعالى وإخبارِه بصدق رسوله، حتّى يَروهُ ويخبرَهم بذلك مرارًا

أورِدَ فعلُ الرّؤية مضارعًا في قوله تعالى: ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾؛ لدلالته على الاستمرار التّجدّدي؛ فإنّهم لجُرأتهم وتحدّيهم لم يكتفوا برؤيته سبحانه وإخبارِهم بصدق رسوله ﷺ، حتّى يروْهُ، ويخبرَهم مرارًا عن ذلك[2].

سِرُّ إضافةِ الرّبوبيّةِ إلى الضّمير في ﴿رَبَّنَا﴾:

تعاظُمُ أهلِ الكُفر بما وهبهمُ اللهُ من نِعَمٍ، وبما لهم من قوّةٍ وأموالٍ وأولادٍ

أتى النّظمُ الجليل بلفظ الرّبوبيّة مضافًا إلى ضميرهم المجموع في قوله تعالى: ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾، أي: بما فضَّلَنا على سوانا، وأحسنَ إلينا، وبما لنا نحن منَ التّعظيم بموجب قوّتِنا وأموالِنا وأولادنا، فيأمرُنا من غير وسيط[3].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

ما أعجبَ زهوَهم وغُرورَهم الباطلَ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ عمّا قبله؛ لأنّ الجملة استئنافٌ بيانيّ يتنزّلُ منزلَة الجواب، عن قولهم الدّالِّ على معنى التّعجيب من غرورهم الباطل، وزهوهمُ الزّائفِ؛ فإنّ القَسَم يُستعمَل في معنى التّعجيب[4]، فالجملة جوابٌ عن سؤال سائل: فماذا كان حالُهم بعد إذ؟.

الغرضُ منَ التّعبير بالقَسَم، ودلالةُ توكيدِه بـ (قد):

تأكيدُ قُبحِ صفاتِ أهلِ الكفر، وما هم عليهم من عتوٍّ واستكبار

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ هي الموطّئةُ للقَسَم[5]،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 15.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/ 10.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 368.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 5، 6.
(5) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 310.

وهي إحدى اللّاماتِ الكثيرةِ الدّخولِ على (قد)؛ الدّالّةِ على التّوقّع والتّوكيد في لسان العرب، وقد يكون قَسَمُها منويًّا كالآية، والمعنى: (وعزّتنا[1] حصلَ استكبارُهم على وجه التّحقيق)، وقد صَدَّر الجملةَ بالحرف المُؤذن بالتّوكيد بقوله: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ لتأكيد استكبارِهم عنِ الحَقّ، وبُعْدِهم فيه[2]، وقد ختموا أكاذيبَهم وافتراءاتِهم بقَسَم جازمٍ في قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ لتأكيد ما هم عليهم من عُتوّ واستكبارٍ؛ فقد تجاوزوا الحدودَ، وبلغوا منَ الكفر والضّلال أقصى غاياتِه، حتّى اجترؤوا على التَّفَوُّه بمثل هذه العبارة الشّنعاء[3]، التي تَدلّ على عمق ضلالِهم، وقسوةِ قلوبهم، وغِلَظِ طباعِهم.

فائدةُ دخولِ السّين والتّاء على فعل الاستكبار:

المبالغةُ في التّكبُّر وتجاوزُ الحَدّ فيه

السّين والتّاء في قول الحقّ ﷻ: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، فيها دلالةٌ على التّزيّد والمبالغة في استكبارهم في أنفسهم[4]، وتجاوزِهم الحَدَّ في صفة التّكبّر والعُتوّ.

معنى ﴿فِيٓ﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾:

لَمّا لم يكن لكِبَرهم ثمرةٌ في الظّاهر، جعلَ الأنفسَ ظرفًا له

حرف الجرّ ﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ يدلُّ على الظّرفيّة الحقيقيّة؛ فإنّه لَمّا لم يكن لاستكبارهم ثمرةٌ وحصيلة في ظاهرهم؛ لأنّه لا يعود بالضّرر على أحد سواهم، أدخل حرفَ الظّرفية ﴿فِيٓ﴾ على ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾[5]، ويجوز أن يكون حرفُ الجَرّ ﴿فِيٓ﴾ دالًّا على التّعليل والسّببيّة، وهو من معانيها في لسان العرب[6]، ومنه الحديثُ الواردُ عنه ﷺ: «دَخَلَتِ امرَأَةٌ النّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْها،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 368.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 368، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5266.
(3) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 7/ 1500.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 19.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 368.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 19.

فلَم تُطعِمها، ولَم تَدَعْها تَأْكُلُ مِنْ خَشاشِ الأَرْضِ»[1]، والمعنى: أنّ استكبارَهم كان لأجل عَظَمةِ أنفسهم بحسب زعمهم[2]، وقد تكون ﴿فِيٓ﴾ هنا دالّةً على الظّرفيّة المجازيّة، في أنّه شَبّه أنفسَهم بالظّرف في تمكّن المظروف منه، فهو استكبار متمكّنٌ منهم[3].

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَعَتَوۡ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَعَتَوۡ﴾ دالّةٌ على العطف، وذلك بأنّها عطفت جملةَ العُتوّ على جملة الاستكبار[4]، وفي هذا العطف إيماءٌ إلى التّدرّج في بيان صفاتهم، فذَكر الاستكبارَ وهي صفة خفيَّةٌ، وآيةُ ذلك استعمالُ حرفِ الظّرفيّة، ثمّ عطفَ عليها العُتوَّ، وهو التّمرّد والخروجُ عن طاعته تعالى، وهي صفة ظاهرةٌ لأفعالهم وأقوالهم.

التّدرّجُ في صفاتهم من خَفيّ الاستكبار إلى وضوح العُتوّ في أفعالهم وأقوالهم

دلالةُ التّعبيرِ بالعُتوّ مادّةً وصيغةً:

عبّر بالعُتوّ في قوله تعالى: ﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾؛ لدلالة العُتوّ على تجاوز الحدّ في التّكَبُّر ظلمًا وجَورًا؛ لأنّهم تجاوزوا ما خوّلهم الحقّ ﷻ منَ القابلية والاستعداد، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنّ النّبوّة إعدادٌ منَ الباري سبحانه، ولا تكون بالاكتساب؛ فإنّ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124][5]، والتّعبير بصيغة الماضي إيذانٌ بثباتهم على صفتهم القبيحةِ تلك، وأنّهم عريقون فيها.

تجاوز الظالمون مِقدارَ ما خوّلَهمُ الله منَ القابليّة، فتَكَبّروا وعَتَوا ظُلمًا وجورًا

الغرضُ من توكيد العُتوّ بالمفعول المُطلَق ووصْفِه بالكبر:

أكّد الحقُّ ﷻ عُتوَّ هؤلاء القوم وتماديَهم في ظلمهم، بذِكر المصدر ﴿عُتُوّٗا﴾ مقترنًا بالنّعت ﴿كَبِيرٗا﴾؛ مبالغةً في التّعبير؛ ليُبيّن

جاوزوا الحدَّ في الاستكبار بطلبِهم رؤيةَ جميع الملائكة ورؤيةَ المَلكِ الجبّار

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3140).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 368.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 19.
(4) الدّعّاس، إعراب القرآن الكريم: 2/ 369.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 19.

شِدّة عتوّهم وفظاعةَ ذنبِهم؛ فإنّهم لم يكتفوا بعُتوٍّ بعضِهم على بعض، بل تجاوزوا ذلك إلى عتوّهم على رسول الله ﷺ، بل وعلى الله تعالى ذاتِه، ممّا يدلُّ على عُمق ضلالِهم، وخِسّة طَبعِهم[1]، ولم يكتفِ بأنْ أكّد العُتوَّ بالمصدر المنصوب في قوله تعالى: ﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا﴾، بل زاد على ذلك أنْ وصفَه بالكبر بقوله: ﴿كَبِيرٗا﴾ مبالغةً في إفراطه؛ لأنّهم بلغوا الغايةَ في الغطرسة والاستكبار، والمنتهى في العُتوّ والطّغيان[2].

الغرضُ من تنكير ﴿عُتُوّٗا﴾:

العُتوّ دالٌّ على التّجبُّر والعصيانِ والظّلم والغُلوّ وشِدّة الكفر

استُعمل لفظُ (العُتوّ) نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾؛ لدلالةِ النَّكرة على العموم والشّمول، فمعنى العُتوّ يأتي على أوجه عدّةٍ، منها: التّجبّرُ والتّكبّر، ومنها: التّمرّدُ والعصيان، ومنها: الإسرافُ في الظّلم، ومنها: الغُلوُّ في القول، ومنها: شِدّةُ الكفر[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العتُوُّ والظّلم والطّغيان والبَغي:

العُتوُّ دالٌّ على التّجبّر والاستعلاء والإصرار على المعصية والتّمرّد على الحقّ

عُبّر بالعُتوّ في قوله تعالى: ﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾، وهو بمعنى التّكبُّر والتّجبُّر والعصيان، وهو أعلى رُتَبِ الطُّغيان والظُّلم[4]، وهو المبالغةُ في الكبر أوِ الفساد، مُؤْثرًا إيّاه على الظّلم؛ لأنّ الظّلم معنًى عامٌّ، وهو وضع الشّيء في غير موضعه[5]؛ فتتعدّد معانيها بحسب السّياق الواردِ فيه، أمّا الطّغيان في اللّغة فهو مجاوزة الحَدِّ في كلّ شيء[6]،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10412.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 273.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 140.
(4) محمد الهلاليّ، تفسير القرآن الثّريّ: 1/ 19.
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 28.
(6) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 410.

أمّا البغيُ فإنّ الأصل فيه أن يكون جنسًا منَ الفساد[1]، ولَمّا كان العُتوّ دالًّا على التّجبُّر والاستعلاء والإصرار على المعصيةِ والتّمرّدِ على الحقّ، وهو "أشدُّ الكفر، وأفحشُ الظّلم، وعُتوُّهم طلبُهم رؤيةَ اللّه حتّى يؤمنوا به"[2]، كان خليقًا بموضعه من هذه الآية، من دون المفرداتِ الأُخرى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغى).

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 14/ 507.

﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢﴾ [الفرقان: 22]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

كل نفس بما عملت مَجْزيّة

لمّا قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ تعجيزًا واستكبارًا؛ أخبر اللّهُ تعالى أنّهم ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يومَ القيامة، ويشاهدون ما اقترحوه من نزول الملائكة بعد استعظامه، يكون ذلك في غايةِ ما يكونُ منَ الشَّناعة والخسار ولقاءِ المكروه[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُشۡرَىٰ﴾: (بشر) أَصْلٌ واحِدٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ، فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإنسانِ، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهِم، وأصلُ البِشْرِ - بالكسر: الطَّلاقةُ والبشاشة وبسطُ الوجه: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصّافات: 101][2]، والبُشْرى الخبرُ الَّذي يُغيِّر البَشَرة مِن حُزْنٍ أو سُرورٍ، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ اللُّغة بالسُّرور، ولا تكون إلّا بالخَبَر الأوَّل[3]، فيُقالُ: أَبْشَرْتُ الرَّجُلَ وبَشَّرْتُهُ، أيْ: أَخْبَرْتَهُ بأمرٍ سارٍّ[4]، وسُمّيَتْ بذلك مِنَ البِشْرِ وهو السُّرورُ؛ لأَنَّها تُظْهِرُ طَلاقةَ وجْهِ الإِنْسانِ وفَرَحَه، والمقصودُ بالبُشْرى الآية: خَبَرٌ بحصولِ ما فيه نفعٌ ومَسَرَّةٌ للمُخْبَرِ به، وانْتِفاؤها مستعملٌ في إثباتِ ضِدِّه، وهو الحُزْنُ[5].

2) ﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾: (جرم) أَصْلُ الكَلِمَةِ من الجَرْم، وهو القَطْعُ[6]،

---

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 250، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 369، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 211.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).

(3) النّوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 267، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 184.

(4) ابن الأنباريّ، الزّاهر: 2/ 128، والعوتبيّ، الإبانة في اللّغة العربيّة: 2/ 280.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 19.

(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).

وقيل أَصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَريمةُ أَهْلِه، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبِه[1]، والإجْرامُ: ارْتِكابُ الجُرْم، وهوَ الإثْمُ العَظيمُ[2]، يُقال: أَجْرَمَ الرَّجُلُ، إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا أو جَنَى جِنايَةً[3]، والجُرْمُ والجَريمَةُ: الذَّنْبُ والإِثْمُ، والإجرامُ أيضًا: إِلصاقُ الجَريمَةِ بالغَيْرِ، ويأْتي بمعنى الاعْتِداءِ والظُّلْم، فيُقال: أَجْرَمَ في حَقِّ أَخيه، أيْ: ظَلَمَهُ واعْتَدَى عليه، والمُجْرِمُ في اصْطِلاحِ القُرْآن: هوَ الكافِرُ، كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩﴾ [المطففين: 29]، وحقيقةُ الإجرامِ في الآية: الكُفر، والمُراد بالمجرمين: كُفّارُ قُريش.

3) ﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾: (حجر) أَصْلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ، وهو المَنْعُ والإِحاطَةُ على الشَّيءِ، فالحَجْرُ: حَجْرُ الإنسانِ، يُقالُ: حَجَرَ الحاكِمُ على السَّفيهِ حَجْرًا؛ وذلكَ مَنْعُهُ إيّاهُ مِنَ التَّصَرُّفِ في مالِه؛ والعَقْلُ يُسَمَّى حِجْرًا؛ لِأنَّهُ يَمنَعُ مِنْ إتْيانِ ما لا يَنْبَغي[4]، و(حِجْرٌ) كَلِمَةٌ يَقولونَها عِنْدَ رُؤْيَةِ ما يُخافُ مِنْ إصابَتِه بِمَنْزِلَةِ الاسْتِعاذَة، قالَ الخَليلُ وأَبو عُبَيْدَةَ: كانَ الرَّجُلُ إذا رَأى الرَّجُلَ الَّذي يَخافُ مِنْهُ أَنْ يَقْتُلَهُ في الأَشْهُرِ الحُرُم يقولُ له: (حِجْرًا محجورًا)، أيْ: حرامٌ قتلي، وهي عوذَةٌ، و﴿مَّحۡجُورٗا﴾ وصفٌ لـ ﴿حِجۡرٗا﴾ مُشتقٌّ من مادَّته؛ للدّلالة على تَمكُّنِ المعنى المُشتقِّ منه، كما قالوا: لَيْلٌ أَلْيَلُ، وذَيلٌ ذائلٌ، وشِعْرٌ شاعِرٌ[5]، والمُراد بقوله: ﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾: كلمةُ استعاذة معروفة عند العرب في الجاهلية، أي: حَرامًا مُحَرَّمًا ومحجورًا.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا بُشرى يومَ القيامة للكافرين

يقول اللّه تعالى: يومَ يرى الكُفّارُ مَلائكةَ الموتِ حينَ تَنزِلُ لقَبضِ

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (جرم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 210.
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 19.

أرواحِهم، ويَرَون ملائِكةَ العذابِ في البَرزخِ ويومَ القيامةِ؛ فلا تُبَشِّرُ الملائكةُ المُجرِمين يومَ يَرَونَها بالخَير، بل بالخَيبةِ والخُسرانِ، وتقول الملائكةُ للمجرمين إقناطًا لهم: جعلَ اللّهُ تبشيرَكم بالغفرانِ، والرّحمة، أو بالجنَّة، حرامًا مُحَرّمًا، وقال بعضُهم: إنَّ المُجرمين يطلبون البُشرى منَ الملائكة، فيقولون لهم ذلك(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ عن سابقه؛ لأنّه استئنافٌ بيانيٌّ ثانٍ، وهو جوابٌ ووعيدٌ عمّا قالوا فيما مرّ، فبعدَ أن عَجَّبَ الحَقُّ سبحانه تعالى من مقالة هؤلاء الكافرين، وبيّنَ ظُلمَهم وكُفرَهم؛ عاجلَهم بوعيد قاسٍ، يُنْزَلُ عليهم به ما طلبوه من رؤية الملائكة، ولكنّها رؤيةُ سوءٍ وفَزَعٍ، فسَيُشاهِدونَ زبانيةَ العذابِ يسوقونهم إلى النّار، ويُنزلون بهم أشَدَّ العذاب(2).

تلبيةُ رغبةٍ ظالمةٍ برؤيةٍ تُفزِع القلوبَ وتُذِلُّ النّفوسَ

فائدةُ التّعبير بـ ﴿يَوۡمَ﴾ نكرةً مضافةً:

أوردِ لفظُ ﴿يَوۡمَ﴾ نكرةً مضافةً في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ لإفادة التّهويل والتّعظيم(3)، لِما يراه الكافرُ منَ الأحداث الجِسام فيه، كقبض الملائكة أرواحَهم، أو سَوقِهم إلى جهنّم، وتدلُّ النّكرةُ المضافة على أنّ هذا اليوم غيرُ معلوم للكافرين، ممّا يُضاعف خوفَهم ورُعبَهم، فكأنّ الحقّ سبحانه يوعِد الكافرين بأن ينتظروا يومًا عظيمًا لا مثيلَ له، يوم يلقَون فيه ما لا يتوقّعونه.

يومٌ عظيمٌ مجهولٌ ينتظره الكافرون، قبضًا لأرواحِهم، أو سَوقًا إلى مصيرهم

دلالةُ التّعبير عنِ الرّؤية بقوله: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بقوله: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ﴾؛ ليَدُلّ على أنّ هذه الرّؤيةَ

رؤيةٌ مفاجئةٌ غيرُ معهودة تُضاعِف عذابَ الكافرين في الآخرة

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 427، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 20، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 101.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 6، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 19.

(3) محمد الهلاليّ، تفسير القرآن الثّريّ: 2/ 19.

للملائكة ستكون على وجهٍ غيرِ معهود[1]، ممّا يُضاعِفُ من غموض المشهد، ويؤكّد لحظةَ الرّؤية وحقيقتَها، ونفيَ الإجابة على اقتراح الكافرين؛ ممّا يولّد لديهم شعورًا بالخوف والرّهبة، فيُضاعِفُ من عذابهم في الآخرة، ومعنى قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ أنّ الملائكة لا تظهرُ إلّا عند الموت، وهو المعبَّرُ عنه بذلك اليوم حُكمًا إلهيًّا يُميّز بينَ المؤمن والكافر، فبِبُشرى الجنَّة يُلاقَى المؤمنُ، بينما يقابَلُ المشركُ والكافر بضرباتٍ بمقامعَ من حديد، تُنْذِرهم بعذاب أليم[2].

بلاغةُ النّشرِ في قوله: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾:

ردٌّ جازم على تشكيك الكفّار، ونشرٌ لطلبهم نزولَ الملائكة

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ نشرٌ لقوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[3]؛ فإنّ الكفّار الذين طالما طلبوا نزولَ الملائكةِ دليلًا لهم، سيواجهونَهم يومَ القيامة، حيثُ لا بشرى لهم، بل هو يومُ عذابٍ وفَزَع.

الغرضُ من تقديم الظّرف ﴿يَوۡمَ﴾:

الاهتمامُ به للإغراء والتّرقّبُ؛ لِتَعْقِبَه خيبةُ أملٍ عميقةٌ، وحُزنٌ مُؤلمٌ

تقديمُ الظّرف في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ للاهتمام به، ففي هذا التّقديم إغراءٌ خفيٌّ، وترقّبٌ دقيقٌ لتحديد موعد الإجابة؛ لِتَعْقِبَه خيبةُ أملٍ عميقةٌ، وحُزنٌ مُؤلمٌ حينَ سماع الوعيد المُحقّق، فكأنّ الحقَّ ﷻ يقول لهم: لا تتمنّوا ما لا تُطيقون، ففيه هلاكُكُم وفناؤكُم[4].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾:

ملائكةُ العذابِ مع الكافرين بمنزلة الحُرّاس الذين سيقودونهم إلى النّار

الألف واللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ عهديّةٌ؛ فإنّ المرادَ بهم ملائكةُ العذاب[5] الموكّلون، وآية ذلك أنّ الكافرين لا يُبشَّرون يومَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 211.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 20.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 6.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 19.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 15.

القيامة، بل يوبَّخون ويُعذّبون، فالملائكةُ الذين يراهمُ الكافرون يومَ القيامة بمنزلة الحُرّاس الذين سيقودونهم إلى النّار.

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ يُظهر مصيرَ المجرمين بعد رؤية الملائكة بانتفاء البُشرى عنهم

فُصِل قولُه تعالى: ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ عمّا قبله؛ لأنّه استئنافٌ بيانيٌّ[1]؛ فإنّه لّما وصف رؤيتَهم للملائكة ذلك اليومَ، نشأ سؤالٌ في ذِهن السّامع عن حالهم ذلك اليوم، فأجاب الحقّ ﷻ على هذا السّؤال بانتفاء البُشرى عنهم، ويجوز أن يكون قولُه: ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ معمولًا لقولٍ مُضْمَر، تقديره: (يومَ يرون الملائكة قائلين لهم: لا بُشرى لكم)، على أنّ القول حالٌ منَ الملائكة[2]، وكأنّ الملائكة حُرّاسُ الجنّةِ في شعورهم بالازدراء والنّفور ينادونَهم بانتفاء البُشرى عنكم أيّها المجرمون! فلقد حان وقتُ الحساب والعذاب.

معنى ﴿لَا﴾ ودلالتُها في: ﴿لَا بُشۡرَىٰ﴾:

إذا أزِفَ يومُ الحساب حُرِمَ المجرمون من كلّ بِشارة

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ نافيةٌ للجنس، و﴿بُشۡرَىٰ﴾ اسمُها مبنيٌّ بناءَ (لا رجلَ)[3]، وهي تدلُّ على حِرمانهم جنسَ البُشرى، وفي ذلك تيئيسٌ لهم، وقطعٌ لكلّ آمالِهم يومَ القيامة.

الغرضُ من تنكير ﴿بُشۡرَىٰ﴾:

حرمانٌ مطلقٌ للمجرمين من أيّ بشارة في الدّارَين، حاضرًا ومستقبلًا

أورِدَ نفيُ بشرى المُجرمين نكرةً في قوله تعالى: ﴿لَا بُشۡرَىٰ﴾، والنّكرةُ في سياق النّفي تَعُمّ؛ وفي ذلك توكيدٌ لِحرمان المُجرمين من أيّ بشارة في أيّ وقتٍ، جملةً وتفصيلًا، فلا بشرى لهم لا في الحاضر ولا في المستقبل، فأسلوبُ النّفي ذاكَ يقتضي نفيَ جميعِ أنواع البُشرى في الأوقات جميعًا[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 6.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 187.
(3) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 16.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 450، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 14/ 513.

سِرُّ استعمالِ كلمة البُشرى في غير سياقها:

تهكّمٌ وسخريةٌ من عُتوّ الكافرين واستكبارِهم، وبشارةُ عذابٍ في يوم عظيم

سياقُ الآيات جارٍ في صفات الكافرين مِن استكبارهم وعُتوّهم، ورؤيتِهمُ الملائكةَ الموكّلين بعذابهم؛ فهو سياقُ ذنوب وعذاب، فلمّا أورد كلمةَ البُشرى عُلِم أنّه أراد من ذلك التّهكّمَ والازدراءَ والسّخريّة والتّوبيخ منهم؛ لما تُفيده تلك الكلمة عادةً من دلائل الخير والمَسرّة[1]، فكأنّ الحقّ ﷻ يقول لهم: بَشَّرتُم أنفسَكم بالخير والمَسَرّة في الدّنيا، فها هي ذي بُشْراكم في الآخرة عذابٌ ونار.

غرضُ النّفي بـ ﴿لَا﴾ النّافيةِ للجنس في الآية الكريمة:

انتفاءُ البُشرى مستعملٌ في إثبات ضِدّه وهو الحُزن

في نفي البُشرى في قوله تعالى: ﴿لَا بُشۡرَىٰ﴾ إرادةُ إثباتِ ضِدّها؛ فقد أورد الحقُّ ﷻ النّفيَ صريحًا ليُثبت عليهم ضِدّه، وهو الحُزن المُقيم، والأسى المستديمُ[2]، كما أنّ قولَه تعالى: ﴿لَا بُشۡرَىٰ﴾ نفيٌ للجنس، وإنّما عدلَ إلى هذا الأسلوب للوصول إلى المبالغة في نفي البُشرى[3] وتوكيدِ هذا النّفي عنِ المجرمين بشكل قاطع؛ فلا بارقةَ أملٍ في أنّ ما نزل بهم قد يزول حالًا أو مستقبلًا، ممّا يُضاعف من شعورهم باليأس والقنوط، وإثارةِ مشاعرِ الخوفِ والرّهبة لديهم؛ فإنّ النّحويّين يرون أنّ (لا) النّافيةَ للجنس فيها توكيدُ النّفي؛ لتضمّنِها معنى (مِن) الاستغراقيّة[4].

سِرُّ إعادةِ الظّرف في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

تأكيدُ رؤيةِ المُجرمين لملائكة العذاب في ذلك اليوم على وجه التّحقيق

بعد أن ذَكَر ظرفَ رؤيتِهم الملائكةَ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾، أعاد ذِكْر الظّرف في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾، والنّكْتَةُ من إعادته وتكريره هي التّوكيد[5]؛ فإنّ رؤيتهم للملائكة ستكون في ذلك اليوم على وجه التّحقيق، فذلك اليوم موعدُ حسابهم وعذابهم.

---

(1) محمد الهلالي، تفسير القرآن الثّريّ: 2/ 19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 16.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 211، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 6.
(4) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 375.
(5) النّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 109.

حصرٌ لنفي البشارة بيوم رؤيةِ الملائكة

دلالةُ تنوين العِوَض في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

يَرِد التّنوين في كلام العرب عوضًا من حرف أو لفظ أو جملة، وقد سُمّي عوضًا لأنّه يُعَوَّض من جملة بإضافة الظّرف إليها، وهو واردٌ على سبيل الاختصار[1]، والتّنوينُ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ تنوينُ عوضٍ يدلُّ عليه قولُه: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾، والمعنى: يومَ إذ يرى الكفّارُ الملائكةَ فلا بُشرى لهم[2].

قطعٌ بنفي البشرى عن المجرمين إلى الأبد، من غير اقتصاره على زمن معيَّن

الغَرضُ من تقديم الظّرف:

قُدِّمَ الظّرفُ المُكرّر ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ على الجارّ والمجرور ﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تهويلًا، مع ما فيه منَ الإيذان بالاهتمام، والتّأكيدِ على أنّ نفي البُشرى عنِ المُجرمين ليس مقصورًا على ذلك اليوم فقط؛ كي لا يُخِلَّ بتفظيع حالِهم[3]، بل هو نفيٌ عامٌّ يشمل كلَّ الأوقات، وأنّ المُجرمين سيعيشون في عذاب أبديٍّ في الآخرة.

تبيينٌ لنفي البُشرى، وحصرٌ للعذاب في ذلك اليوم بالمجرمين فقط

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دالّةٌ على التّبيين[4]، وهو أحد معانيها في لسان العرب؛ فإنّ صفة الإجرام تبيينٌ لِمَن مُنِعَ البُشرى، فاللّام يُراد بها التّبيينُ، لما في نفي البُشرى مِنَ الإبهام[5]، فبيّن أنّه يكون في ذلك اليوم خاصًّا بالمجرمين فقط، لا يشاركُهم في ذلك غيرُهم مِنَ العصاة، وهي دالّةٌ على الاستغراق أيضًا؛ فإنّ الإجرام وصفٌ يتناول عمومَهم[6]، وفيه دلالةٌ على أنّ النّفي يشمل جميعَ المجرمين دون استثناء؛ لأنّ الإجرام صفةٌ تمنع من تَلَقّي البشارةِ

(1) ابن بابشاذ، شرح المقدمة المحسبة: 1/ 188.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 15.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 211.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 291.
(5) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 281.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 273، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 20/ 15.

يوم القيامة، ويشملُ معهم العصاةَ الذين يعتقدون لقاءَ الحقّ ﷻ[1]، ويجوز أن يكون نفيُ البُشرى غيرَ لازم لعامّة المجرمين، بل هو خاصّ ببعضهم، وإن وُجِد بعضُ المجرمين ممّن لا ينالون البُشرى، فذلك تسجيلٌ على جُرمهم، وإشعارٌ بما هو المانعُ لهم من بشارة الجنَّة، ممّا يُضاعِف من عذابهم في الآخرة؛ ولذلك وضع الاسمَ الظّاهر موضعَ ضميرِهم[2]، ويجوز أن تكون (اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ للعهديّة؛ فيكون معنى (المجرمين) يُشير تحديدًا إلى الكفّار، وآيةُ ذلك قولُ الحَقّ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [المائدة: 72][3]، ففي الآية تصريحٌ بأنّ الحقّ سبحانه حَرَّم على هؤلاء الجنّة؛ لارتباطهم بالشّرك باللّه، وهو من أعظم الجرائم.

بلاغةُ وضعِ المُظْهَر موضعَ المُضْمَر:

لـم يُـغْـنِـهـم كُفْرُهم وظُلْمُهم ويَـأْسُـهـم عن هــذا الـوصـفِ المهين

ذِكْرُ صفةِ الإجرام في قوله تعالى: ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار، فلم يكفِ التّصريحُ عليهم بالكفر والظّلم واليأس من لقاء اللّه، فوصفَهم بالإجرام؛ ليُكَمّلَ دسيستَهم به، ويثبتَ عليهم سِمَةَ الخُسران في الدّنيا والآخرة[4]، وهذا أبلغُ ممّا لو قيل: لا بُشْرى يومَئِذٍ لهم، ولوَصْفِهم بالإجرام دلالةٌ أُخرى؛ فإنّه السّببُ الرّئيسُ لحِرْمانِهم من حصول البُشرى الذي عُبِّر عنه بأتمّ وجه، فهي صفةٌ تُمَيّزهم من سائر العصاة، وهو ليس مَجَرّدَ ذنبٍ عابر، بل هو مانع حقيقيٌّ يحول بينَهم وبين نَيل الرّحمة والمغفرة، ولا إجرامَ أعظمُ من إجرام الذين لا يرجون لقاء الحقّ ﷻ، ويقولون ما يقولون، فهم أولى بهذا الوصف[5].

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 67.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 210.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 450.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 19.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 7.

إطماعٌ للكافرين في البداية، ووعيدٌ بالعذاب في النّهاية، مع التّهكّم والتّعريض بهم

بلاغةُ التّهكّم والتّعريض بهم على طريقة الغيْبة:

في هذه الجملة: ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تلميح رقيقٌ وهُزءٌ لطيف بهؤلاء الكافرين، فابتداؤُه يُطمعُهم في الإجابة، ونهايتُه تُؤيِّسُهم بالوعيد، فكأنّ الحقّ ﷻ يقول لهم: ستشاهدون ما تطلبون، ولكنّها رؤيةٌ فيها هلاكُكُم، وهو كلامٌ على طريق الغيبة، لأنّه حكايةٌ عن تَوَرُّكهم، وقصدٌ إلى إبلاغهم حين يسمعونه[1].

مشهدٌ من مشاهد يوم القيامة، يملأه اليأسُ والقنوطُ من جهة، والعدالةُ الإلَهيّة من جهة أخرى

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، ونسبةُ هذا القول ودلالتُه:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تحتمل العطفَ على ﴿يَرَوۡنَ﴾[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا القولَ هو للكافرين عند رؤية الملائكة؛ أو حين يرون ما يكرهونه من العذاب والأهوال يوم القيامة[3]، معبّرين عن يأسهم وقنوطهم من رحمة اللّه، أو أنّهم يحلّقون في خيالهم سورًا عظيمًا بينهم وبين الملائكة، يحسبونه يحجبُهم عن عذاب اللّهِ، ويظنُّون أنَّه يُبرئهم من جُرمهم، فكأنَّهم يقولون: لا صلة لنا بما أوجبتْه أيدينا، كما يقول الرّجل للرّجل: أتفعل كذا وكذا؟ فيقول: حِجرًا، أي: سترًا وبراءةً من هذا[4]، وكان العربُ إذا كرهوا شيئًا قالوا: حجرًا؛ تعوّذًا منه[5]، وتحتمل الواوُ الحاليةَ منَ الملائكة[6]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ هذا القولَ هو للملائكة أنفسِهم، فإنّها يومَئذٍ تقول للمجرمين حجرًا محجورًا[7]، مُنكرين عليهم أيَّ أملٍ في الجنّة، ومُؤكّدين عذابَهم الأليم، وحرمانَهم من أيّ بشارة، فالعفوُ الإلهيّ، والخلاصُ من النّار، وشفاعةُ الرّسول الكريم ﷺ، كلُّها بشاراتٌ عظيمةٌ لا تنالهم، فلا أملَ لهم في رحمة، ولا فكاكَ[8].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 19.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 213.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 451.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 370.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 206.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 213.
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 206.
(8) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 450.

استمرارُ تفوُّهِهم بقولهم بعد أن فوجئوا بعَظَمة ما رأَوه

صرخةُ استغاثةٍ لطلب الحماية منَ المكروه عدوًّا كان أو نازلةً

تأكيدُ هوانِ الكافرين وتناقضِ مشاعرهم في طلب الملائكة والهلعِ من لقائهم

دلالةُ التّعبير بالمضارع في فعل القول:

أورِد فعلُ القول ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مضارعًا؛ إشارةً إلى دوام تجديدِهم لهذا القول بعد مفاجأتهم به حالَ رؤيتهم لهم، أي: للملائكة؛ لعظيم روعتِهم منهم[1].

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿حِجْرًا﴾ و﴿مَّحْجُورًا﴾، ودلالتُه:

وقع قولُه تعالى: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ موقعَ النّصب على أنّه مفعولٌ موصوفٌ، فكأنّ المعنى: أنّهم يسألون اللّهَ تعالى أن يمنعَ عنهم هذا المكروه منعًا، ويحجرَه حَجْرًا كما تُحْجَر الأحجار، وهو يُقال عند لقاءِ عدوٍّ مُخيف، أو نازلةٍ هائلة، كنوعٍ منَ الاستعاذة باللّه تعالى[2]، وحَجَرَه بمعنى: منعَهُ[3]، وقدِ استُعمِل لفظ الحِجر نكرةً في قوله: ﴿حِجْرًا﴾؛ للدّلالة على عَظَمة هذا الحِجر.

دلالةُ التّأكيد بالوصف ﴿مَّحْجُورًا﴾:

وُصِفَ الحِجر بالمحجور في قوله: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، للدّلالة على توكيد معنى الحِجر[4]، وفيه تجسيد للتّناقض الصّارخ في مشاعر الكافرين، فهم من جهةٍ يطلبون نزول الملائكة، ويُلحّون في ذلك، ومن جهة أخرى يرتعبون من لقائهم عند الموت، أو يومَ القيامة، وتدلّ البنيةُ الصّرفيّة لاسم المفعول في الآية ﴿مَّحْجُورًا﴾ على وصفِ للحِجر؛ فقدِ اشتُقّ من المادّة نفسِها؛ للدّلالة على تمكّن المعنى المشتقّ أيّما تمكّنٍ، مثلما قالوا: ليلٌ أَلْيَلُ؛ لتكرر اللّيل وتواليه، وذيلٌ ذائل؛ لتخلّفه وهوانه، وشِعْرٌ شاعر؛ لتمكّنه وإحكامه[5]، فهي كلمة بليغةٌ تُجسّد معنى المنع الحتميّ، كأنّها تُشير إلى مكان محصّن لا يمكن الوصول إليه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 370.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 212، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 7.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 19.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 274.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 19.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحجرُ والمَنعُ والحبسُ:

المنعُ عامٌّ، والحبس خاصٌّ، والحِجرُ للمجرمين يوم القيامة منعٌ وحِرمانٌ من كلّ خير

الحجر: منعٌ عامٌّ، وهو الحيلولةُ بينَ المريد والشّيء المُراد[1]، وقد عُبِّر عنِ هذا المَنع بالحجر في قوله تعالى: ﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾، وهو مشتقّ منَ الحِجارة، وقيل للعقل حِجر؛ لأنّه يمنع الإنسانَ ممّا تريد نفسُه[2]، ويُستعمَل الحَجْر عادة مع الأشخاص الذين فقدوا أهليّة التّصرّف.

وأمّا الحبسُ: فهو منعٌ عن التّصرّف، كقولهم: منعَ الرّجلَ عن حاجته، إذا حبسَه منَ التّصرّف بها[3]، ويستعمل عادةً مع من يرتكب جُرمًا أو ما شابه ذلك.

ولّما كان معنى لفظ الحِجر في الآية هو المنعُ والحرمانُ، وأنّ الملائكة تقول هذه الكلمة للمجرمين يوم القيامة بمنعهم وحِرمانهم من أيّة بشارة، أو هو قول الكافرين عن أنفسهم، كان التّعبير بالحِجر أنسبَ منَ المنع لعمومه، ومنَ الحبس لخصوصه.

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (منع).

(2) الرّاغب، المفردات: (حجر).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.

﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾

[الفرقان: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أعمالُ أهلِ الكفرِ يومَ القيامة كالهباء المنثور، لا قيمة لها، ولا ثوابَ عليها

لمّا كان احتمال أن يكون للمُجرمين بعضُ الأعمال الحسنة في الدّنيا، بدافع المروءة أوِ النّجدة، لكنّهم لم يخلصوا للّه تعالى في هذه الأعمال، ممّا يُفقدها قيمتَها، فلا يُجازَى عليها؛ لأنّ الحقّ ﷻ لا يُكافئَ إلّا على الأعمال الخالصة له وحده، التي تُؤدَّى إيمانًا واحتسابًا له؛ أخبر تعالى في هذه الآية أنّ أعمالهم ستكون كالهباء المنثور، لا قيمةَ لها، ولا ثوابَ عليها.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾: (قدم) أَصلٌ يَدُلُّ على سَبْقٍ ورَعْفٍ[1]، فالقَدَمُ من لَدُن الرُّسْغ: ما يَطَأ عليه الإنسان[2]، وجمعُه أَقْدامٌ، وبهِ اعتُبِر التَّقدّم والتَّأخُّر[3]، ويُقال: قَدِم فلانٌ من سَفَره يَقْدَم قُدومًا، وقَدِم فلانٌ على الأمر: إذا أقدَمَ عليه، وقَدِم فلانٌ إلى أمر كذا وكذا، أَي: قَصَد له، وهو كما تقول: قامَ فلانٌ يَشتم فلانًا، تُريدُ: قَصَد إلى شَتْم فُلان، ولا تُريدُ بقامَ القيامَ على الرِّجلَيْن[4]، وعلى هذا المعنى فالقُدومُ في الآية مُستَعْمَلٌ في معنى العَمدِ والإرادة.

2) ﴿هَبَآءٗ﴾: (هبو) كلمةٌ تَدُلُّ على غَبَرَةٍ ورقَّةٍ فيها، منه الهَبْوَةُ: الغَبَرَةُ[5]، والجَمعُ أَهْباء، على غير قياسٍ، وهَبا الغبار يَهْبو: ثارَ

(1) الخليل، العين: (قدم).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قدم).
(3) الرّاغب، المفردات: (قدم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (قدم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هبو).

وسَطَعَ، والهَبْوَة كالغبَرة، والهَباء: دقاق التُّراب وما نبَت في الهواء، فلا يبدو إلّا في أثناء ضَوء الشَّمس في الكوَّة[1]، وأمّا المقصود به في الآية فقد شَبَّهَ عملَهم المُحْبَط في حقارته وعدم نفعِه بالهباء المنثور، الَّذي لا يمكن نظمُه والانتفاع به، ولا يُمَسّ بالأيدي، ولا يُرى في الظِّل[2].

3) ﴿مَّنثُورًا﴾: (نثر) أَصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ على إلقاءِ شَيءٍ مُتَفَرِّق[3]، ومنه النَّثْر: وهو رَميُكَ الشَّيءَ بيَدِكَ متفرِّقًا، مثلُ نَثْرِ الجَوز واللَّوز والسُّكّر، وكذلكَ نَثْرُ الحَبِّ إذا بُذِر، والنُّثارُ: فُتاتُ ما يَتَناثَرُ حَوالي الخِوانِ مِنَ الخُبْزِ ونَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[4]، ويُقال: نَثَرتُ الشَّيءَ أنثُره نَثرًا، إذا بَدّدته[5]، وحقيقةُ المَنثورِ في الآية: غيرُ المُنتظِم، وهو وصْفٌ كاشِفٌ؛ لأنَّ الهباءَ لا يكونُ إلّا منثورًا[6].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أعمالُ الكفّار يومَ القيامة مهدرةٌ باطلة لا نفعَ منها

يسوق الحقُّ سبحانه وعيدًا آخَر لهؤلاء الكافرين فيقول سبحانه: وعَمَدْنا يومَ القيامةِ إلى ما عَمِل هؤلاء المُجرمونَ في الدُّنيا مِنَ العباداتِ وأعمالِ البِرِّ والخيرِ، فأحبَطْناها وأبْطَلْناها، حتَّى صارَتْ كالهباءِ المُفرّق في الهواء لا يُرى؛ ذلك لأنَّ البِّر إنَّما يكون مع النّية المُحْتَسَبةِ عند الله تعالى، وهؤلاءِ ليست لهم نيَّةٌ مُحتسَبة؛ لأنَّهم لا يعبدون الله سبحانه، بل يعبدون الأوثانَ ولا يرجون سواها، فهم آثمون بعملهم لفساد نيّاتِهم؛ فهذه حالُ المشركين فيما يعملون من أعمال يحسبون أنّ فيها خيرًا، وهي ضلالٌ في ضلالٍ لفساد النّية[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (هبا، هبو).
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 473.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نثر).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نثر).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (نثر).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 19.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 430، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 103، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 82.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾:

عذابٌ آخرُ يُضاف إلى عذابهم السّابق

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ﴾ دالَّةٌ على الاستئناف[1]؛ فإنّ هذا القُدومَ وما تسبّب عنه وعيدٌ آخَر بعد الوعيد السّابق[2]، فقد حذّرهم اللّه تعالى من عذابه، وأرسل لهمُ الرّسلَ والملائكةَ ليُنذروهم ويُرشدوهم، وكأنّ هذا العذاب هو عقابٌ آخر يُضاف إلى عذابهم برؤية الملائكة الموكّلين بعذابِهم عند الموت، أو يوم القيامة.

بلاغةُ التعبير بلفظ: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾:

إظهارُ جلالِ الله وعَظَمتِه لمعاقبة الكافرين في ذلك اليوم المشهود

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾ فيه معنى العمد أوِ الإرادة[3]، وفي هذا تعبيرٌ بديع يُؤكّد شدّةَ عذاب الكافرين، ويُصوّر عزمَ الحقّ ﷻ على معاقبتهم، "فقد شُبّه الكافرون وعملُهم بقوم خالفوا سلطانهم، فقَدِمَ السّلطانُ إليهم، وقصدَ أشياءَهم فأفسدَها، ومَزّقها كلَّ ممزّق، وجعلَها شَذَرَ مَذَرَ، ولم يترك لها من عين ولا أثر"[4]، والقدومُ ليس على حقيقته؛ لأنّه لا يمكن إسنادُ حقيقةِ القُدوم إليه سبحانه؛ لأنّ القُدومَ مجيءُ المسافرِ بعدَ زمن، وذلك يكون بالتَّحَرُّك الذي هو من صفات الأجسام الحادثة، والحقُّ ﷻ مُنزّه عن ذلك[5]، فالمُرادُ إظهارُ جلالِه وعَظَمتِه في ذلك اليوم المشهود.

دلالةُ التّعبير بالفعل الماضي ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾:

حتميّةُ عذابِ الكافرين تتجلّى في حاضر مُتكرِّر

لَمّا أورد النّظمُ الجليلُ صيغةَ المضارع في فعلَيِ الرّؤية والقول، في قوله: ﴿يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا﴾، استعمل هنا صيغة

(1) الدّرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 6/ 473.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 81.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 19.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 274، وزاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 70.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 451، وزاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 282.

الماضي في فعل القُدوم، فقال: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾؛ ليؤكّد على أنّ ذلك الحصولَ قد تمَّ بالفعل، وأنّه أمرٌ محقّقُ الوقوعِ لا مَفَرّ منه[1]، وذلك في تعبير بديع عن حتميّة عذابِ الكافرين، وثباتِ استحقاقِهم له، وفي ذلك تحذيرُ الكافرين منَ الاغترار بالإمهال[2].

الغرضُ من إسناد ضميرِ الجمع في ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾:

تجلّي العَظَمةِ الإلهيّة في ذلك اليوم، الذي تتأكّد فيه حتميّةُ الحسابِ والجزاء

أُسنِد الفعلُ إلى ضمير الجمع (نا) في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾؛ للدّلالة على العظمة الإلهيّة في ذلك اليوم العظيم الذي يرون فيه الملائكةَ في الدّنيا أوِ الآخرة[3]، وشدّةِ هوله، وأنّه لا مَفرّ فيه منَ الحساب والجزاء، فإسناد فعلِ القُدوم إليه سبحانه دونَ التّعبير بقدوم أعمال الكافرين إليه؛ إشارةٌ إلى أنّ هذه الأعمال لا تقدر على الوصول إلى اللّه تعالى، ولا مكان لها في حماه؛ لبُعْدِها عن رحمته، في تجسيدٍ لقبحها وكراهيةِ اللّه لها، فهي تُحبسُ في مكان قفْرٍ بعيد عن رحمة اللّه تعالى، حتّى يومِ القيامة، حين تُعرض على أصحابها فيحاسبون عليها[4].

سِرُّ تعديةِ القدوم بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

سَعيٌ حثيث نحو أعمالِ العباد، المَقصودةِ والمُحاطِ بها من كلّ جانب

في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ﴾ عُدّي الفعل (قدِم) بـ ﴿إِلَىٰ﴾؛ لأنّه لَمّا كان القدومُ بمعنى القصد، عدّاه بـ ﴿إِلَىٰ﴾، أي: قصدنا في ذلك اليوم إلى عمل المجرمين[5]، وفي ذلك إشارةٌ بديعة إلى عِظَم يوم القيامة، وتأكيدٌ على السَّعي الحثيث نحو أعمال العباد، المَقصودةِ والمُحاطِ بها من كلّ جانب، ومعنى ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ﴾: أي: قصدنا تفحّصَ أعمالِهم بدقّة، لا تفوتُنا خافية؛ لنَجْزيَهم بما يَستَحِقّون من عدل وعقاب.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 370.
(2) الرّمانيّ، النّكت في إعجاز القرآن، ص: 86.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 370.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 7.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 21.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مَا عَمِلُواْ﴾:

عاقبةُ أعمالِ الكافرين إلى هباءٍ وزوال

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا عَمِلُواْ﴾ موصولةٌ، أو نكرةٌ موصوفة[1]، فإن كانت موصولةً فجملةُ العمل تكون صلةَ الاسم الموصول؛ فهي نافذةٌ تُطِلّ على عاقبة أعمالهم، وتدلّ على أنّ أعمالهم عِلّةٌ وراءَ زوالِها وتفرّقها كالهباء في الهواء، وإن كانت موصوفةً فهي مرآة تعكسُ حقيقةَ أعمالِهم، وتؤكّد أنّ أعمالهم هي التي أدّت إلى هلاكِها وفنائِها كالهباء في ضوء الشّمس، وكِلا المَعنَيَيْن يَؤولان إلى أنّ أعمال الكافرين لا قيمةَ لها، وأنّها ستزول وتفنى في الآخرة.

معنى ﴿مِنْ﴾، ودلالتُها في ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾:

بيانُ ما أَضْفَتْهُ (ما) من غموض وعمومٍ في أعمال الكافرين

لَمّا كانت ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا عَمِلُواْ﴾ مبهمةً تَعُمُّ جميعَ أعمالِ الكافرين، سواء كانت خيّرةً أو شرّيرة، ممّا أضفى عليها صفةَ الغموضِ والرَّهبة، وضاعفَ من شِدّة عذاب الكافرين؛ أورد ﴿مِنْ﴾ البيانيّةَ[2] في قوله تعالى: ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾؛ لتوضّحَ ما في ﴿مَا﴾ مِنَ الإبهام والعموم، ويجوز أن تكون ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ ابتدائيّةً دالَّةً على معنى الاستغراق؛ فتستغرقُ كلَّ ما كان لهؤلاء من عملٍ دُنيويٍّ صالح[3]، فالحَقّ ﷻ يُخبِر عبادَه أنّ جميعَ أعمالِهم الصّالحةِ في الدّنيا لا تُغنيهم عن إيمانهم، ولا تُنجيهم منَ العذاب إذا لم يؤمنوا.

الغَرضُ من تنكير ﴿عَمَلٍ﴾:

إحاطةٌ بكلّ خيرٍ قدّمه هؤلاء لكنّ خُلوصَ النّيّة هو مفتاحُ النّجاة

أورد النّظمُ الجليل لفظةَ ﴿عَمَلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٍ﴾ نكرةً، ونُكْتَةُ تنكيرِه للنّوعيّة مُرادًا به جنسُ عملِ الخير[4]، أي: أراد اللّه تعالى جميعَ أنواعِ الأعمالِ التي قاموا بها؛ فإنّها

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 473.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 19.
(3) محمد الهلاليّ، تفسير القرآن الثّريّ: 3/ 19.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 19.

على كثرتها لا تُغني عنهم من عذابه شيئًا ما دامت غيرَ خالصةٍ لوجهه الكريم، وقد يكون تنكيرُه للتّعظيم والتّكثير(1)؛ لتشملَ جميعَ الأعمالِ الصّالحة التي قام بها العربُ قبلَ الإسلام، ممّا كانوا يرجون ثوابَه في الدّنيا؛ كصلة الرّحم، وإكرام الضّيف، وإغاثة الملهوف والمضطرّ، ودفعِ الظّلم، وإعانةِ الفقير، والرّفقِ بالحقير، والمَنِّ على الأسير، فلو كانت أعمالُهم هذه مقترنةً بالإيمان لنالوا ثوابَها(2).

دلالةُ التّعبير بالجَعْل وإسنادِه إلى ضمير العَظَمة:

تأكيدُ عَظَمةِ الله تعالى وقدرتِه، وتبصيرُ المؤمنِ بجزاء الكفر وأهلِه

عُبِّر بالجَعْل في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ لإرادة معنى التّصيير(3)؛ تأكيدًا على عظمة الحقِّ سبحانه وقدرتِه؛ فإنّه تعالى لم يحوّل أعمالهم إلى هباء منثور عبثًا، بل كان ذلك تصييرًا لها على ما تستحقُّ منَ البُؤس والشّقاء، وتوكيدًا على أنّ هذا التّصيير لم يكن عدلًا فقط، بل كان رحمةً منه تعالى بعباده المؤمنين؛ ليُبصِروا جزاءَ الكفر، ونتيجةَ الانحراف عنِ الصّراط المستقيم.

سِرُّ تقييدِ الفعل بالمفعول به الثّاني في: ﴿هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾:

أعمالُ الكافرين وإن عَظُمَت في نظرهم تتلاشى كسرابٍ في صحراء الآخرة

قولُه تعالى: ﴿هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لقوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾، موصوفًا بأنّه منثور، والمفعول الأوّل هو الهاء من فعل الجعلِ العائد على الأعمال، على تقدير: جعلنا أعمالَهم صفحاتٍ منَ العدم تتطاير في الهواء، تجسّد مصيرَ أعمالِ الكافرين الباطلة، رغم ما ظنّوا من قيمتها، كصلة الرّحم، وإقراء الضّيف، ونصرة الضّعيف، وإغاثة الملهوف، فإنّهم لم يقصدوا بها وجهَ الحَقّ ﷻ، فكانت هباءً في الهواء، لا تُغنيهم شيئًا.

الغرضُ من تنكير ﴿هَبَآءٗ﴾:

الـدّلالـةُ على الكثرة والعُموم

أورد النّظمُ الجليل لفظَ الهباء في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 80.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 212.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 207.

مَّنثُورًا﴾ نكرةً؛ للدّلالة على الكثرة والعموم، فكلّ ما ذكره المفسّرون من معاني الهباء يدلّ على ذلك، فأعمالُ الكافرين في ذلك اليوم، ستكون كذرّات التّراب التي لا تُعدّ ولا تحصى، وكالغبار الذي يَملأ الجَوّ، وكأوراقِ الشّجر اليابسة التي تذروها الرّياحُ، وكالماء المُراق الذي لا يمكنُ جمعُه، وكالرّماد الذي ينطفئ ولا يبقى له أثرٌ(1).

الغرضُ منَ التّعبير بالتّشبيه البليغ في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾:

صورةٌ بليغةٌ لأعمال الكافرين تذروها رياحُ العَدمِ في سماء النّسيان

في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ تشبيهٌ بليغٌ رشيق؛ وذلك بإخراج غيرِ المحسوس إلى ما تقع عليه الحاسَّةُ، ليُصَوِّر زوالَ أعمالِ الكافرين وفناءَها، كأنّها أصبحت هباءً في الهواء، لا أثرَ لها ولا بقاءَ، وذلك لِما في تشبيه الأعمال بالهباء من دلالة على خفّتِها، وانعدام قيمتها، وكأنّها لا وزنَ لها ولا أثرَ، على الرّغم من وجودها، فكأنَّ أعمال الكافرين كذرّات التّراب الدّقيقة التي لا تُرى أو تُحسّ بالبصر، إلّا في شعاع الشّمس السّاطع؛ ففي ضَوء الحقيقة تظهر أعمالُهم على حقارتها وصِغَرها، وتُصبح كالهباء المنثور الذي لا قيمة له.

سِرُّ وصْفِ الهباء بأنّه منثور:

كنايةٌ عن خفّة أعمالِ الكافرين وتفرُّقِها، كأنّها لا أثَـرَ لـها في الوجود

في قوله تعالى: ﴿هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ وصْفٌ للهباء بالمنثور، والمنثور صفةٌ كاشفة لخِفّة الهباء وتفانيه، فكأنّه لا يتّخذ مكانًا، ولا ينتظمُ في صفّ، بل يتبعثر في الهواء، كأنّه لا وجودَ له؛ لحقارته وتفرّقِه(2)، وبذلك يصبح الهباءُ المنثور رمزًا للأعمال الباطلة التي لا تُفيد صاحبَها في الآخرة، وهذا الوصفُ زاد من بؤسهم، بأن جعل عملَهم متناثرًا(3)، كأنّها تُنثر في الهواء دونَ هدفٍ، وهو إردافٌ يُسمّى في علم البديع بالتّتميم والإيغال(4)، والفائدةُ من ذلك: المبالغةُ في أنّ

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 141، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 22.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 19.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 214.

(4) الإيغال: أن يُؤتى بكلام لإفادة نكتة للمبالغة غالبًا، ينظر: القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 202، 203، ويحيى العلويّ، الطّراز: 3/ 71، 75.

أعمالهم لا قيمةَ لها البتّةَ، وفي ذلك مبالغةٌ في بيان حقارة أعمال الكافرين، وبطلانها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العملُ والفعلُ والصّنعُ:

الفعلُ من غير قصدٍ، والصُّنعُ بإجادةٍ، والعملُ إيجادُ الأثر من غير علم

العمل: إيجادُ الأثر في الشّيء من غير عِلْم، ويكون بمعنى الإحداث[1]، وهو أخصُّ منَ الفعل، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ﴾ استعملَ مفردةَ العمل الذي لا يعدلُ عند اللّه جناحَ بعوضة، وأنّه سيكون هباءً منثورًا يومَ القيامة؛ لأنّ ما كان منهم عملٌ من غير عِلْم، فكانت عاقبتُه الهباءَ المنثور.

وأمّا الفعل: فهو بغير قصد؛ وهو أعمُّ منَ العمل، وقد يُنسَب الفعل إلى الحيوانات؛ لأنه يقع منها بغير قصد، ولذلك لا توصَفُ بالعمل.

أمّا الصّنع: فيختلف عنِ الاثنين؛ لأنّه إجادةُ الشّيء، ولا توصَف الحيواناتُ والجماداتُ بأنّها صانعة، بل يوصَف الحاذِقُ المُجيدُ بأنّه صانع؛ لإجادته وجَودته[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135.
(2) الرّاغب، المفردات: (صنع).

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان: 24]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يقابلُ القرآنُ النّعيمَ بالعذاب؛ ليُدركَ المؤمنُ قيمةَ نجاتِه، وليُحِسَّ الكافرُ عاقبةَ كُفْرِه

بعد أن أوضح الحقُّ تبارك تعالى مصيرَ الكافرين في الآية السّابقة، أراد أن يُبيّن لنا جزاءَ المؤمنين، إذ ينقلُنا القرآن من عذاب النّار إلى نعيم الجنّة؛ ليتأمّل المُؤمنُ عاقبةَ الكفر؛ فيحمدَ اللّٰه على نعمة الإيمان التي أنقذته من هذا العذاب الأليم؛ فتصبحَ نعمةُ النّجاةِ منَ النّار نعمةً ثانية عظيمة تُضاف إلى نعيم الجنّة، وبالمقابل ينظر الكافرُ إلى نعيم الجنّة من وراء حجاب النّار؛ فيزدادُ حسرةً على ما فاته، ويعلم عاقبةَ ذنبِه الذي أهدر معه سعادتَه الأبديّة؛ فيكون هذا أشدَّ عذابًا له منَ العذاب المادّي؛ لأنّه عذاب نفسيٌّ ينبع منَ النّدم والحسرة[1].

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّسۡتَقَرّٗا﴾: (قرّ) أصلُ القَرِّ: يدلُّ على الثُّبوتِ والتَّمَكُّنِ، يُقال: قَرَّ الشَّيْءُ يَقِرُّ قَرارًا، إذا ثَبَتَ في مَكانِهِ ولم يَتَحَوَّلْ[2]، وقيل: أصلُه منَ القُرِّ، وهو البَرد، وهو يقتضي السُّكونَ، والحَرُّ يقتضي الحركةَ[3]، وقَرّ بالمكان واستقرَّ، وهو قارٌّ، أي: مُستقِرٌّ، وقرَّ به القَرارُ، وهو في مقرِّه، ومستقرِّه[4]، والقَرارُ: المُستقرُّ منَ الأرض، وأقرَرتُه في مَقرِّه ليَقرَّ، وفلان قارٌّ، أي: ساكن[5]، والمُستَقَرُّ: مكانُ الاستِقرارِ، وهو المُراد في الآية.

2) ﴿مَقِيلٗا﴾: (قيل) القائلةُ: الظَهيرةُ، يقال: أتانا عندَ القائلةِ،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 1416 - 1417.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرّ).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قرّ)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 250.
(5) الخليل، العين: (قرّ).

وقد يكون بمعنى القَيْلولةِ أيضًا، وهي النَّوْمُ في الظَهيرَةِ[1]، وقد قالَ يقيل مقيلًا[2]، والمَقيلُ: الاسْتِراحَة في نصفِ النَّهار إذا اشتدَّ الحرّ، وإن لم يكن مَعَ ذَلِك نوم، والدَّليل على ذَلك أنَّ الجنَّة لا نوم فيها[3]، والمَقيلُ مُرادٌ به في الآيةِ: المَنزِلُ والقرار وقتَ الظهيرة، والقيلولةُ في ذلكَ الوقتِ مِنْ عادة المُترفين.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

أصحابُ الجنَّة في مكانٍ مُستقرٍّ ومَنـزِلٍ حسَن طيِّبِ الإقامة

معنى قول الله تعالى: أهلُ الجنَّةِ بسَبَبِ ما عَمِلوه مِنَ الأعمالِ المُتقَبَّلةِ أفضَلُ منزِلًا في الجنَّةِ، وأحسَنُ مَوضِعَ قائِلَةٍ[4]، وفي ذلك بشارةٌ عظيمة لأهل الجنّة، يخبرهمُ اللهُ بها يومَ القيامة، بأنّ دارهم خيرٌ مستقرًّا وأحسن مأوًى، نعيمٌ خالد لا مثيلَ له، جزاءً لهم على إيمانهم وصبرهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

بعد وعيدِ الكافرين جاءت البشارةُ لأهل الجنّة والنّعيم

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ عمّا سبقه؛ لأنّه استئنافٌ ابتدائيٌّ[5]؛ للإيذان بمعنًى جديد، فبعدَ أن أوعد الحقُّ تعالى أهلَ الكفر وأخبر بأن أعمالهم هباءٌ منثور لا قيمةَ له، بشَّر الكريمُ أصحابَ الجنّة بنعيم خالد لا مثيلَ له، فأخبرهم بأنّهم يومَ القيامة سيحظَون في الجنّة بأفضل مستقرٍّ، وأحسنِ مأوى.

بلاغةُ المقابلةِ بين حال المشركين وحال المؤمنين:

تنفيرٌ منَ الشّرك وأهله، وتحفيزٌ للثّبات على الإيمان والطّاعة

في الآية الكريمة: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قيل).
(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قيل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قيل).
(4) الواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 777، والخازن، لباب التّأويل: 3/ 312، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 82.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 19.

﴿مَقِيلًا﴾ لمسةٌ بديعة من خلال المقابلة الرّشيقة بين حال المشركين في الآخرة، وضدِّه من حال أصحاب الجنَّة وهم المؤمنون؛ فقد سبق وصفُ حالِ المشركين في الآخرة، بخيبتهم الشّانية بتناثر أعمالهم، ممّا يدلّ على انتفاء حظِّهم في الجنّة، ومِن ثَمّ تعيّنتِ الجنّةُ لمن سواهم، وهم المؤمنون، وفي هذه المقابلةِ درسٌ بليغ في عاقبة كلٍّ منَ الإيمان والكفر، وحافزٌ للمؤمنين للثّبات على إيمانهم، والسّعي لنَيل رضا مولاهم.

سِرُّ الإضافةِ في ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾:

أهلُ الجنّة هم المُستحقّون لها، المُشرَّفون المُكرَّمون بنعيمها

التّعبيرُ بـ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ فيه دلالةٌ على أنّهم ليسوا مُجرّدَ ضيوفٍ عابرين، بل هم أصحابُها الحقيقيّون، يملكون كلّ ما فيها من نعيم خالد، كما قيل لهم: ﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: 43]؛ فإنّهم مُتمكّنون من كلّ ما فيها، ولا حدود لِما يُنعَّمون به، يتصرّفون فيه تَصرُّفَ المالكِ فيما يملك، دون أيّ حساب أو مراجعة[1]، كما أنّ التّعبير بلفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ﴾ دالّةٌ على الثّبوت، فالصّحبةُ رِباطٌ وثيقٌ يجمع بين اثنين أو أكثرَ؛ ولذلك جاءت مشتقّات (الصّاحب) في القرآن الكريم اسميّةً أكثرَ من مجيئها فعليّةً؛ تأكيدًا على ثبات هذه الصّفة واستقرارِها، فالصّاحب الحقيقيُّ هو مَن يُلازم صاحبَه في كلّ حال[2]، لا ينفكُّ عنه ولا يتخلّى، حتّى يصبحَ جُزءًا من كيانه، ويجوز أن تكون الصّحبة دالّةً على الحُبّ، فصاحبُ الشّيء: المُرافق له عن حُبٍّ، فأصحابُها هم أصدقاؤها العاشقون، الذين يعشقونها كما تعشقُهم؛ ففي جنان النّعيم تنشأ بينَ الجنّة وأصحابِها محبّةٌ خالدةٌ، تُضفي على سعادتهم بُعدًا جديدًا، فإنّ الجنّة تُحبّ أصحابَها، ويُحبّونها، فيُنَعَّمون فيها بسعادة لا مثيلَ لها[3].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 8.
(2) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10417.

معنَى (أل) ودلالتُها في ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾:

جنّةٌ معلومةٌ للمؤمنين بما عَهِدوا من وصفِها في القرآن

الألف واللّام من لفظ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ تعريفٌ للعهد، فالمُراد بالجنّة: هي التي يعرفها المؤمنون الموعودون بها وعدًا مُحقّقًا بدخولها، المُتكرّرُ وصفُها، المبثوثُ في آياتٍ كريمةٍ لا تُحصى؛ دلالةً على عِظَمها وأَهمّيّتها.

سِرُّ التّقييدِ بالظّرف ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾:

موعدُ سعادةِ أهلِ الجنّة تنبيهٌ للعباد على العمل الصّالح لنَيله

أفاد التّعبيرُ بالظّرفيّة في لفظ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ﴾، الإشارةَ إلى أنّ خيرَ مُستقرٍّ، وأحسنَ مقيلٍ لا يمكن تحقيقُهما إلّا في ذلك اليوم، وأنّ ذلك لا يكون إلّا في الجنّة؛ تنبيهًا للعباد على أهميّة العملِ الصّالح، والاستعدادِ ليوم القيامة؛ ففي ذلك اليوم فقط سيُجْزى العبادُ على ما قدّموا من أعمال.

دلالةُ تنوين العِوض في ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾:

إيجازٌ بالحذف للدّلالة على ظرف جزاءِ أهل الجنّة

التّنوينُ في لفظ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ﴾ تنوينُ عِوض، وهو عِوضٌ عن جملة أو أكثرَ، والتّقدير: يومَ إذ يَرون الملائكة[1]، أو يومَ يستقرّون في الجنّة[2]، ففيه إيجازٌ بالحذف، والإيجازُ من منازل البلاغة.

الغَرضُ من تقديم الظّرف ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾:

يومٌ عظيمٌ تُحدّد فيه مصائرُ العِباد ويُخَصَّصُ الخيرُ بأصحاب الجنّة

قُدّم الظّرفُ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾؛ اهتمامًا بهذا اليوم العظيم؛ فهو اليوم الذي تُحدّد فيه مصائرُ العباد، وتوزّع الجزاءات، وفيه تخصيصُ وصف الخيرية بأصحاب الجنّة، فلا يمكن لأحد أن يَنعمَ بهذا النّعيم العظيم إلّا من كان من أهلها.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 13/ 371.
(2) العليميّ الحنبليّ، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 5/ 17.

الغَرضُ منَ التّعبير بالمسنَد (أفعل) تفضيل: ﴿خَيۡرٌ﴾:

تفضيلٌ تقديريٌّ غـرضُـه تـأكـيـدُ هلاكِ الكافرين وخسـارتـهـم في الآخرة

قولُه تعالى: ﴿خَيۡرٌ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ خبرٌ للمبتدأ، وهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾[1]، ولفظ ﴿خَيۡرٌ﴾ وإن كان دالًّا على التّفضيل، إلّا أنّه ليس تفضيلًا حقيقيًّا، بل هو تفضيل تقديريٌّ، يُؤَكّد هلاكَ الكافرين وخسارتَهم في الآخرة، فإنّه جَعَل أهلَ الجنّة خيرًا مُستقرًّا من أهل النّار، وليس في مُستقرّ أهلِ النّارِ شيءٌ منَ الخير، بل هو شَرٌّ مأوَى، وشَرٌّ مَقيلٍ، فيه العذابُ الأبديٌّ[2].

ويجوز أن تكون لفظة ﴿خَيۡرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَيۡرٌ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ غيرَ دالّة على التّفضيل، بل لمُجَرَّد الوصف[3]، فيكون التّنكيرُ فيها لإفادة التّعظيم، فإنّ أصحاب الجنّة يومَ القيامة على خير عظيم في مستقرِّهم ومَقيلهم، ففي جِنان النّعيم مستقرٌّ لا مثِيلَ له، ومقيلٌ لا يُضاهيه أيُّ مقيلٍ، فلا خيرَ يفوق هذا الخيرَ في جنّات تجري من تحتها الأنهارُ.

دلالةُ عطفِ (أفعل) التّفضيل في قوله: ﴿خَيۡرٌ﴾ و﴿وَأَحۡسَنُ﴾:

جـنَّـةٌ مستقرٌّ وخــيرُ مــأوَى لـلـمـؤمـنـين، وتبعيدٌ وتَهكُّم بالمُشركين

أثنى ﷻ على عباده المؤمنين في جنّاته، بأن وصفَهم بخيريّة المُستقرّ وحُسنِ المَقيل في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٌ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾، وفي ذلك تفضيلٌ واضح لأهل الجنّة على غيرهم، وإكرامٌ مُضاعف لهم على إيمانهم وصبرهم، ولكن قد يَرِدُ سؤالٌ، وهو: كيف يكون مُستقرُّ أهلِ الجنّة خيرًا من مستقرِّ أهل النّار، مع أنّه لا خيرَ في النّار؟؛ لأنّه لا يُقال في التّفضيل: العسلُ أحلى مِنَ الخَلّ، والجواب: أنّ هذا التّعبير يُشكّل تقريعًا وتهكّمًا مبطّنًا بالمشركين[4]، الذين كفروا بما جاء من ربّهم ومولاهم، واختاروا دارَ الفناء على دار البقاءِ.

(1) النّحاس، إعراب القرآن: 3/ 109.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 267.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 14/ 515.

(4) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 283، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 19.

تنوّعُ الموقعِ الإعرابيّ لقوله: ﴿مُّسۡتَقَرّٗا﴾، وثراءُ المعنى:

جنّةٌ تفوق كلَّ مكان بنعيمها وجمالها، أو مكانٌ يتمتّع بصفاتٍ لا مثيلَ لها

قولُه تعالى: ﴿خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ تحتمل ﴿خَيۡرٞ﴾ أن تكون بمعنى التّفضيل (أفعلَ من)؛ فيكون ﴿مُّسۡتَقَرّٗا﴾ منصوبًا على البيان، أي: لتبيين هذه الخيريّة، وهو يعني أنّ هذا المكانَ أفضلُ من أيّ مكان آخر، أمّا إذا قُدّر لفظُ الخيرَ على غيرِ باب (أفعل من)، فينتصبُ ﴿مُّسۡتَقَرّٗا﴾ على الظّرفية، والمعنى لهم خيرٌ في مُستقرّ[1]، وهو يعني أنّ هذا المكانَ يتمتَّعُ بصفاتٍ لا مثيلَ لها منَ الخير والجَمال والرّاحة.

دلالةُ التّعبير عن موضع المؤمنين بالاستقرار:

الجنّةُ دارُ المُقامة والخُلودِ لأهلها، تَطيبُ فيها إقامتُهم وأوقاتُهم

عبّر النّظمُ الجليلُ عن موضع أصحاب الجنّة بالاستقرار في قوله تعالى: ﴿خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾، أي: مكانًا صالحًا للاستقرار لِطيِّبه، فهم في أكثر أوقاتهم مستقرّون على سُرُرٍ مُتَقابلين يتحادثون، ويَنْعَمون بجَنّة فاقت كلَّ خيال، فهي دارُ الخُلود الأَبَديّ، حيثُ يَسْتَقِرّ القلبُ على سُررٍ من نور، وفي الوقت نفسِه هو تعريضٌ بأنّ منزلَ أولئك الذين كفروا لا يمكنُ الاستقرارُ فيه[2]، فهو عذابٌ في نار جهنّم لا يهدأ، يعانون فيها من شِدّة العذاب.

معنَى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَأَحۡسَنُ﴾:

الجنّةُ دارُ الأفراحِ، وكلُّ ما فيها يَبْهَرُ الأنظارَ ويُسْعِدُ القلوبَ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ عاطفةٌ؛ فبعدَ أن أخبر اللّهُ تعالى عن خيريّة مقام أهلِ الجنّة، عطفَ عليه الأخبارَ بحُسْن مَقيلهم، فجمع بين زيادة حُسْن المقيل مع حصول خيريّةِ المقام، فلا يُقارن خيرُهم بأيّ خيرٍ آخر، ولن تجد مقيلًا يُضاهي مقيلَهم، فكلّ ما فيه يَبْهَر الأنظارَ ويُسْعِد القلوبَ؛ فإنّ حُسْنَ المَنزلِ يكون بتمام المَسَرّة به[3].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 23.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 371.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 10.

الجنّةُ مأوى الحُسْنِ الأبديّ في كلّ شيء

دلالةُ التّعبير بالحُسن:

استعمل النّظمُ الجليل لفظَ الحُسْن في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾؛ إشارةً إلى ما يتزيّنُ به أهلُ الجنّة في مقيلهم من صَباحة الوجوه، وجمالِ الصّورِ، ونحوه مِنَ التّحاسين وما يُتَزيّنُ به(1)؛ فهو مَأوى الحُسْن الأبديّ، حيثُ تُشْرِق وجوهُ أهلِها نورًا، وتُزْهِر ملامِحُهم جَمالًا، فلا مكانَ للحُزْن، أوِ القَلَق في جنّة النّعيم.

دارُ الرُّقيِّ والفخامة، حيثُ يَنْعَمُ المؤمنون براحةٍ أبديّةٍ

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مَقِيلٗا﴾ مادّةً وصيغةً:

في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ يجوز أن يكون ذِكْرُ المَقيل إشارةً إلى زمن الاستراحة التي تلي حسابَ الخَلْق يومَ القيامة، فقد كان بعضُ النّاسِ يعتقدون أنّ الحقّ ﷻ يَفْرَغ من حساب النّاس إلى مقدار نصفِ النّهار، ثمّ يقيل المؤمنون بعد طول عناء الدّنيا والحساب في الجنّة، ويقيلُ الكافرون في النّار(2)، ويجوز أن يكون المَقيل دالًّا على المكان الذي يَفْرَغ فيه الإنسانُ لخاصّة نفسه، ويجدُ فيه راحتَه النّفسيَّةَ؛ لأنّه قد يكون لكَ مُستقرٌّ في مكان ومعكَ غيرُكَ، أمّا المقيلُ فمكانٌ خاصٌّ بك، مثلما يكونُ في دارك مكانٌ لاستقبال الضّيوف، ومكانٌ لخاصّة نفسك وأهلك، فكذلك لك في جنّة الخُلْدِ مقيلانِ يُضاعِفانِ سعادتَكَ ولَذَّتَك؛ ولذلك قالوا في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرّحمن: 46]: لك جنّتان؛ جنّةٌ عامّة، وجنّةٌ خاصَّة(3).

استراحةٌ كمكان القيلولة في الدّنيا، لكنّها أبديةٌ لا تنقطع

بلاغةُ التّعبير بالاستعارة في قوله: ﴿مَقِيلٗا﴾:

التّعبيرُ بالمقيل في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾، استعارةٌ بديعيَّةٌ تُقَرِّبُ مفهومَ الجنّةِ إلى عقول العباد؛ حيثُ شَبّه الحقُّ سبحانه مكانَ الاستراحةِ والتّمتُّع في الجنَّة بمكان القيلولة في الدّنيا، والجامعُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 275.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 534.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10419.

بينهما أنّ كليهما مكانٌ للاستراحة[1]، فكأنّ اللّه تعالى يخاطب عباده بلسانهم، ويُشير إلى ما ألِفوه في حياتهم الدّنيا؛ لينعشَ ذاكرتَهم، لكنّ الاستراحةَ في الجنّة أبديّةٌ لا تنقطع، بينما الاستراحةُ في الدّنيا قصيرةٌ عارضة.

الغرضُ من تقديم المُستقرِّ على المَقيل:

أهـلُ الجنّة يقضون أكثرَ أوقاتِهم في دار الخلود، وأقلَّها في استراحة معَ الأزواج

قُدِّمَ المستقرُّ على المقيل في قوله: ﴿خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾، من باب تقديم الأكثر على الأقلّ؛ ذلك أنّ الجنّة دارُ سعادةٍ وحُبور، لا ينقطع فيها المؤمنون عنِ التّلذّذ بأنواع النّعم؛ ولذلك يَقْضون أكثرَ أوقاتهم في الاجتماع والتّحدّث متبادِلين أطرافَ الحديث، ومتشارِكين في مختلف أنواع السّرور؛ وعليه فيكون المُراد بالثّاني المقيلَ، وهو استراحتُهم بالأزواج تمتُّعًا وملامسة في أقلّ الأوقات، كعيش المترفين في الدّنيا، فإنّهم يفعلون ذلك على وفْق هذا التّرتيب[2].

فائدةُ ذكْرِ المُستقرّ مع المقيل:

لـلـدّلالة على أنّـهـم في خيرٍ دائم، وفي مكانٍ لا مثيلَ له، وفي وقتٍ لا يُعادِلُه وقتٌ

ذِكْرُ المُستقرّ وقَرْنُه بالمقيل دلالةٌ على أنَّ مستقرَّهم غيرُ مقيلهم؛ وذلك للإيذان بأنّ أصحاب الجنّة في خير أبديّ لا ينقطع، فالمُستقرُّ مكانُ الاستقرارِ، والمَقيل مكانُ القيلولة، أي: مكانُ الرّاحة وقتَ الظّهيرة، فهم في خيرٍ دائم، وفي مكانٍ لا مثيلَ له، وفي وقتٍ لا يُعادِلُه وقتٌ، فهم منَ المكان أَحْسَنُه، ومِنَ الزّمان أطيبُه[3]، فقد جَمَعَ اللّه عليهم الحُسْنَيين، يُمَتَّعون بكلّ ما يُسْعِدُهم ويُريحُهم، وبناءً على ذلك: يمكنُ حَملُ ﴿مَقِيلٗا﴾ على معنى الخَلْوة؛ فهو المكان الذي يلجؤون إليه للاجتماع والتّواصل دون أن يُزعجَهم أحدٌ؛ فيكون قد جُمِعَ في هذا التّأويل بين حالتي التّعظيم والتّرف[4]، فالجنّةُ تُمثّل

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 73.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 275.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 452.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 215.

مكانًا عظيمًا يُكرم اللّه فيه عبادَه الصّالحين، كما أنّها تُمثّل مكانًا مريحًا، ونعيمًا مُقيمًا، يَشْعُرون فيه بالرّاحة والسّكينة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُستقرُّ والمقيلُ:

المُستقرّ عامٌّ يُشير إلى الكمال، والمقيلُ خاصٌّ يومِئ إلى الجَمال

ثَمَّة فرقٌ بينَ المُستقرّ والمقيل الواردِ ذكرُهما في قوله تعالى: ﴿خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾، فالمُستقرّ مُتأتٍّ منَ السّكون، فيُسَمّى بطنُ الوادي قَرارًا؛ لسكون الشّيء إذا صار إليه[1]، أمّا المقيل: فهو الاستراحة عند اشتداد الحرّ إذا انتصفَ النّهار، من غير أن يكون معه نوم، فالجنّةُ لا نَومَ فيها[2].

ومن هنا عُلم الفرقُ بينَهما، وهو أنّ المُستقرّ عامٌّ في السَّكَن، دالٌّ على السُّكون، والمَقيل: خاصّ بوقت أو زمن، ومع ذلك فقد جمع الحقُّ ﷻ بينَ الأمرين لعباده المؤمنين يومَ القيامة، غيرَ أنّه وصَفَ المُستقرَّ بالخيريَّةِ؛ إشارةً إلى الكمال والتّمام والشّمول، فالجنّةُ هي خيرُ مستقرّ؛ لأنّها توفّر كلَّ ما يحتاجه الإنسانُ من سعادة وراحة وأمان، ووصفَ المقيلَ بالحُسْن؛ إشارةً إلى الجمال والرّوعة والجَودة، فالجنّة هي أحسنُ مقيل؛ لأنّها توفّر أجملَ الأماكنِ، وأروعَ المناظرِ، وأفضلَ الخدماتِ، ولا شَكّ أنّ الخير أعمُّ منَ الحُسْن، كما أنّ الاستقرار أعمُّ وأوسعُ منَ المَقيل.

---

(1) العسكريّ، الوجوه والنظائر، ص: 444.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قيل).

﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦﴾

[الفرقان: 25 - 26]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تصحيحُ مفاهيمِ الكفّار عن يوم القيامة، فالعِزُّ والقوّة لا يُغنيان عنِ العذاب

لَمّا استدعى الكفّارُ إنزالَ الملائكة عليهم؛ بيّن سبحانَه بأنّ ذلك يحصل في يوم له صفاتٌ، وهو تشقّق السّماءِ بالغمام، وزوالُ أملاكِ المالكين فيه، ويكون الملكُ الحَقّ يومَئذ للرّحمن[1]، والمقصود تأييسُهم مِنَ الانتفاع بأعمالهم وبآلهتهم، وتأكيدُ وعيدِهم، وقد أدمجَ في ذلك وصفَ بعضِ شؤون ذلك اليوم، وأنّه يومُ تنزيلِ الملائكة بمَرأى مِنَ النّاس[2].

ومن المناسبة أنّه لمّا كان الكفّارُ في الدّنيا يتمتّعون بالعِزّ والقوّة والضّخامة، ظنّوا أنّ مصيرَهم سيكون خِلافَ مصيرِ أعدائِهم، فاستغربوا من هذا التّغيير العظيم في يوم القيامة؛ فبيّن الحقّ ﷻ أنّ الأمر في ذلك اليوم سيكون مختلفًا تمامًا عمّا عهدوه في الدّنيا، فعُطفت هذه الآية على ما سبقها[3].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَشَقَّقُ﴾: (شقّ) أَصلٌ واحِدٌ صحيحٌ يَدُلُّ على انصِداعٍ في الشَّيءِ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ ويُشتَقُّ منه على معنى الاستِعارَةِ، تَقولُ: شَققْتُ الشَّيْءَ أَشُقُّهُ شَقًّا، إذا صَدَعْتَهُ، وبيَدِهِ شُقوقٌ، وبالدّابَّة شُقاقٌ، والأَصلُ واحدٌ، والشِّقَّةُ: شَظيَّةٌ تُشظَّى مِنْ لَوحٍ أَوْ خَشَبَةٍ[4]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 452.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 19.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 372.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شق).

ومِنَ البابِ: الشِّقاقُ: الخِلافُ والعَداوةُ، يُقالُ: شاقَّه، مُشاقَّةً وشِقاقًا: إذا خالفَهُ[1]، والشِّقُّ أَيْضًا: النّاحيَةُ مِنَ الجَبَلِ، وهو الشَّقيقُ أيضًا، يُقالُ: هَذا أَخي وشَقيقي وشِقُّ نَفْسي، والمَعْنَى: أَنَّهُ مُشَبَّهٌ بِخَشَبَةٍ جُعِلَتْ شِقَّيْنِ، والشُّقَّةُ: مَسيرٌ بَعيدٌ إِلَى أَرْضٍ نَطيَّةٍ، تَقولُ: هَذِهِ شُقَّةٌ شاقَّةٌ[2]، والمقصودُ بالتَّشَقُّقِ في الآية: التَّفتُّحُ بَيْنَ أجزاءٍ مُلتئمةٍ، وتشقُّقُ السَّماءِ حالَةٌ عجيبةٌ تظهرُ يومَ القيامةِ، ومعناهُ زوالُ الحواجزِ والحدودِ الَّتي كانَتْ تمنعُ الملائكةَ من مُبارحةِ سماواتِهم، إلّا من يُؤذَنُ له بذلك[3].

2) ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾: (غمّ) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَغْطيَةٍ وإِطْباقٍ، تَقولُ: غَمَمتُ الشَّيْءَ أَغُمُّهُ، أَيْ: غَطَّيْتُهُ[4]، والغَمامُ: السّحاب، والقِطعة غَمامةٌ[5]، وسُمّي بذلك لكونه ساترًا لضوءِ الشَّمسِ[6]، وقد أَغمَّتِ السَّماءُ، أي: تَغَيَّمَتْ[7]، والغَمُّ والغُمَّةُ: الكَرْبُ والحُزْنُ[8]، والمُرادُ بالغَمام في الآية: اسمُ جنسٍ جمعيٍّ لغمامة، وهي السَّحابُ الأبيضُ الرَّقيق، سُمّي بذلك لأنَّه يَغُمّ ما تحتَه، أي: يستُره ويُخفيه[9].

3) ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾: (ملك) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أَملَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوَّيْتُهُ، والأَصْلُ هذا، ثُمَّ قيلَ: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَملِكُهُ مَلْكًا، والاسمُ المِلْكُ؛ لأَنَّ يَدَهُ فيه قَوِيَّةٌ صَحيحَةٌ[10]، والمُلْك: نَوْعٌ مِنَ المِلْك - بِكَسْرِ الميم -، فالمِلْكُ جِنْسٌ، والمُلْكُ - بِالضَّمِّ - نَوْعٌ مِنْهُ وهو أَعلى أَنواعِهِ، ومعناهُ: التَّصرُّفُ في جماعةٍ عظيمةٍ، أو أُمَّةٍ عديدةٍ، تصرُّفَ التَّدْبيرِ للشّؤون، وإِقامةِ الحُقوقِ، ورعايةِ المَصالِحِ، ودَفْعِ العُدوانِ عنها، وتوجيهِها إلى ما فيهِ خيرُها، بالرَّغبةِ والرَّهبةِ[11]، والمُرادُ بالمُلْكِ في الآية: الحَقُّ الدّائمُ للهِ تعالى.

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (شقق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شقق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 19.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غم).
(5) الخليل، العين: (غمم).
(6) الرّاغب، المفردات: (غمم).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (غمم).
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (غمم).
(9) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 189.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (ملك).
(11) الرّاغب، المفردات: (ملك)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 213.

4) ﴿عَسِيرًا﴾: (عسر) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدُلُّ على صعوبةٍ وشِدَّةٍ[1]، فالعُسْر: نقيضُ اليُسْر، وهوَ الضّيقُ والشِّدَّةُ والصُّعوبَةُ[2]، والعُسْرة: قِلّة ذات اليَد، وكذلكَ الإعسار، والعُسْرَى: الأُمور الَّتي تَعْسُر ولا تتيسَّر، واليُسْرى: ما استَيسَرَ منها[3]، والمُرادُ بالعسير في الآية: الصَّعبُ الشَّديد، أي: أَنَّ يومَ القيامة صعبٌ شديدٌ على الكافرين.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يصِفُ اللّٰه تعالى بعضَ أهوالِ يوم القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ أيُّها الرّسولُ ﷺ يومَ القيامةِ حين تتشَقَّقُ السَّماءُ عن سَحابٍ أبيَضَ رَقيقٍ، وتُنَزَّلُ الملائكةُ مِنَ السَّمَواتِ إلى أرضِ المَحشَرِ تنزيلًا، في ذلك اليَومِ يكونُ السُّلطانُ الثّابتُ الحَقُّ للّٰه وحدَه دونَ غيره من مُلوكِ الأرضِ، وكان يومُ القيامةِ يومًا صَعبًا شَديدًا على الكافرينَ[4].

يــومُ القيامة شــديدٌ صعبٌ على الكافرين؛ لِما ينالُهم مِنَ الأهوال

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ عاطفةٌ على قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾[5]، وفي عطف هذه الجملةِ على ما كان من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ قصدٌ إلى أنّهم آيسون من أن ينتفعوا بأعمالهم وبآلهتهم، فوعيدُهم مُؤكَّد[6]، وسيُحشرون خائفين مذعورين، لا ينفعُهم عملُهم، ولا تُغني عنهم آلهتُهم شيئًا؛ ليرَوا مشاهدَ الرُّعب والهول، بإرسال ملائكة العذابِ حاملةً معها سياطَ العقابِ.

نــزولُ الملائكةِ بــعــد تشقّق السّماءِ موعد تحقّق رغبة الكافرين برؤيتها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عسر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عسر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 439، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 24.
(5) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 17.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 425 - 453، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 19.

الإشـــارةُ إلى عِـظَـم ذلـك اليومِ الذي تقع فيـه الأحــداثُ الجِسام

سِرُّ التّقييدِ بالظّرف: (يوم):

لفظُ (يوم) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ ظرفٌ منصوب، أي: في ذلك اليوم، ويدلّ على محذوف تقديرُه: واذكر، أو تذكَّر ذلك اليومَ[1]؛ فهو ليس مُجَرَّدَ ظرفٍ زمنيّ، بل هو رَمزٌ يَشي إلى هولِه واشتمالِه على الأحداث الجِسام، وفيه دعوةٌ لتأمُّل عَظَمةِ ذلك اليوم، والتّفكُّرِ في عاقبة الأمور، فذلك اليومُ هو يومُ الحساب والمصير، يومُ الجزاءِ والعدل.

تَشَقُّقُ السّماءِ تشقُّقًا عظيمًا توكيدٌ لعَظَمة ذلـك الـيـوم وهولِه

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿تَشَقَّقُ﴾ مادّةً وصيغةً:

استعمل النّظمُ الكريم لفظَ ﴿تَشَقَّقُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ للدّلالة على انفتاح السّماء وانصداعها، ممّا يُتيح للملائكة النّزولَ بأمر ربّهم، واختار صيغة (التّفعّل)؛ لِما لهذه الصّيغة من معنى الفعل المُتكَرّر، المُؤْذِن بالتّكثير[2]؛ ليُؤَكِّدَ تكرارَ التَّشَقّق وشِدَّته، ممّا يُثيرُ شُعورًا بالرُّعب والفَزَع في نفوس الكفّار.

تعدُّدُ القراءاتِ القرآنيّة المتواترة في ﴿تَشَقَّقُ﴾، وثراءُ المعنى:

في قوله تعالى: ﴿تَشَقَّقُ﴾، قرأ أبو جعفرٍ ونافعٌ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ بتشديد الشّين ﴿تَشَّقَّقُ﴾، وقرأ أبو عمرو وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيّ وخَلَفٌ بتخفيفها ﴿تَشَقَّقُ﴾[3]، والأصل في تشديد الشّين (تَتَشَقّقُ) بإدغام التّاء في الشّين، أمّا قراءةُ التّخفيف فعلى الأصل نفسه، لكن بحذف التّاء[4]، والتّخفيفُ أكثرُ شيوعًا في الكلام؛ لأنّ الحذف أخفُّ عليهم منَ الإدغام[5]، والحذفُ قرينُ السُّهولة واليُسر، ففي ذلك إيصالُ رسالةٍ واضحة للبشر، بأنّ ذلك اليوم سيكون يومَ

(1) العكبريّ، التبيان: 2/ 984، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 23.
(2) الرّضي، شرح الشّافية: 1/ 105.
(3) ابن مهران، المبسوط، ص: 323، وابن الجزري، النشر: 2/ 234.
(4) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 216.
(5) أبو شامة، إبراز المعاني من حرز الأماني، ص: 618.

رُعبٍ وخوف للكفّار، وأنّ عذابَ اللّهِ مصيبُهم لا محالةَ، وأنّه على اللّه يسير، ويجوز أن يكون التّشقّق خافيًا على بعض البشر، وآيةُ ذلك حذفُ التّاء، كما تشقّق الأرضُ بالنّبات؛ فيخرج من خلال شُقوقها[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾:

استغراقُ السّماواتِ كلِّها بانشقاقٍ عظيم

اللّامُ في لفظ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ تُفيد الاستغراقَ، إذ تستغرق السّماواتِ كلَّها في انشقاق عظيم، كأنّها شقوقُ تمزّقِ الوجود، تتفتّح سماءٌ تلوَ سماءٍ؛ فتُطلِقُ حشودًا منَ الملائكة يَملؤون الآفاقَ، وتحيط حشودُ الخلائقِ بالعالَم في سبع صفوف متراصّة، كأنّها أمواجٌ من نور تتلاطمُ، يفوق عددهم عددَ سكانِ الأرض أضعافًا، ثمّ ينزلُ الكروبيّون، وهم سادةُ الملائكة، وحملةُ العرشِ العظيم[2].

بلاغةُ المجاز في إسناد التّشقّق إلى السّماء:

استعارةٌ عن كثرة الغيوم، للدّلالة على عَظَمة ذلك اليوم ورهبته

في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ استعارةٌ تبيّن عَظَمةَ ذلك اليوم، فالمُراد بها: صفةُ السّماءِ في ذلك اليوم، حيثُ تكون مغطّاةً بالغيوم الكثيفة المنتشرة في جميع أنحائها، كأنّها تشقّقت من كثرة الغيوم، وليس المرادُ التّشقّقَ الحقيقيَّ، بل هو تعبير مستعارٌ عن كثرة الغيوم؛ للدّلالة على عظمة ذلك اليوم ورهبتِه[3]، أو أنّ تشقّقَ السّماءِ كنايةٌ تُشير إلى اضطراب الكون بأسره، وتفكّكِ أجزائه، في مشهد مهيب يُخيف القلوبَ، ويُزلْزِلُ الأرواحَ، وذلك إشارةٌ إلى عِظَمِه، وخطورةِ ما فيه من أحداث وتَغيّرات، تشملُ الكونَ جميعَه؛ فإنّه يومُ البعثِ العظيم[4].

معنى الباء ودلالتُها في قوله: ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾:

الباء الدّاخلة على الغمام في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 372.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 453.
(3) جعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية: 6/ 131.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5269.

السّماءُ تنشقّ عن غمامٍ، أو هو سببٌ لانشقاقها، أو تنشقّ ملابِسةً لذلك الغمام

﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ تحتمل أن تكون بمعنى (عن)، على معنى أنّ السّماء تنشقّ عنِ الغمام[1]، فيُحيطُ الغمامُ بالملائكة المُنَزّلين، ويجوز أن تكون للسَّببيّة، أي: أنّ الحقّ تعالى يخلق غمامًا ذا قوّة هائلةٍ كقوّةِ البرق، يُسهم في انشقاق السّماء لنزول الملائكة، وتحتمل (الباء) معنى ثالثًا؛ وهي أن تكون للملابسة، أي: أنّ انشقاق السّماء يُرافقه ظهورُ غمامٍ في ذلك اليوم المَهول[2]، فهذه المعاني متداولةٌ مشهورة في معنى (الباء) في لسان العرب، وإن كان أشهرُها وأشيُعها الملابسةَ والملاصقةَ[3].

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾:

غمامٌ معهودٌ يصاحب نزولَ الملائكة منَ السّماء يوم القيامة

(أل) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ دالّةٌ على العهد، ويكون المُرادُ به الغمامَ المعهودَ[4]؛ فتنشقُّ السّماءُ وتَنَزَّلُ الملائكةُ تنزيلًا، وتحجبُهم أستارٌ منَ الغمام، فهو دونَها عند انشقاقها، ويُحتمَل أن يكون هذا الغمام أبيضَ، يُنَزّله اللّهُ تعالى على أنبيائه، مثل الغمام الأبيض الرّقيق الذي أظلّ بني إسرائيل في رحلة تيههم[5]، أو هو ذلك السّحابُ الرّقيق، الذي يغشى مكانَ الحساب[6]، أو ما يُنَزّل الملائكةُ على هيئتِه يومَ القيامة، فلا يراهم النّاس يومَئذ إلّا في هذه الظّلل منَ الغمام[7].

بلاغةُ الإدماج في وصف شؤون ذلك اليوم:

انشقاقُ السّماء يُؤكّدُ عذابَ الكافرين، ويُبشّر بتنزّل الملائكة ليوم الحساب

لَمّا عطف تشقّقَ السّماء على رؤيتهم الملائكةَ؛ قاصدًا تأييسَهم منَ الإفادة ممّا كان منهم من عمل غيرِ مُرضٍ، وممّا كانوا يعبدون من آلهة سوى اللّه، فقد أدمج في أثناء ذلك بعضًا ممّا كان في ذلك

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 260.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 10.
(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 36 - 41.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 453.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 142، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 275.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 10.
(7) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 9.

اليوم العظيم من شؤون وأمور، وأنّه يومٌ تنزّلُ فيه الملائكةُ على مَرأى منَ النّاس(1).

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

نـزولُ الملائكـة يُـرافـق تَـشـقّـقَ الـسّـمـاء يـومَ القيامة

من معاني الواو في كلام العرب المُصاحبةُ والمَعيّة(2)، والواردُ في قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ منه؛ فإنّ التّشقّق يقتضي وجودَ انبثاقٍ وانفتاق، يقارنُه نزولُ الملائكة، ممّا يعني أنّ نزول الملائكة يصاحب تشقّقَ السّماء(3)، فكما أنّ التّشقّق يُشير إلى انبثاق وانفتاحٍ، فإنّ نزول الملائكة يُشير إلى حضور ومشاركةٍ في أحداث ذلك اليوم من رعب وهول يصيب الكافرين، والمشاركةِ في إظهار عَظَمة الحقّ ﷻ.

دلالةُ بناءِ ﴿وَنُزِّلَ﴾ على ما لم يُسمّ فاعلُه وتضعيفُها:

نـزولُ الملائكـة حتمٌ ممّن لا آمِرَ غـيرُه، يـنـزلـون مـرحـلـةً بـعـدَ مرحلة

في التّعبير عن فعل إنزال الملائكة قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، فاستعمل الفعلَ الماضي المبنيَّ للمفعول، فدلَّ على أنّ نزول الملائكة هو أمرٌ حتمٌ لا مَفرَّ منه، وأنّ الحقّ ﷻ هو مَن يملك القدرة على إنزاله، فإنّه الآمر ولا آمرَ غيرُه، كما استعمل صيغة الفعل المُضعّفة (فُعّل) الدّالّةَ على التّدريج بتتابعه شيئًا فشيئًا حتّى يصل إلى غايته، في دلالة على أنّ نزول الملائكة لا يحدث دفعةً واحدة، بل إنّه يحدث على مراحلَ متدرّجةٍ، في إشارة إلى جهل من طلب إنزالَ الملائكة دفعة واحدة(4).

وفي التّعبير بفعل التّنزيل في قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فائدةٌ تشير إلى أنّ الملائكة كانت في مكان أعلى من مكان حضورهم يومَ القيامة، فكلمة ﴿وَنُزِّلَ﴾ تُفيد انتقالَ شيءٍ من مكان عالٍ إلى مكان أدنى منه، ممّا يدلّ على أنّ الملائكة كانوا في سماء أرفعَ من تلك

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 19.

(2) الفارسيّ، التّعليقة على كتاب سيبويه: 4/ 242.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 10.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 372، والشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 657.

التي يُنَزّلون إليها في ذلك اليوم، وأنّ انشقاق السّماء يُمثّل طريقًا للملائكة للنّزول إلى مكان الحشر والحساب.

تنوّعُ القراءاتِ القرآنيّة المتواترة في قوله: ﴿وَنُزِّلَ﴾، وثراءُ المعنى:

بالبناء للمفعول للعِلْم بالفاعل، وبالبناء للفاعل بإخبار الله عن نفسه

قرأ الجمهورُ قولَه تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بنون واحدة مع تشديد الزّاي ورفع الملائكة، وقرأ ابنُ كثيرٍ المَكّي: ﴿وَنُنزِلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بنونين مع تخفيف الزّاي ونصب لفظ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾[1]، فالفعل على قراءة الجمهور مبنيٌّ للمفعول، مُسندٌ للنّائب عنِ الفاعل ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ وذلك للعِلْم بالفاعل، وهو الحَقّ ﷻ، وأمّا الفعلُ على قراءة ابن كثير فمبنيٌّ للفاعل، ونُصِب به المفعولُ ﴿وَنُنزِلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، وفيه يُخبر اللّهُ تعالى عن نفسه.

معنى (أل) في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

حشدُ ملائكةٍ هائلٌ ينزلون بأمر الله في عذاب محقّقٍ لا مَفرّ منه

(أل) في قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ دالّةٌ على الاستغراق والعموم، فيتناول الجميعَ[2]؛ فإنّهم جميعًا سينزلون في ذلك اليوم، فقد طلب الكفّار أن يَرَوا الملائكة جميعًا في حال واحدة[3]، فاستجاب اللّه تعالى لطلبهم، فكان نزولُهم أمرًا حتميًّا لا مَفرّ منهُ.

سِرُّ تقييدِ نزول الملائكة بالمفعول المطلق ﴿تَنزِيلًا﴾:

نزولٌ هائلٌ كوابل المطر لملائكةِ السّماوات جميعًا يملؤون المكانَ ذلك اليوم

أُكِّد نزولُ الملائكة بالمصدر ﴿تَنزِيلًا﴾؛ للدّلالة على كثرتهم، والمبالغةِ تأكيدًا على عَظَمة ذلك النّزول، فإنّ نزول الملائكة لن يكون نُزولًا معهودًا، بل سيكون نزولًا كثيفًا هائلًا، كأنّ السّماء تُمطِر ملائكةً[4]، كما أنّ التّعبير بالمفعول المُطلق ﴿تَنزِيلًا﴾ لتأكيد الحقّ ﷻ على نزول الملائكة بشكل قاطع، وأنّ نزولَهم نزولٌ حقيقيٌّ وملموس، لا مجرّدَ اتّصالٍ نوريٍّ أو خواطرَ مَلَكيّة تَشُعّ في نفوس

(1) ابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 323، وابن الجزري، النشر: 2/ 334.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 453، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 19.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 372.
(4) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 498.

أصحاب الكمال[1]، وفيه إشارةٌ إلى حركة واضحة وقويّة للملائكة من مكان عالٍ إلى مكان دانٍ للحساب يوم القيامة، ويجوز أن يكون التّعبيرُ عن نزول الملائكة بالمصدر المنصوب ﴿تَنزِيلًا﴾؛ للدّلالة على التّعجيب من حالهم، أي: تنزيلًا عجيبًا لا عهدَ لهم به من قبلُ بحصول الانشقاق سماءً سماءً، ثمّ نزولِ الملائكة حاملين صحائفَ الأعمال[2].

نُكْتَةُ فصل قولِه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾:

المُلْك الحقيقيّ لله وحدَه، لا شريكَ له فيه، له الحُكمُ والأمرُ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ عمّا قبله؛ لأنّ ذلك اليوم سببٌ في انكشاف الأمور والحقائق، وفضحِ الأباطيل، وإثباتِ أنّ المُلْك الحقيقيّ هو لله وحدَه، لا شريكَ له فيه، ولا مناصَ من حُكمه، وأنّه لا قضاءَ فيه لغيره[3].

معنى (أل) ودلالتُها في ﴿ٱلْمُلْكُ﴾:

الـدّلالـةُ على كمال استغراق مُـلك الـلـه، فلا ملكَ لسواه

استُعملَ الألفُ واللّام مع قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ﴾؛ للدّلالة على أنَّ مُلكه هو المُلك الحقيقُ به، الدّالُّ على كمال الاستغراق، فلا ملكَ لسواه[4]، فملكُه تعالى ذلك اليوم سيكون مُلكًا مطلقًا شاملًا، لا يقاس به مُلكُ أحد، ولا يشاركُه فيه أيُّ مخلوق، وهو المُلك الذي أخبر الحقّ ﷻ عنه في كتبه، وأرسل به رسلَه؛ فيكون مُلكًا جامعًا لصفات الكمال والجلال[5]، ويجوز أن تكون الألف واللّام في لفظة ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ لإفادة القصر[6]، طريقُه تعريفُ الطّرفين، فكلّ مُلك في ذلك اليوم باطلٌ مُبْطَلٌ إلّا مُلكَه ﷻ، في إشارة إلى أنّ الحقّ سبحانه وحدَه المُتصرّفُ في أمر ذلك اليوم، وأنّه لا يشاركه أحدٌ في مُلكه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 10.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 213.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 373.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5269.
(5) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 116.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 76.

فائدةُ إعادةِ الظّرف ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾:

يومٌ تخضعُ له فيه المُلوكُ، وتَعنو له الوجوه، وتذلُّ له الجبابرة

في إعادة الظّرف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ تأكيدٌ على أنّه لا يملك أحدٌ غيرُه، لا في الصّورة ولا في المعنى، إنّه يوم تخضع له الملوكُ، ويخضع له الجميع، وتصير كلُّ القوى باطلةً أمامَ عَظَمتِه، وفيه توكيدٌ على حصر المُلك في ذلك اليوم، بخلاف سائر الأيام[1]، فقد يشارك بعضُ الخَلْق في بعض مظاهر المُلْك، كأن يملك الإنسانُ بعضَ الأرض، أو يَحْكُمَ ملكٌ بعضَ النّاس، فينتفي ذلك تمامًا يومئذٍ، والظّرفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ﴾ هو في حقيقته تكريرٌ لقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ﴾، وفائدتُه التّوكيد[2]، والتّقييدُ بالظّرف ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ لثبوت الخبر ﴿لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ للمبتدأ وهو ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾، وفائدتُه: أنَّ ثبوت المُلك المَذكور له تعالى خاصّة يومَئذٍ؛ فتتلاشى أمامَه أسسُ المُلك الدُّنيويّ ذاتُ التّصرّف الصّوري[3]، فلا يبقى إلّا المُلك الحقيقيّ، ملكُ السّماوات والأرض، فيصبح الملكُ صفةً متفرّدة به، لا يشاركه فيها أحدٌ من مخلوقاته.

دلالةُ تنوينِ العِوض في ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾:

مُلكٌ للرّحمن يومَ تشقّق السّماءُ بالغمام وتنزّلُ الملائكة تنزيلًا

الشّأنُ في تنوين العِوض مع ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ أن يكون دالًّا على جملة محذوفة؛ عوضًا منها بإضافة الظّرف (إذ) إليها، وهو تعويضٌ للعِلْم بموضعها، ولإفادة الاختصار[4]، وهو المقصود في هذه الآية؛ فإنّ تنوين العِوض يُضفي على كلمةِ الجملة سِمَةً مِنَ الغُموض والإبهام، ممّا يُثير تساؤلًا في نفس القارئ عن ماهيّة ذلك اليوم العظيم.

الغرضُ من تقديم الظّرف على الخبر:

قُدِّم الظّرفُ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 453.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 10.
(3) ابن يعيش، شرح المفصّل: 5/ 155.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 213.

الإشـارةُ إلى أهـمّـيـة ذلـك الـيـوم، وشَـدُّ انتباه السّامع إلـيـه، وإثـارةُ فضوله

﴿لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، فـ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ صفة للملك، والتّقدير: المُلك الحقّ يومئذٍ للرّحمن[1]؛ للإشارة إلى أهمّيته، ولشَدّ انتباه السّامع إليه، وإثارة فضوله، واهتمامه اهتمامًا ينبع منَ الرّغبة في معرفة مصير الإنسان في الآخرة، حتّى إذا ما وقع أُصيبوا بخيبة أملٍ وكآبةٍ تغشى القلوبَ عند سماع ما يُخيّب آمالَهم في ذلك اليوم[2].

سِرُّ وصفِ المُلك بالحقّ:

ملكُ الله ثابتٌ لا يزول، دالٌّ على عظمته وهيبته

وصفُ المُلك بالحقّ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾؛ لإرادة الثّبات؛ إذ يُطِلُّ ذلك اليومُ العظيم مُقترنًا بمُلك الرّحمن، مُلكًا ثابتًا لا يزول ولا يحول، فكلُّ ملكٍ لا شَكّ زائلٌ باطل يومَئذٍ إلّا ملكَه سبحانه[3]، مُلكًا يُثبِت فيه ﷻ قدرتَه وعَظَمتَه، بما يُضفي على المُلك سِمةً منَ الجلال والرّهبة والهيبة.

معنى اللّام ودلالتُها في قوله: ﴿لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾:

ملكٌ دائمٌ بإقرار الخلائق جميعًا من دون منازعةِ أحد

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ تُشير إلى إضافة المُلك إلى الحقّ سبحانه، وهو مُلكٌ حقيقٌ به ثابت، لا يمكن إنكارُه، وإن كان الحقّ ﷻ صاحبَ كلِّ صفةِ كمال، لكنّ إضافة الملك إليه تعالى تأتي من عدّة وجود مهمّة؛ منها: أنّ مُلكَه تعالى دائمٌ باقٍ لا فناءَ له، على عكس مُلك الدّنيا الزّائل، وأنّ جميع الخلائق تُقرّ بمُلكه تعالى ذلك اليوم، فلا يُنكره أحدٌ، وأنّه لا ينازِعُه أحدٌ في المُلك ذلك اليومَ، خلافَ ما قد يحدث في الدّنيا من تنازعٍ على المُلك[4].

غرضُ الإتيان باسم الله (الرّحمن)، وسِرُّ اصطفائه:

الرّحمن هو الله ﷻ، وعـمـومُ رحمتِه بالخَلْق لا يمنع عدلَه

آثَرَ النّظمُ الجليل اسمَ الله ﷻ (الرَّحۡمَن) في سياق المُلْك في قوله: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، فيما ذكره بلفظ الجلالة (اللّه)

---

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 535.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 7، 10.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 275.

(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 21.

في موضع ثانٍ في سياق مماثل دالٍّ على المُلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]، والغرضُ من ذلك تعليمُ العرب أنّ (الرّحمن) المذكور في هذه الآية هو (اللّه) الذي لا إلهَ إلّا هو، فالعرب تسمّي كلَّ معبود إلهًا، لكنّها لم تكن تعرفُ (الرّحمن) معبودًا، ولم تكن تسمّيه (الرّحمن)؛ لذلك فإنّ ذِكْر اللّه تعالى باسم (الرّحمن) في هذه الآيةِ يُشير إلى أنّهما اسمٌ واحد[1]، وإيرادُ الاسم الجليل بعنوان الرّحمانيّة؛ للإيذان بأنّ اتّصافه تعالى بغاية الرّحمة لا يُهَوِّن الخَطْبَ على الكَفَرة؛ لعدم استحقاقِهم للرَّحمة[2]، فلا ينجو منَ العقاب من لم يستحقَّ الرَّحمةَ، وأنّ المُلك حقيقٌ يومَئذ بالرّحمن، ويشير إطلاقُ لفظ (الرّحمن) دون غيرِه منَ الصّفات إلى عِظَم رحمة الحقّ سبحانه بعباده يوم الحساب، ذلك اليومُ الذي تُلتَمس فيه الرّحمة، ويُلاذ فيه إلى الرّحمن الرّحيم، ويكون ما ينال العصاةَ من عذاب ممسوسًا برحمة اللّه تعالى، لا يُراد منه إلّا تطهيرُ هذه النّفوس الخبيثة وشفاؤها من أمراضها، وليس العذاب انتقامًا ولا تشفّيًا، فاللّهُ تعالى لا ينتقمُ ولا يتشفّى؛ فتلك صفةُ من كان عاجزًا فقدر، أو عدوًّا فقهر فانتصر[3].

ومِن عُموم رحمته وحَقّيّةِ مُلكه تعالى أن يَسُرَّ قلوبَ أهلِ وُدِّه بتعذيبِ أهلِ عداوته وكفرانه الذين عادَوْهُم فيه؛ لتضييعهم الحقَّ بأن اتّبعوا الباطل[4]، فالرّحمة لا تمنع العدلَ في إنزال عذابه بالكافرين.

معنى الواو في قوله: ﴿وَكَانَ﴾:

حالٌ يُعبّر عن عُسر ذلك اليومِ على الكافرين وشِدّتِه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ للحال، والجملةُ بعدها حاليّة[5]؛ لإيضاح صفة ذلك اليوم، فلَئِن كان يومُ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 21.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 213.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 10.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 373.
(5) بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل: 8/ 116.

الدّنيا مُتّسعًا لكم، وتمتَّعتُم فيه بنِعَمِه، فإنّه سيكون عسيرًا عليكم؛ جزاءً لِما اقترفتموه من ذنوب ومعاصٍ، وما كان منكم من إنكار للّه تعالى، وجحودٍ بنعمه وآلائه.

نُكْتَةُ دخول (كان):

تأكيدُ عُسْرِ ذلك اليوم، بعد ثبوت المُلْكِ فيه للرّحمن

(كانَ) تدلّ في كلام العرب على حصول الفعل في الزّمن الماضي[1]، ولَمّا كان الفعلُ الماضي متحقّقَ الوقوعِ، دلّ دخولُ (كانَ) على توكيد ثبوت صفة العُسر لـ ﴿يَوۡمًا﴾ في حقّ الكافرين، فكأنّه قيل: لا شكّ أنّ ذلك اليوم عسيرٌ على الكافرين، بعد أنْ ثبت أنّ الملك يومئذٍ للرّحمن.

سِرّ التّقييد بالظّرف ﴿يَوۡمًا﴾ وتقديمِه وتنكيرِه:

يومُ الحسابِ رعبٌ يَلُفّ الكافرين ويُرهبُهم

في التّقييد باليوم وتقديمِه في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾؛ إشارةٌ إلى أهمّيّته وخطورته، ولفتُ انتباه السّامع إليه، وإثارةُ فضوله لمعرفة ما فيه من أحداثٍ جسيمةٍ لا سيّما للكافرين، فهو ليس يومًا عاديًّا، بل هو يومٌ صعبٌ شاقٌّ عليهم، بما يُضفي على الجملة تأثيرًا نفسيًّا شديدًا، ويُضاعِفُ من شعور الكافرين بالخَوف والرّعب والرّهبة، وأمّا تنكيرُ ﴿يَوۡمًا﴾ فلإفادة التّعظيم والتّفخيم، أي: لإظهار عِظَم ذلك اليوم، وشِدّة أهوالِه على الكافرين، وأنّه سيكون يومًا لا مثيلَ له، فكأنّ الحقّ تبارك تعالى يريد أنْ يلفتَ أنظارَ الكافرين إلى ما ينتظرُهم فيه من العذاب والهوان؛ وللإشارة إلى أنّه يومٌ ليس كسائر الأيام.

دلالةُ التّعبيرِ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

يومٌ عسيرٌ على الكافرين بحلول العذاب عليهم

استُعمِل حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَى﴾[2] في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾؛ لإفادة تمكّن ذلك اليوم منهم، وثقلِهم عليهم،

(1) أبو حيّان، ارتشاف الضّرب: 3/ 1184.
(2) حرف الجَرّ الأشهر في معانيه الاستعلاء، ينظر: ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 3/ 177.

بأن يكون عسيرًا شديدًا على المَذمومين من الكافرين، وكأنّ العذاب نازلٌ عليهم من عَلٍ، وكأنّ الجحيمَ تثور عليهم.

الغرضُ من تقديم شِبه الجملة ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

يومٌ عسيرٌ على الكافرين بينما هو يومُ فرحٍ للمؤمنين

قُدِّم شِبهُ الجملة منَ الجارّ والمجرور على الخبر في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾؛ لإفادة القَصْر الإضافيّ[1]، وهو مُؤْذِن بأنّ ذلك اليوم سيكون عسيرًا على الكافرين دون المؤمنين[2]، فلمّا خَصّ الكافرين بشِدّة ذلك اليوم وعُسْره وعذابه، دلّ ذلك على تبشير المؤمنين[3]، في أنّهم سيكونون في ذلك اليوم في فرح ونعيم.

سِرُّ وضعِ المُظْهَر موضعَ المُضْمَر:

تذكيرٌ بقُبح الكفرِ وعذابِه في ذلك اليوم العسير

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار، أي: وكان يومًا عليهم عسيرًا، لكنّ الحقّ ﷻ أراد إظهارَ صفةِ الكُفر بعدما ذكر من أوصافهم السّابقة؛ إكمالًا لقُبْح صفاتِهم، وتأكيدًا على ما اتّصفوا به من سِمة الخيبة والخَسار في الدّارين، فكأنّه يُذَكّرهم بصفة الكفر، وأنّ مآل منِ اتّصفوا بهذه الصّفة في ذلك اليوم العذابُ الأليم.

بلاغةُ التّعبير بالمجاز العقليّ في وصف اليوم بأنّه عسير:

يومٌ يسيرٌ على المؤمنين يضاعف خوفَ الكافرين وفرحَ المؤمنين

التّعبيرُ عن حال الكافرين يومَ القيامة، ووصفُه بكونه ﴿عَسِيرًا﴾، أي: شديدًا ضيّقًا صعبًا، باعتبار ما فيه من أمورٍ عسيرةٍ على الكافرين؛ وذلك لِما ينالُهم فيه منَ الأهوال، ويلحقُهم منَ الخزي والهوان[4]، فهو من باب المجاز العقليّ، وإذا كان على الكافرين عسيرًا، فهو على المؤمنين يسير[5].

---

(1) معنى القصر عمومًا راجع إلى تخصيص الموصوف عند السّامع بوصف دون ثان، وفيه أنواع كثيرة، ينظر: السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 288.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 11.

(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 339.

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 24، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 11.

(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 535، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 24.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العُسْر والمَشَقّة:

العُسْر نقيض اليُسر، واليوم العسير: هو اليوم الذي يتصعّب فيه الأمرُ[1]، وهو أمر خارجٌ عنِ الإرادة، وأمّا المشقّة: فهي "المعاناة وخِلافُ السّهولة والسّعادة، والأصل في ذلك أنّه يتكلَّف العناءَ ويشقى به"[2]، ممّا يُؤذِن بأنّها حالةٌ ناتجة عن إرادة الإنسان، وهذا هو الفرق بينهما، فالعسيرُ يُشير إلى شِدّة الأمر وصعوبته في حدّ ذاته؛ لأنّه منَ اللّه تعالى، بينما الشّاقّ يُشير إلى أثر الأمر على النّفس من حيثُ التّعبُ والإرهاق، فلو جاء التّعبير بالمشقّة لتوهّم متوهّمٌ أنّه يمكن لهؤلاء الكافرين أن ينفكّوا من تلك المشقّة بترك أسبابها، وهو محال.

العُسْر أمرٌ إلهيّ صعبٌ في ذاته، والمَشقّة أمرٌ مُجْهِدٌ له أسبابُه

(1) الرّاغب، المفردات: (عسر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شقو).

﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ
سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي
عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾

[الفرقان: 27 - 29]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

ندامةُ الظّالمين في يوم العذاب الأليم

لَمّا تحدّى المشركون الرّسولَ ﷺ أن يُظْهِرَ لهمُ الملائكةَ ليُؤْمِنوا، فأخبرهم اللّهُ تعالى بأنّهم سيرون الملائكةَ في يوم يكون شُرّه عليهم عظيمًا؛ وبيّن ما يكون في ذلك اليوم من أهوالٍ وفواجعَ؛ من حُبوط الأعمال، وتشقّق السّماءِ، ونزولِ الملائكة، وغيرِ ذلك - جاءت هذه الآياتُ ليُخبرَ اللّهُ تعالى ما يكون في ذلك اليوم مِن ندم الظّالم، وسوء حالِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعَضُّ﴾: (عضّ) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، وهو الإمساكُ على الشَّيْءِ بالأسنانِ، ثمَّ يُقاسُ منه كلُّ ما أشبَهَهُ[2]، فالعَضُّ: الشَّدُّ بالأسنان على الشَّيْءِ[3]، يُقالُ: عَضِضْتُ أَعَضُّ عَضًّا وعَضيضًا، فأنا عاضٌّ[4]، والأمر منه: عَضَّ، واعضَضْ[5]، وفلانٌ يعَضِّضُ شفتيه، أي: يَعَضُّ ويكثر ذلك منَ الغَضب[6]، والمراد بالعَضِّ في الآية: الشَّدُّ بالأَسنانِ على الشَّيءِ ليُؤْلِمَه أو ليُمسِكَه؛ وذلك عبارةٌ عنِ النَّدمِ لِما جرى به عادةُ النّاس أن يفعلوه عند ذلك[7].

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 245.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عضّ).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عضض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عضّ).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عضض).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (عضض).
(7) الرّاغب، المفردات: (عضض).

2) ﴿ٱلظَّالِمُ﴾: (ظلم) وضْعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعه، كقولهم: ظَلَمَ الأَرضَ: إذا حَفَرَها في غير مَوْضِعِ حَفْرِها[1]، والظُّلْمُ: المَيْل عنِ القَصد، والعَرَب تَقولُ: الزَم هذا الصَّوْبَ ولا تَظْلِم منه شيئًا، أي: لا تَجُرْ عنه[2]، وضِدُّه: العَدْلُ، والظّالم: هو الَّذي يَجري على خِلافِ الحَقِّ بدونِ شُبهةٍ[3]، والمُرادُ بالظُّلْم في الآية: الشِّرْكُ أوِ الاعتداءُ الخاصُّ المعهودُ من قصَّةٍ مُعيَّنةٍ، وهي قصَّةُ عُقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ وما أغراهُ به أُبيُّ بنُ خَلَفٍ[4].

3) ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾: (ليت): كلمتانِ لا تتقاسانِ؛ إحداهما: اللّيتُ: صفحةُ العُنُقِ، وهما لِيتانِ، والأُخرى: اللَّيتُ، وهو النَّقصُ، يُقالُ: لاتهُ يَليتُهُ: نَقَصَهُ، واللَّيتُ: الصَّرْفُ، ولَيْتَ: كلِمةُ التَّمَنّي والطَّمع[5]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ نداءٌ للكلامِ الدّالِّ على التَّمَنّي، بتنزيلِ الكلمةِ منزِلةَ العاقِلِ الَّذي يُطلَبُ حُضورُهُ؛ لأَنَّ الحاجةَ تَدعو إليهِ في حالةِ النَّدامةِ، وهذا النِّداءُ يَزيدُ المُتمنّي استبعادًا للحُصول[6].

4) ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾: (ويل) أصلُ اللَّفظِ يدلُّ على إعلانٍ باصطلاءِ عاقبةٍ مُهْلِكةٍ لعمل أو تصرُّف[7]، فالوَيْلُ: الحُزْن والهَلاك والمشقَّة مِنَ العَذاب[8]، وَتُقالُ لِمَنْ وقَعَ في هَلَكة يَسْتَحِقُّها، تَقولُ: ويْلٌ لِزَيْدٍ، ومِنْهُ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾ [المطففين: 1]، فإن وقع في هَلَكة لَم يستَحِقَّها يُقال: ويْح لِزَيْدٍ، يَكونُ فيه مَعْنَى التَّرَحُّم[9]، والوَيْلَةُ: الفَضيحَةُ والبَلِيَّةُ، والجَميعُ الوَيْلاتُ[10]، ومن قال: وَيْلٌ وادٍ في جهنَّم، فإنَّه لم يَرِد أنَّ ويْلًا في اللُّغة موضوع لهذا، وإنَّما أراد مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه، فقدِ استحقَّ مَقرًّا منَ النّار، وثبتَ ذلك له[11]، والمقصود بالوَيْلِ في الآيةِ: سوءُ الحالِ، وهو تَحسُّرٌ بطريقِ نداءِ الويل[12].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 200.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 11.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ليت).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 11.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ويل).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(10) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(11) الرّاغب، المفردات: (ويل).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 13.

5) ﴿خَلِيلًا﴾: (خلل) أصلُ الخُلَّة منَ الخَلَلِ، وهو: الفُرْجَةُ بين شَيئَين، وهي الصَّداقةُ والمَحبَّةُ[1]، والخليل: الصّاحبُ المُلازمُ الَّذي لا يَخفَى عنه شيءٌ من أُمورِ صاحبِه، والخليلُ أيضًا: الفقيرُ، والخَلَّة: الفقرُ؛ لأنَّه فُرْجَةٌ في حاله[2]، وسُمّيت المَحبَّةُ خُلَّةً؛ لأنَّها تَخَلَّلَتِ القَلْبَ فصارتْ خِلالَهُ، أيْ: في باطنه، والتَّخَلُّلُ: النَّفاذُ، وهو دُخولُ الشَّيءِ في وسطِ شيءٍ آخَرَ، يُقالُ: خَلَّلَ أصابعَ يديْهِ ورِجليه، أيْ: أسالَ الماءَ بينهما[3]، والمرادُ بالخليل في الآية: الصَّفيُّ والصّاحِبُ.

6) ﴿خَذُولًا﴾: (خذل) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على تَرْكِ الشَّيءِ والقُعودِ عنه، فالخِذْلانُ: هو تركك نُصرةَ أخيكَ، وخِذْلانُ اللهِ للعبد: ألّا يعصمَه منَ السّوءِ[4]، والخَذولُ: الكثيرُ الخِذْلانِ[5]، فإذا أعانَ على الهزيمةِ فهو أَشَدُّ الخَذْلِ، وهو المقصودُ منْ صيغةِ المُبالغةِ في الآية في وصْفِ الشَّيطانِ بِخَذْلِ الإنسانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَكيدُ الإنسانَ فيورِّطُهُ في الضُّرِّ، فهو خَذولٌ[6].

المَعنى الإجْماليُّ:

الـشَّـيـطـانُ يوَسْوِس ويُغْري بالكفر والشِّرك والمعصية، ثُمَّ يَخْذُل أتباعَه

يذكُرُ تعالى ما يكونُ عليه الكافرونَ يومَ القيامةِ مِن حسرةٍ ونَدامةٍ، فيقولُ: واذكُرْ حين يَعَضُّ الظّالمُ المُحادُّ للهِ ورَسولِه على يَدَيه؛ تحسُّرًا وأسَفًا، يقولُ: يا ليتَني سلَكْتُ طَريقَ الحَقِّ الَّذي جاء به الرَّسولُ، واتبَعْتُه فيما جاء به من عندِ رَبِّه، وأنَّه يقولُ في هذا اليوم: يا هلاكي! ليتَني لم أجعلْ مَن أغواني في الدُّنيا صديقًا وحبيبًا لي، لقد صَرَفَني مَنِ اتَّخَذْتُه في الدُّنيا خليلًا عنِ القُرآنِ بعد بُلوغِه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (خلل).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلل).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خذل).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (خذل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16، 17.

إليَّ، وصَدَّني عنه، ثمَّ قال اللّه تعالى: وكان الشَّيطانُ كثيرَ الخِذْلانِ للإنسانِ الذي يتَّبِعُه، تاركًا لإعانتِه ونَصْرِه وقتَ استِنصارِه به[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَيَوۡمَ﴾:

عطفٌ أوِ استئنافٌ لوصف عذابِ الظّالمين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ دالّة على العطف أوِ الاستئناف[2]، عطفٌ على فعل التّشقّق، أوِ استئنافٌ، فبعدَ أن وُصِفَ يومُ القيامة بأنّه يوم عسير على الكافرين، استأنف ما يحصل في ذلك اليوم من أحداثٍ صُدِّرتْ بمشهد من مشاهد العذاب، وهو عَضّ الظّالم على يديه.

سِرُّ التّقييدِ بالظّرف: (يَوۡمَ)، ودلالتُه على المحذوف:

اذكرْ يا محمّدُ ﷺ ذلك اليومَ وذكّرْهم بأهواله

يقع لفظُ اليوم من قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ موقعَ الظّرفِ لعاملٍ مُضمَر به[3]، على تقدير: واذكرْ يا محمّد يومَ يعضّ الظّالمُ المشركُ بربّه على يديه؛ تندّمًا وأسفًا على فرْط ذنبه في حَقّ اللّه، ويقول: يا ليتني اتّخذت في الدّنيا مع الرّسول سبيلًا[4]، وذلك في وصفٍ ليوم القيامة عندما يندم الظّالمون على أفعالهم، ويشعرون بالأسف الشّديد.

نُكْتَةُ إعادة لفظ (يَوۡمَ):

يومُ الحسرة والعضِّ على اليدين في الآخرة عذابٌ للظّالمين

اليومُ المَذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ هو اليومُ ذاتُه المَذكور في قوله: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾، لكنّه يُنظر إليه من منظور مختلف، ففي هذه المَرّة يُسَلّط الضّوء على حالٍ أُخْرى من أحوال المشركين في ذلك اليوم[5]، وهي حالُ الخسارة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 442، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 26، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 47.

(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وبيانه وإعرابه: 6/ 476.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 208.

(4) مكّي القيسي، الهداية: 8/ 5207.

(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 74.

والنّدامة والحَسْرة، التي يُعبّر عنها بِعَضّ الظّالمين على أيديهم، يومَ يواجَهون بنتائجِ أعمالِهم.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿يَعَضُّ﴾ مادّةً وصيغةً:

رَمزٌ يُعبِّر عن شِدّة النّدم والعذاب واستمراره وتَجَدُّده

عبّر بالعَضّ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾، والعضُّ: الإمساك بالأسنان، ويستعمل كرَمزٍ للتّعبير عن شِدّة النّدم والحسرة، فقد جرت عادةُ الإنسان أَن يفعله عند ذلك[1]، حيثُ يصبح عاجزًا عن فعل أيِّ شيء سوى ذلك، ووُرودُ الفعلِ ﴿يَعَضُّ﴾ مضارعًا لدلالته على استمرار حالةِ العضّ، أي: أنّ الظّالم لن يَعضّ مَرّة واحدة فقط، بل سيستمرّ في ذلك نَدَمًا وحَسْرةً على ما اقترفَه من ظُلم، وتُشير هذه الاستمراريَّةُ إلى شِدّة عذابه، ويجوز أن يكون عَضُّ اليدين المَذكور في الآية الكريمة حقيقةً واقعةً[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلظَّالِمُ﴾:

عذابُ الشّرك بعد ظهور الإسلام ندامةٌ للمشركين في الآخرة

أوردَ لفظُ ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ معرّفًا بالألف واللّام للدّلالة على الجنس والاستغراق[3]، والمُراد بالظّلم في هذه الآية الكريمة هو الشّركُ باللّه تعالى، وذلك يشملُ جميعَ المشركين الذين أشركوا بعد ظهور الدّعوة المحمّديّة، بقرينة قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾، الدّالِّ على ندم المشركين يوم القيامة على شركهم، وتمنّيهم لو كانوا اتّخذوا سبيلَ الحقّ مع الرّسول، وقولِه تعالى: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ الدّالِّ على نَدَم المشركين على صُحبة بعضِهم بعضًا، وتعاونِهم على الإشراك باللّه تعالى، ومعاداةِ الإسلام[4]، ويجوز أن يكون الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ للعهد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 11.
(2) مكّي القيسيّ، الهداية: 8/ 5210.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 276.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.

المخصوص[1]، الذي يُشير إلى شخصٍ مُحَدّدٍ، وهو عقبةُ ابن أبي مُعَيط، والمقصود بالظّلم هنا هو اعتداءٌ محدّدٌ معروفٌ من قصّة معيّنة، وهي قصّة عقبة، وما أغراه به أُبيّ بن خلَف، فحَمَله على عداوة النّبيّ ﷺ وأذاه، والكُفرِ به بعدَ أن شَهِدَ الشّهادتين، فتوعَّده الرَّسولُ ﷺ بأن يطأ عنقَه إن لقيَه خارجَ مكّة[2].

ويجوز أن يكون الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ للعموم؛ لأنّ الألف واللّام تُفيدانِ العُموم عند إضافتهما إلى اسم مفرد مع وجود قرينة دالّة، والقرينةُ هنا هي ترتيبُ الحُكم على الوصف، ففيه إشارةٌ إلى أنّ الوصف هو سببُ الحُكم وعِلَّته، وهذا يعني أنّ سبب العَضّ على اليدين هو كونُ الشّخص ظالمًا، وبما أنّ الظّلم صفة عامّة، فإنّ الحُكمَ بالعَضّ على اليدين يَعُمّ الظّالمين جميعًا[3].

سِرُّ تعديةِ العَضّ بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

الدّلالةُ على شدّة ندمِ الظّالم يوم القيامة، وتحسُّرِه على ما كان منه من ظُلم وشِرك

العَضّ: شَدّ الشّيء بالأسنان بقوّة، بهدف الإيذاء، أوِ التّمسّك به، وحَقُّ فِعْلِ العَضّ في كلام العرب أن يُعَدّى بنفسه، إلّا أنّه قد يُعدّى بـ (على)، لا سيّما عندما يُراد إفادةُ التّمكّن منَ الشّيء المعضوض، وضغطِه بقوّة قصدًا إلى العَضّ الشّديد البالغ[4]، ففي هذه الآية عدّى العَضّ بـ﴿عَلَىٰ﴾؛ للدّلالة على شدّة ندم الظّالم يومَ القيامة، وتحسُّرِه على ما كان منه من ظُلم وشِرك.

بلاغةُ التّعبير بالكناية:

تعبيرٌ بلاغيٌّ مؤثّرٌ عن شِدّة ندمِ الظّالم

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ يمثّل ذِروةَ البلاغةِ؛ تعبيرًا عن شِدّة ندم الظّالم وحَسرته، فالعَضّ يُفيد شِدّة الضّغط والألم، والغَيظُ والحَسرةُ يُفيدان شِدّة التّأثّر النّفسيّ، فذِكْرُ الرّادفةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 276.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 454.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 14/ 521.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 12.

(العضّ)، يُشير دلالةً إلى المَردوف (الغيظ والحسرة)، ممّا يُضفي على الكلام سِحرًا وبلاغةً، فيَجِدُ السّامعُ روعةً واستحسانًا، ما لا يجده لو جاء الكلامُ مباشرةً من غير تكنيَة[1]، والعَضُّ على اليدين واحدٌ ممّا تُعورِف عند العرب في بعض أغراض الكلام، وهو أسلوبٌ مصاحبٌ للكلام للتّأكيد على المعنى، من خلال لغة الجسد، فعند النّدم يَقرَع سِنَّه بأُصبعِه، أو يَعَضُّ سبّابتَه، بينما يَعَضُّ أناملَه غيظًا، وتُعدّ هذه الحركات بمنزلة كنايات عن المَشاعِر النّفسيّة المصاحبةِ لها، وتنشأ عن تَحَفُّز القوّةِ العصبيّة، نتيجةً للغَضَب أوِ التَّلَهُّف[2].

تفاوتُ المقامِ بين عضٍّ يُرجَى شفاؤه وعضٍّ لا أملَ فيه

بلاغةُ المتشابِه اللّفظيّ:

استُعمل لفظُ العَضّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ [آل عمران: 119]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾، ففي آية آل عمران كان العَضّ متوجّهًا إلى الأنامل، وأمّا في آية الفرقان فإلى اليدين؛ وهو ما يُفهَم منه المبالغةُ في الكناية الثّانية؛ لأنّها متوجّهةٌ إلى اليدين، بخلاف الأولى المتوجّهةِ الى أجزاء اليدين، مع أنّهما كنايةٌ عنِ الألم والحسرة، وسِرُّ التّفاوت في تصوير المعنى في الآيتين، يَرجعُ إلى تفاوت المَقامين، فحسرةُ المنافقين نابعةٌ من حِقد دفين على قوّة المسلمين وتقدُّمهم، بينما هم عاجزون عنِ اللّحاق بهم، وحَلّ مُشكلتِهم يَكْمُن في إصلاح حالِهم في الإيمان واتّباع الهدى، وأمّا الظّالم فإنّ حسرته أشدّ؛ بتضييعه فرصةَ التّوبة، فلا ينفع النّدم الآن، فمصيرُه مُظْلِمٌ، وعذابُه أليم[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 276، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 12.
(3) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ: 2/ 399.

سِرُّ التّقييدِ بجملة الحال ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِى﴾:

صرخةُ ندمٍ من ظالمٍ يكاد يقطعُ يديه حسرةً

قولُه تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي﴾ جملةٌ حاليّة[1]، من ذلك الظّالم الذي يَعضُّ على يديه من شِدّة تأسُّفه على ما يراه منَ الأهوال يومَ القيامة، حتّى يكاد يقتطعُ يديه[2]، متمنّيًا لو أنّ بإمكانه العودةَ إلى الدّنيا، وتغييرَ مسارِ حياته، فقد أصابه النّدمُ، ولَفَّتْهُ الحسرةُ على ما اقترفه منَ الظّلم والشّرك فعلًا وقولًا، وفي اقتران الحركة مع القول تعانقٌ في تأكيد معنى الحسرة والنّدم.

دلالةُ التّعبير بالمضارع في ﴿يَقُولُ﴾:

ندمُ الظّالم مستمرٌّ مُتجدّدٌ لا يزول

التّعبيرُ بالصّيغة المضارعيّة في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِى ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ يُشير إلى تجدّد قولِ الظّالم ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾، واستمرارِه في كلّ لحظة[3]، ممّا يدلّ على شِدّة ندمِه وحَسْرته، فليس ندمُه ندمًا عابرًا يزول بمرور الوقت، بل هو ندمٌ مستمرٌّ يلازمُه أينما ذهب.

معنى (يا) في ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾:

تنبيهٌ إلهيٌّ للتّمنّي لا للنّداء

قولُه تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ تركيبٌ مشتملٌ على النّداء، والأصل في (يا) أن تكون للنّداء، والمنادى يكون عاقلًا، فلمّا أدخلها على حرف التّمنّي كانت للتّعبير عنِ التّنبيه دون قصد مخاطبةِ شخصٍ محدّدٍ[4]، فالحَقّ سبحانه يُنبّه عبادَه إلى عِظَم ما فاتهم من خير من خلال التّمنّي، ودخول (يا) على حرف التّمنّي ليس على حقيقته، بل هو على التّأويل بحذف المنادَى؛ فيكون التّقدير: يا قومي، أو يا هؤلاء ليتَني[5]، والغرضُ منه: تحويلُ النّظر إلى التّعبير عن مشاعر التّمنّي

---

(1) العكبريّ، التّبيان: 2/ 985.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 374.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 374.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 13.

لا المُتمنّي، كما أنّه يُضفي حذفُ المنادَى على جملة التّمنّي صفةً من العُموم، إذ يصبح التّمنّي معبّرًا عن رغبةٍ قد يشترك فيها جميعُ مَن كان هذا وصفُه.

صرخةُ عجزٍ وتَمَنٍّ في غمرة النّدم على ما فات وانقضى

غرضُ التّمنّي بـ (ليت):

هذه الكلمة ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ فيها تعبيرٌ عن شِدّة التّمنّي في حالة النّدم على ما فات، فكأنّ المُتكلّم يُناجي نفسَه بهذا القول، متخيّلًا لو أنّ ما يتمنّاه قد حدثَ بالفعل، تشبيهًا بقول مَن يُنادي عاقلًا لطلب حضوره لحاجة ماسَّة، فكأنّ المُتكلّم يقول: هذا مقامُك فاحضري[1]، ممّا يُضيف شعورًا بعجزه عن تغيير ما فات، وتذكّرِه قيمةَ الوقت، وأهمّيّةَ اغتنامِ الفُرص.

نَدبةُ ظالمٍ تَمنّى لو أكره نفسَه على طاعة الرّسول

دلالةُ التّعبير بالاتّخاذ ﴿ٱتَّخَذۡتُ﴾:

التّعبير بالاتّخاذ في جملة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ﴾ من باب الافتعال الدّالّ على التّكلّف، ممّا يعني أنّ الظّالمَ يُعبِّر عن ندمه على عدم اتّخاذه سبيلَ الرّسول ﷺ في الدّنيا، مُؤكّدًا على أنّ ذلك كان بفعل إكراهٍ، ونفسٍ مُكرَهَة، فتَمنّى لو أنّه أرغم نفسَه، وكلّفها أنْ تأخذ في الدّنيا عملًا واحدًا منَ الأعمالِ التي دعا إليها الرّسولُ ﷺ[2].

عهديّةٌ دالّةٌ على رسولنا ﷺ

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾:

الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ في جملة: ﴿ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ دالّةٌ على العهد؛ إذ تُشير إلى أنّ الرّسولَ المقصود هو النّبيُّ محمّد ﷺ فقط دون غيره[3]، فمَنِ اتّخذ النّبيَّ محمّدًا ﷺ قدوةً له، فقد سلك طريقَ النّجاةِ والهُدَى.

بلاغةُ التّعبير عنِ الاتّباع بالمعيّة مع الرّسول:

في جملة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ عدولٌ عن التّعبير

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 13.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 374.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 208.

معيّةُ الرّسول إيجازٌ يُعبّر عن معانٍ عميقة

بفعل الاتّباع، بأن يقول مثلًا: يا ليتني اتّبعتُ الرّسولَ، إلى هذا التّركيب المشتملِ على الإطناب[1]، فكأنّ الظّالمَ يُمثّل نفسَه كمسافرٍ يسير مع دليل يُرشِدُه إلى الطّريق الصّحيح، وتدلّ هذه الصّورةُ على أنّ اتّباع الرّسول ﷺ هو سبيل النّجاةِ في الدّنيا والآخرة، فصارَ الإطناب إيجازًا، فرُبَّ كلامِ الإطنابُ فيه أبلغُ منَ الإيجاز، أمّا المتابعةُ فالشّائع إطلاقُه على الاقتداء من غير تمثيل، فكأنّ الظّالم يتمنّى لو أنّه سار مع النّبيّ ﷺ مقتديًا به، مُتمَثّلًا أقوالَه وأفعالَه[2].

الغرضُ من تقديم شبه الجملة:

قُدِّمَ شِبهُ الجملةِ ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ كشفًا عن شِدّة حَسرة الكافرين يومَ العَرضِ على ربّ العالَمين، فليستِ العنايةُ بالسّبيل، وإنّما العنايةُ بمعيَّةِ الرّسول.

الغرضُ من تنكير ﴿سَبِيلًا﴾:

عـدمُ اتّـبـاع الرّسول أوردَه المهالكَ

نُكِّر لفظُ السّبيل في جملة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾؛ للإشعار بكمال اتّباع المُتمنّي[3] للرّسول ﷺ لو فعل ذلك، فكأنّه يُقرُّ بأنّه لم يتّبعِ الرّسولَ ﷺ اتّباعًا تامًّا؛ فكان من أمره ما كان منَ العذاب في الآخرة، ويجوزُ أن يكون تنكيرُ السّبيل في الآية الكريمة للإشارة إلى العموم والشّيوع[4]، فأيّ سبيلٍ يُؤدّي إلى النّجاة من عذاب الآخرة، مثلِ سبيلِ الشّهادة، أوِ الرُّشْدِ، أوِ الإيمانِ، أو أيِّ سبيلٍ موصِلٍ إلى الخير وحُسن العاقبة[5]، فالمُتمنّي في هذه الآية يتمنّى لو اتّخذ أيًّا من هذه السّبل قاربًا لنجاته منَ العذاب الأليم، لكن بعد فوات الأوان، ويُحتمل أن يكون تنكيرُ السّبيل في الآية دالًّا على

(1) ينظر في تعريف الإطناب، يحيى العلويّ، الطّراز: 2/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 12.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 329.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 79.
(5) محمد الهلاليّ، تفسير القرآن الثّريّ: 7/ 19.

الإفراد، أي: سبيلًا واحدًا، وطريقًا مُحَدّدًا، بدلًا من تَعَدُّد المسالكِ التي كان يسلكها الظّالمُ في حياته، اتّباعًا لأهوائه وشَهواته[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بالكناية في اتّخاذ السّبيل:

نـداءٌ إلى اتّباع الـحَقّ وتجنّبِ النّدم

اتّخاذُ السّبيل في جملة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ كنايةٌ عنِ اتّباع الحقّ؛ فإنّ السّبيل في اللّغة هو الطّريقُ الواضح المُمتدّ[2]، فاستعمالُه في الآية كنايةٌ عن طريق الحَقّ والصّواب الذي اتّخذه الرّسولُ الكريم، وإلى اتّباع تعاليمه وسُنّته، والسَّيرِ على خطاه، ولَمّا كان الظّالمُ على غير تلك الجادّة أصابه النّدمُ الشّديدُ، الذي يُصيبُ المَرء عندما يبتعد عن طريق الحقّ ويتّبعُ أهواءَه وشهواتِه.

بلاغةُ الاعتراض بقوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾:

اعــتراضُ نــدمٍ عـلى الـتّـفـريـط بمعيّة الرّسول، واتّـخـاذِ المُضـلّ كالخليل

وقعت جملةُ ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ موقعَ الاعتراض بين جملة ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾، وجملة ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾[3]؛ تعبيرًا عن شِدّة ندمِ الظّالم وتحسّره وأسفهِ على تفريطه بمعيّة الرّسول ﷺ، واتّخاذِه الضّالّين المُضلّين أخلّاءَ من دون المؤمنين.

معنى النّداءِ في قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾، وغرضه:

نــداءُ إقــبـالِ الهلاك والعذاب بحلول أوانِـه، ونــدمٌ يـمـزّق القلبَ على ضياع صحبةِ النّبيّ

قولُه: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ تركيبٌ دالٌّ على النّداء بقرينة (يا)، فإنّها في كلام العرب دالّةٌ على النّداء[4]، و(وَيْلَتا) مُنادَى منصوب، والأصلُ فيه (يا ويلتي)، غيرَ أنّ العرب حَذفتِ الياءَ منه تسهيلًا للنّطق، فقيل: إنّه أكثرُ فصاحةً، وهذه العبارةُ دالَّة على شِدّة الهلاك والعذاب، في إشارة إلى هلاك الشّخص المُنادَى وعذابه، فكأنّه يُنادي ويْلَتَه، بمعنى هلاكِه وعذابِه أن يحضر؛ فقد آنَ أوانُه[5]، فنداؤه

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 246.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبيل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 14.
(4) المبرّد، المقتضب: 4/ 202.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214، وبهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل: 8/ 118.

يُعبّرُ عن شِدّة نَدمِه وتَأسُّفِه على ضياع فرصة الاقتداء بالنّبيّ ﷺ، وسلوكِه طريقَ الضّلال بدلًا من طريق الحَقّ، فكأنّه يُناجي نفسَه بهذا القول، أي: يا هلاكي[1]، مُتخيّلًا حجمَ العذابِ الذي سيُلاقيه بمَدعاة ذنوبِه ومعاصيه، ويُضاعفُ ندمَه تذكّرُه لصحبة الظّالمين الذين أضلّوه عن طريق الحقّ.

فائدةُ عطْفِ الويلِ على التّحسّر:

تأسّفٌ على مجانبة الرّسول، ونَدمٌ على مصادقة غيره

لَمّا تأسّف على مجانبة الرّسول ﷺ وابتعادِه عنه؛ تحسّرًا بقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾، عُطِف عليه شعورُه بالويل والنّدم على صداقة غيره[2] بقوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾.

نُكْتَةُ فصْلِ قوله: ﴿لَيۡتَنِي﴾:

اتّباعُ سبيلِ الرّسولِ يشتملُ على نَبذِ خُلّة المُضِلّين

فُصِلَت جملةُ ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾، عن جملة ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾؛ لأنّها تقع موقعَ البدلِ الاشتماليّ منها[3]، فتمنّي حصولِ الأوّل مُفْضٍ إلى الثّاني؛ فالظّالمُ يتمنّى لو أنّه اتّخذ النّبيَّ ﷺ قدوةً له، فإنّ هذا الاتّباعَ مشتملٌ على نبْذِ صحبة الفاسقين الذين أضلّوه عن طريق الحقّ[4].

سِرُّ التّمنّي بـ (ليت):

تعبيرٌ عن استحالة العودةِ إلى الماضي

التّعبيرُ بحرف التّمنّي (ليت) في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ المسبوقِ بالنّداء، تعبيرٌ عن طلب المُحال[5]، وهو العودةُ إلى الماضي، وعدمُ اتّخاذِ الظّالمين خُلّانًا؛ لإضلالهم له عن طريق الحقّ، ولكنّه يُدرِكُ في الوقت ذاتِه أنّ ما فات قد ذهب لا رجعةَ فيه، فلا يمكنُه تغييرُ الماضي، والتّمنّي في قوله تعالى: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ تعبيرٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 375.
(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 658.
(3) ينظر في تعريف البدل وأحكامه، ينظر: ابن مالك، تسهيل الفوائد، ص: 172.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 13.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 375.

عن شِدّة نَدمِه وحَسرتِه على ما اقترفه من ظُلم، لكنّه في الوقت نفسه يُمثّل نوعًا منَ التّعلّل والاعتذار بتوريك جِنايتِه إلى غيره[1]، وتحميلِ جُزءٍ منَ المسؤوليّة عن أفعاله لخليلِه الذي أضّلَه عن طريق الحقّ.

إخـفـاءٌ لاسـمِ المُضلّ، وإظهارٌ لصفتِهِ السّيّئة

الغرضُ من تنكير ﴿فُلَانًا﴾:

وردتُ لفظةُ فلانٍ نكرةً في قول الظّالم: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾؛ للدّلالة على ازدرائه واحتقاره لهذا الشّخص الذي ضلّله عنِ الحقّ[2]، فاستعمالُ النّكرة هنا يُشير إلى عدم الاكتراث باسم الشّخص، والتّركيز على صفته السّيّئة كونه مُضِلًّا.

إشـارةٌ إلى كلّ مُضلّلٍ يَصُدّ عن سبيل الحقّ

نُكْتَةُ التّكنية عنِ المقصود بـ﴿فُلَانًا﴾:

استعمالُ ﴿فُلَانًا﴾ في الآية الكريمة مُرادٌ به أُبيُّ بنُ خَلَف، أحدُ زُعماء قريش، وإن كان قد ذُكر اسمُه تحديدًا في روايات أسباب النّزول، إلّا أنّه يُمكن أن يُشير إلى أيّ شخص مشركٍ اتّخذه الظّالمُ خليلًا له، وجعله يُضلُّه عن طريق الحَقّ، ويُثبّتُه على دين الشّرك، فكلّ مُشركٍ لديه خليلٌ مشرك يُؤثّر عليه ويَصُدّه عنِ الإسلام، ممّا سيجعله في موقف النّدم يومَ القيامة على طاعة هذا الخليل، ويوبِّخُه على ضَلاله[3]، وإنّما كَنَّى عنه ولم يُسَمّه باسمه الصّريح، وهو سبحانه لا يخافُ منَ المُناوأة، ولا يحتاج إلى المُداجاة، غير أنّه أراد منَ التّكنيّة العمومَ[4].

الخِلّةُ بين قُدوة الإنسان ورِفقة الشّيطان

الغرضُ من تنكير ﴿خَلِيلًا﴾:

لَمّا كان الوصفُ المُعبَّر عنه بـ ﴿خَلِيلًا﴾ يَحتمِل الإنسانَ، أيَّ إنسانٍ، في إشارة إلى إنسان اتّخذَه الظّالمُ قُدوةً له في أفعاله، ويَحتمِل الشّيطانَ، أيَّ شيطانٍ اتّخذه خليلًا، أو جعله رفيقًا له -

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 536.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 12.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 375.

أورده نَكِرةً[1]؛ فالتّنكير يقتضي الشّيوعَ والعُمومَ[2]، أي: إنّ هذه الصّفةَ ليست حِكْرًا على شخصٍ مُحَدّد، بل قد تُصيب أيَّ إنسان يَتّخِذ له قدوةً سيّئة، أو رفيقًا ضالًّا.

بلاغةُ الكنايةِ عن تمنّي عصيانِ الخليل بتمنّي عدمِ اتّخاذه خليلًا:

في تمنّيه هذا اشمئزازٌ من خلّته، وإيماءٌ إلى أنّ شأن الخِلّة الثّقة بالخليل

لم يتمنَّ هذا الضّالُّ أن يكون قد عصا خليلَه في قوله تعالى: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾؛ وإنّما تمنّى أن لا يكون اتّخذه خليلًا؛ لأنّه يتمنّى أيضًا لو لم يكن فلانٌ أصلًا في موضع الإضلال؛ فإنّه يشمئزّ من تلك الخِلّة، ويُشير هذا القول أيضًا إلى أنّ مِن شأن الخِلّة الثّقةُ بالخليل، وحملُ مشورتِه على النّصح، فلا ينبغي للمَرء أن يضع ثقتَه إلّا فيمن يوقن بسلامته من إشارات السُّوء[3].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي﴾:

تفسيرٌ لعدم تمنّي اتّخاذِ المُضلّ خليلًا

فُصِلَت جملةُ ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾، عن جملة ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾؛ لأنّها تعليليّة[4]، فإنّ سببَ ندمِه هو أنّ هذا الخليلَ قد أضلّه عن طريق الحقّ بعد أن قارب أن يكون مُسلِمًا، لكنّه منعه من ذلك؛ فأوقعَه في أعظم خسارة يمكن أنْ تصيب الإنسانَ، وهي الخسارة في الدّين.

معنى اللّام و(قد)، وفائدةُ التّوكيد:

قسمٌ وتأكيدٌ لأعظم خسارةٍ، وهي إضلالُ الخليل عنِ الدّين

لَمّا كانتِ الخسارة في الدّين من أعظم الخسارات التي تحصل للإنسان، عبّر عنها بقوله: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾، بأن صَدّر الجملةَ بـ﴿لَّقَدۡ﴾ الدّالَّةِ على القَسَم الذي يُفيدُ التّوكيد[5]، أي: واللّهِ قد أضلّني عنِ الذّكر والهدى، فإنّ من عادة العرب ألّا

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 22.
(2) ابن عصفور، شرح جمل الزّجاجيّ: 2/ 134.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 14 - 15.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 15.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5272.

يقسموا إلّا فيما عَظُم خَطَرُه، وارتفع شأنُه؛ لذلك أكّد الكلامَ بـ(اللّام) و(قد) للمبالغة في بيان شِدّة خطأ الظّالم، ومدى ندمِه وحَسْرتِه، فكأنّه يقول: واللّه لقد أضلّني هذا الشَّخصُ عن ذِكْر اللّه تعالى، أو عنِ القرآن الكريم، أو عن موعظة الرّسول ﷺ، أو عن كلمة الشّهادة[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بالاستعارة في: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾:

تشبيهُ الانحرافِ عـنِ الـحَـقّ والـرُّشْـد إلى الباطل بالضَّلال

الضّلالُ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ إضاعةُ الطّريق وخَطؤُه، إذ يَسلُك الإنسانُ طريقًا غيرَ المقصودِ، فيقعُ في غير المكان الذي أراده، كأرض العَدوّ أوِ الأرض التي يكثر فيها السِّباعُ والهَوام، والمعنى هنا: يُفيد أنّ الخليل قد سوَّل له الانصرافَ عنِ الحقّ، فأضلَّه عن طريقِه الصّحيح، فاستعمالُه للفظ الضّلال من باب الاستعارة المكنيّة؛ لتشبيه الذّكرِ بالسّبيل الموصّل إلى المَنجى، وتشبيهِ الانحرافِ عنِ الحقّ والرُّشد إلى الباطل والسَّفَه بالضّلال، وكما يُستخدمُ لفظُ الهدى بمعناه الحقيقيّ لإصابة الطّريق، فإنّه يُستخدمُ أيضًا بمعناه المجازيّ لمعرفة الحقّ والصّواب[2]، وكذلك لفظُ الضّلال، والأصل في الفعل (ضلّ) أن يكون متعدّيًا بنفسه، كما يقال ضَلِلْتُ الدّارَ والطَّريق، وضلَّ فلانٌ بعيرَه[3]، لكنّه لَمّا كان مستعارًا - وهو أنّ الخليل قد سوَّلَ لهُ الانصرافَ عنِ الحقّ؛ فأضلّه عن طريقه الصّحيح - جعل تعديتَه بـ ﴿عَنِ﴾ في قوله: ﴿عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ فإنَّه لو كان الإضلالُ هو تسويلُ الضَّلال، لما احتاج إلى تعديته بما عَدّاه[4].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾:

الذّكرُ هو القرآنُ الـكـريـم الـذي أضــلّ الـخـلـيـلُ خليلَه عنه

في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ أوردَ لفظُ الذّكر مُعرّفًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 15.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضلّ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 15.

بالألف واللّام الدّالّة على معهود مخصوص، والمُراد به القرآنُ الكريم، والمعنى: أنّ الخليل قد سوَّل لهُ الانصرافَ عنِ التّدبّر في القرآن الكريم والاستماعِ له، وكان على وشك فهْم معاني الكتاب الحكيم، ولكنّه انحرف عن هذا الطّريق، فحُرِمَ فهمَه[1]، ويجوز أن تكون (أل) في ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ دالّةً على الجنس؛ لاستغراق كلِّ ما يدخل في حيّز هذا المعنى، كذكر اللّه في كلّ قول يُعبِّر عن إجلال اللّه وتعظيمه، أوِ القرآن الكريم، أو موعظة الرّسول ونصيحتِه، أو نطقِه بشهادة الحقّ، وعزمِه على الإسلام[2]، أوِ الإيمانِ والتّصديقِ باللّه، وبما جاء بِه الأنبياءُ والرّسلُ، أوِ الصّلاةِ، أو غيرِ ذلك من أنواع الذّكر.

دلالةُ التّعبيرِ بالذّكر مادّةً وصيغةً:

شهادةُ الإسلامِ سبيلُ النّجاة منَ العذاب

يجوز أن يكون معنى الذّكر في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ الشّهادةَ؛ استنادًا إلى تخصيص الظّالم في هذه الآية بعُقبةَ بنِ أبي مُعَيط، وتمثيلُ كلمةِ الشّهادةِ بسبيل الرَّسول الهادي؛ وذلك لأنّها تُمثّل سببَ النَّجاة منَ العذاب، وتشبيه الصَّرف عن كلمة الشّهادة، بالإضلال عن سبيل الرَّسول[3].

سِرُّ التّقييدِ بالظّرف في قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ﴾:

حكايةُ زمنٍ دالٍّ على شِدّة تمكُّنِ الذّكرِ في القلب

﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ للزّمن الماضي في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾، والمقصودُ به: زمنٌ خاصّ تمكّن فيه الذّكر[4]، فكأنّه يقول: أضلَّني عنِ الذّكر بعد أنِ استقرَّ فيَّ الذّكرُ، وتمكّنَ من نفسي، ولم يقل: بعد ما جاءني، أو بعد أن جاءني، للتّأكيد على شدّة تمكُّن الذِّكر، وذلك مشابهٌ لقول اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ [التّوبة: 115]، فالمعنى: أنّه قد تمكَّن هديُ اللّهِ تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 282.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.

من قومه[1]، و﴿إِذْ﴾ تدلُّ على الفَجأة[2]، فقد جعل مجَيءَ الذّكرِ - وهو القرآنُ والإيمانُ ونحوُهما - حاصلًا بطريق الفجأة، يُؤيّد ذلك سببُ النّزول، فالمعنيُّ "بالظّالم: عقبةُ بنُ أبي مُعَيط؛ لأنّه ارتدَّ بعد إسلامه؛ طلبًا منه لرِضا أُبيٍّ بنِ خَلَفٍ"[3].

دورُ القرآن الكريم في حماية النّاس من ضلال الأصدقاء والخُلّان

بلاغةُ إسنادِ المَجيء إلى الذّكر:

في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ﴾ أُسنِد لفظُ المَجيء إلى الذّكر، وأُريدَ بالمَجيء هنا الإسماعُ، فكأنّ القرآنَ الكريم قد حلّ عند الإنسان ليَسْمعَه، ومثلُه في ذلك قولُهم: أتاني نبأ كذا، وفي ذلك احتمالان[4]؛ فإذا حُمل الظّالم في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ على معيّن، وهو عقبةُ بن أبي معيط، فمعنى مجيء الذّكر إيّاه: أنّه كان يجلس إلى النّبيّ ﷺ ويأنس إليه، حتّى صَرَفه عن ذلك أُبيُّ بنُ خَلَف، وحَمَلَه على عداوته وأذاته، وإذا حُمِل ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ على العموم، فمجيءُ الذّكرِ هو شيوعُ القرآنِ بينَهم، وإمكانُ استماعِهم إيّاه، وإضلالُ خُلّانِهم إيّاهم صرفُ كلّ واحدٍ خليلَه عن ذلك، وتعاونُ بعضِهم على بعض في ذلك.

خيانةُ الشّيطانِ وخِذلانُه أصحابَه في أحلَك اللّحظات

معنَى الواوِ ودلالتُها في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ﴾؛ فقد كان الشّيطانُ مصاحبًا للكافر، وكان يُضلُّه عن سبيل الحقّ، ثمّ خَذلَه في وقت شدّته، وحاجته إلى نُصرته[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.
(2) محمد الهلاليّ، تفسير القرآن الثّريّ: 9/ 19.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 440.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 375.

نُكْتَةُ دخولِ (كانَ) في فاصلة الآية:

أُدْخِل الفعلُ النّاقص (كانَ) في فاصلة الآية في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ﴾؛ للدّلالة على عراقة الشّيطان في خِذْلانه بني آدم، فهو خَذولٌ على الدّوام[1]، فهي صفة ثابتةٌ للشّيطان في علاقته بالإنسان، وليست حَدَثًا عارِضًا، بل هو سلوكٌ مُتكَرِّر، ونمطٌ ثابتٌ في تعامله مع البشر، فضلًا عمّا تُضفيه (كان) على صفة الخِذْلان منَ البُعد الزّمانيّ، الذي يُشير إلى استمرارها وامتدادِها.

خِذْلانُ الشّيطانِ صفةٌ ثابتةٌ لا عارضةٌ، وسلوكٌ مُتَكَرِّر مُمتدّ

معنى (أل) ودلالتُها في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

اللّام في لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ دالّةٌ على الجنس[2]؛ لاستغراق كلِّ مَن كانت هذه صفتُه، في إشارة إلى أنّ الشّيطان ليس مُجَرّدَ اسم، أو كيانٍ مُحَدّد، بل هو وصفٌ يَنطبق على أيّ شخص أو كائن يتّصف بتلك الصّفات، بغضّ النّظر عن جنسه أو نوعه، فيَشمَل الخليلَ المُضِلَّ، أو إبليسَ؛ بحمله على مخالفته ومخالفةِ الرّسول ﷺ، أو جميعِ مَن تشيطن مِن عُتاة الجنّ والإنس[3].

كلُّ مَن أضلّ من الإنس والجنّ فهو شيطانٌ

معنى (أل) ودلالتُها في قوله: ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾:

(أل) الدّاخلةُ على لفظ الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ الغالبُ فيها أن تكون لمعنى الاختصاص، أي: الإنسان الكافر[4]؛ وهي هنا دالّةٌ على التّهكّم[5]؛ فإنّ الكافر قدِ اتّخذ الشّيطان وليًّا له، بينما الشّيطانُ خذولٌ له، لا ينصرُه ولا يُعينُه، ووجهُ التّهكّم في ذلك: أنّ الإنسانَ يضعُ ثِقتَه فيمن لا يُؤتَمَن عليه، ويُسَلِّم قيادَه لِمَن يُضِلّه ويُهلِكُه.

تهكّمٌ بالإنسان الكافر المُضَلّل بشيطانه مع خِذْلانه له

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 191.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 277.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 13/ 375.
(4) محمد الهلاليّ، تفسير القرآن الثّريّ: 9/ 19.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 81.

التّأكيدُ على أهميّة الإنسان، وخُطورة خِذلان الشّيطان

الغرضُ من تقديم شِبه الجملة على الخبر:

قُدِّم شِبهُ الجملة ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾ على الخبر ﴿خَذُولٗا﴾؛ للاهتمام والتّأكيد على أهميّة الإنسان، ومكانتِه المرموقة، فهو المِحورُ الأساسيّ في هذه العلاقة مع الشّيطان، وهو المستهدف من خِذلانه، فخِذْلانُ الشّيطان ليس مُجرّدَ حَدَثٍ عابر، بل هو ظاهرةٌ خطيرة تُهدِّد المَرءَ في إيمانه وأخلاقه، ومن فوائد التّقديم هنا الدّلالةُ على الحصر، فإنّ خِذلانَ الشّيطان للإنسان متوجّهٌ إليه لا إلى غيره، فهو المُستهدَف الوحيدُ من خِذلان الشّيطان، ولا يوجد كائن آخَرُ له هذه العلاقة مع الشّيطان، ولا يوجد غيرُه يَخْذُله الشّيطانُ بهذه الطّريقة، ثمّ إنّ في تقديم شِبه الجملة على الخبر حفاظًا على فاصلة الآية.

مَهاوي الخِذلان حيثُ يتضاعف الإثـمُ، ويصبحُ المَـرءُ شـرًّا على نفسِه وغيرِه

دلالةُ التّعبير بـ﴿خَذُولٗا﴾ مادّةً وصيغةً:

قولُه: ﴿خَذُولٗا﴾ على زِنة (فَعول)، وهو دالّ على المبالغة[1]، أي: أنّ الشّيطان يَقْذِف به في مهاوي الخِذلان الشّديد، فلا يجد مُعينًا، ولا ينصره أحدٌ، بل يُلْقَى به في أحلك المواقف التي يكرهها، ولا يملك أيَّ قُدرة على الخلاص، بل هو شرٌّ من ذلك كلّه، فإثمُه يتضاعف بإثمِه وإثمِ مَن أضلّه[2]، ولا يقتصر الخِذلان على ترك نَصْر المُستنجِد، بل يتعدّاه إلى التّواطُؤ معَ العَدوّ، وهو ما فعله الشّيطانُ مع الإنسان، فبَدلًا مِن نُصرته ساعدَه على الهزيمة، ممّا يُعدّ أشدَّ أنواعِ الخِذلان؛ ولذلك وُصِفَ الشّيطانُ بالخَذول بصيغة المبالغة؛ لما يُسبِّبُه من ضَرر بالغٍ للإنسان، من خلال توريطه في الضَّرر[3].

الـدّلالـةُ على عِـظَـم خِـذلان الـشّـيـطـان للإنسان

الغرضُ من تنكير ﴿خَذُولٗا﴾:

لَمّا كان خِذلان الشّيطان للإنسان عامًّا شاملًا لجميع مواقف

(1) السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 1/ 440.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 375.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16 - 17.

الإنسان، وفي كلّ أوقاته، دلَّ التّنكير في ﴿خَذُولَا﴾ على إفادة التّعظيم، وهو أنّ خِذلانَ الشّيطانِ للإنسان عظيمٌ وخطير جدًّا، وله عواقبُ وخيمةٌ؛ فحَريٌّ بالإنسان ألّا يتّخذَه وليًّا، فسيفتقدُه عند حاجته.

دلالةُ ختمِ الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾:

عداوةُ الشّيطانِ للإنسان وخِذلانُه له أمرٌ محتَّمٌ لا شَكّ فيه

يَحتمل قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ أن يكون من تمام كلامِ الظّالم؛ تعبيرًا منه عن شعوره بخِذلان خليله بعد وصفه بالإضلال، وهي صفةٌ شيطانيّة بامتياز، أو ربّما قصدَ الظّالم بشيطانه إبليسَ الذي دفعه نحو الضّلال، ومخالفةِ الرّسول بوساوسه وإغوائه، إلّا أنّ وصفه بالخِذلان يوحي بأنّه كان يُمَنّيه بوعود دُنيويّة، ونجاةٍ أُخرويَّة لم تتحقّق[1]، ويَحتمِل أن يكون تذييلًا من كلام الحقّ سبحانه، لا من كلام الظّالم[2]، يذكِّرُنا الحقّ ﷻ بأنّ الشّيطان عدوٌّ للإنسان، وأنّه يغويه ويُضِلّه، فكلُّ ما يفعله الإنسان مِن شرور وضلالٍ هو من عمل الشّيطان، الذي يُسَوِّل له ذلك ويُشَجّعه عليه؛ فالشّيطان خذولٌ للإنسان، أي: أنّه يَخْذُلُه ويتركُهُ وحيدًا في مواجهة الشّرور، بما جُبِلَ عليه مِنَ الخِذْلان الشّديد لبني الإنسان[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّبيلُ، والطّريقُ، والصّراطُ:

الطّريق عامٌّ، والصّراط خاصٌّ، والسّبيل يُجَسّد النّدمَ والرّغبةَ في الرّجوع إلى الطّريق الحقّ

السّبيلُ: طريقٌ واضحٌ ومُبيّن، يَسْهُل على الإنسان السّيرُ فيه، ويُؤدّي به إلى وُجهة مُحدّدة، أمّا الطّريقُ: فيُشير إلى أيّ مَسلكٍ يمكنُ السّيرُ فيه، سواء كان واضحًا أو غامضًا، له وجهةٌ محدَّدَةٌ أو لا، والصّراط: هو الطّريق المستقيم الدّقيق، الموصِلُ إلى الجنّة في الآخرة[4].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 277.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 313.

فالسّبيل يناسِبُ سياقَ الآية الكريمة الذي يُعبِّر عن شعور المُتكلّم بالنّدم لعدمِ اتّخاذِه للرّسول ﷺ دليلًا وهاديًا في حياته، أمّا الطّريق فلا يُناسب سياق الآيةِ بشكل كامل؛ لأنّه قد يُستعملُ بمعنًى عامّ، وكذا الصّراط فهو يُشير إلى طريق مُحَدّد، ومُخْتَصٍّ بالنّجاة في الآخرة؛ لذلك فإنّ التّعبير بلفظ (السّبيل) في الآية الكريمة هو الأنسبُ بلاغيًّا ودلاليًّا، وفيه تجسيدٌ لمشاعر المُتكلِّم من ندم ورغبةٍ في الرّجوع إلى الطّريق الحَقّ الصّحيح.

الصّديقُ، والخليلُ، والصّاحبُ:

الـصّـديـقُ: مَـن صـدق في النّصيحة والإخـاء، والـخـلـيـلُ: مـن تـخـلّـلت مودّتُه القلبَ، والـصّـاحـبُ: المُلازِم الدّائم

أوردَ لفظُ الخليل في قوله: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾، ولم يورد لفظُ الصّديق، أو الصّاحب، أو نحوه، مع تقارب هذه الألفاظ في المعنى.

فالصّديق: منَ الصِّدق، الذي هو خِلاف الكذب، والأصل في معناه: الدّلالةُ على القوّة، وذلك لقوّته في نفسه؛ لأنّ الكذبَ لا قوّة له فهو باطل[1]، وسُمّيَ الصّديق صديقًا لصِدقِه في النّصيحة والإخاء، ولتصادق الصّديقين في الحديث والمودّة[2].

وأمّا الصّاحبُ: فهو "المُلازِم، إنسانًا كان أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا، ولا فرقَ بين أن تكون مصاحبتُه بالبدن، وهو الأصلُ والأكثرُ، أو بالعناية والهِمّة"[3].

وأمّا الخليل: فهو (فَعيل) بمعنى (فاعِل)، وهو مَن تخلَّلت مَودَّتُه القلبَ، وامتزجت بالنّفس، فكانت له مكانةٌ منها، وسلطانٌ عليها[4].

الخِذْلانُ والخيانة:

وُصِفَ الشّيطانُ بالخَذول في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).

(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم: (صدق).

(3) الرّاغب، المفردات: (صحب).

(4) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 245.

خَذُولًا﴾؛ لكثرة خِذلانه، والخِذْلان: تركُ المعونةِ، أو تركُ مَن يُظَنّ به أن ينصرَ نُصرتَه وإعانتَه[1]، أمّا الخيانة: فهي أن يُفَرّط الخائنُ فيما يُؤْتَمنُ عليه، وهي خِلاف الأمانة، وتأتي في القرآن الكريم بمعاني المعصية، ونقضِ العهد، وترك الأمانة، والمخالفةِ في الدّين، والزّنى[2]، ولمّا كان من حال إبليس أنّه يُمَنّي ابنَ آدمَ ويَعِدُه و"يواليه، حتّى يؤدّيَه إلى الهلاك، ثمّ يتركُه، ولا ينفعُه"[3]؛ كان لفظُ الخِذلانِ أليقَ وأنسبَ بهذا الموضع من لفظ الخيانة.

الخِذلان: تركُ المعونةِ والنُّصرة، والخيانةُ: التّفريطُ في الأمانة

(1) ابن فارس، مجمل اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (خذل).
(2) فهد الضّالع، زوائد ابن الجوزيّ، ص: 442.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 437.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾

[الفرقان: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نبذُ القرآنِ الكريم والتّأمّل فيه شكايةُ الرّسول قومَه

لَمّا ذَكَر تعالى ما قاله المشركون مِنَ الباطل في معارضة القرآن، والإعراض والصَّدّ عنه، وما قالوه من عبارات الحسرة والنّدامة يومَ القيامة، على ما كان منهم من ذلك في الدنيا - ذَكر ما قاله النّبيُّ ﷺ مِنَ الشَّكوى لرَبِّه بهم من تَرْكِهم للقرآن العظيم وهَجْره[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَهۡجُورٗا﴾: (هجر) أصلُ الكَلِمَةِ يدُلُّ على قَطيعَةٍ وقَطْعٍ[2]، فالهَجْرُ والهِجْران: تركُ ما يَلْزَمُك تَعَهُّدُه[3]، والتَهاجُرُ: التّقاطعُ، يُقال: هَجَرَ فُلانٌ هَجْرًا بالفَتْح، وهِجْرانًا بالكَسْر: إذا تَباعَدَ، وهَجَرَ الشَّيْءَ أوِ الشَّخْصَ، أي: تَرَكَهُ وأَعْرَضَ عنه، وضِدُّه: الوَصْلُ، والهَجْرُ أيضًا: الهَذَيانُ[4]، والمَهجورُ: المتروكُ والمُفارَقُ، والمُرادُ هنا تُرْكُ الاعتناءِ به وسماعه[5].

المَعنى الإجماليُّ:

حُرْمَةُ هَجْرِ القرآنِ العَظيم، وعدَمِ تعهُّدِه والعملِ بما فيه

لَمّا أكثَرَ الكُفّارُ مِنَ الاعتراضاتِ الفاسِدةِ ووجوهِ التَّعَنُّت؛ ضاق صدرُ الرَّسولِ ﷺ، وشكاهم إلى اللهِ تعالى، فقال: ربِّ إنَّ قومي الَّذين بعثْتَني إليهم لأَدْعوَهم إلى توحيدك، وأمرتني بإبلاغ كتابكَ إليهم، قد تَرَكوه وهجَروه؛ فلا يَسمَعونَهُ ولا يتدَبَّرونَهُ، ولا يُؤمِنونَ به،

(1) ابن باديس، في مجالس التذكير، ص: 249.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هجر).
(3) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (هجر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (هجر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 17.

ولا يَعمَلون بأحكامِه، تركوا الإيمان بك، ولم يأبهوا بوعدك ووعيدك، بل أعرضوا إعراضًا شديدًا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو في صدر الآية:

عطفٌ على قولِ مَن لم يَرْجُ لقاءَ الله، وما بينهما تبيانُ عِظَم كفرِ الكافرين

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وما بينهما من جُمَلٍ اعتراضٌ لبيان عِظَم ما قاله الكافرون، وشرحٌ لما سيحلّ بهم في الآخرة منَ العذاب الشّديد، وما يلاقونه منَ الأهوال والخطوب[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، ونُكْتَةُ إيرادِه بصفة الرّسالة:

ردٌّ على قَدْحِ الكافرين، وإثباتٌ لأحقّيّة رسالتِه

(أل) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ دالّةٌ على العهد، وهو الرّسولُ الكريم محمّدٌ ﷺ[3]، وإيرادُه بعنوان الرّسالة تحقيقٌ لحَملِه رسالةَ الحقّ؛ ليُبيّن للنّاس الحقيقةَ، ويَرُدَّ على شبهات مُنكريه، فما قالَه الكافرون عن نُبوّته كان قدحًا في رسالته، وسعيًا لتشويه صورته[4]، والتّعبيرُ بوصف الرّسالة دون اسمه الكريم تشريفٌ له ﷺ؛ لأنّ وصفه بالرّسالة أعظمُ من ذِكْره باسمه الشّريف؛ لأنّ الرّسالة تُشير إلى مكانته ومهمّتِه العظيمة في إبلاغ رسالة الحقّ سبحانه إلى النّاس، وفيه إعلاءٌ من شأنه، وتمييزٌ له عن غيره من الخَلْق، فلا يُخاطَب بما يُخاطبون به من ألقابٍ وأسماء[5].

غرضُ النّداء بلفظ الرّبوبيّة، ونُكْتة حذفِ الياء من لفظ (رَبِّ):

إظهارٌ لعظيم التجائِه، وشِدّة اعتمادِه، على المُنعم عليه بأنواع الإحسان

في قوله: ﴿يَٰرَبِّ﴾ إظهارٌ لعظيم التجائه، وشِدّة اعتمادِه، وتمامِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 209، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 108، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 10.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 339.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 249.

تفويضِه لمالكه ومُدبِّر أمره، وموالي الإنعام عليه بأنواع منَ الإحسان، وأعظمُه إيتاؤه الرّسالة والنّبوّة[1]، ولمّا كان قولُ الرّسول ﴿يَٰرَبِّ﴾ إنّما يقوله يوم القيامة؛ كنايةً عن هجر قريش للقرآن الكريم، وهجرِهم له، وتكذيبِهم له[2]، فإنّ ذلك مؤذنٌ بقُرْبه ﷺ يومَئذٍ من ربّه، فحُذِفت الياء من (رَبِّ)؛ للدّلالة على شدّة قُربه من الحقّ ﷻ.

الغرضُ مِن تتابُعِ المؤكّدات في قوله: ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ﴾:

شكوى نبويّةٌ مُؤكّدةٌ من مصيبة هجر القرآن

توالَتِ المُؤكّداتُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾، من ﴿إِنَّ﴾ وتعريفِ الاسم بعد الإشارة؛ إيماءً إلى شِدّة اهتمامه بالقرآن الكريم، ولِجَعْل شكوى النّبيّ ﷺ أكثرَ تأثيرًا وقوّة[3]، وتصديرُ الجملة بحرف التّأكيد ﴿إِنَّ﴾ للمبالغة في أنّ مضمون هذه الجملة واقعٌ لا محالة[4]، وأنّ ذلك الهجرَ كان خطيئةً عظيمة، وذنبًا كبيرًا.

سِرُّ إضافةِ القومِ إلى ضميره ﷺ ﴿قَوۡمِي﴾:

تذمُّرٌ نبويّ، وحُنوٌّ معَ الحسرة، مُؤكّدٌ بصِلة القرابة

في التّعبير عنهم بقومه وإضافتِهم إليه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾؛ تعبيرٌ عن شدّة استغرابِ الرّسول ﷺ من موقف قريشٍ المُعادي لرسالته؛ وهم أقربُ النّاسِ إليه، وأحرى بهم أن يُؤمنوا به، ويُؤيّدوا رسالته، وهو الموصوفُ عندهم بالصّادق الأمين[5]، وهو في الوقت نفسِه حُنوٌّ ممزوجٌ بالحسرة[6].

دلالةُ التّعبير بالاتّخاذ:

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الاتّخاذ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوۡمِي

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 376، وابن باديس، في مجالس التذكير، ص: 250.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 27.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 17.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 82.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 17، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5273.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 15.

﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾، ولم يقل: (إنّ قومي هجروا القرآن)؛ وذلك لأنّ فعلَ الاتّخاذ إذا قُيّد بحالةٍ فإنّه يُفيد شِدّة اعتناءِ المُتَّخِذ لتلك الحالة، بحيثُ ارتكبَ الفعل لأجلها، وجعله لها قصدًا، فاختيارُ الحقّ ﷻ لهذا التّعبير أبلغُ في بيان مدى هجْرِ قريشٍ للقرآن الكريم، من مُجرّد القول بأنّهم هجروه[1]، فلم يكن هجرُهم له مُجرّدَ واقعةٍ عابرة، بل جعلوه صفةً ملازمةً لهم، ومنهجًا في حياتهم، وذلك أعظمُ من أن يقال: هجروه، الذي يُفيد وقوعَ الهُجران دونَ دلالة منهم على الثّبوت والمُلازمة[2]، كما أنّ التّعبير بفعل الاتّخاذ مُؤذنٌ بالتّكلّف والتَّعمُّل والمَشقّة، وتحميلِ النّفس، وهو شأن التّفعّلِ في معاني الأبنية العربيّة[3]، فلَمّا كان حَيَدانُهم عنِ القرآن حصل بتكليف أنفسِهم ضِدَّ ما تجده منَ الفطرة والجِبِلَّة السّليمة؛ أشار بصيغة الافتعال ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ إلى أنّهم عالجوا أنفسَهم في تركه علاجًا كثيرًا[4].

إصرارُهم على هجْرِ القرآن والإعراض عنه، وتحميلُ أنفسِهم ضِدَّ ما تجدُه منَ الفطرة السّليمة

الغرضُ منَ التّعبير باسم الإشارة للقريب:

استُعمِلَ اسمُ الإشارةِ للقريب ﴿هَٰذَا﴾[5] في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾؛ وذلك لتعظيم القرآن، والتّأكيد على مكانته السّاميَة، ومنزلته الرّفيعة، فكلمة ﴿هَٰذَا﴾ تُشير إلى قُرْب القرآن الكريم منَ القلوب، وعِظَم شأنِه في النّفوس، وجلالةِ قَدْرِه في الألباب، وأنّه لا مثيلَ له، وأنّ مثله لا يُتّخذ مهجورًا، بل هو جدير بالإقبال عليه والانتفاع به[6]، وفي استعمال اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ فائدةٌ أخرى، وهي أنّ من جاءَهم بالقرآن هو الرّسول ﷺ؛

كتابٌ عظيم قريبٌ منَ القلوب، جديرٌ بالاهتمام به والانتفاع منه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 17.
(2) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 249.
(3) الأشمونيّ، شرح على ألفية ابن مالك: 2/ 548.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 376.
(5) ينظر في اسم الإشارة، الشاطبيّ، المقاصِد الشّافية: 1/ 593.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 17.

فهو أقربُ النّاس إليهم، فصدّوا وأبعدوا في الصّدّ عمَّن هو إليهم قريبٌ من قريب، وهذا أقبحُ الصّدّ وأظلمُه[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾:

القــــرآنُ هو الكتاب المُنَزّلُ، الذي من جملته الآياتُ النّاطقةُ بعذابهم

(أل) في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ عهديَّةٌ؛ فالقرآن هو الكتاب المُنَزّل، الذي من جملته الآياتُ النّاطقة بما يحيق بهم في الآخرة من فنون العقاب وأنواع العذاب[2]، ويجوز في (اللام) أن تكون دالّةً على الكمال، فهي إشارة إلى القرآن الذي عُرِف بصفاته العالية، مِن أنّه يهدي النّاس ويخرجُهم من ظُلُمات الجهل إلى نور الإيمان، وهو موئِلُ الرّحمة والسّكينة لقلوب المؤمنين، يشفي القلوبَ من أمراض الشّكّ والنّفاق والضّلال، ويُنير دروبَ المؤمنين، ويُرشدُهم إلى الطّريق الصّحيح ببلاغته الفائقة، وفصاحتِه العجيبة، وفيه الشّريعةُ الرّبانيّةُ[3].

دلالةُ التّعبير بـ﴿مَهۡجُورٗا﴾، مادّةً وصيغةً:

التّركُ للقرآن والإعراضُ عنه، والإنكارُ له، ووصفُه بالباطل

عبّر النّظمُ الجليل عن تركهمُ القرآنَ والتّمسّكِ به بقوله تعالى: ﴿مَهۡجُورٗا﴾، وصيغةُ اسمِ المفعول تدلُّ على وقوع فعلِ الهجر والتّرك على القرآن الكريم[4]؛ إشارةً إلى شِدّة ما أصابه من قوم الرّسول ﷺ من إهمال وهجر وإعراض، وجَعْلِه مَتروكًا ومُفارَقًا وغيرَ معتنًى به، وكأنّهم طردوه من قلوبهم وبيوتهم وحياتهم[5]، ويجوز أن يكون من (أهجر) المَزيد، أي: مهجورًا فيه، ثمّ حذف الجارّ في إشارة إلى شِدّة هجر قريش للقرآن الكريم في قلوبهم، وفي حياتهم، وإمعانًا في هجرهم للقرآن الكريم، فقد زعموا أنّه سحرٌ وشِعْرٌ،

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 249.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 215، وابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 95.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5273.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 14/ 524.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 17.

وكَذِبٌ وهَذَيانٌ[1]؛ فكان هجرُهم له ليس مُجَرّد إهمالٍ أو تَرْكٍ، بل كان هجرًا مُتعمّدًا مُقترنًا بالإنكار والاتّهام الباطل، ويجوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر، كالمعقول بمعنى العقل، والمعنى: اتّخذوه هجرًا، بصيغة المصدر، أي: الهجر نفسُه[2]؛ كنايةً عن شِدّة هجر قريشٍ للقرآن الكريم، ومبالغةً في التّعبير عن ذلك.

بلاغةُ المجازِ أوِ الكنايةِ في هجران القرآن:

التّعبيرُ بهَجْر القرآن واردٌ على طريق الاستعارة حيث شُبّه من يترك الانتفاع من القرآن بمَن يهجر مأوًى بجامع الاستغناء عنه، وبه يبين شدّة هذا الهجرِ وقُبْحه، وعاملوه كما يُعامل الكلام الذي لا نفع فيه[3].

لِهجْرِ القرآنِ معانٍ تتجاوزُ الظّاهرَ

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القرآنُ والذّكرُ والكِتابُ:

القرآن: هو الاسمُ الخاصّ للكتاب الذي أنزله الحقُّ ﷻ على نبيّه محمّدٍ ﷺ، وهو آخرُ الكُتب السّماوية المُنَزّلة، وهو ما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾.

وأمّا الذِّكر: فهو في اللّغة خِلافُ النّسيان، ويأتي بمعنى العلاء والشّرف والرِّفعة[4]، ويحتمل هذا اللّفظُ أن يكون دالًّا على القرآن وعلى غيره[5]، كالإيمان والرّسول والهدى وغيره، وقدِ استُعمِل في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ لاقترانه بفعل الإضلال، وهو صرفُ الشّيء عن وجهته الصَّحيحة، وإيهامُه طريقًا خاطِئًا، فالعلاجُ يكون بتذكّر اللّهِ تعالى، وتلاوةِ القرآن الكريم، ولم يَرِد بلفظ (الكتاب) لبُعدِه عنِ السّياق.

القرآنُ آخرُ الكُتبِ السّماويّةِ المُنَزّلة، والذّكرُ يحتملُه ويحتملُ غيرَه، والكتابُ اصطلاحٌ على الكتب السّماويّة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 455.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 224.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 15.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 17.
(5) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 19/ 399.

وأمّا الكتابُ: فهو بمعنى المكتوب، وقد يكون دالًّا على القرآن، أو على غيره من الكتب السّماويّة الأُخرى، كالتّوراة والإنجيل والزّبور.

الهِجْرانُ والتّرك:

الهجران أعمُّ منَ التّرك

الهَجْرُ والهِجْران: أن يفارق الإنسانُ غيرَه بدنًا أو لسانًا أو قلبًا[1]، فلمّا كان القرآن بين ظهرانيهم لكنّهم تركوا تلاوتَه والعمل به، عبّر عن ذلك بالهجران في قوله: ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾.

أمّا التّرك: فيردُ عند العرب بمعنى "تخليف الشّيء في المكان الذي هو فيه، والانصرافُ عنه"[2].

ومن هنا تظهرُ براعةُ القرآن الكريم ودقّتُه في استعمال الألفاظ في موضعها المناسب؛ فإنّ تركهم للقرآن لم يكن تخليّةً مكانيّةً بالانصراف عنه، بل قد يكون الكتابُ الكريم موضوعًا عندهم في أنزهِ مكانٍ مُحتفًى به، إلّا أنّهم هجروا تلاوتَه، والعملَ به، والحُكمَ بحُكمه، والانتهاءَ عن نواهيه.

(1) الرّاغب، المفردات: (هجر).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 124.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسليةُ اللهِ لنبيّه محمّدٍ ﷺ، ووعدُه بالهداية والكفاية والنّصرة

لَمّا كان من شأن الآية السّابقة أنّ الرّسول الكريم ﷺ شكا قومه إلى ربّه بقوله: ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾؛ تعبيرًا عن حُزنه وألمِه من إعراض قومه عنِ القرآن الكريم وهِجرانِه - جاءت هذه الآيةُ تسليةً وتعزيةً لحبيبه المصطفى ﷺ، في إشارة إلى أنّه ليس وحدَه في مواجهة أعدائه، فأمرَه بالصّبر على ذلك، ووعدَه ورجّاه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَعَلْنَا﴾: (جعل): لفظ عامٌّ في الأفعال كُلِّها، وهو أعمُّ من فَعَلَ، وصَنَعَ، وسائرِ أخواتها، وهو يأتي لمعانٍ؛ منها: جَعَلَ الشَّيْءَ جَعلًا: وضَعَهُ وقدَّره، وجَعَلَ بَعْضَه فوقَ بعضٍ: أَلْقاهُ، وجَعَلَ القَبيحَ حَسَنًا: صَيَّرَهُ، وجَعَلَ البَصْرَةَ بَغْداد: ظَنَّها إيّاها، وجَعَلَ لَهُ كذا على كذا: شارَطَهُ به عليه[2]، والمقصودُ بالجَعْلِ في الآية: التَّهْيِئَةُ والتَّمكينُ.

2) ﴿عَدُوًّا﴾: (عدو) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ الفُروعُ كُلُّها، وهوَ يَدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيْءِ وتَقَدُّمٍ لِما يَنْبَغي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ[3]، العَدُوُّ: خِلافُ الصَّديقِ، وهو المُبْغِضُ، مُشْتَقٌّ مِنْ عَدا عَلَيْهِ يَعْدو، بِمَعْنَى وثَبَ؛ لِأَنَّ المُبْغِضَ يَثِبُ على المَبْغوضِ لِيَنْتَقِمَ مِنْهُ، ووَزْنُهُ فعولٌ[4]، والعَداوَةُ: إرادَةُ السّوءِ لِمَن تُبْغِضُهُ وتَكْرَهُهُ، والعُدْوانُ: الظُّلْمُ، يُقال: عَدا فُلانٌ على فُلانٍ، يَعْدو عليه، عَدْوًا: إذا ظَلَمَهُ،

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 249.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جعل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 620.

والرَّجُلُ العادي: الظالمُ[1]، والمُرادُ بالعَدوِّ في الآيةِ: المُبْغِضُ، وهو اسمٌ يقعُ على المُفردِ والجَمعِ، والمُرادُ هنا الجَمعُ[2].

3) ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: (جرم) الجُرْمُ والجَريمَةُ: الذَّنْبُ والإثْمُ، والإجرامُ: إلصاقُ الجَريمَةِ بالغَيْرِ، ويأْتي بمعنى الاعْتِداءِ والظُّلْم، فيُقال: أَجْرَمَ في حَقِّ أَخيه، أيْ: ظَلَمَهُ واعْتَدَى عليه، والمُجْرِمُ في اصْطِلاحِ القُرْآنِ هوَ الكافِرُ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطففين: 29][3]، والمقصودُ بالإجرام في الآية: الكُفر، والمُراد بالمجرمين: الكُفّارُ مِن أقوامِ الأنبياء يُعارضونَهم ويُؤذونَهم.

4) ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾: (كفا) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على الحَسْبِ الَّذي لا مُسْتَزادَ فيه، يُقالُ: كَفاكَ الشَّيءُ يَكفيكَ، وقد كَفَى كِفايةً، إذا قامَ بالأَمرِ[4]، واستكفيتُه أَمرًا فكفانيْه، وكفاكَ هذا، أي: حَسْبُكَ[5]، والكُفْيَةُ: القوتُ الكافي، والجَمعُ كُفًى[6]، والمراد بكفاية اللّٰه تعالى في الآية: التَّعريضُ بتفويض الأمر له تعالى، فإنَّهُ كافٍ في الهدايةِ والنَّصرِ.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

ما مِن حقٍّ إلّا ويقابلُه باطلٌ، وما مِن مُصلحٍ صادقٍ إلّا وله أعداء

معنى قولِه تعالى: وكما جعَلْنا لكَ يا محمَّدُ ﷺ أعداءً مِن مُشركي قومِك، كذلك جعَلْنا لكُلِّ الأنبياءِ أعداءً مِنَ الكُفّارِ المُشركين مِن أقوامِهم، يُعارِضونَهم ويُؤذونَهم؛ فاصبِرْ كما صبَرَ أولئك الرسُلُ مِن قَبْلِك، وكفى بربِّك هاديًا يَهديك إلى الحَقِّ وإلى مصالحِ الدّينِ والدُّنيا، وناصِرًا لك على أعدائِك، يدفَعُ عنك كُلَّ مَكروهٍ في أمرِ

(1) الخليل العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 238.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 18.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفى).
(5) الخليل، العين: (كفى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفى).

الدّينِ والدُّنيا؛ فلا تُبالِ بمَن عاداك، واصبِرْ وامضِ لتبليغِ رِسالةِ اللّه إليهم، مُتوكِّلًا عليه سبحانه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا﴾:

عطفٌ على ما ثبتَ مِن هجرِهم للقرآن

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ دالّةٌ على العطف؛ لأنّها مقتضيةٌ الموافقةَ على ثبوت ما قبلَها، ولا شكّ أنّ اتّخاذهمُ القرآنَ مهجورًا أمرٌ ثابتٌ صحيح[2]، ويجوز أن تكون استئنافيّةً[3]، فإنّ هذه الآية وإن كانت متعلّقةً بما قبلها من جهة أنّها تسليةٌ للرّسول ﷺ، فهي جملةٌ مستأنَفَة[4]، فإنّ اللّه تعالى جعلَ لكلّ نبيّ عدوًّا منَ المجرمين، ثمّ يُؤكّدُ سبحانه على كفاية نبيِّه وهدايتِه ونُصرتِه.

بلاغةُ التّعبيرِ بالتّشبيه، وغرضُه:

وجودُ أعداءٍ للأنبياء سُنّةٌ إلهيّةٌ ثابتة؛ لتعزيزِ معاني الصّبر والثّبات

في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا﴾ وردت لفظة (كذلك) المشتملة على الكاف واسم الإشارة، وهو تركيبٌ شائع في الكتاب الحكيم، ولمّا كانتِ الكاف يغلب عليها أنّها للتّشبيه[5]، فإنّ التّعبير بـ(كذلك) مشتمل على التّشبيه من غير حصر المعنى بالتّشبيه؛ فإنّها قد تكون للتّشبيه حقًّا، وقد تأتي بمعنى (مثل)، وتأتي لتحقيق المعنى وتثبيتِه من غير نظر للتّشبيه، وهذا المعنى الأخير هو الوارد في الآية، فـ(كذلك) تُفيد التّحقيقَ وتأكيدَ الجُملةِ[6]، فيكونُ المعنى في هذه الآية: (كما واجهتَ يا محمّدُ ﷺ أعداءً من مشركي قومك،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 445، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 209، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 28.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 233.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 14.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/ 159.
(5) سيبويه، الكتاب: 2/ 171.
(6) أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 163 - 166.

واجهَ كلُّ نبيٍّ من قبلك أعداءً من مُشركي قومِه، فلم تُمَيَّز أنتَ عنهم بهذا الابتلاء)[1]، فوجودُ الأعداءِ في كلّ زمان بُعث فيه نبيٌّ، أو أُرسل فيه رسولٌ، هو تجسيدٌ لسُنَّةٍ إلهيّةٍ ثابتة، ولو جُعلتِ الكاف الدّاخلةُ على الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ للتّشبيه، فإنّ ذلك حاصلٌ لقصد المبالغة في تشبيه جَعْلِ اللّه تعالى لكلّ نبيّ عدوًّا منَ المُجرمين؛ مبالغةً بإيهام عدم وجودِ المَثيل، فالمبالغةُ تَتحَقَّقُ بإيهام أنّ المُشَبَّه لو أراد أن يُشَبِّهَ هذا الأمرَ في غرابته، لَما وجدَ له إلّا أن يُشَبِّهه بنفسه[2].

غرضُ التّعبير باسم الإشارة البعيد (ذلك):

تعظيمُ المُشار إليه، لمُضيّ سُنّةِ اللـهِ بجعل الأعداء للأنبياء

التّعبير باسم الإشارة (ذلك) للبعيد، باشتماله على (ذا) واللّام والكاف[3] في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾، فيه تنبيهٌ على تعظيم المُشار إليه لبَداعته[4]؛ لأنه أمرٌ بديع لم يُسبق إليه، وذلك أنّ الأنبياء جاؤوا لهداية النّاس، وكان منَ الطّبعيّ أن يُؤيّدَهمُ النّاسُ وينصروهم، لكنّ اللّهَ تعالى شاء أن يجعلَهم مُختبَرين بالأعداء ومكابدتهم؛ ليُظهرَ صبرَهم وثباتَهم وإيمانَهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل (جعل)، وإسنادُه لضمير العظمة:

بيّنَ اللهُ وأوضحَ لكلّ نبيّ مَن هُم أعداؤه

التّعبير بفعل الجَعْل في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾، مُؤذِنٌ بمعنى التّبيين والإيضاح، فالحقّ ﷻ قد بيّنَ وأوضحَ أنّ أعداء الأنبياء هم أعداؤه، ولا يُرادُ بفعل الجَعْل ذواتُ أعداءِ الأنبياء، إنّما المُرادُ خَلقُ العَداوة، وخَلْقُ أسبابِها في نفوس أعداء الأنبياء[5]،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 265.
(2) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 19.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 15.
(4) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/ 365.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 15.

وقد أُسنِدَ فِعلُ الجَعْل إلى الضّمير (نا) في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا﴾؛ للدّلالة على عظمة الخالق سبحانه[1]، وأنّه لا يعجزُه شيءٌ.

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿لِكُلِّ﴾:

لكلّ نبيّ عدوٌّ، اختصاصٌ إلهيٌّ، وشمولٌ مُطلَق

تَرِد اللّامُ في لسان العرب دالّةً على المِلك، وهو الغالب على معانيها، ويَقْرُب منه شِبه المِلك والاختصاص[2]، والواردُ مع لفظة (كلّ) في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ من هذا النّوع؛ فهي بمعنى الاختصاص والشّمول في الوقت نفسه، فلم يُرسلِ اللّهُ تعالى نبيًّا واحدًا من غير أن يجعلَ له عدوًّا، فلِجميع الأنبياء عدوٌّ مِنَ المجرمين، يقفون من دعوتهم موقفَ الخِلاف والعِداء، وهذا الاختصاص الرّبّانيُّ هو لابتلاء إيمانه، واختبارِ صبرِه وثباتِه على طريق الحقّ، وليَميزَ الخبيثَ مِنَ الطّيّب[3].

فائدةُ التّوكيدِ بـ(كلّ):

كثرةُ الأنبياءِ الذين جَعَلَ اللّهُ لهم أعداءً؛ تمحيصًا لهم واختبارًا لصبرهم وثَباتِهم

معنى الكلّية في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ الكثرةُ[4]، في إشارة إلى كثرة الأنبياءِ الذين جَعَلَ اللّهُ تعالى لهم أعداءً؛ تمحيصًا لهم واختبارًا لصبرهم وثَباتِهم على الحقّ، ممّا يُعزّزُ منزلتَهم عند اللّه تعالى، ويُضاعفُ أجرَهم، ويحتمل لفظُ (كلّ) أن يكون دالًّا على الشّمول والإطلاق؛ فيدخلُ فيه جميعُ الأنبياء قاطبةً دونَ استثناء، بما في ذلك آدمُ ﵇، فقدِ ابتُلِيَ بعداوة إبليس - لعنَهُ اللّهُ -، فكان سببًا لخروجه من دار النّعيم إلى دار الشّقاء[5].

غرضُ تقديم شبه الجملة ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ على المفعول به ﴿عَدُوّٗا﴾:

قُدِّم شِبهُ الجملة على المفعول به في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 377.
(2) ابن القيّم، إرشاد السّالك: 1/ 448.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 16.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 331.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 84.

﴿عَدُوًّا﴾؛ لتأكيد أهمّيَّة النّبوّةِ، وإبرازِ عَظَمةِ اللّه تعالى، والإشارةِ إلى أنّ العداوة هي نتيجةٌ للنّبوّة.

دلالةُ العدولِ عنِ التّعبير بلفظ (الرّسول) إلى ﴿نَبِيٍّ﴾:

النّـبـوّةُ أعـمُّ مـنَ الـرّسـالـة، والتّعبيرُ بالنّبيّ لإرادة الشّمول

عدلَ النّظمُ الجليل في قوله: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ عن لفظ الرّسول إلى لفظ النّبيّ لإرادة الشّمول؛ لأنّ النّبيَّ أعمُّ من لفظ الرّسول، فهو كلّ مَن أَوْحَى اللّهُ إليه، ولا يكون رسولًا حتّى يرسلَه اللّه إلى النّاس مع النّبوّة، فكلّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا[1].

الغرضُ من تنكير ﴿نَبِيٍّ﴾:

عـداوةُ الأنبياء سـنّـةٌ إلـهـيّـةٌ لـكـل الأنـبـيـاء؛ لاختبار صبرهم وإيمانهم

أوردَ النّظمُ الجليل لفظَ النّبيِّ بالتّنكير، في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾؛ لدلالتِه على العموم والشّمول، ففي هذا التّعبير تأكيدٌ على ابتلاء اللّهِ تعالى للأنبياء جميعًا، بأعداءٍ يختبر بهم صبرَهم وإيمانَهم، ثمّ إنّه تعالى لم يغادِر أحدًا من أعدائهم دونَ عقابٍ عادل على كفرهم وغيّهم[2].

الغرضُ من تنكير ﴿عَدُوًّا﴾:

أشـدُّ أعـداءِ النّبيّ ﷺ هم كـبـارُ المشركين وزعماؤهم

أوردَ النّظمُ الجليل لفظَ العدوّ بالتّنكير في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾؛ لدلالتِه على التّعظيم؛ فإنّ عدوَّ النّبيِّ ﷺ كان عظيمًا في شَرّه وعداوتِه، وهم كبارُ المشركين، كأبي لهبٍ، وأبي جهل، مع لجاجتِهما في العداوة والإحَن، على قربِ صلتِهم نسبًا بالنّبيّ ﷺ[3].

نُكْتَةُ إفرادِ لفظ ﴿عَدُوًّا﴾:

العَداوةُ للأنبياء منشؤها عداوة الدّين

أُفرِدَ لفظُ العدوّ في قوله: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾، مع أنّ أعداء الأنبياء كثيرون، وليسوا عدوًّا واحدًا، والقرآنُ الكريم يستعمل لفظ (عدوّ) إذا كانت العداوةُ مفردةً، أو لسببٍ واحد، فيما يستعمل لفظ (أعداء) إذا كانت هناك عداواتٌ مختلِفة ولأسباب مختلفة، مثل

---

(1) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/ 482.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 634.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5274.

الدّين والأرض والمال[1]، ولمّا كانت العداوةُ للأنبياءِ منشؤها عداوةُ الدّين لا المصالحُ الدّنيويّةُ المُتعدّدة؛ عبّر بلفظ (العدوّ) مفردًا لاتحاد قصد الأعداء وطرائقهم.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾:

أعـداءُ الأنبياءِ مـجـرمـون مُـنـضـوون في زُمرة المجرمين

في قوله تعالى: ﴿عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ يجوز أن تكون ﴿مِّنَ﴾ صِلةً، والمعنى: جعلنا لكلّ نبيٍّ المُجرمين أعداءً[2]، ويجوز أن تكون ﴿مِّنَ﴾ مُبيّنةً للجنس، أي: من جملة المُجرمين، فإنّ الإجرام أعمُّ من عداوة الأنبياء وهو أعظمُها، وإنّما أُريدَ هنا تحقيقُ انضواءِ أعداءِ الأنبياء في زمرة المجرمين؛ لأنّ ذلك أبلغُ في الوصف من أن يُقال: عدوًّا مجرمين[3]؛ فإنّ الحقّ سبحانه "بيَّن أنّ أعداء الأنبياء هم المجرمون، وهم شياطين الإنس والجنّ"[4]، ويجوز أن تكون ﴿مِّنَ﴾ دالّةً على ابتداء الغاية وهو الأكثرُ فيها[5]، أي: أنّ أعداءَ النّبيّ ﷺ ينتمون إلى فئةِ المجرمينَ دون غيرهم[6]، وإنّما جعلَ اللّهُ تعالى هؤلاء الاعداء منَ المجرمينَ؛ لِأنّهم أشدُّ النّاسِ عداوةً للأنبياءِ، يرفضونَ الحقّ ويُحاربونَهُ، ويفسدونَ في الأرضِ ويُضِلّونَ النّاسَ.

معنى (أل) ودلالتُها في ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾:

الـهـاجِـرون للقرآن الكريم داخلون في زمرة المجرمين

(أل) في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ مؤذِنةٌ بالعهد، فإنّ هِجرانَ القرآنِ الكريم، وصَدَّ النّاسِ عنه، من أشدّ الجرائم، ممّا يجعل صفةَ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ تنطبق على فاعلي هذا الفعل، ويُمَثّل هذا الوصفُ تخويفًا عظيمًا، ووعيدًا شديدًا، لكلّ من يهجرُ القرآن الكريم، بأيّ وجهٍ من وجوه الهِجران[7].

(1) محمد الهلاليّ، تفسير القرآن الثّريّ: 19/ 11.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 23.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 18.
(4) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/ 138.
(5) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 419.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 2574.
(7) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 253.

الغرضُ منَ الإظهار بعدَ الإضمار:

تذكيرٌ بقُبحِ الإجرامِ وعذابِه وعاقبتِه

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار، والتّقدير: (جعلنا لكلّ نبيّ عدوًّا منهم)، لكنّ الحقّ ﷻ أراد أن يُظهر صفة الإجرام لأعداء الأنبياء، ممّا يُكمِل قُبْحَ صفاتِهم، ويُؤكِّد خيبتَهم وخسارتَهم في الدّنيا والآخرة.

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَكَفَىٰ﴾:

وعدٌ إلهيٌّ بالهداية والنّصر للأنبياء والمُرسلين، بعد معاناةِ مشقّةِ عداوة المجرمين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ عاطفةٌ[1]، فبعدَ أن بيّن تعالى عداوةَ المُجرمين للأنبياء والمُرسلين، سرَّى عنهم بأن يكفيَهم مشقّةَ عداوةِ المجرمين، من خلال هدايةِ خَلْقِه لدعوتهم، ونَصْرِهم على مَن عاداهم؛ فهو الذي خَلَقَهم، وهو أعلم بهم، وأقدرُ على هدايتهم، وهو الذي أرسل الأنبياء، وهو أقدرُ على نَصْرِهم.

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِرَبِّكَ﴾:

تأكيدٌ على كفاية اللهِ تعالى لرسوله

الباءُ الدّاخلة على لفظِ الرّبّ المُضاف إلى ضميره ﷺ، في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ تأكيدٌ لاتّصال الفاعل بالفعل، وأصلُه: (كفى ربُّكَ في هذه الحالة)، والمعنى: أنّ الله تعالى كافٍ لك في الهداية والنّصر[2].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ الرّبوبيّة وإضافتِها إلى الضّمير العائد للنّبيّ:

وعدٌ إلهيٌّ بالهداية والنّصر مِن حافظِك ومربّيك والقائمِ على شؤونك

التّعبيرُ بلفظ الرّبوبيّة، وإضافتُها إلى ضميره ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾، يدلُّ على وعدٍ كريم للنّبيّ ﷺ بالهداية والنّصر، ممّن يكلَؤُه ويحفظُه ويُربّيه، ويقومُ على أمره وشأنه[3]، فهو المُحسن إلى عباده، المُتفضّلُ عليهم؛ وهذه هي صفة الرَّبِّ، كما أنّ في إضافته إلى ضميره تشريفًا له، وتفخيمًا لشأنه.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 10.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 18.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5274.

نُكْتَةُ تقديم ﴿هَادِيًا﴾ على ﴿وَنَصِيرًا﴾:

هاديًا في مواجهة صدِّ المشركين للنّاس عن القرآن

قدّم النّظمُ الجليل صفةَ الهداية على صفة النّصر في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾؛ لأنّ الهداية أهمُّ منَ النّصر؛ فإنّها تُؤَسِّس للقاعدة التي يُبْنَى عليها النّصر، والمرادُ "أنّ الله تعالى سيهديك إلى الطّريق الذي بمقتضاه تنتصرُ على هؤلاء جميعًا"[1]، فالهداية تُنير دروبَ المؤمنين، وتُرشدُهم إلى الصّراط المستقيم، أمّا النّصر فهو النّتيجةُ الطّبيعيّة لسيرهم على هذا الصّراط، وفي هذا التّقديم ترتيبٌ منطقيٌّ؛ لأنّ الهداية تأتي قبل النّصر منَ النّاحية المنطقيّة؛ ولأنّ الإنسان لا يمكن أن ينتصر إلّا بعد أن يهتديَ إلى الطّريق الصّحيح، فيُشيرُ تقديم (الهادي) إلى أنّ الحقّ ﷻ يُرسل رسلَه وينزلُ كتبَه لهداية النّاس، قبل أن يُرسلهم لقتال الكافرين.

نُكْتَةُ التّعبير بصيغة النّصير في ﴿وَنَصِيرًا﴾:

وعدُ الله تعالى بنُصرة نبيّه مبالغةٌ تؤكِّدُ عَظَمةَ النّصر

التّعبير بلفظ النّصير في الآية من باب المبالغة؛ ذلك أنّ النّصير على زنة (فَعيل)، وهي صيغة من صيَغ المبالغة لاسم الفاعل (ناصر)[2]؛ للإيذان بنصر الله تعالى لنبيّه الكريم ﷺ، وفيه توكيدُ عَظَمةِ النّصر الذي وعدَه تعالى إيّاه، فالنّصيرُ هو المساعِدُ والمُؤيّد، ولفظُ نصير يدلّ على المبالغة في الصّفة، وذلك بأنّه سبحانه سيكون ناصرًا له على أبلغ وجهٍ، وأقوى صورة[3]، وفي هذه المبالغةِ في النّصرة تثبيتٌ للنّبيّ وتقويةٌ لإيمانه، وإيمانِ المؤمنين، وزيادةُ صبرِهم وثباتِهم، وفيه دعوةٌ إلى الصّبر على أذى المجرمين؛ لأنّ الصّبر من صفات المؤمنين، وهو موصِلٌ إلى النّصر في النّهاية؛ ولأنّه يُثبّت إيمانَ المؤمن، ويُظهرُ صِدقَه[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10433.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 110.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 15.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 16.

فائدةُ التّذييل بهَذَين الاسمَين:

الهدايةُ والنّصرُ توأما النّجاحِ في مواجهة المشركين

قَرَن اللّهُ تعالى بينَ الهداية والنّصر في قوله: ﴿هَادِيَا وَنَصِيرًا﴾؛ لأنّ الهداية هي السّبيل لتّحقيق نصرِ المؤمنين على الكافرين، ولتقويّةِ إيمانِهم، وتثبيتِهم على موقفهم، وتوحيدِ صفوفِهم، فقد كان المشركون يصدّون النّاسَ عنِ اتّباع القرآن؛ لتهديده لسلطتِهم ومصالحِهم، ولمخالفتِه معتقداتِهم، ولخوفِهم من هداية النّاس إلى الحقّ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّبيُّ والرّسولُ:

النّبوّةُ أعمُّ منَ الرّسالة، فكلّ رسول نبيٌّ، ولكن ليس كلُّ نبيٍّ رسولًا

النّبيّ: هو إنسان اصطفاه الحقُّ سبحانه لتبليغ رسالته، سواء كانت رسالةً جديدة، أو تأكيدًا لرسالة سابقة، ولا يمكن أن يكون النّبيُّ نبيًّا دون أن يُظْهِر معجزة تُثبت نبوّتَه، والنّبوّة تُضاف في الغالب إلى النّبيّ، فنقول: نبوّةُ النّبيّ، وهي أعمّ منَ الرّسالة.

وأمّا الرّسول: فهو نبيٌّ أرسله اللّهُ تعالى لتبليغ رسالةٍ جديدة لم تُرسل من قبلُ، والرّسالة أخصّ منَ النّبوّة، فكلّ رسول نبيٌّ، ولكن ليس كلّ نبيٍّ رسولًا، وقد يكون الرسولُ رسولًا دون أن يُظْهِر معجزةً، والرّسالةُ تضاف إلى اللّه تعالى؛ لأنّه هو المُرسِل[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 530 - 531.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

طلبُ إنزال القرآن جملةً واحدةً اعتراضٌ من اعتراضاتهم الباطلةِ، ودليلٌ على هجرانهم للقرآن

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيات السّابقة هِجران الكافرين للقرآن، وعداوتَهم للنّبيّين، أعقبَ ذلك بذِكر معاذيرهم وتعلّلاتِهم الفاسدة، إذ طعنوا في القرآن بأنّه نَزَل مُنَجَّمًا، وقالوا: (لو كان من عند اللّه لنَزَل كتابًا جملةً واحدةً)[1]، وهو اعتراضٌ آخَرُ مِن اعتراضاتهم الباطلة، نسقَه مع ما تقدّم منها ليُجابَ عنه، ويُبيّن خطؤهم فيه، كما فعل بما تقدّمه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جُمۡلَةٗ﴾: (جمل) أصلُ الكلمةِ يدلُّ على تجمُّعٍ[3]، والجُملَة: جَماعَةُ الشَّيْءِ، وأَجْمَلَ الشَّيءَ: جَمَعه عَنْ تَفْرِقَةٍ؛ وأَجْمَلَ لَهُ الحِسابَ والكلامَ كذلك[4]، والمراد بالجُملة في الآية: دفعةٌ واحدة من غير تفريق ولا تنجيم[5].

2) ﴿لِنُثَبِّتَ﴾: (ثبت) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، تدلُّ على دَوام الشَّيءِ، ومنه: ثَبْتُ الجَنانِ: ماضٍ في الأمرِ والحَرْبِ، وأَثْبَتَ حُجَّتَهُ: أقامَها، وثَبَتَ القَوْلُ والأمرُ: وضَحَ، ورَجُلٌ ثَبْتٌ، أي: حُجَّةٌ، والثّابِتُ: اللازِمُ الواقِفُ[6]، وحَقيقَةُ الثَّباتِ في الآية: استقرارُ الشَّيءِ في مكانه غيرَ مُتزلزلٍ، ويُستعارُ لليقينِ وللاطمئنانِ بحصولِ الخيرِ لصاحبه[7].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 18.
(2) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 177.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (جمل).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (جمل)، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 11.
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ثبت).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 19.

3) ﴿فُؤَادَكَۖ﴾: الفُؤادُ: القلبُ؛ لِتَفَوُّدِه وتَوقُّدِه، مُذَكَّرٌ لا غَيْرُ، والفُؤادُ أيضًا: العَقْلُ، قالَ تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ [القَصَص: 10]، والجَمعُ أَفئدةٌ، ورَجُلٌ مَفْؤودٌ وفَئِيدٌ: لا فؤادَ لَهُ؛ ولا فِعْلَ لَهُ[1]، والمقصودُ بالفُؤاد في الآية: العَقلُ، وتثبيتُهُ بذلك الإنزالِ: جَعْلُه ثابتًا في ألفاظه ومعانيه، لا يضْطربُ فيه[2].

4) ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ﴾: (رتل) التَّرْتيلُ في القراءة: التَّرسُّلُ فيها والتَّبيينُ مِنْ غيرِ بَغْيٍ[3]، وأمّا التَّرتيل في القُرآن فهو التَّرسل فيه، والمُراد بالتَّرتيل في الآية يَجوزُ فيه أَنْ يكونَ حالةً لنُزولِ القُرآنِ، أي: فرقناه آيةً بعد آية، ويَجوزُ أن يكون أَمرًا من اللّه تعالى بقراءته مُرتَّلًا، أَيْ: بتمهُّلٍ، بأن لا يُعَجَّلَ في قراءته، وذلك بأن تُبَيَّنَ جميعُ الحُروفِ والحَركاتِ بمَهَلٍ[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِن محاسِنِ هذه الشَّريعةِ المطَهَّرةِ أنَّها نزلت بالتَّدريجِ المناسِبِ

يُخبر اللّه تعالى في هذه الآية الكريمة عن تعنُّت الكافرين، ويَذكر اعتراضًا آخَرَ مِن اعتراضاتهم الباطلة، سواءٌ أَكان ذلك المُعتَرِضُ من كفّار قريش - كما ورد عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما - أَم كان طائفةً منَ اليهود، فقد قالوا حين نزل القرآن مُفرَّقًا: (هلّا نزَّل اللّهُ تعالى على محمَّدٍ القُرآنَ دَفعةً واحِدةً، ولم يُنَزِّلْ مُفَرَّقًا؟) فأخبر اللّهُ عن سبب نزولِه مُفرّقًا: أنزلناه كذلك لِنُقوّيَ قلبَكَ به بإعادته وحفظه، وتَزدادَ يقينًا وطُمأنينةً وثَباتًا، وأنزَلْناه مفرَّقًا على تُؤَدةٍ وتَمَهُّلٍ، شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، آياتٍ ثمَّ آياتٍ، وبيَّنّاه تبيينًا[5].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فأد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 99.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رتل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 20.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 445، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 109، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 12.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في صدر الآية:

عـطـفٌ عـلى ما مضى من أقوال الكافرين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عاطفةٌ، فوَصلت هذه الجملةَ من أقوال الكافرين بما كان من أقوالهم من مثله فيما مضى[1]، من لَدُن قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وأشركتها في سلسلة أقوالهم وأطروحاتهم الواهية.

الغرضُ منَ التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

كـفـرُهـم يُـملي عليهم مقالةَ السّوء

عبّر النّظمُ الجليل بالاسم الموصول وصلتِه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾، وهو إظهارٌ في موضع الإضمار، فيه تنبيهٌ على أنّ وصفَ الكُفرِ سببٌ حَمَلَهم على مقالة السّوء هذه[2]؛ فهي كلمة نابعةٌ من كفرهم، وجحودِهم للحقّ، فلو كانوا حقًّا منَ المؤمنين المُخْلِصين، لما اعترضوا على حِكمة اللّه تعالى في إنزال القرآن منجّمًا، والفائدةُ منَ التّعبير بصفة الكفر في جملة الصّلة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لذَمِّهم والإشعارِ بعِلّة الحُكم[3]؛ فإنّهم ما طلبوا إنزالَ القرآنِ جملةً واحدة إلّا لِكُفرهم الواضح، وجحودِهم المُعْلَن؛ لأنّهم لم يؤمنوا بعَظَمة اللّه تعالى وقدرتِه على إنزال القرآن الكريم كيفما يشاء.

بلاغةُ العدولِ عن وصف الإجرام إلى الكفر:

كـفـرُهـم غـطّـى عقولَهم فأنكروا القرآنَ وإعجازَه عداوةً وحسدًا

لَمّا كان الكفرُ معناه السّترُ والتّغطية في اللّغة، والكافرُ مَن غطّى نِعَمَ اللّه وتوحيدَه[4]؛ أوثِرَ التّعبيرُ بصفة الكفر لا الإجرام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنّهم كانوا في مقام حجبٍ للحقّ،

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 255.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 378.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 215.
(4) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/ 118، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفر).

ونُكرانٍ للإعجاز، فكفرُهم دفعَهُم إلى تغطية ما تشهد عقولُهم بصحّته، من أنّ القرآن الكريم كلامٌ مُعجِز بكونه منزّلًا مُفرّقًا، فضلًا عن كونه مجتمعًا، كما حجبوا ما وضح لهم من آثاره الظّاهرة التي تشهد بوحدانيّته وصفاتِه العليّة، وكلّ ذلك كان عداوةً وحَسَدًا[1].

معنى ﴿لَوۡلَا﴾ ودلالتُها:

لـومُ الكافرين على نزول القرآن مُـفـرّقًـا جـهـلٌ وسوءُ معتقَد

الأصلُ في ﴿لَوۡلَا﴾ مع الأفعال أن تكون دالّةً على التّحضيض مع الفعل المضارع، وعلى اللّوم والتّوبيخ مع الفعل الماضي[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾، فاللّومُ متعيّن هنا لعدم حصول المُراد، وحصولِ ضِدّه، والمقصود هنا: لومُ الكافرين على نزول القرآن الكريم مُفرّقًا، وأنّه لو كان من عند اللّه تعالى لنَزَل جملةً واحدة[3]، وهو جهلٌ منهم، وسوءُ ظَنّ، وغَباوةُ مُعتَقَد.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل مضعّفًا ﴿نُزِّلَ﴾:

تلاعبٌ بالألفاظ لاستجلاب السّامع وإقناعِه

جاء التّعبير بالفعل مضعّفًا حكايةً عنهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، وهو تعبير بصيغة التّفعيل المشيرةِ إلى التّدريج والتّقضّي شيئًا فشيئًا؛ لأنّ هذا التّعبيرَ أبلغُ فيما يرومون منِ استجلاب السّامع في أن يُقبل على كلامهم، مقاربةً لُمرادهم[4]؛ لإيهام السّامع بأنّ القرآن الكريم لم ينزل دفعةً واحدةً، بل نزل على فترات متفرّقة، ممّا يُثير الشّكوكَ في حكمة اللّه تعالى وإِعجازِ القرآن، والفعلُ إذا جاء مُضعّفًا زنةَ (فعّل) كان من معانيه الشّائعة الكثرةُ والمبالغة[5]، وورودُ الفعل ﴿نُزِّلَ﴾ هنا على هذه الصّيغة دالٌّ على قوّة الفعل؛ فإنّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 378.
(2) الأزهريّ، موصل الطّلاب، ص: 115.
(3) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 254.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 378، 379.
(5) الرّضي، شرح الشّافية: 1/ 92.

إنزال القرآن جملةً واحدة أقوى من إنزال كلّ نجم منفصلًا[1]، ويجوز أن يكون ﴿نُزِّلَ﴾ مضعّفًا مساويًا لـ(أنزلَ)؛ لأنّهما في التّعدية سواءٌ[2]، مثلما هو الحالُ في (خبّرَ) و(أخبرَ) من غير اعتبارِ دلالةِ التّضعيف على التّدرّج؛ كي لا يتناقض ولا يتدافعَ مع قوله تعالى: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾[3]؛ لأنّ التّفريق ينافي الجُمليّة، ويمكن اعتبارُ استعمالِ ﴿نُزِّلَ﴾ بدلًا من (أنزلَ) مُناسبًا لعِدّة أسباب، منها: إفادةُ تدرّج إنزالِ القرآن الكريم، ووقوعُ النّزول حالًا بعد حال، وموافقتُه مع سياق قولهم: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، وتعريضُهم بالتّهمة التي يُتَّهَم بها القرآنُ عندهم، بأنّه ﴿نُزِّلَ﴾ لا (أنزلَ)، وحكايةُ الصّورة التي نزل عليها القرآن، ثمّ إنكارُها بقولهم: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾[4].

فائدةُ تعديةِ الإنزال بـ(على):

استعلاءُ القرآن الكريم، وملابستُه للرّسول

تعديةُ فعلِ الإنزال بـ(على) في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، تدلُّ على الاستعلاء والتمكُّن للمُنزَّل، وهو القرآن الكريم، على المُنَزَّل عليه، وهو الرّسول ﷺ، فكأنّ الكتابَ الحكيم قد أصبح ملابسًا له، بخلاف (إلى) فإنَّها تدلّ على الانتهاء والوصول[5].

الغرضُ من تقديم شِبه الجملة ﴿عَلَيْهِ﴾ على نائب الفاعل ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾:

اختصاصُ الرّسول بإنزال القرآنِ عليه

قُدِّم شِبهُ الجملة على النّائب عن الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ اهتمامًا بالمُنَزَّل عليه، وهو النّبيّ محمّدٌ ﷺ، ولَمّا كان القولُ بالاهتمام ليس كافيًا؛ فإنّ هذا الاهتمام مُفضٍ إلى الاختصاص والحصر؛ وهو اختصاصُه ﷺ بإنزال القرآنِ الكريم عليه.

---

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 254.

(2) ذكر ابن هشام سبعة أشياء لتعدية الفعل أولها الهمزة، وخامسها: تضعيف العين، يُنظر: مغني اللّبيب، ص: 678، وما بعدها.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 85.

(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 17.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 168.

معنى (أل) ودلالتُها في ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾:

دلالــةُ لـفـظِ الـقــرآن على الجمع لا يقتضي إنـزالَــه جملةً واحدةً

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ دالّةٌ على الجنس؛ لأنهم أشاروا إلى هذا اللّفظ كونه يقتضي الجمعَ من جهة اللّفظ؛ لأنّ الأصل فيه الجمعُ والاجتماع، والقرآن سُمّي كذلك لجمعه الأحكامَ والقَصَص[1]؛ ولأنّهم "لا يكادون يسمحون بتسمية القرآن تنزيلًا، فضلًا عن أن يُسنِدوا إنزالَه إلى الله ﷻ"[2]، فما دام القرآن دالًّا على الجمع، طلبوا أن يكون إنزالُه جملةً واحدة، وهو ظنّ فاسدٌ، ورأيٌ عقيم.

سِرُّ تقييدِ الفعل بقوله: ﴿جُمۡلَةٗ﴾:

طـلـبـوا قـرآنًـا متـألّفَ الأجـزاء ذا كـيـان واحـد عـلامـةً عـلى كفرهم

التعبير بكلمة ﴿جُمۡلَةٗ﴾ أفاد معنى تأليف الأجزاء المتفرّقة[3]، وجَعْلِها كيانًا واحدًا، ومطلبُ الكافرين الواردة في عبارة: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ دالٌّ على جهلهم وكفرهم، وتماديهم في غيّهم، فهم إنّما طلبوا إنزالَ القرآن جملةً واحدة مُتشبّهين في ذلك باليهود والنّصارى، بزعمهم أنّ التّوراة والإنجيل والزّبور إنّما أُنزلت جملةً واحدة، فهلّا نزل القرآنُ مثلَها؟ فقد استدلّوا بنزوله منجّمًا على أنّه ليس من عند الله؛ استدلالًا منهم بأنّ من سنّته سبحانه إنزالَ الكُتبِ من عنده جملةً واحدة كالكتب السّماويّة السّالفة[4]، وهو طلبٌ يُظهر جهلَهم بحِكمة الله تعالى[5].

سِرُّ التّقييدِ بالصّفة ﴿وَٰحِدَةٗۚ﴾:

حـجّـةٌ مـن الكافرين لتأكيد تـوهُّـمِـهـم أنّ الرّسول هو من يُرتِّبُ القرآنَ

التّعبير بلفظ ﴿وَٰحِدَةٗۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾؛ لإفادة التّوكيد، أي: من أوّله إلى آخره مرّةً واحدةً،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرى).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 378.
(3) الجرجانيّ، شرح الدّرر في تفسير الآي والسّور: 3/ 1312.
(4) النّخجواني، الفواتح الإلهيّة: 2/ 27.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 457.

وهي محاولةٌ لتأكيد توهُّمِهم أنّ النّبيَّ ﷺ هو الذي يُرتّب القرآنَ بنفسه، وأنّه ليس من عند الله تعالى[1].

بلاغةُ المتشابِهِ اللّفظيِّ:

هناك تشابهٌ لفظيٌّ بين قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: 106]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾، ففي الآيتين إشارةٌ إلى إنزال القرآن مُفرّقًا، إلّا أنّ الاختلاف هو في بيان حِكمة ذلك، فإنّ تفريقَه في الآية الأولى لعِلّة قراءته على مُكْث ومَهَل وبُطء؛ لتَثْبُتَ ألفاظُه ومعانيه في نفوس السّامعين[2]، أمّا في الآية الثّانية فذكر عِلّةُ تفريقِه للرّدّ على من اعترض على ذلك التّفريق، وتلك الحِكمةُ "هي إيناسُ النّبيّ ﷺ، وتثبيتُ قلبِه على الدّعوة، باستمرار الوحي نازلًا بالقرآن لا ينقطع"[3].

بلاغةُ التّشبيهِ في ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ﴾:

التّعبيرُ بـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ المشتملةِ على كاف التّشبيه واسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ لتوكيد المعنى وتحقيقه[4]، فيكون المعنى في هذه الآية جوابًا محقّقًا لإنكارهم، أي: نعم "أنزلناه كذلك متفرّقًا؛ لأنّ معنى ما قالوا: لمَ نُزِّل عليه متفرّقًا؟ فقيل: إنّما أنزلناه كذلك لنُثبّت به فؤادَكَ"[5].

الغرضُ منَ التّعبير باسم الإشارةِ البعيدِ (ذلك):

التّعبيرُ باسم الإشارة للبعيد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فيه إيماءٌ إلى عَظَمة الحقّ ﷻ، على تقدير تعظيم شأن التنزيل مفرّقًا كأنّه قيل لهم:

حِكمةُ تنزيلِ القرآن الكريم مُفرّقًا بين التّمهّل في قراءته وتثبيتِ فؤاد النّبيّ ﷺ

جوابٌ مُحقّقٌ لسؤال المُشكّكين في إنزال القرآن مُفرّقًا

إشارةٌ إلى عظمة الحقّ ﷻ وإعجازِ كتابِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 378.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 231.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5276.
(4) أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 163 - 166.
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 320.

(ولماذا ينزل جملةً واحدةً، وها هو التّفريقُ يشتملُ على فوائدَ جمّةٍ جليلة[1] تُظهرُ عَظَمةَ قُدْرَة اللّه تعالى، وإحكامَ حِكمته ﷻ؟).

الموقعُ البيانيُّ لجملة ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ﴾:

ردٌّ على طعنهم، وجـوابٌ على اعـتراضـهـم، وإثباتٌ لحكمة اللـه تـعالى في ذلك

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ جملةٌ مستأنَفَةٌ؛ لأنّ ما سبق من كلامهم، والقولُ هنا منسوبٌ إلى الحقّ سبحانه[2]، فهو ردٌّ على طعنهم، وجوابٌ عن قولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾، والمعنى: (أنزلناه ذلك الإنزالَ المُنَجَّمَ الذي جَهلوا حِكْمَتَه)، وما أرادوه مِن طلبهم أن ينزل القرآنُ جملةً واحدةً، وأنكروا حِكْمَتَه تعالى في تنزيله مُفرّقًا[3].

معنى اللّام في ﴿لِنُثَبِّتَ﴾:

التّنزيلُ المُتدرِّج للقرآن رحمةٌ مِنَ الله، وتثبيتٌ لقلب رسول الله

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ دالّةٌ على التّعليل[4]، والمعنى: فرّقنا القرآنَ على أوقاتٍ تعليلًا، فاللّام هنا لامُ العِلّة[5]، أي: لتثبيت فؤادِ الرّسولِ ﷺ، وجعلِه صابرًا على ما يواجِهُه من أذًى ومكايدَ من قومه.

دلالةُ التّعبيرِ بالتّثبيت مادّةً وصيغةً:

مبالغةٌ في تثبيت قـلـبِ الـنّـبـيّ واستقرارِه

الفعل في قوله: ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ صيغةُ التّفعيلِ فيه دالّةٌ على التّكثير والمبالغة[6]، والتّثبيت: أن تجعل الشّيء ثابتًا مُستقرًّا، ومنه الثّباتُ بمعنى أن يستقرَّ الشّيءُ في مكانه من غير حركةٍ أو زوال[7]، فكذلكَ الوصفُ في أنّه تعالى يُنزّل القرآنَ الكريم على مراحلَ متفرّقةٍ؛ لتقويةِ قلبِ النّبيّ ﷺ؛ مبالغةً في تثبيت قلبِه ﷺ، واستقرارِه بما لا مثيلَ له.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 379.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 268.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 19.
(4) ابن مالك، شرح التّسهيل: 3/ 149.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 104.
(6) الرّضيّ، شرح الشّافية: 1/ 92.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 19.

سِرُّ إضافةِ التّثبيت إلى ضمير العَظَمة:

تنويهٌ بشأن هذا النّبيّ، واهتمامٌ بفعل التّثبيت

الضّميرُ في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ راجعٌ إلى الحقّ ﷻ، أي: نحن نثبّت، وهو دالٌّ على التّعظيم، وفي هذه الإضافة تنويهٌ بشأن هذا النّبيّ ﷺ، واهتمامٌ بفعل التّثبيت، فإذا ما عُلِم أنّ الفاعل هو الله تعالى، حصلَ يقينٌ بحصول تثبيتٍ عظيم لفؤاده ﷺ.

بلاغةُ التّعبيرِ بالاستعارة في تثبيت الفؤاد:

اطمئنانُ القلبِ ويقينُه كشيءٍ ثابتٍ في مكانه

في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ استعارةٌ بديعة، تُشَبِّهُ اطمئنانَ القلبِ ويقينَه بحصول الخير لصاحبه بثبات الشّيء في مكانه، فهو تشبيهُ المعقول بالمحسوس[1]، فكما أنّ الشّيء الذي لا يكون ثابتًا في مكانه يكون مضطربًا، كذلك فإنّ النّفس التي لا تكون ثابتةً على اليقين، تكون مضطربةً قَلِقَةً.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع في فعل التّثبيت:

تثبيتٌ مُتَجدِّدٌ لقلب النّبيّ في رحلة الدّعوة

عبّر النّظمُ الجليل بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾؛ للدّلالة على الاستمرار والتّجدّد؛ فإنّ الرّسول ﷺ سيتعرّضُ لكثير من عَنَتِ الكفّار واستهزائهم، وسيكونُ في مواقفَ محرجةٍ منَ التّعذيب والتّنكيل والسُّخرية، فهو في كلّ ذلك أحوجُ ما يكون للتّثبيت والتّسلية المُتجدِّدين[2].

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِهِۦ﴾:

نـزولُ القـرآنِ مُنجّمًا لتثبيت فؤادِ النّبيّ ﷺ

الباء في ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ دالَّةٌ على الإلصاق للدلالة على الامتزاج بالقرآن أو السببيّة المسوقة للتعليل؛ فالحقّ ﷻ قد أنزل القرآنَ الكريم على تلك الصّفة من كونه مرتّلًا منجّمًا؛ ليثبّتَ فؤادَ النّبيّ ﷺ، "أي: نقوّيه به على القيام بأعباء الرّسالة، والنّهوض لنشر الحقّ بين قادة الجهالة"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 19.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8797.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 427.

الغرضُ من تقديم شِبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

تثبيتُ فؤادِ النّبيّ غايةُ نزولِ القرآن الكريم مُفرّقًا

قُدِّم الجارُّ والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾؛ للدّلالة على الأهمّيّة والاهتمام بتثبيت فؤادِ النّبيّ ﷺ، فكأنّ الحقّ سبحانه يُؤكّد على أنّ تثبيت فؤادِ النّبيِّ هو الغاية الكبرى من نزول القرآن الكريم مُفرّقًا.

فائدةُ التّعبيرِ بالفؤاد وإضافتِه إلى ضميره ﷺ:

تثبيتُ القلبِ الرّقيق بالقرآن الكريم، إظهارٌ لرحمة الله وعَظَمةِ كلامه

لَمّا كان الفؤادُ بهذا التّعبير من ألطف الأعضاء، وأرقِّها في البدن، وأنّه يتألّمُ ويتأثّر بأدنى شيء وأقلّ أذًى[1]؛ عبَّر به مضافًا إلى ضميره ﷺ: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾، أي: لنُقوّي قلبَكَ، فمهما ضَعُفْتَ أدركتَ أنّ اللّه تعالى معك؛ "لأنّه كلّما نُزِّلَ عليه شيءٌ منَ القرآن ازدادَ طمأنينةً وثباتًا، وخصوصًا عند ورود أسباب القَلَقِ"[2].

بلاغةُ العدولِ من خطابِهم إلى خطاب الرّسول:

إعلامٌ بحِكمتِه تعالى، وتثبيتٌ لقلب نبيّه، وامتنانٌ عليه

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ تحوّلٌ من خطابهم إلى خطاب الرّسول ﷺ؛ لإعلامه بحِكمة تنزيلِ القرآن الكريم على فتراتٍ مُتفرّقةٍ، وتطميناً لقلبه، وتثبيتًا لإيمانه، وتيسيرًا عليه، وهو من باب الإنعام والامتنان[3].

دلالةُ جملةِ التّثبيت والحكمةُ منها:

تنزيلُ القرآنِ الكريم على أزمانٍ مُتفرّقةٍ حكمةٌ إلهيّةٌ، تُعزّزُ الفهمَ وتثبّتُ الإيمانَ

لجملة ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ دلالةٌ بالغة، وحِكمةٌ عظيمةٌ، وهي تثبيتُ فؤادِ النّبيّ ﷺ، وعِبَرٌ أُخرى؛ منها: أن يُقَوّي بتفريقه فؤادَ الرّسول ﷺ حتّى يفهمَه، ويسهلَ عليه حِفْظُه؛ لأنّه إن كان سماعُه بالتّفاريق، كان أسهلَ حفظًا من كونه جملةً واحدة، لا سيّما إن كان الكلامُ على عدّة أنواع وأجناس[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 247.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 582.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 19.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 24.

ومن تلك العِبر أيضًا أنّ تنزيلَه على تلك الهيئة وتحدّيَهم أن يأتوا بمثل تلك التّفاريق حالَ نزولِها، هو أولجُ في الإعجاز، وأبينُ للحُجّة من نزوله كاملًا؛ فإنّهم ما استطاعوا أن يأتوا بنجمٍ واحد من نجومه، فكان من عجزهم ما كان، فلاذوا بالمُناصَبة، وفَزِعوا إلى المحاربة، وقَرْعِ السِّنانِ على قولِ اللّسان[1].

وفي التّنزيل منجّمًا فوائدُ جَمّةٌ غيرُ ما ذُكر، منه: الإغاثةُ بتَردُّدِ الرّسلِ بين اللّه وبين رسوله، وتخفيفُ الأحكام على المسلمين بأن تكون متدرّجةً، وورِدَ النّاسخُ والمنسوخُ، وهو ما يتنافى مع نزوله جملةً واحدةً[2].

والتّنزيلُ المُنَجّمُ يُظْهِر مطابقةَ الآياتِ لمقتضى الحال، ومناسبتَها للمَقام في كثير من آياته، وهو من تمام الإعجاز وكمالِه، فضلًا عن سهولة الفهم، ومضاعفة التّدبُّر[3].

ويجوز أن يكون إنزالُه على تلكم الصّورة تعريضًا بالمُنكرين، أي: أنّه يُظهر ضعفَهم وعجزَهم عنِ الإتيان بمثله، بأن يُحْضِروا سورةً واحدةً من سوره، أو نَجْمًا فردًا من نُجومه، أو آياتٍ من آياته، إذ كانوا يعتقدون أنّ نزولَه مُفرّقًا دليلٌ على ضَعْفِه، وهو غايةُ التّبكيت لهم، وإزاحة الشّكوك التي تُحيط بإعجازه[4].

معنى الواو في قوله: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ﴾:

ترتيلٌ يُضفي على الإنزال رَونقًا وإعجازًا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ﴾ عاطفةٌ على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: أنزلناه منجّمًا ورتّلناه[5]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ التّرتيل هو صفةٌ ملازِمةٌ، وأنّه لا ينفكّ عنه أبدًا، فكما أُنزِل منجّمًا؛ فقد تمّ ترتيلُه بشكلٍ مُحْكَم دقيق، يُظهِر إعجازَه وبلاغتَه.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 278.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 379.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 20.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 97.
(5) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 255، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 20.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ﴾، مادّةً وصيغةً:

كلامٌ مُرتَّلٌ منسَّقٌ، حَسَنُ التّأليفِ، بيّنُ الدّلالة

قولُه تعالى: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ﴾ منَ الفعل (رتّلَ) زِنة (فعّل) الدّالِّ على المبالغة[1]، وهو وصفٌ لحُسنِ التّأليفِ في الكلام، ووضوحِ الدّلالة فيه[2]، فكلماتُ القرآنِ مُرتّبةٌ بشكل مُحْكَم دقيق، يُضفي عليها جمالًا وروعةً، ولترتيل القرآن معنًى آخَرُ هو التّفريق؛ فقد فرَّقَهُ الحقُّ سبحانه إنزالًا في نيّف وعشرين سنةً، فالتّرتيلُ تعبيرٌ عنِ الحالة التي عليها القرآن عند نزولِه متفرّقًا في ألفاظه ومعانيه، غيرَ مُتراكِم، ينزل شيئًا فشيئًا، حتّى إذا كَمُلَت سورةٌ ألفيتَها كأنّها قطعةٌ واحدة، فكأنّ اللّه تعالى يُخاطب البشرَ مؤكّدًا لهم أنّ القرآن الكريم ليس من كلام البشر، بل هو من عنده ﷻ، وذلك لأنّ كلام البشر إذا تمّ تأليفه على أزمنة متباعدة، فإنّه يصبحُ مُفكّكًا وغيرَ متناسقٍ[3].

سِرُّ إضافةِ التّرتيل إلى ضمير العَظَمة:

عَظَمةُ القرآنِ الكريم، وأَهمّيّتُه في حياة المؤمن

أُضيفَ فعلُ التّرتيلِ إلى الضّمير العائد عليه سبحانه بقوله: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ﴾؛ للإشارة إلى عَظَمة القرآنِ الكريم، وأَهمّيَّته في حياة المؤمن، وفيه إشارةٌ إلى أنّ اللّه تعالى أراد وقدّر تنزيلَ القرآنِ الكريم مُرتّلًا على النّبيّ ﷺ.

سِرُّ تقييدِ الفعل بـ ﴿تَرۡتِيلٗا﴾، مع تنكيره:

التّعظيمُ والتّفخيمُ لنزول القرآنِ مُرتّلًا

المفعولُ المُطلقُ في قوله تعالى: ﴿تَرۡتِيلٗا﴾ وإن كان مفردًا لفظًا، فإنّه لتبْيين النّوع؛ لأنّه على معنى التّعظيم بمَدعاة تنكيره[4]، والمعنى: كذلك نزّلناهُ ورتلناهُ ترتيلًا بديعًا لا يُقادَرُ قَدْرُه[5]، وهذا من بلاغة القرآن وإعجازه، وقد يكون المصدرُ المنصوب ﴿تَرۡتِيلٗا﴾ مُؤكِّدًا

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 72.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 20.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 20.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 20.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 216.

لفعل التّرتيل، والتّرتيلُ هو قراءة القرآن الكريم على نسقٍ مُصَوِّرٍ للمعاني الجليلةِ في التّلاوة، وهو ليس مُجرّدَ قراءةٍ، بل هو منهجٌ متّبعٌ في قراءة القرآن الكريم في زمن النّبيّ ﷺ، وأنّه قدِ انتقل منه إلى الصّحابة، ثمّ إلى التّابعين، حتّى وصل إلينا متواترًا، فالقرآنُ الكريم ليس متواترًا بلفظه حسب، بل بلفظه وترتيله[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الفؤادُ والقلبُ:

الـفـؤادُ مستقرُّ الإيمان وتثبيتُه طريقُ النّجاة

الفؤادُ: هو باطنُ القلب، ومكمنُ المشاعر والأحاسيس، ومستقرُّ الإيمان، أمّا القلب: فيُشير إلى العُضو العضليِّ في صدر الإنسان، وهو اسمٌ للجارحة، وسُمّيَ بذلك لأنّه وُضع في موضعه من الجوف مقلوبًا[2].

فاختيارُ لفظِ الفؤاد في قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ بدلًا منَ القلب، يُضفي على الآية الكريمة نغمةً مؤثِّرةً؛ فالتّثبيتُ المقصود في الآية الكريمة هو تثبيتُ مشاعرِ النّبيّ ﷺ وأحاسيسِه، وإعطائِه القوّةَ والثّباتَ في إيمانه.

التّرتيلُ والقراءةُ:

تــلاوةٌ بـتـأنٍّ وتـعـلـيـمٌ بـتروٍ هـديُ القرآن في نُزوله مفرّقًا

التّرتيلُ: منَ الرَّتَل، وهو اتّساق الشّيء وانتظامُه على استقامة، ورتّلْتُ الكلامَ ترتيلًا، أي: تمهّلْتُ فيهِ وأَحْسنْتُ تأليفَه، وهوَ يترتّل في كلامه ويَترسّل، والتَّرْتيلُ: إرسالُ الكلمة منَ الفَمِ بسهولة واستقامةٍ، وهو في القُرْآن: التّرسُّل فيه، والتّبيينُ بغير بغي[3]، فمعنى ترتيلِ القرآن: قراءتُه بتأنٍّ وتروٍّ وتفهّم، مع مراعاة أحكام التّجويد.

وأمّا القراءة: فهي ضمُّ الحروفِ والكلماتِ بعضِها إلى بعض في التّرتيل، ويدلّ ذلك على أنّه لا يُقال للحرف الواحد إذا تفوّه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5276.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 433.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (رتل).

به قراءةٌ، وقرأت الشّيءَ قُرآنًا: جمعتُه وضممتُ بعضَه إلى بعض، وقرأتُ الكتابَ قراءةً وقرآنًا، ومنه سُمّي القرآن؛ لأنّه يَجمع السّوَرَ فيضمّها[1].

فإيرادُ فعلِ التّرتيل هنا مناسبٌ أيَّما مناسبة؛ لسياقِ ما نزلت فيه الآية، فإنّها نازلةٌ في أنّ هذا القرآن قد نزل مُفرَّقًا على مَهلٍ لحِكم ربانيّةٍ كثيرةٍ، أي: أنزلنا عليكَ القرآنَ الكريم مُفرّقًا على مُدّة منَ الزّمن، لكي تتأمّلَ في آياته، وتتفهّمَ معانيَه، وتُعَلِّمَه للنّاس.

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (قرأ).

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾

[الفرقان: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دَحضٌ مُفحِمٌ للأضاليلِ، ورسالةُ طُمأنينةٍ للرّسول

لمّا استقصَى البيان القرآني أكثرَ معاذيرِهم وتعلّلاتِهم واعتراضاتِهم، وأبطَلَ شبهاتِهم وأضاليلَهم، وألقَمَهم أحجارَ الرّدِّ إلى لهَواتِهم؛ عطفَ على ذلك فذلَكةً جامعةً تَعُمّ ما تَقدّم وما عسى أن يأتوا به منَ الشّكوكِ والتّمويه، بأنّ كلّ ذلك مدحوضٌ بالحُجّة الواضحة الكاشفة لتُرَّهاتِهم، وأنّ القرآنَ الكريمَ سيظلّ سلاحًا قاطعًا ضِدَّ باطلهم، يدمغُه ويُظهرُ زيفَه، ليُطَمئِنَ قلبَ نبيّه ﷺ ويُثَبِّتَه، ووعدًا له بالنّصرِ والتّأييدِ الدّائم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمَثَلٍ﴾: (مثل) مناظَرةُ الشّيء، وجمعُه: أمثال، ومعنى المَثَل: "شِبهُ الشّيءِ في المِثال والقَدْر ونحوه، حتّى في المعنى، ويُقال: ما لهذا مثيلٌ، والمِثال: ما جُعِلَ مِقدارًا لغيره، وجمعُه: مُثُل"[2]، والمَثَل يأتي بمعنى الحديث والخبَر، وضَرْبُ المَثَلِ: جَعْلُه يسير في البلاد، من قولك: ضرَبَ في الأرض: إذا سار فيها[3]، ومعنى المَثَل في الآية: أنّهم يطرَحون عليكَ أسئلةً غريبةً، كأنّها اختبارٌ لنُبوّتِك، محاولينَ بذلك إثباتَ بُطلانِها، والقَدْحَ فيها[4].

2) ﴿تَفۡسِيرًا﴾: (فسر) معناه البيان والتّفصيل، والفَسْر: كَشْفُ المُغَطّى، ومن معانيه المتعلّقة باللّفظ: أن يَكْشِفَ عنِ الألفاظ

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 259، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.

(2) الخليل، العين: (مثل).

(3) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والعسكريُّ، الوجوه والنّظائر: (مثل).

(4) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 4/ 124.

المُشكِلة وبيانها، والتّفسيرُ قد يُقال فيما يَختصّ بمُفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يختصّ بالتّأويل، وأيّة ترجمةٍ عن حال شيءٍ يُسَمّى تفسيرًا له[1]، ومعناه المِحوريّ: أن تَكْشِفَ ما في أثناء الشّيء بصَفائِه وشفافيّته، ويُعَدّ التّفسيرُ بمنزلة كشفٍ لخفايا النّصّ، حيثُ يُظهِر معانيَهُ وُضوحًا، ويُزيلُ عنهُ الغُموضَ؛ فهو لا يَقتصِر على بيان المعاني المباشِرة للعبارات فحسب؛ بل يشمل أيضًا كشفَ أسرارِها ودَلالاتِها العميقة[2]، ومعنى التّفسير الموصوفِ بالحُسْنِ في الآية: أنْ نُؤْتِيَكَ مِنَ البيان والكشف أحْسَنَه بما يُزيلُ إشكالَهم، وما يَحِقّ لكَ في حِكْمَتنا[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تأييدٌ ربانيٌّ للرّسولِ الكريمِ، ودَحْضٌ مُفحِمٌ لشُبُهاتِ أهلِ الكفرِ الباطلةِ

أيْ: لا تلتفتْ أيُّها الرّسولُ الكريمُ إلى مُقترَحاتِ المشركين وأباطيلهم، وبَلِّغ ما أنزلناه إليكَ، فإنّهم لا يأتونك بكلامٍ عجيبٍ هو مَثَلٌ في البُطلانِ والتّهافتِ والفسادِ، يريدون به القدْحَ والطّعنَ في نُبوَّتِكَ، وصدقِ الكتاب الّذي جِئْتَ به، إلّا جئناكَ في مُقابلته بالجوابِ الحَقِّ الثّابتِ الصّادقِ، والبيانِ الواضحِ، والقَولِ الفَصْلِ الّذي يُثبت صِحّة الإسلام، ويَدْحَض شُبُهاتِهم الباطلةَ، وبما هو أحسنُ تفسيرًا وبيانًا من مَثَلِهم وشُبهاتِهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودَلالتُها في صَدْرِ الآية:

المواصَلةُ في دَحْضِ أباطيلِ المُشركين ومُغالطاتِهم وتضليلِهم

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يجوز أن تكون استئنافيَّة[5]، ويجوز أن تكون عاطفةً على ما سَبَقها من اعتراضِهم

(1) الهرويّ، كتاب الغريبيْن في القرآن والحديث، والرّاغب، المُفرَدات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فسر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسر).
(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 7/ 25.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 216، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 12، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 194.
(5) الدّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 483.

بقوله تعالى: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]؛ لأنّ التّقدير: قد بَطَل ما أَتَوا به منِ الاعتراض في إبطال أمرك من خِلال حُجَجٍ واهيةٍ، يُخيِّلون بها للضّعفاء أنّها قويّةٌ مُقنِعةٌ، ويَبذُلون جَهدًا كبيرًا في تنميقِ هذه الحُجج وتحسينِها وتدقيقِها، حتّى تصبحَ في نظرهم غايةَ الحُسْنِ والرّشاقةِ لفظًا ومعنًى[1]، فقد عطَفتِ الواوُ على ذلك، فذلكةً جامعةً تعمُّ ما تقدّم، وما يُمكِن أن يأتوا به في المستقبَل من شُكوكٍ، أوِ ادّعاءاتٍ كاذبةٍ، فكلّ ذلك مدحوضٌ بما جاء به من حُجَجٍ واضحة، تكشِف تُرّهاتِهم وكَذِبَهم وتناقضَهم[2]، فالآية موصولةٌ عطفًا على ما سبقها من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: 32]، فإنّ من عِلَل إنزاله مُفرّقًا تثبيت فؤاد الرّسول ﷺ، ثمّ عَطَف عليها عِلّةً أخرى لإنزاله مُفرّقًا، وهو أنّ الحقّ ﷻ يَرُدّ في كلّ مَرّةٍ على شُبُهاتِ المشركين، بما يَضربونه مِن أمثالٍ لإبطالِ أمرِ الرّسولِ، والقَدْحِ في القرآنِ، فهذه عِلّةٌ أُخرى لجهةِ إنزالِهِ مُفرّقًا[3].

معنى (لا) ودلالتُها في ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ﴾:

تثبيتُ الرّسولِ ﷺ، وتيئيسُ الكافرين

استعَملَ النّظمُ الكريمُ (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾؛ لأنّها تنفي المضارعَ في الاستقبالِ، وهو المُلائمُ لتثبيتِ الرّسولِ ﷺ، وتيئيسِ الكافرين، على العكسِ من (ما) فإنّها تنفي المضارعَ في الحالِ، فما تُخلِصُ الفعلَ المضارعَ للحالِ، ولا تُخلِصُه للاستقبالِ، وعلى ذلك الأكثرون[4].

دلالةُ التّعبيرِ بالإتيانِ مادّةً وصيغةً:

غالِبُ حالِ الإتيانِ إذا استُعمِل مجازًا أن يدلَّ على ما يَسوءُ ويُكرَه

جاء بفعلِ الإتيانِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾؛ لأنّ غالب حالِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 381.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.
(3) الإيجيّ، جامع البيان: 3/ 155.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 222.

إذا استُعمِل مجازًا دلّ على ما يسوءُ ويُكرَه، وجاء به مُضارِعًا ليشملَ ما كان في الزّمنِ الحاضرِ و"ما عسى أن يأتوا به مُستقبلًا من هذا النّوعِ؛ كقولهم: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: 92]"[1].

عَودُ الضّمائرِ في ﴿يَأۡتُونَكَ﴾ ودلالتُها:

لا يأتونَ بمَثَلٍ إلّا رُدِعَ بالحقِّ في تحدٍّ إلهيٍّ يُخرِسُ ألسِنةَ المُشركين

الواو في قولِه تعالى: ﴿يَأۡتُونَكَ﴾ ضميرٌ يعود على المُشركين[2]، أمّا الكافُ فضميرٌ يعودُ على الرّسول ﷺ في إشارة إلى أنّ المشركينَ لا يأتونَ بمَثَلٍ يضربونه لكَ في مخاصمتِكَ وإبطالِ أمرِك؛ إلّا جئناكَ بالحَقّ الصّريحِ الّذي تَردُّ به كيدَهم، وأحسنَ تفسيرًا من مَثَلِهم[3]؛ لأنَّه يُزيلُ كلَّ شُبهةٍ، ويَردُّ كلَّ كيد.

فائدةُ تَعديةِ فعلِ الإتيانِ بنفسِهِ:

قَصْدُ المشركين إفحامُ النّبيّ ﷺ وإثباتُ تفوّقِهم عليه

القياسُ في فِعل الإتيان أن يكونَ مُتعدّيًا بالحرفِ؛ فيُقال: يأتون إليك، إلّا أنّه جعله مُتعدّيًا بنفسه في قوله تعالى: ﴿يَأۡتُونَكَ﴾، فعدّاه إلى ضمير الرّسول محمّد ﷺ؛ لإفادة أنّ قصدَ المشركين من إتيانهم بالأمثال هو إفحامُ النّبيّ ﷺ، وإثباتُ تفوّقِهم عليه[4].

معنى الباءِ ودلالتُها في ﴿بِمَثَلٍ﴾:

الباء في قولِه تعالى: ﴿بِمَثَلٍ﴾ دالّةٌ على المُصاحَبة والمُلابَسة[5]، فهُم قد أَتَوا بما فيه معارَضةُ القرآن من أمثالهم، ومالوا إليها، ولابَسوا أحوالَها، وأصابَهم العُجْبُ منها؛ فرَدّ اللّهُ عليهم.

الغرضُ من تنكيرِ (مَثَل):

تعميمٌ لكلّ مَثَلٍ من أمثالِهم المتُقدّمةِ

أوردَ لفظُ المَثلِ مُنكّرًا في قولِه تعالى: ﴿بِمَثَلٍ﴾؛ لإفادة التّعميم؛ لأنّه واردٌ في سياق النّفي؛ فالنّكرة في سياق النّفي تَعُمّ أفرادَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 340.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 320.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.
(5) وهو من معاني الباء المُشتهَرة في لسان العرب، ينظر: ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 140.

جنسِها[1]، والتّقدير: بكلّ نوعِ مَثَلٍ ضربَه لكَ المشركون، ممّا تقدّم من أمثالهم؛ كقولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ [الفرقان: 4]، وقولِهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: 5]، وقولِهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: 21]، وقولِهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]، وغير ذلك[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بالمَجازِ في قولِه: ﴿يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾:

إبطالُ تشبيهاتِهم الفاسدةِ دَحْضٌ قاطعٌ لخطأ فهْمِ الرّسالةِ الإلَهيّةِ

فِعلُ الإتيانِ في أصلِه يدلّ على الحضورِ، لكنّه استعملَه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ بمعنى الإظهار مجازًا، فهو نفيٌ أن يأتوا بشَبَهٍ لحالٍ من أحوالِك، قاصِدين إظهارَ أنّ حالَكَ بعيدُ الشَّبَهِ عن حال رسولٍ مُرسَلٍ منَ اللّه تعالى، وغرضُهم: نفيُ النّبوّة عنك؛ فأبطلَ الحقّ سبحانه ما أورَدوه من تشبيهاتٍ، وأثبتَ لهم أنّ رسالةَ اللّهِ تعالى لا تتطلّبُ الشّروطَ الّتي زعموها، ولا تُلازِمُها[3].

دلالةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّآ﴾:

استثناءٌ من أحوالٍ عامّةٍ تقتضيهِ عمومُ الأمثالِ

﴿إِلَّآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا جِئۡنَٰكَ﴾ مُقتضيةٌ معنى الاستثناء، كما هو حالُها في كلام العرب[4]، وهو استثناءٌ مِن أحوالٍ عامَّةٍ؛ لاتِّصاف الأمثالِ الّتي ضربوها بالعموم؛ ولِاندِراج المَثَل في سياق النَّكِرَة فيعمّ، وعمومُ الأشخاصِ يستلزمُ ضرورةً عمومَ الأحوالِ[5]، والاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا جِئۡنَٰكَ﴾ دالٌّ على التّفريغ، ومُؤْذِنٌ بالمُسارَعة إلى إبطالِ ما أتَوا به؛ تثبيتًا لفؤادِه ﷺ[6]، فكأنّه قال: لا يأتونك بمَثَلٍ إلّا عاجلْناهم بردِّه، وأجودَ بيانًا وكشفًا لما كان من شُبُهاتِهم الباطلةِ.

---

(1) ابن عقيل، المُساعِد على تسهيلِ الفوائد: 3/ 240.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 21.
(4) سيبويه، الكتاب: 2/ 309.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 22.
(6) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 421.

بلاغةُ التّعبيرِ بالقَصْرِ، ونوعُهُ، وغرضُهُ:

مَجيءُ الحقّ إبطالٌ لأمثلتهم؛ فهم مَحجوجون في الأحوالِ جميعًا

التّعبيرُ بالنَّفي والاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فائدتُه القَصر، وهو قَصرٌ إضافيّ؛ فإنّهم لم يأتوا بمَثَلٍ أو سؤالٍ تَعنُّت إلّا كان الجوابُ عنه أن نأتيَهم بالحَقّ فيدمغَهُ، فإنّه قد يأتي الحقُّ في غير هذا الموضع، إلّا أنَّه لعِظَم مُرۡتكبِهم، كأنّه جعل مجيءَ الحقِّ مقصورًا عليه؛ فهم "محجوجون في كلّ أوانٍ، مدفوعٌ قولُهم بكلّ وجهٍ، وعلى كلِّ حالةٍ"(1).

سِرّ العدولِ عنِ الإتيانِ إلى المجيءِ:

الإتيانُ نذيرُ سوءٍ، والمَجيءُ بشارةُ خيرٍ

لَمّا ذُكِر فِعلُ المشركين عُبِّر عنه بالإتيان بقولِه: ﴿يَأۡتُونَكَ﴾، ثمّ ذُكِر فِعلُ الحقِّ سبحانه، فعُبِّر عنه بالمَجيءِ بقوله: ﴿جِئۡنَٰكَ﴾، فغايرَ بينهما لسببَيۡن؛ الأوّل: هو التَّفنُّنُ في الكلام، والثّاني: أنّ استعمال فِعلِ الإتيان بطريق المَجازِ يَكۡثُر دوَرانُه فيما يَسوء ويُكرَه، كالوعيد ونحوه، خِلافًا لفعل المَجيءِ؛ فإنّ مَجازَه مُستعمَلٌ في وصول الخير والوعد والنّصر، وما عَظُم منَ الأشياءِ(2).

غرضُ إسنادِ المَجيءِ إلى ضميرِ العَظَمة:

إظهارُ عَظَمةِ اللهِ وقُدرتِه على الإتيانِ بالحقّ

إسنادُ فعلِ المَجيءِ إلى ضمير العَظَمة (نا) في قوله: ﴿جِئۡنَٰكَ﴾؛ للدّلالة على عظمته سبحانه، وأنّه تعالى هو القادر على كلّ شيءٍ، وأنّه لا يُمكن لأحدٍ أن يُعجِزه، وأنّه هو المُنزِّل للقرآن الكريم، وأنّه هو القادر على تفسيرِه، وتوضيحِ معانيه، والإتيانِ بالحقّ المُبين.

بلاغةُ التّعبيرِ بالمَجازِ في مجيءِ الحقِّ:

حضورُ الحقّ يُزلزِلُ شُبُهاتِ المُشركينَ

التّعبير بالمَجيءِ بالحقّ في قولِه تعالى: ﴿جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ من باب المَجاز، فإنّه تعالى مُنزَّه عنِ الحوادِث، لكنّه لَمّا كان الحقّ لا يمكن أن يكون جائيًا بنفسه، جيءَ به، وأراد أن يُصَوِّر المَشهدَ المتُحرّكَ من

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 86.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 22 - 23.

المجيء تصويرًا فريدًا؛ ليَشعرَ السّامعُ أبلغَ شعور، فكأنّ اللّهَ تعالى قد جاء بالحقّ لرَدّ شُبُهاتِهم، ولِقَلْع عُروقِ أسئلتِهم الشّنيعة من جُذورها، يجوز في معنى المَجيء في الآية أن يكون دالًّا على الظّهور والبيان؛ فلا يعارضونَكَ بشيءٍ "إلّا أظهَرْنا فيكَ ما يكشِفُ عن بُطلان ما أَتَوا به"[1]، فالمُراد من قوله تعالى: ﴿جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾: أظهرناه لكَ في المَوضعِ والحالِ الَّذي كان من إتيانِهمُ الأمثالَ القادحةَ في نُبوّتِك، المُعارِضةَ لرسالتِكَ.

معنى الباءِ ودلالتُها في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

قَدِمنا إليكَ مُتلبّسين بالحقّ تَجليةً له على وجهِ التّوكيدِ

أُدخِل حرفُ الباء على لفظِ الحقِّ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ على معنى المُلابَسة[2]؛ كنايةً عن حصول ذلك المَجيءِ تحقيقًا وتوكيدًا، ويجوز أن تكون الباءُ دالّةً على معنى (مِنْ) الَّتي تُفيد التّبعيض؛ والمعنى: (لا يأتي إليك يا محمّد ﷺ هؤلاءِ المُشرِكون بأيِّ مَثَلٍ يضربونه لك؛ ليَحْتجّوا به عليكِ، إلّا ونَرُدّ عليهم مِنَ الحقّ - أي: مِنَ القرآن الكريم - ما يُبطِل ما جاؤوا به، ويَدحَضُ حُجَجَهم)[3].

معنى (أل) في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

كمالٌ ثابتٌ يَفضَحُ زَيفَ شُبُهاتِ المُبطِلين

(أل) في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ دالّةٌ على الكمالِ، وهو من معانيها[4]، وهو الحقيقةُ الثّابتةُ الَّتي لا تقبل الشّكَّ، أو التّكذيبَ، فلا أثبتَ منه، فيُرهق خُصومَه، وما أَتَوا به من شبهاتٍ وأضاليلَ، ويفضحُهم، ويُخْجِل قائلَهم وسامِعَهم[5].

غرضُ الحذفِ في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

إبطالٌ قاطِعٌ لكلِّ شُبهةٍ بجوابٍ مُحِقٍّ

في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مجازٌ بالحَذف، فالحقُّ صفةٌ لموصوفٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 17.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 16.
(3) مكّي القيسيّ، الهداية: 8/ 5217.
(4) (أل) الكماليّة الَّتي تُفيد استغراق جميعِ خصائص الأفراد تجوُّزًا، مُبالَغةً في المَدح والذّمّ، يُنظر: فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 116.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 381.

محذوفٍ، ففي الجملة إبطالُ شُبُهات المشركين، وكشفُ زيفها؛ وذلك بأن يَرُدّ على أمثالِهم بالجواب الحقّ الثّابت، إنحاءً عليه بالإبطال، وحسمًا لمادَّة القيل والقال[1].

بلاغةُ المُقابَلة:

إذا جاء الحقُّ زهَقَ الباطلُ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ مُقابَلةٌ لطيفة[2] بين إتيانهم بالمَثَل، ومجيئِه بالحقِّ سبحانه، فكلُّ نبيٍّ إذا قال له قومُه قولًا؛ كان هو الَّذي يَرُدُّ عليهم، ويَدحضُ حُجَجَهم، أمّا الرّسول الكريم محمّد ﷺ فكان إذا قال له المشركون شيئًا، فإنّ اللّه تعالى هو الَّذي يتكفَّل بالرّدّ عليهم[3]، وقابَلَ بين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، وهو مجيءٌ مَجازيٌّ، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ في إشارةٍ إلى أنّ ما يأتي به هؤلاءِ المشركون أمرٌ واضحُ البُطلان[4]، وأنّ نور الحقّ مُنتصِرٌ عليه لا محالةَ.

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَحۡسَنَ﴾:

مهما جاؤوا من مَثَلٍ أتيناك بأفضلَ ممّا جاؤوا حقًّا وتفسيرًا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ دالّةٌ على العطف؛ لأنّه لَمّا كان التّقدير في الأصل: بأحقّ منه، عُطف عليه[5]؛ ليأتيَ بالأفضلَيْن: أفضليَّةِ الحقّ، وأفضليَّة الحُسْن في التّفسير، فالحقُّ هو الأصل، وهو الَّذي يُبطل شبهةَ المشركين، والتّفسيرُ الحَسَنُ يُزيل كلَّ شبهةٍ، ويوضِّح كلَّ معنًى.

بلاغةُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

التّفضيلُ يُفضي إلى وجهٍ منَ الحقيقة وهو مُنتفٍ عنهم

التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ دالّ في الأصل على التّفضيل،

---

(1) أبو السّعود، إرشادُ العقل السّليم: 6/ 216.

(2) المُقابَلة: وضع المعاني توفيقًا بين المتَّفِق منها والمختلِف، فتُقابِل كلًّا بمِثله، يُنظر: الرّاغب، أفانين البلاغة، ص: 177.

(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 538.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 22.

(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 381.

على تقدير: (بأحقّ منه)[1]، وآيةُ ذلك أنّه عُطِف عليه تفضيلٌ مثلُه، وهو قوله: ﴿وَأَحۡسَنَ﴾، فكأنّ الحقّ ﷻ يقول: ولا يأتون بمَثلٍ إلّا جئناك بما هو أحقُّ وأفضلُ من أيّ شيءٍ آخر ممّا أتوا، وإنّما عَبّر بالحقّ؛ لئَلّا يُفْهَم أنّ ما يأتون به هو وجهٌ في الحقيقة[2]، لِما في صيغة التّفضيل من توافُر المعنى والمَضمون في المُفضَّلِ والمُفضَّلِ عليه، مع تفاوُتِ المَنزلةِ.

دلالةُ التّعبير بـ﴿وَأَحۡسَنَ﴾ مادّةً وصيغةً:

بـيـانٌ مـبـينٌ وظـهـورٌ جـليٌّ لكلامِ اللهِ تعالى

التّعبيرُ بصيغةِ التّفضيل (أفعَل) في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾؛ لأجْلِ ما فيه منَ المَزيَّة في البيانِ؛ وهو إيضاحُ المُراد منَ الكلام، وإزالةُ اللّبس عنه، والظّهورُ؛ وهو وضوح المعنى وعدمُ خفائِه؛ لأنّ التّفسير هو الكشف عمّا يدلُّ عليه الكلام[3]، وكونُه (أحسَن) في قولِه تعالى: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾؛ لأنّه حقيقٌ في الاستدلالِ، فالتّفضيل خارجٌ عن بابه؛ فليس لهم تفسير للحقيقة حتّى يكون القرآنُ أحسنَ منه[4]، لكنّه سيقَ مَساقَ المُبالَغة؛ لأنّ حجّتهم لا تشتمل على أدنى حُسْنٍ[5]، والتّعبيرُ بالتّفضيل قد يوهِم ذلك، ويجوز أن يكون التّفضيل في قوله: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ قائمًا على حقيقته، بأنْ يكون المُراد منه إيهامَ النّاس ببَهْرجة سَفْسَطتِهم وشُبَهِهم؛ فيكون التّفسير والكشف عنِ الحقّ هنا أحسنَ وقعًا في نفوسِ السّامعين من مغالطاتهم[6]، واستَعمل لفظة التّفسير بصيغة التّنكيرِ؛ لِما يُفيده التّنكيرُ منَ التّعظيم؛ والمعنى: أنّ الحقّ ﷻ يريد أن يُعظّم شأنَ التّفسير الَّذي يُقدّمه للرّسول ﷺ في مُحاجَجة المشركين، فهو نورٌ وهدًى للمؤمنين.

---

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 8/ 25.

(2) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 13/ 381.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 457.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5277.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 23.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 23.

سِرُّ التّقييدِ بالتّمييز: ﴿تَفۡسِيرًا﴾:

تفسيرُ الحقِّ سبحانه لا يعدِلُه تفسيرٌ

التّفسير في قولِه تعالى: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ واقعٌ موقعَ النّصب على التّمييز، ومعناه: تفسيرًا أفضلَ من تفسيرهم، وتفصيلًا أجودَ من تفصيلهم، وحُذِف حرفُ الجرّ (مِن) للعِلْم به، فعُلِم أنّ المُراد هو المفاضَلةُ بين تفسيرِ اللّه تعالى، وتفسيرِ المُشركين، ويُشير استعمالُ التّفسير هنا إلى كشف المعنى الحقيقيّ لِما ضربوه مثلًا؛ فغَطّى على الفَهم بسبب ذلك الّذي خَيَّلوا به، وادّعوا أنّهم أوضحوا به وجهًا من وجوه المَطاعِن في الدّين، فجزمَ أكثرُ السّامعين بحُسْنه[1]؛ لأنّه كشفَ لهم عنِ الحقيقة الَّتي أخفاها المشركون بتفسيراتهم الخاطئةِ الضّالّةِ.

بلاغةُ التّعبيرِ بالمَجازِ في قولِه: ﴿تَفۡسِيرًا﴾:

وضْعُ السّببِ - وهو التّفسير - موضِعَ المُسبَّب؛ وهو المعنى والمُؤدَّى

التّعبيرُ بالتّفسيرِ من باب المَجازِ المُرسَلِ[2] بوضع السّببِ موضعَ المُسبَّب؛ لأنّ معنى التّفسير هو الكشفُ والبيان، وهو سبب ظهور المعنى، لكنّه وُضِع موضعَ المعنى والمُؤدَّى؛ أيْ: أحسن معنًى وأجود مُؤدًّى من سؤالهم؛ فهو مَجاز؛ لأنّ المُرادَ هو المعنى والمُؤدّى، لا الكشفُ عنه، فضلًا عمّا فيه منَ المُبالَغة والإيجاز[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَجيءُ والإتيانُ:

إتيانُهم بالمَثَل لمُعارَضة الدّين والقرآنِ سهلٌ يسيرٌ؛ لأنّه من غير حُجّة ولا دليل

الإتيان في اللّغة: هو المَجيء بسهولة، أمّا المَجيء فيَدلّ على الحصول والتّحقُّق[4]، ولَمّا كان هذا هو الفرق بين الإتيان والمَجيء؛ عبّر بالإتيان للإشعار بأنّ إتيانَهم بالمَثَل لمُعارَضة الدّين والقرآن سهلٌ يَسيرٌ عندهم، وأنّه ليس بينهم وبين إطلاقه إلّا ألسنتُهم من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 381.
(2) "وهو ما كانت العلاقة بين ما استُعمِل فيه وما وُضع له مُلابِسةً غيرَ التّشبيه"، يُنظر: الصّعيديّ، بُغية الإيضاح: 3/ 462 - 463.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 229.
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (أتى).

غير حُجّةٍ ولا دليلٍ، فإنّهم لا يتورّعون عنِ ارتكاب المعاصي دونَ أيِّ رادعٍ من ضميرٍ أو إيمانٍ، أمّا مجيئُه تعالى بالحقّ؛ فإنّه مُتحقِّق الحصول لا محالةَ.

التّفسيرُ والتّأويلُ:

التّفسيرُ: كشفُ المُغلَقِ مِنَ المُرادِ بلفظِه، والتّأويلُ: جمعٌ لمعانٍ مُشكِلةٍ بلفظٍ واضحٍ

التّفسيرُ في اللّغةِ راجع إلى معنى الإظهار والكشْف، والفَسْر: الإبانة وكشفُ المُغطّى، كالتّفسير، وقد فسَرْت الشَّيء أَفْسِرُهُ فسْرًا[1]، قال الرّاغب: "الفَسْر: إظهارُ المعنى المعقول، والتّفسير في المبالَغة كالفَسْر، والتّفسير قد يُقال فيما يَختصّ بمُفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يَختصّ بالتَّأويل"[2]، فالتّفسير: كشْف المُغلَق منَ المُراد بلفظه، وإطلاقٌ للمحتبِس عنِ الفهم به[3].

والتّأويل: من "أول"؛ ويدلُّ على معنى الرّجوع، وهي ترجع إلى أصليْن: ابتداءُ الأمر، وانتهاؤه، وآلَ يؤول؛ أيْ: رجع، وأَوَّل الشّيءَ إلى أهلِه؛ أيْ: أَرْجَعه وردَّه إليهم، وأَوَّلَ الكلامَ وتَأوَّله: دَبَّره وقَدَّره وفَسَّره، فالتَّأويل: تفعيل مِن أَوَّل يُؤَوِّل تأْويلًا؛ أيْ: تفسير ما يَؤول إليه الشّيءُ، وأُلْتُ الشّيءَ أؤوّله: إذا جمعتَه وأَصلحتَه، وأَوَّلَ اللّهُ عليك أمركَ؛ أيْ: جَمَعَه؛ فكأنَّ التّأْويلَ هو جمعٌ لمعانٍ مُشكِلةٍ بلفظٍ واضحٍ لا إشكالَ فيه[4].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، الجوهريّ، الصّحاح: (فسر).

(2) الرّاغب، المُفرَدات: (فسر).

(3) الزّركشيّ، البرهان: 2/ 147.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أول).

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾ [الفرقان: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

جزاءُ الظّالمين دارُ الشّقاء، فإنّ أحقَرَ الخَلق مَنْ ينتقِص من رسول الحقّ

لَمّا أثبتتِ الآياتُ السّابقةُ أنّ المشركين مُعانِدون لربّهم، ويحاولون بسؤالاتِهم إضلالَ نبيِّه ﷺ واحتقارَ مكانتِه، وهَدْرَ منزلتِه، ممّا يدلّ على ظُلمهم وعَمَى بَصَرِهِم وبصيرتِهم عن الحقّ؛ استأنفَ الإخبارَ عنهم في هذه الآية بأنَّهم سيُجمعون مقهورين، مقلوبين على وجوهِهِم، أو مَسحوبين إلى نارِ جهنّم، بسبب كُفرِهم وعنادهم[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحۡشَرُونَ﴾: (حشر) أصلُ الحَشْرِ الجمعُ، وكلُّ جمعٍ حَشْرٌ، ولكنْ مع السَّوْقِ والبعث والانبعاثِ، وإذا جمعتَ القومَ من كلِّ ناحية فقد حشرتَهم، ومَوضِعُ الحشر يُسمّى مَحْشرًا، ويكون حشرُ النّاس يومَ القيامة بنَشرِهم من قُبورِهم، وسَوْقِهم إلى المَوقِفِ وجمعِهم فيه، يقولُ الحقُّ سبحانَه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: 47]؛ فالحَشْر: سَوْقٌ مِنَ المَقارِّ، ويَزيد عليه الجمعُ؛ وهو التّضامّ في المكان المحشور عليه، وسُمّي يومُ القيامة يومَ الحَشْرِ[2].

2) ﴿شَرّٞ﴾: (شرر): الشّرّ: هو الشّيءُ الّذي يَرغب عنه الجميعُ وينحاز؛ فهو الأمر المكروه، ومن معانيه: المَعابةُ، والضُّرّ، وعدمُ مَلاءَمة الشّيءِ للطّبع[3]، والأصلُ في هذا اللّفظ: استعمالُه في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 381 - 382، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 195.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤَصَّل: (حشر).
(3) الرّاغب، المُفرَدات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤَصَّل: (شرر).

التّفضيل، فحُذِفت همزتُه لأنّه على تقدير: (أشَرّ)[1]، ومعنى الشَّرِّ في الآية: أسوأُ خَلْقِ اللّهِ، وأكثرُهم شَرًّا[2].

3) ﴿مَّكَانٗا﴾: (مكن) المكان: موضعُ الإنسانِ وغيرِه، ويُعرف أيضًا بأنّه المَوضِع الحاوي للشّيء، فهو مأواه ومسكنُه، ويدور معنى الكلمةِ مِحوريًّا حولَ رسوخِ الشّيءِ مُتجمِّعًا في باطنٍ يَلتئم عليه[3]، ومعنى المكان الأشَرّ في الآية؛ أيِ: المَنزل الوضيع، والمَصير المحتوم[4].

4) ﴿وَأَضَلُّ﴾: (ضلل): الضَّلال: الغيبوبة والخفاء والسَّتر، يُقال: ضَلَّ الماءُ في اللَّبن، إذا غاب، والضَّلال أيضًا: الانحرافُ والمَيل عنِ الطَّريق، يُقال: ضلَّ فلانٌ يَضلُّ ضلالًا: إذا انحرف وضاع، ولم يهتدِ إلى الطَّريق، وضللتُ الشَّيءِ أَضِلُّه: إذا جعلتَه في مكانٍ ولم تَدْرِ أَينَ هو[5]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصود بقوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ في الآية؛ أي: الطّريق الموصِل إلى الهاوية، وهو الطّريقُ إلى النّار[6].

5) ﴿سَبِيلٗا﴾: (سبل): وقد ورد كثيرًا في القرآن الكريم، والغالِب في معانيه أنّه بمعنى الطّريق[7]، وقد يَرِد بمعنى الهدايةِ والإيمان، والمُراد من قوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ في الآية أنّهم ابتعَدوا عنِ الحقّ، واتّبعوا الباطل؛ فكانوا أخطأَ طريقًا من سواهم؛ وذلك بمَدعاة كُفرِهم[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حَـشْـرٌ على الوجوه إلى النّار إلى شَـرِّ المنازل وأسوأِ المَصائِرِ

وعيدٌ منَ الحقّ ﷻ يُحَذِّر فيه الكافرين من عذابٍ أليمٍ يومَ

(1) أبو الفداء، الكُنّاش: 1/ 340.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 340.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (مكن).
(4) الخازن، لُبابُ التّأويل: 3/ 314.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن عبَّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(6) ابن أبي زَمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 3/ 260.
(7) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سبل).
(8) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 661.

القيامة، فسيُحشرون سَيرًا إلى النّار على وجوهِهم، مُذَلَّلين وخَزايا؛ فإنّ الَّذي أمشاهُم على أقدامهم قادرٌ أن يُمشيَهم على وجوهِهم حقيقةً، وقد يُراد بالمشي على الوجوه الاستعارةُ للذِّلَّة والخِزي والهوان[1]؛ فيَؤول أمرُهم إلى أكثر المنازل والأمكنة سوءًا وهَوانًا، وأَشَدِّها ضلالًا في الدّين والخروج عن طريق المؤمنين.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

انتقامُ اللهِ من أهلِ الشِّركِ، ومحاسبتُهم على أفعالِهم وضلالاتهم

فُصِلَت الآيةُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها استئنافٌ ابتدائيٌّ، بادئةٌ بسياقٍ مُستقلٍّ، وفيها تسليةٌ لرسول الله ﷺ بمواجَهة الصّعوبات والتّحدّيات في تبليغ رسالة ربّه، فأخبرَه المولى سبحانه بأنّه سيَنصُره، وفيها تحذيرٌ للمشركين من عذابه تعالى، وإخبارُهم بأنّهم سيُحاسَبون على أفعالهم، ولِذَمّ المشركين على ضلالهم وكفرهم[2]، ويجوز أن تكون الآيةُ مفصولةً عمّا قبلَها؛ لأنّه استئنافٌ بيانيٌّ، فإنّه تعالى لمّا سلّى رسولَه بقوله: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾؛ أورَدَ في نفس الرّسول سؤالًا عمّا يُجيبُهم به، وما يكون من قوله لهم، فإنّ مقصودَهم تحقيرُ مكانِه وتضليلُ سبيلِه؛ فكان أن أجابهم بالآية[3].

غرضُ التّعبير بالاسمِ الموصولِ وصِلته:

الإشعارُ بعِلّةِ بناءِ الخَبَرِ على الصّلةِ

استُعمِل الاسمُ الموصول وصلتُه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾؛ للإشعار بعِلّة بناء الخبر على الصّلة؛ فكونُهم ﴿شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ عِلّةٌ لحَشْرهم على وجوهِهم في نار جهنّم، فما أصابَهمُ العذابُ والشَّرُّ إلّا بما قدّمت أيديهم، فهُم أحِقّاء بذلك

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 210.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 23.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 231.

المكان[1]، وكلّ مَن يكون على هذه الصّفة الذّميمة يُحشر على وجهه، ويدخلُ ضمن هذه الفئةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿يُحۡشَرُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

وجوهٌ مُقلَّبَةٌ وظُلمةٌ مُطبِقةٌ وعذابٌ أبديٌّ جزاءً وفاقًا

عُبِّر عن مصير المُشركين الضّالّين بأنّهم سوف ﴿يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ مُهانين، مع تغييرِ هيئتِهم جزاءً وفاقًا؛ فتُجسِّد هذه الصّورةُ انعكاسَ أعمالِهم في الدّنيا على حالهم في الآخرة، فكأنّهم قد عاشوا حياتَهم مُنغمسين في الذّنوب والضّلال، فحُرموا من بصيرة الهدى والتّصرّف الحقِّ، بمُصاحَبة الشّياطين الَّتي تَؤُزُّهم وتُحرِّكهم على الشّرّ، فليس لهم اليوم إلّا حسابٌ عادلٌ؛ لأنّ الآخرة مِرآةُ أعمال الإنسان في الدّنيا الَّتي يَزرَع فيها؛ فيحصدُ ما زرع[2]، وفي التّعبير بصيغة المضارع تصويرٌ لحالهم كأنّه مُشاهَدٌ حيٌّ.

سِرُّ وضعِ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَر:

شَرُّ الأمكنةِ وضلالُ السُّبُل ثابتٌ للذين كفروا لا ينفكّون عنه

في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار على تقدير (هُم يُحشَرون)، فيعود الضّمير على الَّذين كفروا القائلين: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾، وفائدةُ ذلك أنّ مضمون الصّلة وهو ﴿شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ ثابتٌ لأصحاب الضّمير، وأنّهم لا ينفكّون عنه أبدًا؛ وليَبْنِيَ على الصّلة موقعَ اسم الإشارة، فيكون التّقدير: (ولا يأتونك بمَثَلٍ إلّا جئناكَ بالحَقِّ وأحسَنَ تفسيرًا، هم شرٌّ مكانًا وأضلُّ سبيلًا، ونحشُرهم على وجوهِهم إلى جهنَّم)[3]..

بلاغةُ التّضمينِ في تَعديَةِ الحَشْرِ بحَرفِ الاستعلاءِ:

حَشْرُ الكافرينَ على وجوهِهم قدرةٌ إلَهيّةٌ، ودلالةٌ على ذُلِّهم

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ عدَّى الحشرَ بحرفِ الاستعلاءِ، ومعنى الحشر في اللّغة: جمعُ النّاس من أماكن

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 261.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 382.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 23.

متفرّقة مُتباينة نحو مكانٍ واحد، وهو صعيدُ يومِ القيامة، وذلك يَستدعي منهم المشيَ على أقدامهم؛ لذلك يتعدّى بـ﴿عَلَىٰ﴾[1]، فلمّا كان حالُهم حاصلًا على الوجوه ضمَّنه المَشْيَ؛ فعُدّي فعلُ الحشرِ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾، وآيةُ ذلك: أنّ النّاسَ قد فهموا ذلك، وتساءلوا عن كيفيّة مَشيِهم على وجوهِهم، فأجابهم بقدرته تعالى على ذلك[2].

بلاغةُ الوعيدِ لهم من خلالِ الجمعِ بينَ التّشويهِ والتّعذيبِ:

جـزاءٌ مناسبٌ فـي حـشـرِ الكافرين على الوجوهِ، جمعًا بـينَ التّشويهِ والتّعذيبِ

التّعبيرُ بالحَشْرِ على الوجوهِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ وعيدٌ شديدٌ للكافرين؛ قصْدًا إلى الجمع بين تشويهِ الوجوه، وتعذيبِ النّفوس والأجساد، فالوجهُ أرقّ تحمُّلًا لصلابة الأرض منَ الأرجُل، لكنّهم لَمّا روَّجوا الضّلالةَ في صورةِ الحقّ، وأعرضوا عن دعوة الحقِّ، كان ذلك العذابُ جزاءً مناسِبًا لجُرمهم ذاك أنْ جعلَ وجوهَهم محلَّ أرجلِهم يمشون بها[3].

بلاغةُ التّمثيلِ في الحَشْرِ على الوجوهِ:

يُساقون إلى مصيرِهم كارهينَ مُعرضين مُتلفِّعينَ بالذّلِّ والهوانِ

قولُه تعالى: ﴿يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ تركيبٌ بديع مُعجِز، يَحتمِل عدّة دلالاتٍ؛ فيُمكِنُ أن يكون كنايةً عن حالةٍ معنويّةٍ وهي الذّلُّ والهَوان، والحشرُ على الوجوه مُؤْذِن بتوجُّههم نحو السُّفل، فهم مُنكِّسو الرّؤوسِ، وهذا التّعبير استعارةٌ تمثيليّة لتوصيف حالةِ الكافرين يومَ القيامة، فهم سيُحشرون على وجوههم؛ دلالةً على الإفراط في ذُلّهم وهوانهم[4]، وإنّما يُحشرون على هذه الحالة؛ لأنّ قلوبَهم كانت مائلةً في الدّنيا نحو السُّفليّات، بأن اتّبعوا شهواتِهم وأهواءَهم، ومالوا نحو الدّنيا وزخارفِها ومَلذّاتها[5]، فالجزاءُ من جنس العمل.

(1) حرفٌ يُفيد الاستعلاء في أصل وضعِه، يُنظر: العُكبَريّ، اللّباب في علل البناء والإعراب: 1/ 359.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 217.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 217.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 210.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 14/ 91.

ولمّا كان من حالهم أنّهم كانوا في الدّنيا يرفعون رؤوسهم عنِ السّجود للّه تعالى كِبرًا منهم، وامتناعًا عن عبادة اللّه تعالى؛ أذلّ الحقُّ سبحانه تلك الوجوه، ونكّسها يومَ القيامة[1].

ويجوز أن يكونَ التّمثيلُ بالحشر على الوجوه مُرادًا به عدمُ الاهتداءِ؛ كتعبيرهم في مَن يمشي على وجهه أنّه لا يدري أين يذهب[2]، كذلك فإنّ الكافرين يومَ القيامة يُحشَرون على وجوههم تائهين ضالّين لا يدرون أين ينتهون.

لمّا شاحوا بوجوههم عن الحق نُكسوا عليها في نار الحق

ويجوزُ أن يكون الحشرُ على الوُجوهِ يومَ القيامة دالًّا على الإسراع بهم إلى جهنّم مصيرِهم؛ فالعربُ تقول لَمَن كان هذا حالَه: قَدِمَ القومُ على وجوههم؛ حالةَ إسراعهم في المجيء[3]، والإسراعُ تعجيلُ العذابِ لهم بمَدعاةِ ما كان منهم من كُفر وضلال، ويجوز أن يكون تعريضًا بأنّ المحشورين على وجوههم هم الَّذين يأتون بالأمثال تكذيبًا للنّبيّ ﷺ، وإذا كان قَصدُهم مع ذلك الانتقاصَ من شأنه ﷺ ذُكِّروا بأنّ مآلَهم شَرُّ مكانٍ، وطريقَهم أضلُّ سبيلٍ دونَ النّبيِّ ﷺ[4].

نُكتَةُ فصْلِ قولِه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾:

تسليةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ وإعلاءٌ لقَدْرِه

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جملةٌ مستأنَفَةٌ؛ تسليةٌ لرسول اللّه ﷺ، فقد كان الكافرون يُؤْذونَهُ بأقوالهم وأفعالهم، ويحاولون التّقليلَ من شأنه أمامَ النّاس؛ فجاءت هذه الجملةُ لتُؤَكِّدَ عَظَمَةَ رسولِ اللّه ﷺ، وأنّهم مَهْما جاؤوا بصفةٍ تَحُطّ من شأنه إلّا أعطاه الحقُّ تعالى منَ الأحوال والرِّفعة ما هو أفضلُ كشفًا، فلا تبالِ بهم، فإنّهم محشورون على وجوههم ذُلًّا وإهانةً، فهم شَرٌّ مكانًا وأضلُّ سبيلًا[5].

---

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 262.
(2) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 2/ 815.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 333.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 23 - 24.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 232.

المحشورونَ على وُجوهِهم جديرون بمُستقرِّ السّوءِ وضلالِ السّبيل

غرَضُ الإشارةِ بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المُشارِ به إلى البعيدِ:

أورد اسمُ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مُسنَدًا إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ للتّنبيه على أنّ المُشارَ إليهم جديرون بالمكان الأشَرِّ، والسّبيلِ الأضلّ؛ مِن أجل ما ذُكِر من صفاتهم وأحوالهم الَّتي سبقت؛ كقولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32][1]، وجاء التّعبيرُ بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الدّالِّ على اسم الإشارة للبعيد[2]؛ لاقترانِه بأداة البُعدِ؛ تحقيرًا لشأنهم، وإشعارًا بأنّهم في حالةٍ منَ البُعد والنَّأيِ مِنَ اللّه تعالى في أنّهم محشورون في جهنّم على وجوههم، ممّا يُضفي عليهم شعورًا بالبُعدِ والبُغْضِ[3].

المبالَغةُ في وصفِ شِدّةِ شَرِّ مكانِ الكافرين

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿شَرٌّ﴾ مادّةً وصيغةً:

التّعبيرُ بـ﴿شَرٌّ﴾ بمعنى (أشرّ) هو لفظُ تفضيلٍ حُذِفت همزتُه[4]، واستعمالُه هنا لإرادةِ المبالغةِ في وصفِ شِدّة شرِّ مكانِ الكافرين، فمكانُهم في النّارِ هو أسوأُ مكانٍ على الإطلاق، فالتّفضيل مُتوجِّه إلى الموصوفين بشرِّ المكان؛ فهؤلاء شَرٌّ مكانًا من هؤلاء الموصوفين، فليس التّفضيلُ مُتوجِّهًا لمكان المؤمنين؛ إذ ليس في مكانِ المؤمنين من شَرٍّ[5]، و﴿شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ خبرٌ وتمييزٌ للمبتدأ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[6]، "وجُعِل الشَّرُّ للمكان، وهو لأهله؛ لعدم اللَّبسِ، ولضَرْبٍ مِنَ المبالغة"[7]، فكأنّه يقول: هذا المكان كلُّه شَرٌّ، ولا يوجد فيه أيُّ خيرٍ.

قَصْرُ قلبٍ للمُبالَغةِ بتنزيلِهم منزلَةَ مَن انحصر الشَّرُّ والضَّلالُ فيهم

بلاغةُ القَصْرِ:

تعريفُ طَرَفي الإسناد وهما: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ﴾ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 24.
(2) الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 1/ 146.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 383.
(4) السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 4/ 198.
(5) الكرمانيّ، لُباب التّفاسير، ص: 1778.
(6) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 11.
(7) زكريا الأنصاريّ، إعراب القرآن العظيم، ص: 245.

لإفادة القَصْر الدّالِّ على المبالغة؛ فإنّه نزّلهم منزِلةَ مَنْ كان الشَّرّ والضّلالُ مُنحصِرًا فيهم، ورويَ عن مُقاتِلٍ أنّ الكفّار قالوا للمسلمين إنَّهم شَرُّ الخَلْق، فنزلَت هذه الآية؛ فيكون القصرُ قصرَ قلبٍ؛ أيْ: هم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لا المسلمون، وصيغتا التّفضيل مَسلوبَتا المُفاضَلة على كلا الوجهَيْن[1].

معنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَأَضَلُّ﴾:

عطفٌ على الشَّرِّ جَمعًا بينَه وبينَ الضّلالِ

الواو في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ عاطفة[2]، فقد عُطِفت هذه العبارةُ على قوله تعالى: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾، فإنّهم لَمّا نَسبوا إليه ﷺ الشَّرَّ والضّلال؛ قيل لهم: أنتُم أشرُّ وأضلُّ، فإنّه ﷺ مَحْضُ خيرٍ وهدايةٍ[3]، وأنتم المُستجمِعون للشّرّ والضّلالِ، و﴿شَرٌّ﴾ و﴿وَأَضَلُّ﴾ صيغتا تفضيلٍ في أصل وضعِهما، إلّا أنّهما مسلوبتان معنى المُفاضَلَة، مُستعمَلتان هنا لإفادةِ المُبالَغةِ في اتِّصاف هؤلاء المشركين الضّالِّين بالشّرِّ والضَّلال[4].

نكتة التَّعبير بلفظِ (السبيل) دون غيره:

يُطلق السّبيلُ على ما كان حقيقةً ومَجازًا، وليس كذلك الألفاظ الأُخرى إلّا بالتّأويل

في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أوثر التّعبير بالسّبيل دونَ الألفاظ الأخرى لفائدةِ الإحاطةِ والشّمولِ؛ إذ يُشير السّبيلُ إلى جميع أنواع الطّرقِ، ممّا يعني أنّ ضلالَ هؤلاء الكافرين هو ضلالٌ يشمل جميعَ الطّرقِ الّتي سلكوها في حياتهم، وكلّها بعيدةٌ عن طريقِ الحقِّ والإيمان، ثمّ إنّ لفظ (السّبيل) يُستعمَل فيما كان حقيقة كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: 53]، وفيما كان مَجازًا كالآية موضِع الشّاهد، فالسّبيلُ يَصدُق على ما كان حقيقةً ومَجازًا، وليس كذلك الألفاظ الأُخرى إلّا بالتّأويل.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 24.

(2) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1590.

(3) الشّهاب الخفاجيّ، حاشية على البيضاويّ: 6/ 422.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 24.

ضلالُ سبيلِهم إيذانٌ بقوّةِ الضّلالِ منهم

سِرّ التَّقييدِ بالتّمييزِ في قوله: ﴿سَبِيلًا﴾:

لفظ ﴿سَبِيلًا﴾ وقَع منصوبًا على التّمييز[1]؛ بيانًا لصفة الضّلال وشدّته؛ فالأصلُ: أولئك أضلُّ منه في السَّبيلِ، لكنّه أوردَ السّبيلَ من باب التّمييزِ؛ إيذانًا بأنَّ سبيلَهم ضالٌّ لقوَّة الضّلال منهم نحو مكانٍ سائرٍ[2].

إرادةُ المُبالَغةِ في إيضاحِ شدّةِ ضلالِ المشركين

بلاغةُ المَجازِ العقليّ في إسنادِ الضّلالِ إلى السّبيلِ:

أُسنِد الضَّلالُ إلى السّبيل على طريقةِ المَجازِ العقليّ في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، والأصل: وضَلّ سبيلُهم؛ لأنّه تمييزٌ مُحوَّلٌ عن أصلِه الفاعلِ؛ لعلاقة السّببيَّة، فالسَّبيلُ سببُ ضلالِهم؛ وذلك لأنَّ السّبيلَ هو ما يسلكه الإنسانُ ليصلَ إلى وجهته، والكافرون قد ضلّوا عن وِجهة الحقّ، فاختاروا طريقَ الضّلالِ مَسلكًا لهم، وغرضُهُ: "إرادةُ المُبالَغة في إيضاحِ شِدّة ضلالِ المشركين[3]؛ لأنّ المعنى الحقيقيَّ هو ضلالُ المشركين أنفسِهم، وليس ضلالَ السّبيلِ؛ لأنّه ليس مَحَلًّا للضّلالِ، وإنّما أوثِر التّعبيرُ به تأثيرًا في السّامعِ، وتقويةً للمعنى وإيضاحًا.

أسوأُ مكانٍ وأضلُّ سبيلٍ هو مكانُ الكافرين وسبيلُهم في الآخِرة

غرضُ حذفِ المُفضَّلِ عليه:

حُذِفَ المُفضَّلُ عليه في قولِه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ فالأصل: (شَرٌّ مكانًا من مكانهم، وأضلّ سبيلًا من سبيلهم)، وإنّما لم يَذكُرْه ليُفيدَ "أنّ مكانهم شَرُّ مكانٍ من أمكنة الشّرّ، وسبيلَهم أضلُّ سبيلٍ من سُبُلِ الضّلال"[4].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

السّبيل والصّراط والطّريق والنَّجْد:

السّبيل: اسمٌ عامّ يصِحّ إطلاقُه على الطّريقِ، وعلى غيره؛ وقد

---

(1) المنتجب الهمذانيّ، الفريد: 5/ 21.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 92.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 217.
(4) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 261 - 262.

يكون كنايةً عنِ القصد، وأمّا الصّراط: فهو الطّريقُ السّهلُ المُذلّلُ اليسيرُ على مَن يسلكه، وأمّا الطّريقُ: فليس شرطًا أن يكون سهلًا؛ بل قد يكون شاقًّا غيرَ مُعبَّد للسَّيرِ فيه[1]، وأمّا النَّجد: فهو الطّريق الَّذي يكون في ارتفاعٍ[2].

أولئك ضلّوا جميعَ السُّبلِ الحقيقيَّة والمَجازيَّة

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 313.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 528.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ٣٥ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ٣٦﴾ [الفرقان: 35 - 36]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

عِبَرٌ من مَصير الأُمم الماضية؛ ليتّعظَ المشركون ويرتدِعوا عن كُفرِهم

بعد بيانِ شُبُهاتِ المشركين حولَ القرآن والنّبوّة والبعثِ، وبعدَ دحضِ شُبُهاتِهم في الدّين؛ عرض الحقُّ ﷻ قصَصَ بعض الأنبياء مع أقوامِهم، وما آلَ إليه أمرُهم ومصيرُهم في وقوع العذاب عليهم بعدَ أن كذّبوا الرّسل؛ ليتّعظَ المشركون ويرتدعوا عن كفرهم، ويتجنّبوا مصيرَ مَن سبقهم إذا أصرّوا على كفرِهم وعنادهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: (كتب) الكتابة معروفة، والكتابُ هو الصّحيفة الَّتي كُتِب فيها، والمعنى المِحوريّ للكتاب: هو الإلصاقُ بقوّةٍ ودِقّةٍ، ففِعْلُ الكتابةِ يكون بإلصاق الكلام، بتثبيت حروفِه في وجه الحَجَرِ أو الجِلْد بقوَّةٍ، بما يصعب إزالتُه[1]، والمقصود من ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الَّذي أوتيَه موسى ﵇ في الآية الكريمة هو التّوراةُ.

2) ﴿وَزِيرٗا﴾: (وزر) هو الحِملُ الثّقيل مِنَ الآثام والذّنوب[2]، والوزير سُمّي كذلك لأنّه يحمل الثِّقَل عن صاحبه، ثمَّ عُبِّر عنه بالذّنوب والآثام؛ تشبيهًا بثِقَل الجَبَل، فهو يُثْقِل صاحبَه[3]؛ فمعنى الوزير في الآية: المُعِينُ والظّهيرُ.

3) ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾: (دمر) ومنه: الدّمار؛ وهو استئصالُ الهلاك،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤَصَّل: (كتب).
(2) الخليل، العين، والجَوْهريّ، الصّحاح: (وزر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وزر).

والتّدمير: إدخالُ الهلاك على الشّيء، والرّجلُ الدّامِر: الهالكُ الَّذي لا خيرَ فيه[1]، وليس في القرآن الكريم منَ التّركيب إلّا التّدمير بهذا المعنى[2]، ومعنى التّدمير في الآية أنّ الحقّ سبحانه عذّبَهم وأهلكهم إهلاكًا بالغَرَق[3].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا مَفرّ من عذابِ اللهِ تعالى كما في قِصّة موسى وعاقبة فرعونَ

تهديدٌ منَ الحقّ ﷻ موجَّهٌ إلى الكافرين من قوم الرّسول مُحمّدٍ ﷺ ممّن خالفوا دعوتَه، بعذابٍ شديد يُحذِّرهم فيه من عاقبةٍ وخيمةٍ مشابهةٍ لِما حَلّ بالأُمم الماضية الَّتي كَذّبت رسلَه، فيبدأ اللّه تعالى بذِكْر قصّة موسى ﷺ، وكيف بعثه مع أخيه هارون نبيًّا ووزيرًا له، فكذّب فرعونُ وجنودُه موسى وهارون، فأنزل اللّهُ تعالى عليهم عذابًا مُهلكًا، ودَمَّرهم تدميرًا[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾:

استئنافٌ لتسليَةِ الرسولِ الكريمِ وتأكيدِ الهدايةِ والنّصرِ له

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دالّةٌ على الاستئناف، والجملةُ تُقدِّم سياقًا منَ التّسلية للرّسول ﷺ، وتؤكّد له الوعدَ بالهداية والنَّصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان: 31]، وتُضفي عليها المزيدَ منَ القوّة والثّبات في نفس الرّسول، وتقدّم حكايةً إجماليّة لِما جرى بينَ الأنبياء ﷺ وأقوامهم[5]؛ ربطًا للماضي بالحاضر، وتلميحًا إلى أنّه تعالى قد نصر عبادَه في الماضي، وسينصرُهم في المستقبل أيضًا، كما أنَّ في ذِكْر عاقبة الأُمم الَّتي كذّبت رسلَها موعظةً للكافرين من قوم رسول اللّه ﷺ؛

(1) الرّاغب، المُفرَدات، وابن منظور، لسان العرب: (دمر)، الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 606.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دمر).
(3) مُقاتِل، تفسير مقاتل بن سليمان: 3/ 234.
(4) ابن كثير، تفسيرُ القرآنِ العظيم: 6/ 110.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 217.

ليُقلعوا عن كفرهم، ويُنيبوا إلى ربّهم، وفي التّذكير بنصر موسى تسليةٌ للرّسول في مواجَهة أعدائه، وفيه تعريضٌ بوعد اللّه بالنّصر لرسوله ﷺ[1].

معنى اللّامِ ودلالتُها في (لقد):

قَسَمٌ فيه إشارةٌ إلى مكانةِ ما أُنزِل على موسى عليه السلام

اللّامُ واقعةٌ في جوابِ القَسَم مُقترنة بـ(قد) التّحقيقيَّةِ الَّتي تُقرّب الماضي من الحال[2]، والقَسَم دالٌّ على التّوكيد، وفيه إشارة إلى أهميَّة الكِتاب الَّذي آتاه اللّه تعالى موسى عليه السلام ويَرُدُّ على أيّ إنكارٍ أو شكٍّ أو تحريفٍ فيه.

غرضُ التّوكيدِ في إيتاءِ موسى الكتاب:

وعيدٌ إلهيٌّ أنْ لا مَفرّ للمُكذِّبين مِنَ العذابِ والتّدميرِ

صَدّر النّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ بمؤكّدَيْن؛ الأوّل: لامُ القَسَم، فإنّه على تقدير: واللّهِ[3]، والثّاني: حرفُ التّحقيقِ (قد)، والغرضُ منه: توكيدُ الخبرِ الدّالِّ على إيتاء الكتاب، باعتبار أنّه رسالةٌ إلَهيَّةٌ مُشتمِلةٌ على الوعيدِ بعذابِ الكافرين وتدميرِهِم[4]، وفيها الوعدُ ببشارةِ المؤمنين ونصرِهم.

دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ الإيتاءِ مُسنَدًا إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

إيتاءُ موسى الكتابَ تَجَلٍّ لِعَظَمةِ اللهِ وقُدْرتِهِ المُطْلَقةِ

لَمّا ورد التّعبير عن فعل الإيتاءِ أُسندَ إلى الضّمير (نا) العائدِ عليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾؛ على معنى (أنّنا آتينا موسى الكتاب بما لدَينا منَ الجَبَروت والعَظَمة)[5]، فهو صاحب القوّة والقُدْرة المُطلَقة، وفيه إشارةٌ إلى الذّات الإلَهيّة المتعالية، ومنه يكتسب المُنَزَّلُ والمُنَزَّلُ عليه الأهميّةَ العُظمى والشّرفَ الجليل؛ ليكونَ أحرى بأن يَلتزم به الخَلْقُ، فيأتمِروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 25.
(2) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 484.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 88.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 25.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 383.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

التّوراةُ الكتابُ الَّذي أُنزِل على موسى عليه السلام هدًى لبني إسرائيلَ

الألف واللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دالّةٌ على العهد؛ فالمُرادُ بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المُنَزَّل على موسى عليه السلام؛ وهو التّوراة[1]، فقد أنزلَ اللّهُ تعالى على موسى عليه السلام التّوراةَ، وبيّن فيها الشّرائعَ؛ ليَهتديَ بها بنو إسرائيل وليعملوا بها.

غرضُ التّقديمِ والتّأخيرِ بين مفعولَي الإيتاءِ:

الإشارةُ إلى المكانةِ العظيمةِ لموسى عليه السلام

جاء تقديمُ ﴿مُوسَى﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للإشارة إلى مكانته العظيمة عليه السلام، ودوره المِحوريّ في الرّسالة الإلَهيّة؛ فهو الأصل في الدّعوة، وهو نبيّ اللّه تعالى الّذي اختاره لتبليغ رسالته إلى البشريّة، وهو الحامل للكتاب الّذي يَضمّ تعاليمَ المَولى سبحانه وأحكامَه، وهو التّوراة[2].

نُكْتَةُ البَدءِ بالحديث عن موسى عليه السلام:

موسى أقربُ زمنًا من غيره، وما زال شرعُه حاضرًا في أذهانِ العربِ

ابتُدِئ بذِكر قِصّة موسى عليه السلام؛ لأنّه أقرب زمنًا من أصحابِ القَصَص الآخَرين، وأنّه ما زال في ذاكرةِ العربِ بقايا من شَرعِه، ويُؤيّد ذلك كلَّه ما رويَ أنّ الَّذين قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32] هم اليهود، فيكون الابتداءُ بموسى وقومِه أظهَر[3].

معنى الواو في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

العطفُ لمُطلَقِ الجمعِ بينَ الإتيانِ والجَعْلِ من غيرِ ترتيبٍ

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ﴾ دالّةٌ على العطف من دون ترتيبٍ، وهذا شأنُها في لسان العرب؛ فهي لمُطلَقِ الجمع[4]؛ لكيلا يَلزَمَ من هذا أن يكون هذا الجَعْلُ بعد إنزالِ الكتابِ[5]؛ فالواو هنا للجَمع بينَ الإتيانِ والجَعْلِ مُطلَقًا من غير ترتيبٍ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 451.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 93.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 25.
(4) المراديّ، توضيح المقاصد: 1/ 132.
(5) البقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 13/ 384.

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ المَعيّة (مع):

معيّةُ هارونَ مؤازرةٌ إلَهيّةٌ وتسليَةٌ ربّانيّةٌ لموسى عليه السلام

التّعبيرُ بحرفِ المعيّة في قوله تعالى: ﴿مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾؛ لزيادة التّسلية لنبيّ اللّه موسى عليه السلام في مواجَهة الصّعوبات والتّحدّيات الجمّة في مَهمّته لنشر رسالة ربّه، فإنّ مواجَهة تلك التّحديات منَ الاثنين أقوى وأمضى، وردُّها ممّن أُرسِلَت إليهم أبعد[1]، فوجودُ أخيه هارون مِعوانٌ له على تحمُّل الأحداثِ الجِسام، وتخفيفٌ عن بعض ثِقَلِها، فإنّ أعباء الرّسالة لا تُحمَل ولا تُظهَر إلّا بمُعين، كما أنّ في التّعبير بالمَعيّة مفارقةً إلهيّةً عميقة، حيثُ يُقْرَن نَبيٌّ عظيم بنبيٍّ آخر، مع التّأكيد على مكانة الأوّل وتَقَدُّمه وأصالتِه في أمر الدّعوة والرّسالة[2]، في إشارةٍ إلى معيّةٍ معنويّةٍ ومكانيّةٍ فريدة، تُبيّن دورَ هارونَ عليه السلام سَندًا وظهيرًا لموسى عليه السلام، في رحلةِ الرّسالةِ والنّبوّة.

غرضُ تقديمِ ﴿مَعَهُۥٓ﴾ على مفعولَيِ الجعلِ:

تأكيدُ مكانة موسى ووزارة هارون، وبيانُ التّرابطِ والتّعاونِ في تبليغِ الرّسالةِ

قُدِّمت صفةُ المَعيّةِ على مفعولَي الجَعْلِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ لِعدّةِ أسبابٍ؛ منها: تأكيدُ أصالة موسى عليه السلام بالرّسالة، وأنّ هارون عليه السلام كان مُساندًا له ومؤازرًا، والإشارةُ إلى مُلازمة هارونَ لموسى في خُطواته كلِّها، وإظهارُ التّرابط والتّعاون بينَهما، والتّأكيدُ على أهمّيّة دورِ هارون عليه السلام، وأنّه كان مُكمِّلًا لدورِ موسى عليه السلام.

غرضُ الإسنادِ للضّمير الدّالّ على التّعظيم ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

تجلٍّ لعَظَمَة اللهِ في جَعْلِ هارونَ وزيرًا في رحلةِ الهداية والنّصرِ

أُسْنِد فعلُ الجَعْلِ إلى الضّمير (نا) العائدِ عليه عز وجل بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾؛ للدّلالة على عظمة اللّه تعالى[3] وقُدْرته المُطلقة على تدبير الأمور؛ فاللّه تعالى هو الّذي اختار هارونَ ليكون وزيرًا

(1) البقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 13/ 384.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 334.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 384.

لموسى، وهو الَّذي مَكّنَه مِن أداء هذه المُهمّة على الوجه الأكمل؛ دعمًا لأنبيائه ورسُله عليهم السلام، ونصرًا لهم.

سِرُّ التّعبيرِ بمفعولَيْ: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

أُخـوّةٌ في النّسبِ ومُؤازرةٌ في العقيدةِ والرّسالةِ

فعلُ الجَعْل في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا﴾ يقتضي وجودَ مفعولَيْن؛ الأوّل: ﴿أَخَاهُ﴾، والثّاني: ﴿وَزِيرٗا﴾[1]؛ فالمفعولُ الأوّلُ: إشارةٌ إلى رابطة الأُخوّة القويّة الَّتي جمعت بينهما؛ فهي ليست مُجرّدَ رابطةِ دَمٍ ونَسَبٍ؛ بل كانت أُخوّةً في العقيدة والرّسالة، والمفعول الثّاني: فيه دلالةٌ على أنّ هارون عليه السلام لم يكن مُجَرَّد مُعينٍ لموسى عليه السلام؛ بل كان وزيرًا له يُشارِكه في المسؤوليّة، ويُساعدُه في أداء مَهمّته.

أُخوّةٌ ومشاركةٌ وعونٌ لموسى في مواجهةِ المُلِمّاتِ

ويجوز أن يكون المفعولُ الثّاني ﴿مَعَهُۥٓ﴾ والمفعولُ الأوّل ﴿أَخَاهُ﴾ على أن يكون قولُه: ﴿وَزِيرٗا﴾ حالًا[2]، فرابِطَةُ الأُخوّة موجودةٌ في الاحتمالَيْن مفعولًا أوّلَ، ثمّ جعَلَ المَعيَّة مفعولًا ثانيًا، وفي ذلك تأكيدٌ على مكانةِ موسى عليه السلام رسولًا وقائدًا، وكأنّ هارونَ عليه السلام كان يُلازمه في كلّ خُطوةٍ من خُطواته، وحالُهُ ﴿وَزِيرٗا﴾ أن يكون على صفةٍ مِنَ الحِكْمة والرّأي السّديد، وأن يكون مُؤازِرًا ومَلْجَأً لموسى عند اشتدادِ الخطوبِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَزِيرٗا﴾ مادّةً وصيغةً:

هارونُ أعظمُ مُؤازرٍ لموسى في أداء مَهمّته ورسالتِه

الوزيرُ صيغةُ (فَعيل) بمعنى (فاعِل)؛ أيْ: مُؤازرٌ ومُعينٌ، واشتقاقه مِنَ الأَزْر، وهو القوَّة، وأصله: أن يَشُدَّ المَرءُ ظَهْرَه بإزارٍ عند إقبالِه على عملٍ مُتْعِبٍ، والمعنيُّ به في الآية هارونُ عليه السلام في مؤازَرةِ الهَيّة، وتعريضٍ بالرّدّ على المشركين بقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 7]، فقد اقتضت حِكْمتُه تعالى أن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 217.

(2) السّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 482، والدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 484.

يُؤَيِّدَه برسولٍ مثلِه، لا مَلَكٍ كما ادَّعَوا وطلبوا[1]، وأورد لفظُ الوزيرِ نَكرةً في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾؛ لإرادةِ أنّ هارون كان وزيرًا عظيمًا، وأنّه كان يُعين موسى عليه السلام في مَهمَّتِه خيرَ إعانةٍ، وآيةُ ذلك: أنّ اللّه تعالى اختار هارونَ ليكونَ وزيرًا لموسى عليه السلام، لحِكْمة يعلمُها هو، وأنّه كان خيرَ سَنَدٍ له في تبليغ الرّسالة.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَقُلْنَا﴾:

جَعْلُ اللّهِ هارونَ وزيرًا ترتيبٌ مُحكَمٌ، وإعدادٌ لمَهمَّةٍ عظيمةٍ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾ دالّةٌ على العطفِ مع التّرتيب[2]، فإنّه قال لهُما ذلك بعد أن امتنّ عليه بأن جعلَه وزيرًا[3]، ويدلُّ ترتيبُ الأحداث على أنّ الحقّ تبارك وتعالى قد أراد منهما عليهما السلام أن يُدرِكا أنّ جَعْلَه هارونَ وزيرًا هو مُقدّمة لأمرهما بالذّهاب إلى فرعون، وأنّه تعالى يُقدِّم ما يُمهّد للأمر، وأنّه لا يُكلّف عباده إلّا ما يستطيعونه.

دلالةُ إسنادِ فعلِ القولِ إلى ذاتِه العَليَّة:

النّداءُ الإلهيُّ للرّسولَيْن الكريمَيْن تشريفٌ لهما، وتنويهٌ بأمرِهما

أُسنِدَ فعلُ القولِ إلى الضّمير (نا) العائدِ عليه سبحانه في قولِه تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾، مُكلِّفًا إيّاهما بمَهمَّة الدَّعوة والتَّبليغ؛ تشريفًا لهما، وتنويهًا بأمرهما[4]، ولِما لذلك الإسناد من صفةِ القَداسةِ والعَظَمةِ، وصِحّةِ الرّسالةِ وصِدقِها.

غرضُ التّعبيرِ بالأمرِ في قولِه: ﴿ٱذْهَبَآ﴾:

إلزامُ الحُجّةِ على النّاسِ ببَعثةِ الرُّسلِ

فعلُ الأمرِ منه تعالى في قولِه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دالٌّ على إلزامِ الحُجَّة ببعثةِ الرُّسل إلى النّاس[5]؛ لتبليغ الرّسالةِ الإلَهيّة، وإرشادِهم إلى طريق الحقّ، والمُكَلَّفان هما: موسى وهارونُ عليهما السلام، كما أنّ الأمر بالذّهاب في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 25.

(2) "وهذا هو شأن الفاء في العطف، فإنّها تفيد التّرتيب مع الوجوب مُفارِقة بذلك الواو"، ينظر: ابن الورّاق، علل النّحو، ص: 377.

(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 384.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5279.

(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 93.

﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ نداءٌ ربّانيٌّ لموسى وهارون عليهما السلام فيه إيماءٌ إلى إقدامِهما على أمر جليل سيواجِهان فيه صعابًا، فمَهَمَّتُهما ليست سهلةً؛ بل هي مليئةٌ بالتّحدّيات والصّعاب؛ لأنّهما سيواجهان قومًا عُتاةً مُنغمِسين في الكفر، يتسابقون إليه بدلَ الإيمان[1]، وهنا تبرز عَظَمةُ رسالتِهما، ودورُهما في هداية القوم، وإخراجِهم منَ الظّلمات إلى النّور.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ دالّة على العهد؛ فإنّ الأمر منه تعالى إلى موسى وهارونَ عليهما السلام كان أمرًا بالذّهاب إلى قوم بأعيانِهم، وهم القِبط ذَوو القوّة والقُدرة[2].

سِرُّ وصفِ القومِ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

شهادةُ القرآنِ لقومِ فرعونَ بصفةِ التّكذيبِ المُستَحِقّ للتّدميرِ

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وصفٌ للقوم منه تعالى، وليس مَقولًا لموسى وهارون، فإنّ التّكذيبَ لَمّا يقع من قومهم بعد، لكنّه وصفٌ لقارئ القرآن أنّ موسى وهارونَ عليهما السلام قد بَلّغا الرّسالةَ، وأنّ الحقّ سبحانه قد أظهر الآياتِ، فما كان من قومهما إلّا التّكذيبُ المُستَحِقُّ للتّدمير[3]، وفي ذلك تعريضٌ بالمشركين في تكذيبهم الرّسولَ ﷺ[4]؛ فإنّهم إنْ فعلوا ذلك، وأشبهوا قومَ موسى في تكذيبِهم، استحقّوا العذابَ الأليمَ.

غرضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه:

إيماءٌ إلى علّة بناء الخبر على الصّلة، فتكذيبُهم سببُ تدميرهم

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الإيماءُ إلى عِلّة بناء الخبر على الصّلة[5]؛ أيْ: إنَّ تكذيبَهم بآيات اللّه تعالى عِلّةٌ وسببٌ لعقاب الحقِّ سبحانه لهم بالتّدميرِ.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5279.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 384.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 25.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 25.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 26.

معنى الباءِ ودلالتُها في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

إيـذانٌ بتمامِ المُلابَسةِ وكمالِ المُصاحَبةِ في تكذيبِ آياتِنا

الباءُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دالّةٌ على المُلابَسةِ والمُلاصَقةِ والمُصاحَبةِ، وهو معنًى من معانيها الشّائعةِ في لسانِ العربِ[1]؛ فهم قد رَضوا بتكذيبِهم بالآياتِ، ومالوا إليه، ولابَسوا ذلك التّكذيبَ حتّى صارَ من خِصالِهم؛ فكان أن أصابَهُمُ التّدميرُ بإغراقهم واستئصالِهم.

نُكْتَةُ جمعِ الآياتِ وإضافتِها إلى ضميرِ العَظَمةِ:

آيـاتٌ متراكِمةٌ عـظـيـمـةٌ، وتكذيبٌ مُستمرٌّ

التّعبير عنِ الآيات بصيغة الجمع مع إضافتها إلى ضمير العَظَمة في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ للاستدلال على كثرتها وعَظَمتِها، بصدورها من رَبّ السّموات، وهي الآياتُ المَرئيّةُ والمسموعةُ الّتي كَذّب بها قومُ موسى ﷺ، سواءٌ كانت منَ الأنبياء الماضين قبلَ مجيء هارون وموسى، أو منهما بعدَ مجيئِهما[2]، ويجوز أن يكون التّكذيب حاصلًا بآيات الحقّ ﷻ التّكوينيّة، وهي العلاماتُ الّتي خلقها اللّهُ تعالى في الدّنيا، ويجوز أن يكون التّكذيب بالرّسل، أو بكُتب الأنبياء الّذين سبقوا موسى ﷺ[3]، وآيةُ ذلك أنّ موسى ﷺ لم يكن قدِ التقى بهم، ولم يكن قد عرَض عليهم ما معه منَ الآيات[4].

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾:

حُكمٌ إلهيٌّ عادلٌ في تدميرهم بعد تكذيبهم

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا﴾ دالّةٌ على التّعقيبِ كما هو شأنها في العطف في كلام العربِ، فإنْ قيل: إنّ الإهلاك لم يحصُل بعد الأمر بذهابهما؛ بل بعد مُدّةٍ ليست قصيرةً؟ والجواب عن ذلك: أنّ التّعقيب هنا يُحمَل على الحُكم لا على الوقوع[5]؛ أيَ: في

(1) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/ 210.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 384.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 211.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 22 - 23.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 458 - 459.

أنّه تعالى حَكَم عليهم بالتّدمير والإهلاك بموجِب تكذيبِهم، ويجوز أن تكون الفاء في ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ دالَّةً على ما حُذِف منَ الكلام؛ اكتفاءً بغيره، فتُسَمّى هذه الفاءُ بالفصيحة[1]؛ لأنّها تُفْصِحُ عنِ المَحذوف الَّذي يُقَدِّره المُخاطَبُ منَ السّياق؛ كقوله تعالى: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشّعراء: 63]، والمعنى: أن تكون هناك استجابةٌ لفعل الأمر من ﴿ٱضۡرِب﴾ [الشّعراء: 63]، وهو الضّرب، فيحصل منه الانفلاقُ[2]، أو أنّ الفاء في ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ مؤذِنةٌ بالتّفريع[3]، فجملةُ التّدمير مُفَرَّعةٌ على جملة التّكذيب، ومشتقّةٌ منها، فالتّدميرُ نتيجةٌ حتميّة لتكذيب قوم موسى، والتّدمير هو الَّذي يُقْصَد مِنَ الموعظة والتّسلية[4]، فاللّهُ تعالى ليس بغافل عمّا يعمل الظّالمون؛ بل سيَجزيهم عقابًا عادلًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالتّدميرِ مادّةً وصيغةً:

الهلاكُ الشّديدُ البالغُ جزاءً لكفرهم وتكذيبِهم

لفظ التّدمير في قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا﴾ دالٌّ على الهلاك الشّديد البالغ، والأصل فيه: أن تَكسِرَ الشّيءَ على وجهٍ يستحيل معه إصلاحُه[5]، وقد عَبّر النّظمُ الجليل عن ذلك بالفعل المُضَعَّف (دَمّرَ)؛ الدّالِّ على المبالغة والتّكثير في غالبِ أحوالِه في كلام العربِ[6]، فهو إهلاكٌ شاملٌ وسريعٌ وقويّ، استأصلَهم من جُذورهم، فلم يُبْقِ لهم أَثَرًا.

بلاغةُ الإيجاز بالحذفِ في فعل التّدمير:

فقلنا: اذهبا؛ فذهبا؛ فكذّبوهما؛ فدمّرناهم تدميرًا

في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا﴾ ثمّة كلامٌ محذوفٌ استُغْنِيَ عنه بدلالة المذكور،

(1) هي الفاء الَّتي تُفصِح عن محذوف يقدِّره المخاطَب من السّياق، ينظر: الدّرّة، فتح الكبير المتعال: 1/ 58.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 93.
(3) هي الفاء الَّتي تَربِط جُملتَيْن فيكون ما قبلها عِلّةً لِمَا بعدها، وما بعدَها فرعًا عنه، ينظر: الصّبّان، حاشية على الأشموني: 3/ 142.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 25.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 106.
(6) سيبويه، الكتاب: 4/ 64.

وهو جوابُ فعلِ الأمر منَ الذّهاب؛ تقديره: (فذهبا فكذّبوهما فدمّرناهم حينَئِذٍ تدميرًا)، وهو على طريقةِ قوله: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشُّعراء: 63]؛ والمعنى: فضربَ فانفلقَ[1].

نُكْتَةُ إسنادِ التّدميرِ إلى ضميرِ العَظَمةِ:

القُدرةُ الإلَهيّة تتجلّى في تدمير قوم موسى

في إسنادِ فعلِ التّدميرِ لضميرِ العَظَمةِ (نا) في قولِهِ تعالى: ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا﴾ إيذانٌ بأنّ هذا التّدميرَ صادرٌ ممّن يتّصِفُ بالعَظَمة والجَبروت، وتلميحٌ إلى قُدْرته المُطلَقة تعالى، وأنّه لا رادَّ لأمره وقضائه، وفي ذلك إدخالُ الرّهبة والخوفِ في قلوب مَن يكون على شاكلةِ اليهودِ وأمثالِهم، فإنّ الحقّ بعَظَمته وجلالِه هو مَن يُباشِر عذابَهم.

غرضُ توكيدِ التّدميرِ بالمفعولِ المُطلَقِ وتنكيرِه:

إهـــلاكٌ مـاحِـقٌ كـامـلٌ استأصلَهُم من جُذورهم

لَمّا حَكَم عليهم اللّه تعالى بالتّدمير بقوله: ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾، أكّد هذا التّدميرَ والإهلاك بالمفعول المُطلَق، وهو قولُه: ﴿تَدۡمِيرٗا﴾؛ أي: تدميرًا ماحِقًا كاملًا لا رجعةَ فيه، فلم يُبقِ منهم أحدًا[2]، جزاءً لهم على كفرهم وتكذيبهم، وجاء بالمفعول المُطلَق مُنَكَّرًا ﴿تَدۡمِيرٗا﴾؛ لِما في تنكير المَصدَر من دلالة التّعظيم؛ أيْ: دمّرناهم تدميرًا عظيمًا، بأن أغرقناهم في اليمِّ[3]، عِبرةً لِمَن كان خلفهم وآيةً.

بلاغةُ الإيجازِ في قصّةِ موسى عليه السلام:

إيـجـازٌ عجيبٌ ودلالـةٌ واضحةٌ عـلى استحقاقِ الأُمـمِ التّدميرَ بـتـكـذيـبـهـم رُسُلَهم

اشتملتْ قِصّةُ موسى عليه السلام في هذه الآية على إيجازٍ بليغٍ عجيبٍ، إذْ تَركَّزَ النّظْمُ الجليلُ على نقطتيْن مُهمَّتيْن مقصودتَيْن في القصّة؛ هما بدايتُها ونهايتُها؛ لإيصال رسالةٍ مَفادُها: إلزامُ الحُجّةِ ببَعْثةِ الرُّسلِ، وأنّ الأُمم تستحِقّ العذابَ إذا كَذّبت رسلَه تعالى؛ وهو عذابُ التّدميرِ والهلاكِ والاستئصالِ[4].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 280.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 28.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 26.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/ 539.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّدمير والإهلاك والتّتْبير:

التّدمير: إدخالُ الهلاكِ على القوم أو الشّيءِ[1]، والتّتّبيرُ: التّكسيرُ[2]، وتبَّرَه: كَسَّره وأَهْلَكه، وكلُّ شَيءٍ كَسَّرْتَه وفَتَّتَّه، فقد تَبَّرْتَه[3]، والإهلاك يدلُّ على كَسْر وسقوط[4]، وهو مُحتمِلٌ لعدّة معانٍ؛ كالوقوع في أمرٍ شديدٍ، أوِ افتقادِ الشّيء، وقد يكون بمعنى الموت[5].

التّدمير: إدخالُ الـهـلاكِ على القومِ أو الشّيءِ، والإهـلاكُ كسرٌ وسـقـوطٌ، والتّتْبيرُ التّكسيرُ

واستعمالُ لفظ التّدمير أقربُ إلى الدِّقَّة في المعنى، إذ يُشير إلى الهدم الشّاملِ التّامّ، ممّا يدلّ على أنّ عذابَ اللّهِ تعالى لهؤلاءِ الكافرين كان عذابًا عظيمًا لا مثيلَ له، فلا الإهلاكُ صالحٌ للتّعبير به؛ لأنّه يَحتَمِلُ دَلالاتٍ مُتباينةً منها الموتُ فحسْب، والمُرادُ: عذابٌ يسبق الموتَ، ولا التّتبيرُ لدلالته على الكسْر؛ وهو غير مُرادٍ.

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (دمر).
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (تبر).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (تبر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(5) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 502.

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ٣٩﴾ [الفرقان: 37 - 39]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

وعيدٌ إلهيٌّ للكافرين بهلاكٍ مُحقَّق على خُطى الأُمم الماضيةِ

لَمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى هلاكَ قومِ موسى وتدميرَهم لتكذيبِهم بآياتِ اللّهِ تعالى؛ ذكرَ قومَ نوحٍ الَّذين كذّبوا نبيَّهم، وأنّ إهلاكَهم كان بالماء، ثمّ ذَكَرَ جملةً مِنَ الأُممِ الهالكةِ، وخَصَّ كلَّ أُمّةٍ منهم بنوعٍ مختلفٍ مِنَ العذاب؛ وذلك لإظهار قُدرته المُطلَقة تعالى، ومِن بين هذه الأُمم: عادٌ وثمودُ وأصحابُ الرّسِّ وغيرهم، وأنّ ما فعله بهؤلاء من عذابٍ، هو ما فعله بغيرهم مِنَ الأمم؛ تهديدًا للمُكذّبين من قوم رسول اللّه ﷺ، وتسليَةً لنبيّه، وتأسيَةً له، وبيانًا لتشريفه بالعفو عن أُمّته[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾: (غرق) الإغراق: الإلقاء في الماء المُستَبحِر الَّذي يَغمُرُ المُلْقَى فيه، فلا يترك له تَنفُّسًا[2]، وكلّ ما جاء في القرآن الكريم مِنَ التَركيب هو مِنَ الغرق في الماء، عدا قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ [النّازعات: 1][3].

2) ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾: (عتد) أصلٌ يدلُّ على الحضور والإعداد والقُرب، وعَتَدَ: هيّأ وأعدّ، والعَتادُ: الشّيء الَّذي تُعِدّه لأمرٍ ما، وتهيّئُه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 385 - 388.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 75.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غرق).

بحيثُ يكون حاضرًا وقتَ الحاجة إليه[1]، والعتاد والعُدَّة: ادّخار الشّيء قبل الحاجة إليه؛ كالإعداد[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ بمعنى: هيّأنا وأعددنا[3].

3) ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾: بمعنى أصحابِ البئرِ الَّتي أصبحت عَلَمًا على بئرٍ لِثَمود باقية لهم[4]، والواردُ ذِكْرُهم في الآية هم قومٌ نزلوا عند بئرٍ كانت تُسمّى الرّسّ، فأهلكَهم الحقُّ سبحانه؛ وذلك لكُفرِهم برُسلهم، وقتلِهم نبيَّهم[5].

4) ﴿وَقُرُونَۢا﴾: (قرن) القرنُ: المُدّة منَ الزّمن، وهو الأُمّة كذلك، والقرن من النّاس: أهل الزّمان الواحد، ويجوز حملُه على اجتماعِ النّاس واقترانِهم في زمنٍ واحدٍ؛ فهو الأُمّة الَّتي تَلي الأخرى، والجيلُ الَّذي يلي الجيلَ، واختُلف في مُدَّته بين عشر سنين إلى مئةٍ[6]، ومعنى ﴿وَقُرُونَۢا﴾ في الآية: الأمم الكثيرة الَّتي تكونُ بين ذلك، وهم كلّ أهل عصر مقترِنون مدّة أربعين سنةً، وقيل: سبعون سنةً[7].

5) ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾: (مَثل) المَثَل: "شِبه الشّيء في المثال والقَدْر ونحوه، حتّى في المعنى، ويُقال: ما لهذا مَثيلٌ، والمِثال ما جُعِل مِقدارًا لغيره، وجمعه: مُثُل"[8]، والمَثل يأتي بمعنى الحديث والخبر، والأصل في (مثل) مناظرةُ الشّيء، وضَرْبُ المَثلِ: جَعْلُه يسير في البلادِ؛ من قولك: ضَرَب في الأرض، إذا سار فيها[9]، وضَرْبُ الأمثال في الآية: بيانُ القِصَصِ العجيبةِ ممّا كان من أخبارِ القوم الأوّلين[10].

6) ﴿تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾: (تبر) أصلٌ يدلُّ على الهلاك، وكلّ شيءٍ قمتَ بتكسيره وتفتيته فقد تبَّرتَه؛ والتّبار: الهَلاكُ والفَناء، يُقال: تَبَرَ الشّيءَ وتَبَّره، والتّضعيف للتّعدية، بمعنى: أهلكه، والتّتبير: التّدمير، ويُطلَق التِّبْرُ على ما كان منَ الزّجاج مُكَسّرًا، فالتَّبر: الكَسرُ والإهلاك،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (عتد).
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (عتد)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 236.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عتد).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (رس).
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 539.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرن).
(7) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 11/ 217.
(8) الخليل، العين: (مثل).
(9) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والعسكريّ، الوجوه والنّظائر: (مثل).
(10) النّسفيّ، حقائق التّأويل: 2/ 538.

وما ورد في القرآن الكريم منَ التّركيب كلّه منَ التّبار بالمعنى المذكور، الدّالّ على الهلاك[1]، ومنه قولُه تعالى: ﴿تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾؛ أي: أبَدْناهم إبادةً، وأهلكناهم إهلاكًا، واستأصلناهم استئصالًا[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

قوم نوح عِبرةٌ لغيرهم من الكافرين، وعذابٌ مُهلك في الدّنيا والآخرة

يُذكّر الحقُّ ﷻ بقوم نوحٍ الّذين كذّبوا نبيَّهم، وأنّ مَن كذَّب نبيًّا فقد كذّب الرُّسلَ كلَّهم؛ وذلك لأنّ الرّسل جميعًا جاؤوا بدعوة واحدة لعبادة اللّه وحدَه، ويُبيّن أنّ عذابه لقوم نوح كان عذابًا دنيويًّا مُهلِكًا، فقد أهلكهم بالماء غرقًا، وجَعَلهم عبرةً للنّاس، وأنّ عذاب الكافرين في الآخرة سيكون أشدَّ من عذابهم في الدّنيا، ثمّ يُشير إلى بعض قصص الأُمم الّتي أصابها الهلاك كعاد وثمود وأصحاب الرّسّ، وهم قومٌ كانوا يعبدون الأصنام؛ فأرسل اللّهُ تعالى إليهم نبيًّا يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده، فكذّبوا نبيّهم، فأهلكهم، فضلًا عن أممٍ كثيرةٍ هلكت بسبب كفرِها وتكذيبِها للرّسل، ثمّ يُبيّن المولى سبحانه أنّه قد بيّن للكافرين حُجّته عليهم، وأقام لهم الأمثالَ الّتي توضّح حقّيّةَ دينِ الإسلام، ولكنّهم لم يُؤمنوا؛ فأهلكهم إهلاكًا لا مثيلَ له[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ عطفِ قومِ نوحٍ على قومِ موسى مع أسبقيَّتِهم عليهم:

تشابُهُ عذابِ قومِ نوحٍ مع قومِ موسى بالإغراقِ العظيمِ

عطَفَ النّظمُ الجليل من قَصَص الأقوام السّابقين قِصّةَ قوم نوح عليه السلام على قِصّة قوم موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾؛ لأنّهم أوّلُ الأُمم، ولِما في عذابهم منَ الفظاعة والهَول، ولِما بينَ العَذابيْن من تماثلٍ وتشابهٍ في كونهما إغراقًا إلَهيًّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبر).

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 268، وأبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 75.

(3) الواحديّ، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص: 779.

عظيمًا؛ وذلك جَزاءً لظُلْمهم وكفرهم، وقَدّم قِصّةَ موسى عليه السلام؛ لأنّ السّياق في الكتاب في نفسه أوّلًا؛ وفي تنجيمه ثانيًا[1]، ويجوز أن يكون معطوفًا على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ فإنّه أراد أن يكون المقصودُ أن يصف قومَه بالتّكذيب، وأن يُخبر عنهم بالتّدميرِ والإهلاكِ[2].

عاملُ النّصبِ ودلالتُه في ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾:

ودمّرنا قومَ نوحٍ وأغرقناهم بتكذيبِهم رسولَ ربِّهم

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ يجوز أن يكون محلُّه النّصبَ عطفًا على المفعول من قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾، ويجوز أن يكون مسبوقًا بفعلٍ مُقدَّرٍ يُفسّره المذكورُ بعدَه من قوله تعالى: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾[3]؛ فيكون على التّقدير الأوّل: (ودمّرنا قومَ نوحٍ)، ويكون على التّقدير الثّاني: (وأغرقنا قومَ نوحٍ)، والفرق بينهما فرقُ عمومٍ وخُصوصٍ، فالتّدميرُ: تعبيرٌ عن عموم العذاب، والإغراقُ: تعبيرٌ عن تعيينه وخصوصه، والجمعُ بينَهما مِنَ الحُسنَيَيْن؛ بعطف الخاصِّ على العامِّ؛ فيكون التّقدير: فدمّرنا قومَ نوحٍ وأغرقناهم بما كان من تكذيبهم رسولَ ربّهم.

الاعتبار طريق الوصول إلى الغفّار

ويجوز أن يكون النّصبُ بفعلٍ مُضمرٍ، تقديرُه: (واذكر قومَ نوحٍ عليه السلام لّمّا كذّبوا الرّسل)[4]، وهو نداء إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم، ومنه إلى أُمّته؛ أي: اذكر أيُّها العاقل المُعْتَبِرُ ما كان من شأن قوم نوحٍ، وتكذيبِهم رسولَهم، فإنّ التّذكير بلاغٌ مبينٌ، وحُجّةٌ واضحةٌ، لِمَن كان له قلبٌ أو ألقى السّمعَ وهو شهيدٌ.

سِرّ الإضافة في ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾:

الاهتمامُ بقوم نوحٍ لأنّ حالَهم محلٌّ للعِظَةِ والاعتبارِ

التّعريفُ بقوم نوحٍ عليه السلام في هذا السّياق بقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 385.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 26.

(3) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 483.

(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 538.

غرضُه الاهتمامُ بهم؛ لأنّ في ذِكرِ حالِهم مَحلًّا للاعتبار والدّرس، وتحذيرًا من مَخاطِر الكفر والظّلم، وتأكيدًا على عاقبة الكفر والعِصيان؛ فلذلك قدّم ذِكْرَهم، ثمّ أكّد بضميرهم زيادةً في الاهتمام[1].

بلاغةُ التّعبير بالشّرطيّة، وبيانُ فعلِها وجوابِها:

وُجِدَ الإغراقُ لوجودِ التّكذيبِ

﴿لَّمَّا﴾ حرفُ شرطٍ يقتضي جوابًا، ويختصّ بالماضي؛ فتوجد الثّانية لوجود الأولى، ويُعَبّر عنها بأنّها حرفُ وجودٍ لوجود، أو وجوبٌ لوجوبٍ[2]؛ وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾؛ ففِعْل التّكذيبِ شرطُها، وفعلُ الإغراقِ جوابُها[3]؛ فالإغراق مُعلّق بفعل التّكذيبِ، فعذابُ الإغراقِ لم يقع إلّا بسبب تكذيبِهم للرُّسل، وبيانُ الأسبابِ خِطابٌ للعقولِ إقناعًا لها، وفي التّعبيرِ بأسلوبِ الشّرطِ تبشيعٌ لتكذيبِ الرُّسلِ، وتهديدٌ للمشركين، وتعريضٌ بعذابِهم.

دلالةُ تضعيفِ الفعلِ ﴿كَذَّبُواْ﴾:

كان تكذيبُهم على الغايةِ منَ الشّدّةِ والبشاعةِ

استُعمِل فعلُ التّكذيب مُضعّفًا في قوله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾؛ للإيذان بشدّة التّكذيب وبشاعته، وكثرةِ تكذيبِ قومِ نوحٍ لرسولهم؛ لِما يُفيده الفعلُ المُضعَّف من معنى المُبالَغة والتّكثير[4]، فكأنّهم لم يكتفوا بالتّكذيب؛ بل زادوا عليه عنادًا وظلمًا ووقاحةً.

معنى (أل) ودَلالتُها في ﴿ٱلرُّسُلَ﴾:

تكذيبُ نوحٍ تكذيبٌ للرّسلِ جميعًا

(أل) في لفظ ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ دالّةٌ على التّعريف العهديّ؛ والمُراد هو نوحٌ ﵇، فإنّ مَن كذَّب رسولًا واحدًا بعينه، فهو مُكذِّبٌ للرّسل جميعًا، فهو جمع؛ ومعناه: الواحد[5].

الدلالة على الجنس والحقيقة

ويجوز أن تكون (أل) في ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ دالّةً على الجنس والحقيقة؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 26.
(2) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 369.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 108.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 64.
(5) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 20.

أيْ: إنّ هؤلاء لم يُكذّبوا رسُلًا بعينهم فحسْب؛ بل كذّبوا فكرةَ الرّسالة نفسَها، ومثال ذلك قولُهم: فلانٌ يركبُ الخيلَ، وما له إلّا فرسٌ واحدٌ[1]، فقد كذّب الكافرون فكرةَ وجودِ رسلٍ مُتعدّدين منَ اللّه تعالى.

نكتة التعبير بالرّسل جمعًا ﴿كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾:

الـدّلالـة على اتّفاقِهم جميعًا عـلى تـكـذيـب الرّسل

كما أن النّظم الكريم عبّر بالرّسل جمعًا مع أنّ قوم نوح كذّبوا رسولَهم؛ لاتّفاقِهم جميعًا على الاستدلال على تكذيب الرّسل، باستحالة إرساله تعالى البشرَ مُرسَلين بقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 24]؛ والاتّفاق على الدّليل كما بيَّنته سورةُ (المؤمنون) يُؤدّي للاتفاق على النّتيجة؛ "ففي ذلك التّكذيب استلزامُ تكذيبِ عموم الرّسل، ولاقتداء غيرهم بهم كونَهم أوّلَ من كذّب الرّسل[2].

انتماء المُكذِّبين إلى مَـذهـبِ القائلين بإبطال النُّبوّاتِ المُنكِرين للرّسل

يجوز أن يكون التّعبيرُ عن تكذيب قوم نوح عليه السلام لنبيّهم بصيغة الجمع؛ لأنّهم كانوا ينتمون إلى مَذهبِ البراهِمةِ القائلين بإبطال النُّبوّاتِ المُنكِرين للرّسل جميعًا[3]، وتكذيبُهمُ الرّسلَ دالٌّ على تكذيبِهم نوحًا عليه السلام، وفي ذلك إشارةٌ إلى وحدة رسالةِ الأنبياء جميعًا، وهي دعوة النّاس لعبادة اللّه تعالى وحده، فتكذيبُ قوم نوحٍ لنبيّهم هو في الحقيقة تكذيبٌ لجميع الرّسل؛ لِما تحمِله رسالتُهم من وحدةٍ وترابط؛ ولأنّهم أتَوا بالمعجزات الدّالّة على صدقهم، فمن كَذّب شيئًا منه كذّب الجميع[4].

تبشيعُ التّكذيبِ الواقع من قوم نوحٍ

وفي التّعبير بالجمع عنِ المفرد أيضًا تبشيعٌ للتّكذيب؛ فقد أراد

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 95 - 96.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 26 - 27.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 459.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 385 - 386.

هنا تعظيمَ تكذيبِهم ذاك، فكأنّ نوحًا عليه السلام يُمثّل جميعَ الرّسلِ الّذين كذّبهم قومُهم؛ فيكون الذّنبُ أعظمَ وأعظم.

سِرُّ إسنادِ أفعالِ الإغراقِ والجَعْلِ والاعتدادِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

إظهارُ قدرةِ اللهِ المُطلَقةِ وسلطانِهِ العظيم

أسنَدَ النّظمُ الكريم أفعالَ الإغراق والجَعْل والاعتداد إلى الضّمير (نا) العائدِ عليه سبحانه في قوله تعالى: ﴿أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾؛ لإظهار قدرةِ اللّه المُطلَقة، وسلطانِه العظيم؛ فهو القادر على كلّ شيءٍ، وهو الَّذي يُهلك مَن يشاء، ويُنعِم على مَن يشاء؛ فإذا عُلِم ذلك كان رادعًا للنّاس منَ الوقوع فيما وقع فيه الظّالمون.

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ﴾:

عطفٌ على الإغراقِ لتصييرِهم عِبرةً وعِظَةً لغيرِهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ﴾ عاطفةٌ، فقد عطفَتْ هذه الجملةَ على ما تَقدّم[1] من جملة الإغراق، ومعنى الجملة أنّنا صيّرناهم عبرةً ودلالةً على قدرة الحقّ سبحانه وتعالى، وفي ذلك تعزيةٌ للنّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وتخويفٌ للمشركين[2].

معنى اللّامِ ودلالتُها في قولِه: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

جعلنا إهلاكَ تلك الأقوامِ آيةً للنّاسِ دون سِواهم منَ الخَلْقِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ لإفادة التّخصيص وشِبه المِلك[3]، فقد جعل اللّهُ تعالى قومَ عادٍ وثمودَ وغيرَهم آيةً للنّاس دونَ سواهم منَ الجنّ والملائكة والحيوانات؛ لِما في قصّة تلك الأقوام من عِبَر وعِظات تَخُصّ النّاسَ، كلَّ النّاس دونَ غيرِهم[4]، ولِما في عذابهم من دليلٍ على قدرة اللّه تعالى وعَظَمته، ممّا يُثير الخوفَ والرّهبةَ في قلوب النّاس.

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 15.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 340.
(3) وهو أحد معاني اللّام في كلام العرب، ينظر: ابن القيّم، إرشاد السّالك: 1/ 448.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 19/ 17.

معنى (اللّام) في ﴿لِلنَّاسِ﴾:

اللّامُ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ دالّةٌ على استغراق الجنس، فما فعَله الحقُّ ﷻ مع قوم نوحٍ - الذين كذّبوا رسولَهم فأخذهم الطّوفان وأغرقهم - جديرٌ بأن يكون عبرةً وعِظَةً للنّاس جميعًا، فإنّ مصيرَ مَن يُكذّب الرّسلَ الهلاكُ والعذاب الأليم.

عِـبرةٌ لـلـنّـاس جـمـيـعًـا هـلاكُ قـومِ نـوح غرقًا جزاءَ تكذيبهم

غرَضُ تقديم ﴿لِلنَّاسِ﴾ على المفعول ﴿ءَايَةً﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ إشارةً إلى أنّه يُعتَبر بهذه الآية والعَلامةِ النّاطقةِ المُخَصَّصة لبني الإنسان، فمَن لم يَعتَبِر بقِصّة قوم عادٍ وأضرابهم وعاقبةِ كفرهم؛ فقد خَرَج من دائرة الإنسانيّة؛ لضلاله وفسادِ إدراكه[1]، وانتفاءِ قدرته على التّفكير، وقد حَجَب نفسَه عنِ العِبَر والدّروس من هذه القصّة.

مَـن لـم يَـعـتَـبِر بالآيات الرّبانيّة فهو منبوذٌ مِنَ الإنسانيّةِ

غرضُ تنكير ﴿ءَايَةً﴾:

جاء لفظُ الآية نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾؛ لما في التّنكير من معنى العموم والشّمول؛ فإنّها آيةٌ للجميع؛ آيةٌ للمُكَذِّبين، وقد تَبيَّنَ حُكْمُهم وهو الإهلاكُ والاستئصال، وآيةٌ للمُصَدّقين، وحُكمُهم النّجاةُ والخَلاص منه[2]، كما أنّ في التّنكير إيذانًا بعَظَمة العذاب؛ فقد كان عذابُ قوم نوحٍ عذابًا عظيمًا، تَمَثَّل بالطّوفان الَّذي أغرق الأرضَ، وفيه اعتبارٌ وعِظَةٌ لكلّ سامعٍ ومُشاهِدٍ[3].

الـعـمـومُ والـشّـمـولُ في آيـاتِ الـلـهِ الكونيّةِ

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ دالَّةٌ على العطف، فقد عَطَفتْ هذه الجُملةَ على جملة ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾[4]، والغرضُ: الرّبطُ بين عذاب قوم نوحٍ في الدّنيا، وعذابهم في الآخرة.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5280.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 26.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 218، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 196.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 27.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾:

أغرقناهم في الدّنيا وهيّأنا لهم عذابًا في الآخرة

التّعبيرُ بالفعل ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، معناه: هيّأنا وأحضرنا العذابَ الأليمَ للظّالمين في الآخِرة، بعد أن عذّبناهم في الدّنيا بالغَرق[1]؛ بما كان من تكذيبِهم نوحًا ﵇، يعني: أنّ اللّه تعالى قد هيّأ وأعدّ كلَّ ما يلزم من عذابٍ بشكلٍ مُسبَّقٍ، تهيئةً قريبة جدًّا، وفيها إشارةٌ إلى قدرته تعالى على إنزال العذاب فورًا على وجهٍ ضخم؛ ممّا يدلّ على شِدّته وقوّته، وأنّ ما تمّ تهيئتُه من عذابٍ قد تمّ بعنايةٍ ودِقّةٍ وحُسْن تقديرٍ[2]، وفي ذلك تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ.

معنى اللّام في ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾:

تخصيصُ الظّالمين بالعذابِ المُعدّ لهم في الآخرة

في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أدخل اللّامَ الدّالّةَ على التّخصيص وشِبْه المِلْك[3] على لفظ (الظّالمين)، وهو تخصيصٌ تهكّميٌّ، يُرادُ منه التّقبيحُ والتّشنيعُ من حالهم، فكأنّ العذابَ الأليم قد خُصّصَ لهؤلاء القوم الموصوفين بالظّلم دون غيرهم.

واللّام الثّانية في قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ دالّةٌ على استغراق الجنس؛ أيْ: كلّهم؛ فهو يشمل جميعَ الظّالمين في جميع العصور، وأنّ عذابَهم ناتجٌ عن ظُلمهم، ووضعهِمُ الأشياءَ في غير أماكنها الصّحيحة، ممّا يُخالف الفطرةَ والقانونَ الإلَهيَّ[4].

سِرُّ وضعِ المُظْهَر موضعَ المُضمَر:

عذابٌ أليمٌ ينالُ الظّالمين جميعًا بمَدعاةِ ظُلْمِهم

أظهر النّظمُ الكريم في موضِع الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ تعميمًا لنَيل العذابِ الأليم لِمَن كان على شاكلتهم، وتعليقًا للحُكم عليهم بالعذاب الأليم، بمَدعاة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 27.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 386.

(3) هو أعمّ معانيها في كلام العرب، الرّمّانيّ، منازل الحروف، ص: 50 - 51.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 386.

ما اتّصفوا به منَ الظُّلم والتّكذيب[1]، وعَبّر بالظّلم لشُموله الكُفرَ وغيرَه، فالتّعبيرُ به أعمّ، وفي الإظهار في موضِع الإضمار عنايةٌ ببيان السبب.

غرضُ تنكير ﴿عَذَابًا﴾ ووصفِه بـ ﴿أَلِيمًا﴾:

الـدّلالـةُ على شِـدّة عـذابِ الآخِرة وفظاعتِه

نُكِّر العذابُ ووُصفَ بالأليم في قوله تعالى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ للدّلالة على شِدّته وفظاعتِه، ممّا يُثير الخوفَ والرّهبةَ في قلوبِ الكافرين؛ لأنّه عذابُ الآخرةِ، وأمّا عذابُهم الدُّنيويُّ فقد أخبر عنه من قَبلُ[2]، بأن أغرقَهم، وجعلَهم للنّاس آية.

معنى الواو في قولِه: ﴿وَعَادًا﴾:

ودمّـرنا عـادًا، وجعلناهم آيةً، وأعـتـدْنا لهم عذابًا أليمًا

الواو في قوله: ﴿وَعَادًا﴾ دالّةٌ على العطف، فيَحتمِل أن يكون معطوفًا على قوم نوحٍ؛ أيّ: ودمَّرنا عادًا، أو على المفعول من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾؛ أيّ: وجعلْنا عادًا للنّاس آية، أو على محلِّ قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنّه على تقدير: ووعدْنا الظّالمين[3]؛ فيكون المعنى: ودمّرنا عادًا، وجعلناهم آيةً للنّاس، وأوعدناهم عذابًا أليمًا، ويجوز أن يكون ذكرُ عادٍ وثمودَ بعد ذِكر الظّالمين وما أَعَدّ اللّهُ تعالى لهم منَ العذاب الأليم هو من بابِ عطفِ الخاصّ على العامّ؛ لإفادة المُبالَغة؛ لأنّهم رؤوسُ الظّلمة الَّذين يُجسّدون الذّروة في الظّلم[4].

غرضُ تقديمِ الأسماءِ الأربعةِ:

تـشـويـقٌ إلى معرفةِ خبرِ عادٍ وثمودَ وأصحابِ الرّسِّ وغيرِهم

الأسماءُ الأربعة معمولةٌ لفعلٍ يدلُّ عليه الفعلُ ﴿تَبَّرۡنَا﴾ المُتأخِّر، على تقدير: (تبَّرْنا عادًا وثمودَ وأصحابَ الرّسِّ وقرونًا آخرين)،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 386، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 27.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 218.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 280، والسّمين، الدّرّ المصون: 8/ 483.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 236.

والأصلُ في المفعول أن يتأخَّر عن عامله[1]، لكنّه قدّمها تشويقًا وتطلّعًا إلى ما سيأتي من أخبار عنها[2].

سِرّ إضافةِ لفظ ﴿وَأَصۡحَٰبَ﴾ إلى ﴿ٱلرَّسِّ﴾:

بِئرٌ عظيمة احتَفَروها، ونَزَلوا على رأسِها، وخَسْفٌ أصابَهم فيها

﴿ٱلرَّسِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ بِئْرٌ عظيمة كبيرة، وهو اسمُ نوعٍ أطلقَه العربُ على أماكنَ كثيرةٍ من بلاد العرب، وقد أُضيفَ الأصحابُ إلى ﴿ٱلرَّسِّ﴾؛ لأنّ الحقّ ﷻ خسَفَ بهم في ﴿ٱلرَّسِّ﴾، أو لأنّهم نازلون فيه، أو لأنّ ﴿ٱلرَّسِّ﴾ كان من عمل أيديهم بأنْ حفروه، والإضافةُ هنا كتَسميَةِ أصحاب الأُخدودِ في أنّهم خَدّوهُ فأضرموه[3]، والإضافةُ تصِحّ بأدنى مُلابَسة لفظيّة أو معنويّة، كما هو مُقرّر في كلام العرب[4].

سِرُّ عطفِ ﴿وَقُرُونَۢا﴾ على ما تقدَّمها منَ الأقوامِ:

سيرٌ على خُطى الكافرين، ودرسٌ من عذابِ القرونِ

عطفَ النّظمُ الجليل القرونَ على ما تقدّمها منَ الأقوام الَّذين كذّبوا رُسُلَهم بقوله تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا﴾؛ للإيذانِ بأنّ تلك القرونَ لم تختلف عمّن أهلكهم الحقُّ سبحانه، وذَكَرَهم في الآية؛ بل كانت على شاكلتهم منَ الكافرين والفاسقين[5].

سِرُّ ذِكْرِ ﴿وَقُرُونَۢا﴾ من غيرِ تسميتِها:

هذه القرونُ لم تكنْ في الشُّهرةِ وغرابةِ القِصَّةِ بمثابةِ الأُمَمِ المذكورةِ

لَمّا ذَكَر تعالى نفرًا منَ الأقوامِ المُهلَكين الَّذين كذّبوا رسلَهم، وسمّاهم بأعيانهم بقوله تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾، عطفَ عليهم مثلَهم من غير أن يُسمّيَهم بقوله: ﴿وَقُرُونَۢا﴾، وإنّما ذكرهم إجمالًا؛ لأنّ كلّ قرنٍ منها لم يكن في الشُّهرةِ وغرابةِ القِصَّةِ بمثابة الأُممِ المذكورة[6].

(1) السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 1/ 372.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 27.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 27 - 28.
(4) الصّبّان، حاشية الصّبّان على شرح الأشمونيّ: 2/ 356.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 197.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 219.

سِرّ تقييدِ القُرونِ بقولِه: ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾:

لَمّا ذَكرَ تعالى القرونَ، وصفَهم بالظّرفِ المنصوبِ في قولِه: ﴿وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾، والبينيَّةُ تدلُّ على أنّ هناك كثيرًا منَ الأُمم تخلَّلت تلك الأقوامَ، بَدءًا من قومِ نوحٍ[1].

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البعيدِ:

إيذانٌ بطولِ مُدَد هـذه الـقـرونِ وكثرتِها

يُفْهَم مِن استخدام اسم الإشارة مع حرف البُعد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أنّ الحقّ ﷻ يُشير إلى بُعْد زمنيٍّ كبير بينَهم وبينَ الأمم والشّعوب الَّتي سبقتهم، ممّا يدلّ على طول مُدَد هذه القرون وكثرتها[2]، والفائدةُ مِن ذِكْرهم: الإشارةُ إلى أنّه تعالى أهلك أقوامًا بغير الماء؛ إظهارًا للقُدرة والعَظَمة والاختيار، فذَكر عادًا وإهلاكَهم بالرّياح، وثمودًا وإهلاكَهم بالصّيحة، وأصحابَ الرَّسِّ الَّذين أهلكَهم بالخَسْف[3]، فهذه أمثلةٌ على أنواع العذاب الَّذي أهلك بِهِ الأقوامَ الَّذين ذكرَهم بعدَ قومِ نوحٍ عليه السلام.

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَكُلّٗا﴾:

وحـذَّرنـا كـلَّ فـريـقٍ منهم بإيرادِنا الأمثالَ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾ دالّةٌ على العطفِ، يتوسّط بينَها وبين (كلّ) فعلٍ محذوفٌ يدلُّ عليه ما بعدَه من قوله: ﴿ضَرَبۡنَا﴾، على تقدير: أنذرْنا، أو حذّرْنا، أو خوّفْنا[4]؛ فإنّ ضربَ الأمثال يُراد منه التّخويفُ والتّحذير.

دلالةُ تنوينِ العِوضِ في ﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا﴾:

ضربْنا الأمثالَ لِمَن لم يُذْكَر سببُ هلاكِهم، أو لجميعِ الأممِ

لفظ (كلّ) منَ الألفاظ المُلازمة للإضافة معنًى لا لفظًا[5]، فيأتي مُنوَّنًا، وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 29.
(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 386 - 387.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 489.
(5) ابن مالك، شرح التّسهيل: 3/ 244.

تنوينُ عِوضٍ عنِ المضاف إليه، إمّا عنِ الأُمَمِ الَّتي لم يُذكر أسبابُ إهلاكِهم، وإمّا عنِ الكلِّ، فإنَّ ما حُكيَ عن قوم نوحٍ وقوم فرعونَ تكذيبُهم للآياتِ والرُّسلِ، لا عدمُ التّأثّر منَ الأمثالِ المَضروبة[1].

الموقعُ النّحويُّ لقوله: ﴿ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾ ودلالتُه:

تفسيريّةٌ دالّةٌ على العاملِ في ﴿وَكُلًّا﴾

قولُه تعالى: ﴿ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾ جملةٌ تفسيريّةٌ دالّةٌ على العاملِ في ﴿وَكُلًّا﴾؛ بمعنى: وأنذرنا أو حَذَّرنا كلًّا، بأن نضرب له الأمثال؛ لأنّ ضربَ المَثل يُراد منه الإنذارُ والوعظ والتّحذير[2]؛ وذلك ببيانِنا القِصَصَ العجيبة من قصص الأوّلين على لسان الرّسل، وما كان منهم من تكذيبِهم، وما جرى عليهم من عذابِ اللّه وتدميرِه[3].

سِرُّ إسنادِ ضربِ المَثَلِ إلى ضميرِ العَظَمةِ:

عَظَمةُ اللهِ تعالى وقدرتُه في إيصالِ المعاني وسَحْق الكافرين وتَفتيتِهم

أُسْنِد ضربُ المَثل إلى الضّمير (نا) في قوله تعالى: ﴿ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾؛ لدلالة ذلك على عَظَمة اللّه تعالى وقدرتِه على إيصال المعاني، وتقريبِ المَفاهيم؛ لتكون عِبرةً للنّاس وعِظَةً.

معنى اللّام في ﴿لَهُ﴾ ودلالتُها:

ضَربْنا الأمثالَ الَّتي استحقّها الكافرون بكُفرِهم وضلالِهم

اللّامُ الدّاخلةُ على الضّميرِ المَجرورِ في قولِه تعالى: ﴿ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾؛ لإفادةِ الاستحقاق[4]، في إشارةٍ إلى أنّ الأمثالَ المضروبة قد استحقّها الكافرون بسببِ كُفرِهم وضلالِهم، وأنّ الحقَّ تعالى قد ضَرَبَ الأمثالَ للكافرين ليُبيِّن لهم حماقتَهم وضلالَهم، وليُحَذِّرَهم من عذابِه.

غرضُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَهُ﴾:

ضَربُ الأمثالِ هدايةٌ للأُممِ ورحمةٌ منه تعالى

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على المفعول في قوله تعالى: ﴿ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾؛ اهتمامًا بمَن ضُربَ له المَثلُ، وهو كلّ فريق منَ الأُممِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقلِ السّليم: 6/ 219.
(2) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 22.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 281.
(4) الزَّجّاجيّ، اللّامات، ص: 65.

الماضية، فإنّه مَظْهَرٌ من مظاهرِ رحمته تعالى، في أن لا يُهْلِك الأُممَ إلّا بعد أن يسوق إليها ما يُرشِدها، فكأنّ ضَرْبَ المَثلِ لهذه الأُمم مُختصٌّ بها وحدها؛ كي يكون كفيلًا بإرشادِها نحوَ طريقِ الحقِّ[1].

أرشدناهم إلى طريقِ الحقِّ بإيرادِنا قَصَصَ الأوّلين العجيبَ

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾:

(أل) في قولِه تعالى: ﴿ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾ عهديّةٌ؛ فمعنى الأمثال المضروبة: القَصَص العجيب من قصص الأوّلين الّتي تُشبه الأمثالَ في الغرابة؛ لكي نُرشدَهم إلى طريق الحقّ، ونُبيِّنَ لهم عاقبةَ الكُفر والظّلم، ونُبيّنَ لهم الحُجّةَ، فلا إهلاكَ قبلَ الإنذار، ولم يَضْرِبِ اللّهُ تعالى لهم الأمثالَ الباطلة، كما يفعله الكافرون الّذين يُضلّلون النّاسَ بما يزعمون من خرافاتٍ وأكاذيب[2].

عاقبةُ المُكذِّبين هـلاكُ الـقرونِ كلّها

معنى التّنوينِ ودلالتُه في ﴿وَكُلًّا تَبَّرۡنَا﴾:

تنوينُ لفظ (كلّ) في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾ يُسَمّى تنوينُ العِوض[3]؛ تعويضًا من لفظٍ محذوف، والتّقدير: (وكلّ قرنٍ وأُمّةٍ منَ الأمم الّتي كَذَّبت رسلَها عاقبناهم عقابًا شديدًا، وأهلكناهم إهلاكًا لا قيامَ له منه)[4]، وفي الحذف اختصارٌ وإيجازٌ، ولفظ ﴿وَكُلًّا﴾ منصوبٌ بإضمار فعلٍ يدلُّ عليه الفعلُ المُتأخّر ﴿تَبَّرۡنَا﴾[5]؛ أيْ: وكلًّا منَ الأقوام الّذين تقدّم ذِكْرُهم وغيرها تبّرناهم، وأهلكناهم بما كان منهم من كُفرٍ وتكذيبٍ، وهو من قَبيلِ الاشتغالِ[6].

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 197 - 198.
(2) القنوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 9/ 311.
(3) قد يكون عوضًا من حرفٍ أو عوضًا من كلمةٍ، وهو الوارد هنا، أو عوضًا من جملةٍ، ينظر: المراديّ، الجَنَى الدّاني، ص: 145.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 198.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 29.
(6) أن يأتي اسمٌ منصوبٌ بعاملٍ لازِمٍ إضمارُه على شريطة التّفسير، كقولهم: زيدًا ضربتُه، كأنّك قلتَ: ضربتُ زيدًا ضربتُه، لكنّه لا يَبرُزُ استغناءً بتفسيره، ينظر: الخوارَزميّ، التّخمير شرح المُفصَّل في صنعة الإعراب: 1/ 384.

سِرُّ إسنادِ الفعلِ إلى الضّميرِ الدّالِّ على التّعظيمِ:

لدلالةِ ذلك على عَظمةِ اللهِ تعالى وقدرته على إهلاكِ المُكذّبين

أُسنِد فعلُ التّتبير إلى الضّمير (نا) في قوله تعالى: ﴿تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾؛ لدلالةِ ذلك على عَظَمة اللّه تعالى وقدرته على إهلاك المكذّبين، وفي التّتبير تحذيرٌ منه تعالى للكافرين والضّالّين من عواقبِ كُفرِهم وضلالِهم بأنْ يسحَقَهُم ويُفتِّتَهُم.

دلالةُ التَّتبير، ووجهُ المَجازِ فيه:

أهلكناهم كما نَسْحَقُ الأجسامَ الصُّلبةَ ونُفتِّتُها

التّتبيرُ هو مصدر الفعل (تَبَّرَ)، ويعني: التّفتيتَ والتّكسير للأجسامِ الصّلبة، وفي ذلك إشارةٌ إلى قدرة اللّه تعالى على تفتيتِ وتكسيرِ الأقوى والأصلَبِ، ممّا يدلّ على عِظَم قُدرته وسُلطانه سبحانه، وأطلِق التّتبير على الإهلاك على طريقةِ الاستعارة التّبعيّة في ﴿تَبَّرۡنَا﴾، حيثُ تمَّ تشبيهُ الإهلاكِ بتفتيت وتكسير الزّجاج والحديد، وأمّا قولُه: ﴿تَتۡبِيرٗا﴾ فهي استعارة أصليَّة، إذ جَعَل (التّتبير) هو الإهلاكَ نفسَه[1].

سِرّ توكيدِ التّتبيرِ بالمفعولِ المُطلَقِ:

أهلكناهم إهلاكًا شديدًا هائلًا لا تتصوَّره العقولُ بموجِبِ تكذيبِهم

لفظُ التّتبير في قولِه تعالى: ﴿تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾ منصوبٌ على أنّه مفعولٌ مُطلَق[2]، والغرضُ منه: توكيدُ عامله، وهو فعل التّتبير؛ لإفادة الهلاك الشّديد الواقعِ عليهم[3]، والمبالغةُ في هذا الفعل مُؤذِنةٌ بتوكيد وقوعه وتعظيمِه، وهو ما يقتضيه المقامُ بما كان من هؤلاء من عدم إجابة الدّعوة، وتكذيبِ الرُّسل، والمعنى: تَبَّرهم تتبيرًا عظيمًا بأنّ أهلكَ تلك الأقوامَ إهلاكًا ساحقًا، فجعلهم قِطعًا مُفتَّتةً تفتيتًا بليغًا، لا يَقدِر أحدٌ على لَمِّ شَعَثِهم، وإعادتِهم إلى ما كانوا عليه[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 29.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 29.
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 388.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القَرْنُ والأُمّةُ:

القَرْنُ: يقع على مَن يكون منَ النّاس في مُدّة زمنيّة محدودةٍ كسبعين سنةً[1]، أو أكثرَ من ذلك، أو أقلّ.

أمّا الأُمّة: فهو مصطلحٌ يُستعمَل عادةً لوصف مجموعاتٍ بشريّة تُميِّزُها سِماتٌ مُشترَكة، إلّا أنّ للأمّة معانيَ كثيرةً؛ كالجماعة، والمِلّة، والسِّنين، والحين، والإمام، والرَّجلِ العظيم، وغيرها[2]، الواردة آياتُها في القرآن الكريم.

الـقَـرْن: يقعُ علـى مَـن يكون مــنَ الـنّـاس في مُـدّة زمنيّة وإنِ اختلفت ثـقـافـاتُـهـم وأديانُهم

وفي استعمال لفظ (القُرون) دون (الأُمّة) في الآيةِ سببان؛ **الأوّل:** التَّركيز على الزّمن في استعمال مُفرَدة القَرْن، والإشارة إلى مُدّةٍ زمنيّةٍ مُحدّدةٍ، دونَ التّركيز على العواملِ الأُخرى؛ كالدّين أو اللّغة أو الثّقافة، **والثّاني:** التّعميم، فإنّه يمكن أن يشمل القَرْنُ شعوبًا من أديانٍ ولُغاتٍ وثقافاتٍ مختلفة، خِلافَ الأُمّة الَّتي تجمَعُها سِماتٌ مُشترَكة.

التّتبيرُ والإهلاكُ:

التّتبيرُ: التّدمير والتّكسير والتّفتيت؛ فكلّ شيءٍ كسَّرتَه وفتَّتَه فقد تبَّرتَه[3]، أمّا الإهلاك: فيَحتَمِل معانيَ كثيرةً، فقد يكون يأتي بمعنى الموت، أو الفناء، أو العذاب، أو الذّهاب، أو الفساد[4].

كـلُّ أمّـةٍ كذَّبت رســولَــهـــا استحقَّت عذابًا مُـدَمِّرًا وتفتيتًا عظيمًا

وعليه: فإنّ التّتبير أخصُّ منَ الإهلاك، وقد استُعمِل في الآية لإرادة التّدمير الشّامل، والإبادة العظيمة، ولم يُستعمَل لفظُ الإهلاك في هذا السّياق لاحتماله لمعانٍ كثيرة.

(1) العسكريّ، الفروقُ اللّغويّة، ص: 427.
(2) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 33.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبر).
(4) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 502.

﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ٤٠﴾ [الفرقان: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العذابُ الإلهيُّ يتجلَّى في الماءِ وغيره، تذكيرٌ بقُدْرةِ اللهِ وعَظَمتهِ

لمّا كان سَوقُ خبرِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرّسّ وما بينَهما منَ القرون مقصودًا لاعتبار قريشٍ بمصائرِهم، نقل نظمُ الكلام هنا إلى إضاعتِهم الاعتبارَ بذلك، وبما هو أظهَرُ منه لأنظارِهم، وهو آثارُ العذابِ الَّذي نزل بقريةِ قومِ لوط[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾: (قرى) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جمعٍ واجتماع، ومنه القرية، وهي معروفة، وسُمّيت بذلك لاجتماع النّاس فيها[2]، ويجوز أن تكون القرية على عدّة معانٍ؛ الأوّل: على مكانِ اجتماع النّاس؛ والثّاني: على النّاس المجتمِعين في مكانٍ واحدٍ؛ والثّالث: على الاثنين معًا المكانِ والنّاس[3]، ويجوز في القرية أن تُطلَق على البلْدة الصّغيرة، وعلى المدينة الكبيرة، وتُطلَق أيضًا على المِصْر الجامِع، والجمعُ: قُرَى[4]، ومعنى ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ في الآية: هي القريةُ الَّتي كانت مَسْكنًا ومُجتَمعًا لقوم لوطٍ الَّذين عُذّبوا بالحجارة رميًا[5].

2) ﴿أُمۡطِرَتۡ﴾: (مطر) أصلٌ صحيح بمعنى الغَيث الَّذي ينزل منَ السّماء، والمطرُ ما انسكب منَ الماء منَ السّحاب، والمطرُ واحدُ الأمطار، ومطَرَتِ السّماءُ، وأمطرها الحقّ سبحانه، ويجوز أن

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 29.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رقي)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قري).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (قرى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرى).
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 322.

يُستعمَل لنُزول العذاب، ونقيضُه الرّحمة، ويُقال: إنّ (مطرَ) في الخير، و(أمطرَ) في العذاب، والوارد في الكتاب الكريم هو مطرُ السّحاب، وما جاء منه دالًّا على العذابِ فمن باب التّشبيه في التّصوُّب من الأعلى[1]، ومعنى ﴿أُمۡطِرَتۡ﴾ في الآية؛ أيِ: نَزَلَتْ عليها حجارةٌ من سجّيل منَ السّماء؛ عذابًا وإهلاكًا[2].

3) ﴿ٱلسَّوۡءِۚ﴾: (سوء) تدلُّ على القُبح، "والسّوء وصفٌ لكلّ شيءٍ رديء؛ وهو اسمٌ جامعٌ للآفات والأدواء[3]، والرّجلُ السَّيِّئ بمعنى: القبيح، وكذا المرأة، وسُمّيت السَّيّئةُ سَيّئةً لقُبْحها، وسُمّيت النّار سَوأى؛ لقُبْح منظرِها، والمعنى العامُّ للسّوء: ما يحصُل للإنسان منَ الغمّ والهَمّ من أمور الدّنيا والآخِرة، وما يَعرِض له منَ الأمور النّفسيّة؛ كفقدِ المال والجاه وغيره، وكلّ فعلةٍ قبيحة فهي سيّئةٌ من السّوء[4]، ومعنى ﴿ٱلسَّوۡءِۚ﴾ في الآية: إشارةٌ إلى الحجارة الّتي رُموا بها[5]؛ فأهلكتهم لِما ارتكبوا منَ الفاحشة الّتي عُرِفوا بها.

4) ﴿نُشُورًا﴾: (نشر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فتحِ شيءٍ وتَشعُّبِه[6]، والنّشر بمعنى البَسْط، يُقال: نشرتُ الثّوبَ والكتابَ: بسطتَهما، والنّشور الحياة بعد الفَناء والموت، فنَشْرُ الميت هي حياتُه بعد الموت، وهو مُستعار من نشر الثّوب، ونَشَرتِ الأرضُ: إذا أنبتتْ وأصابَها الرّبيعُ، وأنشر اللّهُ الموتى فنشروا؛ أيْ: قاموا أحياءً؛ تشبيهًا بحال الأرض الّتي أصابَها الرّبيع فأنبتت بعد جفافٍ، والمعنى المحوريّ للنّشر يدلّ على التّفرّق والامتداد، أمّا نشرُ الميّت فهو من المَجاز[7]، ومعنى النّشور في الآية: البعثُ وإحياءُ الموتى، فقد كان هؤلاء قومًا مُنكِرين للآخرة، لا يُؤمنون بالبعث، ولا يريدون أن يُؤمنوا به، ولا يَرجون ثوابَه[8].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُخبِر الحقُّ ﷻ عن قريشٍ، وعن مسارِ تجارتِهم إلى الشّام، ومُرورِهم كثيرًا بآثار

---

(1) الرّاغب، المُفرَدات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مطر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 112.
(3) الخليل، العين: (سوأ)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (سوأ)، والسَّمين، عُمدةُ الحُفّاظ: (سوا).
(5) العليميّ، فتح الرّحمن: 5/ 26.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/ 430.
(7) الرّاغب، المُفرَدات، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (نشر).
(8) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 102.

قَسوةُ القلوبِ تُعْمي عن الاعتِبارِ بمصيرِ الهالكين

قوم لوطٍ، وقريتِهم الَّتي أُمطِرَتْ عليها الحجارةُ؛ يعني: سَدوم، عُظمى قُرى قوم لوطٍ الَّذين عذّبهم اللّهُ تعالى؛ فجعل عاليَها سافِلَها، وأمطرَ عليهم حجارةً من سِجّيل، أَفَلَم يَكونوا يَرَوْنَها في مرارِ مُرورِهم فيتَّعِظوا بما يَرون فيها من آثارِ عذابِ اللّه؟ بل كانوا كفَرَة لا يتوقَّعون نشورًا ولا عاقبةً، فلذلك لم ينظروا ولم يتَّعِظوا، فمَرُّوا بها كما مَرَّت رِكابُهم، أو أنّهم كانوا لا يأْمُلون نُشورًا كما يأمُلُه المؤمنون طَمَعًا في الثّوابِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في صَدْرِ الآيةِ:

مَرّوا على آثارِ الأُمَمِ الهالِكة فلم يَعتبروا

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ لإفادةِ الاستِئْنافِ[2]؛ فالجملة مُستأنَفَةٌ ومَسوقةٌ لبيان مُرورِ المُشركين، ومُشاهدتِهم لآثار هلاكِ بعض الأُمم المُتَبَّرة، كقُرى قوم لوطٍ، ولسانُ الحالِ ناطقٌ بأنّكم مررتُم بهذه القرية، ورأيتُم آثارَ هلاكِ قوم لوطٍ، فكيف لا تتَّعِظون؟!«[3]، وقد ساق النّظمُ الكريمُ أخبارَ القوم المُهْلَكين؛ قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحاب الرَّسِّ، والقرونِ الَّتي بينَها؛ بقَصْد الاعتبار بمصائرِ تلك الأقوام، وغايرَ هنا في الكلام؛ ليُظْهِرَ إضاعةَ قريشٍ الاعتبارَ بهذه الأخبار، وبما هو أظهَرُ منه لأنظارِهم، وهو آثارُ العذابِ الَّذي نزَل بقريةِ قوم لوطٍ[4].

معنى اللّامِ و(قد)، وسِرُّ تصديرِ الكلامِ بهما مُقترِنَيْن:

تعجيبٌ من حالِهم في عدمِ اعتبارِهم بآثارِ الأُمَمِ المُهلَكةِ

صُدِّر قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ﴾ باللّام الموطِّئة للقَسَم و(قد) الَّتي تُفيد التّحقيق والتّوكيد[5]؛ أيْ: إنّ ما بعدَها مُحَقَّقٌ لا شَكّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 125.
(2) بهجت صالح، الإعراب المُفصَّل: 8/ 127.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 219.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 29.
(5) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1592.

فيه، وفي القَسَم والتّحقيق تحذيرٌ من عاقبة الكُفر والظُّلم، وإثارةٌ للخوف والرَّهبة في قلوب الكافرين، فاللّامُ و(قد) بعد الواو مُؤْذِنةٌ بعظيم الاهتمام، ومزيدٍ منَ التّوكيد، توكيدِ عِظَم شأنِ قِصّةِ قوم لوطٍ، وكيف أنّ المُخاطَبين لم ينتفعوا بآياتِ اللّه تعالى، كما لم ينتفع المُنكِرون بالمَحسوسات[1]، وذلك يدلّ على أنّهم كانوا قُساةَ قلوبٍ، مُنكرينَ للحَق، مُعْرِضين عن آياته تعالى.

وقد يُفيد التّعجيبُ من حالهم في أنّهم لم يَعتبِروا ممّا جرى لقوم لوط، وهُم يرَون آثارَ العذابِ شاخصةً أمامَهم في أسفارِهم وتجارتِهم إلى الشّام، فإنّهم يَمُرّون بديار قوم لوطٍ مُحاذين لبُحيرة لوطٍ الّتي تقع بقايا قريةِ سَدوم على حافاتِها، وقد غَمَر الماءُ معظمَها[2]؛ فهذه دلائلُ وعلاماتٌ على مآلِ الأُمم الّتي أهلكها اللّه، ولم تنَلْ منِ اعتبار المشركين إلّا عِنادًا ومُكابَرة.

فائدةُ توالي المؤكّداتِ:

مـــرورٌ مُـؤكَّـدٌ مُـحـقَّـقٌ، دالٌّ على قوّةِ الإنكارِ، وعدمِ الاعتبارِ

توالَتِ الألفاظُ الدّالّةُ على التّوكيدِ والتّحقيقِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ﴾، وهي اللّام و(قد) والفعل الماضي ﴿أَتَوۡاْ﴾، وفائدةُ التّوكيد: ثبوتُ مرورِ هؤلاءِ على القريةِ المَذكورةِ ثبوتًا لا خِلاف فيه، وتوظيفُ هذا الثّبوتِ للدّلالة على قوّةِ الإنكارِ في الاستفهام الواردِ فيما بعدُ بقولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾[3]، بأنّهم وإن كانوا يرَون آثارَها الدّالّةَ على عذاب اللّه، لكنّهم لم ينتفِعوا بهذه الرّؤية في العِظَةِ والاعتبارِ.

دلالةُ تعديَةِ فعلِ ﴿أَتَوۡاْ﴾ بـ ﴿عَلَى﴾، وإيثارُ الفعلِ الماضي:

العِظةُ والاعتبارُ بما آلَ إليه حالُ القريةِ المُدمَّرة

يَرِدُ فعلُ الإتيانِ لازمًا بمعنى المَجيء، ويُستعمَل مُتعدّيًا بنفسه، فإذا تعدّى بـ(على)؛ كان بمعنى المُرورِ[4]؛ وهو الوارد في قولِه تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 389.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 29 - 30.
(3) المَطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 56 - 57.
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (أتي).

﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ﴾؛ فجَعَل فعلَ الإتيان مُتضمِّنًا معنى فعلِ المرورِ؛ فعدّاه بالحرفِ ﴿عَلَى﴾؛ فالإتيانُ مُتعدٍّ إلى اسم القرية، والقصدُ منَ المُرور العِظةُ والاعتبار بما آلَ إليه حالُ أهلِها منَ العذاب[1]، وقد أوردَ فعلُ الإتيان الدّالّ على المرور ماضيًا بقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ﴾؛ للإيذان بأنّ حصولَ المرور مَرّةً واحدةً كافٍ في العِبرة والتّفكُّر والمَوعظةِ[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ وفائدةُ مجيئِها مُفرَدَةً:

خمسُ قرًى لا قريةٌ واحدةٌ، عاقبةٌ مُزَلزِلةٌ للكافرين

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ دالّةٌ على الجنسِ، فإنّها لم تكن قريةً واحدةً كما هو ظاهرُ اللّفظ؛ بل كانت خمسَ قُرًى، وهي قُرَى قوم لوطٍ الّتي أهلكها الحقُّ سبحانه بالحجارة، فلم تَنْجُ منها إلّا واحدةٌ؛ فقد كان أهلُها لا يعملون العملَ الخبيثَ، وأمّا البواقي فأهلكها اللّهُ تعالى بالحجارة[3].

يجوز أن تكون للتّعريف العهديّ

ويجوز أن تكون (أل) في ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ للتّعريف العهديّ؛ فإنّ القرية المَذكورة في الآية الكريمة هي قرية (سَدوم)، كُبرى قرى قوم لوط عليه السلام، ومع أنّ القُرى كانت خمسًا أو أكثر من ذلك، إلّا أنّه لَمّا كانت أعظمَ تلك القُرى أَفْرَدها، وجعلَ ما وراءَها تبعًا لها[4].

قد يكون غرضُ الإفرادِ تحقيرَ أهلِ القريةِ

وقد يكون الغرضُ منَ الإفراد للقرية أن يخلع عليها صفةَ التّحقير، وأن يُهين مَن حَقّ عليه العذابُ، وأنّ الّذين قاموا بالفاحشة وإن كانوا جمعًا إلّا أنّهم في فجورهم كالشّيء الواحد، يُؤيّدُه اشتقاقُ القريةِ من (قرا) الدّالّ على الجمع[5].

سِرّ تقييدِ القريةِ بـ﴿أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾:

اشتهارُها بمضمون الصِّلة، وهو إمطارُها بالحجارة

وصفَ اللّهُ تعالى القريةَ بأنّها ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾، وهي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 113، 19/ 30.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 22.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 219.
(4) الرّازيّ، أُنموذجٌ جليلٌ، ص: 394.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 13/ 389.

قرية (سَدوم) أعظمُ قرى قوم لوطٍ؛ لاشتهارِها بمضمونِ الصّلة بين العرب وأهلِ الكتابِ[1]، وهو إمطارها منَ اللّه تعالى بالحجارة، وإبادةُ أهلِها جزاءَ فاحشتِهم الشّنيعة، وهذا الوصف هو كناية عنِ القُرى الَّتي أهلكها اللّه تعالى من قُرى قوم لوطٍ موضع العِظَة والعِبرة، وفي الكناية إظهارٌ لَمحطِّ الاعتبار، وهو البلاءُ والعذاب الَّذي حلّ على قوم لوطٍ، بأن أمطرَهم الحَقّ ﷻ بالحجارة؛ لمّا أتَوا منَ الفواحش الشّنيعة والأفعالِ القبيحة ما لم يأتِه أحدٌ منَ العالَمين، فترَكُ الكنايةِ والتّعبير بذلك ممّا يُفوِّت مَلْحَظَ العِبرة والإنكارِ والتّوبيخ في مرور المشركين عليها[2].

دلالةُ التّعبير بـ ﴿أُمۡطِرَتۡ﴾ مادّةً وصيغةً:

نزلتِ الحجارةُ على رؤوسهم جزاءَ أفعالِهم

استُعمِل الفعلُ المبنيُّ للمفعول في قوله تعالى: ﴿أُمۡطِرَتۡ﴾[3]؛ لعدم تعلّق الغرضِ بالفاعل، وهو الحقّ ﷻ؛ بل أراد الاهتمامَ بالحدث نفسِه، وهو إمطارُهم بالحجارة جزاءَ أفعالِهم القبيحة[4]، ومُرْتكَباتِهم الشّنيعة، وكما يَنزلُ المطرُ على رؤوس النّاس، نزلتِ الحجارةُ على رؤوس قوم لوطٍ، وفي التّعبير بالفعل مبنيًّا للمفعول أيضًا إيذانٌ بأنّ إمطارَها بالحجارة قد وقع منَ الحقّ ﷻ، المُتّصِفِ بالعَظَمة، الَّذي لا يقدر على الإمطار بالحجارة إلّا سواه[5].

بلاغةُ التّعبيرِ بالتّشبيهِ في قولِه: ﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾:

عذابٌ نازلٌ عليهم منَ السّماء على هيئة حجارةٍ من كِبريتٍ ورمادٍ

في حديثِ القرآن عنِ القرية الَّتي أهلكَها قال: ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، جاء المُراد بـ﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ بمعنى العذاب النّازلِ عليهم منَ السّماء على هيئة حجارة من كِبريت ورماد، فهو ليس مطرًا في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 30.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 57.
(3) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1592.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 3/ 57.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 13/ 389.

حقيقته، إنّما ورد هنا على طريقة التّشبيه[1]، بجامع النّزول منَ السّماء إلى الأرض، وفي التّشبيه تصويرٌ لشِدّة العذاب، وبيانٌ "لنزولها عليهم منهَمِرةً انهمارًا، فهو ليس مطرًا ولا ماءً مُغيثًا؛ بل مَطرُ حجارةٍ أُريدَ بها أن تحطمَهم، فهو مُؤلمٌ سيِّئٌ في ذاته، وفي عُقباه[2].

سِرُّ إضافةِ المَطَرِ إلى السَّوءِ:

مطرٌ ليس له صِفةٌ غير السَّوءِ والضَّررِ

أُضيفَ المطرُ إلى صفته، وهو السَّوء في قوله تعالى: ﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾؛ للدّلالة على اختصاصه بها[3]، وشِدّة تعلُّقِه بهذه الصّفة الذّميمة، وأنّ المطر ليس له صفة غير السَّوء والضّرر؛ فقد يتوهَّم مُتوهِّم أنّه مطرُ غيثٍ نافعٌ، والصّوابُ خِلافُ ذلك، ويجوز أن تكون الإضافةُ من بابِ الاستعارةِ التّهكّميّةِ؛ لأنّها حجارةٌ من سِجّيلٍ[4]؛ فالإنسانُ ينتظرُ حلولَ الخيرِ عليه بنزولِ المطرِ النّافعِ، وإذا به يرَى الحجارةَ منَ السّماءِ تنهمرُ عليه.

نُكْتَةُ فصلِ قولِهِ: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾:

كانوا يرَون آثارَ الأُممِ الهالكةِ من غيرِ اعتبارٍ وتذَكُّرٍ

لمّا كان قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾ استفهامًا إنكاريًّا، فُصِلت الجملةُ عن سابقتِها ولم تُعطَف، والاستفهامُ يُراد منه الإثباتُ؛ لأنّ إنكارَ النّفيِ تقريرٌ وإثباتٌ؛ والمعنى: أنّهم كانوا يرَونها، فلماذا لم يتّعظوا ويعتبروا ويذّكّروا[5].

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

سؤالُ إنكارٍ، وإيقاظٌ للعقول لعدمِ اعتبارِها بآثارِ الأُممِ المُعذّبةِ

لمّا أخبر تعالى عن حالِهم في رؤيتهم آثارَ العذابِ، وعدمِ انتفاعِهم به بقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾؛ فرّع عليه استفهامًا صوريًّا عنِ انتفاء رؤيتهم إيّاها بمرورهم عليها، فإنّهم لم يعتبروا بها، فكأنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 30.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5283.
(3) زادة، حاشيته على تفسير البيضاويّ، ص: 293.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 14/ 101.
(5) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 7/ 28.

سائلًا يسأل: هل رأَوْها؟ فهو استفهامٌ صوريٌّ؛ لتنبيه العقول لمعرفة حالهم، وهو استفهامٌ إمّا للإنكار والتّهديد، أو لإيقاظهم لمعرفة علّة عدم اتّعاظهم[1]، والاستفهام هنا دالٌّ على التّوبيخ للذين لا يَتذكّرون ولا يتّعظون عند مشاهدةِ ما يوجِبُ التّذكُّرَ؛ كآثار الأُمم الهالكة، وفيه تنبيهٌ للنّاسِ على غفلتهم وضلالهم، والتّصديرُ بالهمزة يُفيد نفيَ استمرارِ رؤيتِهم لها، فيؤول المعنى إلى أنّهم كانوا ينظرون إليها، لكنّهم لم يكونوا يرَونها؛ أيْ: لا ينتفعون برؤيتهم تلك، فالإنكار مُتوجِّهٌ إلى نفي استمرار الرّؤية، وإثباتِ ذلك الاستمرار حسَبَ أسفارِهم ومشاهداتهم[2].

معنى الفاء ودلالتُها على المحذوف في ﴿أَفَلَمۡ﴾:

عـطـفُ نـفـيِ النّظرِ على مُقدَّرٍ هو نفيُ الرّؤيةِ لحصولِ العِظةِ والاعتبارِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾ عطفَت مدخولَها على مُقدَّرٍ بمُقتضى المَقام، على تقدير: ألم يكونوا ينظرون إليها؛ فلم يكونوا يرونها بتَرْكِ النّظر والرّؤية معًا، أو أَكانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها بعدم الرّؤية مع تحقُّق النّظر على الرّغم من تكرار مرورهم بها؛ لتَحصُلَ لهم العِظةُ والاعتبار بمشاهدتهم آثارَ العذاب الواقع على قوم لوطٍ[3].

نُكْتَةُ دخولِ فعلِ الكونِ، وصيغةُ المضارعِ فيه:

جُبِلوا على عدمِ الرؤيةِ الموصلةِ إلـى الاعـتـبـارِ والعِظةِ

دخولُ فعلِ الكون في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ﴾ بصيغة المضارع؛ يدلُّ على جِبِلّاتهم وطباعِهم[4] في عدمِ الرّؤيةِ الموصلةِ إلى الاعتبارِ والعِظةِ، فضلًا عن دوامِهم على جِبِلَّتهم تلك؛ فإنّ (كان) مع الفعل المضارع لإفادة سِمَةِ الاستمرارِ والتّجدُّد[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 30.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 55 - 56.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 219.
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 390.
(5) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 101.

فائدةُ التّعبيرِ بفعلِ الرّؤيةِ مُضارِعًا:

تجدّدُ رؤيةِ قريشٍ لآثارِ عذابِ قومِ لوطٍ ذَمٌّ وتقبيحٌ لعدمِ اتّعاظِهِم

لَمّا كان من شأن قريشٍ أنّهم "مرّوا مِرارًا كثيرة في مَتاجرِهم إلى الشّام على تلك القرية الَّتي أُهلِكَتْ بالحجارة منَ السّماء"[1]؛ جاء التّعبير بفعل الرّؤية مُضارعًا للدّلالة على التّجدُّد والاستمرار، وفي ذلك ذَمٌّ وتقبيحٌ لهم؛ فإنّهم مع كثرة تَردادِهم لم يتّعظوا ممّا يُشاهِدون من آثار عذاب اللّه وتنكيلِه بالُمجرمين، والتّعبير بفعل الرؤية يتجاوز معنى الرّؤية البصريّة إلى أن يتفكَّروا ويَحْذروا أن يَنزلَ بهم ما نزل بقوم لوطٍ[2]، بمَدعاةِ ما كان منهم من تكذيبِ نبيِّهم، وارتكابِهِمُ الأفعالَ القبيحة الَّتي اشتُهِروا بها.

نُكْتَةُ فصلِ قولِه: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾:

تَحدّي قريشٍ للبعثِ والنّشورِ دليلٌ على كُفرِهِم

قولُه تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾ جُملةٌ مفصولة عمّا سبق من الجُمل[3]، وقدِ انتهى الكلامُ في الجُملة السّابقة إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾، ثمّ فُصِلت هذه الجُملةُ عن سابقتها؛ لِما في معناها منَ الإضراب الانتقاليِّ، فهو تحوُّل من وصف تكذيبهم الرّسولَ ﷺ، وغفلتِهم وانتفاءِ اعتبارِهم بما حلَّ منَ الأُمم الَّتي أهلكها الحقّ سبحانه إلى ذِكْر تكذيبِهم بالبعثِ[4].

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالتُها:

غافلون عنِ الاعتبارِ بالرّؤيةِ لِكُفرِهِم وتكذيبِهم بالدّارِ الآخرة

قولُه تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾ يجوز أن تكون ﴿بَلۡ﴾ دالَّةً على الإضرابِ، انتقالًا من توبيخِهم وتقريعِهم على أنّهم لم يعتبروا ويتّعظوا إلى التّلميحِ إلى كُفرِهم بالبعثِ، والكنايةُ بنفي رجائِهم بعثًا بعد الموتِ[5] دلالةٌ على انتفاءِ رؤيتِهم لآثارِ العذابِ الواقعِ على أهلِ

(1) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 281.
(2) ابن أبي زَمَنِينَ، تفسير القرآن العزيز: 3/ 261.
(3) مكّيّ، الهداية: 8/ 5227.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 30.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 57.

القُرى منَ العقوبةِ والجزاءِ، وبيانُ أنّ عدمَ اتّعاظِهم إنّما هو بسببِ إنكارِهم لكَوْن ذلك عقوبةً لمعاصيهم(1)، ودلالةُ ﴿بَلۡ﴾ على الإضرابِ على تقديرِ: بل رأوها؛ فإنّ تكذيبَهم وإنكارَهم ليس بسبب عدم رؤيتها، وانتفاءِ علمِهم بما حلّ بأهلها منَ العذاب والتّنكيل؛ بل بسبب تكذيبِهم بالدّار الآخِرة، كأنّهم مطبوعون عليه، مُسْتَقِرٌّ في جِبِلّاتهم(2).

معنى فعلِ الكونِ ماضيًا ﴿كَانُواْ﴾:

تكذيبُهم بيومِ البعثِ طَبْعٌ مُتأصِّلٌ فيهم

التّعبير بفعل الكون ماضيًا في انتفاء رجائِهم يومَ البعث والنّشور في قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾؛ دلالةٌ على أنّ تكذيبَهم بيوم القيامة طبعٌ مُتأصِّلٌ فيهم(3)، وهم ثابتون عليه، بما يَبثّه الفعل الماضي من معنى التَّحقُّق والثُّبوت، ونفيُ التَّكوين أبلغُ من نفي الفعل.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

دأبُهم أنّهم لا يأمُلون النّشورَ الموصِلَ للثّوابِ، ولا يخافون العقابَ

التّعبيرُ بفعلِ الرّجاءِ منفيًّا في قوله تعالى: ﴿لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾؛ للدّلالةِ على أنّهم لا يتوقّعون نُشورًا وعاقبةً، ولا يخافون عقابًا، أو لا يأمُلون نشورًا كما يأمُله المؤمنون الطّامعون في الوصول إلى ثوابِ الأعمال(4)؛ ولأنّه استقرّ في أنفسِهم اعتقادُهمُ التّكذيبَ بالآخرة، ورسخَ في قلوبهم إنكارُهم لليوم الآخِر، وتمادَوا في غيِّهم وضلالهم قرونًا طويلةً، حتّى تمكّن تمكُّنًا لا ينفعُ معه الاعتبارُ إلّا لِمَن شاء المولى سبحانه(5)، وانتفاءُ رجاءِ النّشور منهم هو الَّذي جَرَّأهم على التّكذيب، فهم لا يخافون بعثًا ولا نشورًا، والرّجاء ليس بمعنى الخوف؛ بل إنّهم كانوا لا يرجون ثوابَ عملِ الخير، وجزاءَ الصّالحات؛ فكان منهم أن اقترفوا المعاصي، وباشروا الموبِقات(6)،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 219 - 220.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 390.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 390.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 281.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 13/ 390.
(6) ابن الجَوْزيّ، زادُ المسير: 3/ 322.

واستُعملت صيغةُ المضارع الدّالّةُ على التَّجدُّد والاستمرارِ؛ للإشارة إلى أنّ هذا دأبُهم في كلِّ وقتٍ وأوانٍ.

دلالةُ عدمِ التّصريحِ بإنكارِ البعثِ إلى إنكارِ رجائِه:

مُنكِرُ البعثِ لا يَرجو نفعًا ولا يَخشى ضرًّا

عبّر النّظمُ الجليل عن إنكار الكافرين للبعثِ والنّشور بانتفاءِ رجائه دونَ التّصريح به بقوله تعالى: ﴿لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾؛ لأنّ مَن أنكرَ البعث فهو لا يرجو منه الفائدةَ والنّفع، ولا يخشى منه الضّرّ والأذى؛ فجاء التّعبيرُ عن إنكارِ البعثِ بأحدِ وجهَيِ الإنكارِ؛ تعريضًا بأنّهم ليسوا كالمؤمنين الّذين يرجون رحمتَه، ويخشَون عقابَه[1].

الغرضُ من تنكير ﴿نُشُورٗا﴾:

تعظيمٌ لقدرتِهِ تعالى، وتوبيخٌ وتقريعٌ للمُنكِرين

أوردَ لفظُ النّشور نكرةً في قوله تعالى: ﴿لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾؛ للدّلالة على التّعظيم؛ أيّ: عَظَمةِ اللّهِ وقدرته على إحياء الموتى وبَعْثِهم، وعدمُ تعريفِه يُضفي عليه هالةً منَ الرّهبة والعَظَمة، وفيه مزيدُ توبيخٍ للمنكرين؛ فإنّ إنكارَ الأمر العظيم وسْمٌ لَمَن يُنكِره بالقُبح والشّناعة والشّنار.

بلاغةُ التّعبيرِ عن إنكارِ الجَزاءِ الأُخرويِّ بإنكارِ النّشور:

إنكارُ النّشور مُستلزِمٌ عندَهم إنكارَ الجزاءِ الأُخرويِّ

إنكارُهم للنّشور في قولِه تعالى: ﴿لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾ ليس على حقيقته؛ بل هو إنكارُ الجزاءِ الأُخرويّ، الَّذي هو الغايةُ من خَلْق العالَم المُستَلْزِم للبعث والنّشور؛ فإنّ حالَهم حالُ مُنكِرٍ للنّشور المُستتْبِعُ للجزاء يومَ القيامة، فهم لا يرون للنّفوس نشورًا أصلًا، ومَن كان هذا حالُه فبعيدٌ أن يعترفَ بالجزاء الدُّنيويّ لطائفةٍ كَفَرت، كما هو الحال في إهلاك قومِ لوطٍ، وقد بقيتْ آثارُهم دالَّةً على ذلك الجزاءِ الَّذي أصابهم، عبرةً للمُعْتَبِرين[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 31.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 220.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المطَر والغَيث:

المطرُ أعمُّ منَ الغيثِ، وقد يكون نافعًا أو ضارًّا، والغيثُ لا يكون إلّا نافعًا

الغَيث: هو "المطر الَّذي يُغيث منَ الجَدب وكان نافعًا في وقتِه، والمطَر: قد يكون نافعًا، وقد يكون ضارًّا في وقته، وفي غير وقته"(1).

ولَمّا كان المطرُ مُحتمِلًا لأن يكون ضارًّا؛ فقد استُعير للعذاب؛ حيثُ شُبِّهت الحجارةُ بالمطر من حيث النّزول منَ السّماء، فالسّياقُ سياقُ عذابٍ، فلا يناسبُه التّعبيرُ عنه بالغيثِ المُستعمَل في الخيرِ والنّفع.

السَّوء والسّوء:

السَّوءُ: الضّرُّ والعذابُ، والسّوءُ: ما يسوء، وهو ضِدُّ الإحسانِ

السّوء: بفتح السّين وضمِّها تدلُّ على المكروه والذّمّ(2)، المقابلِ للخير والإحسان، والفرق بينهما: أنّ ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾ "بفتح السّين: الضّرُّ والعذاب، وأمّا بضَمّ السّين: فهو ما يَسوء، والفتحُ هو الأصل، وأمّا السّوء - بالضَّمّ - فهو اسمُ مصدر، فغلبَ استعمالُ المصدر في الَّذي يسوء بضرّ، واستعمال اسم المصدر في ضِدّ الإحسان"(3)، ولَمّا كان استحقاقُ قُرَى لوطٍ الضّرَّ والعذابَ بسببِ فُجورِها وكفرِها وارتكابِها الفواحش، عبّر بلفظ ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾ بفتح السّينِ ليدلَّ على شِدّةِ العذابِ الَّذي أصابهم.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 391.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 391.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 30.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان: 41 - 42]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

من إنكارِ النّبوّةِ إلى الاستهزاءِ بالرّسولِ، مسارُ المشركين نحوَ الضّلالِ

بعد أن أظهَرَ المشركون غايةَ المُبالَغةِ في إنكارِ نبوّةِ الرّسولِ الكريمِ ﷺ فيما سبق من آياتٍ، واختلقوا مختلِفَ الشُّبَه والافتراءات للنّيل من صدقه ودعوته؛ لم يقِفوا عند حدّ إنكار نبوّته؛ بل زادوا على ذلك استهزاءً به، وازدراءً لشخصه الكريم، فكانوا إذا رأَوه يقول بعضُهم لبعض: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؟[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿هُزُوًا﴾: (هزأ): الهُزْءُ: السّخريَةُ، يُقال: هَزِئَ منه، وهَزِئَ به؛ بمعنى: سخِر منه وبه، ومن معاني الهُزْء الاستخفافُ، ومنَ المَجاز: مَفازة هازئة بالرّكْب؛ أيْ: فيها سرابٌ، ويأتي الهُزء بمعنى السّخرية واللّعِب[2]، والاستهزاء مُقترِنٌ بالسُّخرية؛ لأنّ الَّذي يُستهزَأ به يُستهان بشأنه، ويُستخَفّ به وعليه؛ فالاستهزاءُ سُخريةٌ مَعَ استخفافِ قدرِ المُستَهزَأ به[3]، وقوله تعالى: ﴿هُزُوًا﴾ في الآية الكريمة بمعنى السّخريَة منَ الرّسول ﷺ[4].

2) ﴿صَبَرْنَا﴾: (صبر): الصبرُ: حبْسُ النّفْس على ما يقتضيه العقل والشّرع، وتوطينُ النّفس على احتمال المكارِه والمَشاقّ، يُقال: صَبّرتُ الدّابةَ؛ أيْ: حبستُها بلا عَلَف[5]، والصّبر لفظٌ عامٌّ وربَّما

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 461.
(2) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (هزأ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزأ).
(4) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 233، ومكّي القيسيّ، الهداية: 8/ 5227.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبر).

وردَ بمُسمَّيات متباينةٍ بحسَب السّياق الوارد فيه، فحبْس النّفْس لمصيبةٍ ما يُسمَّى صبرًا مُطلقًا، وفي الحرب يُسمَّى شجاعة، وإن كان في نائبة مُضْجِرة سُمّي رحابةَ صدر، والصّبر على إمساك الكلام يُسمّى كِتمانًا، وكلّ ذلك يُسمّى صبرًا في آي الذِّكر الحكيم[1]، ومعنى ﴿صَبَرۡنَا﴾ في الآية الكريمة: "أنّه كاد يَثنيهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتجلَّدوا واستمرّوا على عبادتها"[2].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

ضـلالٌ يتخفَّى وراءَ سخريةِ سُلوكِ المشركين تـجاهَ الـرّسولِ الكريمِ

نزلتْ في أبي جهلٍ ومَن معه منَ المشركين؛ تجسيدًا لسُلوكهم تِجاه الرّسول ﷺ حيثُ كانوا يُظهِرون مزيجًا منَ الهُزْء والسّخريَة من جهة، والخوفَ من جهةٍ أُخرى، فكانوا يسخَرون منَ الرّسول استهزاءً بشخصه الكريم، ودعوتِه المباركة، وذلك دلالةٌ على كفرهم وضلالهم، وعجزِهم عن مواجهة الحقّ، وفي الوقت نفسه كان يُخيّم عليهم الخوفُ من دعوة الرّسول الكريم، وتأثيرِها على عبادتهم للأصنام، فكانوا يُدركون خطورةَ هذه الدّعوة، وأنّها قد تُؤدّي إلى زوال عبادتهم للأصنام، وإسلامِ النّاس، ولولا أنّهم صبَروا على عبادتهم تلك لصُرِفوا عنها[3]، وما ذلك إلّا صبرٌ على الضّلال، فإنّهم سائرون في طريقه، وسوف يرَون العذاب رأيَ العين.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ﴾:

أذَى مُـتـكـرّرٌ لـلـرّسـولِ في غـيـابِـهِ وعـنـدَ رؤيتِه

صُدِّرت الآيةُ من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ بالواو المُؤذِنة بالعطف، فإنّه لَمّا حَكَى عنهم فيما سبق أقوالًا من

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (صبر).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 113.

(3) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 314.

صُنوف الأذى الموجّه للرّسول ﷺ في مَغيبه؛ عطفَ عليها هنا صِنفًا خاصًّا، وهو الأذى حين يرَونه[1].

غرضُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّةِ:

تعليقُ فعلِ الرّؤيةِ على السّخريَةِ منه ﷺ

الجملةُ المعطوفةُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ جملةٌ شرطيّةٌ مُفتَتحَةٌ بـ (إذا)، وهو ظرفُ زمانٍ مُتضمِّنٌ معنى الشّرط لما يُستقبَل منَ الزّمان، خافضٌ لشَرْطه، ويُنصَب بجوابه[2]، يقتضي مُتعلِّقًا به، ويكون هذا المتعلّق جوابًا له، وهو قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[3]، فقد عُلِّق فعلُ رؤيةِ الرّسول بسُخريتِهم منه - تنزّهَ عن ذلك ﷺ - واستعمالُ (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ لإفادة الشّرط، مع أنّ الأداة (إنْ) هي أمّ باب أدوات الشّرط[4]؛ لكنّه آثَرَ (إذا) على (إنْ)؛ لأنّ هذه الأخيرة تَرِد في المعاني الّتي يُحتمل وقوعُها، والمشكوك فيها، أمّا (إذا) فالأصلُ فيها أن تكون لما قُطِع بحصوله، وكثُر وقوعُه[5]، ولَمّا أراد تعالى الإخبارَ عن تحقّق رؤيتِهمُ الرّسولَ ﷺ، واستهزائهم به، والسّخرية منه، أورد (إذا)، وفي ذلك تقبيحٌ لشأنهم، وتبشيعٌ لفعلهم، كما أنّ في إيثار استعمال (إذا) على (إنْ) إشارةً إلى أنّ المشركين لم يتركوا فرصةً يرَون فيها الرّسول ﷺ إلّا اهتبَلوها في السّخرية منه، والاستهزاءِ به؛ لأنّ (إذا) تُفارق (إنْ) بأنّها تُؤْذِن بتحقُّق جوابِ الشّرط[6]، فرُؤيتُهم له ﷺ حُجّةٌ للاستهزاء به.

دلالةُ التّعبيرِ بالرّؤيةِ وعَوْدُ الضّمائرِ في قولِه: ﴿رَأَوۡكَ﴾:

الرّؤيةُ عِلّةٌ للاستهزاءِ، وآيةٌ على الحِقدِ والكراهيَةِ لدى المشركين

معنى الرّؤيةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 31 - 32.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 459.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 32.
(4) العُكْبَريّ، اللّباب في علل البناء والإعراب: 2/ 50.
(5) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 69 - 71.
(6) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 59.

يُستدَلُّ بها على مشاعر الحِقد والكراهية للرّسول ﷺ، المُسيطرةِ على المشركين، فالضّميرُ راجعٌ إليهم؛ فهم حاضرون دائمًا بالمُجادلة والمُهاترة والفتنة[1]، فكلّما رأَوه احتقروه، وهم المُحَقَّرون، وسخروا منه، وهم أهلٌ للسُّخرية، وتعالَوا عليه، وهم الأسفلون؛ فقد أعماهم الشّيطانُ، فزيّن لهم سوءَ أعمالِهم[2]، فكانتِ الرّؤيةُ عِلّةً لاستهزائهم به ﷺ، كما أنّ التّعبير بفعل الرّؤية ينطوي على لمسةٍ بلاغيّة لطيفة؛ فإنّ رؤيتَهم له ﷺ تُخبرُهم بما يعلمون من صدق حديثه وكرمِ أفعالِه ونجابةِ خصالِه ولو لم يأتِهم بمعجزة، فكيف وقد جاءهم بما يبهر العقولَ، ويأخذ الألبابَ[3]، ومع ذلك فإنّهم كانوا يسخرون منه، وهي سخريةٌ لم تكن صادرةً عن عدم إيمانهم بصدقه، أو نقصِ الأدلّة على ذلك؛ فهم معترِفون بفضله وشرفِه ونَسَبِه؛ بل عن حِقدٍ وكراهيَةٍ عميقيْن يملكانِ قلوبَهم، وهما الدّافع في عداوته ومُعانَدته[4].

معنى ﴿إِن﴾ ودلالتُها في ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾:

ما من أحوالِهم وأقوالِهم غيرُ السّخريةِ والاستهزاءِ

تَرِد (إِنْ) في كلامِ العربِ على معانٍ كثيرةٍ، ومن هذه المعاني الجُحْدُ والنّفيُ[5]، والواردُ في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ من هذا القَبيل؛ والمعنى: ما يكون من أمرهم إلّا أن يقولوا لك قولًا دالًّا على السّخرية والاستهزاء فيما بينهم[6].

دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ الاتّخاذِ، وبيانُ مفعولَيْه:

غرضُهم اتّخاذُ الرّسولِ موضعَ هُزْءٍ

استُعمل فعلُ الاتّخاذ في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ للدّلالة على الاستهزاء به ﷺ، والأصلُ فيه أن يتّخذوه موضعَ هُزْءٍ، أو

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5284.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 57.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 391.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/ 34.
(5) الرّمّانيّ، معاني الحروف، ص: 6.
(6) الماتُريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 2/ 539.

مَهْزوءًا به[1]؛ فالمفعولُ الأوّل ضمير الخطاب المُتَّصل بفعل الاتّخاذ، والمفعول الثّاني هزؤًا، أو موضعَ هزءٍ على التّقدير الأوّل[2]، وقد تجلَّى حقدُ المشركين وكراهيَتُهم للرّسول الكريم ﷺ في سخريتهم المُتعمَّدة منه، ممّا يُعَدّ مبالغةً في إنكار نُبوّته، وتفنيدًا للشُّبهات الَّتي أثاروها حولَ صدقِ رسالته، فلم يكتفوا برفض الإيمان به؛ بل زادوا على ذلك سخريَةً واستهزاءً به[3]، ممّا يُؤكّد عمقَ الحقدِ الَّذي كان يملأ قلوبَهم، وفي فعل الاتّخاذ تصويبُ المشركين سهامَ السّخرية المتعمَّدة نحو الرّسول الكريم، كلَّما لاحت لهم فرصةٌ، وكأنّه غرضٌ ثابتٌ لا يَملّون من استهدافه، فذلك سلوكُهم المعتاد معه، ودأبُهم المستمرّ، ممّا يُجسِّد شناعةَ عملهم، ويُظهِرُ بشاعةَ جُرمِهم المُتواصل[4].

سِرُّ إسنادِ فعلِ الاتّخاذِ إلى الضّميرِ المجموعِ:

استهزاؤهم الجماعيُّ برسولِ اللهِ دلالةٌ على عُمقِ حقدِهم وكراهيتِهم

أُسنِد فعلُ الاتّخاذ إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ للإشارة إلى أنّ سخريةَ الكافرين منَ الرّسول ﷺ لم تكن سخريةَ أفرادٍ قلائل؛ بل كانت سخريةَ جماعاتٍ كاملة، سواء في مجالسِهم الخاصّة، أو في منتدياتِهم العامّة[5]، وذلك دالٌّ على عُمق حقدِهم وكراهيتِهم، ويجوز أن يكون القائل أبا جهل، والآيةُ نازلة فيه، وكان إذا رأى الرّسول ﷺ قال مقولتَه تلك، والتّعبير عن الواحد بالجمع فيه تعظيم لقُبح صنعِه، ونَكارةِ فعلِه[6]، وأورِدَ فعلُ الاتّخاذ في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ بصيغة المضارع؛ لأنّهم لَمّا كان دأبُهم ووكْدُهم أن يسخروا منَ الرّسول ﷺ كلّما رأَوه،

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 281.
(2) السَّمين، الدّرّ المصون: 8/ 485.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 461.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 29.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 32.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 109.

كان استعمالُ المضارع مُؤذِنًا بتحقّق تكرار السّخرية منه كلّما تحقّق موجِبُه، وهي الرُّؤية[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بأسلوبِ القَصْرِ بطريقِ النّفي والاستثناءِ:

قَصَروا معاملتَهم معَ الرّسولِ باتِّخاذِهم إيّاه هُزُؤًا

استعمالُ ﴿إِن﴾ النّافية كـ(ما) مع ﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ لإفادة القصر[2]؛ "أيْ: ما يتخذونك إلّا مَهزوءًا به، على معنى قَصْر معاملتهم معه ﷺ على اتّخاذهم إيّاه ﷺ هُزؤًا ... كأنَّه قيل: ما يفعلون بكَ إلّا اتّخاذك هزؤًا"[3]، والنّفيُ والاستثناء دالّان على الحصر، فليس في وكْدهم إلّا السّخرية منه ﷺ - حاشاه وتَنزَّه عنه - فقد جاء القَصْر تشنيعًا عليهم بانحصار اتّخاذهم إيّاه في الاستهزاء به، فهم مُلازمون له، دائبون عليه، ولا يَخلِطون معه شيئًا من تَذَكُّر أقواله ودعوته، ففيه استثناءٌ من عموم الأحوالِ المَنفيّةِ، فكأنَّهم لا يتّخذونه في حالة ما إلّا في حالةِ الاستهزاء[4]، وذلك مُنتَهى القُبح، وغايةُ الشّناعةِ منهم والبشاعةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمصدرِ في قولِه: ﴿هُزُوًا﴾:

بالَغوا في استهزائِهم بالرّسولِ فجعلوه الهُزءَ نفسَه تمحيصًا له

قولُه تعالى: ﴿هُزُوًا﴾ مصدرُ هَزَأَ به هُزْءًا وهُزُؤًا، وهو مصدر بمعنى المفعول، ووَصْفُ الرّسولِ ﷺ به يُفيد المُبالَغةَ في بيان شِدّة استهزاء الكفّار به[5]؛ وذلك لأنّهم لم يكتفوا بالسّخريَة منه؛ بل جعلوها صفةً مُلازمة له، وكأنّه هو الهُزْء نفسُه، تمحيصًا له ﷺ[6]؛ لدلالة المصدر على الحَدَث، خالصًا من أيِّ شائبةٍ.

توجيهُ المتَّشابِهِ اللَّفظيِّ:

بين قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 59.
(2) ابن مالك، شرح ابن النّاظم على ألفيَّة بن مالك، ص: 82.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 220.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 32.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 391.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 32.

الإظهارُ والكنايةُ في وصف الكفّار، دلالةٌ على الاختلافِ في السّياقِ والموقفِ

[الأنبياء: 36]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ تشابُه لفظيٌّ، ولعلّ سائلًا يسأل عنِ الفرق بينَ الآيتيْن من جهة إظهارِ الفاعِليْن في الأنبياء، وإضمارِهم في الفرقان؟ والجوابُ عن ذلك: أنّ ما سبق في آية الأنبياء هو قولُه تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35]، فليس فيها ذِكْرٌ للكافرين؛ فكان الاختيارُ في هذا الموضع الإظهار، أمّا آيةُ الفرقان فقد سبقها قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾؛ أيْ: ألم يرَ الكافرون ذلك فيحذَروا، فلمّا ذَكَرهم هنا فيما قَرُب منَ الكلام، اختار الكنايةَ والإضمار[1].

نُكَتُة فصلِ قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾:

استهزاؤهم القوليُّ بيانٌ لاتّخاذِهِ هُزوًا

جملةُ ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، فإنّه لَمّا ذُكِرَ قولُه تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، يَرِد في الذّهن سؤالُ سائلٍ مَفادُهُ: فماذا يقولون تعبيرًا عن هُزْئِهم؟ فيكون الجوابُ هذه الجملة[2]، فبينَ الجُملتيْن شِبه كمالِ اتّصال.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

استعمالُ أسلوبِ الاستفهام الإنكاريّ[3] في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؛ الغرضُ منه نفيُ أن يكون الحقُّ ﷻ قد بعث محمّدًا ﷺ رسولًا[4].

غرضُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ القريبِ ﴿أَهَٰذَا﴾:

الاستحقارُ والإنكارُ للمبعوثِ لا البَعْثةِ

التّعبيرُ باسم الإشارةِ ﴿أَهَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ مُرادٌ به التّحقيرُ، مع إبراز بَعْثِه ﷺ كأنّه أمرٌ مُسَلّم به،

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/ 901 - 902، والكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 178.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 23.

(3) هو الاستفهام الّذي يُساق لمعنى النّفي، ينظر: الدّسوقيّ، حاشية الدّسوقيّ على مختصر المعاني: 2/ 389.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 32.

مع أنّهم على الغاية منَ الإنكار لبعث الرّسول، لكنّه من باب التّهكّم والسّخريَة، وإلّا لقالوا: أبعثَ اللّهُ هذا رسولًا[1]، لكنّهم لو فعلوا ذلك لكان إنكارُهم واقعًا على البَعثة دونَ المبعوثِ، واستعمالُ اسم الإشارة ﴿أَهَٰذَا﴾ هنا عَكَسَ الأمرَ؛ لأنّ أداة الاستفهام يليها المُستفهَمَ عنه إنكارًا أو تقريرًا[2]، ولسانُ حالِهم يُقول: إنّ هذا الشّخصَ قريبٌ منّا، ونعلم مِن أموره حَقّ العِلْم، فلا نقبَل منه أن يدّعيَ الرّسالة، ولا أن يَذْكُرَ آلهتَنا بسوءٍ[3].

غرضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

عُبِّر بالاسم الموصولِ في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؛ لأنّهم يريدون إبرازَ أنّ الحقّ ﷻ بعثَ محمّدًا ﷺ رسولًا، فالبعثُ صفتُه ﷺ[4]؛ للإشعارِ بأنّ استفهامَهم الإنكاريّ مُعلَّلٌ بما في حيِّزِ الصّلةِ مِن بَعْثِهِ تعالى له رسولًا ونبيًّا.

استفهامُهم الإنكاريُّ مُعلَّلٌ بما في حيّزِ الصّلةِ مِن بعثِهِ تعالى له رسولًا

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿بَعَثَ﴾، وإسنادُه إلى ﴿ٱللَّهُ﴾:

عُبِّر بالفعل الماضي في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؛ إخراجًا لكلامهم مَخْرَجَ التّسليم والإقرار، وتوطئةً لجُحودهم، وفي إسناده للاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لاستجماع الحقّ ﷻ لنُعوت العَظَمة والقُدْرة[5].

تسليمٌ بالبَعث منَ الحقّ تعالى المستجمِعِ لنُعوت العَظَمة

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ الفعلِ ﴿بَعَثَ﴾:

الفعل ﴿بَعَثَ﴾ مُتعَدٍّ بنفسه، يُقال: بعَثَه كمَنَعَه؛ بمعنى: أرسله[6]، وفي قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ حُذِف المفعول من ﴿بَعَثَ﴾، وهو عائدُ الموصول، والتّقدير: (بعثه)، على أن يُجعَل

مطابقةُ اللّفظِ لِما في قلوبِهم منَ الجُحْدِ والإنكارِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 220.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 32، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 58.
(3) أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 107.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 220.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 391.
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (بعث).

﴿رَسُولًا﴾ مُنتصِبًا على الحاليَّة، أو المصدريَّة تأويلًا أو تحقيقًا[1]، ونُكْتَةُ حذفِ المفعول مِنَ الفعل ﴿بَعَثَ﴾ أنّهم لَمّا أنكروا رسالتَه في الحقيقة، زادوا عليها إنكارَها في اللّفظ، بحذف الضّميرِ العائد عليه ﷺ؛ ليُطابقَ اللّفظُ ما في قلوبهم مِنَ الجُحْد والإنكار[2].

الغرضُ من تنكير ﴿رَسُولًا﴾:

سياقُ كلامِهم في الاستهزاءِ والسّخريةِ والتّقليلِ من شأنِ الرّسولِ

في إيرادِ لفظِ ﴿رَسُولًا﴾ مُنَكّرًا في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، تناسُبٌ مَعَ السّياق الوارد فيها؛ فالتّنكيرُ هنا جاء لغرض الاستهزاء والسّخرية، والتّقليلِ من شأن الرّسول ﷺ، فإنّهم يُنكرون كونَه رسولًا مِنَ اللّه تعالى، فضلًا عن إنكارِ صفاتِه الحميدة، ومكانته العالية.

نُكْتَةُ فصلِ قولِه: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾:

استئنافٌ على معنى الإعجابِ بصنيعِهم في عدمِ الانصرافِ عن معبوداتِهم

جملةُ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ فُصِلَت عمّا سبقها مِنَ الجُمَل؛ فهي استئنافيّةٌ[3]، يُراد منها الإعجابُ من أنفسهم، وتفاخرُهم بتصلّبهم في دينهم، وأنّهم كادوا أن يتّبعوا دعوةَ الرّسول بما يُلقيه إليهم مِنَ الإقناع والإلحاح، فكان تأثّر أسماعِهم بأقواله يوشِك بهم أن يرفضوا عبادةَ الأصنام لولا أنّهم تريَّثوا، فكان في الرّيث أن أفاقوا من غشاوة أقواله، وخَلابة استدلاله، واستبصَروا مَرآه، فانجلى لهم أنّه لا يستأهِل أن يكون مبعوثًا من عند اللّه[4]، وحالُ هذه الجملة مع ما قبلَها حالُ الصِّفة مَعَ الموصوف، والتّأكيدِ مع المُؤكّد، فلا يحسُن فيها عطفٌ البتّة، فهي مُنَزّلة مع ما قبلها مَنزِلةَ الشّيء الواحد، والشّيءُ لا يُعْطَف على نفسه[5]، فمقاربتُهمُ الضّلالَ عن آلهتِهم مُسَبَّبةٌ عن دعوته ﷺ، بأن بعثَه اللّهُ رسولًا.

(1) السَّمين، الدّرّ المصون: 8/ 485.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 59.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 33.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 33.
(5) العلويّ، الطّراز: 2/ 30.

نُكْتَةُ دخول ﴿إِن﴾ على ﴿كَادَ﴾:

مُجاهَدةٌ دؤوبةٌ ودعوةٌ مخلصةٌ لهدايةِ المشركين حتّى أشرفوا على تركِ ضلالِهم

﴿إِن﴾ الدّاخلةُ على ﴿كَادَ﴾ في قوله: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ تُفيد التّوكيد(1)، والمُراد توكيدُ مقارَبةِ المشركينَ من أن يصرفهم عن عبادة آلهتهم لولا صبرُهم، وفي هذه المقاربة مَلمحٌ بلاغيٌّ غايةٌ في اللّطافة؛ فمنه يُسْتَدلّ على فرْط مجاهدتِه ﷺ في الدّعوة، وبَذْلِه غايةَ الوُسعِ وجَهْدَ الطّاقةِ في استعطافهم، وتبيينِ الآيات والمعجزات لهم، حتّى شارفوا أن يتركوا ما هم عليه منَ الضّلال إلى دين الهُدى والرّشاد(2)، أو أنّها بمنزلة (ما) النّافية، واللّام بمعنى (إلّا) فيكون التّقدير: (ما كاد إلّا يضلّنا)(3)، وفيه تعبيرٌ عن شِدّة الخطر المُداهِم بحسَب زعمِهم، وأنّهم كانوا قريبين منَ الضّلال، بأن يُصرَفوا عن آلهتهم، وكاد أن يُسقطَهم هذا الضّلالُ، ولا يَقِلُّ هذا التّعبير بلاغةً وتوكيدًا عنِ الوجه الأوّل، بجامِعِ استعمالِه النّفيَ والاستثناءَ الّذي يُفيد الحَصْر.

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿لَيُضِلُّنَا﴾:

توكيدُ مقاربتِهمُ الإيمانَ بدعوةِ الرّسولِ

من مَواضِع اللّام في كلام العرب أنّها تَقتَرِن بخبر ﴿إِن﴾ المُؤكِّدة المُخفَّفة منَ الثّقيلة؛ درءًا لاشتباهها بالنّافية(4)، وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿لَيُضِلُّنَا﴾، ومعناها هنا التّوكيدُ والتّحقيق؛ فإنّه ﷺ لَمّا قَرُب وأوشك من تحقيق مُرادِه بإيمانهم بعد أن بذل الوُسع في دعوتهم، ما كان منهم إلّا تأكيدُ تلك المُقارَبة.

بلاغةُ التّعبيرِ بالاستعارةِ:

أضلّهمُ الرّسولُ بحسَبِ زعمِهم عن طريقِهم الصّحيح

الفعلُ ﴿لَيُضِلُّنَا﴾ مُستعمَلٌ بمعنى: (يصرفنا عمّا نعبد منَ الآلهة الَّتي نُؤمِن بها)، فهو بذلك مُستعمَل على طريقة الاستعارة، وهو أنّ الرّسول ﷺ قد سوّل لهم أن ينصرفوا عن عبادة آلهتهم بما جاء به

---

(1) العُكْبَريّ، التّبيان: 2/ 987.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 281.
(3) ابن الأحنف، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 1/ 382.
(4) الزَّجّاجيّ، اللّامات، ص: 113 - 114.

منَ الحُجَج البيِّنات؛ فأضلّهم بحسب زعمهم عن طريقهم الصّحيح، وهو تشبيهٌ مُناسِب لاستعارةِ النّأي عن السَّبيل الَّذي يزعمونه، والتّعبيرُ بالإضلال في قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ فيه دلالةٌ على عُمق تناقضهم، وشِدّة اضطرابهم، فقد كان منهم في استفهامِهم السّابق ما يَشي بتحقيرهم واستصغارهم له ﷺ، وفي خشيتِهم من أن يُضلَّهم عن عبادة آلهتهم ومُقاربتِهم ذلك ما يدلّ على قوّة حُجّته، ورجاحَة عقله، فلا يستقيم هذا مع ما تقدّمَ من استفهامهمُ الإنكاريّ، إلّا على أنّه قد ساقَه تحميقًا لهم، وتجهيلًا لاستهزائهم[1].

معنى ﴿لَوْلَآ﴾ ودلالتُها:

قيّدوا مقاربتَهمُ الإيمانَ بدعوتِه، بـصـبرِهـم على عبادةِ آلهتِهم

﴿لَوْلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ﴾ حرفُ امتناعٍ لوجود[2]، ومعناها "في مثل هذا الكلام جارٍ - من حيثُ المعنى لا من حيثُ الصّنعةُ - مجرى التّقييد للحُكم المُطلَق"[3]؛ فالحُكْم: هو مقاربتُهمُ الإيمانَ به، المُعَبَّر عنه بالضّلال، والتّقييد: هو صبرُهم على عبادة آلهتِهم.

بلاغةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّة، وبيانُ فعلِها وجوابِها:

لــولا صـبرُهـم لأضلّـهـم عن آلـهـتِـهـم الّـتي يعبدون

قولُه: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ﴾ شرطٌ وجوابٌ، والشّرطُ مُصَدَّر بـ ﴿لَوْلَآ﴾ الامتناعيّة، امتنع الجوابُ لوجود الشّرط، وقد حُذِف جوابُ ﴿لَوْلَآ﴾؛ لدلالة ما قبلَها عليها[4]؛ فالتّقدير: لولا أن صَبَرْنا عليها إن كاد لَيُضلّنا عن آلهتنا؛ أيْ: قد كاد يُضلّنا عن آلهتنا، وتتجلّى بلاغةُ التّعبير بهذا الأسلوب في إظهار قوّة حُجّة النّبيّ ﷺ في بيان بُطلان اتّخاذهمُ الأصنامَ آلهةً، لدرجةٍ جعلتهم يتكلّفون صبرًا خاصًّا للثّبات عليها، وأنّ قوّة الحُجّة كادت

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 19.
(2) أبو حيّان، ارتشاف الضّرَب: 4/ 1904.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 281.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 33.

تُزَحْزِحُهم، والتّعبيرُ بالجملة الاسميَّة دالٌّ على الثّبات والتّحقّق، وأنّ مقولتَهم تلك مُؤذِنةٌ بمُضيّهم في ضلالهم وكفرهم، وفي نظم الآية على هذا المِنوال بحذف جواب الشّرط والابتداءِ بما يدلّ عليه دونَ أن يُؤتى بأداة الشّرط أوّلًا، ثمّ يتلوها بجوابِها، بأن يقول: لولا صَبْرُنا على آلهتنا لأضلّنا عنها، الغايةُ منه: العنايةُ بالخبر ابتداءً، بأنّه حاصلٌ مُتحقِّقٌ، ثمّ يورِدُ الشّرطَ بعدَه للاهتمام، وتقييدِ الخبر بعد إطلاقه[1].

سِرّ إسنادِ فعلِ الصّبرِ إلى ضميرِ الجماعةِ:

اجتماعُ أهلِ الكفرِ وتعاضُدُهم وتكاتُفُهم

استُعمِل فعلُ الصّبر مُسنَدًا إلى ضمير جماعة المتكلِّمين في قوله تعالى: ﴿صَبَرۡنَا﴾؛ للاستدلال على اجتماعِهم وتعاضُدِهم وتكاتُفِهم[2]، ولولا ذلك لَما تحقَّقَ لهم ذلك من بقائهم على عبادة آلهتهم، وعدمِ إجابتِهم دعوتَه ﷺ.

التّعبير عنِ الثّبات على عبادة الآلهة بالصّبر عليها:

ثابتون على الضّلال، مُستقرّون فيه، مُستمرّون عليه

التّعبير بقوله: ﴿لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾ يدلُّ على أنّهم ثابتون على عبادة آلهتهم، فإنّ معنى الصّبر أن يستمرّوا على ما هو شاقّ على النّفس منَ الأعمال، وقد عُدّيَ فعلُ الصّبر بحرف الاستعلاء (على)؛ لاقتضائه الثّباتَ على الشّيء، والتّمكّنَ منه، والاستمرارَ عليه[3]، تشبيهًا لِمَن اعتلى شيئًا وركبَهُ واستقرّ عليه، ويجوز أن يكون الصّبرُ في الآية بمعنى الحبس؛ أيْ: حبسوا أنفسَهم على عبادة الآلهة الباطلة، فإنّهم لَمّا اتّخذوا التّقليدَ الأعمى، والتّعصّبَ الأهوجَ طريقًا لهم، كانوا يحاولون إبطالَ الحقّ وتأييدَ الباطل؛ فحبسوا أنفسَهم على الباطل حبسًا، ولولا ذلك الحبسُ لاتّبعوا الحقّ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 33.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 392.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 33.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5285.

معنى الواو ودلالتُها في قولِه: ﴿وَسَوْفَ﴾:

عطفٌ على ما تقديرُه: (فسوف يرَون)؛ تهديدًا لفظاعة فعلِهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاطفةٌ، فقد عَطفتْ هذه الجملةَ على ما تقديرُه: (فسوف يرَون)، أو (مَن يرى منهم)؛ لأنّه يلزَم من قولِهم السّابق أنّ الأصنام تُغني عنهم، فكان أن نفاه مع توكيد التّهديد؛ لشناعة فعلهم[1]، بأن يُقال: فسوفَ يرَون، ثمّ عطف عليه ﴿يَعْلَمُونَ﴾ المُقترِنَ بالتّسويف.

دلالةُ دخولِ حرفِ التّسويفِ:

لن ينفعَهم العملُ وإن طالت مُدّةُ الإمهالِ والتّمكينِ

الأصل في (سَوْفَ) أنّها حرفُ تنفيس؛ أيْ: توسيع، وقد يُستعمل في التّهديد والوعيد[2]، وقولُه تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ من هذا الضّرب، فهي تُشير إلى أنّ المشركين سيُدركون عواقبَ ضلالِهم وكفرِهم يومَ القيامة، وذلك حينَ لا ينفعهم عملُهم مهما طالت مُدّة الإمهال والتّمكين في الدّنيا[3]، ويُفيد (سَوْفَ) أيضًا في توكيد وقوعِ الفعل مُستقبَلًا، فإنّهم سيعلمون عِلْمًا مُؤكّدًا أينَ حَلّ الضّلال؟ أمعَ مَن يهدي ويُرشد، أم مع مَن يعبُد أحجارًا لا تنفع ولا تضرّ؛ فستعرفون الحقَّ الواضحَ الأبلج حينَ رُؤيتِكمُ العذابَ، وهو آنئذٍ عِلْمُ ندمٍ وتحسّر[4].

دلالةُ التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وبيانُ مفعولَيْه:

تهديدٌ ووعيدٌ يدورُ حيثُ تدورُ العِلّةُ

استُعمل الفعلُ المضارعُ في قولِه تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ للإشارة إلى التّهديد والوعيد[5]؛ ليجريَ الحُكم على أشباههم في كلّ زمانٍ وأوانٍ، ويدورَ معهم دورانَ الحُكمِ مع العِلّة، وجملة: ﴿مَنْ أَضَلُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 392.
(2) ابن الصّائغ، اللّمحة في شرح الملحة: 1/ 114.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 392.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5285.
(5) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 19/ 433.

﴿سَبِيلًا﴾ سَدّتْ مَسَدَّ مفعولي عَلِمَ؛ لأنّها جملة مُصَدَّرة بالاستفهام[1]؛ لِما يقتضيه فعلُ العِلْم مِنَ الاحتياجِ إلى مفعولَيْن.

سِرُّ التّقييدِ بالظّرفيّةِ وتقديمِها في ﴿حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾:

رؤيــةُ الـعـذابِ وعيدٌ للظّالمين، وتنبيهٌ بالإمهالِ لا الإهمالِ

لَمّا توعّدهمُ اللّهُ تعالى بأنّهم سوف يعلمون من ضلّ السّبيل ممّن هو على الطّريق الصّحيح، قَيَّد عِلْمَ ذلك بوقتٍ محدّدٍ فقال تعالى: ﴿حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾، "وفي تقييد العِلْم بوقت رؤيةِ العذاب وعيدٌ لهم، وتنبيهٌ على أنّه تعالى لا يُهملهم، وإن أمهلهم"[2]، وفي اقتران تسويف علمهم بظرفيّة رؤيتِهمُ العذابَ فائدةٌ ولطيفة، وهي أنّ قولَه تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ قد لا تُنزّل منهم منزلةَ الجِدّ والحقيقة، لكنّهم ﴿حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ سيتكوّن لديهم علمٌ حقيقيٌّ[3]، يُفرّقون فيه بينَ الضّالِّ والمُهتدي، وفي تقديم الظّرف بيانٌ لوقت العذاب وأثرِه في تنديم الكافرين، وعنايةٌ به، ومسارعةٌ بتهديدهم بوقت رؤية العذاب، والتّعبير بفعل الرّؤية، وهي معايَنة العذاب، مُتضمِّنٌ الوعيدَ بعذاب السّيف النّازلِ بهم يومَ بدر، وممّن رآه أبو جهل سيّدُ أهلِ الوادي، وزعيمُ القالَةِ في ذلك النّادي[4].

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

هـــولُ يـــوم القيامةِ، وشِدّةُ عذابِ الكافرين

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ من قوله تعالى: ﴿حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ دالَّةٌ على العهد؛ لأنّ معنى العذاب هنا يوم القيامة[5] الَّذي سيُحاسَبون فيه على أعمالِهم، وهو يومٌ عظيمٌ شديدٌ على الكافرين، مَليءٌ بالرَّهبة والفزَع، ويجوز أن تدلَّ على عذابِهم الَّذي حَلّ بهم يومَ بدر[6]؛ فقد رأوا بأمِّ أعينِهمُ العذابَ الشّديد الَّذي يُدرِكون من

(1) الخرّاط، المُجتبى: 3/ 819.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 24.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 583.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 34.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 539، والقنّوجيّ، فتح البيان: 9/ 312.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 35.

خلاله مَن هو الضّالُّ، أَهُم أم مَن يَنسبون الضّلالَ إليه - حاشاه ﷺ، ويجوز أن تكون (أل) في لفظة ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ دالّةً على الجِنس؛ لاستغراق جميع أنواع العذاب الواقع عليهم، فيَنالوا نصيبَهم من جحيم الدّنيا وجحيم الآخرة عذابًا مضاعفًا[1].

الموقعُ النّحويّ لقوله: ﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ودلالتُه:

سـيُـدركـون يقينًا أنّهم في الضّلالِ المُبين، لا يسبقهم أحدٌ

وقَع قولُه تعالى: ﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ موقعَ النّصب في كونِها جملةً تسُدُّ مَسَدّ مفعول أو مفعولي ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ الَّتي تقتضي مفعولَيْن، أو مفعولًا واحدًا[2]، وإنّما لم تستوفِ مفعولَها أو مفعولَيْها لتعليق عملها بالاستفهام، والمعنى: أنّهم سوف يعلمون يقينًا بانكشاف حقيقة ضلالِهم أنفسِهم، وأنّه لا أحدَ أضلّ منهم[3]، وبجانب الموقع النّحويّ فإنّ قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يقع موقعًا دلاليًّا؛ فهو كالجواب لقوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾؛ لأنّ ما سبق في قوّة السّؤال، وليس سؤالًا صريحًا، فهو في قوّة قولهم: أنحن في ضلالٍ أم الرّسول؟[4].

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

أيّ عمًى أصابَ أبـصـارَهـم فأضلَّهم عن نورِ الحقِّ؟!

قولُه تعالى: ﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ جملةٌ استفهامية[5]، وهو استفهام إنكاريّ، بأنّهم ضلّوا عنِ الصّراط المستقيم، واتّبعوا طريقَ الشّيطان؛ فكان أن وبَّخهم على ما كان من جهلِهم، وأنّهم سينالون جزاءً واقعًا، وعذابًا أليمًا؛ تأكيدًا على عواقب أفعالهم في جَنب النّبي ﷺ في الدّنيا[6].

نُكْتَةُ التّعبير باسم التّفضيل ﴿أَضَلُّ﴾:

تـهـكُّـمٌ مـن الضّالّ، وإرخاءُ العِنان له كي يعودَ عن خَطَئه

التّعبيرُ باسم التّفضيل في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ واردٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 392.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 109 - 110.
(3) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 1/ 195.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 14/ 104.
(5) السَّمين، الدُّرّ المصون: 8/ 486.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5285.

على أسلوب التّهكّم، بجَعْل ما ينكشف عنه المستقبلُ هو معرفة مَن هو أشدّ ضلالًا منَ الفريقيْن، وهي طريقة في المُجاراة، وإرخاء العِنان للمُخطئ حتّى يقفَ عند حدود خطَئِه[1]، ويجوز في معنى اسم التّفضيل ﴿أَضَلُّ﴾ أن يكون دالًّا على مُطلق الزّيادة في الضّلال؛ أي: البالغ غايةَ الضّلال، وهو أن يكون الموصوف به ضالًّا ومُضِلًّا في الوقت نفسه[2].

بلاغةُ المَجازِ العقليّ في إسناد الضّلال إلى السّبيل:

وُصِفَ السّبيلُ بالضّلال، والمُراد السّالكون فيه

وَصْفُ السّبيلِ بالضّلال في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من باب المجاز العقليّ، وعلاقتُه المكانيّة، والمُراد: مَن يسلك السّبيلَ، لا السّبيلُ نفسُها[3]، وقد وُصِف السّبيلُ بالضّلال، والمُراد السّالكون فيه؛ للإيماء إلى فداحة خسارتهم، فلم يعد سبيلُهم طريقًا موصِلًا فحسْب؛ بل تحوّل إلى وادٍ سحيقٍ يَلفُّه ضبابٌ كثيفٌ، يحجُب عنهم نورَ الحقّ، ويحيطُ بهم من كلِّ جانبٍ.

الغرضُ من تنكيرِ ﴿سَبِيلًا﴾:

أورِد لفظُ السّبيل نكرةً مُبهَمًا في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ للإشارة إلى أنّ كلّ سبيل ضالّ هو سبيلٌ مُؤدّ إلى الهلاك؛ فيشمل أنواعَ الضّلالِ كلَّها؛ فالتّنكير للتّعميم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهُزْءُ والسُّخْريَةُ:

الهُزْءُ: تصغيرُ القَدْرِ قولًا، والسّخريَة: طلبُ الذِّلَّةِ بالتّسخيرِ

الهُزْءُ: القول المقصود منه صِغَرُ القَدْر بما يَظهر في القول[4]، وأمّا السُّخريَة فطَلَبُ الذّلّة؛ وهي منَ التّسخير، على معنى التّذليل،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 34.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 14/ 105.
(3) الكرمانيّ، غرائب التّفسير وعجائب التّأويل: 2/ 817.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 275.

وقد كانت سخريتُهم منَ الرّسول ﷺ قَوليّةً، وآية ذلك أنّهم يقولون له: أهذا الَّذي بعثَه اللّهُ إلينا رسولًا من بين خَلقِه[1] كما أخبر القرآنُ عنهم؛ ولذلك كان التّعبير بالهُزْء أنسبَ في هذا المقام.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 458.

المحتويات

